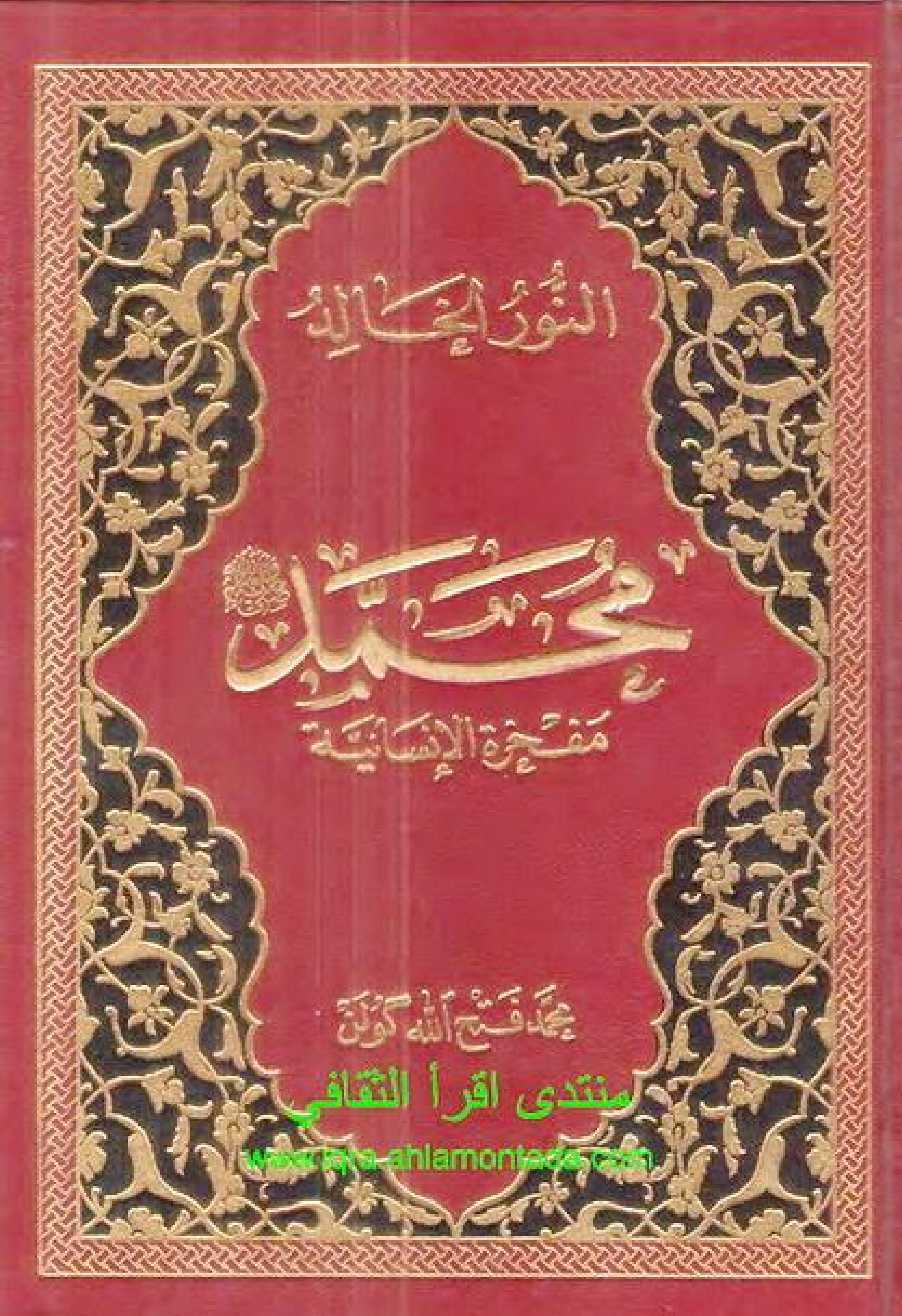

النور الخالد
محمد ﷺ
مفخرة الإنسانية
محمد فتح الله كولن


منتدى إقراء الثقافي

ترجمة كتاب

Sonsuz Nur

عن التركية



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة السابعة: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

DAR AL-NILE

Emniyet Mah. Huzur sk. No: 5

34676 Üsküdar İstanbul / Türkiye

Tel:+90 216 3184288 Faks: +90 216 3185220

مركز التوزيع / فرع القاهرة

٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر- القاهرة

تليفاكس: 0020226712032 - 0020222631551

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

www. ar.fgulen.com

النور الخالد

محمد ﷺ

مفخرة الإنسانية

المؤلف

محمد فتح الله گولن

المترجم

أورخان محمد علي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بين يدي سيرة المصطفى ﷺ

كلما رأيت كتابا جديدا فى سيرة المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين، صاحب الخلق العظيم؛ محمد بن عبد الله ﷺ، تواردت على خواطرى العديد من الأفكار.. منها - على سبيل المثال-:

• أن سير العظماء وتواريخ القادة وأخبار المصلحين والعلماء والمفكرين والفلاسفة عبر كل الحضارات وعلى مر التاريخ تكتب -هذه السير- وتختم، ولا يعود فيها مجال للمزيد أو الجديد.

لكن سيرة رسول الله ﷺ، قد كانت ولا تزال وستظل ميدانا مفتوحا للتأليف والإبداع الذي يكتشف في هذه السيرة العطرة المزيد والجديد.. حتى لكأنها نبع متجدد وكتاب مفتوح يكتشف فيه العقل المبدع مالم يكتشفه الأسلاف.. وذلك بقدر ما يتحلى هذا العقل بالوعى والإخلاص والحب والولاء.

حدث ذلك على مر تاريخ الإسلام، في الإطار الإسلامي، ومن قبل نفر من غير المسلمين. فرغم الكم الهائل من الكتب والمجلدات التي كتبت في هذه السيرة العطرة، كانت ولا تزال معطاءة للمزيد من الجديد.

إذن، فنحن أمام فرادة و تميز وامتياز، اختصت بها سيرة الرسول ﷺ، وهى فرادة تحتاج إلى تفسير وتعليل.

• كذلك، وجدنا ونجد فى كل تواريخ العظماء والقادة والعباقرة والمصلحين تناقص أتباعهم ومريديهم وعشاقهم ومحبيهم مع توالي السنين والقرون، بمن في ذلك الرواد الذين تكونت من حول دعواتهم ومبادئهم وسيرهم ديانات وضعية. فأتباع "مانى" (٢١٥-٢٧٦م) وأتباع "زرادشت" (٥٨٣ ق.م) يقتربون الآن من الزوال. وأتباع "بوذا" (٥٦٦-٤٨٦ ق.م) هم الآن أقل بكثير جداً مما كانوا عليه فى سالف الأزمان.

بل إن هذا القانون قد سرى حتى على أتباع الرسل الذين سبقوا رسولنا ﷺ، على درب

النبوات والرسالات. فأتباع موسى عليه السلام -من اليهود- لا يتجاوزون خمسة عشر مليونا، أبعدت العلمانية أغلبهم عن الروح الديني الذي جاء به كليم الله، ولم يبق لهم من اليهودية إلا العصبية والعنصرية التي لا علاقة لها بما جاء به موسى عليه السلام.

وكذلك الحال مع أتباع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام. فالشرق الذي ظل قلب العالم المسيحي لعدة قرون، قد غدا منذ قرون طويلة قلب العالم الإسلامي. وأوربا التي غدت لقرون عديدة قلب العالم المسيحي، لا يؤمن فيها اليوم بوجود إله سوى ١٤ % من السكان!.. ولا يذهب إلى كنائسها التي خانت كثير منها نصرانيتها سوى ١٠ % من الأوروبيين!!..

أما الإسلام؛ وأحباب وأتباع رسول الله ﷺ، الذين يحبونه حتى يحبهم الله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران:٣١). والذين يطيعون الرسول كي تتحقق طاعتهم لله سبحانه وتعالى ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء:٨٠) فإنهم الاستثناء الوحيد -عبر التاريخ والديانات- من هذه الظاهرة، التي مثلت قانوناً لا يتخلف إلا في عالم نبينا ورسولنا، عليه الصلاة والسلام. فأتباعه وعشاقه ومريدوه، الذين يتخذونه الأسوة الحسنة والمثال المتسامي، هم وحدهم الذين يتزايدون ويتكاثرون، وتباهي بهم الدنيا، كما سيباهي بهم رسولنا يوم القيامة، إن شاء الله!..

وتلك هي الأخرى، ظاهرة فريدة، تحتاج إلى تفسير وتعليل.

- وعبر تاريخ دعوات الإصلاح، ومشاريع النهوض، وفلسفات التقدم، والمبادئ التي تركت بصماتها[١] في مسيرة التحرير والتغيير للأمم والشعوب، كان وهج هذه الدعوات والفلسفات والمبادئ يقل شيئاً فشيئاً، كلما تغير الواقع المعيش، وتبدلت العادات والتقاليد والأعراف.. بل لقد أصاب هذا التراجع حتى الكتب السماوية التى جاءت بها النبوات السابقة، عندما استحفظ عليها الناس فلم يحفظوها.. فنسوا حظا مما ذكروا به.. وبدلوا الكلم من بعد مواضعه.. وكتبوا بأيديهم ما كذبوا، فقالوا هو من عند الله!..

وهنا -أيضا- نجد أن دعوة رسولنا ﷺ، بدءاً من الوحي المعصوم والمحفوظ حفظاً إلهياً.. إلى السنة المطهرة، التي مثلت البيان النبوى للبلاغ القرآني.. نجد هذه الدعوة استثناء فريدا من هذا القانون الذي سرى على سائر الدعوات والفلسفات والمبادئ والنظريات والكتب. فهذه الدعوة -في وحيها الإلهي- كتاب مفتوح لا تنقضي عجائبه، فيه نبأ الأولين وخبر الآخرين. والكليات والإشارات والجوامع التي تتكشف وتتجلى -بمرور الأزمان

وارتقاء العقول وتقدم العلوم- آيات ومعارف وسنناً كونية واجتماعية مبثوثة في الأنفس والآفاق، حتى لكأنها المعجزات المتواليات تترى من هذا الإعجاز الإلهي والنبوي الذي جاء به المصطفى، عليه الصلاة والسلام.. تديم التحدي للجاحدين، وتضاعف الطمأنينة لقلوب المؤمنين. وهذا التوهج المتزايد والمتعاظم -هو الآخر- ظاهرة فريدة تحتاج إلى تفسير وتعليل.

* * *

فما هو تفسير هذه الظاهرة الفريدة التي تميزت وامتازت بها سيرة الرسول الكريم ﷺ، ودعوته على سائر السير والدعوات؟

إن الإجابة المفصلة على هذا السؤال تحتاج -ولا شك- إلى مجال أوسع بكثير من هذا الحيز الحاكم الذي نحن فيه. لكننا نستطيع -في هذا المقام- أن نوجز إشارات إلى عدد من المعالم التي تمثل رؤوس أقلام للإجابة على هذا السؤال، وذلك من مثل:

• أن سير العظماء والقادة والمصلحين تكتب وتختم وتكتمل فصولها وتتم وقائعها، لأنها سير بشر، يعيشون في نطاق عالم الشهادة لا يتعدونه، ذلك العالم الذي تدرك العقول الإنسانية كنه حقائقه، ومآلات دعوات الإصلاح البشرية والفلسفات العقلية، التي أبدعها وطبقها هؤلاء القادة والعظماء.

بينما سيرة رسولنا ﷺ -وهو بشر حرص القرآن الكريم على التأكيد على بشريته- هي سيرة "بشر.. يوحى إليه"

ففي سيرته ودعوته وسنته وشمائله ارتبطت البشرية بالنبوة، والعادة بالإعجاز الخارق للعادة، والاجتهاد بالعصمة، والأرض بالسماء، والنسبي بالمطلق، والعلم الجزئي بالعلم المحيط، وعالم الشهادة بعالم الغيب، والزمني بالخلود، فغدتْ سيرةُ البشرِ الرسول -هنا- حاملة من المطلق الخالد ما يجعلها دائمة العطاء، ومستعصية على الختم والانتهاء وطي الصفحات وجفاف الأقلام.

• كذلك، تميزت سيرة رسولنا الكريم ﷺ، حتى على سير الخالين من الرسل والأنبياء، عليهم جميعاً صلوات الله وتسليماته، بأنها سيرة النبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، فاستمر عطاؤها، ومن ثم ظل كتابها مفتوحا دائما وأبداً لاكتشاف السنن والقوانين والدروس والعبر والعظات؛ بينما كانت رسالات الخالين من الرسل، وكذلك معجزاتهم، خاصة بقوم بعينهم، وزمن بعينه، وحجة على من شهد تلك المعجزات المادية التي أدهشت العقول.

على حين كانت معجزة القرآن الكريم مستنفرة للعقل دائما وأبدًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. وكانت السنة النبوية المطهرة بيانا نبويا لهذا الإعجاز القرآني الخالد، الأمر الذي جعلها -مع السيرة النبوية- كتابا مفتوحا على ألوان لا تحصر من الإعجاز العلمي والقيمي والإصلاحي، الصانع للإنسان السوي وللمجتمع السوي، عبر الزمان والمكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إنها سيرة الرسول الخاتم، صاحب الشريعة الخالدة.. إمام أولي العزم من الرسل.. والمتفرد بالرسالة العالمية.. وبإقامة الدولة وصنع الحضارة، مع تبليغ الدعوة الدينية.

فدينه قد تفرد بتأسيس الدولة، وتوحيد الأمة، وتنظيم الاجتماع، والتحريض على بناء الحضارة. ودولته قد غدت الحارس للدين، الذي تسوس به اجتماعها المدني.. كما ضمن خلود هذا الدين لحضارته خلوداً تفردت به عن سائر الحضارات.

- ولهذا الكمال والاكتمال الجامع -في الدعوة الإسلامية- بين الدين والدنيا والأرض والسماء والاجتهاد والعصمة.. والدين والدولة.. والدنيا والآخرة.. والفرد والأمة.. والتكاليف الفردية والاجتماعية.. والعلوم الشرعية والمدنية.. والعقل والنقل والتجربة والوجدان.. والتصديق لما سبق من الكتب والرسالات مع الهيمنة والتصحيح والإكمال لهذا الذي سبق من الكتب والرسالات...

لهذا الكمال والاكتمال في الدعوة الإسلامية، فلقد تميزت سيرة رسول هذه الدعوة، عليه الصلاة والسلام، التي هي سيرة "البشر... الرسول"، بأنها سيرة الإنسان الكامل، بكل ما في هذا الكمال والاكتمال الإنساني من أبعاد تجعل ختم الكتابة لسيرته هذه أمراً عصياً على التحقيق..

فهو الذي وجده ربه فقيرا فأغناه.. ومع ذلك كان انحيازه إلى بساطة عيش الفقراء وحياة المساكين طوعا وشوقا واختيارا.

وهو الذي تحمل-صابرا ومصابرا- كل إيذاءات الشرك والنفاق، ومع ذلك بلغت به الرحمة والرأفة إلى الحد الذى جعله رءوفا رحيما بالذين آذوه وآذوا صحابته، فأطلق لهم عنان الحرية فى لحظات انتصاره الأكبر.. ودعا لهم بالهداية في لحظات الذروة من الإيذاء.. رجاء أن يخرج الله من أصلاب الغلظة من يرق قلبه لنعمة الإيمان بالإسلام، فيهتدي بسراجه المنير.

ومع أنه قد حمل هموم إقامة الدين، وتأسيس الدولة، وصلاح الدنيا، وعبء تغيير العالم..

فلقد تكاملت فيه كل صفات الإنسان الكامل. فكان بشوشا، يمزح ولا يقول إلا حقا.. ويسامر أصحابه.. ويداعب زواره.. ويخدم أهله.. ويقدم اليسر على العسر.. يحب أن تؤتى رخص الدين كما يحب أن تؤتى عزائمه.. ويحرص على طلب الجمال فى محيطه، ليستمتع به ويعلم الناس الاستمتاع بنعمته، حتى ليجعل من صلاة الاستسقاء مناسبة يدعو الله فيها: "اللَّهم أنزل علينا فى أرضنا زينتها".. ومن دعاء السفر مناسبة يستعيذ فيها بالله من كآبة المنظر.. ومن مسجد النبوة مسرحا للفنون ومتعة الترفية الحلال.. ومن الأعياد والأعراس مناسبات للزينة والفرحة واللهو الحلال الذى يجدد الملكات والطاقات عند الإنسان.

حتى ليروى "أنه لم يكن ريح أطيب من ريحه، وكأن عرقه اللؤلؤة!.."

وهو -مع ذلك- الذى يقف بين يدي مولاه -في الصلاة- حتى تتورم قدماه.. ويجعل من الرفق بالإنسان والحيوان والطبيعة مناسك يتقرب بها الإنسان إلى الله.

وهو الذي يغضب لما يغضب الله.. وإذا اضطر إلى الجهاد القتالي-دفاعا عن الدين والوطن- كان، إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق، أقرب المقاتلين إلى الأعداء، حتى ليحتمي به الفرسان فى ساحة القتال.

فهو الإنسان الكامل.. والرسول الخاتم.. والبشر الذي يوحى إليه.. والمجتهد المعصوم.. الذي اتصلت -في سيرته- الأرض بالسماء.. وامتزج فيها النسبي بالإطلاق والخلود.. فهو ﷺ، روح في جسد، ككل البشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.. لكن روحه بعبارة الإمام محمد عبده (١٢٦٥-١٣٢٣هـ /١٨٤٩-١٩٠٥م) "ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليه سطوة روحانية. وهو بمنزلة العقل من الإنسان. إنه إمام أولى العزم من الرسل، الذين ميزهم الله بالفطرة السليمة، وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالَمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها".

نعم، لهذا التميز والامتياز الذي جعل من الرسول ﷺ "نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب.. وعقل الإنسانية والبشرية".. ولتميز رسالته بالإتمام والإكمال للدين والأخلاق.. وبالعالمية.. وبالخلود.. وبالدولة والاجتماع والحضارة مع الدين..

لكل ذلك تميزت سيرته ﷺ، عن كل سير القادة والمصلحين والعظماء والانبياء والمرسلين.. بل وشاء الله أن تكون سيرته وتاريخ دعوته هو التاريخ الوحيد المعروف والموثق دون سير الانبياء وتواريخ الرسالات التي لم يبق من سيرها إلا ما جاء في القرآن الكريم. فكانت سيرته ﷺ، الخبر الصادق حتى في سير الخالين من الرسل، عليهم جميعا أزكى الصلوات والتسليمات.

* * *

بهذه الأفكار والخواطر أستقبل -دائما وأبدًا- كل إبداع جديد في سيرة المصطفى ﷺ. وبها أقدم بين يدي هذه الطبعة الجديدة لهذا العمل الفريد في سيرة المصطفى ﷺ، **النور الخالد.. ومفخرة الإنسانية**، ذلك الذي أبدعه العالم الجليل **محمد فتح الله كولن**. لقد أبدعه بقلب المحب وعقل المحقق، فجاء على هذا النحو الجليل والجميل، الذي يقود القلوب والعقول إلى عشق سيد الخلق، والاقتداء بصاحب الخلق العظيم.

أمد الله عالمنا الجليل بمدد من عنده.. ونفع به وبعلمه.. وجعل هذا العمل الجليل في ميزان حسناته يوم الدين.. إنه ﷺ أفضل مسئول وأكرم مجيب.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.. وأزكى صلوات الله وتسليماته على المبعوث رحمة للعالمين.

الدكتور محمد عمارة
أول ذي القعدة ١٤٢٤هـ
٢٥ ديسمبر ٢٠٠٣ م
القـــاهـــرة

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

لم تكن البعثة المحمدية أمراً بسيطاً أو عاديًا مرت عبر أبواب الزمن، ثم اختفت بين هرج الحياة ولَغَطها... وحوادث التاريخ وحروبه... وزحام المبادئ وصُراخها... بل كانت أمراً جللاً رنّ تحت قبة السماء... وحدثاً مدوّياً في سمع الزمان... فكأن الكون كله كان يولد من جديد... ويتلبس بالوجود ثانية... ويظهر من ظلام العدم مرة أخرى... ويفتح عينيه من إغماءة الفناء... كانت ميلاداً معنويًا رائعاً شحنت فيه كل بسمة من بسمات الجمال... وكل دفقة من دفقات الخير... وكل نبضة من نبضات الحق... لقد أصبحت الأرض بعد هذه البعثة زهرة الكون... ولؤلؤة صدفته... ونور جبينه... ويؤيؤ عينه وبسمة شفتيه... كانت هذه البعثة اللحظة التي انتظرها الأزل ليناولها إلى الأبد... فإن كان الكون المنظور كله صورة واحدة فقط من صور الوجود... وانعكاساً لجانب واحد من جوانب الحقيقة المطلقة... وعالماً واحداً من عوالم الخلق، فإن البعثة المحمدية التي حملت الحق المطلق لم تكن بهذا المقياس أمراً عالميّاً فقط... أو أرضيًا فقط... أو كونيّاً فقط، بل طوت بين جناحيها الأرض والكون المنظور والعالم المشهود وغير المشهود. ذلك لأننا إن أدركنا أن البعثة المحمدية كانت تعكس الحقيقة الإلهية الأزلية وتنطق بها وتحملها، وقلنا إن شموليتها وسعتها تتجاوز الأرض والكون فإننا لا نقول شططاً.

لذا، ألا تعجب من المسلم الغافل الذي يترك عوالم الشموس والخلود هذه ليلهث وراء أفكار أرضية محدودة المحتوى وقصيرة العمر... محرومة من العمق والأصالة... تسقط كأوراق الخريف في أول هبة ريح... غافلة عن الحقيقة الإلهية العظمى... مقطوعة الصلة عن روح الإنسان وقلبه... وعن أشواقه ووجده... تنتهي مع الإنسان على أبواب القبر... ولا ترافقه في رحلته الأبدية، ثم تثقل كاهله يوم القيامة.

ولكن البشائر تترى الآن... لقد بدأت أيام الغفلة بالانتهاء... ويبدأ مخاض ميلاد جديد

حافل بالألم... مخاض ميلاد المسلم مرة أخرى... شجرة الإيمان بدأت تهتز... والنُّسْغُ يصعد ويتحرك في أغصانها وعروقها... والأوراق الصفراء بدأت تخضرّ... إذن، فالجذور كانت حية... لقد عاد الغريب إلى دياره بعد طول الغربة واللوعة والفراق... والشمس التي غربت تحت ظلال وألوان حمراء دامية وباكية بدأت تشرق من جديد... وترتفع أمام الأنظار في الأفق رويداً رويداً... تهب النور والفرحة والأمل من جديد...

في هذه الصحوة الإسلامية المباركة كم يحتاج المسلم أن يعرف نبيه ويتعلم منه ويجدد إيمانه ويلهب مشاعره، ويعرف بعض أسرار هذه البعثة المحمدية ومداها وشمولها وعمقها والطريق التي اختطّتها وحكمة يد القدرة فيها... لذا، فإن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التي لا تتناول السيرة كسرد أحداث وذكر تواريخ، بل تتناولها من ناحية فقهها وحكمتها ومعانيها وأسرارها تبقى من أهم الكتب في تغذية هذه الصحوة وإنارة الطريق أمامها والتحذير من مفاوزها ومخاطرها. لذا، فهو كتاب كل مسلم وضع قدمه ليسير -على بركة الله- في هذه الطريق، ويتوجه إلى رسوله ومرشده وقائده وزعيمه ﷺ.

وبالنسبة لهذا الكتاب فهو مجموعة من سلسلة الخطب والمحاضرات التي خصصها المؤلف لشرح فقه السيرة، ودلائل النبوة، وشخصية الرسول ﷺ. وكانت الظروف آنذاك تستوجب هذه الفعالية لتذكير الناس برسولهم، وللوقوف أمام فتنة الهجوم على السنة التي ذرت بقرنها في تلك الفترة (أي في الفترة من ١٩٨٩-١٩٩٠). ونظراً لأهمية هذا الموضوع وحاجة المجتمع التركي الشديد لمثل هذا الكتاب قام طلابه بجمع هذه الخطب والمحاضرات، وعرضوها على المؤلف الذي قام بالتصحيح والتنقيح، ثم قاموا باستخراج المصادر والهوامش، وتمت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٩٢، والطبعة الثانية سنة ١٩٩٢... والطبعة السادسة سنة ١٩٩٧ وكان مجموع الطبعات يتجاوز خمسمائة ألف نسخة.

والحمد لله أولاً وآخراً.

اورخان محمد علي

إسطنبول – ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول محمد ﷺ السامية، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمنقذ للبشرية، وكإكسير للمشاكل المستعصية على الحل، وللأمراض غير القابلة للشفاء، وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هي أهل له كان رغبة ملحة لديّ -كما هي عند كثيرين- وهاجساً من هواجس فكري ومشاعري، وموضوعاً مهمًا من المواضيع التي لا سبيل للوقوف أمام سحرها وجاذبيتها أو الفكاك منها.

إنه ﷺ فخر للبشرية جمعاء... فمنذ أربعة عشر قرناً يقف وراءه أكبر الفلاسفة وأعظم المفكرين وأشهر العباقرة وأذكى رجال العلم الذين زينوا سماء الفكر عندنا.. يقفون وراءه خاشعين قد عقدوا أيديهم أمامهم وهم يخاطبونه ويقولون: "أنت الإنسان الذي نفخر بانتسابنا إليه."

ويكفي للاستدلال على مدى عظمته بأنه على الرغم من كل عوامل الهدم والنخر التي أصابت عصرنا، فنحن لا نزال نسمع من فوق المآذن أصداء نداء "أشهد أن محمداً رسول الله"، ولا نزال نشاهد كيف أن الروح المحمدية تفتح في كل مكان آفاق السمو نحو الأعالي، فيغمرنا الوجد والشوق خمس مرات كل يوم في عالم الروح. ونستطيع أن نشير إلى دليل عظمته فنقول بأنه على الرغم من كل هذا العمل المتواصل لأعداء الله في الداخل والخارج في الإفساد والإضلال، فإننا نرى حتى في هذه الأيام كيف أن العديد من الشباب في عمر الزهور -رغم عدم إحاطتهم التامة بالحقيقة الأحمدية التي ليس من اليسير معرفة مفاهيمها الدقيقة والصعبة- يتراكضون نحوه، ويحومون حوله مثلما تحوم الفراشات حول النور. وهذا أمر فريد لا نجد له مثيلاً في العالم؛ فالزمن لم يستطع أن يمحو من قلوبنا ومن صدورنا أي حقيقة من الحقائق العائدة له ﷺ، ولا أن يبليها... أجل، فهي حقائق غضة ندية

ونضرة على الدوام. وكما قلت لإخواني مراراً إنني عندما أذهب إلى المدينة المنورة أجد رائحته العطرة محيطة بي إلى درجة تشعرني وكأنني سأقابله بعد خطوة واحدة، وكأن صوته الشجي الذي يحيي القلوب يقول لي: "أهلاً وسهلاً.. ومرحباً."

أجل، إنه حي ونضر في صدورنا إلى هذه الدرجة، فكلما تقادم الزمن ازداد نضارة وطراوة وحيوية في قلوبنا.

إن الزمن يتقادم ويشيخ، وإن بعض المبادئ والأفكار تتعفن وتتهاوى، أما منزلة الرسول محمد ﷺ فستبقى متفتحة في الصدور كأكمام الورود العبقة أبد الدهر، وستبقى نضرة في القلوب على الدوام.

وأنا أرى لو أننا اهتممنا واعتنينا بتقديمه والاهتمام به مثلما فعل الآخرون في تقديم شخصياتهم، ولو أن المؤسسات العلمية والمؤسسات الأخرى المتعلقة بشؤون الحياة نذرت نفسها للاهتمام به وشرحه وتوضيحه وبيان جوانب شخصيته، لما تَربّع على عرش القلوب غيره، ولما تخلل في الضلوع والصدور سواه.

ولكن مع كل هذا، وعلى الرغم من كل شيء يهرع الكل من شرق الدنيا وغربها حاملين معهم دلاءهم، مسرعين نحو نبعه الصافي الفياض.. نحو المنهل العذب المورود، يحدوهم الوجد والهيام ليبلغوا قبته.. قبة الإنسان الذي يضع التيجان على هامات الشموس.

أجل، إننا نشاهد في جميع أنحاء العالم -ولاسيما في أمريكا وإنكلترة وفرنسا وألمانيا- انبعاثاً جديداً لمنهجه ﷺ، وحركة دائبة من قبل المسلمين لشرح وبيان مبادئه، ونسج نسيجه المزخرف ذي النقوش البديعة والألوان الجميلة المتناسقة، فكأنهم يعيشون روح عهد النبوة من جديد. ونرى الأمر نفسه في العالم الإسلامي.. فقبل قرن أو قرنين كان هناك أناس يشعرون بارتباطهم مع المسلمين عن طيب قلب دون تدقيق أو تمحيص، أما الآن فهناك مثقفون يعرفون لماذا يؤمنون بالإسلام، ولماذا يقتدون بالرسول محمد ﷺ؛ لأنهم بدأوا بتحليل المسائل الإسلامية تحليلاً علميًّا دقيقاً. فحتى الآن استغل أعداؤه الجامعات والكليات والمدارس والطبقة المثقفة، وخدعوها بشعارات براقة، واستخدموا المؤسسات الوطنية لحساب الكفر والضلال، ولكن كل هذه الأمور آذنت بالانتهاء، وبدأت تتفتت وتذوب وتضمحل مثل جبال الثلج الطافية على المياه، وبدأت الإنسانية تتجه نحو رسول الله ﷺ وتقبل عليه.

أما الذين غيّروا مذاهبهم وأفكارهم مرات ومرات منذ سنوات عديدة، وانتقلوا من هذا المبدأ إلى ذاك، ومن هذه الأيدولوجية إلى تلك، فقد رأى هؤلاء كيف باءت محاولاتهم هذه بالفشل

والخذلان، ورأوا أن المدرسة الوحيدة التي لم يقربها الخذلان هي مدرسته ﷺ، وأن سبيله وطريقه هو الصراط المستقيم، فاتجهوا إليه وأقبلوا عليه.. هكذا فعل "موريس بوكاي"، وهكذا تصرف "روجه غارودي"، وغيرهم وغيرهم.

ولكن هل استطعنا أن نفهم الرسول ﷺ سلطان القلوب المتربع على عرش الأفئدة حق الفهم، وندركه حق الإدراك؟

ولكن ما بالي أشير إليكم، أو أعنيكم؟ ما بالي أنا؟ هل استطعت أن أشرح جوانب عظمته كما يجب، وأكشف معالم شخصيته كما ينبغي؟ أنا الذي أضع جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي أدّعي أنني وضعت الطوق حول عنقي لكي أكون "قطميرا"[1] له. هل استطعت أن أشعركم بما يجيش في صدري من عظمة النبي ﷺ كما يليق بجوانب هذه العظمة؟ إنني أسائل نفسي وأسائل جميع الذين يتصدون للتبليغ والدعوة: هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبه.. حب سيد السادات حبّاً تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نبهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ؟

كلا! فلو عرفته البشرية حق المعرفة، وفهمته حق الفهم لهامت به حبّاً ووجداً.. ولو تغشت الأرواحَ ذكراه الجميلة، لثارت أشواقها وفاضت عيونها بالدموع، ولاقشعرّ جلدها وهي تخطو إلى عالمه.. عالم النبوة الطاهر، ولألقت بنفسها للريح كي تشعل جذوة قلوبها المتقدة بحبه بعدما صارت رماداً، فتذروها الريح نحوه ﷺ.

ولأن الإنسان يحب بمقياس إدراكه وفهمه، ولأنه عدو ما يجهل.. فإننا نرى أن البؤرة التي تتجمع حولها محاولات أعدائنا على الدوام ومؤامراتهم، هي بذل الجهود لإقصائه ﷺ عن القلوب، وإهمال ذكره، وتنشئة الأجيال الجديدة على عداوته وبغضه، وتوجيه هذه الأجيال وتربيتها وتعليمها في هذا الاتجاه.

ولكن انظروا إلى هذا التجلي الإلهي.. فجميع العقبات والسدود والموانع التي وضعها خصومنا لكي يمنعوا حبه ﷺ من القلوب، ويزيلوا ذكره من العقول، قد انهارت جميعها وتهدمت وأزيلت وتجاوزتها الإنسانية، وبدأ الشباب يهرع إليه بكل فرح وحبور، كفرح ظمآن في صحراء موحشة وجد بالقرب منه ماء سلسبيلاً بارداً بعد أن قاسى آلام العطش والظمأ أياماً عديدة. ولا شك أن قلباً رحيماً مثل قلبه ﷺ لا يَردّ أبداً من يقبل عليه بكل هذا الشوق وبكل هذا الوجد والعشق، بل يحتضنه بكل حنان وشفقة، ويضمه إلى صدره.

---

[1] قطمير: هو اسم كلب أهل الكهف. (المترجم)

لا أدري إن كنتم انتبهتم إلى الناس الذين يملؤون المساجد على سعتها أيام الجمع؟ فلو دققتم النظر لرأيتم أن معظمهم من الشباب.

فيا ترى ما الذي يدفع هؤلاء الشباب في برد الشتاء القارس، وفي المطر والثلج إلى الجوامع وإلى الوضوء وأسنانهم تصطكّ من البرد؟ من يدفع هؤلاء على الرغم من محاولة أرباب الضلالة والطغيان جذبهم نحوهم بقوة لا تقاوم؟ سأجيبكم أنا: إنها قوة الجاذبية القدسية للرسول محمد ﷺ.

وسواء استطاعت عقولنا أن تفهم وتستوعب هذه الحقيقة، أو عجزت عن ذلك، فإن القلوب دائما ترف حول هذه الشمعة وتطوف حول هذه الشمس. وفي المستقبل القريب سوف يتجرع مرارة الألم ولوعة الندم من فاتته المسارعة إلى رحابه، والتوجه إلى جنابه ﷺ. ومن لم يقف في صفه، وبقي متشرداً، بائساً، وحيداً، منفرداً مثل ذبابة الشتاء... سيتأوه من الألم، وسيعض أنامله حسرة وندما قائلا: "لِم لم أتوجه إليه وأحُمْ حوله كالفَراش؟" وحينذاك قد يكون الوقت متأخراً ومنتهياً بالنسبة للكثيرين منهم.

سيهرع العالم والدنيا إليه، وستدقق المحافل العلمية في سيرته، وستسير وراءه كل نفس متفتحة على عالم الفكر، وسيتحول العديد من أعدائه إلى أخلص محبّيه وأتباعه، ويهرع إليه ليلوذ به. بل إن منزلة الرسول الكريم بدأت ترجح في كفة ميزان الطرف الخصم حتى بمقاييسه وبموازينه، وبدأت الأوساط المعادية له تقر وتعترف بعظمته. وقد ورد في الحديث بأن الرسول ﷺ وزن بعشرة من أمته فرجَحهم، ثم وزن بمائة فوَزَنهم، ثم وزن بألف من أمته فوزنهم، فقال الملَك لصاحبه: "دعه عنك فلو وزنتَه بأمته لوزنها."[١] وجاء هذا المعنى في حديث آخر كذلك.[٢]

أجل، فلو وُضع الصحابة والتابعون وتابعو التابعين وأكبر الناس وأعلمهم حتى يوم القيامة، وجميع المتصوفة والزهاد الذين فتحوا القلوب ونفذوا إليها، وكل الأولياء والأصفياء، وكل الأبرار والمقربين في كفة، ووضع محبوب قلوبنا وسلطانها، وضياء عيوننا ونورها في كفة لرجحهم جميعا، ذلك لأنه هو سبب الوجود وحكمته.

فهو علة الكون والكائنات. وهناك قول مشهور يتردد على ألسنة الكثير من الناس: «لولاك لولاك ما خلقتُ الأفلاك.»[٣] أجل، فمن العبث كتابة كتاب لا يمكن فهم معناه، والله ﷻ منزه

---

[١] الدارمي، المقدمة، ٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٨٤/٤؛ الشفاء للقاضي عياض، ١٧٣/١.

[٢] المسند للإمام أحمد، ٧٦/٢.

[٣] كشف الخفاء للعجلوني، ١٦٤/٢.

عن العبث، لذا فهناك حاجة إلى مرشد جهوري الصوت مثل سيدنا محمد ﷺ سيد الزمان والمكان لكي يشرح معنى الوجود، ومعنى الكون والكائنات. كذلك هناك حاجة إلى شارح وإلى مبلغ مثله لكي يشرح لهذا الإنسان الذي سخرت له هذه السماء الواسعة والأرض والشمس والقمر والنجوم وكل الوجود.. يشرح له من أين أتى وإلى أين هو كادح وإلى أي شيء هو مرشَّح ؟ أجل، لكي يعلن ويوضح هذا، ويوصل ما وراء أستار الوجود إلى الأرواح. فلو لم يكن موجوداً لما كان للكون ولا للإنسان أي معنى، لأن الرسول محمدا ﷺ هو الإنسان الذي أسبغ المعاني على الأشياء.

هو أقرب وأحب إلينا من كل المحبوبين. ومع أنني أعدّ نفسي أكثر المؤمنين قصوراً وذنباً، إلا أنني لا أملك نفسي من شرح إحدى مشاعري.. وغايتي من هذا الشرح هو لكي أبين: إذا كنت أستطيع أن أحب رسول الله كل هذا الحب، فما بالك بالقلوب والأرواح الواصلة إلى مراتب عُليا في حبها لهذا الرسول الحبيب، وكيف تشتعل هذه القلوب بعشقه ووجده ؟ لذا، أودّ أن يتم تقييم شرح مشاعري من هذه الزاوية، وإلا فإن أدبي كان يمنعني من طرح مشاعري في حضوركم:

عندما مَنّ عليّ الله ﷻ بزيارة الأراضي المقدسة لكي أعفر وجهي بترابها بدت لي بلدة رسول الله مضيئة ونورانية، إلى درجة أنني ذقت معها سعادة روحية غامرة، وفرحا لا يوصف، بحيث أنني شعرت بأنه -على فرض المستحيل- لو فتحت لي حينذاك أبواب الجنة كلها، ودعيت للدخول إليها.. أجل، لو تم هذا، فصدقوني بأنني كنت سأرفض دخول أي باب من أبواب الجنة، بل كنت أختار وأفضّل البقاء هناك.

والحقيقة أن الجنة أملنا جميعا، ومن الصعب تصور أن هناك مسلماً واحداً لا يرغب في الدخول إليها.. ألا نبتهل لله ﷻ كل صباح وكل مساء في أدعيتنا أن يجيرنا من النار وأن يدخلنا جنته؟ ومع اعترافي بهذا وقبولي له، فإنه لو عرضت عليّ تلك المرتبة العليا، ودُعيت، لها، لربما استأذنت ربنا أن يسمح لي بالبقاء في الروضة الطاهرة لرسول الله ﷺ. ولا يذهبن الظن بأحدهم بأنني أرى نفسي لائقاً لتلك المرتبة العليا، بل إنني أردت فقط إظهار مدى حبي لرسول الله ﷺ، وإلا فإنني قضيت حياتي أدعو الله أن ينيلني شرف الخدمة لأصغر صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، وكان ابتهالي من الله تعالى أن لا يُبعد فكرنا لحظة واحدة من أمنية تعفير وجوهنا بتراب أرجلهم، وكان الكثير من الأوراد التي يكررها لساني على الدوام تحمل هذه المعاني.

وجاشت المشاعر نفسها عندي في بيت الله، وقد تكون هذه المشاعر مشاعر مشتركة لدينا جميعاً. ثم إن من يحمل هذه المشاعر غير محصور فيَّ وفي أفراد قلائل، فكم وكم من ذائب في عشق رسول الله ﷺ تُعدّ هذه المشاعر بالنسبة له مشاعر بدائية وخشنة.

وما دمنا وصلنا إلى هذا الموضوع من الحديث فإنني أود أن أسوق ذكرى أخرى من ذكرياتي:

كنا في الحج معاً مع السيد "عارف حكمت"، وكان آنذاك نائباً في المجلس الوطني، وكان قد قطع عهداً على نفسه أن يتمرغ في تراب المدينة المنورة حالما يصل إليها.. وما أن وصل إليها حتى ألقى هذا الرجل الفاضل نفسه على التراب، وبدأ يتقلب ويتمرغ في ترابها. فكلما تذكرت هذه الحادثة امتلأت عيوني بالدموع.

إن رسول الله نبي، ولكنه نبي بَشّر به جميع الأنبياء السابقين. فقد أخذ الله ميثاق النبيين جميعاً لَيؤمنُنّ به ولينصرنه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران:٨١).

وقد التزم جميع الأنبياء بهذا العهد الذي قطعوه لله ﷻ وعاشوا لتحقيق هذا العهد، وكان نشاطهم منصبّاً في هذا الاتجاه. وعندما عرج برسول الله ﷺ إلى السماء صلّت أرواح هؤلاء الأنبياء وراءه.[1] أجل، فكأن جميع الأنبياء وفي مقدمتهم النبي إبراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام كانوا يريدون أن يكونوا مؤذِّنين عنده. يقول عيسى عليه السلام في الإنجيل: [إنني ذاهب لكي يأتي سيد الزمان.] (يوحنا-الباب: ١٦، الآية: ٨)، أي كان يلفت أنظار الإنسانية إلى هذا النبي العظيم.

أجل، فعندما عرج إلى السماء امتلأت حجور السموات باللآئي والجواهر، وفُرشت النجوم تحت قدميه كأحجار الرصيف.. وعندما وصل إلى أفق الشمس تمنّت الشمس أن تكون جوهرة على تاجه.. كل هذه الموجودات كانت تطوف وتدور حول نبوته.

ثم إنه كان يمثل الصفات الإنسانية في ذروتها ليكون قدوة وأسوة حسنة لنا. فمثلاً كان رئيس عائلة مثالي، وفي ذلك البيت حيث كان إكسير النبوة يتقطر فيه قطرة قطرة، لو توزّع كل ولد من أولاده الناشئين فيه على العصور، لنشأ منهم مجتهدون ومجددون ينير كل منهم عصره. ولا أدري كم من الناس نجح في معرفته من هذه الزاوية.

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٥/١٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٣٩/٣.

كان في الوقت نفسه قائداً عسكريًا لا يشق له غبار. فبواسطة نفر من أصحابه الذين تحلّقوا حوله كما تتحلق الهالة حول القمر أهوى عروشاً لسلاطين جبابرة كانوا قد أعلنوا الحرب على العالم بأسره، ودخل ملوك عظام في إسار حبه.. إسار لا يريد الفكاك عنه، مع أنه إن أخذنا بظاهر الحال فإنه لم يدرس علم الحرب وفنونها، ولم يتعلمها من أحد.

ثم إنه الشخص الذي تنتهي عنده العلوم. فكأنه جالس أمام شاشة يشاهد جميع الحوادث حتى يوم القيامة، ثم يخبر عنها.[1] ومع أن عصوراً عديدة مرت منذ ارتحاله إلى دار البقاء، ففي المحطة الأخيرة التي وصلت إليها البحوث والتقنية المعاصرة بكل إمكانياتها الهائلة، نرى الراية التي ثبتها رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً ترفرف في السماء، ونرى الذين هداهم الله ﷻ ينطقون بالشهادتين، ويكوّنون حلقة من الحلقات المضيئة لقافلة الإسلام. إليكم مثالاً واحداً من أمثلة لا تعد ولا تحصى:

ففي شريط فيديو شاهدتُ البروفسور الكندي "كيث مور" أستاذ التشريح في كلية الطب في جامعة تورونتو والمتخصص في علم الأجنة وهو ينبهر بما ورد في القرآن الكريم حول مراحل نموّ الجنين في بطن أمه، هذه المراحل التي لم يكن في الإمكان اكتشافها إلا بعد التطور التكنولوجي الحالي.

كما شاهدتُ عالماً فيزيولوجيًا يابانيًا وهو يتلفظ بكلمة الشهادة بصعوبة، ودخل بكل اطمئنان ورضا إلى صفوف المسلمين بعدما رأى وسمع الآيات القرآنية المتعلقة بساحة اختصاصه.

أجل، فكما هو ظاهر فالقرآن الكريم يفتح المنافذ أمام العلم كلما انسدّت السبل أمامه، وإن نقطة النهاية للعلم هي نقطة البداية عند رسول الله ﷺ، ولكن من علّمه كل هذا؟ لقد أخذ درسه من الله "العليم" "الخبير". فوراء هذه المعارف هناك المعلم الأزلي، ومن ثم فإن المعارف التي استقاها لم تتعرض للقِدم والبِلى، بل اكتسبت شباباً وحيوية ونضارة كلما تعاقبت عليها العصور، وستتجدد على الدوام ما دامت السموات والأرض.

ثم إنه ﷺ كان محبوباً من أصحابه وأصدقائه حبّاً لم يكن من نصيب أحد. فمثلاً عندما أحضر الكفار الصحابي خُبيب بن عدي ﷺ بعدما أسروه عقب غزوة "ماء الرجيع" سألوه قبل إعدامه: "أتشتهي أن يكون محمد مكانك وتكون أنت آمناً في بيتك؟" فأجابهم: "لا والله، لا أحب أن يشاك شوكة في قدمه وأنا في موضعي هذا." وبعد هذه الإجابة الشجاعة رفع يديه

---

[1] انظر: البخاري، القدر ٤؛ مسلم، الفتن ٢٢-٢٥؛ أبو داود، الفتن ١؛ المسند للإمام أحمد، ٤/١؛ ٣٨٦/٥.

ودعا قائلاً: "اللّهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا" ثم دعا على الكفار: "اللّهم أحصهم عدداً، واقتلهم بَدَداً ولا تغادر منهم أحداً." ثم قتلوه رحمه الله.[1]

وقد تلقى الرسول ﷺ هذا السلام، وأبلغ أصحابه باستشهاد خُبيب وهو في غاية التأثر، إذ يروي موسى بن عُقبة أن خُبيباً وزيد بن الدَّثِنَة ﷺ قُتلا في يوم واحد، وأن رسول الله ﷺ سُمع يوم قُتلا وهو يقول: «وعليكما -أو عليك- السلام، خُبيب قتلته قريش.»[2]

وهاكم مشهداً آخر يشرح قلب كل مؤمن رغم مرور الدهور وتعاقب العصور:

عندما سمعتْ الصحابية سُميراء في معركة أُحد أن رسول الله قد استشهد، أسرعت إلى سفح جبل أُحد، وهناك أرؤها جثث أبيها وزوجها وأولادها، ولكنها لم تلق بالاً لذلك، بل كانت تبحث عن رسول الله، وتسأل على الدوام: "ما فعل رسول الله؟" وعندما أشاروا لها أخيراً إلى مكان رسول الله هرعت إليه، وألقت بنفسها على الأرض أمامه قائلة: "كل مصيبة بعدك جَلَل!"[3][4] إذن، فهكذا تَربّع حب رسول الله في القلوب والصدور.

وإليكم مثالاً آخر يظهر مدى حب الصحابة للنبي ﷺ:

كان رسول الله وفخر العالمين قد أبلغ بقرب رحيله إلى الرفيق الأعلى، فكأنه استلم دعوة من وراء السموات بذلك.. إذن، فقد حان وقت فراقه عن أحبائه وأصحابه الذين جاهدوا معه طوال ثلاث وعشرين سنة، لذا كان يخرج للقاء أصحابه حزيناً في أيامه الأخيرة. وكان الصحابة يتأثرون من حاله هذه ويحزنون، وصدورهم تمور بالحزن والأسى كلما رأوا رسول الله ﷺ يدخل بيته. وكان رسول الله ﷺ قد أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليبلّغ رسائل النبي ﷺ وأوامره وتعليماته، وعندما يرجع من اليمن يعرض على رسول الله ما رآه من أمور وأحداث وما قابله من مشاكل. وقبل سفره الأخير ذهب إلى رسول الله ليدعو له قبل التوجه إلى اليمن، ولكنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول له: «يا معاذ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري.»[5] فكأن صاعقة نزلت على رأس معاذ.. شعر كأنه طير قد قُصّ جناحاه.. وانهمرت الدموع من عينيه.

---

[1] البخاري، المغازي ١٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٩٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣/١٨٢.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٧٦؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ١/٥٢٤-٥٢٥.

[3] معنى جلل هنا: هين أو صغير. (المترجم)

[4] مجمع الزوائد للهيثمي، ٦/١١٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٥٤.

[5] المسند للإمام أحمد، ٥/٢٣٥.

وكان ﷺ يحل أعقد المشاكل الاجتماعية بكل بساطة وسهولة، وبعده بثلاثة عشر قرناً أشار "جورج بِرنار شو" إلى هذه الحقيقة قائلاً: "ما أحوج عصرنا إلى شخص مثل محمد ﷺ، يحل له مشاكله ريثما يشرب فنجاناً من القهوة." وهذا هو المهم، فالفضل ما شهدت به الأعداء.

أجل، إن البشرية حينما تتوجه إليه تشعر بالأمن والطمأنينة، وتصل إلى الآفاق النيّرة المضيئة، وتتخلص من السفالة والسفاهة، ولا تكون أُلعوبة بيد الأيام، بل تتخلص من الخسران في الدنيا وفي الآخرة، وترتفع وتسمو إلى المرتبة اللائقة بالإنسانية. والحقيقة أنه بالرغم من كل القوى المعادية، ومن كل الموانع والعقبات، فإن جميع المؤشرات والأمارات تومئ إلى بداية البعث والنهوض من جديد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف:٨-٩).

أجل، إن الله سيظهر دينه، ويتم نوره، وستهرع إليه القلوب والنفوس الظامئة لكي تجد الأمن والطمأنينة في رحابه، فتعيش سعادة أهل الجنة في الدنيا؛ وسيأتي اليوم الذي تنفتح جميع القلوب وجميع الضمائر وجميع النفوس لمحبة خاتم الأنبياء وسلطان الأولياء الذي نعلن اسمه خمس مرات على الملأ كل يوم.

وكان أيضاً مبعثاً للطمأنينة، فنحن نؤمن إيماناً راسخاً لا شك فيه بأن الرسالة التي جاء بها منبع للأمن والطمأنينة.. والتاريخ هو أكبر شاهد على ما نقول. ولكي تذوق الإنسانية هذه الطمأنينة مرة أخرى، فليس هناك إلا حل واحد أمامها، وهو أن تهتدي بالنور الذي أتى به الرسول ﷺ، إذ كلما ازداد الإنسان معرفة به ازداد حبًا له.. وبهذه المحبة سيتغير وجه المجتمع.[1]

في هذه "المقدمة" التي كان القدماء يعبرون عنها بـ "الديباجة" حاولت مستنداً إلى عون الله تعالى وكرمه وإحسانه أن أشير باختصار، وعلى نمط الفهارس إلى جوانب عظمة فخر الكائنات، وسيد الدنيا والآخرة.

كل كلام في مدحه جميل، فإن وجدتم شيئا نابيا، فمني ومن أسلوبي، أما ما يتعلق بفخر الكائنات فكله مشرق وجميل.

---

[1] جاء في الحديث: من خالطه معرفةً أحبه. الترمذي، المناقب ٨.

تمهيد:

النبي المرسل رحمة للعالمين

- الفجر المرتقب
- عهد مظلم
- علامات النبوة
- النبي المرتقب والمبشر به
- قدوم طال انتظاره
- لماذا لم يؤمنوا؟

أ . الفجر المرتقب

دنيا يسودها ظلام دامس... ظلام يحمل في طيّاته نوراً مرتقباً... وأصداءً تحمل بشرى ظهور نبي جديد... وتتسرب أصداء هذه البشرى، وتطرق الأسماع والقلوب حتى بدأ الكثير من أهل مكة يتحدثون عن هذا النبي المرتقب ويوصي بعضهم بعضا: "عليكم أن تسرعوا إلى هذا النبي حالما يظهر.. أسرعوا إليه وآمنوا به!"[1]

كل القلوب واجفة... فالآمال جميعها معقودة عليه... على خاتم المنقذين... والأمهات والآباء يطمعون أن يكون هذا النبي من نسلهم، لذا يسمي العديد منهم أبناءهم "محمدا."[2] ولكن النبي المرتقب يجب أن يكون من سلسلة نسب ذهبية، تبدأ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وتنتهي بعبد المطلب فعبد الله.. كانت القلوب ترتقب هذا النور من هذا الطريق. وكانت الأحداث تشير إلى قرب قدومه، ودنو مجيئه.. فحلكة الظلام تؤذن بقدوم الفجر.

لم يكن إنسان ذلك العصر يحمل قيمةً تعطي للحياة معنى، أي تعطي للحياة غاية وهدفاً يستحق العيش من أجله، بل كانت أعمال الناس آنذاك مثلما قال القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ (النور:٣٩).

ولم تكن المشاعر والأفكار والتصرفات تتباين عن هذا كثيراً: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ (النور:٤٠).

كان اسم هذا العهد "عهد الجاهلية"، غير أن الجاهلية هنا لم تكن تأتي كنقيض للعلم، بل كمرادف للكفر الذي هو نقيض الإيمان والاعتقاد. ولا أريد هنا أن أعرض -ولو بشكل موجز- مَعالم هذا القبح في ذلك العهد، لأنني لا أريد أن أعرض أمامكم -ولو لوقت قصير- لوحة سوداء مقززة. كما أن تصوير الباطل قد يفسد الأذهان ويضلها، وأنا أرى أن هذا يشكل جريمة. بيد أنه يلزم لفهم ذلك العهد أن نشير إلى بعض عاداته وتقاليده ليتسنى لنا أن نعي فضل الله على العالمين، ورحمة الرحمن الرحيم، في إرسال فخر الكائنات وسيد المرسلين.

---

[1] انظر إلى: السيرة النبوية لابن هشام، ١/٢٠٣-٢٠٤.

[2] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١/١٦٩.

إن مجيئه ﷺ كان من أكبر نعم الله ﷻ للعالمين، وأفضل إحسانه، وهذا هو ما يشير إليه القرآن الكريم إذ يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران:١٦٤).

إذن، فانظروا إلى مدى رحمة الله ولطفه وإحسانه عندما يرسل إلى الناس رسولاً من عند أنفسهم، يحس بما يحسون، ويفكر كما يفكرون، ويكون لهم مرشداً وهاديا في الطريق الموصل إلى الله تعالى.. فإن احتاجوا إلى إمام تقدمهم وأصبح لهم إماما، وإن احتاجوا إلى خطيب اعتلى المنبر فكان خطيباً مفوّها، وإن احتاجوا إلى أمير كان لهم أميراً يرسل الرسائل للملوك ويختم المعاهدات، وإن احتاجوا إلى قائد تقدم صفوفهم في الحرب، وأصبح لهم قائداً أفضل من جميع القواد المتمرسين...

هناك عقيدة خاطئة لدى النصارى، فهم يعتقدون أن الله ﷻ قد ضحّى بعيسى عليه السلام ليفتدي به الخطيئة الأولى للإنسانية، أي يؤمنون بأن الله -سبحانه وتعالى عما يقولون- قد ضحّى بابنه المسيح لكي يصفح عن الإنسانية كلها، لذا فقد صلب المسيح على الصليب حسب هذه العقيدة الخاطئة، وهكذا تم الصفح عن الخطيئة الأولى التي بدأت مع آدم عليه السلام وانتقلت إلى كل إنسان، فكل إنسان يحمل هذه الخطيئة منذ مجيئه إلى الدنيا، ومنذ ولادته. وهذه عقيدة خاطئة من جهة، وضالة من جهة أخرى لكونها قابلة لتأويلات عديدة إلا أن لها تلميحاً صحيحاً، وهو أن الله تعالى أرسل أفضل خلقه محمداً ﷺ وأحبهم إليه رسولاً إلى الناس مع علمه بما سيتعرض له من أذى وآلام. وذلك لكي يخلصهم من الضلالة والانحراف والطغيان حتى لا يضيعوا في الطرق والمتاهات، بل يرتقوا إلى المستوى اللائق بالإنسان الكامل.. وحسب تعبير المحقق والمتصوف الشاعر "إبراهيم حقي"، فإن على المؤمنين أن يعرفوا ربهم ككنز في قلوبهم.

فالقلب مصدر للخزائن، بحيث أن الله تعالى الذي لم تسعه السموات والأرض يتجلّى في هذا القلب. لا الكتب ولا العقول ولا الأفكار ولا الفلسفات ولا البلاغة والفصاحة ولا السموات والأرض ولا الكائنات بأجمعها تستطيع الإحاطة بالله ﷻ، بل تعجز عن التعبير عنه، القلب فقط يستطيع أن يكون -ولو بمقياس صغير- ترجماناً له.

أجل، للقلب لسان لم تسمع الآذان بياناً مثل بيانه، وبلاغة مثل بلاغته. إذن، فعلى الإنسان أن يقطع المسافات في قلبه، وأن يبحث فيه عما يبحث، فيصل إلى ربه هناك، ويفنى في حبه، علماً بأن الله ﷻ أرسل رسوله محمداً ﷺ إلينا من أجل هذا.

أجل، فقد أُرسل إلى الإنسانية لكي يتلو عليها آيات ربها، ويعرض أمام عينيها معجزاته، ولكي يعلّم الإنسانية ماهيتها الحقيقية. وبفضله تستطيع البشرية أن تتطهر من أرجاس الطبيعة، فتصبح نقية صافية، وتسمو من المرتبة الدنيا للجسم إلى المرتبة العليا لحياة القلب والروح، وقد سمت فعلا.

أجل، إنه سيعلّم الناس الكتاب والحكمة، وفي نور الكتاب وضوء الحكمة ستجد الإنسانية نفسها، وتنتبه إلى الآخرة وتلتفت إليها، فتسلك الطريق إلى الحياة الأبدية، وقد سلكت هذا الطريق فعلا.

هناك أيام مباركة وأيام مهمة وكريمة عندنا، وبعضها يعدّ عيداً للمؤمنين، ففي كل أسبوع يعيش المؤمنون فرحة يوم الجمعة. ونعيش هذه الفرحة بمقياس أكبر في عيد الفطر وفي عيد الأضحى. ففي أيام عيد الأضحى يتذكر المسلمون التضحية التي قدّمها النبي إبراهيم ﵇، ويبتهلون فيها، ويدعون الله من قلوبهم وبكل إخلاص أن يغفر لهم ذنوبهم، ومن أجل ذلك يهرع بعضهم إلى بيت الله ليتمسحوا بأستاره، وعندما يقفون في عرفات يتوجهون بقلوبهم إلى الله، ويبتهلون إليه بروح محمدية ليغفر لهم.

وأما عيد الفطر فهو عيد مبارك غنيّ بمعانيه، إذ هو تعبير عن الفرحة التي يشعر بها المسلم وهو يعيش فرحة الاقتراب من الرضا الإلهي بعد شهر كامل من الصوم. ولكن هناك عيد آخر يعد عيداً للإنسانية، بل لعالم الوجود كله؛ وهو يوم تشريف الدنيا بمجيء رسول الله ﷺ، أي يوم الميلاد الأحمدي.[1] أي هو اليوم الذي علّق الله ﷻ النور الأحمدي، والسراج المحمدي في سماء الإنسانية مثل شمس مضيئة. أجل، فبهذا النور تبدد ظلام الجاهلية، وغمر النور العالم بأسره، فكان هذا أفضل وأكبر وأعظم نعمة لله ﷻ على الإنس والجن.

ب- عهد مظلم

كل عهد اهتزت فيه عقيدة التوحيد يعد عهداً مظلماً، ذلك لأن الإيمان بالله ﷻ الذي هو نور السموات والأرض، إن لم يحكم جميع القلوب، سيطر الظلام على الأرواح، واسودّت القلوب؛ فمثل هذه القلوب المظلمة تبتلى بقصر النظر عند مراقبة الأحداث، وتكون رؤيتها متعكرة وغير صافية، ويعيش صاحب مثل هذا القلب كالخفافيش في دنيا الظلام.

---

[1] اليوم هو يوم الأربعاء الموافق لـ ١٣ تشرين الأول لسنة ١٩٨٩. من التوافقات -ولا نقول الصدف- الجميلة أن تصحيح هذه الأسطر وافق يوم الميلاد الأحمدي.

ففي هذا العهد الذي اهتزت فيه جميع أسس الدين من قواعدها، وحرفت فيه الديانات السماوية من قبل أتباعها، لم يبق هناك سوى فئة قليلة من الموحّدين الذين كانوا يؤمنون بالله ﷻ، ولكن دون أن يدركوا صفاته وأسماءه الحسنى، لذا فما كانوا يعرفون كيف يوفون وظيفة العبودية لله حقها.

١. بصيرة عمياء

كان المشركون يعبدون الأوثان والأصنام التي ملأوا بها الكعبة، ويفخرون بهذه العبادة، ويجدون فيها السلوى. والذين كانوا يملكون نصيباً قليلاً من العلم كانوا يقولون بأنهم لا يعبدون هذه الأصنام إلا لتقربهم إلى الله. والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول عن لسانهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ (الزمر:٣).

وهكذا، فإن شعور العبودية الذي أودع في فطرة الإنسان كأمانة مهمة تعرّض للخيانة وسوء الاستغلال.. فكيف يمكن أن يعبد الحجر والشجر والتراب أو الشمس والقمر والنجوم؟ بل كانوا يعبدون حتى بعض أصناف الأطعمة التي يعملونها بأيديهم كالحلوى والجبن، وبعد عبادتها لفترة من الوقت يقومون بأكلها إذا جاعوا.

ويشير القرآن الكريم إلى مثل هذا التفكير الفاسد والفهم البالي فيقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس:١٨). و﴿أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر:٣).

ثم ها هم يبحثون عن عذر لهذا التفكير المنحرف، وأكبر عذر يجدونه هو القول بأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:١٧٠).

٢. براعم تُوأد

والقرآن الكريم يشير إلى شر آخر من شرور الجاهلية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل:٥٨-٥٩).

أجل، فما إن يبشَّر أحدهم بميلاد طفلة له حتى يربدّ وجهه غضبا، ويعروه السواد خجلا

من وقع هذا الخبر الأليم، فلا يستطيع أن يغشى الناس. فالخبر عنده بلغ من السوء حدًّا حدا به إلى الرغبة في التواري من القوم، ويوقن بأن عليه أن يختار أمراً من أمرين، ولكنه متردد لا يدري أيهما يختار: أيختار الإبقاء على حياة الطفلة، وتجرّع آلام الهوان من المجتمع، أم يقوم بغسل العار(!) بقتل تلك الطفلة ووأدها؟

تلك كانت المنزلة المهانة للمرأة في الجاهلية. ولم تكن مهانة المرأة هذه، وتحقيرها والحط من شأنها قاصرة على عرب الجاهلية وحدهم، فالوضع نفسه كان موجوداً في الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. لذا، يمكن القول بأن ما قام به الإسلام فيما يتعلق بعالم المرأة بين عرب الجاهلية، يعدّ عملا لا مثيل له في قضية المرأة على نطاق العالم بأسره.

أجل، فقد كان القرآن أول من يقف في وجه مثل هذه الوحشية، فيحرّم قتل الأطفال تحت أي ذريعة من الذرائع: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام:١٥١). فكأن الله تعالى يقول لهم: لِمَ تقتلون أولادكم؟ إنني أنا الذي أرزقكم وإياهم.. ألا ترون أن وجه الأرض حافل بمئات من موائد الأطعمة المزجاة لكم؟ ألا ترون أن السماء تهرع لنجدتكم، والغيوم فيها مساقة لإنزال الماء والثلج عليكم؟ وهذه الملايين من أنواع النباتات على وجه البسيطة، من أنبتها غيري؟ وعلى الرغم من رؤيتكم لكل هذا، فأيّ عقل وأيّ ضمير وأيّ وجدان يسوقكم للخوف على رزقكم، فتقدمون على قتل أولادكم؟ إياكم أن تنسوا أن من يقترف مثل هذا الجرم لن يكون أهلاً لخطاب الله تعالى له أبدا، بل سيخاطب الله تعالى هؤلاء الأبرياء، ويسألهم عن الجرم الذي اقترفوه وكان سبباً لقتلهم؛ سينال الظالمون جزاءهم العادل لاقترافهم هذا الظلم الشنيع، والآية الكريمة: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير:٨-٩) تبين لنا بأسلوب يقشعر منه البدن طبيعة أخلاق ذلك العهد.

حضر مرة أحد الصحابة مجلس رسول الله ﷺ، وذكر له هذه الوحشية الجاهلية، وقال:

يا رسول الله! إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي، فلمّا أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوماً فاتّبعتني، فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها، فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: "يا أبتاه! يا أبتاه!" فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف[1] دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء

---

[1] وكف: تقاطر. (المترجم)

رسول الله ﷺ: "أحزنتَ رسول الله ﷺ!" فقال له: «كُفّ،[1] فإنه يسأل عمّا أهمّه.» ثم قال له: «أعِدْ عليّ حديثَك» فأعاده، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملَك.»[2] فكأن رسول الله ﷺ كان يقصد من تكرار هذه الحادثة إفهامهم: "هكذا كنتم قبل الإسلام.. وما قمت باستعادة الحادثة إلا لأذكركم بالقيم الإنسانية التي منحها لكم الإسلام."

من هذا المثال الأليم المفجع، تدرك مدى الأزمة التي كان يعيش فيها إنسان ذلك العصر.. فإلى جانب آلاف الفظائع الأخرى، كانت تُحفَر هناك حفر عميقة في ظلام كل يوم في تلك الصحراء، ويرمى فيها أطفال أبرياء ليلقوا هناك حتفهم. أجل، لقد سبقت البشرية الضباع في الوحشية بمسافات كثيرة.. فالذي لا يملك المخلب والناب، كان مصيره الافتراس والقتل من قبل ذي المخلب والأنياب، وكان المجتمع يتقلب بين آلام أزمات حادة، ولم يكن هناك من ينهي هذه الأزمات، أو يجد لها حلاً ودواء.

في هذه الأثناء، يعتكف نبينا في غار حراء -الذي سيكون اسمه بين أمته فيما بعد "جبل النور"- ويفارق مجتمع الناس؛ هناك يثبت ناظريه في الأفق، وينتظر فجر الخلاص.. والظاهر أنه كان يضع جبهته على الأرض، ويبتهل لربه ساجداً لساعات طويلة، يسأله خلاص الإنسانية، وإرسال منقذ لها، ذلك لأن الشيخين عندما يقصّان هذه الفترة يستعملان تعبير "فيتحنث فيها"، وهذا التعبير يعني أنه قد اعتزل عن الناس وأسلم نفسه للعبادة.

أجل، كان رسول الله ﷺ يبقى أحياناً هناك، ولا يرجع إلى مكة إلا عندما تنفَد مؤونته، ثم يرجع إلى الغار مرة أخرى حاملاً معه ما يكفيه من الزاد.[3] لا شك أنه كان في الغار يتأمل الوجود، وما وراء هذا الوجود.. يتأمل الخلق والكائنات، والغاية من هذا الخلق، والهدف منه.. ثم يتأمل ما آلت إليه الإنسانية من حال مفجِعة تقشعرّ منها الأبدان، وتتفطر لها القلوب.

٣. قيم متغيرة

أجل، لقد كان المجتمع منحدراً إلى هاوية مظلمة، إذ تغيرت فيه جميع القيم الإنسانية، وانقلبت رأساً على عقب، فأصبحت الفضيلة عيباً، والعيب والنقيصة فضيلةً وفخراً.. الوحشية تُمجّد، والرحمة والإنسانية تُمتهن.. قد وضعت الذئاب نفسها موضع الرعاة، أما

---

[1] كُفّ: أي أمسك عن تأنيبه ولومه. (المترجم)

[2] الدارمي، المقدمة، ١.

[3] البخاري، بدء الوحي ٣؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢.

الأغنام التي لم يعد لها حول ولا قوة، فتئن في أيدي هؤلاء الرعاة القساة وتتوجع، وما لها من سامع.. وشاع الفحش والزنا والانحلال الأخلاقي، ولم يكن شرب الخمر ولعب القمار عيباً، ولم يكن الاحتكار شيئاً غريباً، بل أمراً مألوفاً.. أما طرق النهب والسلب، وامتصاص دماء الناس، فكان يعدّ ذكاء ومهارة وحذقا.

ومن ثم، فقد كانت هناك حاجة لشخص ساحر البيان، مؤثر الكلام ليقول لكل هذا الفساد: "قفا" كانت الحاجة ملحة وشديدة إلى درجة اهتزت معها الرحمة الإلهية، واستجابت، فأرسلت فخر الكائنات رسولاً.. وبمجيئه تغير كل شيء وتبدل، وتحقق الانقلاب الأعظم. أجل، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

وُلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِياءُ   وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

وبعد أن كان الزمان والمكان غارقين في الظلام، إذا بثغريهما يفترّان عن بسمة وفرحة بالنور الذي جاء به الرسول محمد ﷺ.. وبعد سنوات كان أهل المدينة ينشدون لمجيئه، ويهللون لقدومه، مرددين في استقباله:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع[1]

٤. إعداد إلهي

لقد كانت كل مراحل طفولته وشبابه ونضوجه بمثابة مقدمات وسلالم لنبوته، إلى درجة أنه ما إن أعلن نبوته ورسالته حتى آمن به من عرفه عن قرب.

فهو الصادق الذي ما جُرّب عليه كذب قط، وها هو يتكلم عن الله تعالى، وأنه رسول من عنده، إذن، فكيف يمكن لإنسان لم ينطق بكذبة واحدة في أصغر شأن من الشؤون أن يكذب في مثل هذا الموضوع الخطير، وفي هذا الموضوع العلوي؟[2] كان هذا شيئاً مستحيلاً، وأمراً محالاً. هكذا كان يفكر إنسان ذلك العهد.. ومع أن الجميع لم يؤمنوا به، إلا أن من نبذ العناد والحسد، أسرع إلى الإيمان به.

صحيح أن العهد الذي كان يعيش فيه كان عهد جاهلية، ولكن صفة الجاهلية كانت بعيدة عن حياته الخاصة وخارجة عنها؛ فما عاش النبي حياة جاهلية قط، فلقد كان شخصاً

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٤١/٣؛ دلائل النبوة للبيهقي، ٥٠٧/٢.
[2] انظر: البخاري، بدء الوحي ٣، ٦؛ مسلم، الجهاد ٧٤.

أميناً، يعرفه الجميع بهذه الصفة؛ فلنفرض مثلاً أنك عزمت على السفر، وأردت أن تودع زوجتك في مكان، فإنك تستطيع دون أي تردد أن تودعها عند محمد الأمين، وأنت مطمئن البال بأنه لن يرفع طرفه لينظر إليها.. وإن كنت ترغب في إيداع مالك عند أحد الناس، فإنك لا تتردد لحظة واحدة أن تذهب، وتسلمه إليه، وأنت على يقين تام بأن ذرة واحدة من مالك لن يصيبها أي ضرر، وأنه في غاية الحفظ وأتمه.. وإذا أردت العلم اليقين في أمر من الأمور، فما عليك إلا المسارعة إلى الصادق الأمين، لتستمع إليه، وتُقيم الموضوع على ضوء بيانه، وأنت مرتاح البال؛ لأنه لم ينطق بكذبة واحدة طوال حياته.

أتريد دليلاً على هذا؟ حسناً.. ها هو يصعد الصفا، ويسأل الناس حواليه: «أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلاً تَخرج من سَفْح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟»، قالوا: "ما جرّبنا عليك كذبا." حتى عُتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة وأبو جهل وغيرهم من أعداء الدين، كانوا من ضمن هؤلاء المجيبين والمصدقين.[1] فالجميع يسلمون بصدقه واستقامته وأمانته.

فقدَ أباه في بطن أمه، وفقد أمه في سن السادسة من عمره، فكفله جده عبد المطلب، وما أن بلغ الثامنة من عمره حتى توفي جده كذلك.. كأن القدر كان يجرّده من كل شيء، ويهيئه لتسليم أمره كله لله ﷻ؛ فكل من مدّ يده إليه، أو أخذه في حمايته كان سرعان ما يرحل.. فكأن القدر كان يومئ بالحماية الإلهية الفعلية والمباشرة في ظل نور التوحيد، وتجلي سر الأحدية.. كان عليه أن يحس بكلمة التوحيد، وبجملة "حسبي الله" في أعماق وجدانه، وينطق بها.. كان من الضروري أن تفقد الأسباب الظاهرية قيمتها عنده.. ولقد حدث هذا فعلاً.

جاء إلى الدنيا من أب اسمه "عبد الله"، وأم اسمها "آمنة"؛ وليس هذا تصادفا، بل تقديراً إلهيّاً؛ فأمّ يحمل اسمها معنى الأمن والأمانة، وأب يحمل اسمه معنى العبودية لله تعالى، تهيئةربانية، وإعداد إلهي، لينشأ الأمين قبل الرسالة في جو من معاني العبودية.

نشأ يتيماً.. فلقد كان هناك في انتظاره عبء ثقيل، ووظيفة هامة، وكان عليه أن يتهيأ لها منذ الآن. كان عليه بلوغ الذروة في التوكل على الله، والاستعداد لمواجهة جميع الصعاب والمشاكل.. وقد حفظه الله تعالى من الغنى المفرط المؤدي إلى البطر والكبرياء، ومن الفقر المدقع المؤدي إلى الذل والعجز، وأنشأه شخصاً معتدلاً ومستقيماً في شؤون حياته طوال عمره، بعيداً عن الإفراط والتفريط.

إن من المهم جدًا للقائد أن يمر بمثل هذه الأيام الصعبة.. فمن عرف معنى اليتم، يعرف

---

[1] البخاري، تفسير سورة (١١١) ١-٣؛ مسلم، الإيمان ٣٥٥.

كيف يكون أباً رحيماً على أمته، عطوفاً عليها.. كان عليه أن يذوق طعم الفقر لكي يحس بمعاناة الذين يقوم بأمر إدارتهم، وتصريف شؤون حياتهم. وهكذا، فإن خُلُق مساعدة اليتامى الفقراء، ومعاونتهم، والحدب عليهم، ورعايتهم، والاهتمام بهم كان من ضمن الخلق العظيم لرسول الله ﷺ الذي امتدت جذوره إلى هذه المرحلة من حياته، وشربت من مائها، وتنفست من هوائها. وعندما ارتقى الذُرى فيما بعد، لم يتخلّ عن هذا الخلق ولم يتبدل، ولم يغير سمة حياته البسيطة المتقشفة، فلم يقهر طوال حياته يتيماً، ولم يرد سائلاً ولم ينهره؛ ذلك لأن هذا الخلق كان مما علّمه الله ﷻ، وربّاه عليه حينما قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ۞ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَر ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:٦-١١).

وأنا كلما قرأت هذه السورة خطر على بالي أن أعرض يتمي على رسول الله ﷺ باعتباره شفيعاً لنا -مع أنني فقدتُ والدي منذ سنوات- فأقول له: "يا رسول الله! ها أنا ذا يتيم، واقف على عتبة بابك، فلا تطردني عن بابك، ولا تحرمني من شفاعتك."

٥. نور مرتقَب

كان جده عبد المطلب قد استشفّ فيه نور النبوة من زمن طويل، فقد كانت جميع أيامه معه أيام يمن وبركة؛ فكان يأخذه معه إلى مجالس الكبراء، ويكرمه هناك، فلربما رأى فيه منقذ البشرية، إذ كان يرى في نظرات عينيه عمقاً لم يره في أحد. كما أنه قد سمع الروايات المنقولة عن "لُؤَيّ" -أحد أجداده- حول ظهور نبي من نسله؛ واستناداً إلى هذه البشارة، لعله اكتشف علامات النبوة أو استشفها فيه، ولعل هذا كان هو السبب في حبه الشديد وشغفه الكبير بحفيده حتى أنه يغار عليه من عينيه. وعندما حضرته الوفاة بكى بكاء شديداً.. بكى لأنه لن يستطيع بعد الآن أن يضم محمدا إلى صدره..[1] بكى هذا الشيخ هذا البكاء، وهو الذي لم تطرف عيناه أمام جيش أبرهة، ولم تدمع عيناه في حرب الفِجار مع القبائل العديدة المعادية التي استمرت سنوات عديدة، ولكن هذا الشخص العظيم بكى مثل طفل صغير قبيل فراق حفيده السعيد. وهكذا انتهت وصاية عبد المطلب وكفالته بوفاته وتوديعه للحياة، وكان على لؤلؤة الخَلق وجوهرته أن ينتقل إلى كفالة عمه أبي طالب.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ١٧٨/١؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٨/١.

٦. مكافأة جزيلة

وفى أبو طالب بوعده، فحمى رسول الله ﷺ مدة أربعين سنة تقريباً وسانده. ولم يبق معروفه هذا دون مقابل، إذ وهبه الله تعالى ابناً مثل علي ﷺ، وبينما كان نسل كل نبي يستمر عن طريقه، إلا أن نسل رسول الله ﷺ استمر عن طريق علي كرم الله وجهه، وهناك رواية عن رسولنا في هذا الخصوص.[1]

كان علي ﷺ يمثل جانب الولاية لرسول الله، إذ يُعدّ من هذه الناحية أمير الأولياء؛ فجميع أرباب الطرق ورجالهم سيذكرونه بالتقدير والأجلال حتى يوم القيامة وسينقادون له. فعلي المرتضى، الفارس المغوار، والحيدر الكرار، وصهر رسول العالمين ﷺ كان هدية رب العالمين لأبي طالب، جزاء العناية التي أبداها لرسوله الكريم، والمؤازرة التي قدمها له. وما كان أبو طالب ووالده عبد المطلب إلا أسباباً ظاهرية، وإلا فإن الله ﷻ كان هو صاحب الحماية الحقة له، وصاحب العناية به.

فبينما كان يرفع هذه الشخصية النادرة، ويسمو به إلى مرتبة النبوة، كان في الوقت نفسه يهيئ المجتمع لقبوله، إذ أصبحت إيماءات نبوته وعلاماتها تتضح يوماً بعد يوم، وأصبح محمد ﷺ شخصاً يتحدث عنه الكل، ويعرفه الجميع.. شخصاً ذا أهمية كرجل هذه الساعة ورجل كل ساعة.

جـ- علامات النبوة

١. رحلته إلى الشام والراهب بَحيرَى

تشير كتب السير كلها إلى أن رحلته الأولى كانت إلى الشام مع عمه أبي طالب عندما كان عمره اثني عشر عاماً. وعندما حطّت القافلة في الطريق للاستراحة تُرك رسول الله حارساً وناظراً لها. في هذه الأثناء لاحظ راهب اسمه "بَحِيرَى" -يتلفظه البعض "بُحَيْرى" خطأً- أمراً غريباً في هذه القافلة التي كان يراقب سيرها، إذ لاحظ أن هناك غيمة تتعقبها وتظللها، فإن سارت القافلة سارت معها، وإن وقفت وقفت معها. لذا، أرسل هذا الراهب من يدعو جميع أفراد هذه القافلة إلى تناول الطعام معه. وقد دهش أفراد القافلة من هذه

---

[1] في الحديث: إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صُلبه وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب. (مجمع الزوائد للهيثمي، ١٧٢/٩؛ فيض القدير للمناوي ٢٢٣/٢؛ تاريخ بغداد للبغدادي ٣١٧/١).

الدعوة، فهذا الراهب لم يكن ليهتمّ بالقوافل من قبل. واستجاب للدعوة جميع أفراد القافلة عدا سيدنا محمد ﷺ، إلا أن الراهب لم يجد فيهم ضالته، فسألهم عما إذا كان أحد من القافلة قد تأخر عن حضور مأدبته، وعلى إثر الجواب الذي تلقاه منهم أرسل إليه يدعوه كذلك، وما أن رآه حتى علم أنه ضالته، وتوجه إلى أبي طالب يسأله عنه، فقال أبو طالب "إنه ابني"، ولكن الراهب لم يشأ تصديقه، ذلك لأنه توسم فيه أنه ضالته التي يطلبها.. إذن، فوالده يجب أن يكون متوفّى قبل ولادته. ثم دعا أبا طالب وأسرّ في أذنه بوجوب تخلّيه عن هذا السفر، وقال له بأن اليهود قوم يغلب عليهم الحسد، وأنهم ما إن يعرفوا من سيماه بأنه هو خاتم الأنبياء حتى يتعرضوا له بالأذى لكونه ليس منهم. واستجاب أبو طالب لنصيحته، وانسحب من القافلة بعد أن أبدى لأصحابه عذراً ما، ورجع بمحمد ﷺ إلى مكة.[1]

كان الراهب "بَحيرَى" محقّاً في كلامه، ولكن غاب عنه شيء واحد؛ وهو أن رسول الله ﷺ كان في حماية رب العالمين، حيث إن الآية الكريمة: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧) تشير إلى هذه الحماية والعصمة. أجل، كان هذا هو ما يقوله له ربه، وقد صدق له وعده.

٢. رحلته الثانية إلى الشام

قام فخر الكائنات برحلته الثانية إلى الشام، وعمره خمس وعشرون سنة. كان على رأس القافلة التي أرسلتها خديجة رضي الله عنها، وكان يعمل معها. وفي هذه الرحلة أيضاً التقى راهباً آخر اسمه "نَسْطُورَا"، وقد تَوسّم هذا الراهب فيه أيضاً علامات النبوة.[2]

د- النبي المرتقب والمبشر به

١. دعاء إبراهيم وبشارة عيسى عليهما السلام

سأله أحد الصحابة يوماً: ما كان بدءُ أمرك؟ فقال: «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى بن مريم.»[3] ويتناول القرآن الكريم هذا الموضوع في آيتين مستقلتين:

الأولى: دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٩).

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ١/١٩١-١٩٥.
[2] السيرة النبوية لابن هشام، ١/١٩٩.
[3] كنز العمال للهندي، ١١/٣٨٤.

الثانية: بشرى عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف:٦).

أجل، فرسول الله ﷺ لم يظهر هكذا فجأة، بل هو نبي تمّت البشارة بقدومه منذ عصور وعصور، وكان العالم بأسره في انتظاره.

إن أكبر دليل وبرهان على نبوته هو هذا القرآن الكريم الذي يُعدّ معجزة خالدة أبد الدهر. أجل، ففي القرآن ذي البيان المعجز مئات من الآيات التي تدل وتبرهن على نبوة فخر العالمين. فمن لم يستطع إنكار القرآن بأجمعه، لا يستطيع إنكار نبوته أبداً. غير أن هذا موضوع مستقل لن نتناوله الآن، وشروح الآيات القرآنية التي سنعرضها كأدلة، كلما جاء موضعها، ستساعد في إيضاح هذا الموضوع بعض الشيء.

٢. بشارات التوراة

سنتناول هنا بعض البشارات التي لا تزال موجودة في التوراة والإنجيل والزبور حول رسول الله ﷺ على الرغم من تعرّض هذه الكتب إلى مئات من التحريفات. ومن أراد التفصيل في هذا الموضوع، فعليه بمراجعة الكتب التي شَرحت وفصلّت هذا الموضوع، ولاسيما كتاب "الرسالة الحَميدية" للشيخ حسين الجِسْر، أما هنا فسنكتفي بإيراد بعض هذه الأدلة التي نراها مهمة.

أ. جبال فاران

جاء في الترجمة العربية لنسخة التوراة المطبوعة في إنكلترة عام ١٩٤٤ ما يأتي: [جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران.] (التثنية - الباب: ٣٣، الآية: ٢)، أي أن رحمة الله ﷻ وفضله على الإنسانية ظهرت في سيناء، وهي الموضع الذي كلم الله تعالى فيه النبي موسى عليه السلام، وهذه الرحمة هي النبوة التي أعطيت لموسى عليه السلام؛ أما ساعير فهو فلسطين، وتجلت رحمة الله تعالى فيه بإرساله الوحي إلى عيسى عليه السلام. والمسيح عليه السلام من الأنبياء العظام، وموضع تجليات وأفضال عديدة لله ﷻ؛ ونظراً لأن العديدين التبس عليهم مفهوم التجلي مع مفهوم الظهور، فقد أدى هذا إلى مشاكل عديدة.

أجل، فإن التجلّي عند عيسى عليه السلام هي النفخة الإلهية في مولده؛ أما في جبال فاران فقد ظهر الله تعالى فيها بسر أحديته، ومقام فرديته. وفاران هي مكة، إذ ورد في موضع آخر من

التوراة بأن إبراهيم عليه السلام ترك ابنه إسماعيل في فاران، إذن، فإن المقصود من فاران في التوراة هي مكة. فالبشارات الثلاثة متعلقة بالنبي موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام الذي هو خاتم الأنبياء.

وتستمر هذه الآية من التوراة بالعبارة التالية: [ومعه ألوف الأطهار، في يمينه سِنّة النار.[1]][2] وهي تدل على أنه سيكون مأموراً بالجهاد.

من المعلوم أن رسول الله ﷺ كان يعتكف قبيل نزول الوحي في غار حراء، حيث يتأمل ويتحنّث فيه، وكان أول نزول الوحي عليه في هذا الغار.[3] فإذا لم يكن فاران مكة، فأيّ مكان يكون إذن؟ وأيّ مكان شعّ نوراً مثل الدين الإسلامي الذي ظهر منه، وانتشر شرقاً وغرباً؟ ولمّا لم يكن هناك في العالم بأسره مكان آخر، فيه كل هذه المواصفات غير مكة، فإن فاران الوارد في التوراة لا يعني سوى مكة. وكما قلنا سابقاً، فإن الآية رقم ٢ من الباب ٣٣ من كتاب التثنية، والآية رقم ٢٠ من الباب ٢١ من كتاب التكوين، وهي: [وسكن برّية فاران.] تشير إلى الموضع الذي سكن فيه سيدنا إسماعيل عليه السلام. وهذا دليل واضح وقاطع على أن فاران هو مكة، وليس بمقدور أحد أن يثبت العكس، والاعتراضات التي أثيرت في هذا الموضوع اعتراضات سطحية وغير علمية. ثم إن ختام الآية التي تشير إلى أصحابه، وإلى كونه مكلفاً بالجهاد لا يدع مجالاً لأي شك أو شبهة في أن رسول الله محمداً ﷺ هو المقصود، وهو المعنيّ.

ب. من نسل إسماعيل عليه السلام

والآية الثانية من التوراة تقول: [وسوف أقيم لهم نبيًا مثلك من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمر به] (التثنية - الباب: ١٨، الآية: ١٨).

فالله ﷻ يخاطب موسى عليه السلام ويقول له: إنني سأرسل لهم، أي لبني إسرائيل نبيًا مثلك من بين إخوتهم، وسأجعل كلامي في فمه لكي يبلغهم بأوامري.

والآية رقم ١٩ التي تكمل هذه الآية هي: [ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك].

---

[1] سِنّة النار: أي فأس من النار ذو رأسين. (المترجم)

[2] في الطبعة الإنكليزية للتوراة وردت هذه الآية هكذا: [ومعه عشرة آلاف من الأطهار.] وهي تشير إلى فتح مكة، غير أنهم حذفوا [عشرة آلاف] من التراجم العربية. (المترجم)

[3] البخاري، بدء الوحي ٣؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢.

وتعبير "إخوة بني إسرائيل" الواردة في تلك الآية، تشير إلى نبي يأتي من نسل إسماعيل عليه السلام، والنبي الوحيد الذي أتى من نسل إسماعيل عليه السلام هو نبينا محمد ﷺ. ثم إن الآية تشير إلى أن هذا النبي سيأتي بشريعة مثلما أتى موسى عليه السلام بشريعة. كما أن هذه الآية تومئ إلى أن النبي المبشر به سيكون أُميًّا.

أما الانتقام من غير المطيعين المذكور في الآية فتشير إلى الحدود والعقوبات، وهي غير موجودة إلا في الدين الإسلامي. ولا يمكن أن يكون عيسى عليه السلام ولا يوشع عليه السلام النبي المبشر به في التوراة على الإطلاق، ذلك لأن هذين النبيين هما من بني اسرائيل. ثم إن عيسى عليه السلام لم يأت في معظم المسائل بأحكام جديدة أو بشريعة جديدة، بل كان متبعاً لشريعة موسى عليه السلام.

أما يوشع فمن الواضح جدًّا أنه لا يشبه موسى عليه السلام، لأنه لم يأت بشريعة جديدة، بينما تشير الآية الكريمة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ (المزمل:١٥) إلى وجه الشبه بين موسى عليه السلام ونبينا عليه الصلاة والسلام. والحقيقة أنه لا حاجة بعد هذا إلى أي دليل آخر.

ج. صفاته الأخرى

كان قد اشتهر عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن سلام وكعب الأحبار رضي الله عنهم بأنهم أعلم الناس بالكتب القديمة. ويروى عنهم أن التوراة التي لم تكن قد حُرِّفت بنسبة تحريفها الحالي، كانت تحتوي على هذه الآية: يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتُك المتوكِّل، ليس بفَظّ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله.[1]

والآن لنفكر: مَن المقصود بهذا في التوراة؟ لا نحتاج حتى إلى تحليل عميق لندرك أن المعنى الظاهري لهذه الآية يتعلق بنبي سيأتي، وندرك من الآية أن هذا النبي ليس سوى النبي محمد ﷺ، فقد أرسل رحمة للعالمين وللناس أجمعين، فكأن هذه الآية تقول له:

إنا نرسلك أيها النبي إلى العالمين مبشراً بالطريق القويم، والصراط المستقيم، ونذيراً لسالكي الطرق المعوجة الملتوية من وخامة العاقبة. ستقف أمام جميع الشرور والرذائل لتَحول دون

---

[1] البخاري، البيوع ٥٠ ؛ المسند للإمام أحمد، ١٧٤/٢.

سقوط الناس في هاوية السعير، وستكون نوراً وضياء للتائهين في ظلام هذه الطرق الملتوية لتقودهم من أيديهم إلى الجنة، وإلى رضاء الله.

إنا أرسلناك حِرْزاً للأميين في عهد الجاهلية وملاذاً، فطالما اتبعوك واستندوا إليك، فسيكونون في حرز وأمان، وفي رحمة من الله وفضل. أنت عبدي ورسولي -أجل، فنحن نشهد دوماً في الصلاة عندما نقرأ التحيّات أنه عبد الله ورسوله- لقد وضعتُ لك اسم وصفة "المتوكل"، فلو خاصمك العالم بأسره، وعاداك وحاربك لَما اهتزّت منك شعرة واحدة. أجل، فلكل نبي أفق خاص به في التوكل، أما أنت فلك شأن آخر في هذا الخصوص، لذا فقد سميتك "المتوكل".

ثم يتوجه هذا الخطاب إلى الغيب: هو ليس بالشخص الصخّاب الغضبان على الدوام، الفظ الغليظ، بل صاحب أدب وخلق ووقار ورزانة، ليس بالشخص الذي يصرخ ويشتم في الأسواق، ذلك لأن هذا الأسلوب في جلب اهتمام الناس ليس إلا دليل ضعف، وعلامة غرور.. وهو بعيد عن مثل هذه الصفات الذميمة ومبرأ منها.

لا يقابل السيئة بالسيئة والشر بالشر.. يأتي إليه أحد الأعراب، ويجرّه من ردائه بقوة قائلاً له: "أعطني حقي!" فلا يقابل النبي ﷺ هذه المعاملة الخشنة التي تثير الغضب في نفوس صحابته إلا بالتبسم، ثم يقول لأصحابه: «أعطوه حقه.»[1]

أجل، لقد كان يعفو عن أكبر الذنوب، ولكن بشرط ألا ينتهك شرع الله. تأملوا سماحته وحلمه وعفوه مع أهل مكة -الذين آذوه أذى شديداً طوال سنوات- بعد فتحها، وبعد أن أصبح قادراً على أن يفعل بهم ما يشاء، ولكنه قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطُلَقاء.»[2]

وَعَد الله ألا يتوفاه ويرفعه إليه إلا بعد أن يهتدي أهل الجاهلية التائهين في ظلمات الباطل بالنور الذي أرسل به. وأنجز الله وعده، فلم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل الله دينه، وأتم نعمته، وربّى صحابة له، وأتباعاً يمثلون هذا الدين أصدق تمثيل. عند ذلك فقط، كانت مهمته قد انتهت، ووظيفته قد استوفيت.. إذن، كان يستطيع أن يفارق الناس، ويلتحق بحبيبه الحقيقي.. فقد أدى رسالته في الدنيا.

أجل، كانت التوراة تصفه بهذه الصفات، وعندما حان موعد مجيئه، جاء وهذه الصفات بأجمعها متحققة فيه. فالحقيقة أن ما ورد في التوراة يتطابق مع سيرة رسول الله ﷺ، إذن، فمن

---

[1] أبو داود، الأدب ١؛ المسند للإمام أحمد، ٣٧٧/٢.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٥٥/٤.

هو النبي الكريم الذي تذكره التوراة؟ أهناك شخص آخر في التاريخ تتطابق حياته مع ما جاء أعلاه؟ كلاّ دون شك. إذن، فالمقصود هو الرسول محمد ﷺ، وليس غيره.

٣. بشارات الإنجيل

أ. فارقليط

جاء في إنجيل يوحنا: [قال المسيح: إنني ذاهب إلى ربي وربكم لكي يرسل لكم فارقليط، الذي سيأتي إليكم بالتأويل] (الباب: ١٦، الآية: ٧). ويأتي فارقليط بمعنى روح الحق، الذي يفرق بين الحق والباطل.

أجل، إن رسول الله هو روح الحق، ذلك لأن القلوب الميتة لا تحيا إلا بالحق الذي جاء به. وقد بذل كل شيء، وكافح لكي يوصل الهداية إلى الناس، ولم يتميز الحق عن الباطل إلا بعد هذا الجهاد وهذا الكفاح. إذن، فقد جاء فارقليط الذي بشر به المسيح عليه السلام، وهو خاتم النبيين والمرسلين محمد رسول الله ﷺ.

وجاء في إنجيل يوحنا (الباب: ١٤، الآية: ١٥، ١٦): [إن كنتم تحبونني أطعتم أوامري، أما أنا، فسأبتهل إلى الرب ليرسل لكم معيناً آخر، وروح الحقيقة "فارقليط" لكي يبقى معكم على الدوام.] والآن لنتأمل هذه الآيات: [فارقليط هو روح القدس الذي سيرسله الرب باسمي أي نبيًا مثلي. سيعلمكم كل شيء، وسيذكّركم بما قلته لكم] (يوحنا - الباب: ١٤، الآية: ١٤).

[عندما يأتي فارقليط سيشهد لي، وستشهدونَ أنتم لي] (يوحنا - الباب: ١٥، الآية: ٢٦-٢٧). [ولكني أقول لكم الحق: من الأفضل لكمْ أن أذهب، لأني إن كنت لا أذهب لا يأتي فارقليط إليكم، ولكني إن ذهبت، أرسله إليكم] (يوحنا - الباب: ١٦، الآية: ٧). [وعندما يأتي فارقليط يُبكّت العالمَ على الخطيئة] (يوحنا - الباب: ١٦، الآية: ٨).

جاء الإنجيل باللغة العبرانية في البداية، ثم ترجم إلى اللغة اليونانية، والتراجم العربية الموجودة في أيدينا مترجمة عن اليونانية، ولما كانت كلمة "فارقليط" واردة في الترجمة الأولى إلى اليونانية، فإننا لا نعرف الكلمة الأصلية المقابلة لها في العبرية، وفارقليط هي الترجمة العربية لهذه الكلمة في اليونانية، أي أنها دخلت إلى العربية عن طريق التعريب، إلا أننا لن نقف عند هذه الكلمة لنبني موضوعنا عليها، بل سنحاول رؤية جميع صفات النبي الذي بَشّر بها الإنجيل، وكيفية تطابقها، وملاءمتها مع صفات رسولنا ﷺ.

لنجعل من كلمات عاشق للنبي ﷺ عنواناً.. أجل، فما أجمل ما قاله مولانا جلال الدين الرومي:

بود در إنجيل نعت مصطفى   آن سر بيغمبران بحر صفا
بود ذكر حليها وشكل أو   بود ذكر غزو صوم وأكل أُو

أي:

نعت المصطفى ﷺ موجود في الإنجيل، هو زعيم الأنبياء وبحر الصفاء، صفاته وشمائله وغزواته وصومه وأكله.. موجود كله في الإنجيل.

ب. رئيس العالم

جاء في إنجيل يوحنا (الباب: ١٤، الآية: ٣١) قول المسيح عليه السلام: [لن أكلّمكم كثيراً بعد، فإن سيد هذا العالم قادم عليّ، ولا شيء له فيّ.] وتقول (الآية: ٨ وما بعدها في الزبور، الباب: ٧٢): [مستمد مملكته من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض.. أمامه يركع أهل البادية.. ملوك تَرْشِيش والجزر يحملون إليه الهدايا.. ملوك الشَّبَا وسبأ يقدمون عطايا.. ينحني أمامه جميع الملوك، وتتعبد له كل الأمم، لأنه ينقذ المسكين المستغيث البائس الذي لا معونة له.. يعطف على الفقير والمحتاج، ويخلص نفوس المساكين إذ يفتدي نفوسهم من الظلم والعنف، ويحفظ حياتهم، لأنها ثمينة في عينيه، ليحيي الملك، ليعط له ذهب شبا، وليصلوا من أجله دائماً، ويطلبوا له بركة الله كل النهار. لتتكاثر الغلال في الأرض، وعلى رؤوس الجبال، وتتماوج مثل أرز لبنان، ويُزهر أهل المدينة كعشب الأرض.. يخلد اسمه إلى الدهر، ويدوم اسمه كديمومة الشمس، ويتبارك الناس به، وتُطوّ به كل الأمم.]

وكما قلنا آنفاً، فإننا دخلنا إلى هذا الموضوع استطراداً ومن أجل إعطاء فكرة مختصرة، وليس في نيتنا الدخول إلى تفاصيله، إلا أننا لا نملك هنا أنفسنا من القول بأنه على الرغم من جميع محاولات النصارى واليهود حاليًا أو في الماضي من الذين تغلغل الغل والحسد إلى عروقهم ونفوسهم، وعلى الرغم من جميع محاولات التحريف التي قاموا بها، فإن التوراة والإنجيل الموجودين حاليًا يحفلان بالكثير من البشارات حول نبوة رسول الله ﷺ، والعديد من الإشارات إليه. وأنا أعتقد أنه بجهود المحظوظين من مؤرّخينا قد نعثر على النُسخ الأقلّ تعرّضاً للتحريف للتوراة والإنجيل والزبور، وعندئذ سيرى فيها الجميع حتى العامة من الناس الإشارات الصريحة الواضحة التي لا تحتاج إلى أي تفسير أو تأويل حول

نبوة رسول الله ﷺ، ولعل الأحاديث التي تخبر عن رجوع المسيحية إلى نقائها القديم إشارة إلى هذا الأمر.[١]

ومن جانب آخر، فإنه من الثابت في القرآن والسنة أن التوراة والإنجيل يشيران إلى النبي ﷺ وإلى أصحابه، لذا فإن إنكار هذا الأمر يعد انحرافاً وكفراً.[٢]

هـ- قدوم طال انتظاره

لم يكن من ينتظره ويبشر بقدومه واحداً أو اثنين، بل كانوا كثيرين، وكان زيد بن عمرو بن نُفَيْل واحداً منهم -وهو والد الصحابي سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرة بالجنة وابن عم عمر بن الخطاب ﷺ- فقد كان من الأحناف، إذ هجر الأصنام ذاكراً أنها لا تضر ولا تنفع. ولكنه كان من الذين توفّوا وهم على أعتاب ظهور النبوة، وكانت له بشارات، أهمها قوله: "إنني أعرف أن ديناً جديداً قد أطلّ، ولكني لا أعرف إن كنتُ أدركه أم لا!"

كانت نسمة قد مسّت قلب زيد.. كانت بمثابة نفحة ربانية فتحت مصاريع هذا القلب تماماً لاستقبال الحق، فكان يؤمن بالله الواحد ﷻ، ويسلم نفسه إليه، ولكنه لم يكن يدري الإله الذي آمن به، ولا يدري كيف يعبده.

ويروي لنا أحد الصحابة وهو عامر بن رَبيعة ما يأتي: سمعت زيد بن عمرو بن نُفَيْل يقول: "أنا أنتظر نبيّاً من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه. وأنا أومن به، وأصدّقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيتَه فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نَعْتُه حتى لا يخفى عليك." قلتُ: هلمّ! قال: "هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينَه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه. ثم يُخرجه قومه منها، ويَكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب، فيظهر أمره. فإياك أن تخدع عنه، فإني طُفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم. فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعتّه لك، ويقولون لم يبق نبي غيره."

---

[١] البخاري، الأنبياء ٤٩؛ مسلم، الإيمان ٢٤٤-٢٤٧.

[٢] انظر: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ (الأعراف:١٥٧)، ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ (الفتح:٢٩)، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف:٦). وانظر إلى: البخاري، البيوع ٥٠؛ المسند للإمام أحمد، ١٧٤/٢. وإذا أردت التفصيل فانظر إلى: الخصائص الكبرى للسيوطي، ١٨/١-٣١.

قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ بقول زيد بن عمرو، وإقراءه السلام فرد عليه السلام وترحم عليه وقال: «رأيته في الجنة يسحب ذُيولاً.»[١]

كان ورقة بن نوفل عالـماً نصرانياً، وكان ابن عم أمّنا خديجة رضي الله عنها، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

وعندما نزل أول وحي على النبي ﷺ انطلقت به خديجة إلى ورقة فقالت له: يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: "هذا الناموس الذي نَزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَع، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك"، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مخرجيّ هم؟» قال: "نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مُؤَزَّراً."[٢]

أما عبد الله بن سلام، فكان عالـماً يهوديًا. لنستمع إليه وهو يشرح كيفية إسلامه: لما قدم النبي ﷺ انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبيَّنْتُ وجهَه عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصِلوا الأرحام وصَلُّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[٣]

كان عبد الله بن سلام شخصية مهمة، يقول عنه ابن حجر في كتابه "الإصابة" إنه كان شخصاً مبرزاً، ومن نسل النبي يوسف عليه السلام.[٤] ومدح القرآن شهادته وذكرها كدليل ضد الكفار فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأحقاف:١٠).

وشاهد بني إسرائيل الوارد ذكره هنا، هو عبد الله بن سلام. ومع أن بعض المفسرين يذكرون بأن الشاهد المذكور في هذه الآية الكريمة هو النبي موسى عليه السلام على اعتبار أن هذه الآية مكية، ولكن الرأي الراجح هو أن هذه الآية مدنية، أي أن سورة الأحقاف وإن كانت مكية، إلا أن هذه الآية مدنية، وتشير إلى عبد الله بن سلام.

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٢٩٦-٢٩٩.

[٢] البخاري، بدء الوحي ٣؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢.

[٣] المسند للإمام أحمد، ٥/٤٥١؛ الترمذي، الأطعمة ٤٥، القيامة ٤٢؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٧٤، الأطعمة ١.

[٤] الإصابة لابن حجر، ٢/٣٢٠.

و- لماذا لم يؤمنوا ؟

مع أن جميع اليهود والنصارى كانوا يعرفون أنه رسول الله إلا أن حقدهم وحسدهم كان يمنعهم من الإيمان به، ويقف حائلاً دون ذلك. وكانت هذه المعرفة دقيقة وواضحة إلى درجة أن نظرة واحدة منهم لرسول الله ﷺ كانت كافية للإيمان به، ذلك لأنهم كانوا يعرفون هيئة رسول الله ﷺ وشمائله وصفاته، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فيقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٤٦).

ولا يصرح الله تعالى في هذه الآية باسم نبيه، بل يذكره بضمير الغائب (ـه)، وهذا يشير إلى أن جميع أهل الكتاب كانوا يعرفون خاتم الأنبياء؛ لذا، فعندما ذكره بالضمير، كانوا يعرفون أنه يعني النبي المذكور اسمه في التوراة والإنجيل، وهو سيدنا أحمد أو محمد عليه الصلاة والسلام، إذ كانوا يعرفونه أكثر مما يعرفون أبناءهم.

ويروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لعبد الله بن سلام: "أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟" قال: "نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه."[1]

١- الغيرة والحسد

أجل، لقد كانوا يعرفون رسول الله ﷺ معرفة جيدة، ولكن الإيمان شيء، والمعرفة شيء آخر.. كانوا يعرفونه ولكن لا يملكون الإيمان به؛ فغيرتهم وحسدهم وقفا حائلين أمام إيمانهم، ومانعين له.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩). يشرح الله تعالى في هذه الآية السبب الحقيقي لعدم إيمانهم برسول الله ﷺ؛ فالقضية كلها تنحصر في عدم كون خاتم الأنبياء يهودياً. فلو ظهر رسول الله ﷺ من بين اليهود، لكان تصرفهم مختلفاً دون شك.

والدليل على هذا أن عبد الله بن سلام بعد أن أسلم قال لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله! إن اليهود قوم بُهتٌ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بَهَتوني عندك." فجاءت اليهود ودخل

---

[1] مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ١٤٠/١؛ وانظر: الدر المنثور للسيوطي، ٣٥٧/١.

عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: «أيّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمنا، وأَخْيَرُنا وابنُ أَخْيَرِنا. فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك! فخرج عبد الله إليهم فقال: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله." فقالوا: شرّنا وابن شرّنا. ووقعوا به.[1]

وهذه الحادثة تبين بجلاء أن اليهود كانوا يعرفون رسول الله ولا يجهلونه، غير أن عنادهم منعهم من الإيمان به.

ويُعدّ سلمان الفارسي ﷺ دليلاً قائماً وحده في هذا الموضوع.. فقد كان مجوسيًا أول الأمر، ولكنه كان يتحرّق شوقاً للعثور على الدين الحق، فدخل إلى المسيحية وتَنصّر واعتكف في الكنيسة، وعندما حضرت الراهبَ المنتسب إليه الوفاةُ سأله أن يوصيه براهب آخر، فوصفه له، وهكذا انتقل من راهب إلى راهب، وصحب كثيراً منهم، وأخيراً سأل السؤال نفسه من راهب شيخ يعيش الدقائق الأخيرة من حياته، فقال له ذلك العالم النصراني:

أيْ بنيّ، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم ﷺ، يخرج بأرض العرب، مُهاجَره إلى أرض بين حَرّتين،[2] بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال ثم مات، وغُيّب، ومكثت بعَمُّورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كَلْب[3] تجّار، فقلت لهم: إحْمِلوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه، وغُنيمتي هذه. قالوا: نعم، فأعطيتهموها، وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القُرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يَحِقَّ في نفسي. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها. وبُعث رسول الله ﷺ، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق. ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عَذْق[4] لسيدي أعمل له فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: يا فلان، قاتل

---

[1] البخاري، الأنبياء ١، مناقب الأنصار ٥١؛ المسند للإمام أحمد، ١٠٨/٣، ٢٧١، ٢٧٢.

[2] الحَرّة: كل أرض ذات حجارة سود. (المترجم)

[3] كَلْب: اسم قبيلة عربية. (المترجم)

[4] عَذْق: النخلة. (المترجم)

الله بني قَيْلَة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقُباء[١] على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي.

قال سلمان: فلما سمعتها، أخذتني العُرَواء[٢] حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة. ثم قال: ما لك ولهذا! أَقْبِلْ على عملك. قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال.

وكان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقُباء. فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم. قال: فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كلوا!»، وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي: هذه واحدة. قال: ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت في نفسي: هاتان ثنتان.

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببَقيع الغَرْقَد،[٣] قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعليّ شملتان[٤] لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وُصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبّله وأبكي، فقال رسول الله ﷺ: «تحوّلْ!» فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي، فأعجب رسولَ الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابُه.[٥]

٢- شعور المنافسة

يقول المغيرة بن شعبة: إن أول يوم عرفتُ رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يا أبا الحكم! هل لك إلى الله وإلى رسوله، وأدعوك إلى الله؟» فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت مُنْتَهٍ عن سب آلهتنا؟ هل

---

[١] قُباء: أصله اسم بئر عُرفت القرية بها. (المترجم)

[٢] العُرَواء: الرعدة والانتفاض. (المترجم)

[٣] بَقيع الغَرْقَد: مقبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة. (المترجم)

[٤] الشملة: الكساء الغليظ يشتمل به الإنسان أي يلتحف. (المترجم)

[٥] السيرة النبوية لابن هشام، ١/٢٢٨-٢٣٤.

تريد إلا أن نشهد أنك قد بلّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلّغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتّبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن يمنعني شيء: إن بني قُصَيّ قالوا: فينا الحِجابة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السِقاية، فقلنا نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا نعم، ثم أطعموا فأطعمنا، حتى إذا تحاكّت الرُكَب قالوا: منا نبي. والله لا أفعل.[1]

وفي رواية أخرى أن أبا جهل قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُكَب وكنّا كفرسيْ رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع له أبداً ولا نصدقه.[2]

واجتمع رجال قريش وقرروا أن يرسلوا عُتْبة بن ربيعة لكي يكلم النبي، ويقنعه بالعدول عن دعوته. وكان عتبة هذا يعدّ من حكماء قريش، ومن المقدَّمين في قريش، وكان أديباً، وشخصاً موسراً. فقام عُتبة وذهب إلى الرسول ﷺ، وأراد أن يلعب معه لعبة المنطق، فقال له: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال عُتبة: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه. ربما كان سكوته هو الجواب المناسب للأحمق. فقال عتبة: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبدت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك.

فقال رسول الله: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. فبدأ رسول الله ﷺ يقرأ عليه سورة فصلت: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿حٰم ۞ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۞ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٨٣/٣؛ كنز العمال للهندي، ٣٩/١٤-٤٠.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٨٣/٣.

سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت:١-١٣).

فلما وصل النبي إلى هذه الآية ارتجف عُتبة كمن أصابته حُمّى، ومدّ يده إلى شفتي الرسول ﷺ قائلاً ومتوسلاً: اصمُتْ يا محمد بحق إلهك الذي تؤمن به! ثم قام عُتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلِف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة. يا معشر قريش أطيعوا واجعلوها بي. خلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونَنّ لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن تُصِبْه العرب، فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يَظهر على العرب، فمُلكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سَحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم.[1]

٣- أسباب أخرى

لم تكن هذه الاعترافات اعترافات فردية تعود لشخص أو شخصين، بل كانت هذه قناعة عامة لديهم، ولكن أسباباً سلبية كانت تمنعهم من الإيمان به، مثل مشاعر الخوف والطمع والحرص والعناد. أجل، فمع أنهم يعلمون أنه نبي، إلا أنهم كانوا يعاندون في الإيمان به. ويشرح القرآن الكريم حالهم هذه وهو يسرّي عن الرسول ﷺ، فيقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣).

إنهم يلصقون بك تهماً عدة، وأنت تحزن من هذه الاتهامات الباطلة ولكن إياك أن تحزن مما يتقوّل عليك هؤلاء البائسون المغلوبون تحت ثقل أجسادهم، الأسارى بيد شهواتهم، العاجزون عن مغالبة عاداتهم. والحقيقة أنهم لا يكذبونك، إذ لا يستطيعون إسناد الكذب إليك، فأنت بريء من الكذب، وقد سبق وأن دعوك بـ"الأمين." وانظر إلى مدى حماقتهم، فهم لا يؤمنون بما يسندونه إليك، ومع ذلك يتجرؤون على ذلك.. إذن، فلا تحزن.

أجل، إن كان هناك من يجب أن يحزن فهو هؤلاء القوم الذين عادَوْا من بيده خير الدنيا والآخرة، والذين لم يفتحوا قلوبهم للنور وهم على مقربة منه.

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٨١/٣-٨٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣١٣/١.

ز . بُعد آخر وأفق آخر

إن الإنسان المسكين لهذا العصر، الذي فقد الكثير من مقاييس القيم، انقلبت نظرته وسلوكه وفكره تجاه رسولنا محمد ﷺ رأساً على عقب. هذا، علماً بأنه من الخطأ الجسيم القيام بتقييمه ﷺ بأي مقياس أو ميزان بشري. فهذا أمر مستحيل، ذلك لأنه كان شخصاً لا مثيل له، ولا نظير له، إذ زُوّد بروح وبقابليات متميزة فريدة، وأُرسِل إلى الدنيا لكي ينظمها من جديد، وليفتح للإنسانية آفاقاً جديدة مشرقة. لذا، فإن تقييمه أمر يخرج عن نطاق قدرتنا، وعن نطاق مقاييسنا وموازيننا، لذا فمهما وصفه الواصفون فلن يوفوه حقه، ومن هذا المنطلق أنشد حَسّان بن ثابت ﷺ -وهو من أعرف الناس به- قائلاً:

وما مدحت محمداً بمقالتي ولكن مدحت مقالتي بمحمد[1]

فذِكره السنيّ هو الذي يكسب الجمال للكلام الجميل وللكلمات الجميلة، وإلا فما من شيء في تعابيرنا يمكن أن يكسبه شيئاً. ويكرر الفرزدق المعنى نفسه، ولكن بتصرف قليل. ويستعمل مفكر العصر الكبير بديع الزمان النورسي المعنى نفسه عندما يتكلم عن القرآن الكريم:

وما مدحتُ القرآن بكلماتي ولكن مدحتُ كلماتي بالقرآن[2]

كل هذا نتيجة الاشتراك في الشعور نفسه وفي الفكر نفسه، فكلهم استقوا إلهامهم من نفس المنبع، ومن نفس المصدر؛ فأشاروا إلى الأشياء نفسها بتعابير مختلفة، فما أجمله البعض فصّله البعض الآخر، بينما عبّر الآخرُ عنه بأبيات الشعر.. ولكنهم كانوا يحومون حول المحور نفسه، ويطوفون حول المركز نفسه.

والأمر نفسه وارد بالنسبة إلينا، فنحن نريد أن نتحدث، وأن نعبر عن النعمة الكبرى المتميزة المهداة إلينا عندما أصبحنا من أمته، وأن نهتف من أعماق قلوبنا بالحمد لله رب العالمين والشكر له، لأنه رآنا أهلاً لإسباغ نعمته الكبرى علينا بأنِ جعلنا من أمة المصطفى محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم. فهذا فضل إلهي، وهو يسبغ فضله ونعمته على من يشاء وبالمقدار الذي يشاء، إلا أن هذا الفضل لا يمكن أن يزنه ميزان أو يحدّه قياس.. فهو بحر واسع لا يحده ساحل، ولا ينتهي بشاطئ. إلا أن للمسألة وجهة أخرى لا أستطيع إهمالها ولا الهرب من السؤال الذي تطرحه: أنملك قلباً لائقاً بسلطان القلوب هذا؟ هل هذا السلطان مستريح في مجلسه من القلوب؟ هل قلوبنا مفتوحة له على الدوام؟ أنلاحظه في

---

[1] المثل السائر لابن الأثير، ٢/٣٥٧؛ صبح الأعشى للقلقشندي، ٢/٢٣١.

[2] المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٤٧٧.

قيامنا وقعودنا، في أكلنا وشربنا؟ أنلاحظ محمداً ﷺ بقلوبنا في جميع حركاتنا وسكناتنا؟ أنسير في جميع شؤون حياتنا على الخط الذي رسمه لنا؟ فإن كان جوابنا بالإيجاب فما أسعدنا! لأن هذا يعني أن خيالنا وأحلامنا مزيّنة بجمال صورته.. وإننا بذلك نكون جماعة محمدية، نتخلق بأخلاقه ونتأدب بآدابه.. وإن أيّ جماعة تتزين بمثل زينة أخلاقه، تكون عنصر توازن في هذا العالم. وأنا أعتقد أن هناك سبباً واحداً فقط في عدم وصولنا إلى مثل هذا التوازن، وهو أننا لم نرتق بعد إلى المستوى اللائق للروح المحمدية.

إنه الإنسان المصنوع على عين الله.. وإن مجرد مجيئه إلينا كإنسان يعد أكبر سعادة لنا، ذلك لأن الجنّات نفسها، والفردوس نفسه يتشرف بقدومه. وإن وصفه بما هو أهل له لهو من أكبر مهماتنا، وأشرف وظائفنا؛ فالإنسانية لا تبلغ مرتبة الكمال الحقة إلا بعد أن تفهمه بحق، وتتبع خطاه. وقد عقدتُ نيتي على تنفيذ هذا، إلا أنني سبق وأن ذكرت بأنني لست فارس هذا الميدان، ولكن أملي الوحيد هو محاولة إفهامه وشرح آفاقه.. وكل ما أملكه في هذا الخصوص هو نيتي الخالصة.

كنت قد وضعت نفسي منه منذ مدة طويلة موضع "قطمير"، وأسرّي عن نفسي بهذا، غير أنني بدأت أفقد هذا الأمل بمرور الزمن. ثم تمنيت لو أنني خُلقت شعرة ببدنه، فأكون بهذا القرب من مثل هذا الشخص الذي كان مظهراً لمثل هذه الدرجة من اللطف الإلهي الخاص. ومرّ زمن عليّ وأنا في مثل هذه الأمنية، إلا أنني كلما ازددت معرفة به، تأكدت أكثر بأنني لست أهلاً لتحقق هذه الأمنية، لذا فقد انحصرتْ كل رغبتي وأملي في أن أكون فرداً من أمته، ذلك لأنني آمل ألا يحرم الله تعالى فرداً من أمته من شفاعته، فيقول وهو يدخلني بينهم: «هم القوم لا يَشْقَى بهم جَلِيسُهم.»[1]

أجل، فقد عقدت نيتي على محاولة القيام بمعرفة هذه الذات السامية، فما أسعدني إن استطعت قدح شرارة واحدة من حبه في قلب هذا الجيل! ولكن ما حيلتي، فمثلي في هذا مثل نملة نَوَتِ الحج، فهي تعلم أن أرجلها الضعيفة لا تقوى على قطع تلك المسافة الطويلة، ولكنها مسرورة لكونها ستموت وهي في الطريق إلى الحج.. فكل أملي أن أموت في هذا الدرب.

إنه إنسان أبعاد أخرى غير هذه الأبعاد.. لذا، فإن الوظيفة الملقاة على عاتقنا هي تعيير أنفسنا حسب تردد موجات ذلك العالم. وعندما يتم هذا، يبدأ التخاطب الصريح،

---

[1] البخاري، الدعوات ٦٦؛ مسلم، الذكر ٢٥؛ الترمذي، الدعوات ١٢٩؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٥٢-٢٥٣.

والتخاطب بالشفرات، وتصدر الأوامر من قِبله هو، إذ يتولّى القيادة والإدارة بنفسه. أما الجماعة التي يقودها، والمجتمع الذي يديره فمجتمع عميق المعاني، سامي الأغراض، تغبطه الملائكة، ويقصر عنه كل وصف وتعبير.

قد يبدو للبعض أن ما نقوله بعيد عن الموضوعية. وهذا أمر يؤسَف له، أيقال هذا، وكل يوم يَتلقّى بعض الشباب من ذوي الوجوه النيرة البشارات المعنوية من رسول الله ﷺ؟ وبعد قيام البعض بالاتصال به مباشرة دون أستار ولا حجب وفي عالم الشهادة نفسه؟

إنه بيننا على الدوام بروحه، وحسب بعضهم بجسده النوراني؛ فالإمام السيوطي يذكر أنه التقى رسول الله ﷺ، وتحدث معه مرات عديدة. أجل، إنه لم يمت بالمعنى الذي نفهمه من الموت، بل غيّر أبعاد الوجود فقط، فمن الخطأ النظر إلى وفاته وكأنها مثل وفاة أي شخص اعتيادي، ذلك لأن القرآن يذكر لنا ألا نقول عن الشهداء -وهم أقل بمرتبتين اثنتين عن الأنبياء- إنهم أموات. إذن، فكيف يجوز لنا أن نقول عنه إنه "ميت" بالمعنى الذي نفهمه عن الموت؟ أجل، لا يسعنا إلا أن نقول إنه انتقل إلى بُعد آخر، لذا فإن الأشخاص الذين استطاعت أنظارهم وأبصارهم الامتداد إلى هذه الأبعاد يستطيعون رؤيته ومشاهدته.

إن الذين استطاعوا الخلاص من سجن الجسم، ووصلوا إلى مرتبة حياة القلب والروح، يستطيعون عيش الماضي والمستقبل معاً وفي الوقت نفسه. إذن، فلِمَ لا يوجد سلطان الرسل في الآخرة وفي الدنيا وأمام الملائكة وأمام الأنبياء في الوقت نفسه وفي اللحظة نفسها؟ أجل، إنه يوجد وسيوجد، وسأجعل من كل ما ذكرتُه أساساً وقاعدة لِما سأذكره، لأن تعيين زاوية النظر إلى الأنبياء وإلى نبينا مهم جداً. فإن كان فهم الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين وحدسهم -دع عنك الأنبياء العظام- يحتاج إلى صفاء روحي وإلى نقاء قلبي خاص، فكيف يمكن فهم الأنبياء في هذا العالم المادي الغليظ الذي تكثر فيه الحجب والأستار؟ إذن، فلكي نفهمهم فإن علينا التوجه إليهم بكل استعداداتنا القلبية، ولطائفنا الروحية، وبكل دقة واهتمام وتركيز. فإن كان المطلوب فهم شخصية رسول الله ﷺ، فإن هذه الدقة والاهتمام والتركيز يجب أن يزداد أضعافاً مضاعفة، هذا علماً بأن درجة معرفة كلٍّ منا وفهمه يتبع درجة قوة نظرته القلبية، ولكن لا أحد يستطيع أن يفهمه ككل أو يحيط به إحاطة تامة، فهو كما قال البوصيري:

وكيف يُدرِك حقيقتَه قومٌ نيامٌ تَسلّوْا عنه بالحُلُم

القسم الأول

الأنبياء والرسل

- الباب الأول : الغاية من إرسال الأنبياء
- الباب الثاني : خصائص الأنبياء
- الباب الثالث : صفات الأنبياء ومكانتها من سيد الأصفياء

الباب الأول

الغاية من إرسال الأنبياء

إن الأنبياء والرسل رغم وجود فروق بينهم من ناحية المراتب والدرجات إلا أنهم يشتركون في شيء واحد وهو أنهم أناس مختارون مصطفون تجلت عليهم ذات الله ﷻ وربّاهم وأدبهم وفضلهم على العالمين، وجعل قلوبهم مقتصرة عليه لا تحوم حول أحد غيره.

ومثل جميع الأنبياء والمرسلين اقتصر نظر نبينا ﷺ -وبدرجة أكبر- على ربه ﷻ فلم ير شيئاً غيره، ولم يستطع أحد دون الله أن يستميل نظره إليه وأن يصرف وجهه إليه أو يحوّل نظره عنه، فهو منذ فتَح عينيه على الدنيا رأى ربه، وعندما أغمض عينيه الإغماضة الأخيرة قال: «اللّٰهم الرفيق الأعلى....»

لنسمع هذا من أمنا عائشة رضي الله عنها:

إن النبي ﷺ كان ينفُث على نفسه في مرضه الذي قُبض فيه بالمعوِّذات، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهنّ فأمسح بيد نفسه لبركتها. فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع فانتزع يده من يدي ثم قال: «اللّٰهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلى.»[1]

فمن الواضح أن رسول الله ﷺ كان لا يرغب بالرفيق الدنيوي بل بالرفيق الحقيقي، وهو ربه، وكان يرغب في الوصول إليه في بُعد آخر. إذن، فما السبب في مجيء هؤلاء الأنبياء والمرسلين -ولاسيما رسولنا ﷺ- إلى الدنيا وهم الذين عاشوا من لحظة مجيئهم إلى الدنيا حتى وداعهم وفراقهم لها هذا الطراز من العيش؟ ولتحقيق أي غاية وهدف أرسلوا؟ إن فحص وتحليل هذا الموضوع مهم جدًّا وذلك لسببين رئيسين:

الأول: لكي يتم فهم ومعرفة مدى سمو مرتبة النبوة وتجنّب الظن بأنهم كانوا أناساً عاديين، وتهيئة الرد على من يظن ذلك.

---

[1] البخاري، المغازي ٨٣، المرضى ١٩؛ مسلم، السلام ٤٦؛ أبو داود، الطب ١٩؛ الترمذي، الدعوات ٧٦.

الثاني: الإشارة إلى الطريق الواجب سلوكها للذين يمثلون وظيفة الأنبياء وإلى النظام الذي يجب أن يتبعوه في هذا الموضوع.

ولا يفقد هذا الموضوع أهميته مهما تغيرت زاوية النظر إلى هذه المسألة، لذا فسنقوم بإيراد رأينا في هذا الموضوع بشكل نقاط لم نرتبها حسب أهميتها.

أ- العبودية

تلتقي الغاية التي من أجلها أرسل الأنبياء والرسل مع غاية خلق الإنسان، ألا وهي العبودية لله ﷻ، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الغاية فيقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

إذن، فإن الغاية الأساسية من خلقنا والهدف الرئيسي له هو معرفة الله ﷻ وإيفاء وظيفة العبودية له بشكلها الصحيح واللائق. وليس اقتناء الأموال والأملاك والقصور، أو الأكل والشرب والتمتع بلذائذ الدنيا. صحيح أن هذه الأمور حاجات فطرية إلا أنها لا تشكل غاية لخلقنا.

وما جاء الأنبياء والرسل إلا لكي يَدلّونا على هذه الغاية ويرشدوا إلى هذا الطريق. والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥).

ويقول في آية أخرى: ﴿وَلَقَد بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:٣٦). وهذه الآية تشير بوضوح إلى أن سبب إرسال الرسل هو تجنب عبادة الأصنام والأوثان، وإرشاد الناس إلى عبادة الله تعالى، وجعل أنفسهم قدوة حسنة ومثلاً يُحتذى في هذا الأمر.

أما وضع رسولنا ﷺ فمختلف، فهو إضافة إلى كونه مرسلاً رحمة للعالمين إلا أنه كان مكلّفا في الوقت نفسه بدعوة الإنس والجن إلى عبودية الله تعالى، إذ يروى عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بِتُّ الليلة أقرأ على الجن ربُعاً بالحَجُون[1].»[2]

---

[1] الحَجُون: اسم موضع في مكة المكرمة. (المترجم)

[2] المسند للإمام أحمد، ٤٤٩/١؛ جامع البيان للطبري، ٣٣/٢٤.

وبعد أن بلّغ الرسول ﷺ رسالته إلى الإنس والجن علم أن مهمته في الحياة قد انتهت وأنه آن الأوان إلى أن يرجع إلى الرفيق الأعلى؛ لذا، نجده يقول في آخر خطبة له يقول: "إن عبدا خيره الله بين أن يختار من زهرة الدنيا ما يشاء أو أن يختار ما عند الله فاختار ما عند الله." فذلك العبد المخير هو رسول الله ﷺ.[1]

ب– التبليغ

الغاية الأخرى من إرسال الأنبياء والمرسلين هو القيام بالتبليغ الديني. فلو لم يأتوا لما عرفنا المسائل المتعلقة بالعبادة، ولما وصلتْنا الأوامر والنواهي ولما عرفنا واجباتنا وما فُرض علينا. أي لما عرفنا معنى الصلاة والصيام والزكاة والحج. ولما عرفنا أبداً موقفنا من المحرمات كالخمر والمَيْسِر والزنا والاحتكار والربا. فنحن لم نعرف هذه الأمور وأشباهها إلا بوساطة الأنبياء، ونحن نسمي هذا الأمر بإيجاز "وظيفة الرسالة" حيث جاء الرسل والأنبياء جميعاً بالرسالة نفسها مع اختلاف في الفروع والتفاصيل وبلّغوا الشيء نفسه في الأمور الأساسية.[2]

ويوضح القرآن الكريم الغاية العامة للأنبياء والرسل والوظيفة العامة لهم فيقول: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾ (الأحزاب:٣٩).

إذن، فقد جاءوا لتحقيق هذه الغاية، وما كان يهمهم أبداً ولا يؤثر فيهم أبداً نوع العقبات المنتصبة أمامهم ولا الأشخاص الواقفون تجاههم، إذ ما كانوا يعرفون الخوف، فخوفهم وخشيتهم كانت من الله تعالى وحده.

وفي هذا المجال يخاطب الوحي رسولنا ﷺ فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:٦٧).

أي إنك إن قصّرت في وظيفتك التي هي وظيفة تبليغ الرسالة فإن هذا القصور لن يعدّ قصوراً متعلقاً بحياتك الشخصية والفردية، بل هو موضوع متعلق بالحياة الفردية والاجتماعية لكل الناس، ذلك لأن وظيفتك هي تنوير طريق الإنسانية كلها، فلو قصرت في

---

[1] البخاري، مناقب الأنصار ٤٥؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢.

[2] الأنبياء إخوة لِعَلاَّت، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد. أي إن الأنبياء إخوة من ناحية الأب مع اختلاف أمهاتهم، أي إن الأنبياء يتفقون في أصل الدين وقاعدته وهي "التوحيد" ويختلفون في الفروع. (البخاري، الأنبياء ٤٨؛ مسلم، الفضائل ١٤٥).

إيفاء وظيفتك هذه حَقَّهَا لبقيتْ البشرية جمعاء في الظلام. وفي الحقيقة فإن الرسول الكريم كان على يقين بمدى أهمية رسالته، ولولا ذلك لما أُرسل بهذه المهمة ولما قُدّرت له هذه الوظيفة. بعد أن كُلّف رسول الله ﷺ بهذه المهمة المقدسة قضى حياته كلها في سبيل تبليغ الدين، فبدأ بطَرْق كل باب وبالبحث عمن يتوسم فيه قبول دعوته.

كان ردُّ فعلِ الجبهة المعارضة هو إبداء اللامبالاة وعدم الاهتمام والمقاطعة في بداية الأمر، ثم انقلب إلى الاستهزاء والسخرية، وفي المرحلة الأخيرة تحول إلى استعمال القوة والعنف وتطبيق صنوف التعذيب، إذ بدأوا بإلقاء الأشواك في طريقه، ووضع الروث على رأسه عندما يقف للصلاة... الخ من ألوان الإهانة والتحقير. ولكن رسول الله ﷺ لم يهن ولم ييأس ولم تفتر عزيمته، ذلك لأن مهمته هذه كانت سبب مجيئه للدنيا وهدفاً لهَا. فدعا الجميع -ومنهم أعداؤه الألداء- مرات عديدة وبلغهم الرسالة الإلهية. أجل، فمن يدري كم من مرة ذهب إلى أعداء الله وأعداء الدين مثل أبي جهل وأبي لهب وعرض عليهم الهدى والحق، فكان يتجول في الأسواق ويزور الناس في خيامهم خيمة خيمة لعله يكون وسيلة لهداية أحدهم... ولكن الأبواب كلها كانت توصَد في وجهه، ومع ذلك يذهب ويطرق الأبواب نفسها ويكرر الكلام نفسه... وعندما قطع الأمل عن مكة ذهب إلى الطائف، وكانت مكان نزهة وبساتين، فقابله أهل الطائف -الذين أبطرتهم النعم وأعماهم الترف- شر مقابلة وفاقوا في ذلك أهل مكة، فاجتمع صبيانهم وسفهاؤهم وأخذوا يقذفونه بالحجارة... أجل، قذفوا بالحجارة فخر العالمين ومن تستحي الملائكة من التطلع إلى وجهه الكريم، وطردوه من الطائف، وكان زيد بن حارثة -ابنه بالتبني آنذاك- معه، ومع أن زيداً حاول أن يحمي بجسده رسول الله من هذه الحجارة المنهمرة عليه، إلا أن الجسد المبارك لرسول الله أصابته الحجارة وأدمته.

التجأ رسول الله ﷺ من هذا الوسط العدائي إلى ظل شجرة في بستان، وظهر جبريل الأمين أمامه قائلاً له إنه مستعد لأن يرفع جبلاً ويقلبه على رؤوس هؤلاء المتوحشين، ولكن رسول الله ﷺ لم يقبل ذلك مع أنه كان في غاية التأثر، ذلك لأنه في المستقبل البعيد قد يؤمن أحدهم، لذا قال لجبريل «لا.»

ثم فتح يديه ودعا ربه:

«اللّهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوَّتي وَقِلّة حِيلتي وهَواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستَضعفين وأنت ربي إلى من تَكِلني؟ إلى بعيد يَتجهّمني أم إلى عدوّ ملّكته

أمري. إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتَك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبَك أو يحلّ عليّ سخطُك. لك العُتْبى حتى تَرضى ولا حول ولا قوة إلا بك.»

"فلما رآه ابنا ربيعة عُتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحِمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانيا يقال له عَدّاس وقالا له: خذ قِطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطَبَق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ففعل عدّاس ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كل. فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: «بسم الله» ثم أكل، ثم نظر عدّاس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أهل أيّ بلاد أنت يا عَدّاس، وما دينك؟» قال أنا نصراني وأنا رجل من أهل نِينوى. فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتّى.» فقال له عدّاس: وما يُدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك أخي كان نبيًا وأنا نبيّ» فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له، ويلك يا عدّاس مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا. لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلَمه إلا نبي."[١]

ولولا هذه الحادثة الأخيرة لعاد ﷺ محزوناً ومهموماً من الطائف... ليس لِما قاساه منهم، بل لأنه لم يُعطَ الفرصة لتبليغ دعوته لأيٍّ منهم، ولكنه الآن فرح، فقد أصبح سبباً في هداية عدّاس.

لقد كان ﷺ يمامة الأنبياء -إن صح التعبير- لا يفتر في البحث عن القلوب النقية المنفتحة على الحقيقة، وعن الوجوه المقبلة على الهداية، وعندما يجدها يتسرب إلى هذه القلوب ويهمس فيها إلهام روحه. وهكذا كلما زادت الحلقات والهالات حوله وتوسعت جُنّ جنون أصحاب الكفر والضلالة.

وكما جُنّ الكفر في الوقت الحالي أمام الصحوة الإسلامية في شرق العالم وغربه وأصبح يهذي، كان الكفر أيضاً قد جن وهو يرى حلقات الأتباع وهي تزداد حول الرسول ﷺ.

وأدى هذا الجنون الذي أصاب الكفر إلى توهم أنهم يستطيعون إطفاء نور الله... ولكن هيهات... فمحاولاتهم تلك كانت أشبه بمن يحاول إطفاء نور الشمس بأفواههم... والشمس هنا تأتي من باب التمثيل وإلا فإن النور الذي أتى به كان يفوق نور الشموس، لأنه

---

[١] البخاري، بدء الخلق، ٧؛ مسلم، الجهاد ١١١؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٦٦/٣؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٦٠/٢-٦٣

كان من نور الله ﷻ. والقرآن الكريم يصور حالتهم المضحكة هذه فيقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة:٣٢).

وفي القرن العشرين... في أيامنا الحالية هذه انقدحت الشرارات في نفوسنا من المشعل الذي أشعله نبينا ﷺ، فسارت مئات الآلاف في طريقه وهم يحملون أرواحهم في أكفهم من أجله ومن أجل إعلاء دعوته. إذن، فالله ﷻ شاء أن تتجدد الآن تلك الهالة المحمدية، وأن تتكرر تلك السلسلة الذهبية، أما حقد الكفر وغيظه وشدته وحدّته ومكره وخديعته فلن تستطيع الوقوف أمامها أو إيقاف سيرها... أجل، فإن هذه البذور التي زرعها الإخلاص ستنبت عاجلاً أم آجلاً... إن لم يكن اليوم فغداً؛ فالنور الذي نشره رسول الله ﷺ لن ينطفئ أبداً.

وعندما لم تعد مكة قادرة على إيوائه هاجر إلى المدينة لكي يستمر في نشر الهداية والنور هناك، ولكن كان عليه أن ينشغل مع اليهود والمنافقين هناك، وأن يقود الحرب ضد الكفار، وتتكسر سِنّه في الحرب ويدمى وجهه وأن يجوع ويظمأ، حتى أنه كثيراً مّا كان يربط الحجر على بطنه من الجوع، وأن يستمر سائراً في دربه دون أي تراخ أو تباطؤ، فلم يتوقف أبداً عن إيفاء حق وظيفته في الدعوة، ولم يهمل لحظة واحدة مهمة التبليغ. فأوضح كل أمور الدين وشرح كل دقائقه وقام بمهمته في تبليغ دين الله أفضل قيام، ولم يهمل إرشاد الأفراد طوال إقامته في المدينة المنورة رغم كل مشاغله ونضاله مع الدول الأخرى؛ فعندما يأتيه أعرابي ويسأله عن مسألة شرَحَها قَبله مئات المرات لا يضيق به وبسؤاله، بل يشرحها له بكل سرور وبكل انشراح وبكل مودة.

والتبليغ يعني إرشاد الناس إلى الصراط المستقيم. والحقيقة أن التبليغ هو سر إرسال الأنبياء وإرسال سلطان الأنبياء. هذا الصراط المستقيم الذي يعرفه كل المؤمنين ويجب أن يعرفوه جيدا، فنحن ندعو الله أربعين مرة أو أكثر كل يوم أن يهدينا إلى الصراط الذي سلكه الأنبياء والصديقون والشهداء، وأن يبلغنا مرامنا ومرادنا مثلهم. والصراط المستقيم طريق عريض، ولكل واحد نصيبه المعلوم منه، ذلك لأن خاتم الرسل أرسل رحمة للعالمين كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ثم إنه كان شاهدا ومبشرا ونذيرا كما تنص على ذلك الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (الأحزاب:٤٥).

إن رسولنا ﷺ تحمّل عِبْئاً كبيراً وثقيلاً مثل عبء النبوة ثلاثة وعشرين عاما، وقام بإيفاء حقِّ وظيفته بنجاح منقطع النظير لم يتيسر لأي صاحب دعوة آخر... وبمثل هذا الروح وبهذه

المشاعر المضطرمة بحب الله كان يتقدم ويقترب من الهدف المنشود ومن النهاية المباركة.

وحج حجة الوداع، إذ حج مرة واحدة، ولأنه جمع بين الحج والعمرة فإننا نسمي ذلك بـ"الحج الأكبر"[1] وفي هذا الحج ركب رسول الله ﷺ ناقته وبلّغ كل ما يجب تبليغه مرة أخرى... فمن قضايا القتل والفدية إلى حقوق المرأة... إلى قضايا الربا... إلى العلاقات بين الأقوام والقبائل... إلى سواها من الأمور والمواضيع... بلغ كل ذلك مرة أخرى وكان يتوجه كل مرة إلى الجماعة المؤمنة قائلاً: «ألا هل بلّغتُ؟» فكانت تردّ عليه: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فكان يشير بأصبعه إلى السماء وينكبها على الناس قائلاً: «اللّهم اشهد. اللّهم اشهد» ثلاث مرات.[2]

لقد أدّى مهمته بحقّ، وقام بالتبليغ على أفضل وجه، لذا فقد كان مستريح الضمير، مرتاح النفس، مطمئن القلب، وكان يتهيأ لملاقاة ربه... كان إنسان مراقبة للنفس مراقبة حساسة جدا، لذا فقد قضى حياته كلها في إطار هذه المراقبة الحساسة يسائل نفسه: هل استطعت أن أبلغ رسالتي كما يجب؟ وهل عشت لتحقيق الهدف الذي من أجله أرسلني الله تعالى إلى الناس؟

جـــ- القدوة الحسنة

ومن الأسباب التي يمكن ذكرها لإرسال الله تعالى أنبياءه ورسله هو أن يكونوا أسوة حسنة وقدوة متبعة لأممهم. فالله تعالى يذكر في قرآنه الكريم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ (الأنعام:٩٠). هذه الآية موجهة للرسول ﷺ توصيه بالاقتداء بالأنبياء الذين سبقوه بعد أن ذكرت أسماءهم واحداً تلو الآخر... فتأمل.

ثم إن القرآن الكريم يخاطبنا قائلاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١).

فالأنبياء أسوة حسنة لنا وهم أئمتنا؛ فكما نتبع الإمام في الصلاة، نتبع سلوك الأنبياء في جميع تفاصيل الحياة ونقتدي بهم. ذلك لأن الحياة الحقيقية بالنسبة إلينا يمثلها نبينا ﷺ والأنبياء الآخرون. والصحابة الذين عاشوا عهد رسول الله ﷺ اقتدوا به حذو النعل بالنعل، لذا

---

[1] الحج الأكبر: وهو القيام بأداء العمرة والحج معا. علما بأن هناك اعتقاداً خاطئاً شاع بين الناس حول الحج الأكبر مفاده أنه الحج الذي يصادف فيه يوم عرفة يوم الجمعة.

[2] البخاري، الحج ١٣٢، المغازي ٧٧؛ مسلم، الحج ١٤٧؛ ابن ماجه، المناسك ٨٤؛ أبو داود، المناسك ٥٦.

وصل هؤلاء الصحابة والتابعون لهم إلى هذه المنزلة التي بينها رسول الله ﷺ في حديثه:

«يأتي على الناس زمان يغزو فِئام من الناس. فيقال لهم: فيكم من رأى رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفتَح لهم. ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى من صَحِبَ رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس. فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صَحِبَ من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم.»[1]

ويقول النبي ﷺ في حديث آخر: «خير الناس قَرْني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[2] فيشير إلى فضل القرون القريبة منه، ذلك لأن أهل هذه القرون كانوا يبدون حساسية شديدة في اتباع سنن الرسول ﷺ في كل شيء: في حياتهم ومشاعرهم وأفكارهم. وفي الحقيقة كان من المهمّ أن يكون التشبه برسول الله ﷺ -المبعوث من قبل الله أسوة حسنة- غاية وهدفاً... وتحقق هذا فعلاً.

أجل، لقد أبدى الصحابة والتابعون وتابعو التابعين حساسية شديدة في هذا الموضوع، لذا كانوا أفضل من الناس الذين عاشوا في القرون الأخرى، وكان النبي عيسى عليه السلام يقصد أمة نبينا ﷺ عندما قال: [في يدهم أعلام القِدِّيسين] (التثنية - الباب: ٣٣، الآية: ٣) وهذا تبجيل كبير. وهناك حديث ضعيف يقول: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.»[3] وهذا مما يدل على فضل هذه الأمة المحمدية.

أجل، فقد وصلوا باتباعهم النبي ﷺ إلى الحد الذي لا يوجد وراءه سوى النبوة. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يمثل أنموذجاً مدهشاً لهذا النوع من الرجال الذين اتخذوا من الرسول ﷺ مُرشداً لهم في جميع أمور حياتهم ودقائقها، وزيّنوا وعطّروا حياتهم بهذه القدوة المباركة. ولم يتغير نظام حياته قيد شعرة بعدما دالت له الدول وانفتحت أمامه أبواب بيزنطية ودانت له الشعوب والأمم؛ أما القُدس الحزينة الأسيرة اليوم... اللطخة السوداء على جبين العالم الإسلامي... هذه البلدة الطيبة التي فتحت في عهده لم يرض قساوستها ورهبانها تسليم مفاتيحها على الرغم من انتصار المسلمين وفتحهم لها قائلين: "لا نرى فيكم أوصاف الشخص الذي يجب أن يتسلم هذه المفاتيح..." وعندما أخبر بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سافر إلى القُدس على ناقة استعارها من بيت المال متناوبا ركوبها مع خادمه حتى وصلا المدينة.

ولننظر هنا إلى تجلي عظمة القدر حيث يتوافق دخول الخليفة المدينة وهو يقود الدابة

---

[1] البخاري، فضائل أصحاب النبي ١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٠٨-٢٠٩.

[2] البخاري، فضائل اصحاب النبي ١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢١٢.

[3] كشف الخفاء للعجلوني، ٦٤/٢؛ الفوائد المجموعة للشوكاني، ص٢٨٦.

لخادمه؛ إذ كانت نوبة الركوب له، فنزل الخليفة عن الناقة ولم يلتفت إلى إصرار الخادم، فأركبه الناقة وأمسك بمقودها يقودها وهو يدخل إلى المدينة.

ولكم أن تتصوروا أنتم حال من يرى هذا المنظر الفريد... لقد بهتهم هذا المنظر، وأذهلهم حتى تسمّروا في أماكنهم لا يصدقون ما تراه أعينهم، وقالوا: "أجل، هذه هي صفات الشخص المذكور في كتبنا" وسلموا له مفاتيح المدينة.

ثم تأملوا حاله وهو مسجًّى على الأرض بعد أن طعنه ذلك المجوسي. وأثر ما أكله من طعام أو شراب يخرج من جرحه. كان صامتاً لا يبدر منه صوت ولا يهتم بما يدور حوله، وها هو خادمه يأتيه ويسأله إن كان يريد طعاما أو شرابا فلا يجيبه وإنما يشير بعينيه أن "لا". ويروي المِسْوَر بن مَخْرَمَة قائلاً: دخلت على عمر بن الخطاب وهو مسجى فقلت: كيف ترونه. قالوا: كما ترى. قلت: أيقظوه بالصلاة فإنكم لن توقظوه لشيء أفزع[1] له من الصلاة. فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين. فقال "ها الله ولا حقّ في الإسلام لمن ترك الصلاة." فصلى وإن جرحه لَيَثْعَب[2] دما.[3]

هكذا كان عمر ﷺ... هكذا كان لأنه تعلم ذلك من سيده وحبيبه ورسوله، لذا يجب أن يتبعه ويقتدي به بهذا الشكل كي يكون أسوة حسنة لمن يأتي بعده.

أجل، فإرسال الرسل والأنبياء ليكونوا قدوة وأسوة حسنة لأممهم من أسمى غاياتهم.

د- تأمين التوازن بين الدنيا والآخرة

أتى الأنبياء والرسل لتأمين التوازن بين الدنيا والآخرة. فبمقياس التوازن الذي جاءوا به يستطيع ابن آدم أن يجد طريقه المستقيم ومنهاجه الصحيح ويتخلص من الإفراط والتفريط.

أجل، فلا يجب ترك الدنيا والاعتكاف في الأديرة والصوامع كالرهبان. ولا يجب الانغماس في الدنيا والانقلاب إلى عبد لها وأسير في يدها، بل الأفضل العثور على الطريق الوسط، ولا يمكن ذلك إلا بوساطة الوحي؛ فالعقل والوجدان لا يستطيعان إنشاء مثل هذا التوازن؛ والعلم الصرف أبعد منهما عن الوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية، إذ لا يستطيع رفع الإنسان إلى هذا المستوى.

---

[1] أي أشد إيقاظا له منها. (المترجم).

[2] يثعب: أي يجري. (المترجم).

[3] مجمع الزوائد للهيثمي، ١/٢٩٥؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/٣٥٠.

والقرآن الكريم يشرح هذا التوازن فيقول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧).

فإذا وضعتَ في إحدى كفتي هذا الميزان الإلهي الحقائق التي تنطق بها الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١١) عليك أن تضع التحذير الذي تتضمنه الآية ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر:٨).

وهكذا يتم حفظ التوازن بهذه المقاييس والموازين. أما إنفاق أبي بكر الصديق ﷺ كل ماله في سبيل الله وعدم إبقائه لأهله شيئاً فما ذلك إلا لأن مرتبة "الصدّيقية" تستلزم هذا.

يروي زيد بن الأرقم الحادثة التالية عن أبي بكر ﷺ في أيام خلافته فيقول: إن أبا بكر ﷺ استسقى فأُتِيَ بإناء فيه ماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله، فسكت وما سكتوا، ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على مساءلته، ثم مسح وجهه وأفاق فقالوا: ما هاجك على هذا البكاء؟ قال: كنت مع النبي ﷺ، وجعل يدفع عنه شيئاً ويقول: «إليك عني... إليك عني...» ولم أر معه أحداً فقلت: "يا رسول الله! أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحدا؟" قال: «هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها، فقلت لها إليك عني فتنحّتْ وقالت: أما والله لئن انفلتَّ مني لا ينفلتُ مني مَن بعدك.» فخشيت أن تكون قد لحقتني فذاك الذي أبكاني.[1]

أجل، فمع أن الدنيا أقبلت عليهم فإنهم عاشوا حياة متوازنة، ذلك لأن قدوتهم وأسوتهم ومرشدهم عاش كذلك.

هـ- سد باب المعذرة

من أسباب إرسال الرسل والأنبياء هو سد باب معذرة الناس أمام الله ﷻ يوم القيامة. قال الله تعالى موضحا هذه الغاية ومبينا هذا السبب: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء:١٦٥).

لم يستطع القادة والزعماء -عدا الأنبياء والرسل- المداومة على إقناع الأمم والشعوب إقناعاً مستمرّاً. إنهم قد يفعلون ذلك لمدة وقد ينجحون، ولكن نجاحهم هذا نجاح مؤقت؛ إذ سرعان ما يتجاوزهم الزمن ويبلي أفكارهم فتسقط كما تسقط أوراق الخريف. ذلك لأن دعوتهم غير مستندة إلى العون الإلهي. لذا، فهم لم يستطيعوا أن يتخطوا الصفة البشرية قولا وفعلا.

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٠/١-٣١.

أما الأنبياء والرسل فهم بخلاف ذلك. إنهم أشخاص معدّون سلفاً ومختارون للنبوة والرسالة وهم في أرحام أمهاتهم. فحياتهم حياة متناغمة تناغم لحن موسيقي، وحديثهم حديث عذب عذوبة الشعر، فعندما يتحدثون ينصت الوجود كله لهم، ويرهف الجميع أسماعهم لهم، فكم من أمر تغير بمجيئهم، وكم من حادثة حولت طريق سيرها بقدومهم، وكم من قلب أسلم قياده لهم واتبعهم، وكم من ناموس جار في الكون وقف من أجلهم بل غير مجراه من أجلهم ونتيجة طلبهم.

ويكفينا في هذا أن نوجه النظر إلى سلطان الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ؛ فالأرض والشجر والحيوان توجه إليه وكأن كلاً منهم يرغب في أن يقيم علاقة معه باسم النوع الذي ينتسب إليه وأن يظهر تصديقه بنبوته وبرسالته، وكما قال البوصيري: "جاءت لدعوته الأشجار ساجدة".[1]

ذلك لأن الأشياء اكتسبت معانيها بعد قدومه هو، وتخلص الوجود كله من ركام الفوضى. كان يقول بلسان القرآن ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم﴾ (الإسراء:٤٤). يقول هذا وكأنه ينفخ الحياة والروح في كل موجود. كل ما تعلمناه تعلمناه منه، وما بانت حكم الأشياء إلا به،[2] ويجدر بنا أن نورد في هذا الصدد أن الإنسان لم يخلق عبثاً ولم يترك سدى.[3]

لقد جاء كل نبي ورسول بمعجزات عديدة ليزداد الذين آمنوا إيمانا، ولا يبقى لغير المؤمنين أي عذر لهم في عدم الإيمان. أما سيد المرسلين فقد أتى بجميع معجزات الأنبياء والمرسلين السابقين له. أجل، فقد رأت كل أمة معجزات نبيها أو سمعت بها، أما نحن فقد سمعنا آلافاً من معجزات نبينا، ونرى بين أيدينا في كل حين معجزة خالدة وهي القرآن

---

[1] انظر إلى: مسلم، الزهد ٧٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٢٣/١؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٣٥/٦.

[2] انظر إلى: ﴿رَبَّنَا وَابعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيهِم آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِم إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٩)، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتلُو عَلَيكُم آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٥١)، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِم يَتْلُو عَلَيهِم آيَاتِهُ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِين﴾ (آل عمران:١٦٤)، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِين﴾ (الجمعة:٢). وانظر إلى: المسند للإمام أحمد، ٢٠٢/١ (الحديث الذي جرى بين جعفر بن أبي طالب والنجاشي).

[3] الآيات التالية تشرح هذا الأمر بوضوح: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة:٣٦)، ﴿أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥).

الكريم؛ ومن ثم فلا عذر لأي شخص، ولا مجال لأي اعتراض لأن الله ﷻ قد أوضح بوساطة نبيه جميع الحقائق التي تعود إلى الإيمان إيضاحاً كاملاً وعرضها أمام الأنظار بكل جلاء، ويعد هذا الأمر أحد أسباب بعث الأنبياء والرسل؛ لأن الله تعالى قرر في القرآن هذه القاعدة حيث يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥).

فإذا ما نصبت موازين الحساب يوم القيامة فلا عذر لأحد ولا حجة لكائن من كان؛ فقد أرسلت الرسل وبعثت الأنبياء.[1]

---

[1] انظر: ﴿وسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ زُمَرا حَتَّى إذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنكُم يَتْلُونَ عَلَيكُم آياتِ رَبِّكُم وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر:٧١).

الباب الثاني

خصائص الأنبياء

أ- الربانية

ما قام أي نبي أو رسول بدعوته نتيجة تفكيره الذاتي أو قناعته بفلسفة خاصة أو نظام معين رآه صالحاً... لم يقم بهذا أي نبي ولا يمكن أن يقوم. فالله ﷻ يختار شخصاً معيّناً من بين الناس ليجعله رسولاً... وعندما يحين الوقت المناسب يكلف الله تعالى هذا الشخص المصطفى بمهمة الرسالة، ويبلغه بأداء وظيفة النبوة، فيقوم هذا الشخص بإعلان نبوته. نعم.. يأتي كل نبي بالوحي... ويعيش بالوحي... ويموت بعد انقطاع الوحي؛ فالوحي بالنسبة لهم شيء أساسي كالهواء والماء والخبز بالنسبة إلينا... فنسيم "الأنس الإلهي" غذاء أرواحهم، ومن الفيوض القدسية تهبّ عليهم نسائم مثل ريح الصبا؛ وهم يتحمّلون البقاء بين الناس ما دامت هبوب تلك النسمات، فإذا ما انقطعت طاروا بأجنحة الشوق إلى ربهم وبارئهم، أو انتظروا الرحيل إلى ذلك العالم المضيء؛ فهم أناس سلّموا أنفسهم لله، فلا يتحدثون من أنفسهم أبداً بل ينطقون فقط بما أراده الله منهم وبالأسلوب والكيفية التي أرادها الله تعالى. والدين الذي أتوا به هو الدين الذي وضعه الله تعالى، ودورهم قاصر على الاضطلاع بتبليغ رسالة الربانيين والقيام بوظائفهم.

وعند دعوتهم النّاسَ لا يكلفون هدايتهم، فسواء آمن الناس بهم أم لم يؤمنوا فليس هذا من اختصاصهم؛ لأن وظيفتهم هي التبليغ المبين، وهم في أدائهم لهذه الوظيفة لا يعبؤون بما يقوله أو يفعله أعداؤهم ومعارضوهم. ولا تجدهم عند قيامهم بهذه الوظيفة يتنازلون عن أدنى شيء في دعوتهم مهما كان المقابل «لو وَضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أَترك هذا الأمر ما تركتُه أوْ أَهلِك دونه.»[1]

---

[1] انظر إلى السيرة النبوية لابن هشام، ٢٨٥/١.

بـــ- التجرد والتوجه إلى الله وحده

عند قيام الأنبياء والمرسلين بمهمتهم لا ينتظرون أي أجر أو مقابل، ماديًا كان أم معنوياً. فشعارهم الموحد كما بينه القرآن في آيات عديدة وفي مناسبات مختلفة على لسان معظم الأنبياء والرسل ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ (يونس:٧٢؛ هود:٢٩). إننا قد ننتظر أجراً معنويًا إن لم ننتظر الأجر المادي. أما هذا الأمر غير وارد مطلقاً مع الأنبياء، فهم لا ينتظرون أجراً من أحد، إذ إن ما يفعلونه يكون لأنه أمر من الله تعالى. ولو فرضنا المستحيل وقلنا بأنهم عرفوا أن مصيرهم سيكون الاصطلاء بلهيب جهنم لما ترددوا أبداً عن أداء مهمتهم لحظة واحدة، ولما انحرفوا عن غايتهم قيد شعرة.

إن الأنبياء والرسل أشخاص في الذروة، مستعدون للتضحية بكل مشاعرهم المادية والمعنوية في سبيل دعوتهم، فليس حب الجنة ونعيمها وخشية النار وجحيمها هما الحادي لهم لتنفيذ هذه المهمة الشاقة والقيام بهذه الوظيفة الصعبة؛ بل إن الحصول على رضا الله تعالى وحسن قبوله هو أسمى غاية لهم.

أجل، إن جميع أعمال الأنبياء خالصة لله ﷻ، ويبلغ هذا الأمر عند رسولنا ﷺ مبلغ الذروة. ففي الدنيا قال «أمتي» وعند المحشر يوم القيامة يقول: «أمتي!.. أمتي!...»[1] فتأملوا درجة إخلاصه أن أبواب الجنة مفتحة له على مصراعيها تنتظر تشريفه لها، غير أنه منشغل الفكر بمصير أمته يبتغي أن يوصلها إلى الجنة، من أجل ذلك يرجح البقاء في جو ذلك المحشر الرهيب على التنعم بنعيم الجنة. وهو لا يفعل هذا لأصهاره ولأقربائه فقط، بل لأمته جميعاً حتى المجرمين منها.

أجل، إن منافذ أرواحهم منفتحة على غاية واحدة لا غير، هي الحصول على رضا الله تعالى، ومغلقة أمام جميع المنافذ والأبواب الأخرى.

إن الذين يقومون بمهمة التبليغ والدعوة اليوم -وهي مهمة الأنبياء والمرسلين كما قلنا- يجب أن ينتبهوا لهذا الأمر ويكونوا شديدي الحساسية تجاهه، فهو في غاية الأهمية وشديد الخطورة. فتأثير الكلام والخطاب لا يرتبط بمدى بلاغته وفصاحته بل بمقدار ما يتضمنه من إخلاص وتجرد.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول: ﴿اِتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس:٢١).

---

[1] البخاري، التوحيد ٣٢؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦.

أجل، اتبعوا الأنبياء الذين يحلقون في سماء التجرد والهداية؛ لأنهم لا يطلبون منكم أجراً دنيويًا. وفكِّروا مليا قبل أن تسيروا وراء أي شخص، فالشخص الذي تسيرون وراءه وتتبعون خطاه يجب أن يكون متجرداً لله وأن يكون حب العمل في سبيل الله شاغله ليلا ونهارا لا يلتفت إلى زخرف الدنيا، بل يصب همه في تهيئة طرق النصر للأجيال القادمة. فلا يكون لحب الدنيا وزينتها أي ظل على قلبه المنطوي على التجرد لله... ومن ثم فلتفتشوا لزعامتكم وقيادتكم عن مثل هذا الشخص ولتسيروا وراءه.

لقد كان رسول الله ﷺ شخصاً متجرداً لله، لم يشبع حتى من خبز الشعير، وربما تمر أيام وأسابيع بل شهور فلا توقد في بيته نار لطبخ طعام أو عمل حساء.[1]

يروي أبو هريرة ﷺ: دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالساً، فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالساً فما أصابك؟ قال: «الجوع.» فبكيت، فقال: «لا تبكِ يا أبا هريرة، فإن شدة الحساب يوم القيامة لا تُصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا.»[2]

وتروي أمنا عائشة رضي الله عنها فتقول:

دخلتْ عليّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله عباءة مثنية، فانطلقتْ فبعثتْ إليّ بفراش حَشْوُه الصوف، فدخل عليّ رسول الله فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: قلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلتْ عليّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت إليّ بهذا فقال: «رُدِّيه.» قالت: فلمْ أَرُدّه وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات. قالت: فقال: «رُدِّيه يا عائشة فوالله لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة.»[3]

أجل، فلو أراد الرسول ﷺ لعاش حياة لينة ومرفهة ولكنه لم يرد ذلك.

يروي أبو هريرة ﷺ: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة. فلما نزل قال: "يا محمد! أرسلني إليك ربك أفملِكاً نبيّاً أجعلك أوْ عبداً رسولاً؟" قال جبريل: "تواضعْ لربك يا محمد" قال: «بل عبداً رسولاً.»[4] فما رُئيَ رسول الله ﷺ أكل متكئاً حتى لحق بربه. وعن أبي أُمامة قال: كانت امرأة تُرافِث الرجال وكانت بذيئة فمرت بالنبي ﷺ وهو يأكل ثريداً على طربال فقالت انظروا

---

[1] البخاري، الرقاق ١٧؛ مسلم، الزهد ٢٨.

[2] كنز العمال للهندي، ١٩٩/٧.

[3] البداية والنهاية لابن كثير، ٦٠/٦.

[4] المسند للإمام أحمد، ٢٣١/٢؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/١٨-١٩.

إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد فقال النبي ﷺ: «وأيُّ عبدٍ أعبد مني؟»[١]

إن صفحات حياة الرسول ﷺ مملوءة بأمثلة التجرد لله، ومن أراد الاطلاع على هذه الأمثلة وتفاصيلها فهناك مئات من الكتب حولها. أجل، لقد عاش جميع الأنبياء -وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ- حياة تجرد ووهبوا أنفسهم لله، ولم يطلبوا مقابل خدماتهم التي أدّوها أي أجر دنيوي أو أخروي؛ وهذا هو السر الذي يكمن وراء قابلية الإقناع عندهم وقابلية التأثير. إن من يرغب أن يكون لكلامه تأثير ومفعول كمفعول إكسير الحياة فعليه ألا يطلب أو ينتظر أجرا مقابل الخدمات التي يؤديها.

جـ- الإخلاص

معنى الإخلاص هو أن يكون كل ما تعمله أو تتركه من عمل في سبيل الله. والأنبياء أشخاص وصلوا إلى مرتبة الإخلاص منذ بداية مهمتهم. نعم إن الأشخاص العاديين يمكنهم أن يصلوا إلى درجة معيَّنة من مرتبة الإخلاص إن هم بذلوا جهدهم، إلا أن النهاية التي يصلونها هي درجة البداية عند الأنبياء. فكأنهم هم لب الإخلاص وجوهره... لذا، فهم من مرتبة "المخلَصين". ويشير القرآن الكريم إلى هذه الدرجة من الإخلاص في الأنبياء ويذكر أسماء بعضهم كنماذج لهذه المرتبة السامية: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ (مريم:٥١). ويقول عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف:٢٤). ويخاطب أمة رسول الله في شخص رسول الله فيقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (الزمر:٢). ويطلب منه أن يذكر ويقول: ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ (الزمر:١٤).

وسبب العبودية راجع لأمر الله تعالى، ونتيجتها رضا الله وثمرتها في الآخرة. وهذه العبودية تحتضن الحياة بأكملها ويبدو تأثيرها ومفعولها في جميع تصرفات العبد وسلوكه.

يقول مفكر العصر وهو يعرِّف الإخلاص ويبين أهميته:

"فيا نفسي!! إن كنت تأبين أن تكوني مثل الأحمق الأبله، فأعطي باسم الله... وخذي باسم الله... وابدئي باسم الله... واعملي باسم الله... والسلام."[٢] والإخلاص هو عنوان الإنسان المستقيم، فالمخلص لا يعرف الطرق الملتوية؛ لأن حياته المعنوية والروحية حياة

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢١/٩.

[٢] الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي ص٨؛ اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي ص٢٤٢.

مستقيمة وهي في ارتقاء دائما نحو السمو؛ ومن ثم فهؤلاء يحافظون على طهارة الإخلاص الذي بدأوا به حياتهم... ولكن ما أقل أمثال هؤلاء!

هناك شخصية فريدة فقط في تاريخ الإنسانية وصلت إلى سامق قمة الإخلاص وإلى شاهق ذروتها، وإلى الأفق الذي لا أفق بعده... وهو سيدنا رسول الله ﷺ... كيف لا؟ وهو الذي لا تجد فرق قيد شعرة بين إخلاصه وتواضعه في أول يوم لبدء دعوته وإخلاصه وتواضعه وهو يدخل مكة فاتحاً.

لقد تم فتح مكة صلحا، هذا إذا استثنينا بعض الحوادث المنفردة التي لا يصح تشميلها. وعندما دخل فخر الكائنات إلى تلك المدينة المباركة التي أخرج منها قبل سنوات، لم يدخلها بصورة القائد الفاتح الظافر، بل دخلها وقد حنى رأسه حتى كاد يلامس ظهر بغلته.[1]

وفي المدينة لم يغير سلوكه قط. فها هم الصحابة كانوا يقومون أجلالاً له عند دخوله عليهم... كان يجب أن يقوموا... بل لو مرّ على ميت لكان عليه أن يهبّ من رقدته ويقف أجلالاً له؛ فقد كان أهلاً لكل احترام وتوقير وتبجيل، ولكنه لم يكن يرضى لصحابته القيام إذ يضيق صدره فيقول لهم منبّهاً:

«لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظِّمُ بعضها بعضاً.»[2]

أجل، فلقد أتم مهمته المقدسة بنفس السلوك الذي بدأ به؛ إذ مرت سنوات حياته مثل لحن متناغم، فما كان يبدأ بعمل شيء إلا أتمه، وقد كان هذا نجاحاً منقطع النظير... ويمكن القول أنه بدأ اللحن الإلهي بعزف الطبقات الهادئة من الموسيقى التي سرعان ما تصاعدت حتى تزلزلت منها الأرض والسماء.

لقد نذر حياته كلها ونفسه في عبودية خالصة لله... حتى فاضت نفسه بمعرفته... لقد سرح ناظريه في آثار خلقه وعظمته فامتلأت روحه باللذائذ المعنوية حتى أترعت.. فصحا على الحقيقة وفتح أشرعة قلبه نحو الحق، ولم يفتُر أبداً عن ذكر الله... ذلك لأنه كان رجل إخلاص وتجرد، وكان شعور الإحسان عنده يُضيف له بُعداً آخر، فقد عرّفه ﷺ بقوله: «أن تَعْبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»[3]

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٤٧/٤-٤٨؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٦٩/٦.

[2] أبو داود، الأدب ١٥٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥٣/٥.

[3] البخاري، الإيمان ٣٧؛ مسلم، الإيمان ٥، ٧.

د- الموعظة الحسنة

لم يدخل الأنبياء في المراء أبدا أثناء قيامهم بمهمتهم في التبليغ والدعوة، بل كانوا يقتربون من الناس بالحكمة والموعظة الحسنة. والقرآن الكريم يوجه الرسول ﷺ قائلاً له: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥). أي اشرح حِكَم الأشياء وأسرار الخلق بشكل هين لين، وبأسلوب مقنع دون أن تمس مشاعرهم بأذى، محاولا إشباع عقولهم.

لم يُقبل الأنبياء على الجدل والمراء والنقاش، ولم يهتموا بالأسلوب الفلسفي، إذ لم تؤد هذه الأساليب -لا في الماضي ولا في الحاضر- إلى هداية أي شخص، ولا إلى تقديم أي فائدة للإنسان، وقد صانهم الله تعالى من الانشغال بأي عبث، ومن ثم كانت مهمتهم في التبليغ تنحصر في الدعوة إلى الله بالحكمة وبالموعظة الحسنة.

إن الإنسان ليس عقلاً وفكراً فقط، بل له قلب وروح... فيه سرّ وخفيّ وأخفى... وكل لطيفة من لطائفه تحتاج إلى إشباعها؛ ومن هنا يتناول الأنبياء الإنسان بكل جوانبه محاولين إشباع جميع هذه الأحاسيس والمشاعر عند قيامهم بمهمة الدعوة. وهذه الدعوة التي لا تُهمِل أيَّ جانب من جوانب الإنسان وأي شعور من مشاعره أو لطيفة من لطائفه تفضي في النهاية إلى إزالة جميع الشبه أمام الإنسان المخاطب ليصل إلى وحدة الإيمان التي هي غاية الوجود الإنساني.

إن الذين يتخرجون من مدارس الأنبياء يحملون إيماناً متميزاً ويقيناً ثابتا؛ فأعينهم التي تُطلّ على العالم تنفتح بجانبها بصائر أخرى يرون بها ما لا يرى الناس. فلو امتلأت الدنيا بالشبه والشكوك لَما أثّرت فيهم ولَما أثارت لديهم سوى مشاعر الإشفاق؛ لأن هذه الشبه والشكوك لا تستطيع النفوذ إلى ضمائرهم وقلوبهم المملوءة بالمعرفة الحقة والعلم اليقين. والله تعالى يبارك علمهم ويضاعفه لهم ويعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون.[1] فنسيم الإلهام السماوي يهبّ على قلوبهم فيحوّلها إلى سماء؛ وعندما يعمل هؤلاء بما يعلمون يجدون أنفسهم على مركب "الكلمة الطيبة" المنطلقة في أبعاد السماء... فتسمو بهم وترقَى...[2]

حتى إنه ينشأ من بينهم شخصٌ مثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي قال: "لو كُشف الغِطاء

---

[1] انظر إلى هذا الحديث: من عمل بما يعلم ورّثه الله عِلْمَ ما لم يعلم. (حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠/١٥).
[2] انظر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر:١٠).

ما ازددتُ يقيناً"[١]. أي لو رفع ستار الغيب وشاهدت كل ما يمكن مشاهدته لما كان هناك احتمال وصولي إلى مرتبة أعلى في الإيمان والمعرفة، ذلك لأنني على يقين بأني في ذروة الإيمان بالغيب.

وهذا الكلام الذي قاله رجل كعلي بن أبي طالب ﷺ هو من باب التحديث بنعم الله، وقد أعلنه رسول الله ﷺ -بتقدير من الله- أباً للأولياء حتى يوم القيامة، فقد رباه في كنفه وزوّجه أفضل النساء وأجملَهنّ وأظرفهنّ وزهرة حديقة النبوة التي فاقت الحور العين في جمالها وهي ابنته فاطمة رضي الله عنها. ومن هذا الزواج المبارك جاء ريحانتا الجنة الحسن والحسين، ومن هذا النسل المبارك جاء جميع الأولياء وجميع الأقطاب. ومثلما كان علي ﷺ بهذه المنزلة، فإن كل حلقة من حلقات سلالته، وكل حفيد من أحفاده يعد كل واحد منهم مثال البطولة في التاريخ؛ ولا يَبلُغ هذه المرتبة إلا منْ بلَغ مرتبة الإحسان بإيمانه وإسلامه، وعند ذلك يكون من الذين تَصدُق عليهم هذه الآية الكريمة وهم في الدنيا ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق:٢٢).[٢]

وهذه الفراسة التي يُطلِق عليها الغربيون اصطلاح "Sihashsti" عندما تبدأ بالعمل داخل الإنسان ينقطع عمل العالم الخارجي عنده، حيث يستولي عليه هذا الإلهام الداخلي وقابلية الحدس؛ ذلك لأن الحقيقة آنذاك تكون قد استقرت داخل النفس فما الحاجة إلى البحث عنها في الخارج؟ والنبي ﷺ الذي سما بطلابه وجعلهم يبلغون هذه المرتبة العالية كان قد اتخذ من الموعظة الحسنة أساساً في دعوته وفي بنائه للنفوس.

وما نحاول نحن أن نشرحه في هذا الصدد قامت هذه الآية الكريمة ببيانه بأوجز صورة وأعمقها ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٥١).

وإننا نرى من الأفضل عدم الإطالة هنا؛ لأننا قمنا بإيراد الأمثلة حول مدى اهتمام رسولنا الكريم ﷺ ومدى حساسيته في هذه الناحية. ولكن إن أردنا تلخيص الموضوع في جملتين أو ثلاث فيمكننا أن نقول:

لقد كان ﷺ يخاطب كل إنسان حسب مستواه العقلي ووضعه النفسي دون زيادة ولا نقصان، وبأسلوب حكيم بحيث لا يترك ذلك الإنسانُ مجلسه إلا وهو مطمئن القلب

---

[١] الأسرار المرفوعة لعليّ القاري، ص ١٩٣.

[٢] مسلم، فضائل الصحابة ٦١.

مكتسب الإيمان. وكثير من الأشخاص الذين عاندوا في الإيمان كأبي جهل والوليد بن المغيرة وعُتبة بن ربيعة كانوا أسرى غرورهم وعنادهم، وبعضهم أسرى خوفهم، أي أن سبب الإنكار كان يعود إليهم وليس إلى أي قصور في طريقة تبليغ الرسول ﷺ. وكان منهم -مثل الشاعر الأعشى- مَنْ قَبِل كل شيء إلاّ أنه لم يكن يستطيع التخلّي عن كل ما ألفه سابقاً من عادات، لذا طلبوا منه إمهالهم، ولو مات أحد من هؤلاء قبل وصولهم إلى الهداية التامة لكان معنى ذلك أن كتاب القضاء والقدر سبق إليهم؛ وهنا أيضاً لا نجد قصوراً أو إهمالاً في التبليغ عند رسول الله ﷺ.

هـ- الدعوة إلى التوحيد

قام الأنبياء جميعاً بدعوة أقوامهم إلى توحيد الله تعالى ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود:٨٤). فكل دعوات الأنبياء تبدأ بالدعوة لهذه الحقيقة وتنتهي بها.

واتفاق كل هؤلاء الأنبياء على هذه الحقيقة رغم اختلاف أزمنتهم وأماكنهم وبلدانهم يدل دلالة قاطعة لا شبهة فيها على أن هذه الحقيقة ليست من بنات أفكارهم. بل هي الرسالة التي بلّغتهم من ربهم وأُمروا بتبليغها للناس، إذ لا يعقل أن يتفق أناس لهم قابليات مختلفة واستعدادات مختلفة وعاشوا في أزمنة مختلفة وفي أمكنة مختلفة... أن يتفقوا مثل هذا الاتفاق في موضوع واحد. فلو تتبعتَ أيّ مدرسة فلسفية أو فكرية معينة لرأيت خلافات واسعة حتى في الأمور الثانوية والفرعية بين أنصار هذه المدرسة، مع أنهم يعيشون في عصر واحد وفي بلد واحد.

وهذه الاختلافات الموجودة في التيارات الفكرية الإنسانية، وهذا الاتفاق في النظم الإلهية التي جاء بها الرسل بالوحي الإلهي تدلاّن على أن الهوى هو المنبع في الأولى، والوحي هو المنبع في الثانية.

أجل، إن إجماع الأنبياء على حقيقة التوحيد من خصائص مقام النبوة. يقول رسول الله ﷺ: «أفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.»[1]

[1] الموطأ، القرآن ٣٢، الحج ٢٤٦؛ كنز العمال للهندي، ٧٣/٥.

الباب الثالث

صفات الأنبياء ومكانتها من سيد الأصفياء

الفصل الأول: الصدق

الصدق هو محور النبوة، ومدار ارتكازها؛ فكل ما تلفّظه الأنبياء صدقٌ خالص، ولا يمكن أن يجافي الواقع أو الحقيقة. وعندما يشرح القرآن الكريم فضائل الأنبياء يشير إلى هذه الصفة عندهم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ (مريم:٤١). أي اذكر في القرآن الذي هو مستنسخ اللوح المحفوظ ومبين حقيقته الثابتة أو في اللوح المحفوظ بأن إبراهيم كان نبيًّا صفته الصدق التامّ في القول والسلوك.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ (مريم:٥٤). ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ۞ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ (مريم:٥٦-٥٧).

ويوسف عليه السلام... نرى رفقاءه في السجن يخاطبونه فيقولون: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (يوسف:٤٦).

وكيف لا يكونون مجهَّزين بالصدق والله تعالى يخاطب عامة المؤمنين ويطلب منهم أن يكونوا صادقين:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة:١١٩). كما يبين أن المؤمنين المجاهدين في سبيل الله هم الصادقون فيقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:١٥).

والقرآن يثني على الصادقين: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٣).

ولنستروح في ظلال أفنان هذه الآية قليلا ثم نتابع المسير:

كان أنس بن مالك خادما للرسول ﷺ وذلك حينما أخذت أمه بيده وهو إذ ذاك في

العاشرة من عمره إلى رسول الله ليخدمه قائلة: "يا رسول الله! خادمك أنس." وتركت ابنها وذهبت.[1] يقول أنس بن مالك: "إن هذه الآية نزلت في عمي أنس بن النضر وأمثاله."

عندما رأى أنس بن النضر رسول الله في بيعة العَقَبة أحبّه وتعلّق به. ولكنه لم يستطع لأسباب عدّةٍ الاشتراكَ في معركة بدر. ولمعركة بدر مكانة خاصة ومتميزة، حتى الذين اشتركوا فيها لهم مكانة خاصة بين أصحاب رسول الله ﷺ. بل إن من اشترك فيها من الملائكة لهم مكانة خاصة بين سائر الملائكة كما حدث بهذا جبريل عليه السلام الذي كان على رأس الملائكة يوم بدر.[2]

قال أنس رضي الله عنه عمي الذي سُمّيتُ به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً، فشَقّ عليه. قال: أوّلُ مشهَدٍ شهده رسول الله ﷺ غُيِّبتُ عنه، وإن أراني الله مشهداً فيما بعدُ مع رسول الله ﷺ لَيراني الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرَها. قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحد. قال: فاستقبل سعد بن معاذ. فقال له أنس: واهاً لريحِ الجنة أَجِده دون أحد. قال: فقاتلهم حتى قتل.[3]

وعندما تتداعى ذكريات معركة أُحد لا نستطيع أن ندفع الإحساس بهذه الغصة التي تنشب في حلوقنا... فهي المعركة التي استشهد فيها سبعون صحابياً. ومن يدري فقد يكون هذا هو السبب الذي قال من أجله النبي ﷺ وهو يمر من أمام جبل أُحد: «أُحد جبل يحبنا ونحبه.»[4] لكي لا نَحمِل أي ضغينة تجاهه.

أُحد جبل صعب المرتقى... ولكن معركة أُحد كانت أصعب... فقد ترك بعض الصحابة مواضعهم المستحكمة التي عيّنها لهم النبي ﷺ مدة وجيزة... كان هذا مجرد تغيير استراتيجي، لذا لا يمكن إطلاق كلمة "الهزيمة" عليه... فتوقيرنا للصحابة وزاوية نظرتنا إليهم تستلزم هذا.

في هذه المعركة جُرح رسول الله ﷺ وانكسرت سنه، ودخلت حلقتا المِغفر في وجهه الشريف فأدماه، ومع ذلك فلأنه رسول الله ﷺ ولأنه أرسل رحمة للعالمين فإنه فتح ذراعيه مبتهلا إلى الله تعالى «اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.»[5]

وفي هذه المعركة كان أنس بن النضر يصول ويجول هنا وهناك يحاول أن يبر بوعده

---

[1] مسلم، فضائل الصحابة ١٤١.
[2] البخاري، المغازي ١١؛ ابن ماجه، المقدمة، ١١.
[3] مسلم، الإمارة ١٤٨.
[4] البخاري، الزكاة ٥٤؛ مسلم، الحج ٥٠٣، الفضائل ١١.
[5] البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، الجهاد ١٠١، ١٠٥.

الذي قطعه للرسول ﷺ قبل عام. ولكن سرعان ما امتلأ جسده بضربات السيوف وطعنات الرماح فهوى إلى الأرض مضرجاً بدمائه... كان قد اقترب من النهاية، وعندما مرّ به سعد بن معاذ قال له وهو يبتسم بوهن: "واهاً لريح الجنة أجده دون أُحد."

في هذه المعركة صعب التعرف على كثير من الشهداء مثل حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش، وأنس بن النضر الذي ما تعرفت عليه أخته إلا من بنانه، فلعلها المكان الوحيد الذي لم تصبه الجروح.

والآن لنسمع بقية رواية أنس بن مالك ﷺ، فقاتلهم حتى قتل. فوُجِد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية. قال: فقالت أخته عمتي الرُّبَيِّع بنت النضر: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه. ونزلت هذه الآية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٣). فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه.[1]

كانت هذه الآية تشرح هذه الشهامة... لقد بَرّ بوعده الذي قطعه على نفسه من أنه سيقاتل حتى الموت... وقُتل، ولم يستطع الموتُ دفعَه لِنكث وعده.

نعم لقد صدق ما عاهد الله عليه. والآية الكريمة عندما تثني على مثل هؤلاء الشهداء تريد أن تقدمهم لنا كقدوة حسنة يجب أن يحتذِي بها كل من شهد أنه "لا إله إلا الله" لكي لا يضيع الدين ولا ينتكس الإيمان ولا تُمتهن شرائع الله.

لقد صدق أنس بن النضر وعده، وصدق الآخرون -من أشباه أنس- وعودهم، ذلك لأنهم تربوا في مدرسة الحبيب محمد ﷺ. فمثلما كان الحبيب صادقاً أميناً كان أصحابه وتلامذته صادقين أمناء.

الصدق عند رسولنا ﷺ

أ- الأمين قبل الرسالة

ما كان أهل مكة يخاطبونه باسمه، بل كانوا يخاطبونه بصفته "الأمين..." أجل، فقد كان مشتهراً بهذا اللقب. وما أسعدنا ونحن نكرر صباحاً ومساء هذا الوِرْد: "لا إله إلا الله الملك الحق المبين، محمد رسول الله صادق الوعد الأمين."

---

[1] مسلم، الإمارة ١٤٨.

لما قام أهل مكة بتعمير بيت الله وإصلاحه بعد أن تشقق بفعل السيول، برزت هنالك مشكلة كبيرة في موضوع إعادة الحجر الأسود -نحن ندعوه "الحجر الأسعد"- إلى موضعه السابق. إذ امتَشقت القبائل سيوفها، تبغي كل قبيلة أن يكون لها هذا الفخر وكادت تقوم بينهم فتنة عظيمة. ولكن أخمد أوارها اتفاقهم على أن يجعلوا أول من يدخل الكعبة حَكَماً بينهم. وتعلقت الأنظار بمدخل البيت ترتقب من يدخله، وما إن أطلّ محمد ﷺ بوجهه المنير عليهم حتى صاحوا جذلين: "هذا الأمين... رضينا... هذا محمد !"[1] ولم يكن رسول الله يعرف شيئاً أثناء دخوله إلى البيت الحرام.

ذلك لأن ثقتهم به كانت تامة. ومع أنه لم يكن قد بُعث بعدُ نبيا، إلا أنه كان محطَّ ثقة الجميع، إذ كان يحمل جميع صفات الأنبياء.

أجل، فالفضل ما شهدت به الأعداء. فها هو أبو سفيان ألد أعداء الرسول ﷺ آنذاك يشهد بصدقه. ففي رواية لعبد الله بن عباس عن أبي سفيان أنه قال: إن هرقل أرسل إليه في رَكْب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها[2] أبا سفيان وكفار قريش. فأتوه وهم بإيلياء[3] فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبني فكذّبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه مِن ملِك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيه شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٠٩/١؛ المسند للإمام أحمد، ٤٢٥/٣.

[2] مادّ فيها: صالحهم على ترك القتال. (المترجم)

[3] إيلياء: بيت المقدس. (المترجم)

تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم. ويأمرنا بالصلاة والصدق والعَفاف والصلة.[1]

فقال للترجمان: قل له: سألتُك عن نسبه فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب. فكذلك الرسل تُبعَث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقولٍ قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب مُلك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن لِيَذَر الكذب على الناس ويكذب على الله... الخ"[2]

والنص طويل ونقتصر على هذا القدر. وأهم ما يلفت النظر هنا وجود دليلين على صدق رسول الله ﷺ؛ أولهما هو هرقل إمبراطور الروم الذي قال ما أوردناه آنفاً، والثاني هو جواب أبي سفيان الذي كان يعترف بصدق رسول الله ويقبله مع أنه لم يكن قد أسلم بعد. ولكن هرقل أضاع فرصة ذهبية جاءت إليه، إذ أن حبه لملكه أضاع عليه الحصول على الملك الحقيقي الخالد فلم يسلم ولم يدخل في أمة الإسلام السعيدة. ولكن على الرغم من هذا فقد تصرّف باحترام أمام الرسالة التي بعثها إليه الرسول ﷺ، إذ تصرف ببصيرة، وكان اعترافه بصدق النبي ﷺ مدعاة لسرورنا.

والحقيقة أن ما قاله هرقل له معان ودلالات عميقة... أجل، فإن شخصاً لم ينطق بكذبة واحدة للناس العاديين -وإن كانت مزحة- حتى بلوغه سن الأربعين أيمكن أن يكذب على الله وقد اقترب من الكهولة، ومن الموت؟

سأل ياسر قبل إسلامه ابنه عمّاراً إلى أين تذهب؟ فأجابه: "إلى محمد ﷺ"

كان هذا الجواب كافياً له: "إنه الأمين... هكذا يعرفه أهل مكة... إن كان قال إنه نبي فهو نبي، ذلك لأنه ما من أحد جرّب عليه الكذب." لم يكن هذا قول فرد واحد ولا اعتقاد شخص واحد أو بضعة أشخاص، بل اعتقاد كل من عرفه قبل بعثته وقبل نبوته.

ب- الموصي بالصدق دائماً

وكما عاش صادقاً فقد أوصى أمته بالصدق على الدوام، وندرج هنا بعض هذه الوصايا تبركاً بها: «اِضْمَنُوا لي ستّاً من أنفسكم أَضمن لكم الجنة: أُصدقوا إذا حَدَّثتم، وأوفوا إذا

---

[1] الصلة: الإحسان إلى الأقارب. (المترجم)

[2] انظر: البخاري، بدء الوحي ٣، ١٦؛ مسلم، الجهاد ٧٤.

وعدتم، وأدّوا إذا اؤتُمِنتم، واحفظوا فروجكم، وغُضّوا أبصاركم، وكُفّوا أيديكم.»[١]

لقد عاش النبي ﷺ مستقيماً مثل شعاع ضوء، وأوصى بالاستقامة بعد أن حققها في نفسه إلى ذروة ما بين الإمكان والوجوب، إلى ذروة ليس وراء ها سوى الصدق الإلهي، أي إن رسول الله ﷺ كان يجول في عالم الصدق في أفق ﴿فَكَانَ قَابَ قَوسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم:٩). فمن ناحية كان في دائرة "الإمكان" ومن ناحية أخرى كان قد تجاوز دائرة "الإمكان" وكما قال القاضي عياض في معرض المعراج "إنه وصل إلى موضع لم يدْرِ فيه أين يضع قدمه، فقيل له أن يضع إحدى قدميه فوق الأخرى." صحيح أنه كان بشراً من جميع النواحي، ولكن الصدق رفعه إلى مثل هذا المستوى. وهو يوصينا بالوصية نفسها "اِضْمَنُوا لي الصدق وعدم الكذب في حياتكم أضمن لكم الجنة."

ويقول في حديث آخر: «دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة.»[٢] ويقول أيضاً: «وإن رأيتم أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة.»[٣] أي اصدقوا وإن رأيتم أن الصدق سيجرّ عليكم الهلاك، لأنه سيؤدي بكم إلى النجاة في الحقيقة. ويقول أيضاً: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدُق ويتحرّى الصدقَ حتى يُكتب عند الله صدّيقاً. وإياكم والكذبَ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذِب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّابا.»[٤]

النجاة والخلاص في الصدق. فالإنسان عندما يموت بصدقه يموت مرة واحدة بينما يموت مرات بعدد كذبه. يقول كعب بن مالك ﷺ: "لقد نجوت بصدقي." وعندما نتكلم عن الصدق فلا يمكن ألاّ نذكره ﷺ.

كان كعب بن مالك ﷺ ذا لسان صادق وسيف قاطع.. كان شاعراً استطاع بشعره أن يُلقم الكفار حجراً في العَقَبة، لذا كان من أوائل الأنصار. ولكنه لم يشترك في غزوة تبوك التي كانت غزوة صعبة، تناوش فيها حفنة من المؤمنين مع الإمبراطورية البيزنطية في لهيب الصحراء اللافح... ذهبوا بهذه النية... وأبدوا تلك البسالة... كسبوا الثواب ولم يبق من الحرب سوى ذكرياتها.

---

[١] المسند للإمام أحمد، ٣٢٣/٥.

[٢] الترمذي، القيامة ٦٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢٠٠/١.

[٣] فيض القدير للمناوي، ٢٣٢/٣؛ كنز العمال للهندي، ٣٤٤/٣.

[٤] البخاري، الأدب ٦٩؛ مسلم، البر ١٠٥؛ أبو داود، الأدب ٨٠.

قال كعب بن مالك ﷺ في رواية أخرجها أحمد والبخاري ومسلم عن طريق الزهري:

"لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدا تَخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العَقَبَة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أُحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذْكَرَ في الناس منها. كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسرَ حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعتْ عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومفازا وعدوا كثيرا، فجَلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أُهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان. قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيّب إلا ظن أن سيَخفَى له، ما لم يَنزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجعُ ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدّ بالناس الجِدّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتَفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأُدركهم، وليتني فعلت، فلم يُقدَّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عَذَرَ الله من الضعفاء. ولم يذْكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلِمة: يا رسول الله حبسه بُرْداه ونظرُه في عِطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همّي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له

وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووَكَلَ سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المُغْضَب، ثم قال: «تعال.» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلّفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلا ولكني والله لقد علمتُ لئن حدّثتُك اليوم حديث كَذِب ترضى به عني لَيوشكنّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتُك حديث صِدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك.» فقمت، وثار رجال من بني سلِمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علِمناك كنتَ أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلِّفون، قد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنّبوني حتى أردت أن أرجع فأُكذّب نفسي ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العَمْريّ وهلال بن أمية الواقفيّ فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ من بين مَن تخلَّف عنه، فاجتنبَنا الناسُ وتغيروا لنا حتى تَنكَّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بِرَدّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أَنشدك بالله هل تعلمني أُحِب الله ورسوله؟ فسكَتَ، فعدتُ له فنشدتُه فسكتَ، فعدتُ له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غَسّان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم

يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعَة فالْحَقْ بنا نُواسِكَ فقلت لمّا قرأتها وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التَّنُّور فسجَرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطلّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقرَبها وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الْحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقرَبْكِ.» قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابّ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صُبْحَ خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفَى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشِرْ، قال: فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرَج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبل صاحبيّ مبشّرون وركض إلي رجلٌ فَرَساً، وسعى ساع مِن أَسْلَمَ فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنّوني بالتوبة يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناسُ، فقام إليّ طلحة بن عُبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك» قال قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله، وإلى رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «أمسِكْ عليك بعض مالك فهو خير لك.» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا

رسول الله، إن الله إنما نجّاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمَّدتُ منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِم أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة:١١٧-١١٩). فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذَبْته فأَهلك كما هلك الذين كذَبوا فإن الله قال للذين كذَبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:٩٥-٩٦). قال كعب: وكنا تُخُلِّفْنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ (التوبة:١١٨). وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيّانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه فقَبِل منه.[1]

أجل، إن حقيقة النبوة قائمة على أساس من الصدق والاستقامة. فكل نبي صادق، ويجب أن يكون صادقاً، ذلك لأنه الشخص الذي يبلّغ الأوامر الآتية إليه من عالم الغيب إلى الناس. فلو كان هناك احتمال لأيّ خطأ مهما كان قليلاً في مهمة التبليغ، لانقلبت الأمور رأساً على عقب، لأن جميع الحقائق التي نتعلمها حول الحقيقة الإنسانية تنتقل إلينا عن طريقهم، وهذا موضوع حساس جدًّا لا يتحمل مثقال ذرة من الخطأ أو الوهم، لذا نرى الله تعالى يقول في هذا الأمر: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ۞ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[2] ۞ فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٧).

لقد كان ﷺ في موضوع أوامر الله ونواهيه مثل الميت في يد المغسل يستطيع أن يقلبه

---

[1] مسلم، التوبة ٥٣؛ البخاري، المغازي ٧٩.

[2] الوتين: هو نياط القلب. (المترجم)

يمينا أو يساراً كيفما شاء. فوجهته دائما هي الوجهة التي يوجهه إليها الله تعالى حتى بعد وصوله إلى ذروة القرب من الله تعالى. وما كان له أن يفقد شيئاً ولو هينا من حساسيته في هذا... بل لقد تعمقت فيه هذه الحساسية ونزلت إلى أعماق قلبه.

لقد كان عند وعده دائما فلم يسمع عنه أحد حتى بلوغه سن الأربعين كذبة ولا جرّب عليه خلف وعد. يروي عبد الله بن أبي الحَمْساء قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يُبعث، وبقيتْ له بقية فوعدتُه أن آتيه بها في مكانه فنسيتُ. ثم ذكرت بعد ثلاث. فجئت فإذا هو في مكانه فقال: «يا فتى! لقد شققتَ عليّ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك.»[1]

ج- أقواله علامة صدقه

لقد كان منذ مولده الصادقَ الأمين المختار، لذا أسرع الناس إلى الإيمان بكل ما قاله بعد نبوته، فكأن العالم كله يهتف به: "لقد صدقت يا رسول الله..." لا البشر فحسب، بل كل كائن يقول بلسان حاله وبلسان المعجزة هذا القول له ويبايعه.

ولأقف هنا لحظة لأستطرد ولأوضح موضوعاً مهمّاً فأقول: إن الآيات القرآنية وأقوال نبينا ﷺ النورانية لهما مقام رفيع جدّاً لا يستطيع الفلاسفة بعقولهم ولا الأولياء بقلوبهم ولا الأصفياء بأرواحهم أن يفهموها حق الفهم ولا أن يبلغوا ذلك المستوى أو يسموا إليه. فالوصول متعذر بل مستحيل؛ وذلك من ناحية الدقة في التعبير عن العلاقات الموجودة بين ذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى.

غير أن الأرواح السامية والواصلة رأت من تجاربها أنها كلما غذت السير نحو الأعالي كلما تبيّن لها مدى صدق بيان القرآن وبيان الرسول ﷺ ومدى مطابقتهما للحق وللحقيقة، ويصلون إلى هذا عن طريق الكشف والذوق.

أجل، فما قاله الرسول ﷺ حول الألوهية يتم التصديق عليه من قِبَل أهل الاختصاص ويُتخذ أساساً وقاعدة، حتى أنه تناول مواضيع حساسة جدّاً حول مسائل الألوهية والحشر والنشر والقدر مع احتفاظه بالتوازن الدقيق بين هذه المواضيع بحيث إنه لو لم يعلن عن هذه المسائل ويشرحها لما استطاع أحد أن يقول كلمة واحدة حولها.

يروى عن عمرو بن أخطب ﷺ أنه قال: "صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبَنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبَنا حتى حضرت العصر. ثم

---

[1] أبو داود، الأدب ٨٢.

نـزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأَخبَرَنا بما كان وبما هو كائن فأعلمُنا أحفظُنا."[1]

أجل، فقد فَتح أبواب الماضي واستعرض أقوال الأنبياء منذ آدم عليه السلام، وشرح أوصافهم وشمائلهم؛ ثم حوّل بصرَه إلى المستقبل فشرح كل شيء حول المحشر والجنة والجحيم، وهو الذي لم يقرأ كتاباً ولم يدرس على أحد؛ فكيف تسنّى له معرفة كل هذا..؟ لا شك أن الله ﷻ هو الذي علّمه ما لم يكن يعلمه من قبلُ من شؤون الدنيا وشؤون الآخرة. وما كان هناك غير هذا السبيل لِمعرفة كل هذه الأمور، وهذا هو ما يَقبله ويصدّق به كل العقلاء حالياً. وهو دليل آخر على صدق رسول الله ﷺ.

كان رسول الله ﷺ يتكلم عن الأنبياء ويصفهم ويصف ملامح وجوههم حتى كأنه رسام يرسم اللوحات. وكان أهل الكتاب في زمانه يصدقون كلامه ووصفه ولا يعترضون عليه ويقولون: "أجل، هذه هي أوصافهم كما جاءت في كتبنا."[2] أوليس هذا دليلاً قاطعاً على صدق نبوة رجل يصف جميع الأنبياء والرسل السابقين وصفاً دقيقاً يوافق عليه أهل العلم آنذاك وأهل الاختصاص دون أن يقرأ كتاباً واحداً من الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما؟

إن هذا الموضوع الذي قدّمنا لمحة منه موضوع لا أستطيع إيفاءه حقه، فهو خارج طاقتي وقدرتي... والحال نفسها واردة مع القرّاء، إذ ليس من السّهل فهم هذا الموضوع وشرحه بالشكل المطلوب، غير أننا استناداً إلى أقوال وشهادة مَن بلَغوا هذا المستوى من آلاف الأولياء والأصفياء الذين سلكوا طريق الولاية وصعدوا مراتب الولاية مرتبة مرتبة؛ والعلماء والفلاسفة الذين ملأوا رؤوسهم بالعلم وبالمعرفة نعلم أن أقوال رسول الله ﷺ كانت في الذروة في كل أمر من الأمور، وهذا يشكل بعداً آخر حول صدقه واستقامته. فتصديق هؤلاء الأشخاص الممتازين والمتميزين يُرينا أنه ﷺ لم يتحدث أبداً خلاف الحقيقة وخلاف الحق، ذلك لأن ما تَحدّث فيه لم يكن من عنده بل من الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.[3] وهذا هو السبب في أنه أصبح سلطان الكلام الحق على مر العصور.

---

[1] مسلم، الفتن ٢٥؛ المسند للإمام أحمد، ٣٤١/٥.

[2] مسلم، الإيمان ٢٧١.

[3] انظر الآية: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣-٤).

وما نريد أن نقف عليه هنا هو بعض أقواله المتعلقة بالغيب والتي ظهر صدقها بعد مرور أربعة عشر قرناً، وهذا دليل آخر على صدقه وصدق نبوته. غير أننا نود قبل الدخول إلى هذا الموضوع إيضاح بعض المسائل حول معاني الغيب لإيقاننا بضرورة هذه الشروح وبفائدتها.

جاءت كلمة "الغيب" في القرآن الكريم في مواضع متعددة وبمعانٍ مختلفة. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:٥٩). فالغيب هنا غيب موجود في مقام الألوهية لا يعلمه أحد سواه ﷻ... غيب لا يعلمه حتى رسوله محمد ﷺ.

ثم ألا يذكر الله ﷻ لنبيه بأن عليه أن يقول: ﴿قُل لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام:٥٠)، ﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:١٨٨).

وفي سورة الجن نرى الآية: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ۞ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ۞ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ (الجن:٢٦-٢٨).

في ضوء هذه الآيات نستطيع أن نقدم التحليل الآتي: إن من يقول إن رسول الله ﷺ كان يعلم الغيب علماً مطلقاً يميل إلى الإفراط والمبالغة. ومن يقول إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف الغيب مطلقاً يميل إلى التفريط. فهو لم يكن يعرف الغيب، إلا أن الله تعالى كان يطلعه على الغيب. فكان رسول الله ﷺ يشرح الأمور الأساسية للحوادث حتى يوم القيامة وكأنه جالس أمام شاشة تليفزيونية. وهذا هو ما نريد الوقوف عنده بكل عناية. فما قاله لم يكن من عنده بل مما أخبره الله تعالى به عن طريق الوحي. وبما أن الله تعالى هو مصدر هذا الغيب، لذا لم يكن الرسل وحدهم ولا رسولنا ﷺ فقط من يعلم الغيب عن هذا الطريق، بل كان بعض الواصلين من الأولياء مطّلعين على قسم من الغيب عن طريق الكرامة إذ يقول الرسول ﷺ: «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم» قال ابن وهب: تفسير "محدَّثون" مُلْهَمون.[1] لذا، نرى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقطع خطبته ويهتف: "يا سارية! الجبل.. الجبل.. الجبل!" يحذّر جيش

---

[1] البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٣؛ الترمذي، المناقب ١٧.

المسلمين من الكمين المعدّ له من الأعداء. ويسمع قائد المسلمين نداء عمر فينجو بجيشه من كمين الأعداء.[١]

وهناك أولياء مثل محيي الدين بن عربي ومولانا جلال الدين الرومي والإمام الرباني ومشتاق أفندي ومئات غيرهم أخبروا عن الغيب ثم صدّقت الأيام كلامهم. وكلهم كانت قلوبهم مرتبطة برسولهم محمد ﷺ، مستمدين إلهاماتهم من مشكاة نوره. فإذا كان هذا هو حال بعض طلابه ودرجة قربهم من النسائم الرحمانية واللطف والإلهام الإلهي، والاطّلاع على الغيب فكيف برسول الله ﷺ وهو الذي لو وُضع في كفة ووُضعت أمته في كفة لرجَحَها؟ وكيف يُستبعد اطّلاعه على الغيب كجزء من معجزاته؟[٢]

هناك ما يقارب ثلاثمائة معجزة نبوية مذكورة في كتب الأحاديث المعتمدة، وقد تحقق القسم الأعظم من الأخبار الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ. ولسنا هنا في معرض استعراض هذه الأخبار، بل سنتناول أمثلة منها لكي تعطينا فكرة عن الموضوع.

وسنقسم هذه الأمثلة إلى مجموعات ثلاث:

الأولى: الأخبار الغيبية المتعلقة بعهده ﷺ.

الثانية: الأخبار المتعلقة بالمستقبل القريب أو البعيد.

الثالثة: الحقائق التي أوضحها ببيانه السهل الممتنع والتي لم يعرف معناها إلا بعد تقدم العلوم.

أولاً: أخبار الغيب المتعلقة بزمانه

١. تورد كتب الأحاديث وفي مقدمتها صحيح البخاري ومسلم الرواية التالية:

عن أنس ﷺ قال: سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال: «لا تسألوني عن شيء إلا بيّنتُ لكم» فجعلتُ أنظر يميناً وشمالاً، فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان إذا لاحى يُدعى إلى غير أبيه فقال: يا نبي الله من أبي؟ فقال: «أبوك حُذافة» ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربًا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، نعوذ بالله من سوء الفتن، فقال النبي ﷺ: «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صُوّرت لي الجنة والنار، حتى رأيتهما دون الحائط.»[٣]

---

[١] كنز العمال للهندي، ٥٧١/١٢.

[٢] انظر: أبو داود، السنة ٨؛ المسند للإمام أحمد، ٧٦/٢.

[٣] البخاري، الدعوات ٣٥، الفتن ١٥؛ مسلم، الفضائل ١٣٤.

٢. يورد مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي عن أنس ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله» فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ.[١]

أجل، فهؤلاء الكفار الذين لم يؤمنوا برسول الله ﷺ في حياتهم كانت أجسادهم الآن وجثثهم تنطق بشهادة صدقه عليه الصلاة والسلام... ذلك لأنه كان يخبر، ثم يتحقق ذلك الخبر بحذافيره.

٣. ينقل الإمام أحمد بن حنبل في مسنده الحادثة التالية:

قال جرير: لمّا دنوتُ من المدينة أنختُ راحلتي ثم حلَلْتُ عيبتي ثم لبست حُلّتي ثم دخلت، فإذا رسول الله يخطب فرماني الناس بالحَدَق فقلت لجليسي: يا عبد الله، ذَكَرني رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم ذكرك آنفاً بأحسن ذكر، فبينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: «يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفَجّ من خير ذي يمن، ألا وإن على وجهه مسحة ملَك.»[٢]

٤. ينقل ابن كثير في "البداية والنهاية" والبيهقي في "دلائل النبوة" الحادثة التالية:

رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون عقبه، فقال بينه وبين نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب بيده على صدره فقال: «إذن، يُخزيك الله» فقال: أتوب إلى الله وأستغفر الله مما تفوّهتُ به.

وفي رواية: إن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالساً فقال في نفسه: لو جمعت لمحمد جَمْعاً ؟ فإنه لَيحدّث نفسه بذلك إذ ضرب رسول الله ﷺ بين كتفيه وقال: «إذن، يُخزيك الله» قال فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه فقال: ما أيقنت أنك نبيّ حتى الساعة.[٣]

٥. وهناك حادثة أخرى جاءت حول عُمَير بن وهب الذي كان لقبه "الشيطان" في الجاهلية فأصبح لقبه "راهب الإسلام" بعد هدايته. وخلاصة هذه الحادثة أنه جلس يوماً في مكة مع صفوان بن أمية واتفقا على أن يذهب عمير بن وهب إلى المدينة ويتظاهر بأنه أسلم ويقتل رسول الله ﷺ وذلك مقابل أن يعطيه صفوان عدداً من الإبل.

---

[١] مسلم، الجنة، ٧٦، ٧٧؛ النسائي، الجنائز ١١٧.

[٢] المسند للإمام أحمد، ٣٦٠/٤-٣٦٤.

[٣] دلائل النبوة للبيهقي، ١٠٢/٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٤٨/٤.

حدّ عمير سيفه وتوجه إلى المدينة وعندما وصلها قال بأنه قد أسلم ويريد مبايعة رسول الله. فذهبوا به إلى مسجد رسول الله ﷺ. ولكن الصحابة لم يكونوا يأمنون جانبه ولا يأمنون اختلاءه بالنبي ﷺ فذهبوا به إلى المسجد وأحاطوا بالنبي ﷺ الذي سأل عميراً عما جاء به وعندما أجابه بأنه جاء ليسلم لم يصدّقه الرسول ﷺ وقال له: «أنا أخبرك لم جئت.» وأخبره ما كان من أمره مع صفوان في مكة واتفاقه معه على قتله ﷺ. فذهل عمير مما سمع وأكبّ على يدي رسول الله ﷺ يعلن إسلامه ويشهد أنه رسول الله.[1] ثم أصبح من أصحاب العبادات ومجاهدة النفس حتى أطلق عليه اسم "راهب الإسلام".

فمن الذي أخبر رسول الله ﷺ بما جرى بين عمير وصفوان في مكة؟

ثانياً: الأخبار المتعلقة بالمستقبل

أ – المستقبل القريب

يروي البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد بن حارثة:

كان رسول الله ﷺ يأخذني فيُقعدني على فخِذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول: «اللّهم ارحمهما فإني أرحمهما.»[2] وبعد أن أصبح شاباً عيّنه رسول الله ﷺ -وهو في أواخر أيامه- قائداً على الجيش الذي هيأه لقتال الروم... أي كان يريد إرساله إلى الأرض التي استشهد فيها أبوه قبل سنوات. غير أن أسامة عندما رأى اعتلال صحة الرسول ﷺ فضّل الانتظار في المدينة ولم يغادرها حتى وفاة النبي ﷺ.[3] يقول أسامة: أشرف النبي ﷺ على أُطُمٍ من آطام المدينة. فقال: «هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القَطْر.»[4]

وبعد أن فارق رسول الله ﷺ الحياة وأصحابه امتلأت شوارع المدينة وأزقتها بالفتن. وكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ﷺ من ضحايا هذه الفتن. فكأن هذه الفتن كانت تقول لرسول الله ﷺ بلسان حالها "لقد صدقت."

١) الفتــــن

كان عمر بن الخطاب يخشى هذه الفتن طوال حياته، وفي رواية عن الأعمش عن شقيق

---

[1] الإصابة لابن حجر، ٣٦/٣؛ رجال حول الرسول لخالد محمد خالد، ص٣٠٤-٣١٢.

[2] البخاري، الأدب ٢٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢٠٥/٥.

[3] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٥/٢؛ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر لابن المنظور، ٢٥٠/٤.

[4] البخاري، فضائل المدينة، ٨؛ مسلم، الفتن ٩.

عن حُذيفة ﷺ أنه في أحد الأيام بينما كان عمر جالساً في جمع من الصحابة في المسجد سألهم:

أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ قال فقلت: أنا. قال: إنك لجريء. وكيف قال؟ قال قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفّرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.» فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر. قال فقلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين! إن بينك وبينها باباً مغلقاً. قال: أفيُكسر الباب أم يُفتح؟ قال قلت: لا. بل يُكسر قال: ذلك أحرى أن لا يغلَق أبداً.

قال: فقلنا لحُذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم. كما يعلم أن دون غد الليلة. إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط. قال فهبنا أن نسأل حُذيفة: من الباب؟ فقلنا لمسروق: سله. فسأله فقال: عمر.[1]

كان عمر ﷺ يعلم ذلك. فقد طرق سمعَه سابقاً حديثُ رسول الله ﷺ عن الفتنة. وعندما جاء ميعادها ظهرت كما أخبر رسول الله ﷺ. فطُعن عمر بن الخطاب ﷺ من قبل مجوسي فارسي، فتلقَّت الوحدة الإسلامية ذلك اليوم طعنةً عميقة في صدرها... أجل، لقد اختار أعداء الإسلام هدفهم اختياراً جيداً، وضربوا هذا الهدف في الصميم. فبوفاته سالت الفتن كالسيل الجارف على أرض الإسلام... صحيح أن هذا كان خَطْباً عظيماً ورزءاً كبيراً، ولكنه كان من جهة أخرى تصديقاً وبرهاناً ناصعاً على صدق النبوة.

٢) النصر

جاء في البخاري وفي سنن أبي داود عن خَبّاب بن الأرتّ ﷺ قال:

شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضَع على رأسه فيُشَقّ باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون.»[2] وتحققت نبوءة الرسول ﷺ بحذافيرها.

---

[1] مسلم، الفتن ٢٦؛ البخاري، الصوم ٣.

[2] البخاري، المناقب ٢٥؛ أبو داود، الجهاد ٩٧.

٣) «أنتِ أول من يلحق بي»

جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها وهي تروي ذكرياتها عن الأيام الأخيرة للرسول ﷺ قالت: كُنّ أزواج النبي ﷺ عنده. لم يغادر منهن واحدة. فأقبلت فاطمة تمشي ما تُخطئ مِشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئاً. فلما رآها رحّب بها فقال: «مرحباً بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه.[1] قالت عائشة رضي الله عنها: فسارّها بشيء فبكتْ، ثم دعاها فسارّها بشيء فضحكت، فسألناها عن ذلك فقالت: سارّني النبي ﷺ أنه يُقبَض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت ثم سارّني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت".[2]

فكأنها في بكائها كانت تصف حالها بعد وفاة والدها:

ماذا علي مَنْ شَمّ تربة أحمدا ألاّ يَشُمّ مدى الزمان غَواليا

صُبّت عليّ مصائبُ لو أنها صُبَّت على الأيام عُدْنَ لياليا[3]

وبعد ستة أشهر فقط من وفاته ﷺ لحقت به فاطمة رضي الله عنها. وكانت وفاتها تصديقاً لنبوة أبيها رسول الله ﷺ.[4]

٤) الصلح

ذكر معظم رجال الحديث في كتب الأحاديث الستة أن الرسول ﷺ أشار يوماً وهو على المنبر إلى الحسن ﷺ قائلاً: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يُصْلِح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.»[5]

أجل، إنه كريم بن كريم وحفيد لرسول الله ﷺ، وعندما أصبح خليفة ذات يوم تخلّى عنها وعن السلطة حتى لا يكون سبباً في التفرقة بين أمة الإسلام، وأثبت بذلك كيف أنه سيد وابن سيد. فلم يمر سوى خمس وعشرين أو ثلاثين سنة على نبوءة رسول الله ﷺ حتى تحقق ما قاله حرفياً. فالأمويون رأوا الحسن أمامهم بعد وفاة علي بن أبي طالب، ولكن الحسن كان رجل صلح وسلام، لذا فقد تنازل عن جميع حقوقه لكي يصلح بين جيشي

---

(١) البخاري، الاستئذان ٤٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ٩٨، ٩٩؛ ابن ماجه، الجنائز ٦٤.

(٢) البخاري، المغازي ٨٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ٩٨.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٣٤/٢؛ ابن ماجه، الجنائز ٦٥؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٧/٣.

(٤) البخاري، المغازي ٣٨؛ مسلم، الجهاد ٥٢؛ المسند للإمام أحمد، ٦/١.

(٥) البخاري، الصلح ٩؛ الترمذي، المناقب ٣٠؛ النسائي، الجمعة ٢٧؛ أبو داود، السنة ١٢؛ المسند للإمام أحمد، ٤٩/٥.

المسلمين ويمنع -ولو بشكل مؤقت- وقوع فتنة كبرى بين المسلمين.[١] وما أصدق ما قال الشاعر في حقه:

كريم بن كريم بن كريم وجده خير الأنام

عندما أخبر الرسول ﷺ بهذه الحادثة كان الحسن ﷺ طفلاً صغيراً، وربما لم يَفهم مرادَ الرسول ﷺ ولا ما أشار إليه، أي أنه لم يفعل ما فعله لأن رسول الله ﷺ قال ذلك، بل قال رسول الله ﷺ ذلك القول لكونه عالماً بما سيفعله، وكان الحسن ﷺ بعمله هذا يصدِّق جده، ويقول له بلسان الحال: "صدقت!"

٥) سيعيش قرناً

عن عبد الله بن بُسْر: قال وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي فقال: «يعيش هذا الغلام قرناً.» فعاش مائة سنة وكان في وجهه ثؤلول، فقال: «لا يموت حتى يذهب الثؤلول.» ويقول الصحابة إنه عاش مائة سنة وذهب الثؤلول عن وجهه.[٢]

وكما كان رسول الله ﷺ حسب سر الآية ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى:٤) يتقدم كل يوم ويقطع الدرجات نحو العُلى ونحو الأفضل ويكون يومه دائماً أفضل من أمسه، فإنه كان يستغفر كل يوم مائة مرة.[٣] وكانت أمته تعرفه أكثر فأكثر كل يوم، وكان إيمانها يزداد به وبصدقه كلما أظهرت الأيامُ صِدقَ الأخبار التي أخبر بها الرسول ﷺ عن المستقبل فتُرَدِّد وتقول: "صدقت يا رسول الله!"

والآن لنعط بعض الأمثلة المتعلقة بالعهود البعيدة عن زمن الرسول ﷺ والقريبة من زماننا الحالي. والأمثلة عن الأخبار المستقبلية التي ننتظر تحققها أيضاً.

٦) الأخبار التي أخبر بها في وقعة "الخندق"

تكاد جميع كتب الأحاديث تجمع على إيراد الحادثة التالية التي جرت أثناء حفر الخندق حول المدينة. وكان النبي ﷺ يشارك صحابته في الحفر، وينشد:

«اللّهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة»[٤]

فينشدون:

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ٤٥/٨.

[٢] مجمع الزوائد للهيثمي، ٤٠٤/٩-٤٠٥.

[٣] مسلم، الذكر ٤٢؛ أبو داود، الوتر ٢٦.

[٤] البخاري، مناقب الأنصار ٩؛ مسلم، الجهاد ١٢٧.

«والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تَصدّقنا ولا صلّينا
فأَنزِلَنْ سـكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا»[١]

يقول البراء بن عازب الأنصاري:

لما كان حين أَمرَنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرض لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فلما رآها أخذ المعول وقال: «بسم الله» وضرب ضربة فكَسَر ثلثها وقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأُبصِر قصورها الحمر إن شاء الله» ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض» ثم ضرب الثالثة فقال: «بسم الله» فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صَنْعاء من مكاني الساعة.»[٢]

ولم تمض إلا بضع سنين حتى فتح الله تعالى بسيوف سعد بن أبي وقّاص وخالد بن الوليد وغيرهما من كبار القوّاد كل هذه البلدان والممالك. وتم تسليم مفاتيحها إلى الشخصية المعنوية لرسولنا محمد ﷺ. وكان هذا دليلاً آخر على صدقه. ولم يكن في الإمكان أصلاً إلا أن يكون هكذا، فلو فرضنا المستحيل ولم يحصل ما وعده رسولنا ﷺ، لحقق الله تعالى هذا الوعد لكي لا يكذِّب رسوله... كيف لا ورسول الله ﷺ يصف الصحابي البراء بن مالك ﷺ بأنه «لو أَقْسم على الله لأَبرّه.»[٣] أي لو أقسم البراء حول أمر صعب التحقق لحقق الله تعالى قَسَمه هذا. وكان الصحابة يقدمونه في الحرب لكي يضمنوا انتصارهم.[٤] فهل يعطي الله أحد الصحابة مثل هذه المِيزة ولا يعطيها لرسوله ﷺ؟ فالله سبحانه تعالى أراه فتح هذه البلدان رأي العين، وكان الرسول ﷺ يخبر عما رآه.

٧) بشرى الأمن والغنى

روى عَدِيّ بن حاتِم ﷺ قال:

بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: «يا عديّ! هل رأيت الحِيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها. قال: «فإن طالت بك حياة،

---

[١] البخاري، المغازي ٢٩؛ مسلم، الجهاد ١٢٣-١٢٥.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ١١٦/٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٣٠/٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠٣/٤.

[٣] الترمذي، المناقب ٥٤ (والصحابي المذكور هو البراء بن مالك أخ أنس بن مالك).

[٤] الإصابة لابن حجر، ١٤٣/١-١٤٤.

لتَرَيَنّ الظعينة[1] تَرتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف الا الله» -قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعّار[2] طَيِّئ الذين قد سَعّروا[3] البلاد- «ولئن طالت بك حياة لتُفتحَنّ كنوزُ كسرى.» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لَتريَنّ الرجلَ يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يَقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه.»

قال: فرأيت الظعينة ترتحل من الحِيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوزَ كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةٌ، لترَوُنّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يُخرج ملء كفه.»[4]

لم ير عديّ تحقق النبوءة الثالثة، ولكن جاء اليوم الذي تحققت فيه أيضاً. ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز تحقق الشق الثالث من النبوءة، وأصبح واقعاً مُعاشاً. ففي تلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف كان توزيع الثروة عادلاً ومنظماً إلى درجة أنه لم يبق فيها فقير واحد. ولا نبالغ إن قلنا بأن مستوى الحياة الحالية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي دول الغرب أقل بكثير من مستوى الحياة آنذاك في تلك الدولة. هذا علاوة على أن نظام توزيع الثروات في هذه الأمم غير عادل وغير متوازن أبداً؛ فإلى جانب فئة غنية وموسرة ومرفهة جدًا نجد الطبقات الفقيرة التي تعيش ظروف حياة قاسية. وما كان مثل هذا التوزيع الجائر غير المتوازن موجوداً في ذلك العهد... عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز.[5]

٨) شهادة عمّار

كان المسلمون منهمكين ببناء المسجد النبوي... الكل يعمل... فمنهم من يصنع اللبِن ومنهم من ينقلها ومنهم من يبني. وكان رسول الله ﷺ يعمل معهم. فمر به عمّار بن ياسر ﷺ وهو يحمل لبنتين -بينما كان الباقون يحملون لبنة واحدة- فقال له رسول الله ﷺ: «ما دأبك إلى هذا؟» قال: يا رسول الله أريد الأجر. فجعل يمسح التراب عن منكبيه وظهره وهو يقول: «ويحك يا عمّار! تقتلك الفئة الباغية.»[6] أو: «أبشر! تقتلك الفئة الباغية.»[7] فأخبر النبي

---

[1] الظعينة: هو في الأصل اسم الهودج ثم قيل للمرأة في الهودج. (المترجم)

[2] دُعّار: جميع داعر وهو الخبيث المفسد الفاسق. (المترجم)

[3] سعّروا البلاد: أشعلوا فيها نار الفتنة وأفسدوها. (المترجم)

[4] البخاري، المناقب ٢٥.

[5] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٢٥/٩.

[6] البخاري، الصلاة ٦٣؛ مسلم، الفتن ٧٠-٧٣.

[7] الترمذي، المناقب ٣٤.

علي بن أبي طالب ﷺ بذلك ونبهه إلى أن عمّاراً سيستشهد وستقتله الفئة الباغية.

في معركة صِفّين كان عمّار في صف علي بن أبي طالب ﷺ واستشهد فيها. وعَدّ أصحاب علي ﷺ هذه الشهادة دليلاً على أن الطرف الآخر فئة باغية.[1] صحيح أن صحابيًا جليلاً قُتل في هذه المعركة، ولكن كل قطرة من دمائه سقطت على أرض المعركة كانت تقول: "صدقت يا رسول الله ﷺ!"

أجل، أيها القراء الأعزاء! فلو لم يُخبِر الله تعالى فكيف يستطيع الإنسان أن يعلم هذا..؟ هناك حاليًا أفلام خيالية تقوم ببعض التنبؤات حول المستقبل؛ وهذا ليس بالأمر الصعب، ذلك لأن لديهم المقدمات والبدايات، ويمكن القيام ببعض التخمينات في هذه المسائل وربط الحوادث وتركيبها بعضها مع البعض الآخر.

بينما الأمور الغيبية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ لم تكن لها مقدمات ولا بدايات، وما كان بمقدور أي بشر مهما كان عبقريًا أن يخبر عن عُشر معشار ما أخبر الرسول ﷺ من أمور المستقبل وأمور الغيب؛ ذلك لأن العقول لها حدود لا تستطيع تجاوزها. إذ يستحيل معرفة هذه المسائل دون الاستعانة بالوحي أو الإلهام الغيبي. ومن ثم فلم يكن رسول الله ﷺ يعرف هذه المسائل من نفسه، بل لأن الله تعالى كان يخبره بها، وهذا هو سبب تصديق الأيام لكل ما قاله.

٩) قوم مارقون من الدين

في أحد الأيام كان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم فأقبل شخص غائر العينين ناتئ الجبين كَثّ اللحية مُشرِف الوجنتين محلوق الرأس، ولعله كان يمثل ظهور أمة في المستقبل، فخاطب رسول الله ﷺ بكل صفاقة قائلاً: يا محمد اِعْدِلْ. قال: «ويلك! ومن يَعدِل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل.»[2]

والرواية إما "خبتَ وخسرتَ" بفتح التاء الأخيرة، أي بضمير المخاطب، أو "خبتُ وخسرتُ" بضم التاء الأخيرة أي بضمير المتكلم. فالرسول ﷺ يريد أن يقول حسب الرواية الأولى: إن لم يكن نبي أمة شخصاً عادلاً فكيف تتعلم تلك الأمة العدالة؟ والناس الذين يعيشون في جو بعيد عن العدالة لا شك يعيشون في خيبة وخسران. ويريد أن يقول حسب الرواية الثانية: لو لم أعدل أُعَدّ من الخاسرين بينما بعثت نبيًا ورسولاً ورحمة للعالمين.. إذن، فلا يمكن ألاّ أعدل.

---

[1] كنز العمال للهندي، ٥٣٩/١٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٢٩٦/٧.

[2] مسلم، الزكاة ١٤٢؛ البخاري، الأدب ٩٥، المناقب ٢٥.

وأراد عمر بن الخطاب ﷺ أن يؤدب هذا الشخص الذي لا يعرف أدب الحديث، فقال لرسول الله ﷺ: ائْذَنْ لي فَأَضْرِبَ عُنُقَه. ولكن رسول الله ﷺ قال: «دعه فإنّ له أصحاباً يَحقِر أحدُكم صَلاتَه مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يَقرأون القرآن لا يجاوز تَراقِيَهم، يَمرُقون من الدين كما يَمرُق السَهم من الرَّمِيَّة، يُنظَر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظَر إلى رِصافه[1] فلا يوجد فيه شيء ثم يُنظَر إلى نَضِيِّه[2] وهو قِدْحُه[3] فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظَر إلى قُذَذه[4] فلا يوجد فيه شيء، قد سَبَق الفَرْثَ والدَّمَ،[5] آيتُهم رَجُلٌ أسودُ إحدى عَضُديْه مثل ثَدْيِ المرأة. أو مثل البَضْعة[6] تَدَرْدَرُ ويَخرجون على حينِ فُرْقَةٍ من الناس.[7]

قال أبو سعيد الخدري ﷺ: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب ﷺ قاتلهم وأنا معه، فأَمَر بذلك الرجل فالتُمس فأُتي به حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ النبي ﷺ الذي نَعَتَه.[8]

إذن، فالذين مرقوا من الدين مروق السهم هم الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب ﷺ.[9] وهناك رواية في حديث صحيح: أن الرسول ﷺ قال قاصداً علي بن أبي طالب ﷺ: «إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلتُ على تنزيله»[10]

أي إن الناس حاربوني ووقفوا ضدي عند نزول القرآن، وقاتلتهم على ذلك، وسيأتي يوم يفسَّر فيه القرآن تفسيراً خاطئاً ويؤَوَّل تأويلاً خاطئا، وستحارب أنت هؤلاء الناس... وقد حدث هذا كما ذكرت كتب السير.

فكأن ذلك الشخص الغائر العينين، الناتئ الجبين قد خُلق وعامل رسول الله ﷺ تلك المعاملة السلبية لكي يظهر صدق رسول الله ﷺ. ولكن لا يرد على خاطر أحدكم بأنه سيؤجر على هذا... كلا! فكما لا يؤجر الشيطان لتسببه في اكتساب المؤمن ثواباً من الله

---

[1] إلى رِصافه: الرصاف مدخل النصل من السهم. والنصل هو حديدة السهم.

[2] إلى نَضِيِّه: السهم بلا نصل ولا ريش.

[3] القدح: هو السهم الذي كانوا يستقسمون به.

[4] قُذَذه: القذذ ريش السهم واحدتها قُذّة.

[5] سبق الفرث والدم: أي إن السهم قد جاوزهما ولم يعلق فيه منهما شيء. والفرث اسم ما في الكرش.

[6] مثل البضعة تَدردر: البضعة: القطعة من اللحم. تدردر: تضطرب وتذهب وتجيء.

[7] البخاري، المناقب ٢٥، الأدب ٩٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥٦/٣.

[8] البخاري، المناقب ٢٥، الأدب ٩٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥٦/٣.

[9] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢٠/٧-٣٢١.

[10] المسند للإمام أحمد، ٨٢/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٨٦/٥؛ ١٣٣/٩.

بسبب مقاومته لوسوسته، كذلك لا يؤجر ذلك الشخص بسبب أنه كان وسيلة لظهور صدق رسول الله ﷺ. لأنها كانت وسيلة بطريقة غير محببة وغير مؤدبة مع رسول الله ﷺ.

١٠) أمّ حرام وركوب البحر

كانت أم حرام بنت مِلحان خالة رسول الله ﷺ بالرضاعة في رواية، وفي رواية أخرى قريبة أمه ﷺ وبمثابة خالته. فكان رسول الله ﷺ يزورها من حين لآخر، وقد يستريح عندها. وفي إحدى المرات استراح عندها ثم استيقظ يتبسم. فقالت له أم حرام:

ما أضحكك؟ قال: «أناس من أمتي عُرضوا عليّ يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأَسِرّة» قالت: فادْعُ الله أن يجعلني منهم فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها فقالت مثل قولها فأجابها مثلها. فقالت: أُدْعُ الله أن يجعلني منهم فقال: «أنتِ من الأولى.»[1] فخرجتْ مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً أول من ركب المسلمون البحر مع معاوية إلى جزيرة قبرص، فلما انصرفوا من غزوهم قافلين فنزلوا الشام، فقُرِّبت إليها دابة لتركبها فصرعتْها فماتت.[2] والمسلمون يزورون قبرهما في قبرص من ذلك الوقت حتى الآن ويذرفون الدموع ويدعون لهما؛ ولكن كل قطرة دمع تقع هي بمثابة تصديق لرسول الله ﷺ الذي أخبر خبراً غيبيا، وصدَّقت الأيام والحوادث قوله بكل دقة. وجزيرة قبرص وقبرهما هناك شاهدان لا يمكن لأحد أن يكذبهما.

أجل، إن الأيام تظهر على الدوام صدق كل ما قاله وأخبر به رسول الله ﷺ عندما يحين الوقت المناسب لذلك. لذا، فإننا نجدد على الدوام شهادتنا بأنه رسول الله الصادق الأمين، ونقول بعدد ذرات أجسادنا: "صدقت يا رسول الله!"

أجل، قد تقصر تعابيرنا عن إيفاء هذه المعاني حقها، ولكن كل مؤمن يسمع هذا الصوت في ضميره. وهذا الصوت قوي وهادر إلى درجة أن عدم سماعه أو عدم الالتفات إليه يعد إنكاراً له، وهذا شيء مستحيل.

ب- المستقبل البعيد

١) بنو قنطوراء

أخبر رسول الله ﷺ بأن قوماً سيظهرون وسيتسلطون على العالم الإسلامي فقال: «فإذا

---

[1] البخاري، الجهاد ٣، ٨؛ مسلم، الإمارة ١٦٠-١٦١.

[2] الإصابة لابن حجر، ٤٤١/٤؛ البخاري، الجهاد ٨.

كان آخر الزمان جاء بنو قَنْطُوراء عِراض الوجوه صِغار الأعين ذُلْف الأُنوف[١].»[٢]

وتقول كتب التاريخ بأن هؤلاء القوم هم الـمُغول، والحقيقة أن هناك مصيبتين فادحتين ألـمّتا بالعالم الإسلامي وقعت إحداهما في الأندلس من قبل "فردينان" وكانت أنموذجاً للوحشية الغربية حيث قتل فيها الناس وأحرقت الكتب والمكتبات. والثانية كانت غزو الـمُغول الذي امتد إلى الأناضول وسورية ومصر، وتم فيه هدم كل معالم الحضارة والتمدن في هذه البلدان وحوّلت إلى خرائب قبل أن يتم انسحابهم.

ولكون رسول الله ﷺ يهتم بأمر أمته وقَدَرها فإنه كان يقوم بتنبيهها بمثل هذه الأخبار، وكأنه يقول لها: عندما تستحق هذه الأمة العقاب فإن الله تعالى يرسل لها الظالمين لتأديبها. فالظالمون هم سيف الله الذي يتم بهم الانتقام أول الأمر، ثم ينتقم الله منهم. أي إن الظالمين لن يهنأوا بظلمهم ولكن الله يسلط الظالمين على المسلمين أول الأمر، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وهو يحذر أمته من مثل هذه العواقب الوخيمة ومن التصرف بما يغضب الله تعالى ويجلب سخطه؛ ويصور لهم هذه المصائب والعواقب الوخيمة؛ كل ذلك لكي يتجنبوها، لأنه كان أنموذجاً للرحمة وللشفقة.

وعندما صدقت الأيام وبعد مضي (٦-٧) من القرون على ما تَنبّأ به وما أخبر عنه كانت هذه الأيام والتواريخ تشهد على صدقه وعلى صدق نبوته.

٢) فتح إسطنبول

ينقل الحاكم في "المستدرك" بأن رسول الله ﷺ أخبر بأن أمته ستفتح إسطنبول التي كانت تدعى آنذاك بـ"القسطنطينية". والرواية هي: قال رسول الله ﷺ: «لَتُفتحَنّ القسطنطينية، فلَنِعْمَ الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش.»[٣]

وقد حاول كثير من الحكام العظام والقواد الكبار فتح إسطنبول في كل عهد، لكي يكونوا هم المعنيين بهذه البشارة. ولكنهم أتوا إلى إسطنبول ثم رجعوا عنها. فها هو الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري -الذي يعد ضريحه في إسطنبول جوهرة ثمينة في صدرها- شاهد من الشهود حول مجيء الكثيرين إلى أسوار إسطنبول ثم رجوعهم عنها. وأنا في الحقيقة أشعر بالحرج لأنني أضطر إلى تكرار معلومات يعلمها الجميع؛

---

[١] ذلف الأنوف: في أنوفهم فطس وقصر، مع استواء الأرنبة وغلظها. (المترجم).

[٢] البخاري، الجهاد ٩٥، ٩٦؛ أبو داود، الملاحم ١٠؛ ابن ماجه، الفتن ٣٦؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠/٥، ٤٥.

[٣] المستدرك للحاكم ٤٢٢/٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣٣٥/٤.

وأعُدّ هذا مضيعة للوقت ولكني مع هذا أضطر إلى الوقوف حول مسألة أو مسألتين:

إن "اولوباطلي حسن" الذي تسلق أسوار إسطنبول في يوم فتحها لم يكن جنديًا عاديًا بل خِرّيج مدرسة "أندرون" التي كانت أفضل المدارس آنذاك وصديق دراسة لـ"محمد الفاتح". كان هؤلاء آنذاك بضعة أشخاص منهم "خضر جلبي" القاضي الأول لإسطنبول و"اولوباطلي حسن" ثم الفاتح الكبير محمد الثاني... فهؤلاء الثلاثة درسوا معاً ونشأوا معاً وكانوا طلاباً في حلقة الدراسة نفسها.

تسلق "اولوباطلي حسن" أسوار إسطنبول واستطاع أن يثبت العَلَم العثماني على أسوارها على الرغم من أن جسمه قد أثخن من كثرة الطعنات والجروح. وبعد قليل كان محمد الفاتح بجانبه، فرأى ابتسامة عريضة ترتسم على وجه هذا البطل المسجّى على الأرض، سأله بِحَيْرة: "ما هذه الابتسامة على شفتيك يا حسن؟" أجابه: "لقد كان رسول الله ﷺ يتجول هنا... لقد شاهدت وجهه الجميل... هذا سبب سروري".

وقد أخبر ﷺ بنبأ هذا الفتح قبل تسعة قرون... وها هو في يوم الفتح يتجول بين أبطال هذا الجيش الفاتح. وأنا أقول دائماً استناداً إلى هذا وسأقول بأنه لو اجتمع ثلاثة أنفار معاً بإخلاص قلب وصفاء نية لخدمة الدين فلا بد أن روحانية رسول الله ﷺ ستكون معهم وتباركهم.

وهكذا كان فتح إسطنبول ومن قبله استشهاد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري دليلاً آخر وشاهداً على صدق رسول الله ﷺ؛ ذلك لأنه كان من أوائل من سمع بشرى فتح هذه المدينة. فتَحمّل مشقة الخروج للجهاد من المدينة المنورة حتى الوصول إلى هذه المدينة البعيدة، وأوصى بدفنه عند أعتاب أسوارها.[1]

٣) الوهن

أخبرنا الرسول ﷺ عن الحوادث القريبة من عصرنا وزماننا، فمن ذلك قوله ﷺ: «يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلةُ إلى قَصْعَتها.» فقال قائل: ومِن قِلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولَينزعَنّ الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذِفَنّ الله في قلوبكم الوَهَن.» فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهَن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت.»[2]

---

[1] الإصابة لابن حجر، ١/٤٠٥.

[2] أبو داود، الملاحم ٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥/٢٧٨.

عند إلقاء نظرة واحدة إلى هذا الحديث نفهم منه أنه سيأتي يوم تتداعى علينا الأمم وتتجمع ضدنا؛ وأنها ستقوم بنهب ثرواتنا الظاهرة منها والمخفية تحت الأرض؛ وتتقاسم هذه الثروات فيما بينها بعد أن تضع يدها عليها بكل وقاحة؛ وأننا سنقوم بوضع مائدتنا أمامهم وتهيئة اللقم لأفواههم؛ وأنهم سيبتلعون ما وضع أمامهم بشهية لا تَعرف الشبع... ولماذا يكون كل هذا؟ لأننا آنذاك لسنا أمة أصيلة مثل شجرة باسقة، بل نشبه الزبد والأوساخ التي تجرفها السيول... أجل، فمقابل خلافاتنا الفكرية والمزاجية التي مزّقتنا شيعاً وأحزاباً، وحّدت المنافع والمصالح الدنيوية أعداءنا، وجعلتهم جبهة واحدة ضدنا فغلبونا وأذلونا.

كان الأعداء يخشوننا سابقا، لأننا كنا لا نخشى الموت مثلهم، بل نُقبل على الموت فرحين مستصغرين الدنيا ونراها لا تساوي شيئاً بالنسبة للآخرة؛ أما الآن فقد أصبحنا نخشى الموت ونحب الحياة الدنيا ونتعلق بها أكثر منهم، وهم يعرفون ضعفنا هذا ويستغلونه أبشع استغلال فيضربوننا في الصميم.

قد يبدو هذا الحديث لأوّل وهلة وكأنه يتحدث عن الحروب الصليبية ويخبر عنها، ولكن إن تمعّنّا قليلاً لرأينا أنه ينطبق وبوضوح تامّ على الحوادث القريبة أيضاً.

كتب السيد "رائف قَرَه داغ" كتاباً أسماه "عاصفة البترول"، وقد اغتيل بسبب كتابه هذا، لأنه شرح في هذا الكتاب ما تَعرّض له الأتراك في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين من غدر وخيانة، كما شرح المؤامرات التي حاكها الأعداء.

كلنا يعرف كيف تكالب الأعداء على الدولة العلية العثمانية، فقد كان كل همهم الاستيلاء على ثرواتها ما ظهر منها وما بطن؛ وكان هذا التكالب والافتراس وحشيًا بدرجة أفظع من أشد الحروب الصليبية شراسة... أجل، فقد دعا بعضهم بعضاً إلى هذه المائدة واقتسموا ثروات البلاد فيما بينهم ونهبوها.

كانوا كما وصفهم الشاعر محمد عاكف:

"بلايا مختلفة...

بعضهم من الهنود،

وبعضهم من آكلي لحوم البشر...

وبلايا أخرى لا أعرفها."

هذه البلايا اجتمعت ونهشت جسد الدولة العثمانية ومزقته إرباً إرباً ونهبت ثروتها وسرقتها. هجم علينا الصليبيون في الماضي تحت تأثير فكرة معينة، وكانت هذه هجمة

الشخص الأوروبي الساذج الأحمق. فالجموع الأوروبية الساذجة المخدوعة كانت تتصور أنها آتية لإنقاذ قبر مريم العذراء.

وما كانوا يعرفون بأننا نبجل ونحترم مريم العذراء أكثر منهم، ذلك لأننا نعتقد أن مريم العذراء ستكون زوجة لرسولنا ﷺ في الجنة، أي إننا ننظر لها كأم للمؤمنين،[1] ولو كانت سيدتنا مريم العذراء حية لكنا نحن المدافعين عنها ضد أي شخص يريد مسها بأذى من قريب أو بعيد.

ما أريد أن أقوله هنا هو أن الإشارات الواردة في أحاديث رسولنا ﷺ ليست في حق الحروب الصليبية التي كانت نتيجة لمثل هذا التفكير الباطل والاعتقاد الخاطئ، بل هي تومئ إلى الحوادث المرعبة التي جرت في تاريخنا القريب والتي تجري الآن بكل ضراوتها وقسوتها؛ فالغرب لا يزال متفقاً ضدنا ولا يزال العالم الإسلامي مائدة مفتوحة أمامه، ولم يتخلص بعد من هذا الوضع. إذن، فما قيل قبل أربعة عشر قرناً لايزال يتحقق بحذافيره، ونحن نعيش هذا الواقع الآن.

٤) فتنة الشيوعية

يروي عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ توجه يوماً نحو الشرق وقال: «ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قَرْنُ الشيطان.»[2]

فهناك احتمال قوي أن الرسول ﷺ كان يريد بهذا الحديث الإشارة إلى الفتنة التي ستظهر من جهة الشرق كبديل لأوروبا الظالمة. وكلمة "قرن" الواردة في الحديث تأتي بمعنى القرن الموجود في الحيوانات، أو تأتي بمعنى "العصر"، وأنا أرى أن المعنى الأخير هو المعنى المقصود، أي أن القرن هنا يأتي بمعنى العصر أو العهد، أي أن "قرن الشيطان" معناه "عصر وعهد الشيطان" وهو نقيض "عهد النبوة". فهذا النظام الشيوعي قائم على الإلحاد وعلى الإباحية وعلى جميع المفاسد الشيطانية التي تحاول التسلل إلى القلب عن طريق النفس الأمّارة... ومع أن هذا النظام الشيوعي الذي يُعَدّ الابن غير الشرعي للنظام الرأسمالي يحتضر في هذه الأيام إلا أنه لا يزال يعد ألد أعداء الدين والمقدسات والمواريث التاريخية، ولا يزال كابوساً مخيفاً،[3] وأنا أعتقد أن رسول الله ﷺ يطلق على هذا العهد الذي

---

[1] كنز العمال للهندي، ٤٢٤/١١.

[2] البخاري، الفتن ٤١٦؛ مسلم، الفتن ٤٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥٠/٢، ٧٢.

[3] أطلقت هذه الكلمات سنة ١٩٨٩ م.

سيطر فيه هذا النظام الشيوعي على مساحات واسعة من العالم... يطلق عليه "العهد الشيطاني" أو "القرن الشيطاني" ويحذر أمته من هذا الوباء ومن هذا البلاء.

٥) كنــز نهر الفرات

يقول الرسول ﷺ: «يوشك الفُراتُ أن يَحسِر عن كنز من ذهب -أو جبل من ذهب- فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً.»[١]

لقد جرت مقاتل كبيرة بالقرب من نهر الفرات حتى الآن. وإذا تناولنا التاريخ القريب نرى قتالاً كبيراً جرى بين العراق وإيران قرب نهر الفرات. وفي سنة ١٩٥٨ وقعت قرب نهر الفرات مجزرة قتل فيها أحفاد الرسول ﷺ.

إن هاتين الحادثتين لا يصح إيرادهما كتفسير للحديث الشريف أعلاه، غير أنه حتما يشير إلى حادثة مستقبلية ستجري هناك. مثلا قد تصبح مياه الفرات ثمينة مثل الذهب في عهد من العهود في المستقبل، والحديث يشير إلى هذا بشكل مجازي، أو أن الواردات التي سيتم الحصول عليها بعد إنشاء الخزانات والسدود عليه ستكون ثمينة وقيمة مثل الذهب. أو قد يكون معناه بأن مياه الفرات ستنحسر تماماً وتكتشف تحتها منابع نفط غنية أو مناجم ذهب. ولكن مهما يكن فلا شك أن هذه المنطقة منطقة نهر الفرات ستكون مثل قنبلة موقتة وخطرة للعالم الإسلامي.

هذه الأمور والحوادث لم تظهر حتى الآن، فهي من الحوادث المستقبلية، وسيهتف الأقوام الذين سيدركون ويشاهدون تحقق هذه النبوءة "صدقت يا رسول الله!" وسيجددون إيمانهم.

٦) رجوع المسيحية إلى نقائها القديم

ينبئنا الرسول ﷺ بأن المسيحية ستنقرض وتزول وستتحد مع الدين الإسلامي.[٢]

أجل، فعندما يقوم الملحدون بإلقاء القبض على المؤمنين، يقوم الذين بيدهم القوة الجوية بنصرة المؤمنين بعون من الله تعالى رغم أنوف الملحدين حيث سيكسرون شوكة الملحدين.

في هذه الحرب العالمية ستملأ الجثث كل مكان... وستقوم النسور بنقل هذه الجثث المنتشرة في كل مكان على سطح الأرض، والنسور هنا رمز لمؤسسة معينة وتحمل معنى خاصًا وإيماءة خاصة.

---

[١] البخاري، الفتن ٢٤؛ مسلم، الفتن ٣٠؛ أبو داود، الملاحم، ١٣.

[٢] انظر: مسلم، الإيمان ٢٤٤-٢٤٧.

٧) الإصلاحات في الزراعة

ستكون هناك تطورات وقفزات في الزراعة، ونتيجة هذه التطويرات ستكون ثمرة الرمان ثمرة ضخمة تكفي الواحدة منها عشرين شخصاً. ويستطيع الشخص أن يستظل في ظل قِحْفها.[1] كذلك ستكون حبات القمح حبات ضخمة. هذه الأمور غير موجودة حالياً ولا نراها ولكنها ستكون موجودة في المستقبل بكل تأكيد، ستكون مصداقاً لنبوة رسولنا ﷺ ووسيلة لزيادة الإيمان به، لأن العصور والقرون ستكون شاهدة ودليلاً على صدقه.[2]

إننا مفتونون بالمستقبل الذي سيولد من رحم الغيب، ولكننا في هذا المستقبل لن نجد سوى نوره ﷺ... فإذا انطفأ هذا النور فستصبح الحياة ظلمة أبدية.

٨) عدم التوازن في أيامنا الحالية

لنرجع إلى الأخبار والإشارات المتعلقة بزماننا الحالي. يقول رسول الله ﷺ:

«إن بين يدي الساعة تسليم الخاصّة وفُشُوُّ التجارة حتى تُعِين المرأة زوجها على التجارة، وقَطْعَ الأرحَام وشهَادة الزُّور وكتمَان شهَادة الحق وظهُور القَلم.»[3]

يصف هذا الحديث أيامنا الحالية وصفاً لا يحتاج إلى أي تأويل أو تفسير.

ستروج التجارة إلى درجة أن مقادير هائلة من رؤوس الأموال بالملايين وبمئات الملايين بل المليارات من الدولارات تستخدم فيها، إذ أن الملايين تصرف في الإعلانات وحدها، وكثيراً ما تستخدم المرأة في هذه الإعلانات وأحياناً تكون المرأة شريكة مباشرة في التجارة فتنزل إلى الأسواق وإلى المعارض، ولا يذهبن الظن بأحدكم بأنني ضد التجارة، وإنما أريد فقط الإشارة إلى صحة ما ورد في كلام رسولنا ﷺ.

وستنقطع صلة الأرحام، فحقوق الأم والأب وحقوق الأقارب سوف تهمل ولا يرعاها أحد، ولا يلتفت إليها بل تداس تحت الأقدام. وعندما يشيخ الأب والأم ويتقدم بهما العمر ويصبحان في حاجة إلى الرعاية والاهتمام والحنان يرسلان إلى دار العجزة وإلى دور المسنين لعلهما يجدان العناية التي لا يجدانها في بيتهما. هذا على الرغم من أن الله تعالى ذكر بأن حقوق الوالدين تأتي مباشرة بعد حقوقه ﷻ.[4] ولكن وصايا الله تعالى ستهمل ولا

---

[1] قِحْفُ الرُّمّانة: قِشْرها. (المترجم)

[2] مسلم، الفتن ١١٠؛ الترمذي، الفتن ٥٩؛ المسند للإمام أحمد، ١٨٢/٣.

[3] المسند للإمام أحمد، ٤٠٧/١-٤٠٨؛ المستدرك للحاكم، ٩٨/٤.

[4] انظر هذه الآيات: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (البقرة:٨٣)، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (النساء:٣٦)، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (الإسراء:٢٣).

يلتفت إليها أحد، وسيتعرض الآباء والأمهات إلى معاملات وحشية ومهينة وإلى عقوق كبير. أتنطبق هذه الشروح على أيامنا الحالية أم لا؟ سأترك هذا لفطنة القراء.

سيزداد تقدير القلم أي التأليف والكتابة وستعمل المطابع ليل نهار لتخرج مئات وآلاف الجرائد والمجلات والكتب، وستقوم دور النشر والطبع بطبع ونشر الكتب ودوائر المعارف، وستمتلئ رفوف المكتبات بآلاف من مختلف الكتب، وستنقلب الكتابة إلى مهنة رائجة ويحترم الكتاب والمؤلفون. وسيروج الكذب وشهادة الزور حتى تندر الشهادة الصادقة، إذ ينقلب المجتمع إلى مصنع لإنتاج وترويج الأكاذيب، وستستند الحياة الاجتماعية إلى الكذب والتلفيق والخيانة.

والموضوع يكتسب وضوحاً شديداً إلى درجة أن بعضهم قد يتساءل: "أصحيح أن هذا الكلام يعود لرسولنا ﷺ؟"

والإجابة على هذا السؤال بسيط جدا، فهذا الحديث مدون قبل ثلاثة عشر قرناً وهو موجود في كتب الحديث منذ ذلك الوقت. فإن لم تكن هذه الأقوال عائدة لرسول الله ﷺ فإلى من تعود؟ ومن يستطيع شرح وبيان الأحداث التي ستأتي بعده بعدة قرون وعصور وكأنه يراها رأي العين..؟ من يستطيع ذلك غيره؟ ثم لو كانت هذه الأقوال لشخص آخر غيره فإن معنى هذا أن صاحبها يملك رؤية نورانية نحو المستقبل كرؤية الرسول ﷺ. ولكن هل وجد في التاريخ رجل آخر يمكن أن يكون ندًّا أو شبيها له لكي تسند هذه الأقوال إليه؟ كلا... فهذه الأنباء عن الغيب تعود لرسول الله ﷺ، فقد علمه ربه وقام هو بإخبارنا وإعلامنا. أجل، فهذه الحوادث التي ظهرت في أيامنا دليل قاطع على مدى صدق رسول الله ﷺ.

٩) انتشار العلم

جاء في حديث قدسي أن الله تعالى يقول: «أبثّ العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير.»[1]

فالناس على اختلاف طبقاتهم اليوم يدرسون في مختلف المدارس ذات المستويات المختلفة، وأصبحوا يتنافسون في الحصول على العلم. فكثرة الجامعات والمدارس وانتشار أجهزة الاتصال والمخابرة واستعمالها في مجال نشر العلم يدلنا على أن ما نقله الرسول ﷺ عن ربه هو إشارة إلى عصر العلم والمعرفة، وأن التطورات الحاصلة في هذا المجال تؤيد هذه النبوءة وتصدقها. فكأن هذه المؤسسات العلمية تقول بلسان حالها لرسولنا "أنت

---

[1] الدارمي، المقدمة، ٢٧.

صادق في كل كلامك" بل إن العلوم نفسها ستقول هذا بعد أن تحول إلى مجراها الأصلي والحقيقي.

١٠) الفرار من القرآن

هناك حديث آخر ينطبق أيضاً على أيامنا حيث يقول: «لا تقوم الساعة حتى يُجعل كتابُ الله عاراً ويكون الإسلام غريباً.»[1]

فبينما يظهر الكافر كفره بكل صراحة وبكل علانية، فسيخجل المسلم من إسلامه، ولا يصرح به إلا وهو محرج. وبينما يعلن الكفار عن أفكارهم وعن مطبوعاتهم وكتبهم في كل مكان، لا يستطيع المسلم فتح المصحف وقراءته علنا، وستكون الضغوط النفسية قاسية وثقيلة إلى درجة أنه ما من شخص يستطيع إعلان أنه من أنصار القرآن دون أن يشعر بالخجل حتى ولو لم يكن هناك قانون يمنع هذا. أيستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة الواضحة الآن؟ أوليست هذه إحدى المآسي التي يعيشها المسلم الآن؟ ألم يرجع الإسلام غريباً؟

والآن دعونا نختم تصوير هذه الأحوال المؤلمة لنقول إن رسولنا ﷺ أخبرنا ومنذ عدة قرون بما سيحدث مستقبلا، وكلما جاء زمن ذلك الخبر ظهر بشكل يوافق كلامه في كل شيء ويصدقه حتى في تفاصيله الدقيقة. ليت شعري! ألا يكفي هذا لكي نرجع ونجدد البيعة له؟

١١) مفهوم الزمن

وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون القرآن عاراً ويتقارب الزمان وتنتقض عراه.»[2]

وكلمة "التقارب" الواردة في الحديث تعني اقتراب شيئين من بعضهما، وهذا يشير من جهة إلى نسبية الزمان، ومن جهة أخرى إلى أن الأمور التى كانت تأخذ وقتاً طويلاً لإنجازها في العهود السابقة ستنجز في وقت قصير. فمن المعلومات البديهية التي يعلمها الآن حتى الأطفال أن التقدم الصناعي والتكنولوجي جعلنا ندخل إلى عالم من السرعة المذهلة في كل ناحية من نواحي حياتنا. وكما يشير الحديث الشريف إلى هذا الأمر فإنه يشير من ناحية أخرى إلى وسائط النقل السريعة التي قربت المسافات. كما أود الإشارة إلى مسألة يعرفها من يعمل في مجال علم الفلك والفيزياء الفلكية. وهي أن الأرض تأخذ تدريجياً وبمرور الزمن شكلاً بيضوياً، وهذا التغير يؤثر على الزمن وعلى ساعاتنا دون أن نشعر. وهناك معنى آخر أفهمه من

---

[1] كنز العمال للهندي، ١٤/٢٤٤.

[2] مجمع الزوائد للهيثمي، ٧/٣٢٤.

هذا الحديث وهو: أن للزمن ماهية نسبية، ولكن مع هذا فأينما كان فالزمن هو زمن، فلو ذهبت مثلاً إلى برج الثور ونظرت من هناك إلى سحابة تبعد عنك أربعين مليون سنة ضوئية وتتحرك بسرعة ١٥٠ ألف كيلومتر في الثانية فستشاهد أزماناً مختلفة.

ولو استطاع الإنسان يوماً الخروج خارج المجموعة الشمسية فلا شك أن المفهوم الحالي للزمن سينقلب عنده رأساً على عقب. وهكذا فبوساطة كلمتين سحريتين وهما "تقارب الزمان" يشير رسول الله ﷺ إلى ما سيحدث من تغير في مفهوم الزمن عندنا.

ولنا أن نتساءل الآن: أمثل هذا القول قول بشر؟ من غير صاحب الزمان والمكان الذي يغيرهما بيد القدرة... من غيره كان يعلم مثل هذه الحقائق..؟ أكان هذا العلم ضمن قدرة شخص أمي عاش في بيئة أمية..؟ كلا طبعاً. فالله هو الذي علمه هذا من علمه وقام ﷺ بتبليغنا بذلك.

الأيام والشهور والأعوام والعصور تمضي والعلم والتقنية تتقدمان بخطوات جبارة، وعندما يتم الوصول إلى الهدف نرى هناك الحقائق التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ قبل عدة قرون، فلا يستطيع رجل العلم أن يخفي إعجابه فيقول من كل قلبه "أنت هو الصدق بعينه يا رسول الله!"

١٢) انتشار الربا

سيأتي يوم ينتشر فيه الربا ويفشو حتى لا يستطيع أن يتخلص منه من لا يتعامل به إذ سيصيبه غباره. وهناك حديث حول هذه العلة التي تعد من أكبر العلل الموجودة في يومنا هذا، والتي تنتشر انتشار السرطان كل يوم وتتوسع.

«ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا آكل الربا فمن لم يأكل أصابه من غباره.»[1]

هناك نقطتان تجذبان الانتباه في هذا الحديث:

الأولى: بما أن جميع مبالغ الدولة ونقودها تطبخ في قدور الربا، وبما أن جميع المصارف - الربوية منها وغير الربوية- وجميع المؤسسات المالية حتى غير الربوية منها يتعامل بعضها مع البعض الآخر، فإن الإنسان مهما أراد الحيطة في هذا الموضوع فلا بد أن يصيبه شيء من هذه العلة التي أحاطت بكل مظاهر الحياة واحتوتها، أي سيطفر إليه أيضاً شيء منها. ولا يستطيع الإنسان أن ينجو منها إلا بنيته، أي إن نيته هي حصنه وملاذه الوحيد.

---

[1] ابن ماجه، التجارة ٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٤٩٤؛ النسائي، البيوع ٢.

الثانية: هناك معنى آخر في اللغة العربية لتعبير "أصابه من غباره" الوارد في الحديث: إذ يقوم قسم من الناس بأكل الربا، أما الذين لا يأكلونه فسيصيبهم غباره. فالرأسماليون سينمون ثرواتهم بالربا ويضاعفونها به؛ وفي الوقت نفسه ستزداد الطبقة العاملة بؤساً وفقراً بنفس النسبة؛ مما سيؤدي في النهاية إلى صراع بين هاتين الفئتين وإلى تصاعد غبار المعركة المحتدمة بينهما؛ مما يغرق المجتمع في اضطرابات وفتن لا أول لها ولا آخر. ولا ينجو أحد من مشاكل ومصائب هذا الصراع وهذه الفتنة. وأنا أعتقد بأن كل هذا قد حصل وهو يحصل الآن. والإنسان المعاصر يشاهد ما أشار إليه الحديث لكلا هذين الأمرين ويقاسي منهما؛ فلم تعد هناك اليوم مؤسسة لم تتلوّث بالربا من قريب أو بعيد،؛ فالتجارة العالمية كلها تدور اليوم حول محور الربا؛ والمعاملة الربوية في العالم كله تَلقى قبولاً عامًّا وتُعدّ بمثابة تبادل نقدي.

قام رسول الله ﷺ بتحذير أمته قبل عدة قرون من هذه الأزمة التي يتعرض لها الإنسان المعاصر، وطلب منها أن تكون متنبهة ويقظة وإلا وقعت في مستنقع الربا؛ ولكنه لا يبدي أي محاولة جدية للخروج منه؛ هذا مع العلم أن الإسلام دين أعلن الحرب على الربا.[١]

لو أن المسلمين فهِموا جزءاً من هذا التهديد القرآني؛ لَما كانوا من آكلي الربا، ولما كانت أمتهم من أكثر أمم الأرض بؤساً وفقراً.

١٣) زمان استخفاء المؤمن

حديث آخر يصور عهدنا وهو: «يأتي على الناس زمان يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فيكم اليوم.»[٢]

سيقوم المؤمن باستعمال الأساليب والوسائل نفسها التي كان يستعملها المنافق في عهد الرسول لكي لا يكشف نفسه؛ سيخفي نفسه وسيخفي عبادته وصلاته، وإلا تعرض لمضايقات وآلام كثيرة. ذلك لأن الطغمة الفاسدة والشريرة لا ترضى أبداً بإعطاء فرصة لأمثال هؤلاء للعيش فيما بينهم. فأبواب العمل وكذلك بعض أقسام الوظائف الحكومية تكون مسدودة أمامهم، ويكونون مهانين ومبعدين عن المجتمع.

وهناك حديث آخر يقوي هذا المعنى: «ستكون فتنة يفارِق الرجل فيها أخاه وأباه؛ تطير

---

[١] انظر الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٧٨-٢٧٩).

[٢] كنز العمال للهندي، ١١/١٧٦.

الفتنة في قلوب الرجال منهم إلى يوم القيامة حتى يعيَّر الرجل فيها بصلاته كما تُعيّر الزانية بزناها.»[١] ومن الطبيعي أن تعيير المرأة بالزنى هو تشبيه لدرجة عيب الزنا آنذاك؛ غير أن الزنى أصبح الآن أمره هينا، بل يعد مهنة في بعض الأوساط.

أجل، فإذا قمنا بوضع بعض العهود التي أهين فيها الإنسان بسبب صلاته.. إذا وضعنا هذه العهود جانبا.. فإن هناك عهوداً قادمة سيُحتقر فيها المؤمن وستُعد الصلاة أمراً معيباً من قبل الفئات الحاكمة والظالمة التي سيئنّ المؤمنون تحت قبضتها القاسية، ولا يجدون أمامهم حلاً سوى إخفاء صلاتهم وعباداتهم.

١٤) النفط في الطالَقان

يقول رسول الله ﷺ: «ويحاً للطالَقان! فإن لله فيه كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة.»[٢]

وكلمة "ويح" تستعمل في العربية لبعض البشارات التي تشبه الابتسامة المُرّة. فعندما أخبر رسولنا ﷺ عمّار بن ياسر أنه سيستشهد استعمل التعبير نفسه فقال: «ويحك يا عمّار!»[٣] أما الطالَقان[٤] فهي اسم لمنطقة غنية بالبترول في قزوين، أي أن مآل الحديث هو ما يلي: «ويحاً للطالَقان! فإن لله فيها كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة.»

وقد تكتشف في هذه المنطقة معادن أخرى كاليورانيوم أو الألماس؛ ولكن هذا لن يغير النتيجة؛ فرسولنا تَحدّث عن كنوز ليست من ذهب ولا فضة وقد ظهرت هذه الكنوز في أيامنا هذه.

إذن، فحتى البترول الذي تم اكتشافه في طالَقان يصدّق رسول الله ويعترف بنبوته.

١٥) اتباع أهل الكتاب

أخبرنا الرسول ﷺ بأن العالم الإسلامي سيقوم بتقليد الأمم السابقة، أي بتقليد اليهود والنصارى خطوة فخطوة حتى لو أن واحداً منهم أدخل رأسه في جحر ضَبّ لَقلّده المسلمون وأدخلوا رؤوسهم في الجحر. ويشرح الرسول ﷺ هذا الأمر بكلماته البليغة الوجيزة: «لتتّبعُنّ سَنَن الذين من قبلكم شِبْراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جُحْر ضَبّ لاتبعتموهم.» قلنا: يا رسول الله! اليهودَ والنصارى؟ قال: «فمن؟»[٥]

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٠٧/٧.

[٢] كنز العمال للهندي، ٥٩١/١٤.

[٣] البخاري، الصلاة ٦٣؛ مسلم، الفتن ٧٠-٧٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٦١/٢، ١٦٤.

[٤] الطالَقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مَرْوَ الروذ وبَلْخ. (المترجم)

[٥] مسلم، العلم ٦؛ البخاري، الأنبياء ٥٠.

وموقفنا اليوم وموقف العالم الإسلامي اليوم معلوم للجميع. لقد فقدنا شخصيتنا وبدأنا نئنّ تحت أزمات فقدان الهويّة؛ وأصبحنا أشبه بالغنم الحائر بين قطيعين. لقد أصبحت العوامل التي كانت في وقت من الأوقات كافية لهدم الدول الأخرى والقضاء عليها تحيط بنا من كل جانب كالأخطبوط. وبدلاً من الانتباه والحذر فإننا لِغفلتنا حسبنا شباك الموت هذا من علامات المدنية وشروطها. أجل، فما من أمة في العالم قلدت الغرب في أي عهد من العهود مثل تقليدنا له والذي أصبح يحمل صفة الإدمان المزمن؛ فما من شيء جديد يظهر في الغرب حتى نقبله هنا دون أي تدقيق أو تمحيص؛ وأحياناً تفوق سرعة قبولنا له الكثير من الأمم الغربية. هذا بينما كان رسول الله ﷺ يخالفهم حتى في الكثير من المسائل الثانوية والفرعية.[1]

وليست هذه المسألة مناط بحثنا، لذا لا نريد تفصيلها. ولكن الأمر الذي نريد الوقوف عنده والتأكيد عليه هو قيام رسول الله ﷺ بإخبارنا بحدوث هذه المسائل والحوادث قبل عصور وقرون عديدة؛ ولقد وقعت وتحققت هذه الحوادث في حينها وساعتها. فكل حادثة تتجلّى عند كلام رسول الله ﷺ بشكل بشارة أو إنذار، تقوم بتصديق رسول الله ﷺ بلسان فصيح عندما يأتي وقتها.

ثالثاً: الأخبار المتعلقة بالعلوم المختلفة

سنتناول في هذا الفصل بشكل مجمل ما قاله رسول الله ﷺ حول المسائل المتعلقة بالعديد من العلوم وذلك كدليل وشاهد على صدقه.

يقوم رسول الله ﷺ بإيراد قول مّا، ثم ينقضي أربعة عشر قرناً وتقطع العلوم والمعارف الإنسانية أشواطاً بعيدة وتتقدم بسرعة مذهلة؛ فإذا بالعلماء الكبار -كل في ساحته- يصدق على قوله ﷺ ويعترف به باسم العلم وبلسانه. فما من حديث لرسول الله ﷺ تعرّض لتكذيب أو لتخطئة.

إن العلوم والتكنولوجيا التي بدأت تخطو للأمام خطوات جبارة وسريعة أدارت ظهرها للعلماء ووقفت بأدب وخشوع أمام رسول الله ﷺ لكي تقول له وهي تنحني أمامه: "صدقت." وما كان يمكن أن يحدث إلا هذا، ذلك لأنه رسول من عند الله.

وهنا سنقوم بإيراد بعض الأمثلة فقط، وندع التحليل العلمي لهذه المسائل للكتب والمجلات المتخصصة في هذه المواضيع.

---

[1] أبو داود، الصلاة ٨٨؛ المسند للإمام أحمد، ٥/٢٦٤-٢٦٥.

أ . الدواء لكل داء

قال رسول الله ﷺ في حديث رواه البخاري وابن ماجة رحمهما الله: «ما أنزل الله داء إلا أنزل به شفاء.»[1]

أي ليس هناك من مرض إلا وقد خلق الله تعالى له دواء وشفاء. وليس هناك أي قول آخر يشجّع على استحصال العلم ولاسيما في ميدان الطب والسعي فيه مثل هذا القول الوجيز الجامع والشامل؛ فقوله هذا يعني أنه ما من داء إلا وله دواء، أي يمكن العثور على أدوية لكل الأمراض الموجودة وذلك بعد توفيق الله وعنايته.

وفي رواية أخرى: «لكل داء دواء.»[2] وفي حديث شريف آخر: «تداووا فإن الله ﷻ لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم.»[3]

ولو وجدوا طريقة لإطالة العمر ولتأخير الموت بشكل مؤقت فإنهم لن يستطيعوا الحيلولة دون المصير المقدر والطريق المرسوم للموكب الإنساني.. هذا الطريق الذي يبدأ من عالم الروح ويمر من مرحلة الطفولة فالشباب فالشيخوخة وينتهي إلى القبر ومنه إلى الحشر.. ثم ينتهي إمّا إلى الجنة أو إلى الجحيم. وليس في الإمكان سد هذا الطريق أبدا. فلابد للإنسان أن يولد ويكبر ثم يشيخ ويموت. ولكن خارج هذا الأمر فهناك أدوية لكل داء، وعلاج لكل مرض. المهم أن يتم البحث عنه واكتشافه.

ورسول الله ﷺ بهذه الأحاديث وبأحاديث أخرى مشابهة يدعو أهل العلم جميعاً وجميع من آتاهم الله موهبة وفضلا، وجميع الباحثين إلى تكثيف جهودهم وبذل مساعيهم لاكتشاف الأدوية ووسائل العلاج؛ ومن ثم فلتخصِّصوا من مبالغكم ومن ثرواتكم ما يكفي لإنشاء معاهد البحوث؛ ولتدققوا وتسيطروا على الطريق الواسع الممتد من مرحلة الطفولة حتى شاطئ الموت. فالقرآن الكريم دعا إلى هذا وحثّ على العلم وجعل معجزات الأنبياء مَثلاً أعلى في هذا. أجل، فكما كان الأنبياء قدوة حسنة في عالم الروح والمعاني السامية لإنقاذ البشرية من الطرق الملتوية إلى الصراط المستقيم، كذلك كانوا هداة ومرشدين في ساحة العلوم الصرفة؛ أي في الساحة التي يجول فيها العقل الإنساني ويصول. وأصبح كل نبيّ أستاذاً في ساحة من هذه الساحات ومرشداً وهادياً.

---

[1] البخاري، الطب ١؛ ابن ماجه، الطب ١.

[2] أبو داود، الطب ١١؛ مسلم، السلام ٦٩؛ المسند للإمام أحمد، ٣٣٥/٣.

[3] الترمذي، الطب ٢؛ ابن ماجه، الطب ١؛ المسند للإمام أحمد، ٢٧٨/٤؛ أبو داود، الطب ١.

ومن ثم يمكن القول بأن البشرية استلمت مفاتيح الهداية المادية والمعنوية من أيدي الأنبياء. أجل، فإن شرح معجزات الأنبياء في القرآن الكريم تشويق للبشرية وحث لها لكي يبلغوا ويصلوا إلى تلك الحدود النهائية التى خطها الأنبياء بمعجزاتهم.

فمثلاً قام المسيح عليه السلام بإحياء الموتى بإذن الله. كما نقل لنا ذلك القرآن الكريم. إلا أن هذه هي الحدود النهائية للطاقة الإنسانية. لماذا؟ لأن القوانين تنتهي هناك، ومن بعدها تبدأ الأمور الخارقة. فالقدرة الإنسانية والطاقة الإنسانية والإرادة الإنسانية لا تستطيع تجاوز إطار القوانين الفطرية. أجل، فمهما ترقّى العلم الإنساني وتقدمت التكنولوجيا الإنسانية فلا يمكنهما تجاوز حدود المعجزات. لأن هذه الحدود هي الساحات التي يجول فيها الأنبياء العظام. بمعنى أن العلم الإنساني يستطيع الوصول إلى الحدود التي تبدأ بعدها المعجزات. ويتم حث الإنسان وتشجيعه للوصول إلى هذه الحدود.

فالقرآن الكريم يحدثنا عن معجزات السيد المسيح عليه السلام ليقول لنا: انظروا فإن طرق العلاج والتداوي مفتوحة أمامكم حتى الوصول إلى حدود الموت. والأمراض التي لم تجدوا لها علاجاً مثل السرطان والأيدز وغيرها من الأمراض، لها أدويتها وعلاجها.. ابحثوا عنها وجِدوها.. فكم من مرض كان يُعتقد من قبل أنه لا علاج له اكتُشف علاجه وطرُق الشفاء منه الآن. فلتحاولوا وعندها ستجدون العلاج لهذه الأمراض.

ولنأخذ مثالا آخر. إن معجزة النبي موسى عليه السلام تعطي درساً للإنسان حول إمكانية تسخير الجماد في إنجاز وظيفة ومهمة معيَّنة. ولقد انفتح باب هذا الأمر قليلاً في أيامنا الحالية، ولكن لا يمكن اليوم ولا غداً إلقاء عصا وقلبُها إلى حيّة تسعى.. لأن هذه حادثة وقعت في ساحة المعجزات والخوارق؛ أما نحن فنستطيع أن نبذل جهودنا ضمن إطار القوانين العادية الجارية على الأرض.

وأرى من المناسب هنا أن أفتح الحديث عن القرآن الكريم الذي يعَدّ معجزة لا تصل إليها الطاقة البشرية. أجل، إن القرآن معجزة أدبية وبيانية لا يمكن الوصول إلى أفقها. فكل الأشعار والقطع الأدبية البليغة التي سحرت الإنسان بجمالها لا تستطيع إلا الاقتراب فقط من عتبة القرآن الذي يعَدّ الأفق النهائي للبلاغة حيث يقف قِبله الأدباء من أمثال "لبيد" وغيره عاجزين؛ لأن في بيانه معجزة، بينما الكلام البشري لا يستطيع تجاوز ساحته العاديّة. ولن نطيل في هذا البحث، لأن له موضعه الخاص به في هذا الكتاب.

وجملة القول: إن معجزات الأنبياء تشكل حدوداً معيَّنة وتخُطّ أفقاً محددا للعلم

الإنساني. ويعد ذكر القرآن لها حثاً ودفعاً للإنسان ليبلغ حدود هذه المعجزات.[1]

ومن ثم فعلى الإنسان أن يسعى حتى يصل إلى تلك النقطة ويقترب من حدود تلك المعجزات الخارقة. ولو فرضنا أنه خطا خطوة واحدة وراء ذلك الحد لجال في الآفاق التي تتدلى منها ثمرات هذه المعجزات.

قد يستطيع الإنسان أن يتقدم في علم الطب حتى يقترب من حدود إحياء الموتى. ولكنه سيقف عاجزاً أمام الموت نفسه. ذلك لأن الموت -مثله في ذلك مثل الحياة- مخلوق من قبل الله ﷻ، والآية الكريمة: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ (الملك:٢) تشير إلى هذا.

أجل، إن الموت ليس انقراضاً أو تفسخاً وتحللاً... بل هو استرداد بمشيئة الله وإرادته للأمانة التي سبق وأن استودعها الإنسان. فهذا هو آخر ما يمكن أن يقال في تشجيع أهل الهمّة والعلم لكي يقدّموا كل ما يستطيعونه لخدمة الإنسانية.

إن هناك أحاديث كثيرة مروية عن رسول الله ﷺ في علم الصحة، ولاسيما فيما يتعلق بـ"الطب الوقائي" الذي يشكل جزءاً مهمّاً من علم الطب. وهذا شيء طبيعي، ذلك لأن علاج المرض ليس هو المهم، بل الأهم منه هو حفظ صحة الإنسان، وحمايته من الوقوع في المرض. وهذا أسهل بكثير من القيام بعلاجه بعد إصابته بالمرض. لأن العلاج صعب ومكلف وشاق. لذا، فقد اهتم رسولنا ﷺ أول الأمر بهذا وجعل أكثر وصاياه الطبية مركزة حول الطب الوقائي.

ولا عجب ألا يجد الأطباء النصارى الذين أتوا إلى المدينة المنورة في العهد النبوي عملا؛ وذلك بفضل رعاية المسلمين لوصايا الرسول ﷺ في هذا الموضوع رعاية تامة. فبينما كان الرسول ﷺ يقوم بإصلاح أمراض القلوب والنفوس فإنه كان يقوم أيضا بشفاء الأمراض الجسدية، أي إنه كان يقوم بحفظ وصيانة أتباعه من الأمراض النفسية والقلبية والجسدية.

كان مرض الطاعون منتشراً في عهد الرسول ﷺ ولم يكن باستطاعة أحد أن يقف أمام هذا المرض القاتل. إذ كان بخطورة مرض الأيدز حالياً. إلا أن الصحابة كانوا على حذر من هذا المرض لأن الرسول ﷺ كان ينبههم إليه ويحذِّرهم منه. فكانت هذه الجماعة الطاهرة تعيش في بلدها وتحفظ نفسها منه بحياتها النظيفة الطاهرة. غير أنهم عندما كانوا يشتركون في الحركات العسكرية في الشام وسورية وحلب وأنطاكيا كانوا يتعرضون لهذا المرض لاتصال هذه المناطق آنذاك مع أمراض عالم البيزنطيين... كذلك كان وباء عَمْواس الذي

[1] الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٢٧٩.

توفي بسـببه في ذلك المكان المشؤوم خمسة وعشرون ألف مسلم.[١]

وكان أبو عبيدة بن الجرّاح أمين هذه الأمة ضمن الموجودين في عَمْواس آنذاك. هذا الصحابي الذي قال عمر بن الخطاب ﷺ في حقه بعد سنوات عندما طُعن في صدره: "لو كان أبو عبيدة حيًا لولّيته."[٢] وعندما أتى وفد نَجْران إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يرسل معهم شخصاً موثوقاً وأمينا، بعث أبا عبيدة بن الجرّاح.[٣]

أجل، كان هذا الصحابي الجليل أحد العشرة المبشّرة بالجنة وأمين هذه الأمة، وكان موجوداً في موضع يجتاحه هذا المرض الوبيل ويحصد الأرواح فيه.

كان ذلك في أيام خلافة عمر بن الخطاب ﷺ. وكان الخليفة يزور البلدان المفتوحة ويراقب تطوّر الأمور عن كثب. وكان من المفروض أن يذهب إلى عمواس أيضاً. إلا أنه عندما سمع بانتشار وباء الطاعون فيها قرر الرجوع، فقال له أبو عبيدة الجرّاح في رواية عن ابن عباس: "أفِراراً من قدر الله؟" فقال عمر: "لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة!" -وكان عمر يكره خلافه- "نعم، نفِرّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عُدْوتان. إحداهما خِصْبة والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيتَ الخصبة رعيتَها بقدر الله وإن رعيتَ الجَدبة رعيتَها بقدر الله؟"[٤]

كان هذا حدساً وفراسة من عمر بن الخطاب ﷺ. ولكن أكان مصيباً في هذا؟ أكان عليه أن يرجع أم يبقى؟ كان الخبر اليقين عند الصحابي عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

لنقرأ بقية الرواية: قال فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيّباً في بعض حاجته، فقال: إنّ عندي من هذا عِلماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدَموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه.» قال: فحمد الله عمرُ بن الخطاب ثم انصرف.[٥]

وأنا أسأل القارئ: أليس هذا هو الحَجْر الصحي الذي يوصي به علم الطب الحديث؟ كان الرسول ﷺ يوصي به قبل قرون عديدة، إذن، فإن علم الطب اليوم لا يملك إلا أن يقول له: "صدقت يا رسول الله!"

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ٧/٩٠-٩١؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/٥٦٠.

[٢] كتاب فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل، ٢/٧٤٢.

[٣] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٥٤-٥٥.

[٤] البخاري، الطب ٣٠؛ مسلم، السلام ٩٨.

[٥] البخاري، الطب ٣٠؛ مسلم، السلام ٩٨.

بـ . مرض الجذام والحَجْر الصحيّ

يقول الرسول ﷺ في حديث يرويه الإمام أحمد بن حنبل والإمام البخاري: «فِرّ من المجذوم كما تَفِرّ من الأسد.»[١]

وهذا التمثيل الوارد في هذا الحديث الشريف لا علاقة له بجرثومة الجذام ولا بكون المجذوم يشبه الأسد. فهذا من خيالات وأوهام البعض، إذ لا يوجد مثل هذا المعنى ولا هذا القصد في حديث الرسول ﷺ. والفرار الوارد هنا ليس فراراً بالمعنى الحرفي. فلعل الرسول ﷺ يريد توصيتنا بمكافحة هذا المرض الوبيل والبحث عن طرق الوقاية منه. أي القيام بالحَجْر الصحي وباتخاذ التدابير اللازمة لمنع سرَيانه وانتشاره. فكما يخاف الإنسان من ملاقاة أسد فعليه أن يخشى التلوث بهذا المرض بنفس القدر. إن هناك معاني عميقة في جميع أحاديث الرسول ﷺ، لذا يجب بذل مجهود كبير لفهم أبعادها.

ج . ولوغ الكلب

ينقل الإمام مسلم وغيره من أئمة الحديث الحديثَ التالي:

«طهور إناء أحدكم إذا وَلَغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أُولاهن بالتراب.»[٢]

أوصى الرسول ﷺ باستعمال التراب في عملية التعقيم إذ لم تكن المواد والأدوية المعقِّمة موجودة في تلك الأيام. ثم تبيَّن فيما بعد أن التراب يقوم بعملية التطهير مثل الماء. وبعد أن تقدم العلم أكثر تبين أن التراب يحتوي على مادة "التراليت" و"تتراسكلين". وهاتان المادتان تستعملان في عمليات التعقيم ضد بعض الجراثيم، فعندما أوصى الرسول ﷺ بغسل الإناء بالتراب أولاً كان يريد تعقيم الإناء قبل غسله.

وشيء آخر تجدر ملاحظته في هذا الحديث، وهو أن بعض الأمراض التي تصيب الكلاب يمكن أن تصيب الإنسان أيضاً وتعيش جراثيمه في جسده، وهذا يعد من المواضيع الحديثة نسبياً في علم الطب.

ثانيـــاً: إن براز الكلب ولعابه يمكن أن يكونا ضارين لصحة الإنسان. وإذا لم تؤخذ التدابير الضرورية في حينه فإن الأمراض السارية والمتنقلة بواسطتها لا يمكن علاجها بسهولة، لذا فإن عملية التعقيم مهمة جدًّا.

---

[١] البخاري، الطب ١٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤٤٣/٢.

[٢] مسلم، الطهارة ٩١؛ أبو داود، الطهارة ٣٧؛ الترمذي، الطهارة ٦٨؛ النسائي، الطهارة ٥١، المياه ٧.

ثالثاً: والشيء الآخر الذي يجلب الانتباه هو أن الإناء بعد أن يتعقم من الجراثيم عند الغسل الأول بالتراب يجب غسل الإناء ست مرات -وفي رواية: سبع مرات-. وقد تناولت بعض المجلات في إنكلترة وفي ألمانيا هذا الموضوع وأقرت بصحة توصية الرسول ﷺ.

كان رسول الله ﷺ يبدي حساسية شديدة في موضوع الكلاب، حتى أنه أمر مرة -اجتهاداً منه- بقتلها.[1] ولكنه عاد وأوقف هذا الأمر قائلاً: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرتُ بقتلها.»[2]

وهذا معناه أن الكلاب لو لم تكن أمة بين سائر الأمم المختلفة مثل الإنسان والنباتات والجماد والتي لها علاقة بحفظ التوازن البيئي، ولو لم تكن هناك ضرورة فطرية لوجودها لأمرت بقتلها. وذلك لكونها مباءة للجراثيم، وهذا الأمر الأخير أي تناوُل الرسول ﷺ المسألة من هذه الوجهة معجزة أخرى. ذلك لأنه ﷺ كان يتناول موضوع التوازن البيئي - الذي يعد من المواضيع الجديدة في أيامنا- من ذلك التاريخ ويحرم انطلاقاً من وجهة النظر هذه قتل الحيوانات حتى الكلاب. واليوم وبعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة بدأنا نتنبه إلى ضرورة منع انقراض أنواع عديدة من الحيوانات والمحافظة عليها كالحيتان والأفيال ووحيدي القرن...الخ. وذلك للحفاظ على التوازن البيئي في الطبيعة. ومن ثم إن تناول رسول الله ﷺ هذا الأمر قبل أكثر من ألف سنة بقوله إنه «لولا أن الكلاب أمة من الأمم» يعد تناولاً مبكراً جدًّا لموضوع في غاية الأهمية.

أجل، إن الله ﷻ خلق الكون ووضع موازين دقيقة بين مخلوقات هذا الكون وعناصره. والآية الكريمة: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن:٧-٨) تشير إلى هذا المبدأ العام. فلقد كان رسول الله ﷺ رجل توازن، لذا فمن الطبيعي أنه كان يحافظ على التوازن ويمنع حتى قتل الكلاب. وقد تُستخرج معان أخرى في المستقبل من كلامه الوجيز البليغ. ولو أن شخصا غيره لم يتلفظ طوال حياته إلا بهذه الجملة -إن أخذنا تاريخ هذا الكلام بنظر الاعتبار- لكان ذلك كافياً لأن يأخذ مكانه بين المشهورين في التاريخ، مع أن لرسول الله ﷺ آلافاً من هذه الأحاديث وأمثالها. إذن، لندع العبقرية تتسوّل على بابه ولنختم هذا الموضوع.

---

[1] البخاري، بدء الخلق ١٧؛ مسلم، الطهارة، ٩٣.

[2] أبو داود، الأضاحي ٢١؛ الترمذي، الصيد ١٦؛ النسائي، الصيد ١٠؛ ابن ماجه، الصيد ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٨٥/٤.

إنه يحق لنا أن نقول دون أيّ تردد، ونؤكد دون أدنى مبالغة بأن الحوادث والوقائع تقول لرسول الله ﷺ بلسان حالها: "أنت رسول الله الصادق الأمين." وكلما تقدمت العلوم وزادت دقتها وضح هذا الأمر أكثر. وأنا على يقين بأنه سيأتي اليوم الذي سيؤمن بهذا جميع الناس وعامة البشر.

إن العلوم اليوم خاضت في محيط الوجود تحلِّل وتدرُس وتمحّص كل الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ. وفي كل يوم تظهر حقائق حول صدق الرسول ﷺ يعلنها كل من يملك شفافية قلب من العلماء من فوق آلاف المنابر على الناس أجمعين.

د . غسل اليدين قبل الأكل وبعده

في حديث يورده الترمذي وأبو داود يقول الرسول ﷺ: «بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده.»[1] أي إن كنتم ترغبون في بركة الطعام وطهارته ونظافته فاغسلوا أيديكم قبل الطعام وبعده وكأنكم تتوضؤون.

والرسول ﷺ يضع بحديثه هذا مبدأ عامًّا في النظافة، وإلا فإننا لم نكن لندرك هذا بعقولنا، ولاسيما إنسان ذلك اليوم ما كان ليعرف أبداً أن الملايين من الجراثيم قد توجد بين أظافره. دع أهل ذلك الزمان وقل لي كم من شخص يعرف اليوم الماهية العلمية لهذه المسألة؟

كذلك فمن قواعد النظافة التي علَّمَنا إياها رسولنا ﷺ هو القيام بغسل اليد جيداً بعد الاستيقاظ من النوم وقبل غمسها في أي إناء. ذلك لأن الإنسان لا يعلم في أثناء نومه أين باتت يده.[2] فرسول الله ﷺ كان يهتم بنظافة الأيدي اهتماماً كبيرا، لذا ركز اهتمامه فيها وأوصى بها في مواضع عديدة.

ولقد بدأ الأطباء يفهمون اليوم حكمة هذه الوصية، فالإنسان لا يدري ماذا مسّت يده وهو يتقلب في فراشه أثناء نومه. فقد تتسخ يده، فكيف إذن، يمدها إلى إنائه أو إلى فمه؟ فهل كانت هناك مجاهر وميكروسكوبات أو أشعة اكس أو مختبرات التحليل لكي يعرف الرسول ﷺ أن اليد ستتلوث بالجراثيم ثم يقوم بتنبيه أمته إلى هذا الأمر؟ كلا. لم يكن أي من هذه الأمور موجودة. ولكن كان هناك فوق كل هذه الأمور من يوصل إليه هذه الحقائق عن طريق الوحي ويعلمه بالوحي المتلو أو غير المتلو، فيقوم الرسول ﷺ بنقل هذه الحقائق إلى أمته، لذا لا يمكن العثور في كلامه على أي خطأ أو على أي خلاف للحقيقة وللواقع.

---

[1] أبو داود، الأطعمة ١١؛ الترمذي، الأطعمة ٣٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤٤١/٥.

[2] البخاري، الوضوء ٢٦؛ مسلم، الطهارة ٨٧؛ النسائي، الطهارة ١، ١١٦؛ أبو داود، الطهارة ٤٩؛ الترمذي، الطهارة ١٩.

هـ . السواك: نظافة الفم والأسنان

ورد في كتب الأحاديث الستة وغيره حديث رواه ما يقارب أربعين صحابيًا. فهذا الحديث من هذه الجهة يعد حديثاً متواتراً: «لولا أن أَشُقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة.»[1]

وحتى لا يشق النبي ﷺ على أمته فإنه لم يقم بهذا الأمر، وإلا كان السواك حينئذ من فروض الصلاة كالوضوء مثلاً. ولكن هذا لا يتفق مع روح الدين القائم على اليسر، ذلك لصعوبة أن يجد كل شخص سواكاً في كل مكان.

السواك ليس فرضاً، ولكنه سنّة ثابتة. وقد كتب القدماء مجلدات حول هذا الموضوع، وقام اليوم كثير من الباحثين بتناول موضوع السواك من مختلف الجوانب العلمية، وستطلعون على هذه البحوث في المستقبل إن شاء الله.

السواك يعني تنظيف الأسنان، ولا يتم هذا بالسواك فقط، بل يمكن أن يتم باليد أو بالملح أو بالمعجون أو بوسائل أخرى. أجل، يستطيع كل شخص تنظيف أسنانه بالطريقة التي يرغب فيها. ولا يستطيع أحد أن ينكر عليه شيئاً، ولكن يجب ألا ننسى أن للسواك خصائص خاصة به.

والآن تأملوا ديناً يقوم مبلّغه -وليس واضعه، ذلك لأن واضعه هو الله سبحانه تعالى والرسول ﷺ مبلغ للدين- باستعمال السواك ما بين خمس أو عشر مرات في اليوم الواحد، ويقوم بجعل السواك سنة في أمته.. لذا، نستطيع القول بأن مثل هذا الدين سبق المفهومَ الحالي لنظافة الأسنان والمفهوم العلمي لوقاية الأسنان أو ما يطلق عليه الفرنسيون (hygieniqui) وأنا لا أعتقد أن هناك طبيب أسنان دع عنك عوام الناس يقوم بتنظيف أسنانه خمس أو عشر مرات في اليوم. علماً بأن عدد المرات التي كان نبينا ﷺ يقوم بالسواك يوميًا هو هذا العدد في الأقل. إذ كان يقوم عدة مرات في الليل للصلاة وفي كل مرة ينظف أسنانه بالسواك.[2] إذ كان يستعمل السواك عند وضوئه وقبل الصلوات في الفجر والضحى والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكذلك بعد تناول أي طعام. فإذا عددنا هذه المرات نرى أنه يفوق العدد الذي سبق وأن ذكرناه في تنظيف أسنانه.

---

[1] البخاري، الجمعة ٨؛ مسلم، الطهارة ٤٢؛ أبو داود، الطهارة ٢٥؛ الترمذي، الطهارة ١٨؛ النسائي، الطهارة ٦؛ ابن ماجه، الطهارة ٧؛ المسند للإمام أحمد، ٨٠/١.

[2] البخاري، الوضوء ٧٣؛ مسلم، الطهارة ٤٦، ٤٧.

و . التوازن في الأكل

يقول رسول الله ﷺ في باب الطب الوقائي: «ما ملأ ابن آدم وِعاءً شرّاً من بطن. بحسْبِ ابن آدم أُكُلات يُقمن به صلبه، فإن كان لا محالة فثُلُثٌ لطعامه وثُلُثٌ لشرابه وثُلُثٌ لِنَفَسِهِ.»[1]

وهناك أحاديث أخرى تقوي وتسند هذا الحديث منها: «أخشى ما خشيت على أمتي كِبَر البطن ومداومة النوم والكسل وضعف اليقين.»[2]

والأمور المذكورة في هذا الحديث تلتقي عند نقطة واحدة. فمن عاش حياته في غفلة دون أن يراقب نفسه فسيقضي معظم وقته في النوم والكسل وسيسمن ويكثر شحمه. وكلما زاد سمنة زاد إقبالاً على الطعام، وكلما زاد نهمه زادت غفلته. أو نستطيع البدء من السبب الأول فنقول إن من يأكل كثيراً سينم كثيراً، ومن ينم كثيراً يكن شخصاً ضعيف اليقين.

فمن أين نظرت علمت أن هذه أمور تسوق رسول الله ﷺ إلى القلق على أمته منها. وهنا أترك الكلام للمختصين في عالم الطب وتحليلاتهم العلمية في هذا الخصوص. وعندما تقرأون أو تستمعون إلى تحليلاتهم سترون مدى مصداقية ما قاله الرسول ﷺ قبل عدة قرون، ولن تجدوا فيه انحرافاً ولو قيد شعرة عن الحق وعن الحقيقة.

ز . الكحل

والآن لننتقل إلى حديث آخر. إذ يقول رسول الله ﷺ: «وإن خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر ويُنبت الشعر.»[3] أي يطيل أهدابكم.

يقول أطباؤنا -ممن نور الله أبصارهم وبصائرهم- إن الكحل من أفضل الأدوية المستعملة في تغذية العيون والأهداب، ونحن نعتقد بأن السنين القادمة لعالم الزينة ستكون سنين الكحل. وهناك مادة أخرى في مستوى الكحل من ناحية قيامها بوقاية الجلد وامتلاكها لخصائص المضادات الحيوية هي مادة "الحِنّاء"[4] إذ تبين علمياً أن قوة التعقيم الموجودة فيها أكبر من قوة التعقيم الموجودة في "اليود" أو مادة "مورفسيلون" المستعملتين حالياً.

ح . الحبة السوداء

في حديث ورد في صحيح البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة، عن أبي هريرة ﷺ قال

---

[1] الترمذي، الزهد ٤٧؛ ابن ماجه، الأطعمة ٥٠؛ المسند للإمام أحمد، ١٣٢/٤.

[2] كنز العمال للهندي، ٤٦٠/٣.

[3] مسلم، السلام ٨٨؛ أبو داود، الطب ١٤؛ الترمذي، الطب ٥، ٩؛ النسائي، الزينة ٢٨؛ ابن ماجه، الطب ٦، ٢٥.

[4] ابن ماجه، الطب ٢٩؛ الترمذي، الطب ١٣.

رسول الله ﷺ: «إن في هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السامَ.»[1] أي إلا الموت.

وتعبير "كل داء" يرد في اللغة العربية إشارة إلى الكثرة وكناية عنها، ومع ذلك فلو تم تحليل هذه الحبة تحليلاً علمياً دقيقاً وأجريت عليها البحوث العلمية فسيظهر كيف أنها علاج ودواء للكثير من الأمراض. يشير الحديث الشريف إلى نقطتين:

الأولى: حول الناحية العلاجية للحبة السوداء.

الثانية: حول عدم كونها علاجاً للموت.

وكعادتنا فسنترك الناحية العلمية لأهل الاختصاص، ونكتفي هنا بذكر بعض الأمور الواردة على خاطرنا:

إن لتوفر مادة البروتين أهمية خاصة عند الإصابة بالمرض، ولاسيما في دور النقاهة. ولكن يجب أن يتوفر إلى جانب هذا غذاء غني بالفيتامينات وفيه سعرات حرارية عالية وسهل الهضم أيضاً. فهذا هو ما يوصي به الأطباء على الدوام في أثناء فترة المرض لكي يكتسب المريض طاقة وقوة ولكي لا يواجه مشكلة في عملية الهضم.

ولقد أثبتت البحوث العلمية بأن جميع هذه الخصائص موجودة في الحبة السوداء، وهناك أمثلة واقعية لا تعد ولا تحصى في هذا الموضوع. وهذا يدل أن رسول الله ﷺ لا يرسل الكلام على عواهنه، فما تحدث عنه يتحقق واقعياً والنتائج دائماً تصدقه وتقف في صفه.

ط . الذباب

لنستمر في موضوعنا هذا بحديث وارد في صحيح البخاري حيث يقول رسول الله ﷺ: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء.»[2]

أولاً وقبل كل شيء لم يكن أحد يعرف في ذلك التاريخ أن الذباب يحمل الجراثيم. والذباب عندما يقع في سائل يرفع أحد جناحيه إلى أعلى على سبيل الاحتياط، أي لا يغمس جناحيه معاً في السائل، لكي يؤمن لنفسه فرصة الطيران إن خلص نفسه من الإناء، ولكن طعامنا أو شرابنا يكون قد تلوث بالجراثيم.

ما يوصى به في مثل هذا الموقف هو القيام بغمس الذباب كله ثم إخراجه وطرحه

---

[1] البخاري، الطب ٧؛ مسلم، السلام ٨٨.

[2] البخاري، الطب ٥٨، بدء الخلق، ١٧؛ أبو داود، الأطعمة ٤٨.

خارجاً، ذلك لأن في أحد جناحيه داء وهو الجراثيم، وفي الجناح الآخر ما يزيل الأثر السيء للجناح الأول. فعندما تلمس ظهر الذباب وهو يحاول الخلاص بنفسه ينفجر الكيس المخزون فيه المادة المضادة للجراثيم، وهكذا يكون الذباب قد عقم ما لوثه الجناح الآخر بالجراثيم.[١]

يقول العلماء الذين قاموا بمراقبة هذه العملية وتحليلها علمياً بأنهم عندما ضغطوا على ظهر الذباب رأوا بالمجهر بأن قسماً من الجراثيم بدأت تتفرق يميناً وشمالا، وفي بحوث لاحقة علموا بأن هذه الجراثيم عناصر معقّمة، أي جراثيم للفتك بالجراثيم الأخرى.

ي . النـزيف الداخلي

في رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت فاطمة بنت أبي حُبيش إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني امرأة أُستحاض فلا أَطهر. أفأدع الصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، إنما ذلك عِرْقٌ وليس بحيض فإذا أقبلتْ حيضتكِ فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم ثم صلي.»[٢]

لقد علمنا بعد قرون عديدة من هذا الحديث الشريف أن مصدر دم الحيض هو من نزف داخلي. فكيف عرف رسول الله ﷺ هذه الحقيقة العلمية التي لم تعرف إلا مؤخرا؟ عرفه طبعاً من ربه الذي علّمه مالم يكن يعلم وقام هو بتبليغنا. لذا فمرور كل هذه السنوات لم يزده إلا سمواً وعلواً في نظرنا. ورجال العلم يقولون اليوم بأن من يقول هذا الكلام لا يمكن أن يكون شخصاً عاديّاً؛ بل لابد أن يكون نبيّاً.

ك . لا دواء في الخمر

في رواية: أن طارق بن شويد سأل النبي ﷺ عن الخمر؟ فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال: «إنه ليس بدواء ولكنه داء.»[٣]

لقد عقدت عدة مؤتمرات في مختلف أنحاء العالم ومنها تركيا حول الخمر والمسكرات تكلم فيها العلماء وأجمعوا على أن الخمر -وإن كان قطرة واحدة- ضار لجسم الإنسان

---

[١] قد يقول أحدهم: لماذا لا نرمي بالسائل أو الطعام ولا نستعمله بدلا من هذه العملية؟ ونقول لهؤلاء: وما يدريك فلعل الحساء الذي وقع فيه الذباب هو حساء عائلة فقيرة لا تجد من الطعام غيره؟ أنقول لهذه العائلة أن تستغني عن طعامها أم نقدم لهم هذا الحل؟ (المترجم)

[٢] البخاري، الوضوء ٦٣؛ مسلم، الحيض، ٦٢؛ أبو داود، الطهارة ١٠٩، الطب ١١.

[٣] البخاري، اللباس ٦٣، الاستئذان، ٥١؛ مسلم، الأشربة، ١٢؛ الترمذي، الأدب ١٤؛ ابن ماجه، الطب ٢٧.

ولعقله ولروحه وأنه يؤدي إلى تشوهات فيها، والرسول ﷺ يشخص هذا الأمر في هذا الموضوع ويقول بأن الخمر داء بنفسه وبذاته.

لـ . الختان

يقول الرسول ﷺ بأن خمسة أمور هي من الفطرة أحدها الختان.[1]

فماذا يقول العلماء المعاصرون؟ ألم يتوصلوا إلى الشيء نفسه؟ ألا يقولون بأن غلاف القضيب محل لتجمع الجراثيم وسبب لإصابة القضيب بالسرطان، وأن السبيل الوحيد للتخلص من هذا هو إجراء الختان؟ وهكذا يظهر بأن الغرب يتصرف في هذه المسألة أفضل بكثير من بعض الحمقى عندنا. فعدد المختونين الآن في إنكلترة وفي الولايات المتحدة الأمريكية يجاوز عدة ملايين.

وهنا يتداعى إلى خاطري ما قاله شاهد هذا القرن: "إن أوروبا حاملة بالإسلام فستلد يوماً ما، وإن الدولة العثمانية حاملة بأوروبا فستلد يوماً ما."[2]

لقد قيل هذا القول في أوائل هذا القرن، وقد تحقق شق واحد منه، والآن نحن ننتظر بفارغ الصبر تحقق الشق الآخر، فقد بدأ المخاض وزادت آلام الوضع... وفي القريب سنسمع إن شاء الله تعالى صرخات الوليد المملوءة بشراً وأملاً.

لقد توقفنا حتى الآن عند صدق رسول الله ﷺ وإخلاصه، وصدق وإخلاص الأنبياء الآخرين. فكل نبي يمثل ذروة الصدق والإخلاص، لذا لم يجد الكذب مكاناً له قط في حياتهم، ولو كان عندهم أي انحراف -ولو كان قليلاً- لما استطاعوا دعوة الناس إلى الاستقامة وإلى الطريق القويم. هذا علماً بأنهم ما أتوا وما أرسلوا إلا لكي يوصلوا البشرية إلى الصراط المستقيم المؤدي إلى الجنة، ووصف هذا الطريق وتعريفه لها.

أجل، فلو تجسدت الفضيلة والصدق لما ظهرت في غير الشمائل المنيرة والعطرة للأنبياء. ورأينا هنا أيضاً آلاف الأدلة التي تملأ ما بين الأزل والأبد حول صدق نبينا محمد ﷺ.

وقد حاولنا جمع هذه الأدلة والشواهد ضمن مجموعات ثلاث. وهذا اجتهاد خاص بنا وإلا فإنه يمكن تصنيف صدق الرسول ﷺ إلى آلاف المجموعات ويسند إلى آلاف الأدلة والشواهد، ويعرض بأشكال أخرى مختلفة. وليس هناك من يستطيع الادّعاء بأنه يمكنه أن يوفي هذا الموضوع حقه بحيث لا تبقى هناك زيادة لمستزيد.

---

[1] مسلم، الطهارة، ٤٩، ٥٦؛ أبو داود، الطهارة، ٢٩.

[2] صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٣٨٦.

إن ما نؤمن به هو أن الأيام ستظهر صدقه على الدوام، وأن الناس في كل عهد سيكتشفون في كلامه ﷺ بُعداً آخر وبُعداً جديداً حول دلائل صدقه. وفي دار الآخرة سيعلم الجميع صدق رسول الله ﷺ، وسيرى الجميع صدق ما قاله حول ذاته ﷻ وحول أسمائه الحسنى وصفاته الجليلة، كل حسب قابليته الروحية، وستظهر أمامنا الجنة والحور العين والغلمان والجحيم وسائر الأمور الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ تماماً مثلما وصفها. وسيقول له الجميع: "صدقت يا رسول الله".

الفصل الثاني: الأمانة

الصفة الثانية من صفات الأنبياء هي الأمانة. وكلمة الأمانة مشتقة من "الإيمان". فالمؤمن هو الشخص الذي يحمل صفة الإيمان ويعطي انطباعاً بالأمن. فكما أن الأنبياء أشخاص في ذروة الإيمان، فكذلك هم في ذروة الأمانة، وهذه الصفة بارزة وواضحة أمام الجميع. والقرآن الكريم يشير إلى صفتهم هذه في آيات عدة منها:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء:١٠٥-١٠٨). أي كان نوح عليه السلام يقول لقومه: ألا تتقون؟ إني لكم رسول أمين لا يتنزل إلى الخيانة. وهكذا ترد هنا من فم رسول كريم صفة الأمانة التي هي من صفات النبوة.

وكذلك: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء:١٢٣-١٢٥).

والآية: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء:١٦٠-١٦٢).

ومن الممكن إيراد آيات أخرى في هذا الصدد. ولكننا نكتفي هنا بهذا القدر.

إن اسم "المؤمن" هو من أسماء الله الحسنى، لذا فهو من الأسماء المهمة للمعتقدين بالله. ولكن لماذا كان "المؤمن" اسماً من الأسماء الحسنى لله تعالى؟ ذلك لأنه مصدر للثقة والاطمئنان، فهو الذي يمنحنا الثقة... أحياناً قطرة قطرة... وأحياناً مثل الشلال المنهمر. وهو الذي زين الأنبياء بصفة الأمن والأمان. فإن صفة الأمن والأمان والإيمان تربطنا بالأنبياء، وتربط الأنبياء بالله تعالى. وهذه الرابطة تقودنا إلى العلاقة بين الخالق والمخلوق. فجميع هذه المعاني موجودة في الاشتقاق الجذري لكلمة "الأمانة". علماً بأن أهم ناحية في هذا الموضوع هو فهم هذه العلاقة.

وكما أن الأمانة من أهم صفات الأنبياء والمرسلين، ومن أهم صفات نبينا ﷺ، فهي أيضا من أهم صفات جبريل عليه السلام، فالقرآن يصفه لنا بأنه ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير:٢١). أجل، فجبريل عليه السلام مطيع لله تعالى، ونظراً لطبيعة وظيفته فهو أمين، ومن ثم فإن هذا الكلام الذي

يبعث الأمن والطمأنينة أنزله الله تعالى المؤمنُ بوساطة رسوله الأمين على قلب نبيه سيد الأمناء وأصفى المخلصين ليهب لأمته الخيرة الأمن ويجعلهم آمن الآمنين.

لقد عمت الجميعَ بركةُ القرآن الكريم، كل حسب درجته ومنزلته، وكان جبريل ﷺ ضمن هؤلاء المستفيدين، فقد قال يوماً لرسول الله ﷺ: "كنت أخشى العاقبة، فأمنتُ لثناء الله ﷻ عليّ بقوله ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير:٢٠-٢١)".[1]

الأمانة عند رسولنا ﷺ

رسولنا ﷺ أمين قبل كل شيء، أمين على الرسالة التي بعثه الله تعالى بها، فلا يمكن تصور إخلاله بهذه الأمانة قيد شعرة. أمين مع جميع المخلوقات، فالكل يثق به ويطمئن إليه؛ لأنه أظهر للجميع مدى أمانته، فبعث الثقة وأرسى الأمن والاطمئنان إليه في نفوس الجميع. ثم علّمنا مدى أهمية الأمانة ومدى ضرورتها وأقنعنا بهذا الأمر. فتعالوا بنا نستعرض سويا هذه الأمور.

أ- الأمانة في تبليغ الرسالة

لقد اختار الله تعالى إنساناً أميناً لرسالته. وقد عاش هذا الرسول حياته كلها ضمن مشاعر هذه الأمانة، إلى درجة أنه كان عندما يتنزل عليه الوحي حريصاً على ألا تفوته كلمة واحدة من هذا الوحي ويخشى ذلك، فكان يكرر بسرعة ما سمعه من جبريل لكي يحفظه بشكل تام، وذلك قبل أن ينتهي جبريل من إلقاء الوحي عليه. وكان يبدي خشية وحرصاً وقلقاً في هذا الأمر إلى درجة أن القرآن الكريم نبّهه قائلاً: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة:١٦-١٩).

لقد أُودع القرآنُ أمانة عنده، فكان يخشى ألا يكون أميناً لهذه الأمانة المقدسة خشية كبيرة. لذا، كان الله تعالى يطمئنه ويخبره بأنه أمين وسيبقى أميناً.

لقد عاش رسول الله ﷺ حياته كلها في خضم هذه العاطفة الملتهبة، فقد كان يدرك حق الإدراك مدى ثقل الأمانة المقدسة التي ألقيت على كاهله، ويجتهد بكل ما وسعه من إخلاص وتفان أن يكون أميناً لها. فها نحن نراه في حجة الوداع وقد أحس بدنو رحيله يقول لأصحابه وهو يتذكر هذه الأمانة الكبيرة أنهم سيُسألون غداً عنه، لذا فقد سألهم:

[1] الشفاء للقاضي عياض، ١٧/١.

«ألا هل بلّغتُ؟ ألا هل بلّغتُ؟» فقال الحاضرون: نعم. فقال: «اللّٰهم اشــهد.»[1]

أجل، فإن حفظ الأمانة يبدأ من الله ﷻ ماراً من عند جبريل عليه السلام ومستقراً عند رسول الله ﷺ ثم سارياً منه إلى أمته. وفي حجة الوداع طلب من أمته الشهادة مرة أخرى بأنه أبلغ الرسالة ثم رجع إلى الرفيق الأعلى بعد هذه الشهادة من أمته.

وردت في كتب السنة المعتبرة رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تتعلق بأمانة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة إذ قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب:٣٧).[2]

نزلت هذه الآية في حق زيد بن حارثة الذي أعتقه رسول الله ﷺ وتبناه ورباه ثم زوجه من بنت عمته زينب بنت جحش التي قبلت الزواج منه طاعة لرسول الله ﷺ، وتنفيذا لأوامره، فلم تكن لديها الرغبة في هذه الزيجة؛ ولهذا لم يحدث الوفاق بينهما؛ فأمر الله رسوله بطلاقها من زيد وأن يتزوجها لتكون ضمن زوجاته الطاهرات، فشق ذلك على رسول الله ﷺ حيث كانت العرب في تلك الأيام تنظر إلى الابن المتبنى نظرتهم إلى الابن الحقيقي، وتعد زوجة الابن بالتبني بمثابة زوجة الابن الحقيقي.كما كانت أم زينب -عمة رسول الله ﷺ- قد عرضتها عليه من قبل فأبى؛ ولكن ما كان على النبي ﷺ إلا أن ينفذ ذلك الأمر لأنه صادر إليه من السماء، لذا قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية." ولكنه كان أميناً للوحي الذي كان ينزل عليه، فلم يكتم حرفاً واحداً منه.

وهناك حادثة أخرى وقعت في معركة بدر تبين مدى أمانته، فقد تم أسر بعض كفار قريش فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنه حول أمرهم. فكان رأي أبي بكر رضي الله عنه إطلاق سراحهم بعد أخذ الفدية منهم، أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان من رأيه أن يقتلوا جميعاً وأن يقوم كل واحد من المسلمين بقتل قريبه بيده. ومال رسول الله ﷺ إلى رأي أبي بكر وأطلق سراح الأسرى بعد أخذ الفدية منهم. ولندع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يروي هذه القصة بنفسه:

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول

---

[1] البخاري، الحج ١٣٢، المغازي ٧٧؛ مسلم، الحج ١٤٧؛ أبو داود، المناسك ٥٦؛ ابن ماجه، المناسك ٧٦، ٨٤.
[2] البخاري، التوحيد ٢٢؛ مسلم، الإيمان ٢٨٨.

الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك. فإن وجدتُ بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عَرض عليّ أصحابُك من أخذهم الفداء. لقد عُرض عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة -شجرة قريبة من نبي الله ﷺ- وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي ٱلأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٧-٦٩). فأحلّ الله الغنيمة لهم.»[1]

فلو كان هناك أي احتمال لقيام رسول الله بكتمان شيء من الوحي لكتم هذه الآية. ولكنه كان إنساناً أميناً على الوحي. وسنقوم فيما بعد بتناول هاتين الآيتين بتفصيل أكثر عند تناول موضوع عصمة الرسول ﷺ.

ب- الأمين حيال الوجود كله

وكما كان النبي ﷺ أميناً على الوحي الإلهي، فقد كان أمينا حيال الوجود كله، لأن هذه الأمانة كانت قد انغرست في أعماق قلبه وكيانه.

وللحادثة التالية التي ترويها صفية زوج النبي ﷺ مغزى كبير. عن الزهري قال: أخبرني علي بن الحسين ﷺ أن صفية زوج النبي ﷺ أخبرته أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان. فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ معها يَقلِبها،[2] حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة، مرّ رجلان من الأنصار، فسلما على رسول الله ﷺ، فقال لهما النبي ﷺ: «على رِسْلكما، إنما هي صفية بنت حُيَيّ.» فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبُر عليهما. فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً.»[3]

فهذا الشيطان الذي يجري من الإنسان مجرى الدم يستطيع أن يقذف في قلبه وفكره أشياء كثيرة. ولو كان هناك احتمال ضئيل بنسبة واحد من ألف أو واحد من المليون بورود سؤال على خاطرهما حول: من هي هذه المرأة التي بجانب رسول الله؟ لوقعت حياتهما

---

[1] مسلم، الجهاد ٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣١/١-٣٣.

[2] أي يرجعها إلى منزلها. (المترجم)

[3] البخاري، الاعتكاف ١٨؛ مسلم، السلام ٢٤؛ أبو داود، الصوم ٧٩، الأدب ٨١؛ ابن ماجه، الصيام ٦٥.

الأبدية في خطر شديد والعياذ بالله ولا نطفأ عندهم نور الإيمان. ولذلك نرى الرسول ﷺ - الذي هو مثال الرحمة والشفقة- يسرع للتدخل في الأمر فيظهر مدى أمانته هو، وينقذ في الوقت نفسه إيمان أصحابه وأفراد جماعته.

كان هذا هو مبلغ اهتمامه بالأمن والأمانة، ولا عجب في هذا، ألم يكن اسمه "الأمين" قبل بعثته ونبوته؟[١] ألم يكن ألدّ أعدائه يعترفون بأمانته؟ لقد كان أميناً إلى درجة لو أن أبا جهل وهو من ألد أعدائه سُئل أين يستطيع إيداع أثمن أمواله، بل حتى عرضه وشرفه لما تردد في القول: "عند الأمين."

أجل، لما خطر بباله شخص آخر غيره. فهكذا كان مقدار أمانته عليه أفضل الصلاة والتسليم.

كان أميناً إلى درجة أن امرأة دعت طفلها قائلة: ها تعال أُعطك، فقال لها: رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أن تعطيه؟» قالت: أُعطيه تمراً. فقال لها رسول الله ﷺ: «أما إنكِ لو لم تعطيه شيئاً كُتبتْ عليكِ كِذبة.»[٢]

ذلك لأن رسول الله ﷺ كان يعد الكذب من علامات النفاق، ولأجل ذلك كان يحاول إبعاد الناس عنه قدر استطاعته؛ لأن الكذب علامة من علامات النفاق الثلاثة، والأخريان هما إخلاف الوعد وخيانة الأمانة.[٣] فعلى قدر بُعد الرسول ﷺ من النفاق كان بُعده عن خيانة الأمانة.

ولم تكن روح الأمانة ومفهومها عنده مقتصراً عنده نحو الناس فحسب، بل نحو الوجود كله. إليكم حادثة يرويها عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرَة[٤] معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تَفرُش،[٥] فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ رُدّوا ولدها إليها.»[٦] فكأن ممثلي الأمن والأمانة على الأرض لا يليق بهم مثل هذه التصرفات.

أما صحابته الغُرّ الميامين الذين تلقوا منه النور والضياء فقد كانوا أمناء أيضا، فهذا هو أبو عبيدة بن الجراح ﷺ الذي كان والياً على الشام في زمن خلافة عمر بن الخطاب ﷺ بعد

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٠٩/١.
[٢] المسند للإمام أحمد، ٤٤٧/٣؛ أبو داود، الأدب ٨٠.
[٣] البخاري، الإيمان ٢٤؛ مسلم، الإيمان ١٠٧.
[٤] حُمَّرة: طائر صغير. (المترجم)
[٥] تَفرُش: ترفرف. (المترجم)
[٦] أبو داود، الجهاد ١١٢، الأدب ١٦٤؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠٤/١.

أن سمع أن هرقل يعد جيشاً ضخماً لاسترداد الشام منه، ولم يكن مع أبي عبيدة حينئذ إلا نفر قليل لا يستطيع بهم الدفاع عن مدينة دمشق، إذ به يجمع سكان المدينة ويقول لهم بأنه جمع الجزية منهم على أساس أن يدافع عنهم، وهو الآن لا يستطيع أن يدافع عنهم أمام هرقل؛ لذا، فإنه يرد إليهم هذه الأموال لأنه لا يستطيع الاحتفاظ بها من غير وجه حق.

وهكذا ردت أموال الجزية لأصحابها، وأمام هذا المنظر الذي لا يُصدق هرع الرهبان والقسس إلى الكنائس والأديرة وتضرعوا إلى الله أن يبقي المسلمين وأن ينصرهم. وعندما ودعوا المسلمين قالوا لهم: سترجعون إن شاء الله وتنقذوننا من ظلم هرقل.[1]

إن أبا عبيدة بن الجرّاح ﷺ قد عاش أميناً وربانياً إلى درجة أنه تربع على عرش قلوب النصارى. فإذا كان الغرب لا يسمعنا ولا يهتم بنا، ولا يعير التفاتة للأفراد الذين نرسلهم لأوروبا، فان الذنب ذنبنا، وينبع من سلبياتنا. ذلك لأن الثقة والأمن والأمانة هي أهم ما ينقصنا، فإذا استطعنا التحلي بهذه الفضائل مرة أخرى فإن الإنسانية ساعتها تكون قد عثرت على أمة يمكن الثقة بها. ونكون قد استرددنا موضعنا في التوازن الدولي وخطونا خطوة واسعة إلى الأمام.

من الممكن ملاحظة هذا الأمر -أي نشر الأمن والأمان- عند توسع العثمانيين وسيطرتهم على معظم أنحاء العالم. فعندما كان الجنود العثمانيون يمرون بالقرب من البساتين والحدائق وهم في طريقهم إلى الحرب، كانوا يعلقون أثمان الفواكه التي يقطفونها من هذه البساتين على أغصان الأشجار. فكانوا بمثل هذه التصرفات الإنسانية النبيلة يفتحون قلوب سكان البلاد قبل فتح هذه البلدان بحد السيف، وإلا ما كان باستطاعتهم فتح بلدان أوروبا، ولا إدامة بقائهم فيها مع وجود كل هذا الحقد الصليبي المرعب. ولكنهم بقوا في البلقان وفي أوروبا أربعة قرون كاملة لأنهم كانوا بأمانة أبي عبيدة؛ لذا، استطاعوا أن يصلوا إلى أبواب فيينا بخسائر قليلة جدا، وكانوا طوال هذه القرون مثالاً للأمن وللطمأنينة في تلك البلدان، وأنا أعتقد بأن الدماء التي سكبت لحفظ الأمن في تركيا بعد تأسيس الجمهورية، لم تسكب طوال خمسة قرون من أجل استتباب الأمن بين الأقوام الأوروبية المختلفة.

أجل، فالإحصاءات تظهر لنا بأن عدد الشهداء الذين سقطوا طوال ستة قرون من العهد العثماني في جميع الحروب أقل من عدد الذين سقطوا في نصف القرن الأخير. ومن ثم فإن الزعم بأن الفاتحين العثمانيين كانوا يستندون إلى القوة القاهرة فقط زعم باطل. ومن

---

[1] عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة لشبلي النعماني ٢١٣/١-٢١٤.

جانب آخر إذا أخذنا بنظر الاعتبار طبيعة وسائط النقل في تلك الأيام تبين لنا بشكل بديهي استحالة إدارة الدولة وفرض سيطرتها ونظامها على تلك المساحات الشاسعة بقوة السلاح وبقوة الجيش لا غير.

نعم! فهذا هو سر نجاحهم في جمع مختلف العناصر والقوميات تحت سقف واحد، وتحت إدارة دولة واحدة طوال تلك المدة دون أن تظهر هناك مشاكل جدية؛ لأنهم قد فتحوا قلوب السكان أولاً. وفتح القلوب والنفوذ إلى النفوس هو وظيفة الدعاة في عصرنا الحالي، وهو الأسلوب والطريقة التي يجب السير عليها.

ج. دعوة أمته إلى الأمن

وكما كان سيد المرسلين يحتفظ بالوحي الإلهي وبالرسالة الإلهية بكل أمانة، فإنه كان يدعو أمته إلى خُلُق الأمانة نفسها، ويوصي أفرادها أن يعيشوا أمناء بين الناس. وأي شكل من أشكال الخيانة مهما كان ضئيلاً لا يمكن السماح به أو التفكير فيه، لذا حرّم أن يُغتاب ولو مؤمن واحد، إذ سرعان ما ينبه محدثه ويجنبه الإصابة بغبار الغيبة.

دخلت امرأة على عائشة رضي الله عنها فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي ﷺ -أي إنها قصيرة- فقال النبي ﷺ: «اغتبتيها.»[١] وقام النبي ﷺ بالتحذير نفسه في حادثة صاحبة ماعز بن مالك[٢].[٣]

وكان الرسول ﷺ يردد دائما هذا الدعاء ويوصي به أمته: «اللّٰهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة.»[٤]

وبقدر ما كان مهتما بمراعاة الأمانة كان اهتمامه بالتحذير من الوقوع في الخيانة لارتباطهما معاً. ويورد الرسول ﷺ خبراً مفزعاً عن الذين يقعون في هاوية الخيانة فيقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان.»[٥]

لقد كانت روح النبي ﷺ مغلقة وقلبه موصداً أمام جميع المفاسد والشرور، ومفتوحين لكل خير حتى أصغره وأدقه، فعاش حياته للخير وفي جو من الأمن والطمأنينة، واطمأنت

---

[١] أبو داود، الأدب ٣٥؛ الترمذي، القيامة ٥١؛ المسند للإمام أحمد، ١٨٩/٦.

[٢] عند ما تم رجم صاحبة ماعز بن مالك أصاب دمها وجه أحد الصحابة فشتمها، فحذره النبي ﷺ من ذلك، وقال إنها تابت توبة مقبولة عند الله. (المترجم)

[٣] مسلم، الحدود ٢٣.

[٤] أبو داود، الوتر ٣٢؛ النسائي، الاستعاذة ١٩، ٢٠؛ ابن ماجه، الأطعمة ٥٣.

[٥] البخاري، الجزية ٢٢؛ مسلم، الجهاد ٩؛ أبو داود، الجهاد ١٥٠.

الإنسانية إليه ووثقت به وخاب وخسر الذين ناصبوه العداء وأداروا له ظهورهم. أما هو فقد بسط جناح الرحمة على أمته ولبّى طلب كل من دقّ بابه.

وكما كان شخصاً أمينا، كان يشعر بنفس الأمن والطمأنينة والثقة بالله ﷻ، فكانت ثقته هذه بالله عروجاً لصفة الأمانة والأمن من النبي ﷺ وسموًا ورجوعاً إلى الله تعالى. فالأمانة الهابطة من الله تعالى إلى النبي ﷺ كانت تظهر وتتجلى في صفة الأمن عنده، وعندما يتقارب طرفا هذا القوس ويتحد يظهر الأمن العام.

لقد تميز كل نبي بالثقة بالله تعالى والتوكل عليه، فقد كانت هذه صفة من الصفات اللازمة لهم وخُلقاً من أخلاقهم السامية. ويوضح القرآن هذا الخلق عندهم في آيات عديدة. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُم عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾ (يونس:٧١).

كان نوح عليه السلام يثق في ربه ويعتمد عليه ويقول: إن كنتم تنفرون مني ومن دعوتي لكم وتبليغي أمر الله لكم فافعلوا ما شئتم، ذلك لأنني واثق بالله معتمد عليه. أنتم كثر وأنا فرد واحد، ولكن اعلموا أن الله لن يضيعني. فأجمعوا أمركم وتشاوروا وضعوا الخطط ضدي أنتم وكل شركائكم ومعاونيكم حتى لا يفوتكم شيء ولا تتحسروا على شيء فاتكم عمله، بل اعملوا ما وسعكم العمل ضدي ونفذوا كل خططكم فأنا في انتظار كل ما يأتي من قبلكم.

لقد كان يقول هذا لهم ويتحداهم، لأنه كان شديد الثقة بالله تعالى، وكان يعلم علم اليقين أن الله سوف يعصمه من الناس. ومع أننا لا نعلم عدد الأفراد الذين ركبوا سفينته، إلا أننا نعلم أن كثيراً من الأنبياء -ومنهم إبراهيم عليه السلام- كان من ذريته ومن نسله، فالقرآن الكريم يقول إن إبراهيم عليه السلام من شيعته ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات:٨٣).

والموقف نفسه نراه عند النبي هود عليه السلام: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود:٥٤-٥٦).

ويشرح القرآن موقف إبراهيم عليه السلام، موقف التسليم المطلق لله فيقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ

لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة:٤).

أجل، كان إبراهيم والذين آمنوا معه يرفعون راية العصيان ويتحدون الكفار قائلين لهم: إننا بعيدون من كل ما تعبدون من دون الله بُعدا كبيرا، فنحن ننكركم وننكر كل طواغيتكم، وقد بدت بيننا وبينكم العداوة وتوسعت حتى تؤمنوا بالله.

وهذه العداوة بين المؤمنين وغير المؤمنين بدأت منذ عهد آدم عليه السلام وتواصلت إلى يومنا الحالي. فالإيمان ضد الكفر، والكفر عدو للإيمان، فلا يمكن أن يجتمعا معاً أو يستقرا في مكان واحد، لأن الكفر سيسعى للقضاء على الإيمان، فكما أن الخفافيش لا تستطيع العيش في النور، فكذلك الكفار يضيقون ذرعاً بنور الإيمان ونور النبوة. فكان أتباع إبراهيم عليه السلام من المؤمنين يقولون للكفار إنه مالم تؤمنوا بالله وتعتمدوا عليه وتتوكلوا فإن العداوة ستبقى فيما بيننا ولن تهدأ.

ذلك لأنه يوجد انحراف وسقم في ماهية الكفر، والكافر ينظر إلى كل الأشياء نظرة عداء. أما المؤمن فإنه يضم في جوانحه مشاعر الإنسانية والمروءة، وهو ينظر إلى الكون كمهد للأخوة، لذا فهو يبحث مع الجميع نقاط الالتقاء والحوار، بينما يجد الكافر لذة ونشوة في التحرش والتشاجر مع الجميع. وعندما يؤمن الجميع بالله تعالى يتأسس سلام عام وشامل. أما توقع مثل هذا السلام من الكافر ومن الكفر فهو غفلة وتفكير سطحي، ذلك لأن الكفر ليس لديه ما يعطيه للإنسانية غير الإيقاع بين الأمم وإضرام العداوة بينها.

ومن ثم فلا يمكن أن يكون هناك حوار بالمعنى الحقيقي بين الإيمان والكفر، أما ما قاله إبراهيم لأبيه فقد عده القرآن الكريم استثناء. رغم أن ما قاله لم يكن إلا عبارة عن أمنية نبعت من شفقته ورأفته الواسعة، هذا مع العلم أنه أوضح بأنه لا يملك لأبيه عند الله شيئاً. وعندما قال: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة:٤) كان يعبر عن ثقته بالله واعتماده وتوكله عليه وحده.

ولو تم تدقيق حياة جميع الأنبياء لبرزت صفة ثقتهم واعتمادهم وتوكلهم على الله بروزاً واضحا. وتوكلهم على الله ليس مثل توكل عامة الناس أو مثل توكل أي فرد من الأفراد. هكذا كان توكلهم... إذن، فما بالك بتوكل وثقة سيد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم..؟

لقد علمه الله تعالى أن يقول "حسبي الله" ومنذ ذلك الحين قضى حياته مطمئناً معتمداً على الله واثقاً به ومتوكلاً عليه. تأملوا مدى اعتماده على الله وتوكله عليه أن رجلاً بشجاعة

علي بن أبي طالب ﷺ يقول عنه: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً."[1]

د. التوكل المذهل

عندما هاجر كان بيته محاطاً من جميع جوانبه بأناس مصممين على قتله أشد تصميم، فتلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً﴾ (يس:٩) ونثر عليهم ملء كفه تراباً ثم خرج من بينهم بكل اطمئنان ودون أن يبدي أي قلق[2] لقد كان محتفظاً برباطة جأشه وشجاعة قلبه، ثم توجه نحو غار ثور... هذا الغار الموجود على قمة جبل يصعب ارتقاؤه حتى على الشباب، ولكنه ارتقى ذروة هذا الجبل وهو في الثالثة والخمسين من عمره. لقد كانت حياته عبارة عن سلسلة من المشاق والآلام وهذه المشقة آخرها. كأنما كان يستجيب لدعوة الغار له ويشرفه بالبقاء فيه ضيفاً عدة أيام.

ثم وصل مشركو مكة إلى باب الغار... ولم تبق هناك سوى مسافة متر واحد أو أقل، عندئذ قلق أبو بكر ﷺ واضطرب واصفر وجهه، ذلك لأنه كان يعد رسول الله ﷺ أمانة لديه، فماذا لو لم تصل هذه الأمانة إلى مكانها؟ أما رسول الله ﷺ فلم يتغير شيء في سحنته الباسمة... لقد كان رجلا آمنا مطمئنا، وكان يطمئن أبا بكر ﷺ ويقول له: «يا أبا بكر! لا تخف، إن الله معنا» ثم يقول له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»[3]

وها هو في غزوة حُنين التي بدا وكأن الجيش الإسلامي يتشتت ويتفرق ذات اليمين وذات الشمال، وأيقن الجميع أن نهاية المعركة ستكون هزيمة منكرة للمسلمين. إذ بالنبي ﷺ يسوق جواده -الذي كان العباس ﷺ يحاول أن يوقفه- نحو صفوف الأعداء وهو يصيح بصوته المهيب:

«أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب.»[4]

وكانت شجاعته هذه هي التي أدت إلى عودة تماسك الجيش الإسلامي في وقت قصير، فانقلبت هزيمته إلى نصر مبين.

وموقف آخر عندما كان النبي ﷺ نائماً تحت شجرة بعد رجوعه من غزوة ذات الرِّقاع إذ أقبل عليه أحد الكفار واسمه غَوْرَث بن الحارث فأخذ سيفه المعلق على الشجرة وقربه من

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٨٦/١.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ١٢٧/٢.

[3] البخاري، تفسير سورة (٩) ٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤/١.

[4] البخاري، الجهاد ٥٢؛ مسلم، الجهاد ٧٨.

عنق النبي ﷺ قائلاً له بنبرة استهزاء: من يمنعك مني؟ فلم يضطرب الرسول ﷺ أبدا لأنه كان واثقاً بالله تعالى، لذا، أجابه: «الله» فبهت الكافر واضطرب ووقع السيف من يده فالتقطه النبي ﷺ وقال له: «والآن من يمنعك مني؟» فأخذ الكافر يهتزّ من خوفه كريشة في مهب الريح. وهنا أقبل المسلمون الذين سمعوا صوت النبي ﷺ، فذهلوا مما رأوا وعندما علموا ما جرى زاد إيمانهم بالله. أما غَوْرَث فقد أمنه النبي ﷺ وأطلق سراحه دون عقاب.[1]

يقول المفكر الغربي المعروف "جورج برنار شو":

"إن محمداً شخص له جوانب سامية متعددة ومذهلة، وليس في الإمكان فهم هذا الإنسان اللغز حق الفهم، ولاسيما فهم أحد جوانبه وهو ثقته المطلقة بالله، فهذا سر لا يمكن فهمه."

كانت ثقته بالله لا يمكن قياسها ولا تقييمها بموازيننا العادية، لذا كانت مكانته ومنزلته عند الله منزلة سامية سمو ثقته وإيمانه بالله وتوكله عليه، لذا فلو دعا لانقلب الليل إلى نهار والظلام إلى نور والفحم إلى ماس.

إن رسول الله ﷺ هو أكثر شخص مدعاة للثقة من بين كل العالم، ومن ثم يجب أن تكون أمته أيضاً مدعاة للأمن وللثقة، تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (النساء:٥٨).

يشرح علي بن أبي طالب ﷺ سبب نزول هذه الآية فيقول: بعد أن تم فتح مكة أخذ رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة من عثمان بن طلحة وفتح الكعبة بنفسه، ثم أعاد المفاتيح إلى عثمان، لأنه كان يراه أحق الناس بحمل هذه الأمانة، وهكذا كان، فبعد نزول هذه الآية سلّمت مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة مرة أخرى.[2]

غير أن حكم الآية حكم عام؛ لأن الرسول ﷺ عد تضييع الأمانة وعدم رعايتها علامة من علامات قيام الساعة إذ يقول لأعرابي سأله عن الساعة. «فإذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة.» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.»[3]

أجل، إن الأمانة شيء خطير. وإعطاء الأمر لأهله يعد أمانة وهو من الأمور المهمة

---

[1] البخاري، المغازي ٣١، الجهاد ٨٤؛ مسلم، الفضائل ١٣؛ المستدرك للحاكم، ٢٩/٣.
[2] الإصابة لابن حجر، ٤٦٠/٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٥٥/٤.
[3] البخاري، العلم ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣٦١/٢.

لحفظ النظام في العالم. وضياع الأمانة يأتي بالمعنى نفسه لاختلال النظام العام. ووجود مثل هذا العالم الذي ضاعت فيه الأمانة واختل فيه النظام أو انعدام وجوده يكون سيان.

وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته. الإمام راع ومسؤول عن رعيته. والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها. والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم راع ومسؤول عن رعيته.»[1]

إن ما يراد شرحه هنا ضمن هذا الإطار الشامل هو أن كل شخص مؤتمن عند الآخر، والوجود كله أمانة لدى الله ﷻ، والقرآن كان أمانة عند جبريل ﵇ في البداية، ثم أمانة عند رسول الله ﷺ، ثم إن حقائق القرآن ونبوة محمد ﷺ أمانة عند أمة الإسلام. والأمة بأجمعها أمانة لدى الله ﷻ.

إن العناصر التي تتألف منها الحياة وكذلك العناصر الضرورية لحياة المجتمع تعتبر كدوائر متداخلة بعضها في بعض، وأي فساد يعرض لإحدى هذه الدوائر مهما كان ضئيلاً يسري إلى الدوائر الأخرى بعد أن يتضاعف أثرها، ولا أعتقد أن أحداً يشك في هذا. فإذا كان هناك أي فساد في مستوى الفرد، ولم يتم علاج هذا الفساد بسرعة، فلا يشكن أحد في أن هذا الفساد سينقلب في وقت قصير إلى فساد مزمن وإلى سرطان لا يمكن علاجه. ولكي يتم سد الطريق أمام جميع أنواع المفاسد، فإن على كل دائرة القيام بإيفاء جميع حقوق الأمانة الموكولة لديها.

والحديث الشريف يشير إلى هذا الترابط الكامل. وفي إطار هذه الإشارة، لو كان أفراد الأمة جميعهم -بدءاً من الحارس وانتهاء برئيس الدولة- في وعي كامل في موضوع الأمانة لأصبح هذا المجتمع المثالي المكون من الأفراد الأمناء كمجتمع المدينة الفاضلة التي تخيلها بعض المفكرين.

ولأن الأمانة بهذه الأهمية الجامعة فقد قال الرسول ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له.»[2] فالشخص الذي لا يراعي الأمانة المودعة لديه لا يكون إيمانه كاملاً؛ لأن علاقة الإيمان بالأمانة هي أن كلا منهما سبب للآخر ونتيجة له. ومن ثم فمن الصعب أن تجد رعاية كاملة للأمانة عند غير المؤمنين.

---

[1] البخاري، الجمعة ١١، الوصايا، ٩؛ مسلم، الإمارة ٢٠؛ أبو داود، الإمارة ١.

[2] المسند للإمام أحمد، ١٣٥/٣.

أجل، فالإنسان ذو الإيمان الكامل يكون أميناً، فإن لم يكن أميناً فليس إيمانه كاملاً. وفي حديث آخر يعرّف الرسول ﷺ المؤمن بقوله: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم.»[(١)]

وهنا أود أن أذكر مرة ثانية حديثاً أوردته في مبحث صدق الرسول ﷺ، وذلك لكونه ذا علاقة بموضوع الأمانة. قال رسول الله ﷺ: «اِضْمَنُوا لي ستّاً من أنفسكم أَضمن لكم الجنة»:[(٢)]

١- «اُصدقوا إذا حدثتم» أجل، فيجب أن يكون كلامكم وسلوككم متصفاً بالصدق والاستقامة، وَلْتكونوا مستقيمين استقامة الرمح.

٢- «وأوفوا إذا وعدتم»: ومخالفة ذلك يكون علامة من علامات النفاق وقد تم شرح هذا الموضوع باختصار فيما سبق.

٣- «وأدّوا إذا اؤتمنتم»: فإن ائتمنك أحد على شيء لتوسمه فيك الأمانة، فلا تخيب ظنه فيك، بل لا تكذب حسن ظنه بك يوم القيامة.

٤- «واحفظوا فروجكم»: أي احفظوا أعراضكم، واحفظوا أعراض الناس مثلما تحافظون على أعراضكم (ستتناول هذا الموضوع في مبحث "العفة" بشكل مفصل).

٥- «وغضوا أبصاركم»: أي لا تمد عينك إلى ما لا تملك. فالنظر إلى الحرام يفسد القلب، لذا ورد في حديث قدسي: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه.»[(٣)]

٦- «وكفوا أيديكم»[(٤)]: أي لا تمدن يدك بالإيذاء لأحد.

هذه هي الشروط التي يجب توفرها في الإنسان لكي يكون اميناً يطمئن إليه الناس. يعيش أميناً في الدنيا ويضمن آخرته. فمن يضمن تحقيق هذه الشروط ضمن له النبي ﷺ الجنة.

فلكي يعم الأمن والأمان في الدنيا، يجب أن تكون مقاليد أمور الدنيا في يد أناس أمناء. ولو قام العالم الإسلامي بحمل الأمانة المودعة لديه، وأصبح ممثلاً للأمن والأمان في العالم لتأسس التوازن والاستقرار في الدنيا، وإلا فإن حال العالم كله -وليس حال تركيا فقط- أليمة تنفطر لها القلوب.

---

(١) الترمذي، الإيمان ١٢؛ النسائي، الإيمان ٨؛ ابن ماجه، الفتن ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٠٦، ٢١٠، ٣٧٩.

(٢) المسند للإمام أحمد، ٥/٣٢٣.

(٣) كنز العمال للهندي، ٥/٣٢٨.

(٤) المسند للإمام أحمد، ٥/٣٢٣.

هـ. يا براعم الأمل

ستقومون أنتم بإهداء حقائق الدين وإقامتها في الدنيا مرة أخرى. فأنتم باقة ضوء من منبع نور عظيم أضاء أطراف العالم الغارق في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبى ظللت بأوراقها وأزهارها كل الأرجاء.

كانت كل كلمة لأمتنا في المباحثات الدولية في تلك العهود الزاهرة بمثابة أمر. وستقومون أنتم -بإذن الله- باستعادة تلك العهود الزاهرة والتخلص سريعاً من هذا العهد المظلم الذي نعيشه. فهذا هو ما يأمله الجميع منكم... يأمله من يعيش فوق التراب ومن هو مدفون تحته. بل هذا ما يأمله منكم رسول الله محمد ﷺ وهو يتجول بروحانيته بينكم ويربت على أكتافكم ويبتسم لكم وإن كنتم لا ترونه أو تحسون به.

أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيما حولكم إن بقيتم أمناء ولم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل، إن استطعتم تحقيق هذا انفتح لكم قلب الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تربع أجدادكم من قبل. ولكن لا تنسوا أبداً أن شرط الوصول إلى هذه النتيجة وإلى هذه الذروة مرتبط بكونكم أمناء للأمانة الملقاة على عاتقكم.

فإن كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمة وتلعب دوراً بارزاً في تأسيس التوازن الدولي -حيث أننا مضطرون أن نكون كذلك- فيجب أن نكون ممثلين للحق وللعدالة وللاستقامة وللأمن.

الفصل الثالث: التبليغ

التبليغ هو الصفة الثالثة للأنبياء. وإذا أردتم أن تطلقوا على هذا اسم تبليغ وبيان حقائق الإسلام أو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فالنتيجة واحدة إذ تكونون قد أبنتم عن حقيقة كبيرة من الحقائق المتعلقة بالنبوة.

التبليغ هو الهدف من وجود كل نبي. فلولا مهمة التبليغ لكان إرسال الأنبياء عبثاً ودون معنى. لقد أظهر الله تعالى بأنبيائه عظيم كرمه وتجلت رحمانيته ورحيميته في حياة هؤلاء الأنبياء. وما كان في الإمكان انعكاس هذا الأمر على الناس الآخرين من دون التبليغ.

فكما يظهر الله رحمانيته بالشمس التي تبتسم وهي تشرق لنا كل صباح... هذه الشمس التي هي بمثابة مدفأة لمن يحتاج إلى الدفء، وموقد لما يحتاج إلى الطبخ، وريشة رسام يرسم بها أروع لوحات الجمال ملونةً بأبهى الألوان، فكذلك هم الأنبياء العظام، ولاسيما محمد ﷺ الذي كان أفضل أنموذج لتجلي الرحمانية والرحيمية للبشر والذي قال الله تعالى في حقه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

فلو لم يأت ويجدد دعوة الأنبياء السابقين لما تجلت علينا رحمة الله ﷻ، ولبقينا تائهين حيارى في صحراء الجهل والكفر والضلالة الموحشة.

فبينما كانت الإنسانية تتردى في مهاوي الجهل والتوحش إذا بها تتنسم أنفاس نبينا ﷺ التي تبعث الحياة في النفوس وتنقل لها أقوال الأنبياء السابقين... عند ذلك أحست وكأن الدنيا تحولت إلى ربيع مزهر وإلى بساتين خضراء نضرة تفتحت فيها آلاف الورود والأزهار، وصدحت في أفنانها وأغصانها آلاف البلابل. ولولا هذا لجُنّت من الوحشة ومن الحيرة ومن الوحدة.

أجل، فمن نحن؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟

مثل هذه الأسئلة المحيرة كادت تنخر أدمغتنا مثل مثقاب... كادت تحفر، وما كنا نملك أو نجد لها أجوبة شافية، وكان حتماً علينا أن نتحمل هذا الألم طوال أعمارنا. وعندما سيخطر على خيالنا منظرنا وقد تحولنا إلى عظام نخرة في القبر كنا سنرتجف من رعب بارد مظلم يستولي على نفوسنا... الرعب من العدم... هذا العدم الذي نقترب منه كل دقيقة... مثل هذا الرعب كان سيحول حياتنا إلى جحيم دائم لا راحة فيه.

جاء الأنبياء فعلمونا غاية الحياة وحقيقة الموت، فتعلمنا منهم أن مجيئنا إلى الدنيا مرتبط بغاية، وأن فراقنا للدنيا مبني على حكمة، وأن الموت ليس فناء ولا عدما، بل هو انتقال من مكان إلى مكان، وتسريح من مهمة ومن وظيفة معينة. أما القبر فهو صالة انتظار وباب مفتوح على عالم الآخرة. وعندما سمعنا هذا من الأنبياء تبددت وحشتنا وتحول كل شيء إلى أنس وانشراح، وزالت جميع المخاوف والشكوك وأسباب القلق من قلوبنا وعقولنا، وحل الأنس والمسرة محلها.

لقد أرسل الأنبياء إلينا بمثل هذه الرسائل، وكان قيامهم بتبليغها لنا هو غاية وجودهم. وإذا كنا نرى التبليغ واجباً يجب القيام به، فقد كان الأنبياء يقومون بالتبليغ كغاية وهدف يرون فيه سر حكمة مجيئهم إلى الدنيا، وكأن لسان حالهم يردد: "ليس هناك غاية أخرى من مجيئنا إلى الدنيا، فالله تعالى أرسلنا للناس من أجل أن نزيح الظلام من بين أيديهم ومن خلفهم ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم لكي يستطيعوا المضي قُدما نحو الصراط المستقيم دون أي نحراف، فلا يستطيع الشيطان أن يتسلل إلى أرواحهم أو أن يحاول إغواءَهم في طريقهم هذا."

أجل، إننا نقوم بالتبليغ كمهمة ووظيفة، أما الأنبياء فيقومون به كغاية لوجودهم وهدف لحياتهم وسر لخلقهم.

أسس ثلاثة في التبليغ

مما لا شك فيه أن مجيء النبي بالرسالة وقيامه بتبليغ هذه الرسالة للآخرين أمر مختلف تماماً عما يفعله الآخرون. فالأنبياء أولاً متميزون في موضوع تلقي الرسالة، فهم لا يتشابهون مع غيرهم في هذا الموضوع. وهم أثناء قيامهم بمهمة التبليغ يعلموننا معنى التبليغ وكيف يجب أن يكون. وهذا يشكل بعدا آخر في موضوع تبليغهم. والآن دعونا نتناول هذا الموضوع بإرسائه على قواعد ثلاثة:

١) النظرة الشمولية

إن الأنبياء عندما يقومون بتبليغ رسالة الله يوفون حقّ هذه المهمة بأصولها وقواعدها وطرقها الصحيحة التامة كأهل علم واختصاص في هذا الموضوع. إذ يتناولون الإنسان من جميع جوانبه كلا شاملا وغير مجزأ، ويقدمون له رسالته في إطارها الكامل دون أي نقص. ومن ثم لا يبقى أي من العقل والمنطق والقلب والأحاسيس والشعور خارج أنوار الوحي ولا يترك أو يهمل أيّ من هذا.

ذلك لأن كل نبي بين يدي الوحي كالميت في يد المغسل، يقلبه الوحي ذات اليمين

وذات الشمال ويوجهه أنى يريد فيتبع مشيئة الله وإرادته في أصغر الأمور وأدق التفاصيل، ويبدي حساسية فائقة تجاهها.

ومن ثم فإن أي تبليغ وأي دعوة لا تتوافق مع أسلوب تبليغ الأنبياء ودعوتهم لا تنجح في مهمة الإرشاد والدعوة. مثلا إن أهمل نصيب العقل فإن التبليغ لا يعطي النتيجة المرجوة. وإن أهملت المشاعر والأحاسيس سيؤدي أيضاً إلى نفس النتيجة السلبية. ناهيك عن الذين يخرجون خارج نطاق الوحي، فهم لا يصلون أبداً إلى الهدف. ولتنظروا إلى حال جميع النظم البشرية التي سارت خارج الوحي الإلهي وإلى عاقبتها والمسافة التي قطعتها. فهذه هي الشيوعية التي جرت وراءها الجماهير البائسة الفقيرة والمخدوعة زمناً، والتي كانت حلم كثير من البلدان الفقيرة لم تستطع إنقاذ نفسها من السقوط والانهيار مع أنها مرت بكثير من عمليات التصحيح والتبديل والتجميل. برغم أن مؤسسي هذا النظام -والنظم الأخرى - كانوا قد قدموا أنفسهم كأنبياء كذبة وجالوا وصالوا بهذه الصفة. إن الذين يصرون على تطبيق النظم البشرية سيصلون إلى النتيجة نفسها. أجل، سيعلن كل منهم -عاجلاً أم آجلاً- بأنهم كانوا مخدوعين.

إن العقل والمنطق والعواطف تكون جنباً إلى جنب في دعوة النبي. فالنبي لا يفكر في استغلال عواطف الشعب للقيام بمظاهرات صاخبة في الشوارع، كما أنه ليس مفكراً نظرياً قابعاً في ركن منعزل يحرم الجماهير من الحركات والنشاطات العامة والإيجابية. وكما أن النبي لا يجعل من الجماهير كتلاً فوضوية تسد الشوارع، فهو أيضا لا يقف حائلا أمام نمو عواطف الجماهير ورقيها. إنه يودع رسالات ربه إلى قلوب الناس ويذكي فيهم روح العمل والنشاط ويسمو بهم إلى سماء الإنسانية ويرقى بهم إلى مصاف الملائكة. وعندما يشرح القرآن الكريم هذه المسألة يقول لرسول الله ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف:١٠٨).

هذه السبيل هي سبيل الأنبياء وسبيل العقل والمنطق والحكمة أيضا. وهي في الوقت نفسه لا تهمل العواطف ولا القلب ولا الوجدان. فالكل يأخذ مكانه فيها، والأنبياء وأتباعهم يدعون الناس على بصيرة إلى الحق باتباع هذه السبيل.

٢) عدم انتظار الأجر

إن النبي لا ينتظر أجرا على تبليغه؛ فهو يقوم بدعوته لكونها وظيفته ومهمته، فكل الأنبياء شعارهم: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ (يونس:٧٢؛ هود:٢٩).[1]

---

[1] انظر هذه الآيات: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ (هود:٢٩)، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

٣) ترك النتائج لله

وعندما يبلغ النبي دعوته لا يتدخل في نتائجها؛ لأنه يعلم أن وظيفته هي التبليغ. أما العاقبة وحسن القبول وتحقق النتائج فمردها إلى الله سبحانه تعالى.

وبعد ذكر هذه الأسس الثلاثة ستتناول ماهية التبليغ والدعوة بالنسبة للنبوة، والسبل والطرق والأساليب التي يجب على الدعاة في كل عهد الالتزام بها أثناء قيامهم بالدعوة. وكل ما نرجوه أن يوفقنا الله تعالى للقيام بوظيفة الدعوة كما يحب ويرضى. فالله تعالى هو الذي وهب قلوبنا الشوق للقيام بالدعوة وهو الذي بيده التوفيق إن شاء، فنحن نثق به ونعتمد عليه.

إن النبي لا يفكر إلا في دعوته كما قلنا. وكم من أنبياء جاهدوا طوال حياتهم ووقفوا أعمارهم كلها على دعوتهم وما آمن بهم أحد،[1] ولكنهم بقوا مع ذلك مطمئنين لأنهم أدوا وظيفتهم كما يجب، فلم يصدر من أحدهم اعتراض لحظة واحدة في حياتهم ولم يتفوه قط بمثل هذه الأسئلة:

لماذا لم أوفق في دعوتي؟ لماذا لم يؤمن بي أحد؟ لماذا انتهى عملي إلى لا شيء؟ لماذا تتابع الفشل الواحد منه تلو الآخر؟ لقد كان كل نبي يفكر في دعوته فقط وكيف يؤديها؛ لذا، فهو ينظر إلى جميع الظروف بنظر الاعتبار ويؤدي مهمته في ضوئها. أما النجاح في دعوته فليس ضمن وظيفته. فالحكم في هذا يعود إلى الله تعالى وحده. وتوضح الآية الكريمة ذلك في خطابها لرسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (القصص:٥٦).

وبهذا المقياس فإن رسالة النبي تحمل صفة خاصة. فلو لم يؤمن بها أحد ما فتر النبي أبداً وما تردد أو قلق أو اضطرب، ولا سلك طريق اتهام الآخرين، بل استمر يؤدي وظيفته ومهمته. فلم يظهر الأنبياء أي فتور أو تراخ في الدعوة رغم تعرضهم لصنوف من الإهانة والازدراء. وهذا اللون من ألوان الدعوة صفة خاصة بالأنبياء وحدهم، ويستحيل أن يظهر كاملاً في غيرهم؛ لأننا نجد عند هذا الغير في العادة نوعاً من انكسار الخاطر والكدر، فمهما كان هؤلاء الدعاة ناضجين فإنهم لا يتخلصون من الرغبة في الحصول على نتيجة ما في

إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:١٠٩)، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ:٤٧).

[1] البخاري، الرقاق ٥٠؛ مسلم، الإيمان ٣٧٤؛ الترمذي، القيامة ١٦.

دعوتهم. وعندما لا يحصلون على شيء يظهرون نوعاً من خيبة الأمل وانكسار الخاطر. والأنبياء وحدهم هم الذين لا يحملون مثل هذه الأحاسيس؛ لأن هذه صفة خاصة بهم.

انظروا مثلاً إلى رسول الله ﷺ وما أصابه في أُحُد من حوادث أليمة. فإنه مع هذا لم يتكدر خاطره ولم يصبه هم أو غم. لقد انكسرت سنه، ودخلت حلقات مغفره في وجهه، حتى أن أبا عبيدة انكسرت سنه وهو يحاول تخليص وجه رسول الله ﷺ من حلقات المغفر.[1] ومع أن الدماء غطت وجهه الكريم فإنه اكتفى برفع يديه داعياً: «اللّٰهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.»[2]

ومن ثم عندما اقتنع قومه بنبوته بذلوا أرواحهم في سبيله. وهذه الحادثة وغيرها من الحوادث المماثلة تبين مدى سعة صدر رسول الله ﷺ.

فما كان الرسول ﷺ وغيره من الأنبياء والرسل يقابلون الأذى بالأذى، بل كانوا يتحملون الإيذاء في سبيل الله دون أي تذمر أو شكوى. وهذا نبي الله نوح عليه السلام يحكي القرآن عنه أنه قال لقومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف:٦١).

لقد قال نوح عليه السلام هذا لقومه ردا عليهم عندما اتهموه بالانحراف والضلالة إذ قالوا له ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (الأعراف:٦٠).

والاتهامات اليوم هي نفس الاتهامات السابقة... أنت منحرف... أنت رجعي... أنت تعيش في القرون المظلمة... الخ.

ويستطرد نوح في خطاب قومه قائلا لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٦٢).

أي يقول لهم إنني لست على ضلالة، بل إنني أريد أن أنصحكم وأخلصكم من الضلالات ومن الانحرافات التي تعيشون فيها، لأنني مرسل إليكم من رب العالمين نبياً ورحمة لكم أبلغكم رسالات ربي وأضيء لكم دروبكم، لأنني أعلم ما لا تعلمون.

ومع مرور عصور وعصور فإن الكفر هو الكفر لا يتغير ولا يتبدل. فنرى النبي هوداً عليه السلام يخاطب قومه قائلا: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِين ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف:٦٧-٦٨).

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٨٤-٨٥.

[2] الشفاء للقاضي عياض، ١/١٠٥؛ البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، الجهاد ١٠٥.

فما من شيء قد تغير بالنسبة للأنبياء أو لأقوامهم. نفس الاتهامات ونفس الأجوبة... هي هي نفسها مع تغير في بعض الكلمات وبعض الجمل.

وبعد أن ذكرنا الأنبياء ضمن هذه القاعدة العامة لننقل الحديث إلى سيد الأنبياء ﷺ حيث يخاطبه الله قائلا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر:١-٣).

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل:١-٤). أي يا أيها المتدثر والمزمل في ثيابه، لقد مضى عهد النوم... فقم لنجدة السائرين في الظلام. قم وأنذر هذه الجماعات الضالة طريقها من عاقبة السير في هذا الطريق المعوج، ومن عاقبة الانحراف والضلالة. ثم كبر ربك تكبيرة تهتز منها الأرض والسماء لكي يسمع الجميع، الإنس منهم والجن كم هو كبير ربك.

يا أيها الخليل المتدثر في الليل بردائه... إن مهمة شاقة مثل مهمة النبوة في انتظارك... قم واعبد ربك... فأنت في حاجة إلى أن تشحن من قبل ربك، لأن بانتظارك وظائف كبيرة عليك أن تنجزها. فكل ما يذكر لك يجب أن تبلغه للناس، ولا يمكنك القيام بمثل هذه المهمة الصعبة إلاّ بمعونة من ربك، ولا تتم هذه إلا بالعبودية له.

لقد أعلن كل نبي كما فعل نبينا ﷺ أنه جاء للتبليغ دون أن ينتظر أجراً من أحد، ودون أن يتعلق قلبه بأي شيء أو يرتبط بأي شخص أو يمد عينيه لأي متاع أو يفقد نقاء بصره وصفاء بصيرته. لقد استمر في مد الإنسانية بالوحي الإلهي. ولولا قيامهم بتبليغ الرسالات النورانية لبقيت الإنسانية في ظلام بهيم ولما كان هناك فرق يذكر بينهم وبين الأنعام.

وقَدَرُ ابن آدم متداخل مع بعثات الأنبياء تداخلاً كبيراً، فلا تسأل أي أمة عن بعض أفعالها إن لم يبعث فيهم نبي. ولكن إن جاءها نبي وعاندت في التصديق به ولم يصيخوا سمعهم له فلا شك في كونهم محاسبين، فالقرآن الكريم يعلن البيان الإلهي ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥).

وبيان آخر: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص:٥٩).

فالله تعالى أولا يرسل الأنبياء، فإن أصر الإنسان على الإنكار رغم قيام الأنبياء بأداء مهمة التبليغ، عند ذلك يستحق العذاب من قبل الله تعالى.

وهذا وارد في كل دور وفي كل عهد. فإذا كان الله تعالى معذباً بعض الناس الحاليين فهذا مرتبط بمدى قيام المؤمنين -أو عدم قيامهم- بمهمة التبليغ على وجهها الأتم. فمن استمر في عناده وتمرده رغم وصول التبليغ إليه فإنه يكون مستحقاً للعذاب.

ولهذا السبب قام الأنبياء باستخدام كل أساليب الدعوة وطرق التبليغ دون كلل ولا ملل. فنوح عليه السلام يقول بلسان القرآن: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۞ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (نوح:٥-١٠). يقول النبي نوح عليه السلام: يا رب إنني دعوت قومي ليلاً ونهارًا ودققت أبوابهم. فما زادتهم دعوتي لهم إلا ابتعادًا عني وفرارًا مني... تمردوا فلم يصيخوا سمعهم لي. وحتى لا يسمعوني اخترعوا طرقًا عديدة... فتارةً يسدون آذانهم، وتارة يغطون رؤوسهم بملابسهم ويمرون وكأنهم لا يرونني.

التبليغ عند رسولنا ﷺ

أ- أسس مهمة في دعوته ﷺ

إن هناك أسسا مهمة في الدعوة والتبليغ، وقد ذكرنا بعضا منها، والآن نسترجع ذكرها باختصار لنضيف إليها أخرى.

الأول: الفطنة في الدعوة والتبليغ، وتستطيع أن تسمي هذه الفطنة بـ"منطق النبوة".

الثاني: التمثيل الجيد للدعوة إذ يجب أن يعيش صاحب الدعوة دعوته في جميع مظاهر حياته. وقبل أن يدعو الآخرين إلى دعوته عليه أن يطبقها على نفسه ويعيش دعوته أولا.

الثالث: أن تكون النتيجة المبتغاة من الدعوة رضا الله تعالى وحده، فلا يجب أن تكون لدعوته غاية غير هذا ولو الجنة. وهذا يعني التضحية بجميع الفيوضات والمنافع المادية منها والمعنوية.

١) الفطنة الداخلية

هناك جانب الفطنة في دعوة رسول الله ﷺ. والفطنة هنا ليس مجرد منطق بارد. بل منطق يمتد من الظاهر إلى الباطن ومن الدنيا إلى الآخرة. فكما أن للإنسان جانبًا منطقيًا، فله كذلك جانب عاطفي. والذين يخاطبونه من جانبه العاطفي قد يفشلون عند وجود ثغرة في جانبه المنطقي. بينما كان الرسول ﷺ يخاطب الحواس والمنطق والحدس في آن واحد. فلا يهمل الأشياء المادية المرئية عند تناوله للإنسان، بل يجعلها ممرًا للنفوذ إلى روحه. وهو

يستعمل العقل ويدعو إلى استعماله ويهتم باستعمال المنطق والمحاكمات العقلية ويخاطب الضمائر عن طريقها. فكل من سمع صوته في وجدانه وصل إلى الحقيقة أسرع ممن يخاطب الوجدان وحده. فالفلاسفة من أمثال "باسكال" و"بِرغسون" وغيرهم من الذين أرادوا الوصول إلى الله عن طريق الحدس (Intuition) مكانهم وراء التلاميذ الذين رباهم رسول الله ﷺ بمراحل بعيدة برغم أن المفروض أن يكون هذا الميدان ميدانهم. أما في ساحة الفضيلة والخُلق العام فلا يمكن أن نضعهم حتى بجانب أقل مؤمن.

وكما لا يمكن الوصول إلى الرسول محمد ﷺ في أي ساحة وفي أي ميدان، فإننا نرى هذا الأمر ساريًا في موضوع الفطنة أيضاً. فقد غلب خصومه بثاقب بصره، وجعلهم يستسلمون له. فمثلاً نراه يرفع أصبعه مشيرًا إلى الأصنام وقائلاً: ماذا تأملون من هذه الأحجار والأخشاب والتراب..؟ وبعد أن يخاطب عقل محدِّثه يأخذ بيده ليقربه إلى القلب أيضًا بطريقة خارقة غير اعتيادية وأحياناً بمعجزة، ثم يجعله يتقدم خطوة أخرى وينصبغ باطمئنان الإيمان ويذوق حلاوته حتى يصبح شخصًا آخر هَمُّه الحياة الأخرى.

لنأخذ مثلاً السيرة الروحية لعمر بن الخطاب ﷺ فقد قال له ﷺ إنه لا يعلم كيف أن شخصًا عاقلاً مثله يبقى بعيدًا عن الهداية، ولا يعلم ماذا ينتظر من الأحجار والأوثان.

فهو أولاً يمدح عمر بهذه الأقوال، ثم إنه يقول كلامًا يحترم المنطق؛ وبذلك أخذ عمر في راحة يده، ثم نفذ إلى قلب عمر ﷺ بأسلوبه الهادئ الذي يبعث الأمن والطمأنينة والثقة، وفي المرحلة الثالثة استطاع بعبوديته العميقة أن يجعل عمر الذي كان جبارًا في الجاهلية يجلس بين يديه جلسة تلميذ مؤدب أمام أستاذه الكبير.

نقدم مثالاً ملموسًا قبل الانتقال إلى الأسس الأخرى:

جاء شاب إلى رسول الله ﷺ. والصحابة لا يذكرون اسم هذا الشاب، ولكن إن قمنا بجمع الروايات وتوحيدها نعلم أنه جُليبيب ﷺ وقال له: ائْذَنْ لي يا رسول الله بالزنا. لننقل الرواية كاملة: عن أبي أمامة قال: إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائْذَنْ لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه» فدنا منه قريبًا قال فجلس:

قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحبه لابنتك؟»

قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم.» قال: «أفتحبه لأختك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» قال: «أفتحبه لعمتك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال: «أفتحبه لخالتك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم.»

قال: فوضع يده عليه وقال: «اللّهم اغفرْ ذنبَه وطَهِّرْ قلبَه وحَصِّنْ فَرْجَه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلي شيء.[1]

لقد استطاع رسول الله ﷺ بهذا الحوار المنطقي مع الشاب أن يجعله بين راحتي يديه يوجهه الوجهة التي يريدها. ثم وضع يده على صدره داعيًا «اللّهم اغفرْ ذنبَه وطَهِّرْ قلبَه وحَصِّنْ فَرْجَه.» فأصبح جُليبيب بعد هذا الدعاء مثال العفة. ولم يرض أحد أن يزوج جليبيبا ابنته، لأن حياته الماضية كانت معروفة لديهم. وهنا تدخل رسول الله ﷺ وزوج جُليبيبًا.[2] ثم استشهد ﷺ في أول معركة اشترك فيها بعد زواجه. وعندما انتهت المعركة سأل رسول الله ﷺ.

«هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلانًا وفلانًا وفلانًا. ثم قال «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلانًا وفلانًا. ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. قال «ولكني أفقد جُليبيبًا. فاطلبوه» فطلب في القتلى. فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتى النبيّ ﷺ فوقف عليه فقال: «قتل سبعة، ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه.»[3]

نعم! لقد استطاع الرسول ﷺ بفطنته أن يخلص شابا على حافة الزنا من الآثام، ثم رفعه إلى مثل هذه المرتبة السامية في أقصر وقت ممكن. إن هذا لأمر تحتار له العقول!

هب لو أن علماء التربية وعلماء النفس جميعا اجتمعوا وذهبوا إلى شبه جزيرة العرب هل يستطيعون تحقيق التربية والخلق الرفيع الذي حققه رسول الله ﷺ في مثل هذا الزمن القصير..؟ كلا! لن يستطيعوا ذلك. إنهم لن يفشلوا فقط في تحقيق تلك التربية العالية والخلق الرفيع، بل لن يستطيعوا تحقيق مبدإ واحد أو مبدأين فقط من منظومة هذه التربية... وهذا هو ما يشير إليه الواقع العملي.

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٢٥٦/٥-٢٥٧.

[2] المسند للإمام أحمد، ٤٢٢/٤.

[3] مسلم، فضائل الصحابة ١٣١؛ المسند للإمام أحمد، ١٣٦/٢، ٤٢٢/٤، ٤٢٥.

ولقد عاش رسول الله ﷺ في عهد فشت فيه الأخلاق الذميمة من كل نوع حتى أصبحت طبيعة في النفوس، ولم يكتف رسول الله ﷺ باقتلاع هذه الأخلاق السيئة من النفوس بل زينها بأحلى الأخلاق وأجمل الفضائل، فلم تشاهد البشرية مثل هذه الأخلاق قط ولن تشاهد بعدهم أبدًا. والتاريخ الإسلامي شاهد صدق على هذا بما يحويه من آلاف الأمثلة. ولعل فشل الجهود المبذولة الآن لمكافحة بعض العادات السيئة يعد شاهدا آخر على ذلك. فعلى سبيل المثال تقوم الدول حاليًا بتسخير كل أجهزتها لمكافحة عادة التدخين، ومن ثم نرى الوزارت تشمر عن سواعد الجد، ويقوم المئات من العلماء بعقد الندوات لهذا الغرض وتخرج المطابع سيلاً من الكتب في مضار التدخين وتعلق الدعايات والإعلانات والشعارات... الخ. ولكن ماذا كانت النتيجة..؟ لا شيء.

ولكن لنتأمل الجماعة التي قام رسول الله ﷺ بتربيتها وكيف كانت أقواله تجد طريقها السريع في التطبيق العملي. وإليكم مثالاً واحدًا.

يقول أنس ﷺ: فإني لَقائم أسقي أبا طلحة وفلانًا وفلانًا إذ جاء رجل فقال: وهل بَلَغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال حُرِّمت الخمر. قالوا: أَهرِقْ هذه القِلال يا أنس. قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل.[1]

نعم! لقد فعل كل هذا، والذين لا يرغبون أن يروا هذا نقول لهم ونحن نشير إلى شبه الجزيرة العربية: "إذا أردتم أن تفعلوا شيئا فاعملوا واحدًا من المليون مما عمله رسول الله ﷺ هناك..." ولن يستطيعوا ذلك أبدًا.

٢) تطبيق الدعوة على النفس أولاً

أحد الأساليب الديناميكية التي استعملها النبي ﷺ في دعوته، هو جعل طراز حياته مطابقًا تمامًا للمقام الذي يمثله. وتمثيله الحق لِما كان يقوله ويدعو إليه كان صادقًا إلى درجة أن من يشاهده ويراه كان يؤمن بالله تعالى من غير حاجة إلى دليل آخر، حتى أن رؤيته مرة واحدة كانت كافية للإيمان بأنه رسول من عند الله.

يقول عبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة   لكان منظره ينبئك بالخبر[2]

---

[1] البخاري، المظالم، ٢١، تفسير سورة المائدة ١٠؛ مسلم، الأشربة، ٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢١٧/٣.

[2] الرسول لسعيد حوى، ١١٩/١؛ وانظر لرواية أخرى إلى: الإصابة لابن حجر، ٣٠٧/٢.

إن الذين آمنوا به ووهبوا قلوبهم له والذين خاطبوه بـ"يا رسول الله" كانوا هم الذين حكموا العالم وأداروه من بعده. فلم يكن نجاحه محصوراً في إيمان نفر قليل به. فمن بين هؤلاء الذين آمنوا به نجد أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا ﷺ أجمعين، إذ كان كل واحد منهم شخصية كبيرة تستطيع إدارة العالم بأجمعه؛ فما كان أي من هؤلاء من ذلك الطراز الذي يمكن أن يسلم قياده بسهولة لكل من يظهر أمامه. فلو كان أمامهم أحد سوى رسول الله ﷺ ما كان أي منهم ليؤمن به أو يسلس قياده له. إن شخصا في مستوى علي بن أبي طالب ﷺ الذي يقول: "لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقينًا."[١] والذي وصل في إيمانه إلى مستوى "حق اليقين"، أقول إن إيمان مثل هذا الشخص بالنبي ﷺ يعد دليلاً قائمًا بحد ذاته.

لقد كانت كل أحواله مؤثرة وساحرة بلغت أن العالم اليهودي عبد الله بن سلام ما إن رآه للمرة الأولى حتى قال: "فلما تبيَّنْتُ وجهَه عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب."[٢]

أجل، لقد كانت رؤيته كافية للإيمان به. والذين أفنوا حياتهم كلها من أجل إيصال صوتهم وآرائهم للآخرين يعلمون مدى صعوبة هذا الأمر أكثر من غيرهم، أي الإيمان بهم من أول لقاء. لأن معظم هؤلاء يقضون حياتهم كلها في جهد متواصل فلا ينجحون إلا في جذب أشخاص بعدد أصابع اليدين. بينما انظروا إلى رسول الله ﷺ، فهل ترون مثيلاً له أو شخصًا آخر يتربع في قلوب ما يقارب مليار شخص؟ وهل هناك شخص آخر غيره يذكر اسمه خمس مرات في اليوم من فوق المآذن في كل أنحاء العالم..؟ إذن، فالإنسانية تحبه وتعلن هذا الحب كل يوم خمس مرات، هذا على الرغم من كل النظم والأشخاص العاملين ضده.

أجل، فعلى الرغم من كل شيء فما يزال الرسول محمد ﷺ متربعًا على عرش القلوب؛ لأنه طبق على نفسه أولاً ما دعا الناس إليه، وعاش مثالاً حيًا للمبادئ التي دعا إليها، لذا كانت كلماته تنفذ إلى أعماق الجماهير وتجد طريقها للتطبيق العملي.

لقد كان يمثل في نفسه أجمل أنموذج للعبودية لله عندما كان يدعو الناس إلى هذه العبودية. تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتصف مبيت رسول الله ﷺ عندها فتقول ثم قال: «ذريني أتعبَّد لربي.» قالت فقلت: والله إني لأحب قربك وإني أحب أن تَعَبَّدَ لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد

---

[١] الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص١٩٣.

[٢] الترمذي، القيامة ٤٢؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٧٤، الأطعمة ١؛ الدارمي، الصلاة ١٥٦، الاستئذان، ٤٤ السيرة النبوية لابن هشام، ١٦٣/٢-١٦٤.

فبكى حتى بلَّ الأرض. ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذَنبَكَ ما تقدم منه وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أُنزِلَ عليّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران:١٩٠).» ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها.»[1]

كان يصلي حتى تتورم قدماه. وعندما ذكر له يومًا أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟.»[2] لقد فتحت أمامه أبواب الشكر فكان جهده من أجل ذلك.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسستُ[3] ثم رجعت. فإذا هو راكع أو ساجد يقول «سبحانك وبحمدك لاَ إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي. إني لفي شأن[4] وإنك لفي شأن آخر.

وفي رواية أخرى قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعتْ يدي على بطن قدميه وهو في المسجد[5] وهما منصوبتان وهو يقول: «اللّٰهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.»[6]

لو شاء لعاش عيشة رخية وهينة مثل عيشة الملوك. ولقد اقترحوا عليه في مكة مثل هذا العيش في مقابل التخلي عن دعوته، غير أنه فَضّل حياة الضنك والشدة على حياة الرفاهية والغِنى، وذلك في سبيل دعوته.[7] فَضَّلَ حياة العبد الرسول الذي يجوع فيتضرع أو يشبع فيشكر على حياة المَلِك الرسول.[8] لقد كان أسلوب حياته البسيطة الخشنة هو الذي ربط الناس به.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يعيش أيضاً حياة بسيطة جدًّا، غير أن ما شاهده من طراز حياة الرسول ﷺ جعل الدموع تملأ عينيه. يقول عمر ﷺ:

وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حَشْوُها لِيفٌ وأنّ عند

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٦٤/٢؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩٧/٤.

[2] البخاري، التهجد، ٦؛ مسلم، صفات المنافقين ٨١.

[3] تحسست: أي تطلبته. (المترجم)

[4] إني لفي شأن: تعني أمر الغيرة. (المترجم)

[5] أي في السجود. (المترجم)

[6] مسلم، الصلاة ٢٢١، ٢٢٢؛ الترمذي، الدعوات ٧٥، ١١٢؛ النسائي، الطهارة، ١١٩، التطبيق، ٤٧؛ أبو داود، الصلاة ١٤٨، الوتر ٥؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة ١١٧، الدعاء، ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٩٦/١، ١١٨.

[7] السيرة النبوية لابن هشام، ٣١٣/١-٣١٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٨٠/٣.

[8] المسند للإمام أحمد، ٢٣١/٢؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٩/٩-٢٠.

رجليه قَرَظًا[1] مصبوبًا، وعند رأسه أَهَبٌ[2] معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت. فقال: «ما يبكيك؟» فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسولُ الله. فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[3]

صحيح أن زمام الدنيا يجب أن يكون بأيدينا، وقد كان رسول الله ﷺ يدرك هذا أكثر من غيره، ولكنه كان يعيش حياته الشخصية بشكل بسيط جدًا.. وفي الحقيقة إنه ما كان يعيش لنفسه بل لغيره. ألم يكن تمثيله لدعوته بهذه الكيفية من أكبر عوامل جذب الأرواح إليه؟

إن في حياة الرسول ﷺ وسلوكه وتصرفاته وطراز حياته دروسًا قيمة للدعاة. أجل، فإن الشرط الأساسي للنفوذ إلى القلوب هو تطبيق الدعوة ومبادئها على النفس أولاً وقبل كل شيء كما فعل ذلك رسول الله ﷺ.

إذا أردت أن تشرح لأحدهم معنى مخافة الله والبكاء من خشيته، فعليك أولاً أن تقوم في الليل وتبلل سجادتك بالدموع. في نهار تلك الليلة وعندما تدعو الناس ستتعجب من مدى تأثير كلامك عليهم، وإلا ستتلقى صفعة من الآية الكريمة ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ (الصف:٢) فتلاقيك الخيبة في التأثير على الناس.

٣) عدم انتظار الأجر

كان عدم انتظار أي أجر دنيوي أو أخروي مقابل القيام بمهمة الدعوة والتبليغ كما فعل ذلك رسول الله ﷺ دليلاً آخر على نبوته. لأن هذا من أخلاق النبوة. والدعاة الحقيقيون الذين جاءوا وسيجيئون من بعده هم الذين يتخلقون بهذا الخلق. والقرآن الكريم يأمرنا باتباع أمثال هؤلاء الذين لا يسألون أجرًا من أحد.[4]

لقد أنفق الرسول ﷺ ثروة السيدة خديجة رضي الله عنها في سبيل الدعوة، ولم يطلب من أحد لنفسه شيئًا. وهذا هو أبو بكر ﷺ من أقرب أصدقائه والذي كان يتهيأ لمرافقته في هجرته إلى المدينة، فأجر راحلة للنبي ﷺ، فأبى النبي ﷺ أن يركبها حتى يدفع ثمنها.[5] في تلكم الظروف القاسية التي لا يفكر الإنسان فيها إلا في شيء واحد، هو مطاردة الأعداء له

---

[1] قَرَظاً: ورق شجر يدبغ به. (المترجم)

[2] أَهَب: جمع إهاب وهو الجلد الذي لم يدبغ. (المترجم)

[3] البخاري، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ مسلم، الطلاق ٣١.

[4] انظر هذه الآية: ﴿اِتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس:٢١).

[5] البخاري، البيوع ٥٧، مناقب الأنصار ٤٥، اللباس ١٦؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٨/٦؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٢١٨/٣.

يفكر النبي ﷺ هكذا. ألا يدل ذلك على شدة تجرده وإخلاصه؟ إذ كيف يستطيع إنسان أن يفكّر في مثل هذا الأمر الثانوي في ذلك الوقت العصيب. إن هذه الحادثة درس جيد لدعاة هذا العصر، ينبغي عليهم أن يعوها جيدا.

عن أبي هريرة ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالسًا. فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالسًا فما أصابك؟ قال: «الجوع يا أبا هريرة.» فبكيت فقال: «لا تبكِ، فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب.»[1] كان الجوع ضجيعه الذي لم يتركه أبدًا.

عن أبي هريرة ﷺ: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر. فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما»[2] أجل، الجوع... لقد أنفق ثلاثتهم كل ما يملكون في سبيل الله ولم يبق عندهم ما يسدون به رمقهم، وعندما عضهم الجوع لم يستطيعوا النوم وخرجوا إلى طرق المدينة.

هذه هي السواعد القوية التي حملت عبء الدعوة والتبليغ آنذاك. والدعوة الآن تحتاج إلى مثل هذه السواعد القوية لحملها ونشرها بين الناس.

وهذه هي ابنته فاطمة رضي الله عنها التي قال عنها رسول الله ﷺ «فاطمة بَضْعَة مني فمن أغضبها أغضبني»[3] والتي كانت تقوم بأعمال البيت من نقل الماء وطحن الحبوب بنفسها إذ لم تكن لها خادمة تعينها على ذلك، حتى بدا الإرهاق عليها ووضح أثره في يديها وعلى كتفيها. وكان زوجها علي بن طالب ﷺ يأسى لهذا الأمر غير أنه لم يكن يملك شيئا حياله. ودامت هذه الحال طويلا، غير أنها لم تشتك، ذلك لأنها كانت تحمل خلق والدها، كما كانت أشبه الناس بوالدها في قيامها وقعودها ومشيتها.[4]

وعندما أصاب المسلمون في إحدى المعارك غنائم وأسرى، وجلبت هذه الغنائم والأسرى إلى المدينة، ذهب كل من له حاجة إلى الرسول ﷺ فأعطاه ما تيسر له، فأشار علي ﷺ على فاطمة أن تذهب وتسأل النبي ﷺ أن يعطيها خادمًا يعينها. ولنستمع إلى الحادثة من علي ﷺ وهو يروي أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى النبيَّ ﷺ سَبْيٌ، فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٠٩/٧؛ كنز العمال للهندي، ١٩٩/٧.

[2] مسلم، الأشربة، ١٤٠؛ الترمذي، الزهد ٣٩.

[3] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١٢، ١٦؛ مسلم، فضائل الصحابة ٩٣-٩٤.

[4] البخاري، المناقب ٢٥؛ مسلم، فضائل الصحابة ٩٨-٩٩.

فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبتُ لأقوم فقال: «على مكانكما.» فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري. وقال: «ألا أُعلِّمكما خيرًا مما سألتماني، إذا أخذتما مضاجعكما تُكبّران ثلاثًا وثلاثين -وفي رواية أربعًا وثلاثين- وتُسبّحان ثلاثًا وثلاثين وتَحمدان ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم.»[١]

وها هو يرى يومًا عند فاطمة رضي الله عنها سلسلة من ذهب فيقول لها: «يا فاطمة! أيغُرُّكِ أن يقول الناس ابنة رسول الله وفي يدها سلسلة من نار»، فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها واشترت بثمنها غلامًا فأعتقته. فحُدّث بذلك فقال: «الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار.»[٢]

ومما تجدر ملاحظته في هذا الأساس الثالث أن رسول الله ﷺ إضافة إلى عدم انتظاره أي جزاء أو منفعة من أحد فإنه كان يتحمل مظاهر العدوان والأذى والخصومة من الآخرين. فكم من مرة حثَوْا على رأسه التراب فلم يسرع له سوى ابنته فاطمة. وكم من مرة دميت رجلاه من الأشواك التي كانوا يرمونها على طريقه. وفي إحدى المرات كان يصلي في الكعبة فتَجَمَّع عليه بعض المشركين وأراد أحدهم أن يخنقه بردائه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم.[٣]

ولم تثن هذه الأفعال رسول الله ﷺ عن دعوته، لذا نراه يقول لابنته زينب وهي تبكي من أذى المشركين لوالدها: «يا بنية! لا تخشي على أبيكِ غِيلةً ولا ذِلَّة...»[٤] ولم يضيعه الله ولم يذله، بل جعل حبه أبديًا في قلوب الملايين من أتباعه.

وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر نورد هنا كلمات حول الدعوة والتبليغ. لقد حاولنا حتى الآن أن نشرح أن الدعوة هي غاية وجود الأنبياء ووجود نبينا، فما خلقوا إلا للدعوة والتبليغ. أما نحن فعند قيامنا بهذه المهمة مهمة الدعوة والتبليغ فإننا نقوم بها كوظيفة معينة ومهمة يجب تنفيذها ومسؤولية ينبغي أداؤها، ولكن الأنبياء يقومون بها لأنهم خلقوا لأجلها، فهي بذلك غاية وجودهم.

كما أننا عندما قمنا بتحليل هذا الموضوع حاولنا بيان كيفية أن الرسالة التي جاء بها رسول الله ﷺ مكتوب عليها "محمد رسول الله". كما قمنا ببيان الطرق والأساليب التي اتبعها

---

[١] البخاري، فضائل أصحاب النبي ٩.
[٢] النسائي، الزينة ٣٩؛ المسند للإمام أحمد، ٢٧٨/٥.
[٣] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١٥ المسند للإمام أحمد، ٢٠٤/٢.
[٤] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢١/٦.

في تبليغ رسالته هذه، وكيف أن هذه الأساليب دليل قائم بذاته حول نبوته ورسالته، وأشرنا إلى الطرق السليمة التي لا يتيه ولا يضل فيها الدعاة. فنحن على يقين تام بأنه إذا أريد النجاح الدائم الباقي فليس أمامنا إلا اتباع الطرق والأساليب التي اتبعها النبي ﷺ. وقد أثبتت آلاف من الحوادث استحالة النجاح والتوفيق بالطرق الأخرى. لذا، فإننا نؤكد مرة أخرى بأن على الدعاة الذين يريدون أن يكونوا هداة ومرشدين للناس أن يتبعوا الرسول محمدًا ﷺ. فهو المرشد الحقيقي. والطريق الذي خطه هو طريق الهداية الرشيدة، ذلك لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

بـــ كان ﷺ مفطورًا على التبليغ

لقد كان التبليغ لدى سيد المرسلين فطرة وسجية. كانت نفسه تضيق عندما لا يجد قلبًا طاهرًا يبلّغه دعوته، مثلما نضيق نحن إن حُرِمنا من الأكل والشرب أو عندما نحرم من تنفس الهواء. والحقيقة أنه ما كان يهتم بالأكل والشرب فقد كان يصوم أحيانًا صومًا متواصلاً.[1] وكان يأكل أحيانًا ما يكفي لسد رمقه فقط وإبقائه حيا.[2] فقد كان قلبه المفعم بآلام دعوته لم يدع لديه شهية للأكل. فكما تعيش الملائكة بالتسبيح كان رسولنا ﷺ يعيش بالدعوة. وعندما يجد أمامه صدرًا رحبًا وطاهرًا يفرح وينشط. والقرآن الكريم يصف وضعه هذا فيقول: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣). وفي آية أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦).

أجل، فلو رأى إنسانًا متمردًا على الله لا يسجد له، لتغلغل الألم في أعماق نفسه، وكان هذا الإنسان مبعث حزن عميق له. فكل إنسان خلا قلبه من الإيمان كان مصدر حزن عاصف في قلبه. وقد كان هذا مستقرًا في أعماق روحه، وعندما بعث نبيًا ازداد عمقا.

ومع التسليم بكل أوامر الدين وتعليماته وسننه، نسمع هذا الجواب المليء بالمعاني من أحد تلاميذ الرسول ﷺ ممن حمَلوا آلام الأمة الإسلامية وآمالها في هذا العصر،[3] إذ قال لمن سأله عن سبب عدم زواجه:

"إنني من كثرة تفكيري وانشغالي بآلام الأمة الإسلامية ومشاكلها لم أجد متسعًا من

---

[1] البخاري، الصوم ٢٠؛ مسلم، الصيام ٥٦.

[2] البخاري، الأطعمة ٢٣، الرقاق ١٧؛ مسلم، زهد ٢٠، ٢٦.

[3] المقصود هو الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. (المترجم)

الوقت ولا فرصة للتفكير في الزواج." أجل، فهذا هو حال الأنبياء وورثة الأنبياء. وأنا أعتقد أن العالم بأسره ينتظر مثل هؤلاء الأشخاص الملتهبة قلوبهم بآلام الدعوة ومشاكلها.

وما دمنا وصلنا إلى هنا في هذا الموضوع، فإني أود ذكر مثال طالما كررته، لأن هذا المثال يكسب موضوعنا بُعدا آخر. فقد سكن أحد أصدقائنا الأطهار في إحدى الشقق في ألمانيا، واستطاع بروحه الطاهرة وبسلوكه النظيف -وبعون من الله تعالى- التأثير في نفوس أصحاب البيت وأصبح وسيلة لهدايتهم، فأسلم الأب أولاً ثم تبعته الزوجة ثم الأولاد وأصبح ذلك البيت قطعة من الجنة بالجو الذي أصبح سائدًا فيه. وفي أحد الأيام بينما كان صاحب البيت جالسًا مع هذا الصديق يتسامران إذ قال له صاحب البيت الذي بدأت أحاسيس الهداية ومشاعرها تهبّ على قلبه فتملأه سعادة:

"يا صديقي..! إنني أحبك... أحبك إلى درجة أتمنى معها أن أفتح قلبي وأضعك فيه، ذلك لأنك كنت وسيلة لهدايتي، وأكسبتني أنا وعائلتي حياة أبدية. ولكني غاضب منك في الوقت نفسه غضبًا شديدًا إلى درجة أنني أود لو أقوم فأضربك ضربًا مبرحا، وقد تسأل: لماذا؟ سأشرح لك الأمر، فقَبل مجيئك بوقت قصير توفي والدي، مع أنه كان لائقًا لأن يكون مسلمًا أكثر منا. كان يملك روحًا صافيةً وعاش حياة نظيفة، فلو أتيت إلى هنا قبل وفاته لكنت وسيلة لهدايته، لذا فإنني غاضب منك غضبًا شديدًا لتأخرك في المجيء."

إن هذا العتاب يبدو مثل أنين من أوروبا... بل من الدنيا كلها... وأنا أخشى جدًّا من أن أُجَرَّ من ناصيتي وأحاسب على هذا... ذلك لأنني لم أستطع تبليغ رسالة الإسلام لهم بالمستوى اللائق.

جـــ- الحرص في تبليغ الدعوة

كان الرسول ﷺ حريصًا أشد الحرص في دعوته، إذ كان لا يريد أن يبقى شخص واحدلم تصل إليه دعوة الحق والحقيقة، لذا كان شديد الحرص في تبليغ الناس ودعوتهم بالأسلوب الصحيح والمناسب. فانظروا مثلاً إليه وهو واقف على رأس عمه أبي طالب وهو على فراش الموت يعيش دقائقه الأخيرة.

لقد قام أبو طالب برعاية رسول الله ﷺ وحمايته مدة تقارب أربعين عامًا. وعندما قام النبي ﷺ بإعلان نبوته وجد مشركو مكة أبا طالب سدًّا بينهم وبينه لا يمكن اختراقه. وما كانوا يستطيعون الوصول إلى الرسول ﷺ إلا على جثة أبي طالب.

لقد رضي أبو طالب أن يتجرع كل الآلام ويتحمل جميع المصاعب والشدائد في سبيل

حماية رسول الله ﷺ، وعلى رغم فقره وعمره المتقدم إلا أنه قد اضطر لتحمل مشاق الحصار والمقاطعة التي أعلنها مشركو قريش والتي استمرت ثلاث سنوات.

والآن أبو طالب متمدد على فراش الموت ورسول الله ﷺ واقف على رأسه يقول له كلما سنحت الفرصة: «أي عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله» غير أن أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية حالوا دون هداية أبي طالب وخلاصه، وقالا له: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ ولم يزالا يكلماه حتى قال آخِر ما كلَّمهم به: على ملة عبد المطلب... فقال رسول الله ﷺ: «لأستغفرَنَّ لك مالم أُنهَ عنك.»[1] فنزلت آية منعته من الاستغفار له حيث ذكرت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة:١١٣).

لقد كان أبو بكر ﷺ أكثر الناس معرفة بمدى رغبة الرسول ﷺ في هداية أبي طالب. فبعد فتح مكة جاء بوالده الشيخ أبي قُحافة إلى رسول الله ﷺ ليصافحه معلنًا إسلامه، يقول ابن عباس ﷺ:

جاء أبو بكر بأبي قُحافة وهو شيخ قد عمي فقال رسول الله ﷺ: «ألاَ تركتَ الشيخَ حتى آتيه.» قال: "أردتُ أن يأجره الله، والذي بعثك بالحق لأنا كنتُ أشدَّ فرحاً بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي ألتمس بذلك قرة عينك."[2]

وكما كان الرسول ﷺ يرغب في هداية عمه أبي طالب، فإنه كان يرغب أيضاً في هداية "وحشي" قاتل عمه حمزة ﷺ. والتاريخ حفظ لنا قصة هذا الموضوع.

١) دعوة وحشي ﷺ

عن ابن عباس بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام. فأرسل إليه: "يا محمد! كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة." فأنزل الله ﷻ: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّآتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان:٧٠). فقال وحشي يا محمد هذا شرط شديد إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فلعلِّي لا أقدر على هذا. فأنزل الله ﷻ ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ

---

[1] البخاري، الجنائز ٨٠؛ مسلم، الإيمان ٢٤؛ النسائي، الجنائز ١٠٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٥٣/٣.

[2] الإصابة لابن حجر، ١١٦/٤؛ المسند للإمام أحمد، ١٦٠/٣؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤٨/٤.

يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨). فقال وحشي: يا محمد، هذا أرى بعد مشيئة، فلا أدري يغفر لي أم لا، فهل غير هذا. فأنزل الله ﷻ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣). قال وحشي: هذا نعم فأسلم.[١]

وأصبح ضمن الصحابة الكرام الذين ما نذكر اسم أحدهم إلا ونكتب بعده ﷺ. غير أنه كان قاتل حمزة ﷺ، ولم يكن في مقدوره ولا في مقدور أحد غيره أن ينسى هذا. صحيح أنه لن يحاسب على هذا يوم القيامة، ذلك لأنه عندما ارتكب تلك الجريمة لم يكن مسلمًا والإسلام يجُبُّ ما قبله، فذنوبه السابقة مغفورة له...[٢] ومن ثم فقد كان محظوظًا من تلك الناحية... إلا أنه مع كل هذا كان قاتل حمزة ﷺ.

حمزة الذي كان بمثابة بطل خرافي يصيد الأسود ويبقر بطونها استسلم للنبي ﷺ وأعلن إسلامه، ولأنه رضع من نفس الثدي الذي رضع منه رسول الله ﷺ، فقد احتلّ مرتبة أخ له من الرضاعة[٣] وقد كان المسلمون يعيشون في خوف قبل إسلامه، فلما أسلم رنت جنبات جزيرة العرب بصوت المسلمين ودعوتهم. هذا هو حمزة الذي قتله "وحشي" في عهد جاهليته، إذ رماه في معركة أُحد برمح فأصابه في صدره، فوقع على الأرض وهو يرسم بجسده حرفْ "لا..." فمنذ إسلامه وهو يقول "لا" لكل شي ما عدا الله تعالى. بعد قليل شاهده رسول الله ﷺ وأحشاؤه مقطعة، فجلس عند رأسه وأجهش بالبكاء. بكى وذرف الدموع عليه. وها هو وحشي يمد يده الملطخة بدماء حمزة ﷺ إلى رسول الله ﷺ ويبايعه. ولتنظروا إلى مفهوم التبليغ والدعوة عند الرسول ﷺ فهو الآن يمسك بيد وحشي ويهنئه بإسلامه... بل هو الذي دعاه للإسلام.

وبعد إسلام وحشي وإيمانه قال رسول الله ﷺ «فهل تستطيع أن تغيّب وجهك عني» ذلك لأنه كلما رآه تذكر حمزة وتجددت آلامه فلا يستطيع أن يُظهِر له الرحمة الواجبة على النبي إظهارها لأصحابه فيكون نكد الحظ ويكون النبي ﷺ غير قائم بواجبه.

ومثل أي صحابي آخر انقاد وحشي لتوصية الرسول ﷺ وأمره ولم يخالفه فحاول ألا يظهر أمامه وأن يكون بعيدًا عنه. ولكنه في الوقت نفسه كان ينتظر كل دقيقة بل كل ثانية

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٧/-١٠١.

[٢] انظر الحديث: "إن الإسلام يَجُبّ ما كان قبله". (المسند للإمام أحمد، ١٩٩/٤).

[٣] الإصابة لابن حجر، ٣٥٣/١؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٥١/٢.

دعوة ثانية من رسول الله ﷺ... كان يقف وراء سارية وينظر إلى النبي ﷺ ويحاول أن يتصيد نظراته... ألا يأتي يوم يقول لي فيه: "آن لك أن تظهر أمامي."

وبينما كان ينتظر هذا اليوم السعيد فوجئ بالخبر المذهل... لقد توفي رسول الله ﷺ وفارقنا... كان خبرًا صاعقًا له... إذن، فلم يبق هناك أمل أن يدعوه أحد.

مضت أيام ووحشي بعد ذلك في التكفير عن خطاياه السابقة، إلى أن اشتعلت حرب اليمامة فأسرع والتحق بجيش خالد بن الوليد الذي أرسل إلى اليمامة. كانت هذه فرصة له يجب ألا يضيعها. فقد سبق له وأن تورط في إثم قتل أحد أبطال الإسلام الكبار، ومع أن ذنبه قد غفر له، إلا أن ضميره كان يضطرم بنار ذلك الإثم. والآن سنحت له فرصة كبيرة وهي قتل مسيلمة الكذّاب أعدى أعداء الإسلام. أخذ وحشي معه ذلك الرمح الصديء الذي قتل به حمزة ﷺ واشترك في معركة اليمامة. استمرت الحرب عدة أيام... وكانت حرباً ضروساً.

وعندما بدت أمارات الهزيمة حاول مسيلمة الكذاب الخروج والهروب من القلعة فلمحه أحد الحراس من الصحابة الكرام فصاح بوحشي: ها هو عدو الله.

وما إن سمع وحشي هذا حتى هز رمحه الصديء وأرسله إلى صدر مسيلمة الكذاب - كما كان قد أرسله من قبل إلى صدر حمزة ﷺ- فاخترق الرمح صدر مسيلمة فهوى على الأرض من فوق فرسه صريعاً. ما إن رأى وحشي هذا حتى انكب على الأرض يسجد شكرًا لله.[1] وانهمرت الدموع من عينيه، لقدكان وكأنه يخاطب روح رسول الله ﷺ ويقول له: أأستطيع أن آتي الآن يا رسول الله..؟

نحن لا نعلم بماذا أجابه رسول الله، ولكن من المحتمل أن روحانية الرسول ﷺ التي حضرت إلى معركة اليمامة قد رقت لدعاء وحشي وانكساره وباركته لرجولته وشجاعته وقالت له: "تستطيع من الآن فصاعدًا أن تظهر لي" هذا ما لا نعرفه، لأنها قضية بُعد آخر، ولكن غايتنا من سرد هذه الحادثة هي شرح ماهية الدعوة والتبليغ عند رسول الله ﷺ.

أجل، فنحن نرى هنا شفقته ورحمته لقاتل بطل كبير وحبيب أثير لديه مثل عمه حمزة الذي كان يجله مثل والده ويحبه مثل أخيه. ولكي يدعو وحشي إلى الإسلام جرب طرقًا عديدة، واستطاع أن يجعل من مثل هذا الشخص صحابياً. فلو لم تكن الدعوة والتبليغ جارية منه مجرى الدم وموجودة في فطرته، وقطعة من روحه أفكان من الممكن مشاهدة مثل هذا الإصرار في دعوة شخص مثل وحشي للإسلام؟ كلا... ولكن إصراره وحرصه يدلان على أن الدعوة

[1] البخاري، المغازي ٢٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣/٥٠١؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٧٦-٧٧.

والتبليغ عند النبي ﷺ صفة من صفاته، لذا فلم يكن من الممكن أن يسلك إلا هذا الدرب.

٢) دعوة عكرمة رضي الله عنه

كانت عداوة عكرمة للإسلام أكثر من عداوة وحشي. إذ كان عدواً للإسلام نفسه، أي كانت عداوته عن سابق إرادة وتصميم. والبيت الذي نشأ فيه عكرمة كان بيت عداء للإسلام؛ وأفراده كلهم فطروا على عداوة الإسلام؛ فرب البيت كان أبو جهل، وقد سرى جهله إلى سائر أفراد البيت فأصبح مباءة للجهل وللظلام المعنوي، فمن أسلم من أفراده تعرض لأذى لا يوصف.

كان عكرمة في عدائه للإسلام وكأنه يتسابق مع والده، فما من أمر اشترك فيه والده ضد الإسلام إلا واشترك فيه عكرمة فقد أعماه الكفر والضلالة. ومع أن المسلمين فتحوا مكة وأسلم أهلها، إلا أن عكرمة بقي معاندًا في خصومته للإسلام وقاتل المسلمين بسيفه، ثم هرب إلى اليمن.

وكانت أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجتُه وبنتُ عمه امرأةً عاقلةً وكانت قد أسلمت، فذهبت إلى اليمن بدافع الوفاء لزوجها وأقنعته بالرجوع إلى بلده. ولكن عكرمة كان يستحي من مقابلة الرسول ﷺ، ذلك لأنه لم يدع خصومة إلا أبداها له، ولم يدع أذى إلا عمله. فإن كان المطلوب نثر الأشواك في طريقه كان هو في رأس القائمين بذلك. وإن كان المطلوب نثر التراب على رأسه ﷺ كان هو في مقدمة الناثرين. غير أن رسول الله ﷺ كما كان حريصًا على إسلام وحشي كان حريصًا على إسلام عكرمة. وعندما دخل عليه عكرمة رحب به النبي ﷺ قائلاً له: «مرحباً بالراكب المهاجر، مرحبًا بالراكب المهاجر. مرحبًا بالراكب المهاجر.» صحيح أن الهجرة انتهت بالمعنى الإسلامي بفتح مكة، إلا أن النبي ﷺ قال هذا إشارة إلى قدومه من بلد بعيد. كان هذا الترحيب كافيًا لإذابة جليد العداوة في قلب عكرمة. وبعد أن نطق بالشهادتين قال للنبي ﷺ وهو مطأطئ الرأس حياء: "يا رسول الله! استغفر لي كل عداوة عاديتكها أو موكب أوضعت فيه أريد فيه إظهار الشرك."

فرفع رسول الله ﷺ يديه بالدعاء: «اللّٰهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو موكب أوضع فيه يريد أن يَصُدّ عن سبيلك.» فما أن سمع عكرمة هذا الدعاء حتى استولى عليه انفعال شديد... إذ ما كان يتوقع مثل هذا الاستقبال وهذا الترحيب. فقال للنبي ﷺ وهو في أوج الانفعال:

"أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضِعفها

في سبيل الله، ولا قاتلت قتالاً في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله."

وبَرَّ عكرمة بوعده، وفي معركة اليرموك جاد بنفسه واستشهد فيها. اشترك عكرمة في معركة اليرموك مصاحبًا معه زوجته وأطفاله. وعندما جرح جرحًا بليغًا حملوه إلى خيمة. فبدأت زوجته وأطفاله يبكون فقال عكرمة لزوجته: "لا تبك! لن أموت قبل أن أرى النصر" كانت هذه إحدى كراماته... بعد قليل دخل الخيمة عمه الحارث بن هشام قائلاً: "أبشروا! لقد نصرَنا الله تعالى" فحمد عكرمة الله تعالى وقال قبل أن يجود بنفسه: ﴿تَوَفَّنِي مُسلِماً وَأَلْحِقنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف:١٠١).[1]

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على هداية الناس، فقد كان يمثل في الدعوة وفي التبليغ قمة لا يمكن بلوغها. إذ مد يده للآلاف ولمئات الآلاف ليقودهم إلى عالم النور والهداية، ولكنه لم يكن يعرف الاكتفاء، لذا نراه يمد يد الشفقة والرحمة حتى لألدّ أعدائه فيبرهن بذلك كيف أن صفة الدعوة والتبليغ لدى الأنبياء قمة سامقة وذروة شاهقة لا يمكن بلوغها.

د- همّ الدعوة يؤرّقه

ما عرفت عينا النبي ﷺ النوم المريح منذ إعلان نبوته، لأنه كان يشارك الإنسانية كلها آلامها ويشاطرها أحزانها، وهذا لا يصح إسناده إلا للنبي ﷺ الذي أنفق حياته كلها في الدعوة والتبليغ.

لقد كان يذهب في السنوات الأولى من مرحلة الدعوة في مكة من سوق إلى سوق ومن حارة إلى حارة، ليدعو الناس في الأسواق إلى الدين الحق. ويتعرض في هذا السبيل إلى صنوف الأذى، فقد يقذف بالحجارة أو يهال التراب على رأسه... وما كان يعبأ بذلك، بل كان يمضي قُدُمًا في سبيل دعوته. وبينما كانت الملائكة تستحي من النظر إلى وجهه المبارك، كان مشركو مكة الغلاظ لا يجدون غضاضة بالسخرية منه. وبينما كانت الغيوم تحجب عن وجهه حرارة الشمس أحيانًا كان الكفار يقابلونه بأحطّ أنواع الانتقاص.

فها هو عندما نزلت آية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) يجمع كافة أقربائه من أفخاذ وبطون القبائل ويقول لهم: «أرأيتم إنْ أخبرتكم أنّ خَيلاً تَخرج من سَفْح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقيّ؟» قالو ما جرّبنا عليك كذبا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.»

[1] أسد الغابة لابن الأثير، ٧٠/٤-٧٣؛ الإصابة لابن حجر، ٤٩٦/٢، ٤٩٧.

وعندما قال لهم هذا خيم الصمت على الجميع وبدوا وكأنهم قطع من حجارة، ولم يجيبوه بكلمة واحدة فانبرى أبو لهب يقول -ويا ليته ما تكلم- للنبي ﷺ: تبًّا لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟..[١] وانتهى الموقف على هذا وانصرف الجميع.

وقد أنفقت السيدة خديجة رضي الله عنها معظم ثروتها في المآدب التي كان النبي ﷺ يصنعها ويدعو لها أشراف مكة لكي تتيسر له فرصة تبليغهم ودعوتهم إلى دين الحق... ولكنها لم تأت بنتيجة.

يصف علي بن أبي طالب ﵁ مجلساً من هذه المجالس فيقول ما معناه: دعا رسول الله ﷺ أشراف مكة إلى بيته فأكلوا الطعام. ثم بدأ رسول الله ﷺ بالحديث فقال إنه رسول الله، وإنهم أقرب الناس إليه. لذا، يجب أن يكونوا عونًا له. وفي ختام كلامه قال:

«فأيّكم يبايعني على أن يكون أخي وصَاحبي؟» قال: فلم يقم إليه أحد قال: فقمت إليه، وكنت أصغر القوم، فقال: «اِجْلِسْ»، قال: ثلاث مرّات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: «اِجْلِسْ» حتى كان الثالثة ضرب بيده على يدي.[٢]

وهكذا مرت الأعوام ورسول الله ﷺ لا يعرف الكلل ولا الملل بل يستمر في دعوته وفي تبليغه، ولم يعره أقرباؤه أذنًا صاغية أبدًا. فبدأ بالبحث عمن يستجيب له من الناس البعداء عنه. غير أن العثور على أناس ذوي قلوب حية ليس بالشيء الهين. فقد رجموه بالحجارة في الطائف.[٣] وطرد من أكثر الخيام التي زارها في الأسواق المقامة.[٤] ولكن إصراره في الدعوة كان يجذبه إلى عالم المفاجآت. فقد ساقه القدر إلى العَقَبة حيث التقى ببعض الأشخاص الطاهرين. في العقبة الأولى تعرف على اثني عشر نفرًا، وزاد عدد هؤلاء في العقبة الثانية في السنة الثانية إلى بضع وسبعين نفرًا. فأبلغهم رسول الله ﷺ بعض الأمور، فإن كانوا مؤمنين به فعليهم الإيمان به ضمن هذه الشروط. وقبل هؤلاء كل ما قاله رسول الله ﷺ دون أي تردد. وهنا طلب العباس ﵁ منهم أن يفكروا مليًا قبل إعطاء القرار، إذ شرح لهم أن قبولهم هذا يعني أنهم يضعون أنفسهم في مواجهة العرب أجمع، فلم ينكص أحد على عقبيه، وبايعوا النبي ﷺ على أن يفدوه بأرواحهم، فأرسل معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم.[٥]

---

[١] البخاري، تفسير سورة (١١١) ؛١ مسلم، الإيمان ٣٥٥.
[٢] المسند للإمام أحمد، ١٥٩/١.
[٣] السيرة النبوية لابن هشام، ٦٠/٢.
[٤] السيرة النبوية لابن هشام، ٦٣/٢.
[٥] السيرة النبوية لابن هشام، ٧٣/٢.

كان مصعب ﷺ الابنَ الوحيد لأغنى عائلة في مكة، وكان في السابعة عشر من عمره عندما أسلم. كان هذا الفتى من قبل إذا مر من أزقة مكة لوحت له الفتيات بمناديلهن من النوافذ، فقد كان أنيق الملبس.[١] ولكنه ما إن دخل الإسلام حتى نبذته عائلته، وعندما ذهب إلي المدينة لم يكن يملك سوى ملابسه، وعاش هناك فقيرًا، حتى أنه عند استشهاده في معركة أُحد -وقد تقطعت أوصاله- لم يجدوا ما يكفنونه به ﷺ.[٢]

ما إن وصل هذا التلميذ الجليل -تلميذ رسول الله ﷺ- إلى المدنية حتى شرع في الدعوة والتبليغ، فلم يبق في المدينة باب لم يطرقه. وكان إخلاصه للدعوة وتفانيه في سبيلها يجعل كلامه يدخل إلى القلوب ويأسر الأرواح. فيسرع مستمعه للدخول إلى الإسلام ونبذ الكفر. لقد أحدث مجيئه إلي يثرب موجة شديدة وهزة قوية، فكأنه كان نبع نور صاف يتسرب إلى القلوب فيملكها.

أسكنه أسعد بن زُرَارَة ﷺ في بيته، ومع أن صلاة الجمعة لم تكن قد فرضت بعد، ولم يشرف النبي ﷺ يثرب بمجيئه بعد، إلا أن أسعد بن زُرَارَة ﷺ كان يجمع المؤمنين ويصلي بهم صلاة الجمعة.[٣]

ولم يبق في يثرب رجل ذو شأن إلا أتى إلى بيته واستمع إلى مصعب ﷺ. لقد كان بعضهم يأتي وهو محنق، ولكنه يغادر البيت وهو قرير النفس. كان سعد بن معاذ من بين هؤلاء، فقد أقسم مغضبًا أنه لن يسمح لأحد بإحداث الفتنة في يثرب بعدما حُدِّث أن مصعبًا يريد إحداث فتنة فيها. لذا شعر بأن عليه أن يقف في وجه هذه الفتنة ويخمدها. ودخل سعد إلى بيت مصعب ﷺ فرآه وهو يحدث بصوته العذب الرخيم. لم يملك نفسه سعد فقال كلاماً خشناً لمصعب ﷺ، فقال له ﷺ:

"أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإنْ كرهتَه عَزَلْنا عنك ما تكره."

فجلس سعد وقد سكن غضبه وبدأ يستمع إليه، وأحس بأنه ينتقل إلى عالم آخر لم يعهده من قبل... عالم ترفرف فيه أجنحة الملائكة. ولم يطل به الأمر فقد أسرع بنطق الشهادتين من أعماق قلبه ودخل في صفوف المسلمين.[٤]

---

[١] رجال حول الرسول لخالد محمد خالد، ص٣٩.
[٢] البخاري، الجنائز ٢٨.
[٣] السيرة النبوية لابن هشام، ٧٧/٢.
[٤] السيرة النبوية لابن هشام، ٧٩/٢.

وكما هز إسلام عمر بن الخطاب ﷺ مكة، كذلك هز إسلام سعد بن معاذ يثرب، فقد انتشر هذا الخبر المذهل فيها وفي القبائل المجاورة لها.

وهكذا فكما كان رسول الله ﷺ مشغولاً بنشر الدعوة، كان أصحابه المخلصون الصادقون يبذلون ما في طاقتهم لنشر الإسلام والحق في أحسن شكل وأجمل صورة. كان العالم كله في انتظار هؤلاء ليرفعوا المشاعل التي تضيء أرجاءه. ولم يكن إرسال مصعب إلى يثرب وطلحة إلى دومة الجندل والبراء وخالد -بعد سنوات- إلى اليمن إلا ثمرة الرغبة نفسها... رغبة تبليغ الدعوة ونشرها في العالم.

وإذا لم يوفق أحد هؤلاء الصحابة في دعوته في مكانه الذي أرسل إليه، كان رسول الله ﷺ يقوم بإرسال غيره ليحل محله. وكان هذا التغيير يأتي دائمًا بنتائج إيجابية. فمثلاً عندما أرسل خالد بن الوليد إلى اليمن لم يوفق خالد هناك توفيقًا يذكر، فأرسل علي بن أبي طالب ﷺ إلى هناك ونقل خالد بن الوليد ﷺ إلى "نَجْران" حيث يوجد فيها النصارى.

يخبرنا البراء بن عازب عن هذه الحادثة فيقول: إن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، ثم إن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب إلى أن يقول: فكنت فيمن عقب مع علي. فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ثم تقدم فصلى بنا عليّ ثم صَفَّنا صفًّا واحدًا ثم تقدم بين أيدينا قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعا.[1]

أجل، لقد وفق علي بن أبي طالب ﷺ في اليمن، ذلك لكونه يملك تاريخاً طويلاً مع رسول الله ﷺ ولأنه والد الحسن والحسين ﷺ ورئيس السلسلة الذهبية لجميع الأقطاب والمقربين والأولياء والأصفياء الذين سيظهرون حتى يوم القيامة. ولا يزال الحق والحقيقة حتى اليوم تحت أجنحة حمايتهم. فتح علي ﷺ قلوب أهل اليمن بكلماته التي كانت تذيب القلوب. وعندما تم فتح مكة جاء هؤلاء والتحقوا بالإسلام.[2]

هـ- الرسائل إلى رؤساء الدول

بينما كان رسول الله ﷺ يرسل أهل الكفاءات والقابليات إلى هنا وهناك للقيام بوظيفة إرشاد الناس إلى الإسلام كان يقوم بإرسال الرسائل إلى رؤساء وملوك الدول يدعوهم فيها إلى الإسلام، الذي هو الدين الحق. وكان هذا بُعدا آخر في مضمار الدعوة والتبليغ.

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ١٢١/٥.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ١٢٠/٥.

١) النجاشي

كان النجاشي حاكم الحبشة. لم يكن صحابيًا، لأنه لم ير الرسول ﷺ، ولكنه كان شخصًا كبير القدر، أرسل إليه رسول الله ﷺ رسالة بيد عمرو بن أمية جاء فيها:

«من محمد رسول الله إلى النجاشي أَصْحَمَة ملك الحبشة:

سلام عليك فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له.»[1]

في خطاب رسول الله ﷺ للنجاشي نرى أنه سلم عليه "سلام عليك" إذن، فقد كان يأمل منه خيرًا وكأنه كان يرى بعين الغيب أنه سيهتدي. ثم إن الأسلوب الذي استعمله الرسول ﷺ أسلوب رائع جدًّا، إذ نراه يتناول موضوع خطاب النجاشي من زاوية مريم عليها السلام لأنه يعرف مدى توقير النجاشي وحبه لها. ونحن أيضًا نوقر مريم عليها السلام لأنها ولدت نبيًا كريماً وكانت مظهرًا للإلهام الإلهي.

والشيء الذي يلفت النظر أن النجاشي كان نصرانيا، لذا عندما خاطبه الرسول ﷺ ذكر الآيات القرآنية المتعلقة بالمسيح عليه السلام. فكان هذا أسلم طريق وأفضله للدخول إلى قلب النجاشي... وهكذا كان.

عند ورود الرسالة نزل النجاشي من عرشه. أخذ الرسالة وقبلها ووضعها على رأسه، وبعد قراءتها أعلن إسلامه وأمر كاتبه بكتابة الجواب في هذه الرسالة:

"إلى محمد رسول الله من النجاشي: أشهد أنك رسول الله... فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئتَ أن آتيك فعلتُ. يا رسول الله، فإني أشهد أنما تقول حق."[2]

كان النجاشي مؤمناً واعياً، فقد قال لأحد خلصائه يوماً: "ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه."[3] بعد مرور فترة من الزمن قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو يدخل المسجد: «إن أخاً لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه.»[4]

وقد اختلف الفقهاء في موضوع صلاة الغائب، فأصحاب المذاهب -عدا مذهب أبي

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٤/٣.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٥/٣.

[3] دلائل النبوة للبيهقي، ٣٠٠/٢.

[4] مسلم، الجنائز ٦٦-٦٧؛ البخاري، الجنائز ٤، ٦٥.

حنيفة- يجوزون هذه الصلاة. ويقول علماء المذهب الحنفي بأن تابوت النجاشي حضر أمام رسول الله ﷺ بمعجزة إلهية وأنه صلى صلاة الحاضر. وهذا موضوع فقهي لا نريد الدخول في تفاصيله هنا.[١]

٢) هرقل

أرسل الرسول ﷺ رسالته الثانية إلى هرقل إمبراطور الروم بيد دِحْيَة الْكَلْبِي، وكانت الرسالة تقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإني أدعوك بِدِعاية الإسلام، أسلِمْ تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).»[٢]

أثرت كلمات هذه الرسالة على هرقل، وكان أبو سفيان موجودًا آنذاك في بلده. وجرى الحوار التالي بينه وبين أبي سفيان:

- كيف نسبه فيكم؟
- هو فينا ذو نسب
- فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟
- لا
- فهل كان من آبائه من ملك؟
- لا
- فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟
- بل ضعفاؤهم.
- أيزيدون أم ينقصون؟
- بل يزيدون.
- فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

---

[١] كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري، ٥٢٢/١.

[٢] البخاري، بدء الوحي ٤٦ مسلم، الجهاد ٧٤.

- لا.
- فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟
- لا.
- فهل يغدر؟
- لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

هذا هو الحوار الذي جرى بين هرقل وبين أبي سفيان الذي لم يكن قد أسلم بعد، ولم يستطع أن يقول شيئًا ضد الرسول ﷺ سوى إبداء التردد في الجملة الأخيرة.

وكرر هرقل ذكر أجوبة أبي سفيان واعتبرها دليلاً على صدق نبوة الرسول ﷺ، ثم أخذ رأي صاحب له برومية، وكان عالمًا مثله، فكان رأيه مثل ما رأى. وفي رواية أنه قال لأبي سفيان: "فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدميّ هاتين" وقد حدث هذا فعلاً كما نعلم.[١]

وعندما وجد عظماء الروم ميل هرقل إلى الإسلام ثاروا وغضبوا، فلما رأى هرقل منهم ذلك أيس منهم وقال لهم: "إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيتُ" فسجدوا له ورضوا عنه.[٢] أما صاحبه في رومية فقد أسلم وبايع النبي غيابيًا.[٣]

٣) وآخرون

أرسل الرسول ﷺ رسائل أخرى إلى جهات مختلفة وإلى أشخاص آخرين، فكان منهم من اهتدى وقبل الإسلام ومنهم من تصرف باحترام تجاه رسول الله وإن لم يسلم، كالمقوقس عظيم القبط، إذ أرسل له الرسول ﷺ حاطب بن أبي بلتعة. ومع أن المقوقس لم يسلم إلا أنه أكرم وفادة حاطب طوال إقامته هناك وأرسل معه هدايا عديدة للرسول ﷺ، وكانت أمّنا مارية ضمن هذه الهدايا حيث ولدت له إبراهيم، وكان من ضمن هذه الهدايا بغلة[٤] بيضاء اسمها "دُلْدُل" كانت الأولى التي يراها العرب.

أما كسرى فقد مز ق رسالة النبي ﷺ وألقاها على الأرض، فمزق الله ملكه، ولم تلبث فارس أن تمزقت إربًا إربًا.[٥]

---

[١] البخاري، بدء الوحي ٦؛ مسلم، الجهاد ٧٤.
[٢] البخاري، بدء الوحي ٦، تفسير سورة (٣) ٤.
[٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٣٦/٨، ٢٣٧؛ الإصابة لابن حجر، ٢١٦/٢.
[٤] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢٤/٥.
[٥] البخاري، العلم ٧؛ المسند للإمام أحمد، ٢٤٣/١.

قام رسول الله ﷺ بدعوة الحكام ورؤساء الدول ورؤساء مختلف القبائل، أي بتبليغ العالم كله بدعوته. كان كل يوم يمر يزداد نفوذه على القلوب، كان كأنه يملك جاذبية قدسية وسرية تجذب إليه -بخيوط سرية وغير مرئية- القلوب وتشرح له الصدور. وكل فرد أو مجتمع انجذب إليه أصبح يسمو إلى عالم النور. وبعد أن أقر مقعده في القلوب على هذا النحو أصبحت محاربته والاستمرار في عدائه وخصومته عملاً يائساً مثل محاولة طمس نور الشمس وحجبه بغربال.

ولم يلبث الجميع أن أدركوا هذا... أدركوا مدى عقم الوقوف في وجهه وصد دعوته، فألقوا أسلحتهم وطلبوا العفو والغفران منه.

و- صلح الحُديبية من زاوية الدعوة

يشكل صلح الحُديبية بُعدًا آخر في مجال فرص الدعوة والتبليغ. فقبول رسول الله ﷺ الشروط القاسية للصلح قوبل في بداية الأمر من قبل بعض الصحابة أمثال عمر بن الخطاب ﷺ -الذي لا يشك أحد في قوة ارتباطه بالرسول ﷺ وتعلقه به- بردود فعل سلبية وباعتراض، وبدا لفترة قلقة أن فرصة الصلح ستضيع.

ولكن الذي حدث هو أن المسلمين استطاعوا في السنة التالية الدخول إلى مكة بكل حرية... هذا الدخول الذي أصبح موضوع حديث أهل مكة لسنة كاملة، مما فتح مغاليق كثير من القلوب للإسلام شيئًا فشيئا، فأسلم كثير من الشخصيات المهمة في مكة بمحض إرادتهم أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.[1] وقد لعب دخول هؤلاء إلى الإسلام بمحض إرادتهم ودون أن ينخدش كبرياؤهم دورًا مهمًا من زاوية الخدمات الكبرى التي أدّوها فيما بعد للإسلام.

كما أن إظهار الصحابة شدة تعلقهم برسول الله ﷺ في أثناء البيعة لم يغب عن أنظار الوفد المكيّ، مما يَسّر تفتح القلوب للإسلام.

ز- الدعوة الفردية

عندما كان رسول الله ﷺ في ذروة الصعود والانتصار لم يهمل العلاقات الفردية، بل أولاها اهتمامًا كبيرا. فمع أنه كان يعلم أن أهل مكة جميعًا سيطلبون منه الصفح والغفران

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٢٦٩-٢٧٣.

قريبًا وسيستسلمون له إلا أنه مع هذا لم يهمل الترحيب الكبير لمقدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وإسلامهما بين يديه. فأرسل بعض أصحابه لاستقبال هذين الشخصين العبقريين. وعندما أقبل عليه خالد بن الوليد وسلم عليه بالنبوة ونطق بالشهادتين قال له رسول الله ﷺ:

«الحمد لله الذي هداك! قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوتُ أن لا يُسلِمك إلا إلى خَيْر.»[1]

كان كلام رسول الله هذا من أبلغ آيات الفخر لرجل في ذلك الموقف النفسي. ومن يدري ماذا فعلت هذه الكلمات بروح خالد ودورها في إشعال جذوة الإيمان في قلبه.

أما عمرو بن العاص فقد أمسك بيد رسول الله ﷺ لا يريد أن يدعها وهو يقول له: يا رسول الله أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي. فقال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يَجُبّ ما كان قبله والهجرة تجُبّ ما كان قبلها.»[2]

أجل، كان رسول الله ﷺ قد أخذ بمقاليد القلوب، ولكنه كان يوظف هذا ويستخدمه في صالح الدعوة وفي صالح التبليغ. فأقبل عليه الناس يدخلون في دين الله أفواجا. ومن تلك الأمواج وصلتنا موجة في هذه الأيام. وأنا أومن بأن الرسالة المقدسة لرسولنا ﷺ ستبقى وستستمر حتى قيام الساعة.

وحسبما نقرأ في الصحف فإن آلافًا من الأوروبيين يسلمون، والدنيا بأجمعها مقبلة على الإسلام. أجل، إن أوروبا حامل بالإسلام وستلد يومًا ما، وأما العالم الإسلامي فهو في آلام المخاض وسيلد قريبًا. ثم انظر إلى شرق العالم حيث كان الفكر المنافق والملحد متحكمًا وسائدًا؛ فعلى الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على سياسة التذويب ومسخ الشخصية فإن البلدان الإسلامية فيها مثل تُرْكِسْتان وكازاخستان وأَذْرَبِيجان وأوزبكستان وداغستان وقرغيزستان لم تفقد شيئًا يذكر من روحها ومن فكرها، وهي مقبلة بتلهف على عالمها الروحي والفكري الخاص بها. وفي القريب سيرتفع الأذان المحمدي في كافة أطراف الأرض وسيقبل الناس أفواجًا أفواجًا على الإسلام، فلن يدع ممثلو دعوة النبي ﷺ أي بقعة من بقاع الدنيا دون إيصال صوت الدعوة إليها، وهم إذ يفعلون هذا يتخذون المحبة لهم أسلوبا والحنان صفة.

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٧٣/٤؛ كنز العمال للهندي، ٣٧٤/١٣.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٧١/٤؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٩/٤.

حـــ استحقاق رعاية الله وعنايته

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَل فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:٦٧).

ما خاطب الله تعالى أي نبي من أنبيائه بمثل هذا الخطاب، فعند خطابه لأنبياءه السابقين كان يخاطبهم بأسمائهم المجردة. أما هذا الخطاب بصيغة التعظيم فهو خاص برسوله محمد ﷺ.

فالرسول هو الشخص الذي يحمل رسالة من الحق ﷻ، ويبلغ أخبار عالم الغيب إلى الناس. وخطاب الله تعالى له بهذه الصفة تشريف له من جهة، وتذكير لنا بسمو منزلته عنده من جهة أخرى. فهو يعلن شرف نبوته، والنبي ﷺ يبلغنا رسالة نبوته وهو سيظل تحت ظل هذا الشرف وهذه المرتبة الرفيعة. أي يقول لنا بأن النبي الذي يخاطبكم وتخاطبونه شخص -إن جاز التعبير- يوقّره الله تعالى ويحترمه فلا يخاطبه باسمه: "يا محمد... يا محمد..." بل يخاطبه بـ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُول﴾.. أي يا أيها الذي يحيي القلوب والنفوس بالوحي الإلهي... ويا أيها النبي الذي يهرع لنجدة الإنسانية وإنقاذها... وبهذا فقد سما به الله تعالى إلى ذروة نورانية، وشرفه بالرسالة والنبوة وجعله أهلاً لأن يخاطبه مباشرة؛ لذا، نرى أن بعض المحققين يرون أن الله كلمه مباشرة في ليلة المعراج. فكما أن سائر الوحي تم من وراء حجب -وإن كان من قبل الله تعالى- كذلك فقد تم هذا في المعراج ولكن من دون حجاب.[1]

فهذا هو نبينا محمد المصطفى عليه الصلاة والتسليم، وهذه هي المرتبة التي وضعه فيها ربه وقال له: بَلِّغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تجعل أي شيء عائقًا أمامك من خوف أو قلق أو أي مانع آخر كالجوع أو العطش أو حب الجاه والمنصب في الدنيا.

ونحن نشهد أن الرسول ﷺ لم يعقْه أي عائق بل قام بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة حق الأداء. لقد انفرج أمامه باب الرسالة، فقام بفتح الباب على مصراعيه بصورة لم يسبقه بها أحد من قبله. وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نفهم قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم:٩) من هذه الزاوية، إذ أنه تخطى جميع الحدود حتى وصل إلى مرتبة يصفه فيها أمير الشعراء فيقول:

حتى بلغتَ سماء لا يُطار لها ... على جناح، ولا يُسعَى على قدم

وقيـــل: كل نبيٍ عنـــد رتبته ... ويا محمد هذا العرش فاسـتَلِم

---

[1] انظر: البخاري، الصلاة ١؛ مسلم، الإيمان ٢٥٩؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤٢٤/٧.

وهذا يعني تجاوز عالم الإمكان وتخطيه. وبهذه المناسبة أتذكر "اوغست كومت" أحد مؤسسي المدرسة الوضعية والذي قضى حياته في معاداة الدين، لأنه كان يرى أن أي شيء لا يدخل ميدان التجربة العلمية فهو هراء وكلام لا معنى له. غير أن هناك حادثة متعلقة به ذكرت في أحد كتب التاريخ وهو كتاب "تاريخ مراد". فقد ذهب "كومت" إلى الأندلس، وعندما رأى الآثار والفنون الإسلامية الرائعة هناك ذهل وبقي مدة يتأملها بإعجاب كبير، ثم بدأ يسأل هناك بعض الأشخاص عن الإسلام. وعندما أخبروه أن محمدًا ﷺ كان أميًا ذهل بل صعق ولم يصدق هذا القول. وذهب إلى روما وقابل البابا التاسع وسأله عن هذا الأمر مستحلفًا إياه أن يقول له الصدق. وعندما أكّد له البابا صحة ما قيل له لم يملك نفسه إلا أن يقول: "إن محمدًا ليس بإله... ولكنه ليس بشرًا أيضًا." ألم يقل شاعرنا البوصيري:

فمَبلَغُ العِلم فيه أنه بَشَرٌ وأنه خيرُ خَلق الله كلِّهِمِ

أجل، كان إنسانًا له أب وأم وله جانبه المادي، ولكن لا يمكن فهمه ولا إيضاحه من جانبه المادي أبدًا. فهو طائر في سماء النبوة، ولكن حديثنا عنه يدور على الدوام عن البيضة التي خرج منها. بينما وصل في المعراج إلى موضع نعجز عن إدراك ماهيته، لأن هذا خارج الإدراك والشعور البشري.

إن التبليغ ضروري إلى درجة أن الله تعالى وظف له أحب خلقه إليه وأحاطه علما بمدى ضرورة القيام به وحذره من التقصير في أي جانب منه.

ومن ثم فإن التبليغ والدعوة هما من أهم واجباتنا نحن الذين ننتسب إلى أمته. ويجب ألا ننسى أن خلاص البشرية لا يتم أبدًا إلا بدعوته وبأنفاسه ثم بأنفاس متبعيه والسائرين في دربه.

الفصل الرابع: الفطنة

الفطنة هي تجاوز العقل بالعقل، وقد بينا سلفا أننا يمكن أن نقول إنها منطق النبوة؛ وهذا المنطق هو النظر إلى الأشياء والحوادث من خلال منظار قد جمع بين الروح والقلب والحس وسائر اللطائف الإنسانية.

إن الفطنة ليست عقلاً ومنطقًا جافًا فحسب، بل إن إضافة الإسلام إلى العقل والمنطق فحسب والقول بأن "الإسلام دين العقل" أو "دين المنطق"، ليس فقط جهلاً بالإسلام، بل يعد الخطوة الأولى لتحريف كبير. كلاَّ! ليس الإسلام دين العقل أو المنطق فحسب كما يدعون... بل إنه دين الوحي الالهي.

وإنّ عدم تناقض المسائل الإسلامية مع العقل والمنطق يعود إلى كون الإسلام آتيا من العلم الإلهي المحيط بكل شيء، ومفسَّرًا بالمنطق النبوي الشامل بما يليق بمصدره السماوي، أي أنه إلهام نبوي ومنطق نبوي. هذا المنطق الذي له قدرة على تلقي الوحي الإلهي والذي ينفتح للحس والقلب والعقل والفسلفة التي تأتي بمعنى اللطائف والحكم... أي أنه منطق فوق المنطق العادي، لذا نستطيع أن نسميه بـ"الفطنة العظمى".

إن كل وحي إلهي يجب أن ينعكس ضمن هذا المنطق. فهو حاجة وضرورة في الوقت نفسه. غير أن هذه الحاجة حاجة إنسانية فقط، ذلك لأن الوحي الإلهي إن لم يمر من المنطق النبوي ويعيَّر فيه وينظَّم -كما يعيَّر التيار الكهربائي ذو الضغط العالي، أو يتم تبديل التيار المتقطع إلى تيار دائم- ووصل إلى البشرية مباشرة لانصعقت منه ولاحترقت أمام هذا الوحي الإلهي. مثلما يحترق كل شيء إنْ رفع الله تعالى الحجب والأستار عن وجهه.[1]

أجل، إن فطنة الأنبياء تقوم بوظيفة الغلاف الجوي إزاء شهب الوحي الحارقة وهذا هو ما نطلق عليه اسم "الدين". أي التنزلات الإلهية التي تنزل إلى مستوى الإدراك البشري؛ والمنطق النبوي أي الفطنة النبوية هي التي تقوم بهذه المهمة. لذا، كان وجود الفطنة لدى كل نبي أمرًا ضروريًا. ومن الخطأ أن نصف هذا المنطق بكلمة "العبقرية"، لأن منطق الأنبياء فوق كل منطق، ويسمى "الفطنة".

---

[1] عن أبي موسى: حجابه النور -وفي رواية: النار- لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه. مسلم، الإيمان ٢٩٣؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠١/٤.

ولو لم توجد الفطنة لدى الأنبياء لما كان بإمكانهم الإجابة عن كل اعتراضات أعدائهم وعن كل استفسارات وأسئلة أنصارهم وإيضاح جميع المسائل لهم. ولو عجزوا عن القيام بهذا لأدّى ذلك إلى نتيجة حتمية وهي عدم وضوح الدين وصعوبة فهمه، فلا يكون هناك معنى لفروضه. وعندما لا يكون هناك معنى لفروضه أصبح خلق الإنسان عبثًا.

ولكي لا تحصل كل هذه النتائج السلبية كان من الضروري تجهيز الأنبياء بمنطق خارق للعادة، مما مكنهم من حل جميع المشاكل والعقد والمصاعب بيسر وسهولة.

فطنة نبينا ﷺ

لو تأملنا العهد الذي عاش فيه نبينا ﷺ لوجدنا أن الصحابة كانوا يسألونه عن المسائل الشرعية المستعصية عليهم، كما كانت هناك الأسئلة والشبهات التي تدور في أذهان بعض الذين يرغبون في الدخول إلى الدين الإسلامي والتي تنتظر الإجابة عليها إجابة شافية، وإضافة إلى كل هذا كانت هناك الشبه والشكوك التي كان يشيعها بين الناس بعض أهل الكتاب الذين كانوا يحسدون النبي ﷺ ويغتاظون منه. ولم يكن في الإمكان الإجابة عن كل هذه الإسئلة والشكوك إلا بمنطق النبي، أي بالفطنة النبوية.

كما كان الناس الذين كان يخاطبهم النبي ﷺ على درجات مختلفة من الفهم ومن الإدراك. فبعضهم كان من رجال الدين الذين قضوا جزءً كبيرًا من حياتهم في الكنائس والأديرة واكتسبوا علماً في بعض المجالات وعمقًا في فهم النفوس؛ ومنهم من تعمق في الأمور الفلسفية وأصبح رجل عقل ومنطق؛ ومنهم من أصبح له اليد الطولى في التجارة والاقتصاد، أو أصبح قائدًا محنكًا في الحروب أو سياسيًا داهية، أو كان بدويًا لا يعرف شيئا من أمور الدنيا. وكل واحد من هؤلاء كانت له مشكلته التي تنتظر الحل وأسئلته التي تحتاج إلى أجوبة. ومن ثم فقد كان على رسول الله ﷺ إذا تحدث أن يقول كلاماً يفهمه البدوي ويفهمه من هو في الذروة من الفهم، وأن يأخذ كل واحد منهم نصيبه من الفهم على قدر علمه، وأن تستمر هذه الصفة الشمولية للدين حتى قيام الساعة.

إن الإنسان كائن ناطق وكائن عاقل ومفكر. وهو بهذه الصفة يمثل -بشكل جزئي- صفة تعود لله تعالى. فإن انقلبت الأفكار إلى كلام، وإن انقلب الكلام إلى كتابة تم اكتساب الديمومة. إن الأفكار والمبادئ التي لا يتم الحديث عنها، والتي لا تسجل ولا تكتب أفكار تموت بموت صاحبها وتفنى وتزول. فكما أن قابلية التفكير لدى الإنسان نعمة، كذلك فإن

قابلية الكلام والتعبير عن الأفكار نعمة إلهية كبرى للإنسان. لذا، نرى القرآن الحكيم عندما يتحدث عن رحمانية الله تعالى يذكر بعد خلق الإنسان مباشرة ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن:٤).

فالإنسان يفكر ويتكلم منذ عهد آدم عليه السلام، وسيظل يفكر ويتحدث حتى يوم القيامة. فالأفكار والكلام والبيان لا يمكن أن ينتهي، وهذا من الرحمة الشاملة لله تعالى. وتتمثل هذه الرحمة الشاملة وتتجلى أكثر لدى الأنبياء ولاسيما لدى رسولنا محمد ﷺ. وهذا المستوى السامي لهم في هذا الأمر لا يفسر إلا بوجود الفطنة عندهم، فبغير الفطنة ما كان لهم أن يحتلوا هذه المرتبة، إذن، فالفطنة من أهم صفات الأنبياء.

إن كل نبي يملك قدرة إدراك كبيرة، وقدرة علي التعبير عنها، إذ يستطيع حل أعضل المشاكل بسهولة ويعبر عنها بأسهل العبارات وأوضحها. فبيانهم من نوع "السهل الممتنع" أي من النوع الذي يحسب السامع أنه يستطيع قول مثله. ولكنه عندما يحاول أن يتحدث وأن يتكلم مثلهم يرى أنه عاجز عنه. ذلك لأن قدرة شرح وبيان المسائل المعضلة هبة إلهية لهم. فسحر الحديث ورونقه لدى الأنبياء لا يوجد عند غيرهم.

كل مشكلة أو معضلة تعرض على النبي تجد لها حلاً بكل تأكيد. ومهما كانت تلك المشكلة فريدة في نوعها فإن النبي يتحدث عنها ويحلها وكأنه يملك خبرة أربعين سنة في ذلك الموضوع. لهذا نرى "جورج بِرنارد شو" يقول في حق رسول الله ﷺ: "إن محمدًا يستطيع أن يحل أعقد المشاكل التي يعاني منها عالمنا الحالي وهو يشرب فنجانًا من القهوة."

أجل، فما أكثر المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يزخر بها عصرنا الحالي والتي تنتظر الحلول. ولقد وضح للأصدقاء وللأعداء أن هذه المشاكل لا يمكن حلها أبدًا دون الرجوع إلى نبع بيان الرسول ﷺ. هناك أقوال كثيرة حول فطنته ﷺ؛ ولو جمعت هذه الأقوال لأصبحت مجلدًا ضخمًا. وسنذكر هنا مثلين اثنين فقط حتى ننهي هذا البحث الواسع.

يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنه حبر الأمة وترجمان القرآن: "إن أفضل الناس وأعقلهم هو نبيكم محمد ﷺ." وقال وَهب بن مُنبِه، وهو من علماء التابعين، وقد قرأ التوراة والإنجيل بدقة: "قرأتُ في أحد وسبعين كتابًا فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً." وفي رواية أخرى: "فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يُعْطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا."[1]

---

[1] الشفاء للقاضي عياض، ١/٦٧؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٤/٢٦.

أ- أمثلة من فطنته ﷺ

١) تعمير الكعبة

كان الناس في الجاهلية أهل فتنة وفساد. فكأن وظيفتهم في هذه الحياة هي إيقاد الفتنة. فما أن يجتمع منهم ثلاثة، حتى تظهر بينهم فتنة. ولا شك أن القيام بجمع مثل هؤلاء الناس على صعيد واحد وتربيتهم وتهيئتهم ليكونوا أساتذة العالم فيما بعد يعد معجزة خاصة برسول الله ﷺ، وقد أنجز هذه المهمة بفطنته ذات البعد السماوي.

لقد توافق أن بدأ المشركون في تعمير الكعبة قبل نبوة سيدنا محمد ﷺ. وما أن انتهوا من تعمير البناء حتى كادت أن تقوم بينهم فتنة عظيمة وحرب ضروس بسبب اختلافهم على وضع الحجر الأسود في مكانه. فكل قبيلة تتمنى أن يكون لها هذا الشرف، ومن ثم استلت السيوف من أغمادها وأخرجت السهام من كنائنها وأشرعت الرماح. ولم يكن رسول الله ﷺ قد بُعِث بعد نبيًا؛ ولكن بذرة النبوة كانت مكنونة في روحه تنتظر مجيء الربيع لكي تزهر وتتفتح. كان الوضع ينذر بقتال مشؤوم، وما كان أحد يدري كم ستطول هذه الحرب الداخلية إن نشبت، ولا عدد الضحايا الذين سيقعون فيها، ولا مقدار الأموال التي ستتلف. ولا يدري أحد كيف خطر ببال أحدهم أن يقترح تحكيم أول من يدخل عليهم من الباب الفلاني، وأن عليهم أن يقبلوا حُكْمه، وكيف قَبِل الجميع هذا الاقتراح. لقد بدأوا ينتظرون بلهفة أول قادم عليهم من هذا الباب... وهنا كان سيدنا محمد ﷺ أول الداخلين من هذا الباب. عندئذ هتفوا بسرور: "هذا الأمين، رضينا، هذا محمد" وعندما أخبروه بالأمر ودون حاجة إلى أي تفكير طلب منهم أن يأتوه برداء، فلما فعلوا وضع الحجر الأسود في وسطه وأمسك كل رئيس قبيلة بطرف منه وساروا حتى موضع الحجر حيث حمله سيدنا محمد ﷺ ووضعه في مكانه.[1]

وهكذا حال دون وقوع حرب داخلية كبيرة بين القبائل. ولم يجد حاجة إلى أي تفكير لحل هذه المعضلة، بل توصل إلى الحل بسرعة وفي سهولة ويسر... أليس هذا منطق النبوة؟ في الحقيقة إنه لم يكن قد بُعث بعدُ نبيًا ولم يكن الوحي قد نزل عليه. غير أن هذا كان منطق وفطنة الشخص المرشح لوظيفة كبيرة ومهمة صعبة مثل مهمة النبوة... أجل، كان

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٤٢٥/٣؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٠٩/١.

عنده منطق فوق المنطق الاعتيادي وعقل فوق العقول وفطنة فوق الفطن. وكان هذا ضروريًا لشخص سيحمل دعوة كدعوة القرآن الكريم.

٢) إسلام حُصين

لقد جاء حُصين إلى النبي ﷺ ناويا نصحه وإقناعه بترك دعوته. ولقد كان النبي ﷺ يملك قدرة خارقة في معرفة محدِّثه والوقوف على مستواه، لذا نراه يخاطب محدثه بعبارات غاية في الدقة بحيث لو بُدّلت كلمة واحدة منها، أو وُجهت نفس العبارات إلى إنسان آخر له شخصية مختلفة عن الأول لَما وصل إلى الهدف المنشود أبدا. فرسول الله لا يبارَى أبدًا في انتقاء الكلمات المناسبة وفي معرفة مستوى الشخص الذي يخاطبه. ومن المستحيل أن تجد أحدًا آخر له مثل هذه القابلية. لقد كانت هذه ملَكة طبيعية عنده بحيث يَعرِف ويُعيِّن بسرعة أينَ ومع مَنْ يتكلم، وكيف يتحدث. ومن ثم كانت كل كلمة ينطقها ضرورية وفي محلها تماما. فكما لا تجد في أي كلام أو حديث له كلمة خاطئة، كذلك لن تجد فيه أي كلمة زائدة ليس لها ضرورة. دققوا إن شئتم كل كلام تحدث به كلمة كلمة فلن تجدوا كلمة واحدة زائدة لا لزوم لها في أي جملة من جمله... فإذا لم تكن هذه فطنة فما هي الفطنة إذن؟

انظروا كيف سحرت هذه الفطنة حُصينًا... فبعد أن أنهى حُصين كلامه سأله رسول الله ﷺ بكل رقة وأدب: «يا حُصين! كم تعبد من إله؟» قال: سبعًا في الأرض وواحدًا في السماء.[1] قال ﷺ: «فإذا أصابك الضر مَن تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال «فإذا هلك المال مَن تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال: «فيستجيب لك وحده وتُشرِكهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال: ولا واحدة من هاتين. قال: «وعلمت أني لم أكلم مثله» قال: «يا حُصين! أَسلِمْ تَسْلَمْ.» قال: إن لي قومًا وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: «قل اللّهم إني أستهديك لأرشد أمري. وزِدْني علمًا ينفعني.» فقالها حُصين فلم يقم حتى أسلم. فقام إليه عمران[2] فقَبَّل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى وقال:

«بكيتُ من صنيع عِمران، دخل حُصين وهو كافر فلم يقم إليه عِمران ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة»، فلما أراد حُصين أن يخرج قال ﷺ لأصحابه:

---

[1] الإله الذي عناه في السماء هو الله تعالى، الذي لم يستطيعوا إزالته من القلوب. ذلك لأن فكرة الله تعالى فكرة وإيمان راسخ قد امتدت جذوره إلى القلوب، بحيث أن العهد الجاهلي الطويل لم يستطع مسحه وإزالته. ويكفي هنا أن يقوم اللسان بالترجمة الأمينة والصادقة لصوت القلب.

[2] عمران وهو ابن حصين. (المترجم)

«قوموا فشيّعوه إلى منزله.» فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا: صبأ. وتفرقوا عنه.[١]

والحقيقة أن الجمل الواردة في هذا الحوار جمل بسيطة جدًّا وواضحة ومختارة بشكل مناسب لوضع حُصين ولمستواه العقلي، فلم يبق أمام حُصين بعد الجملة الأخيرة للرسول ﷺ سوى التلفظ بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

أي أن الشخص المخاطب هنا ليس أمامه سوى سبيلين: إما النطق بالشهادتين والحصول على النجاة الأبدية، أو الاستمرار في العناد وترك مجلس الرسول ﷺ دون النطق بكلمة واحدة... ولم يكن أمامه خيار آخر.

٣) التحدث حسب مستوى البدوي

البدوي إنسان يعيش في الصحراء، قد ينسى حاجاته في مكان، وقد يصادف عاصفة رملية فيجأر بالشكوى... تأملوا حال مثل هذا الإنسان... ماذا يفعل إن ألـمّت به مصيبة أو حاصرته ضائقة..؟ لا شك أنه سيقول ما قاله حمزة ﷺ لرسول الله ﷺ... قال حمزة للرسول ﷺ في أثناء اهتدائه للإسلام: "يا محمد، يا ابن أخي..! عندما أجوب الصحراء بالليل أُدرِك أنّ الله أكبر من أن يوضع بين أربعة جُدران."

أجل، هكذا كان يقول كل من رأى عدم نفع اللات والعُزّى وهُبَل، لأن ضمائرهم كانت تهتف بهذه الحقيقة الموجودة في أعماقهم... وكانت هذه الضمائر تقول الحق. لذا، فكم من أناس جاءوا إلى الرسول ﷺ وهم في هذه الحالة النفسية والروحية؛ وبعد قيامهم بطرح أسئلتهم البدوية وتلقيهم أنسب الأجوبة وأكثرها ملاءمة لحالتهم ولعالمهم الروحي، يعلنون عن اهتدائهم للحق ويصبحون نجومًا متلألئة في سماء الهداية.[٢]

يروي الإمام أحمد بن حنبل عن أبي تميمة الهُجيْمي ﷺ عن رجل من قومه أنه أتى رسول الله ﷺ أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله؟ أو قال: أنت محمد؟ فقال: «نعم»، قال: فإلامَ تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله ﷻ وحده مَنْ إذا كان لك ضُرّ فدعوتَه كشفه عنك، ومن إذا أصابك عام[٣] فدعوته أَنْبَتَ لك. ومن إذا كنت في أرض قفر فأضللت فدعوته رَدَّ عليك» قال: فأسلم الرجل.[٤]

---

[١] الإصابة لابن حجر، ١/٣٣٧.

[٢] انظر: كشف الخفاء للعجلوني، ١/١٣٢.

[٣] عام: أي جدب ومجاعة وقحط. (المترجم)

[٤] المسند للإمام أحمد، ٤/٦٥، ٥/٦٤؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٨/٧٢.

ما أروع هذا الكلام الموجه للبدوي! فكل جملة فيه تخاطب موضوعًا حيويًا بالنسبة إليه: الجدب، البلايا، المصائب، المصاعب في حياة الصحراء...

فهو يحدثه عن هذه البلايا والضنك والمصاعب التي يعرفها البدوي عن قرب، ثم يحدثه عن القوة اللانهائية التي لا ملجأ ولا منجى منها إلا إليها. إنه يخاطب ضميره الذي يرتفع فيه صوت هذه المعاني. ولكن البدوي لم يكن قد أدرك بعدُ معنى هذا الصوت. فكأن رسول الله ﷺ قام بتفسير وتعليم معاني هذا الصوت الداخلي عنده بحديثه هذا. كان تأثير حديث الرسول ﷺ قويًا في نفس البدوي الذي لم يجد بدًّا من إعلان إسلامه.

إن الحديث مع بساطته وخلوه من تكلف البلاغيين إلا أنه كان مطابقًا لحال البدوي وملائمًا لمستواه ومالكًا عليه جوانب نفسه؛ فلم يجد البدوي بدًّا من الاستسلام.

هل غيرُ رسول الله ﷺ استطاع أن يحول أناسًا قاسية قلوبهم إلى ملائكة رحيمة على مدار التاريخ كله؟ إنه استطاع باستخدام الطاقات الموهوبة له من قبل الله تعالى استخدامًا حكيمًا أن يحدث انقلابا عظيما وثورة عظمى لا يزال المؤرخون وعلماء الاجتماع يرون فيها لغزًا مستعصيًا على التفسير. فالجواهر التي أودعها النبي ﷺ أودية الحياة الاجتماعية صنعت أمواجا متلاحقة وصلت حتى ساحل عصرنا الحالي، وسيستمر هذا إلى يوم القيامة بلا شك. فاليوم نرى أن هناك إقبالا على الإسلام في جميع أنحاء العالم؛ وليس هذا إلا نتيجة للأمواج التي أحدثها النبي ﷺ في الحياة الاجتماعية والتي وصلت إلى ساحل عصرنا، وإلا فإلى من يُعزَى إحداث هذه الجاذبية المقدسة وهذا التأثير الذي دام عصورًا عديدة إن لم يُعزَ إلى النبي محمد ﷺ؟ وهل هناك إنسان آخر يمكن أن يكون صاحب هذا التأثير وهذه الجاذبية القوية؟ كلاًّ أبدًا، إنه هو الفرد الفريد في الكون وفي الزمان... نعم، كل شيء كان لوجهه الكريم.

٤) خطابه للأنصار في حُنين

مثلما كان سيد الأنبياء ﷺ يحل أعضل المسائل بكل سهولة ويسر، ويفك عقد أعقد المشاكل بأسرع وقت ودون أي تأخير؛ كان كذلك يحتفظ بهدوئه ورباطة جأشه أمام المشكلات والحوادث الفجائية، فيتعرض لتلك المشكلة ويجد لها الحل الملائم في أقصر وقت. فإن دققتَ كل حركة من حركاته وكل خطوة من خطواته، وكل جملة بل كل كلمة من كلماته وجدتَ أنها جميعًا حُسبت بحساب دقيق ووُزنت بميزان حساس جدا، وأنها كانت في موضعها المناسب وفي وقتها الملائم تمامًا. فلو كان هناك أي خطإ في التوقيت، أو لو أهملت أي جملة من كلامه لما كان في الإمكان تحقيق كل هذا النجاح وهذا التوفيق. علمًا بأن

رسول الله ﷺ لم يطصنع حركاته هذه ولم يكن له الوقت الكافي للتفكير فيها طويلا. إذن، فكيف يفسر مثل هذه الحوادث إن لم يكن صاحب فطنة خارقة..؟ أجل، كان نبيا، وكان منطقه منطق الأنبياء... يفكر كنبي، ويتصرف كنبي فلا يعرف الفشلُ إليه سبيلاً. بل لا يعرف إلا النجاح في أعلى ذروته، فلا يمكن لأحد أن يصل إلى ما وصل إليه أبدا. وهناك الكثير من الحوادث التي تبرهن على هذا ولقد اخترنا منها حادثة واحدة نظرًا لأهميتها.

دارت معركة حُنين بعد فتح مكة، وقام الرسول ﷺ بتوزيع أكثر غنائمها على الأشخاص الذين أراد تأليف قلوبهم. وكان معظم هؤلاء من أشراف القوم ورؤساء القبائل ممن لهم كلمة مسموعة. وكان هذا أمرًا ضروريًا لتأليف قلوب هؤلاء بعد فتح مكة لكي تستمر الفتوحات ولا يتوقف زخمها، لأن قسمًا من هؤلاء أسلموا دون رغبة كافية. فإن لم تُطَيَّب قلوبهم وإن لم تتم إذابة الجليد فيها لكان من المحتمل أن يكون خطرهم أشد من خطرهم وهم في مرحلة الكفر فيُضروا بالإسلام ضررًا بالغاً ويكونوا خطراً عليه. ومن ثم فإن قيام الرسول ﷺ بخطوة تأليف قلوبهم كان نتيجة فطنته عليه الصلاة والسلام. كانت الغنائم المفروض تقسيمها آنذاك تبلغ ٦٠٠٠ أسير و٢٤٠٠٠ ناقة و ٤٠٠٠٠ من الماشية و ٤٠٠٠ أقة من الذهب والفضة.

وعند توزيع هذه الغنائم خص الرسول ﷺ أهل مكة بمعظمها وأعطى بعض الأشخاص عطايا كبيرة. وهؤلاء كانوا -كما قلنا- من الذين يريد الرسول ﷺ تأليف قلوبهم واستمالتها إلى الإسلام، وكان هذا شيئًا مفيدًا وضروريا؛ فمثلاً أعطى آل أبي سفيان ٣٠٠ ناقة و١٢٠ أقة من الفضة، وأعطى حَكيم بن حِزَام ٣٠٠ ناقة ونصير بن حارث ١٠٠ ناقة، وقَيْس بن عَدِيّ ١٠٠ ناقة وصفوان بن أمية ١٠٠ ناقة وحويطب بن عبد العُزَّى ١٠٠ ناقة والأقرع بن حابِس ١٠٠ ناقة وعيينة بن حصن ١٠٠ بعير ومالك بن عوف ١٠٠ ناقة. وعدا هؤلاء خص بعض الرجال المهمين بـ(٤٠-٥٠) ناقة.[1]

كانت الغنائم المقسمة عبارة عن نوق أو ذهب أو فضة... ولكن الغاية كانت منحصرة في الذود عن الدين وتأليف القلوب وتقريبها للإسلام، ذلك لأن فتح مكة كان قريب العهد وكانت بعض قلوب أهل مكة منكسرة. لقد كانت كرامة مكة ومكانتها في نظر أهلها كل شيء، لذا فقد قام رسول الله ﷺ باستغلال فرصة هذه الغنائم أفضل استغلال لجبر الخواطر ومداواة الجروح.

---

[1] كتاب المغازي للواقدي، ٣/٩٩٣-٩٩٦؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤/٤١٣-٤١٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٣٥٩-٣٦٠.

غير أن هذا التقسيم أثار حفيظة بعض الأنصار ولاسيما الشباب منهم حتى قال بعضهم: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. لقد كان هذا الكلام بداية لفتنة... لم يكن من المهم أن قائليه كانوا قِلَّة. فلو لم توقف هذه الفتنة لاتسعت وانتشرت كانتشار النار في الهشيم. كما أن أي اعتراض على النبي ﷺ يحبط عمل صاحبه ويجرده من دينه وإيمانه ويجعله من الخاسرين خسرانًا أبديا، وهذه المصيبة لعمري أعظم من مصيبة الفتنة.

قام سعد بن عبادة على الفور بإخبار رسول الله ﷺ بالأمر. ومع أن قائلي هذا الكلام كانوا من الشباب، إذ لم يخطر شيء من ذلك على عقول المسنين، إلا أنه كان من الضروري إطفاء هذه الفتنة بسرعة وإلا اتسعت. أمر رسول الله ﷺ أن يجتمع الأنصار في مكان وحدهم دون غيرهم... ثم خطب فيهم الرسول ﷺ الخطبة التالية.

«يا معشر الأنصار! مقالةٌ بلغتني عنكم وَجِدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم.»

هذه البداية بداية مذهلة من الناحية النفسية للحاضرين؛ ذلك لأن أحدًا لم يكن يتوقع هذا الكلام، فمعظمهم لم يكن يعرف سبب الاجتماع، لذا كانت هذه الجملة بمثابة لطمة فجائية ثابت معها النفوس إلى رشدها. ولم يكن في وسع الصحابة حينئذ أن يعترضوا على رسول الله. كل ما هنالك أنه كان من الممكن حدوث غضاضة في بعض النفوس وكان بإمكان النبي ﷺ إزالتها.

أحدثت هذه الجملة الأولى لرسول الله ﷺ تأثيراً كبيراً في قلوب الذين شعروا من قبل بالغضاضة، إذ لَـمُّوا شتات نفوسهم واتجهت عيونهم إلى الرسول ﷺ، فلا ريب أن ما سيقوله بعد ذلك بالغ الأهمية. كان على رسول الله ﷺ أن يديم هذا الزخم حتى يصل إلى النتيجة المرجوة، فقال ﷺ: «ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم؟»

فقال الأنصار: بلى يا رسول الله... اَلْمَنُّ لله ورسوله.

عند ذلك حوَّل رسول الله ﷺ دفة الحديث. فبعد أن ثارت المشاعر وهاجت العواطف بدأ رسول الله ﷺ يتكلم باسم الأنصار ويقول بما كان يمكن أن يقوله الأنصار في أسوإ الظروف، علماً بأن أيّ مسلم لو قال مثل هذا الكلام لنبيه لحبط عمله.

استمر رسول الله ﷺ في خطابه فقال:

«ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المنّ لله

ورسوله. قال: «واللهِ لو شئتم لقلتم فَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ جئتنا طريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وخائفًا فأمَّنَّاك، ومخذولاً فنصرناك»

فقالوا: الْمَنُّ لله ولرسوله.

فقال رسول الله ﷺ:

«أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لُعَاعَة[1] من الدنيا تألَّفْتُ بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام. أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رِحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذى نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شِعْباً وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرءً من الأنصار. اللّٰهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.»

فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم وقالوا: رضينا بالله ربًا ورسوله قِسْماً. ثم انصرف وتفرقوا.[2]

هذه الخطبة القصيرة المركزة أطفأت فتنة كادت تقع، وكسبت قلوب الأنصار مرة أخرى، ولا أظن أنه يمكن إيضاح هذا الموقف إلا بالرجوع إلى صفة "الفطنة" مرة أخرى.

فلتقوموا الآن بتحليل هذا الخطاب جملة جملة وكلمة كلمة، وضعوا التوقيت في نظر الاعتبار، ثم قوموا بقياس المسافة التي قطعتها أرواح الصحابة ونفوسهم اعتبارًا من الجملة الأولى وانتهاء بالجملة الأخيرة. وضعوا أيديكم على ضمائركم وقولوا بالله أيستطيع أحد - غير رسول الله محمد ﷺ- القيام بإلقاء مثل هذا الخطاب الرائع بصورة ارتجالية ودون تفكير مسبق أو تحضير مسبق؟ إن صاحب كل ضمير حي يسمع الجواب نفسه في أعماق وجدانه بشرط أن يطالع الأمور ويحللها بصورة حيادية وموضوعية وألاّ يكون معاندًا أو صاحب حكم مسبق.

ولنحلل سويا هذا الخطاب بشكل موجز، ولندع التحليل التفصيلي له لعلماء النفس وعلماء الاجتماع في المستقبل، لكي يفسروا جانبا آخر من جوانب الفطنة النبوية على ضوء علمي النفس والاجتماع.

أولاً: كان هذا الخطاب موجهًا للأنصار فقط، ذلك لأنه لم يكن للمهاجرين ولا لأهل مكة أي دور أو ضلع في هذه الحادثة التي استوجبت هذا الخطاب. فلم يكن هذا الخطاب

---

[1] لعاعة: البقية اليسيرة من الشيء.

[2] مسلم، الزكاة ١٣٢-١٤١؛ البخاري، مناقب الأنصار ١-٢، المغازي ٥٦؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤١١/٤.

ليجذب انتباههم أو يعنيهم في شيء. لذا، فوجودهم بين المستمعين كان سيَحُول دون حصول التركيز المطلوب للاهتمام لدى الأنصار، علمًا أن هذا التركيز كان مهمًا آنذاك.

ثانياً: أن السماح للأنصار فقط بحضور ذلك الاجتماع أرضاهم نفسيًا وجعلهم يشعرون بالفخر وبالمباهاة، فانفرادهم في اجتماع مع رسول الله ﷺ كان له تأثير نفسي إيجابي عليهم.

ثالثاً: كان من الممكن أن يكون في الخطاب ما يمس -ولو قليلاً- مشاعر أهل مكة أو مشاعر المهاجرين مثل تعبير: «أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير»

رابعاً: في ختام الخطاب كان هناك مدح خاص للأنصار ودعاء لهم. وكان من الممكن أن يجد المهاجرون -وهم الذين تركوا أموالهم وديارهم في سبيل الله- غضاضة من عدم اشتراكهم مع الأنصار في مثل هذا المدح وهذا الدعاء.

خامساً: هذا الخطاب خطاب رائع من ناحية الفصاحة والبلاغة، أي خطاب رائع إن نظرنا إليه من زاوية الأدب والبلاغة فحسب.

سادساً: في بداية الخطاب كانت هناك هِزة لمشاعر المستعمين، ثم ترضية لنفوسهم وتسكين لها. وعندما تكلم باسمهم جعلهم في موقف المستمع والمنصت فقط وهذا شيء رائع.

سابعاً: إن أسلوب الخطاب الذي كان ينضح بالإخلاص الكامل والصدق الخالص والتجرد السامي، والخالي من اللعب بالكلمات أو التزويق المصطنع لم يبق للمستمعين قول أي شيء آخر. وهذا شيء مهم جدًا من ناحية الوصول إلى النتيجة المطلوبة.

ثامناً: إن إلقاء الخطاب بشكل ارتجالي ودون تفكير مسبق أو تهيئة مسبقة زاد من التأثير الإيجابي له.

هذه الأمور وأمور أخرى أيضًا قد تخطر على البال ترينا أن رسول الله ﷺ لم يكن يحل المشاكل والمصاعب تبعا لهواه الشخصي، بل كان الوحي والإلهام والفطنة المهداة له من رب العالمين.

ب- نبينا ﷺ وجوامع الكلم

البُعد الآخر لفطنة رسولنا ﷺ هو أنه أوتي جوامع الكلم.

أجل، لقد كان سيد البلغاء. وكيف لا وقد اختاره الله ترجمانًا لكلامه ولكلماته. لقد أبدع الكثيرون حتى الآن الكثير من أروع الكلام وأبلغه وأجمله، كل حسب درجته وموهبته، ولكن هناك عمق آخر ولذة أخرى وحلاوة أخرى في كلام سيد البلغاء ﷺ.

ولقد كان بيانه عذبا، وتعابيره ساحرة تدير الرؤوس وتخلب الألباب وتخفق لها القلوب حتى لتكاد تقف، وتستسلم له العقول، وتحيا به المشاعر الإنسانية وتنمو، وتعلو الأرواح به وتسمو وترفرف. لقد وهبه الله تعالى قدرة بيان جعلت مستمعيه المحظوظين يستمعون إلى بيانه الجامع الآسر للقلوب وكأن على رؤوسهم الطير، تغمرهم مهابته فينصتون له وقد انعقدت ألستهم وسحرت نفوسهم. عندما يتكلم ويسرد جواهر الحكم لا يملك أرباب العقول إلا الإنصات إليه. وعندما يصف الخير والجمال والصدق يأسر بحديثه العذب الخلاب الأرواح. وعندما يهاجم الشر والفساد بكلماته النارية يُغرِق الكفر والمنكر في مستنقعه ذاته. أما عندما يزأر ببراهين دعوته ورسالته يفرِّق خفافيش الظلام ويخرس أصحابَ الأرواح المظلمة.

كان ﷺ يدرك أهمية ما خصه الله من ألطاف ونعم إدراكاً واعياً. فكان لا يرى بأسا من إعلانها تحديثًا بنعم الله عليه لذا، نراه يقول: «أنا محمد النبي الأمي»

«أُوتيتُ فواتح الكَلِم وجوامعه وخواتمه.»[1]

«إنما بُعثت فاتحًا وخاتمًا وأُعطيتُ جوامع الكلم وفواتحه.»[2]

كان ببيانه الذي يشع نوراً وضياء يعلن أنه سيد خطباء الأولين والآخرين.

كان سيد الأنبياء ﷺ بأنفاسه التي تحيي النفوس بلبلاً يشدو في روضة الحق... كلما شدا عبَّر عما في قلبه فتنساب الألحان الإلهية الساحرة من فمه... كلماته الرقيقة الشبيهة بأكمام الورود النضرة وزهوره المتفتحة على أنداء الصباح لم تكن تشبه زهور الآخرين. كانت كل كلمة له على مائدة أقواله نضرة يانعة وجديدة وطرية طراوة قطرة الندى. ولم تتيسر نعمة تذوق بيانه الساحر الأخاذ وفهم معانيه إلا لمن سعد بحضور مجلسه من المحظوظين الأوائل.

لقد حد سيد الفصحاء من جوهر الكلام سيفًا صقيلاً قام -بمجرد رسمه حلزوناً فوق الرؤوس- بمطاردة كل خفافيش البيان الكاذب والمزخرف، وفرت كل الأكاذيب إلى أقصى بلاد العنقاء.

وأسال من أودية البيان ينابيع وعيوناً حَوَّلت صحارى الجاهلية إلى رياض زاهرة، وشلالات هادرة بحيث وجد كل أصحاب القلوب المنفتحة على الإيمان أنفسهم في بحار هذه العيون المتدفقة نحو محيطات الأبدية والأزلية.

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٢/٢٥٠، ٤١٢؛ كنز العمال للهندي، ١١/٤١٢.

[2] البخاري، الجهاد ١٢٢؛ مسلم، المساجد ٦؛ وانظر: كنز العمال للهندي، ١١/٤٢٥.

كانت كلماته نابعة من وراء الغيب... ولولا كلماته المضيئة بنور الوحي لبقيت العوالم في فوضى واضطراب وعماء. لقد أزال بسيف بيانه السِتار عن وجه الطبيعة وزيَّن كتاب الشريعة بنقوش أقواله. الكلام عنده كان بمثابة متاع الفارس، والسهم ذي الريش الذهبي في جعبته. ما زار مكانًا إلا وملأ بالجواهر حجر من يفهم الكلام حق الفهم، وشد قوسه وهاجم بفرسه مواضع الظلام. وعندما شاء الله أن يرسي -وللمرة الأخيرة- قواعد دولة بكلامه جاء بسيد البلغاء ليقوم بهذه الوظيفة وأعطاه ختمه وسكته.

كان كل فرسان الكلام منذ فجر التاريخ ممن تطلعوا إلى ماوراء أستار هذا العالم بمثابة أفراد كورس غنائي في تمجيد الله تعالى... أما هو ﷺ فكان بمثابة قائد هذا الأوركسترا... وبمثابة رئيس الذاكرين في الحلقة القدسية بالأولياء والأصفياء... جاء فدوّى صوته في أرجاء الدنيا وترددت أصداؤه في جنبات العالم فهزته هزًّا عنيفًا.

كانت كل ثمرة من الثمار المتزينة بكلماته والتي قدمها للإنسانية من المائدة السماوية مجنية ومهداة له من حديقة حبيبه وخالقه. ومن أكثر جوانب هذه الحديقة خصوصية وسرية وقدسية والتي لم يطلع عليها أحد من قبل، بل قُدِّمتْ له من مولاه كهدية خاصة، إذ لم ير هذه الثمار ولم يقربها ولم يلمسها أحد من قبل.

وعندما كان يجيش قلب هذا العندليب صاحب المكانة السامية ويغمره الوجد والهيام يبدأ بالشدو بأرقّ الألحان وبالغناء بأرق النغمات بأزهار تلك الحديقة الخاصة المقدسة... هنا كانت الألسن الأخرى تصمت... والأرواح تنصت... والقلوب تهيم... والنفوس تذهل أمام قطرات معاني كلماته البليغة الساحرة.

أجل، إن كلماته تشبه البحار التي تنثر اللآلئ على السواحل بأمواجها أو بالشلالات المنهمرة من الآعالي أو بالعيون الفوارة من الأعماق الآخذة بمجامع القلوب... فلا نستطيع قياس غنى أعماق هذه البحار ولا محتوياتها ولا ترجمة هذه الشلالات ولا بلوغ الذُّرَى التي تبلغها هذه العيون الفوارة أو الإحاطة بها.

لقد صرف المئات من الأدباء والمحققين أعمارهم في تدقيق جواهر كلامه والطواف حولها... وتوجه آلاف وآلاف من المفكرين إلى نبع الحياة هذا، وأفنى الكثير من الدهاة حياتهم في الغوص إلى أعماق معاني كلامه... ولكن معاني كلماته بقيت وراء أي نقطة تم الوصول إليها.

أجل، فكما لا تستطيع القطرة الواحدة تمثيل البحر بأكمله، وكما لا تستطيع الذرة الواحدة التعبير الكامل عن خصائص الشمس، لا يستطيع العلماء ولا الأولياء ولا الأصفياء

الذين يمثلون جزءً من الحقيقة المحمدية مهما كانوا كاملي الصفات بالنسبة للناس الآخرين أن يمثلوه التمثيل الكامل، ولا أن يعكسوا صورته بأكملها.

إن رسول الله ﷺ رغم أميته وعدم دراسته في المدارس مرشد كامل، بسبب متانة بنيته المادية والمعنوية وصفاء أحاسيسه ورصانة تفكيره وقلبه الواسع المنفتح والمتوجه نحو المعالي؛ فاستطاع بذلك تسلم الرسالة الإلهية كما هي، وحافظ عليها كما هي، وأبلغها للناس كما هي... فقد كانت فطرته وخلقته ميسَّرة لتنفيذ هذه المهمة، إذ تمت المحافظة على صفاء روحه وصانه الله من أي تأثير سلبي للتربية أو المعرفة البشرية ثم زينه بالوحي وأرسله للناس... هذا هو معنى النبي الأمي والمرشد الكامل الذي لم ير مدرسة ولم يتعلم من الناس.

لقد كانت طبيعته وسجيته وأحاسيسه الظاهرة والباطنة وعقله ومنطقه مهيئاً وصالحاً للقيام بوظيفة النبوة ومهامّها، حيث قام بنقل الوحي حتى أصغر تفاصيله ودقائقه دون تعريضه لأي تبديل أو تغيير، بل ينقل الوحي الإلهي للناس كما ينقل المنشورُ الضوءَ المارّ من خلاله لكي يكون ملائمًا لعقول البشر.

هذه الرسالة الإلهية النابعة من أطهر مكان والمتدفقة إلى أطهر قلب بُلّغت للناس بألطف لسان وأفصحه وأنزهه حسب قدرة العقل البشري واستيعابه. وكما أنها أمارة من أمارات النبوة وإشارة إليها فإنها في الوقت نفسه دليل من أدلتها، وحجة من الحجج الدامغة وزادُه أثناء قطعه لتلك المفاوز الموحشة والطرق الوعرة وبُراقُه[1] فيها.

وعندما كان يقدم للناس رسائل ربه كان يصرح في الوقت نفسه بنبوته ويعلن رسالته؛ وكذلك عندما كان يستعمل جواهر خزائن الوحي وأسراره الإلهية الساحرة في حل معضلات ومشاكل محدِّثيه وأصحابه، كان يستعمل الوحي الإلهي نفسه كسيف ماسي في إلزام خصومه وإفحامهم وإسكاتهم.

كان القرآن بالنسبة إليه كل شيء... كالهواء والماء... سلاحاً ودرعاً... حصناً وقلعة... وراية ترفرف فوق هذه القلعة... كان يتنفس بالقرآن، ويعلو به كالسحاب إلى الأعالي... يسرع به لنجدة الملهوف المحتاج مثلما تسرع قطرات الرحمة لري عطش المخلوقات وظمئها... ينافح به الظلام ويلوذ به من شرور الأشرار... يصول به ويجول، ويكون نوراً ينتشر في الآفاق.

علماً بأن سيد البلغاء، وسلطان الفصحاء وممثل الحكمة إضافة إلى كنز العلم الإلهي الذي لا ينفد كان كثيرًا ما يوجه إليه العديد من الأسئلة، وكان هناك العديد من المسائل

---

[1] البراق: المركب الذي ركبه الرسول ﷺ في أثناء إسرائه ومعراجه. (المترجم)

والمشاكل والمعضلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تنتظر الحل والأجوبة الشافية من لدن رسول الله ﷺ. فكان ﷺ يقوم بإيفاء حق وظيفته النبوية هذه لأن القلب المحمدي الصافي كان المرآة المجلوة لعكس العلم اللانهائي، ومركزه ومنزله ومهبطه وحديقته وبستانه. فكان يقوم بشرح القرآن الكريم فيقيد المطلق، أو يطلق المقيد، أو يخصص العام، أو يعمم الخاص، وذلك باستعمال أسلوبه الخاص وبيانه الفصيح علاوة إلى تبليغ رسالة القرآن. فهذه هي مهمة الرسول المبعوث إلى الناس كافة. وما كان بإمكان أي مصلح ومجدد ومرشد للإنسانية جمعاء ومبلّغ للناس أجمعين إلا أن يكون هكذا.

في العهد الذي شُرِّف فيه النبي ﷺ بشرف النبوة كانت الفصاحة والبلاغة أروج شيء في سوق الجاهلية. فقد كانت هذه الأمة -التي حكمت فيما بعد العالم بذكائها ودرايتها- أمة أدبية. لذا، فقد سحرها ما سمعته من الرسول ﷺ من تلاوة للقرآن الكريم أو من حديث أو خطاب، واستمعت إليه مذهولة مفتونة به ومعجبة بما تسمعه منه. أما هو ﷺ فقد فرض نفسه عليهم في كل فرصة، ولم يجد أعداؤه ما يَصِمونه به أو ما ينتقدونه به. ولو فعلوا هذا أي لو قاموا بتقديم أقل اعتراض أو نقد لما تأخر خصومه الموجودون حالياً من تناول ذلك الأمر وتضخيمه وتكبيره وإيصال ذلك إلى كل شخص وإلى جميع أنحاء العالم من أجل إزالة محبته من النفوس. وأمثال هؤلاء لا يتورعون عن تلفيق أحقر الاتهامات وأرذل الافتراءات حوله. ولكنهم مع تفتيشهم هذا لا يجدون شيئًا ضده. وأمام بيان رسول الله ﷺ وفصاحته وقوة تعبيره لم يستطيعوا أن يقولوا له حتى ما قاله فرعون لسيدنا موسى عليه السلام.[1]

إن صوت من قال: «أدَّبني ربي.فأحسن تأديبي» يهدر من فوق ذروة سامقة بشكل لا يملك معه الأصدقاء والخصوم سوى الشعور بالاحترام والإعجاب والتوقير له ولبيانه المملوء فصاحة وبلاغة.

كان من بين أصحابه الكرام العديدُ من أصحاب البلاغة أمثال لبيد، والخنساء، وكعب بن مالك وحَسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، والكثير من الخطباء أمثال أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وابن عباس والعديد من الفقهاء وأصحاب الحكم... كل هؤلاء قبلوا به مرشدًا وأستاذًا وهادياً لهم في كل مسألة وفي كل موضوع.

أما الذين جاءوا من بعده من كبار حفاظ الحديث وشراحه ومن عباقرة مفسري القرآن ومدققيه، ومن أعلام أئمة الفقه والمجتهدين والمجددين الذين سبقوا عصورهم، وآلاف

---

[1] يشير الى خطاب فرعون لموسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥٢).

الأولياء العظام والأصفياء والأبرار والمقربين من الذين كان لهم قصب السبق في عالم الأرواح وعلماء الكلام والمنطق، والعديد من العلماء الآخرين في كل فن وعلم، فقد رأوا في أحاديثه وكلامه مرجعاً أميناً وفياضاً صافياً دفاقاً لا يجف ولا ينتهي ولا ينفد، فراجعوه ولجأوا إليه ليشبعوا ظمأهم منه ويطفئوا جوعهم من هذه المائدة الربانية.

أجل، لقد كانت سُنَّته من الأمس حتى اليوم منبع المجتهدين الذي لا يضل وباب العلم الفسيح، والجناح القوي للسابحين في سماء المعرفة والنبع الصافي الرقراق لإلهامات الأولياء والأصفياء. فخلاصة علوم الشريعة، وكل طرق الصوفية وكل العلوم الكونية وأسرار القلب والوجدان نابعة من النبع الصافي لجواهر كلامه النوراني.

لقد بيَّن بياناً واضحاً كثيراً من المواضيع اعتباراً من بدء الخليقة وخلق الإنسان وانتهاءً إلى يوم القيامة، يوم يساق المرء إما إلى الجنة أو إلى الجحيم... وتحدث عن القلوب المتفتحة للمعارف الربانية، وعن مشاهدتهم جمال الله في الآخرة... عن الإيمان والعقائد... عن أدق تفاصيل العبادات... تحدث في مواضيع عديدة، واستعمل في كل موضوع اللسان المناسب والبيان المناسب إلى درجة أننا إذا استثنينا القرآن فلن نجد بيانًا مثل بيانه ولا فصاحة مثل فصاحته.

تكلم عن الله: ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى بما يناسب هذه المواضيع الحساسة من دقة وتوازن، وعن القيامة والحشر والنشر وعن يوم الحساب وعن الجنة والجحيم فأعطى الأمل الممزوج بالخشية والرهبة المنقلبة إلى سعادة، وعن الملائكة والروح والجن والشياطين وعن أسرار الغيب الأخرى فكأنك تنظر إليها من وراء زجاج بلوري مضبب؛ وتحدث عن الإيمان وعن العمل، وعن الإخلاص في العمل وعن قابلية البذرة للنمو وقابلية التربة للإنبات وعن الحياة التي يهديها المطر وعن جمال الربيع الزاهر والزاخر بالألوان والعطور؛ فكأنك ترى أمامك لوحة مرسومة بريشة فنان عظيم... لوحة تعلم عندما تتأملها كيف تسمو بالإيمان فطرة الإنسان النظيف وكيف تتوسع وتنمو هذه الفطرة بالإسلام، وكيف تنقلب بالإخلاص إلى شجرة طوبى تظلل ما حولها.

تَعْلَم من بيانه أن الصلاة صديق مرافق للإنسان في جلوسه وقيامه، تطرد عنه وحدته وتنير دربه... وأن الوضوء شيء يجري في عروق الإنسان مجرى الروح والدم... نهر أمام بيته يغسله من كل درن. أما الأذان والإقامة فشجرة باسقة... وهدير رعد قاصف يفزع الشياطين ويلقي في قلوبهم الرعب... أما للمؤمنين فروح وريحان يلف أرواح الذاهبين إلى الصلاة.

الزكاة والصدقة كقنطرة توصل بين الجماعات المتشتتة والمتقطعة الروابط، وكمادة تلتحم بها القطع المتكسرة فتصبح قطعة واحدة.

الصيام جنة يحفظ صاحبه فيكون باباً سريًا في أسوار الجنة يساعده في الولوج إلى الجنة. ويكون لصاحبه ساقيًا يقدم له شراب الكوثر.

الحج مثل خَيّاط يرتق الرتوق... ومثل غاسل يزيل البقع والأوساخ... ومثل مجلس كبير للشورى يجمع الناس على صعيد واحد.

الجهاد مثل فدائي منتصب القامة سد الطرق المؤدية إلى جهنم ومثل موظف استقبال يفتح لك أبواب الجنة ويقول لك مرحِّبًا: تفضل بالدخول. ومثل أب رحيم يقيِّد أيدي المعاندين ويسوقهم إلى أبواب الفردوس. أما الذِكْر والدعاء عنده فمثل هاتف لاسلكي يقيم رابطة وعلاقة وحوارًا بين المخلوق وخالقه. أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمثل موظف ينظم السير... مثل بواب أو حارس واقف على مفترق الطرق وعلى الأبواب ينظم المرور في الطرق أو الدخول من الأبواب.

أما صلة الرحم فمثل أم فتحت حضنها تنتظر، وتتحاسب مع الإنسانية وتتحدث معها وتقف منها موقف المدعي العام، وتبذل لها الوعود، وتمسك بتلابيبها لتحذرها من الانحراف... أي تتشكل هنا لوحة من الموزائيك الحي الرائع تسحر القلوب.

أجل، إن قيامه بشرح كل هذه الأمور وتصويرها تصويرًا فنيًا موضوع يحتاج إيضاحه إلى كتابة مجلدات في كيفية قيامه بذلك، والمواد الأولية التي استعملها في تصويره وفي نقشه وفي زينته، وطراز حركته وأدائه وقوة تصويره وقدرته البلاغية والموسيقية، كل ذلك دون تصنع ولا تكلف.

إذن، فلندع الشرح الدقيق والعميق لمثل هذه المواضيع المختلفة إلى أربابها والمتخصصين فيها، ولنتناول هنا بعض أحاديثه المباركة التي يعلمها الجميع لكي نشير إلى معانيها العميقة وقوة بيانها ورصانتها.

١) تحليل باقة من الأحاديث

إن أبرز صفة في كلام نبينا ﷺ هو أنه أوجز كلام قيل في موضوعه، وهناك آلاف الأمثلة الممكن إبرازها في هذا المجال، ولا يسعنا هنا إلا إيراد بعض هذه الأمثلة التي يمكن إيرادها في كل عصر كأنموذج على "جوامع الكلم". ولا ننسى هنا أن نذكر ونكرر بأن كل أحاديث الرسول ﷺ بهذه الصفة.

أ. بضع كلمات هي ذروة التوحيد

يورد الترمذي عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ:

«يا غلام! إني أعلِّمك كلمات: اِحْفظ الله يَحْفظْك. اِحْفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أنْ يَضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصُحُف.»[١]

إنه بهذه الجمل الموجزة الفياضة بالمعاني استطاع أن يشرح أعقد مواضيع القدر وتسليم الأمور لله في أسلوب سهل وبسيط. كما أوضح بكلماته القليلة معنى العبادة في مجال الدعوة والحركة.

بـ. الإنسان شخص مسافر

يروى عن ابن عمر ﷺ الحديث التالي:

«كُنْ في الدنيا كأنكَ غريب أو عابرُ سبيل وَعُدّ نفسَك في أهل القبور.»[٢]

إن هذه الجمل الثلاث أوجز كلام في موضوع الزهد والتقوى وفي حفظ التوازن بين الدنيا والآخرة وأكثرها ثراء بالمعنى. ولوكانت هناك جملة أوجز من هذه فلا بد أن يكون هو صاحبها أيضًا.

إن الإنسان غريب في هذه الدنيا، فهو -حسب تعبير جلال الدين الرومي- ناي مقطوع من غابة القصب، ولأنه أبعد عن صاحبه الحقيقي، فإنه في أنين دائم طوال الحياة. الإنسان شخص مسافر... بدأ بسفره من عالم الأرواح إلى رحم الأم ثم إلى الدنيا فمرحلة الطفولة ثم الشباب فالشيخوخة فالقبر ومنه إما إلى الجنة أو إلى النار... ولكن يا ترى أيعي الإنسان أنه مسافر..؟

لو كان واعيًا ومتذكرًا على الدوام أنه مسافر لما تعثر في طريق الحياة ولما تهالك على لذائذ الدنيا التي لا تساوي شروى نقير، بل لسار في طريقه بقدم ثابتة مطمئنة. نعم، إن لم يَعُدّ الإنسان نفسه مَن أصحاب القبور، أي بتعبير القدماء "موتوا قبل أن تموتوا"،[٣] ولم يمزج حياته بهذه الحقيقة السامية لا يستطيع أن يتخلص من دسائس الشيطان وحيله أبدًا.

---

[١] الترمذي، القيامة ٥٩.

[٢] البخاري، الرقاق ١٣ الترمذي، الزهد ٢٥؛ ابن ماجه، الزهد ٣.

[٣] انظر: كشف الخفاء للعجلوني، ٢٩١/٢.

أجل، يجب على الإنسان أن يموت من ناحية النفس الأمّارة بالسوء ومن ناحية شهوات الجسد حتى يحيا من الجانب الروحي.

أليس الذين يرون الحياة عبارة عن النفس وشهواتها فقط مساكين انسحقوا تحت أثقال الجسد؟

ج. عاقبة الصدق والكذب

يروي البخاري ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن مسعود الحديث التالي:

«عليكم بالصدق، فإنّ الصدق يَهدي إلى البر، وإنّ البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يَصْدُق ويَتَحرَّى الصدق حتى يُكتَب عند الله صِدِّيقًا. وإياكم والكذبَ، فإن الكذب يَهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار. وما يزال الرجل يَكذِب ويَتَحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّابًا.»[١]

الصدق شعار الأنبياء، والكذب شعار الكفار والمنافقين. الصدق أساس مهم يحتضن الحاضر والمستقبل، والكذب لطخة سوداء على جبين الزمن. ليس هناك فرد واحد عاش سعيدًا ووصل إلى السعادة الأبدية في ظل الكذب أبدًا. وليس هناك فرد واحد مشى في طريق الصدق المنير وباتجاه السعادة الأبدية فأصابه نكد الحظ وشقي في الدنيا وفي الآخرة.

الكذب من أبرز أسس الكفر ومن أوضح علامات النفاق، وهو ادعاء مخالف لعلم الله تعالى. لقد خرّب الكذب كل شيء في أيامنا الحالية... خرب الناس وجعل الدنيا دارًا ومسكنًا للكذابين. إنه علة اجتماعية خطيرة ومفزعة إلى درجة أنك لو أعطيته حق الحياة وفتحت له أبواب الوطن والبيت والسوق والبرلمان والمعسكر، وأعطيته حرية التجول فيها لخابت الأمة وما أفلحت أبدًا.

وعلى النقيض من هذا فإن الصدق أهم أسس الإسلام وأبرز صفة في الْخُلُق المحمدي وحجره الأساس والصفة المميزة للأنبياء وللأولياء والمحور الأساس للرقي المادي والمعنوي. الصدق صفة الملائكة والكذب صفة الشياطين. الأول صفة العبيد المكرمين عند الله، والآخر صفة الأرواح الخبيثة. الأول صفة فخر الكائنات عليه أكمل الصلوات وأتم التسليمات والآخر صفة الدجالين.

وكلمة "البرّ" تعني جماع الخير، وهي كلمة شاملة تعني صدق التفكير وصدق الحديث

---

[١] البخاري، الأدب ٦٩؛ مسلم، البر، ١٠٥؛ أبو داود، الأدب ٨٠.

وصدق النية وصدق السلوك وصدق العيش... أي يمكن جمع الكثير من صور الخير تحت عنوانه وإرجاعها إليه.

أما كلمة "الفجور" فعلى عكس الكلمة الأولى تعني جماع الشر، ولأنها ضد كل صفات الخير والصلاح فهذا يعني أنها تعني كل الأفكار المنحرفة وكل الكلام المنحرف والسلوك المنحرف، فكأنها بذرة جهنمية.

وفي الحديث مقابلة بين "الصِّدِّيق" و"الكذاب". ففي الأول نرى الصدق وقد أصبح طبيعة وفطرة لديه فأصبح مثالاً للصدق. أما الثاني فقد عجن الكذب في طبيعته فأصبح من الكذابين المحترفين.

وقد استعملت صيغة المبالغة عند وصف كلتا الصفتين، فالذي نذر نفسه للصدق يكون رمزًا لصدق التفكير وصدق الحديث وصدق السلوك في الدنيا وفي الآخرة ورمزًا للقرب من الله، إن لم يكن اليوم فغدا. أما الذي ترك نفسه للكذب، فسيكون رمزًا لكذب التفكير وكذب الحديث وكذب السلوك في الدنيا وفي الآخرة، إن لم يكن الآن فغدًا.

وهذان الطريقان أحدهما طويل والآخر قصير، أحدهما نير والآخر مضبب، أحدهما خطير والآخر أمين... هذان الطريقان لابد أن ينتهي أحدهما إلى الجنة والآخر إلى الجحيم. في كل محطة من محطات الطريق الأول هناك مكافآت وجوائز لصاحبه ثم ينتهي الطريق إلى الجنة. وفي الطريق الثاني الخيبة والسوء ثم ينتهي الطريق إلى جهنم وإلى الخسران الأبدي.

كنا قد ذكرنا هذا الحديث في موضوع صدق رسولنا ﷺ. غير أننا نريد أن نقف هنا على نتائج الصدق في الدنيا وفي الآخرة، وعلى أضرار الكذب على مستوى الفرد وعلى مستوى الحياة الاجتماعية، وكيف أن الحديث النبوي استطاع أن يغطي كل هذه المعاني في جمل قصيرة ومركزة.

أجل، إن المدقق لهذا الحديث فقط يدرك ويتأكد تمامًا بأن جَمْع كل هذه المعاني الطويلة والمفصلة في مثل هذه الجمل القليلة والقصيرة وإظهار هذه المعاني بهذه الطريقة الساحرة للنفوس ليس إلا ميزة خاصة برسول الله ﷺ. فما من أحد غيره يستطيع ذلك.

د. المرء مع من أحب

يروي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود الحديث التالي: «المرء مع من أحب.»[1]

---

[1] البخاري، الأدب ٩٦؛ مسلم، البر ١٦٥.

إن شرح وإيضاح معاني هذا الحديث يتطلب مجلدًا كاملاً على الأقل. فالمرء الذي تعثر وظل في منتصف الطريق... الذي لم يستطع السير تمامًا وراء مرشده... الذي لم يستطع إنجاز ما كان يحب أن ينجزه... هذا الحديث هو بمثابة قدح كوثر لمثل هؤلاء المنكسرة قلوبهم. هذا الحديث يوضح أن الإنسان -سواء أكان في جانب الخير أم في جانب الشر- سيكون مع من أحب، فالإنسان هنا أو هناك يكون دائمًا مع من يحب. فمن كان يريد أن يكون مع الأنبياء والصديقين والشهداء عليه أولاً أن يحبهم وبتعبير آخر فإن الذين يكونون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين والشهداء هم أولئك الأشخاص الذين كانوا يحبونهم في الدنيا. كما يسري معنى الحديث فيشمل الذين يمثلون الشر والفساد أيضًا؛ ومن ثم فإن الحديث المكون من جملة واحدة فقط يشمل كل هذه المعاني ومعاني أخرى كثيرة وبكل هذا الإيجاز الشديد. وليس هذا في وسع أحد إلا من كانت فطنته مفتوحة للإلهام الرباني والوحي الإلهي.

لقد كان نُعَيمان يشرب الخمر أحيانا، وكان الرسول ﷺ يطبق عليه الحد الشرعي. نعم لقد كان ما يقترفه ذنبا، ولكن لـمّا تلفظ أحد الصحابة بكلمة توبيخ في حقه وسمع هذا رسول الله ﷺ قطّب حاجبيه وقال: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم فوالله ما علمتُ إنه يحب الله ورسوله»[1] أي موصول القلب بحبهما.

فلمّا كان حب الله ورسوله يثمر المعية، فلا يليق أن يساء إلى المحب وإن زل. لأن قلبه يخفق بحب الله ورسوله. وهذا الحب يكفي لكي يحظى بشرف المعية، بشرط أن يؤدي الفرائض ويتجنب الكبائر كحد أدنى. لأن المرء مع من أحب.

هـ. التقوى

يروي الإمام أحمد بن حنبل عن معاذ بن جبل ﷺ الحديث التالي:

«اِتّقِ اللهَ حيثما كنتَ وَأَتْبِع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها وخالِق الناس بخُلق حَسن.»[2]

ليس هناك شيء آخر مثل الخلق الحسن يرفع الإنسان. فالخلق الحسن هو خُلق الله، والخلق الحسن هو التخلق بخلق الله تعالى.

فنحن أمام حديث يشرح التقوى وكيفية المحافظة عليها وهو موضوع يمكن أن يكتب في حقه المجلدات. ونظرًا لأن هدفنا هو إعطاء بعض الأمثلة، فإننا لن نشرح هنا هذه الحقائق السامية المتعلقة بالتقوى.

---

[1] البخاري، الحدود ٤-٥؛ أبو داود، الحدود ٣٥؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٩٨-٢٩٩.

[2] الترمذي، البر ٥٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥/١٥٣.

و. كما تكونوا يُوَلّى عليكم

في حديث آخر يقول رسولنا ﷺ: «كما تكونوا يُوَلّى عليكم.»[١] حسب نوعيتكم يكون نوع رؤسائكم، ومن أي نبع كنتم فرؤساؤكم محصول هذا النبع. هذا كلام يمكن أن تصنف فيه مجلدات وخاصة في موضوع الإدارة. وإذا سمحتم لي فستناول هذا الموضوع قليلاً بالشرح طبقا لحديث: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته.»[٢] فلكل واحد حدود لمسؤوليته... ويستمر هذا حتى نصل إلى رئيس الدولة الذي تشمل مسؤوليته كل البلد الذي هو على رأسه. غير أن حديث «كما تكونوا يُوَلّى عليكم» يكسب هذا الموضوع بُعدا آخر من زاوية القانون الاجتماعي.

أولاً: يقول الحديث منذ البداية للمواطنين إنكم في غاية الأهمية، لأن الذين سيحكمونكم لا بد أن يطرقوا بابكم ويكونوا في حاجة إليكم مهما كان الطريق الذي سيسلكونه في هذا، أي أنتم الذين تقومون برسم الطريق أمامهم.

إن لعلم الاجتماع قوانينه التي لا تتغير ولا تتبدل، فكما توجد لعلوم الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك قوانينها الفطرية (أو شريعتها الفطرية) ومبادؤها التي لا تتغير، كذلك توجد لعلم الاجتماع قوانينه ومبادئه التي لا تتغير إلى يوم القيامة. فإذا رأينا الناس يسمحون بتواجد الشر ونموه فما ذلك إلا لأنهم سمحوا لهذا الشر أن يستوطن قلوبهم وصدورهم، فكان من الطبيعي أن يداروا ويحكموا بوساطة الأشرار... لأن هذا ناموس إلهي لا يتغير.

أجل، لنتساءل: هل يعيش الشر في نفوس الناس وهل يجد فيها تربة صالحة للنمو والانتشار؟ وهل ينبت الفساد في هذه النفوس؟ إن كان الجواب "نعم" فإن الله تعالى سيأتي لهؤلاء بحكام من نفس طينتهم، ليقوموا بإدارة هؤلاء الناس وحكمهم.

ثانياً: يقول هذا الحديث أيضًا إن القوانين والأنظمة ما هي إلا مدونات في السطور، وليس لها تأثير كبير، فلو اجتمع الناس وتعاونوا ليكتبوا أفضل القوانين فليس هذا مهمًا، بل المهم هو مدى تطبيق هذه القوانين؛ لأن أخلاق هؤلاء الناس هي المعيار الأول، لأنهم إن كانوا على خلق وحَلُّوا مسائلهم وما يعرض لهم من مشاكل بصيغة أخلاقية فإن الذين سيأتون لإدارتهم لن يكونوا أشخاصًا سيئين. ولأنقل لكم هنا حادثة واقعية تتعلق بهذا الموضوع:

كان "طاهر أفندي" أحد النواب في المجلس النيابي الأول. وكان عالماً فاضلاً. وبينما

---

[١] كنز العمال للهندي، ٨٩/٦.

[٢] البخاري، الجمعة ٤١١ مسلم، الإمارة ٢٠.

كان النواب الآخرون منهمكين في إلقاء الخطب الرنانة في الساحات، كان طاهر أفندي يفضل لزوم الصمت. غير أن محبيه وأنصاره ألحوا عليه كثيرًا لإلقاء خطبة في أحد الميادين وأقنعوه بذلك. ولكونه شخصًا لا يحب الثرثرة، بل يفضل الكلام الموجز المفيد فقد قال لهم في خطبته تلك:

"أيها الحاضرون! اعلموا أنكم متخِبون وأننا متخَبون ومجلسنا هو متخَب إليه وإن ما قمتم به يدعى عملية الانتخاب. وكلمة الانتخاب مشتقة من كلمة "النخبة". والنخبة تعنى زبدة الشيء فلا تنسوا أن زبدة كل شيء ترجع إلى نوعية ذلك الشيء. ففوق الحليب تتكون زبدة الحليب، وفوق اللبن تتكون زبدة اللبن، وفوق مادة الشب تتكون زبدة الشب."

ويضاهي هذا الجواب الذي أجابه الحَجّاج بن يوسف الثقفي للشخص الذي حدثه عن عدالة عمر بن الخطاب ﷺ إذ قال الحجاج:

"لو كنتم أنتم مثل أصحاب عمر ﷺ لكنتُ أنا مثل عمر بن الخطاب."

ثالثًا: إن على كل إنسان أن يبحث عن التقصير في نفسه. فما دام كل إنسان يحامي عن نفسه ويدافع عنها فقط، ويبحث عن التقصير عند غيره، فلن يمكنه إحراز أي تقدم إيجابي. فلو لم يغير الناس أنفسهم فإن الله لا يغير ما بهم.[1] فإذا كان هناك فساد في الداخل فلابد أن يسري ذلك الفساد إلى كل مكان حتى يصل إلى القمة.

ويمكن أن نقول نفس الشيء حول صلاح الناس الداخلي واستقامتهم. إذن، يمكن القول بأن وضع ولاة الأمور مرتبط بوضع المواطنين ارتباط النتيجة بالسبب. ومن يدري ماذا يحتوي هذا القول الموجز من جواهر أخرى، وربما استطاع أهل العلم استنباط معانٍ أخرى أكثر سعة وعمقًا. فليس هناك قول بشري آخر يشير ويحث إلى وجوب بناء المجتمع بناء صالحًا بكلمات في غاية الوجازة مثل هذا القول. ولا عجب فإنه من صاحب الفطنة العظمى الرسول محمد ﷺ الذي يحلق كل بيان له في سماء الفصاحة والبلاغة.

أجل، إنه يحتل أسمى مكان بين الناس جميعًا في ميدان البيان والفصاحة، فليس هناك من أديب يستطيع أن يبلغ تلك الذروة. صحيح أن أقواله ليست آيات من القرآن، ولكنها بمجملها تحمل صفة الإلهام، ولهذا السبب فإن جميع الأدباء والفصحاء -كما قلنا في بداية الموضوع- لن يصلوا إلى درجة الْخَدَمِ عنده.

لقد كان حَسّان بن ثابت شاعرًا كبيرًا دعا له الرسول ﷺ ومدحه وأيده جبريل عليه السلام. ومع

---

[1] انظر الآية: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١).

هذا فقد استطاعت الخنساء أن تجد ثمانية أخطاء في أربع أبيات من شعره... هذه الشاعرة العظيمة التي أسلمت عندما استمعت إلى رسول الله ﷺ، وأصبح كل همها هو الاستماع إلى سلطان البيان الذي سحرها كلامه إلى درجة أنها عندما بلغها استشهاد أربعة من أولادها في معركة القادسية لم تنطق بكلمة شكوى واحدة، وهي نفسها التي أغرقت عهد الجاهلية بأشعار الرثاء لأخيها صَخْر والبكاء عليه. ولكن عندما يبلغها نبأ استشهاد أولادها الأربعة في معركة القادسية لا تشتكي بل تقول: "الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم."[١]

كانت الخنساء من الملهَمات. فكلما سقط ابن لها شهيدًا في المعركة تلوَّثْ من الألم وهي تحس كأن السهم أصاب صدرها هي، ولكن ارتباطها بالرسول ﷺ كان قويا إلى درجة أنها لم تتلفظ بكلمة شكوى واحدة.

ز. الأعمال بالنيات

يروي البخاري ومسلم وأبو داود عن عمر بن الخطاب ﷺ هذا الحديث:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه.»[٢]

لما كانت الهجرة هي السبب وراء هذا الحديث فقد كانت الهجرة هي صلب الموضوع فيه، ذلك لأن سبب هذا الحديث كان الحادثة التالية حسب إحدى الروايات:

كان الجميع يهاجرون من مكة إلى المدينة في سبيل الله، ولكن صحابيًا لا نعرف اسمه هاجر من أجل امرأة اسمها أم قيس.[٣] لقد كان هذا الصحابي مؤمنا، غير أن نيته في الهجرة لم تكن مثل الآخرين. كان مهاجرًا أيضًا... ولكن في سبيل "أم قيس"، التي عانى كل مشقات الهجرة في سبيلها، لذا أصبح هذا العمل موضوع حديث رسول الله ﷺ دون ذكر أي اسم. فحكم هذا الحديث عام يشمل كل شيء وكل شخص، لأن العبرة بعموم الحكم لا بخصوص السبب.

١. النية

أجل، إن جميع الأعمال حسب النيات، وليست الهجرة وحدها. فإن كانت نية الشخص

---

[١] الإصابة لابن حجر، ٢٨٨/٤.

[٢] البخاري، بدء الوحي ١؛ مسلم، الإمارة ١٥٥؛ أبو داود، الطلاق ١١.

[٣] فتح الباري لابن حجر، ٢٤/١-٢٥.

المهاجر متوجهة إلى الله ورسوله وجد قبالته الله ورسوله. والشيء نفسه نجده في الصلاة وفي الصيام والزكاة. وكما ورد في حديث سابق فمن يحفظ حقوق الله يجده تجاهه «اِحْفَظ اللهَ يَحفظْكَ»؛ وهذا يعني أنه سيجد أمامه عناية الله وكرمه ورحمته. وعندما يجد الإنسان أمامه هذه العناية والكرم تجيش عواطفه ويخر ساجدًا لربه فيزداد قربًا منه. وكلما ازداد قربًا من الله كلما صفت نياته في جميع أعماله وأفكاره. وفي ظل إخلاص النية هذه وعندما ينتقل إلى العالم الآخر الذي يتبدل فيه كل شي، أي في القبر وفي البرزخ وفي الحشر وفي الصراط سيجد الله تعالى أمامه، فإن استطاعت أعماله أن توصله إلى درجة "لواء الحمد" فسيجد أمامه رسول الله ﷺ وسيسعد بصحبته فيلقى صحبة وراء كل تصور أو خيال.

أما من كانت نيته لغير الله، بل كانت هجرته وتعبه ومشقته من أجل امرأة، أي أن نيته كانت للذة مادية، فهذا يعني في نهاية الأمر أن جميع جهوده والمشقات التي عاناها تكون هباء منثورًا.

إن من يعيش لجسده، ولملذات بدنه، ولا يستمع لصوت روحه ووجدانه سيقضي حياة فارغة لا معنى لها، ولن يجني أبدًا النتائج التي يجنيها من نظم حياته في سبيل مرضاة الله تعالى. وقد ورد في حديث آخر: «نية المؤمن خير من عمله.»[1] ذلك لأن الإنسان مهما جهد فلن يصل إلى الهدف الذي نوى الوصول إليه. فكان من رحمة الله الواسعة أن يعامل المؤمن حسب نيته، لأن نيته ستكسب المؤمن أكثر من عمله. ومن ثم كانت نية المؤمن خيرًا من عمله من هذه الجهة.

وأنا أود لفت نظركم إلى حديث آخر له علاقة بهذا الموضوع إذ يقول الرسول ﷺ: «ألا وإن في الجسد مُضْغَةً إذا صلَحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.»[2]

إذا كنت خالص النية ووجدت تربة صالحة، فإن كل بذرة تبذرها ستنبت نباتًا حسنًا. ومع أنها ستكون نبتة ضعيفة في بداية الأمر إلا أنها ستصبح فيما بعد شجرة باسقة نتفيأ ظلالها في الدار الآخرة. وكلما كانت نيتنا صافية كلما بسقت هذه الشجرة ووهبتنا ثمارها في الجنة. بالنية تنقلب عادات الإنسان وحركاته الاعتيادية إلى عبادة خالصة. فالشخص الذي ينام ناويًا قيام الليل تكون أنفاسه وهو يغط في النوم بمثابة ذكر لله. ولولا ذلك كيف كان يمكن للإنسان وهو بهذا العمر القصير وبهذه الأعمال القليلة أن ينال الجنة؟

---

[1] مجمع الزوائد للهيثمي، ١/٦١، ١٠٩.

[2] البخاري، الإيمان ٣٩ مسلم، المساقاة ١٠٧؛ المسند للإمام أحمد، ٤/٢٧٠.

أجل، إن كانت الحياة الأبدية مهداة إلى المؤمن، فهي لطف ونعمة مهداة لنيته في العبودية الأبدية مما يكسب بها الجنة الخالدة. والشيء نفسه وارد في القطب المقابل أي قطب الكافر الذي يستحق النار الأبدية. أجل، إننا نكسب الجنة بسبب نيتنا في العبودية الأبدية. ويكسب الكافر النار بسبب الجحود الأبدي الموجود في نيته.

إن النية وحدها هي التي تكسب الأعمال قيمتها بلا أي استثناء سواء أكانت هذه الأعمال كبيرة أم صغيرة، وتنفخ فيها الحياة فتحييها. بل إن النية وحدها في أعمال الخير والبر تكسب الإنسان الكثير من الأجر؛ فمثلاً إنْ همّ الإنسان بحسنة مّا ولم يعملها فِعْلاً فإنه يكتسب أجرًا من جراء نيته، فإنْ عملها اكتسب أجر عشر حسنات أو مائة أو أكثر كما يشاء الله تعالى. أما إن هم بسيئة ثم لم ينفذها فلا تكتب له سيئة من جراء نيته السيئة تلك، وإن قام بها كُتبت له سيئة واحدة فقط.[1] ولا شك أن كل سيئة لها عقاب من جنسها.

٢. الهجرة

ومن الجدير بالملاحظة مدى إشارة الحديث لأهمية الهجرة. صحيح أن الهجرة بمعناها الخاص قد انتهت، لأن رسول الله ﷺ يقول: «لا هجرة بعد الفتح»[2] ولكن الهجرة في معناها العام مستمرة حتى يوم القيامة، ذلك لأن الهجرة توأم للجهاد، وُلِدا معًا ويعيشان معًا. والنبي ﷺ يخبرنا بأن الجهاد مستمر حتى يوم القيامة إذ يقول: «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة.»[3]

أجل، إن الشخص الذي يترك أباه وأمه ودياره ووطنه قاصدًا ديار الغربة من أجل إيصال دعوة الله إلى الناس... هذا الرجل الداعية وكل إنسان مؤمن هو في هجرة دائمة وسينال ثوابها.

ومن جهة أخرى لم يعيّن الله ثوابا محدَّدًا للهجرة في سبيل الله ورسوله، مما يشير إلى أن ثواب مثل هذه الأعمال تعطى يوم القيامة على شكل مفاجأة سارة. فالملائكة تسجل هذه الأعمال كما هي، والله ﷻ هو الذي يقدر ثوابها.

إن أداة "إنما" الواردة في بداية الحديث تفيد الحصر، وهذا معناه أن العمل لا يكون عملاً إلا بالنية. فأي عبادة دون نية لا تعد عبادة، لذا فإنْ صلّى أحدهم ركعة دون نية، أو بقي جائعًا لسنوات أو وهب جميع أمواله، أو قام بجميع مناسك الحج دون نية لا يعد هذا الشخص

---

[1] البخاري، الرقاق ٣١؛ مسلم، الإيمان ٢٠٦-٢٠٧.

[2] البخاري، الجهاد ١؛ مسلم، الإمارة ٨٥.

[3] أبو داود، الجهاد ٣٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٠٦/١.

مصليًا أو صائمًا أو مزكيًا أو حاجًا؛ لأن النية هي التي تحول جميع هذه الأعمال إلى عبادة.

أ- الهجرة من الذنوب

وعندما ندقق النظر في الحديث نرى أن رسول الله ﷺ شرح موضوع النية وهو موضوع واسع بثلاث كلمات، ثم أشار إلى موضوع الهجرة وهو موضوع متشعب بجملتين أو ثلاث مبتدئًا بذكر الهجرة التي تعني ترك المعاصي والذنوب ومتناولاً جميع الهجرات في سبيل الحق حتى يوم القيامة بجملتين أو ثلاث وبأسلوبه "السهل الممتنع"، وهذا لا يتيسر إلا لسيد الفصحاء والبلغاء. ومن المفيد القول بأن أفضل المهاجرين هو من هجر المعاصي والذنوب وأخلى قلبه من جميع أنواع الحب عدا حب الله تعالى.[١]

دعا إبراهيم بن أدهم ربه يومًا فقال:

"يا رب! لقد فَنِيتُ في حبك، هجرتُ كل شيء وجئت إليك، لم تَعُدْ عيوني ترى شيئًا غيرك..." وبينما كان مستغرقًا في جو هذا الدعاء الحار، رأى ابنَه بجوار الكعبة، ورآه ابنُه كذلك، فدَفعتْ لَوعة فراق السنين كلاًّ منهما نحو الآخر. وفي لحظة العناق الحار سمع إبراهيم بن أدهم هاتفًا:

"يا إبراهيم..! لا يجتمع حبان في قلب واحد" فصرخ إبراهيم: "خذ إليك يا رب من كان حائلاً بيني وبين حبك" فهوى ابنه تحت قدميه ميتا.[٢]

ب- الهجرة إلى الرحمة الإلهية

من الهجرة الفرار من المعاصي إلى باب الرحمة الإلهية، ولزوم هذا الباب حتى مجيء العفو الإلهي. وما أحسن قول القائل معبرًا عن هذا المعنى:

إلهي عبدك العاصي أتـاك	مُقِرًّا بالذنوب وقـد دعـاك
وإن تغفر فأنت أهل لذاك	وإن تَطْرُدْ فمن يرحم سواك

إن الإنسان الذي يكره العودة إلى المعاصي والذنوب التي تاب منها، أكثر مما يكره إلقاءه في النار هو الإنسان الذي يسلك طريق الهجرة بحق وصدق.

إن الإنسان الذي ينظر إلى حمى الله في أرضه نظرته إلى ساحة ملغومة بالمتفجرات، والذي يصون يده ورجله وعينه وأذنه وفمه وشفته عن المعاصي يعد مهاجرًا في سبيل الله

---

[١] الحديث الذي يذكر هذا هو المهاجر من هجر ما نهى الله عنه. انظر: البخاري، الإيمان ٤؛ النسائي، الإيمان ٩؛ أبو داود، الجهاد ٢؛ ابن ماجه، الفتن ٢.

[٢] تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار (ترجمته باللغة التركية) ص١٤٦-١٤٩.

طوال حياته سواء أكان بين الناس. أم كان منزويًا ومعتكفا. فالهجرة مستقرة في أعماق قلبه وهي رفيقته، غير أن الهجرة في الاعتكاف لها طعم آخر وبعد آخر، إذ يصل الإنسان فيه إلى "الأنس بالله" ويستقبل النفحات الإلهية.

وإذا أردنا تلخيص هذا الموضوع يمكننا أن نقول إن هذا الحديث الشريف يومئ إلى عدة مسائل:

أ. أن النية هي روح العمل، والعمل يعد ميتًا إن كان بغير نية.

ب. أن النية إكسير نوراني حافل بالأسرار يحول الحسنات إلى سيئات والسيئات إلى حسنات.

ج. أن ارتباط العمل بالنية هو الذي يجعله عملا، فالهجرة دون نية تعد سياحة، والجهاد دون نية يعد بغيا، والحج دون نية نزهة، والصلاة دون نية رياضة، والصوم دون نية حمية لغاية صحية. ولكي تكون كل هذه العبادات أجنحة تطير بالإنسان إلى الجنة فلابد من النية الخالصة.

د. أن الجنة الخالدة الأبدية نتيجة لنية العبودية الأبدية، والنار الأبدية نتيجة لنية الجحود والإنكار الأبدي.

هـ. أن الإنسان يستطيع بنيته الحصول على نتائج كبيرة وجوائز ثمينة بجهد صغير وبثمن قليل.

و. إن من يستثمر جوهرة النية بحق يستطيع أن يملك بها الدنيا وما فيها.

ز. أن الدنيا والمرأة رغم كونهما من نعم الله إلا أن سوء استعمال هذه النعم، وعدم مراعاة الموازين الشرعية عند التعامل معهما يعني إقامتهما بديلين لرضا الله ورسوله، وذلك يجر إلى خسارة الإنسان كل شيء في مجال الكسب.

وفي النهاية لقد استطاع هذا الحديث في ثلاث أو خمس جمل أن يضم كل هذه المعاني الكبيرة وغيرها والذي يحتاج كل معنى فيها إلى كتاب كامل لشرحه. أي استطاع سيد البيان ﷺ أن يرينا الشمس في ذرة، والبحر الزاخر في قطرة.

ح . بلاء اليد واللسان

يروي البخاري من صاحب جوامع الكلم ﷺ هذا الحديث:

«المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه.»[1]

---

[1] البخاري، الإيمان ٤؛ النسائي، الإيمان ٩؛ أبو داود، الجهاد ٢؛ ابن ماجه، الفتن ٢.

١. المسلم المثالي

والآن لنحلل هذا الحديث باختصار:

للام التعريف في كلمتي "المسلم" و"المسلمون" هنا معنى محدد. فالمسلم المثالي هو الذي دخل إلى جو السلم والسلامة والثقة وأذاب كيانه فيه. وهو المؤمن الذي لا يمد لسانه ولا يده بالأذى للمؤمنين من أمثاله، وليس الذي مكتوب في هويته أو بطاقته الشخصية أنه مسلم أي المسلم بالجنسية، فالموضوع هنا يتعلق بصفات المسلم الحقيقي والمؤمن المثالي.

فلام التعريف هنا للعهد، والقاعدة تقول: إن إطلاق الذكر يصرف نحو كمال الوصف. لذا، فعندما ترد كلمة المؤمن فإن الذهن ينصرف إلى معنى "المؤمن الكامل". والمؤمن أو المسلم المذكور في الحديث الشريف هو من هذا النوع.

والإنسان لا يعلم عادة هذه الأمور اللغوية الدقيقة، فلا يعلمها سوى من تعلم في المدارس أو في حلقات التدريس أو عند أحد العلماء فيتعلم دقائق النحو ودقائق اللغة. ولم يكن هذا واردًا بالنسبة لرسول الله، فكلامه لم يكن من عنده، بل من عند المعلم الأزلي. لذا، نرى في بيان الرسول ﷺ جميع دقائق اللغة، وإضافة إلى هذا لا نجد فيه أي قصور أو مخالفة أو خطإ لغوي.

والآن لنرجع إلى الحديث. المسلم هو إنسان السلام والأمن إلى درجة أن المسلمين الآخرين يستطيعون أن يديروا له ظهورهم بكل أمن، لأنهم يعلمون بأنه لن يؤذي أي أحد. وعندما يضطرون إلى إيداع أهلهم أمانة عنده يستطيعون ذلك دون أن يخالجهم أي خوف، لأنهم يعلمون عدم صدور أي أذى منه، لا من لسانه ولا من يده. وعندما يتركون مجلسًا ضمهم معه، فإنهم يتركونه وهم مطمئنون بأنه لن يغتابهم في غيابهم، ولن يستمع إلى غيبتهم من أحد الحاضرين. وهو يراعي كرامة الآخرين وعرضهم كما يراعي كرامته وعرضه تمامًا. قد لا يأكل ولكنه يُطعِم. قد لا يشرب ولكنه يسقي، وقد يفتدي الآخرين بروحه، بل قد يضحي بأحاسيس فيوضاته الروحية من أجل الآخرين. ونحن نستخرج كل هذه المعاني من لام التعريف التي تفيد معنى الحصر.

٢. السلم والمسلم

من جانب آخر هناك جناس بين هاتين الكلمتين. فكلمة "المسلم" وفعل "سلم" يأتي كلاهما من جذر "س ل م". ونظرًا لوجود بعض التشابه بين حروفهما فالجناس هنا جناس

ناقص. غير أن صيغة كل من هاتين الكلمتين مختلفتان، فهذا التشابه والاختلاف يذكرنا بالمعنى التالي:

المسلم هو الإنسان الذي تجري جميع الأمور عنده في "سلم" وفي "سلامة" و"سلام". فقد ترك نفسه إلى الشوق الإلهي بحيث أصبحت جميع حركاته وسكناته حول هذه القوة المركزية. هو يسلِّم على الجميع، على من يعرفه وعلى من لا يعرفه... لذا، تستقر محبته في القلوب.[1]

عندما ينهي صلاته ينهيها بالسلام فتتلقى الكائنات العاقلة جميعها هذا السلام من إنسها وجنِّها وملائكتها. فهو يسلم على هذه الكائنات وإن لم يكن يراها. وليس هناك عدا المؤمنين من أفشى السلام بهذه الصورة الواسعة.

يتم الدخول إلى الإسلام بأداء أركان الفرائض: الصلاة والصوم والزكاة والحج والنطق بالشهادتين، وهذا يتم بالدخول إلى السلم حسب أوامر الآية الكريمة: ﴿أدخُلُوا في السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (البقرة:٢٠٨). أي ينشر شراعه في بحر السلم ويبحر فيه. ومثل هذا الشخص يفوح سلماً وسلاماً في كل حركة من حركاته، ولن يجد أي أحد فيه شيئا سوى الخير ولن يتوقع أو ينتظر منه سوى الخير.

٣. لِـــمَ اليد واللسان ؟

كما هي العادة في كلام رسولنا ﷺ فإن جميع الكلمات المتعلقة بالموضوع مختارة بعناية فائقة. وكما يلاحظ فإن الحديث يشير إلى اليد وإلى اللسان، إذن، فلا بد من وجود حكم عديدة في ذكرهما دون سائر الأعضاء، ذلك لأن الإنسان يستطيع أن يضر إنسانًا بطريقتين... إما يضره وجهاً لوجه، أو يضره غيابياً أي من وراء ظهره. فالضرر الذي يقترفه وجهًا لوجه يمثله الضرر باليد، والضرر الذي يقترفه غيابياً يمثله الضرر باللسان. أي إما أن يعتدي الإنسان بنفسه على حقوق الشخص الموجود أمامه أو يعتدي على حقوقه في غيابه بأن يغتابه ويهينه ويحقره. وكلا الأمرين قبيحان ولا يمكن صدورهما من المؤمن أبدًا، لأنه يتصرف دائما بمروءة حيال الآخرين سواء أكانوا في حضوره أم لم يكونوا.

ثم إن رسولنا ﷺ يذكر اللسان قبل اليد، ذلك لأن من المحتمل أن يقوم الشخص الآخر بمقابلة الاعتداء اليدوي، غير أن الغيبة الصادرة في غياب الشخص أو الافتراءات الواقعة عليه تبقى في معظم الأحوال دون مقابل. لذلك فإن مثل هذا التصرف يؤدي إلى زرع العداوات بكل سهولة بين الأفراد بل حتى بين الأمم. فتعقب أضرار اللسان أصعب من إزالة

[1] البخاري، الإيمان ٢٠؛ مسلم، الإيمان ٦٢.

الأضرار التي تحصل وجهًا لوجه، لذا قدم الرسول ﷺ اللسان على اليد. ومن ناحية أخرى تجد في هذا الحديث قيمة المنزلة التي يحتلها المسلم عند الله، بحيث أن أي مسلم آخر لا يستطيع أن يمد له لسانه أو يده.

إن أحد الأبعاد الخلقية المهمة للدين الإسلامي الذي جاء لتأسيس الأمن والسلام هو أن الفردِ المسلم مثلما يجب عليه الابتعاد عن كل ما يضر شخصه ماديا أو معنويا، كذلك يجب عليه الابتعاد عن الإضرار بالآخرين. وليس هذا فحسب بل عليه أن يكون ممثلاً للأمن والأمان في كل شريحة من شرائح المجتمع. أجل، إن المسلم مسلم حقيقي بدرجة شعور الأمن والأمان الذي يضمه في جوانحه. وهو في غدوه ورواحه وحركاته وسكناته وقيامه وقعوده ترجمان للشعور النابع من "السلام"[1]: فعند مقابلته للمؤمنين يسلِّم عليهم، وعندما يفارقهم يتمنى لهم السلامة... يزين تحيات صلاته بالسلام، ويختم صلاته بالسلام على المؤمنين قبل مغادرة الحضور الإلهي. لذا، فإن من المحال لمثل هذا الشخص الذي أرسى حياته حول محور السلام أن يسير في طريق معاكس لفكره الأساسي، ومضاد للأمن وللسلام المادي أو المعنوي، الدنيوي أو الأخروي. وبعد هذه النظرة من شاهق على هذا الحديث، لنذكر هذه الخصائص المنبثقة من روح الحديث:

أ - إن المسلم الحقيقي أفضل ممثل للسلام العالمي في الأرض.

ب- إن المسلم أينما وجد ينشر حواليه روح السلام، هذا الذي تشربت به أعماق نفسه.

جـ- لا يبتعد المسلم عن إلحاق الأذى أو الضرر بالآخرين فحسب، بل يكون رمزًا للأمن والاطمئنان في كل مكان يُذكَر فيه.

د- لا فرق عند مثل هذا المسلم بين الاعتداء الذي يتم باليد، أو الاعتداء الذي يتم باللسان غيبة ونميمة، أو بالافتراء والبهتان أو بالإهانة والتحقير. بل يكون ذنب الاعتداء باللسان أكبر من ذنب الاعتداء باليد.

هـ- إنْ اقترف المؤمن بعض هذه الذنوب فسيبقى مؤمنا ولا يخرج عن ملة الإسلام، أي لا تكون هذه الذنوب حدًّا فاصلاً بين الإيمان والكفر حسب عقيدتنا.

ويشير هذا الحديث ذو البيان المعجز في سطر واحد فقط إلى أن الإنسان يجب أن يسعى في موضوع الإسلام والإيمان -كما في غيرهما من المسائل- ليس إلى الإسلام أو الإيمان الاعتيادي بل إلى مراتبها العليا، ويضع الحب والشوق في القلوب لبلوغ هذه الغايات.

---

[1] "السلام" هنا اسم من أسماء الله تعالى. (المترجم)

ط . من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه

نتنقل إلى حديث مضيء آخر لرسولنا ﷺ حيث يقول ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تَرْكُه ما لا يَعْنِيه.»[١]

يبين الحديث سر وصول المؤمن بإسلامه إلى درجة الإحسان والإتقان، أي الوصول إلى إسلام متين ودون شروخ أو قصور من ناحية المظهر الخارجي وإلى درجة سر الإحسان من ناحية الباطن. فالواصل إلى هذه الدرجة عليه أن يترك ما لايعنيه... وهو لا بد تاركه.

١. الوقار الداخلي ينعكس على المظهر

إن عبادات الأشخاص المتسمين باللامبالاة وعدم الجدية تكون كذلك أيضًا غير جدية. وشخص من هذا الطراز قد يقوم للصلاة مُظْهِرًا الجدية والوقار، ولكن إن لم تبلغ الجدية والوقار أعماق قلبه ووجدانه وعالمه الداخلي كيراعة تحاول أن تظهر نفسها نجمة لامعة، لا ينجح في الاستمرار في مثل هذا التمثيل، وذلك لاستحالة إخفاء الخُلق والسلوك. فكل إنسان سيتصرف -إن عاجلاً أو آجلاً- حسب طبيعته وحسب خلقه، إلا إذا أصبحت الجدية والوقار طبيعة ملازمة له. ولا يمكن الوصول إلى هذا المستوى إلا بالتمرين والتدريب والرياضة الجادة للنفس. فإن كانت هذه الرياضة موجودة أصبح الجد خلقاً وتراجع "التظاهر". ولكن الإنسان ابن لاشعوره، ولا يستطيع التخلص منه، فالعصفور لا يستطيع تقليد مشية الطاووس مدة طويلة. ونستطيع جمع أطراف هذا الموضوع كما يأتي:

حتى يبرز الإتقان خارج النفس فلا بد أن يوجد داخلها الإحسان، أي أن المظهر الخارجي يجب أن يستمد العون من الداخل... فيجب أن يكون داخل النفس جادًا وقورًا لكي يسري ذلك إلى المظهر الخارجي.

عندما ذُكِر أحد الصحابة الكبار أمام عمر بن الخطاب ﷺ بأنه يستحق أن يكون خليفة قال عمر ﷺ: "إنه أهل للخلافة، غير أنه فيه بعض المزاح، والخلافة جِدٌّ لا هزل فيها."[٢]

فإذا كانت الخلافة التي تقتضي إدارة الناس تتطلب الجدية، ألا تتطلب خلافة الله في الأرض جدية؟ إن الإنسان الذي لا يتسم بالجد والوقار وهو بين يدي خالقه ومولاه، كيف يستطيع أن يكون شخصا جادًا في المواضع الأخرى؟

---

[١] الترمذي، الزهد ١١ ابن ماجه، الفتن ١٢.

[٢] عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة لِشِبْلي النعماني ٢٩٩/١.

٢. شعور الإحسان والجد

إن كلمة "مِنْ" الواردة في بداية الحديث تفيد الحصر، أي هنا شرح للطريق الذي يوصل المسلم إلى مرتبة الإحسان، وهو تركه اللامبالاة. فطالما لم يكتسب الإنسان الجد ولم يترك اللامبالاة فلا يمكنه البلوغ أبدًا إلى مرتبة الإحسان.

في حديث جبريل عليه السلام يتم تناول مرتبة الإحسان في المرحلة الأخيرة. فعندما جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ سأله أولاً عن الإيمان ثم عن الإسلام وبعد أن صدّق أجوبة رسول الله ﷺ سأله: ما الإحسان؟ فأجابه نبينا: «أن تَعْبد اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».[1]

والوصول إلى هذه المرتبة لا يتم إلا بعميق التقوى والزهد والولاية. وعلى الإنسان أن يعيّن الوصول إلى هذه المرتبة كهدف مثالي وأن يجرب الطرق المؤدية إليها. إن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. أجل، إن قلب الإنسان بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء، وكل شيء تجلٍّ من تجلياته، فمن العبث البحث عنه في الخارج، ذلك لأنه أقرب إليه من نفسه، وانكشاف هذا السر يكون في مرتبة الإحسان.

٣. الإتقان في كل شيء

عندما يغمر الإحسان قلب الإنسان ووجدانه يسود الإتقان جميع تصرفاته. والله تعالى يحب العمل المتقن، إذ يقول في القرآن الكريم: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الْغَيبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:١٠٥).

أي أن جميع الأعمال ستعرض على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين من ذوي القلوب النيرة والعقول الأريبة وتمر من تدقيقهم وتفتيشهم. لذا، يجب أن يضع الإنسان نصب عينيه أن كل عمل يؤديه سيمر من خلال التفتيش والتمحيص، ولذا، فعليه أن يعمل عملاً لا يستحيي ولا يخجل منه. ولا يتأتى ذلك إلا بإتقان ذلك العمل. ولكي يوفَّق الإنسان لأداء مثل هذا العمل عليه أن يكون واصلاً لمرتبة الإحسان. وعندما يتعمق العالم الداخلي للإنسان ترتفع درجة الإتقان في عمله، فلا يسقط في وهدة اللامبالاة، وهكذا يحصل على محاسن الإسلام، أو بتعبير آخر يعيش الإسلام الحقيقي، ويصل إلى منزلة ملائمة للإسلام الحقيقي الجميل في ذاته.

و"ما لا يعنيه" هي الأمور التي لا علاقة له بها وغير الضرورية وغير المفيدة له لا في حاضره ولا في مستقبله، بحيث لو انشغل بها فلن يستفيد منها لا هو ولا عائلته ولا أمته أي

---

[1] البخاري، الإيمان ٤١ سنتناول باختصار هذا الحديث فيما بعد.

فائدة. وهكذا فالذي استطاع إدراك جمال الإسلام والوصول إليه يكون قد ابتعد في الوقت نفسه عن اللامبالاة وعدم الجدية.

فهذا الحديث يعلّم الإنسان ما ينبغي. إذ أن عليه أن ينشغل فقط بالمسائل العلوية، بحيث أن كل مسألة منها تكون ذات فائدة له ولأسرته ولمجتمعه، وهذا في الحقيقة هو تعريف للإنسان الجدي.

ولا أتمالك نفسي هنا من عرض أمر دقيق أتحسسه من خلال هذا الحديث: ما المقصود بـ"ما لا يعنيه"؟

إن الشخص المشغول بما لا يعنيه لا يجد الفرصة أمامه لكي ينشغل بما يعنيه حقا، إذ لا يجد الوقت الضروري والكافي لذلك. إن الشخص الذي لم يكتشف حقيقة نفسه بعد، ولم يجد الجو والاتجاه المناسب، لا يمكن أن يقدم على إنجاز إيجابي أو عمل جيد. فالإنسان المغمور حتى ذقنه بما لا يعنيه لا يمكن أن يكون منفتحا على ما يعنيه، لأن قلبه ورأسه مليئان بأمور تافهة وعرجاء، فكيف ننتظر من مثل هذا الشخص الانشغال بشيء ذي قيمة؟

وهكذا استطاع رسول الله ﷺ التعبير عن كل هذه المعاني بجملة واحدة مؤلفة من بضعة كلمات. وعندما قمت بشرح معانيه لم أقل شيئا. كل ما قمت به هو أنني حاولت أن أهوي بمعول التعبير على البنية الرصينة الصلبة لذلك الحديث، فكان كل ما وصلكم عبارة عن بعض القطع المتناثرة منها. وقد لا أكون موفقًا في شرح تلك المعاني كما يجب. غير أن عجزي وعجز أمثالي ليس إلا برهانًا لمدى قوة التعبير عند رسول الله ﷺ وقوة بيانه وفصاحته، ذلك لأننا لا نحيط علمًا بكل معاني أقواله ﷺ التي كان يرسلها ارتجالاً دون تحضير سابق. فالمعاني التي يضيق عنها عالمنا الفكري كانت المعاني الاعتيادية التي يتحدث بها كل يوم. فهل يمكن تفسير هذا إلا بالفطنة؟ إن كلمة العبقرية تبقى هزيلة وعاجزة في شرح هذه الخصلة.

ي ـ . الصبر

يتفق مسلم والبخاري في رواية هذا الحديث: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى.»[1]

عندما شاهد رسول الله ﷺ استمرار بعض العادات الجاهلية عند زيارة القبور، منع المؤمنين من هذه الزيارة. ولكنه عاد بعد ذلك وأباحها ودعا إليها إذ قال: «قد كنت نهيتكم

---

[1] البخاري، الجنائز ٣٢؛ مسلم، الجنائز ١٤، ١٥.

عن زيارة القبور، فقد أُذِنَ لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تُذَكِّر بالآخرة.»[١] ذلك لأن أفضل نصيحة للإنسان وأكثرها تأثيرًا في إنقاذه من طول الأمل موجودة في القبر. ولقد كان رسول الله ﷺ الذي كان رمزًا للوفاء يزور القبور كثيرًا ويزور شهداء أحد مرة في الأسبوع على الأقل.

عن أنس بن مالك ﷺ قال مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «اِتَّقي الله واصبري»، قالت: إليكَ عني فإنك لم تُصَب بمصيبتي ولم تعرفه. فقيل لها إنه النبي، فأخذها مثلُ الموت، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوّابين. فقالت: لم أعرفك... فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى.»[٢]

فقد شرح في أربع كلمات بليغة معجزة مسألة يحتاج بيانها إلى مجلدات.

إن للصبر أنواعا متعددة: الصبر على المصيبة، والصبر في مقاومة الذنوب والآثام، والصبر على العبادة والاستقامة عليها. فأداء الصلاة خمس مرات في اليوم وصيام شهر واحد كل عام على الأقل وأداء الزكاة وإيفاء حق الأوامر الأخرى المتعلقة بالعبودية... كل هذه الأمور تتطلب الصبر وتنظم حياة الإنسان وتصبغ حياته صبغة أخروية. وتنقضي مثل هذه الحياة في درب نوراني وجو تغمره البركة مثمرًا الجنة في نهاية المطاف. لذا، كان على الإنسان أن يعض بالنواجذ على هذه العبادات ويصبر عليها لكي ينور حياته ويضيئها.

فالصبر مُرّ مثل تناول "عشب الصبار" المرّ المذاق الذي يستعمله الأطباء في تحضير بعض الأدوية. غير أن هذه المرارة ليست إلا في البداية، ثم تكون نتائجها بعد ذلك حلوة على الدوام.

إنه ليس من السهل الصبر على الحوادث المرة الأليمة والصرُّ على الأسنان وتَحمُّل كل المصائب دون فقد للأعصاب ودون اهتزاز أو شلل للفكر وللإرادة. غير أن تحمل هذه الآلام يكون عند الصدمة الأولى. ذلك لأن أي تغيير أو انتقال إلى وضع آخر يؤدي إلى تغيير في الحالة النفسية للإنسان ويخفف عنه ويؤدي إلى نسيانه للحوادث التي هزته.

لنفرض أن مصيبة مّا أصابتنا... سنعتقد في الوهلة الأولى استحالة تحملنا لها. ولكن علينا أولاً أن نزيل أثر الصدمة الأولى، وهذا لا يكون إلا بتغيير وضعنا. فإن كنا وقوفًا علينا أن نجلس، وإن كنا قاعدين علينا أن نتمدد، أو نغير شيئا في نوع فعاليتنا... أن نتوضأ مثلاً أو

---

[١] مسلم، الجنائز ١٠٦؛ النسائي، الجنائز ١٠٠؛ أبو داود، الجنائز ٧٧؛ الترمذي، الجنائز ٦٠؛ ابن ماجه، الجنائز ٤٧.
[٢] مسلم، الجنائز ١٥؛ البخاري، الجنائز ٣٢.

نصلي أو نبتعد عن موضوع الحديث الذي كنا نتحدث فيه، أو أن نترك موضعنا ونذهب إلى أي موضع آخر أو إلى أي مكان آخر للالتجاء إلى جو آخر. وأحيانا يكون أخذ سِنة من النوم مفيدًا في التخلص من أثر الصدمة الأولى. وعلى أي حال فإن تغيير الوضع أو الحال أو المكان يقلل من تأثير الصدمة ويخفف من أثر المصيبة التي حسبنا أننا لن نستطيع تحملها.

كما أن الصبر ضروري في موضوع الاستقامة على أداء العبادات. فالصلاة مثلاً قد تبدو للمبتدئ عبادة صعبة جدا، ولكن ما إن يصبر قليلاً وما إن تمتزج الصلاة بروحه، حتى يكون عدم أدائه لصلاة وقت واحد جحيمًا لا يطاق. ويمكن ذكر نفس الشيء بالنسبة للعبادات الأخرى كالصوم والزكاة والحج.

تأملوا معي كيف أن الشخص المؤدي لعبادة شاقة مثل الحج يملأه شوق عارم كل سنة لأداء الحج مرة أخرى، حتى أنه ليكاد يجن من التحديدات التي توضع في موضوع الحج.[١] فمثل هذا الحب للعبادة يعني تجاوز صعوبة الصدمة الأولى... وهذا ينطبق على سائر العبادات الأخرى تقريبًا.

وعلى الإنسان أن يتذرع بالصبر نفسه أمام المحرمات أيضًا. لأن المقاومة المعلنة عند الصدمة الأولى لهجوم الإثم على النفس تخمد شرارته وتضعف طاقته، فيتخلص الإنسان من صدمته. لذا، قال رسولنا ﷺ لعلي ﷺ: «يا عليّ! لا تُتْبِع النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولى وليست لك الآخِرة.»[٢] أي إن نظر الإنسان قد ينزلق إلى الحرام، فإذا حوَّل الإنسان وجهه ونظره حالاً فلا يُعَدّ ذلك ذنبا له بل يعد حسنة لأنه لم ينظر إلى حرام. ولكن النظرة الثانية والنظرات الأخرى تنغرز في قلب الإنسان وروحه كسهام مسمومة فتعكر صفو خياله وتضعف القوة المعنوية لإرادته، لأن كل نظرة إلى الحرام إنما هي بمثابة دعوة لتيسير الولوج إلى دروب الإثم والمعصية. فكل نظرة تشوق وتدعو إلى نظرة أخرى، وهنا يبدأ الإنسان بفتح أشرعته للإبحار نحو الحرام ويبدأ رحلة يصعب الرجوع عنها. فقبل الوصول إلى هذه المرحلة يجب الصبر عند الصدمة الأولى للحرام وعدم التوجه إليه، بل إغماض العين عنه، وهذا من الوصايا الذهبية لرسول الله ﷺ لنا.

وقديما قال "أبكتيتوس": "عندما تحيط بك الخيالات الضارة حاول الهروب منها في

---

[١] المقصود هو التحديدات التي أصبحت توضع في تركيا وفي غيرها من البلدان الإسلامية حول عدد الأشخاص المسموح لهم بالحج في كل سنة ويكون هذا العدد عادة أقل من عدد الراغبين في الحج مما يولد في نفوسهم الألم. (المترجم)

[٢] أبو داود، النكاح ٤٣؛ الترمذي، الأدب ٢٨؛ الدارمي، الرقاق ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٥٣/٥، ٣٥٧.

أول فرصة. وإلا فلن تستطيع الرجوع من الموضع الذي ستقودك إليه." وهذا قول ملهم، ولو عاش هذا الرجل بعد رسول الله ﷺ لقلنا إنه أخذ إلهامه منه ﷺ.

وعندما يبدي الإنسان هذا التصرف تجاه الحرام على الدوام، يصبح هذا طبعه وديدنه، ذلك لأن النور الذي يتولد في قلبه من جراء هذه التمارين التي يمارسها يكون سترًا له من الذنوب والمعاصي التي هي بمثابة شرارات من جهنم، إلى درجة أن غضه البصر عن الحرام يدخل ضمن سلوكه الفطري الأصيل. ولو هجس بباله هاجس مخالف لَغمس يدَه في خلية عسل الإيمان الموجودة في قلبه ونأى بنفسه في ظل هذه اللذة الإيمانية عن كل ما يبعده عن هذا الجو الإيماني والمعنوي.

لذا، يمكننا القول بأنه من المستبعد جدًّا أن يدخل مثل هذا الشخص ساحة الحرام بإرادته.

لكل مصيبة صدمة خاصة بها. وعندما يتم تجاوزها تنقلب المصيبة إلى رحمة، والألم إلى لذة، والهموم إلى أذواق، وآلام مثل هذا الإنسان تكون قد سكنت وهدأت وتركت مكانها للنشوة. غير أن كل هذا مرتبط بتجاوز الصدمة الأولى بنجاح. وهكذا عبَّر رسول الله ﷺ عن هذا الموضوع العميق بأربع كلمات فقط «الصبر عند الصدمة الأولى.»

ك. اليد العليا

يقول نبينا ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل ﷺ: «اليَد الْعُليَا خير من اليد السُفْلَى.»[1]

واليد العليا هي التي تنفق وتعطي، واليد السفلى هي اليد التي تأخذ، وذلك كما فسره النبي ﷺ في أحاديث أخرى.[2] وكما أن اليد التي تعطي هي في الحقيقة أعلى من اليد التي تأخذ، كذلك فإن في الحديث إشارة إلى أن الثواب الناتج من الإنفاق يجعل اليد التي تنفق أعلى من اليد التي تأخذ. كما أن فيه استثارة للكرامة الإنسانية لحث وتشجيع ذوي النفوس السليمة على العطاء وتنفيرهم من الأخذ. وقد بيّن الحديث كل هذا بأسلوب رائع وموجز لا تنبو كل كلمة فيه عن موضعها، فكل كلمة في مكانها وفي موضعها الصحيح.

وحتى لا تبقى عملية الإعطاء والإنفاق معلقة في الهواء فقد جعل هناك يدا تأخذ مقابل اليد التي تعطي، وقد وصف الحديث اليد المعطاء بالخير، ولم يصف اليد التي تأخذ بالشر،

---

[1] البخاري، الوصايا ٩، الزكاة ١٨؛ مسلم، الزكاة ٩٤؛ النسائي، الزكاة ٥٢؛ أبو داود، الزكاة ٢٨؛ الدارمي، الزكاة ٢٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٤.

[2] الدارمي، الزكاة ٢٢؛ البخاري، الزكاة ١٨.

ومع هذا فإن في الحديث إشارة من طرف خفي إلى أنها "أقل خيرا" وتنبيه إلى عدم ضرر الأخذ في بعض الظروف.

ومع ورود كل هذه المعاني فإن حديث «اليد العليا خير من اليد السفلى» لا يعني مجرد اليد المادية، فالرسول ﷺ قد استعمل الكلمات بمعانيها المجازية.

أولاً: لقد عبر بالجزء وأراد الكل، فالمقصود من اليد هنا الإنسان نفسه أي أن معنى الحديث هو "الإنسان المعطي خير من الإنسان الآخذ."

ثانيًا: إن الذي ينفق هو المعطي والذي يُنفَق عليه هو الآخذ، فلو كان الرسول ﷺ قد استعمل هذه الكلمات لشرح صفات اليد لكان يجب أن يقول "اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ"، غير أنه لم يستعمل كلمة "المعطي" ولا كلمة "الآخذ" بل استعمل كلمة "العليا" وكلمة "السفلى" في وصف كلمة اليد. لذا، يرد إلى الخاطر نكتة دقيقة وهي أن اليد التي تعطي ليست أفضل من اليد التي تأخذ في جميع الأحوال. ففي بعض الأحيان قد تكون اليد الآخذة أفضل بكثير من اليد المعطية، وذلك إذا كانت مضطرة أو كانت تحمل نية إثابة اليد المعطية بإنفاق هذا المال في مواضعه الصحيحة، أو عندما يكون صاحب اليد المعطية منانًا، ففي كل هذه الأحوال تكون اليد الآخذة هي اليد العليا، وإن كانت اليد المعطية هي العليا في الظاهر غير أنها تكون السفلى في الحقيقة.

فقد ترى البعض من الفقراء الصابرين... شُعثًا غُبرًا... لا يوقرهم الناس في المجالس... وتغلق في وجوههم الأبواب... هؤلاء يصفهم الرسول ﷺ فيقول: «لو أقسموا على الله لأبرّهم» كان البراء بن مالك من هؤلاء.[1] وكان المسلمون إذا وقعوا في ضيق في أي معركة، ذهبوا إلى البراء وطلبوا منه أن يقسم بأن ينتصروا، فيقسم فينتصر المسلمون،[2] وقد تكون يد مثل هذا الشخص يدًا آخذة.

وكان ثَوبانُ من فقراء الصحابة، ومع ذلك أوصاه الرسول ﷺ بألا يسأل الناس شيئا، ومن ذلك اليوم لم يسأل ثوبان من أي إنسان شيئا حتى إن السوط كان يسقط منه وهو يسير بناقته فينزل عنها ويأخذ سوطه بنفسه لكي لا يسأل أحدًا شيئًا ثم يركب ناقته.[3] فقد يكون من الناس من أعطى لمثل هذا شيئًا، وذلك كمن يعطي جبريل عليه السلام المتمثل في شكل إنسان شيئا أو

---

[1] الترمذي، المناقب ٥٥.

[2] الإصابة لابن حجر، ١/١٤٣، ١٤٤.

[3] أبو داود، الزكاة ٢٧؛ ابن ماجه، الزكاة ٢٥؛ المسند للإمام أحمد، ٥/٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١.

صدقة. فمثل هؤلاء الأشخاص لا يكونون أبدًا في وضع أقل أو مرتبة أدنى من مرتبة المعطين والواهبين، ذلك لأننا نعلم من حديث يرويه أبو هريرة أنه عندما يتم إعطاء صدقة لمثل هؤلاء الأشخاص فكأنما أعطاها لله تعالى، وكأن الله تعالى هو الذي أعطى هذه الصدقة لهم.[1]

١. الوصايا

كأن رسول الله ﷺ يوصينا بعباراته هذه الوصايا:

كونوا أعزاء النفوس، ولا تذلوا أنفسكم بالتسول. ولا تهبطوا أبدًا أفرادا كنتم أو أمة إلى مستوى اليد الآخذة، بل كونوا دائما اليد المعطاء. وبمثل هذا تُبقون على مكانتكم المرموقة وتحافظون على عزتكم. ولا تنسوا بأن اليد العليا تكون دائمًا في أمن وهي تعطي وتبذل، واليد السفلى تكون دائمًا في قلق وهي تلتقط العطايا. كونوا أنتم اليد الحاكمة، ولا تكونوا اليد المحكومة، فإن كنتم فوق كنتم اليد العليا.

٢. المقياس الدولي

يشكل هذا الحديث مقياسًا وقسطاسًا لنا لا يخطئ في المناسبات الدولية. فإن كنا يدًا عليا كانت لنا مكانتنا في التوازن الدولي. عند ذلك تجد جماهيرنا الفرصة السانحة للتخلص من استغلال القوى العظمى لها ولثرواتها، وإلا لما تخلصت من وضع الجماهير المهانة والمستغلة. والمنظر العام الذي نراه اليوم في عالمنا هو مصداق ما نقول. فالقوى العظمى تقوم بامتصاص دماء الأمم والشعوب مقابل ما تعطيه لهم من دراهم معدودة غايتها الدعاية، تسترجع فيما بعد أضعاف أضعافها. ونحن الآن نعيش ذلة كوننا "اليد السفلى"، لذا، فواجبنا الآن هو السعي على المستويين الفردي والجماعي لتحقيق ما ينتظره العالم الإسلامي بل الإنسانية كلها منا.

هذه المعاني -ومعانٍ أخرى قد لا نعلمها- موجودة في هذا الحديث الوجيز والبليغ لرسولنا ﷺ.

ل‍ـ. زمر ثلاث لا تُزَكّى

يقول رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم: الْمُسْبِل إزارَه، والمنّان الذي لا يعطي شيئًا إلا مَنَّه، والمنفِق سِلْعته بالحَلِف الكاذب.»[2]

---

[1] البخاري، الزكاة ٨؛ مسلم، الزكاة ٦٣-٦٤.

[2] مسلم، الإيمان ١٧١-١٧٤؛ الترمذي، البيوع ٥؛ النسائي، الزكاة ٦٩؛ أبو داود، اللباس ٢٥؛ المسند للإمام أحمد، ١٦٢/٥، ١٦٨.

كلمة "ثلاثة" ذكرت مطلقة، أي قد تعني ثلاثة رجال أو ثلاث نساء أو ثلاث جماعات، وقد يكون هؤلاء الرجال علماء أو جهلاء. لأن هوية هؤلاء الأشخاص ليست مهمة بل أوصافهم هي الأهم، لذا أطلقت هذه الكلمة ولم تقيد. و"ثلاثة" هنا كلمة نكرة، والتنوين في آخرها يفيد النكور أي أن هولاء الأشخاص مجهولون وغير معروفين ولا يملكون هوية يُعرَفون بها، لذا فهم وضيعون ومحتقرون إلى درجة لا يستحقون إعطاء أي قيمة أو منزلة لهم. فكما لا ينظر الله إلى وجوههم ولا يكلمهم، كذلك لن تجدوا أنتم فيهم قيمة أو فضلاً لكي تتعرفوا عليهم وتتحدثوا معهم. هؤلاء لم يسقطوا بأجسادهم بل سقطوا وهزموا بأرواحهم وقلوبهم. فانسحق وجدانهم تحت ثقل أجسادهم فلا يملكون أي استعداد للارتقاء، فهم يتدحرجون إلى الدركات السفلى.

وبعد كلمة "ثلاثة" هذه تأتي ثلاثة أفعال تشير إلى المستقبل وترسم أمام الأنظار لوحة قاتمة لهذه الزمر الثلاث.

١. محروميات ثلاث:

أ. المحرومية من التكلم

الفعل الأول هو الفعل المضارع الموجود في بداية جملة "لا يكلمهم الله". والفعل المضارع كما يدل على المستقبل فإنه يدل على الحال. والمصيبة تبدأ بخبر أن الله تعالى لن يكلم هذا الإنسان الذي أعطاه ومنحه قابلية الكلام، ولن يخاطبه. هذه هي المصيبة الكبرى التي تبدأ بالجملة الأولى. ومع أن الله تعالى يَمُنّ على الإنسان في سورة الرحمن بتعليمه البيان ويُعدّ ذلك من نعمه، إلا أنه لا يكلم مثل هذا الإنسان، مع أن تكلم الإنسان وتحدثه دليل على صفة الكلام عند الباري ﷻ. ولكن هذا الإنسان هبط إلى مستوى لا يقبل فيه الله تعالى التوجه إليه بالخطاب، ولا يعطيه هذا الشرف. أهناك عذاب أكبر من عذاب الإنسان الذي يمنع من الكلام والذي لا يُستمع إليه في يومٍ هو فيه في أشد الحاجة إلى الكلام وفي أشد الحاجة إلى شرح حاله والدفاع عن نفسه..؟ إنه يطلب النجدة والغوث... ويتقلب ألمًا وهو يبحث عمن يشرح له حاله... غير أن الواحد الأحد الذي يستطيع أن ينجده ويغيثه لا يستمع إليه أبدًا. وعندما يشرح القران الكريم هذا المنظر يقول ﴿قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون:١٠٨). ذلك لأن الدنيا كانت هي محل وموضع كلامكم... كنتم تستطيعون التكلم هناك والوصول إلى الأنس بالله... لم تأنسوا بالله في الدنيا، واليوم لا يكون هو أنيسكم.

ب. المحرومية من النظر الإلهي

المنظر الثاني أو اللوحة الثانية هي لوحة "ولا ينظر إليهم" إذ لا ينظر الله تعالى إليهم نظرة الرحمة في ذلك اليوم الذي هم فيه في أشد الحاجة إلى نظرة عطف ورحمة. وبينما تشرق بعض الوجوه النضرة فرحًا وبشاشة، تعبس بعض الوجوه وتقتم، وهذه هي الوجوه التي لا ينظر الله تعالى إليها يوم القيامة. ويوم يُدعى كل إنسان باسمه ويصل كل إنسان إلى بَرّ النجاة... في هذا اليوم ما أتعس حال هؤلاء الذين لا يُنظر إليهم. إن الجلود لتقشعر من هول هذا المصير المفجع. لقد علمنا مدى الألم الفظيع لهذا الأمر من حادثة كعب بن مالك عندما قاطعه النبي ﷺ والمؤمنون لمدة قصيرة نوعًا ما، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم،[1] أما هؤلاء فسيستحقون هذا العقاب إلى أبد الآبدين... رُحماك يارب! إن هذا لأفظع من عذاب جهنم... فما أفظع عاقبة من لا ينظر إليه الرب الرحيم ولو نظرة واحدة، وما أشد عذابه!

ماذا نستطيع أن نقول..؟ لا نستطيع إلا أن نقول بأن الإنسان سيجني ما زرعه، وسيلقى ما عمله... إن خيرًا فخير... وإن شرًّا فشر.

ج. المحرومية من التزكية

الوضع الثالث أو المحرومية الثالثة هي "ولا يزكيهم". عملية تزكية الإنسان، أي عملية تنظيفه وتطهيره من الذنوب تكون في الدنيا، لأن على الإنسان أن يذهب الى الآخرة وهو نظيف طاهر، أما في الآخرة فلا ينظف الإنسانَ سوى جهنم... لذا، فإن الله تعالى لا يزكيهم أيضًا.

إن للإنسان فرصة امتحان واحدة. فرصة واحدة يستطيع أن ينتهزها وينجح فيها نجاحًا باهرًا. من استغل هذه الفرصة جيدًا ربح وكسب، ومن أهملها خاب وخسر، فليس هناك احتمال ثالث.

إن الإنسان المسكين الذي تلوّث وتقرّح قلبه ووجدانه وروحه ومشاعره وجميع اللطائف الربانية الممنوحة له مثل تقرّح جسد النبي أيوب عليه السلام... هذا الإنسان المسكين سينظر إلى حاله يوم القيامة ويسائل نفسه: أأستطيع أن أطهر نفسي..؟ قد تبرق له بارقة أمل، غير أن الله تعالى لن يطهر هذه الزمر الثلاث.[2]

---

[1] البخاري، المغازي ٧٩، تفسير سورة (٩) ١٤، ١٩؛ مسلم، التوبة، ٩.

[2] انظر: اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص١٠.

٢. العاقبة: عذاب أليم

والعاقبة هي «ولهم عذاب أليم...» فما أن يخطو هؤلاء خطوة واحدة حتى يجدوا العذاب الأليم أمامهم... عذاب يحرق النفس ويسري إلى جميع أوصال الإنسان، فلا يلبثوا أن يجدوا أنفسهم وقد انحدروا إلى هوة وادي العذاب. من هؤلاء الذين تنتظرهم مثل هذه العاقبة المرعبة؟ من هؤلاء الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم؟ ومن هؤلاء الذين أعد لهم هذا العذاب الأليم؟ سيبلغ الفضول مداه لدى قارئ هذا الجزء من الحديث، وسينقلب كيانه كله ويتحول إلى كتلة من الاهتمام ليرى من هم هؤلاء الزمر الثلاث.

يستمر الرسول ﷺ في حديثه فيقول: "المسبِل إزارَه" وهذا كناية عن الغرور والكبرياء. لقد رأيتم ولا شك صور الرومانيين واليونانيين وهم يجرون أرديتهم وأثوابهم. ويمكن مشاهدة هذا بشكل أوضح في الأفلام المتعلقة بهؤلاء القوم. غير أن المهم هنا ليس في إسبال الإزار، بل جعل هذا الشيء رمزًا للغرور والكبرياء، فهذا هو القصد من الحديث.

٣. الغرور والكبرياء

تناولت العديد من الآيات والأحاديث الغرور والكبرياء وشرحت كيف أنهما من الأمراض السيئة التي تؤدي إلى عواقب وخيمة. فمن أحاديث الرسول ﷺ في هذا الخصوص قوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر.»[1] ذلك لأن الله تعالى قد سد طرق الهداية أمام من كان في قلبه ذرة من الكبر والغرور إذ قال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ اٰيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ اٰيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٤٦).

الكبر ستار يعمي العيون، والقلب الذي داخله الكبر لا يستطيع رؤية المعجزات التي يحفل بها الكون، ولا يدركها ولا يستطيع فهمها، ذلك لأنه عندما تعمى البصيرة فإن البصر الذي يأتي بمعنى الإدراك لا ينفع أبدًا.

العظمة والكبرياء لله وحده. وهذه الحقيقة التي تتكرر خمس مرات فوق كل مئذنة في كل يوم كيف يمكن نسبتها إلى أحد آخر؟ يقول الله تعالى في حديث قدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار.»[2]

---

[1] مسلم، الإيمان ١٤٩؛ الترمذي، البر والصلة ٦١؛ أبو داود، اللباس ٢٦؛ ابن ماجه، الزهد ١٦.

[2] مسلم، البر والصلة ١٣٦؛ أبو داود، اللباس ٢٦؛ ابن ماجه، الزهد ١٦.

والكبر والكبرياء والعظمة صفة من صفات الله تعالى. فما يعنيه اللباس والرداء بالنسبة للإنسان يعنيه الكبر والكبرياء والعظمة لله، ولكن بصفة وكيفية لا نستطيع إدراكها. فالذي يريد مشاركة الله تعالى في واحدة من هاتين الصفتين وبخه الله وقذفه في جهنم. فالقلب المتكبر لا يجد الإيمانُ إليه سبيلا، وبتعبير آخر فإن القلب المشغول بغير الله لا يستطيع الإيمانُ أن يتربع فيه. فهذا هو وضع الشخص المتكبر المغرور، والحديث يصف مثل هذا الشخص بأنه الذي يجر ثوبه خيلاء.

٤. المنّان

الزمرة الثانية أو النوع الثاني من الناس هو "المنان". هذا الشخص أعطاه الله تعالى مالاً وملكًا لكي يستفيد من نعمه وينفق أيضًا على الآخرين فيجازيه الله تعالى مقابل هذا الإنفاق ألف ضعف. غير أن هذا الشخص غافل عن هذا الأمر... غافل ولاهٍ... وإذا أنفق مرة فإنه يبطل هذا الإنفاق لقيامه بالمنّ على من أنفق عليه، وما علم أن هذا المال الذي أنفقه ملكٌ لله تعالى وهو عبد له. فكان من المفروض عليه القيام بإنفاق مال الله تعالى ولكننا نراه ينحرف إلى طريق المن وكأن المال ماله. فما أعظم هذه الغفلة وما أفظع هذا السقوط !

لقد أعطاه الله تعالى مالاً وملكا، وجعل للآخرين حقًّا في هذا المال. فإذا به يبخل فلا يعطي، وإذا أعطى منّ على الناس بما أعطاه. وقد كان خيرًا له أن يقول معروفًا وكلامًا طيبًا بدلاً من القيام بإنفاق أو صدقة يتبعها بالأذى، والقرآن الكريم يقول ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ (البقرة:٢٦٣). والمنّان بخيل في الوقت نفسه، والبخل يبعد الإنسان عن الله وعن الجنة وعن الناس الآخرين ويقربه من جهنم. يقول الرسول ﷺ في حق البخيل: «البخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار.»[١]

٥. الجزاء من جنس العمل

في هذا الحديث قاعدة من قواعد البلاغة، وهي قاعدة "اللفّ والنشر المرتّب"، ويستفاد منها ما يلي:

إن قوله "ولا ينظر إليهم" يقابل قوله "المنان"، وقوله "ولا يكلمهم" يقابل "المسبل إزاره"، وقوله "ولايزكيهم" يقابل "المنفق سلعته بالحلف الكاذب". ومن خلال تلك المقابلة نستطيع أن نستخرج النكتة التالية:

إن هذا المنان الذي لم ينظر إلى الناس نظرة رحمة في الدنيا ولم يهتم بهم، بل إنه كان

---

[١] الترمذي، البر ٤٠.

يمن عليهم بعطائه إن أعطاهم شيئًا، ومن ثم أبطل حسنته بهذا المن سيلقى في الآخرة جزاء من جنس عمله، وسيعامله الله تعالى بنفس هذه المعاملة فلن ينظر إليه.

وذلك الذي يختال في مشيته ويجر إزاره المسبل بغرور ولا يكلم الناس إلا من طرف أنفه، عليه أن يعلم أن الله تعالى لن يكلمه يوم القيامة. ومن ثم فليمسك عن هذا السير وعن المضي في هذا السبيل الخطر الذي يفضي به إلى تلك العقوبة المرعبة.

ثم هذا الذي تعود أن يروّج سلعته بالحلف الكاذب لكي يجر من ورائها منافع دنيوية أو يصرّف بضاعته مستهينا بهذا الحلف فإنه ينساق إلى عاقبة وخيمة حيث يتحقق في حقه وعيد "ولا يزكيهم". والرسول ﷺ رسم له هذه اللوحة بقوله "والمنفق سلعته بالحلف الكاذب". فهو يكذب في حياته التجارية لكي يربح ويجر نفعا دنيويًا، وهو يرى بذلك أنه يستطيع غش الناس وخداعهم بالحلف الكاذب، فهؤلاء هم الزمر الثالثة المستحقة للعذاب.

فلننظر إلى جوامع كلم رسول الله ﷺ. نعم، فهذا القول ديْن في أعناقنا عند قراءة كل حديث، لأن كل عبارة من عباراته تشير إلى أنه رسول الله حقا وصدقا، اللّٰهم صل على سيدنا محمد بعدد أوراق الأشجار وأمواج البحار وقطرات الأمطار وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

هـ . العفة وبلاء الألسنة

في حديث صحيح يرويه الإمام البخاري والترمذي وأحمد يقول رسول الله ﷺ. «من يضمَن لي ما بين لَحْيَيْه[1] وما بين رجليه أضمن له الجنة.»[2] إن القائل هذا هو رسول الله ﷺ الذي يعرف معرفة أكيدة وأكثر من أي شخص ما يَضمن وما لا يضمن. فإن قال إنه يضمن الجنة كان هذا ضمانًا أكيدًا. ومما يدل على ذلك ما جاء في رواية للبخاري عن امرأة عثمان بن مظعون عندما وقفت ترثي زوجها فقالت: رحمة الله عليك أبا السائب. فشهادتي عليك لقد أكرَمك الله. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقالت: بأبي أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فوالله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا.[3]

إذن، فعندما يضمن رسول الله ﷺ الجنة لمن يضمن ما بين لحييه وما بين رجليه فإنه لم

---

[1] لحييه: فكيه، أو منبت لحيته. (المترجم)

[2] البخاري، الرقاق ٢٣، الحدود ١٩؛ الترمذي، الزهد ٦١؛ المسند للإمام أحمد، ٣٣٣/٥.

[3] البخاري، الجنائز ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤٣٦/٦.

يضمن هذا عن هوى في نفسه، بل لا بد أن يكون هذا إخبارًا من الله تعالى في هذا الموضوع، وأنه لم ينطق بذلك أبدًا عن هوى، ولم يُنطقه الله تعالى حسب هوى نفسه بل صانه عن مثل هذا الأمر. إذن، فما قاله كان على الدوام حقا وحقيقة، ويتحقق ما قاله عندما يأتي أوانه دون ريب. فإن حفظت لسانك وحفظت ما بين رجليك وعشت عفيفًا فإنني أقول لك دون أي تردد بأن الزبانية إن ألقت القبض عليك يوم القيامة وأرادت سوقك إلى جهنم فإنك تستطيع أن تصرخ بكل ما أُوتيتُ من قوة بأن رسول الله كفيلك وضامنك، فلا تلبث أن تأتيك شفاعة رسول الله وتنجدك.

١. الكلام نعمة

لسان الإنسان عضو مهم، وله قيمة كبيرة لأنه مظهر لنعمة البيان، ولكن إن استعمل هذا العضو المبارك في السوء انقلب إلى أكثر الأعضاء ضررًا وفسادًا وجرّ صاحبه إلى الهلاك. بهذا اللسان نفسه يسبح الإنسان ربه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتلو القرآن الكريم الترجمان الأزلي لكتاب الكون ويفسره للآخرين، ويقوم به أحيانًا بهداية الملحدين إلى الإيمان فيكون قد حقق عملا أفضل من كل ما طلعت عليه الشمس وغربت، فيسمو بمثل هذا إلى أعلى عليين.

ولكن هذا الفم نفسه قد يُودِي بالإنسان إلى الهلاك أيضًا. فاللسان هو السبيل إلى جميع أنواع الكفر والضلالة. فالذين يشتمون الله ورسوله يفعلون هذا الشيء القبيح المقزز للنفس بألسنتهم، كما أن الكذب والغيبة والافتراء تكون باللسان فيسقط الإنسان إلى هوة الكذب التي سقط فيها مسيلمة الكذّاب.

إذن، فرسول الله ﷺ يقول كلمة واحدة ويشير بالتحذير إلى عضو واحد فيطوي في كلمته هذه المعاني التي ذكرناها باختصار ومئات المعاني الأخرى. فكأنه يقول لنا استعملوا أفواهكم في سبيل الخير لكي أضمن دخولكم الجنة. ولا يقول لنا سُدّوا أفواهكم واقعدوا في زاوية، بل استعملوها في مجال الخير والمعروف.

٢. أدب الحديث

لا يصرّح الرسول ﷺ بذكر العورة بل يكني عنها بقوله "ما بين رجليه"؛ وهذا مظهر من مظاهر أدبه الرفيع. فقد كان دأبه هذا الأدب السامي والرفيع الخاص به حتى وهو يحدثنا عن أمور طبيعية وفطرية بل إنه عندما يتناول مواضيع غير محببة إلى النفس يصورها بصورة تبدو كلوحات محببة. لقد كانت نفسه مرآة لكل الأخلاق الرفيعة والسجايا السامية والجمال

الدائم. فانظر مثلا إليه يتحدث عن عضو يخجل الناس من ذكره فيلمح إليه رسول الله ﷺ بأسلوبه الجميل فيقول: "ما بين رجليه"؛ نعم إن أثر الجميل جميل كذلك.

٣. ما بين رجليه

ما بين الرجلين مهم جدًا. إذ كان وسيلة لخروج آدم من الجنة بعدما ذاق الفاكهة المحرمة. ولأن شرح وتحليل الآيات حول إخراج آدم من الجنة خارج موضوعنا فإننا لن نتناوله هنا، إلا أننا سنكتفي هنا بإشارة موجزة إلى أهمية "ما بين الرجلين"، فبه بقاء النسل وحفظ النسب، كما يؤدي الزنا والفحش إلى خراب النسل، وذلك بسبب اختلاط الأنساب عند سوء استعماله وانهدام كل الأمور التي يجب على النظم القانونية حمايتها.

مَن أبُ مَن؟ من يترك ميراثه لمن؟ من يطالب بحقه مِن مَن؟ كيف يمكن صيانة العائلة والأمة؟ كل هذه الأسئلة وأشباهها مرتبطة بعفةِ ما بين الرجلين. فبينما يتمكن الأفراد العفيفون والمجتمعات المتكونة منهم من الحفاظ على بنيتهم الداخلية حتى يوم القيامة، لا يستطيع الأفراد الساقطون في مستنقع الزنا والفحش ولا المجتمعات المتكونة منهم من إبقاء وجودهم أكثر من نسل واحد.

وكما في المواضيع الأخرى فإن دائرة الحلال هنا أيضًا دائرة واسعة تكفي للنفس فلا حاجة للتوجه نحو الحرام إذ يمكن إشباع تلك الرغبة الموجودة في الإنسان بأفضل شكل في دائرة الحلال، لذلك يقول الرسول ﷺ: «تناكحوا تكثُروا فإني أباهي بكم الأمم.»[١]

فالرسول ﷺ سوف يباهي بأمته الأمم الأخرى، وستكثر أمته إلى درجة أن الأمم الأخرى ستبقى بجانبها شيئًا لا يذكر. وتكاثر أمته بهذه النسبة يرجع إلى ما بين الرجلين. فالذين لهم أنساب والذين لا يملكون أنسابًا سيظهرون عن هذا الطريق، إذن، فما بين الرجلين منبت خصب يؤدي إلى هذين الضدين.

والإنسان الذي يفتش عن الطريق الحلال في هذا الموضوع يكتسب ثواب القيام بالواجب. وعندما شرح النبي ﷺ هذا الأمر لأصحابه تعجبوا واندهشوا: كيف يمكن هذا؟ فتبسم النبي ﷺ وقال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر.»[٢] ذلك لأن ترك الحرام واجب، إذن، فمباشرة المرأة عن طريق الحلال يكسب الإنسان ثواب القيام بالواجب.

---

[١] فيض القدير للمناوي، ٢٦٩/٣؛ كنز العمال للهندي، ٢٧٦/١٦.

[٢] مسلم، الزكاة ٥٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٦٧/٥، ١٦٨.

وهذا موضوع قد يستحي من ذكره بعضهم مع أنه طريق ولجه حتى الأنبياء، فلو حُرِم آدم عليه السلام من هذه الرغبة فكيف إذن، كان سيأتي فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ إلى الوجود. إذن، فإن الغاية الأصيلة من تلك الفاكهة المحرمة هي مجيء النبي ﷺ. وقد سمعتُ من أحد وُعَّاظِنا المتحمسين يقول: "لو علم آدم عليه السلام العلاقة الموجودة بين مدّ يده إلى تلك الفاكهة المحرمة ومجيء محمد ﷺ إلى الدنيا، لم يكتف بمد يده بل قلع تلك الشجرة بجذورها."

٤. الولاية العمودية

أرجو أن أسترعي انتباهكم هنا إلى موضوع مهم جدا، فالرسول كما ذكرنا قد ضمن الجنة لمن ضمن ما بين لحييه وما بين رجليه. ونحن نعرف قدر الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة، إذن، فهناك خارج هؤلاء أشخاص استطاعوا الوصول إلى الجنة بما حصلوا من مقام وقرب. وحصولهم على هذا يعني أن ضمان ما بين اللحيين وما بين الرجلين أمر صعب وغير سهل، ذلك لأن الشهوة عندما تسيطر على الجسم كله وتأخذ بزمام النفس وتهز الروح وتحل الإرادة وتضعفها، عندها تكون نفس المرء مفتوحة لكل أنواع السوء. في مثل هذه اللحظة تكون السيطرة على النفس من أجل مخافة الله وفي سبيله مهمة جدا، إلى درجة أنها تكون وسيلة إلى السمو العمودي للإنسان. والذي يوفق إلى هذا يستحق دون شك ضمان رسول الله ﷺ له دخول الجنة.

أجل، إنني أقول بإصرار بأن من يستطيع لجم فوران نفسه وهيجانها وضبطها ومنعها من الولوج إلى الآثام ومقاومتها على الدوام بصبر لا ينفد.. مثل هذا الشخص قد يحصل في لحظة واحدة على فيوضات لا يحصل عليها شخص قضى سنوات من عمره في تكية، أو شخص يصلي كل ليلة مئات الركعات... يحصل على هذه الفيوضات وعلى رتبة عالية قد تصل إلى رتبة الولاية... ولا يذهبن بأحد الظن بأننا نهوّن من شأن صلاة النوافل أو من صوم النوافل... فهذه النوافل وسائل مهمة في التقرب إلى الله وستبقى كذلك، إنما نريد التذكير بوسيلة أخرى تساعد على ارتفاع الإنسان نحو الكمالات.

لنفرض أن الله تعالى أودع فينا قوة خمسة أو عشرة أشخاص وجهَّزَنا بكل ما يلزم الإنسانَ للوصول إلى أوج الكمال الإنساني، ولكنه صاننا أيضًا من كل ما يؤدي إلى الإثم... ولكن المهم هنا هو قدرة الشخص على المحافظة على نفسه مع وجود الدوافع إلى الإثم في فطرته. أجل، فالمَثَل يقول "بحسب المغرم المغنم"، أي على حسب المشاق يكون الأجر والغنيمة. وكذلك بحسب المخاطر يكون العلو والسمو. فكلما زاد جو الخطر الذي

تعمل فيه، وكلما تحملت مسؤولية في مجالات الخطر كلما زادت مكافأتك. لنوضح أكثر:

إن الله تعالى وضع مثلا بعض الصفات المضرة في فطرتك كالغضب والحقد والنفور والشهوة.. الخ، ولكن إن لم تستطع أيٌّ من هذه الصفات المضرة أن تتحكم فيك في أيّ وقت، بل على العكس من ذلك كنتَ قادرًا دومًا على التحكم فيها بإرادتك القوية، وعشت رجل إرادة وروح مؤدياً الفروض والسنن متبعًا طريق القلب والروح دون أن تتصيَّدك المظاهر البراقة الجذابة الداعية إلى طريق جهنم، كما استطعتَ تحمُّل مصاعب سلوك طريق الجنة، إذا بك تَرى نفسك وقد حشرت مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. وأنا أعتقد بأن هذا هو السر في نظرة العطف لرسول الله ﷺ لهذه الجماعة المسلمة التي تمثل حركة البعث الإسلامي الجديد التي تعتصم بالإسلام وتتمسك به في مثل هذا العصر العاصف بالفتن والذي أصبحت فيه الأسواق والشوارع والميادين وكل المظاهر الاجتماعية الأخرى تموج بالفتن وتبتلع الإنسان وتذيبه في جوفها. لذا، فإن الشخص الذي يصر على أسنانه ويرفض أن يذوب في مثل هذا المجتمع ويحافظ على كيانه وعلى هويته يستحق أن يكون في معية الصحابة يوم القيامة. والصحابة هم رفقاء النبي ﷺ وأصدقاؤه، أما هؤلاء فإخوته، ذلك لأن النبي ﷺ قد اشتاق إلى هؤلاء الناس المؤمنين به والذين سيأتون بعده بعدة عصور وأرسل لهم سلامه وتحياته وأشواقه.[1]

أجل، فرسول الله ﷺ يخاطب إنسان جميع العصور ولاسيما إنسان هذا العصر ويقول لهم «من يضمَن لي ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه أضمن له الجنة»، وهذا القول موجه إلى الأشخاص المشتاقين إلى الجنة والمشتاقين إلى لقاء رسول الله ﷺ أشد الشوق. وسيقوم هؤلاء -بإذن الله- بالتصرف بشكل ملائم وموافق لبشارة الرسول ﷺ وينجحوا في هذا الأمر إن شاء الله.

وهكذا يشرح رسول الله ﷺ الطرق الموصلة إلى الجنة بأوجز وأبلغ عبارة ويرسم لوحة للفرد المثالي وللمجتمع المثالي. وإن حَشْد كل هذه الحقيقة الكبيرة في مثل هذه العبارة الوجيزة لا يمكن إيضاحه إلا بكونه ﷺ صاحب فطنة كبيرة. أجل، فهو سلطان الكلام، وكلامه كله من جوامع الكلم.

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطا إلى

---

[1] مسلم، الطهارة ٣٩؛ النسائي، الطهارة ١١٠؛ ابن ماجه، الزهد ٣٦؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠٠/٢.

المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط.»[١]

لنقف ونمعن النظر في عقد لآليء هذا الحديث حسب قدرتنا. فالرسول ﷺ يبين الطرق التي تنقذ الإنسان من الأخطاء التي تؤدي به إلى أودية جهنم.

يقوم الرسول ﷺ بتنبيه مستمعيه من بدء كلامه باستعمال كلمة "ألا"؛ لأن الأمور التي سترِد في الحديث أمور تستوجب الانتباه. إذ أن تنفيذها يتطلب الانتباه واليقظة. فهناك تصرفات يستطيع الإنسان إتيانها حتى وهو نائم؛ فمثلاً يتجنب الإنسان الوقوع في إثم الزنى أو في إثم الغيبة لكونه نائمًا. ولكن التصرفات التي نحن بصددها الآن أعمال تتطلب اليقظة، ولا يستطيع إتيانها إلا المتيقظون. لذا، تم إيراد كلمة "ألا" في بداية الحديث.

وكلمة "الخطايا" تجلب انتباه المستمعين؛ لأن كل إنسان يخطئ، ومن يزعم أنه لا يخطئ فهو من أكبر المخطئين؛ فالعصمة وعدم الوقوع في الخطأ من صفات الأنبياء والنبي ﷺ يقول في حديثه: «كل بني آدم خطّاءٌ، وخيرُ الخطائين التوابون.»[٢] ولكن رسول الله ﷺ يريد أن يرشد الإنسان إلى حلول للخلاص من الأخطاء التي ستسوقه إلى أودية جهنم.

إن الخلاص من الأخطاء فحسب لا يكفي؛ لأن على الإنسان أن يرقى ويسمو درجات وأن يقطع بعض الأشواط في سبيل ذلك. إلا أننا يمكن أن نقول إن محو خطايا الإنسان يعد بذاته ارتفاعا؛ فإذا ما قام ببعض أعماله الأخرى قد يصل إلى شواهق أخرى. وهكذا فبهذه الأعمال الإيجابية يتقدم إلى الأمام على الدوام، وأنا أعتقد أن هذا هو معنى السير في درجات المعرفة الإلهية. وإن أول هذه الأعمال هو إسباغ الوضوء على المكاره وضوءً تام الأركان والسنن دون عيوب أو قصور.. الوضوء في البرد وفي الشتاء وفي الثلج، وفي ظروف يبدو أن الوضوء فيها غير ممكن. والثاني قضاء العمر في طريق المسجد.. مثل هذا العمر يكون مثل بذرة تتحول في الآخرة إلى شجرة باسقة ضخمة تعطي ثمار الجنة.. إذن، فهذا هو العمل الثاني: التوجه إلى المساجد البعيدة وعدم الانقطاع عن المساجد.

١- الهدف: الصلاة

والعمل الثالث هو انتظار الصلاة القادمة في شوق بعد الانتهاء من الصلاة، وهذا -كما جاء في حديث آخر- يعني تعلق القلب بالمسجد.[٣] الصلاة هي راحة الروح ونزهة القلب.

---

[١] مسلم، الطهارة ٤١؛ الترمذي، الطهارة ٣٩.

[٢] الترمذي، القيامة ٤٩؛ ابن ماجه، الزهد ٣٠؛ الدارمي، الرقاق ١٨؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٨/٣.

[٣] البخاري، الأذان، ٣٦؛ مسلم، الزكاة ٩١؛ الترمذي، الزهد ٥٣.

إن لكل إنسان رغبة شديدة في شيء ما، أما رغبة الرسول ﷺ الشديدة فقد كانت في الصلاة.[١] لذا، كان يقول لبلال: «يا بلال! أرحنا بالصلاة.»[٢] ويشير إلى هذا بقوله: «وجُعل قُرّة عيني في الصلاة.»[٣] وأنا أظن بأن الشوق الذي سيغمرنا ونحن ندخل الجنة هو الشوق الذي كان يحسه الرسول ﷺ في كل مرة وهو يقوم للصلاة، لذا فإنه كان بعد كل صلاة ينتظر الصلاة الأخرى بكل شوق.

مع أن هذا الحديث يتناول أمورا ثلاثة، إلا أننا إن دققنا النظر نجد أن جميعها تدور حول محور واحد هو الصلاة؛ فالصلاة عامل مهم في حياة الإنسان، وهي معراج المؤمن، وهذه الصلاة التي تمتد وتسمو إلى مدارج المعارف أفضل منبِّه للإنسان للحقائق الإنسانية. الصلاة عماد الدين،[٤] وهي التي تقود سفينة الدين؛ ولولا وجودها لما استطاع الدين البقاء طويلاً. وبما أن الصلاة عملية تنبيه، لذا، يجب أداؤها بحيث تؤدي وظيفة التنبيه هذه. فعلى الإنسان أن يصلي وقد أفرغ قلبه من أمور الدنيا ومشاغلها. ولهذا السبب لا تقبل صلاة من يدافعه الأخبثان.[٥] أجل، فعندما يكون عقل الإنسان مشغولاً بمثل هذه الأمور عليه ألا يقوم للصلاة؛ لأن عقل الإنسان يكون آنذاك مشغولاً بشيئين. وفي مثل هذه الأوضاع تضيع أمور كثيرة في معظم الأحيان، كما أن القيام للصلاة بهذه الكيفية يعد إهانة للصلاة. ذلك لأنها ليست من الأمور البسيطة التي يمكن أداؤها كيفما كان. فالصلاة موجودة لكي تقوم بإنارة حياتنا ولا يصح الخروج منها بسرعة وبأي شكل من الأشكال.

٢- التهيؤ للصلاة

من جهة أخرى فإن كل الترتيبات المتخذة لأداء صلاة بحضور قلب تكسب الإنسان الثواب، مثلها في ذلك مثل الصلاة. لذا، يجب على الإنسان أن يطرح عنه جميع مشاغله قبل أن يدخل ساحة العبادة، وأن يدخلها بشعور العبادة وحدها وأن يخلص نفسه من جميع المشاغل والمؤثرات الأخرى. في هذه الحالة يكتسب الإنسان في فترة الاستعداد للصلاة أجرًا وثوابًا، لأن نية هذا الإنسان كانت معقودة لأداء صلاة باطمئنان وحضور قلب، ونية المؤمن خير من عمله.[٦] أليس من العجيب أن الآخرين عندما يذهبون للخلاء يقومون فقط

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٧١/٢.
[٢] أبو داود، الأدب ٧٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣٦٤/٥، ٣٧١.
[٣] النسائي، عشرة النساء، ١؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٩/٣.
[٤] كنز العمال للهندي، ٢٨٤/٧.
[٥] انظر: ابن ماجه، الطهارة ١١٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥٠/٥.
[٦] مجمع الزوائد للهيثمي، ٦١/١، ١٠٩.

بدفع حاجة طبيعية، بينما المؤمن عندما يذهب إلى الخلاء وهو يتهيأ للوضوء وللصلاة فإنه عندما يدفع حاجته يؤجر على ذلك أيضًا.

والحقيقة أن دفع الحاجة ثم التوضؤ لأداء الصلاة أمور مهمة لتهيئة الإنسان روحيا للصلاة. ومهما قيل في تفسير التهيؤ للصلاة بالوضوء من أن الوضوء يعادل الكهربائية الستاتيكية المتراكمة في الجسم في أثناء غسل ودلك الأعضاء، أو أي تفسير آخر فإن النتيجة لا تتغير. وفي الواقع فإن المؤمن عندما يتوضأ لا يخطر بباله مثل هذه الحكم أو التفاسير. فهو يفكر فقط في السبب الذي يتوضأ من أجله وهو الصلاة. والتهيؤ للوضوء هو التنبيه الأول، أما الوضوء فهو التنبيه الثاني وسماع الأذان هو التنبيه الثالث للصلاة. والحقيقة أنه في أثناء الوضوء، وفى ختامه يسنّ له الشرب من ماء الوضوء وقراءة بعض الأدعية؛ وهذا كله يدفعه إلى عالم ما وراء الطبيعة، فإذا أتبع هذا بصلاة السنة فإنه يكون قد تهيأ تمامًا لصلاة الفرض.

أجل، كل شيء فى جو الصلاة يذكرنا بالصلاة بدءً من الأذان المرتفع من فوق المآذن الذي يمس قلوبنا ويذكرنا بعظمة الله.. فنقوم ونسرع إلى المسجد تلبية لنداء الأذان، وعندما تنتهي آخر كلمة في الأذان نحس وكأن قلوبنا وأرواحنا قد ذابت معها، ثم نذهب إلى المسجد ونصلي النافلة، وهي بمثابة فتح أبواب صلاة الفرض.. ذلك لأننا نتوجه إلى الله في صلاة النافلة وكأن كل فرد منا يقول لله تعالى: يا رب!. إنني أريد أن أتوجه إليك وحدك.. أن أجد مثيل ما أبحث عنه... أن أراك وأن أسمعك.. وأن أعيش بك وحدك، ذلك لأن النظر إلى ما سواك، ومشاهدة غيرك والانشغال بسواك جهد ضائع وعمل خاسر، بينما أرغب أن أبتعد عن الأمور الفارغة وأتوجه إلى الأمور المهمة المثمرة.

وهكذا فإن صلاة النافلة تكون وسيلة مهمة في الاقتراب من باب الله والتهيؤ لصلاة الفرض بوعي كامل وتركيز كاف. الوضوء يؤدي دوره.. والأذان كذلك.. والخطوة الثالثة التي تؤديها هي صلاة النافلة.. في هذه الأثناء يقوم مؤذن جميل الصوت متوجها إلى الله ويقيم الصلاة.. هنا يكون الانفعال قد بلغ مداه واشتعلت العواطف والتهبت المشاعر. إن لم تلتهب هنا العواطف؛ ولم يتم التوجه الكامل لله تعالى ولم يحن الإنسان إلى محرابه فمعنى ذلك أن هناك نقصًا ما في مكان ما. عندما تتم الإقامة يكون المؤذن قد أنزل الضربة الأخيرة على كل ما يشغل الإنسان عن الله فيدخل العبد إلى الصلاة بقول: "الله أكبر" في مثل هذا الجو وبهذه النية، ويكرر هذا القول وهو يركع وهو يسجد فيعلن في كل ركوع وفي كل

سجود عظمة خالقه: يا رب..! أنت كبير عظيم الشأن وأنا ضعيف عاجز. أي يقف أمامه وقفة العبد المعترف بعبوديته وبضعفه. فيصل إلى لب العبودية وجوهرها.

يصل الإنسان في الصلاة إلى الله.. يصل إلى درجة أنه يوجه التحية إلى الله تعالى مباشرة.. هذه التحية التي وجهها الرسول ﷺ إلى الله تعالى في أثناء المعراج.

٣- محو الخطايا

عندما يذكر الحديث الشريف إزالة الخطايا يقول "يمحو الله". وكلمة "يمحو" تستعمل في إزالة شيء مكتوب. إذن، فالخطأ أو الخطيئة موجودة في الطبيعة البشرية بشكل نواة. والإنسان يستطيع أن يسقي هذه البذرة وينميها إن أراد، أو لا يعطي الفرصة لها لمثل هذا النماء. وعندما يقوم الإنسان باتباع وصايا الرسول ﷺ يمحو الله الخطايا ويحوّل قابلية الشر إلى قابلية خير. والآية الكريمة ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:٣٩) تشير إلى هذه الحقيقة. فهناك استعداد في الإنسان لمقارفة الخطأ؛ لأن طبيعة فيه لا يمكن فصلها عنه؛ وهذه صفة مهمة في الإنسان، لذا فإن التوجه والاهتمام بتطهير النفس شيء يهم كل إنسان.

يمكن أن يقع كل إنسان في الخطأ، وقد يقضي حياته وهو منحرف عن الطريق القويم، غير أن الفرصة موجودة دائماً أمام الإنسان لكي يصلح هذه الأخطاء ويمحوها، وأن يرتفع في الدرجات العلى للخير. وإحدى الطرق الموجودة لتحقيق هذا هي الوضوء مهما كانت الظروف صعبة، والطريق الثاني هو السعي بشوق إلى المساجد وتعلق قلبه بها، وعقد النية على الرجوع للمسجد وهو يغادره. والطريق الثالث انتظار الصلاة بعد الصلاة.. هذه الطرق تؤدي إلى محو الخطايا من ناحية وإلى رفع الإنسان في مدارج الخير والكمال من ناحير أخرى.

٤- الرباط

وصف رسول الله ﷺ هذه الأعمال بكلمة "الرباط" وكرر هذه الكلمة ثلاث مرات، وكما تطلق كلمة الرباط على كل نوع من أنواع البركة الفياضة المادية منها والمعنوية، فإنها تأتي بمعنى الحذر والانتباه لكل نوع من أنواع البلايا والمصائب، كما تطلق على ارتباط المرء بعمل ما أو نذر نفسه له. لذا، أطلقت كلمة "المرابط" على الجندي الذي يحرس مواضع خطرة ينذر نفسه لمثل هذه الحراسة.

وتشير الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:٢٠٠) إلى هذه المرابطة وتأمر بها. وفي آية أخرى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال:٦٠) يأتي معنى الرباط من زاوية أخرى. وبما أن

الرباط يأتي بمعنى حصر المرء نفسه لوظيفة ما ونذر نفسه لها، فإن الوظيفة المقصودة في الحديث هي الوضوء والرواح والغدو بين البيت والمسجد، وتعلق قلبه بالمسجد حتى وهو في بيته أو في وظيفته.. فإنْ عمل هذا فمعنى ذلك أنه نذر نفسه لله.

وعبارة رسول ﷺ تفتح هنا باباً في الجناس إذ يقول: إن الرباط في الأصل يطلق على قيام الجنود في نقاط الحدود بنذر أنفسهم للدفاع عن بلدهم ضد الأعداء. فكما أن التهيؤ ضد الأعداء وحشد الحشود لهم في الأماكن التي يخشى دخول الأعداء منها يعد رباطا، كذلك فإن هناك معركة بين الإنسان وبين الشيطان والنفس، أي بينه وبين أعدائه، وتعد هذه المعركة من بعض الوجوه جهادا أكبر من ذلك الجهاد. والإنسان مكلف للقيام بكلا هذين الجهادين، أحدهما هو "الجهاد الأصغر" والآخر هو "الجهاد الأكبر"، وعندما يشتبك الإنسان في معركة مع أعدائه فإنه لا يجد فرصة لكي يفكر في أهواء نفسه، لذا فهناك احتمال ضئيل جدًّا أن ينهزم مثل هذا الشخص أمام نوازع جسده، ذلك لأن نفسه أصبحت مشغولة ومملوءة بفكرة الجهاد. ولكن ما إن يدع نفسه للراحة وللتراخي حتى تبدأ الأهواء بمهاجمة نفسه ويزداد احتمال التفافها حول روحه؛ لذا، فعليه بمراقبة نفسه وصيانتها جيدا، وهذا جهاد أيضا، وأهم سلاح مستعمل في هذا الجهاد هو الصلاة. والجهاد يكون تارة فرض كفاية وتارة فرض عين. وهناك مشابهة بين الجهاد المادي والجهاد الداخلي من ناحية فرضيتهما، لذا قال رسول الله ﷺ وهو راجع من إحدى المعارك: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.»[1]

إن تعلق قلب المرء بالمساجد، أي كونه مشغولاً بالصلاة -أو حسب الفهم النبوي الارتباط بالصلاة ارتباط عشق وشهوة وأن تكون الصلاة قرة عينه- فإن هذا يعادل عمل الفرد المرابط على جبهة القتال. إن أردنا إيراد خلاصة لملاحظاتنا حول هذا الحديث نقول: هناك ثلاثة أعمال يتعلق إثنان منهما بالتصرف ويتعلق الثالث بالنية بحيث تحيط هذه الأعمال بفكر الإنسان وأحاسيسه، لذا فحسب القاعدة الكريمة والمليئة بالبشارة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤) فهي تطهر الإنسان من آثامه الماضية وتجهزه بوجد العبادة وبالارتباط بالله تعالى والنية الصالحة لكي يستطيع مواجهة أخطاء المستقبل وذنوبه.

الأول: عندما تكون الظروف الجوية غير مساعدة لوضوء سهل ومريح، كأن يكون الجو باردًا والماء باردا، أو لا يكون متيسرًا بل نادرًا بحيث يصعب استعماله للوضوء -طبعًا إن

---

[1] كشف الخفاء للعجلوني، ٤٢٤/١.

استثنينا الحالات الضرورية والمتعلقة بالحياة- عند الأشخاص العاديين، عندما يتوضأ الإنسان في مثل هذه الظروف الصعبة فإن هذا يكون مؤشرًا على عمق إخلاص ذلك المرء وشدة ارتباطه بالله، وعلى رغبة عميقة عنده لنيل الثواب وشوق كبير لأداء وظيفة العبودية حتى عند أصعب الظرورف؛ والقاسم المشترك هنا هو الارتباط بالله تعالى. في مثل هذه الظروف عندما تمس بعض الذنوب مثل هذه القلوب فإنها لن تثبت فيها. أما المواضيع الأخرى المتعقلة بالوضوء كقيامه مثلا بتأمين التوازن الكهربائي.. أو مساعدته للإنسان للتغلب على توتره النفسي، أو تجدد الإنسان روحيًا خمس مرات في اليوم فلن نتناولها هنا -مع أننا نسلِّم بها- لأنها خارج موضوعنا.

الثاني: أن الصلاة نوع من المعراج.. وأن التعود على التوجه للمساجد هو توجه لله تعالى وتمرين للبدن ومحافظة على نشاطه وحيويته.. وجيشان الروح جيشانًا يجاوز إدراك العقل، وولوج القلب إلى جو الصلاة قبل الصلاة وتأمينها للتركيز الواجب الوصول إليه قبل المثول بين يدي الله، وسلوك هذا الطريق الذي رمز إليه رسول الله ﷺ بكلمة "كثرة الخطا".. سلوك هذا الطريق والتحول فيه والتغير فيه والتطهر فيه من الذنوب السابقة السوداء بمشاعر الندم الصادقة، وبالبكاء والأنين لكي تصبح صحيفته بيضاء ناصعة، ويدخل في دائرة صلاح يكون فيها الخير وسيلة لخير آخر وهو ضد الدائرة المفرغة. والذي يعزم على السياحة في هذه الدائرة يكون مَظهراً للآية الكريمة التي تمثل الوفاء ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ (الفتح:٢) من ناحية ماضيه، ثم يُدخله إلى حصن حصين بقوله "وما تأخر" من ناحية مستقبله. لذا، فإن الأعين شاخصة دائمًا في كل منزل من منازل هذه السياحة إلى "يمحو الله به الخطايا" وتهفو القلوب إلى "ويرفع به الدرجات"

الثالث: أن انتظار الإنسان أوقات الصلاة بلهفة تَقرُب من لهفة العاشق إلى الوصال، وتنظيم أوقات حياته ونشاطه حسب أوقات الصلاة مفهوم خاص للزمان يستطيع به الإنسان أن يملأ الفراغات الموجودة بين مختلف أوقات أعماله، وينقل الهدوء والاطمئنان والارتباط بالله تعالى الموجود في الصلاة إلى خارج أوقاتها، ويربط كل مشاغله الدنيوية بالله تعالى فيحول كل هذه المشاغل إلى عبادة، فتتحول العبادة المحدودة إلى عبادة غير محدودة فيكون أداء الصلاة بروح الانتظار عنوان ارتباط العبد بربه وبمثابة الجهاد المادي والمعنوي المعبر عنه بكلمة "الرباط".

وهذا الحديث الذي يقدم مقطعًا عميق المعنى من الحياة النيرة للمؤمن، هذا المقطع الذي يتزين بالوضوء ويرتفع في الصلاة إلى السماء... هذا الحديث مثال للحديث الموجز

ذي الدلالات العميقة الشاملة. وبدلاً من إطالة الحديث أود الانتقال إلى بيان نبوي مضيء آخر. وهو في هذه المرة حديث قدسي. والأحاديث القدسية كما هي معروفة من قبل الجميع هي الأحاديث التي تكون معانيها من الله وأسلوبها من قبل الرسول ﷺ ومروية عن الله تعالى من قبل الرسول ﷺ.

ب . مفاجآت للعباد الصالحين

يقول الله تعالى في هذا الحديث القدسي الذي يرويه البخاري ومسلم:

«أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر»[1] يتناول الحديث أخبار مفاجأة، إذ يفاجأ الإنسان هناك بمفاجآت لم تخطر على باله وفي أوقات لم يتوقعها. صحيح أن القرآن تحدث عن بعض نعم الجنة. إلا أنها ليست سوى خطوط عريضة وعناوين وإشارات، وإلا فإن من المستحيل فهم حقيقة هذه النعم في الدنيا. يقول ابن عباس في تفسيره لآية ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ (البقرة:٢٥) "لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء" وفي رواية أخرى: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء."[2] فعندما تذوقون نعمة هناك ستقولون "إنها تشبه الشيء الفلاني" ولكنها ليست أبدًا ذلك الشيء . ذلك لأن نعم الجنة -مثلها في ذلك مثل الجنة- مخلوقة لكي تكون متلائمة ومتوافقة مع الحياة الأبدية والخالدة. لذا، فإن من السذاجة أن نتوقع هناك رؤية البطيخ أو التفاح... الخ من فواكه هذه الدنيا.

الجنة هي دنيا المفاجآت، تندهش فيها العقول وتحار فيها الأنظار وتنتشي فيها القلوب وتثمل فيها النفوس، حتى يكاد الإنسان يحتار ماذا يفعل أمام كل هذه النعم، لأن الجنة معرض للنعم المتنوعة المتسلسلة والمتعاقبة للحياة الأخروية. ثم إن رؤية جمال الله تعالى -التي لا تعادل فرحتها فرحة آلاف من سنين الجنة- هي من مفآجات الجنة. أي أن المؤمنين بعد دخولهم الجنة سيرون هناك ربهم وإلا فإن الله تعالى منزه عن الزمان وعن المكان حتى ولو كان المكان والزمان مكان الجنة وزمانها. أجل، فقد هُيِّئَت مفاجأة مشاهدة جمال الله تعالى للعباد الصالحين في الجنة.

و"الصالح" معناه الشخص الذي يعمل عملاً لا عيب فيه ولا قصور ولا خلل، أما "الصالحات" فهي الأعمال التي عملت دون عيب أو قصور أو خلل. ولا يمكن تعيين عما

---

[1] البخاري، التوحيد، ٣٥؛ مسلم، الجنة، ٤-٥.

[2] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٩١/١.

إذا كانت أعمال معينة تعد من الصالحات إلا بقياسها بالقسطاس الإلهي. أي أننا نعلم وحسب المقاييس الإلهية كيف تؤدى الصلاة ويتم الصوم وتؤدى الزكاة ويتم الجهاد وكيف تتم المراقبة والعالم الداخلي للإنسان ويُهَذَّب الضمير وتثار الروح وتقوى الإرادة وتنمى العواطف والمشاعر. إننا نعلم كل هذه الكيفيات بعرض هذه الأعمال على المقياس الإلهي لنستطيع تقييمها. وبهذا الاعتبار يجب على الإنسان تعيير نفسه حسب البيان الإلهي وبالشكل الذي يستطيع به الحصول على مرضاة الله تعالى، فيكون بذلك قد خطا الخطوة الأولى في عمل الصالحات.

أجل، فكما يقوم الموسيقيّ قبل العزف بتعيير آلاته الموسيقية، كذلك يجب عليكم إن أردتم الحصول على مرضاة الله أن تضبطوا أنفسكم حسب القرآن، وإلا لا ينظر إلى وجوهكم. أجل، إن الله تعالى سميع وبصير. يسمع كل صوت ويرى كل شيء، ولكن إن كان صوتكم غير ملائم للمقام الالهي فلن يسمعكم، وتكونوا قد فشلتم في إيصال صوتكم.

والصالحات في معنى آخر، هي الأعمال التي تؤدى بكل عناية وبكل دقة. وذلك بناء على معرفة القائم بهذه الأعمال أن الله تعالى يراقب عمله ويلاحظه. إذن، فعلى الإنسان أن يؤدي كل الأعمال الخيرة التي يقابلها بعناية ودقة. ذلك لأنه لا يعلم أحدٌ أيَّ عمل من أعماله سيكون وسيلة لإنقاذه، لذا نرى رسول الله ﷺ يقول: «اِتقِ الله ولا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئًا.»[1] وفي الحديث القدسي الذي نحن بصدده ترد عبارة "لعبادي الصالحين"، ومن ثم فإن أصحاب الأعمال الصالحة لهم قربتهم من الله تعال التي جعلتهم عبادًا محبوبين من قبله تعالى. وفي حديث قدسي آخر يشرح موقف الذي يحبه الله تعالى: «فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يَسمع به وبصره الذي يُبصِر به ويده التي يبطش بها ورِجْله التي يمشي بها.»[2]

أي إن العبد يكتسب بأعماله الصالحة قربًا من الله تعالى بحيث ينصبغ بصبغته ويصبح الله تعالى هو المحرك له.. أي يصبح كالميت في يد المغسل يحركه كيفما يشاء، فما ألذ هذا الإجبار الذي يتم من قِبل الرب الذي يدفعه إلى طريق الخير. ومثل هذا الشخص يستحيل عليه أن يعرض عن الله، ذلك لأنه أحرز مرتبة كبيرة بحيث يقول الله عنه "لعبادي" أي يصفه

[1] مسلم، البر والصلة ٤٣؛ أبو داود، اللباس ٢٥؛ الترمذي، الأطعمة ٣٠؛ وانظر: فيض القدير للمناوي، ١٢١/١؛ كنز العمال للهندي، ٥٧٦/٦.

[2] البخاري، الرقاق ٣٨.

بالعبودية له، فقد وصل إلى درجة المقربين. ومثل هذا الشخص يقول ضارعًا: "خذ بيدي يا رب! خذ بيدي، فإنني لا أستغني عنك."

مثل هذا الشخص يعمل كل ما هو جميل، وفي كل عمل يعمله يبحث عن وسيلة لخلاصه، وبما أنه لا يعلم أي عمل صالح سينقذه، فإنه لا يدع أي عمل خير يفلت من يده، وكل هذه الأعمال ستكون بمثابة صندوق مفاجآت له، وعندما يدخل الجنة يوم القيامة تفتح هذه الصناديق أمامه واحدًا إثر آخر فيرى مفاجآت لم ترها عين ولا تسمع بها أذن.

أحيانًا يكون حتى إرواء كلب سببًا في دخول الجنة[1] وأحيانا يكون حبس قطة حتى الموت سببًا في دخول جهنم.[2] فإذا أخذنا هذه الحقائق بنظر الاعتبار علمنا أن الجنة وما يعطى فيها إنما هي مفاجأة على الدوام. ثم إن الإنسان لا يمكنه إدراك إلا ما يستطيع مشاهدته أو سماعه أو ما يستطيع تصوره. ولكن الإنسان لكونه محدودًا فإن أحاسيسه هذه محدودة أيضا، ومن ثم فإنه لا يستطيع بحواسه المحدودة هذه إلا إدراك الأمور والأشياء المحدودة. أي إنه لا يستطيع إدراك ومعرفة النعم الموجودة في عالم لا نهائي بأحاسيسه القاصرة والمحدودة هذه. يقول الشاعر ضياء باشا:

"لا يمكن لهذا العقل الصغير إدراكُ المعاني العالية

ذلك لأن هذا الميزان لا يستطيع وزن هذا الثقل"

وقد يكون أحد التوجيهات ما يأتي: يضاعف الله تعالى أجر الأعمال الصالحة، فيعطي أحيانًا عشرة أضعاف وأحيانًا مائة أوسبعمائة أو ألفًا أو مائة ألف أو مليونًا وأحيانًا بعدد لا يعد ولا يحصى. وليس هناك من عبد يعرف بالضبط نوعية المكافأة المعطاة له، لذا فإنه عندما يجازى بمكافآت هي أضعاف أضعاف عمله بشكل يفوق التصور يوم القيامة يكون ذلك مفاجأة كبرى لم تخطر بباله قط.

ورسول الله ﷺ يخبرنا بهذه الحقائق العميقة بكلمات قليلة وبشكل فوري ودون تفكير مسبق ودون تهيئة مسبقة وبشكل ارتجالي. هذا الكلام فقط يكفي لإثبات كيف أنه كان صاحب فطنة كبيرة تفوق الإدراك البشري. ولأننا مفتونون بكلامه ﷺ لذا، لا نملك أنفسنا من الإشارة إلى بعض أحاديثه الأخرى.

---

[1] البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، السلام ١٥٣، ١٥٤.

[2] البخاري، المساقاة، ٩؛ مسلم، السلام ١٥١؛ الدارمي، الرقاق ٩٣؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٥٠٧.

٤ . الجنة محفوفة بالمكاره، والنار بالشهوات

يقول رسولنا ﷺ في حديث ينقله مسلم والبخاري: «حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات.»[١] جهنم محفوفة بالشهوات وبالأهواء وبالأجواء التي تماشي رغبات النفس، أما الجنة فهي محفوفة -حسب المنطق الظاهري للعقل- بالمكاره وبالصعوبات. والذين يرون كل شيء في المادة ويفسرون كل شيء بالمادة يتوهمون أن الذين يسلكون الطرق الواصلة إلى الجنة لا يتصرفون تصرفًا جيدًا.

والحقيقة أن كلا من الجنة وجهنم تعدان نعمة لنا.. ففي عملية سلوك الطريق تقوم الجنة بتشويقنا لسلوك الطريق المستقيم وتقوم جهنم بتحذيرنا من سلوك الطريق المعوج. فكلما نظرنا إلى الوجه المشرق للجنة اشتقنا للوصول إليها، وكلما تطلعنا إلى الوجه المرعب لجهنم بذلنا جهودنا لمنع أنفسنا من الوقوع في هاويتها فتشبث بالجنة ونتمسك بها، وهكذا يكون كلاهما رحمة لنا. غير أن الله تعالى عرض علينا الجنة وجهنم كمتاع، وقدمهما في سوق العمل، والإنسان بالإرادة المعطاة له يستطيع أن يختار أحد هذين المتاعين، فمن استعمل إرادته اختار الجنة وكان من السعداء، ومن أراد اختيار جهنم سلك طريقها وكان من الأشقياء.

أجل، إن جهنم محفوفة من كل جوانبها بجو من الشهوات، ويبدو هذا الجو من الخارج في منظر جذاب فيه كل شيء: الطعام والشراب والنوم وكل شهوات النفس وكل ما يشبع رغبات الجسد، وتحيط هذه الشهوات وهذه الرغبات بجهنم إحاطة السوار بالمعصم. والخلاصة أن طريق جهنم طريق كل أنواع الرغبات والشهوات النفسية والجسدية.

أما الجنة فهي لؤلؤة محاطة بصدفة من المكاره.. الوضوء وأداء الصلاة والذهاب إلى الحج وإيتاء الزكاة والجهاد ومواجهة المتاعب والمصاعب في سبيل الله، وأن يعامل الإنسان معاملة الأسير في وطنه، ويجرد من كل حقوقه الإنسانية وينقل من سجن إلى سجن، ويعرض للإيذاء وكل صنوف التعذيب دون أن يكون له ذنب سوى قوله "ربي الله"، ونفيه من وطنه بل حتى تعرضه لحكم الإعدام.. الخ من المكاره والمصاعب التي يتعرض لها، والتي تبدو للعقل الظاهري أمورًا كريهة وصعبة على النفس. أجل، فالمكاره والمصاعب هي التي تحيط بالجنة وتسترها بستارها. والذين ينظرون من الخارج لا يرون إلا هذه الأستار. وطبقا لهذه الأستار فإن جهنم تبدو مدغدغة لشهوات النفس، والجنة تبدو

---

[١] البخاري، الرقاق ١٢٨؛ مسلم، الجنة ١.

مفزعة. وهذا هو السبب في أن معظم الناس خدعوا بهذه المظاهر الخارجية لأنهم اكتفوا بمطالعة الوجه الخارجي لهما. لذا، كان طالبو جهنم كُثُرًا وطالبو الجنة قلة.

يركض أكثر الناس وراء الحسابات القصيرة الأمد. فهذا الذي يقول "نعم إن الصلاة شيء جميل، ولكن أداءها خمس مرات في اليوم يبدو لي أمرا صعبا" قد قصر نظره على المشقة القليلة الموجودة في الصلاة. وكما أن صعوبة الوضوء في أيام الشتاء أصبحت سببًا عائقًا أمام البعض، غير أن هذا الوضوء أصبح سببًا لتقريب الجنة إلى الذين تحملوا مشقته القليلة خطوة فخطوة. ويمكن إيراد الشيء نفسه بالنسبة للصوم والزكاة والحج والجهاد ولكن ما أكثر من منعتهم عقولهم من التصرف بعقلانية فتعثروا بهذه العقبات الصغيرة ولم يستطيعوا القفز فوقها فأصبحت المكاره المحيطة بالجنة حائلاً بينهم وبينها.

أما جهنم فتشبه الساحرة الشريرة التي وضعت الشهوات البسيطة مصائد للناس يهرعون إليها وهم لا يعلمون أنها خطر مميت، فهم مثل الذباب الذي يهرع إلى العسل فيكون فيه مهلكه... أجل، فالشهوة عندهم عسل سام. أو يمكن أن نشبه هؤلاء بالفراشات التي تحوم حول النار فتحترق فيها وكذلك يجد هؤلاء أنفسهم في جهنم، عندما يقبلون نحو الشهوات المحيطة بها. ذلك لأنهم لا يرون ما وراء هذه الشهوات التي تشكل ستارًا حول جهنم فيقبلون عليها مستجيبين لدواعي رغبات أجسادهم.[1]

أما الذين تعرفوا على رسول ﷺ في مفترق الطرق وسلكوا في حياتهم طريقهم حسب إرشاده ﷺ والذين تفتحت قلوبهم للحقائق فإنهم لا ينخدعون أبدًا بمظاهر المكاره المحيطة بالطرق الموصلة إلى الجنة بل يعرفون حقيقتها. ذلك لأن الجنة موجودة في قلوبهم بذرة تنمو شيئًا فشيئًا حتى تستولي على عوالم أرواحهم. وبينما يبحث الآخرون عن الجنة في الخارج يسعد هؤلاء بالجنة الموجودة في قلوبهم، بينما لا يستطيع الذين يعيشون جنتهم المادية في الحياة الدنيا أن يعيشوا طوال حياتهم دقيقة واحدة من السعادة التي يشعر بها هؤلاء الذين يضمون الجنة بين جوانح قلوبهم. "الإيمان بَذْرة تحمِل الجنة في داخلها، والكفر بذرة أخرى تحمل جهنم في داخلها. وهاتان البذرتان بعد نموهما تنقلبان في الآخرة إلى جنة وإلى جهنم حقيقيتين؛ لأن المؤمن يعيش حياة الجنة حتى

---

[1] يشرح لنا ﷺ هذا الموضوع بالتشبيه التالي: إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ استَوقَدَ نَاراً فَجَعَلَتِ الدَّوَابّ وَالفِرَاشُ يَقعنَ فيه، فأنا آخذ بحُجَزِكمْ وأنتم تقحمون فيه. (البخاري، الرقاق ٢٦؛ مسلم، الفضائل ١٨؛ الترمذي، الأدب ٨٢).

وهو في الدنيا ولكن الشكل الظاهري لحياته يبدو وكأنه محاط بالمكاره والمصاعب."

إن الأرواح التي تخفق شوقًا إلى الجنة عندما تسير في طريق الجنة وتقطع هذه المنازل - هذه المنازل التي تعد كل واحدة منها سعادة خاصة- ستواجه بما تكرهه النفس والجسد - رغم الروح- من أداء العبادات البدنية كالوضوء والصلاة والصوم والحج، والتكاليف الصعبة الأخرى مثل الزكاة والصدقة وغيرهما من الكلف المالية أو الكلف المادية والبدنية كالحج والجهاد.. هذه التكاليف والأعباء قد تجعل طريق الجنة لبعضهم طريقًا يصعب سلوكه. فبعضهم يشق عليه الوضوء والصلاة، وبعضهم يشق عليه الجوع والعطش في الصوم، وبعضهم يؤثر عليه حب المال والنفس، وبعضهم بمجموع بعض هذه الصعوبات أو كلها فلا يصلوا إلى الجنة بكل مباهجها وزينتها وروعتها وهي على بُعد بضع خطوات منهم.

أجل، فكما أن الجنة عالم للسعادة التي لا يستطيع العقل تصورها ولا بلوغها حتى في الأحلام إلا أن طريقها مملوء بالمكاره والمشقات والصعاب والمسؤوليات، وكذلك جهنم هي بئر غائرة وواد مهلك ولكن طريقها مملوء بالشهوات الجسدية والأهواء النفسية والرغبات الدنيوية التي تسترعي إليها الأنظار وتسحر بها الأرواح الضعيفة وتجذب إلى مركزها مثل ثقب أسود كل من يمر بالقرب من ساحتها بقوة عنيفة. ما أكثر من تسحرهم أستار جهنم الكاذبة فيتركون أنفسهم لتهوي في أوديتها، كما تخيفهم المصاعب التي تبدو في أستار الجنة فينكصون على أعقابهم ويخسرون السعادة الأبدية. أجل، فكيف يوجد من يعرف الجنة ولا يشتاق ويسعى إليها، ومن يعرف جهنم ولا يجتهد في الابتعاد عنها، ولكن سر التكليف والإيمان بالغيب والامتحان في الدنيا اقتضى كل ذلك أن تضع الجنة على وجهها قناع الصعوبة والمشقة والمكاره وأن تلبس جهنم فستانًا من الشهوات والرغبات.

ولكن انظر هنا إلهذا السحر وتلك القوة في كلام رسول الله ﷺ الذي وصف محتويات وحقيقة هذين الطريقين الطويلين العظيمين بكل الانشراح والسعادة الموجودة في أحدهما، والمخاطر والمخاوف الموجودة في الآخر بأسلوب راعى فيه منتهى الإيجاز كعادته دائمًا، فاستعمل في شرح هذا الأمر العظيم بضعة كلمات. ولا ننسى هنا أن نستطرد فنقول إننا نشير فقط إلى جواهر من كلام سيد المرسلين ونكتفي بذلك ولا نتعرض إلى النواحي البلاغية ولا إلى قوتها اللغوية، ولو تناولنا هذه النواحي بالتحليل والدراسة لشاهدنا معاني وأمورًا دقيقة أخرى كذلك. ولكن هذا موضوع آخر لا نتعرض له هنا.

٤ . حقوق ثلاثة: حق الله، حق الدولة وحق الدين

ينقل الإمام الترمذي الحديث الآتي: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإنْ تَأَمَّر عليكم عَبْدٌ حبشيّ، وإنه من يَعِشْ منكم فسيري اختلافًا كثيرًا فعليكم بِسُنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومُحْدَثات الأمور فإنّ كل بِدْعة ضلالة.»[1]

يتحدث هنا رسول الله ﷺ عن ثلاثة حقوق. أولها التقوى التي هي حق الله، والثاني هو السمع والطاعة وهو حق الذين يديرون الدولة، والثالث هو الارتباط بالسنة، وهو حق الدين. التقوى: كلمة مشتقة من "الوقاية" وتعني من جهةٍ رعايةَ قوانين الشريعة الفطرية والدخول إلى حماية الله تعالى وتأمين الصيانة والحفظ إزاء قوانين الشريعة الفطرية في حال مخالفتها.

ثم إنه من الواجب إطاعة من تختارونه ليحكمكم حتى ولو كان عبدًا حبشيًا أسود. وهذه ديمقراطية فوق الديمقراطيات؛ وإن البشرية حتى الآن لم تستطع الوصول إليها؛ ومن الواضح أنها ستأخذ وقتًا طويلاً قبل أن تصل، مع أن هذه الديمقراطية دعي إليها قبل أربعة عشر قرنًا. غير أنه ليس من المناسب إطلاق تعبير أو كلمة "الديمقراطية" على النظام الذي أتى به نبي من الأنبياء. ذلك لأنه ما من مفهوم للديمقراطية في الدنيا استطاع الوصول إلى مثل هذا الأفق، إذ لم يتأسس بعد مثل هذا المفهوم أو الفكر في أي أمة من الأمم التي تدعي المدنية. فالسود في أمريكا لا يزالون مواطنين من الدرجة الثانية، وهناك بلدان لا يعدون السود من البشر. بينما أبان الإسلام وقبل عصور عديدة أن الناس إن اختاروا مثل هذا الشخص بملء إرادتهم فيجب عليهم آنذاك إطاعته، كما يتبين من هذا الحديث أن طريق الخلافة مفتوح أمام الجميع. فإن إراد الناس أن يختاروا عبدًا أسود ليكون رئيسًا عليهم كان لهم ذلك وتجب طاعته على الجميع. فالمهم هنا ليس الشخص المنتخب، بل المهم أن من سينتخبه هم السواد الأعظم من الناس.

إن قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة:٣) يفيد أن الدين قد اكتمل، أي لم يبق هناك أي شيء يقال. فلا يمكن إدخال أي شيء جديد فيه، ذلك لأن أي بدعة جديدة تدخل إلى الدين تعني إماتة سنة من السنن الشريفة. لذا، كان من الواجب الاعتصام بسنة رسول الله

---

[1] الترمذي، العلم ١٦؛ منهل الواردين شرح رياض الصالحين لصبحي صالح، ١٥٢/١؛ وانظر إلى الروايات المختلفة في: ابن ماجه، المقدمة، ٤٦ المسند للإمام أحمد، ١٢٦/٤، ١٢٧؛ أبو داود، السنة ٥.

ﷺ وسنة خلفائه الراشدين من بعده. وهذا الاعتصام لا يكون بالأيدي وإنما بالعضّ عليها بالنواجذ، فسنته مثل طير السعد الذي يجب الاحتفاظ به جيدًا بعد اصطياده. ثم إن سنة الرسول ﷺ تبلغ للآخرين عن طريق الفم، ومن يتكلم ضدها تحد له الأسنان ولا يسمح له بإطالة لسانه عليها.

كم يتمنى القلب لو أننا استمعنا إلى هذا الحديث من سلطان البيان نفسه واستطعنا فهمه، إذن، لكانت هذه الجوانب التي حاولنا شرحها غنية. فكل نافذة مفتوحة على كلامه توصلنا إلى معان غنية جديدة. ولا يسعنا ونحن نسمع حديثه ﷺ إلا أن نقول: "صدق رسول الله"

ص . اللدْغ من جُحْرٍ مرتين

يقول رسولنا ﷺ في حديث ينقله البخاري ومسلم:

«لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرتين.»[1]

لن نقف طويلاً أمام هذا الحديث الذي يجب على رجال السياسة في المستقبل أن يهتموا به اهتمامًا كبيرا، بل سنكتفي ببعض الإشارات حوله. ومثقفو الغد من الذين انتبهوا فاهتموا بثقافة ومفاهيم أمتهم والذين سيقيمون أسس ومعالم عالمهم من داخل عالمهم... هؤلاء المثقفون السائرون في قوافل النور يجب أن يقفوا طويلاً أمام هذا الحديث ويتأملوه جيدًا ويقيموا جميع أسس سياستهم الداخلية والخارجية على الدروس المستنبطة منه، فيكونون بذلك قد وجدوا طريقًا مهمًا يقودهم إلى النجاح، وإلا فإن الانخداع في ساحة السياسة والخداع لن ينتهي أبدا، وسيبقى شعبنا مخدوعًا على الدوام.

ق . الناس معادن

على علماء التربية في المستقبل أن يمحصوا جيدًا هذا الحديث الشريف الذي يرويه البخاري ومسلم: «الناس مَعادِنُ كمعادن الفضة والذهب. خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.»[2]

كأن الرسول ﷺ بحديثه هذا يلقي على المربين وعلماء النفس هذا الدرس: إن معرفة شخصية الإنسان وطبيعة معدنه ضروري ومهم جدًا عند تربيته. وسيماء الشخص قد يكون من أمارات عالمه الروحي. لذا، يجب أولاً معرفة العالم الداخلي والعالم الروحي لكل

---

[1] البخاري، الأدب ٨٣؛ مسلم، الزهد ٦٣.

[2] البخاري، المناقب ١؛ مسلم، البر ١٦٠؛ المسند للإمام أحمد، ٥٣٩/٢.

إنسان، لكي يوضع ويصهر في البوتقة المناسبة له، لأن التربية تعني فيما تعني إعطاء شكل ما. وهذا لا يتم إلا بالقدرة على إذابة ذلك الإنسان في بودقة معينة. والقيام بجهود تربوية بشكل عشوائي لن يكون له أي فائدة بل قد يكون وسيلة لإلحاق الضرر. لذلك قال الله تعالى لرسوله الكريم منذ البداية: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف:١٠٨). أجل، إن أي دعوة إلى التفكير يجب أن تكون على بصيرة. والدعوة ببصيرة هي الدعوة الواعية التي تعرف من تخاطب وما غاية الخطاب وبأي مقياس تتم الدعوة. إذن، فرسول الله ﷺ يختار الطريق الواعي لدعوته ويوصي أمته بذلك، والحقيقة أن الله تعالى هو الذي يأمر بذلك مباشرة.

يجب معرفة طبيعة كل شخص: في أي درجة يذوب ويجد ذاته. من وإلى أي بوتقة يؤخذ... وفي أي أنبوب اختبار يصفى... كل هذه الأمور يمكن معرفتها عند الدعوة على بصيرة. الأشخاص الواعون في الجاهلية والذين كانوا على بصيرة وأصحاب عقل وإنصاف عندما فتحوا أعينهم على الحق والحقيقة وتعرفوا على الإسلام ودانوا به أصبحوا في مقدمة صفوف المسلمين. ذلك لأن الذهب عندما يذوب في بودقة يبقى ذهبا، والفضة تبقى فضة والنحاس يبقى نحاسًا فلا ينقلب أي معدن إلى معدن آخر أبدا، فالذي كان معدنه ذهبًا في الجاهلية بقي معدنه ذهبًا عندما أسلم، ولكن بشرط واحد وهو "إذا فقهوا"، أي بشرط أن يتفقهوا في الدين ويتعمقوا في فهمه.

ولكي يكونوا كذلك فلا بد لهم من معلم ومن مرشد، أي يحتاجون إلى كيمائي يتناول نفوسهم فيذيب كلا منها في بوتقة خاصة بها. أجل، فلا بد من هذا لنفخ الإسلام فيهم ولا يمكن لهؤلاء الوصول إلى الفقه إلا بهذا الشكل.

ر . الظلم وخيم العاقبة

لا نملك أنفسنا من إيراد هذا الحديث لرسول الله ﷺ: «إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢).[١] إن الله يمهل الظالم المرة تلو الأخرى، أي يقابل الظالم والذي أعلن عصيانه له بالإمهال، ولكن إن أخذه أخيرًا لم يفلته. وهذا معناه أن الظالم تجاوز حده وأن الكأس قد فاض فلم يعد هناك مجال للمهلة.

---

[١] البخاري، تفسير سورة (١١) ٥؛ مسلم، البر ٦١.

لله تعالى قوانين جارية في الكون لا تبديل لها ﴿لاَ تَبدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ﴾ (الروم:٣٠). ومن هذه القوانين كون الظالم سيفًا بيد الله، حيث يقول رسول الله ﷺ في هذا الخصوص: «الظالم عَدْلُ الله في الأرض يَنتقم به ثم يُنتقم منه.»[1] الظالم هو سيف الله يؤدب به الله من تجاوز حده، ثم يأخذ الظالم أخذًا وبيلاً.. الظالمون اليوم سادرون في غيهم، ولكن إياك أن تيأس وأنت تشاهد هذه الأوضاع فكم من قرى أمهلها الله تعالى وكان يقول لها "كلي واشربي وتمتعي" ثم أخذها أخذ عزيز مقتدر.[2]

انظروا حواليكم بتمعن ستجدون أمثلة حية على ما نقول. "سَدوم" و"عامورة" و"بومبيي" ليست إلا أمثلة ثلاثة فقط... من يدري كم من أمثلة أخرى موجودة لا نعرفها، أو كانت أقل عبرة من هذه الأمثلة فتم نسيانها.. ولكن كل هذه الأمثلة شاهدة على هذا القانون الإلهي. ولماذا نذهب بعيدا..؟ ألم تكن فوق هذه الأراضي التي نعيش عليها دولة عليّة عثمانية.. هذه الدولة التي لم يكن يخطر على بال أحد إمكانية زوالها، ولكنها عندما سقطت أصبحت إحدى ذكريات التاريخ التي نتذكرها بقلوب مفجوعة. واليوم تكافح فئة قليلة حصرت داخل حدود ضيقة من أجل البقاء أمام التيارات الداخلية والخارجية التي تستكثر عليها حتى حق الحياة في هذه المساحة الصغيرة. والقانون الالهي الذي لا يتغير هو ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ...﴾ (هود:١٠٢)

ويستطيع المؤرخون الحقيقيون وعلماء الاجتماع أن يستفيدوا من هذا القانون الإلهي الذي لا يتغير، ومن الأمثلة التي تحفل بها مقابر التاريخ، يستطيعون الاستفادة وأن يخلدو أنفسهم عصورًا عدة. ونحن نترك تفسير هذا الحديث لهم لننتقل إلى حديث آخر.

ش . في ظل عرش الرحمن

«سَبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلّه: الإمام العادل، وشابٌ نَشَأَ بعبادة الله ﷻ، ورجل قلبُه معلَّق في المساجد ورجلان تَحابَّا في الله اجتمعا عليه وتَفرَّقا عليه، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تَصَدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تَعلم يمينُه ما تنفق شمالُه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه.»[3]

هذه موضوعات سبعة يمثل كلُ موضوع منها أهمية كبرى من ناحية الإرادة الإنسانية. فإيفاء

---

[1] كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٤٩.

[2] تشير الآية إلى هذا الأمر: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (الحج:٤٨).

[3] البخاري، الأذان ٣٦؛ مسلم، الزكاة ٩١؛ الترمذي، الزهد ٥٣.

حق بعضها صعب وشاق، وبعضها شباك للروح، ولو تخلص الإنسان من بعض هذه المصايد فهناك احتمال على الدوام أن يسقط في البعض الآخر ولكن إمكانية الوقاية من الوقوع في هذه المصايد أمر وارد إن التجأ الإنسان إلى عناية الله وحمايته، وبذل كل إرادته.. أي إن مقومات هذا الطريق هو استعمال الإنسان إرادته حق الاستعمال مع الاستعانة التامة بالله والالتجاء إليه.

مثل هذه الجماعة القدسية التي يذكرها النبي ﷺ في حديثه هذا والتي اتحدت فيها الإرادة مع الارتباط بالله والاستعانة به.. هذه الجماعة هي الجماعة التي تخيلها الكتّاب المثاليون في المدن الفاضلة والتي لا يجدونها في الواقع العملي، مما يملأنا رغبة وطموحًا في الوصول إلى مثل هذه الجماعة وتحقيقها واقعيًا.

أجل، في ذلك اليوم الذي لا تحجب الشمسَ فيه غيمةٌ واحدة.. في ذلك اليوم الذي ترسل الشمس حرارتها اللاهبة إلى كل مكان فتغلي الأدمغة في الرؤوس ويرتفع العرق حتى الأذقان وتنقطع الأسباب ويبدو كل شيء وكأنه عدو للإنسان.. في ذلك اليوم لا يبقى هناك ملجأ ولا منجى ولا ظل إلا حماية الحق تعالى وعنايته.. وسواء أكان هذا ظل العرش أم غيره فهذا لا يهم إذ المهم تغير النظام الذي نعرفه وانقلابه رأسًا على عقب وتبدل المقاييس وتبدل الأرض والسماء. في هذا اليوم المرعب لن يكون أحد عونًا لاحد، إذ لن تنفع أي معونة ولا أي مساعدة آنذاك.. فمن يستطيع فعل ذلك في هذا اليوم الذي تنقطع فيه الأصوات، وتبلغ القلوب الحناجر، وتدور الرؤوس وتشخص فيه الأبصار..؟ في مثل ذلك اليوم من يحمي من..؟ من يستطيع ذلك؟ في مثل ذلك اليوم ليس هناك إلا ملجأ واحد.. اللجوء إلى ظل الله أي إلى حمايته، وهذه الحماية تشمل هؤلاء الأشخاص:

أ. رؤساء الدول الذين وعوا مسؤولياتهم في الدنيا وراعوا الأمانة المودعة لديهم.. أي راعوا الحق والعدل والاستقامة.

ب. الشاب الذي نشأ في طاعة الله تعالى وذلك في أوج فترة غليان النفس والجسد.

ج. رجل العبادة الذي تملكه حب العبادة فأصبح قلبه معلقًا بالمساجد.

د. المتحابين في الله.. الذين يجتمعون على حب الله.. ويتفرقون على حبه.. أي الذين جعلوا رضا الله ومحبة الحق محرابًا لهم.

هـ. الرجل الكامل الرجولة الذي يستطيع أن يديم حياته على خط "مخافة الله" و"مهابة الله" والذي يستطيع المحافظة على عفته بكل حساسية، والمصمم على الوقوف أمام رغباته وشهواته، القائل دائمًا لنفسه الأمّارة بالسوء: "إنني أخاف الله رب العالمين."

و. الشخص الذي يقتصد من مصاريفه ولو كان به خصاصة لكي ينفق في سبيل الله رمزًا على إخلاصه ووفائه لله بحيث لا يعلم أحد غير الله انفاقه هذا، وتبلغ حساسيته في هذا الموضوع إلى درجة الغيرة فلا تعلم يساره ما تنفق يمينه...

ز. رجل القلب والعواطف الذي يغني أوقات وحدته وعزلته بالتأمل وبالتفكر والمراقبة ويترجم عواطف قلبه دموعًا تجري من مقلتيه ويستمد قوة إرادته من الله تعالى، وبحواجز هذه الإرادة الفولاذية يحطّم كل رغبات المعصية وينسفها نسفًا... فهذا هو رجل القلب والعاطفة.

أجل، فقد ورد في أحاديث أخرى أن هذا الإمام العادل يكون يوم القيامة على منابر من نور يتلقى عطايا الله،[1] ويرتشفها، وهذا الشاب الذي قضى شبابه عفيفًا ينال رضا الله، وذلكم الرجل المعلق قلبه بالمساجد يكون في ظل الحماية الإلهية، والمتحابون في الله ينالون المحبة الإلهية، والذي ربط قلبه بمهابة الله ومخافته سيكون في أمان مما يخشاه يوم القيامة. وهذا الرجل رجل الوفاء الذي يؤدي صدقته بمقياس دليل صدقه سيجد مقابلها من نعم الله -الذي هو خير الأوفياء- ما يفوق خياله، وأخيرًا رجل العاطفة والقلب الذي يكون ظاهره حافلاً بالمعاني وباطنه عميق الغور القدوة الحسنة للناس الذين يعرفونه بجوانبه المشرقة هذه، مثل هذا الرجل عندما يخلو إلى ربه تتفجر أحاسيسه وعواطفه دموعًا منهمرة، وهو إلى جانب اجتيازه جميع المصاعب والمفاوز وإلى جانب نيله العطايا في الآخرة فإنه يعطي نموذجًا للمجتمع المثالي وإطارًا للأمة المثالية التي تقود الإنسانية إلى هذه المثل الرفيعة.

ولا أدري أهناك حاجة لتكرار القول أن معاني عميقة عمق البحار والتي لا يمكن التعبير عنها إلا بمجلدات قد صيغت في أسطر قليلة فكأن القطرة الواحدة استوعبت بحرًا زاخرًا.

ت . الدنيا ظل

في حديث آخر يقول الرسول ﷺ: «ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استَظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها.»[2]

ما الدنيا؟ وكيف يتصرف الإنسان تجاه شيء زائل ووقتي؟ ثم لماذا أتى الإنسان إلى هذه الدنيا وإلى أين يغادرها؟ هذه هي المسائل الرئيسة للفلسفة والتي قيل الشيء الكثير عنها طوال عصور عديدة. وكما هو واضح فقد بين رسول الله ﷺ هذا الأمر بشكل وجيز وبليغ. وهذه

---

[1] مسلم، الإمارة ١٨؛ النسائي، القضاة ١؛ المسند للإمام أحمد، ١٥٩/٢.

[2] الترمذي، الزهد ٤٤؛ ابن ماجه، الزهد ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠١/١.

المسألة وغيرها من المسائل التي لا يستطيع الآخرون شرحها وإيضاحها في مجلدات يشرحها النبي ﷺ بأوجز شكل وأبلغه وأوضحه. أجل، إن الإنسانية جمعاء معجبة ببيانه الوجيز.

ثـ . مميزات خمسة لسيد البشرية

«أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهنّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْب مسيرةَ شهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ. وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تُحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى الناس عامة.»[1]

أَعطى الله النعم بمعناها الكلي للجميع، وبمعناها الخاص لكل أمة ولكل نبي، فلكل منهم نعمة خاصة ولطف خاص، فلآدم عليه السلام ولأتباعه أعطاهم الصفوة ونيل شرف فَهم معاني الأسماء الحسنى، ولنوح عليه السلام روح الكفاح والعزم والعزيمة، ولإبراهيم عليه السلام درجة أبوة العديد من الأنبياء وعشق التوحيد وخلة الرحمن، ولموسى عليه السلام قابلية التعليم والتربية والعلوم الاجتماعية والدراية في إدارة المجتمع ولعيسى عليه السلام جانب اللين والشفقة والصبر والتحمل ونشر المسامحة في المجتمع والمحبة بين الناس، ولسيد الزمان والمكان محمد ﷺ ولأمته الإرادة والحكمة والموازنة وصفات التحليل والتركيب وغيرها من الصفات التي تستوجبها الرسالة العالمية، وذلك إضافة إلى الصفات الممنوحة للأنبياء السابقين. لذا، فإنه بجانب كون الدين الإسلامي أكثر الأديان مسؤولية وواجبات فإنه ألطفها وأسماها وأبركها وأكثرها قربًا من النفس البشرية، ويعد هذا من صفاته كدين عالمي.

يتناول هذا الحديث الشريف رسول الإسلام ورسالته العالمية الشاملة بأسلوب آخاذ ويبسطها أمام الانظار. عندما قام مبلغ هذا الدين العالمي وهذه الدعوة العالمية وتلاميذه الأوائل بنشر هذا النظام العالمي في أرجاء العالم، كانوا يشعرون بمدى مسؤوليتهم ويدركونها. فكانوا يسرعون من جبهة قتال إلى أخرى يجاهدون في سبيل الله لاستلام قيادة العالم... يقتلون ويُقتَلون... يبرهنون على أحقيتهم في الدخول إلى الجنة ورؤية جمال الله... يستهينون بحياتهم الدنيوية في سبيل دعوتهم. ويحرص أكبر من حرص الآخرين ورغبتهم في الحياة الدنيا، كانوا يذوبون شوقًا للقاء الله ويسعون لتحقيق الخلافة في الأرض. لذا، فما كان بقدرة أحد قتال أمثال هؤلاء الذين ارتبطوا بالعالم الآخر مثل هذا الارتباط. أما الذين ساقهم سوء حظهم لمواجهة هؤلاء فقد أخذهم الخوف والرعب إلى درجة الشلل منذ الخطوة

[1] البخاري، التيمم، ١، الصلاة ٥٦؛ مسلم، المساجد، ٣.

الأولى... لاسيما عندما يبلغ تعظيم الله تعالى عند المؤمنين درجة المهابة، فوعد «نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر» سلاح رهيب بيد المؤمنين الصادقين وقلعة حصينة لهم.

ثم إن كون الأرض مسجدًا وطهورًا لمنتسبي هذا الدين واستطاعتهم أداء الصلاة في كل مكان دون حاجة إلى وجود معبد أو مصلى بُعدٌ آخر من أبعاد هذا الدين العالمي. والبعد الآخر هو إباحة الغنائم لكي يمضي الجهاد في سبيل الله حتى يوم القيامة دون عائق أو مانع.. وبُعدٌ آخر هو الشفاعة العظمى يوم القيامة حيث يؤخذ بيد كل شخص -ضمن معايير ومقاييس معينة- لإيصاله إلى مستوى معين من الأمن ومن السلامة.. أما كون جميع الأنبياء بعثوا إلى أممهم خاصة، وبعثه ﷺ إلى الناس عامة فهو البُعدُ الصريح الواضح في هذا الشأن. كما يمكننا استنباط الأمور التالية من الحديث الشريف دون أي تكلف أو تعسف:

أ. أن النبوة ورسالتها المصاحبة لها موهبة إلهية لا يمكن تحصيلها بجهد بشري.

ب. أن هذه المميزات الخمس من خصائص الدعوة المحمدية فلم تعط لأي نبي أو رسول.

ج. أن إرسال الرعب إلى قلوب الأعداء من مسافة بعيدة حالة نبوية خاصة وهدية إلهية إلى من يعيش في ظل ذلك الخط النبوي.

د. أن عدم ارتباط العبادة بالمعابد وبرجال الدين[1] كما يشكل بُعدا في عالمية هذا الدين وشموله، فإنه يشكل تيسيرًا لعلاقة العبد بالمعبود في كل زمان وفي كل مكان. وهنا ترد خاصية أخرى وردت مع الرسالة الإسلامية وهي أن التراب مطهِّر أيضًا كالماء. ونرى هنا من الفضول أن نتحدث عن أهمية الاغتسال في الإسلام وعن خاصية التطهير بالماء وكونه منبعًا للحياة وعن خاصية التطهير بالتراب.

هـ. أن أخذ الغنيمة لم يكن في حد ذاته حراما، وإنما كانت حرمة الغنيمة متعلقة بالزمن وامتحانًا. وقد تم تجاوز هذه المحرمات في زمن رسول الله ﷺ ولاسيما إنها كانت المصدر الرئيس للجهاد الذي هو ماض إلى يوم القيامة.[2] لأنها تكون مصدر إعاشة للذين وهبوا أنفسهم له وعاملاً مشوقًا لهم، وسببًا فعّالاً في إضعاف جبهة الأعداء من الناحية المالية وعدم تمكينهم من لَمّ صفوفهم، لكونها مهمة ومباحة -مع أنها غير واجبة- فهي ليست منافية للإخلاص لأنها وسيلة لإعلاء كلمة الله.

و. أن الشفاعة حق.. ويجوز أن يقوم كل واحد بالشفاعة بإذن الله تعالى.. ولكن الشفاعة

---

[1] نفهم من الحديث الشريف عدم ارتباط العبادة بالمعابد ومن ثم برجال الدين.

[2] أبو داود، الجهاد ٣٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٠٦/١.

العظمى يوم القيامة من ناحية شمولها وإحاطتها وعلاقتها بكل الناس تقريبا نعمة وميزة معطاة له ﷺ وحده وهي من الخصائص الأحمدية ومبعث سرور وفخر لنا.

ز. كان الأنبياء السابقون مبعوثين لأممهم وقبائلهم لا غير، أي في دائرة ضيقة، أما خاتم الرسل وسيد الأنبياء فقد أرسل للناس وللوجود بأكمله، لذا فإن دعوة الأنبياء السابقين كانت قائمة ما دامت قبائلهم وأقوامهم موجودة، أما هذه الرسالة فهي عامة وشاملة وتضم الوجود كله؛ لذا، فهي باقية ومستمرة حتى يوم القيامة.

هاكم إذن، سلسلة وضيئة أخرى منقوشة حول معانى مشتركة جامعة ورصينة وقوية من ناحية محتواها وطريقة التعبير عنها.

خ. المؤمن إنسان مسؤولية

«كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رَعِيَّته. الإمامُ راعٍ ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته. والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها. والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم راع ومسؤول عن رعيته.»[1]

ترد كلمة "راع" بمعنى الشخص الذي يحرس ويصون ويراقب ويهتم. لذا، أطلقت كلمة "الراعي" على الشخص الذي يحفظ الحيوانات الموجودة في عهدته ويصونها من الحيوانات المفترسة ويجد لها أفضل المراعي، وعندما يقوم بمهمته هذه يكون بفطرته السليمة بعيدًا عن كل حرص معيب، ويكون شغله الشاغل الرحمة والشفقة التي يحسها تجاه قطيعه حيث يتألم بألمه ويسعد براحته.

وهكذا فإن العلاقة بين رئيس الدولة وبين المواطنين تشبه -في وجه من الأوجه- هذه العلاقة. كما أن على ممثليه في الدوائر المختلفة وعلى مختلف المستويات مراعاة أحوال من هم تحت أيديهم ومقاسمتهم آلامهم وأفراحهم وأن يهيئوا لهم مستقبلاً أميناً وسعيدًا ويجابهوا المشكلات التي تعترضهم.

والعلاقة نفسها موجودة عند رئيس الأسرة، فهو المسؤول الأول عن نفقتهم وإلباسهم وإسكانهم في مسكن مناسب، ثم عن تعليمهم وتربيتهم وحسن معاشرتهم وإرشادهم إلى الطرق التي توصلهم للسعادة في الدار الآخرة. والأمر نفسه يرد في علاقة المرأة بزوجها في تدبير شؤون بيتها والمحافظة على مال زوجها وعرضه.

---

[1] البخاري، الجمعة ١١؛ مسلم، الإمارة ٢٠.

والخادم أيضا في موضع الراعي بالنسبة لمال سيده وملكه، كما يراعي الابن مال أبيه وشرفه وكرامته، حتى يمكن أن يقال إنه ما من إنسان في الإسلام يخرج عن دائرة "الراعي" و"الرعية"، فهو من جانب "راع"، ومن جانب آخر "رعية" حتى أنه لو لم تكن هناك "رعية" لراع فهو مسؤول أيضًا لأنه مسؤول عن رعاية عقله وجسده وأحاسيسه وأعضائه، فهي كلها أمانة عنده يجب مراعاتها والاهتمام بها.

والإسلام من بين كل النظم والأديان هو النظام الوحيد في الحياة الذي بين مسؤولية كل شخص حتى أدق تفاصيلها بدءً من رئيس الدولة وانتهاء بالخادم في المنزل، وذلك في عهد لم ير أحد الديمقراطية حتى في المنام. وليس هناك من نظام حياتي آخر يستطيع منافسته في هذا الموضوع. يقول نبي الإسلام إن «الإمام راع ومسؤول عن رعيته» ويعدد مسؤوليته ويعيّن حدود هذه المسؤولية ويشير إلى وظائفه ومهامه.. ويذكر بمسؤوليات الرجل والمرأة كل على حدة وفي ساحاتها المختلفة، ويحمل كلا منهما مسؤولياتهما... مسؤولية الأب نحو ابنه، ومسؤلية الابن نحو أبيه. كما بحث عن حقوق ومسؤوليات العمال والخدام في وقت مبكر جدًا إن أخذنا التطور العالمي في هذا الموضوع بنظر الاعتبار، وقدّم حلولاً للمشاكل الاجتماعية قبل حدوث الهزات الاجتماعية في تاريخ البشرية.

هذه بعض الكلمات النبوية حول الحقوق المتقابلة بين الإمام والرعية -شرحت معظم هذه الحقوق في كتب "الأحكام السلطانية" وغيره- وبين الابن والوالدين وبين الزوج وزوجته، وبين العامل وصاحب العمل، وقد تم تفصيل هذه الحقوق في كتب الفقه وفي رسائل الأخلاق والتربية، وفي كتب علم الاجتماع والحقوق وشغلت فيها مواضع بارزة.

ذ . بعض أنواع الحرام والمكروهات

«إن الله حرّم عليكم عُقوقَ الأمهات ووَأْدَ البنات ومَنْعًا وهاتِ وكَرِهَ لكم قيل وقال وكثرةَ السؤال وإضاعة المال.»[1]

١. عقوق الأم

إن الابن الذي يعق أمه ويعصيها كأنه يقطع كل حقوقية العلاقة بينه وبينها ويدفعها نحو الوحدة. ومع أن عقوق الأب أيضا محرم، إلا أن ذكر الأم هنا ينبع من كون النساء أكثر حاجة للحماية، وكذلك لكونها أرق شعوراً وإحساسا، لذا فإن عقوقهن يجرح شعورهن

[1] البخاري، تفسير سورة (١١) ١٥ مسلم، الأقضية، ١٢.

بشكل أقوى ويزيد في حزنهن. ولأن الأب يشترك مع الأم في حقها على الابن فإن عقوق الأب حرام أيضًا ولكن لا يمكن قياسه مع حرمة عقوق الأم.

٢. وأد البنات

كان عرب الجاهلية يقومون -في بعض المناطق وفي بعض المستويات الاجتماعية- بوأد البنات أي دفنهن وهنّ أحياء. كان البعض يقومون بهذا العمل الوحشي بدافع غريب من شعور الغيرة؛ والبعض الآخر بدافع الفقر والضيق الاقتصادي، وغيرهما بدافع قَبَلي لمنع انتقال ثرواتهم إلى الغرباء. ومهما كان الدافع لهذا العمل، فقد كان عملاً وحشياً يجب منعه والقضاء عليه وقد تم هذا فعلا، لذا حرم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هذا الموضوع بأوامر مشددة.

٣. خيانة الأمانة

رمَز الحديث الشريف إلى الامتناع عن دفع الديون والحقوق الأخرى اللازمة بكلمة "منعا" ومحاولة أخذ أو طلب الأشياء الممنوعة بطرق مختلفة بكلمة "هات"، أي يحرم الامتناع عن دفع الحقوق الواجب أدائها، كما يحرم أخذ الأشياء دون وجه حق. وخَطُّ الحرمة هنا هو نفس خط الحرمة لعقوق الوالدين ولوأد البنات.

كما يمكن فهم الكلمة الأولى هنا أي كلمة "منعا" بمنع الزكاة المفروضة عليه والصدقات وسائر الإعانات الأخرى وعدم أدائها إلى المستحقين من الفقراء. وفهم الكلمة الثانية "هات" في مجال التسول والسؤال. وإذا أردنا أن نخطو خطوة أخرى إلى الأمام لقلنا إن الكلمة الأولى تعني فيما تعنيه إنكار الديون بعد أخذها وأكل حقوق الآخرين وعدم تسديد قيمة الصكوك والسندات، والقيام بحيل معينة في سبيل ذلك كإعلان الإفلاس وغير ذلك من الحيل والطرق غير المشروعة في كسب المال وأكل حقوق الآخرين ثم إهمال إيصال هذه الحقوق إلى أصحابها بل حتى التمرد في هذا. وعن الكلمة الثانية نقول إنها تشمل حاليا حالات عديدة بدءً من التسول العادي إلى قيام بعض الدوائر -رسمية كانت أم غير رسمية- باستغلال العواطف الدينية أو الوطنية في الشعب لامتصاصها وخداع الجماهير وأخذ أموالها بالباطل بطرق عديدة.

يتناول هذا الحديث المليء والموجز عقوق الأولاد لوالديهم وقطعهم لصلة الرحم أو قيام الوالدين بتصرفات قاسية وغير إنسانية تجاه أولادهم دون الاهتمام بعواطف الرحمة والشفقة المركوزة في فطرتهم، وقيام بعض الأنانيين في المجتمع -الذي يعد عائلة كبيرة- بوضع مصالحهم ومنافعهم الشخصية فوق كل اعتبار، وهزهم بذلك قواعد النظام والثقة

والاطمئنان والأمن في المجتمع، وبعد أن جمع الحديث هذه الأمور في خط الحرام لصفة مشتركة بينها أشار إلى أمور أخرى ثلاثة ممنوعة أيضاً وإن لم تكن في المستوي السابق من ناحية الحرمة وهي "قيل وقال" أي نشر الشائعات و "كثرة السؤال" أي طرح أسئلة عديدة في غير أماكنها، أو المقصود جعل الشحاذة والتسول صنعة ومهنة. و"إضاعة المال"، أي تبذير المال بالإسراف هنا وهناك.

٤. الشائعات

رمز إلى الشائعات هنا بـ"قيل وقال". وقيل وقال هو كل كلام لا ينفع لا في الدنيا ولا في الآخرة... هو الكلام التافه وغير الضروري... هذا قد يكون كلامًا لا يعنينا في شيء أو بيانًا يقترب من حدود الممنوعات، ونشر الشائعات مرض اجتماعي يختلف في شدته باختلاف المستوى الاجتماعي للناشرين وباختلاف واسطة الشائعة -قد تكون جريدة أو مجلة أو إذاعة أو تلفزيونا- ومدى وسعة دائرة انتشارها. وهذا مرض اجتماعي يسري في المجتمعات التي تعطلت فيها مواهب الأفراد وتسطحت فيها مشاعر الجماهير وضاقت آفاق تفكيرهم.

إن كل الآثام القاتلة التي يكون الفم مصدرها والتي حرمها الإسلام تنمو وتنتشر عن هذا الطريق "القيل والقال". ولهذا أورد الرسول ﷺ قول المعروف أو الصمت من بين أشياء ثلاثة أوصاها إذ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جارَه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضيفَه.»[1]

٥. كثرة السؤال

وهي إما الإسراف في طرح أسئلة لا معنى لها أو القيام بالتسول دون ضرورة ماسة واتخاذ التسول مهنة وعادة، وكلا الأمرين مذموم. فقد حرم القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة التسول خارج نطاق الضرورة. كما أنّ طرح أسئلة هنا وهناك وفي كل وقت وحين شيءٌ مذموم وغير مستحب، إذ الأفضل أن تتوجه مشاعر الناس وأفكارهم إلى أمور مفيدة مثمرة. وعلى أي حال فإننا نرى أن القرآن الكريم يقسم الأسئلة إلى نوعين. نوع مقبول ومستحسن ومثاله ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة:٢١٥) ونوع مذموم وغير مستحب ومثاله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ (الإسراء:٨٥).

طرح السؤال أو عدم طرحه.. التسول أو عدم التسول.. وجود ضرورة أو عدم وجود مثل هذه الضروة، وجود حاجة أو عدم وجودها. كل هذه الأمور هي التي تعين عما إذا

---

[1] البخاري، الرقاق ٢٣؛ مسلم، الإيمان ٧٥.

كانت أفعال المكلفين واجبة أم حراماً أم مباحة. لذا، فإن هذين الموضوعين وإن بدا مختلفين إلا أنه يمكن مطالعتهما وتفسيرهما معًا من جهة وحدة اتجاههما.

أما "إضاعة المال" فيمكننا تفسيرها بأنها إنفاق المال دون أن يكون لهذا الإنفاق أي فائدة دنيوية أو أخروية، أي تبديد الثروة هباء منثوراً فيما لا ينفع. وهذا مرض فردي ومرض اجتماعي. أجل، قد يبدو قيام فرد ما بتبديد ثروته وإضاعتها فيما لا ينفع وكأنه ضرر فردي يصيب ذلك الفرد فقط، غير أن ثروته لكونها جزءً من ثروة البلد والمجتمع فإن تبديدها وإضاعتها فيما لا ينفع يضر المجتمع ويضر البلد ككل. وينتهي هذا الحديث الشريف بهذه المسألة الأخيرة التي اكتسبت أهمية كبيرة في أيامنا الحالية والتي ستكتسب أهمية أكبر في المستقبل ألا وهي الاستغلال الجيد للثروة والاستثمار الاقتصادي لها. ولا ننسى أن ننوه إلى سعة المعاني العميقة وشمولها التي أكسبها سلطان الأدباء والبلغاء قوة بحسن اختياره للكلمات واستعمالها في مواقعها الصحيحة المناسبة.

ض . الإحسان

«الإحسان أن تَعْبد اللهَ كأنك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك.»[1]

إن شعار المؤمنين الكاملين هو أن يتكامل الإيمان ويتحد بالإسلام ويقترب من درجة الإحسان. وقيام المؤمنين ضمن الإيمان والإسلام بالوصول إلى درجة الإحسان، أي الوصول إلى بُعد أسمى ومستوى أرقى من الإيمان والإسلام، وإيفاء هذه الدرجة حقها يؤدي إلى أن يكون مظهرًا لعناية الله ولطفه على قاعدة "إن الخير ينتج الخير"، لذا يجازيه الله تعالى بـ«ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.»[2] أي بمفاجاة من جنس الإحسان.. إذ ترد هنا قاعدة ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلإِحْسَانِ إِلاَّ ٱلإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠). فإحسان العبد هو إخلاصه بمقدار عمق إيمانه وأدبه وخشيته؛ وإحسان الله تعالى بمقدار عظمته وغناه وقيامه بملء قلب عبده بالإيمان واستثارته بالإلهام ورفع الغشاوة عن عينه ليريه الأشياء على حقيقتها، وحفظ لسانه عما لا يعنيه، وإنطاقه بالحكمة وإلهاب عاطفته حتى تسرح في آفاق التجليات.. وعندما يصل المؤمن إلى هذا وتنفرج أمامه أستار الوجود، يصبح وكأنه يراه ولكن "دون كم أو كيف"، ولكن لكونه تعالى ﴿لاَ تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ﴾ (الأنعام:١٠٣) فإن المؤمن المتيقن من رؤية الله تعالى له، بسعادة رؤيته لله، وبمهابة رؤية الله له يكاد يغيب عن صوابه، فكما يَتخيل الصائم

---

[1] البخاري، تفسير سورة (٣١) ٢؛ مسلم، الإيمان ٥، ٧.

[2] البخاري، التوحيد، ٣٥؛ مسلم، الجنة ٢-٤.

وهو ينتظر ساعة الأفطار لذة الإفطار، كذلك يحس المؤمن- الذي قضى حياة حافلة بألوان الطاعة والإخلاص والخضوع والخشوع - من الرؤية العاجلة وغير التامة في هذه الحياة لذّةَ تلك الرؤية التامة والأجلة في الدار الآخرة. فكأن حياته الدنيوية - التي هي أيام معدودات - بمثابة صوم وصال حتى لقاء حبيبه. ففي كل جزء من أجزاء الثانية الواحدة تتضاعف هذه اللذة أضعافًا مضاعفة، فكأن حياته الواحدة تصبح ألف حياة.

أجل، فكما أن العبد يسعد سعادة لا حدود لها عند رؤية سلطان الأزل والأبد فهو يسعد عندما يشعر أن الله يراه، أي يحس بسعادة ولذة من معرفته بأن الله يراقب ما يقدمه من خدمات ويشاهده. يسعد بعمق وهو يؤدي حتى أقل أعمال الخير والبر وأصغرها.

وما قلناه ليس إلا نافذة صغيرة على معاني كلام سيد المرسلين ﷺ الوجيز والبليغ والذي يتسع شرح لألئه وجواهره لمجلدات. إذن، فهذه قطرة من بحر... ولمعة من شمس... وشعلة من عالم تسبح فيه النجوم. فالتصدي لشرح هذه الكلمات النورانية -التي هي مرآة مجلوة لعكس الحقيقة الأحمدية- شيء يتجاوز قدراتنا، ومع أننا خضنا في هذا الأمر عمدًا إلا أننا نضرع إليه ﷺ ونبتهل إلى الله تعالى أولاً وآخرًا لكي يغفر لنا هذه الجرأة. ولقد سبق وأن قلنا بأن شرح كلماته النيرة بكل أبعادها شيء يتجاوز طاقتنا وقدرتنا وأننا بانتظار من يكون أهلًا للقيام بهذا العمل. إلا أننا مع هذا أظهرنا بعض الجرأة وقمنا بمحاولة تحليل بعض جوانب من بعض أحاديثه. والشيء الذي تجرأنا على الخوض فيه -بأسلوب عامي- هو تناول بضعة أحاديث مضيئة من عالمه ﷺ الواسع الفسيح، ومن زاوية عمق محتواها ورصانة أسلوبها وبلاغة بيانها. لذا، نرجو الله أن يغفر لنا، وأن ينظر إلينا أرباب العلم نظرة تسامح.

٢) وباقة من أدعيته

نود هنا أن نتناول بعض أدعيته ﷺ وأن نلفت أنظاركم إليها، فالكلمات والمعاني الموجودة في أدعيته ﷺ من العمق ومن التميز والسمو والغنى بحيث لا يستطيع أحد الوصول بل حتى الاقتراب منها. ونستطيع أن نقول دون تردد بأن كل دعاء من أدعيته يحتوي من ناحية المعاني ما يملأ كتابًا بكامله. فكما أن أقواله وأحاديثه أسمى من كل الأقوال والأحاديث البشرية الأخرى، فإن أدعيته أعمق بكثير من كل الأدعية التي تلفظت بها الإنسانية سابقًا أو ستلفظ بها في المستقبل. ذلك لأنه كان أعلم الخلق بالله تعالى وأشدهم خشية له، لذا كانت أدعيته أعمق الأدعية وأسماها وأرقها. فرسول الله ﷺ يعلمنا الدعاء التالي عند التهيؤ للنوم:

«إذا أتيتَ مَضْجعَك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللّٰهم أسلمتُ نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوَّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك. لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلتَ ونبيك الذي أرسلت.»[١] ما أروع هذه الكلمات المستعملة!. ما أعذبها وما أرقاها..! ما أصفاها وما أنقاها..! وما أدفأ معانيها، وما أعمق محتوياتها.ولكوننا سنورد هذه الأدعية في فصل خصصناه لأدعيته فإننا نؤجل شرحها ونكتفي بلفت الأنظار إلى بلاغتها وإيجازها فقط.

ودعاء آخر له: «اللّٰهم باعِد بيني وبين خطاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب. اللّٰهم نقِّني من خطاياي كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيض من الدَنَس.»[٢] معاني هذا الدعاء تملأ كتابًا... لا أملك قول شيء آخر. أجل، لقد كان ﷺ سلطان الداعين.

ودعاء آخر له: «اللّٰهم إني أسألك من الخير كله؛ عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم. وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمتُ منه و ما لم أعلم.»[٣]

ومن لآلئ أدعيته ﷺ الذي أوتي جوامع الكلام: «اللّٰهم لا مانعَ لِما أعطيتَ، ولا معطي لِما منعتَ، ولا يَنفع ذا الجَدّ منكَ الجَدّ.»[٤]

ثم دعاء آخر: «اللّٰهم ما قلتُ من قول أو حلفت من حلف أو نذرتُ من نذر فمشيئتك بين يدي ذلك. ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. لا حول ولا قوة إلا بك. إنك على كل شيء قدير. اللّٰهم ما صليتُ من صلاة فعلى من صليتَ، وما لعنتُ من لعنٍ فعلى من لعنتَ، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين.»[٥]

و«وأسألك اللّٰهم الرضا بعد القضاء وبَرْدَ العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك وشوقًا إلى لقائك من غير ضَرّاء مُضِرّة ولا فتنة مضِلّة، أعوذ بك أن أَظلِم أو أُظلَم أو أَعتدِي أو يُعتدى عليّ أو أَكسِب خطيئة أو ذنباً لا تغفره.»[٦]

و«...وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضَيعة وعورة وذنب وخطيئة. وإني لا أثق إلا

---

[١] البخاري، الدعوات ٦، ٧، ٩؛ مسلم، الذكر ٥٦، ٥٧.
[٢] البخاري، الأذان ٨٩؛ مسلم، المساجد ١٤٧؛ ابن ماجه، الدعاء ٤.
[٣] المسند للإمام أحمد، ١٤٧/٦.
[٤] البخاري، الأذان ١٥٥؛ مسلم، الصلاة ٢٠٥؛ أبو داود، الصلاة ١٣٩.
[٥] المسند للإمام أحمد، ١٩١/٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١١٣/١٠.
[٦] المسند للإمام أحمد، ١٩١/٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١١٣/١٠.

برحمتك فاغفر لي ذنبي كله إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم»[١]

ودعاء آخر: «اللّهم أنت أحَقُّ من ذُكِر وأحقّ من عُبِد وأنصَرُ من ابتُغِي وأرأف من مَلَك وأجود من سُئل وأوسع من أعطى أنت الملِك لا شريك له والفردُ لا يهلك، كل شيء هالك إلا وجهك، لن تطاع إلا بإذنك ولن تُعصى إلا بعلمك. تطاع فتشكر وتُعصى فتغفر، أقَربُ شهيد وأدنى حفيظ. حُلتَ دون الثغور وأخذتَ بالنواصي وكتبتَ الآثار ونسخت الآجال، القلوبُ لك مفضية، والسِّرُّ عندك علانية، الحلال ما أحللتَ، والحرام ما حرمت والدين ما شرعتَ، والأمر ما قضيت، والخلق خلقك والعبد عبدك وأنت الله الرؤف الرحيم. أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض بكل حقٍّ هو لك وبحق السائلين عليك أن تقبلني في هذه الغداة وفي هذه العشية وأن تجيرني من النار بقدرتك.»[٢]

«اللّهم إنا نسألك من خيرِ ما سألك منه نبيك محمد ﷺ ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ.»[٣] «اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها.»[٤]

«اللّهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك عزيمة الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك لسانًا صادقًا وقلبًا سليماً وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم إنك أنت علام الغيوب.»[٥]

«اللّهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردتَ فتنة الناس فتوفني غير مفتون. وأسألك حبَّك وحبَّ مَن يحبك وحُبَّ عمل يقربني إلى حبك»[٦]

«اللّهم إني أسألك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه وأوله وآخره، وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة. آمين»[٧] «اللّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.»[٨]

---

[١] المسند للإمام أحمد، ١٩١/٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١١٣/١٠.

[٢] مجمع الزوائد للهيثمي، ١١٧/١٠.

[٣] الترمذي، الدعوات ٨٨.

[٤] مسلم، الذكر ٧٣؛ أبو داود، الوتر ٣٢.

[٥] الترمذي، الدعوات ٢٣؛ النسائي، السهو ٦١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٧٣/١٠.

[٦] الترمذي، تفسير سورة (٣٨) ١٢؛ الموطأ، القرآن ٤٠.

[٧] المستدرك للحاكم، ٥٢٠/١.

[٨] المستدرك للحاكم، ٤٩٩/١.

«اللّٰهم إني أسألك الهدى والتُّقَى والعَفاف والغنى.»[1] «اللّٰهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.»[2]

في هذه الأدعية لا يمكنك تبديل كلمة واحدة، أما الانسجام الموجود بين الكلمات فشيء رائع حقا، وليس في إمكان أحد الوصول إلى أبعاد هذه الأدعية.. أجل، لقد كان رسول الله ﷺ قمة شاهقة في الأدعية أيضًا. لقد اقتبس كل الأولياء والزهاد كلمات من أدعية رسول الله ﷺ ليزينوا أدعيتهم بها ويعطوا لها حيوية ودفئا، ولكي يطرقوا بدعائه ﷺ باب رحمة الله. ويتميز أسلوب رسول الله ﷺ في الأدعية بإشراقة مضيئة بحيث تستطيع معرفته ضمن الأساليب الأخرى وتشخيصه بسرعة قائلاً "هذا كلام رسول الله ﷺ."

عندما أقرأ أدعية عمالقة الروح والقلب ومناجاتهم من أمثال أبي الحسن الشاذلي وأحمد البدوي وأحمد الرفاعي والشيخ الكيلاني يغمرني الوجد والهيام وأكاد عندما أقرأ بعض المقاطع منها أن أغيب عن الوعي، فأدعيتهم مؤثرة جدًّا ومدهشة، ولكنهم جميعًا اقتبسوا من أدعية الرسول ﷺ وأدخلوها في هذه المقتبسات ضمن أدعيتهم لكي يغنوها ويزينوها بها. ونحن بدورنا نستخدم أدعيتهم هذه عندما نطرق باب رحمة الله تعالى بأمل قبولها.

وختامًا نقول إن كلام رسول الله ﷺ وأحاديثه بأجمعها دليل على فطنته، وبعض كلماته لكونها من "جوامع الكلم" تحمل أهمية خاصة. والأسلوب الذي يستخدمه في تعابيره في الأدعية يدخل ضمن هذا القسم، فإن أحاديثه وأدعيته تشيران إلى منطق النبوة أي إلى منطق العقل ذي البُعد الأخروي ويشير إلى بعده الإلهامي... فما هو إلا سلطان الأنبياء والرسل.

ج. الرحمة النبوية بعد من أبعاد فطنته ﷺ

إن رحمة النبي ﷺ وشفقته تشكلان بعدًا آخر من أبعاد فطنته. ويمكن رؤية عمق آخر في فطنة رحمة النبي ﷺ وشفقته. أجل، لقد كان سيدنا محمد ﷺ هو الممثل الوحيد لتجلي صفة الرحمة والرحمانية لله تعالى في الأرض. واستعمل هذه الصفة كإكسير شاف لفتح القلوب والتربع على عروشها. ذلك لأن صفة الشفقة والرأفة واللين في الإنسان هي العامل الثاني في جذب الناس وفتح قلوبها بعد صفة الإخلاص والتجرد الحقيقي. لقد كانت رقة وجمال العالم الداخلي للرسول ﷺ وقابليته غير الاعتيادية ورحمته وشفقته -اللتان كانتا بُعدا آخر

---

[1] ابن ماجه، الدعاء، ٤٢ مسلم، الذكر ٧٢؛ الترمذي، الدعوات ٧٢؛ المسند للإمام أحمد، ٤١٦/١، ٤٣٤، ٤٣٧.

[2] المسند للإمام أحمد، ١٨١/٤؛ المستدرك للحاكم، ٥٩١/٣.

من أبعاد فطنته- من عوامل نجاحه التي استعملها واستغلها، ومن دلائل نبوته كذلك.

لقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين. أجل، لقد كان مرآة مجلوة تعكس رحمة الله تعالى... كأنه كان نبعًا وسط الصحارى أو حوض كوثر... تقاطر عليه الجميع وفي يد كل منهم وعاؤه... يشرب حتى يطفئ ظمأه ويروي غلته ويملأ وعاءه... أجل، إنه بسرّ بُعد الرحمة المتجلية فيه مثل حوض كوثر للجميع، من أراد استطاع الاستفادة منه.

غير أنه بهذه الفطنة الرائعة جعل الرحمة الموجودة في فطرته شباك رحمة لصيد القلوب، فمن وجد نفسه في ذلك الجو الساحر وجد نفسه في طريق الجنة وفي قمة الوجد... هكذا كانت "الرحمة" في يد رسول الله ﷺ مفتاحًا سحريًّا... فبهذا المفتاح فتح مغاليق أقفال صدئة لم يكن أحد يتوقع فتحها بأي مفتاح، وأشعل شعلة الإيمان في القلوب... أجل، لقد سلّم هذا المفتاح الذهبي إلى محمد المصطفى ﷺ لأنه كان أليق الناس به، والله تعالى دائما يسلم الأمانة لمن هو أهل لها؛ لذا، سلم مفتاح القلوب التي أعطاها أمانة للناس إلى من هو أكثر أهلية له من بين كل الناس وكل البشر... إلى محمد ﷺ. أجل، لقد أرسله الله رحمة للعالمين، فقام ﷺ بتقييم هذه الرحمة بشكل متوازان جدا، لأن التوازن شيء مهم في موضوع الرحمة.

١- الإفراط والتفريط في الرحمة

هناك إفراط وتفريط في مسألة الرحمة كما في المسائل الأخرى. ويمكن مشاهدة أفضل مثل على سوء استعمال الرحمة في فكر وتصرفات الماسونيين، فهم مع كونهم يتحدثون بمبالغة عن الحب وعن الإنسانية نراهم لا يستطيعون إقامة أي علاقة حميمة مع أي شخص متدين، بل لو كان في مقدروهم أن يقتلوا كل شخص متدين ومسلم لفعلوا. فالحب الذي يتحدثون عنه مقتصر عليهم وعلى من يفكر مثلهم، وهذا الحب في الحقيقة ليس الحب الخالص الذي نعرفه نحن، بل هو حب قائم على المنافع وعلى المصالح بينما كانت رحمة سيد المرسيلن رحمة متوازنة شاملة لم تشمل الناس فقط بل شملت الوجود باجمعه.

يستطيع المؤمنون الاستفادة من الرحمة التي كان يمثلها النبي ﷺ، ذلك لأنه ﴿...بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨). ويستطيع الكافرون والمنافقون أيضا -إلى جانب المؤمنين - الاستفادة من هذه الرحمة كذلك. حتى أن لجبريل حصة من هذه الرحمة.[1]

---

[1] الشفاء للقاضي عياض، ١٧/١.

وانظروا وتأملوا مدى شمولية وسعة هذه الرحمة بحيث أن الشيطان نفسه بعدما شاهد هذه الرحمة انبعث فيه بعض الأمل فيها.[1] الرحمة التي يمثلها غير مقتصرة على أناس معينين ولا على جماعات معينة ولم يقم أبدًا باستغلال هذه الرحمة كما فعل البعض.

٢- خدعة "الإنسانية (Humanizm)"

في أيامنا الحالية تيارات اتخذت من فكرة "الإنسانية" ستارًا لخداع الإنسان. وأنا أتساءل: ما الفرق بين هذا التصرف وبين تصرف العقارب والثعابين التي تقترب من الإنسان لتلدغه..؟ إن الحب الذي كان الرسول ﷺ يمثله لم يكن من هذا النوع أبدًا ويجب ألا يخلط به. أجل، إن مفهوم الحب في الإسلام حب متوازن يضم في إطاره الدنيا والآخرة كما هو شأنه في الأمور الأخرى كذلك. لقد احتضن محمد ﷺ برسالته الإنسانية كلها بل الوجود كله بالحب، غير أن حبه الواسع وشفقته الشاملة لم تبق في إطار الكلام أو في بطون الكتب كما فعل الآخرون، بل سرعان ما انعكست في الحياة العملية وبكل معانيها العميقة وأبعادها الشاملة. علمًا بأنه ما من فكر من أفكاره ﷺ أو عمل من أعماله إلا وأخذ طريقه إلى التطبيق العملي، ذلك لأنه كان رجل فكر وحركة وعمل.

إن الرحمة الواسعة لرسول الله ﷺ التي ضمت الوجود كله بإخلاص وجدت طريقها إلى التطبيق. لأنها كانت معنى منبعثًا بكل تجرد وإخلاص من قلب الوجود كله، فمثلا نراه يعبر عن شفقته على الحيوان بمثالين حيين: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أن امرأة بغيًا رأت كلبًا في يوم حارّ يُطِيف ببئرٍ، قد أَدْلَعَ لسانَه من العطَش، فنزعَتْ له بِمُوقِها فغُفِر لها.»[2]

ثم يروي ﷺ حادثة مقابلة لذلك: «عُذِّبتْ امرأةٌ في هرّة سجنَتْها حتى ماتت فدخلت فيها النارَ، لا هي أطعمتْها ولا سقتْها إذ حبستْها، ولا هي تركتْها تأكل من خَشَاش الأرض.»[3]

لقد جاء رسول الله ليبلغ رسالة الرحمة هذه، فقد كان المنهلَ العذب المورود، فمن جاءه وجد الرحمة عنده، ومن شرب ماء الحياة من يده فقد حصل ووصل إلى الخلود المعنوي. فيا ليت الذين سيقفون أمام حوض الكوثر بقدَر ولطف من الله تعالى يعلمون قدره وفضله ﷺ حق العلم. ولكي لا يبقى ما قلناه مفهومًا مجردًا فإنني أود تقديم أمثلة ملموسة، غير أنني أود قبل هذا لفت انتباهكم إلى ما يأتي:

---

[1] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢١٦/١٠؛ كنز العمال للهندي، ٢٤٤/٤.

[2] البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، السلام ١٥٤.

[3] البخاري، المساقاة، ٩؛ مسلم، السلام ١٥١؛ الدارمي، الرقاق ٩٣؛ المسند للإمام أحمد، ٥٠٧/٢.

٣- كان ذروة في كل شيء

هناك أناس يتقدمون الصفوف في بعض المسائل، ولكنا نجدهم في أواخر الصفوف في مسائل ومجالات أخرى.

فمثلا نرى القائد الموفق في ساحات القتال وفي فنون الحرب مهما بلغ في مهارته هذه فإنه لا يكاد يبلغ درجة راع بسيط في ساحات أخرى في الشفقة ورقة العاطفة والفهم، بل لكونه معتادًا على القتل فلن يكون إنسانًا رحيمًا في معظم الأحوال. ذلك لأن عواطفه وأحاسيسه قد فقدت حساسيتها ورقتها من كثرة ما اقترف من أعمال القتل فلا يشعر بأدنى عاطفة وهو يقوم بقتل إنسان. وقد يكون هناك سياسي ناجح في ميدان السياسة، ولكنك قد تراه مبتعدًا عن الصدق بنسبة نجاحه هذا وقد لا يحترم حقوق الناس. أي أن ابتعاده عن الصدق وعن المروءة بنسبة نجاحه في ميدان السياسة يكون أمرًا واردًا. وهذا يعني أن ارتفاعًا في ميدان مّا قد يستتبعه هبوط في ميدان آخر.

كما تستطيع مشاهدة كيف أن الإنسان الذي افتتن بتيار الوضعية فأصبح يجري وراء إجراء التجارب على كل شيء.. وكيف أن الحياة الروحية والقلبية لمثل هذا الرجل لا تتجاوز خط الصفر. بل هناك أشخاص وصلوا بعقولهم إلى "قمة إفرست". ولكنهم في حياتهم القلبية والروحية تراهم هابطين إلى مستوى "البحر الميت" "بحيرة لوط". فكم من شخصٍ انساب عقلُه إلى عينيه فلا يرى شيئًا سوى المادة، يقف ذاهلاً أحمق أمام منطق الوحي، قد عميت عيناه عن رؤية الحقيقة. من هذا الشرح القصير نعرف أن هناك أشخاصًا ينجحون في ساحات وميادين معينة ولكنهم يفشلون في ساحات وميادين أخرى أكثر أهمية. أي أن الصفات المتناقضة الموجودة في الإنسان تعمل إحداها ضد الأخرى. فعندما تتوسع صفة ما وتقوى يكون هذا ضد صفات أخرى، وعندما تنمو إحداها وتقوى تضمر الأخرى وتضعف.

ولكن هذا الأمر غير وارد بالنسبة لرسول الله ﷺ، فهو إلى جانب كونه محاربًا كان صاحب شفقة عظيمة.. كان سياسيًا ولكنه في الوقت نفسه صاحب مروءة كبيرة وقلب كبير.. وبينما كان يعطي أهمية للأمور الملموسة وللتجارب فإنه كان ذروة في حياة الروح وفي حياة القلب. ويمكن العثور على أمثلة كثيرة بهذا الصدد في معركة أُحد. ففي تلك المعركة استشهد عمه حمزة ﷺ الذي كان يراه شقيق نفسه. لم يُستشهد فقط بل مزق جسده

تمزيقًا.[١] كما مزق جسد ابن عمته عبد الله بن جحش تمزيقًا.[٢] وشج رأسه المبارك، وكسرت أسنانه وغطى الدم جسده الشريف؛[٣] وبينما كثّف أعداؤه الهجوم عليه جاهدين للوصول إليه لقتله كان هذا الإنسان العظيم فوق كل عظمة فاتحًا يديه يبتهل إلى الله تعالى قائلاً: «اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.».[٤] فما أعظم وما أروع هذه الشفقة من شخص يحاول أعداؤه قتله فلا يدعو عليهم... بل يبتهل لله تعالى أن يغفر لهم.

حتى فتحِ مكة لم يبق في يد أعدائه أيُّ وسيلة للإيذاء لم يجربوها معه ولم يوجهوها نحوه... تأملوا معي كيف أنهم أخرجوه هو ومن يقف معه من بيوتهم إلى منطقة صحراوية معلنين عليهم المقاطعة، ومعلقين بنود هذه المقاطعة الشريرة على جدار الكعبة؛ وكانت تقضي بعدم التعامل معهم بيعًا وشراء وعدم التزوج من بناتهم أو تزويج بناتهم لهم... وقد دامت هذه المقاطعة ثلاث سنوات بحيث اضطروا إلى أكل العشب والجذور وأوراق الأشجار، حتى هلك منهم الأطفال والشيوخ من الجوع دون أن تهتز منهم شعرة، أو تتحرك عندهم عاطفة رحمة.. ولم يكتفوا بهذا بل اضطروهم لترك بيوتهم وأوطانهم والهجرة إلى أماكن أخرى بعيدة.. ولم يدعوهم في راحة هناك فبدسائسهم المختلفة سلبوا منهم طعم الراحة والاطمئنان.. وفي معارك بدر وأُحد والخندق اشتبكوا معهم في معارك ضارية.. وحرموهم حتى من أبسط حقوقهم كزيارة الكعبة وأرجعوهم إلى ديارهم بعد إبرام معاهدة ذات شروط قاسية. ولكن الله تعالى أنعم عليهم ففتحوا مكة ودخلها رسول الله ﷺ على رأس جيش عظيم..

فكيف كانت معاملته لأهل مكة بعد كل هذا التاريخ المملوء عداوة وبغضا..؟ لقد قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء» ولولا أنني أخذت هذا الدرس منه لما كنت قد تصرفت هكذا لو كنت في موقعه، ولا أشك أنكم تشاطرونني رأيي هذا. ولكنه يدخل مكة على مركبه والدرع على صدره والمغفر على رأسه والسيف في يده والنبال على ظهره.. ولكنه مع كل مظاهر لباس الحرب هذه كان أنموذجاً للشفقة والرأفة.. سأل أهل مكة: «ما ترون أني فاعل بكم؟» فأجابوه: "خيرًا أخٌ كريمٌ وابن أخ كريم." فقال لهم ما قاله يوسف عليه السلام

---

[١] البخاري، المغازي ٢٣.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٣/٣.

[٣] البخاري، المغازي ٢٤؛ مسلم، الجهاد ١٠٠، ١٠١.

[٤] البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، الجهاد ١٠٤، ١٠٥.

لإخوته: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَومَ يَغْفِرِ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف:٩٢).[1]

لم يقصر في حياته أبدًا من ناحية اتخاذ الحيطة. وليس هناك من استطاع مثله الجمع بقوة بين اتخاذ التدبير والتوكل. عندما خرج بأصحابه إلى بدر امتحنهم.. كان كل منهم كالطود الشامخ لا يخاف الوقوف وحده أمام جيش بكامله، وعندما قال له سعد بن معاذ -وفي رواية: سعد بن عبادة-: "يا رسول الله! والذي نفسي بيده لو أمرتَنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَاد لفعلنا ما تخلَّف منا أحد."[2] فإنه كان يعطي أنموذجا لهؤلاء.. ثم ما أكثر المعاني التي يحملها قوله للرسول ﷺ "...فصِلْ حِبال من شئتَ واقطع حبال من شئت وعادِ من شئت وسالِمْ من شئت وخذ من أموالنا ما شئت."[3]

كان المقاتلون متهيئين فكأن كل واحد منهم سعد بن معاذ، ومع ذلك لم يقصر رسول الله ﷺ في اتخاذ التدابير، بل كان يهيئ كل الوسائل والأمور الضرورية للحرب. وبعد هذا الدعاء الفعلي -لأن اتخاذ الوسائل دعاء فعلي- رفع يديه إلى السماء مبتهلاً إلى الله من كل قلبه ضارعًا وملتجئًا إليه... واندمج في دعائه بحيث كان رداؤه يسقط دون أن يشعر بذلك ولم يتحمل أبو بكر الذي كان يراقب هذا المنظر، فكان يعيد عليه رداءه ويقول: "يا نبيّ الله! كفاك مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك."[4]

فمثل هذا المستوى الرفيع من التوكل على رب العالمين بعد اتخاذ كل هذه التدابير صفة تميز بها ذلك الإنسان... إنسان الذروة ﷺ، وتفرد بها.

٤- الرحمة العالمية

لقد ذكرت في بداية هذا الموضوع أن رسول الله ﷺ كان مثال الرحمة التي استفاد منها الكل، المؤمن والكافر والمنافق. يستفيد المؤمن من رسول الله ﷺ لأنه يقول بأنه أقرب للمؤمنين من أنفسهم. صحيح أن المفسرين يقولون إن الرسول ﷺ يجب أن يكون أعز وأحب إلى المؤمنين من أنفسهم استنادًا إلى الآية الكريمة: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب:٦). ولكن الحقيقة أن المعنيين متقاربان من بعضهما، فنحن نحب رسول الله ﷺ أكثر من أنفسنا، والرسول ﷺ يحب من يحمل له هذه العاطفة بالحب نفسه، ذلك لأنه رجل مروءة كبير.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٥٥/٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٤٤/٤.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢١/٣، ٣٢٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٦٦/٢.

[3] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢٢/٣.

[4] مسلم، الجهاد ٥٨؛ الترمذي، تفسير سورة (٨) ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٢/١؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٧٩/٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٢/٣.

هذا حب عقلي ومنطقي، ومع أن لهذا الحب جانبه العاطفي إلا أن بُعد المعرفة وعمق المنطق يشكلان الجانب الأساسي فيه. ولو تم بحث هذا الموضوع وتسليط الأضواء عليه، تجذر هذا الحب عند الإنسان وقوي إلى درجة أن يسير وراء ذكره كما سار "قيس" وراء ليلاه، وكلما ذكر اسمه أحس كأن دخانًا يخرج من أنفه، ويعد حياته التي انقضت دون رؤيته كأنها حياة منفى وهجر. أجل، إن رسول الله ﷺ أقرب إلينا من أنفسنا، كيف لا ونحن نرى الكثير من الشرور والآثام من أنفسنا، بينما لم نر منه سوى الكرم والرحمة والخير والشفقة والمروءة، فهو يمثل الرحمة الإلهية، لذا فلا شك أنه أقرب إلينا من أنفسنا.

وعندما يقول الرسول ﷺ بأنه أقرب إلى المؤمنين من أنفسهم فقد صدق، فالله تعالى يقول ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب:٦)، ويقول الرسول ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه ديْن فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته.»[١] وبداية هذا الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين، فيسأل: «هل ترك لدينه من قضاء؟» فإن حدث أنه ترك وفاء صلّى عليه، وإلا قال: «صلّوا على صاحبكم.» فلما فتح الله عليه الفتوح، قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته.»[٢] وكون الرسول ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في الدنيا والآخرة يعد رحمة، وناحية الرحمة هذه مستمرة إلى الأبد.

كان رحمة للمنافقين أيضًا. فبسبب هذه الرحمة الواسعة لم ير المنافقون العذاب في الحياة الدنيا، فقد حضروا إلى المسجد واختلطوا بالمسلمين واستفادوا من كل الحقوق التي تمتع بها المسلمون. ولم يقم رسول الله ﷺ بفضحهم وإفشاء أسرار نفاقهم أبدًا مع أنه كان يعرف دخائل نفوسهم ونفاقهم، حتى إنه أخبر حُذيفة ﷺ بذلك.[٣] لذا، كان عمر بن الخطاب ﷺ يراقب حُذيفة، فإن رآه لا يصلي على جنازة لم يصلها هو كذلك.[٤]

ومع ذلك فلم يهتك الإسلام سرهم، فبقوا بين المؤمنين، وانقلب كفرهم المطلق إلى ريبة وشك على الأقل، فلم يحرموا من لذائذ الدنيا، لأن الإنسان الذي يعتقد أنه سيفنى ويذهب إلى العدم لا يمكن أن يهنأ في عيشه، ولكن إن انقلب كفره إلى شك وشبهة فإنه يقول في نفسه: "ربما توجد هناك حياة أخروية"، عند ذلك لن تكفهر حياته

---

[١] البخاري، الكفالة ٥؛ مسلم، الفرائض ١٤.

[٢] البخاري، الاستقراض ١١؛ مسلم، الفرائض ١٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣١١/٣.

[٣] البخاري، فضائل أصحاب النبي ٢٠؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٤٦٨/١.

[٤] أسد الغابة لابن الأثير، ٤٦٨/١.

تمام الاكفهرار. ومن هذا المنطلق كان رسول الله ﷺ رحمة لهم بهذا المعنى.

كما استفاد الكفار من رحمة رسول الله ﷺ، لأن الله تعالى كان يهلك من قبل الأمم الكافرة بسبب كفرها وعصيانها هلاكًا جماعيًّا، بينما رفع الله تعالى بعد بعثة نبينا هذا الهلاك الجماعي، فاستفاد الناس من خلاصهم من مثل هذا العذاب، فكان ذلك نعمة دنيوية بالنسبة للكفار. يخاطب الله تعالى نبيه في هذا الخصوص فيقول: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وَأَنْتَ فِيهِم وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣).

أجل، فمن أجل حرمة النبي ﷺ رفع الله تعالى العذاب والهلاك الجماعي. وبينما كان النبي عيسى عليه السلام يقول لله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُم عِبَادُكَ﴾ (المائدة:١١٨) نرى أن الله تعالى يقول لنبيه ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، فتأمل قدر النبي ﷺ ومنزلته عند الله، أي طالما أنت تعيش بينهم فلن يعذبهم الله، طالما أن ذكرك موجود، وتلهج به الألسنة، وطالما أن الناس يتبعون طريقك فلن يعذبهم الله ولن يهلكهم. وإحدى الجهات التي استفاد منها الكفار من رسول الله ﷺ هو أن الرسول ﷺ يقول: «إني لم أبعث لعّانًا، وإنما بُعثت رحمة»،[1] أي إنني بعثت رحمة من قبل الله تعالى للناس أجمعين، ولم أبعث لكي أستمطر اللعنة والبلايا والمصائب على الناس. ولهذا تمنى رسول الله ﷺ اهتداء ألدّ أعداء الإسلام، وبذل كل جهوده ومساعيه لتحقيق هذا.

حتى جبريل عليه السلام قد استفاد من النور الذي جاء به الرسول ﷺ، فقد سأله رسول الله ﷺ يومًا وهو يشير إلى القرآن: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: نعم، كنت أخشى العاقبة، فأمنت لثناء الله جل جلاله عليّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير:٢٠-٢١)".[2]

ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: «أنا محمد وأحمد والمقفّى[3] وأنا الحاشر[4] ونبي التوبة ونبي الرحمة.»[5] وباب التوبة مفتوح حتى يوم القيامة؛ لأن رسول الله نبيُّ الرحمة والتوبة، ونبوته وحكمه ماض إلى يوم القيامة.

كان إذا رأى طفلاً أو صبياً يبكي جلس وبكى معه، إذ يشعر في وجدانه ألم الأم

---

[1] مسلم، البر ٨٧.

[2] الشفاء للقاضي عياض، ١٧/١.

[3] المقفّي: أي خاتم الأنبياء. (المترجم)

[4] الحاشر: أي ليس بينه وبين الحشر نبي آخر في معنى، وفي معنى آخر أن الله سيحشر الناس أمامه يوم القيامة. (المترجم)

[5] مسلم، الفضائل ١٢٦؛ المسند للإمام أحمد، ٣٩٥/٤.

وعذابها. ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة ﷺ نجد أنموذج هذه الرحمة وهذه الشفقة التي لهجت بها الألسن إذ يقول رسول الله ﷺ: «إني لأدخل الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأخفف من شدة وَجْد أمه به.»[1]

كانت صلاة رسول الله ﷺ طويلة، ولاسيما النوافل منها، إذ كانت تتجاوز طاقة الصحابة، ولكنه عندما يقف للصلاة يريد إطالتها ويسمع بكاء طفل في أثنائها إذ به يخفف صلاته ويتَجوَّز فيها، ذلك لأن النساء كن يقفن للصلاة خلف رسول الله ﷺ أي يشتركن في أداء صلاة الجماعة خلفه، فخوفًا من أن تكون أم ذلك الطَفل موجودة بين المصليات فإنه كان يخفف صلاته، ويسرع بها لكي يريح قلب تلك الأم. كان في كل مسألة أنموذجا للشفقة؛ فبكاء طفل كان يؤلمه، بل كان يبكيه. ولكن المهم هو أنه بكل شفقته الواسعة الباهرة، ورحمته كان متوازنا. فمثلاً رحمته الواسعة هذه لم تكن حائلة أمامه في تطبيق الحدود الشرعية مهما كان شكل هذه الحدود وكيفيتها.

جاءه أحد الصحابة وهو ماعز ﷺ قائلاً له: "طهِّرني يا رسول الله." فأعرض عنه رسول الله ﷺ قائلاً له: «ويحك، اِرْجِعْ فاستغفر الله وتب إليه»، إلا أن ماعزًا كان يصر على التطهر ويطلبه. وعندما كرر طلبه للمرة الرابعة سأله الرسول ﷺ: «فيم أطهرك؟» فقال ماعز: من الزنا يا رسول الله. كان ماعز متزوجا، أي محصنا، وعقاب الزنا للمحصن هو القتل رجمًا. ولكي يبقى هذا الأمر منقوشًا في الأذهان حتى يوم القيامة فقد التفت إلى من حوله سائلاً: «أبه جنون؟» فأُخبر أنه ليس بمجنون. وفي رواية: ما نعلمه إلا وفيّ العقل، من صالحينا فيما نرى. فسأل رسول الله ﷺ: «أشَرب خمرًا؟» فقام رجل فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر. فقال رسول الله ﷺ لماعز: «أزنيت؟» فقال: نعم. فأمر برجمه، فسيق ماعز إلى المصلى لرجمه، فلما أصابته الحجارة أدبر يشتد، فلقيه رجل بيده لحي جمل فضربه فصرعه، فذُكر للنبي ﷺ فراره فقال: «فهلاَّ تركتموه.»

فكان الناس فيه فرقتين، فقائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئة، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة. فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلّم ثم جلس فقال: «استغفروا لماعز بن مالك.» فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد

---

[1] البخاري، الأذان ١٦٥ مسلم، الصلاة ١٩٢.

تاب توبة لو قُسِّمت بين أمة لَوَسِعتهم.»[١] كان رسول الله ﷺ رجل موازنة، ولو فرضنا المستحيل وقلنا إن ماعزًا عاد للحياة، واقترف الذنب نفسه لكرر الرسول ﷺ العقاب نفسه.

كان لدى بني مقرّن خادمة، فلطمها أحدهم، فجاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ باكية، فاستدعى الرسول ﷺ مالكها قائلاً له: «أَعتِقوها»، فقالوا ليس لهم خادم غيرها. قال: «فليستخدموها، فاذا استغنوا عنها، فليخلّوا سبيلها.»[٢] أجل، فلو بقي إثم هذه اللطمة الظالمة ليوم الحساب لكانت اللطمات هناك أشد وأقسى، لذا كان العتق هو بديل هذه اللطمة لكي تكون ديتها يوم القيامة عن عذاب جهنم.[٣]

٥- الأطفال

أما شفقته على أطفاله فكان أمرًا مختلفًا تمامًا، فكثيرًا ما ذهب إلى الأسرة التي ترضع ابنه إبراهيم حيث يأخذه في حجره طويلاً ويقبله ويعطف عليه.[٤]

وعندما رأى الأقرع بن حابِس التميمي رسول الله ﷺ وهو يقبل الحسن والحسين ﷺ ويأخذهما في حضنه، قال: "إنّ لي عشرة من الولد، ما قبّلتُ منهم أحدًا"، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يَرْحم لا يُرحم.»[٥] وفي حديث آخر: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.»[٦] وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبّلون الصبيان؟ فما نقبّلهم. فقال النبي ﷺ: «أوَ أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة.»[٧]

وكما كان رسول الله ﷺ يعطف على أقربائه، فإنه كان يعطف كذلك على أصدقائه القريبين منه والبعيدين عنه. وفي رواية لابن عمر ﷺ قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن مسعود ﷺ، فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله قال: «قد قضى؟» قالوا: لا يا رسول الله. فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا. فقال: «ألا تسمعون، إن الله لا يعذِّب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا»، وأشار إلى لسانه.[٨]

---

[١] مسلم، الحدود ١٧-٢٣؛ البخاري، الحدود ٢٨؛ المسند للإمام أحمد، ٢٣٨/١، ٤٥٠/٢.

[٢] مسلم، الأيمان ٣١، ٣٣؛ أبو داود، الأدب ١٢٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤٤٧/٣.

[٣] مسلم، الأيمان ٣٠.

[٤] المسند للإمام أحمد، ١١٢/٣.

[٥] البخاري، الأدب ١٨؛ مسلم، الفضائل ٦٥.

[٦] الترمذي، البر ١٦؛ أبو داود، الأدب ٥٨.

[٧] البخاري، الأدب ١٨؛ مسلم، الفضائل ٦٤؛ ابن ماجه، الأدب ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٥٦/٦.

[٨] البخاري، الجنائز ٤٥؛ مسلم، الجنائز ١٢.

أجل، إن الله لا يعذب بسبب دمع العين، على العكس من ذلك فهناك دموع يرفع الله بسببها العذاب؛ ففي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرُس في سبيل الله.»[1] إحدى العينين عين الرهبان، والأخرى عين الفرسان؛ ففي الليل كانوا رهبانًا يذرفون الدموع في عبادتهم وسجودهم، وفي النهار كانوا فرسانًا يصولون ويجولون ويهاجمون الأعداء كالأسود. دموع هؤلاء كانت دموع المؤمنين الحقيقيين، والصحابة كانوا من هذا النوع من المؤمنين: رهبان في الليل فرسان في النهار.

عندما أُخبر رسول الله ﷺ بوفاة عثمان بن مظعون أسرع ﷺ إلى بيته، فقد كان عثمان ﷺ من الصحابة القريبين إلى قلبه، فبكى النبي ﷺ عليه بكاء كثيرًا، ولكن عندما قالت زوجة عثمان ﷺ: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟ والله-ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي.»[2]

أجل، لقد كان رجل توازن؛ فشفقته وبكاؤه لم يكن يمنعه من تصحيح خطأ. فالدموع التي سكبها على أحد أصحابه الأحبة ما كانت لتحول بينه وبين تصحيح كلام مبالغ فيه أو خاطئ، فالوفاء شيء والحق شيء آخر. كان يزور شهداء أحد كل أسبوع[3] ولكنه لم يكن يقول: لقد طِرتم إلى الجنة. ولا يقولن أحد منا: إن لم يذهب هؤلاء إلى الجنة فمن غيرهم..!؟ نعم هذا هو الأمر.

ثم ألا تكفي الرتبة والمقام الذي أعطاه لكافل اليتيم دليلاً على شفقته الواسعة؟ انظروا ماذا يقول ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، ثم أشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئًا.[4] فكأن رسول الله ﷺ يريد أن يقول بأنه لن يدخل أحد بيني وبين كافل اليتيم في الجنة.

٦- الشفقة على الحيوانات أيضًا

كانت شفقته تشمل الحيوانات أيضًا، فقد مر سابقًا كيف أن امرأة دخلت النار بسبب هرة، وكيف أنّ بغيًا دخلت الجنة بسبب سقيها الماء لكلب ظامئ. وهنا أنقل لكم حادثة أخرى بهذا الخصوص كخاتمة للموضوع:

---

[1] الترمذي، فضائل الجهاد ١٢.

[2] البخاري، الجنائز ٣.

[3] البخاري، المغازي ٢٧؛ مسلم، الفضائل ٣٠؛ النسائي، الجنائز ١٠٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٢٠٥؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤/٣٠٠.

[4] البخاري، الطلاق ٢٥، الأدب ٢٤؛ مسلم، الزهد ٤٢.

عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَة معها فرخان، فأخذْنا فرخيها، فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تَفْرُش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فَجَع هذه بولدها؟ رُدُّوا ولدها إليها»[١] أجل، لقد كانت شفقته تحتضن الحيوانات أيضًا. ثم ألا تتذكر أن الله تعالى عاتب أحد أنبياءه السابقين بسبب بيت نمل؟ إذ قام هذا النبي عن قصد أم عن دون قصد بحرق بيت نمل، فما لبث أن جاءه تأنيب من الله تعالى.[٢] ونبينا الذي نقل لنا هذه الحادثة وأمثالها من الحوادث الأخرى أيمكن أن يتصرف إلا هكذا؟ وظهر فيما بعد في أمته أشخاص عندما يُمدحون يقال عنهم: إنه لا يؤذي حتى نملة. هؤلاء الأشخاص كانوا يعلقون أجراسًا صغيرة على أقدامهم لكي تبتعد الحشرات عن طريقهم عند سماعها لصوت الأجراس، ولا تنسحق تحت الأقدام. يا إلهي! ما هذه الشفقة العميقة والشاملة! وما هذا الأنموذج الرائع للرحمة! أجل، حتى النمل لم تخرج عن دائرة رحمته ﷺ ولم تستثن منها. وهل يكون في مقدور إنسان يتحرج عن سحق نملة القيام بظلم الناس الآخرين؟ كلا، لا يستطيع هذا عن علم وعن قصد أبدًا.

عندما كان ﷺ في "مِنًى" خرجت حية من بين بعض الصخور، فأسرع بعض الصحابة لقتلها، غير أنها استطاعت أن تنسلّ بين شقوق الصخور، فقال رسول الله ﷺ الذي كان يراقب المنظر عن بُعد: «وقاها الله شرّكم، ووقاكم شرّها.»[٣]

فالرسول كان يرى فيما هم به الصحابة شرًا، والمقتول وإن كان حية إلا أن لها مكانًا أيضًا في نظام هذه الدنيا، فأي قتل غير ضروري سيضر بالتوازن البيئي، ويؤدي إلى أضرار لا يمكن تلافيها. والحقيقة أن إعلان الحرب على الحشرات باسم الزراعة والمحافظة عليها، يعد جريمة بالنسبة للتوازن البيئي، والغريب أن هذه الجرائم ترتكب اليوم باسم العلم.

يروي ابن عباس ﷺ: أن رجلاً أضجع شاة يريد أن يذبحها، وهو يحد شفرته، فقال النبي ﷺ: «هلاّ حددتَ شفرتك قبل أن تضجعها.»[٤] كان هذا بمثابة عتاب لذلك الشخص.

يروي عبد الله بن جعفر ﷺ: جاء بعير يشتد حتى سجد لرسول الله ﷺ، ثم قام بين يديه، فذرفت عيناه، فقال رسول الله ﷺ: «من صاحب هذا البعير؟» قالوا: فلان. فقال «ادعوه، فأتوا به»، فقال له رسول الله ﷺ «يشكوك.» فقال: يا رسول الله، هذا البعير كنا نسنو عليه منذ

---

[١] أبو داود، الأدب ١٦٤، الجهاد ١١٢؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠٤/١.

[٢] البخاري، الجهاد ١٥٣؛ مسلم، السلام ١٤٨.

[٣] البخاري، جزاء الصيد ٧؛ مسلم، السلام ١٣٧؛ النسائي، الحج ١١٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣٨٥/١

[٤] المستدرك للحاكم، ٢٣١/٤، ٢٣٣.

عشرين سنة، ثم أردنا نحره. فقال رسول الله ﷺ: «شكا ذلك، بئسما جازيتموه، استعملتموه عشرين سنة حتى إذا أرق عظمه، ورق جلده أردتم نحره بعينه.» قال: بل هو لك يا رسول الله. فأمر به رسول الله ﷺ فوجه نحو الظهر، أي الإبل.[1]

لقد كانت رحمة رسول الله ﷺ وشفقته تتجاوز بكثير الرحمة المدعاة من قبل ما يطلق عليهم اليوم اسم "أنصار الإنسانية"، ولكنه استطاع أن يصون رحمته الواسعة هذه من الإفراط ومن التفريط أيضًا، وذلك بفضل فطنته الكبيرة.

أجل، لم يتهاون أبدًا مع أي شر أو إثم تحت اسم المرونة أو الرحمة أو المسامحة، ولم يدع له فرصة لوضع بنيانه ومد جذوره، ذلك لأنه كان يعرف جيدًا أن أي مسامحة لمجرم أثيم ذي روح متوحش تعني الاعتداء على حقوق آلاف من الأبرياء. ونعترف بكل أسى بأن أيامنا الحالية مملوءة بمثل هذه الاعتداءات أكثر من أي عهد مضى. فقد رأينا بأم أعيننا إلى أي حال جرّنا هذا التسامح مع الفوضويين ومع أعداء عقائدنا وتراثنا وماضينا، ولا نزال نرى ذلك ونشاهده، وقلوبنا تتفطر ألمًا. فإن لم تستخدم الرحمة والشفقة بشكل متوازن أدى ذلك إلى نتائج وخيمة جدًّا في مستوى الفرد، وفي مستوى المجتمع ككل، بينما لا يمكن الإشارة إلى أي مثال على مثل هذا الاستعمال السلبي للرحمة عند رسول الله ﷺ.

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يحب الناس إلى درجة يكاد يتلف فيها نفسه، والقرآن الكريم يشير إلى هذا الأمر في بعض المواضع إذ يقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ[2] عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦). هذا علمًا بأنه عندما اقتربت منه نسائم النبوة كان معتكفًا في مغارة، وجاءه الوحي لأول مرة هناك. إذن، فقد كان يحب الناس، ونذر نفسه من أجل هذه الغاية.

والحقيقة أن مفهوم الجهاد عنده ﷺ كان ينبع من منبع الرحمة. أجل، قد يلحق بعض الضرر الدنيوي بالناس بسبب جهادهم، ولكن ما يربحونه في حياتهم الأبدية كبير إلى درجة أن هذا الضرر يعد صفرًا بجانبه؛ فرسول الله ﷺ كان يفتح بحد سيفه الطرق المؤدية إلى الجنة. وهذا بُعد آخر من أبعاد الرحمة التي بعث بها للعالمين.

---

[1] مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/١٩؛ الخصائص الكبرى للسيوطي ٢/٩٥.

[2] باخع نفسك: قاتلها ومهلكها من شدة الغم. (المترجم)

د. الحلم

حاولنا في الفصل السابق بيان كيف أن رسول الله ﷺ كان أصفى مرآة وأجلاها للرحمانية وللرحيمية الإلهية، وكيف أنه استطاع بفطنته الرائعة إقامة التوازن في مجال الرحمانية والرحيمية. ومع أنه يصعب تقصي كل هذه الحقائق وإعطائها حقها إلا أننا حاولنا إعطاء صورة واضحة وإن كانت مختصرة. وهنا سنحاول تقديم جانب آخر، ومتعلق أيضًا بموضوع رحمته، وهو حلمه ﷺ وخلقه اللين.

الحلم مفتاح ذهبي آخر أُهدي للنبي ﷺ، ففتح به قلوبًا كثيرة وتربع فيها. فلولا حلمه هذا لصدمت الخشونة الكثير من النفوس التي لا تملك مرونة، وجعلتهم في صفوف أعداء الإسلام، ولابتعدوا عن النبي ﷺ. ولكن حلمه ﷺ حال دون هذا، فأقبل الناس أفواجًا إلى الإسلام. أجل، لقد كان الحلم من أهم الصفات التي جهزه الله تعالى بها، والتي تعكس رحمة الله تعالى عليه، والقرآن الكريم يشرح هذا الأمر فيقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

كما نفهم من القرآن، فإن الحلم ينبع من رحمة الله تعالى، ولو كان رسول الله ﷺ فظًّا غليظ القلب - إذ لم يكن كذلك- لانفض الناس من حوله. فكانت من رحمة الله الواسعة أن جعله ليّن الطبع إلى درجة أن الأيدي التي امتدت بالأذى إليه، والتي توقعت رد فعل عنيف لم تجد عنده سوى اللين والعطف، فكيف بالذين أحبوه من أعماق قلوبهم!

نزلت هذه الآية بعد معركة أُحد، فمع أن رسول الله ﷺ شرح لهم تكتيك الحرب بتفاصيلها إلا أن البعض منهم لم يفهموا الأوامر المعطاة لهم حق الفهم، فتركوا مواضعهم قبل صدور الأوامر إليهم بذلك، فكانت النتيجة الهزيمة المؤقتة للمسلمين. صحيح أنها لم تكن هزيمة تامة، ولكنها لم تكن نصراً تامّاً أيضاً. هزت شائعة مقتل رسول الله ﷺ قلوب كثير من المسلمين وأفزعتهم، فنرى مثلاً الصحابي أنس بن النضر يقول للمسلمين: "فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ."[1] فذهبوا وقاتلوا حتى استشهدوا.. كان هذا هو طريقهم.. الموت في السبيل الذي مات فيه الرسول الله الكريم ﷺ.

لو انصاع المسلمون لأوامر النبي ﷺ لكان من المحتمل أن يصلوا إلى النصر، ولكن

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٨٨/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٦/٤.

إظهارهم أقل انحراف عن أمره غيَّر النتيجة كل هذا التغيير المفجع. والآن لنقف هنا لنتأمل قليلاً: لو كان على رأس هذه الجماعة زعيم آخر غير رسول الله ﷺ فكيف كان سيتصرف أمام هؤلاء الناس الذين لم يطيعوا الأوامر الصادرة إليهم وخالفوها؟ أكان يتصرف معهم وكأن شيئًا لم يحدث؟ ثم إنه كان زعيمهم ماديًا وروحيًا. أجل، فكل خير أو فضيلة عرفوها عن طريقه، وشاهدوا مئات المرات كيف أنه يصدر القرار الصائب في كل مسألة.. مثل هذا الشخص أصدر إليهم تعليمات مشددة ألا يبرح أحدهم مكانه، وهم الآن يقاسون عاقبة مخالفتهم له. فبجانب كل هؤلاء الشهداء لم يسلَم تقريبًا أحد من الجروح، حتى رسول الله ﷺ فقد شج رأسه، وكسرت سنه، وسال الدم على جسده. أجل، لو كان قائد آخر غير رسول الله ﷺ في مكانه آنذاك أما بدت على وجهه علامات الغضب؟ ألم يكن في الأقل يعاتبهم قائلاً لهم: ألم أقل لكم أن تعملوا كذا وكذا؟ ليذكرهم بأخطائهم؟ ولكن الآية الكريمة السابقة تخاطبه، وتضع سدًّا أمام ورود هذه الخواطر في نفسه.

كانت هذه اللحظة لحظة دقيقة جدًا وحساسة، فأي كلام أو إشارة أو غمز كان سيؤثر لا محالة تأثيرًا مضاعفًا، لذا كان من الضروري تجنب أي تصرف يمكن أن يجرح قلوبهم أو يخدش نفوسهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩). هذا علمًا بأن الصحابة لم يغيروا سلوكهم أبدًا مع رسول الله ﷺ، إذ بقوا ملتفين حوله يبذلون له مهجهم.

كان خلقه القرآن،[١] والقرآن هو الذي يعلمنا هذا الخلق الإلهي؛ ألا نرى أن الله تعالى يستمر في إعطاء الرزق للناس حتى وإن عصوه وتمردوا عليه؟ فمع أن بعضهم يفترون عليه فيشركون به أو يدعون له ابنًا أو زوجة فإن الله تعالى يسبغ عليهم بفضل رحمانيته أفضالاً عديدة. فالشمس تشرق كل يوم بنورها ودفئها، والسحب تهب لنجدتهم بأمطارها، والنباتات بأنواعها مستمرة في إعطاء ثمراتها اللذيذة، ومع ذلك فهؤلاء يقابلون كل هذه النعم والأفضال بجحود لا يسعه العقل. أجل، إن الناس لا يحمدون ولا يشكرون جزءً من مليون جزء من نعم الله التي أسبغها عليهم، ولكن الله تعالى لا يعاقبهم حالاً لأنه حليم، فلا يغير الله تعالى سنته من جراء هذه الأخطاء البشرية، لذا فإنه يستمر في الإنعام وفي الرزق. والرسول ﷺ متخلق بخلق الله، إذ يعكس هنا صفات الله تعالى وأسماءه الحسنى، فالقرآن الكريم يقول عنه إنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٧)، ليس هو فقط، بل جده إبراهيم

---

[١] مسلم، صلاة المسافرين، ١٣٩؛ ابن ماجه، الأحكام ١٤؛ المسند للإمام أحمد، ٩٢/٦.

عليه السلام كذلك، فعندما يصفه القرآن الكريم يقول عنه: ﴿إِنَّ إِبرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (هود:٧٥).

كانت صفة الحلم في إبراهيم عليه السلام ذروة لا يمكن بلوغها، ذلك لأنه كان يعطف حتى على الذين رموه في النار وحاولوا حرقه، وكان يخشى أن يصيبهم بلاء من الله تعالى، لذا كان يسهر الليل حتى الصباح وهو يتأوه ويتألم لهم.. وكان منيبًا متوجهًا إلى الله تعالى في كل آنٍ مقبلاً عليه، واقفًا أمام باب الله بقلب خاشع وعين دامعة. كان رسول الله ﷺ يشبه نفسه دائمًا بإبراهيم عليه السلام.[1] أجل، لقد كان مثل جده إبراهيم في حلمه ولينه.

والحلم أساس مهم بالنسبة لدعاة الحق، إذ على الإنسان أن يقابل بالحلم حتى الأناس الذين ملئوا حقدًا وكرهًا. فحُسين بن منصور الحلاّج غَفر لمن قطع يديه ورجليه. أما داعي القرن العشرين[2] الذي نفي من بلده وكأنه مجرم شرير، والذي قضى حياته متنقلاً من سجن إلى سجن، فإنه لم يدعُ على من ظلمه، بل دعا الله أن يغفر لهم، وأن ينقذ إيمانهم، فضرب لهم مثلاً رائعًا في الحلم، فيا ليت الذين أتوا من بعده استطاعوا فهم سحر حلمه هذا.

لنرجع إلى النبي إبراهيم عليه السلام مرة أخرى: رماه خصومه في النار، ولكن الله تعالى أمر النار أن تكون بردًا وسلامًا عليه: ﴿قُلنَا يَا نَارُ كُونِي بَردًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩)، أي لا تكوني عليه حارة ولا باردة، بل سلامًا. ذلك لأن إبراهيم كان قد زين نفسه هكذا أمام العالم.. لا يغضب عليهم ولا يقابلهم ببرود.. كان إنسان "سلام"، لذا لقي المعاملة نفسها من قبل الله تعالى. وما كان في الإمكان تصور أن يقوم إبراهيم عليه السلام بالتخلق بخلق الله تعالى ثم يلقى معاملة أخرى منه تعالى. كلا، فالسلام اسم الله تعالى، لذا، أصبحت النار "سلاما" على إبراهيم.

خلق الحلم هذا الذي بدأه إبراهيم عليه السلام أخذه النبي ﷺ وصعد به إلى الذروة. فعندما ملك كل القدرات التي تمكنه من القضاء على أعدائه السابقين قضاء مبرما لم يبتعد عن المروءة. ولو أراد معاقبة المذنبين فهل كان هناك من يقف في وجهه؟ كلا، على العكس من ذلك، فربما كان هناك المئات من أمثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الذين كانوا دائمًا على أهبة الاستعداد لإزالة أي شيء يمكن إيذاء النبي ﷺ أو يكدر خاطره، وحاضرين على الدوام للإطاحة برأس من يقوم بذلك، ويطلبون منه الإذن لذلك، ولكنه ﷺ كان على الدوام يهدئ أصحابه ويدعوهم إلى الحلم.

---

[1] البخاري، الأنبياء ٢٤؛ مسلم، الإيمان ٢٧٢.

[2] المقصود هو بديع الزمان سعيد النورسي مؤلف كليات رسائل النور. (المترجم)

في أحد الأيام افتروا على شرف زوجته وهو واثق من عفتها وشرفها. ولو أومأ إيماءة صغيرة إلى أي مسلم لطارت رؤوس عديدة من المنافقين، وما كان هناك مسلم يتأخر عن تنفيذ أمره. ومضت أيام وهو يبتلع كلامًا كالأشواك ولا يقول شيئًا.. ويشعر بعذاب كبير في قلبه ولكنه يصمت.. دام هذا حتى نزول الأيات التي برأت ساحة أمنا عائشة ﵂ مع أن المسلمين كانوا ينتظرون خروج أي كلمة من بين شفتيه.

كان هناك أحيانًا من يقف أمامه ويتصرف بخشونة معه، بل يسمعه كلمات جارحة. ولو أشار إشارة خفيفة بأصبعه لارتفعت مئات السيوف لقطع رأس ذلك الشخص، ولكنه كان قد عقد عزمه على مقابلة أمثال هذه التصرفات باللين وبالحلم على الدوام. كان يبذل عناية في عدم إخافة أي شخص أو ترويعه، كيف لا وهو القائل: «لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلماً»،[1] وهو القائل: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح.»[2] فكيف يمكن أن يقوم مثل هذا الشخص بالاعتداء على حياة أي شخص ظلماً ودون وجه حق.

كان إنسان ذوق رقيق، لذا كان يتأثر جدًّا من التصرفات الخشنة أو الحمقاء التي يبديها البعض أمامه، ولكنه كان يقابلها ببحر حلمه، ويذيبها فيه، ويتصرف تجاهها باللين. هكذا كان اتساع عالمه الحسي والعاطفي، حتى أنه عند مرضه كان يقاسي أضعاف الآلام التي يقاسيها أي مريض آخر. فقد دخل عليه عبد الله بن مسعود وهو مريض، ومس يده فأحس وكأنها تشتعل، فقال: "يا رسول الله! إنك لتوعَكُ وَعْكًا شديدًا." فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إني أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم.»[3] أجل، لقد كان النظام العصبي لرسول الله ﷺ حساسًا جدًّا؛ فربما كان ألم شوكة يشاكها في أصبعه يعادل ألم سكين مغروز في جسد إنسان آخر، فقد تكون هذه الحساسية المعطاة له ضرورية في أداء رسالته. والأذى الذي يحسه مثل هذا الشخص الحساس أمام التصرفات الخشنة أو الحمقاء يكون أكثر من الأشخاص الاعتياديين. وأيّ شخص بهذه الحساسية يمكن أن يسبب مشاكل عديدة وعواصف كل يوم، غير أن الرسول ﷺ لم يعمل هكذا، فقد كان رجل حلم. هذا علما بأن حلمه كان متوازنًا جدا، فكفر أي كافر كان يؤذيه جدًّا، ويكاد أن يبكيه، لذا كان يحاول عمل كل ما في وسعه لتوصيل أحدهم إلى الهداية. ولكن عندما يكون الأمر متعلقًا بتنفيذ حد

---

[1] أبو داود، الأدب ٨٥؛ الترمذي، الفتن ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٦٢/٥.

[2] البخاري، الفتن ٧؛ مسلم، البر والصلة ١٢٦.

[3] البخاري، المرضى ٣، ١٣؛ مسلم، البر ٤٥؛ المسند للإمام أحمد، ٣٨١/١.

شرعي، فإنه لم يكن يتهاون فيه أبدًا ومهما كان ذلك الشخص المطلوب إقامة الحد عليه قريبًا إلى قلبه. هذا علمًا بان العقاب الذي كان يوقعه بسبب الجرائم أو الذنوب المقترفة لم تكن من بينها الذنوب المقترفة بحقه، إذ كان على الدوام يصفح عمن يعتدي عليه، وليس هناك ذنب أو تجاوز تم ارتكابه في حقه ثم لم يصفح ولم يعف عنه.

وفي الحياة الدينية نلاحظ الأمر نفسه؛ فقد كان يختار لنفسه أشق الأمور، ويختار لغيره أهونها، حتى نه كان يصلي السنن في بيته لكي لا يثقل على أمته ولكي لا يعطي انطباعًا بأن هذه الصلوات فرض من الفروض. ثم إنه ما من إنسان كان يتحمل طول صلاة النوافل التي كان يصليها.

وكان أحيانًا يواصل صومه، ففي هذه الأمور الصعبة التي لا يتحملها أحد غيره تراه وحده. هذا علما بأن الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وأحد معاني هذا هو: أن الله تعالى أزال منذ البداية أيّ استعداد لـه لاقتراف أي ذنب أو معصية. وهذا يذكرنا بالحديث المتعلق بالمعراج حيث يخبرنا بأنه مر من خلال إجراء عملية معنوية له[1] إذ يذكر قيام الملائكة بشق صدره وغسل جوفه، وهذا يعني على الأغلب تطهير نفسه، لذا لم ير صدور أي فعل يعد إثمًا أو معصية من قبل رسول الله ﷺ، ومع ذلك كان يستغفر أكثر من سبعين مرة كل يوم،[2] لقد كان إنسان تواضع ومراقبة ومحاسبة للنفس.

ولكونه يقترب في كل خطوة من الله تعالى لذا، كان يستغفره من الحالة السابقة ومن الوضع السابق المرجوح من زاوية الموضع الجديد الذي وصل إليه، أي أنه في كل يوم يذكر اليوم السابق ويستغفر. إن تحمُّل وصبر مثل هذا الإنسان -الخالي من الذنوب- على المكوث بين الناس يكفي للاستدلال على مدى حلمه الواسع، مع أنه كان يواجه تصرفات خالية من الاحترام ومن الذوق فيقابلها بالحلم.

يروي كل من مسلم والبخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ الحادثة التالية: بينما النبي ﷺ يقسم ذات يوم قسماً أقبل شخص يدعى ذو الخُوَيْصِرَة رجلٌ من بني تميم (يحتمل أن يكون هذا الشخص من عرق مُغولي، ذلك لأن كتب السيرة تصف لنا هذا الشخص بأنه كان غائر العينين ناتئ الجبين مستشرف الوجنتين مدوَّر الوجه كالدرع المضروب)، فخاطب رسول الله ﷺ بوقاحة قائلاً له: "إعْدِلْ يا محمدا" لو خاطبَنا أحدٌ بهذا الخطاب لهزنا الغضب

---

[1] البخاري، التوحيد، ٣٧؛ مسلم، الإيمان ٢٦١؛ النسائي، الصلاة ٢.

[2] البخاري، الدعوات ٣؛ الترمذي، تفسير سورة (٤٧) ١؛ ابن ماجه، الأدب ٥٧؛ المسند للإمام أحمد، ٢٨٢/٢، ٣٤١.

حتى ولو كنا قد انحرفنا عن العدل فعلاً. ولكن هذا الكلام وُجِّه إلى نبي كانت وظيفته ومهمته هي إرساء العدالة في الدنيا. فقال عمر ﷺ الذي كان حاضراً هناك آنذاك: "دعني فأقتل هذا المنافق"، فلم يرض رسول الله ﷺ. وبعد أن هدّأ من خاطر عمر ﷺ ومَن حوله من الصحابة قال للرجل: «ويلك! ومن يَعدِل إذا لم أكن أعدل؟.»[1] وفي رواية أخرى: «لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل.»[2] وفي رواية أخرى: «لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل.»[3] أي: بما أنني نبي فأنت مأمور باتباعي في كل شيء، فلو لم أكن رجل عدل -حاشا لله- إذن، فقد خبتَ وخسرتَ، ذلك لأنك لن تكون متبعًا آنذاك طريق الحق والعدل. ولم يأذن رسول الله ﷺ -كدأبه دائمًا- في قيام أحد بقتله، ذلك لأنه كان رجل حلم من أخمص قدميه إلى مفرق شعره.

غير أنه لم يهمل إخبار أمته أن أمثال هذا الشخص سيتسببون في فتنة كبيرة في المستقبل. أجل، كان رسول الله ﷺ يعلم بما أخبره به ربه بأن أمثال هذا الشخص سيقودون فتنة كبيرة ضد هذه الأمة. وهذا ما حدث، إذ تحقق ما قاله رسول الله ﷺ في وقت مبكر، ففي معركة النهروان في عهد علي بن أبي طالب ﷺ كان معظم الخوارج المقاتلين له من نوع هذا الإنسان.

لم يقل الرسول ﷺ شيئًا حتى لهذا الرجل الوقح.. ولو هز رأسه، أو بقي صامتًا أمام اقتراح عمر ﷺ لطار رأس هذا الشخص صاحب الوجه الصفيق، فالرسول ﷺ كان يتصرف كما يأمره الله تعالى ولا يتعرض للجاهلين، فالقرآن الكريم يقول له: ﴿وَأَعرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩)، أي دعهم وشأنهم، ولا تتعرض لهم، ولا يهمك أمرهم، فالجاهل يتصرف بجهل، وأنت لست بجاهل، إذن، فلن تقابلهم بنفس تصرفاتهم. أنت حليم ولين الجانب، وهذا هو سر فتحك لمغاليق القلوب والتربع بالمحبة على عروشها. وقد تحقق هذا فعلا، فبالحلم أسلم أناس لم يكن أحد يتصور إسلامهم، وفتحوا قلوبهم للنبي ﷺ.

يروي أنس بن مالك ﷺ أن امرأة يهودية بعد فتح خيبر أهدت النبي ﷺ شاة مسمومة، فتناول أحد الصحابة -بشر بن البراء- لقمة منها فمات، أي أن هذه اليهودية وضعت سمًّا قويًّا في الشاة، وهي تنوي تسميم النبي ﷺ؛ ولما كان جانب المعجزة في هذه الحادثة ليس موضوعنا فإننا لا نبحثه هنا، وعندما تناول النبي ﷺ لقمة واحدة أخبرته الشاة أنها مسمومة،

---

[1] البخاري، الأدب ٩٥؛ المناقب ٢٥؛ مسلم، الزكاة ١٤٢؛ المسند للإمام أحمد، ٥٦/٣.

[2] مسلم، الزكاة ١٤٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣/ ٣٥٤.

[3] البخاري، المناقب ٢٥؛ مسلم، الزكاة ١٤٢.

فأمر النبي ﷺ برفع الشاة، وإحضار المرأة التي اعترفت بجريمتها، وقالت أنها فعلت ذلك لقتل النبي ﷺ. وتقول الروايات بأنها عندما سُئلت: لم فعلت ذلك؟ قالت للنبي ﷺ: أردت أن أعلم إن كنت نبيًا فسيطلعك الله عليه، وإن كنت كاذبًا أريح الناس منك. وأراد الصحابة قتلها فورًا إلا أن رسول الله ﷺ عفا عنها عن نفسه، ولم يقل شيئًا عن بِشْر بن البراء؛ هناك روايتان عن مصير هذه المرأة، رواية تقول: إن وارثي بشر قتلوها قصاصا، والرواية الثانية: إنها اهتدت وأسلمت، لذا سامحها أهل القتيل، وكان إسلامها سبب نجاتها.[1]

ما نريد الوقوف عليه هنا هو حلم رسول الله ﷺ، إذ عفى عن هذه المرأة اليهودية التي أرادت قتله، فما أجمل الوصول إلى مثل هذه القمة في الحلم. أجل، إن صفة الحلم التي بدأها إبراهيم ﷺ بصيغتها الكاملة وصلت إلى الذروة عند سلطان الأنبياء.

يروي أبو داود والنسائي عن أبي هريرة: كنا نقعد مع رسول الله ﷺ في المسجد، فإذا قام قمنا، فقام يومًا وقمنا معه حتى لمّا بلغ وسط المسجد أدركه رجل فجبذ بردائه من ورائه - وكان رداؤه خشنا- فحمَّر رقبته، فقال: يا محمد، احمل لي على بعيري هذين، فإنك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك.

ما هذه الوقاحة؟ وما سوء الأدب هذا؟ بدأت هذه الوقاحة بخطاب النبي ﷺ باسمه المجرد، واستمرت في سائر الكلمات. فلما سمعنا قول الأعرابي أقبلنا إليه سراعًا، فالتفتَ إلينا رسول الله ﷺ فقال: «عزمت على من سمع كلامي أن لا يبرح مقامه حتى آذن له.» فقال رسول الله ﷺ لرجل من القوم: «يا فلان! احمِل له على بعير شعيرًا وعلى بعير تمرًا»، ثم قال رسول الله ﷺ «انصرفوا على بركة الله.»[2]

تأملوا كيف أن رجلاً يعامل النبي ﷺ هذه المعاملة الخشنة بعد أن شهد مجلسه، واستمع إلى حديثه الذي يرقق القلوب، فأي قلب أصم كان يحمله، ذلك لأن مجلس النبي ﷺ لا يشبهه مجلس آخر.. لا مجلس ولي من الأولياء، ولا مجلس مرشد من المرشدين الكبار، وليس بإمكان كلماتنا القاصرة تصوير جو ذلك المجلس، ولكن الحقيقة التي يعلمها الكل هي أن النبي ﷺ كان يستطيع بقلبه الذي كان مرآة عاكسة للتجليات الإلهية، وبنفحة واحدة الارتفاع بمستمعيه إلى الذروة، كانت قابلية الانصباغ والتحول في مجلسه فوق كل تصوير، فمن حضر مجلسه مرة خرج منه وكأنه أصبح ملاكاً طاهراً صافي القلب.من أهم الأسرار

---

[1] البخاري، الهبة ٢٨؛ أبو داود، الدية ٦؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٢٣٧/٤.

[2] أبو داود، الأدب ١؛ النسائي، القسامة ٢٤.

الكامنة وراء عدم وصول أي ولي من الأولياء إلى رتبة الصحابة هي هذه القابلية للانصباغ وللتحول. يقول أحد أعلام هذا العصر:

"لقد خطر على قلبي ذات يوم سؤال وهو: لِمَ لا يبلغ أشخاص أمثال محيي الدين بن عربي مرتبة الصحابة الكرام؟ ثم لاحظتُ في أثناء قولي في سجودٍ في صلاة: "سبحان ربي الأعلى" أنّ شيئا من الحقائق الجليلة لمعاني هذه الكلمة الطيبة قد انكشف لي، لا أقول كلها بل أنكشف شيء منها. فقلت في قلبي ليتني أحظى بصلاة كاملة تنكشف لي من معانيها ما انكشف من معاني هذه الكلمة المباركة، فهي خير من عبادة سنة كاملة من النوافل. ثم أدركت عقب الصلاة أن تلك الخاطرة وتلك الحال كانت جوابًا على سؤالي، وإرشادًا إلى استحالة إدراك أحد من الناس درجة الصحابة الكرام في العبادة، ذلك أن التغيير الاجتماعي العظيم الذي أحدثه القرآن الكريم بأنواره الساطعة قد ميّز الأضداد بعضها عن البعض الآخر، فالشرور بجميع توابعها وظلماتها أصبحت في مجابهة الخير والكمالات مع جميع أنوارها ونتائجها. ففي هذه الحالة المحفزة لانطلاق نوازع الخير والشر من عقالها، تنبهت لدى أهل الخير نوازعه، فغدا كل ذكر وتسبيح وتحميد يفيد لديهم معانيه كاملة، ويعبر عنها تعبيرا نديًّا نضرًا. فارتشفتْ مشاعرهم المرهفة ولطائفهم الطاهرة بل حتى خيالهم وسرهم رحيق المعاني السامية العديدة لتلك الأذكار ارتشافا صافيا يقظا حسب أذواقها الرقيقة. وبناء على هذه الحكم، فإن الصحابة الكرام الذين كانوا يملكون مشاعر حساسة مرهفة، وحواس متنبهة ولطائف يقظة، عندما يذكرون تلك الكلمات المباركة الجامعة لأنوار الإيمان والتسبيح والتحميد يشعرون بجميع معانيها، ويأخذون حظهم منها بجميع لطائفهم الزكية."[1]

يجوز أن باب السماء قد انفتح لهذا الشخص الجليل، وأُلهِم بأن سجدته تلك كانت سجدة الصحابة. وخلاصة هذا الموضوع هي أن هذا الشخص الجليل القدر يقول بأنه مستعد لإعطاء كل عباداته مقابل ركعة من هذا النوع. هذا علمًا بأنني عندما رأيت صلاة أحد تلاميذه المقلدين له استحييت من صلاتي. إذن، فهذه هي درجة الصحابة ودرجة الصحبة النبوية... درجة الذروة... فالصلاة التي لا نستطيع الوصول إلى مستواهم فيها حتى في ركعة واحدة مثل هذه الصلاة كانت صلاتهم الدائمية والاعتيادية.

ذلك لأنهم كانوا يتلقون دروسهم من رسول الله ﷺ مباشرة. ثم إن جميع مسائل الدين كانت جديدة آنذاك وطرية؛ ففي يوم يشنف أذانهم صوت جديد هو صوت الأذان، فيعلوهم

---

[1] الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي ص٥٧٥-٥٧٦.

الوجد، وتثور عواطفهم. وفي يوم آخر هناك شيء آخر على المائدة الإلهية، وحكم آخر للذين يوضع أمامهم وكأنه الثمرة اليانعة لأول القطف، فيتسلل العشق الإلهي إلى قلوبهم، ويبقون في نشوته.

وعلى الرغم من كل شيء فقد بقيت هناك قلوب صماء لا تسمع ولا تعقل ولا تلين. وكان أصحاب هذه القلوب الميتة يتصرفون بخشونة وبصفاقة أمام رسول الله ﷺ. فكان النبي ﷺ يتسامح مع هؤلاء، ويتصرف معهم بالحلم وباللين، فلا يبقى هناك تصرف خشن لا يذوب في بحر حلمه. أجل، لقد كان يتصرف وهو يحسب حساب اليوم والغد وما بعد الغد ولو أظهر الشدة لانفضّ الناس من حوله كما يذكر القرآن. إذن، فحلمه كان من بين أسباب عدم انفضاض الناس من حوله، فلم يأت لاستعمال الشدة بين الناس، ولا لتشتيت المجتمع، بل جاء من أجل تأمين سعادة الدنيا والآخرة للناس أجمعين، فلم تكن الإنسانية لتحصل على حياتها الأبدية إلا بسلوك الطريق الذي أشار إليه. فقد كانت الأبدية ضمن منهاجه، وكان يخطط تصرفاته ضمن هذا المفهوم.

قام خالد بن الوليد بالتسبب في أضرار كبيرة للمسلمين في معركة أُحد، ولكن عندما حضر إلى الرسول ﷺ وأعلن إسلامه رأى معاملة كريمة جدًّا من قبله بحيث شعر في اليوم الثاني أنه أصبح قطعة وجزءً منه، إلى درجة أنه عندما لم يصحبوه إلى المعركة الأولى بعد إسلامه صعب عليه هذا الأمر جدًّا وبكى حتى الصباح، وهذا يوضح كيف أنه توحد مع الرسول ﷺ في وقت قصير جدًّا.

كان عمرو بن العاص وعكرمة ﷺ من الصحابة الذين آذوا النبي ﷺ قبل إسلامهم إيذاء كبيراً، ولكن حلم النبي ﷺ رقق قلوبهم وكسبهم للإسلام بحيث أصبحا من أشد الناس على الكفر وعلى الكافرين. ولولا أن الرسول ﷺ كان يخطط لكي يصلا إلى هذا المستوى الرفيع من الإيمان لما كان من المحتمل أن ينضم مثل هؤلاء إلى صفوف الصحابة.

الكل يعرف ابن هشام، فهو شقيق أبي جهل ووالد زوجة عكرمة. أسلم هذا الصحابي قبل وفاة الرسول ﷺ بقليل، كان قبل إسلامه في مقدمة صف الكفر، وأصبح بعد إسلامه في مقدمة صفوف المسلمين. وأخيرًا وفي معركة اليرموك استشهد بعد أن تقطعت أوصاله كلها تقريبًا، وتوجه إلى خالقه. وفي لحظاته الأخيرة عندما قرَّب حُذيفة العدوي الماء من فمه سمع صوتًا خافتًا بقربه.. كان هذا شخصًا آخر يطلب الماء، فأبعد ابن هشام الماء من فيه طالبًا إعطاءه لهذا الشخص... وتفصيل هذه الحادثة معلوم للجميع، فهذا الشخص عندما قرب الماء من فمه سمع صوتًا آخراً يطلب الماء، فيشير بإعطاء الماء إلي هذا، ولكن هذا الأخير يتوفى قبل وصول الماء

إليــه، وعندما يرجع للآخرين يراهم كلهم قـد توفوا دون أن يشربوا قدحاً من الماء.[1]

الإيثار... الصفة النبوية المتميزة... الصفة التي انصبغ بها الصحابة الكرام مقتدين في ذلك برسـول الله ﷺ الـذي كـان يعيش مـن أجـل إعطـاء الحيـاة الحقيقيـة للآخـرين، ويقـدم التضحيات التي لا تصدق. كان شخصًا مضحياً، وكان أصحابه أشخاصاً مضحين، والمثال السابق مثال حي على هذا.

يروي زيد بن سعنة اليهودي أنه باعه بيعًا إلى أجل، ثم جاءه قبل الأجل يتقاضاه ثمنه. فقال له الرسول ﷺ: «لم يحل الأجل»، فقال له زيد: إنكم لَمطل يا بني عبد المطلب. فهمّ به أصحاب النبي ﷺ، فنهاهم عنه، ولم يزده ذلك إلا حلماً، فقال زيد: "كل شيء منه قد عرفتُه من علامات النبوة، وبقيت واحدة، وهي أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فأردت أن أعرفها، لأن في التوراة آية تقول: يسبق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهالة إلا حلماً." ثم أسلم.[2]

إذن، فقد فتح رسول الله ﷺ قلب العالم اليهودي زيد بن سعنة بحلمه أيضًا، وأصبح سببًا في دخوله إلى الإسلام. أجل، كان رسول الله ﷺ حليمًا ولينًا إلى درجة لا يتحملها شخص آخر غيره. غير أن حلمه هـذا كـان متوازنـا، فهـو بينما كـان يقابـل كـل إهانة لشخصه وكل تصرف طائش نحوه بالحلم نراه كالأسد الهصور عندما يمس الموضوع حقوق الآخرين، ولا ينفك حتى يأخذ الحق لصاحبه دون الْتفاتٍ إلى من هو الظالم ومن هو المظلوم فالأمر سيان عنده. أما إن كان الأمر متعلقًا بالتعدي على حرمة من حرمات الله فكان لا يعرف الراحة حتى يضع الحق في نصابه، وهذا دليل كونه رجل توازن. وقد يبدو هذا السلوك كقطبين متناقضين، إلا أن هذا التوازن كان من الخصائص النبوية للشخصية الممتازة لرسول الله ﷺ. ولكي يتوضح هذا الأمر نورد هنا بعض الأمثلة:

يروي مسلم والبخاري عن أبي مسعود الأنصاري قال رجل: يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطوِّل بنا فلان. فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضباً من يومئذ فقال: «أيها النـاس إنكـم منفِّـرون، فمـن صـلَّى بالنـاس فليخفـف، فإن فـيهم المـريض والـضعيف وذا الحاجة.»[3] وكان يراعي هذا الأمر ويطبقه على نفسه، فأحيانًا كان يطيل الصلاة، وأحيانًا يقصرها حسب وضع الجماعة.

---

[1] المستدرك للحاكم، ٢٤٢/٣.

[2] الإصابة لابن حجر، ٥٦٦/١؛ المستدرك للحاكم، ٦٠٤/٣؛ الخصائص الكبرى للسيوطي، ٢٦/١؛ زاد المعاد لابن قيم الجوزية، ٥٩/١.

[3] البخاري، العلم ٢٨، الأذان ٦١، الأدب ٧٥؛ مسلم، الصلاة ١٨٢.

كان رسول الله ﷺ يحب معاذ بن جبل كثيرا، إلا أنه عندما اشتكوا من تطويله لصلاة العشاء عندما يؤم الجماعة غضب غضبًا شديدًا وقال لهذا الصحابي الذي يحبه كثيرًا: «أفتّان أنت، أفتّان أنت، أفتّان أنت؟»[١]

كان أسامة بن زيد على رأس سرية، فأدرك رجلاً، فقال ذلك الرجلُ: صبأت. يريد أن يقول أنه قد أسلم، ولكن أسامة عدّ هذا نتيجة الخوف وليس عن إيمان حقيقي، فطعنه وقتله. وفي رواية أخرى أن هذا الشخص قال: لا إله إلا الله. وحسب رأي أسامة فإن كلام الرجل -حسب الرواية الأولى- لا يفيد كونه مسلما، أما حسب الرواية الثانية فقد اعتقد بأنه نطق بالشهادة تعوذاً من القتل. ولكن عندما سمع رسول الله ﷺ بالخبر أحضر أسامة واستنطقه، فاخبره أسامة بالخبر كله، فغضب رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» فقال أسامة: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟» قال أسامة: فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.[٢] أي حتى تمنى أنه لو لم يسلم إلى ذلك اليوم لكي لا يسمع مثل هذا العتاب من رسول الله ﷺ مع أنه تربى في حجر الرسول ﷺ وكان الرسول ﷺ يحبه مثل حبه للحسن وللحسين ﷺ.

قال أبو ذر لبلال ﷺ ذات يوم: "يا ابن السوداء!" فشكاه بلال إلى الرسول ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ وقال لأبي ذر: «يا أبا ذر! أعيَّرتَه بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية.»[٣]

وتخاصم أبو بكر مع عمر ﷺ، فقال عمر لأبي بكر شيئًا آذاه، فعاتبه الرسول ﷺ ولم يدع حق أبي بكر عند عمر ﷺ مع أن النبي ﷺ كان يحب عمر حبًّا جمًّا.[٤]

من هذه الأمثلة وعشرات أخرى يتبين لنا أن حلم الرسول ﷺ كان ذا أبعاد متوازنة. فكان يمثل في هذا الموضوع -وفي المواضيع الأخرى كذلك- الصراط المستقيم، إذ نراه يصفح عن كل الإساءات الموجهة إليه ويقابلها بالحلم، ولكنه لا يرضى أبدًا عن أي اعتداء على حقوق الآخرين مهما كان هذا الاعتداء قليلا، ومهما كان الشخص المعتدي. فإنه كان يواجهه لكي يضع الحق في نصابه.

---

[١] البخاري، الأذان ٦٣، الأدب ٧٤؛ مسلم، الصلاة ١٧٩؛ النسائي، الافتتاح ٧١.

[٢] البخاري، المغازي ٥١، الديات ٢؛ مسلم، الإيمان ١٥٨؛ أبو داود، الجهاد ٩٥.

[٣] البخاري، الإيمان ٢٢؛ مسلم، الأيمان ٣٨-٤٠.

[٤] البخاري، تفسير سورة (٧) ٣.

هـ. كرمه وتواضعه

قبل أن ندخل إلى الموضوع نحب أن نقوم بتذكير بسيط، فقد أشرنا إلى "الفطنة الكبيرة"، ولنكرر هنا أن الفطنة تعني المنطق النبوي الذي له صفة الوحي والذي يعجز أمامه العقل ويفشل وينعقد تجاهه اللسان. قد يقف المنطق بأجمعه ويتعثر في مكان ما، وقد تصل العلوم إلى نقطة معينة، فلا تستطيع تجاوزها إلا أن الفطنة النبوية والمنطق النبوي -حسب التعريف السابق- تحلق فوق الذرى التي تبدو مستحيلة البلوغ، وهذا الأمر دليل آخر على نبوته.

ونحن نحاول أن نستخرج دليل نبوته في كل صفة من صفاته، فعندما نرى صبره لا يسعنا سوى التصديق بأنه رسول الله. فعلى وجه الصبر يمكن مطالعة عبارة: محمد رسول الله. وأهل الإنصاف بأجمعهم يستطيعون قراءة هذه العبارة.. فالذي تحدَّى المهالك جميعها، وتصدَّى للمصائب بهذا الشكل لابد أن يكون رسول الله. وعندما ندقق سيرته من ناحية صفة رحمته تظهر أمامنا الحقيقة نفسها كالشمس في رابعة النهار. ذلك لأن الرسول ﷺ لم يكن يعرف حدودًا للرحمة، إذ كان محملاً بالرحمة أكثر من حمولة الغيوم بالمطر. هو باختصار رحمة للعالمين. ولم تقتصر رحمته على الإنسانية وحدها، بل ربما استفاد الكون كله من رحمته هذه، ولا يزال يستفيد وسيستفيد حتى قيام الساعة، وعندما ألقينا نظرة على رحمته رأينا فيها رسالته، فأحببنا أن نعرضها أمام الأنظار.

حاولنا أخيراً شرح حلمه، وذلك كبُعد من أبعاد رحمته، غير أن كل صفة من هذه الصفات تمثل بُعدًا من أبعاد فطنته. ويمكن فهم فطنته إن تم تناول كل بعد من هذه الأبعاد على حدة.

١- مقطع من الكرم

بُعد من أبعاد رحمة الرسول ﷺ -وبالتالي فطنته- هو كرمه. لنوضح هذا الأمر قليلاً: الكرم هو خصلة حب الخير والعطاء، وكان الكرم من الخصال المرغوبة لدى العرب، وإذا دققت الشعر الجاهلي رأيت العربي يفخر بما ينحره للضيوف من شاة أو بعير، وكانت القبائل والعشائر تتسابق في هذا. ومن المؤكد أن هذا الكرم كان يتم باسم الفخر وباسم الأنانية.

في هذا الجو الذي كان الكرم فيه مرغوبًا ووسيلة للفخر ظهر بينهم أكرم الكرماء. وعندما رأوا كرمه انعقدت ألسنتهم من الحيرة فكرم هذا الكريم كان لوجه الله فقط، ولو قام بتقديم الدنيا كلها هدية لأحدهم لما ذكر ذلك، ولما افتخر بكلمة واحدة، بل إنه لم يكن يرضى من الشعراء ذكر كرمه في أبياتهم، وكان يحول كلماتهم في الفخر إلى الله الذي هو أكرم الأكرمين.

كان مرآة نقية انعكس عليها اسم "الكريم" لله تعالى. كان في ذروة تمثيل خلافة الله تعالى في هذا الموضوع كما في المواضيع الأخرى، ولم يكن هناك على وجه الأرض شخص أكرم منه. كان محمد ﷺ طريقًا للكرم، وكان الكرم طريقًا للجنة. أما البخل الذي عبر عنه القرآن الكريم بـ"الشح" فكان طريقًا إلى جهنم. والذين رأوه -حتى ولو عن بعد- عرفوه من صفاته أنه هو.. فهو المرشد الأوحد للإنسانية إلى طريق الجنة، وهو صاحب الشفاعة العظمى للناس أمام أبواب الجنة، لذا يجب أن يحسب كل إنسان حسابه. ونحن نصفه بصفة من صفات الله تعالى فنقول عنه إنه أكرم الأكرمين، ذلك لأنه بز بكرمه كل المقاييس البشرية، وأصبح في الكرم خليفة ربه.

لقد استطاع بكرمه أن يدخل إلى قلوب استعصى الدخول إليها بصفاته الأخرى، فكأن رحمته تبخرت وصعدت إلى السماء كغيوم، ثم أمطرت على الكون كرما، فرقت القلوب القاسية، وهيأت الجو الملائم لكي تشق النباتات الصغيرة طريقها من التربة، أي فتح الأرواح بحلمه، ثم تربع فيها بكرمه، فإن لم تعرف هذين الجانبين معًا لم تدركه ولم تعرفه حق المعرفة.

لو أراد لكان أغنى إنسان في الدنيا، فمنذ بداية دعوته عرضت قريش عليه هذا مقابل التخلي عن دعوته.[١] وبعد ذلك كان كل ما يعطيه المسلمون في سبيل الله يمر من بين يديه إضافة إلي الهدايا التي كانت تصله من الحكام ومن الملوك، ولكنه لم يلتفت إلى هذا،ولم يدر بخلده هذا الأمر. لقد عد نفسه على الدوام مسافرًا في هذه الدنيا، وعاش ونصب عينيه أنه سيترك هذه الحياة، وأن الدنيا ليست سوى شجرة يستظل تحتها المسافر مدة قصيرة في أثناء سفره الطويل.

إذن، فعليه أن يشغل قلبه في هذا السفر الطويل بالأمور المهمة. ثم كان عليه أن يعلِّم الإنسانية الطريق الصحيح وبعد انقضاء الوقت المقدر له تحت هذه الشجرة عليه أن يستمر في طريق سفره.[٢] أما الهدف فهدف علوي، فقد كان الوصول إلى الله تعالى غايته الأولى. ثم القيام بوظيفة إيصال الناس إلى الهدف نفسه كان قلبه ممتلئًا حماسة متقدة لتحقيق هذه الغاية. مثل هذا الشخص ماذا يعمل بالدنيا، وما أهمية الدنيا لديه؟! لا أهمية لها عنده طبعا، وهي لا تستحق أن يربط قلبه بها.

وبالنسبة لحياته الخاصة فقد اختار حياة الفقر، وهذا لا يعني أنه يريد أن يصبح الجميع

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ١/٢٨٥.

[٢] البخاري، الرقاق ٣؛ الترمذي، الزهد ٤٤؛ المسند للإمام أحمد، ١/٣٩١.

فقراء، ولكنه لم يكن يرضى أن تغلب المعدة الناس جميعًا. ولم يلبث المسلمون أن أصبحوا بفضله من أغنى الأمم في وقت قصير حتى لم يعودوا يجدون بينهم من يقبل الزكاة أو الصدقة؛ وذلك نتيجة ارتفاع مستوى المعيشة عندهم. ولكن كان بينهم زهاد لم يكونوا يقبلون أية هدية مهما كانت جذابة إن كانوا يملكون قوت يومهم. كان هذا نوعًا من الإيثار وعلو الروح، ووَجْد هبة الحياة للآخرين، وترك لذائذ العيش. والذي لم يجرب هذه الأحاسيس، ولم يمتلئ بها لا يمكن أن يفهم هذا. قُدِّم مرة قدح ماء بارد إلى أبي بكر على مائدة الإفطار، ولكنه ما أن رفعه إلى شفتيه حتى بكى، فسئل عن سبب بكائه، فقال: لقد أعطي رسول الله ﷺ مرة قدح ماء بارد، فشربه ثم بكى وقال: "هذا من النعيم الذي سنُسْأَل عنه: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر:٨)، فذكرت ذلك، وبكيت."[١]

وكان أبو بكر قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجرًا، وكان بالسُنح، فأقام هنالك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب على فرس له، وعليه إزار ورداء ممشق. فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح. فكان إذا حضر صلى بالناس، وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب. فكان أبو بكر يغدو كل يوم إلى السوق، فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وربما كُفيها فرُعيت له. وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لك، وإني لأرجو ألا يغيّرني ما دخلت فيه عن خُلق كنت عليه. فكان يحلب لهم. فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها، ونظر في أمره، فقال: لا والله، ما يصلح أمور الناس والتجارة، وما يصلحهم إلا التفرغُ لهم والنظر في شأنهم، ولا بد لعيال مما يصلحهم. فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوما بيوم، ويحج ويعتمر. وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم، فلما حضرته الوفاة قال: رُدّوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لا أصيب من هذا المال شيئا، وأرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمن بما أصبت من أموالهم، فدفع ذلك لعمر، ولقوحا وعبدًا وصيقلا وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم، فقال عمر: لقد أتعب من بعده.[٢]

لقد تعلم أبو بكر ﷺ عيش الزهد هذا من الرسول ﷺ، ذلك لأنه علم صحابته

---

[١] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٠/١.

[٢] تاريخ الأمم والملوك للطبري، ٢٥٠/٤-٢٥٢.

بالمثـل الـذي ضربـه لهم فعليًا في حياته إمكانية العيش بمثل هـذا الزهـد.

لقد كان لرسول ﷺ خمس الغنائم، وذلك حسب أمر الله ﷻ، وكان يستطيع التصرف بها كيفما شاء. يقول عمر بن الخطاب ﷺ: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، فجلست فإذا عليه إزار، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقَرَظ في ناحية في الغرفة، وإذا إهاب معلّق. فابتدرت عيناي، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقلت له: يا نبي الله ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر بجنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك. فقال الرسول ﷺ: «يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟.»[١]

عندما قال الرسول ﷺ هذا القول لم يكن يقوله كشخص فقير مضطر لمثل هذه المعيشة لا يملك خيارًا آخر، فكما قلنا أعلاه فقد كان في إمكانه أن يكون أغنى رجل في العالم. ولكي تكون لدى القارئ فكرة موجزة عن الموضوع فإنا ندرج هنا ما غنمه المسلمون في معركة واحدة فقط هي معركة "حُنين": (٤٠٠٠٠) غنم، (٢٤٠٠٠) بعير، (٤٠٠٠) أوقية فضة (الأوقية هنا تعادل ٤ كغم تقريبا) و٦٠٠٠ أسير.[٢] علمًا بأن حصة الرسول ﷺ من هذه الغنائم هي الخمس.

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار الغنائم في المعارك الأخرى وهدايا الملوك له علمنا أنه لم يكن هناك أي مانع أمام رسول الله ﷺ لكي يعيش حياة مرفهة جدًا. ولكنه كان يعيش حياة الفقراء، وكان يوزع كل ما يأتيه على الناس، ذلك لأن الكرم تجسد فيه، وما كان بالإمكان أن يكون هناك شخص بمثل هذا الكرم إلا رسول الله. كان رسول الله ﷺ يمثل أنموذج الشخص المتوازن في مظهره الخارجي وعالمه الداخلي، فكما كان مظهره الخارجي مهيبًا وجميلاً يسحر القلوب والألباب كان عالمه الداخلي الغني يسحر قلوب الناس.

يقول أنس بن مالك ﷺ: "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس"،[٣] أي أحسن الناس صورة وسيرة. ويصفه جابر بن سمرة ﷺ فيقول: "رأيت النبي ﷺ ليلة أضحيان -أي ليلة كان البدر فيها تامًّا- وعليه حلة حمراء، فكنت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو أزين في عيني من القمر."[٤]

---

[١] البخاري، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ مسلم، الطلاق ٣١.

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٢/١.

[٣] مسلم، الفضائل ٤٨ (عن أنس)؛ البخاري، المناقب ٢٣ (عن البراء).

[٤] كنز العمال للهندي، ١٦٨/٦.

ويقول أحد الشعراء على لسان أمنا عائشة رضي الله عنها بأن نساء مصر عندما رأين يوسف عليه السلام قطَّعن أيديهن، ولو رأين سيدي لضربن صدورهن بالسكاكين التي في أيديهن.

يقول الشاعر نديم: "مُلك العجم كله فداء لحجر من أحجار إسطنبول"، ولو فهم هذا الشاعر رسول الله ﷺ حق الفهم لقال: "الدنيا كلها فداء لشعرة من شعر الرسول ﷺ".. كان أحسن الناس وأجمل الناس. ويستمر أنس بن مالك رضي الله عنه في وصفه فيقول: "وكان أجود الناس."[1] يقول ابن عباس رضي الله عنه عن جود النبي ﷺ: "كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان"، ثم يصف جوده في رمضان، فيقول: "كان أجود بالخير من الريح المرسلة"،[2] أي إنه كان يجود بآخر ما بقي في يده. وهذه حالة إرادية وروحية، فلم يكن يعيش لنفسه، بل عاش لغيره ولسعادة غيره طوال حياته، ولم يجد فرصة للتفكير في نفسه إذ كان أسعد ما يكون عندما يرى غيره سعيدًا، وكان أهل بيته وأقرباؤه يأتون في الصف الأخير من إيثاره، فإن كانت هناك غنيمة يجب توزيعها بدأ ببيوت شهداء بدر وأحد، وكان يعتذر عن إعطاء شيء لأهل بيته قبل إعطاء الناس كلهم.[3]

ولقد كان أشجع الناس، لا يهاب أحدًا. أجل، فإلى جانب كل هذه الخصال الرفيعة فقد كان أشجع الناس، وأكثرهم جرأة. فلم يخش أحدًا غير الله، على العكس من ذلك، ففي الأوقات التي كان الناس يخافون فيها كان هو كالأسد الضرغام يتقدم نحو الخطر، ونحو أعدائه المتوحشين وحده.[4] وسنعود لهذا الموضوع فيما بعد.

القلوب التي لم يفتحها حلم الرسول ﷺ والجوانب الأخرى الرفيعة من أخلاقه فتحها كرمه، وصفوان بن أمية مثال على هذا: ففي رواية أوردها مسلم في صحيحه عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح، فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بِحُنين، فنصر الله دينه والمسلمين. وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة. قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال: "والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغَضُ الناس إليّ، فما برح يُعطيني حتى إنه لأحَبّ الناس إليّ."[5]

---

[1] البخاري، الجهاد ١٢٤؛ مسلم، الفضائل ٤٨.

[2] البخاري، الصوم ٧؛ مسلم، الفضائل ٥٠.

[3] البخاري، الدعوات ١١١؛ أبو داود، الأدب ١١٠٠؛ المسند للإمام أحمد، ١٣٦/١.

[4] البخاري، الجهاد ١٥٢؛ مسلم، الجهاد ٧٨، الفضائل ٤٨.

[5] مسلم، الفضائل ٥٩؛ الإصابة لابن حجر، ١٨٧/٢؛ المسند للإمام أحمد، ٤٦٥/٦؛ كنز العمال للهندي، ٥٠٥/١٠؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٣٧/٤.

كان يعطي عندما يستعطى إن كان معه، وإلا وَعَدَ. وأحيانًا كان يعطي رداءه الوحيد لمن يسأله؛ جاءه مرة بدوي، وطلب منه شيئًا فأعطاه، ثم جاءه ثانية فأعطاه أيضا، ثم جاءه ثالثة فوعده إذ لم يكن معه شيء يعطيه، وقد حزن عمر بن الخطاب ﷺ لقيام هذا البدوي بمثل هذا الإلحاح المتكرر على رسول الله ﷺ فقال له: "سُئلتَ فأَعطيتَ ثم سُئلت فأَعطيت ثم سُئلت فوعدتَ"، ولكن الرسول ﷺ لم يهش لهذا القول، فقام عبد الله بن حُذافة السهمي، وقال: "أنفق يا رسول الله! ولا تخش من ذي العرش إقلالاً"، فسكت رسول الله ﷺ هنيهه، ثم قال: «بذلك أُمِرْتُ.»[1] وما أحسن ما قاله الفرزدق:

ما قال لا قط إلا في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعم

كان يقول "نعم" لكل سائليه، ولكن بشرط أن يكون في دائرة الشريعة. أجل، لم يكن له نظير في الجود وفي الكرم، كان كريمًا إلى درجة أن هذا الكرم لايمكن تعليله أو تفسيره إلا بالنبوة. ثم إذا كان الكرم طريقًا للقرب من الله تعالى فكيف لا يكون الرسول ﷺ كريما؟ علمًا بأنه كان أقرب إلى الله حتى من جبريل ﷺ. أليس هو القائل: «السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار.»[2]

إن بعض الكتب ترسم شجرة طوبى كشجرة جذورها في الهواء وأغصانها ممتدة إلى الأسفل، هل شجرة طوبى هكذا؟ لا أدري، ولكني موقن أن رسول الله ﷺ شجرة وارفة ممتدة من الجنة تظللنا. فما أسعد من استظل بهذه الشجرة واحتمى بها!

يقول الرسول ﷺ في هذا الخصوص: «يا أيها الناس! إن الله قد اختار لكم الإسلام دينًا، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء وحسن الخُلق.» الإسلام مع السخاء وحسن الأخلاق، فإن لم يكن عندك ما يؤهلك لقطع المراتب نحو الكمال، فإنك تستطيع الوصول إلى هذه المراتب بحسن الخلق، والسخاء والكرم ضمن نظام هذا الخلق. يقول الرسول ﷺ: «يا أيها الناس! إن الله قد اختار لكم الإسلام دينًا، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء وحسن الخلق، ألا إن السخاء شجرة من الجنة، وأغصانُها في الدنيا، فمن كان منكم سخيًا لا يزال متعلقًا بغصن منها حتى يورده الله الجنة. ألا إن اللؤم شجرة في النار، وأغصانها في الدنيا، فمن كان منكم لئيماً لا يزال متعلقًا بغصن من أغصانها حتى يورده الله النار.»[3]

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٦/٦٣.

[2] الترمذي، البر ٤٠.

[3] كنز العمال للهندي، ٦/٥٧١.

وإذا كان البخل نوعًا من عدم التوازن ونوعًا من التفريط، فإن التبذير نوع من الإفراط، فكلاهما نوع من عدم التوازن. والفطنة النبوية تستعمل الكرم والسخاء من أجل إعلاء دين الله. فكما تسلل الرسول ﷺ إلى القلوب بخلقه اللين وبرحمته، فإنه استعمل ما أفاض الله عليه من النعم لفتح القلوب المغلقة والقاسية.

كانت أمنا خديجة رضي الله عنها أول مسلمة، ومعنى كلمة خديجة "المولودة مبكرا"، لقد ولدت قبل رسول الله ﷺ بخمسة عشر عامًا، واهتدت إلى الإسلام قبل الجميع. ومن ثم فقد كان هناك توافق بين الاسم والمسمى، وهذه المرأة التي كانت من أغنى الأغنياء في مكة أنفقت ثروتها كلها في سبيل الله وفي سبيل رسوله حتى أنها عندما توفيت لم يكن عندها ثمن الكفن. ولعل رسول الله ﷺ استدان ثمن كفنها، لقد كان هذا أنسب شكل وفاة لها.. فقد أنفقت آخر قرش لها في سبيل الله..[1] كانت أنموذجًا آخر لمن سلك الصراط المستقيم. وقد استعمل الرسول ﷺ كرمه هذا بفطنة كبيرة بحيث لم يذهب كرمه هذا هباء منثورًا، بل استفاد منه في زيادة قوة الإسلام.

٢- تواضعه

كان تواضعه بعدًا متلألئًا آخر من أبعاد فطنته، فكلما زادت شهرته، وأصبح معروفًا ومقبولاً من قبل الناس زاد تواضعه، فكأن تواضعه ولد معه، واستمر معه حتى وفاته، فهو صاحب القول المعروف: «من تواضع لله، رفعه الله»،[2] وهو صاحب التطبيق العملي لقوله هذا. لقد عد نفسه على الدوام فردًا من الأفراد، ولم يميز نفسه عن غيره. وكان يمثل في نفسه تمثيلاً جيدًا حكمة : "كن عند الناس فردًا من الناس."

أجل، إذ لا ينبغي على الإنسان أن يغترّ بمقامه أو بمنصبه فينسى نفسه؛ فكل الناس بشر، والمناصب لا تغير الناس، ولا تجعل منهم مخلوقات أخرى، فعلى الإنسان في كل حال من الأحوال ألا ينسى أنه فرد من الأفراد. إن كانت الديمقراطية أفضل نظام حسبما يراه البعض، فإن الإسلام وصل إليها قبل عدة عصور، ولكننا ضد إطلاق تعبير النظام الديمقراطي على النظام الإسلامي.

وإليكم مقاطع اجتماعية من النظام الإسلامي: علي بن أبي طالب ﷺ أمام القاضي شريح ليحاكم مع خصمه الذمي الذي شكاه، فأشار القاضي شريح لعلي ﷺ بالجلوس،

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ١٥٨/٣، ١٥٩؛ أعلام النساء لعمر رضا الكحالة ٣٢٦/١-٣٣١.

[2] المسند للإمام أحمد، ٧٦/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٢٥/١٠؛ كنز العمال للهندي، ١١٣/٣.

فقطب علي بن أبي طالب ﷺ حاجبيه ولم يقبل ذلك، لأنه لم يرض أن يجلس وخصمه واقف، فهذا ليس من العدالة في رأيه. وتصوروا أن عليًا ﷺ كان آنذاك خليفة المسلمين، أي رئيس الدولة.[١]

كان الرسول ﷺ رجل فطرة، ممتزجًا مع الحياة، فكثيراً ما كان الداخل إلى مجلسه لا يعرف النبي ﷺ من بين أصحابه إلا إذا استنتج ذلك من سلوك وتصرفات الصحابة، أو عندما كان النبي ﷺ يتحدث إليهم. وفي أثناء الهجرة عندما دخل النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ المدينة هرع العديد ممن لم يروا النبي ولم يعرفوه، هرعوا ليقبلوا يدي أبي بكر ﷺ إذ ظنوا أنه هو النبي، ولكن ما إن أخذ أبو بكر ﷺ مروحة بيده ليروح عن رسول الله ﷺ حتى عرفوا أيهما النبي. ذلك لأن النبي ﷺ لم يكن يتصرف أي تصرف يميزه عن أبي بكر.[٢]

وكيفية دخوله ﷺ إلى مكة عند فتحها مشهورة ويعلمها الجميع، فقد كان منحنيًا على مركبه حتى يكاد السرج أن يلمس جبهته. بهذا التواضع دخل هذا النبي الكريم تلك البلدة الكريمة.[٣] وفي حديث ترويه أمنا عائشة رضي الله عنها وهي تصف الرسول ﷺ: "كان يكون في مهنة أهله -تعني في خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة"، وفي رواية أخرى: "كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه."[٤]

عندما كان يقوم بهذا كان الإسلام واسمه يترددان في أقطار عديدة. لقد نظم وقته جيدًا بحيث أنه كان يجد وقتًا لهذه الأعمال من بين الأعمال والمسؤوليات والمهام الكبيرة التي كان مكلفًا بها.. لقد كان ذروة في كل خصلة جيدة.

أ) كان بين الناس

التواضع هو علامة العظمة في العظماء، والتكبر هو علامة الصغار فيهم. ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الناس، كان أكثرهم تواضعًا.

عند بناء مسجد المدينة بينما كان الجميع يكُدُّ ويعمل، كان هو أيضا يحمل معهم اللبن كفرد من أفرادهم، فعن أبي هريرة أنهم كانوا يحملون اللَّبِنَ لبناء المسجد ورسول الله ﷺ معهم، قال: فاستقبلتُ رسول الله ﷺ وهو عارِضٌ لبنةً على بطنه، فظننت أنها قد شُقَّتْ عليه.

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ٥/٨.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ١٣٧/٢.

[٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٦٩/٦؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ٤٧، ٤٨.

[٤] الشمائل للترمذي ٢٨٣؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥٦/٦.

قلت: ناوِلْنِيها يا رسول الله. قال: «خذ غيرها يا أبا هريرة، فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة.»[١] وفي حفر الخندق كان كل واحد من الصحابة يربط حجرًا على بطنه، أما هو فحجرين.[٢] وعندما حضر رجل إلى مجلسه وقابله ارتجف من مهابته، فقال له الرسول ﷺ: «هَوِّنْ عليك، فإني لست بملِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القَدِيد.»[٣] لقد كان أكثر الناس تواضعاً.

الذين يجلسون في المجالس، ويضعون رِجلاً على أخرى دليلا على التكبر والغرور.. هؤلاء أعدهم مرضى من الناحية النفسية، أما رسول الله ﷺ فكان يجلس مثل سائر الناس، ويتصرف مثلهم، ولكن ضمن أدب جم. كان جل نظره إلى الأرض، وكانت عظمته تبدو عندما يضع جبهته للسجود على الأرض، يقول الرسول ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله.»[٤]

التواضع وعدم التكبر جناحان يطيران بالإنسان إلى الأعالي. وبهذا التواضع الجم استطاع الرسول ﷺ أن يكون هاديًا أبديًا للإنسانية. فقد استطاع الناس أن يقابلوه، ويتكلموا معه بكل اطمئنان وراحة، ويبثوا إليه مشاكلهم، ويعرضوا عليه أسئلتهم، لأن سلوكه المتواضع كان ييسر لهم هذا.

يورد القاضي عياض أن امرأة كان في عقلها شيء جاءته، فقالت: إن لي إليك حاجة. قال ﷺ: «اِجلسي يا أم فلان، في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضي حاجتك.» قال: فجلست فجلس النبي ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها.[٥]

ولم يكن قيامه بمثل هذه الأعمال يعد ذلاً ولا صغارًا، فقد كان أشجع الناس، ووقف أمام الكفر بكل شجاعة وجرأة. يقول عنه علي ابن أبي طالب ﷺ: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا."[٦] بل إن وجوده وحضوره كان ينشر الأمن والطمأنينة فيما حول أي أن تصرفاته البعيدة عن الغرور كانت تنبع من تواضعه.

---

[١] المسند للإمام أحمد، ٣٨١/٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٤١/٢.
[٢] الترمذي، الزهد ٣٩.
[٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٠/٩؛ ابن ماجه، الأطعمة ٣٠.
[٤] كنز العمال للهندي، ١١٣/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٢٥/١٠؛ المسند للإمام أحمد، ٧٦/٣.
[٥] الشفاء للقاضي عياض، ١٣١/١.
[٦] المسند للإمام أحمد، ٨٦/١.

بـــ) تصرفاته الفطرية

كما أن التواضع ليس ذلاً فإن الغرور والكبرياء ليس وقارًا. لقد كان ﷺ متوازنًا في التواضع كما في كل خلقه وتصرفاته حتى أن صفته هذه تسوقنا إلى شهادة أن محمدًا رسول الله.

عندما يتصرف القاضي في المحكمة بجدية فهذا وقار، ولكن إن تصرف بالأسلوب نفسه في البيت أمام أطفاله وأهله يكون هذا كبرياء، لأن على الإنسان أن يتصرف في البيت كأحد أفراد البيت. فهذا دستور إسلامي، وكان رسول الله ﷺ أفضل من طبقه أما من جاء بعده فقد امتثلوا له وقلدوه. كان الجميع يرونه أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، ولكنه كان يقول: «لن ينجي أحدًا منكم عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة.»[١] أجل، لقد كان رجل فطرة إلى الدرجة التي استطاع فيها أن يقول مثل هذا القول، إذ يرى نفسه إنسانًا بين الناس، وفردًا بين الأفراد، ثم يضبط وينظم سلوكه وتصرفاته على هذا الأساس.

جاءه عمر بن الخطاب ﷺ يومًا يسأله الإذن للعمرة، إذ كانوا يسألونه الإذن لأداء العمرة، لأنهم كانوا أفرادًا ملتزمين بالنظام، يهرعون إلى رسول الله ﷺ في كل أمر من أمورهم، وفي كل مشكلة تعرض لهم. فمثلاً إن كان لأحدهم بنت في سن الزواج جاء إليه قائلاً: لي بنت بالغة أريد لها كفؤًا، وإن كان لأحدهم بستان يريد أن يجعله وقفًا لله تعالى عرض الأمر أولاً على الرسول ﷺ، ومن أراد الاعتكاف أو السفر راجعه واستأذن منه، فلا يرد طلب أحد. عندما جاءه عمر ﷺ يستأذنه لأداء العمرة قال له رسول الله كلامًا ظل عمر ﷺ يذكره حتى آخر حياته، إذ قال له ﷺ: «أي أُخَيّ أشركنا في دعائك ولا تَنْسَنا»، فسُرّ عمر ﷺ سرورًا كبي، وقال ما معناه "لو وهبت لي الدنيا ما سررت مثل سروري لكلامه هذا."[٢]

جـ) تواضعه وعبوديته

فتح تواضعه القلوب مرة أخرى. كان ﷺ يأخذ بيد أمته، ويرقى بها إلى مدارج الرقي والسمو. كان عُمَرُ قد ارتقى بطفرة واحدة إلى مدارج عليا، ولكن رسول الله ﷺ كان يرتقي بصحابته أكثر وأكثر، فاستطاع أن يحول أمة بدوية إلى أمة معلمة ومرشدة. وبينما كان يرقى بأمته إلى الذرى كان ارتقاؤه هو أكبر وأسمى، وكلما سما إلى الأعالي زاد تواضعه بالنسبة نفسها، أما نظرته إلى نفسه فقد امتلأت بإحساس وبعاطفة العبودية لله تعالى عبودية خالصة.

---

[١] البخاري، الرقاق ١٨، المرضى ١٩؛ مسلم، صفة القيامة ٧١-٧٦.

[٢] الترمذي، الدعوات ١٠٩؛ أبو داود، الوتر ٢٣؛ ابن ماجه، المناسك ٥.

يروي أحمد بن حنبل عن أبي هريرة ﷺ قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل، قال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يومِ خُلق قبل الساعة. فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك، قال: أفملكًا نبيا يجعلك أو عبدًا رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد ﷺ. ثم ألا يأمره القرآن الكريم بالتواضع؟ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٢١٥). فكان جواب النبي ﷺ للملَك: «بل عبدًا رسولاً.»[1] وعندما اختار العبودية جعل الله تعالى عبوديته هذه مدار فخر له، لذا تحدث القرآن عنه في كثير من الأحيان من زاوية صفة عبوديته هذه، وعندما يتشهد المسلمون يشهدون أنه عبد الله ورسوله، أي هو عبد الله ثم هو رسوله، فعبوديته تأتي قبل رسالته.

هناك أناس يكونون عبيدًا لغيرهم، ويضعون طوق العبودية في أعناقهم، أما محمد ﷺ فقد كان عبدًا لله أولاً وآخرًا، فلم يكن في أي عهد من عهود حياته عبدًا لأحد، ولم ينحن أمام أحد، فعبوديته لله وحده صفة أصيلة فيه. وكإشارة إلى مظاهر عبوديته ترتفع من فوق المآذن كل يوم خمس مرات أصوات الشهادة تعلن للعالم كله بأنه عبد لله ورسول له. هو عبد لله، فقد وصفه القرآن الكريم بهذا الوصف اذ يقول: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (الجن:١٩). وسواء أكان هؤلاء الذين كادوا يكونون عليه لبدًا من الجن أم من مشركي قريش فإن المهم عندنا هو أنه جرى ذكره في القرآن بصفة "عبد الله."

وكذلك تطلق عليه صفة العبد عندما يتم شرح كيف أن القرآن كلام الله، وأن من كان عنده شك في هذا فليأت بسورة من مثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٣-٢٤).

كذلك يصفه القرآن بصفة العبد في مناسبة صعد فيها النبي ﷺ إلى ذروة الذرى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:١).

كانت حادثة المقاطعة ثم وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها ووفاة عمه أبي طالب قد جعلته وحيدًا بين الناس لا حامي له، أي عندما انقطعت الأسباب، وزالت كل المساند الواحد منها تلو الآخر تجلت الرحمة الإلهية في برج الأحدية من قبل مسبب الأسباب.

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٢/٢٣١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/١٨-١٩.

يقول مفكر العصر سعيد النورسي رحمه الله بأن نور التوحيد ظهر في برج الأحدية حيث دُعي رسول الله ﷺ كضيف كريم إلى السموات السبع ليرى ربه وخالقه ومالكه.

ليست غايتنا هنا شرح الإسراء والمعراج، لذا لن ندخل في هذا الموضوع، ولكننا نريد جلب أنظاركم إلى ناحية مهمة في هذا الموضوع وهو أن الله تعالى عندما خاطبه في صدد هذه المعجزة المهمة لم يخاطبه بأي اسم من أسمائه الواردة في القرآن أو الإنجيل أو التوراة، أي لم يخاطبه بـ محمد أو أحمد أو أحيد بل خاطبه بكلمة "عبده". فكأنه عندما قال: "إنني عبد الله" قال له الله تعالى: "ما دمت أصبحت عبدًا فإنني أجعل العبودية لي أرفع وأسنى درجة، لذا فأينما أحببت أن أوضح قيمتك ذكرت عبوديتك، وأجعل كل مسلم يشهد أنك عبد الله قبل أن تكون رسولاً له، وسترتج السموات والأرض بهذه الشهادة."

و. الخلاصة

الكتب التي ذكرت شمائل رسول الله ﷺ ذكرت كل شمائله بدءً من أوصاف بدنه ووصولاً إلى أخلاقه وإلى عالمه الروحي العميق. كان إنسانًا كاملاً في كل شيء، يقول عليّ بن أبي طالب ﷺ وهو يصفه: "كان رسول الله أجود الناس كَفًّا، وكان أشرح الناس صدرًا، وكان أصدق الناس لهجة، وكان ألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة. مَن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه."[1]

ليس في الإمكان ذكر أحد أحبه الناس مثله... لا من قبله ولا من بعده... ولا عجب في هذا، فقد كان هو حبيب رب العالمين.

---

[1] الشمائل للترمذي، ٢٧٦-٢٧٨؛ الترمذي، المناقب ٨؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١/١٢١.

الفصل الخامس: العصمة

والعصمة أيضًا من صفات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهي حفظ الله تعالى لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي صغيرها وكبيرها. وسنتناول هذا الموضوع إن شاء الله في القسم الخامس من هذا الكتاب تحت عنوان "عصمة الأنبياء عليهم السلام وعصمة نبينا ﷺ". والله وليّ التوفيق.

القسم الثاني

النبي ﷺ مربيًّا

- الفصل الأول : تربية النبي ﷺ ورئاسته للعائلة
- الفصل الثاني : صفة الأبوة لدى النبي ﷺ
- الفصل الثالث : تربية الرسول ﷺ للناس وأسلوب تربيته
- الفصل الرابع : أمثلة من نظام تربيته وتعليمه ﷺ
- الفصل الخامس: الجوّ الذي صنعه الرسول ﷺ والعباقرة الذين نشأوا في جوّه المعنوي

الفصل الأول: تربية النبي ﷺ ورئاسته للعائلة

إن أفضل ممثل لصفة "الرب" لله تعالى هو سيدنا محمد ﷺ، أي هو أفضل من يمثل هذا الاسم من الأسماء الحسنى حتى بين سائر الأنبياء، لأنه كان صاحب فطرة متميزة. ولا شك أن الصحابة الذين تلقوا التربية منه كانوا أفضل الناس من بعد الأنبياء. فليس في الإمكان رؤية أو تنشئة نماذج أخرى من أمثال أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضوان الله تعالى عليهم.

ليس هؤلاء فحسب، بل لا يمكن الوصول إلى مرتبة أي صحابي آخر، لأن هؤلاء تربوا على يد رسول الله ﷺ. وهناك من تربوا في نفس جو التربية النبوية، وكانوا مثل الدرر المنثورة في العصور التي جاءت بعده، حيث نستطيع أن نقول إن هؤلاء أيضًا ربوا من قِبَل رسول الله ﷺ، وأصبحوا مدار فخر الإنسانية.. هؤلاء يصعب مجيء أمثالهم أو تربية أناس في مستواهم أمثال الفُضيل بن عِياض وبشر الحافي وأبي يزيد البسطامي وجنيد البغدادي وأبي حنيفة والشافعي والإمام مالك وأحمد بن حنبل والإمام الرباني والإمام الغزالي ومولانا جلال الدين الرومي والشيخ الكيلاني والشاذلي والنقشبندي وأحمد الرفاعي وبديع الزمان سعيد النورسي.. الخ. لقد تلقن هؤلاء دروسهم منه، ونشأوا على نظم تربيته وهناك قول جميل ينسب إلى النبي ﷺ ولكنه ضعيف من حيث السند يقول: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.»[1]

لا يمكن أن يبلغ أحد مرتبة الأنبياء من ناحية الفضل العام، ولكن هناك أوضاع خاصة يكاد يصل فيها بعضهم في مضمار السباق إليهم، وذلك من أمثال الذين ذكرنا أسماءهم آنفًا، وأسماء أخرى يمكن ذكرها أيضًا هؤلاء الأعلام مدار فخرنا، ولو طلب إشغال أماكنهم من قبل آخرين لكان من اللازم إنزال الملائكة من السماء إلى الأرض، ذلك لأن الملائكة وحدهم هم الذين يستطيعون تمثيلهم.

وهذا الأمر خاص بالنبي محمد ﷺ وحده. فالانتساب إليه وحده هو الذي يستطيع إعطاء مثل هذه الثمار، وهذا العطاء سيستمر حتى يوم القيامة وبعد عهد الجفاف الذي نعيشه من يدري من سيظهر من أصحاب هذه الخلال والصفات المقدسة من عظماء القلب والروح،

---

[1] كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٦٤؛ الفوائد المجموعة للشوكاني، ص٢٨٦.

فإن آمالنا معقودة عليهم من زاوية الأسباب. ولا أزال -منذ عرفت نفسي- أنتظرهم وأعقد أملي عليهم.

وقبل أن ننتقل إلى أصول تربيته العامة لنر أصول تربيته البيتية؛ فقد كان رئيس عائلة، وكان في بيته أولاد، وله زوجات وأحفاد.

أ. النبي ﷺ كرئيس عائلة

لا شك أن هذه العائلة كانت أفضل وأسعد وأبرك عائلة في تاريخ الدنيا كلها، فالسعادة كانت تفوح منها أبدًا.. لقد كانت هذه العائلة من أفقر العائلات في العالم من ناحية القدرة المادية، لأنها كانت تمضي شهور عديدة دون أن يطبخ في البيت طعام كالحساء مثلاً.[1] أما الأماكن المخصصة لزوجاته فكانت عبارة عن غرفة صغيرة لكل منهن أو كوخ صغير. ومع ذلك كانت زوجاته المحظوظات لا يبادلن الساعة الواحدة التي قضينها مع رسول الله ﷺ بالدنيا كلها.. كن محظوظات ومطمئنات وسعيدات.

توفي أبناؤه جميعًا قبله سوى بنته فاطمة رضي الله عنها التي قضت حياتها في ضنك، أي أن رسول الله ﷺ لم يوفر لها أيضًا حياة مرفهة مع أنه كان يحبها جدًّا وكذلك زوجاته. أما موقعه في قلوب الجميع في البيت فخارج عن الوصف. وبعد وفاة والدها ذرفت فاطمة رضي الله عنها دموعًا ساخنة لأيام طوال،[2] ولم تستطع الصبر على ألم فراقه سوى ستة أشهر فقط إذ لحقت به وهي متلهفة للقائه.[3] لم يحب أي ولد أباه مثل حب فاطمة لوالدها، ولم يحب والد ولده مثل حب الرسول ﷺ لبنته.. طبعًا ضمن إطار من التوازن. لم تحب قط امرأة زوجها مثلما أحبت زوجات الرسول ﷺ رسول الله ﷺ، ولم يكن أي زوج محبوبًا من قبل زوجاته مثلما كان رسول الله ﷺ محبوبًا من قبل أمهات المؤمنين. وما من شك أن هناك سببًا لوجود مثل هذه الهالة من الحب حوله، إذ أن قيام الرسول ﷺ بتطبيق أصول تربوية مع القريبين منه أحدث في القلوب الة حب وتعلق كبيرين. وتموج هذا الحب من هذه الدائرة الضيقة المحيطة به، وتوسع حتى شمل العالم بأسره، وكان هذا بُعدًا آخر من أبعاد شمولية الحب عنده.

---

[1] البخاري، الهبة ١، الرقاق ١٧؛ مسلم، الزهد ٢٨.

[2] انظر: البخاري، المغازي ٨٣؛ ابن ماجه، الجنائز ٦٥؛ الدارمي، المقدمة، ١٤.

[3] البخاري، فرض الخمس ١؛ مسلم، الجهاد ٥٢؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢١١/٩؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٩/٨؛ الإصابة لابن حجر، ٣٧٩/٤.

تصوروا أنه عندما توفي لم يترك بيتًا واحدًا لزوجاته، إذ عشن حياتهن معه في غرف صغيرة.. هذه الغرف الصغيرة هي ما ورثنه منه ﷺ.. هكذا ترك سيد المرسلين زوجاته في مثل هذا الفقر والضنك وارتحل عنهن، غير أنه ما من واحدة منهن اشتكت بكلمة واحدة طوال حياتها من بعده من هذا الفقر. ومع أن هذا الأمر خطر ببال واحدة أو اثنتين منهن، إلا أن تنبيه القرآن الكريم لهن أزال من رؤوسهن هذا.[1] وقام أبو بكر ﷺ بإعطاء شيء لهن من بيت المال، ولم يكن هذا بالشيء الكثير، بل كان من قبيل ما يعطى لأي فرد من المسلمين، ولم يجعل أعطياتهن مثل أعطيات السابقين إلى الإسلام بل دونها بكثير، كان هذا هو اجتهاده. ولكن عندما جاء عمر بن الخطاب ﷺ إلى الخلافة جعل راتبهن من رواتب الصف الأول من المسلمين، إذ رأى أنه وإن لم يَكُنَّ من السابقات إلى الإسلام إلا أنهن يستحققن رواتب السابقين للإسلام لكونهن من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ،ولكونهن أمهات المؤمنين حتي يوم القيامة وكان هذا هو اجتهاد عمر ﷺ في هذا الموضوع، إلا أن هذا ليس موضوعنا، فالقضية الأولى التي تهمنا في هذا المجال هي المستوى الرفيع الذي إليه نتيجة تربية الرسول ﷺ لهن. فما هذه التربية التي دخلت إلى قلوب هذه النسوة وأرواحهن بحيث أصبحن لا يفكرن في شيء غير رسول الله ﷺ مع أن صحبتهن له لم تستغرق كثيرًا، علمًا بأنه لم يعطهن من الدنيا سوى ما تقدم ذكره إذن، فقد كان لدى رسول الله ﷺ جاذبية مختلفة تمامًا.. جاذبية تسحر ما حولها، وكان هذا الأمر أحد جوانب رسالته.

إن تعدد زوجات الرسول ﷺ دليل من أدلة رسالته، ولكوننا سنتعرض لهذا الموضوع فيما بعد فإننا لن نبحث هذا هنا، ولكننا نكتفي هنا بالقول بأن البيت المبارك للرسول ﷺ أصبح مدرسة لتعليم المسائل المتعلقة بالنساء. فالأوضاع الخاصة له كانت تُعرَف ضمن هذا النطاق الشخصي والخاص ثم تنقل فيما بعد إلى أمته. إن تسعين بالمائة من الأحكام المتعلقة بالحياة الأسرية نقلت إلينا من قبل الزوجات الطاهرات للرسول ﷺ، لذا فقد كان من الضروري وجود نساء من مختلف المستويات والقابليات في بيته، ولكي لا تضيع الأحكام الدينية الخاصة بالنساء والعائلة فقد تحمَّل ﷺ الزواج من عدة نساء بعد أن جاوز سنه ثلاثة وخمسين عاماً.

أجل، لقد كانت هناك ضرورة ماسة لوجود عدة نساء في بيت رسول الله ﷺ، ذلك لأن

---

[1] انظر الآيتين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ۝ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾(الأحزاب:٢٨-٢٩).

الرجال كانوا يرونه ويستمعون إليه في المسجد على الدوام. فإن فات أحدَهم حضورُ مجلس واحد من مجالس الرسول ﷺ، قام أصحابه بتدارك الأمر ونقل كل ما دار في ذلك المجلس إليه. ولكن النساء كن محرومات من مثل هذا الامتياز إذ لم يكن متاحًا لهن الاستماع إلى الرسول ﷺ في كل حين.. إذن، فمن يستطيع نقل الأحكام.. ولاسيما ما يتعلق منها بالنساء إليهن؟ ومن كان يستطيع نقل الحياة الخاصة للرسول ﷺ والأوضاع المتعلقة بطبيعته وأدبه في غرفة نومه إلى أمته؟ وهل كان باستطاعة امرأة واحدة فهم الدين وأحكامه ونقله كاملا بكل أسسه ونظمه؟ وبما أنهن كن متعرضات -حسب الطبيعة البشرية- للأعراض التي تصيب النساء الأخريات فإن الأحكام الخاصة الجديدة العائدة للنبي ﷺ تجاه هذه الأمور ما كان بإمكان امرأة واحدة القيام بهذه المهمة. وما كانت امرأة واحدة تكفي لإيضاح هذه الأمور وهذه الأحكام. لذلك فقد كانت هناك ضرورة ماسة لمكوث عدة نساء قريبات من الرسول ﷺ يراقبن أحواله عن كثب وعن قرب ثم ينقلنها إلينا، لقد كانت هذه ضرورة دينية محضة، ولم تكن لها علاقة بالحاجة البشرية للرسول ﷺ. وكان هذا هو السبب في تحمل رسول الله ﷺ لهذا العبء الثقيل.

وبالإضافة إلى كون هؤلاء النسوة وسيلة لربط أقوامهن وقبائلهن برسول الله ﷺ بأواصر القرابة فقد أصبحن وسيلة أيضًا لحفظ مئات بل آلاف من الأحاديث الشريفة. ونستطيع أن نقول بكل اطمئنان وتأكيد بأن عالم النساء مدين لنساء الرسول ﷺ بالشيء الكثير، ومهما فعلن فلن يوفيهن حقهن.. أجل، فهذه هي درجة خدمتهن للدين.

ومن ثم فإن زواج الرسول ﷺ بهن لم يكن نتيجة أهواء بشرية أو حاجات جسدية؛ ذلك لأنه من غير الممكن وجود حاجة لشخص يبلغ عمره ثلاثًا وخمسين سنة للزواج من عدة نساء في بلد حار مثل الجزيزة العربية. ولم يكن زواجهن منه أيضًا نابعًا من رغبات دنيوية أو جسدية، ذلك لأنه كان يعيش عيشة أفقر الناس، وكانت نساؤه يعرفن هذا ويطلبن الزواج منه على الرغم من هذا، وكان رسول الله ﷺ يعدل بينهن فلا يبقى عند أي واحدة منهن سوى يوم واحد في الأسبوع، ومع ذلك كانت كل واحدة منهن ترى أن رسول الله ﷺ كان أطلق الناس وجهاً وبشاشة وألطفهم مع نسائه.

ألم يكن من حق هؤلاء النسوة أن يبدين بعض الغضب وبعض الحدة لعدم وجود ما يطعمنه في البيت مدة طويلة ولاضطرارهن إلى لبس الملابس نفسها مدة طويلة؟ من يقرأ التاريخ والسيرة يرى أنهن كن راضيات بالعيش مع الرسول ﷺ رغم كل هذه الأمور. ومع

كل المهابة والوقار الموجودين في شخصية رسول الله ﷺ فإنه كان يلاطف نساءه ويشعرهن بقربه منهن واهتمامه بهن، ومع هذا فقد أبقى هناك ستارًا رقيقاً على الدوام، وهو الستار الناشئ عن ارتباطه بالله وما يتجه هذا الارتباط من الجو الذي يفوح منه جو الحياة الأخروية ذلك لأنه كان نبيا، وكانت نساؤه -قبل كل شيء- جزءً من أمته. لم يكن في الإمكان ملء الفجوة الحاصلة معه في علاقته معهن، إذ كان فريدًا وممتازًا في هذا أيضا، فلم يكن في مقدور نسائه تصور عالمهن من غيره.

عقد النبي ﷺ نكاحه على سودة بنت زمعة في مكة، أي أصبحت الزوجة الثانية للرسول ﷺ وأمًا للمؤمنين، ولكن لسبب مّا أراد النبي ﷺ أن يطلقها. فلما سمعت سودة بذلك أحست وكأن صاعقة نزلت على رأسها فأرسلت إليه من يكلمه في شأنها ثم أسرعت إليه وقالت له: يا رسول الله مالي رغبة في الدنيا إلا لأحشر يوم القيامة في أزواجك فيكون لي من الثواب ما لهن." ووهبت يومها لعائشة رضي الله عنها.[1]

فاستجاب الرسول ﷺ لرجائها وأبقاها عنده. هذا هو الموقع الذي بلغه النبي ﷺ في قلوبهن، فلو طلق إحداهن لبقيت عند عتبة داره تنتظره إلى آخر عمرها.

وعندما أحس نوعًا من الشكوى من حفصة رضي الله عنها قال: «إن أرادتْ سرّحتُها»، فكان كلامه هذا كافيًا لكي يقلب عالم حفصة رأساً على عقب، وتدخل الوسطاء ورجوه عدم تطليقها لأنها امرأة صالحة صوامة قوامة فاستجاب الرسول ﷺ لهم وأبقى على بنت أوفى صحابته ضمن زوجاته.[2]

كن يعتبرن فراق رسول الله ﷺ مصيبة أمرّ من الموت. وهذا الشعور كان مشتركاً بينهن ولم يكن هناك أي استثناء بينهن. ذلك لأن النبي ﷺ احتلّ في قلوبهن محلاً وموضعاً لا يمكن تعويضه أو تبديله أبدًا؛ فقد أصبح جزءً لا يتجزأ من حياتهن ومن كيانهن، إذ عاش معهن عيشة حياة فطرية سليمة وطبيعية وبخلق لين هين سهل. ولو افترقن عنه لأصبحن مثل إنسان محروم من الهواء يكاد يختنق.

والمنظر الذي نراه بعد وفاته ﷺ هو هذا المنظر.. منظر الفراق الأليم والهجران الموحش، ففي كل مرة يزور فيها أبو بكر وعمر ﷺ إحدى أمهات المؤمنين كانا يشاهدانها

---

[1] البخاري، النكاح ٩٨؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٤٦/٩.

[2] أبو داود، الطلاق ٣٨؛ النسائي، الطلاق ٧٦؛ ابن ماجه، الطلاق ١؛ الدارمي، الطلاق ٢؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٤٤/٩.

تبكي بحرقة فيجلسان ويبكيان معها، وقد دامت حال البكاء هذه حتى نهاية حياتهن.. كان هذا هو الأثر الذي استعصى على الزوال والذي تركه رسول الله ﷺ في قلوبهن. ومع أن مدة بقائه معهن لم تكن طويلة إلا أنه أصبح بالنسبة لهن منبعًا للحياة... وهذا هو ما أردنا التأكيد عليه.. أي أن رئاسته ﷺ للعائلة كانت أيضًا تجهر بحقيقة كونه رسولاً لله تعالى.

مرت فترة وُجدت معه تسع من الزوجات حيث استطاع إدارتهن بحيث لم تظهر أي مشكلة جدية في البيت.. فقد كان رئيس عائلة رقيق الحاشية موفقًا ومحبوبًا. قبل وفاته بعدة أيام خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: «إن الله خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله» فما أن سمع أبو بكر ﷺ هذا -وكان صاحب ذكاء وفطنة- حتى أجهش بالبكاء.[1] ذلك لأنه علم أن العبد المخيَّر هو رسول الله ﷺ. ولم يطل مرضه، إذ اشتد هذا المرض يومًا بعد يوم، وبدأ يتقلب من ألم صداع شديد.. وحتى في هذه اللحظات لم يترك سلوكه الرقيق تجاه زوجاته فطلب منهن الإذن في البقاء في غرفة عائشة لعدم استطاعته زيارتهن، فوافقن على طلبه. وهكذا قضى الرسول ﷺ آخر آيامه في غرفة عائشة رضي الله عنها...[2] أجل، لقد راعي حقوق زوجاته حتي في أصعب الظروف... هكذا كان إنسان روح وأدب ورقة.

ب. القيمة التي أعطاها لزوجاته

ليس هناك مثيل آخر للقيمة التي أعطاها رسول الله ﷺ للمرأة لا من قبل ولا من بعد. فلو زار في إحدى الليالي إحدى زوجاته للسؤال عنها فإنه كان يطوف على زوجاته الأخريات أيضًا للسؤال عنهن. إذ لم يكن يظهر أي فرق من ناحية معاملته لهن. وكانت كل واحدة منهن ترى أنها أقرب إلى قلب الرسول ﷺ. وكان هذا ينبع من مروءته التي لا مثيل لها. غير أنه لما كان الإنسان عاجزًا عن التحكم في قلبه، فإن تكليفه بما لا يطاق لم يكن واردًا. لذلك كان الرسول ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول مستغفرًا الله: «اللّهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك.»[3]

ما أروع هذا اللطف وهذه الرقة وهذا الظرف! وأنا أسألكم هل راعيتم مثل هذه الدقة في المعاملة بين بنتين من بناتكم أو بين ولدين من أولادكم..؟ اسمحوا لي أن أقول "لا" نيابة عنكم.. أجل، "ألف مرة لا" ليس هذا فقط، بل إننا إن استطعنا ضبط عواطفنا وعدم إظهارها

---

[1] البخاري، الصلاة ٨٠، فضائل أصحاب النبي ٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢.

[2] البخاري، الوضوء ٤، الأذان، ٩؛ مسلم، الصلاة ٩١-٩٢.

[3] النسائي، عِشرة النساء ٢؛ أبو داود، النكاح، ٣٧، ٣٨؛ الترمذي، النكاح ٤٢؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٣١/٢.

عددنا هذا من مفاخرنا وعلامة على قوة إرادتنا، بل ربما تحدثنا فخورين بذلك بينما يستغفر رسول الله ﷺ ربه لاحتمال خطور ميل أكثر بباله نحو إحداهن.

لقد نفذت رقته هذه وأدبه الجم إلى قلوب نسائه، فأحدث فراقه عنهن جرحًا لا يندمل في أرواحهن ووجدانهن. ولو لا أن الإسلام يحرم الانتحار لربما أقدمن عليه. ولكن الدنيا أصبحت لديهن بعد فراقه دار حزن وهجران وغربة.

والحقيقة أن رسول الله ﷺ كان وقورًا ورقيقاً مع جميع النساء، وكان يوصي الجيمع باتباع هذا السلوك، وكان يطبق عمليًا مع نسائه ما يوصيه للناس. وكمثال على هذا يورد البخاري الحادثة التالية عن محمد بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقّاص قال: استأذن عمر بن الخطاب ﷺ على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر تبادرن الحجاب فأذن له النبي ﷺ فدخل والنبي ﷺ يضحك فقال: أضحك الله سِنَّكَ يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «عَجِبْتُ من هؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب» فقال: أنت أحق أن يهبن يا رسول الله. ثم أقبل عليهن فقال: يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولم تهبن رسول الله ﷺ؟ فقلن: إنك أفظُّ وأغلظ من رسول الله ﷺ.[1]

والحقيقة أن عمر ﷺ لم يكن يتصرف بخشونة أو بفظاظة، إذ كان هين الطبع مع النساء، إلا أنه كما أن أجمل الناس إن قيس بيوسف ﷺ يبدو قبيحًا فكذلك كان لين عمر ﷺ عندما يقارن مع لين وحلم الرسول ﷺ يبدو خشونة وفظاظة... أي أن هذا الحكم كان نسبيا، إذ لا يمكن مقارنة أحد برسول الله ﷺ. أجل، لقد تعودن على ظرف الرسول ﷺ وعلى رقته وحلمه، ومن ثم كانت تبدو لهن تصرفات عمر ﷺ خشنة، هذا علما بأن عمر ﷺ كان من المؤهلين لحمل عبء خلافة رسول الله ﷺ في المستقبل، وعندما أصبح فعلاً خليفة أعطى أفضل النماذج بعد نماذج الأنبياء عليهم السلام، إذ كان من خلقه وطبعه البحث عن الحق وعن العدالة، وأن يكون سيفًا قاطعًا يفرق بين الحق والباطل. كانت لعمر ﷺ طبيعة خاصة أهلته لتسلم منصب الخلافة، وهذه الطبيعة قد تبدو للبعض قاسية بعض الشيء. ولكن هذا الخلق أو هذا الطبع هو الذي ساعده على حمل أعباء الخلافة بكل نجاح.

ج. استشارته لنسائه

كان الرسول ﷺ يجلس ويتحدث مع نسائه، وأحيانًا يتذاكر معهن بعض المسائل. ولم يكن

---

[1] البخاري، الأدب ٦٨؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٢.

في الحقيقة في حاجة إلى آرائهن لأنه كان مؤيدًا بالوحي، ولكنه كان يريد أن يعلم أمته أمرًا، وهو رفع مكانة المرأة؛ وذلك خلافًا لما كانت عليه سابقًا، وبدأ هذا عمليًا في بيته.

بدا صلح الحديبية قاسيًا جدًّا للمسلمين إلى درجة أنه لم يبق هناك عند أحد منهم قدرة على النهوض من مكانه. في هذه الأثناء أمر رسول الله ﷺ من نوى العمرة القيام بذبح ذبيحته والخروج من الإحرام. غير أن الصحابة تباطؤا في هذا على أمل أن يكون هناك تغيير لهذا القرار.. كرر النبي ﷺ الأمر ثانية، غير أن الصحابة بقوا على الأمل نفسه.. لم يكن هذا معارضة للرسول ﷺ. ولكنهم كانوا ينتظرون ويأملون في أمر آخر. إذ أنهم خرجوا من المدينة على أمل الطواف حول الكعبة. وما قيل في الحُديبية كان من الممكن -حسب اعتقادهم- أن يتعرض لبعض التبديل والتغيير قبل وضع الاتفاقية موضع التنفيذ.

عندما شاهد النبي ﷺ هذا الأمر لدى الصحابة دخل خيمته واستشار زوجته أم سلمة التي كانت امرأة ذات فطنة واسعة. وأبدت أم سلمة رأيها لإعطاء المشورة حقها وهي تعلم أن الرسول ﷺ ليس بحاجة إلى ما تقول، وإنما كان الرسول ﷺ يريد أن يعلم أمته درسًا اجتماعيًا بمشورته هذه مع إحدى نسائه. قالت أم سلمة: "يا نبي الله! أتحب ذلك. أخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك." كان هذا هو ما يفكر به الرسول ﷺ، لذا أخذ سكّينة وخرج فنحر بدنه وحلق شعره. فلما رأى الصحابة ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتي كاد بعضهم يقتل بعضًا غما.[1] فقد علموا أخيرًا أن القرار نهائي ولا رجعة فيه.

وأنا أريد أن أسألكم: أيكم يلتفت مثل هذه الالتفاتة الكريمة لزوجته؟ كم رئيس دولة استشار زوجته في الأمور الخطيرة لبلده؟ كم رب عائلة يضع في منهجه في إدارة البيت التشاور مع زوجته؟ ونستطيع أن نكثر من هذه الأسئلة ونوجهها إلى كل وحدة من وحدات المجتمع.. فليسمع هذا كل أصحاب الأصوات المنكرة التي تدعي بأن الإسلام يقوم بأسر المرأة، وأنا أتساءل: أي نصير من أنصار المرأة استطاع الارتفاع إلى هذا المستوى؟

ومثل أي أمرٍ خيرٍ آخَر فإن الشورى والمشورة طُبِّقت في بادئ الأمر في بيت رسول الله ﷺ، إذ كان يستشير زوجاته، ولم نَصلْ نحن بعدُ إلى مستوى هذا الأمر ولا نعرف كيف نفتح مغاليق هذا الباب السري؛ بل لم نصل بعد إلى الطَرْق على هذا الباب. أجل، فلا تزال المرأة -حتى

---

[1] البخاري، الشروط ١٥.

لدى الذين يدّعون الدفاع عن حقوقها- إنسانًا من الدرجة الثانية؛ بينما نحن ننظر إليها باعتبارها نصف الوحدة الواحدة. فهي النصف الذي لا ينفع النصف الآخر بدونه، ومن اجتماع النصفين يتم تشكل الوحدة الإنسانية الواحدة. وعند غياب هذه الوحدة الواحدة لا يمكن الحديث عن وجود أي شيء.. لا الإنسانية ولا الأنبياء ولا الأصفياء ولا الإسلام ولا الأمة.

وكان الرسول ﷺ يتصرف بلطف مع النساء فإنه بأحاديثه كان يشجع مثل هذا التصرف. يقول في أحد أحاديثه: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم لنسائهم خياركم خُلقًا.»[1] وهكذا يظهر أن قضية المرأة إن حققت ما تصبو إليه في تاريخ الإنسانية فقد حققته في العهد النبوي.

د. حادثة التخيير

وهي حادثة تخيير رسول الله ﷺ نساءه في إمضاء حياتهن معه أو مفارقتهن له. ومهما كان مبدأ هذه الحادثة فإنها كانت أمرًا من الله تعالى لرسوله. فالآية الكريمة التي نزلت في هذا الخصوص تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ۞ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٨-٢٩).

فقد طالبت نساءُ النبي ﷺ زيادة نفقاتهن، إذ دارت بخلدهن: ألا نستطيع نحن -مثل سائر المسلمين- العيش بقليل من الرفاهية، مثل تناول طبق من الحساء كل يوم؟ ألا يمكن أن تكون ملابسنا أفضل قليلا؟ ولما كانت هذه المطالب مشروعة وضمن دائرة الحلال فقد بدت لهن مطالب طبيعية وبريئة، ولكن فاتهن أنهن في بيت سيبقى حتى يوم القيامة أنموذجًا للبيوت الإسلامية، وأنهن يمثلن مركز هذا الأمر وقلبه، لذا فلا يمكن أن يتصرفن مثل سائر نساء المسلمين، ذلك لأنهن من المقربات، وحسنات الآخرين تعد سيئات بالنسبة إليهن.

ما إن أحس الرسول ﷺ هذا حتى اتخذ منهن موقفًا محددًا.. اعتزلهن وحلف ألا يدخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن واعتكف في مشربة البيت. وانتشر الخبر بسرعة، وعم الحزن الجميع، وسارع الكثيرون إلى المسجد وهم يبكون، ذلك لأن المسلمين كانوا يبكون لأقل حزن يصيب رسول الله ﷺ.. هكذا كان الْتحام المسلمين معه. وكان أقل كدر يحدث له في بيته سرعان ما يسمعون به فيحزنون ويغتمون ويبدأون بانتظار زوال ذلك الأمر بفروغ

[1] الترمذي، الرضاع ١١؛ أبو داود، السنة ١٥؛ الدارمي، الرقاق ٧٤.

صبر.. وكان هذا هو ما حدث في ذلك اليوم. ويطلق اسم حادثة "الإيلاء" أيضًا على هذا التصرف من رسول الله ﷺ. وهناك من ينظر إلى هذه الحادثة من زاوية أخرى. وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في إطار هذه الحادثة، لأن بنت كل منهما كانتا ضمن زوجات النبي ﷺ. لذا، فما أن سمعا بالنبأ حتى أسرعا إلى المسجد مثل غيرهما.

طلبا الإذن للدخول على رسول الله ﷺ فلم يؤذن لهما، فبدءا ينتظران في المسجد مثل غيرهما من المسلمين. وفي الطلب الثالث أذن لهما ويبدأ كل منهما يجأ عنق بنته ورسول الله ﷺ يقول: «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة.»[1] هذا علمًا أن القرآن يقول لهن: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (الأحزاب:٣٢).

فقد ينجو الآخرون بأداء الفرائض فقط، ولكن من كانت في بؤرة هذا الأمر، وضمن حرمه ﷺ ممن يعرفن أسرار الكثير من الأمور يجب أن يضحين بكيانهن في هذا السبيل لكي لا يظهر أي ضعف في المركز. أجل، إن كون إحداهن زوجة للرسول ﷺ له جوانب إيجابية ولكن له مسؤوليات ثقيلة أيضًا. وكان الرسول ﷺ يهيئهن لكي يكن قدوات حسنات ولكي لا يصيبهن الخسران ولا تنطبق عليهن الآية الكريمة ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ (الأحقاف:٢٠). فكان يريد صيانتهن وحفظهن من هذا المنزلق. لذا، فقد كانت المعيشة في بيت الرسول ﷺ يسودها الضيق من بعض الوجوه. وبسبب هذا الضيق ترتفع أحيانًا بعض الطلبات بشكل ضمني أو صريح. غير أن أوضاعهن لم تكن مثل الآخرين فهناك أوضاع خاصة كانت تجلب معها بعض المسؤوليات.. فما كان بمقدور إحداهن أن تضحك مثل الآخرين ولا أن تأكل مثل الآخرين. هذا علمًا بأن بعض كبار الزهاد لم يضحكوا في حياتهم إلا مرة أو مرتين ولم يشبعوا مرة واحدة طوال حياتهم.

يقول أحد أصحاب الفُضيل بن عِياض: صحبت الفُضيل بن عِياض ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا مبتسمًا إلا يوم مات ابنه علي. فقلت له في ذلك فقال: "إن الله ﷻ أحب أمرًا فأحببت ما أحب الله."[2]

فإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لعظماء الدين، من الطبيعي أن يكون وضع الزوجات الطاهرات لسيد الرسل ولأعظم العظماء شيئًا مختلفًا عن المعتاد.

ليس من السهل ولا من الميسور أبدًا الوصول إلى درجة وإلى مرتبة اللياقة لمصاحبة

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٣/٣٢٨.

[2] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٨/١٠٠.

الرسول ﷺ في الدنيا وفي الآخرة. لذا، دخلت هؤلاء النسوة المتميزات -حسب إشارة القرآن- إلى امتحان للإرادة وللعزم. فقد خيرهن الرسول ﷺ بين العيش معه في فقر وفي ضيق وبين زينة الدنيا وملاذّها. فلو اخترن الدنيا لمتعهن الرسول ﷺ ثم سرحهن سراحًا جميلاً. وإن اخترن الله ورسوله فعليهن الرضا بمستوى عيشهن، ذلك لأن هذا كان خاصية وصفة العيش في ذلك البيت. ولما كان هذا البيت بيتًا متميزا وبيتًا فريدا، لذا كان من الطبيعي أن يكون ساكنوه متميزين ومتفردين.. كان رئيس العائلة متميزًا بالطبع فاستوجب أن تتبعه الزوجات والأولاد.

كان أول من فاتح رسول الله ﷺ هي أمنا عائشة رضي الله عنها في الأمر إذ قال لها: «يا عائشة! إني ذاكر لك أمرًا فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» ثم تلا عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ۞ وَإِنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٨-٢٩). فقالت عائشة رضي الله عنها: "أَوَ في هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة." وتقول أمنا عائشة رضي الله عنها: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلتُ.[١]

لقد كان جواب أزواج رسول الله ﷺ الجواب نفسه، ذلك لأنهن امتزجن وتوحدن مع الرسول ﷺ. فما كان باستطاعتهن قول شيء آخر. ولو قال لهن الرسول ﷺ بأن عليهن أن يصمن طوال حياتهن ولا يفطرن قط لما ترددن في قبول أمره ولنفذن طلبه بكل شوق وفرح وتحملن ذلك عن طيب خاطر.. وقد تحملن كل المصاعب حتى أواخر حياتهن ولم يفطرن من ذلك الصوم الطويل حتى ارتشاف شراب الموت.

كانت من زوجاته من عشن حياة القصور أيضاً، وكانت صفية رضي الله عنها منهن، فقد فقدت أباها وزوجها في معركة "خيبر" وكانا من سادة خيبر، وأسرت صفية وصعب عليها كثيرًا أن تكون ضمن الأسرى، ولا شك أن الرسول ﷺ كان أكره شخص لديها في الدنيا حتى رؤيتها له. ولكن ما أن رأته حتى تغيرت مشاعرها وعواطفها نحوه.[٢]

أجل، لقد كانت في بيت الرسول ﷺ زوجات مثل صفية تحملن العيش في بيت لا يستطعن فيه إشباع بطونهن مع أنهن قضين حياتهن في السابق في نعيم القصور، وشاركن

---

[١] البخاري، المظالم ٢٤؛ مسلم، الطلاق ٢٢، ٣٥.

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٠٨/٢.

غيرهن من الزوجات في نمط هذا العيش، إذ دخل رسول الله ﷺ بخلقه الفذ إلى قلوبهن إلى درجة أنهن فضّلن العيش معه مع كل أنواع الفقر والحرمان. بل أصبح استمرار العيش معه غاية حياتهن وهدفها.

كانت صفية أم المؤمنين رضي الله عنها يهودية النشأة، وفي أحد الأيام خاطبتها زوجتان من زوجات الرسول ﷺ وهما تعيّرانها بأنها كانت يهودية: "يا بنت اليهودي" فاشتكت صفية ذلك إلى رسول الله ﷺ، فطيّب رسول الله ﷺ خاطرها قائلاً لها: «ألا قلتِ فكيف تكونان خيرًا مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى؟.»[1] وعندها خرجت صفية رضي الله عنها من عند رسول الله ﷺ راضية النفس قريرة العين، ذلك لأن زوجها هو محمد ﷺ. ومن يدري كم من مرة تمتمت شفتاها بهذه الكلمات.

وخلاصة القول أن الرسول ﷺ أكثر وأكمل من رئيس عائلة مثالي. فإدارته لهؤلاء الزوجات بكل هذه السهولة واليسر وكونه محبوبًا من قبلهن كلهن غاية الحب يشير إلى هذا.. فقد كان حبيب قلوبهن ومعلم عقولهن ومربي أرواحهن، وعندما كان يقوم بهذا لم يكن يفرط قيد شعرة بوظيفته تجاه الدولة وتجاه الأمة، وهذا دليل ساطع على نبوته، ولو لم يكن هناك دليل آخر لكانت رئاسته العائلية والخط الذي سار عليه دليلاً كافيًا على ذلك.

---

[1] الترمذي، المناقب ٦٣.

الفصل الثاني: صفة الأبوة لدى النبي ﷺ

كان النبي ﷺ ذروة في كل مفصل من مفاصل الحياة وفي شؤونها جميعًا. وعندما يريد أي إنسان معرفته عليه أن يخترق قمم عظماء عصره ولا يقف إلاّ عند أعلى هذه القمم واعظمها مستعينًا بأجنحة خياله وإلاّ فاته فهمه وقصَّرَ في إدراكه. أجل، من أراد البحث عنه، عليه أن يبحث عنه في أُفقه. وليس بين مستويات الأشخاص العادين من أمثالنا، ذلك لأن الله تعالى وهبه قابليات كبيرة في كل شأن من شؤونه.

عاش فخر الإنسانية مثل شمس ساطعة ثم غرب، فلم تر الإنسانية مثيلاً له من قبل ولن تراه من بعد. وكما لم تر الإنسانية هذا، كذلك لم يَر معاصروه والقريبون منه شخصًا إعجازيًا كشخصه عليه الصلاة والسلام. وربما لم يدرك الكثيرون آنذاك غروبه إلاّ بما تركه هذا الغروب في قلوبهم من وحشة، كمثل الزهرة المتعلقة حياتها بضوء الشمس لا تحس بغروب الشمس إلا بعد إحساسها بالذبول جراء انقطاع ضوء الشمس عنها... أحسوا بالوحشة ولكن الأمر كان قد فات وانقضى. ومن الطبيعي أن من يفهمونه ويعرفونه في أمته يزداد يومًا بعد يوم. وعلى الرغم من مرور ١٤ قرنًا فلا نزال نقول "أُمُنا" لخديجة، ولعائشة ولأم سلمة ولحفصة رضي الله عنهن جميعًا ونحس بلذة وببهجة من هذا القول أكثر من لذتنا عندما نخاطب أمهاتنا. ولا شك أن الشعور بهذه اللذة وبهذه البهجة كان أعمق في ذلك العهد وأكثر حرارة وإخلاصًا، وذلك من أجله ﷺ. لذا، نرى أبا بكر ؓ يخاطب ابنته عائشة قائلا لها: "يا أمي" لأن الآية الكريمة تقول ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦). نعم، لقد كان أبو بكر ؓ يقول لبنته التي رباها في حجره "يا أمي".

ولكن كل هذا الحب وهذا التقدير الذي أحاط بهن لم يكن يجدي في إزالة حزنهن وألمهن من فراقه ﷺ. ولم تستطع الأيام الحلوة التي أتت بعد أيام الفتوحات في أن تقلل هذا الحزن العميق في قلوبهن.. بل استمر هذا الحزن حتي غروب حياة كلِ واحدة منهن. وكما كان زوجًا مثاليًا لزوجاته، فقد كان أبا مثاليًا أيضا.. وعلى المقياس نفسه كان جدًّا مثاليًا لا يوجد له نظير أو شبيه.

كان يعامل أولاده وأحفاده بحنان كبير، ولم يكن ينسى وهو يعطي كل هذا الحنان أن

يوجه أنظارهم إلى الآخرة وإلى معالي الأمور. كان يضمهم لصدره ويبتسم لهم ويداعبهم، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يغض طرفه عن أي إهمال لهم حول شؤون الآخرة، وكان في هذا الأمر واضحًا جدًّا وصريحًا جدا، ووقورًا ومهيبًا وجادا فيما يتعلق بصيانة العلاقة بينه وبين خالقه. فمن جهة كان يعطي الحرية لهم ويرشدهم إلى طرق العيش بشكل يليق بالإنسان، ومن جهة أخرى كان لا يسمح بانفلات الانضباط أو سلوك طريق اللامبالاة. ويبذل كل جهوده وبكل دقة لمنع إصابتهم بأي تعفن خلقي، ويهيئهم لعوالم علوية وللحياة الأخروية. وفي أثناء هذه التربية كان الرسول ﷺ يحذر من الوقوع في الإفراط أو التفريط، بل يختار الطريق الوسط ويمثل الصراط المستقيم. وكان هذا بُعدًا آخر من أبعاد فطنته.

أ. شفقته على أولاده وأحفاده

يروى مسلم عن أنس بن مالك ﷺ الذي خدم رسول الله ﷺ عشر سنين ما يأتي "ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ "[1] أجل، كان يتصرف بشفقة ورحمة وعن عاطفة حقيقية نابعة من صميم قلبه بحيث لم يكن بوسع أحد أن يكون مثيلاً له لا في مجال رئاسته للعائلة ولا في مجال أبوته.

ولو كان هذا كلامًا صادرًا منا فقط لكان من الممكن بقاء أهميته محدودة. إلا أن الملايين من أمته التي تعمقت الرحمة والشفقة في قلبها إلى درجة التورع عن إيذاء نملة.. هذه الملايين كلها تعلن وتعترف بأنه لم يكن هناك مثيل له ﷺ في احتضانه الوجود كله بشفقته ورحمته. صحيح أنه خلق بشرًا من البشر. ولكن الله تعالى ألهمه ووضع في قلبه عاطفة الاهتمام بالوجود كله لكي يوطد علاقته مع الناس أجمعين. ولهذا كان رسول الله ﷺ مشحونًا بعاطفة قوية وباهتمام كبير تجاه أفراد بيته وتجاه الناس الأخرين.

وتوفي أولاده الذكور في حياته.[2] وقد ولدت له أمنا مارية رضي الله عنها ولدًا ذكرًا فتوفي كذلك، وكان هذا آخرهم. وكان رسول الله ﷺ يجد وقتًا من بين مشاغله الكثيرة والمهمة فيذهب إلى مرضعة ابنه ويحتضن ابنه ويقبله ويداعبه ويشمه ويظهر له علامات حبه له.[3] وعندما توفي ابنه احتضنه أيضًا وقد ملأت الدموع عينيه. ثم قال وهو ينظر إلى

---

[1] مسلم، الفضائل ٦٣؛ المسند للإمام أحمد، ١١٢/٣.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢٨/٥.

[3] مسلم، الفضائل ٦٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٦١/٩.

المستغربين لحزنه: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.» وفي حديث آخر: «إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا» وأشار إلى لسانه.[1]

ولنكرر مرة أخرى فنقول إنه كان أرحم الناس وأكثرهم شفقة وحنانًا. كان الحسن والحسين ﷺ يركبان على ظهره ويطوف بهما.. هل تتصورون شخصًا في هذا المستوى يأخذ حفيده على ظهره ويكون لهما فرسًا أمام الآخرين؟ أما هو فكان يفعل هذا وكأنه كان يشير من بعيد الى ذلك الموقع الممتاز الذي سيناله كل من الحسن والحسين ﷺ في مستقبل التاريخ. وفي أحد الأيام وبينما كان الحسن والحسين ﷺ على ظهره دخل عليه عمر بن الخطاب ﷺ فقال لهما: نِعْمَ الفرس تحتكما. فقال الرسول ﷺ: «نعم الفارسان هما.»[2]

يجوز أن الحسن والحسين ﷺ فهما ما قاله أو لم يفهما، ولكنه كان يمدحهما هكذا. وفي إحدى المرات عندما قال أحدهما للحسن ﷺ وهو على عاتق النبي ﷺ: يا غلام! نعم المركب ركبت. فقال رسول الله ﷺ: «ونعم الراكب هو.»[3]

أجل، لقد كان يظهر عناية واهتمامًا خاصين بهذين الإمامين من أهل البيت الحسن والحسين ﷺ اللذين لهما الشرف والعزة والكرامة في كونهما أبوين لجميع الأولياء الذين سيظهرون حتي يوم القيامة. لذا، كان يحملهما على كتفه من حين لآخر، ولا شك أن لجميع أهل البيت ولجميع الأولياء نصيبًا من هذا الاهتمام. وعن جابر قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يمشي على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين ﷺ وهو يقول: «نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما.»[4] لقد كانت هذه هي منزلة أولاده وأحفاده عنده، فدخل حبه إلى قلوبهم وأصبح مظهرًا وموضعا لحب يتجاوز علاقة الأبناء والأحفاد.

وكما كان في جميع الأمور فقد سلك رسول الله ﷺ الطريق الوسط في موضوع تربية الأطفال. فقد كان يحب أولاده وأحفاده حبًا جمًا ويُشعِرهم بحبه، ولكنه لم يكن يسمح بأي استخدام سيء لهذا الحب. هذا علمًا بأنه لم يكن يوجد بين أولاده وأحفاده من يحاول هذا أصلاً. غير أنه عندما يقومون بتصرف خاطئ من دون عمد نرى مِن تصرّف رسول الله ﷺ

---

[1] البخاري، الجنائز ٤٤، ٤٥؛ مسلم، الفضائل ٦٢، ٦٣، الجنائز ١٢؛ ابن ماجه، الجنائز ٥٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٣/٣؛ أبو داود، الجنائز ٢٤.

[2] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٨٢/٩.

[3] كنز العمال للهندي، ٦٥٠/١٣.

[4] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٨٢/٩.

وكأن ضبابًا من الوقار لف هذا الحب العميق. وبسلوك مثله الدفء يسعى لمنعهم من التجول الى مناطق الشبهات. فمثلاً مد الحسن ﷺ وهو طفل صغير يده إلى تمر صدقة، فأسرع رسول الله ﷺ وانتزع تلك التمرة من فيه قائلاً له: «أما علمتَ أن الصدقة لا تحل لآل محمد.»[1] فقد رباهم منذ الصغر على التوقي من الحرام وإبداء منتهى الحساسية في هذا الموضوع، وهذا من أفضل الأمثلة على إقامة التوازن التربوي منذ الصغر. وفي كل مرة كان يدخل فيها المدينة كنت تراه وقد ركب معه على مركبه بعض الصبيان ملتفين حوله.[2] فلم يقصر رسول الله ﷺ حبه على أولاده وعلى أحفاده فحسب، بل على أولاد وصبيان جيرانه وغير جيرانه أيضًا.

لم يكن أولاده الذكور وأحفاده هم الداخلين فقط ضمن دائرة حبه وحنانه، فقد كان يحب حفيدته أُمامة مثلما يحب حفيديه الحسن والحسين ﷺ فكثيراً ما شوهد وهو يخرج من البيت وعلى كتفه أُمامة. وكان يحملها أحيانًا على ظهره وهو في صلاة النافلة فإذا ركع وضعها على الأرض وإذا قام رفعها.[3] كان رسول الله ﷺ يظهر حبه لأُمامة في مجتمع كان الناس فيه حتى عهد قريب يئدون البنات. لذا، كان هذا التصرف منه تصرفًا جديدًا غير مسبوق من قبل أحد آنذاك.

ب. حبه وحنانه تجاه فاطمة رضي الله عنها

ليس في الإسلام تفاضل بين الذكر والأنثى، وهذا هو ما أظهره الرسول ﷺ بنفسه. ففاطمة هذه كانت بنته وأم أهل البيت حتى يوم القيامة وهي والدتنا. كانت فاطمة عندما تقبل على رسول الله ﷺ وتزوره يقوم لها ويأخذ بيدها ويجلسها بجانبه ويسأل عنها وعن أحوالها ويظهر حبه لها، وعندما تقوم يقوم معها ويودعها بكل لطف.[4]

رغب علي بن أبي طالب ﷺ مرة الزواج من بنت أبي جهل. صحيح أن هذه المرأة كانت قد دخلت الإسلام مثل أخيها عكرمة فالتحقت بقافلة النور. ولكن هذا الزواج كان من الممكن أن يضايق فاطمة رضي الله عنها. ويجوز أن عليًا ﷺ لم يخطر على باله قط أن فاطمة يمكن أن تستاء من مثل هذا الزواج. ولكن عندما أتت فاطمة إلى رسول الله ﷺ تخبره

---

[1] البخاري، الزكاة ٥٧؛ مسلم، الزكاة ١٦١؛ المسند للإمام أحمد، ٢٧٩/٢.
[2] انظر: حياة الصحابة للكاندهلوي، ٦٨٨/٢-٦٨٩.
[3] البخاري، الأدب ١٨؛ مسلم، المساجد ٤١-٤٣.
[4] مسلم، فضائل الصحابة ١٩٨؛ البخاري، المناقب ٢٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٠٣/٩.

بالأمر وتظهر حزنها حتى همه أمرها وصعد المنبر وقال: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب. فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم. إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم. فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها.»[1] وكان علي ﷺ من بين المستمعين فتراجع عن نيته تلك وعاد إلى فاطمة رضي الله عنها.

ولا شك أن عليا ﷺ كان يعز بنت رسول الله ﷺ معزة كبيرة، وكانت فاطمة رضي الله عنها تعرف هذا جيدًا لذا، كانت تحبه أكثر من نفسها. والحقيقة أن هذه المرأة الرقيقة كانت تبدو وكأن وظيفتها في الحياة هي أن تكون بذرة لكل الأولياء والأصفياء. فكان جل اهتمامها منصبًا على والدها وعلى دعوته. وعندما أخبرها والدها -وهو في أواخر أيام حياته- بأنه سيتوفى سبحت في بحر من الدموع. ولكن عندما أخبرها بأنها ستكون أول من يلتحق به غمرها الفرح والحبور.[2]

أجل، لقد كان والدها يحبها كثيرًا وكانت بدورها تبادله الحب العميق. ولكن رسول الله ﷺ كان عندما يحبها يعرف كيف يحفظ التوازن ويعدها لكي يوصلها إلى العالم الذي يجب أن ترتفع الأرواح وتسمو إليه، ذلك لأن الرفقة الأبدية لا تكون إلا هناك. ولم يترافق رسول الله ﷺ وابنته في الحياة سوى خمسة وعشرين عامًا. إذ توفيت فاطمة رضي الله عنها بعد ستة أشهر فقط من وفاة والدها وكان عمرها آنذاك خمسًا وعشرين سنة فقط.[3]

ج. تهيئة أولاده للحياة الأبدية

كان رسول الله ﷺ يطلب الحياة الأبدية. أي يطلب ما تطلبه الفطرة التي أودعها الله في الناس جميعًا... أجل، إن الإنسان للخلود. وليس في الإمكان إشباع هذا الإنسان إلا بالحياة الخالدة وبصاحب هذه الحياة الخالدة... لذا، لا يطلب شيئًا غيره. وسواء أشعر بذلك أم لم يشعر فإنه لا يطلب غيره ولا يرغب في سواه. ومهما أعطيت هذا الإنسان فلن تستطيع إشباعه إلا عندما تعطيه الحياة الخالدة... ذلك لأن للإنسان آمالاً لا نهاية لها ورغبات لا تحد ولا تحصى، لذا فلن تستطيع إشباع هذا الإنسان مهما أعطيته. وهذا هو السبب في أن

---

[1] البخاري، فضائل أصحاب النبي ١٦؛ مسلم، فضائل الصحابة ٩٣.

[2] مسلم، فضائل الصحابة ٩٨، ٩٩؛ البخاري، المناقب ٢٥.

[3] البخاري، فرض الخمس ١؛ مسلم، الجهاد ٥٢؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢١١/٩؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٩/٨؛ الإصابة لابن حجر، ٣٧٩/٤.

أساس رسالات جميع الأنبياء والمرسلين قائم على هذا النظام ذي البعد الأخروي. وعلى هذا الاعتبار فإن رسول الله ﷺ بينما كان يحمل لهم باقات السكينة والطمأنينة فإنه لم يكن ليهمل أبدًا تهيئتهم للسعادة الأبدية والطمأنينة الأبدية. ويمكن رؤية هذا بكل وضوح في الحادثة التالية:

جاءت فاطمة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ وفي عنقها سلسلة من ذهب فقال لها: «يا فاطمة! أيغُرُّكِ أن يقول الناس ابنة رسول الله وفي يدها سلسلة من نار.» ثم خرج ولم يقعد. أجل، فمن جهة كان يعزها، ومن جهة أخرى كان يعدها للحياة الأخروية الخالدة ويوجهها نحو الله وتكملة الحادثة هي: فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها واشترت بثمنها غلامًا فأعتقته، فحُدِّث بذلك فقال: «الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار.»[1]

لا شك أن قيام فاطمة بالتزين بسلسلة من الذهب لا يُعد حراما، ولكن رسول الله ﷺ كان يريد أن يحفظها في دائرة المقربين، وتنبيه الرسول ﷺ لها يعود إلى هذا الأساس، وهو أساس التقوى والقرب من الله. وهو من جهة عدم الاهتمام بزينة الدنيا وشواغلها. ولكن الأهم هنا وجوب كونها أنموذجا وقدوة لائقة بأم أهل البيت وإظهار الحساسية الشديدة في هذا الخصوص. أجل، فليس من الهين أبدًا أن تكون أما للحسن وللحسين ﷺ وللعابدين المشهورين من بعد أمثال "زين العابدين" الذين كانوا منارة هدى للناس. فرسول الله ﷺ كان يعدها لكي تكون أما لأهل البيت أولا ثم أما لقمم سامقة أمثال الشيخ الكيلاني ومحمد بهاء الدين النقشبندي وأحمد الرفاعي والشاذلي وغيرهم، فكأنه كان يقول لها: "يا بُنيتي! أنت ذاهبة لكي تكوني عروسة في بيت ستخرج منه سلسلة ذهبية من النسل المبارك، فدعي أنت هذه السلسلة الذهبية وكوني أُمًا لهذه السلسلة الذهبية من النسل".. السلسلة الذهبية لرجال الطرق السامية أمثال الطرق النقشبندية والرفاعية والشاذلية وغيرها.

أجل، ليس من السهل أبدًا أن تكون أمًا للأولياء وللأصفياء وللأبرار وللمقربين. لذا، فقد كان رسول الله ﷺ أكثر حساسية في هذا الخصوص تجاه بيته وأكثر حزمًا. فبتصرفه هذا كان - بجانب رأفته بهم وحنانه عليهم- يريد أن يوجه أنظارهم إلى عالم الآخرة، ويسد أمامهم جميع أبواب ونوافذ الشر أو الإثم أو السوء مهما صغر لكي يقصروا هممهم على الآخرة ولسان حاله يقول لهم: يجب أن يكون الله غايتكم. إذ سيظهر من أمته من يقول بقول الشاعر:

---

[1] النسائي، الزينة ٣٩؛ المسند للإمام أحمد، ٢٧٨/٥.

"هذه الجنة التي يذكرونها
قصور عدة.. وبضعة حوريات
أعطها لمن يريدونها
أما أنا فأنت مُنايَ.. أنت"

ويقضون أعمارهم كلها تحت ألوان وفي ظلال هذه الحياة الأخروية. لذا، كان الرسول ﷺ يبعد كل من يحبه -نتيجة طبيعية لهذا الحب- من قاذورات الدنيا ويطهرهم منها، ويحوّل نظرهم واهتمامهم إلى العوالم العلوية ويهيئهم لرفقته هناك لأن «المرء مع من أحب.»[1]

فإذا كنت تحب محمدًا ﷺ فستسلك طريقه، وإذا سلكت طريقه كنت معه في الآخرة. وهكذا فالرسول ﷺ بجانب حبه لهم كان يهيئهم لرفقته هناك. أجل، هناك حب، وهناك رأفة ولكن لا محل لأي تراخ في أي أمر من أمور الآخرة... وهذا هو الصراط المستقيم... الصراط الوسط أفضل وأعدل طريق... طريق على رأسه رسول الله ﷺ.

وجانب آخر من جوانب نظام تربيته يعرضه علينا الإمام البخاري ومسلم ﷺ وذلك رواية عن علي بن أبي طالب ﷺ أن فاطمة رضي الله عنها شكت ما تلقى من أثر الرحى فأتى النبيَّ ﷺ سَبْيٌ فانطلقت فلم تجده، فوجدت عائشةَ فأخبرتها فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيئ فاطمة فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبتُ لأقوم فقال: «على مكانكما» فقعد بيننا حتي وجدتُ برد قدميه على صدري وقال: «ألا أُعلِّمكما خيرًا مما سألتماني: إذا أخذتما مضاجعكما تُكبِّرا أربعًا وثلاثين وتُسَبِّحا ثلاثًا وثلاثين وتحمدا ثلاثًا وثلاثين فهو خير لكما من خادم.»[2]

أي أنني أوجه نظركِ إلى العالم الأخروي، فلكي تصلي وتكوني معي في ذلك العالم أمامك طريقان: الأول هو عدم التقصير في أداء وظيفة العبودية تجاه ربك. والثاني القيام بإيفاء وظيفتك تجاه زوجك، فلو قام الخادم بإيفاء بعض الخدمات لزوجك من الخدمات التي كان من المفروض عليك أداؤها فذلك يعني أن هناك نقصا ما عندك. علما بأن عليك أن تكوني ذات جناحين. لذا، عليك أن تفتشي عما يجعل الإنسان عبدًا كاملاً لله، وكيف يكون إنسانًا كاملاً يؤدي كل وظائفه دون قصور.

---

[1] البخاري، الأدب ٩٦؛ مسلم، البر ١٦٥.
[2] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٩؛ مسلم، الذكر ٨٠، ٨١؛ أبو داود، الأدب ١٠٠.

كوني أولاً أمة[1] كاملة لله وأدي كل وظائف العبودية تجاهه، ثم كوني إنسانة كاملة بإيفائك حق جميع وظائفك تجاه زوجك عليّ الذي يحمل في صلبه كل المقربين من أهل الله حتى يوم القيامة.. اعملي هذا لكي تكوني في الجنة التي هي مكان كل الأخيار والكاملين.

ولا أملك نفسي هنا من الاستطراد وذكر شيء يخص عليًا ﷺ، فقد زوجه رسول الله ﷺ ابنته دون تردد ذلك لأنه رأى فيه اللياقة لكي يكون زوجًا لفاطمة وصهرًا له، لأنه كان سلطان الأولياء وخلق لكي يكون أبا للأولياء، ويروى في حديث ضعيف قول الرسول ﷺ لعلي: «إن الله ﷻ جعل ذرية كل نبي في صلبه وإن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب ﷺ.»[2]

أي ستقوم أنت بإدامة نسلي، وفي النتيجة فإن الذين يقطفون الثمرات سيذكرونك ضمن آل البيت عندما يذكرونني، لذا فإن نظرنا من هذه الزاوية يكون من أطاع عليًا ﷺ قد أطاع الرسول ﷺ، ومن أطاع الرسول ﷺ فإنه يكون قد أطاع الله. ثم إن الرسول ﷺ يذكر بشكل عام عن حق الزوج فيقول: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق.»[3]

ولو كان مثل هذا الشيء جائزًا لكان علي ﷺ أول من يستحقه، ولو قامت فاطمة رضي الله عنها باستخدام خادمة لكان معنى ذلك انكسار جناح من جناحيها، وبجناح واحدة ما كان بمقدورها أن تكون جديرة لان تكون أما للحسن والحسين ﷺ وللشيخ الكيلاني وللأقطاب المجددين والمجتهدين الذين سيظهرون حتى يوم القيامة. لذا، كان لا بد من قطع كل اهتمام لها بالدنيا وتوجيه كل نظرها إلى الآخرة.. وفي الحقيقة فإن الله تعالى فعل الشيء نفسه بالنسبة لرسول ﷺ ورباه على هذا النحو، إذ مات والده قبل أن يأتي ﷺ إلى الدنيا، وعندما فتح بصره على العالم لم يجد أبًا يستند إليه ويستمد المعونة منه. وعندما بلغ السادسة من عمره فقد السند الآخر له، وفتح أمامه منذ بداية حياته الطرق المؤدية إلى نور التوحيد وإلى سر الأحدية. صحيح أن هناك فترة حماية عبد المطلب له، إلا أن هذه لم تكن سوى ستار العزة والعظمة الإلهية[4] من جهة وشرف للحامي، ولكن هذه الحماية لم تكن

---

[1] أمة: عبدة. (المترجم)

[2] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٧٢/٩؛ فيض القدير للمناوي، ٢٢٣/٢؛ تاريخ بغداد للبغدادي، ٣١٧/١.

[3] أبو داود، النكاح ٤١؛ الدارمي، الصلاة ١٥٩.

[4] يريد المؤلف أن يقول إن الله تعالى لا يظهر ظهوراً واضحاً في الحوادث، بل يجعل بينه وبين هذه الحوادث ستاراً وهو ستار الأسباب. (المترجم)

تعني من ناحية الأسباب شيئًا يذكر. لأن الحماية الظاهرية لأبي طالب -فيما بعد- لم تكن تتجاوز حماية الشخص لابن أخيه والوصاية عليه.. أما البعد الأخروي فهو نعمة كون أبي طالب أباً لعلي ﷺ.. وبسبب هذه القرابة سيأتي يوم يقوم فيه النبي ﷺ بكفالة علي ﷺ وتربيته ويسمو به حتى يجعل منه الفارس الكرار والحيدر المغوار وسلطان الأولياء.[1] هكذا تعامل الله تعالى معه، إذ سحب جميع الأسباب لكي يوجهه إليه وحده ولكي يظهر عنده سر الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة:٤)، فعليه أن يثق بالله ويعتمد عليه.

كانت فاطمة رضي الله عنها ابنته، لذا كان عليه أن ينقل لابنته التربية التي تلقاها من الحق تعالى وأن يوجه نظرها إلى الله وحده وإلى الحياة الأخروية.

د. الجو العام للتربية في بيته الكريم

كان الطابع العام الذي يسري في جو بيته الكريم هو التقوى والخشية، فهذا الجو كان يسري في كل حركة وسكنة فيه. فمن استطاع مشاهدة نظرات رسول الله ﷺ رأى فيها غبطة الوصول إلى الجنة وخشية الوقوع في النار. ومن رآه في صلاته رآه يرتجف أحيانًا إلى الأمام وأحيانًا إلى الخلف مهتزا من خشية الله أو متولهاً بالشوق إليه.. كانت هذه المناظر المشاهدة من حياة هذا البيت؛ فمن رآه تذكر الله تعالى. ينقل النسائي الحديث التالي عن مُطَرِّف عن أبيه قال: "أتيت النبي وهو يصلي ولجوفه أَزِيز كأزيز المِرْجَل"، يعني يبكي.[2]

كان دائم البكاء في الصلاة متجهًا بأعماق قلبه إلى الله. وكم من مرة افتقدته أمنا عائشة رضي الله عنها فوجدته وهو ساجد يسبح الله تعالى في خشوع.[3] ومن البديهي أن حاله هذه كانت تؤثر على أهل بيته تأثيرًا إيجابيًا وقويًا من الناحية التربوية. فقد سرى هذا الخشوع والتقوى والخوف من الله إلى نسائه وأولاده، ذلك لأن رسول الله ﷺ كان يعيش ما يقوله ويقول ما يعيشه. وليس هناك أحد استطاع أن يؤثر بسلوكه المطابق لفكره مثلما أثر الرسول ﷺ في بيته. ولو جمع كل علماء النفس وعلماء التربية كل معلوماتهم من جميع النظم التربوية واستخدموها بأجمعها في تعبئة عامة لما استطاعوا أن يقتربوا في تأثيرهم إلى مستوى التأثير الذي أحدثه الرسول ﷺ في بيته.

---

[1] انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ٢٦٢/١.

[2] النسائي، السهو ١٨؛ أبو داود، الصلاة ١٠٧؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥/٤-٢٦.

[3] مسلم، الصلاة ٢٢١؛ النسائي، عِشْرَة النساء ٤.

أجل، لقد كان الرسول ﷺ يعبر بتصرفاته وسلوكه عما يريد أن يبلغه للناس ثم يترجم تصرفاته وسلوكه إلى الناس ويبلغها ويفهمها لهم... يريهم كيف تكون الخشية من الله وكيف تؤدى السجدة بكل خشوع وخضوع وكيف يكون الركوع. وكيف يكون الجلوس للتحيات وكيف يبتهل إلى الله في ظلمة الليل... كان رسول الله ﷺ يفعل هذا في بيته وعندما يكون بين أصحابه يرشدهم كيف يتصرفون وكيف يربون أطفالهم وكيف يكونون مرآة للحق وللحقيقة في كل أمر. فتجد أقواله صدى حسنًا في بيته وبين أصحابه وتدخل إلى قلوبهم وتتشربها نفوسهم.

لقد كان قبل كل شيء أبا وجدًا لا نظير ولا مثيل له.. وقد يبدو لنا هذا أمرًا بسيطًا من الناحية الاجتماعية، إلا أنه في الحقيقة من أصعب العقبات التي يجب على الإنسان تخطيها، وكان رسول الله ﷺ في الصف الأول من الذين تخطوها بسهولة وبنجاح، فأصبح أفضل أب وأفضل جد. ثم إنه ربى أولادًا وأحفادًا جاء من صلبهم معظم رجال السلسلة الذهبية في التأريخ الإسلامي من الذين كانوا شموسًا وأقمارًا ونجومًا هادية. وهذه إحدى المزايا التي اختص بها رسول الله ﷺ، وتفرد بها بنعمة من الله وفضل منه، ولم يظهر من نسله مرتد واحد، وهذه مزية أخرى. علمًا بأن عدد أفراد نسله يبلغ الملايين.

كم من رجال كبار من أهل الحقيقة نراهم فقراء من ناحية الأولاد الذين تربوا عندهم. إذ نرى أولادهم وأحفادهم وقد طغوا وضلوا سبيلهم وانحرفوا ووقعوا في مصائد الشيطان. ومن الممكن مشاهدة أمثلة كثيرة من هذا النوع حتى في أيامنا الحالية، بينما لم يقم أولاد الرسول ﷺ ولا أحفاده بخيانة المعنى والمثل والهدى الذي انبثق من البيت الذي نشأوا فيه. بل بقوا أوفياء لهذا البيت المبارك وللمعنى الذي مثله.[1] أجل، إن هذا الأمر دليل آخر من دلائل نبوته ﷺ، إذ مهما كان الإنسان ذكيًا وعبقريًا فليس باستطاعته أن يكون مربيًا بهذا المستوى الرفيع.

---

[1] إن ظهور بعض الأفراد الفاقدي التوازن من الذين استغلوا هذا النسب لا يجرح القاعدة العامة.

الفصل الثالث: تربية الرسول ﷺ للناس وأسلوب تربيته

قبل أن ننتقل إلى الإطار العام لأسلوب تربية الرسول ﷺ لنلق نظرة سريعة على تفسير هذه الآية، ذلك لأنه من المستحيل علينا معرفة الذروة التي وصل إليها الرسول ﷺ في التربية دون أن نعلم مستوى الناس الذين قام بمخاطبتهم والتعامل معهم وتربيتهم ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة:٢).

إن بعض الكلمات الواردة هنا تجذب الانتباه، إذ تبدأ الآية بضمير الغائب "هو"، ذلك لأن الناس آنذاك لم يكونوا يعرفون الله. فقد كانوا جاهلين وبدوًا ومتخلفين، فلم يكن الله متجليًا في قلوبهم؛ فالآية تشير إلى بعدهم عن الله إلى درجة أنها لا تخاطبهم مباشرة بل تستعمل ضمير الشخص الثالث، وضمير الغائب "هو" ثم تقول الآية عنهم إنهم "أُمّيّون".. أميون لا يعرفون ما الكتاب وما العلم، ولا يعرفون الله ولا رسوله... إلى مثل هذه الجماعة الأمية الصعبة المراس التي لا يرجى منها خير أرسل شخصًا ذا إرادة صلبة وروح عالية وقلب واسع وعميق؛ فاستطاع أن يربي من هذه الأمة البدوية رجالاً ساسوا الإنسانية وقادوها. ومع أن الله تعالى يعطي أهمية إلى القلم وإلى الكتاب والقراءة فقد كانوا بعيدين عنها جميعًا فأرسل الله "منهم" رسولاً، أي رسولاً من هؤلاء. وكون الرسول ﷺ "منهم" هو من جانب كونه لا يعرف القراءة والكتابة، لا يعني أنه كان جاهليًا مثلهم، والحقيقة أن الرسول ﷺ كان يجب أن يكون أميا، ذلك لأن الله تعالى سيكون معلمه ومربيه اختاره من بينهم وأرسله معلمًا لتلك الأمة الأمية.

"يتلو عليهم آياته" أي يتلو عليهم آيات الله البينات آية بعد آية ويشرحها لهم ويربيهم عليها ويعلو بهم إلى سماء الكمالات الإنسانية. "وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين" أي مع أنهم كانوا قبل مجيئ رسول الله ﷺ في ضلال وفي جهالة وانحراف، فإن الله تعالى أرسل إليهم من يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.. كل هذا بوساطة نبي أمي. والمراد هنا من تعليم الكتاب هو القرآن. وكما استطاع القرآن أن يحتضن جماعة وأمة ويرفعها إلى مستوى إنساني رفيع فإنه يستطيع إنجاز الشيء نفسه للأجيال القادمة. أما

الأفكار الموجودة حاليا والتي يقدمونها كأفكار جديدة وجذابة، فمصيرها إلى الانطفاء واحدة بعد أخرى مثل شموع تعرضت للريح، إذ سيكون الكتاب الوحيد الذي يقول للشموس في بلد النور "أنا الشمس التي لا تغرب." وستكون رايته هي الراية الوحيدة الخفاقة، وستحطم جميع الأجيال قيود الأسر عن أعناقها لتسرع إليه وحده، وقد بدت الدلائل على هذا منذ الآن.. فهذه هي روسيا.. وهذه هي الصين.. فلو سمعت ما يجري فيهما الآن وقبل عشر سنوات لما صدقت ما تسمعه الآن وحسبته خيالاً وأوهامًا... ولكن انظر الآن كيف تتحطم الدكتاتوريات المرعبة، وكيف تتهدم الإمبراطوريات السابقة وتهوي إلى الأرض جذاذًا واحدة إثر أخرى، وكيف يظهر القرآن وكأنه جذوة متقدة من تحت الرماد، وكيف ينبعث عالم التوحيد انبعاثًا جديدًا. وبالرغم من كل هذا الظلم والاستبداد والتسلط يسري الروح الإسلامي إلى أرجاء المعمورة روحا يانعًا نضرًا يتسلل إلى القلوب وتنبهر به الأنظار.

والمعنى الآخر لها هو قيام النبي ﷺ بفضل هذا الكتاب المنير الذي علمه الله تعالى إياه بتربية نفوسهم والسمو بها إلى المعالي، والسمو بالإنسان إلى المرتبة اللائقة بالإنسان، أي إرشاده إلى الطرق المؤدية إلى مرتبة الإنسان الكامل. فكما صعد وارتفع في المعراج فعليه أن يرتفع بهم روحيا وأن يحقق لهم معراجًا معنويًا وروحيًا في أعماق قلوبهم، حتى ولو كانت هذه الأمة في ضلال بين وفي انحراف كبير عن الحق، فالله تعالى إن شاء جعل من الفحم ماسًا ومن التراب ذهبًا وتبرًا.. بل فعل ذلك فأخرج من هذه الأمة التي كانت قلوبهم سوداء كالفحم أمة بقلوب من ماس إلى درجة أن ذلك النسل الذهبي الذي رباهم الرسول ﷺ لا يزالون يبهرون الأنظار.. هذا هو الفضل الإلهي الذي تم بوساطة النبي ﷺ. لذا، يمكن القول بأن الرسول ﷺ هو الإنسان الذروة الذي استطاع أن يعلو بالبشرية إلى المستوى اللائق بالإنسان.

وبعده فإن أي إنسان عندما كان يقترب من الله تعالى بجناح الولاية أو البر والتقوى كان يرى في أماكن القرب منه تعالى ألوية محمد ﷺ وهي تتموج هناك، وما خطا أحدهم خطوة في مدارج الرقي إلا رأى آثار أقدامه ﷺ.

من الخطأ أن نظن أن تربية رسول الله ﷺ اقتصرت على تزكية النفوس، إذ أنه أتى بنظام شامل للتربية يخاطب العقل والروح والقلب. والحقائق القرآنية الشاملة تفعل الشيء نفسه. فالرسول ﷺ يخاطب العقل ويحضه ويشوقه، ويصل بهذا العقل ذي البعد الوحيي إلى الحد

النهائي للعقول. ثم يتناول الروح ليسمو به إلى مراتب أعلى بكثير من المراتب التي يستطيع أن يصل إليها أي متخصص في التربية، ويأخذ بالقلب إلى العوالم التي يشتاق إليها ويهفو.. ثم يتناول مشاعر الإنسان ولطائفه الأخرى ليرتفع بها أيضًا إلى عوالم يتعثر فيها الخيال.. وبعد أن ارتفع بأرواح وعقول وقلوب تلاميذه وطلابه فتح أمامهم أبواب المؤسسات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والعسكرية والسياسية، لأنه أتى برسالة تستطيع أن تربي فتحصل على أفضل رجال الإدارة والاقتصاد والسياسة، وعلى أكمل القواد العسكريين... أجل، لقد جاء رسول الله ﷺ برسالة شاملة فيها الاقتصاد والمال والإدارة والتعليم والتربية وفيها أحكام العدل والقوانين الدولية... الخ. والخلاصة أنه أتى برسالة تحتضن كل ضرورات التقدم، ذلك لأنه لو كان هناك أي نقص في أي ناحية من نواحي رسالته لما تحققت الغاية من إرساله، بينما يقول النبي ﷺ في حديث له:

«إن مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين.»[1]

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة:٣). أي أن جميع الأنبياء والأصفياء والأولياء كانوا يقولون: متى يتم هذا البنيان؟ فأنا أرسلتك نبيًا كاملاً لتكملة هذا البنيان، وكما رضيت لكم هذا الدين فقد أقمته على الأسس التي يرضى الناس عنها.

أجل، لقد جاء النبي ﷺ لتكملة النواقص، والذين يحاولون البحث والتفتيش عن نقص في رسالته، عليهم أولاً أن يبحثوا عن الثغرات الموجودة في عقولهم وفي قلوبهم.. لقد قام النبي ﷺ بمهمة التتمة والتكملة وبمهمة الإصلاح والبلوغ إلى الكمال... كان عليه تعديل كل عوج. وإصلاح كل نقص، وتكملة كل قصور.. وقد أنجز هذا وأتمه. نستطيع أن نشاهد عظمة أي شخص مرب في المسائل الآتية:

أ. السموّ بالروح والنفس والعقل

الأول هو السمو بروح الإنسان ونفسه وعقله، والبلوغ بها إلى أعلى نقطة يمكن الوصول إليها. والتأريخ يشهد أن الرسول ﷺ استطاع أن يحقق هذا في طلابه وفي المنتسبين إليه بعون من الله تعالى..

---

[1] البخاري، المناقب ١٨؛ مسلم، الفضائل ٢٠-٢٣؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٥٧، ٣٩٨.

يأتي ذكر النفس الأمّارة في القرآن الكريم... هذه النفس التي تضع العراقيل والعثرات أمام سمو الإنسان وتحاول الضغط عليه للحيلولة دون هذا السمو. فبدلاً من إنسان حقيقي مشتاق إلى عالم الروح، تجعله إنسانًا يهتم بمتطلبات جسده فقط. وقد التجأ سيدنا يوسف عليه السلام إلى الله تعالى من هذه النفس ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف:٥٣). إن النفس بطبيعتها أمّارة بالسوء، إلا أنه من الممكن التخلص من الوقوع في بئرها العميقة عمق بحيرة لوط، والارتفاع مرحلة فمرحلة إلى أعلى وإلى الذروة، والقرآن يشير إلى أوضاع النفس هذه إذ يقول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر:٢٧-٢٨).

كما يشير القرآن إلى حالة تتحول فيها النفس من النفس الأمّارة بالسوء إلى "النفس اللوّامة"، أي النفس التي تحاسب نفسها. ولأنه يعد هذه النفس مرتبة معينة، فإنه يقسم بها و﴿لاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة:٢).

ثم هناك "النفس الصافية" وهي صفة النفس لدى المقربين، وأصحاب هذه الصفة تتجلى فيهم الشفافية والنقاء والصفاء إلى درجة أن الذين يشاهدونهم يتذكرون الله تعالى. وكانت نفس محمد ﷺ من هذا النوع. كما استطاع تحويل العديد من أصحاب القابليات وأصحاب الكفاءات إلى هذه المرتبة بدرجات مختلفة كل حسب قابليته واستعداده. لقد استطاع الرسول ﷺ -بعون الله- بالتربية المستمرة للنفس وتزكيتها إيصالها إلى أعلى هدف تستطيع النفس الإنسانية بلوغه. وهذا يبرهن على أنه كان مربيًا لا مثيل ولا نظير له. وعندما نتفحص عهده نرى أنه لم يدع أي ثغرة تربوية في موضوع السمو بالعقل والنفس والارتفاع بهما إلى الذروة.

ب. كون دعوته عالمية

والثاني هو أن نجاح المربي وكماله يقاس بمدى عالمية وشمول دعوته وبالأبعاد الكمية والنوعية لمنتسبيه، فقد قام المعلمون والمرشدون الذين رباهم في حياته بنشر الحق في مناطق واسعة شاسعة ما بين مَراكَش ونهر أمودَريا القريب من بخارى، وتأملوا كيف أن المربي الوحيد في تلك المساحة الشاسعة من البلدان آنذاك لم يكن سوى النبي ﷺ، وكان النظام الذي أتى به نظامًا شافيًا ووافيًا لمشاكل مختلف الأقوام والجماعات التي كانت تموج بها هذه المنطقة الشاسعة.

فكل من الإيراني والتركي والصيني.. الخ على اختلاف أمزجتهم ومشاربهم وثقافاتهم كانوا يهرعون إليه ويتقبلونه هو وكل ما أتى به. إذن، فإن نظم التربية التي جاء بها نظم عالمية تصلح دواء للبشرية كلها. إذن، فإن محمداً ﷺ كان أكثر المربين تأثيرًا في طول

التاريخ وعرضه وأكثرهم مصداقية. ثم إننا نبحث عن مدى عظمة المربين في مدى بقاء وثبات أسس النظم التربوية التي يأتون بها، والآن انظروا إلى الناس الذين يتربون على أسس النظم التربوية التي جاء بها محمد ﷺ قبل كل هذه القرون، فسترون أن الملائكة تغبط معظم هؤلاء في أخلاقهم. وإن نظم تربيته لا تزال تربي الأجيال حتى الآن.

والآن لنفكر ولنتأمل: لقد ظهر النبي ﷺ في أمة بدوية متخلفة بل متوحشة وبدائية، ولكنه استطاع أن يربي من هذه الأمة طوال عصور وعصور قادة أطهاراً قادوا الإنسانية إلى الخير. إذن، فإن الرسالة التي جاء بها كانت رسالة كافية لإنقاذ البشرية بنفحة واحدة منها. وأنا شخصيا لا أحب تصوير الباطل، ولكني لا أملك نفسي من عرض بعض المناظر التي تبين مدى فساد المجتمع في العهد الذي ظهر فيه الرسول ﷺ.

لقد ظهر في مجتمع تغلغلت فيه الوحشية إلى نفوس أفراده وأصبحت طبيعة فيهم: كانوا يشربون الخمر ويلعبون القمار ويقترفون الزنا علنا، ولم يكونوا يعدون هذه الفواحش شيئًا معيبًا. انتشر الزنا حتى أصبح علنيا، فقد خصصوا بيوتاً للدعارة ونصبوا أمامها الأعلام..[1] كانت الفواحش منتشرة بشكل يجعل الإنسان يخجل من إنسانيته... ولو لا الحياء لذكرت أمورًا أخرى. ثم إن هؤلاء القوم كانوا من النوع الذي لا يتورعون عن إثارة المشاكل الكبيرة والمنازعات الخطيرة لأسباب تافهة، وكان من المستحيل تقريبًا جمعهم على صعيد واحد ومزجهم بعضهم مع بعض وتأليف قلوبهم، فقد سادت الفرقة والشحناء في أرجاء شبه الجزيزة العربية إلى درجة بدت أنها غير قابلة للعلاج.. أجل، فما من سوء إلا وجدته هناك. ولم يكن من الممكن أبدًا لمثل هذا القوم الاستماع إلى النبي ﷺ، ولكنه استطاع أن يسل هذه العادات السيئة منهم واحدة بعد واحدة، ثم زينهم بمزايا وأخلاق عالية بحيث سبقوا الأمم كلها وأصبحوا لها أساتذة ومعلمين.

من هذه الأمة البدوية المتوحشة أنشأ أمة مدنية لا تستطيع الأمم المدنية حتى في عصرنا الحالي بلوغ كعبها، لذا يقول "موليير ((Molière" بحقٍّ "يستحيل أن توجد جماعة أخرى مستعصية على العلاج مثل جماعة نبي الإسلام. والاستحالة الثانية هي القيام بإصلاح مثل هذه الجماعة في وقت قصير جدًّا لا يتجاوز ٢٣ عامًا ورفعها إلى مصاف الإنسانية، ولم يتيسر هذا إلا لمحمد ﷺ ".

ويقول مفكر غربي آخر: "لقد استطاعت البشرية أن تقطع ٢٥% من التقدم المقدر لها

---

[1] البخاري، النكاح ٣٦؛ أبو داود، الطلاق ٣٣.

من يوم ميلادها وحتى عهد محمد ﷺ، أما في عهده فقد ازدادت هذه النسبة بشكل عمودي وأصبحت ٥٠% وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة منذ عهده حتى الآن فإن النسبة ارتفعت إلى ٧٥% فقط."

ومعنى هذا الاعتراف المخلص أن الثمار الناتجة من جهود جميع الأنبياء والفلاسفة وكبار رجال العلم والدولة والسياسة وصل إلى مثلها الرسول ﷺ في مدى ثلاثة وعشرين عامًا فقط، وأنه رغم جميع التقدم التقني والعلمي الحاصل منذ أربعة عشر قرنًا فإن البشرية لم تستطع سوى إنجاز نفس النسبة التي استطاع الرسول ﷺ من إنجازها في حياته وهي نسبة ٢٥%، أما نسبة ٢٥% الباقية فستحصل عليها البشرية فيما بعد ضمن عمرها الباقي... هذا هو محمد ﷺ، وهذه هي خدماته للبشرية التي تنعكس في القلوب والضمائر الحية. وتقول "الموسوعة البريطانية" في هذا الخصوص: "لقد جاء مصلحون كثيرون في تأريخ البشرية كان من بينهم أنبياء استطاعوا إنجاز بعض النجاح، غير أننا لا نشاهد عند أي أحد منهم النجاح الذي سجله محمد."

ويقول الباحث "وهل" وهو من المنصفين: "لقد ترك كل رجل عظيم أثراً وراءه. أثر للنبي، وأثر للمصلح وأثر للمجدد وأثر لرجل الدولة العظيم. وقد ترك محمد ﷺ أيضاً أثرًا بعده. وهذا الأثر عظيم إلى درجة أننا إن ذكرنا "الأثر" تبادر إلى الذهن أثره هو وحده، وهو أثر عظيم إلى درجة لا يمكن مقارنته مع الآخرين." وهذا الباحث رجلُ علمٍ أيضاً وقد حصل على جوائز علمية، إذن، فالصديق يعترف، والعدو يعترف أيضاً ولا أدري ماذا يقول بعض الجهلاء عندنا.

يُعَرِّفُ الله تعالى نفسه إلينا فيقول: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ (الأنعام:٩٥). فكأن الله تعالى يسري عن رسوله محمد ﷺ بعرض صفاته المدهشة هذه عليه. فكأنه أعطى لرسوله ﷺ التراب والحجر والمعدن في تلك الصحراء الموحشة وبين البدويين المتخلفين لكي يصنع منهم رجالاً من الذهب الخالص من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد وعُقبة بن نافع وطارق بن زياد ﷺ أجمعين حتى يوم القيامة.

عندما ظهر سيدنا محمد ﷺ بنبوته وبرسالته في ذلك المجتمع وتعرف على معاصريه، كان لمعاصريه هؤلاء استعداداتهم وقابلياتهم القلبية والروحية والعقلية الخاصة بهم، فلم يحاول النبي ﷺ طمس هذه القابليات وإضعافها، بل استغلها وحركها وقواها وجعل منها

قوة عظيمة وطاقة كبيرة. ويقدم أحد المفكرين الكبار[1] أنموذج عمر ﷺ قبل الإسلام وعمر بعد الإسلام... فعمر قبل الإسلام شخص جبار مهيب يملك الاستعداد لأن يكون رجلاً عظيمًا. وقيامه في مراحل طفولته بالتسابق مع هذا أو ذاك وليّ أعناق الإبل وصرعها قد يكون إشارة إلى بذرة نفسه.. أما عمر بعد الإسلام فهو الإنسان الرقيق الحساس الذي يحذر من أن تطأ قدمه نملة، وكان إحساسه المرهف وشفقته إلى درجة جعلته يقول: "والله لو مات جمل ضياعًا على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه."[2] وهكذا بلغ عمر وأمثاله إلى مستوى فوق مستوى البشر، وذلك بالتربية التي تلقوها عن الرسول ﷺ...

أجل، فقد استطاع الرسول ﷺ أن يربي أمثال هؤلاء الرجال من بين أولئك البدو المتخلفين الملتزمين بعاداتهم وعنجهياتهم بتعصب لا مثيل له. والآن لنشرح هذا الموضوع بمثال صغير شرحًا مختصرًا: تحاول الدولة بكل وسائلها ووسائطها وإمكانياتها مكافحة عادة التدخين -التي تعد عادة بسيطة- فلا تستطيع ذلك، بل لا تستطيع مجرد خفض نسبة التدخين -المستمرة في التصاعد- إلى نسبة معقولة. ولا تعجز دولتنا فقط في هذا الموضوع، بل تعجز كل دول العالم، هذا بالرغم من كل المحاضرات وكل المقالات وكل الندوات التي تعقدها لمكافحة هذه العادة. ومع أن العلم وعالم الطب يصرحان بأن التدخين يؤدي إلى الإصابة بسرطان الحنجرة والرئة وسقف الفم، ومع أن الإحصاءات تقول إن نسبة الإصابة بهذه الأمراض نسبة كبيرة قد تبلغ ٩٥% إلا أن كل هذه الجهود وهذه المعلومات والإحصاءات لا تفيد في مكافحة عادة التدخين. إلا أن أهل ذلك العهد كانت لهم عشرات العادات الضارة التي تشربتها نفوسهم واختلطت مع دمائهم فأصبحت أقوى بكثير من عادة التدخين، ولكن رسول الله ﷺ استطاع بنفحة واحدة أن يزيل هذه العادات الضارة. وأن يزينهم بدلاً منها بعادات جميلة وبخلق حسن وبخصال حميدة إلى درجة كانت ملائكة السماء تغبطهم عليها وتتعجب فتقول: "عجباً! هؤلاء ليسوا ملائكة.. ولكنهم أفضل منها." وفي يوم الحشر عندما تكاد أنوار هؤلاء تطفئ نار جهنم ستذهل الملائكة وتقول: من هؤلاء؟ أهم من الأنبياء أم من الملائكة..؟[3] إنهم ليسوا بأنبياء ولا ملائكة ولكنهم أفراد من أمة محمد ﷺ نشأوا على تربيته وتربوا على مبادئه.

---

[1] المقصود هو الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. (المترجم)

[2] تاريخ الأمم والملوك للطبري ١٩٥/٥؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٥٣/١؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٠٥/٣.

[3] مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٦٠/١٠.

كان عبد الله بن مسعود ﷺ يرعى غنم عُقبة بن أبي مُعيط،[1] فأخذه النبي ﷺ وجعله من أصحابه ومن تلاميذه وجعل منه مرشداً كبيراً بحيث يمكن القول إنه صاحب مدرسة الكوفة.. هذه المدرسة التي خرجت علماء أمثال علقمة وحمّاد والثوري وأبي حنيفة حيث كان كل منهم قمة في ساحة علمه وقد استقوا معظم مصادر علومهم من ابن مسعود ﷺ الذي كان في الجاهلية راعي إبل وغنم... وهكذا جعل رسول الله ﷺ من راعي الغنم مثل هذا الشخص العبقري.

هناك بعض علماء الإسلام الذين أصبحوا موضوعًا للدراسة من قبل علماء الغرب منذ سنوات وكتبت حولهم مجلدات عديدة.. أحد هؤلاء العلماء هو أبو حنيفة ﷺ الذي يعد "سولون" و"حَمّورابي" في مرتبة تلاميذه حسب رأى أحد المفكرين... بينما يُعد هذا الرجل العظيم أي أبو حنيفة تلميذ تلميذ تلميذ ابن مسعود راعي الغنم وتلميذ رسول الله ﷺ... وأنا لا أريد هنا التهوين من شأن أبي حنيفة حاشا لله ولكني أريد بيان عظمة أستاذهم. أجل، فبفضل تربية الرسول ﷺ وتنشئته ظهر هؤلاء العظام بعد أن لم يكونوا شيئًا يذكر.. فقد تم إخراج الحي من الميت، وجعل الفحم ماسًا.

وبفضل التربية نفسها استطاع عبد بربري، أن يعبر برج هرقل وأن يغير اسمه لكي يقول لأهالي بلاد ما وراء البحار ما لم يسمعوه من قبل، ويعرض أمامهم ما عجزت عقولهم عن إدراكه... فأوروبا قبل تعرفها بالإسلام ما كانت لتعرف معنى الرغبة في الشهادة واستحقار الحياة واستصغارها والشوق إلى الموت وإلى الشهادة، لذا فإنها لم تفهم كيف يقوم طارق بن زياد ومعه اثنا عشر ألف مقاتل بحرق سفنه والالتحام في قتال ضارٍ مع (٩٠-١٠٠) ألف من جيش أعدائه الإسبان والاستمرار في القتال حتى في أقسى الأحوال وأكثرها مدعاة للتشاؤم واليأس... لقد ذهلت منه... ذهلت من هذا الشخص الذي يحارب جيشًا يبلغ تقريبًا تسعة أضعاف جيشه ويجمع جيشه ليقول لهم:

"أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام."

والتأريخ يقول لنا إن القتال لم يستمر سوى عدة ساعات انتصر بعدها جيش طارق انتصاراً كبيراً على أعدائهم.. ولم يلبث طارق إلا وكان في قصر طُلَيطُلة / توليدو (Toledo) حيث توجد فيه خزائن الملك الإسباني.. إذن، فانظر إلى حال هذا القائد الذي كان من قبل

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٣٧٩/١؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٠/٣.

عبداً... انظروا إليه لكي تدركوا ما يفعله الإسلام عندما ينفخ معانيه في القلوب وفي النفوس.. لقد وضع طارق قدمه على خزائن الملك قائلاً: "يا طارق! لقد كنت من قبل عبدًا، فأعتقك الله وجعلك قائداً، ونصرك ففتحت الأندلس وأنت الآن في قصر الملك، ولكن لا تنس فغدًا ستكون بين يدي الله."

يا سبحان الله..! ما هذا الفهم العميق!! المعتاد هنا أن الشخص الوضيع عندما يصل إلى القمة يحمل معه عقدة النقص فيتظاهر بالكبرياء وبالغرور ويكون دائم الفخر بنفسه ودائم الحديث عنها إلى الناس. هذا ما نراه لدى الذين تسلطوا على رقاب الأمة. ما هذه التربية المذهلة التي جعلت من عبد شخصًا عزيز النفس كريمها، وجعلت منه إنسانًا يراقب نفسه ويحاسبها بدلاً من الوقوع في خلق الخسة كما كان منتظراً من غيره في مثل هذه المواقف.

ومن الذين نشأوا في ظلال تربيته عُقبة بن نافع الذي فتح إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها. وعندما بلغ المحيط الأطلسي خاض بجواده البحر حتى الركبة قائلاً: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدًا في سبيلك."[١] ويتناول الشاعر التركي "عبد الحق حامد" هذا الموضوع في مسرحيته "طارق بن زياد" فيقول: "لا أدري أهذا القول من عُقبة بن نافع أسمى أم قول الملائكة في السماء؟"[٢] أجل، هذا هو عُقبة بن نافع... تلميذ من تلاميذ محمد ﷺ.

لقد كان ﷺ يتناول الإنسان من جميع جوانبه العقلية منها والقلبية والروحية والوجدانية دون أن يهمل أو يطمس أي قوة منها، بل نشطها جميعًا وحركها كلها فأخرج من أفسد الناس أفضل الناس. وتسجيله كل هذا النجاح وكل هذا التوفيق في التوجيه وتربيته القابليات وبهذا القدر من الإصابة ومن التفوق دليل آخر من أدلة نبوته، ولا يمكن تقديم أي تفسير آخر في هذا الصدد، لأنه لم يعرف الإحباط أو الفشل أو الإخفاق في أيّ من هذه الجوانب.

ج. الحركة والعمل

يقول الرسول ﷺ في حديث له عن العمل والنشاط يحتاج إلى التأمل والتفكير: «إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف.»[٣] ولم يكن بالإمكان قول غير هذا لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:١٠٥). أي إن عملكم سوف يقيم حسب مقياس ومعيار معين. وهذه الأعمال بأجمعها سوف تشهر وتعرض يوم

---

[١] الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١٠٦/٤.
[٢] "طارق" لعبد الحق حامد طرخان (باللغة التركية).
[٣] فيض القدير للمناوي، ٢٩٠/٢.

القيامة أمام الأنظار حيث يأتي الناس ويشاهدونها ويدققونها: أتُعد هذه أعمالاً أم لا؟ إذن، فالناس يجب أن يعملوا آخذين هذا بنظر الاعتبار.

ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: «إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.»[١] والآية الكريمة من أهم الآيات التي تحض على العمل، وأنا أعتقد أنها تصلح للكتابة على غلاف كل كتاب. ويشير حديث «إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف» إلى أحد أبعاد هذا العمل. أجل، إن الله تعالى يحب العبد الذي يعمل ويكدح ويتعب في الأعمال التي تسمح بها الشريعة. والرسول ﷺ يقول: «ما أكل أحد طعاما قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود ﷺ كان يأكل من عمل يده.»[٢] ويقول أيضا: «لأن يحتطب أحدكم حُزْمَة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيَه أو يمنعَه.»[٣]

ونستطيع تناول الموضوع في ظلال سورة العصر: ﴿وَالْعَصرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسرٍ ۞ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوا بِالصَّبرِ﴾ (العصر:١-٣).

فالإيمان والعمل الصالح والارتباط بالحق والتواصي بالحق والصبر والتعلق بالصبر والتواصي بالصبر... كل هذه أنواع من العمل والحركة، والله تعالى يحب أصحاب هذه الأعمال. فالعمل والنشاط حسب مفهوم النبي ﷺ وضمن دائرته يعد من أفضل الأعمال وأقربها لنيل رضى الله تعالى، فهو لم يقل أبدًا كونوا كالرهبان واقضوا حياتكم في الصوامع وتجنبوا الزواج وابتعدوا عن الأكل الطيب وعن الشراب، ولا تهتموا بالدنيا بل انبذوها لكي تحصلوا على رضا الله تعالى وتصلوا إليه.

فقد تناول الشهوة الجنسية ووجهها نحو الجهة المشروعة فقال ﷺ: «تزوجوا الودود الولود.»[٤] وفي حديث آخر يقول: «تناكحوا تكثُروا فإني أباهي بكم الأمم.»[٥] أي كلما كثرتم فرحت وسعدت بذلك وعندما أنظر إلى خلفي فأرى الجموع الكثيرة وهي تركع وتسجد وتكبر وتهلل بخشوع فإن فرحي يزداد. فلم يحاول الرسول ﷺ تحجيم الغريزة الجنسية أو تحريفها أو حبسها، ولم يسلك أي طريق يؤدي بالإنسان للإصابة بالعقد النفسية من جرّاء كبتها. فقد أدار هذه الغريزة وصبها في مسار مشروع ووضع الطرق التي توصل

---

[١] كنز العمال للهندي، ٣/٩٠٧.

[٢] البخاري، البيوع ١٥؛ ابن ماجه، التجارات ١.

[٣] البخاري، الزكاة ٥٠، ٥٣، البيوع ١٥؛ الترمذي، الزكاة ٣٨؛ النسائي، الزكاة ٨٥؛ المسند للإمام أحمد، ١/١٣٤.

[٤] أبو داود، النكاح ٣؛ النسائي، النكاح ١١؛ المسند للإمام أحمد، ٣/١٥٨، ٢٤٥.

[٥] فيض القدير للمناوي، ٣/٢٦٩.

الأمة الإسلامية من خلالها للحصول على رضا الله تعالى، فتربيته هي توجيه الفطرة والطبيعة البشرية نحو الاتجاهات التي تحقق الغاية من الخلق.

د. التجارة والزراعة والجهاد

ليس هناك مثيل له ولا شبيه في موضوع موازنة الأشياء. ففي حديث شريف يقول ﷺ: «إذا تبايعتم بالعِينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم.»[1] والتبايع بالعينة هي قيام شخص بشراء بضاعة من شخص آخر عن طريق الدين ثم بيعه له بسعر أرخص. هذا هو أحد تعاريف هذا البيع وهو يكفي هنا.

وسواء عدّ هذا البيع صورة من صور الربا المخفي أو شيئًا آخر فإن صاحب الشرع لا يرضى به. وأنا أعتقد بأننا لم نعرف المعنى الحقيقي لهذا الحديث إلا بعد الثورة الصناعية إن كنا قد فهمناه بحق.. كنا قد نسينا الجهاد، وعندما نوينا التوجه للصناعة لم نحسن موازنة الأمور فأهملنا الزراعة وتربية الحيوانات.

علمًا بأن الرسول ﷺ كان يخبرنا -وقبل أربعة عشر قرنًا- بما يجب علينا فعله. فقد كان متوازنًا في هذا الأمر مثلما هو متوازن في جميع الأمور الأخرى. طبعا يجب أن تكون هناك زراعة وتربية حيوانات. والدليل على هذا وجود أحاديث شريفة تحض على هذا... ولكننا نخطئ عندما نقصر كل جهودنا في هذين المجالين فقط.

وهذا يشمل من يترك المدينة لكي يقضي حياة هادئة على قمة جبل ويبقى هناك وحده ليستغرق في تأملاته، ويشمل كذلك المزارع ومربي الحيوان الفاقدين للنشاط والحيوية في مهنتهما... إذن، فهذا الحديث الشامل يعلمنا درسًا مهمًا في الاقتصاد، كما يقول لنا: إنكم إن تركتم الجهاد، أو لم تمتلكوا القوة التي تؤهلكم لأن تأخذوا مكانكم اللائق ضمن التوازن الدولي فإن الله تعالى سيرسل عليكم ذُلاً لا يزول بسهولة.. إذ ستبقون تحت الاحتلال وتحت القهر والظلم إلى أن تعودوا إلى الإسلام وتحيوا حياة إسلامية.. وهذا المعنى غيض من فيض، فلرسول الله ﷺ أحاديث أخرى عديدة حول هذا الموضوع، ولكننا نكتفي هنا بهذا الحديث. وكما أن الرسول ﷺ لم يحدد القابليات والمهارات والاستعدادات ولم يضيق عليها، فإنه لم ينظر إلى القوة البدنية نظرة تحقير واستهانة،

---

[1] أبو داود، البيوع ٥٤؛ المسند للإمام أحمد، ٨٤/٢.

على العكس من هذا فقد قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.»[1]

والذين يريدون أن يكونوا محبوبين من قبل الله تعالى عليهم أن يكونوا أقوياء في أبدانهم وأقوياء في قلوبهم. أي يكونوا أقوياء في الروح بجانب القوة الجسدية. وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ لا يقول لنا: صوموا لكي تضعفوا، واضعفوا بدنيا لكي تحصلوا على رضا الله وقبوله. بل يحارب الرهبانية بقوانين الفطرة الإلهية ويوجهنا إلى هذه القوانين.

هـ. ملاحظة حول العلم

إن ما أتى به النبي ﷺ لساحة العلم وما أكسبه للعلم وللحياة الفكرية يعد من مظاهر رسالته العالمية الشاملة. يهتم القرآن بالعلم ويحض الناس جميعًا لاكتسابه فيقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:٩). فيجعل للذين يعلمون مرتبة أسمى من الذين لا يعلمون. ويقول في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨).

فالعلماء الذين هم أقرب إلى معرفة عظمة الله تعالى هم الذين يخشونه حق الخشية. (وهناك قراءة شاذة تسند إلى أبي حنيفة يقرأ فيها لفظ الجلالة مرفوعًا ويكون المعنى آنذاك: "إن الله يُقَدِّرُ من عباده العلماء فقط" ولا شك أن هذا التقدير هو بشكل يناسب الذات الإلهية المنزهة. ولكن القراءة كما قلنا قراءة شاذة[2] ولكنها من ناحية معناها جديرة بالوقوف عندها أيضًا).

عندما يقوم فخر الدين الرازي بتحليل موضوع متعلق بالعلم يتنبه إلى نكتة لطيفة جدًّا فيقول: "إن المذاهب الثلاثة خارج المذهب المالكي تعد الكلب نجسًا عينًا"، أي أن الكلب نجس بأجمعه فلا يصح وجوده في البيوت، ولكن إن كان الكلب "كلبًا معلَّمًا"، أي تم تعليمه وتدريبه على الصيد أو على حراسة الغنم عند ذلك يتغير الوضع. حيث يصح أكل الصيد الذي يمسكه بفمه ويأتي به، وتعد الأماكن التي يتجول فيها ويتمسح بها أماكن نظيفة، ولا يكون هناك بأس من وجوده في البيوت."

هنا يقف الإمام فخر الدين الرازي هُنيهة ليقول: "إذا كان الكلب يتخلص من نجاسته نتيجة لتعلمه الصيد بل يصبح كأحد أفراد العائلة فما بالك بالإنسان العالم وإلى أي ذروة يستطيع هذا الإنسان العالم أن يبلغ؟"

---

[1] مسلم، القدر ٣٤؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٠.

[2] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٢٢٠/١٤؛ روح المعاني للآلوسي، ١٩١/٢٢؛ تفسير النسفي للنسفي، ٣٤٠/٣؛ الكشاف للزمخشري، ٣٠٨/٣.

هذه هي وجهة نظر الشريعة.. وهذه هي الرسالة التي أتى بها محمد ﷺ. فالذين لا يعرفون الله جهلاء والذين يعرفون الله وينقادون له علماء. وحسب منطق الشريعة لا تطلق كلمة "العلماء" على الذين لا يعرفون الله ورسوله. أما الذين يعرفون الله تعالى ورسوله فهم "علماء" وإن كان نصيبهم من العلوم قليلاً. فإذا أعتبرنا أن كلمة "يخشى" في القراءة الشاذة تأتي بمعنى "يحترم" إذن، فالله تعالى بالمعنى اللائق بذاته وبصفاته يحترم من يؤمن بالله وبأنبيائه وكتبه واليوم الآخر وبالحشر والنشر وبالجنة وبجهنم.

وسأكتفي هنا في موضوع الفكر بالحديث النبوي الشريف: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة.»[1] لم ير الغرب شيئًا مثل هذا ولم يصل إلى هذه المرحلة بعد.. إن قمتم بالتفكر وبالتأمل المنظم ساعة واستطعتم التوصل إلى شيء تستطيعون تقديمه لخير الإنسانية، أو لو قمتم بالتفكر والتأمل باسم حياتكم الروحية والقلبية ولصالح حياتكم الأخروية وحياتكم الأبدية بشكل صحيح ومشروع فإن مثل هذا التأمل والتفكير قد يكون خيرًا لك من عبادة سنة، وقد يكون ثوابه أكثر.

لقد ابتعدنا منذ سنوات طويلة عن التأمل والتفكير المنظم وكذلك عن العبادة ذات الأبعاد العميقة.. ابتعدنا أو أُبعِدنا.. ولا يرجع هذا العيب إلى الإسلام، بل إلى المسلمين. فقد فتح رسول الله ﷺ أبواب ونوافذ التفكير على مصاريعها قائلا لنا: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ﴾ (الحجر:٤٦).

وكلما أصبحنا غرباء عن العلم زادت سطحيتنا، وعجزنا عن صيانة مواقفنا في التوازن الدولي أمام الغرب فأصبحت الكلمة كلمتهم وأصبحنا نتلقى الأوامر منهم. ولكني مؤمن بأن هذه الأمة الأصيلة ستنهض يومًا وتشغل المكان اللائق بها بين الأمم.

أجل، لقد جاء رسول الله ﷺ برسالة خلقية وتربوية، ولكنه نجح في تربيته هذه للإنسان حسب استعدادات وقابليات كل فرد ولم يحرف هذه القابليات أو يقف أمامها بل أخذ الإنسان كما هو، مما جذب إليه الناس آنذاك وأصبحت طريقته التربوية هذه قوة دافعة لهم لأنها لم تقف أمام الفطرة الإنسانية ولم تحاربها ولم تناقضها. فكل تعليم من تعاليمه كان عاملاً دافعًا. هذا علمًا بأنه كان يطبق طريقته التربوية في مجتمع لا يعرف أي شيء تقريبًا من الأخلاق أو التربية أو السلوك السليم. وفي الأمثلة التي سأقدمها يظهر لنا بوضوح من أين أخذهم الرسول ﷺ وإلى أين أوصلهم في النهاية.

---

[1] كشف الخفاء للعجلوني، ٣١٠/١.

الفصل الرابع: أمثلة من نظام تربيته وتعليمه ﷺ

أ. موقفه من الأعرابي الذي بال في المسجد

ينقل البخاري ومسلم الحادثة التالية عن أنس بن مالك ﷺ:

بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ مَهْ مَهْ. قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُزرموه[1] دعوه.» فتركوه حتى بال. ثم أن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر. إنما هي لذكر الله ﷻ والصلاة وقراءة القرآن» فأمر الرسول ﷺ رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنّه[2] عليه.[3]

أجل، لقد كان معظمهم في البداية في مثل هذا المستوى من البداوة والتخلف بحيث لا يرون بأسًا من البول في المسجد... من هؤلاء البدو شكل وكون ذلك المجتمع المثالي العظيم.. ومن يدري كم من عظيم أتى من صلب هذا البدوي!

ب. القيمة التي أعطاها للمرأة

انطوت الجاهلية في صفحات الماضي، ولم يعد أحد يذكرها إلا بابتسامة مرة أو بابتسامة هازئة.. أجل، فعندما كانوا يتذكرون عهد الجاهلية كانت المرارة ترتسم على الشفاه وعلى الوجوه. ففى يوم جاء أعرابي من البادية إلى مسجد رسول الله ﷺ وتحدث مع رسول الله ﷺ فكان مما قاله:

يا رسول الله إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي، فلما أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يومًا فاتبعتني، فمررت حتى أتيت بئرًا من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها فرميت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه، يا أبتاه فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف[4] دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء رسول

---

[1] لا تُزرموه: معناه لا تقطعوا. والإزرام القطع. (المترجم)

[2] فشنه: أي فصبه. (المترجم)

[3] البخاري، الوضوء ٥٦-٥٨؛ مسلم، الطهارة ٩٨-١٠٠.

[4] وكف: تقاطر. (المترجم)

الله ﷺ: أحزنت رسول الله ﷺ. فقال له: «كُفَّ،[1] فإنه يسأل عمّا أهمّه» ثم قال له: «أعِدْ عليّ حديثَك» فأعاده، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملك.»[2]

أجل، كان هذا وضع الناس آنذاك.. لم تكن للمرأة حق الحياة، وقد ظهر رسول الله ﷺ من بين مثل هذه الجماعة فقام بإعطاء كل شيء حقه وأعطى للمرأة قيمة كبيرة.. هذه المرأة التي كانت مهانة ومحتقرة من جميع الأطراف حتى من قبل والدها؛ حتى إن النساء كن يخفين البنات عن آبائهن، ومع أن الإحصاء لم يكن معروفًا آنذاك فأنا أعتقد بأن ٥٠% من النساء اللواتي عشن كن من النساء اللواتي أخفين عن أعين آبائهن. ولم يأنف عن عملية القتل والوأد هذا إلا بعض الرجال من ذوي الفطر السليمة مثل أبي بكر ﷺ. وعدا هؤلاء فإن معظم الشباب الذين لم يتعرفوا على الإسلام كانوا من قتلة بناتهم.. في مثل هذا المجتمع ظهر النبي ﷺ ورفع المرأة إلى المستوى اللائق بها.

تأملوا الحادثة التي روتها أمنا عائشة رضي الله عنها ونقلها النسائي وأحمد:

إن فتاة دخلت عليها فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة. قالت: اجلسي حتى يأتي النبي ﷺ. فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته فأرسل إلى أبيها فدعاه فجعل الأمر إليها فقالت: يا رسول الله، قد أجزتُ ما صَنَع أبي ولكن أردتُ أن أَعْلَمَ أَلِلنِّسَاءِ مِنَ الأَمرِ شيءٌ؟[3]

إذن، فالمرأة التي كانت تدفن حية، والمرأة التي كانت مهانة ومحتقرة سابقًا أصبح لها الحق في أن تأتي إلى رسول الله ﷺ وتطالب بحقها بكل حرية وترغب في معرفة عما إذا كان لوالدها الحق في إكراهها على الزواج ممن يريد. ولو أن أحدهم قبل عدة سنوات ذكر بأن هذا سيحدث لما صدقه أحد ولظنوا أن بعقله خللاً.

ج. رجل الاستغناء

يروي الإمام مسلم وابن ماجه وأبو داود عن عوف بن مالك ﷺ: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟» وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! ثم

---

[1] كف: أي أمسك عن تأنيبه ولومه. (المترجم)

[2] الدارمي، المقدمة، ١.

[3] النسائي، النكاح ٣٦؛ المسند للإمام أحمد، ١٣٦/٦.

قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا والصلوات الخمس وتطيعوا (وأسرّ كلمة خفية) وأن لا تسألوا من الناس.» فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه.[1] وأسر الرسول ﷺ جملته الأخيرة حتى لكأنه لا يريد أن يسمعه أحد، والظاهر أنه فعل هذا لكي لا يتسبب في إحراج أي صحابي من أصحابه فقد كان النبي ﷺ حريصًا على ألاّ يخدش مشاعر أحد من أصحابه.

ومرت السنوات وافتقر العديد من هؤلاء ولكنهم لم ينسوا عهدهم له لذا، نراهم يبدون اهتمامًا كبيرًا على ألا يسألوا أحدًا شيئاً، حتى أن سوط أحدهم ليسقط وهو على ظهر ناقته أو جواده فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه وينزل من دابته ليلتقط السوط بنفسه.. ويجوز لنا أن نتصور أن هؤلاء الذين بايعوا الرسول ﷺ مثل هذه البيعة لم يطلبوا ولو قدح ماء من أي شخص.

يروي الإمام البخاري في صحيحه والترمذي أن حَكيم بن حِزَام ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثم قال لي: «يا حكيم! إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى» قال حكيم: فقلت: "يا رسول الله! والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا" فكان أبو بكر يدعو حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئًا. ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله فقال: يا معشر المسلمين إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد النبي ﷺ حتى توفي رحمه الله.[2]

د. مقطع من الجاهلية

قام الرسول ﷺ بمحاربة ومكافحة الآلاف من العادات الجاهلية حتى استطاع أن يحول ظلمة الجاهلية إلى نور الإسلام. ولإيضاح هذا الأمر ننقل كلام جعفر بن أبي طالب للنجاشي:

"أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا

---

[1] مسلم، الزكاة ١٠٨؛ أبو داود، الزكاة ٢٧؛ ابن ماجه، الجهاد ٤١.

[2] البخاري، الزكاة ٥٠، الوصايا، ٩؛ الترمذي، القيامة ٢٩.

منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ونخلَع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الأرحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء؛ ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. -فعدّد عليه أمور الإسلام- فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله فلم نشرك به شيئًا وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدَا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى؛ وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على ما سواك؛ ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلَم عندك أيها الملك."[1]

وهذا يشير كيف أن العالم كان في ظلام حالك قبل بعثة محمد ﷺ، وكيف أن المجتمع الجاهلي كان يسبح في لجة من الفساد والفواحش.. فالزنا فيه حلال، والسرقة فيه شجاعة وبطولة.. يندر فيه من لم يدمن على الخمر... في هذا المجتمع الفاسد الوحشي استطاع الرسول ﷺ أن يقتلع كل هذا الفساد من النفوس وأن يزينها بالأخلاق العالية وبالفضائل السامية، وبأرفع المزايا الإنسانية.. أي أنه حقق في الواقع العملي "المدينة الفاضلة" التي حلم بها أفلاطون في جمهوريته وحلم بها "توماس مور" وغيرهما من المفكرين.

علماً بأن إخراج جماعة من حياة الفساد والبدائية والتوحش وجعلها مرشدة للإنسانية إلى طريق المدنية والفضيلة ليس إلا إخراج هذه الجماعة من الظلمات إلى النور. وقد استطاع الرسول ﷺ تحقيق هذه المعجزة فبرهن على أنه رجل الإعجاز.

ونحن الذين نعجز عن تبديل خصلة واحدة من الخصال التي تشربت بها نفوس من نعيش معهم عمرًا نقف باحترام وخشوع أمام محمد ﷺ ونشهد أنه رسول الله بحق وبصدق.

ولقد حاولت بنفسي ولم أستطع إقناع أقرب الناس إلي بنظام التربية المثلى التي وضعتها والتي استلهمتها طبعاً من رسولنا ﷺ تمام الإقناع.. دعوت إلى الفضيلة حتى تعبت، ولكني لم أستطع حمل الناس عليها. إذن، فما أعظم تلك المقدرة وما أكبر تلك القوة التي كان يملكها الرسول ﷺ بحيث استطاع تحويل الناس من الحياة البدائية والمتوحشة إلى المدنية، ومن الدناءة إلى السمو بل جعل من رجال الجاهلية معلمين ومرشدين للأمم المتمدنة. وأنا أرى أن أناسًا مثلي يعجزون عن إسماع كلامهم إلى ثلاثة أو أربعة أشخاص في أسرته هم الذين يقدرون تمام

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٥٩/١-٣٦٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢٠١/١-٢٠٢.

التقدير ما قام به الرسول ﷺ حيث نقل أمة بكاملها من وهدتها وسما بها وصب في روحها إلهام قلبه... بشرط واحد وهو أن لا يتعثر هؤلاء بموانع العناد والتعصب.

اتصل عهده وعهد أصحابه بشعوب إيران وبالشعوب التركية... كانت إيران تحت تأثير ثقافة أخرى، وكانت طوران والشعوب التركية تحت ثقافة أخرى مختلفة وكذلك الرومان، ولكن الرسالة التي أتى بها الرسول ﷺ لاءمت كل هذه الشعوب وكأنها فصلت خصيصًا لكل منها... وهنا تكمن المعجزة... أجل، إنها لمعجزة كبرى أن يأخذ الكرة الأرضية بين يديه ويطبق رسالته في كل أرجائها، وهي من دلائل نبوته ورسالته، أي أنه رسول الله.. وهذا ما أردنا قوله على الدوام.

قد لا يستطيع الشخص أن يكتشف بدهائه ويعرف عصره، فمثلاً يجوز أن "الإسكندر" قد أدرك عصره بمقياس معين، وقد يكون "قيصر" قد اجتاز وتقدم على عصره، ويجوز أن نابوليون أدرك عصره وفهمه... وهكذا. ولكن أن يفهم إنسان العصور التي ستأتي بعده والأمم والشعوب العديدة والمختلفة وأن تكون رسالته ملائمة لجميع هذه الشعوب وهذه الأمم ومقبولة من قبلها جميعًا أمر خاص برسولنا ﷺ، ولا نملك إلا أن نقول إن هذه معجزة، فليست هناك كلمة غيرها يمكن أن تصف هذا النجاح.. لقد وجد "آلب آرسلان" الذي عاش بعد رسول الله محمد ﷺ بأربعة أو خمسة عصور أن رسالته مناسبة وملائمة لروحه ولقلبه فآمن بها من كل قلبه، كما تقبل رسالته فاتح وقائد عظيم مثل محمد الفاتح الذي يُعد من أشهر قواد التاريخ والذي فتح عهدا وأغلق عهدًا[1] تَقَبَّل رسالة النبي ﷺ مثلما تقبلها سلفه، وسار خلفه أيضًا وعلى أثره وفي الخط نفسه مع أنهم كانوا من عظماء التاريخ ودهاته، ولكنهم لم يقصروا في التسليم والتصديق برسالة النبي ﷺ.

ونحن الآن على أبواب القرن الحادي والعشرين، ومرور أربعة عشر قرنًا لم يغير من هذا الأمر شيئا، إذ لم تزل الرسالة التي أتى بها رسول الله ﷺ رسالة يانعة نضرة وغضة تخاطب أرواحنا وقلوبنا وعقولنا، ذلك لأنها آتية ممن يعلم سرنا ونجوانا، وإلا فإن من المستحيل على أي إنسان أن يضع نظامًا يصلح لكل العصور.. فهذا موضوع يفوق طاقة أي إنسان مهما كان ذلك الإنسان من الذكاء والعبقرية.

يمكن أن نجد تفاصيل النظام التربوي الذي أتى به الرسول ﷺ في القرآن والسنة. ولو كان

---

[1] ذلك لان سنة فتح إسطنبول (وهي سنة ١٤٥٣ م) تعد نهاية القرون الوسطى المظلمة في أوروبا وبدء عهد النهضة فيها. (المترجم)

عمل الرسول ﷺ مقتصراً على تبليغ القرآن الكريم للناس وإقناعهم به لكان ذلك عملاً رائعاً، ومع أن القرآن ليس موضوعنا الآن إلا أنني اضطررت إلى الاستطراد في هذا الموضوع.

لقد ظهر سيد المرسلين في مجتمع أمي جاهل لا يعرف المدارس ولا يعرف القراءة والكتابة. وعندما ارتحل إلى الرفيق الأعلى كان أغلب الصحابة يعرفون القراءة والكتابة بدءً ممن بلغ الرشد حديثًا إلى الشيخ الكبير الذي ينتظر دخول القبر، وعندما ننظر إلى عهدنا الحالي بكل الإمكانيات المتوفرة فيه وبالرغم من كل الجهود -حتى الإكراه والضغط أحيانًا- فإن قسمًا كبيرًا من المواطنين لا يعرفون القراءة والكتابة رغم مرور خمس وستين سنة على قبول تركيا للحروف اللاتينية. أما رسول الله ﷺ فقد استطاع في زمن قصير يبلغ نيفًا وعشرين عاماً أن يؤسس الإيمان في النفوس ثم المعرفة ثم علمهم القراءة والكتابة. وأنا أظن أنه عندما ارتحل من هذه الدنيا إلى دار الخلود لم يكن هناك من بين أصحابه من لا يعرف قراءة القرآن الكريم... ليس قراءة القرآن فحسب، بل إن مزارعي المدينة المنورة كانوا يتلون القرآن بقراءاته السبعة أو العشرة وهم يعملون في الحراثة. وكاتب هذه الأسطر لا يعرف وجوه هذه القراءات التي يطلق عليها اسم "علم الوجوه" والذين يعرفونها اليوم أشخاص قليلون.

صحيح أن الناس كانوا أذكياء آنذاك بالفطرة ويمتلكون ذاكرة قوية غير متعبة... غير أن هذا الأمر لا يمكن تفسيره بالذكاء وقوة الذاكرة، بل يمكن تفسيره بالنظام التعليمي الذي جاء به الرسول ﷺ والذي ربط قلوبهم بالقرآن بهذا الشكل المتين.

علمًا بأن هؤلاء الناس كانوا قد فتحوا نوافذ قلوبهم لكل أنواع الشرور والآثام، فاستطاع الرسول ﷺ بإجراءاته المدهشة والرائعة أن يستل منهم كل عاداتهم السيئة وأن يصوغهم صياغة جديدة رائعة. فمثلاً يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء:٢٣). أثرت هذه الآية عليهم إلى درجة أن الذين كانوا يظلمون آباءهم وأمهاتهم أشد الظلم بل حتى يقتلوهم تغيروا فجأة فأصبح أحدهم يسأل الرسول ﷺ عما إذا كان هناك عقاب عليه إن لم يقابل نظرة والده إليه بالابتسامة.

ويقول القرآن الكريم أيضًا: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ (الأنعام:١٥٢، الإسراء:٣٤). فأصبح معظم المسلمين تحت تأثير هذه الآية يراجعون الرسول ﷺ ويسلمونه أموال الأيتام التي بحوزتهم. وإذا دققنا النظر نرى أن الآية لا تقول: "لا تأكلوا مال اليتيم" بل تقول: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ لذا، فإن الصحابة ﷺ بقلوبهم الحساسة كانوا يريدون التخلص من أموال اليتامى الموجودة في ذمتهم بعد أن أبدت الآية الكريمة كل هذه الحساسية في هذا الموضوع... فماذا دهى هؤلاء القوم

الذين كانوا من قبل يأكلون أموال اليتامى ويضمون هذه الأموال إلى أموالهم دون أي تردد... ماذا دهاهم حتى تغيروا هذا التغير وتبدلوا كل هذا التبدل؟!

كان الزنا متشرًا بينهم ومباحا، ولم يكن هناك تقريبًا من يستنكر هذا الإثم في ذلك المجتمع، فإذا بالقرآن الكريم يصرح بعد فترة من نزوله ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ (الإسراء:٣٢). فإذا به يقطع دابر كل العلاقات الآثمة وغير المشروعة... أجل، فلم يحدث سوى حادثتين أو ثلاث حوادث زنا فقط في تلك الفترة.

كان النهب والسرقة من أمارات الشجاعة والبطولة آنذاك فلما نزلت الآية بأمر ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيدِيَهُمَا﴾ (المائدة:٣٨). تبدل كل شيء تبدلاً جذريًا. وأنا لا أعلم سوى وقوع حادثتين أو ثلاث حوادث فقط للسرقة طوال ذلك العهد.[1]

وقال القرآن الكريم لهؤلاء الذين كان القتل أهون شيء عليهم ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾ (الإسراء:٣٣؛ الأنعام:١٥١). فإذا به يقطع دابر جرائم القتل. ولم تحدث طوال ذلك العهد سوى جريمتين إحداهما قيام أحد اليهود بجريمة مقصودة،[2] والأخرى قيام أحد المسلمين بقتل أحد الأشخاص خطأ ودون عمد.[3]

والآن تأملوا... في غضون ثلاث وعشرين سنة من العهد النبوي لا نشاهد سوى حادثة واحدة للزنا اعترف بها صاحبها وحادثة واحدة لقتل يهودي وحادثة واحدة قطعت فيها يد امرأة سارقة... هذه الحوادث المنفردة والنادرة تحدث في مجتمع كان الناس فيه قبل سنوات قليلة يأكلون الميتة ويشربون الدم وكأنهم أفراد من مصاصي الدماء... من هذا المجتمع أخرج النبي ﷺ مجتمعًا كالماء الزلال... ومن هذا المجتمع الملوث والفاسد، ومن هذا الوسط العفن والآسن ربّى النبي ﷺ أشخاصًا أمثال أبي بكر وأبي هريرة وماعز والغامدية وغيرهم وغيرهم فأسس مجتمعًا نظيفًا ونورانيًا... إن لم يكن هذا معجزة فما هي المعجزة إذن؟

ليس في إمكاني استعراض تفاصيل هذا الموضوع العريض والعميق بكل جوانبه، لذا فسأستعرض هنا -إن سمحتم- مبادئ بعض الخصال والأخلاق العالية وإيراد مثال أو مثالين حولها لمعرفة مدى عظمة إجراءات الرسول ﷺ.

---

[1] البخاري، الحدود ١٣؛ مسلم، الحدود ١٠.
[2] البخاري، الديات ٥؛ مسلم، القسامة ١٥، ١٦.
[3] البخاري، الديات ١٠.

هـ. الكرم والإيثار

لم يكن ذلك المجتمع يفكر في شيء عدا مصلحته ومنفعته، حتى في موضوع الكرم الذي أصبح عندهم وسيلة للتفاخر والشهرة وليس من أجل إغاثة الملهوف. أما الإيثار فلم يكن معروفًا بينهم. وكما غيرت رسالة النبي ﷺ أمورًا كثيرة في هذا المجتمع فقد غيرت هذه الناحية أيضا، فطاردت البخل وتبنت خصلة الكرم والإيثار وجعلتهما -ككل شيء- في سبيل الله ورجاء ابتغاء مرضاته فقط.

عن أبي هريرة ﷺ: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود[1] فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال: «من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله! فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني. قال: فعلِّلِيهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأَطفِئِي السراج وأريه أنّا نأكل. فإذا أهوى لياكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه. قال: فقعدوا وأكل الضيف. فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة.» ونزلت آية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر:٩) في حق هذا الصحابي وإثر حادثة هذا الإيثار.[2]

وهكذا ربى النبي ﷺ أصحابه وأمته على خصلة الإيثار؛ فقد علمهم أن الإيمان يستوجب التسليم والتسليم يستوجب التوكل، والتوكل يستوجب سعادة الدنيا والآخرة... أجل، فإن كنت مؤمنا فيجب أن تسلم أمرك لله وتتوكل عليه وتثق به وتستند إليه، عند ذلك ستصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

و. بطولة الخنساء

أبكت الخَنساء الناس كلهم بأبيات رثائها لأخيها صخر... كان ذلك في الجاهلية إذ لم تكن قد عرفت الرسول ﷺ بعد، ولا تعرفت على تعاليمه ولا سمعت شيئًا عن بيان القرآن الكريم ولا تفتحت نفسها وقلبها عليه. فلما عرفت القرآن وسمعت به وأشرب به قلبها تغيرت فجأة... تغيرت إلى درجة أن هذه المرأة التي قالت مئات الأبيات في رثاء أخيها في

---

[1] أي أصابني الجهد وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع. (المترجم)

[2] البخاري، تفسير سورة (٥٩) ٦؛ مسلم، الأشربة، ١٧٢، ١٧٣.

الجاهلية تحملت بصبر خارق استشهاد أربعة من أولادها في معركة القادسية واحدًا إثر واحد... كانت تحس بقلب الأم الملهمة باستشهاد كل ابن لها، وتتلوى في مكانها من الألم ولكنها كفكفت دموعها وقالت بعد أن استشهدوا كلهم: "الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته."[١]

هاكم نوعية التغيير ومدى هذا التغيير الذي أحدثه النبي ﷺ... إنه كمن أخرج النور من الظلمات... وأكرر مرة أخرى وأسأل: إن لم يكن معجزةً تغيير الناس هذا التغيير المذهل في مدة قصيرة فما هي المعجزة؟

ز. الراكب المهاجر

بعد فتح مكة فر عكرمة، وبعد مشقة كبيرة استطاعت زوجته إقناعه بالرجوع... كان من ألد أعداء الرسول ﷺ، ولكنه عندما رجع ودخل على رسول الله ﷺ قام إليه النبي ﷺ ورحب به قائلاً له: «مرحبًا بالراكب المهاجر.»[٢] فتح هذا الترحيب قلبه فعاهد الرسول ﷺ أن يجاهد في سبيل الله. وعندما كان ينتظر الاستشهاد في معركة اليرموك أخبروه باستشهاد ابنه الوحيد "عامر" ومن يدري فقد يكون عكرمة تمثل وجه رسول الله ﷺ ليقول له: ألم أعاهدك على الجهاد؟ فهل وفى الراكب المهاجر بوعده؟

وكيف يمكن أن يكون ابن أبي جهل مهاجرًا وهو الذي صرف حياته كلها في عداء الرسول ﷺ ومحاولة قتله..؟[٣] وهل يمكن أن يكون عنوان الشر مثالاً للخير..؟ أجل، هذا هو ماحدث فعلاً.

لقد كان في الجاهلية رجلاً غنيًا وقويا، يسحق الضعفاء ويظلمهم، ولم يكن للضعفاء من يحميهم ولاسيما النساء إذ لم يكن لهن حتى حق الحياة، لقد كان الأطفال يُقتلون دون سبب.. نعم، كانت هناك بعض القوانين وبعض الأعراف ولكنها كانت تستعمل ضد الضعفاء.. ولا تزال تستعمل هكذا حتى يومنا هذا. من هذا المجتمع البدائي والمتوحش والذي ضاع فيه الحق والعدل استطاع الرسول ﷺ أن يربي جيلاً يمثل أرقى مستويات العدل.

---

[١] أسد الغابة لابن الأثير، ٨٩/٧-٩٠؛ الإصابة لابن حجر، ٢٨٧/٤-٢٨٨.

[٢] الترمذي، الاستئذان ٣٤؛ المستدرك للحاكم، ٢٤١/٣-٢٤٢؛ الإصابة لابن حجر، ٤٩٦/٢؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٨٥/٩.

[٣] انظر: كنز العمال للهندي، ٥٤١/١٣؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٤٤/٩.

ح. الوقّاف عند الحق

عمر بن الخطاب ﷺ هذا الخليفة العظيم الذي كان على رأس دولة تمتد من اليمن حتى نهر "أمودَريا" قرب مدينة بخارى. هذا الخليفة حدث بينه وبين أُبيّ بن كعب خلاف فقال له عمر: اجعل بيني وبينك رجلا، فجعلا بينهما زيد بن ثابت فأتياه فقال عمر: أتيناك لتحكم بيننا، وفي بيته يؤتى الحَكَم. فلما دخلا عليه وسّع له زيد عن صدر فراشه فقال: ها هنا يا أمير المؤمنين. فقال له عمر: هذا أول جَوْرٍ جُزتَ في حكمك. ولكن أجلسُ مع خصمي.[1]

ط. حادثة ماعز ونظام المراقبة الوجدانية

إليكم مقطعًا من حادثة ماعز، وهي حادثة مراقبة وجدانية مدهشة.

جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني. فقال: «ويحك، اِرْجِعْ فاستغفر الله وتب إليه» قال: فرجع غير بعيد. ثم جاء فقال: يا رسول الله! طهرني فقال رسول الله ﷺ: «ويحك، اِرْجِعْ فاستغفر الله وتب إليه» قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله! طهرني فقال النبي ﷺ مثل ذلك. حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «فيم أطهرك؟» فقال: من الزنى. فسأل رسول الله ﷺ: «أبه جنون؟» فأخبر أنه ليس بمجنون. فقال: «أشَرب خمرًا؟» فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أزَنيت؟» فقال: نعم. فأمر به فرجم. وفي رواية أنه عندما مسته الحجارة جال وجزع فبلغ النبي ﷺ فقال: «فهلاً تركتموه.»

قال فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس. فقال: «استغفروا لماعز بن مالك» فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبةِ لو قُسِّمت بين أمة لَوَسِعتهم.»

قال: ثم جاءته امرأة من غامد[2] من الأزد فقالت: يا رسول الله طهرني. فقال: «ويحك، اِرْجِعِي فاستغفري الله وتوبي إليه.» فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك. قال: «وما ذلك؟» قالت إنها حبلى من الزنى. فقال «آنت؟» قالت: نعم. فقال لها: «حتى تضعي ما في بطنك» قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: قد وضعت الغامدية. فقال: «إذن، لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس

---

[1] كنز العمال للهندي، ٨٠٨/٥.

[2] بطن من جهينة. (المترجم)

لـه من يرضعه» فقام رجـل من الأنصار فقال: إليّ رضاعه[1] يا نبي الله. قال فرجمها.

وعند رجمها طفر من دمها على وجه خالد فسبها فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها فقال: «مهلاً يا خالد! فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس[2] لغفر لـه» ثـم أمر بها فصلى عليها ودفنت.[3]

لماذا كانت هذه التوبة بمثل هذه المرتبة؟ ذلك لأن هناك إثمًا ارتكب خفية ولـم يعلم به أحد، ولكنها لـم ترغب أن يبقى حسابها دينًا على رقبتها تؤديه يوم الحساب، بل اعترفت بذنبها وهي تعرف عواقب هذا الاعتراف، إذ ظلت حتى يوم إقامة الحد عليها في خجل من الذنب الذي اقترفته في حق الله وحق المجتمع، وفي عذاب ضمير محرق... أجل، لقد زلت قدمها، ولكنها بحثت في الدِّين عن سبيل لخلاصها.

ليس في الإمكان ذكر كل النظم الأخلاقية التي جاء بها النبي ﷺ، إذ يبلغ عددها المئات، ولـم يتيسر لنا سوى الإشارة إلى البعض منها. ولو كان في مقدورنا تعداد كل هذه القواعد الخلقية لكان من الممكن التوصل إلى معرفة أفضل لما أنجزه النبي ﷺ من أمور تفوق القدرة الإنسانية، ذلك لأن إنسان ذلك العهد كان متصفًا بجميع أضداد هذه القواعد الخلقية، فقام النبي ﷺ باقتلاع هذه المفاسد الخلقية من جهة وتنمية كل الأصول الأخلاقية الحميدة في نفوسهم من جهة ثانية وتجهيزهم بها.

لقد أظهر رسول الله ﷺ معجزة في ميدان التربية أيضًا. إذ وضع أسسًا ومبادئ رئيسة لبعض القواعد التربوية للإنسانية التي لها صفة العمق والشمول وتحتضن الإنسانية كلها في كل عصر وفي كل وقت. وحسب قناعتي الشخصية المتواضعة فإننا إن استطعنا فهم ما تحتويه هذه المبادئ من أفكار عميقة ووصلنا إلى معرفتها بحق لكسبنا مستوى تغبطنا عليه الملائكة، ولكن ما العمل فنحن لا نزال -كما تقول حميدة قطب- في الطريق، حيث يروى أن موسى عليه السلام أظهر لله تعالى حيرته وعجبه قائلاً له: "يا رب! إنني أرى كثيرًا من الناس يمشون في طريقك بعد أن اهتدوا إليك، ولكنهم -ويا للعجب- يغيرون طريقهم ويتوجهون إلى جهات أخرى" فيقول لـه الله تعالى: "يا موسى! إن هؤلاء لـم يتوجهوا نحوي ولـم يجدوني... كانوا أناساً في الطريق وغيروا طرقهم."

---

[1] إنما قاله بعد الفطام وأراد بالرضاعة كفايته وتربيته وسماه رضاعاً مجازاً. (المترجم)

[2] صاحب مكس: أي صاحب جباية وقد أصبح عنواناً للظلم.(المترجم)

[3] مسلم، الحدود، ٢٢، ٢٣؛ أبو داود، الحدود، ٢٤؛ الدارمي، الحدود، ١٧.

(نسأل الله تعالى ألا يجعلنا من الذين يتعثرون في الطريق ويضلون سبيلهم).

أجل، ليس هناك من ضمان، ولا يستطيع أحد أن يضمن عدم انحرافه عند سيره في الطريق إلى الله. كل شيء بيد الله تعالى، لذا نسأله أن يحفظنا من الانحراف ومن الضلال، وألا يدعنا لأنفسنا طرفة عين، وندعوه تعالى أن تتبوأ هذه الأمة المجيدة -التي قل نظيرها في التاريخ- المكانة اللائقة بها بين الأمم.

أجل، عندما تأخذ هذه الأمة مكانها التاريخي اللائق بها فستتوفر أمامنا فرصة أفضل وأكثر إقناعًا وأعلى مستوى لتبليغ الخلق الإسلامي والخلق القرآني. عند ذلك سترى الإنسانية أن ما بحثت عنه في "المدن الفاضلة" كان قد طبق وعيش قبل عصور، وستذهل من هذا الاكتشاف. ونحن نقرأ الآن "جمهورية أفلاطون" ونرى كيف يقترح أفلاطون قيام الفلاسفة بإدارة الدولة... دعوا هذا واعلموا أن هناك عهدًا تمت فيه إدارة الدولة بشكل لا يصل إليه حتى خيال الفلاسفة... هاكم عهد بداية الإسلام، وهناك صفحات مشرقة في تاريخ الدولة العثمانية. فلو شكلت الملائكة دولة في السماء لما استطاعت إلا أن تصل إلى ذلك المستوى.

ولكن إلى أن نقوم بشرح الإسلام بهذا المستوى فستسد الأمم آذانها ولن تستمع إلينا... صحيح قد يسلم أفراد معدودون منها نتيجة تسلل نور القرآن إلى قلوبهم بقوته الذاتية. ولكن لن يحدث إقبال جماعي على الإسلام من قبل هذه الأمم إلا عندما تتبوأ أمتنا الأصيلة هذه مكانتها اللائقة بها بين الأمم وتقوم بتمثيل الإسلام أمام العالم.

ونعود إلى الموضوع الأصلي فنقول إن الرسول ﷺ أحدث انقلابا يحير العقول في ذلك المجتمع الجاهلي الغارق حتى أذقانه في العادات الجاهلية. وهذا الانقلاب كان انقلابا شاملاً يحتضن كل شؤون الحياة.

لقد ظهر العديد من العباقرة في التاريخ الإنساني، ونجح قسم منهم في إحداث بعض التغيير في بعض ساحات الحياة والمجتمع. فمثلاً قد يظهر عبقري في علم الاجتماع فيصل بأتباعه إلى مستوى رفيع في هذا الموضوع، ولكنه لا يستطيع شيئًا في ساحة الاقتصاد مثلا، كما يعجز أن يقدم شيئًا في ساحة التربية وعلم النفس، ويفشل تمامًا في ساحة الروح ولا يستطيع تقديم أي شيء في هذا الأمر. ومثلاً قد يظهر عبقري في علم الاقتصاد وينجح في رفع المستوى الاقتصادي للبلد إلى مستوى معين، ولكنه لا يستطيع تقديم أي شيء لبلده من النواحي الاجتماعية الأخرى، ويعجز عن تقديم شيء حول التربية وحول مراقبة النفس

ومحاسبتها مثلاً. ويظهر غيره في ساحة أخرى وآخر في ميدان مختلف، ولكن لا يستطيع أحد منهم أن يتوصل إلى الكمال بجميع وحداته ومفرداته... ليس هناك من استطاع هذا سوى محمد ﷺ الذي احتضن الحياة كلها وبكل مفرداتها وجوانبها ونقلها إلى الذروة وضمن بقاءها هناك إلى الأبد... أجل، هو ذروة في الاقتصاد... وذروة في الاجتماع... وذروة في القيادة والحرب... وذروة في محاسبة النفس... وذروة في النجاح في دعوة الناس... وذروة في إقامة التوازن بين الدنيا والآخرة... وذروة في النفوذ إلى بواطن الأمور وإلى النفوذ إلى ما وراء الوجود... ذروة في كل شيء. أجل، فليست هناك حاسة إنسانية ضامرة في نظام تربيته، وليس هناك أي شيء تعرض عنده للإهمال... على العكس من ذلك فقد تناول كل شيء ووسع كل شيء ونماه وفتح أمام الإنسان طرق الرقي والكمال، وبمعونة الله وفضله استطاع أن يربي في كل ساحة وفي كل ميدان أفضل النماذج الإنسانية.

الفصل الخامس: الجوّ الذي صنعه الرسول ﷺ والعباقرة الذيـــن نشأوا في جـــوّه المعنوي

كان الرسول ﷺ يعرف الأيام المقبلة مثلما يعرف يومه، بل مثلما يعرف راحة يده، وكان هذا كيفية خاصة به. فالرسول ﷺ كان يضع دساتير جديدة تبقى نضرة يانعة رغم تقدم الزمان... يشيخ الزمان ولكن يتجدد شباب هذه الدساتير على الدوام.

قام الرسول ﷺ بتبليغ بعض المبادئ الدينية التي وضعها الله تعالى إلى الناس في عصره وتعليمها إياهم، وقام هؤلاء بإيصالها لنا، فرضي الله تعالى عنهم أجمعين. والقرآن يعلمنا أدب عرفان الفضل فيخبرنا أن ندعو لهم ونقول ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحشر:١٠). فنحن ندعو لهم كلهم انتهاء إلى الصحابة الكرام ﷺ اعترافًا بفضلهم. وعندما نقف عند كل مقبرة ونرفع أيدينا بالدعاء لهم فإننا نعبر بذلك عن امتناننا لهم. لقد أبدى أسلافنا نجاحًا منقطع النظير، وكوّنوا بعد رسول الله ﷺ دولاً متعاقبة. يقول أحد الكتاب الغربيين:

"إن محمدًا ﷺ رجل عظيم حقًا. لماذا؟ لأنه شُكّلت ما يقارب مائة من الدول على أسس المبادئ والأنظمة والدساتير التي وضعها، وكان مهندس مدنيات عديدة، وأرسل الجيوش إلى مختلف أنحاء العالم وعلى رأسها قواد أكفاء نجحوا أيما نجاح في مهماتهم. ولم يكن هؤلاء القواد فاتحين فحسب، بل حملوا معهم مشاعل العلم أيضًا ونوروا بهذه المشاعل أرجاء المعمورة وزوايا العلم والعرفان."

فهذه بغداد وهذه آثارنا في آسيا الوسطى من معابد وكليات ومستشفيات وجوامع لاتزال باقية رغم محاولة الأعداء هدمها وطمس معالمها. وهذه الأندلس بآثارها القديمة التي تذهل عباقرة العلم والفن... هذه الأندلس بثقافتها وفنها وأخلاقها وباحترامها للقيم الإنسانية العامة... إن ما تبقى من هذه الأثار التي تضاءلت تدريجيًا بمرور أكثر من خمسمائة سنة غدارة لا تزال تأخذ بالألباب. ومن يدري ماذا يقول المفكرون من الفنانين والمعماريين والمتخصصين في علم الجمال حول هذه الأثار الرائعة.

أجل، لقد تشكلت الآلاف من بيوت العلم من بعده وعلى الخط الذي خطه، وظهر مئات الآلاف من رجال العلم والفن وتشكلت مئات من الدول على هدي النظام الذي

وضعه... ويعد الأمويون والعباسيون والسلاجقة ودولة القره خانيين والدولة العثمانية من بين هذه الدول، ولا يجوز مقارنة الدين الإسلامي مع الدين المسيحي، فالمسيحية لم تستطع أبدًا تجاوز الكنيسة، فقد أديرت الدولة إما بالنظام الثيوقراطي، أي حسب اجتهادات القسس ورجال الدين، وإما بالنظم الدنيوية الوضعية أي من قبل أناس يحملون أفكار الفلسفة المادية، ولكن رسالة محمد ﷺ ودينه لم يكونا هكذا، إذ أنه تأسس على الأسس الشاملة والعميقة والحية للكتاب والسنة، والمتجددِ على الدوام لكونه منفتحًا على الاجتهاد. فقد يتغير الزمان وتتبدل الصور ولكن محتوياته ومعانيه باقية. فما أن تغرب مدنية في هذه الدنيا أو تزول دولة إلا وتبعتها مدنية أخرى ودولة أخرى... أجل، فمئات من الدول كانت تستمد روحها وفلسفتها ومعنى وجودها منه ﷺ.

لقد استطاع الرسول ﷺ بنظرته الواسعة المؤيدة من قبل الوحي أن يعين الأسس التي تقوم عليها الدولة وأن يستعملها كلاً في مكانه الصحيح والملائم. وشق الطريق المؤدي إلى تهيئة كوادر الدولة وقوادها ورجال العلم والصناعة والفن. وقد ربى في عهده العديد من القواد، ورجال الدولة ونشأ على طريق فتح العالم قواد عظماء بدءً من خالد بن الوليد إلى عُقبة بن نافع ومن عقبة إلى الأحنف بن قيس ومن الأحنف إلى طارق بن زياد ومنه إلى محمد بن القاسم. ولو نظرنا إليه من هذه الزاوية لحسبناه قد كرس وقته للأمور العسكرية فحسب. وقد نظر كثير من مفكري عصرنا -مثل عباس محمود العقاد- إلى عصر النبوة كعصر منفتح على الطاقات الكبيرة والعبقريات العظيمة.

أجل، فإن المدرسة المحمدية هي المدرسة الوحيدة التي استطاعت أن تسمو بالمواهب والكفاءات إلى أعلى المستويات فمن قصد هذه المدرسة استطاع أن ينمي كل قابلياته العقلية والقلبية والروحية وجميع ملكاته الأخرى إلى مداها النهائي...

فأبو بكر ﷺ رجل عبقري في الحرب وفي إدارة الدولة وفي العلم. وكذلك عمر وعثمان وعلي ﷺ؛ أما خالد وسعد بن أبي وقّاص وأبو عبيدة والعلاء الحضرمي والقَعْقَاع بن عمرو ﷺ فكانوا عباقرة حرب... ومئات غيرهم... فكأن ذلك العهد عهد عباقرة... بل هو في الأصح عهد لم يهمل في الإنسان ذرة واحدة من قابلياته واستعداداته وكفاءاته، بل غذاها ونماها بأجمعها فكان عامرًا بمئات من العباقرة.

فإذا لم يكن عُقبة بن نافع الذي فتح إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها بضربة واحدة عبقريًا فمن العبقري إذن؟ لقد أصبح عقبة فارسًا وهو في الخامسة عشر من عمره، وتقلد مهامًا

مختلفة ومهمة في عهود عدة خلفاء ووصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، وقد اشتهر قوله الذي قاله وهو يغوص بجواده في مياه الشاطئ الأطلسي الذي كانوا يطلقون عليه اسم "بحر الظلمات" إذ قال: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدًا في سبيلك."[١]

ومن المدرسة نفسها نجد طارق بن زياد الذي كان عبدًا بربريا، فنراه ينتصر بجيشه البالغ ١٢٠٠٠ جندي على الجيش الإسباني الذي كان تعداده ٩٠-١٠٠ ألف جندي وأن يصل في مدة قصيرة إلى قصر الملك في "طُلَيطُلة".[٢] وكان طارق أيضًا قائدًا عبقريًا وفارسًا عظيمًا. والأمر نفسه وارد بالنسبة لعلاء الحضرمي الذي كان قائدًا عظيمًا، حتى قيل في عهد عمر بن الخطاب ﷺ أنهم لا يستطيعون استغلال كل هذه الكفاءات، حتى أنهم اضطروا إلى إصدار أمر إلى علاء الدين الحضرمي بالتوقف عن الحرب في البحرين. ولعلاء الحضرمي تاريخ حياة مليء بالعبر. ويقول المؤرخون بأنك لو نقلت خالد بن الوليد إلى موضع علاء الدين، ونقلت علاء الدين إلى موضع خالد لما تبدل أي شيء ولما حدثت أي ثغرة.

كيف حدث هذا؟ كيف ظهر كل هؤلاء العباقرة والعظماء في عهد واحد..؟ سعد بن أبي وقّاص كان عبقريا، فلو تتبعت آثاره في فارس لوصلت إلى هذه القناعة... أبو عبيدة بن الجراح كان عبقريًا... وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، ثم دهاة آخرون في سلسلة العبقريات هذه بعد الرسول ﷺ... ولولا هؤلاء لما كان في الإمكان قطع الصحارى والوصول إلى أسوار الصين وإلى جبل طارق، ولما كان في الإمكان الاستيلاء على كل هذه المناطق في فترة قصيرة جدًا لا تتجاوز ٢٥ سنة، وما كان في الإمكان أيضًا تأسيس الأمن والطمأنينة في هذه المناطق وإدارتها إدارة جيدة، ولما كان في الإمكان بقاء هذا النظام طوال ١٢ عصرًا في الذروة رغم الدنيا كلها ورغم مقاومة الأديان السابقة له وقيامها بالاعتداء وبالتضليل.

أجل، لقد كانت هذه العبقريات التي كان الوحي منبعها وملهمها هي التي يسرت حكم العالم عصورًا عديدة بقبس من النظام النبوي. فكأن هؤلاء العباقرة أخذ كل منهم قبسًا من شمس الشموس رسول الله ﷺ فأنجزوا مهمات كبيرة وبمقياس عالمي. ولا أدري أيمكن أن نتصور عهدًا مثيلاً لذلك العهد..؟ لا أقول نشاهد ولكن أقول نتصور... نتخيل... فالأسماء التي أدرجتها لكم بسرعة والمهام التي أنجزوها يحتاج كل منها إلى بحوث كاملة. وبين العبقريات العسكرية والإدارية التي رباها الإسلام لم نذكر سوى بعض الأسماء الأولى التي خطرت على

[١] الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١٠٦/٤.
[٢] الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٥٦٢/٤.

بالنا، أما شرح كل تلك العبقريات فعمل يحتاج إلى مجلدات، ولم يكن في إمكان هذا الفصل الصغير أن يستوعب كل هذا، ولم ندخل إلى هذا الموضوع إلا بصورة غير مباشرة وذلك عندما تحدثنا عن رسالة الرسول ﷺ والجوانب المتعلقة بهذه الرسالة، وكل أملي وتطلعي هو قيام أهل الاختصاص بتناول هذه المواضيع وشرحها بشكل واف. وعند ذلك سوف تتوضح المدرسة المحمدية بكل أبعادها وسيهتف كل بُعد منها: "محمد رسول الله."

أ. عباقرة العلم لهذه المدرسة

كما كانت هذه المدرسة تفتح أبوابها لعباقرة الحرب ولعباقرة رجال الدولة فقد كانت مفتوحة الأبواب للعلم بالدرجة نفسها، لذا فقد ربت وخرّجت العديد من رجال العلم ورجال الفكر وعلماء القانون والمجتهدين والمجددين. فليس من السهل وليس في إمكاننا هنا سرد أسماء كل رجال العلم الذين نشأوا في ظرف ثلاثة قرون بدءً من عهد الخلفاء الراشدين. ولكننا سنكتفي بتناول ابن مسعود ﷺ الذي كان راعيًا في مكة وذلك كأنموذج فقط، فهذا يكفي هنا.

أصبحت الكوفة بفضله مركزًا علميًا، ونشأ في مدرسته هذه المئات من العلماء الأجلاء في الفقه والحديث وعلم الكلام أمثال الأسود بن يزيد، وعلقمة بن قيس النخعي وإبراهيم النخعي وحمّاد بن أبي سليمان وأبي حنيفة، وكلهم يدينون له بالفضل. ولو تناسينا نحن هذه الحقيقة الكبيرة فإن تاريخ العلم سيقيم هذا ويسجله رغم أنف المعاندين.

١. في مجال الفقه

سنأخذ أنموذجا واحدًا ونشرحه باختصار كمثال لغيره من العلماء الكبار الذي نعتذر إليهم كلهم لعدم استطاعتنا ذكرهم كلهم هنا.

من كان أبو حنيفة..؟ كان أبو حنيفة عالمًا كبيرًا وواضع مذهب... جمع حوله في حلقات الدراسة والتعليم رجالاً أذكياء في ذلك العهد المبكر الذي كان العلم والثقافة فيه تنقل مباشرة بطريقة التقرير والإملاء في حلقات الدراسة. وقد شغل أحد طلابه منصب قاضي القضاة وهو الإمام أبو يوسف؛ ومن طلابه المعروفين الإمام محمد بن الحسن الشيباني والإمام زُفر، كما درس عنده الإمام وكيع الذي تلقى الإمام الشافعي العلم عنه... أي كان أستاذ الأساتذة، وضع توقيعه على العصور وخاطب الأجيال الآتية من بعده وأصبح إمامًا لمئات الملايين من المسلمين. فما أملاه على تلاميذه الأوائل ولاسيما على الإمام

محمد قام شمس الأئمة الإمام السرخسي بشرحه في كتابه المشهور "المبسوط" المؤلف من ثلاثين مجلّدًا..."[1] والحقيقة أن الإمام السرخسي أملى هذا الكتاب القيم وهو سجين في قاع بئر على تلاميذه المتحلقين حول البئر... ومن الطرائف المروية أن أحد تلاميذ الإمام السرخسي قال له يومًا بأن الإمام الشافعي كان يحفظ ثلاثمائة صحيفة من الحديث، فقال الإمام السرخسي بكل تواضع: إذن، فقد كان يحفظ زكاة حفظي للحديث."[2]

كان الإمام الشافعي أيضًا عبقريًا وشخصية علمية مرموقة. وكذلك الإمام مالك وأحمد بن حنبل ﷺ أجمعين. والآن لنسأل مرة أخرى: من هو أبو حنيفة؟ أكان تلميذًا لأحد صحابة رسول الله ﷺ مثل ابن مسعود؟ أم كان تلميذًا لأحد التابعين أمثال علقمة؟ كلاً... بل كان تلميذ تلميذهم... أي تلميذ حمّاد بن أبي سليمان... صحيح أن حمّادًا كان أيضًا فقيهًا كبيرًا إلا أنه كان تلميذًا لتلميذ رسول الله ﷺ.

أجل، فبينما كان العالم كله يسبح في الظلام فاقدا أمله حتى من بزوغ الفجر الكاذب، كان هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين نوروا الإنسانية والعالم ينشأون في مدرسة رسول الله ﷺ. فهؤلاء العلماء الأعلام الذي نوروا العالم بعلومهم وعرفانهم كانوا في الذروة من علومهم رغم كثرة عددهم... أي أن قيمتهم لم تكن ترجع إلى الندرة... فمن الممكن أن نذكر ما يقارب الخمسين من العلماء الكبار وفي مستوى أبي حنيفة في الكوفة آنذاك أي في عهد أبي حنيفة... ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة بالعامل الجغرافي أو الزمني، بل كانوا نتيجة الفيوض النورانية للمدرسة التي انشأها الرسول ﷺ. فبفضله تربى -ومن مجتمع بدوي- جمهرة من العلماء أناروا أرجاء العالم أربعة عشر قرنا، وسينيرون العالم إن شاء الله إلى يوم القيامة.

٢. في مجال التفسير

التفسير بالنسبة لنا بحر بذاته، ولكنه يعد قطرة في بحره ﷺ... إنه القطرة التي تمثل البحر وتشير إليه. فابتداء من علي ﷺ إلى ابن عباس ﷺ ثم إلى مجاهد وسعيد بن جبير ثم إلى ابن جرير وفخر الدين الرازي وابن كثير إلى المفسرين الأعلام في عهدنا الحالي نرى سلسلة نورانية متصلة الحلقات من كبار الدهاة والعباقرة الذين يشكلون وحدهم -بانتسابهم إليه- أكبر دليل على نبوة سيدنا محمد ﷺ وكونه سيد الإنسانية وسيد المرسلين.

---

[1] أي جزءً من أربعين جزء مما يحفظ. (المترجم)

[2] أصول السرخسي للسرخسي، ٥/١.

فابن جرير مثلاً رمزٌ للعبقرية والدهاء، فعندما تطلع على تفسيره تراه يفسر الآيات والأحاديث تفسيراً يجاوز به الزمن ويتناول تفسير الآيات التي تتناول السماء والأرض وكيف أنهما كانتا وحدة واحدة ثم انفجرت... وتراه يتناول المبادئ الأساسية لهبوب الرياح ونزول الأمطار، أي تَناوَل مواضيع لم تُفهم حق الفهم إلا بعد مرور ألف عام. وقد ظهرت من البحوث العلمية التي جرت حول الكتب التي ألفها أن معدَّل كتابته في كل يوم من أيام حياته هو ١٥ صفحة. فإذا لم يكن ابن جرير عبقريًا فمن العبقري إذن؟

وفي مجال التفسير إن انتقلنا من ابن جرير إلى فخر الدين الرازي، ومنه إلى الإمام السيوطي الذي ألف كتبًا ضخمة بعد أن قرأ مئات التفاسير، ومنه إلى العلماء الكبار في عصرنا الحالي نرى أن هناك أناسًا برزوا في ميدان التفسير ونبغوا فيه إلى درجة لو أن واحدًا منهم ظهر في الغرب لنصبوا له التماثيل وافتخروا به أمام العالم أجمع.

٣. في مجال الحديث

أما عمالقة علم الحديث فهم يشغلون مكانًا بارزًا ومكانًا فضيلاً... فكل من البخاري والإمام مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد بن حنبل والدارقطني والبيهقي والدارمي يعدون أعلامًا من أئمة الأعلام في ساحة علم الحديث، وكل واحد منهم يكفي العالم وحده. وليس من الممكن طبعًا الوقوف عند كل واحد منهم والقيام بتحليل بنيتهم العلمية فهذا خارج هدفنا هنا. ولكننا نكتفي هنا بالقول بأن الإمام البخاري بعد أن حفظ ٦٠٠.٠٠٠ من الأحاديث أدرج أربعة آلاف حديث غير متكرر فقط في صحيحه... وكان يبدي اهتمامًا ودقة كبيرة عند أخذ الحديث. فكان يتوضأ لكل حديث ويصلي ركعتين[1] مثل هذا الإمام الكبير كان مجرد تلميذ من تلاميذ الرسول ﷺ... وفي إحدى المرات قضى أيامًا طويلة في سفر شاق ومرهق ليأخذ حديثًا من شخص، ولكنه عندما رأى هذا الشخص يوهم حصانه لكي يأتيه بأن في حجره شعيرًا بينما هو فارغ... عندما رأى هذا رجع دون أن يكلمه ودون أن يأخذ الحديث الذي قطع كل هذه المسافة من أجله. وعندما سئل عن السبب قال: "إن الشخص الذي يريد خداع فرسه قد يخدعني أنا أيضاً." ومن يدري فكم من عالم من علماء الحديث أبدى كل هذه الدقة والحرص عند القيام بجمع وتدوين الأحاديث.

[1] هَدْي الساري لابن حجر العسقلاني، ص٩.

٤. في مجال العلوم الوضعية

بعد مطالعة الكتب العديدة التي كتبت حول تاريخ العلم القديم والحديث والمقارن... المحايدة منها وغير المحايدة لا يملك الإنسان إلا الشعور بالفخر بماضينا المجيد. ففي العهود الذهبية للمسلمين كتبوا في الطب والرياضيات والهندسة وفي جميع العلوم الطبيعية مؤلفات كانت تتنافس بجدارة مع كتب الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام. فهناك الجابر مرشد علم الجبر وابن سيناء والخوارزمي والزهراوي العالم في الجراحة والذي ظلت كتبه التي كتبها في علم الجراحة تدرس في الغرب لعدة عصور حتى أن إحدى المجلات العلمية وصفته تحت عنوان "العالم الذي عاش ألف عام..." المئات والآلاف من أمثال هؤلاء هم خريجو مدرسة رسول الله ﷺ:

وإن الإنسان ليتساءل: لماذا لا يعرف معظمُنا هؤلاء حاليا؟ إن عدم رؤية هؤلاء هي من أخطاء الحس. ففي الغرب لا يمكن عدم رؤية شخصياتهم، ذلك لأن هؤلاء يعدون مثل تلال ترتفع وسط السهول لا يمكن أن تخطئها الأبصار وإن لم تكن مرتفعة جدًا. أما الذرى الموجودة عندنا فهي مستمرة ومتكاملة وعدم التمكن من قياسها يؤدي إلى الجهل بهم، أي أنهم مثل الذرى المتقاربة بعضها من بعض لا توجد بينها وديان لكي تعرف هذه الذرى. أما نحن فقد بعدنا عن خصلة الوفاء فكانت هذه هي حالنا، فلم نستطع تقييم تلك الآثار بينما استطاع الغرب الاستفادة منها وحقق عصر النهضة عنده... فالخطأ ليس في المبادئ ولكن في الأشخاص الذين عاشوا عالة على الماضي، فعلى الرغم من كونهم داخل بحر فإنهم لم يعرفوا قيمة ذلك البحر.

ب. أبطال عالم الروح

والدرجة الثانية من أبعاده ﷺ هي الولاية... فباسم الولاية خرّج أشخاصًا وفتح أمامهم بابًا إلى أوج الكمال الإنساني إلى درجة يقول أحدهم: "لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقينًا"[1] ووصل بعضهم إلى درجة رأى فيها بعض أمور عالم الغيب، وقضى قسمٌ منهم حياته في تدقيق أسرار القرآن والسنة لفهم إشاراتها وإيماءاتها... فها هي "الجلجلوتية" وها هو "نهج البلاغة" وها هو "المثنوي" و"فتوح الغيب" و"الفصوص" و"الفتوحات".

لقد قال "إديسون" في لحظة من لحظات عرفان الجميل: "لقد تعلمت الطريق المؤدي إلى الكهرباء من كتاب الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي."

---

[1] الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص١٩٣.

إن الفتوحات المكية ببيانها المليئ بالأسرار موجودة في أيدينا، صحيح أن هناك نقاشًا حول صحة استنباط الكهرباء والألكترونات والمصباح الكهربائي من التعابير القرآنية المحملة بالأسرار، إلا أن النقاش لا يجدي في موضوع ظهر تأويله. إن الإنسان يستطيع التوصل إلى الكثير من الأسرار عن طريق الولاية أو عن طريق البحث في المختبرات العلمية، فإن عجزنا نحن عن الوصول في السابق وعجزنا حاليًا فهذا يرجع إلى فقرنا في التفكير المنطقي وضعف قلوبنا وعجز إرادتنا وعزمنا. إذ ليس من السهل فهم ابن عربي أو مولانا جلال الدين الرومي أو الإمام الرباني أو بديع الزمان سعيد النورسي وهم من الأشخاص الذي سبقوا عصورهم، بل ليس من السهل إدراك ما اكتشفوه. فكيف نستطيع فهم الشيخ النقشبندي أو معروف الكرخي أو الشاذلي أو الشيخ الكيلاني أو الشيخ الحرّاني، علما بأن كل هؤلاء يعدون تلاميذ في مدرسة الرسول ﷺ، وكانوا مثل الفراشات الدائرة حول نور شمْعته ﷺ... كانوا عشاق النور فانفتحت أعينهم على عالم الغيب. يقول الإمام السيوطي إنه رأى الرسول ﷺ مرات عديدة في اليقظة وليس في المنام.[1] فإذا كانت عيونهم قد تفتحت هكذا فبفضل ما تعلموه من الرسول ﷺ، وإذا كانوا قد هرعوا إلى النور فبقوة جذبه ﷺ.

أما نحن فقد حبسنا ضمن سجن المكان ذي الأبعاد الثلاثة وضمن الزمان الذي هو بُعد نسبي، أما هم فقد اجتازوا أبعاد الزمان والمكان إلى بُعد آخر لا ندركه. هؤلاء هم تلاميذ الرسول ﷺ وسينشأ في المستقبل إن شاء الله تعالى أمثالهم. إن الولاية ليست من ساحتي، إذ لست إلا شخصًا معجبًا بهم ولا أستطيع أن أبلغ كعبهم، وإن شاء الله تعالى ستنفتح الكثير من العيون على الكثير من الحقائق، وعند ذلك سيعلنون تصديق ما قلت.

إن الرسول محمد ﷺ مرشد كبير إلى درجة أن تلاميذه سبقوا الجميع في عالم الروح وتربية النفس وسبقوا كل مدعي الإرشاد حاليا. وإذا جرت الأمور في سيرها الطبيعي فإنهم يستطيعون القول من الآن: "إن مستقبل العالم لنا." أجل، إن محيي الدين بن عربي سحر الغرب أيضًا إلى درجة أن الآلاف من الألمان وصلوا إلى نور اليقين عن طريق الأنوار التي نشرها ابن عربي وأمثاله. فإذا كان عبد القادر الكيلاني أو جلال الدين الرومي أو الإمام الرباني أو بديع الزمان سعيد النورسي يحولون القلوب ويوجهونها نحو الرسول محمد ﷺ فهذا بفضل القوة القدسية التي استمدوها من مرشدهم ومن أستاذهم ﷺ.

كان جلال الدين الرومي رجلاً في القمة -مع أن بعضهم قد أفرط في حقه- إلا أنه كان من

---

[1] جامع كرامات الأولياء للنبهاني، ١٥٨/٢.

العمالقة الذين فتحوا قلوبهم على العالم اللانهائي وسبحوا بفكرهم في عالم الملكوت... لقد كان ممثلاً للعشق والوجد الإلهي... أنموذجا للأخلاص والتفاني، ومن أكبر المكتشفين لطرق الوصول إلى الحقيقة المطلقة والدالين عليها بأسلوب ضرب الأمثلة وإيراد القصص. كما كان في الوقت نفسه من أبطال الكلمة والبيان.. يستطيع بعصاه السحرية فتح القلوب وسحرها.

ج. أرباب البيان

لقد كان رسول الله ﷺ سلطان الفصحاء للعرب والعجم... وهناك شهود ملء الدنيا على ما نقول، فاعتبارًا من حَسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة إلى كعب بن زهير بن أبي سلمى. ومن لبيد إلى الخنساء بنت زهيرة... ثم من أدباء العصر الأموي والعباسي والسلجوقي نرى أن جميع أمراء البيان وفرسان البلاغة يعدون الرسول ﷺ في أوج قمة البلاغة ويزينون كلامهم ببيانه وبفصاحته وبأقواله الجامعة المانعة ولا يقصرون في إبداء الاحترام والتوقير له...

وهذا نشاهده بكل وضوح عند الشعراء الإيرانيين. وينقل لنا حيدر بامّاد هذا القول للشاعر الألماني "غوته": "نرى في التاريخ الإسلامي ولاسيما في العهود التي حكم فيها العباسيون والسلاجقة وإيران بروزَ نبوغ شعراء عمالقة في إيران، ولكن العالم الإسلامي اختار من بين هؤلاء أربعة أو خمسة من الشعراء فقط."

ويستمر "غوته" -وهو الأديب الذي فتح عهدًا جديدًا في الأدب الألماني بروايته "فاوست"- في كلامه فيقول: "لقد نبغ في هذا البلد أدباء عمالقة. ولكن العالم الإسلامي اهتمّ بخمسة منهم فقط وهم: مولانا جلال الدين الرومي، وحافظ والفردوسي والأنوري ونظامي. وأهمل الباقين، أي لم يعدهم شعراء. ومن الذين أهملوا ولم يعتبروا من الأدباء أشخاص تمنيت لو أنني كنت تلميذًا على أيديهم."

أجل، لا تندهشوا! فهذه هي الحقيقة... ولننبه إذن لمن نكيل المدائح وننفخ فيهم كالبالون ونهمل عظماءنا... إن كنا لا ندري فلندر... لا يوجد هناك أديب غربي لا يقلد "حافظ الشيرازي"، والأدب العثماني متأثر كثيرًا بـ"حافظ" وبروح وعالم "حافظ..." أجل، فكل هؤلاء الأدباء سواء أكانوا إيرانيِّين أم عربًا أم أتراكًا... كلهم من تلامذة مدرسة الرسول ﷺ حيث استخدموا المعاني التي تلقوها من هذه المدرسة.

هناك أمور كثيرة حوله ﷺ كنت نويت أن أعرضها ولكنني أقف هنا لكي لا أطيل الكلام... ومن بين هذه الأمور الجانب العسكري فيه ﷺ.

القسم الثالث

لا مثيل لرسول الله ﷺ في حلّ المعضلات

- الفصل الأول : رسالة القائد والحياة
- الفصل الثاني : القائد والعنصر الإنساني
- الفصل الثالث : القائد واستخدام الكفاءات في المكان المناسب
- الفصل الرابع : صاحب الفراسة المتنورة بالوحي
- الفصل الخامس: وحدة النظر والقدم

تمهيد

هناك بُعد آخر في فطنة رسولنا الكريم ﷺ وهو قيامه بحل كل المشاكل والمعضلات التي تظهر أمامه -مهما كان نوعها- بكل سهولة ويسر وكأنه يستل شعرة من عجين، وهذا دليل من أدلة رسالته ونبوته. هناك أمور مهمة يجب توفرها في كل إداري ناجح وفي كل قائد وزعيم نسطر بعضها فيما يأتي:

١. يجب ألا تكون الرسالة التي يحملها تتناقض مع الحياة أو تتصادم معها. ويجب أن يكون مصرًا على دعوته متمسكًا بها واثقًا أنها صالحة الآن وستكون صالحة في المستقبل. فكما يستطيع أي إنسان أن يشرح بكل ثقة ويصف بكل دقة حادثة رآها بأم عينيه ولا يخشى أن يتهم بالكذب في شهادته تلك، لأنه واثق من نفسه ومطمئن إلى قوله الحقيقة، كذلك لا بد أن يكون القائد أو الزعيم واثقًا نفس هذه الثقة من صحة الرسالة التي يحملها وكونها حقا وخيرًا. بل إن ثقته وحدها لا تكفي إذ يجب ألا تكون رسالته متناقضة مع الحياة ومعاكسة لها، أي يجب ألا تقف أمام رحى الحياة الدائرة.

٢. على القائد أن يكثف جهوده لتربية وإعداد الأفراد، وأن ينشغل على الدوام مع العنصر الإنساني، وأن تأخذ الثقافة محلا مرموقًا في جهوده.

٣. على القائد أن يعرف عناصر مجموعته معرفة جيدة، ويعرف لمن يعهد بمسؤولية معينة، ويعرف جيدًا مدى قابلياتهم والأعمال التي يستطيعون إنجازها. وعليه أيضًا أن يزن خططه بشكل لا ينزعج من سرعةِ وتيرة التخطيط لا الفردُ الاعتيادي في المجتمع ولا أنشطُ الأفراد.

٤. يجب أن يكون القائد منفتح الصدر لحل مشاكل أتباعه. وهذه المشاكل قد تكون مشاكل فردية أو عائلية، أو إدارية أو قانونية أو اقتصادية أو اجتماعية، فعلى القائد أن يكون قادرًا على حل جميع هذه المشاكل.

٥. يجب أن تكون تعليمات القائد وأوامره وتوجيهاته من النوع القابل للتطبيق، فالقائد الناجح يبتعد على الدوام عن التعليمات والاقتراحات الخيالية التي لا يمكن تطبيقها، أي على القائد أن يحدس أحداث اليوم وموضوعاته من اليوم السابق، وأن يحدس أمور

المستقبل منذ اليوم ويضع خططه على أساس هذه الرؤية البعيدة لكي لا تعرقل خطة اليوم الحالي التنفيذ في المستقبل وإلا تضاربت أعمال اليوم وأعمال المستقبل وعملت إحداهما ضد الأخرى. أجل، فالقائد الحقيقي يجب أن يحدس ما ستؤول إليه الحوادث الاجتماعية الحالية في المستقبل، لكي لا تفسد المفاجآت المستقبلية أعماله وخططه الحالية.

إذن، إن المبادئ الواقعية وغير الخيالية للقائد يجب ألا يسبقها الزمن، بل يجب أن تحتفظ هذه المبادئ بنضارتها وحيويتها على الدوام، بحيث أن إنسان كل عهد عندما يتوجه نحوها ويقبل عليها يجد فيها دواء لمشاكله وحلا لمعضلاته كمن يشرب من ماء الحياة، وتكون هذه المبادئ عصية على الزمان، فلا تتبدل بتبدل العصور والعهود، بل تزداد شبابًا وحيوية على مر العصور. ويكون على الدوام أفضل وأحسن من يطبق اقتراحاته وتعليماته ويعيشها بنفسه ويراعي أدق تفاصيلها.

عندما نطالع هذه المبادئ التي هي بعض شروط القيادة الناجحة ونأخذها بنظر الاعتبار نرى أن أفضل وأنجح قائد في تاريخ الإنسانية كلها هو محمد ﷺ صاحب الفطنة العظمى، وهذا يشمل جميع الأنبياء أيضا، ذلك لأنه كان قمة لم يصل إلى مستواها أحد في تطبيق جميع هذه المبادئ للقيادة الناجحة.

صحيح أننا نعتقد هذا من منطلق إيماننا، إلا أن الغرب بدأ يدرك هذه الحقيقة باستخدام الحاسبات والعقول الألكترونية، وهذا شيء مفرح لنا. والحادثة التي عدت بنظر الكثيرين مفاجأة كبيرة خُلاصتها وأساسها هي القيام بتثبيت الأوصاف والصفات والمميزات التي جعلت من أشخاص عديدين رجالاً عظماء وقادة كبارًا ثم إعطاء هذه المعلومات إلى العقول الألكترونية لكي تقوم بترتيب تسلسل هؤلاء العظماء حسب درجة عظمتهم، وبعد عمل طويل وشاق تم هذا الأمر وظهر على الشاشة اسم رسولنا ﷺ... أجل، لقد ظهر لهم أن أكبر قائد وأكبر زعيم وأعظم رجل هو رسول الله ﷺ.[1] والآن لنتناول هذه المبادئ التي ذكرناها ونعطي حولها بعض الأمثلة الشاخصة بعد أن ذكرناها بشكل تجريدي:

---

[1] يشير الكاتب هنا إلى قيام أحد الكتاب الأمريكيين، وهو "ميشيل هارات" بتغذية الحاسب الألكتروني بالمعلومات الضرورية لمعرفة أهم مائة شخص أثروا في التاريخ الإنساني، فكان الرسول ﷺ هو الأول في تلك القائمة. وصدر كتاب حول هذا اسمه "The Hundred". (المترجم)

الفصل الأول: رسالة القائد والحياة

لقد أتى رسولنا ﷺ بمبادئ عديدة للإنسانية، ولم يكن أي مبدأ منها يتصادم مع الحياة أو يتناقض معها. ثم إنه ذكر هذه المبادئ وهو واثق منها تمام الثقة ودون أن يحمل أي شك أو تردد أو ريبة حولها.

تناول في أحاديثه كل شيء تقريبًا... من العرش إلى الفرش... من الجنة إلى جهنم... من الإنسان الأول حتى يوم القيامة... تناول كل هذه الأمور بالشرح والإيضاح. واهتم على الأخص بشؤون أمته والحوادث الآتية المتعلقة بها حتى إنه عدد بعضها وأعطى لها الأسماء وكأنه يراها على شاشة تلفزيون دون أي تشوش. أجل، لقد كان واثقًا من كل ما يقوله، ذلك لأن الله تعالى بسط أمام ناظريه الكتاب المبين والإمام المبين وأراه الشيء الكثير من ألواح القدر... كان يرى ذلك ثم يشرحه، لذا فمن الطبيعي أن تكون المبادئ التي أتى بها مثل هذا الشخص العظيم مبادئ أبدية.وما أجمل ما قاله سلطان الشعراء نجيب فاضل:

الغد لنا... طبعاً لنا...

إن أشرقت الشمس أو غربت... فالأبد لنا.

يشرح هذا الشاعر بكلماته هذه مدى ثقته بمبدئه وعقيدته. وعندما نطالع كلمات هذين البيتين على ضوء دعوة الرسول ﷺ فإنها تأخذ أبعادًا عميقة... الشمس تشرق وتغرب... والأيام والسنين والعصور تمضي، ولكن الرسالة التي أتى بها رسول الله محمد ﷺ ستبقى خالدة إلى الأبد.

أ. كان واثقاً وذا عزم

يروي ابن إسحاق رحمه الله أن قريشًا قصدت أبا طالب للتفاوض مع رسول الله ﷺ فاستدعى أبو طالب النبي ﷺ وقال له: هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك. كان رسول الله ﷺ واثقًا من نفسه ويعرف ما يريده فقال: «أريد منهم أن يقولوا كلمة واحدة يحكموا بها العرب والعجم.» ففرح القوم وقالوا: فديناك بأنفسنا... وما

هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب والعجم.»[1] وفعلاً حكموا العرب والعجم...

وما أكثر الدول والأمم التي أسرعت إلى ظلال الإسلام... وأمتنا الأصيلة هذه انتبهت إلى الإسلام مبكرًا وأسرعت إليه قبل أحد عشر عصرًا دون أن تضيع وقتًا كثيرًا... تأملوا..! لقد أسرعت جماعة تتألف من ألف خيمة إلى الإسلام في ظرف سنة واحدة ودون أن يكون هناك أي إكراه. وهذا الإقبال المخلص على الإسلام هو الذي يسر لهم رفع راية الإسلام في العالم أجمع والدفاع عنه طوال عشرة قرون تقريبًا... فظهر منهم حملة لراية الإسلام مثلما كان حمزة ومصعب والزبير وابن جحش من الحملة الأوائل لراية الإسلام في عهد النبي ﷺ... جاءوا من سفوح جبال الهملايا ليحملوا مسؤولية الذود عن هذه الراية وعن هذا الدين طوال عصور وعصور (ندعو الله تعالى أن يحفظ هذه الأمة النجيبة في طريق الدفاع عن الإيمان وعن القرآن).

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يبلغ رسالة ربه بثقة دون أن يتنازل عن شيء منها ودون أن يساوم على شيء منها... كان واثقًا من يومه ومن غده إذ يقول لهم «إن اتبعتموني دانت لكم العرب والعجم وسيكون البيت الحرام مثابة للناس وأمنا...» وعندما حان الوقت المناسب تحقق كل ما قاله لهم، ففي كل عام يطوف الملايين من الناس حول البيت الحرام مثلما ينجذب الفراش إلى هالة النور. وحينما قال النبي ﷺ هذا القول لم يكن هناك أي أمارة أو إشارة أو علامة تؤيد هذا القول... أجل، فإن من الضروري أن يثق الزعيم والقائد بما يقوله لكي ينشر الثقة بين الآخرين.

ينقل الحاكم في المستدرك حادثة عَدِيّ بن حاتِم التي سبق وأن ذكرتها وأستسمح القراء في إعادتها هنا... وعدي هو ابن حاتم الطائي المشهور في التاريخ العربي بسخائه وجوده. ينقل لنا عدي بن حاتم ﷺ حادثة إسـلامه وكيف زار النبي ﷺ وهو متردد فقال له النبي ﷺ: «فلعلك إنما يمنعك عن الإســلام أنك ترى من حولي خصاصة. إنك تـرى الناس علينا إلبًا.» ثم قال: «هل رأيت الحِيرة؟» قلت: لم أرها وقـد عرفت مكانها قال: «فليوشكن أن الظعينة ترحل من الحِيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وليفتحن علينا كنوز كسرى»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ويوشك أن لا يجد الرجل في ماله صدقة»

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٣٦٢/١؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٥٨/٢-٥٩؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٥٢/٣؛ المستدرك للحاكم، ٤٣٢/٢.

وقال: فرأيت الظغينة ترحل وأحلف ليفتحن الثانية بقول رسول الله ﷺ وهو الحق.[1]

هكذا كان رسول الله ﷺ يخاطب بكل ثقة أصحابه والذين التفوا من حوله. ولم يكن يدور بخَلَد أحدهم ذرة واحدة من الشك أو الريبة حول ما يقوله، كما أن الأيام كانت تؤيد ما يقوله عندما يحين أوانه.

ب. طلب الأغنياء التمايزَ

كان الفقراء أول من استجابوا للرسول ﷺ، وكانوا في الأغلب من الشباب، أما الأغنياء من مشركي قريش من الذين تحجرت أدمغتهم في بوتقة الكفر فكانوا في عناء دائم. ولكن عندما ظهر سر الآية ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾ (النصر:٢). أدرك هؤلاء أيضًا ضرورة الدخول في دين الله. ولكن معظم من كانوا حوله في البداية كانوا من الشباب... من الشباب الفقراء.

ولم يكن أشراف مكة وأغنياؤها ورؤوس القوم مرتاحين من هذا، فكانوا يراجعون الرسول ﷺ ويطلبون منه أن يخصص لهم يومًا لا يدخل فيه أحد عليه غيرهم... أي لم يكونوا يرغبون في حضور الفقراء أمثال بلال وعمّار وياسر وخبّاب، فهم أشراف القوم فكيف يجلسون معًا مع الفقراء والدهماء![2] ولأنهم اعتادوا في ذلك المجتمع على مثل هذا التصرف والسلوك فإنهم عدوا طلبهم هذا طلبًا اعتياديًا وطبيعيًا ومشروعًا. ولكن الأمر لم يكن كما يتصورونه، ومع أنهم كانوا يتوقعون من الرسول ﷺ الترحيب بطلبهم هذا إلا أن الله تعالى كان قد نبه نبيه قائلاً له ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٢).

أنت رجل الشؤون والمهمات الكبرى، فلا تشغل نفسك بالحسابات الصغيرة أمثال طرد المؤمنين الفقراء رجاء هداية الأغنياء... لأن هذا ظلم، وأنت بعيد عن الظلم... أجل، إن من الظلم أن تطرد الفقراء لكي يرضى عنك الأغنياء. وعصم الله تعالى نبيه -وهو أعدل إنسان- منذ البداية في هذا الأمر.

ويتناول الموضوع نفسه في سورة الكهف فيقول لنبيه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٢٥٧/٤؛ المستدرك للحاكم، ٥١٨/٤.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ١٢٩/٣.

رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨).

كان القرآن يقول له: كن مع الذين يدعون ربهم ويذكرونه على الدوام، ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم، وعاشر هؤلاء لأن رحمة الله معهم، فقد يرحم الله الناس بفضل هؤلاء... بفضل عمّار أو ياسر أو بلال وعلي وخبّاب وابن مسعود، فهؤلاء هم مطمح أنظار الرحمة الإلهية وقد يدفع بهم الله البلايا فكأنهم يقومون بوظيفة مانعة الصواعق. كان القرآن الكريم يقول هذا في الوقت الذي لم يكن حول الرسول سوى أربعة أو خمسة من الفقراء... ولكنه مع هذا كان متفائلاً وواثقًا من المستقبل ويؤمن بأن معظم هؤلاء المتمردين العتاة سيسلسون قيادهم وسيقبلون على الإسلام وسيضعون القرآن فوق رؤوسهم، لذا فلماذا يقوم بطرد المؤمنين الفقراء المتحلقين من حوله من أجل هؤلاء؟ ثم كيف يستطيع الرسول ﷺ إبعاد هؤلاء عنه وهو الذي كان يقول: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: عليّ وعمّار وسلمان.»[1]

أجل، فبينما يشتاق الجميع إلى الجنة فإن الجنة تشتاق إلى هؤلاء... تشتاق إليهم كما يشتاق العاشق إلى معشوقه، وكما تشتاق العين إلى الجمال وكما يشتاق الوجدان إلى الرؤية والقلب إلى المشاهدة.

كان سيد المرسلين يعلم أن هذا النفر المحيط به هو بالمستوى الذي يستطيع أن يحكم العالم وأن يجري انقلابا كبيرا فيه، لذا كان يتصرف حسب علمه هذا، لذ لم يكن يشك لحظة واحدة أن الدنيا كلها من شرقها إلى غربها ستدين بالمبادئ وبالحقائق التي جاء بها، إذ كان واثقًا من إنجاز الله تعالى وعده له ومطمئنًا لذلك. ومن ثم رد طلب المشركين ولم يلق لهم بالا، بل أحاط هؤلاء الفقراء بحبه واحتضنهم برعايته.

---

[1] الترمذي، المناقب ٣٣.

الفصل الثاني: القائد والعنصر الإنساني

لم يهمل الرسول ﷺ العنصر الإنساني طوال حياته السنية، حتى أنه عندما كان يرسل بعضهم إلى جبهة القتال كان يحاول في الوقت ذاته المحافظة على المستوى الرفيع لبعض الأمور الثقافية والعلمية للإنسان. وما كان يمكن أن يكون إلا هذا. ذلك لأن القرآن الكريم كان يخاطبه قائلاً: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢).

أجل، فعندما يجاهد المؤمنون يجب أن تبقى طائفة منهم في الوراء لكي تتفقه في الدين ولكي تقوم بنقل تعاليم الدين إليهم، فحتى عندما يكون الجهاد فرض عين يجب أن تبقى أبواب بيوت الثقافة مفتوحة على مصاريعها، ولو سدت جميع أبواب معاهد العلم والثقافة عندما يحيط الأعداء بالبلاد من كل جانب فإنه حتى لو تم إحراز النصر من الناحية المادية فإن البلاد تكون قد خسرت الشيء الكثير باسم العلم والثقافة. لذا، فإن الإسلام يوصي بأن تبقى طائفة من الناس ولا تذهب إلى جبهات القتال حتى في مثل هذه الظروف غير الطبيعية لكي يتفرغوا لمسائل العلم والثقافة. فلم يهمل رسول الله ﷺ مواصلة التعبئة العلمية والثقافية حتى في أصعب الظروف، إذ كرس الذين لم يذهبوا إلى جبهات القتال أنفسهم للمدارسة والعلم، وكما قلنا سابقًا فإنه بينما كان عدد الذين يقرأون ويكتبون في بداية الدعوة الإسلامية يعدون على أصابع اليد لم يبق هناك فرد واحد لا يعرف القراءة والكتابة بعد عشرين عامًا من بدء الدعوة الإسلامية وكان هذا نتيجة لجهود الرسول ﷺ.

أجل، إنه لم يهمل في أي وقت من الأوقات الاهتمام بالعنصر الإنساني، وعرف كيف يربي الفرد من جميع جوانبه ويربي الأمة تربية صحيحة وسليمة، علم وأمر بالتعليم، وقلب الأشياء النظرية إلى أمور فعلية وقام بنفسه بوظيفة معلم فربى التلاميذ، فأنشأ مجتمع علم وإيمان في دنيا خامدة وبين جماعات هامدة.

وبعد المنشئ والمعماري الأول يستطيع المجتمع أن يستخرج الإداريين من بين أفراده، غير أنَّ الفضل في كل ذلك يعود لِمَنْ أنشأ وعَمَّرَ أول مرة.

أجل، إن المجتمع المنفتح على العلم وعلى الفكر وعلى التقنية يدار من قبل أشخاص يمثلون هذا المجتمع ويكونون دائمًا من زبدة هذا المجتمع. فإن وجد العمل والثقافة

والتقنية فإن الزبدة تتشكل على الدوام في هذا المجتمع. ويشرح رسول الله ﷺ هذا الأمر بكلمات وجيزة وجامعة فيقول: «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم.»[1]

هناك آيات كريمة عديدة تهتم بالعنصر الإنساني وتشوق على هذا الاهتمام وتدعو إليه. وبمطالعة هذه الآيات بأجمعها يتوضح مدى الاهتمام الذي يبديه الدين الإسلامي للإنسان. ولكوننا لا نريد تدقيق هذا الموضوع والدخول إلى تفاصيله فإننا نكتفي هنا بالإشارة إلى آية أو آيتين لإعطاء فكرة مبسطة عنه. ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤) و ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (آل عمران:١١٠).

هذه الآيات وأشباهها مهمة جدًّا من زاوية اهتمام الإسلام بالإنسان وبالعلم.

لقد تناول الإسلام قلب الإنسان وروحه ومشاعره وعواطفه وتفكيره بشكل متوازن ووجهها نحو الغاية من خلقه... لا إهمال ولا عدم توازن. بل التوجه بهذه المشاعر والأحاسيس بأجمعها لمشاهدة ما وراء أستار الوجود، ولم يهمل الرسول ﷺ هذا الأمر طوال حياته السنية، وهذا شيء مهم بالنسبة للمرشد.

فكم من مرشدين لم يستطيعوا استغلال العناصر البشرية والإمكانيات المتاحة لهم فواجهوا الفشل... أي لم يستطيعوا صيانة أنفسهم من الوقوع في الأخطاء وهم على أبواب النصر. فالذين ملأوا الشوارع بمظاهرات الشباب إنما خاطبوا المشاعر واهتموا بها. ولكن مخاطبة المشاعر وحدها لا تنفع في الاعمال التي تتطلب الاستمرارية والدوام، علمًا بأن رسول الله ﷺ لم يفكر أبدًا في جمع الناس خلفه بإثارة مشاعرهم وعواطفهم، ذلك لأن هؤلاء الذين يتجمعون بمثل هذه العاطفة يمكن أن ينفضوا عنه نتيجة عاطفة أخرى فيبقى وحيدا، بينما لم يتخل أصحاب رسول الله ﷺ عنه حتى في أحلك الساعات وأصعبها وأثقلها... دع عنك التخلي عنه، بل كانوا يفدونه بأرواحهم ويعدون الموت في سبيله وفي سبيل دعوته أمنية حياتهم.

ولنرجع إلى الصدد: إذا كان بلد ما بلدًا معمورًا فهو معمور بإنسانه، وهذا هو ما فعله الرسول ﷺ، فالأفراد الذين بعثهم إلى مختلف أقطار الأرض أبدَوْا دراية وحنكة في إدارة الدولة والشعوب ولم يقصروا في فتح المدارس ودور العلم، وهذا يظهر لنا أن الرسول ﷺ نجح في تربية أصحابه وتنشئتهم وإعداد تابعيه... والأهم من ذلك أنه أولى الإنسان الذي هو اللبنة الأولى في أي عمل إصلاحي عنايته حتى يُعِدَّهُ لأصعب المهام.

---

[1] كنز العمال للهندي، ٨٩/٦.

الفصل الثالث: القائد واستخدام الكفاءات في المكان المناسب

لقد استخدم الرسول ﷺ أصحابه ومن اتبعه بشكل صحيح، فوضع كلا منهم في مكانه المناسب، وعندما كان ينتدب أحدًا لمهمة ما، فمن المؤكد أنه كان أنسب الأشخاص الموجودين لتلك المهمة وإجراءاته شاهدة على هذا، إلى درجة أنه لو لم يكن هناك دليل آخر على نبوته لكان اكتشافه لقابليات الأفراد واستعمال كل فرد منهم في موضعه الصحيح وفي مكانه المناسب وإعطاء كل واحد منهم الوظيفة المناسبة والملائمة له للاستفادة القصوى من قابلياته وطاقاته وعدم وقوعه في أي خطأ في هذا الموضوع، أي استمراره في استخدام الأشخاص في الوظائف التي وكلها إليهم حتى أواخر أعمارهم -هذا باستثناء الحالات التي استخدم بعضهم لمدة مؤقتة تألفًا لقلوبهم ومراعاة لحالاتهم النفسية- دليلاً قائمًا بذاته على هذه النبوة بحيث لا نملك إلا أن نهتف: "محمد رسول الله."

لقد حفلت المرحلة الأولى للإسلام بالآلام وبالمحن وبأيام شديدة قاسية، ففي ظرف (٥-٦) سنوات بلغ عدد المؤمنين أربعين شخصًا فقط... وما كان في الإمكان آنذاك أن تحدث شخصًا حول الإسلام دون أن تخاطر بحياتك: حتى أن شخصًا في مكانة أبي بكر الصديق ﷺ ضرب مرات عديدة وأغمي عليه من شدة الضرب[1] وعمر بن الخطاب ﷺ... هذا الرجل القوي الجبار الذي كان يصارع الجمل، ضرب مرات عديدة وديس عليه.[2] فإذا كان الظلم والقهر قد وصلا إلى هذا المستوى مع هؤلاء الأشخاص المعروفين. فتصوروا أنتم حال الآخرين من الناس.

في هذا الجو القاتم والمكفهر تعامل الرسول ﷺ مع كل واحد معاملة خاصة، فلم يأمر مثلا أبا بكر وعمر ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، ولم يأمر كذلك عليًا وزبيرًا لصغر سنهما، ذلك لأن أمثال هؤلاء كانوا من الذين يستطيعون تحمل ما يجري في مكة.

كان عثمان بن عفان ﷺ ذا بنية نحيفة، وكان من الصعب عليه أن يتحمل ذلك الجو القاسي الذي كان يعصف في مكة، ثم كان هو أفضل من يستطيع حماية

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٤٠-٤١.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٣/١٠٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١/٢٣٤.

المسلمين في الحبشة، لذا كلفه الرسول ﷺ بهذه المهمة وأرسله إلى الحبشة.[١]

إليكم نماذج من هذا الأمر:

أ- أبو ذر الغفاري رضي الله عنه

فمثلاً جاء أبو ذر الغفاري رضي الله عنه إلى مكة ثم أعلن إسلامه، ولكن وجود مثل هذا الشخص ذي المشاعر الفوارة والعواطف المتأججة في مكة آنذاك لم يكن مناسبًا بل ضارًا له ولغيره، لذا أمره الرسول ﷺ بالرجوع إلى قبيلته والقيام بمهمة الإرشاد هناك وقال له: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري.» فرجع إلى قومه ولم يأت إلى الرسول ﷺ إلا بعد فتح خيبر.[٢]

كان أبو ذر عابدًا زاهدا،[٣] ومن أنصار العدالة الاجتماعية إلى درجة قد تحير علماء الاجتماع الحاليين، وهو في نظر البعض منهم أول من طرح الفكر الاشتراكي. لندع أفكارهم هذه لهم ولنرجع ونتساءل. ما الفقر؟ وكيف يمكن محاربته؟ كان أبو ذر رضي الله عنه أول بطل طرح هذا الأمر، وهو أحد الثلاثة الذين تشتاق لهم الجنة.[٤] ومع ذلك فإنه عندما جاءه يطلب الإمارة رده. ففي الحديث الوارد في صحيح مسلم عن أبي ذر: قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيف. وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها.»[٥]

عندما قال النبي ﷺ هذا لأبي ذر رضي الله عنه، لم يقل القول نفسه لأبي بكر أو لعمر رضي الله عنه، على العكس من ذلك فقد أشار إلى إمارتهما عندما أمسك بيده اليمنى يد أبي بكر رضي الله عنه وبيده اليسرى يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: «إن لي وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض. فوزيرايَ من أهل السماء جبريل وميكائيل ووزيرايَ من أهل الأرض أبو بكر وعمر.»[٦]

ومن ناحية أخرى فقد اطلع من وراء ستار الغيب إلى خلافة الصحابة الأربعة الراشدين وأعطى بعض الإشارات والإيماءات حولها. وعندما جاء ذكر عثمان بن عفان رضي الله عنه قال ﷺ: «ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه.»[٧] وفعلاً أحاطت البلايا بأواخر خلافة عثمان رضي الله عنه.

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٤٤/١؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٨٤/٣.

[٢] البخاري، مناقب الأنصار ٣٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٣٢-١٣٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤٥/٣-٤٧.

[٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٣٠/٩؛ الإصابة لابن حجر، ٦٢/٤.

[٤] مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٣٠/٩.

[٥] مسلم، الإمارة ١٦، ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ١٧٣/٥.

[٦] كنز العمال للهندي، ٥٦٣/١١، ١٥/١٣.

[٧] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٥-٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٩.

أجل، كان يعرف صحابته معرفة جيدة... بل كان يعرفهم أكثر مما يعرفون هم أنفسهم، فلم يخطئ أبدًا عند إسناد المهمات إلى أي فرد منهم، فقد يعتقد أبو ذر ﷺ أنه أهل للإمارة، ولكن رسول الله ﷺ كان يعرف أبا ذر أكثر مما يعرف أبو ذر نفسه، لذا قال له: «يا أبا ذر! إنك ضعيف. وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة...» قال له هذا ولم يؤمره. والآن لنعط مثالاً حول هذا الأمر.

ب- عمرو بن عَبَسَة ﷺ

جاء في صحيح مسلم ومسند ابن حنبل ﷺ عن عمرو بن عَبَسَة أنه جاء إلى النبي ﷺ بمكة فقال له بغلظة: ما أنت؟ قال: «أنا نبي.» فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله.» قلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحّد الله لا يُشرك به شيء» قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حرٌّ وعبد» قال ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به. فقلت: إني متبعك.

حدث هذا في العهد المكي وفي وقت كان الرسول ﷺ في حاجة ماسة إلى أي رجل فرد يقف بجانبه ليزداد قوة، ولكن الرسول ﷺ كان يعلم من يستعمل وأين يستعمل ذلك الشخص، وما المهمة التي يعهدها إليه، لذا فقد قال لعمرو بن عَبَسَة ما قاله لأبي ذر الغفاري... قال له أن يرجع إلى قومه لأنه لن يستطيع المكوث في مكة ومقاومة الظلم والإرهاب فيها: قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومَك هذا. ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني»

وهكذا كان... إذ رجع عمرو إلى قومه... ومرت السنوات وبدأت الانتصارات تتوالى على الرسول ﷺ وعلى المسلمين، وبلغت أنباؤها عمرًا فتوجه إلى المدينة المنورة وقصد المسجد النبوي حيث كان النبي هناك مع أصحابه... لنتابع الرواية: فقدمتُ المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم، ألست أنت الذي أتيتني بمكة؟.»[1]

واندهش عمرو من ذاكرة النبي ﷺ... لأن تذكّر عمرو للحادثة في مكة ليس مهمًا، لأنه لا يمكن أن ينسى هذه الحادثة التي تعد أهم حادثة في حياته ولكن الوضع يختلف بالنسبة لرسول الله ﷺ، فقد مرت عليه حوادث مشابهة عديدة ضمن هذه السنوات العديدة الحافلة بالآلام وبالمشقات، فكان من الغريب أن يتذكر وجهًا رآه لمدة خمس دقائق فقط بعد كل

[1] مسلم، صلاة المسافرين ٢٩٤؛ المسند للإمام أحمد، ١١٢/٤.

هذه السنوات الثقيلة التي تنسي الشخص أقرب أصدقائه. ولكن الرسول ﷺ تذكره حالما رآه لأنه لم يكن ينسى أي إنسان ارتبط به. ولو لم يأت إليه عمرو بن عَبَسَة وأبو ذر ﷺ بعد فتح مكة لأرسل في طلبهما، لأن النصر إنما تم بعد فتح مكة.

أجل، لقد كان يعرف أتباعه أكثر مما نعرف نحن أولادنا. ذلك لأنه كان لكل إنسان مكانه الخاص في قلبه، لأن مثل هذه المعرفة كانت ضرورية له لكي يستطيع أن يوكل المهمات إلى أصحابها الذين يستطيعون إنجازها وحمل عبئها.

هل هناك في التاريخ قائد آخر كان على هذا القدر من العلم بكادره وأتباعه..؟ لا أظن ذلك... ذلك لأن رسول الله ﷺ لم يكن قائدًا وزعيمًا فقط بل نبيا أيضا، وكل كلامنا يدور حول محور نبوته هذه.

ج- جُليبيب ﷺ

كنا قد تكلمنا سابقًا عن جُليبيب... وكان ككل شاب آخر في مثل هذا العمر يتعرض لبعض المشاكل النفسية تجاه الجنس الآخر، وقد فهم الرسول ﷺ مشكلته هذه ودعا له. ولكن رسول الله ﷺ استطاع ببيانه الساحر أن يقنعه بترك هذا ثم دعا له.[1]

أصبح جليبيب من أعف الشباب في المدينة. عن أبي بَرْزَة الأسلمي أن جُليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتي: لا يدخلن عليكم جُليبيب فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن. قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أَيِّمٌ لم يزوجها حتى يُعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا. فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: «زوجني ابنتك» فقال: نعم وكرامة يا رسول الله، ونعم عيني. فقال: «إني لست أريدها لنفسي» قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: «لجُليبيب» قال فقال: يا رسول الله أشاور أمها. فأتى أمها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك. فقالت: نعم ونعمة عيني. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجُليبيب. فقالت: أجليبيب إِنِيه أجليبيب إِنِيه أجليبيب إِنِيه؟ لا لعمر الله لا تزوجه. فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها فقالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعوني فإنه لم يضيّعني. فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فأخبره قال: شأنك بها فزوجها جُليبيبا. قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له قال: فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نفقد فلانا

[1] المسند للإمام أحمد، ٥/٢٥٦-٢٥٧.

ونفقد فلانا. قال: «انظروا هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. قال: «لكني أفقد جُليبيبًا» قال: «فاطلبوه في القتلى» قال: فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتاه النبي ﷺ فقام عليه فقال: «قتل سبعة، ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه» مرتين أو ثلاثا ثم وضعه رسول الله على ساعديه وحفر له ما له سرير إلا ساعدا رسول الله ﷺ، ثم وضعه في قبره.[1]

أجل، لم ينسه... إذ لم يكن ينسى أيًا من أتباعه وأصدقائه، لأنه كان رمز الوفاء.

د- علي بن أبي طالب رضي الله عنه

كانت معركة خيبر قائمة والحصار مستمرًا، ولكن الأيام مضت دون إحراز أي نتيجة. وفي أحد الأيام قال الرسول ﷺ: «لأُعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فبات الناس يَدُوكُونَ[2] ليلتهم أيهم يُعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها فقال: «أين عليّ بن أبي طالب؟» فقالوا: هو يا رسول الله! يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأُتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية.[3] وفعلاً فتحت خيبر على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وتحققت نبوءة الرسول ﷺ فما من أحد كلفه بمهمته إلا وأنجزها... فمثلاً قال عن خالد بن الوليد رضي الله عنه إنه سيف الله[4] وفعلاً أصبح خالد سيفًا من سيوف الله، فما من معركة دخلها إلا وانتصر فيها، لذا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "لم تلد الأمهات رجلا مثل خالد."[5]

وأودع الرسول ﷺ إلى القَعْقَاع بن عمرو التميمي أيضًا وظائف مهمة أنجز جميعها بنجاح حتى قال أبو بكر رضي الله عنه في حقه: "لا يُهزم جيش فيه مثله."[6]

وعَيّن أسامة قائدًا على جيش وهو في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمره، وأرسله إلى مؤتة، وقد أظهر أسامة طوال حياته أنه كان أهلاً لمثل هذا الموقع.[7]

---

[1] مسلم، فضائل الصحابة ١٣١؛ المسند للإمام أحمد، ١٣٦/٢، ٤٢٢/٤، ٤٢٥.

[2] يَدُوكُونَ: يخوضون ويتحدثون في ذلك. (المترجم)

[3] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٩؛ مسلم، فضائل الصحابة ٣٤.

[4] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢٥.

[5] رجال حول الرسول لخالد محمد خالد ص٢٩٣.

[6] الإصابة لابن حجر، ٢٣٩/٣-٢٤٠.

[7] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ٦٣؛ الإصابة لابن حجر، ٣١/١.

هـ- الزوجات الطاهرات رضي الله عنهن

كان اختياره لزوجاته من بين المئات من النساء اختياراً موفقاً يستحق الوقوف عنده. إذ كان عليه أن يختار زوجات يستطعن تحمل عبء مسؤولية أمومتهن للمؤمنين، وكان مصيبًا تمامًا في اختياره. فقد بينت الأيام أنهن من الذهب المصفى، فقد أصبحن مرشدات ومعلمات وخدمن الإسلام خدمة كبيرة، وقمن بوظيفة التبليغ والإرشاد للعديد من الرجال العظام الذين ازدحموا على أبوابهن. فكم من زاهد وعابد وعالم أمثال مسروق وطاووس بن كيسان وعطاء بن أبي رباح أخذوا الدروس وتعلموا منهن وكانوا تلاميذ لهن ونهلوا من علمهن.

فالرسول ﷺ كان يختار المرأة التي ستكون في المستقبل مرشدة، ويهيئ لها إمكانية التعلم في بيته وإمكانية التعليم بحيث تصبح من ورثة دعوة النبوة في المستقبل، ولا توجد ضمن زوجاته الطاهرات امرأة واحدة لم تخدم هذا الهدف، فكما خدمت السيدة خديجة رضي الله عنها الإسلام في بدء الدعوة ووضعت كل ثروتها في هذا السبيل، خدمت الزوجات الأخريات هدف نشر المعرفة الإسلامية بنفس التصميم، وهكذا نعلم أنه ما اختار زوجاته بدءً بخديجة رضي الله عنها وانتهاء بزوجاته الأخيرات إلا بفراسة النبوة، صحيح أنه تزوج خديجة رضي الله عنها قبل نبوته إلا أنه كان في ظل بشائر تلك النبوة وأماراتها، ولا يمكن تفسير اختياراته الصائبة كل هذا الصواب تفسيرًا آخر.

الفصل الرابع: صاحب الفراسة المتنورة بالوحي

إن حصول أي قائد على ثقة جماعته وأتباعه مرتبط بحصوله على قبولهم له ورضاهم عنه من كل جانب من جوانبه ونظرهم إليه كشخص موثوق يمكن الاعتماد عليه. وهذا متعلق بقدرته على حل جميع مشاكل هؤلاء الأتباع سواء أكانت فردية أم عائلية، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية. وكلما كان هذا القائد موفقًا في حله لهذه المشاكل كلما زاد قبوله من قبل أتباعه وزادت محبتهم وتقديرهم وتوقيرهم له، وأصبح لهم رمزًا أبديًا، وكان رسولنا محمد ﷺ قائدًا للإنسانية لا شبيه له في حل مشاكلها ومعضلاتها.

هناك بديل لحل المشكلات، وهو اللجوء إلى الضغوط وإلى استخدام القوة وسن العقوبات والطرد من البلاد وحرمان الشخص من حقوق المواطنة وفتح أبواب السجن على مصاريعها وتطبيق صنوف التعذيب وبث العيون والجواسيس بين الناس وإشاعة جو من الإرهاب والفزع بين المواطنين... لن تستطيع حل أي مشكلة بهذا الأسلوب... لا تعجز فقط عن حل المشكلات بل ستتسبب في خلق تعقيدات عديدة وهزات عنيفة في المجتمع، لذا فهذا ليس أسلوبا للحل وإن كان البعض يتصوره طريقا ناجحا في حل المشكلات، إلا أنه في الحقيقة طريقا لإثارة المشكلات ودخول إلى دائرة مفرغة، وبينما تفرح لاعتقادك أنك حللت كل شيء، إذا بك تفاجأ بتعقيدات لم تخطر لك على بال. وعندما تتشكل مثل هذه الدائرة المفرغة فإن كل حركة تتحركها تغرقك في الوحل أكثر فأكثر حتى تكسر هذه الدائرة.

بينما قام رسول الله ﷺ بحل جميع المشكلات والمعضلات بكل سهولة ويسر دون أن يدخل داخل هذه الدائرة المفرغة ودون أن يستعمل الضغوط والإرهاب والقوة، بل أخذ الإرادة الإنسانية الحرة بنظر الاعتبار واحترمها. ولو أخذت هذه الناحية فقط بنظر الاعتبار دون النظر إلى حالاته الخارقة للعادة ودون النظر إلى معجزاته العديدة لآمنت بأنه رسول من عند الله... أجل، إنه رسول الله لا غير... وإلا كيف يمكنه حل كل هذه المشكلات..؟ كيف كان يمكنه هذا مع أنه نشأ في مجتمع كان يثير المشكلات لأتفه الأسباب، وتنشأ بينهم الخصومات الدموية لأحقر الأمور وتشتعل الفتن لأهون الأشياء... مجتمع غارق في البداوة والضلالة والطغيان والظلام، لقد وضع الله تعالى عبء إرشاد مثل هذا المجتمع على كاهل النبي ﷺ. يقول القرآن الكريم:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر:٢١). فهذه الآية تشرح كيف أن هذه المهمة التي أعطيت للرسول ﷺ لو أعطيت للجبال لتصدعت من جرائها... أجل، لقد كانت المهمة شاقة وصعبة إلى هذه الدرجة، ولاسيما في ذلك المجتمع البدوي والبدائي الغارق في الضلالة، فتناول الرسول ﷺ مشاكل هذا المجتمع مشكلة مشكلة ومعضلة معضلة وبدأ بفك عقدها وحل مصاعبها، فأوصل هذا المجتمع إلى شاطئ الاطمئنان وإلى ساحل السلامة.

لقد صنع من هذا المجتمع مجتمع أمن وطمأنينة إلى درجة أنك لن تستطيع رؤية مثل ذلك المجتمع إلا في الكتب التي تصف المدن الفاضلة ككتاب أفلاطون "الجمهورية"، وكتاب "توماس مور" "يوتوبيا" وكتاب كامبانللا "مدينة الشمس"... لقد كتبت كل هذه الكتب بأمل البحث أو بدافع الشوق إلى مجتمع مثل المجتمع الذي أنشأه الرسول ﷺ... لندع هؤلاء يتجولون في أودية الخيال ولننظر إلى الرسول ﷺ الذي أنشأ قبل قرون مجتمعًا أزال منه الجوانب السلبية الموجودة حتى في هذه المجتمعات المثالية والخيالية، وجعله مجتمعًا مثاليًا يبرق في السماء بريق النجوم ليهتدي به من يأتي من بعده... فمن اهتدى بهذا النجم اهتدى إلى الحق وملأ الاطمئنان قلبه... ونحن نرى هذه الحقيقة في أيامنا الحالية بكل وضوح. ونفهم أن مجتمع الصحابة كان مجتمعًا حقيقيًا وواقعيا، ونطمح في أيامنا القادمة السير نحو ذلك المجتمع النوراني.

لو لم يقم الرسول ﷺ بحل جميع مشاكل ومعضلات إنسان ذلك العصر أكان من الممكن ظهور الصحابة الذين هم فخر الإنسانية..؟ كلا بالطبع. ولكن هل كان الرسول ﷺ يحل كل هذه المشاكل بعقله الخاص فقط..؟ كلا بالطبع. ونضيف فنقول إن الله تعالى وهب له فطنة نبوية، أي فطنة ينورها الوحي بحيث استطاع بهذه الفطنة أن يحل جميع المشاكل بكل يسر، وهذا من أدلة نبوته وهي منطلق بحثنا هذا. والآن لنتعرض لبعض الأمثلة في هذا الخصوص:

أ- التحكيم حول الحجر الأسود

كان الناس في ذلك العهد يراجعونه ليحل لهم مشاكلهم المتعددة. وعندما بدئ بترميم الكعبة -الذي شارك فيه شخصيًا- كان وضع الحجر الأسود في مكانه مشكلة قابلة للانفجار بين القبائل العربية قد تؤدي إلى إراقة الدماء. وكان من الواضح أن المشكلة إن لم يتم حلها في ظرف يوم أو يومين فإن الحرب آتية دون ريب. وكما قلنا سابقًا إن الرسول ﷺ إن لم يحل هذه المشكلة بوضع الحجر الأسود في مكانه بطريقة يرضى عنها الجميع لنشب

نزاع دموي. وكما هو معلوم فقد وضع الحجر الأسود في ثوب ودعا زعماء القبائل إلى الإمساك من أطرافه وحمل الحجر الأسود جماعيًا. وعندما اقتربوا من مكان الحجر الأسود رفعه بيديه ووضعه في مكانه.

هذه الحادثة -التي لا ندخل في تفاصيلها- تبين لنا كيف أن الرسول ﷺ كان حتى قبل نبوته صاحب فطنة كبيرة.

عندما قام بهذا التحكيم كان عمره يتراوح بين العشرين وخمس وعشرين، أي قبل أن يتشرف بالنبوة ويتأيد بها، وقبل اكتسابه أعماقًا أخرى وقبل انفتاح أبواب اللانهاية أمامه وقبل بدء تلقيه الدروس من ربه. ولكن حتى قبل أن يأتيه الوحي، كان قد احتلّ -بالالهامات التي كانت ترد إلى قلبه- مكانة في القلوب إلى درجة أن كفار قريش ما أن رأوه داخلاً من باب المسجد حتى هتفوا فرحين: "هذا الأمين.. رضينا.. هذا محمد"[1] جاء وحلّ تلك المشكلة.

أجل، حل تلك المشكلة دون أن يفكر طويلاً أو ينتظر أو يأخذ رأى فلان أو علان أو يبحث في الأمر مليا... حلها ببساطة وكمن يسل شعرة من عجين... كان ذلك أمرًا بسيطًا بالنسبة إليه، ولم يعترض أحد عليه، وما كان بإمكانه أن يعترض، ذلك لأنهم عينوه حَكَمًا لهم، وقام هو بوظيفة الحكم خير قيام، دون خطأ أو تعثر أو تردد، وأرضى الجميع.

لم يخط في حياته خطوة إلى الوراء أبدًا، لأنه كان صاحب فطنة كبيرة يفهم ما يُلقى إليه من ربه حق الفهم... كانت فطنته هذه مثل برعم زهرة تفتحت، وكلما تفتحت تلونت وابتسمت في الوجه العابس للإنسان... هذا الإنسان المليئة حياته بالمشاكل وبالرغبات غير المشبعة.

وقد تتصور أن أبعاد عظمته قد انتهت، أو أنك أحطتَ بها، ولكن هيهات... فعلى قول الشاعر المتصوف "يونس أمره" إنه برعم في داخله براعم أخرى...

أجل، لقد راجعه الآخرون طوال حياته السنية، ولم يَرُدّ هو أحدًا راجعه حزينًا أو مهموما، بل قام بحل مشاكله. فمنذ البداية قام بحل مشاكل قومه الذين كانوا مهيئين لإثارة المشاكل والفتن على الدوام... كانوا يثيرون المشاكل، وكان يقوم بحل تلك المشاكل واحدة تلو الأخرى.

كانت الهجرة مشكلة قائمة بحد ذاتها... مشاكل الحرب والنزاع والسلام، مشاكل المنافع والمصالح المادية مشاكل الغنيمة... ولو لم يستطع الخروج من بين هذه المشاكل، لكان من المحتم دخول قومه المحبين للجدل والنزاع والخصام في نزاعات دموية فيما بينهم.

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٤٢٥/٣؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٠٩/١.

ب- تقسيم غنائم حُنين

وأشرنا إلى هذه الحادثة أيضًا وإلى حكمته البالغة وبُعد نظره وفراسته المرهفة في منع وقوع فتنة بين المسلمين وأوردنا خطابه الرائع الذي شرح لهم فيه كيف أنه تألف بهذه الغنائم قلوب زعماء قريش وأنه وكلهم إلى إسلامهم، وأن هذه الغنائم ليست إلا لعاعة من لعاعات الدنيا الفانية وأنهم الرابحون حقًا لأنهم سيرجعون برسول الله ﷺ معهم، ثم دعا لهم ولأولادهم ولأحفادهم. ففتح ببيانه الرائع قلوبهم حتى بكوا واخضلت لحاهم بالدموع.[1] وهذا مثال من أمثلة فراسته وفطنته وسرعة بديهته. ولا نفصل هنا هذا الموضوع فقد سبق وأن شرحناه ببعض الإسهاب.

ج- مشكلة الهجرة

تُعد الهجرة مشكلة على الدوام، وهي تقع في أيامنا الحالية أيضًا،[2] ونرى كيف أن دولتنا بدأت تقاسي الأمرين من جراء هذه الهجرة، وقد أظهرتُ قلقي في عدة خطب، وقلت إن هذه نتيجة مؤامرات تحاك في الخارج وتوضع كتمثيلية على مسرح تركيا... وغدًا سيفتحون بابًا للنفاق في الشرق وبابًا للشقاق في الغرب، وفتنة في الشمال وأخرى في الجنوب... يستطيعون فتح هذه الأبواب، ذلك لأن الكفار والظالمين ومنافقي آسيا متهيئون على الدوام لفتح أبواب الغوائل أمامنا. وكانوا قد انتهزوا فرصة ضعفنا في السابق فأزالوا الدولة العثمانية التي كانت عنصر توازن دولي آنذاك، ولو لم تلتجئ الأمة في النهاية إلى معاني روحها وإلى جذور عقيدتها في معركة "شنق قلعة" وفي "حروب الاستقلال" لما كانت هذه الأمة قائمة وموجودة اليوم... بل لتضرر العالم الإسلامي كله من هذا الأمر، ولكن فدائيي "شنق قلعة" و"حرب الاستقلال" استطاعوا تسخير القوى الديناميكية الموجودة في روح هذه الأمة والتي تنبع من عقيدتها ومعنوياتها واستعانوا بالله تعالى فأنقذوا هذه الأمة من أن يكون مصيرها مثل مصير بلغاريا أو مصير تُركِستان أو أوزبكستان أو مُنغوليا... وندعوا الله تعالى أن يمكن هذه البلدان أيضًا من كسر سلسلة العبودية التي تطوق أعناقها[3] وأن يمكنهم من محاسبة خصومهم ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ

---

[1] البخاري، المغازي ٤٥٦ مسلم، الزكاة ١٣٢-١٣٥؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٤١/٤-١٤٢.

[2] فقد سيق مثلا (٣٠٠) ألف أخ من إخواننا في الدين والقومية إلى الهجرة من بلغاريا إلى تركيا في سنة ١٩٨٩ ووقعت في أثناء هذه الهجرة مآسٍ وفواجع عديدة.

[3] قال المؤلف هذا قبل انهيار الاتحاد السوفيتي. (المترجم)

النَّاسِ﴾ (آل عمران:١٤٠). فإذا كانت الأيام متوجهة نحو أعدائهم اليوم، فقد تدبر عنهم غدا، وقد تغشى الابتسامة والانشراح في المستقبل هذه البلدان المظلومة البائسة.

أجل، إن الهجرة مشكلة قائمة بذاتها وما ذكرناه باختصار عن الهجرة الحالية التي وضعت أمة تعدادها ٥٥ مليون نسمة وحكومتها في وضع حرج وصعب مثال واضح. غير أن الهجرة التي حدثت آنذاك كان عدد أفرادها يكاد يقترب من عدد أهل المدينة ولكن النبي ﷺ استطاع بفطنته أن يجنب الذين هاجروا سواء إلى الحبشة أو إلى المدينة من الضوائق المادية. وإضافة إلى تخطي المتاعب الدنيوية فقد تحققت نتائج جيدة. والحقيقة أنه لا توجد هجرة في تاريخ العالم تحققت بهذا النجاح الذي تم على يد رسول الله ﷺ فكيف حل الرسول ﷺ هذه المعضلة الكبيرة؟ لنشرح هذا بعض الشيء دون الدخول في تفاصيل كثيرة:

كانت يثرب مدينة صغيرة يعمل أهلها في الزراعة، لذا فقد كانت سوقها في يد اليهود، صحيح أن المهاجرين من أهل مكة كانوا يجيدون التجارة إلا أنه لم يكن عندهم الرأسمال اللازم للتجارة؛ ومن ثم فما كان يمكنهم منافسة اليهود، فكيف كان بإمكانهم التعامل بالتجارة وقد تركوا كل أموالهم وأملاكهم في مكة؟ ثم إن أعداد المهاجرين كانت في تزايد مستمر، وكانت نفوس أهل المدينة في تصاعد سريع، فأين يستقر هؤلاء ومن أين يأكلون ولاسيما أن أهل المدينة فقراء.. كانت المشاكل تتراكم وتزداد وتنتظر كلها الحلول من الرسول ﷺ. كان الجميع يتطلعون إليه ويثقون بقدرته على حل هذه المشكلات جميعها. وفعلاً قام بحلها بضربة واحدة.

ما أن حل الرسول ﷺ في المدينة حتى آخى بين المهاجرين والأنصار، فقد نفخ في أرواحهم روح آصرة أخوة أقوى من أخوة النسب وأبعد منها مدى، إلى درجة أنهم توارثوا لفترة من الزمن...[1] كانت هذه الأخوة قوية إلى درجة أن الأنصار قسموا أموالهم قسمين وأعطوا قسمًا منها إلى المهاجرين، حتى لقد بلغت هذه الأخوة مرتبة جرت فيها هذه الحادثة التي تذهل العقول:

جاء في رواية ينقلها البخاري أن المهاجرين عندما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عِدتها

---

[1] انظر إلى تفسير هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:٧٥) من تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤/٤٢-٤٣ والدر المنثور للسيوطي، ٤/١١٧-١١٨.

فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أَقِط[١] وسَمْن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يومًا وبه أثر صفرة فقال النبي ﷺ: «مَهْيَم.»[٢] قال: تزوجت، قال: «كم سقتَ إليها؟» قال: نواة من ذهب.[٣]

أي أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ أسرع بالزواج حالما توفرت له فرصة إعالة بيته، وهذا نوع من الاحترام لمشاعر الذين كان يتردد على بيوتهم، ومثال على رهافة الحس ورقة الروح والذوق.

لا شك أن أعظم المشكلات تذوب أمام هذه الأخوة؛ فهولاء المضحون الذين ارتبطوا ببعضهم بمثل هذه الرابطة القوية كانوا هم المرشحين لفتح العالم؛ وروح الأخوة التي كانت ترفرف في سماء المدينة سيأتي يوم تحلق فيه على أرجاء العالم كله.

١. نزاع بين الاستغناء والكرم

كان رسول الله ﷺ جالسًا وحده فدخل عليه بعض زعماء المهاجرين بعد الاستئذان منه... لم يكن بينهم أحد من الأنصار، وكان هذا جالبًا للانتباه، فلماذا أتى المهاجرون ولم يدعوا معهم أحدًا من الأنصار؟

وبعد الاستئذان من الرسول ﷺ عرضوا عليه ما جاءوا من أجله فقالوا: "يا رسول الله! ما رأينا قومًا أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم لقد كفونا المؤنة[٤] وأشركونا في المهنأ[٥] حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله." فقال النبي ﷺ: «لا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم.»[٦]

كانت هذه هي الأخوة التي نفثها رسول الله ﷺ في قلوب أصحابه، وهذه هي الأخوة التي جعلت منهم جسدًا واحدًا. فالأنصار كانوا يحبون أن يبقى المهاجرون في بيوتهم، لأن فراق هؤلاء الإخوة كان شيئا مؤلما ألم الموت. فمع أنهم كانوا يلتقون بهم خمس مرات في اليوم في المسجد إلا أن فقدانهم لهم في غرف بيوتهم وفي وجبات الطعام التي تقاسموها معهم كان يحزّ في نفوسهم...

---

[١] أَقِط: نوع من الجبن. (المترجم)

[٢] مَهْيَم: أي ما حالك؟ أو: ما شأنك؟ (المترجم)

[٣] البخاري، مناقب الأنصار ٣.

[٤] أي تحملوا عنا مؤنة الخدمة في عمارة الدور والنخيل وغيرهما. (المترجم)

[٥] المهنأ: ما أتاك بغير تعب، والمعنى: أشركونا في ثمار نخلهم. (المترجم)

[٦] الترمذي، القيامة ٤٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣/٢٠٠، ٢٠٤.

أجل، كان هناك استغناء من طرف وكرم ومروءة وتضحية في الطرف الآخر وكان كلا الطرفين يصرّ على موقفه. وأخيرا قد توصل الطرفان إلى اتفاق يقضي بأن يقوم المهاجرون بالعمل في مزارع الأنصار مقابل أجرة، وهكذا يستطيعون إعالة أنفسهم ويسكنون في مساكن مستقلة بهم ولا يقون تحت منة أحد. وهكذا ساعد الأنصار المهاجرين باستخدامهم في العمل. وهكذا حل الرسول ﷺ مشكلة الهجرة على نطاق كبير بشعور الأخوة الذي أسسه في المدينة.[1]

وكانت المشكلة الثانية التي حلها هي التجارة، فقد رأى الرسول ﷺ أن اليهود هم المسيطرون على الحياة التجارية في المدينة، فأصدر أمره بتأسيس سوق للمسلمين في مكان آخر[2] لكي يتعاطى المسلمون عمليات البيع والشراء فيما بينهم في سوقهم الخاصة بهم من أجل أن يدخل المسلمون إلى عالم التجارة ويزدادوا قدرة وقوة ويؤسسوا محالهم التجارية الخاصة بهم ويقضوا على هيمنة غير المسلمين على السوق.

تأسست سوق جديدة وبدأ المسلمون يتعاطون البيع والشراء فيما بينهم فنرى كتاب المغازي ينقلون بأنه لم يمر وقت طويل حتى عجز اليهود عن مواصلة التجارة في المدينة المنورة. أجل، فلم يعد باستطاعة أحد منافسة المسلمين تجاريًا في سوق المسلمين. وهذا ما كان الله تعالى يريده... فالله تعالى لا يريد من المسلمين أن يكونوا تابعين لأحد... إن الله لا يرضى لنا أن ننتظر الأوامر الصادرة من الآخرين ولا أن نلتجئ للآخرين ونرجو منهم أن يحلوا لنا مشاكلنا ونستعطفهم قائلين: نرجو ونتوسل منكم أن تحلوا لنا المشكلة الفلانية... هذا لا يرضاه لنا. يجب أن يكون المؤمن عزيز الجانب واقفًا على قدميه ينجز أعماله بيده ويحل بنفسه مشاكله، ويرى بعينه لا بعيون الآخرين ويعيش حسب معتقداته ويحافظ على أصالته... وهذا ما أسسه الرسول ﷺ في المدينة.

٢. أول دستور

ما أن وصل الرسول ﷺ المدينة حتى نشر بيانًا.[3] ويطلق المتخصصون في القانون اسم "دستور رسول الله ﷺ " على هذا البيان الذي أعلنه بعد وصوله إلى المدينة بوقت قصير. ففي هذا البيان أو هذه المعاهدة نرى وجود أسس معظم ما جاء في بيان حقوق الإنسان

---

[1] البخاري، مناقب الأنصار ٣.

[2] ابن ماجه، التجارات ٤٠؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٧٦/٤.

[3] السيرة النبوية لابن هشام، ١٤٧/٢. وهي الوثيقة المعروفة بـ"وثيقة المدينة".

وفي "فرمان التنظيمات" عندنا. فالحقوق التي تعهد بها للمسيحيين واليهود ساعدت على إرساء وحدة بين أهل المدينة وقربهم إليه وأبعدهم عن خصومه من البيزنطيين والساسانيين والقرشيين. لذا، عاش اليهود مدة تحت جناح المسلمين بكل اطمئنان وراحة وأمن. وقد عبر المنافق المعروف عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول عن قلقه أمام قريش فقال إنه لا يخشى قيام الرسول ﷺ بنشر دينه في المدينة. ولكن الخطر هو قيامه بجذب اليهود والنصارى إلى جانبه وضد المشركين.

وقد أصبحت هذه المعاهدة أو هذا البيان أو الدستور مدة طويلة سببًا في إرساء الصلح والأمن بين المسلمين واليهود حتى نقضها اليهود. وكان اليهود يراجعون الرسول ﷺ ويرضون به حكمًا.

أجل، إن كتب الحديث تبين لنا أنهم راجعوه في قضايا السرقة والقصاص والزنا. ونعلم من هذا أن المسلمين وإن أوكلوا شؤون اليهود إليهم وجعلوهم أحرارًا فيها إلا أن اليهود كانوا يرون في المسلم ولاسيما إن كان هذا رسول الله ﷺ عدالة أكثر وقابلية أكثر، لذا كانوا يراجعونه ويجعلونه حكمًا في كل مسألة. وهذا المصدر والنبع القدسي الذي سيصبح في المستقبل مرجع الإنسانية كلها كان قد أثبت مرجعيته بدأ من تلك الأيام.

وهكذا حل الرسول ﷺ مشكلة الهجرة بضربة واحدة ليتفرغ المسلمون للتوجه نحو العالم أجمع باطمئنان قلب.

د- مشكلة الحرب

للحرب وللهزائم مشاكلها... أجل، هناك مشاكل للحروب وللانقلابات وللانتصارات وللصلح... قمنا بعملية إنزال في قبرص سنة ١٩٧٤، ولكننا لا نزال نعاني من مشاكلها حتى الآن. إنني أقبّل جبين الجندي التركي الذي جابه الأعداء هناك وحاربهم، ولا أستهين أبدًا ببطولته ولكنكم ترون أننا لم نستطع حل مشاكلها حتى الآن. علمًا بأن جزيرة قبرص تم فتحها في عهد معاوية بسهولة وبسرعة ودون أن يخلفوا وراءهم أي مشكلة. ولكن الوضع أصبح يختلف الآن تمامًا. وقد ذكرت مسألة قبرص كمثال فقط، وإلا فإن غايتي الأصلية هي الإشارة إلى صعوبة حل المشاكل ولاسيما مشاكل الحرب والصلح. فقد مرت سنوات طويلة على حرب البلقان، ولكن آثار مشاكلها لا تزال باقية حتى اليوم.

لقد شهد رسول الله ﷺ الحروب أيضًا... أولاً مع قومه وقبيلته ثم مع اليهود في المدينة وحواليها، ثم دخل حربًا مع الإمبراطورية البيزنطية، فقد كان محاطًا بالأعداء، وكان هؤلاء

الأعداء مصدر مشاكل عديدة له. ولكنه كان يستطيع في كل مرة أن يستل نفسه من هذه المشاكل مثل استلال الشعرة من العجين.

١. التكتيك في معركة أُحد

لن أتناول هنا الانتصار في معركة بدر، ولا التعبئة في معركة الخندق ولا المفاخر التي سطرها الأبطال في مؤتة، ولا البطولات النادرة في معركة اليرموك بل سأتناول بإيجاز المسائل التي نتجت عن معركة أُحد التي تعد -في جانب منها- معركة كان للهزيمة فيها نصيب، والإشارة إلى تعامله مع هذه المسائل والقرارات الصائبة التي اتخذها في شأنها.

تُعد معركة أُحد أول معركة ظهرت فيها بوادر الهزيمة في صفوف المسلمين، وأنا أعوذ بالله من إسناد الهزيمة إلى أي مسلم حقيقي، ذلك لأنه كان لله تعالى تقدير خاص في ذلك أولا، إذ كان هناك أمام المسلمين أشخاص أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص من الدهاة العسكريين والسياسيين، وهؤلاء سيردون جيوشًا عديدة للأعداء على أعقابهم في المستقبل... صحيح أنهم كانوا آنذاك لسوء حظهم في صفوف المشركين، إلا أنهم كانوا صحابة المستقبل.

أجل، لقد غلب صحابة المستقبل صحابة اليوم، والمسألة الثانية هي أن الرماة -عين لهم الرسول ﷺ موضعًا خاصًا وأعطى لهم أوامر معينة- لم يلتزموا بتوجيهات الرسول ﷺ بل ظهر عند بعضهم حب جمع الغنائم، ولكنهم وجدوا عكس ما أملوا... والحقيقة أننا لا نرى في أنفسنا صلاحية وحق نقد هؤلاء الصحابة الأجلاء، فهم أولاً قد شرفوا برتبة المقربين، والمقربون لهم مستوى خاص من التعامل. ما أريد قوله هو أن هؤلاء الناس الشبيهين بالملائكة كانوا يعاملون معاملة خاصة، وإلا فإن حسناتنا تعد سيئات بالنسبة إليهم...

أجل، لو أننا فعلنا ما فعلوه آنذاك لاكتسبنا الثواب دون شك لكون باب الاجتهاد مفتوحًا على الثواب دائما. أما هم فقد كانوا من الرجال المخلصين المضحين الذين صافحوا يد الرسول ﷺ، والذين عاهدوا على نبذ الدنيا وهجرها لحساب الآخرة والذين سبقوا الملائكة المقربين... ولكون هؤلاء قد أسقطوا ظلاً على مرتبة "المقربين" عندهم فقد ظهروا بمظهر

وجرح مثل هذا العدد منهم جرحًا بليغًا حتى أنهم عجزوا عن الحركة. وقد كان بإمكان المشركين إنزال ضربة أخرى بالمسلمين لولا أن المسلمين التجأوا إلى جبل أُحد. ورأى المشركون أن أصواتهم قوية وليست واهنة، فلم يرغبوا في الدخول إلى مخاطرة أخرى لذا، تركوا ساحة القتال فورا، إذ داخل الخوف قلوب المشركين، وكان عذر المشركين لهذا الخوف ولما يشبه الهزيمة هو: لقد آذيناهم إلى درجة أنهم لن يستطيعوا التخلص سريعًا من أثر هذه الهزيمة، إذن، فلنذهب، فمن يدري ما الذي سيحصل إن هجمنا عليهم مرة أخرى. فانسحبوا على هذا الأساس وتركوا ساحة القتال، ثم حين حرض أحدهم قريشًا (أصبح هذا فيما بعد صحابيّاً وقدم خدمات جليلة) على مواصلة القتال، والذي جاء وصفه في القرآن بأن الشيطان حرض قريشًا، وقال لهم أن أذهبوا إلى المدينة ما دام الوضع مساعدًا. كان من الواضح أنه يريد منهم التوجه إلى المدينة لهدمها على رؤوس أهاليها مثلما فعل الرومان بمدينة قارطاجة، ولا يبقوا فيها فردًا واحدًا، لأنه إن بقي منهم أحد تكاثروا بسرعة وأصبحوا مشكلة لهم.[١]

ما أن سمع الرسول ﷺ هذا حتى أصدر أمره بأن من كان معه يوم أُحد من الأصحاء أو الجرحى فليجتمعوا في المكان الفلاني لأنه سيذهب لملاقاة العدو.[٢]

فهؤلاء الجرحى والمصابون الذين التجأوا قبل يوم إلى سفح جبل أُحد كانوا يستعدون لحملة أخرى، ذلك لأنه كان من الضروري إبداء قوة معنوية كبيرة تقوم بجبر معنوياتهم وإزالة مظاهر خيبة الأمل التي أصابت المسلمين والتي سنذكرها هنا:

أول مظهر من مظاهر خيبة الأمل هو انكسار القوة المعنوية للمسلمين، ثانيًا تزايد شهية الكفار، ثالثًا تزايد شماتة المنافقين من حال المسلمين مما كان يؤثر على معنوياتهم. لذا، فإن الفكرة التي طرحها ذلك المشرك من وجوب التداعي والهجوم الجماعي على المسلمين لاستئصال شأفتهم بدأت تنتشر هنا وهناك وتتداولها الألسن، فكان هذا الأمر نذير خطر كبير على المسلمين، ولولا فطنة الرسول ﷺ وسرعة تداركه للأمر لكان من الممكن ظهور مشكلة كبيرة وخطر عظيم يصعب على المسلمين مواجهته... أجل، لقد أصابت المسلمين آنذاك أضرار فادحة -مثلما أصاب الجندي التركي في معركة شنق قلعة- ولكنهم استطاعوا أن يلموا شعثهم ويقلبوا الهزيمة التي كانت تلوح قريبة منهم إلى نصر بعون من الله تعالى.

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ١٢٨/٣.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ٥٦/٤.

أجل، فما أن أصدر الرسول ﷺ أمره إلى هذه الجماعة بالتهيؤ والتجمع حتى تهيأوا وتجمعوا وانتقلوا إلى حالة الاستعداد للهجوم... كان بعضهم مصابا في يده أو في رجله، وبعضهم لا يستطيع المشي إلا بمشقة، ومع ذلك فما أن سمعوا دعوة الرسول ﷺ حتى تجمعوا في المكان المعين، فكأن أنفاس الرسول ﷺ قد أحيتهم ونفخت فيهم القوة والعزيمة. فبدأوا يتسابقون في الاستجابة إليه. وكما قال الشاعر البوصيري:

لو ناسبتْ قدرَه آياتُه عِظما أحيا اسمُه حين يُدْعى دارسَ الرِّمم

أي لو كانت معجزاته على قدر قيمته ﷺ لأحيا ذكر اسمه الرمم الدارسة في القبور... لقد أجيبت دعوته الجميع في أُحد فتسابقوا إلى إجابة دعوته.

والآن لنستمع إلى شرح هذه الحادثة من أحد الصحابة حيث يقول ما معناه:

"كان لي صديق لا يستطيع المشي فكنا نحمله على أكتافنا لأنه قال لنا أن نحمله إلى موضع القتال فإن لم يستطع رمي السهام فهو يستطيع استعمال الرمح. كان أحدنا يحمل الآخر، وربما سقط أحدنا وأغمي عليه، وهكذا حتى وصلنا إلى وادي حمراء الأسد. وهو موضع يستطيع فيه المشركون رؤية دخان مواقد المسلمين. فما أن رأى المشركون تجمع المسلمين الذين ظنوا أنهم أصابوهم إصابة بالغة لا يرجون منها شفاء حتى ذهلوا واحتاروا. وإذا بأبي سفيان الذي أصابه الفزع يصرخ فيهم: "الرحيل! الرحيل!" ذلك لأنه بدأ يخشى أن تدور الدائرة عليهم بعد أن فكروا في الإغارة على المدينة... أما الآن فإن همهم الوحيد كان هو الإسراع إلى مكة."[١]

فلو تأملتم لرأيتم كيف قام الرسول ﷺ بحل جميع مشاكل الحرب بنفحة واحدة وبضربة واحدة ودون أن يخلف أي مضاعفات ولا أي مشاكل. والقرآن الكريم يشير إلى هذا الموقف الحرج فيقول: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣).[٢]

أجل، لقد تركت قريش كل شيء وهربت، أما المسلمون فقد تخلصوا من أثر الهزة التي أصابتهم أمس، ثم رجعوا إلى المدينة دون أن يصيبهم أي ضرر بنعمة من الله وفضل.[٣] هناك بعض من كتاب السير والمغازي يذكرون أن معركة أُحد كانت هزيمة بالنسبة

---

[١] البخاري، المغازي ٢٥؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٩٩-١١١؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٤٢-٤٩

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/١٢٨.

[٣] البخاري، المغازي ٢٥؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٩٩-١١١؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٤٢-٤٩

للمسلمين... أجل، إن كان هناك جانب من الهزيمة في معركة أُحد فهو يرجع إلى بعض الصحابة الذين لم يستمعوا إلى تعاليم النبي ﷺ واستشهدوا في تلك المعركة فرحلوا إلى الآخرة طاهرين مطهرين. ولكن هناك جانب نصر في أُحد، وأنا أرى الوقوف عند هذا الجانب الذي حققه الرسول ﷺ... أجل، فإن المهم هو القيام بقلب الهزيمة إلى نصر وهو ما فعله الرسول ﷺ.

هناك مقولة للغرب تقال في حق الأمة التركية وهي: "هناك أوقات تنتهي فيها مقاومة كل أمة، في هذا الوقت تبدأ هذه الأمة بالهجوم."

والحقيقة أن هذه المقولة يجب أن تُقال في حق المسلمين الصادقين حيث تصبح صحيحة على الدوام، أي في الأوقات وفي الظروف التي تنتهي فيها مقاومة الأمم وتبدأ بالاستسلام يقوم الرسول محمد ﷺ ببدء الهجوم. وهذا الهجوم يقوم بحل المشاكل المتراكمة الواحدة فوق الأخرى، ويهب الأمل والإيمان إلى قلوب المؤمنين واليأس والقنوط إلى قلوب المنافقين، ويجعل أمنية المشركين حسرة في قلوبهم. فماذا يمكن أن يقال هنا بعد أن حول الرسول ﷺ الهزيمة إلى نصر وأعاد المسلمين إلى المدينة فرحين غالبين، وحل بحكمته هذه المشكلة المعقدة.. سوى الشهادة بأن محمدًا ﷺ رسول الله حقا وصدقا؟

٢. الشورى

كان الرسول ﷺ يقوم بحل بعض المشكلات التي تعرض له عن طريق التشاور. وهو مع عدم حاجته إلى المشورة إلا أنه كان يريد إرساء قضية الشورى كقاعدة مهمة لأن الذين سيأتون من بعده كممثلين للأمة الإسلامية سيكونون في حاجة للشورى. أجل، فقد كان شخصًا وهب له التأييد الإلهي، فلم يتركه الله تعالى وحده في أي مسألة من المسائل، فلو ألم به مرض لتلقى الإلهام الإلهي بطريقة العلاج والشفاء؛ فقد كان على ارتباط وثيق بعالم الملكوت، ولكنه كان يعطي أهمية كبيرة لموضوع الشورى، وكان هذا بُعدا آخر من أبعاد فطنته وجانباً آخر من جوانب فراسته.

لقد أصبحت الشورى بعده بعدة عصور نظامًا لا يستغنى عنه في إدارة الدولة. ولكون الإدارة في الإسلام مفتوحة على الشورى ولكونها مرنة وواسعة وتستطيع أن تحتضن العصور بعالميتها فقد تخطت العصور عصرًا عصرًا حتى وصلت إلى أيامنا الحالية.

إليكم بعض الأمثلة:

١. كان ﷺ يشاور الجميع ويأخذ وجهة نظر الكل لأنه كان يريد إشاعة فكرة الشورى

في حياة المجتمع وجعلها سائدة فيه. استشار عليًا ﷺ، وهو الإنسان الذي قال: "لو رُفع الغِطاء ما ازددتُ يقينًا"[١] ولكنه كان مع هذا تلميذًا في مدرسة الرسول ﷺ، وقد استشاره الرسول ﷺ مع أنه كان شابًا يافعًا.[٢]

كان المنافقون قد افتروا على أمنا عائشة رضي الله عنها فيما اشتهر بحادثة "الإفك" التي برأ الله تعالى فيها أمنا عائشة رضي الله عنها. ومع أن الرسول ﷺ كان موقنا بأن الوحي سيقول القول الفصل في هذا الأمر. ورغم كونه غير قلق من ناحية عائشة رضي الله عنها، إلا أنه قام مع هذا باستشارة أصحابه عدة مرات لأنه كانت هناك مصلحة في مثل هذه الاستشارات. لأن الاستشارة دائما مغانم وليست لها خسائر. وما بعث النبي ﷺ إلا لهدايتنا لما فيه الخير لنا.

وهناك رواية ضعيفة عن حادثة جاء فيها أن الرسول ﷺ دعا عمر ﷺ وسأله عن رأيه في عائشة رضي الله عنها فقال عمر: يا رسول الله! إن عائشة بريئة وإنها طاهرة ونقية. فسأله الرسول ﷺ كيف عرف ذلك فأجاب عمر: "لقد عرفنا فيما بعد أنك كنت تصلي مرة دون أن تعرف أن نجاسة صغيرة قد مست نعلك فنزل جبريل ﷺ وأخبرك بالأمر. وقال لك بأن تخلع نعلك.. فإذا كان الله تعالى يخبرك عن مثل هذه النجاسة الصغيرة فكيف يرضى لك أن تكون لك زوجة تقترف -حاشاها- مثل هذا الإثم؟ لا شك أن جبريل سيأتيك ليخبرك عن مدى عفة عائشة رضي الله عنها."

أجل، لقد قال الرسول ﷺ: «ما ندم من استشار.»[٣] لذا، فقد استشار عمر. فمثل هذه الاستشارة لا تفقده شيئا، بل ربما كسب قلب عمر ﷺ مرة أخرى. أجل، لقد كان الرسول ﷺ يتشاور مع طلابه ويأخذ آراءهم. ولا شك أن الرابح في هذه الاستشارات كان هؤلاء الطلاب، ذلك لأن الرسول ﷺ كان يلقن طلابه درسًا أخلاقيًا في هذا الخصوص. ثم أليس هو القائل: «ما ندم من استشار.»

٢. عندما خرج لمعركة بدر استشار الرسول ﷺ المهاجرين والأنصار وأخذ بآرائهم، فتكلم المقداد بن عمرو باسم المهاجرين فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون،

---

[١] الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص١٩٣.
[٢] البخاري، المغازي ٣٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٣١٢.
[٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢/٢٨٠.

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِمَاد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه." فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له. ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعَقَبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل.» قال: فقد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نَكْرَهُ أن تَلقى بنا عدونا غدا. إنّا لصُبُر في الحرب صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينُك فسِرْ على بركة الله.[1]

كان الرسول ﷺ يقوم بالاستشارة لإظهار روح الاتفاق بين المسلمين. كان الأنصار والمهاجرون متفقين على شيء واحد... عزمهم على القتال وعلى الاستشهاد... أجل، لقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذي كان عليهم أن يعملوه تجاه الجمع الحاشد لأعدائهم المملوئين حقدًا وغيظًا والمتهيئين بسيوفهم ورماحهم وسهامهم للقضاء عليهم. أما رسول الله ﷺ فقد كان متهيئًا للدفاع عن الحق وعن الحقيقة وعن شرف الإسلام وعن كرامة الأمة الإسلامية، وكان يقوم باستشارة أصحابه ويبدي رأيه السامي على أوسع نطاق ويرسيه على أصلب أساس ويدع رأيه هذا يسري في مشاعر الصحابة وفي أحاسيسهم جميعًا دون استثناء. كما كانت الاستشارة غاية من غاياته. لقد رسم الله تعالى له الطريق وبين له ما يعمله، ولكنه إضافة إلى إرشاد ربه فقد كان يستشير أصحابه ليشاركهم وليشاركوه أفكاره ومشاعره في ذلك الموقف المهم. وما كان لأحد من أصحابه المخالفة في اتباعه والانقياد له أبدا، ذلك لأنهم أعطوه على ذلك عهدًا وميثاقًا... وسيأتي يوم يقول لكعب بن مالك ﷺ معاتبًا: «ما خلّفك، ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك؟» كان كعب ﷺ قد أعطاه عهدًا في العَقَبة على

---

[1] مسلم، الجهاد ٨٣؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥٧/٣؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٦٦/٢-٢٦٧؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢٠/٣-٣٢٢.

أن يكون مع الرسول ﷺ في اليسر والعسر ما تعاقب الليل والنهار.[1] لقد أعطوه عهدا، وألقوا بأنفسهم إلى الموت بملء إرادتهم.

كان الرسول ﷺ يقوم باستشارته هذه ليتبنى المسلمون جميعًا دعوته، فكان الجميع يهرعون لمساعدته على قدر طاقتهم ويرون حمل هذه الدعوة غاية لهم وهدفا لحياتهم، ويرون في الشهادة أحلى أمانيهم.

٣. عندما خرج الرسول ﷺ يوم بدر كان عليه أن يعين المكان الذي ينزل فيه والآبار الموجودة هناك والتل الذي يجب أن يحتله، وكان عليه أن يشاور أصحابه في هذا الأمر.

قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر نزل به، فحُدّثتُ عن رجال من بني سلِمة أنهم ذكروا أن حُباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله أرايت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة.» قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فامضِ بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأى.»[2]

٤. كان سلمان ﷺ عبدًا فارسيا، كان مجوسيًا في أول الأمر ثم تنصر ثم أسلم وهو عبد... وعندما أسلم لم يكن يملك مالا أو أهلاً. وهو يدين بكل شيء إلى الإسلام، وقد عبر سلمان ﷺ عن هذا الأمر بجملة وجيزة. فعندما سألوه مرة عن نسبه، قال:

أبي الإسلام لا أب لي سواه   إذا افتخروا بقيس أوتميم

أجل، لقد وجد نسبه الحقيقي؛ فهو ابن الإسلام.

وفي معركة الخندق أو معركة الأحزاب استشار الرسول ﷺ أصحابه كما هي عادته، فأدلى كل برأيه وعندما جاء دور سلمان ﷺ قال للرسول ﷺ بأنهم اعتادوا في بلادهم على حفر خندق حول المدينة إن هاجمهم عدو، لذا فقد اقترح حفر خندق حول المدينة. وأعجب الرسول ﷺ بهذا الرأى فأمر بحفر الخندق وشارك بنفسه في أعمال الحفر وشجع العاملين هناك.[3]

---

[1] البخاري، المغازي ٧٩؛ مسلم، التوبة، ٥٣.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٧٢/٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢٦/٣.

[3] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٣٥/٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٦٦/٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٩/٤

٥. لم يكن يستشير الرجال فقط، بل يستشير النساء أيضا، ففي الحُديبية استشار زوجته أم سلمة رضي الله عنها، ولم ير بأسًا في تنفيذ ما اقترحت عليه.[1]

لقد سلك هذا المسلك طوال حياته، واستطاع عن طريق الاستشارة تخطي مشاكل صعبة. وقد بدأنا نفهم مؤخرًا مدى ضرورة الشورى وأهميتها في إدارة الدولة. أما المستبدون فقد تركوا وراءهم مئات المشاكل قبل أن يرحلوا. لقد علّم وجوب احترام الفكر والعقل؛ فهناك حكمة في وجود العقل، أي حكمة في التفكير وإجراء المحاكمات العقلية. وهناك حكمة من وجود الفكر البشري بحيث تتم مراجعة هذا الفكر حتى من قبل الدعوات المؤسسة على الوحي، وحتى من قبل الأشخاص المتصلين بالوحي، حيث يتم تفسيرها بهذا الفكر. لذا، فمن لا عقل له لا يعد مكلفا في شرعنا، وهذا أساس من أسس ديننا.

[1] انظر: البخاري، الشروط ١٥.

الفصل الخامس: وحدة النظر والقدم

والعمق الآخر لدى رسولنا ﷺ هو وحدة الفكر والتطبيق؛ فأي هدف توخاه استطاع أن يسير نحوه، وأي فكرة اقترحها استطاع تطبيقها؛ وعلى هذا الاعتبار استطاع أتباعه أن يطبقوا كل ما قاله دون أن يبقوا في حيرة أو تردد أو اضطراب.

أ- إنسان التخطيط

أصبحت الخطة من أهم المسائل في أيامنا الحالية. فأصبحت الدول والأمم تهتم بالتخطيط في كل شيء كأساس مهم في التنمية وفي حركة النهوض. ولتحقيق هذه الغاية تأسست عندنا هيئة الدولة للتخطيط، وإلا لما تحقق أي شيء في مجال النمو وفي مجال التقدم والنهوض المتوازن. ويمكن جس نبض المجتمع من خلال الخطط. فالتخطيط -في أحد أوجهه- شرط أولي لوضع بنية المجتمع تحت المراقبة والسيطرة. ولم يكن الرسول ﷺ يملك كومبيوتراً ولا عقلاً ألكترونيًا ولا هيئة تخطيط، ولكنه كان يعطي القرارات الصائبة في التو واللحظة ثم يخطو لتنفيذها... كان يعطي قراراته لمسائل بعُمْر مئات من السنين، ولم يكن يترك أي مشكلة في أي مسألة من هذه المسائل. أي لم يقل أحد شيئًا ضد ما قاله حول أي مسألة من المسائل ولم يستطع أن يقول. علما بأنه كان مكلفًا -ذكرنا ذلك سابقًا من زاوية مختلفة- بالتبليغ. لذا، فكان عليه أن يكون دقيقًا جدًّا بحيث يحسب حساب خطواته جيدًا؛ فلا يتقدم ولا يتأخر مِليمترًا واحدًا أكثر أو أقل من المطلوب. وكل تفاصيل حياته شاهدة على ما نقول. ففي مكة نراه مثال الصبر ومثال التحمل، ينتظر دون كلل أو ملل... ينتظر على رأس الدعوة بصبر وهدوء.. هدوء المياه العميقة الغور بما نستطيع أن نطلق عليه اسم "الفعالية الصامتة". وفي هذا العهد يصدر أوامره بالهجرة إلى هنا وهناك ليحمي الضعفاء، لأنه كان في عهد اختل فيه ميزان القوة لصالح أعدائه، ولأنه لايملك القوة في ذلك العهد نراه يبذل قصارى جهده لعدم تهييج أو إثارة خصومه قدر الإمكان ومحاولة تهدئة الأمور. أما في المدينة فقد اتبع طريقًا آخر خطط فيه شكل الدعوة حسب القوى والتوازنات الموجودة وحسب قوة الطرف المقابل. والحقيقة أن تغير الاستراتيجية بين عهود مكة والمدينة وما بعدها نتيجة طبيعية لتغير وتيرة توسع الدعوة ونضوجها وتبلورها. فعهد

مكة كان يتطلب طرزًا معينًا من التصرف، وعهد المدينة يتطلب طرزًا آخر. فلو تصرف الرسول ﷺ في مكة مثلما تصرف في المدينة لكان ذلك -حاشاه- نقصًا كبيرًا في تخطيط هذا الشخص صاحب الخطط والاستراتيجية الدقيقة. فقد بعثه الله تعالى لكي يعطي القرارات الصحيحة ولينقذ البشرية من الاضطراب والحيرة.

أجل، لقد اتبع في المدينة طريقة آخرى... وكان هذا ضروريا، فكل خطوة خطاها كانت مقدمة للخطوة القادمة، والخطوة التالية كانت طبعًا نتيجة للخطوة السابقة؛ فلم يخط في حياته خطوة واحدة إلى الخلف. فكيف يخطو الرسول ﷺ خطوة إلى الخلف وهو الذي استخرج النصر من الهزيمة في معركة أُحد؟ لم يخط أبدًا إلى الخلف... بل إن كل خطوة من خطواته تشهد أنه رسول الله. فأسلوبه وطريقة تصرفه في موضوع الهجرة مثال حي على هذا. فما كانت الهجرة إلى الحبشة والمدينة إلا مقدمة وبابًا سِريًا لبزوغ عهد الهداية والانتصارات.

ب- المشكلة المحتملة الآن: العنصرية

كم من مشكلة حلها الرسول ﷺ آنذاك ولم تحلّ حتى الآن. أما المشاكل التي ستأتي في المستقبل القريب ثم في المستقبل البعيد فهي كثيرة ومتداخلة بعضها مع بعض. فمثلاً هناك احتمال كبير أن تصبح قضية الزنوج في المستقبل البعيد من أهم المشاكل التي ستدوخ البشرية. فهذه المشكلة المتحفزة للوثوب حاليًا والتي تنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض والانفجار تقلق كل المراقبين الذين يقدرون مبلغ خطورتها.

لماذا؟ ذلك لأنه لا ينظر إلى الزنجي نظرة إنسان حتى ونحن على أعتاب الدخول إلى القرن الحادي والعشرين. فهو مهان في جنوبي إفريقيا بسبب لونه، وهو لا يستطيع تبوأ أي منصب مهم في الولايات المتحدة الأمريكية. كما يتعرض الأجانب في فرنسا وألمانيا إلى الضرب وإلى المهانة. بينما وضع الرسول الكريم ﷺ يده العطوف على هذه المشكلة وحلها بكل بساطة. أجل، فالناس -حسب المبادئ التي جاء بها- سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي ولا فضل لأعجمي على عربي.[1] ويجب إطاعة عبد حبشي إن جاء إلى الحكم بشروطه.[2]

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٥/٤١١؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٣٢٦؛ الفوائد المجموعة للشوكاني، ص٢٢٧؛ المسند الفردوس للديلمي، ٤/٣٠٠

[2] البخاري، الأحكام ٤؛ مسلم، الإمارة ٣٧؛ ابن ماجه، الجهاد ٣٩.

وانسجامًا مع أحاديث كثيرة للرسول ﷺ التي شرحت هذا الموضوع نرى عمر بن الخطاب ﷺ يقول عن بلال ﷺ: "أبو بكر سيّدُنا وأَعتَق سيّدَنا" يعني بلالاً.[١]

كان زيد بن حارثة ﷺ أسود البشرة، وبِيع للرسول ﷺ عبدًا فأعتقه الرسول ﷺ وجعله حرًّا وتبناه، أي جعله ابنًا له.[٢] وكان هذا أمرًا لا يتصوره أحد وشيئًا غير مستساغ. فكيف يقوم إنسان من نسب معروف ومشهور بتبني عبدًا أسود ثم جعله وارثًا له.[٣] ثم جعل ابنه أسامة قائدًا على جيش فيه كبار الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وعلي ﷺ.[٤] وأعظم من هذا قيام النبي ﷺ بتزويج زيد من زينب بنت جحش[٥] التي كانت ذات حسب ونسب وكانت جديرة بأن تكون زوجة نبي.

وإضافة إلى هذا كان زيد بن حارثة وابنه أسامة ﷺ مقربين إلى رسول ﷺ إلى درجة أن عبد الله بن عمر ﷺ شكا إلى والده الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ قائلاً له: يا أمير المؤمنين فضّلت عليَّ من ليس هو بأقدم مني سِنًّا ولا أفضل مني هجرة، ولا شهد من المشاهد ما لم أشهد. قال: ومن هو؟ قلت: أسامة بن زيد، قال: صدقتَ لَعَمْرُ الله! فعلتُ ذلك لأن زيد بن حارثة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عمر، وأسامة بن زيد كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عبد الله بن عمر، فلذلك فعلت.[٦]

أجل، لقد كان أمرًا جللاً آنذاك أن يكون زيد بن حارثة ﷺ قائدًا على جيش يشترك فيه أحد أشراف قريش مثل جعفر بن أبي طالب ﷺ...[٧] ليس المهم هنا سرد المدائح حول هذا الموضوع... المهم هو التطبيق الفعلي لهذا المبدأ في الحياة الواقعية وجعله واقعًا معاشًا.

فالحل الوحيد لهذه المشكلة التي تهدد الإنسانية في المستقبل -كما أشرنا إليها قبل قليل- هو التعامل مع الزنوج على أساس المبدإ الإسلامي دون إضاعة الوقت. لأن على الإنسانية أن تجرب هذا الحل قبل فوات الأوان.

الناس ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، وليس من حق أحد ولا من صلاحية أحد استعباد أي

---

[١] البخاري، فضائل أصحاب النبي ٢٣؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٢٤٣/١-٢٤٥.

[٢] وذلك قبل تحريم التبنّي. (المترجم)

[٣] البخاري، المغازي ١٢، النكاح، ١٥؛ أبو داود، النكاح ٩؛ النسائي، النكاح ٨؛ الإصابة لابن حجر، ٥٦٣/١-٥٦٤؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٢٨١/١.

[٤] البخاري، فضائل أصحاب النبي ١٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ٦٣.

[٥] الإصابة لابن حجر، ٥٦٤/١.

[٦] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٧٠/٤؛ الإصابة لابن حجر، ٥٦٤/١.

[٧] البخاري، المغازي ٤٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٩٩/٥.

أحد. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

ج- الحُديبية

لنذكر مرة أخرى فنقول إن الرسول ﷺ كان قائدًا وزعيمًا لا مثيل له في تطبيق أفكاره عمليًا وجعلها واقعًا وحقيقة. ويمكن إيراد أدلة وشواهد لا حصر لها في هذا الخصوص، إلا أننا سنكتفي هنا بإيراد مثال واحد.

يروي ابن إسحاق أنه في السنة السادسة للهجرة وعد رسول الله ﷺ أصحابه -الذين بلغ بهم الشوق غايته- بأداء العمرة. فمثل هذه العمرة كانت ستطفيء نار اللوعة والشوق التي تتأجج في صدور المهاجرين إلى وطنهم، وتعطي قوة دافعة جديدة للمسلمين، فخرج الرسول ﷺ في ١٤٠٠ من أصحابه متوجهًا إلى مكة.

كان الرسول ﷺ قد أرسل من قبل رجلاً من قبيلة خُزاعة -وأهل مكة لا يعرفون أنه من أصحاب الرسول- ليتقصى له الأخبار. فوردت إليه الأخبار بأن قريشًا جمعت قبائل العرب واتفقت معها على منع الرسول ﷺ والمسلمين من دخول مكة.

أجل، كانت قريش عازمة على منع المسلمين من دخول مكة وإن تطلَّب الأمر استعمال السلاح. وفعلاً طبقت ما عزمت عليه إذ وضعت المحاربين في موقع "بَلدَح"، وجاء خالد بن الوليد أو عكرمة بن أبي جهل ومعهما ٢٠٠ محارب إلى كُراع الغَميم وهي بين رابغ والجُحفة. وعندما بلغت هذه الأنباء رسول الله ﷺ توجه إلى هناك بالمسلمين، فسمع خالد بذلك فأسرع إلى مكة يخبر قريشاً بما استجدّ من أخبار. وفي هذه الأثناء كان الرسول ﷺ قد بلغ الحُديبية.[1] والحُديبية اسم لمكان يبعد عن مكة ٥٠-٦٠ كم تقريبا، وكان هناك في السابق بئر في هذه المنطقة بهذا الاسم. فأطلق هذا الاسم على قرية موجودة هناك.

١. معجزة الماء

لم يكن في هذه المنطقة التي نزل بها المسلمون أي ماء... كانت هناك بئر من قبل، ولكنها الآن جافة لا ماء فيها فقيل له: يا رسول الله ما بالوادي ماء ينزل عليه. فأخرجَ سهمًا من كنانته وأعطاه إلى رجل من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القُلُب فغرزه في جوفه فجاش

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٢٣/٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٩٥/٢.

بالرواء. كانت هذه معجزة لا شك فيها، إذ أظهر الله تعالى معجزة على يد نبيه ليسعف حاجة الصحابة إلى الماء. وشرب الجميع من هذا الماء وتوضأوا منه وملأوا أوعيتهم.

٢. الرسل

مع أن قبيلة خُزاعة لم تكن قد أسلمت بعد، إلا أنهم تحالفوا مع المسلمين. وعندما سمعت بتهيء أهل مكة للقتال أسرع وفدٌ منهم وأخبروا الرسول ﷺ بالأمر... كان بُديل بن ورقاء من بين الوفد ولم يكن مسلمًا آنذاك إلا أنه أسلم بعد فتح مكة؛ ونظرًا لكون الرسول ﷺ يثق فيه فقد أرسله إلى أهل مكة يخبرهم بأنه لم يأت للقتال بل لأداء العمرة.

جاء بديل إلى مكة ويلغ رسالة النبي ﷺ لهم، وكان عروة بن مسعود الثقفي من بين المستمعين، فرأى أن ما قاله بُديل أمر معقول، فاقترح على أهل مكة إرساله للنبي ﷺ للتفاوض معه، فرضوا به رسولاً.

جاء عروة إلى النبي ﷺ وبدأ يحادثه، ثم جعل يتناول لحية الرسول ﷺ -على عادة العرب- وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده إذ يتناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفُف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك. وسأل عروةُ: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة. قال: أيْ غُدَر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس. إذ كان قد دفع الدية عنه عن جريمة ارتكبها مغيرة... لكم تغير ابن أخيه مغيرة بعد إسلامه حتى أنه لم يعرفه... ثم ما هذا الحب الشديد الذي يبديه المسلمون نحو زعيمهم... لقد ذهل إذ رأى ما يصنع به أصحابه: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. وعندما رجع إلى قريش قال لهم:

"يا معشر قريش! إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا فَرُوا رأيكم."

لم يثمر هذا التفاوض عن شيء فأرسل الرسول ﷺ خِرَاش بن أمية الـخُزاعي إلى قريش وحمله على بعير له، ولكن قريشاً عقروا جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتل خِرَاش بن أمية الـخُزاعي فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى رجع إلى الرسول ﷺ.

٣. عثمان رضي الله عنه مبعوثًا للنبي ﷺ

أصبح من الضروري إرسال مبعوث آخر إلى قريش، وتم اقتراح اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه

في بادئ الأمر، غير أن أعداء عمر كانوا كثيرين وأصدقاءه قليلين، لذا كان نجاحه في التفاوض مشكوكًا فيه، وعندما أبلغ عمر ﷺ رسول الله ﷺ برأيه هذا تقرر إرسال عثمان بن عفان ﷺ.

قامت قريش بحبس عثمان ﷺ، ثم شاعت الأخبار أنهم قتلوه، وقويت هذه الإشاعة بعد تأخر رجوع عثمان ﷺ. وعندما بلغ الرسول ﷺ أن عثمان ﷺ قد قتل قال ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم.» ودعا إلى البيعة. وجلس الرسول ﷺ للبيعة تحت شجرة، لذا سميت هذه البيعة بـ"بيعة الرضوان تحت الشجرة" فأقبل المسلمون يبايعونه على الموت. وقام عمر بن الخطاب ﷺ في عهده بقطع هذه الشجرة إذ خاف أن يقدسها الناس.[١]

٤. بيعة الموت

ما أن علم المسلمون بأمر البيعة حتى أسرعوا إلى الرسول ﷺ لأداء البيعة... البيعة للقتال حتى الموت... أدى الجميع البيعة بحماسة عدا شخص واحد.[٢]

كان هناك شخص واحد في مكة لم يستطع المشاركة في هذه البيعة، وهو عثمان بن عفان ﷺ الذي لم يكن أحد من المسلمين يعرف عما إذا كان حيًا أم ميتًا. في هذه الأثناء كان الرسول ﷺ يعيش إحدى فتراته التي يتجاوز فيها الزمان والمكان وينطويان أمامه... رفع رسول الله ﷺ يده اليمنى قائلاً: «هذه يدي.» ثم رفع اليسرى قائلاً: «وهذه يد عثمان» ثم ضرب إحداهما بالأخرى.[٣] ما أقدس هذه البيعة التي يقوم الرسول ﷺ بالوكالة فيها..

كان الأمر خطيرًا جدا، لأن المشاعر كانت متوترة والأحاسيس متأججة تكاد تنفجر... كان الرسول ﷺ هو الشخص الوحيد الذي بقي مالكًا زمام نفسه ورباطة جأشه... ومع أن نفسه كانت مثل بركان يغلي ويكاد يقذف بالحمم، إلا أنه استطاع السيطرة عليها والتحكم فيها بإرادته التي تفوق إرادة البشر. رُحْماك يا رب! ما هذه الإرادة الصلبة..!

٥. انكشفت الغمة

وبينما كان هذا الجو المتوتر سائدًا شاهد الرسول ﷺ غبارًا لفارس متوجه إليهم، فإذا به سُهَيْل بن عمرو وكان الرسول ﷺ يعرفه فقال لمن حوله: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فهل تفاءل الرسول ﷺ باسم سهيل فرأى أن الأمور بدأت تسهل..؟ هذا موضوع آخر.

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٠٠/٢.
[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٣٠/٣.
[٣] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٣٠/٣.

ولكن انظروا إلى مدى معرفة الرسول ﷺ بالناس وخبرته بهم، إذ ما أن رأى سهيلاً حتى حدس النتيجة. صحيح أنه عندما رأى عروة قال إن قريشًا تريد الصلح، إلا أن الأمر تأكد مع سهيل، وقد صدّقت الحوادث تخمين الرسول ﷺ إذ أكد سهيل أنه جاء لإبرام الصلح.

٦. الاتفاق

كانت فقرات الاتفاق أو المعاهدة التي أبرمها النبي ﷺ تبدو وكأنها في غير صالح المسلمين، إلا أن القرآن الكريم أشار إلى كونها نصرًا في نهاية المطاف.

كان سهيل يَعُدّ كل تنازل يقتطعه من المسلمين نصراً كبيراً له، لذا فإنه كان يعترض حتى في أصغر المسائل. فمثلاً عندما دعا الرسول ﷺ عليًّا ليكتب معاهدة الصلح مع قريش قال له: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.» فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللّهم. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللّهم.» فكتبها ثم قال اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهَيْل بن عمرو.» فقال سُهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك. فأشار الرسول ﷺ لعليّ ﷺ أن يمحو كلمة "رسول" التي كان قد كتبها. وتردد علي ﷺ إذ صعب عليه محو كلمة "الرسول" فقام النبي ﷺ بمحو تلك الكلمة بنفسه وقال: «أُكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سُهَيْل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.»

فتواثبت خُزاعة فقالوا نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. ثم كان من الشروط التي ذكروها للرسول ﷺ أنه: وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا، معك سلاح الراكب السيوف في القُرب لا تدخلها بغيرها.

٧. هياج عمر ﷺ

بدت بنود المعاهدة في النظرة الأولى مجحفة بحق المسلمين، ولاسيما الفقرة التي كانت تقضي بإرجاع المسلمين الهاربين من أذى المشركين إلى قريش، فقد أثارت هذه الفقرة المسلمين ولاسيما عمر بن الخطاب ﷺ فذهب إلى الرسول ﷺ والألم يعتصر قلبه،

وقال له: يا رسول الله! ألست برسول الله؟

قال الرسول ﷺ: «بلى.» قال عمر: أوَلسنا بالمسلمين؟

قال ﷺ: «بلى.» قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال ﷺ: «بلى.» قال: فعلام نعطي الدَّنِيَّة في ديننا؟!

قال الرسول ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني.»

ثم ذهب عمر ﷺ إلى أبي بكر ﷺ وقال له الكلام نفسه فقال له أبو بكر ﷺ: "يا عمر! الزم غَرْزه، فإني أشهد أنه رسول الله." قال عمر: "وأنا أشهد أنه رسول الله." وقد ندم عمر فيما بعد على فقده أعصابه آنذاك وكان يقول: "ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرًا."

٨. أبو جندل

ولنرجع إلى إبرام الاتفاقية... فإنه ما أن تم التوقيع عليها حتى جاء أبو جندل يرسف في الحديد هاربًا من مشركي قريش، وكان أبو جندل ابنَ سهيل بن عمرو الذي وقع الاتفاقية مع الرسول ﷺ: فلما رأى سهيل بن عمرو ابنه أبا جندل قام إليه وضرب وجهه وأخذ بتلبيبه وقال: يا محمد، قد لَجّتْ القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. فقال الرسول ﷺ وهو آسف ومهموم: «صدقت.» فجعل سهيل ينتره بتلبيبه ويجره يعني يرده إلى قريش. وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته:

يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنوني في ديني! فزاد همّ المسلمين. وأراد الرسول ﷺ أن يبشر أبا جندل بأن هذا وضع موقت وأن الفرج قريب فقال له: «يا أبا جندل! اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجًا ومخرجًا.» وتحقق فعلاً قول الرسول ﷺ.[1]

٩. أبو بَصير وأصدقاؤه

بعد صلح الحُديبية مباشرة هرب من مكة عُتْبة بن أَسِيد المكنى بأبي بصير والتجأ إلى رسول الله ﷺ في المدينة، فأرسلت قريش رجلين ليطلبا إرجاع أبي بصير، فأعاده الرسول ﷺ إليهما. ولكن أبا بصير استطاع أن يقتل في الطريق أحد الرجلين، وفر الثاني. وجاء أبو بصير

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٣٢١-٣٢٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٨٨-١٩٣.

إلى الرسول ﷺ وقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. فلم يقبل النبي ﷺ بقاءه في المدينة لأنه كان قد أعطى عهدًا وهو ملتزم بعهده وبكلمته. فخرج أبو بصير خارج المدينة وانتهى إلى موضع يقال له سِيف البحر وهو قريب من ذي المروة. وما أن سمع ضعفاء المسلمين في مكة بأمره حتى بدأوا يهربون إليه -وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو أولهم- حتى اجتمعت منهم عصابة بدأت تترصد قوافل قريش إلى الشام، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن. فأرسل إليهم النبي ﷺ واستقدمهم إلى المدينة، وهكذا زال بند ظالم في هذه المعاهدة؛ وذلك بطلب وإلحاح من أهل مكة أنفسهم. وكان هذا فتحًا مبينًا للمسلمين.[1]

وفي أثناء الرجوع من الحُديبية بدأت سورة الفتح بالنزول. وقد وصفت السورة معاهدة الحُديبية بأنها كانت فتحًا مبينًا.[2]

كان رسول الله ﷺ راضياً جدًّا... فكل ما فكر فيه كان يتحقق عندما يأتي أوانه... لقد بذر بذور هذا النصر في الحُديبية، ولكنه لم يظهر واضحًا أمام الأعين إلا الآن... فها هم أبطال سيف البحر من الشباب الغض يَفِدون إلى المدينة ويدخلونها عن طريق "ثنيات الوداع" فيستقبلهم أهل المدينة ويستقبلهم الرسول ﷺ بكل بشر وفرح... لقد اضطر المشركون البغاة إلى نقض معاهدتهم بانفسهم...

ثم سيأتي يوم يقوم فيه المشركون باعتداء غادر على إحدى القبائل المتعاقدة والمتضامنة مع النبي ﷺ، أي يقومون بنقض معاهدتهم.[3] فيقوم الرسول ﷺ بالسير إلى مكة وفتحها وإحراز النصر النهائي الذي وضع أساسه في الحُديبية.

د- نتائج صلح الحُديبية

والآن لنستعرض ثمار صلح الحُديبية... فماذا جلب صلح الحُديبية؟ وماذا كسب المسلمون منه؟

كان سيف الإسلام خالد بن الوليد ﷺ أول من أسلم في عهد هذا الصلح. لم يكن خالد بن الوليد شخصًا يسلم نتيجة هزيمة في الحرب... وما كان له أن يكون كذلك... فما كان من الممكن لعزة نفسه التي انقلبت فيما بعد إلى عزة إسلامية أن يكون ممن يسلم بحد

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٣٣٧-٣٣٨.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٣٣٤.

[3] السيرة النبوية لابن هشام، ٤/٣٢-٣٧.

السيف. فقد يسّر الله تعالى بلطفه لهذا الشخص الذي سيكون قائدًا لا نظير له في المستقبل أن يدخل إلى الإسلام بعزة نفسه؛ فلولا وجود فترة صلح مثل هذه الفترة ما كان في الإمكان ذوبان جليد قلب خالد.

لقد وجد خالد في فترة الصلح هذه الفرصة للتفكير... لقد أثرت ظروف صلح الحُديبية وما بدا ظاهريًا أنه كان ظلما للمسلمين، كذلك أثرت حال المسلمين حين أقبلوا يؤدون العمرة بعد عام... أثرت هذه الظروف على العديد من أصحاب العقول أمثال خالد بن الوليد تاثيرًا كبيرًا... لقد كانت فترة الصلح هذه فترة تطهر بالنسبة له، ولم تمض سوى فترة يسيرة حتى جاء إلى الرسول ﷺ ليعلن إسلامه.[1]

لقد كان قيامه بإعلان إسلامه طواعية وبملء اختياره سببًا في أن يكون "سيف الله"، وكان رسول الله ﷺ يتوقع منه هذا. كما كان عمرو بن العاص ممن أسلموا في هذه الفترة.[2] فالحياة الرتيبة المملة التي أتت بعد صلح الحُديبية جعلت السأم يتسرب إلى قلوب هؤلاء الأبطال، ودفعتهم إلى اختيار الجبهة التي تموج بالحركة والحياة... الجبهة التي يقودها الرسول ﷺ.

كان عثمان بن طلحة أيضًا من الرجال العظام الذين كسبهم الإسلام في هذه الفترة، وكانت مفاتيح الكعبة لديه قبل إسلامه وعند فتح مكة أعطاه الرسول ﷺ مفاتيح الكعبة. هؤلاء الأشخاص بدهائهم السياسي والعسكري كانوا يستطيعون دحر الجيوش، ولكنهم رجعوا إلى أنفسهم في فترة الصلح هذه واهتدوا إلى الحق.

١. لا أحد يحتكر الكعبة

كانت قريش حتى ذلك اليوم تنظر إلى الجميع باستعلاء وبكبرياء؛ ولسانُ حالها يقول: "نحن أصحاب بيت الله". فلا يقترب أحد من الكعبة إلا بإذنهم. وكان على كل من يزور الكعبة أن يدفع ضريبة معينة وإلا منع من هذه الزيارة.

وفي صلح الحُديبية لم يذكر شرط دفع هذه الضريبة أو الإتاوة، وكان هذا خطأ كبيرًا لحساب قريش، فعندما طاف المسلمون حول الكعبة بعد عام دون دفع هذه الإتاوة تنبهت القبائل الأخرى... إذن، فقريش ليست الصاحبة الوحيدة للكعبة وإلا فكيف استطاع المسلمون الآتون من المدينة الطواف حول الكعبة دون دفع هذه الإتاوة؟ ولماذا لا يملكون

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٧٢/٤.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٦٩/٤.

هم أيضًا مثل هذا الحق..؟ كان الجميع يتحدثون بهذا... لقد تبين لهم أن قريشًا وحدها لا تملك الكعبة، لذا فقد أتى الجميع في السنوات المتعاقبة إلى البيت الحرام دون أي عراقيل.

٢. السلم أفضل جوّ للقيام بالدعوة

لقد توفر جو من الأمن وتم الخلاص من مشكلة قريش لمدة عشر سنوات. وكانت هذه الفترة مهمة جدًّا بالنسبة للمسلمين وضرورية لهم، إذ وجد الرسول ﷺ الفرصة مواتية لإرسال الكوادر التي رباها وهيأها إلى مختلف الجهات، وكان هذا يعني ارتفاع صوت الإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربية... أجل، لقد بدأ صوت القرآن يعلو في كل مكان، وبدأ الناس يهرعون ويستجيبون لنداء الإسلام. وهذه هي الفترة التي وصفها القرآن بقوله ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾ (النصر:٢). وعشر سنوات يعني تربية نسل جديد. ولم تكن قريش تدرك كيف أنها أعطت للمسلمين فرصة ثمينة، ولو أدركت ذلك لما اقتربت من مثل هذه المعاهدة. واستغل المسلمون هذه الفترة ليقطعوا شوطًا مهمًا من الناحية النوعية والكمية. وكان الذين يلتحقون بالإسلام يزيدون القوة العسكرية الإسلامية ويزيدون الأمل لدى المسلمين، لذا فما أن حان الوقت المناسب وتوجه المسلمون لفتح مكة لم يكن أمام قريش سوى الاستسلام.

٣. التعرف على الإسلام في الصلح

وفائدة أخرى وفرها صلح الحُديبية وهي أن العلاقة بين الطرفين -حتى صلح الحُديبية- كانت مقطوعة فلا يذهب أحدهما إلى الآخر. وكانت العلاقة الوحيدة بينهما هي التقابل في ساحات القتال. وفي ظروف الحرب لم يكن من الممكن تبليغ حقائق الإسلام إلى الطرف المقابل. وعندما تأسس الصلح بدأت الزيارات تقع بين الطرفين؛ والذين كانوا يجهلون فضائل الإسلام وجماله بدأوا يرونه عندما يزورون المدينة فيعجبون بهذا الجمال وينبهرون بهذه الفضائل والمحاسن التي يشاهدونها... كانت الحياة في المدينة كأنها قطعة من الحياة في الجنة يسحر من يشاهدها... الوضوء... الأذان... صلاة الجماعة... خشوع الناس في الصلاة والاطمئنان والأمان الذي يلفهم ويحيط بهم... كل هذا يسحر قلوب أهل مكة ويجذبهم إلى الإسلام. وبفضل صلح الحُديبية لم يبق تقريبًا بيت لم يصله صوت الإسلام ورسالة القرآن، حتى بيت أبي جهل ولو كان أبو جهل حيا لبقي وحده في البيت خارج دائرة الإسلام. لذا، فقد كان صلح الحُديبية نصرًا وفتحًا قبل فتح مكة.

أجل، لقد كان الرسول ﷺ عندما يخطو خطوة يعرف جيدا كيف يخطوها. وما أن ينكشف أمام ناظريه مجال حتى يضع قدمه فيه؛ كانت وحدة الفكر والحركة عنده تقوم بالتغلب على جميع المصاعب.

٤. الاعتراف بالإسلام رسميًا

والفائدة الخامسة التي أمنها صلح الحُديبية هي أن جميع الأقوام والقبائل اعترفت بالدولة التي أسسها الرسول ﷺ في المدينة وبحقها في إبرام المعاهدات مع من يشاء. فكما تقوم حاليا الدول المتشكلة حديثًا أو التي أعلنت استقلالها حديثًا بإبراز تعامل الدول الأخرى معها كدليل على اكتسابها الشرعية الدولية، كذلك كان الأمر بالنسبة للرسول ﷺ الذي أبرم مثل هذه المعاهدة. فلماذا لا يعترف به أهل الطائف مثلا وهذه قريش قد اعترفت به بل وعقدت معه صلح الحُديبية؟ أجل، لقد تعاقبت الاعترافات بعضها وراء بعض.

هكذا كان الرسول ﷺ شخصًا رائعًا استطاع أن يستخلص هذه الانتصارات من مثل هذه المعاهدة التي كانت تحتوي على شروط قاسية. ففي جو لم يكن متاحًا له التفكير الطويل كان عليه أن يتخذ قراره ويوقع على هذه المعاهدة التي جلبت انتصارات غير متوقعة لم تكن تخطر على بال أحد. ولا شك أن هذه الانتصارات التي تجاوزت حدود تصورات وخيال البشر شاهدة على كونه ﷺ رسولاً من عند الله؛ لأنه ما من إنسان مهما كان عبقريًا استطاع أن يصل إلى مثل هذا النصر من معاهدة بدت ظاهريا أنها هزيمة بالنسبة للمسلمين. ولأن مثل هذا النجاح منوط بقوة وبإرادة وبعلم يتخطى الحدود البشرية.

٥. كان الله وراء ذلك

أجل، فعندما يتأمل المرء المسائل والمشكلات التي حلها ﷺ لا يملك إلا أن يرى القوة المحيطة بالوجود وهي تقف وراءه. وإن أداءه لهذه الرسالة والأمانة -الثقيلة ثقل الجبال- مثل هذا الأداء الممتاز شاهد على أن يد القدرة ويد الصيانة هي التي تولت رعايته ﷺ وحفظه وحمايته وكأنها تقول: "إنه رسول من عندي" فلا نملك نحن تجاه ذلك إلا أن نهتف بوجد: "محمد رسول الله ﷺ "

لقد كان الرسول ﷺ يتخذ قراره بسرعة ويستطيع أن يلم بأطراف الموضوع في أقل وقت، وما من أمر تناوله إلا ونجح في إنجازه. وهذه هي سيرة حياته تشهد بأنه ما من أمر فصله أو قرار اتخذه أو سلوك سلكه اضطر فيما بعد إلى تكملة النقص فيه، أو تصحيح

انحراف به. بل إن بعضًا من القضايا التي بدت في نظر الآخرين أولا وكأنها هزيمة ما إن مد يده إليها حتى حول هذه الهزيمة إلى انتصار، وجعل الإدبار إقبالاً... فالهزائم كانت تنقلب في يديه إلى انتصارات. فكأنه كان يقلب طبيعة الأمور، ويغير مجراها وسبل سيرها فيعطي لها طبيعة أخرى ومجرى آخر. هذا علمًا بأن كل هذا من الأمور التي ترجع إلى الله تعالى ﴿وَاللهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات:٩٦).

فالله تعالى كان يخلق أفعاله بيد أكمل وأشرف وأفضل مخلوقاته... لماذا؟ لأنه كان يريد أن يقول: هذا عبدي وهو رسولي... فاعلموا هذا... واعلموا أني مؤيده في كل شيء... فلو تجاوز عددكم الملايين والبلايين وكان هو واحدًا فريدًا لانتصر عليكم جميعًا... لماذا؟ لأني أؤيده وأنصره إذ "لا حول ولا قوة إلا بالله." ويجب ألا ينسى أحد أنني وراءه، فمن حارب من كان الله تعالى وراءه فكأنه يحارب الله تعالى.

لم يُغلَب محمد ﷺ، ولم يكن من الممكن أن يُغلب، والذين كانوا يحاولون التغلب عليه إنما كانوا يناقضون عقولهم وقلوبهم... أي أنهم لم يكونوا سوى أشخاص بؤساء يحاولون التعرض لعمل مستحيل. والله تعالى يعطي لأمثال هؤلاء بعض الإشارات والإيماءات "أن أفيقوا... أفيقوا أيها المتجاوزون حدودهم." فإن لم يفهموا كل هذه الإشارات أمسك بهم وأنهى أمرهم.

أجل، لا يمكن محاربة محمد ﷺ ولا مجابهته والتعرض له، ذلك لأن الله ناصره، حتى إنه يقول له حين بدر تجاهه شيء من زوجاته ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤمِنينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم:٤). أي أن سكنة السماء كلهم بجانبك... وعندما يكون كل هؤلاء من جندك فلن تغلبك الملايين ولا البلايين إن تعرضوا لك، ومن يفعل ذلك فكأنه يناطح الصخر الصوان برأسه حتى يحطمه. وقد يمهل الله تعالى مرة أو عشرا أو عشرين أو ثلاثين مرة لكي لا يبقى لهؤلاء أي عذر وكأنه يقول لهم: "تأملوا! وافهموا... وتعالوا إلى الصراط المستقيم لكيلا يبقى لديكم أي عذر يوم القيامة." ولكنه عندما يأخذهم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما ورد في أحد الأحاديث الشريفة.[1]

---

[1] البخاري، تفسير سورة (١١) ٥؛ مسلم، البر والصلة ٦١.

القسم الرابع

الجانب العسكري للرسول ﷺ

- الفصل الأول : النبي العسكري
- الفصل الثاني : نبينا والمعارك التي خاضها
- الفصل الثالث : المؤهلات التي يجب توفرها في أي قائد

الفصل الأول: النبي العسكري

أ- أهداف الجهاد

لقد سد الله أمامه أبواب الجهاد المادي لبعض الوقت، وذلك تمشيًا مع طبيعة الأشياء، ولأن لكل شيء وقته المرهون به، ودام هذا لسنوات طويلة. وبعد لأي أذن الله تعالى بالنضال المشروع، وسمح لهم باستعمال القوة والدخول في الحروب قائلاً لهم: لقد آن لكم أن تدافعوا عن أنفسكم وعن حقوقكم. وقبل الدخول إلى هذا الموضوع العريض والعميق أود أن أقوم بشرح بعض الأمور التي تكون أساسًا لإثارة بعض الأسئلة أو الشبهات في بعض الأذهان.

وقبل الدخول إلى موضوع فطنة الرسول ﷺ في إدارة الجيوش وتعبئتها وسوقها وإدارتها، فمن المفيد التوقف قليلاً حول العهد الذي شُرع فيه الجهاد. فمن المهم جدًا معرفة المعنى العام للجهاد من جهة، ثم معرفة تاريخ بدء الجهاد المادي أي الأمر بالقتال من جهة أخرى. ذلك لأن أعداء الدين يقومون بتشويه معنى الجهاد، كما أن بعض الأصدقاء الجاحدين يقومون بخلط التواريخ، وبالتالي ببلبلة الأذهان، لذا فلا أرى بدًا من القيام بتوضيح بعض الأمور لكلا الجانبين.

لم ينحرف الرسول ﷺ طوال حياته قيد شعرة عن مبادئ الإسلام، فحياته كلها كانت عبارة عن قيامه بتطبيق الإسلام في الحياة وصبه في الواقع العملي. وهذا ينطبق على موضوع الحرب والجهاد مثلما ينطبق على سائر المواضيع والمجالات الأخرى.

١. الدفاع

لقد أباح الإسلام للأفراد وللأمم حق الدفاع عن النفس ضد من يهدد كيانها ووجودها ضد القوى المعادية لها، بل حث على ذلك في بعض الأحيان. فإن أراد أحدهم التعرض لك ولمالك ولحياتك ولدينك ولعرضك تصديت له وجهًا لوجه، ودخلت معه في صراع مرير. لنفرض مثلاً أن أي دولة من الدول تجاوزت الحدود الفاصلة بينك وبينها ودخلت أراضيك، فماذا تعمل؟ وإذا قامت بتحريض بعضهم في بلدك وأطلقتهم عليك فماذا سيخطر

على بالك؟ وإذا تعرض أبناء دينك في مكان ما إلى ظلم وإلى غدر فكيف ستتصرف؟ لاشك أنك لن تكتفي بالقول "لا شيء، لن أعمل شيئًا."

وانطلاقًا من هذه النقطة فقد وضع رسول الله ﷺ كيفية استعمال القوة داخل إطار من الانضباط قبل أربعة عشر قرنًا. فأشار إلى ضرورة استعمال القوة إن اقتضى الأمر بجانب الحكمة، واستعمال التهديد بجانب الإرشاد إن أراد المسلم أن يحيا حياة كريمة وحياة عزيزة. أجل على المسلم أن يكون قويًا، وأن يستعمل القوة في سبيل الحق، وأن يُسمع صوته للعالم، وأن يقطع الأصوات المنكرة، فيكون بذلك ممثلاً للتوازن الدولي.

٢. ردع الظلم

هناك الكثيرون ممن لحقهم الظلم والحيف والغدر في هذا العالم. ونحن نظن بأننا عندما نبسط حمايتنا عليهم، أو عندما نسجل بعض النجاح على المستوى السياسي لصالحهم نكون قد حللنا الموضوع. صحيح أنه قد يُعد هذا أمرًا معقولاً بنسبة معينة.. أجل، إننا نفتح صدورنا لإخوتنا في القومية وفي الدين ونحاول أن نحل بتضحياتنا بعض مشاكلهم، ولكن لا أدري أي جزء من هذه المشكلة ننجح في حله. فبالقرب منا هناك ما يقارب ١.٥-٢ مليوناً من الذين تعرضوا للظلم والقهر والذين مُنِعُوا من أداء شعائرهم الإسلامية ومن استعمال أسمائهم الإسلامية.. فإن استطعنا أن نفتح صدورنا لنصف مليون منهم فإن مليونًا أو أكثر سيبقون هناك تحت وطأة الظلم.[1] فإذا كنا عاجزين عن حل مشكلة صغيرة أمام دولة صغيرة فكيف نستطيع التصرف إذن، أمام المشاكل العديدة للدنيا والمتعلقة بنا عن قريب؟

إذن، يجب أن تكون هناك دولة إسلامية بحيث يحسب الكل حسابها، وعندما تقطب حاجبيها أو عندما تغضب قليلاً يرجع الآخرون إلى صوابهم ويعرفون حدودهم. وهذه القوة التي ترهب الآخرين يجب أن تكون متوفرة وموجودة على الدوام لكي يتسنى الإسراع لنجدة المظلومين والملهوفين ولإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وهذا يكون بإظهار هذه القوة الكبيرة أحيانًا كلما استوجب الأمر. وقد تم هذا في الماضي بهذه الصورة، فعندما كنا نقوم بمهمة تمثيل هذه الوظيفة في التوازن الدولي، كان يكفي أن نعلن "أن الأسطول العثماني السلطاني متوجه الآن نحو المحيط الهندي." كان هذا الإعلان كافيًا لكي يخيف إنكلترة التي كانت تبيت النية لاحتلال الهند ويجعلها تنكص على عقبيها. أجل، لقد كان ثقلنا كبيرًا في التوازن الدولي في تلك العهود. وبفضل هذا الثقل الكبير، وبفضل دور الحكم الذي كنا

---

[1] إشارة إلى الأحداث المؤسفة التي وقعت في بلغاريا عام ١٩٨٩ ضد المسلمين.

نلعبه كان المظلومون والذين أصابهم الحيف أو الغدر يهرعون إلينا لإحقاق الحق وإبطال الباطل في عالم واسع يمتد من فرنسا إلى الهند.

أجل، لقد شرعت الحرب في الإسلام من أجل نجدة المظلومين والمستضعفين والمساكين، فإن لم يسرع المؤمنون للنجدة فمن غيرهم يسرع إذن؟ لقد أناط بنا الله ﷻ مهمة إحقاق الحق في العالم. لذا، علينا أن نفهم أن احتلال مثل هذا الموقع هو هدف وجودنا، وأن نفهم هذا ونحاول الوصول إليه وتحقيقه، وإلا فإن الظلم سوف يستمر.

٣. حرية الدعوة

إن حيل بيننا وبين حريتنا في نشر الحق والحقيقة والفضيلة والاستقامة، فإن الإسلام يبيح لنا الحرب من أجل الحفاظ على تلك الحرية وتأمينها. يرجى الانتباه هنا رجاء.. نحن لا نقول بأن الحرب تكون من أجل نشر الحق والحقيقة، بل نقول إن تمت الحيلولة دون حرية نشر الحق والحقيقة عند ذلك يتم إعلان الحرب. فإن كانت لك جيوش لنشر رسالة الإسلام في أرجاء الدنيا كلها، فإن رجال الإرشاد عندك سيقومون بإيصال رسالة الإسلام إلى كل فرد. فإن قام الآخرون بالحيلولة دون هذا، عند ذلك يجب عليك رفع هذه الحوائل والعوائق، ذلك لأنهم يحولون دون سلوك الآخرين طريق الجنة بإرادتهم الحرة. لذا، تقع عليك وظيفة المحافظة على حرية التفكر وإزالة الموانع وكل أشكال المقاومة ضد هذه الحرية. وبنسبة نجاحك في تأمين هذه الحرية تكون نسبة نجاحك في نشر دينك.

٤. أسس إنسانية

فإذا ما قمت بهذه الحرب للحفاظ على الحرية عليك ألاّ تجرح الكرامة الإنسانية والشرف الإنساني وألاّ تتعرض للأطفال وللنساء ولا للمعابد ولا للرهبان أو للذين نذروا أنفسهم للعبادة والطاعة، وألاّ تتعرض لغير المحاربين. ومعلوم لدى الجميع كيف أن الوضع الحالي في هذا المجال لم يصل بعد إلى هذا المستوى، بل هو تحته بكثير. ولا أدري هل يكفي قولنا "تحته بكثير" في وصف من أسقطوا القنابل النووية على رؤوس المدن الآهلة بالسكان؟ لا أظن هذا.. أجل، فبالأمس القريب فجروا القنابل النووية فوق مدينة "هيروشيما" و"ناغازاكي" فقتلوا في كل منها أكثر من ثمانين ألفًا من السكان المدنيين وخلّفوا عشرات الآلاف من المصابين والمعوقين والمشوهين. هذا هو ما عمله مدعو المدنية الحالية.

ثم انظروا إلينا.. كان رسول الله ﷺ وكل خليفة يوصي القائد الذي يرسله للقتال بأن لا يقتلوا شيخًا ولا طفلاً ولا امرأة وألاّ يتعرضوا للرهبان الذين نذروا أنفسهم للعبادة، وألاّ يهدموا معبدًا ولا يقطعوا شجرة وألا يبذروا الثروات.[1]

ولا أدري أمن الممكن للذين فجروا القنابل بكل وحشية على رؤوس المدنيين الآمنين أن يراعوا هذه الوصايا وأن يطبقوها؟ إن الحسرة تملأ قلب الإنسان وهو يشاهد الفراغ الكبير الحاصل في التوازن الدولي نتيجة لعدم وجود الناس المؤمنين ضمن هذا التوازن، ولو كنا نحن إحدى القوى الكبرى لما كان هناك كل هذه المظالم وكل هذه الآلام. وأنا أسألكم الآن ألا تبرر هذه النتيجة وحدها الجهاد وتجعله ضروريًا؟ أجل، إن هذه الغاية تبرر الخروج للجهاد في سبيل الله، وهذا هو ما فعله رسول الله ﷺ.

ولأنني قمت بتحليل هذا الموضوع العميق والواسع في كتاب سابق، فإنني أكتفي هنا بهذا القدر وأحيل القراء إلى ذلك الكتاب.[2]

لم يقم الرسول ﷺ طوال العهد المكي بأي مقاومة مادية وبأي نضال مادي، إذ كان ينصح من حواليه على الدوام بالتزام الهدوء والسكينة وبالصبر والثبات. واكتفى فقط باستعمال دساتير القرآن الماسية، وصرف جهوده طوال ثلاثة عشر عامًا في مخاطبة القلوب وأسر النفوس. أجل، فطوال ثلاث عشرة سنة حصر جهوده كلها في التبليغ بمنطقه وبكلامه وبخطابه الساحر المبارك الذي يقلب الفحم ماسًا والتراب ذهبًا. فلم يقابل الأذى بالأذى ولا السباب بالسباب، بل خاض أودية الآلام والأذى بصبر لا ينفد. كان المؤمنون يعذبون أمام عينيه ويقتلون، فكان يعتصم بالصبر ويتحمل هذه الآلام إضافة إلى تحمل آلامه الخاصة. فمثلاً عندما كان يمر بآل ياسر والمشركون يصبون عليهم ألوان العذاب كان يقول لهم مواسيًا: «صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة.»[3]

كان هذا مبلغ صبره وتحمله، ومع ذلك فلم يكن لغيظ الكفار وحقدهم نهاية وحدًا. فما كان أمام رسول الله ﷺ سوى التخطيط لإبعاد المسلمين عن مكة وإصدار الأمر إليهم بالهجرة ومفارقة بيوتهم التي ترعرعوا وعاشوا فيها ردحًا من الزمن بكل أمن، ومفارقة أحبائهم من الأولاد والأهل والأقرباء.

---

[1] أبو داود، الجهاد ٨٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠٠/١.

[2] هو الجهاد أو إعلاء كلمة الله ولم يترجم بعد.

[3] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٤٢/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٩٣/٩.

وهكذا بدأ المسلمون الأوائل بالهجرة.. وكان عمر ﷺ ضمن هؤلاء، ولكن هجرته كانت هجرة أليمة، إذ لم يكن معه لا أولاده ولا زوجته.. كان يهاجر وحيدًا،[1] إذ كان هذا هو الخيار الوحيد لديه. وعندما هاجر أبو بكر ﷺ لم يصحب معه ابنته عائشة رضي الله عنها -الذي كان يخاطبها بعد زواجها من رسول الله ﷺ بـ"يا أمنا" مع أنها كانت صبية يافعة آنذاك- إذن، أين كانت؟ لا ندري، ذلك لأن الهجرة كانت تتحقق بهذه الصورة، ولم يكن هناك خيار آخر.

أجل، كان الجميع يتركون أوطانهم وبيوتهم ويضطرون للهجرة. وفي أحد الأيام مر عُتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام على دار بني جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عُتبة بن ربيعة تخفِق أبوابها يَبابا، ليس فيها ساكن. فلما رآها كذالك تنفّس الصُعداء، ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستُدركها النَكْباء والحوب[2]

ثم قال عُتبة بن ربيعة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها! فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من قُلّ بن قُلّ[3].[4]

كلا، لم يكن الرسول ﷺ مسؤولاً عن هذا، بل كان وزر هذا يقع على كاهل الظالمين والغدارين الذين أخرجوا هؤلاء من مساكنهم ومن بيوتهم التي ولدوا وترعرعوا فيها وسرى ظلمهم حتى إلى حيواناتهم. إذن، فحتى الكافر كان يذرف الدموع على ظلمهم أنفسهم.

اضطر المسلمون إلى قطع طريق يبلغ طوله خمسمائة كم تقريباً دون زاد ولا معين وفي وسط الجو اللاهب للصحراء.. كان قطع هذه المسافة آنذاك يستغرق شهرًا كاملاً. وكان عليهم أن يقطعوا هذه المسافة، وليس عليهم في سفرهم وقيامهم ومنامهم سوى ملابسهم التي على أجسادهم. ليس هذا فحسب، إذ ما كان أحد منهم يعرف ماذا يأكل أو يشرب طوال هذا السفر المضني. اضطر هؤلاء المهاجرون -الذين عاشوا في المدينة المنورة فيما بعد بكرامتهم- أن يلجأوا إلى "الأنصار"، وكان هذا عذابًا آخر بالنسبة لهم، غير أن ذلك المجتمع الطاهر من الأنصار فتح صدره مرحباً بهم دون أن تبدر منه كلمة شكوى واحدة.. لماذا؟ لأن النبي ﷺ كان يقول لهم اصبروا وصابروا فالجنة موعدكم. كان

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ١١٨/٢؛ السنن الكبرى للبيهقي ١١٣/٩؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٦١/٦.
[2] الحوب: التوجع.
[3] القُلّ: الواحد.
[4] السيرة النبوية لابن هشام، ١١٤/٢-١١٥.

الرسول ﷺ يتصرف حسب أوامر الله ﷻ ولم يكن لهواه أو لمشاعره أي دخل في هذا.

ومع كل هذه الآلام التي تجرعها المسلمون حيث هجروا أوطانهم ومساكنهم وأولادهم وعُذّب قسم منهم حتى فارق الحياة لم تكن كل هذه الآلام كافية في نظر المشركين الظالمين، أو كافية لتهدئة حقدهم، إذ اتخذوا قراراً في أحد الأيام أن يضعوا أيديهم على أموال المسلمين وأملاكهم وأراضيهم ويقسموها فيما بينهم إلى درجة أن أسامة بن زيد سأل رسول الله ﷺ عندما دخل مكة منتصرًا بعد ثماني سنوات: يا رسول الله، أين تنزل غدًا؟ فأجابه الرسول ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟.»[1]

أي أنهم لم يتركوا لرسول الله ﷺ بيتًا يستطيع أن يسكن فيه ويجد فيه راحته. كان عقيل أكبر أولاد أبي طالب، وعادى الرسول ﷺ حتى يوم إسلامه الذي تأخر، ووضع يده على أملاك الرسول ﷺ وكأنه وارثه، فقد كان شعور الوفاء عنده ضعيفًا. كما تم تقسيم أملاك الجميع بعد الهجرة.

وقد انتهز المنافق ابن أبيّ ما جرى في مكة من هذا الأمر فجاء إلى المدينة وأخذ يصيح في سوقها: يا معشر المسلمين! أنتم جالسون هنا وأموالكم في مكة نهب، يتقاسمون أموالكم في الأسواق، سيأتي يوم لا تملكون لا هنا ولا هناك شيئًا.

كان هذا ظلمًا من نوع آخر.[2] وكأن كل هذا لم يكن كافيًا، لذا نرى أن قافلة للمشركين تحمل أموال المسلمين تتوجه إلى الشام وتمر بالقرب من المدينة عن قصد وكأنها تقول للمسلمين "انظروا وموتوا من الغيظ." ولم يكتفوا بهذا بل ساقوا أمامهم إبل وأغنام المسلمين. هكذا كانت طبيعة النهب عند الكفار. والحقيقة أن ما جرى ويجري في عالمنا اليوم لا يقل عن هذا، لذا نرى الشاعر محمد عاكف[3] يقول:

يقولون إن التاريخ يكرر نفسه   أكان التاريخ يكرر نفسه لو اعتبرنا به؟

فها هم المؤمنون يتعرضون الآن لمختلف أنواع الظلم والقهر، والذين يساندونهم يتعرضون أيضا لمختلف أنواع المضايقات والمحن بل يحرمون من أوطانهم ومساكنهم بل حتى من حقهم في الحياة.

---

[1] البخاري، الجهاد ١٨٠؛ مسلم، الحج ٤٣٩؛ أبو داود، الفرائض ١٠؛ فتح الباري لابن حجر، ٥٢٨/٣.

[2] سنتناول هذا الجانب فيما بعد عند تناول الحكم في سيرة الرسول ﷺ.

[3] محمد عاكف أرْسُوي (١٨٧٣-١٩٣٦) شاعر تركي، صاحب النشيد الوطني التركي.

والآن اسمحوا لي بأن أسأل مرة أخرى: لو كنتم في مكانهم فماذا كنتم صانعين؟ ولا تنسوا أن آلافًا من الصحابة كانوا مشبعين بالإحساس نفسه ونفوسهم مجروحة، ففي كل يوم كانوا يتلقون طعنة مسددة إليهم. ولو أن السماء أطالت المهلة ولم تسمح لهم برد العدوان لأحسوا بالانكسار في قلوبهم، ولكن الرحمة الإلهية هلّت وتكلمت وأسرعت إلى نجدتهم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ (الحج:٣٩-٤٠).

أجل، لقد تعرضوا لمختلف أصناف الظلم، بل حرموا حتى من حق الحياة، والآن أعطي لهؤلاء الذين لوحقوا وعُذّبوا وقُتلوا.. أعطي لهم حق الدفاع عن أنفسهم وحق محاسبة الأعداء. وكان مناط الحكم أنهم أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، أي أنهم تعرضوا لمختلف أنواع الحرمان، فقد فارقوا زوجاتهم وأطفالهم حيث وقعوا في الأسر وفي الظلم، فقد كان هناك من قضى ٧-٨ سنوات وهم مقيدون بالسلاسل. إذن، فقد صدر أخيرًا الإذن بالقتال لحفظ حقوق هؤلاء المظلومين والمغدورين الذين أصابهم ظلم كبير وحيف شديد، وفي الوقت نفسه فقد كان الرسول ﷺ يؤمر بالجهاد.

لم يكن الإسلام دين سيف ودماء كما ادعى بعض المنافقين والجاهلين. صحيح أن الرسول ﷺ استعمل السيف، فقد أخبر الأنبياء بصفته هذه من قبل، فالسيد المسيح ؏ عندما يتكلم عنه يقول: "صاحب التاج والمعراج واللواء والقضيب"،[1] فعندما يستلزم الأمر سيقاتل من يستحق القتال. ويقول أيضا: "معه قضيب من حديد يقاتل به، وأمته كذلك."[2]

ذلك لأن راياتهم ستخفق في أرجاء المعمورة كلها وسينضوي تحتها الكثيرون وسيناضلون من أجل الحق وفي سبيله. أجل، إن هذا الروح المبارك الذي تسرب حتى إلى رايتكم وعَلَمكم، وهذا المعنى المقدس تبلور في أيديهم في ذلك العهد، فكان مشعلة أضاءت أرجاء الأرض.

تحت هذه الظروف أمر رسول الله ﷺ بالجهاد والنضال ضد أعدائه. كأنه كان يقول لمعاصريه المعاندين: "ليس بوسعكم منع حرية الفكر، ولن تستطيعوا سد الطرق المؤدية إلى الإنسانية." ونحن لا نزال نصفق للثورة الفرنسية، ونعدها بابًا مفتوحًا للحرية مع أنها حفلت بآلاف من مشاهد القتل والوحشية وذبحت آلاف الأشخاص بسكين المقصلة، وبدا

[1] الشفاء للقاضي عياض، ١/٢٣٤.

[2] الشفاء للقاضي عياض، ١/٢٣٥.

وكأن الثورة تأكل نفسها إلى درجة أن "روبسبيار" عندما أرسل "دانتون" إلى المقصلة سأله: "ما آخر أمنيتك؟" فأجابه "دانتون": "ليست لدي أمنية، لأن رأسك ورأسي سيكونان معًا في سلة المقصلة."

هذا هو الوجه الحقيقي للثورة التي قيل إنها فتحت أبواب الحرية، وهذه هي وحشيتها وبربريتها.. لم يتخلص أحد من وحشيتها.. قتلت الملك أولاً ثم أنصاره ثم الآخرين.

بينما قام الرسول ﷺ قبل أربعة عشر قرنًا بتمزيق حجب الظلام وبإزالة الاستبداد والظلم وبتقديم الحرية وإهدائها إلى الإنسانية. عليكم أن تعاونوا المظلوم والمغدور، لايمكن أن تستريحوا أو يهدأ بالكم وأنتم تسمعون أنين المظلومين. فإن كان لا بد من استعمال القوة لإحقاق الحق وإزالة الظلم والباطل فعليك باستعمالها. ولكننا لا نستطيع ذلك في هذه الأيام. ولكن الرسول ﷺ عندما جاء أوان استعمال القوة والظروف المناسبة له استعمل القوة بعد حساب دقيق ومنطقي. ولكي تتصوروا هذا نقول إن مجموع من استشهد في جبهة الإسلام في العهد النبوي كان مائة ونيفا من الشهداء فقط. بينما تجاوز عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أربعين مليونًا من القتلى نتيجة الصراع الوحشي بين الطرفين. ولكي يستقر نظام باطل في روسيا قُتل ما يقارب مائة مليون إنسان. كان من الممكن إبحار سفن على الدماء المراقة هناك وبناء بنايات من جماجمهم. كل هذه الوحشية التي لا مثيل لها كان من أجل توطيد نظام جديد اسمه "الشيوعية".

لِيلعن الله مثل هذه النظم، ولتنخسف إلى أسفل السافلين! وهي قد خسفت فعلاً إلى أسفل سافلين لأنها مغايرة لفطرة الإنسان. وكل نظام غير طبيعي لا يراعي الفطرة ولا يستند إلى الحق ولا يعطي الحرية للأفكار وللمبادئ التي تمثل الحق فإن مصيره إلى الزوال.

أجل، لقد قام الرسول ﷺ بمناوشة أعدائه طوال عشرة أعوام لكي يضع أسس حقائق عديدة.. حقائق ملء الأرض. وفي جميع حروبه هذه لا يعطي سوى مائة ونيف من الشهداء فقط من الجانب الإسلامي. هذا من الجانب الإسلامي، أما عدد من قتل من الجانب الآخر فلا أعلمه. بينما كان عدد الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية أربعين مليونًا حسبما ذكرنا سابقًا. ولا يشمل هذا الرقم الجرحى والمشوهين والمعوقين الذين ماتوا فيما بعد. لذا، فإن العهد النبوي يُعد عهد احترام إنسانية الإنسان واحترام أفكاره ومشاعره. ولم تصل دعوة "الإنسانية Humanizm" إلى هذا المستوى، وليس من المنتظر أن تصله أبدًا. ذلك لأن الرسول محمدًا ﷺ هو صاحب ذلك العهد. والمؤمن -حسب تعليماته- يقاتل ويحارب،

ولكنه لا يسد أبدًا أبواب الصلح، ولا يزيف القيم الإنسانية ولا يهينها، ولا يقتل أي إنسان دون سبب ودون حق، ولا يحتل البلدان الأخرى ولا يمتص خيرات الأمم الأخرى.

٥. السلم هو الأساس في الإسلام

لم يعرف الغرب -لا في الماضي ولا في الحاضر- القيم الإلهية، لذا قام باحتلال البلدان ووضع يده على ثروات تلك البلدان ما ظهر منها وما بطن، واستعبد أهاليها وسكانها وشكل المستعمرات. حارب في هذا السبيل، وأراق الدماء في سبيل هذه الغاية. لقد كان هذا هو الهدف الحقيقي لحروب البلقان وللحرب العالمية الأولى والثانية ولحرب واحتلال بلدان الخليج والصومال. أما الحرب في الإسلام فتكون من أجل غاية سامية ومن أجل حرية الفكر والاعتقاد ومن أجل فتح الطرق المؤدية إلى القيم الإنسانية. ومع ذلك فيجب ألاّ يهمل الإتجاه نحو السلم كلما استوجب الأمر، ذلك لأن السلم هو الأساس وهو الأصل، أما الحرب فأمر استثنائي. ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال:٦١) و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:٢٠٨).

هذه الآيات وأمثالها تدعو المسلمين إلى السلم وإلى الصلح، فإن كانوا في الحرب فهي تدعوهم إلى الاعتدال وإلى الاستقامة. أما النظم الأخرى فالحرب عندها ميدان وحشية، بل إن فترات الصلح عندها لا تختلف كثيرًا عن فترة الحرب. ومهما اختلفت أسماء هذه النظم فهي ليست سوى نظم لتضليل البشرية، ونظم شيطانية همها إشعال الفتن والاضطرابات. فالشيطان يزين هذه النظم ويجعلها في صور براقة لخداع أنصارها، ذلك لأنه عدو مبين للإنسان، لذا فسيحاول إبعادك عن ذاتك وعن نظرتك لتاريخك ولفلسفة هذا التاريخ ومعناه.

أجل، يجب أن يكون السلم والصلح نصب عين المؤمن حتى وهو يقاتل. وقد يقاتل المؤمن المؤمن، وهنا أيضا لابد من الصلح: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات:٩).

فإن اشتبكت طائفتان من المؤمنين وتعرض الوطن وتعرضت الأمة إلى خطر الانشقاق والتمزق، وبدأ الاضطراب الداخلي ينتشر في البلد.. في هذه الحالة يجب محاسبة المقاتلين حتى وإن كانوا مؤمنين، وبذل كل الجهود لتأمين وحدة الإسلام والمسلمين ووحدة الوطن والأمة. هذا هو ما يريده القرآن، ولكن أين نحن من هذا؟ إن ماضينا القريب ليس مما يشرح

الصدور.. يُقال "إن اليأس يمنع كل كمال" والذي يقع في اليأس لا يستطيع أن ينتصب واقفًا على قدميه، وهو مستنقع يغرق من يقع فيه. ولكن من الصعب أن يكون الإنسان متفائلاً مع وجود كل أسباب الفرقة هذه. أجل، إن المؤمنين هم شهداء الله في الأرض، وعنصر توازن بين الأمم، وضمان للتناسق العام، لذا فلهم حق التدخل في كل شيء ولدى الجميع في سبيل تأمين الحق والعدالة. فإن اضطربت الأمور في بلدنا أو في بلد آخر إلى درجة استدعت التدخل وكنا نملك القدرة على التدخل، فإن من واجبنا التدخل لتأمين الهدوء والاستقرار. فإن تقرر التدخل وتقررت الحرب تم التوكل على الله والسير في الطريق الذي نعرف أنه الطريق الحق، إذ ألا يقول الله تبارك وتعالى حول النهاية الحزينة لمعركة أُحد ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾ (آل عمران:١٥٩).

أجل، إن كانت الملابسات والظروف تشدك نحو الجهاد المادي، أي إن حيل بينك وبين حريتك في نشر دينك، أو إن لم يكن هناك من يوقف الظلم الواقع على المظلومين وعلى المغدورين، ولم يكن هناك من يُنهي أنينهم وشكاواهم، أو لو كان هناك من يستعمل القوة لمنعك من نشر الحق، أو لو اعتدوا على حرمة وطنك وهددوا حياتك.. عند ذلك آن لك أن تبرز لميدان القتال وأن تشمر عن ساعديك للقتال وللجهاد.

ب- التهيؤ الجيد

عندما تستوجب الظروف الخروج إلى ساحة القتال، يكون من الواجب التهيؤ لذلك الأمر على أفضل وجه. وأول ما يجب الاهتمام به هو القوة المعنوية. والمتخصصون في العلم العسكري يعلمون جيدًا الدور المهم للقوة المعنوية في الحروب، لذا يبدون اهتمامًا فائقًا بها. ولا شك أن الإيمان هو منبع ومستند القوة المعنوية، ولا يمكن أن تتوقع الشيء الكثير في ميدان القتال من امرئ لا يملك نصيبًا من الإيمان في قلبه.

١. القوة المعنوية

إليكم بعض الآيات التي تقوي الروح المعنوية للمؤمن وتهيئه للقتال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٧٤)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنفال:٦٥)، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ﴾ (البقرة:٢٤٩)، ﴿وَلاَ تَهِنُوا

وَلاَ تَحْزَنُـوا وَأَنـتُمُ الأَعْلَـوْنَ إنْ كُنـتُم مُـؤمِنِينَ﴾ (آل عمـران:١٣٩)، ﴿وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِـينَ﴾ (الأعراف:١٢٨).

والمبدأ الذي يترشح من هذه الآيات هو أن "الحق يعلو ولا يعلى عليه." هذا هو الشعور الذي يملأ قلب المؤمن وهو مقبل على القتال، إذ يكون قد تحصن بقلعة من الإيمان لا يمكن تخطي أسوارها. هكذا كان الرسول ﷺ ينفث مثل هذا الإيمان ومثل هذا الشعور بالاطمئنان في قلوب جنوده وأبطاله وهو يعدهم ويهيئهم للقتال.

كان هؤلاء هم الأبطال الذين يحرصون على الموت حرص أعدائهم على الحياة، ويفتشون عنه لأنهم يعلمون أنه المفتاح السحري الذي يفتح لهم أبواب الجنة، ويتساءلون "تُرى أين سأتوضأ بدم الشهادة وألقى ربي؟" يتساءلون هكذا ويفتشون عن الشهادة في ميادين القتال.. كان قلب كل بطل من هؤلاء الأبطال يفور بهذا الشعور.. إذن، فهل من الممكن أن يقف أحد أمام أمثال هؤلاء الذين يستخفون بالموت؟ لقد كان الأعداء يرون هذا فلا يملكون سوى الفرار من أمامهم.

٢. تكوين قوة رادعة

والناحية المهمة الثانية هي عزم الرسول ﷺ على جعل أمته قوة يُرهَب جانبها في التوازن بين الدول، وقوة يحسب حسابها، ذلك لأنك إن لم تصل إلى مثل هذه القوة لم يبال بك الآخرون، بل ربما تدخلوا في شؤونك وسخروا منك، واتخذوا القرارات دون أن يحسبوا حسابًا لك، بل ربما اتخذوا قرارات رغمًا عنك وخارج إرادتك وأجبروك على تطبيق هذه القرارات. ويرجع سبب هذا إلى عدم تملكك قوة وثقلاً كافيًا في التوازن الدولي أمام القوى الكبرى، بينما يقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء:١٤١).

أي لا يوجد هناك سبيل لكي يكون الكافر أعلى من المؤمن. أي يجب ألا يحكم أي مجتمع نصراني أو يهودي أو وثني أو رأسمالي أو ملحد أو شيوعي مجتمع المسلمين. وفي الحقيقة لم يستطيعوا حكم المسلمين الحقيقيين، لأن الله تعالى لن يسمح بذلك. فكأنه يقول لقد سددت أمامهم هذا السبيل. والمؤمن لا يستطيع العيش تحت تحكم وتعنت الآخرين، وهو لا يستطيع العيش مستندًا إلى غير الله تعالى، إذ لا يليق به ذلك، ولا يرضى أن يكون في يد الظلم كالفأرة في يدي القط.

أجل، إن المؤمنين سواء في مستوى الفرد أو في مستوى المجتمع أو في مستوى الأمة هم أصحاب مزايا عالية، ويجب أن يبقوا في الأعالي. وقد رسم الرسول ﷺ لأمته هذا

الهدف وكأنه يقول لهم ليس لعلوكم حد معين. فإن لم تكونوا أصحاب قوة في الأرض تم سحقكم، أو كما جاء في الحديث الذي يرويه أبو داود وأحمد بن حنبل: «يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تداعى الأَكَلَة إلى قصعتها»[1] أي يتداعون عليكم وعلى النعم التي أنعمها الله تعالى عليكم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

أو تستطيعون أن تقولوا بالتعبير الحالي إنهم لا يتداعون عليكم في كركوك وفي داغستان وفي سورية وفي ليبيا وفي مصر على البترول وعلى الثروات الأخرى من كل جانب.

لقد أصبحت نعمنا محط أنظار الأجانب وطمعهم، حتى لو أن دولة فتحت مدرسة في مكان ما، أثار هذا شهية الآخرين ودفعتهم إلى فتح مدارس لهم أيضًا. وهم يقولون "علينا أن نفتح مدارسنا هناك باسم مصلحتنا، فمن يدري ماذا سيحصل" إلى درجة أنه كانت هناك ثلاثة مدارس أجنبية مختلفة حتى في أصغر مدينة تقوم بالتدريس باللغات الأجنبية، وكانت هناك أكثر من ثلاثمائة مدرسة أجنبية في تركيا هي بمثابة عيون ومراصد للجهات الأجنبية وبمثابة رواد للاستعمار الثقافي. وإلا فماذا كانوا يعملون في تركيا وماذا كانت غايتهم؟ ألم نكن قادرين على إدارة أنفسنا بأنفسنا؟ وماذا كان السبب الحقيقي لوجود هذه الفيروسات في دمنا وانتشارهم في عروقنا وإعلانهم النفير العام الثقافي ضدنا وتوغلهم في مفاصل إدارتنا؟ لم يكن ذلك حبا في سواد عيوننا.. كلا، بل لكي يقرضوا بأنيابهم عالمنا الروحي ويبردوه بمباردهم الحادة، وفي كثير من الأحيان نجحوا في هذا. فقد اتفقوا ضدنا في أثناء حرب البلقان ورمونا عن قوس واحد. وفتحوا أبواب البلاء علينا في الحرب العالمية الأولى، وحاولوا أن يقحمونا في أتون الحرب العالمية الثانية، ولكن الله سلم هذه الأمة وأوصلها إلى هذا العهد. لماذا كانت كل هذه المصائب؟ ذلك لأننا كأمة فرطنا في وصايا الرسول ﷺ ولم نصل إلى المستوى الذي أرادنا أن نصل إليه، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال:٦٠).

لقد فهم المسلمون الأوائل هذا الأمر جيدًا. يقول مولانا الشِبلِي وهو يحلل حياة عمر بن الخطاب ﷺ بأنه بينما كانت الحروب قائمة مع الأعداء في جميع الجبهات كان هناك عدد كبير من الخيول غير المشتركة في الحرب إضافة إلى الأعداد الكبيرة المشتركة في الحرب من الخيول والجمال. فمثلاً كان هناك أربعون ألفًا من الخيول الجيدة في مزرعة خارج المدينة المنورة لم تشترك بعد في أي حرب.

---

[1] أبو داود، الملاحم ٥؛ المسند للإمام أحمد، ٢٧٨/٥.

كما كان هناك أربعون ألفًا من الخيول قرب سورية كاحتياط. هذه الخيول لم تكن تشترك في الحرب، بل كانت تربى من أجل الطوارئ وكاحتياطي فقط.[1] إذن، فقد تهيأوا مثل هذا التهيؤ ضمن الإمكانيات التي أنعمها الله عليهم آنذاك، والحقيقة أن من الممكن فهم وجوب اتخاذ أمثال تلك الحيطة والتهيؤ من كلمة "الرباط" الواردة في الآية الكريمة. ذلك لأن الرباط في معناه العام هو وضع كل العناصر الضرورية من حيوان أو إنسان أو أدوات ورصدها ووقفها للحفاظ على أمن الأمة الإسلامية. والقرآن يشير إلينا بالوصول إلى هذا الهدف وكأنه يقول: احفظوا دينكم ولغتكم وشرفكم وعرضكم وكرامتكم ووطنكم وكل مقدساتكم من الأعداء الذين ينظرون إليها نظرة خيانة وطمع. وأعدوا لهم كل ما يلزمكم من القوة لتحقيق هذا، ولا تقصروا في هذا الأمر أبدًا، ولا تعطوا أعداءكم أي فرصة أو مجال، لا تعطوا أعداءكم مثل هذا المجال لكي لا تكونوا لعبة بأيدي الآخرين.

٣. استعمال السيف حين الضرورة

كما يوصي القرآن الكريم باستعمال القوة لإسناد الحق والحكمة في التوازن العالمي، فإن محمدًا ﷺ رسول جاء بشرعة الحرب، فقد جاءت صفته في الإنجيل بأنه "صاحب القضيب"،[2] فهو يقوم بنشر الحق، إلا أنه يستعمل القوة ويستعمل السيف إن تم الوقوف في وجه نشر الحق والحقيقة، فهو رسول السيف أيضًا. ولأنه رسول السيف أيضا فقد علمه الله تعالى في القرآن تكتيك الحرب أيضًا، فالقرآن يخاطبه في إحدى الآيات: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (الصف:٤).

أي لتكن صفوفكم متراصة وملتحمة بعضها ببعض ومرتبطة بقوة. بحيث لا يستطيع العدو النفاذ من خلالها. وقد كان هذا التراص أفضل ترتيب للصفوف في القتال آنذاك، ذلك لأنها كانت تُرهب العدو وتلقي في قلوبهم الرعب، وقد استعمل الرسول ﷺ هذا التكتيك في حروبه وانتصر.

وقد أولى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هذا الأمر -أي القتال في سبيل الحق- اهتمامًا كبيرًا، بحيث أنه ما إن أبدى بعضهم بعض التثاقل وبعض الكسل في هذا الأمر حتى جاء الزجر الشديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى

---

[1] عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة لشِبْلي النعماني، ١٤٤/٢.

[2] الشفاء للقاضي عياض، ٢٣٤/١-٢٣٥.

ٱلأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ ٱلأخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي ٱلأخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ۞ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٣٨-٤٠).

أجل، فكما أنه نصر رسوله في وقت لم تقوموا أنتم بنصرته، وعاونه في وجه جميع القوى الشريرة، فكذلك سينصركم على قدر إخلاصكم وبقدر صدقكم.

وفي ضوء نور القرآن الكريم كان الرسول ﷺ يرشد على الدوام أمته إلى هذا الطريق. لذا، فما كان من المتوقع أن تُغلب مثل هذه الجماعة ولا أن تدوسها الأقدام. ولم تُغلب في الحقيقة ولم تُدس، إذن، يجب على المسلمين لكي يكونوا منظمي التوازن في العالم أن يكونوا متهيئين على الدوام وعلى أُهبة الاستعداد في كل آن، وأن يكونوا في جبهة القتال متى ما دعا الأمر إلى ذلك. وأي تصرف مضاد لهذا يعد ذنبًا وإثمًا يجب الاستغفار منه والتوبة عنه. وهاكم المثال من العهد النبوي: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة:١١٨).

ج- شعور الطاعة

الطاعة مهمة جدًا، والأهم منها هو تنمية شعور الطاعة في مثل ذلك المجتمع البدوي. أجل، ففي ذلك المجتمع الجاهلي لم يكن أحد يصيخ سمعه لأحد ولا يعيره اهتمامًا ولا التفاتًا. ولكن الرسول ﷺ تدرج معهم وعلمهم الطاعة شيئًا فشيئًا إلى درجة أنه عندما جعل شابًا يافعًا بعمر ثماني عشرة سنة قائدًا في حملة يوجد فيها أبو بكر وعمر وعلي ﷺ وغيرهم من كبار الصحابة لم يصدر أي اعتراض عدا اعتراض شخص أو شخصين.[1] إذ يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ۞ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٥-٤٦)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء:٥٩).

لقد استقر مفهوم الطاعة بين الصحابة إلى درجة أن أبا بكر ﷺ مع كونه خليفة

[1] البخاري، الأحكام، ٣٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ٦٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٦/٢٣٦.

للمسلمين طلب من القائد الشاب أسامة السماح لعمر بن الخطاب ﷺ ليكون بجانبه ليستشيره ويكون وزيرًا له.[١]

لماذا كان الخليفة يستأذن؟ ذلك لأن رسول الله ﷺ عين أسامة قائدًا، لذا يجب إطاعته. وقد ركز الرسول ﷺ على موضوع الطاعة حتى وفاته، لأنه يعلم أن عدم الطاعة سيفتح الباب على الاضطرابات وعلى الفتن. ونجح في ذلك نجاحًا لم يكن من نصيب أحد قط إلى درجة أن عبد الله بن حُذافة السهمي -وكان على رأس حملة من المسلمين- عندما أمر أتباعه أن يرموا أنفسهم في نار أوقدها حاول بعضهم إلقاء نفسه فعلاً في النار. بينما كان هذا انتحارًا، لذا قال بعضهم: "إنما تبعنا النبي ﷺ فرارًا من النار، أفندخلها؟" وقال الرسول ﷺ: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبدًا. إنما الطاعة في المعروف.»[٢]

أجل، كانت الطاعة عميقة إلى هذا المستوى. كانت ضربات السيوف تنهال على الرؤوس فلا يفكر أحد بالتراجع لأن الأمر بالتراجع لم يصدر بعد من القائد، ولو كان العكس واردًا وتصرف كل مقاتل حسب رأيه لما بقي أثر للوحدة وللتضامن، فيكون الرأس قدمًا وتكون القدم رأسًا. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٦).

د- النبي العسكري والخطط المختلفة

كان الرسول ﷺ كأي عسكري جيد يغير خططه على الدوام. والخطة التي يستعملها مرة لا يطبقها مرة أخرى في العادة. لذا، كان خصومه يتخبطون أمامه. وكان أسلوب "الكر والفر" الذي يستعمل في أيامنا بكثرة، ولكنه لم يكن معروفًا آنذاك، أي الهجوم ثم الانسحاب، ثم الهجوم من موضع لا يتوقعه العدو قد أوقع الاضطراب بين القرشيين.

هكذا استقبل رسول الله أعداءه في بدر، ولم يدر المشركون ماذا أصابهم، لذا فقد تضعضعوا من الوهلة الأولى رغم كل ما هيأوا للحرب من مقاتلين وخيول وجمال، بينما لم يكن المسلمون يملكون -حسب علمنا- غير فرسين أو ثلاثة، ولم يكن نصيب كل مسلم من أدوات القتال يزيد عن رمح وبضعة سهام.[٣] ذلك لأنهم أتوا إلى بدر بنية أخرى وقصد آخر.[٤] ولكن

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ٦/٣٣٦؛ كنز العمال للهندي، ١٠/٥٧٩.

[٢] البخاري، الأحكام ٤؛ مسلم، الإمارة ٣٩؛ ابن ماجه، الجهاد ٤٠.

[٣] حول معركة بدر انظر إلى السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٦٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣١٨-٣٣١.

[٤] البخاري، المغازي ٣؛ مسلم، التوبة ٥٣.

الأعداء عندما جوبهوا بشيء لم يعتادوه حتى ذلك اليوم اضطربوا وذعروا.. وبدأت الأسباب الموجودة في القدر الإلهي تطاردهم وتكيل لهم الصفعات جزاء شركهم بالله.

وتكتيك آخر.. فهناك الصلاة الجماعية في جبهة القتال، وهي تنشر روح الاستخفاف بالأعداء، وروح الثقة والاطمئنان للمؤمنين، ولكن كان من الممكن أن يعدها الكفار فرصة. ولكن الوضع لم يكن على الإطلاق كما طمع الأعداء، ذلك لأن القرآن الكريم كان يعطي التعليمات التالية حول هذه الصلاة: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُم مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِن مَطَرٍ أَوْ كُنتُم مَرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء:١٠٢).

أي عندما تقف للصلاة فلتقم جماعة خلفك للصلاة معك. ولتقف جماعة أخرى على أهبة الاستعداد لأي طارئ، وعندما تنتهي الجماعة الأولى من صلاة ركعة تتبادل الفئتان موضعيهما، فتقف الفئة الأولى للحراسة وتأتي الثانية وتصلي خلف رسول الله.

أما الأعداء الذين يراقبون المسلمين عن بُعد فهم يرون عجبًا.. يرون المسلمين يصلون ومعهم سيوفهم ودروعهم ونبالهم، وعندما ينوون الهجوم إذا بهم يرون الفئة الأخرى ويرون المسلمين ينتقلون من صف الصلاة إلى صف الحراسة ومن صف الحراسة إلى صف الصلاة. إذن، فالرسول ﷺ كان -بأمر من ربه تعالى- يخطط للقتال وللدفاع حتى وهو في الصلاة.[١]

١. التصرف بتكتم

قال "هتلر" وهو يصف سلوكه العسكري: "لقد كنت أول من اكتشف التكتم في الأمور." غير أن الرسول ﷺ بصورته المثالية، إذ لم يكن في وسع أحد أن يعرف خططه سواء في الهجوم أو في الدفاع ولا أن يعرف استراتيجيته وأهدافه، إذ لم يكن يصرح بوجهته إلا بعد أن يقطع شوطًا في حملته.

وعندما توجه إلى مكة لم يعرف أحد لا من المسلمين ولا من المشركين هدفه بشكل واضح وجلي إلا بعد أن لم تبق بينه وبين مكة إلا مسافة قصيرة. وعندما أشعل في عشرة آلاف موضع عشرة آلاف شعلة دخل الرعب إلى قلوب قريش، ولكن الأمر كان متأخرًا جدًا

---

[١] البخاري، صلاة الخوف ١-٣؛ مسلم، صلاة المسافرين ٣٠٥-٣١٢؛ أبو داود، السفر ١٢.

بالنسبة إليهم، إذ كان المسلمون قريبين منهم إلى درجة لم يكن باستطاعتهم عمل أي شيء.[١]

٢. شبكة الاستخبارات

ووضع شبكة الاستخبارات لم يسمع بها أحد من قبل، بحيث أن الأخبار كانت تصل إلى المركز في وقتها، حيث كانت تقيّم وتحلّل حالاً. ولم يسجل التاريخ أن أخبار رسول الله ﷺ كانت تصل إلى أعدائه. وقد ارتكب حاطب بن أبي بلتعة خطًا، فأرسل إلى أهل مكة رسولاً يخبرهم بمقدم رسول الله ﷺ إليهم، ولكن رسوله -وكانت امرأة- قبض عليها في الطريق. ولم يؤاخذ حاطب من قبل أحد، لاسيما وأن الموضوع تم حله. وقد اعترف حاطب ﷺ بخطئه هذا. صحيح أن هذا الصحابي اشترك في معركة بدر، ولكن بدر منه مع هذا هذه الهفوة التي عفا عنها صاحب من لا هفوة له.[٢]

أجل، شكل الرسول ﷺ لحسابه شبكة الاستخبارات، ولكن لم يعط فرصة لأحد أن يحصل على أي خبر من أخباره. هكذا كانت درجة التكتم عند الرسول ﷺ.[٣] ومهما قيل عن التكتم فالرسول ﷺ هو الذي علمه ربه هذا الأمر، ثم تعلمت منه الإنسانية هذا المبدأ قبل أربعة عشر قرنًا. وكان يستطيع أن يوصل الأخبار إلى موضع على مسافة تحتاج إلى ثمان وأربعين ساعة من جمل يعدو بأقصى سرعته، ولكنه كان يوصل الأخبار إليه بوقت أقصر، ذلك لأنه بينما كان الرسول ﷺ في المدينة فإن جيوشه كانت على مشارف الشام. وكان قطع هذه المسافة الطويلة تحتاج إلى عشرة أيام من السفر المتواصل، ولكن رسل النبي ﷺ كانوا يقطعون هذه المسافة في ثمانية أيام فقط، وهذا يدل على مدى قوة شبكة المخابرة التي أرسى أسسها الرسول ﷺ. ولا عجب في هذا فقد كان يطبق ما يرشده إليه الله ﷻ. فالحامل الأول للخبر أو الرسول الأول كان يسرع بجواده يومًا كاملاً وبعد أن يقطع مسافة يوم كامل ينزل عن جواده ويرتاح بعد أن يعطي الخبر إلى الرسول الثاني الذي ينطلق بجواده يومًا كاملاً ثم يعطي الرسالة أو الخبر إلى الرسول الثالث... وهكذا حتى تصل الرسالة أو يصل الخبر إلى موضعه، وهكذا يتم نقل الأخبار والرسائل بوساطة رسل مرتاحين وبخيول مرتاحة في أقصر وقت، ولم يكن هناك حل آخر، إذ أكان من الممكن أن تنتقل الأخبار ما بين مكة إلى فيزان بغير هذه الطريقة؟

---

[١] البخاري، المغازي ٤٨؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣٩/٤، ٤٢.

[٢] البخاري، الجهاد والسير ١٤١؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦١؛ أبو داود، الجهاد ٩٨.

[٣] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٩/٤-٤٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٢/٤-٣٣٥.

كان صاحب هذه الفطنة العظيمة يرسم لوحات ملونة تسر لها الأفئدة في كل ناحية من نواحي الحياة تحت تلك الظروف وتلك الشروط في ذلك العهد، فيضطرنا إلى الاعتراف بنبوته وبرسالته. وإلى جانب كل هذا فقد كان كأي عسكري ممتاز يهرع إلى الصلح وإلى السلم متى ما اقتضى الأمر ذلك. وقد تطرقنا إلى هذا فيما سبق باختصار، ونضيف هنا فنقول إن القرآن الكريم كان يقول له: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (الأنفال:٦١).

أي خذ بالأسباب ولكن لا تقصر في التوكل على الله، ذلك لأن التوكل دون القيام برعاية الأسباب إنما هو عنوان للكسل ولعدم الإدراك وعدم الإحساس، بينما التوكل بعد رعاية الأسباب يُعد عنوانًا للانقياد وللتسليم والارتباط مع الله تعالى، ومع شريعته الفطرية وآيات النظام الكوني ومبادئه، وإدراكًا ورعاية لها.

٣. مراحل التبليغ

في إحدى مراحل التبليغ أمره الله تعالى بـ ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل:١٢٥). إن الله تعالى يعلم الضالين ويعلم المهتدين، أما أنت فقم بواجبك في الدعوة ولا تتدخل فيما وراء ذلك. كانت هذه الآية تقوم بشحن إيمانه وإيمان جماعته. ثم جاءت مرحلة أخرى أمر فيها الرسول ﷺ بإعلان دعوته وبلهجة حادة إن اقتضى الأمر وبإنذار عشيرته الأقربين: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء-٢١٤)، ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر:٩٤).

هـ- مقاطع صغيرة من حياته

عندما تم إعلان الإسلام زادت الضغوط وسقط بعض الشهداء أمثال سُميّة وياسر وغيرهما. استشهد البعض نتيجة التعذيب أو التجويع أو من ضربة في صدره بحربة أو بنبل، ثم بدأت الهجرات.. الهجرة إلى الحبشة ثم العودة منها ثم الهجرة إلى المدينة وقبلها عام الحزن بوفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ووفاة أبي طالب، مما كان يعني بقاء الرسول ﷺ -من الناحية المادية أو الظاهرية- أعزلاً دون حامٍ، والحقيقة أن الله تعالى كان يقطع كل الأسباب الظاهرية وكل الركائز التي كان يستند إليها لكي يتوجه نحو مسبب الأسباب وحده. ذلك لأن من قوانين الفطرة أن التوجه التام نحو مُسبب الأسباب لا يتم في عالم المقربين إلا

بعد سقوط كافة الأسباب. إذن، يجب أن تسقط كافة الأسباب وتنهدم ليتم التوجه نحو الله وحده، واستقراء أسرار نور التوحيد بالميل الفطري وبالاضطرار الجبري لكي يتبلور في وجدانه سر الأحدية.. تمامًا كما حدث للنبي يونس عليه السلام.. لكي يوصله فيما بعد إلى شاطئ السلامة وينبت له شجرة من يقطين وليريه ما يجب أن يراه من نوره العظيم.

أجل، فعندما أخذ منه أباطالب أخذ منه مستندًا وعونًا، وعندما أخذ منه خديجة رضي الله عنها أخذ منه مستندًا وعونًا آخر. ولكي يعطي درساً قيماً إلى الأجيال المقبلة كان يهدم كل الأسباب المادية الظاهرية ويوجهه إلى مسبب الأسباب وحده وكأنه يقول له: أنت شخص مرشح لكي تنطق باسم الله فقط، ألا ترى أنني أخذت أباك قبل ولادتك، ثم أمك بعد الولادة ثم جدك؟ أجل، لقد أخذت كل من كان يحميك واحدًا إثر آخر لكي لا يقتحم خيالك أحد غيري، ابحث عني كل وقت وكل حين، وأقبل عليّ وتوجه إلي فقط وحاول أن تسمعني وراء كل باب تطرقه في هذا الكون.

صحيح أن هذا الطريق الذي أجبره الله تعالى على سلوكه كان طريقًا صعبًا حافلاً بالمشقات إلا أنه لم يكن بالعبء الذي لا يستطيع حمله الرسول المصطفى محمد ﷺ، ذلك لأنه كان بعون من الله تعالى شخصًا قويًا لا يُغلب، قد جعل العجز والفقر جناحين له.

من الحوادث الأليمة التي تعرض لها النبي ﷺ، وشاهد فيها مثالاً للجحود والرفض ما جرى له في الطائف الذي توجه إليه وهو يأمل أن يلقى فيه بعض القلوب الرضية، ولكنه رجع منه والدماء تنزف منه من رأسه حتى قدميه، ثم مقابلته لستة أشخاص من يثرب، وفي السنة التي بعدها لاثني عشر شخصًا في العَقَبة، هؤلاء هم أبو الهيثم بن التيهان وأصدقاؤه.[1] بايعوا النبي ﷺ ورجعوا إلى المدينة لكي يرجعوا في السنة القادمة وهم خمسة وسبعون شخصًا -منهم امرأتان- لكي يبايعوا الرسول ﷺ. كانت نسيبة المازنية إحدى المرأتين، وهي المرأة التي سيذكرها التاريخ الإسلامي بكل فخر وتوقير تحت اسم أم عمارة. وكانت الأخرى أسماء بنت عمر.[2] ولم تفارق هاتان المرأتان العظيمتان رسول الله ﷺ لا في سفر ولا في حضر، بل إن أم عمارة شاركت في حروب الردة فقاتلت في معركة اليمامة وبيدها السيف وببطولة كبطولتها في معركة أُحد. وقد استشهد ابنها حبيب في هذا

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٧٠/٢-٧٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٢/٣-١٨٣.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٨١/٢-٨٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٩٢/٣-١٩٧.

المكان من قِبَلِ مسيلمة الكذاب عندما أرسله إليه رسول الله ﷺ.[١] ثم دعي رسول الله ﷺ إلى المدينة، لقد أصبح القائد على رأس جيشه.

لم يقم حتى ذلك الحين بإيذاء أحد قط لا قولاً ولا فعلاً. بل إنه عندما كان يعطي سكينًا إلى أحد كان يجعل نصله الحاد متوجهًا إلى نفسه والمقبض متوجهاً لذلك الشخص لكي لا يرتعب أو يخاف.[٢] أجل، لقد كان يراعي كل هذه الدقة في سلوكه ومعاملاته، لم يكن قد آذى طوال حياته أي شخص. ولكن كانت هناك خفافيش أزعجها انتشار نور القرآن ودعوة القرآن فقامت تحاول منع انتشار هذا النور، لذا كان لابد لـ"صاحب القضيب" أن يستل سيفه في وجه هؤلاء قائلاً: "يا خفافيش الظلام! لن تستطيعوا بعد الآن حجب النور.. ستعيشون أنتم في الظلام.. إذن، فابتعدوا عن ضوء النهار وابتعدوا عن فرسان النور."

كان زعيمًا يختلط بأتباعه وينسجم معهم، وكان قائدًا على رأس جيشه. قام بحل المسائل الاجتماعية أول الأمر فآخى بين أصحابه الكرام، وجذب أهل الكتاب إلى صفه ووضع دستور أمان ووطد الصلح معهم، ونشر الثقة والأمن لدى الجميع.

ثم توجه إلى الجيش فكوّن في البداية سرايا صغيرة، ثم بدأ بإرسال السرايا وعيون الإرصاد فيما حواليه. والسرايا التي كان عدد أفرادها يقل عن العشرة كانت وظيفتها استقصاء الأخبار وجمع المعلومات وإيصالها إلى رسول الله ﷺ.

ثم كانت هناك سرايا أكبر عددًا وكانت مسلحة ومتدربة وعلى أهبة الاستعداد على الدوام، حيث نستطيع أن نطلق عليها اليوم اسم "السرايا الضاربة". كانت هذه السرايا تستقصي المعلومات والأخبار أيضًا، ولكن لا بد لها من خوض المعارك عند اقتضاء الأمر، وقد قاد بنفسه هذه السرايا أربع مرات. وكان عدد أفراد السرية يتجاوز أحيانًا مئتي مسلح، وكانت وظيفة مثل هذه السرايا إرهاب العدو وإلقاء الرعب في قلوبهم.

و- أهداف السرايا

كان المسلمون متهيئين لكافة أنواع النضال والكفاح. وكان المشركون يضطرونهم بكل ما أوتوا من قوة إلى هذا الكفاح والنضال. كان الوحي قد بدأ بالنزول قبل ثلاث عشرة سنة، وكان داخلاً إلى السنة الرابعة عشرة. وكان الذين يزعجهم النور يسعون جاهدين لإطفائه

---

[١] الإصابة لابن حجر، ٤/٤١٨؛ أسد الغابة لابن الأثير، ١/٤٤٣.

[٢] وانظر: أبو داود، الأدب ٨٥؛ الترمذي، الفتن ٣-٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٦/٢٥٣-٢٥٤.

فيتعرضون في كل مكان للدعوة القرآنية، وعندما يتمكنون من القبض على أي مسلم سرعان ما كانوا يقتلونه. ونحن نذكر اليوم مظالم البلغار ومظالم الروس ومظالم الهنود. نذكر هذه المظالم ونجد في الأقل من يشجب هذه المظالم ويستنكرها، أما المظالم التي كانت ترتكب آنذاك في حق المسلمين فلم يكن هناك من يستنكرها أو يشجبها أو يرفع صوته ضدها، فكل تصرف لقريش كان مقبولاً من قبل الآخرين حتى وإن كان في الدركات السفلى من الظلم والوحشية. ذلك لأن قريشًا كانت سيدة مكة، لذا ففي إمكانهم عمل أي شيء يشتهونه. وقد أخذ النبي ﷺ على عاتقه مهمة هدم هذه الدكتاتورية، لذا هيأ هذه السرايا وبعثها إلى جميع الجهات، وكانت الغاية من هذه السرايا الضاربة الوصول إلى بعض الأهداف المعينة ومنها:

١. الإشعار بالكيان الإسلامي

أي إشعار الجميع بوجوده وبالكيان الإسلامي، وأن المشركين وإن طردوا المسلمين عن مكة إلا أنهم لم يستطيعوا إطفاء نور الإسلام. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف:٨).

إذن، فرسول الله ﷺ كان يريد أن يظهر لهم أن ظلام الجاهلية الأولى في تلك الصحراء الموحشة المظلمة لن يستطيع إطفاء نور الله.

٢. إظهار أن الهيمنة للحق

ثم إنه كان يريد أن يبرهن على أن الحكم ليس لمشركي مكة ولقريش فقط، بل إن لممثلي الحق حصة منه ونصيباً، وسيأتي يوم تخضع فيه القوة بكل ما لديها من أسلحة إلى الحق وتستسلم له، وحينئذٍ ستكونِ الكلمة في الأرض بيد الحق وحده، ويسود القانون في الأرض.

كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن قريشاً ليست على حق ولكنها كانت تستطيع إحراز الغلبة أحيانًا على الحق وبصورة مؤقتة لكونها تملك أسباب القوة في يديها. لذا، كان على رسول الله ﷺ إعلان قوة الحق، فكان تشكيل هذه السرايا إعلانًا وإظهاراً لهذا لكل الأطراف حواليه، أي إعلان أن أمثال أبي سفيان وأبي جهل وعُتبة وشيبة وابن أبي مُعيط والوليد الخ... لا يملكون أي حق لهم على الإنسانية، بل إنهم على العكس من ذلك اغتصبوا من الإنسانية حقها واستغلوها.

٣. تهيئة أساس للإرشاد

كان من وظائف هذه السرايا إزالة العقبات من أمام طريق الدعوة. أجل، فبفضل هذه السرايا التي كانت تتجول هنا وهناك استطاع أن يمسك بالنظام والانتظام في يده، وأن يرسل الدعاة والمبلغين والمرشدين إلى كل مكان، وأن يؤمن تجولهم بين المدن والقرى دون خوف أو وجل، ويهيء لهم جواً هادئًا لكي يقوموا بمهماتهم. لذا، كان الرسول ﷺ يرسل السرايا بشكل مستمر للمناطق المحيطة بالمدينة من أجل هذه الغايات، وبعد الهجرة وحتى اصطدامه بأعدائه في معركة بدر كان قد أرسل سرايا عديدة ضاربة، ففي بضعة أشهر كانت هذه السرايا تظهر في أماكن بعيدة لم يكونوا يقطعونها آنذاك إلا خلال شهر، أو تظهر بمقربة من مكة وكأنهم أشباح أو ملائكة ظهرت ثم اختفت بسرعة، مخلفة وراءها الرعب عند العدو الذي بدا وكأنه يُسحب إلى معركة بدر وهو مشلول من الخوف.

٤. إقرار الأمن

كان النهب والسلب سائدًا في تلك الأيام في الصحراء. فالحق للقوة، ولم يكن للضعيف وللمظلوم حق الحياة، فالذي يملك القوة كان يستطيع سحق الآخرين. وأمام هذا الأمر كان الرسول ﷺ يخطط الآتي: يجب أن تتجول السرايا والمفارز في كل مكان دون أن تمد يدها بأي سوء لأي شخص لا لماله ولا لعرضه ولالشرفه. أجل، سيمر أناس مسلحون من أمام البيوت والمساكن، ولكن كرمز للأمن وللاطمئنان دون أن يمس أحدهم بسوء. إذن، رأى الجميع أن الصحراء يمكن أن تكون شاهدة لشيء أخر غير السلب والنهب، ومن كان يستطيع أن يقوم بهذا الأمر غير النبي ﷺ؟ وهكذا عرف الجميع بشكل جيد بأن الصحراء لم تعد ملكًا لمشركي قريش وحدهم، بل إن لمحمد ﷺ نصيبًا وحصة وحقًا، وسيزداد هذا الحق على مر الأيام ويكبر كلما انتشر النور حتى يكون له في كل بيت وفي كل قلب أثر.

ز- السـرايـا

١. السرية الأولى وحمزة ﷺ

من أجل تحقيق هذه الأهداف قام الرسول ﷺ بعد وصوله المدينة المنورة بقليل بتشكيل السرية الأولى التي ألفها من مائة شخص، وأسند قيادتها إلى عمه حمزة ﷺ. وأسس الرسول

ﷺ في تلك الأيام شبكة استخبارات واسعة بحيث لو طار طائر في الصحراء لأتاه خبره.

في تلك الأيام مرت قافلة فيها أموال كثير من المهاجرين. مرت هذه القافلة قرب المدينة وأمام أنظار المسلمين وكأنها تتحداهم. وهنا تعرض لها سيدنا حمزة ﷺ، ومع أنه لم يلحق أذى لأي منهم إلا أن الأعداء ارتعبوا رعبًا كبيرًا، وأسرعوا بالفرار دون أن يلقوا نظرة وراءهم.[1] لندعهم يفروا ولنرجع إلى الذين شاهدوا هذا الأمر من سكان المدينة أو سكان القرى القريبة. لقد تأكد لديهم وجود قوة أخرى غير قوة أهل مكة. ونرى من نافلة القول الحديث عن الأثر النفسي الذي تركته هذه الحادثة في نفوس مشاهديها.

كان أهل مكة يفرون على الدوام في أثناء هذه الحركات، وعندما يفرون والمسلمون في أثرهم، كان المشاهدون يبقون في حيرة وعجب ودهشة.

أجل، كان الرسول محمد ﷺ كأي قائد استراتيجي يطارد أعداءه ويسحر -بهذا المعنى- الجميع ويأخذهم تحت تأثيره، فكانت القلوب تلين للإسلام على مرّ الأيام، وتقبل أفواج ثم أفواج من القبائل لتدخل إلى الإسلام. أصبحت الطرق أمينة، فقد أظهر الإسلام قوته وبأسه، فعندما أصبح الإسلام يمثل الحق أظهر القوة التي تحفظ هذا الحق، وبدأ الجميع يفكرون بشكل مختلف عن السابق.

٢. السرية الثانية

ثم ما لبث أن شكل سرية ثانية على رأسها سعد بن أبي وقّاص ﷺ. ولم يتأذ أحد من هذه السرية أيضًا، لأن الغاية كانت إرسال القوة وإنزالها في الموضع المعين، لكي تعلم قريش التي كانت القوة دينها الوحيد أن القوة إن أظهرت فائدتها في شيء فلن تفيد في كل شيء. وكان الهدف أيضا هو مقابلة هذه القوة بالقوة التي تمثل الحق. أي القوة التي لا تنزلق إلى الجبر وإلى الظلم وإلى الجبروت وإلى الغدر وإلى الباطل، بل القوة التي تبقى بجانب العدل وبجانب الرحمة، إلى درجة أن المسلمين لو شعروا ببعض الحاجة إلى الحليب استأذنوا صاحب الغنم أو راعيها ودفعوا له من المال مقابل ذلك. كان هذا التصرف من المسلمين شيئًا جديدًا وغريبًا على البدو لم يشاهدوه ولم يعرفوه من قبل، فكانوا يشاهدون هذه التصرفات وهم في ذهول: أهؤلاء هم الملائكة الذين تحدث عنهم النبي إبراهيم وقد نزلوا من السماء أم ماذا؟

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٤٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٢٨٦.

٣. سرية عبيدة بن الحارث

ثم شكل سرية وضع على رأسها عبيدة بن الحارث، وهو ابن عمه الحارث بن عبد المطلب. هذا الشخص الذي سيكون من أوائل شهداء بدر، وعندما جيء به إلى رسول الله ﷺ في معركة بدر والدماء تنزف من يده المقطوعة لم يكن قد مات بعد، ولكنه كان قلقاً، فقال للرسول ﷺ: "ألست شهيدًا يا رسول الله؟" فقال ﷺ: «بلى»[1] هذه السرية التي قادها عبيدة بن الحارث ﷺ وصلت إلى بطن رابغ حيث أوقع الرعب في قلوب الأعداء ثم رجع.[2] وكان هذا مفاجأة قاسية لقريش ولأدلاء قوافل قريش، لم يتخلصوا من تأثيرها مدة طويلة.

٤. كان هو القائد

كانت السرايا السريعة الضاربة تترى. وبعد هذه السرايا شكل الرسول ﷺ سرية تتألف من قوة قوامها مئتا مسلح قادها بنفسه، وخرج يهدد بها قافلة لقريش كانت متوجهة للشام. وخطط كل شيء بدقة وجعل الطرق كلها تحت رقابته، بحيث أنه لو لم يسمح لقافلة قريش بالمرور لما استطاعت ذلك. وكان هذا تهديدًا أرعب قريشاً وأفزعها، ثم رجع الرسول ﷺ دون أن يمس أحدًا بأذى.[3]

ثم رتب سرية أخرى بقوة أصغر وللهدف نفسه، فوصلت إلى بُوَاط[4] وأرهبت أعداء الله ثم رجعت.[5] وقابل أعداءه بالطريقة نفسها في العُشَيرة، ليذكّر الجميع قبل عودته إلى المدينة أنه أصبح ينظم الأمن والأمان في الصحراء.[6]

٥. سرية عبد الله بن جحش

والسرية الأخيرة عقدها تحت قيادة عبد الله بن جحش الذي كان ابن عمته.[7] كان يختار القريبين منه لمثل هذه المهمات، وكان يرسخ قرابة العقيدة بقرابة الدم. ذلك لأن

---

[1] المستدرك للحاكم، ١٨٨/٣؛ المغازي للواقدي، ٦٩/١-٦٨؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٤/٣.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٤١/٢؛ المغازي للواقدي، ١٠/١.

[3] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٤١/٢؛ المغازي للواقدي، ١٢/١.

[4] بُوَاط: جبال من جبال جهينة، بقرب ينبع. بينها وبين المدينة نحو أربعة برد، وهي قريب من ذي خشب مما يلي طريق الشام.

[5] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٤٨/٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٠١/٣.

[6] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٤٨/٢-٢٤٩؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٠٢/٣.

[7] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٥٢/٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٠٤/٣-٣٠٥.

المسلمين لم يقاتلوا حتى ذلك الحين أعداءهم، وكان قتال الأقرباء وقتلهم مخالفا لقانون الصحراء ونقضًا كبيرًا له، لذا فقد كانت معركة بدر الكبرى مهمة جدًا، وكان الطريق إلى بدر يمر من هذه السرايا. وقد عين على رأس هذه السرايا التي كانت الممر إلى بدر الكبرى أقرباءه مثل سيدنا حمزة ﷺ وعبيدة بن الحارث، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الله بن جحش، لأنه أراد أن يحمل أقرباءه هذه المسؤولية الثقيلة والمهمة الصعبة التي كانت تتناقض مع قانون البداوة وقانون الصحراء، كما قاد بنفسه ثلاثاً أو أربعاً من السرايا.

كان عبد الله بن جحش ابن عمة الرسول ﷺ. وأصبح فيما بعد البطل المغوار في معركة أُحد، ولكنه كان ضعيف البصر يشكو من قصر نظر حاد، فلا يستطيع أن يرى سوى بعض السواد، ومع ذلك فلم يتخلف عن أي معركة، وقاتل في معركة بدر بكل شجاعة، وعندما رأى الهزيمة في صفوف المسلمين يوم أُحد لم يتحمل وبادر يقاتل بكل ضراوة. يقول سعد بن أبي وقّاص ﷺ إن عبد الله بن جحش قال له يوم أُحد: ألا تأتي ندعو الله؟ فخليا في ناحية فدعا سعد فقال: "اللّهم إذا لقيت العدو غداً فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حَرَده[1] فأقتله فيك وآخذ سلبه." فأمّن عبد الله بن جحش، ثم قال عبد الله: "اللّهم ارزقني غدًا رجلاً شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يقتلني ويأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك قلتَ: يا عبد الله! فيم جُدع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فيقول: صدقتَ." قال سعد: كانت دعوة عبد الله خيرًا من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنيه معلقان في خيط.[2]

إذن، فهذا هو عبد الله بن جحش الذي كان على رأس سرية نَخْل. حيث أرسله الرسول ﷺ مع إثني عشر من أصدقائه إلى موضع يدعى نَخْل يقع على بعد ٥٠٠ كم من المدينة، وكان هذا الموضع قريبًا من مكة. كان على السرية أن تذهب إلى هناك ثم ترجع بعد ترصد أحوال أهل مكة. ولم يكن في الإمكان القيام بمثل هذه المهمة دون أن يأخذ الإنسان الموت في حسبانه عدة مرات. لذا، أبدى الرسول ﷺ فطنته في الاختيار المناسب، إذ وضع على رأس هذه السرية الشخص المناسب، فقد كان من الضروري أن يكون هذا الشخص فردًا يستخف بالحياة ولا يهاب الموت، وكان عبد الله بن جحش هذا الشخص.

أعطاه الرسول ﷺ كتابًا فيه أوامره حول وظيفة هذه السرية ومهمتها، على أن لا يُفض

---

[1] الْحَرَد: الغضب.

[2] أسد الغابة لابن الأثير، ١٩٥/٣؛ الإصابة لابن حجر، ٢٨٦/٢-٢٨٧؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٠١/٩.

هذا الكتاب ويُقرأ إلا بعد الوصول إلى الهدف. كما أوصاه ألا يكره أحدًا على الاشتراك معه في هذه السرية، بل يجب أن يكون الجميع من المتطوعين. وقد اعتذر أحدهم من الذين قبلوا الاشتراك سابقًا وتخلى عن الاشتراك معهم، أما الباقون فقد نفذوا الأوامر وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موضع نَخْل، وفتحوا رسالة الرسول ﷺ وقرأوها، وطبقوا ما جاء فيها. ولكن حدث حادث عارض لم يكن في الحسبان قتل نتيجته أحد المشركين، واستولوا على أموال الفارين، وجاءوا بها إلى الرسول ﷺ. وقد حدث هذا الحادث بشكل فجائي، ولم يكن الرسول ﷺ قد أمرهم بالقتال، واستغل أهل مكة هذه الحادثة وبالغوا فيها وقالوا: "لقد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم، وأخذوا الأموال وأسروا الرجال." فلما أكثروا نزلت الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:٢١٧).[1]

ح- نتائج السرايا

١. تحقيق السيادة

ما إن استقر الرسول ﷺ في المدينة حتى بدأ بترتيب الحركات التعرضية السريعة، حتى خنس أعداؤه، وشاع بينهم الرعب والفزع، وهدد حياتهم الاقتصادية وجرهم إلى الأزمات المالية، وساق الحوادث نحو معركة بدر الكبرى، وأسس خلال ذلك شبكة استخبارات واسعة، بحيث أن قريشًا كانت تخشى أن يكون الرسول ﷺ على علم بما يجري حتى في بيوتهم. وكان الموضوع الذي يتحدث به الجميع في كل مكان هو أن من يقوم بعمل مثل هذه الاستخبارات، لا بد أن يعلم بكل ما يعمله أعداؤه. وكان هذا أمرًا مقلقًا جدًا بالنسبة لهم.

كان يقال لنا عندما كنا في الخدمة العسكرية بأن التحارب يعني التخابر. فإذا كنت تملك مؤسسة استخبارية جيدة، ونظامًا جيدًا للمواصلات، تكون قد أمنت نصف النصر. هذا إن كانت أخبارك لا تصل إلى عدوك، وكنت تحصل على أخبارهم على الدوام، وتحيط مركز القيادة علمًا بأخبارهم أولاً بأول. ومع أن التكنولوجيا تقدمت كثيرًا في هذا العصر إلا أن من الصعب أن توصل الأخبار دون أن يعلم بها الطرف المقابل. بينما استطاع الرسول ﷺ أن

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٥٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٠٦.

ينشئ في تلك الظروف البدائية شبكة استخبارات جيدة، استطاعت أن توصل الأخبار إليه أولاً بأول، وبسرعة فائقة، وضمن جو من الأمن والثقة، فكما كان الوحي يأتيه بكل أمان وثقة بوساطة ملك رفيع المنزلة مُطاعٍ ثَمَّ أَمِين، كانت شبكة استخباراته تمده بالأخبار بنفس الثقة والدقة، وكان على ارتباط دائم بهذه الأخبار، لم تكن أخباره تصل إلى أعدائه بينما كانت أخبار أعدائه تصله أولاً بأول.

هناك قادة يعتبرهم الغرب من الدهاة ومن العباقرة أمثال قيصر وهَنيبَل ونابوليون وهتلر. ولكن التاريخ يشهد أن أي أحد من هولاء لم يؤسسوا شبكة استخبارات جيدة بالمستوى الذي أسسها الرسول ﷺ، ولم يضعوا أعداءهم تحت مراقبتهم كما فعل ﷺ. وليس هناك شاهد واحد في التاريخ على تسرب خبر واحد من أخباره إلى الأعداء، وإلا لم يكن بمقدور حفنة من المؤمنين الانتصار على كل أولئك الكفار والفجار. فعناية الله وتوفيقه تكون بنسبة الأخذ بالأسباب وبالتدابير، ولكونه قدوة لنا وأسوة حسنة، فإنه كان يتصرف ضمن دائرة الأسباب.

لنرجع إلى الصدد: لقد رأينا في الحروب العالمية أن وضع موانئ بلد ما، ووضع تجارته تحت التهديد وضرب مقاطعة اقتصادية عليه، سيضيق الخناق على إنسان ذلك البلد، ويجعله غير واثق من غده، وهذا شيء مهم. أجل، فعندما تبدأ بالنضال مع أعدائك الذين يرومون شرب دمائك، لا بد أن تسعى لشل حركتهم أولاً. لهذا كان الرسول ﷺ يروم شل حركة أعدائه بإرسال هذه السرايا السريعة الحركة. لم يعد هناك أمان لأهل مكة، وبدأ الأعراب والبدو في الصحراء يقولون في أنفسهم لم يعد باستطاعة أهل مكة أن يحافظوا علينا، ولم يعودوا مبعث أمن لنا، والظاهر أن مصير الناس انتقل إلي أيد أخرى، لذا فمن الأفضل لنا أن نتقرب إلى هؤلاء. أجل، بدأوا بالتفكير على هذا النحو، لذا بدأوا يأتون إلى النبي ﷺ أفواجاً أفواجاً ويعلنون إسلامهم.

كانت القوافل تحت التهديد على الدوام على الرغم من عدم إيذاء أحد منهم، هذا عدا استثناءً واحدًا حدث في موضع نَخْل حيث مات أحد البائسين بسهام المسلمين.

٢. ذيوع الأمن

بدأ الرسول ﷺ يحقق جميع أهدافه من إرساله هذه السرايا، فقد ظهرت قوة جديدة في الصحراء أثبتت وجودها. فأمام قريش الظالمة كان هناك محمد ﷺ وجماعته. ومع أنه بدأ يمثل القوة، ويطارد اللصوص والناهبين، إلا أنه لم ينحرف إلى الظلم أبدًا، بينما كانت القوة

في الجبهة المقابلة عنوان الظلم والاعتداء، إذ يغيرون ليلاً، فينهبون ويقتلون الضعيف، دون الالتفات إلى أنين الضعيف وآهاته.

كانت هذه القوة من طراز آخر، فكأنها قوة نزلت من السماء، فعلى الرغم من توفر القوة عندها فهي تقف عند خط الحق والعدل وتحترم الحقوق، وكان التاريخ يشاهد للمرة الأولى مثل هذه الرعاية والاحترام للحق وللحقوق. وكان هذا يتم بيد محمد ﷺ، بينما كان غيره يضع كل يوم ما يناسبه من القوانين، ويقدمها على أنها هي التي تمثل "الحقوق". علمًا بأن محمدًا ﷺ كان يؤمن بسمو وعلو القوانين والحقوق التي وضعها الله تعالى.. احترم هذه القوانين وهذه الحقوق، ولم يمد إصبعه إلي أي حرام أو إلي أي محذور، وقد شاهد هذا إنسان الصحراء وكل إنسان، وشهده البدو. كانت هذه السرايا المسلحة تمر أمام الخيام، ولكنها لا تتعرض لا إلى أي امرأة أو إلى أي شابة ولا لأي مال، ولا ترتكب أي ظلم مهما كان ضئيلاً. لقد كان الرسول ﷺ يهدف أن يرى الناس هذا، وبدأت الثقة تنتقل شيئًا فشيئًا من مكة إلى المدينة، ذلك لأن "الأمين" كان هناك. لم تعرف مكة قدر "الأمين".. الأمين الذي ندعوه نحن "محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين." لقد كان الآن في المدينة، وكان الأمن والأمان عنده. هذا ما كان يفكر به البدو والأعراب ورجال القبائل، لذا بدأوا يتوجهون نحو المدينة، بينما فقدت قريش كل مظاهر الثقة المعقودة لها سابقًا. لم تكن عاجزة عن إعطاء الأمن والثقة للآخرين فقط، بل كانت عاجزة عن تأمين قوافلها هي، إذ كانت تحت تهديد دائم. وكان هذا الأمر يؤدي إلى تحلل دائم في صفوف المشركين. وكلما شاهد هذا أهل مكة ركبهم الغضب والهم.

٣. سرعة السيطرة على الأمور

إن إثارة العدو ومضايقته ودفعه إلى الحركة قبل الأوان مسألة مهمة، لأسرد عليكم حادثة جديدة، لقد سألوني مرات عديدة: "هناك حركات في تُرْكِسْتان وأوزبكستان وجورجيا وداغستان، كما أن هناك حركة ما في القِرم. أهذه هي الأيام السعيدة التي وعدها الأنبياء والأولياء، والتي قالوا أنها ستكون قبيل يوم القيامة؟ أيتم التوجه إلى مثل هذه الأيام؟ أي هل تستطيع الأمم الأسيرة الحصول على حريتها وعلى حقوقها المشروعة؟ صحيح أن التوجه حاليًا هو هذا التوجه، ولكن الأعداء هم الذين يضعون بعض سيناريوهات هذه الحوادث، ويهيئونها لوضعها على المسرح الدولي. أجل، إن الأعداء هم الذين يقومون بتخطيط الحركات في بلدان إخوتنا في الدين والدم، ذلك لأننا لا نزال هناك ضعافًا، كالفراخ داخل

البيض، أو كالبيض تحت الدجاج. فهم يقومون بإثارة حفنة من المشردين والأوباش ويدفعونهم إلى التظاهر في الشوارع، ثم يدفعون بالوحدات المسلحة علينا ليحطموا رؤوسنا ونحن بعد ضعاف، ذلك لأن بعضًا من رؤوس هولاء ذهبوا من جورجيا إلى بلغاريا وظهروا في شُومن[1] وفي صوفيا حيث صرحوا هناك: لقد ثرنا نحن في روسيا واستطعنا انتزاع بعض حقوقنا، ثوروا أنتم وانتزعوا حقوقكم. هذه مسألة مهمة، وهي جهود لسحبنا إلى جهة معينة للقضاء علينا، ولكنهم لا يعرفون أن العاقبة للمتقين و"الحق يعلو ولا يعلى عليه." ونتمنى من الله تعالى أن يجعل كيدهم في نحرهم."[2] ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر:٤٣).

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يهدف من تحركاته هذه إثارة أعدائه الذين بدأوا يقولون إن قوافلنا في خطر وحياتنا الاقتصادية تحت التهديد، وبدأت الصحراء تدخل في حكمه شيئا فشيئًا، لذا يجب أن نحسب حسابه. أجل، كان أبو جهل يقول لهم هذا، وعندما أراد بعضهم الرجوع عن القتال في بدر قال لهم: "والله لا نرجع حتى نرد بدراً -وكان بدر موسمًا من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام- فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجُزُر، ونطعم الطعام ونُسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها. فامضوا."[3]

كان هذا هو هدف رسول الله ﷺ، وكان القرآن يعلمه هذا: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُم قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (الأنفال:٤٤).

أي أن الله تعالى يقول لهم بأنه قلل عدد المشركين في أعين المسلمين، وقلل عدد المسلمين في أعين المشركين لكي يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ويسوقهم إلى مقابلة غير محسوبة من قبلهم. فالله تعالى كان قد أصدر حكمه ولا بد من تنفيذه، أي إن العاقبة كانت مؤكدة لا يمكن الهروب منها، وكان الله يستدرج أعداء الإسلام إلى هذه النتيجة، لذا سيجد هؤلاء الأعداء أنفسهم فجأة وجهًا لوجه مع المسلمين في بدر الكبرى في وقت لم يحسبوا حسابه ولم يتوقعوه من قبل، إذ لم يكونوا يعرفون استيراتيجية الحرب لدى الرسول ﷺ. لقد

---

[1] شُومن: مدينة في بلغاريا. وصوفيا هي عاصمة بلغاريا.
[2] قال المؤلف هذا الكلام في ١٩٨٩ عندما بدأت الحوادث في الاتحاد السوفيتي. (المترجم)
[3] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٧٠؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٢٤.

أبعدوه وأخرجوه من بلده وها هم الآن يقفون أمامه وهم يرتجفون. كان يرتب السرايا منذ سنة واحدة ليحق الحق، وليسترد منهم ما أخذوه وليحطم معنوياتهم. لم يكونوا يعرفون عنه ناحيته الحربية والعسكرية، بعد ساعات سيعلمون هذا، ولكن لن يفيدهم هذا. أجل، كان أمامهم قائد حربي لم يعرفوه بعد، كما قابلتهم خطة حربية لم يعرفوها من قبل، فسقطوا كأوراق الخريف.

٤. تهيئة الحوادث لبدر

ها هم الآن في بدر الكبرى.. لم يكن الرسول ﷺ قد انتهى إلى بدر مثل أي إنسان عادي آخر أو مثل أي قائد حربي آخر. ذلك لأنه كان يعلم جيدًا فيما هو مقبل عليه، كان قد أتى إلى هناك وهو يعلم أن ساعة الحساب مع أعدائه قد أزفت وأن صراعه معهم قد بات وشيكًا، وأنه حتى مجيئه بدرًا كان قد رتب سرايا عدة قامت بحركاتها ومناوراتها السريعة بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، وشل روحهم المعنوية في كل مكان وفي كل ناحية وفي كل بيت، وجعلهم يشكون في قوتهم وقدرتهم إلى درجة أنه جعلهم يقولون "لم يعد هناك أمان في مكة وما جاورها." وهكذا أصبح الرأي العام للعرب في البادية بجانبه. لقد انتقل صمام الأمن إلى يد "الأمين". هذا ما بدا الجميع بقبوله. ألم يكونوا يلقبونه في الجاهية بـ "محمد الأمين"، ويعدونه الممثل الوحيد للأمانة؟ لقد كان أمينًا في الأرض وأمينًا في السماء كذلك. وقد قال في أحد الأيام متحدثًا بنعمة الله عليه: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء.»[1]

لقد بدأت البادية تعرف جيدًا من الأمين وأين الأمن.. أجل، لقد كان "الأمين" في المدينة.. كانت السيادة تنتقل إليه.. إلى السيد القرشي في المدينة.. كان سيد قريش أيضا وسيد بني هاشم، بل سيد الإنسانية كلها وسيد الوجود كله... كان هو سبب الوجود وعلته وغايته فهو الذي قيل فيه: «لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك.»[2] صحيح أن هذا ليس حديثا صحيحا إن نظرنا إليه من ناحية علم الحديث، إلا أن معناه من ناحية مطابقته للواقع يمكن أن يرد على الدوام. أجل، لولاه لما ظهر معنى للكون ولما فهم هذا المعنى، ولما تم النفوذ إلى حقائق الأشياء، لما عرف معنى الدنيا ولا معنى الآخرة، ولا معنى الضمير ومعنى الإنسان. لولاه لكانت الدنيا شبيهة بمأتم، كان كل ميت سيغرقنا في الحزن، وكل حادث

---

[1] البخاري، المغازي ٦١؛ مسلم، الزكاة ١٤٤.

[2] كشف الخفاء للعجلوني، ٢/١٦٤.

مؤلم يكتم انفاسنا، لقد تعلمنا منه كيف ننقذ أنفسنا من الظلام، ونسرع إلى ميدان النور. هذه الدنيا التي إن نظرنا إلى جوانبها المطلة على ذاتها رأيناها قطعة من جهنم ولكنها أصبحت بفضله جنة لنا، فقد تعلمنا من بيانه المضيء أن الإيمان يحيل حتى الدنيا إلى جنة، وتعلمنا منه أن كل مؤمن يحمل نواة من نوى الجنة، بحيث تجعل هذه الحياة الدنيا شبيهة بحياة الجنة. تعلمنا هذا منه فوصلنا إلى شاطئ الطمأنينة والسكينة، تعلمنا منه أن اطمئنان القلوب يكون بذكر الله ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨).

أجل، إن السعادة لا تتحقق فقط بالرفاه المادي وبوفرة المال وبامتلاك الدور والعمارات وبيوت العطل الصيفية، بل بالإيمان وبالسعادة القلبية والتمسك بالقيم الإنسانية، حيث ترسو القلوب إلى شواطئ الاطمئنان وتهدأ الرغبات وتنتهي الطلبات. وإلا فلو أعطيت الدنيا بكاملها لإنسان واحد لما انتهت رغباته وما سكنت شهواته. وكان هو معلمنا في كل هذه المسائل، وكما يقول الشاعر الشهير محمد عاكف:

المجتمع مدين له.. والفرد مدين له.

والبشرية جمعاء مدينة لذلك المعصوم.

يارب! احشرنا يوم القيامة بهذه الشهادة.

كانت قلوب أصحابه الذين توجهوا معه إلى بدر مملوءة بالشوق إلى الجنة، إلى درجة كانوا وكأنهم يرون تلالها وجبالها. كانوا قد تهيأوا جيدًا، ووصلوا إلى بدر وهم في أفضل درجات الرضى والاطمئنان.. لقد أصبحت الضمائر متوجهة إليه ومقبلة عليه.. لقد وجدت الإنسانية ضالتها في محمد المصطفى ﷺ سواء أكان في المدينة أم في مكة.. لقد بدأ عهد الأمين.

ثم سيأتي يوم يقول فيه لعدي بن حاتم: «يا عدي! هل رأيت الحِيرة؟» فيقول: لم أرها وقد أنبئت عنها. فيقول: «فإن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله.»[1]

لقد كان هذا العهد الذي تكلم عنه وأشار إليه قد بدأ فعلاً منذ ذلك الوقت، فالحركات العسكرية الكثيرة التي أجراها وطدت الأمن أولاً ثم أرست أسس معركة بدر.

لم يتأذ أحد من هذه الحركات العديدة ولم يفقد أحد أمنه واطمئنانه، فمع أن هذه السرايا كانت تظهر هنا وهناك بسرعة البرق وتؤكد على وجودها، إلا أنها كانت تزرع الأمن

[1] البخاري، المناقب ٢٥، المسند للإمام أحمد، ٢٥٧/٤، ٣٧٨.

والاطمئنان، إذ لم يكن أفراد هذه السرايا جماعة نهب وسلب، بل الجنود الأمناء لمحمد ﷺ، أي فريق الأمن والأمان، وضد جماعات النهب والسلب، وضد الأشقياء والشقاوة، فهم لا يخلفون وراءهم سوى آثار الاطمئنان والأمن، حتى يتساءل الجميع: من أين أتت هذه الرحمة؟ كانت هذه الرحمة آتية من سحب رحمة محمد ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين، وكانت هذه السرايا هي رعوده وبروقه، وكانت الأنوار المنتشرة منها تكتب اسمه.

الفصل الثاني: نبينا ﷺ والمعارك التي خاضها

أ- معركة بدر وأسبابها

تحت هذه الظروف التي رعتها السماء تم الإقبال على بدر، لقد جاء الوقت المناسب لإنزال الضربة النهائية على رؤوس الذين يعرقلون ويمنعون الدعوة المخلصة الصافية إلى الله تعالى وإلى إعلاء كلمة الله، ولكي يقال لأعداء الله: لن تستطيعوا بعد الآن منع ذكر اسم الله تعالى في أرجاء الأرض ولن تستطيعوا إدامة الضغوط على النفوس المنفتحة على دعوته. أجل، فدعوة الله يجب ألا تبقى منحصرة في مكان محدد، بل يجب أن تدخل إلى النفوس جميعها لتطمئن بها جميع القلوب، ويجب أن تزال جميع العقبات من أمام إعلاء كلمة الله لكي لا تبقى هذه الكلمة في نطاق الأسر، بل لتنتشر في آفاق الإنسانية كلها، وتكون لها مبدًا. ولكي يقوم الرسول ﷺ بإنزال الضربة الاخيرة على مشركي مكة الذين لم يعترفوا له بحق الحياة الكريمة في مكة، فكان عليه أن يفتح الطرق المؤدية إلى حرية الفكر ويحطم كل ما يعوق أو يمنع هذه الحرية.

ثم إن المسلمين كانوا قد فقدوا جميع أموالهم التي اكتسبوها حتى ذلك الحين. لأن الرسول ﷺ والمهاجرين عندما هاجروا من مكة لم يستطيعوا أن يأخذو معهم إلا الشيء القليل، وتركوا كل أموالهم وأملاكهم في مكة المكرمة، وكان أهل مكة يحملون هذه الأموال على الجمال ويذهبون بها أمام أنظار المسلمين لبيعها في الشام أو اليمن. كانت الأموال المحملة على القافلة المارة بالقرب من المدينة أموال المسلمين وكان يجب استردادها.

ثم كان من الواجب معاقبة بعض الأشخاص الذين كانوا يطاردون المسلمين، ويهددونهم ويضيقون الخناق عليهم ويعذبونهم، كان بعضهم يقتلون المسلمين بحرابهم التي يصوبونها لتخترق صدور المسلمين ويطردونهم من أوطانهم ومساكنهم. كان من الضروري معاقبة هؤلاء وإيقافهم عند حدهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم. كان عليه أن يسدد إليهم ضربة أخيرة لكي يقول لهم: إن القوة ليست بأيديهم بل في يد الحق، وإن الله تعالى سيهب القوة لمن سلك طريق الحق، وستكون القوة كلها في يد الحق إن لم يكن اليوم فغدًا، وسيأتي يوم تكون الكلمة فيه للحق، حيث سيسود الحق في القلوب والأفئدة، وسيتم

إظهار الاحترام للإنسان وللحقيقة السامية التي أتت بواسطة الإنسان.. كان هذا ما يقاتل من أجله الرسول ﷺ.

وكان هناك أناس من بعض الأقوام والقبائل لفتهم الحيرة، فبقوا في الوسط لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وكان قسم منهم يرغب في الدخول إلى الإسلام، إلا أنهم كانو يخشون ظلم قريش واضطهادها، فبقوا محتارين ومترددين، يرفعون أرجلهم ولكنهم لا يستطيعون الخطو إلى الأمام.

ولكن بعد أن رأى هؤلاء أن القوة أصبحت بيد رسول الله ﷺ، وأن توازن القوى تغير لصالح المدينة اطمأنوا واستطاعوا أن يخطوا تلك الخطوة وهم مطمئنون، فكأن الرسول ﷺ يقول لهم: "لا تخافوا ولا تحزنوا، سيجعل الله تعالى لكم فرجًا ومخرجًا إن كنتم مؤمنين، وسيفتح لكم الأبواب والشبابيك على مصاريعها، لكي تصلوا إلى السعادة وإلى الأمن والاطمئنان" هكذا كان الرسول يخاطبهم، ولكن المترددين لم يتأكدوا من هذا إلا في نهاية معركة بدر الكبرى، إذ رأوا كيف أن ميزان القوة قد تغير مكانه، وأن كفار مكة لم يعد في إمكانهم أن يمدوا لهم يد الأذى، فتوجهوا إلى المدينة، إلى مركز المدينة وإلى الرجل العظيم فيها محمد ﷺ، وإلى حقيقة: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

١. القوى في بدر

جاء في كتب السيرة والمغازي أن الرسول ﷺ ذهب إلى بدر مع ٣٠٥ من أتباعه، وبعض الكتب يرتفع بهذا العدد إلى ٣١٣ من المقاتلين،[1] ويقول بعضهم إن هذا العدد هو عدد الجنود الذين قاتلوا مع النبي داود عليه السلام ضد جالوت. أجل، كانت عمليات تحويل قدر الإنسان وتاريخه يتم في هذين العهدين، فجيش النور كان يقاتل جيش الظلام، وكانت قمتا وذروتا آل إسحاق وآل إسماعيل تُمثلان حقيقة الحنيفية الموحدة، وكان العدد في كلا الجيشين هو ٣١٣.

أجل، فكما قال محيي الدين بن عربي في "فصوص الحِكَم"، فقد كان على رأس أحد الجيشين النبي داود عليه السلام الممثل للخلافة، وعلى رأس الثاني ممثل الشفاعة العظمى وممثل مقام الفردية، الفرد الفريد محمد ﷺ.

كان في جيش بدر فارسان و٣٠-٤٠ بعيرًا، وفي مقابل هذه الإمكانيات القليلة التي كان

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٦٤/٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٢٨/٣.

يملكها المسلمون، ومقابل الجوادين اللذين كانوا يملكونهما، نرى أن المشركين يملكون ٢٠٠ من الخيول، أي أن مقابل كل فرس للمسلمين كان هناك ١٠٠ فرس، أي مقابل كل فارس كان هناك مائة من الفرسان، ومقابل ٣١٠ من المحاربين المسلمين كان لدى المشركين ما يقارب الألف من المحاربين أي أن كل مسلم كان يقاتل ٣-٤ من المشركين. وكانت قريش قد أتت بجيش مجهز بكل ما عرف من قبلهم حتى ذلك الحين من التجهيز للقتال، أي بجيش مجهز بكل أدوات الجيش المعروفة آنذاك وأسلحته، بينما جاء جيش الرسول ﷺ وهم يتعاقبون الركوب على عدد قليل من الجمال ليقطعوا مسافة ٢٠٠ كم. من المفيد معرفة هذه المعلومات، معرفة تلك الظروف من صحراء وحر وصيف، وكون الجيش صائمًا، لأن الشهر كان شهر رمضان، وكان عليهم قطع مسافة ٢٠٠ كم في ذلك الحر الشديد، ثم أتدرون ما الصحراء؟ وأين بدر؟ بعض الذين ذهبوا إلى الحج يعرفون ذلك بعض المعرفة، توجد على الطرق هناك الآن محطات بنزين، فإذا تخيلت خلو هذه المنطقة، هذه الطرق من هذه المحطات ومن بعض الواحات الصغيرة -وهي حديثة- فلا يبقى أمامك سوى الرمال الممتدة على مد البصر في كل اتجاه، وستسمع أصوات العواصف الرملية وهي تهب من هنا وهناك وتهددك.

والشيء الآخر من الموضوع هو أن المسلمين خرجوا لتهديد قافلة قريش، ولكن إرادة الله كانت متوجهة لأمر آخر، إذ ساق المسلمين إلى ملاقاة جيش قريش. يقول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال:٧-٨).

٢. المواجهة

ولأن الله تعالى كان يريد هذا فإنه ساق المسلمين -رغم أن نيتهم كانت شيئا آخر- لكي يلاقوا جيش المشركين وليس قافلتهم. كان المسلمون يرغبون في تعقب القافلة ثم الايقاع بها، واسترداد أموالهم منها، بينما كان الله تعالى يفتح أبواب عهد جديد، ينغلق فيه عهد ظلمهم ونهب أموالهم. أجل، كان على المسلمين أن يوقعوا ضربة قاضية على المشركين، تجعلهم يترنحون تحتها ولا يثوبون إلى رشدهم. لقد انفتح عهد "الحق يعلو ولا يعلى عليه" فالحق يجب أن يغلب ويعلو ولا يعلو عليه شيء. كانت هذه هي مشيئة الله: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن." ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (التكوير:٢٩).

لذا، فلا يهم مشيئة أي إنسان آخر، كانت مشيئة الله هي التوجه إلى بدر، وكان رسوله يحدس هذا، وكانت السماء تتطلع بنظرها إلى ذلك اليوم المبارك من شهر رمضان المبارك الذي كان يقترب شيئًا فشيئًا من ليلة القدر. وعندما وصلوا إلى هناك أُمطِرَ المسلمون مطر السكينة، وكان هذا يحمل لهم معنى خاصًا، فقد أطفأ به الغبار وتماسكت به رمال الأرض، وامتلأت الآبار بالمياه، وكأن الملائكة نزلت مع قطرات ماء المطر. والحقيقة أن الملائكة نزلت واتخذت هيئة المسلمين وشارتهم لكي يتشبهوا بهم، وكان شعار المسلمين في ذلك اليوم هو "أحد، أحد!"[1] سيهتف الجميع "الله أحد" وسيزأرون بهذه الكلمة. كانت عباءاتهم بيضاء وكأنها الأكفان، لأنهم عندما خرجوا لم يكونوا يعرفون متى وأين سيقابلون أعداءهم، لذا كانوا مستعدين للموت ولاستقبال الحوريات لهم، لذا لبسوا عباءات بيضاء مثل ملابس الحجاج على عرفة، كان منظرهم شيئا يستحق النظر حقًا.

كان هناك من غمره الألم لعدم استطاعته المشاركة في هذا السفر المبارك، من بينهم أنس بن النضر الذي لم يكن يفكر بمفارقة الرسول الأكرم ﷺ حتى في منامه. فاته الاشتراك في هذه المعركة فتقلب على آلام هذا الفراق وعدم المشاركة عامًا كاملاً. وإذا أحببتم قمت بالدعاء لكم أن يرزقكم الله مثل هذا الألم.. الدعاء بقطع العلاقة مع ما سوى الله تعالى لأقول: "اللّهم اشغل قلوبهم وعقولهم بهذا الألم، واطرد النوم من أعينهم." أجل، إن العيش في آلام هذه الأمة المنكوبة البائسة، والتفكر في أحوالها، والتألم لآلامها، دعاء عظيم وتضرع كبير قد يفوق أجره أجر ألف ركعة من الصلاة حتى في مكة المكرمة، وأفضل من الطواف حول الكعبة. أجل، قد لا تكون فتحت كفيك وتضرعت إلى الله تعالى قائلاً: "يا رب!" ولكنك أرقت وتقلبت في الفراش حتى الصباح، وحرمت عيناك النوم وأنت تفكر في أحوال الأمة الإسلامية: "آه يا إخواني في تُرْكِسْتان... آه يا إخوتي في أفغانستان... من يدري أي يد امتدت إلى حجاب أختٍ من أخواتي هناك؟ من يدري أي أخت أو أم من أخواتي أو أمهاتي يتعرضن الآن للاعتداء عليهن؟ إخواني في "جمعة بالا" وفي "كملوجه" وفي "صوفيا" وفي "اسكج"، وإخواني في "قواله"[2] المدينة التي زينها السلاطين العظماء بالجوامع التي لم يعد لها أي أثر، وإخواني في فلسطين وكشمير وفي أماكن أخرى عديدة."

أجل، إن تجرع مثل هذه الآلام يعد دعاءً عظيمًا وكبيرًا، وعند التوجه إلى الله يقول أهل

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٨٧/٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٥/٣.

[2] هذه المدن في بلغاريا واليونان.

السماء: "آمين"، وهي لحظة يصل فيها المؤمن بآلامه هذه إلى مرتبة سامية، وتتزين هذه المرتبة أكثر إن صحبتها الأدعية.. تلك اللحظة التي يحس فيها المؤمن بصداع في رأسه، ويضع يده على خاصرته وهو يتلوى من الألم، لأنه يكون آنذاك مع إخوانه الذين يقلق من أجلهم، ومع إخوانه الذين يفكرون مثله، ثم إننا موجودون لهذا الغرض، فإذا كنا لا نستطيع عمل شيء، فبطن الأرض خير لنا من ظهرها. فإذا تم الاعتداء على إخواننا وعلى أمتنا دون أن يكون في يدنا عمل أي شيء لرفع هذا الذل، فبطن الأرض خير لنا من ظهرها.

ذهب الصحابة بمثل هذا الفهم إلى بدر بكل شوق، ذلك لأن الجنة كانت أمامهم وتنتظرهم. وكانت هناك حياة أبدية، والأهم كان هناك رضا الله تعالى، وكانت الملائكة فرحة في ذلك اليوم بالمسلمين الذين كانوا يهتفون: "أحد، أحد!" وتتنزل من السماء طوابير طوابير، وكأنها تريد تهنئة المسلمين بالنصر في بدر قبل وقوعه وتحتفل به معهم. كان هناك من يستطيع أن يراهم وعلى رؤوسهم عمامات بيضاء وعليهم عباءات بيضاء، لماذا؟ لأن الصحابة كان عليهم عندما قدموا إلى بدر عباءات بيضاء، وكان الشعار الذي يرددونه على ألسنتهم هو: "أحد، أحد!" أجل، كانت الملائكة تُستقبل بهذه الكلمات بينما كان مشركو مكة وشيوخ الكفر فيها آتين وعليهم ملابس سوداء مثل قلوبهم.

من بين الصحابة الذين أتوا إلى بدر بفرح وبهجة كان هناك صحابي جالس تحت شجرة يأكل التمر، فسمع النبي ﷺ وهو يبشرهم ويقول لهم: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.» فقال: "بخ بخ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟" ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.[1]

كانت هذه هي الرغبة العامة والمشتركة لديهم في ذلك اليوم، لذا قدموا إلى بدر في شوق وفي لهفة، وهذه حالة روحية ديناميكية لا يمكن لأي قوة أن تغلبها. بهذه الروح كان هؤلاء قد أُعدوا، إذ لا يمكن مقاتلة مثل هؤلاء الجنود الذين يقبلون على القتال وكأنهم يقبلون على عرس. ذلك لأنهم يستخفون الحياة الدنيا ولا يرجون في الآخرة إلا رضا الله تعالى، لذا لا يمكن مناجزة مثل هذا القوم ولا الوقوف أمامهم.

---

[1] البخاري، المغازي ١٧؛ مسلم، الإمارة ١٤٥.

٣. الجيش النظامي

كان من حسنات بدر أن عالم البداوة شهد جيشًا نظاميًا للمرة الأولى فلم يعد هناك مكان لغارات النهب والسلب، ذلك لأن على رأس هذا الجيش كان هناك شخص أتى بالنظام للإنسانية وبالقسط. ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن:٧-٩) تتكرر كلمة الميزان في هذه الآية ثلاث مرات، إذن، فهل هناك أمر طبيعي أكثر من أن يندب الله محمدًا عليه الصلاة والسلام كرجل نظام ودقة وتوازن ليكون على رأس الجيش في بدر؟

كانت هناك مفارز استكشاف، ولم يكن عرب الجاهلية يعرفون هذا من قبل، وكان أفراد هذه المفارز من الأفراد الذين أنضجتهم الحياة واكتسبوا فيها خبرة ودراية بحيث كان من الصعب مشاهدة رجال حربٍ في مستواهم. قامت هذه المفارز بما يقارب من عشرين طلعة اكتشاف جابت فيها كل أنحاء البوادي والمناطق. ولم تكن هذه الطلعات مجرد تطبيقات، بل كانت مفارز أنضجتها الحوادث وصقلتها التجارب وقابلوا الأعداء وجهًا لوجه مرات ودخلوا معهم في صدامات ساخنة أحيانًا، ووصلوا أحيانًا إلى أماكن تجمعهم فأثاروا فيهم الرعب والخوف، ولم يكن باستطاعة من لم يمر بتجاربهم وتدريباتهم أن يقف ندًا أمامهم. كانوا على علم جيد بمواقع العدو ومن أين تمر القوافل وأين يوجد من يوصل أخبار العدو إليهم. كانت هذه هي المرة الأولى التي تتشكل فيها هذه المفارز السريعة الحركة في تاريخ البداوة، وربما في تاريخ الإنسانية، وكل ذلك بفضل الرسول ﷺ، هل تقولون: كيف؟ أقول لكم إن الرسول ﷺ الذي لم تكن له تجارب في الأمور العسكرية والاستخبارية قام بتشكيل جيش وطد به أمن الطرق، فأصبح في الإمكان أن يقطع المرء طريقًا طوله مئتا كيلومتر راجلاً أو راكبًا على البعير دون مقابلة أي مانع أو عائق. ذلك لأن المفارز والسرايا التي شكلها قامت بما يقرب من عشرين دورية استكشاف في هذه المناطق حتى ذلك الحين. لذا، كان في الإمكان قولهم إن المسير من هنا، وإن الطريق هو هنا وهناك، لذا استطاعوا الوصول إلى بدر في أمن وسلام، وكانت هذه مسألة مهمة.

٤. التوجه إلى موضع الآبار

كانت آبار بدر هي الأماكن التي يحط الجيش فيها رحاله ويستريح، وكان العدو يحاول أيضا احتلال هذه المواضع، يسرع نحوها بفرسانه البالغ عددهم مائتي فارس، ولكن فراسة

المؤمنين وسرعتهم الفائقة جعلتهم يسبقونهم في احتلال تلك المواضع. كان موضع بدر هو الموضع الوحيد هناك الذي توجد فيه المياه، واحتل من قبل المسلمين. وكانت مفارز الاستكشاف تتعقب القافلة، فبعدما ينهون عملهم هنا كانوا ينوون التعامل مع القافلة أيضًا، لأن أموالهم التي تركوها في مكة كانت موجودة فيها وكان عليهم أن يستردوها من الغاصبين. كان المؤمنون يخططون لهذا، ولكن إرادة الله تعالى كانت تقضي شيئًا آخر، يجب أن يتلقى الكفر ضربة قوية تفقدهم توازنهم فلا يستطيعون بعد ذلك رفع رؤوسهم.

قسم رسول الله ﷺ جيشه إلى وحدات في اليسار واليمين والوسط، ولم يكن هذا معروفًا آنذاك. كان الوسط مؤلفًا من المهاجرين ومن رؤساء الأنصار الذين بايعوا الرسول ﷺ على الموت، فلو بقوا هم وحدهم في الميدان لما رجعوا عن الوعد الذي قطعوه على أنفسهم، كان هؤلاء هم الذين شغلوا وسط الجيش وقلبه.

وضع على رأس قلب الجيش علي بن أبي طالب ﷺ الذي أثبت رشده في مواضع كثيرة، وكذلك سعد بن معاذ ﷺ. كان أحدهما على رأس المهاجرين والآخر على رأس الأنصار.[١]

كان علي ﷺ أعظم الصحابة من زاوية فضله الخاص به. ومع أن هناك قناعة واتفاقًا عامًا على أن الخلفاء الثلاثة الراشدين الذين سبقوه كانوا أفضل منه من ناحية الفضائل العامة، ولكن وضعه الخاص وقرابته من النبي ﷺ وعلمه بأسرار آل ذلك البيت واستمرار نسل الرسول ﷺ من قبله[٢] وكونه تاج جميع الأولياء وقرة أعينهم. من هذه الزاوية لم يكن له مثيل آخر، كان قد أسلم وعمره سبع سنوات فلم يصبه غبار الشرك والكفر. وعندما سأل رسول الله ﷺ أكابر بني عبد المطلب بعد أن شرح لهم أنه بعث إليهم خاصة وإلى الناس عامة قائلا: «فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟» فلم يقم إليه أحد، فقام علي ﷺ وكان أصغر القوم فقال له الرسول: «أجلس» وكرر الرسول دعوته ثلاثا وفي كل مرة يقوم إليه علي ﷺ، وفي الثالثة ضرب رسول الله يده في يد علي ﷺ.[٣]

وعندما أصبح عمره سبع عشرة سنة كلفه الرسول ﷺ أن يبيت ليلة الهجرة في فراشه، أي اقترح عليه الموت، فقبله.[٤] أجل، لم يتردد علي ﷺ في مثل هذه الأمور أبدًا، لذا فقد كان

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٦٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣١٨.

[٢] في الحديث: إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صُلبه وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب. (مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/١٧٢؛ فيض القدير للمناوي ٢/٢٢٣؛ تاريخ بغداد للبغدادي ١/٣١٧).

[٣] المسند للإمام أحمد، ١/١٥٩.

[٤] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/١٢٧؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٢١٦.

هذا الشاب المملوء رجولة وشجاعة على رأس المهاجرين في بدر. فداك نفسي يا رسول الله! كم كنت مصيبًا في اختيار الرجال!

أما سعد بن معاذ ﷺ فكان أيضا مثال الفضيلة والاستقامة، وكان إخلاصه معلوما من قبل الجميع، وعندما جُرِحَ جرح الموت في المعركة كان ما قاله وهو على فراش الموت أبلغ شاهد ودليل على إيمانه، إذ قال وقد شخص ببصره إلى السماء: "اللّهم إن كنت قد أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعل ما أصابني اليوم طريقا للشهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة"[١] وقد توفي متأثرًا بجراحه تلك وعندما شيعه الرسول ﷺ لمثواه الأخير قال عن جنازة سعد: «اهتز لها عرش الرحمن»[٢] فما أصوب هذا الانتخاب وما أعظم هذا الاختيار!

كان هؤلاء هم الذين يسيطرون على قلب الجيش ووسطه، فإذا كان القائد يفضل الموت على العيش بذل فهل يفر جنوده؟ وعندما يضحي القائد برأسه ألا يضحي الجنود برؤوسهم؟ ثم إن الجنود أتوا إلى هناك وهم يبحثون عن الشهادة ويفتشون عنها. وكان رسول الله ﷺ يوجد في هذا القلب أي في المركز وفي الوسط محاطًا بمثل هؤلاء الجنود الذين أصبحوا له درعًا لا يصل إليه أحد، كلا لن يصل إليه أحد حتى يدوسوا على جثث كل هؤلاء الجنود.

كان إذن، على رأس مثل هذا القلب، وكان قد أعطى الراية إلى مصعب بن عمير،[٣] فما أروع هذا الاختيار! في معركة أُحد قطعت اليد اليمنى لمصعب فأخذ الراية بيسراه فقطعت يسراه فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران:١٤٤) وحافظ على الراية حتى استشهد[٤].

كان مصعب يقف في الوسط وراية بيضاء تخفق في يده.. كانت الميمنة والميسرة قد أخذتا مكانهما بانتظام، كانت القوة الأمامية جاهزة تنتظر الأوامر، والرديف في الخلف وعلى رأسهم قيس بن أبي سعد ﷺ، فلو قمت بقلع أظافرهم ظفرًا ظفرًا لما تأوه أحدهم، كانوا بهذا التصميم والقوة والمقاومة.

---

[١] البخاري، المغازي ٣٠؛ مسلم، الجهاد ٦٥؛ الترمذي، السير ٢٩.

[٢] البخاري، مناقب الأنصار ١٢؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٢٣؛ الترمذي، مناقب ٥٠.

[٣] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٦٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣١٨.

[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/١٢٠.

كان جيش المسلمين يمثل نظامًا لم يشاهده أرباب القتال حتى ذلك الحين ولم يعرفه أحد من قبل، وكان هذا هو الأمر الذي قصم ظهر قريش. كان الرسول ﷺ قد أتى بنظام جديد ليعلن لهم موت الأنظمة القديمة العفنة وأنها دون فائدة.. كان الرسول ﷺ قد أتى بنظام جديد، أما هم فكانوا مقيدين بالنظام القديم، حيث كانت الفوضى سائدة في صفوفهم. ثم إن الرسول ﷺ كان على رأس جنده مما أعطى المسلمين قوة معنوية إضافية وقوة ديناميكية إضافية.. لقد سبق وأن عاهدوه قائلين: "والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا."[1]

إنِ المهم جدًا قيام الإمام بنفث الأمن والثقة في نفوس رعيته، وكان الرسول ﷺ يقوم بهذا على أحسن وجه، لقد قال لهم: «اَلْمَحْيَا مَحْيَاكم والممات مماتكم.»[2]

كانت كلماته هذه ترن في أسماعهم، وكان يتجول بينهم ويقوم في وسطهم، ثم إنهم جاءوا إلى هناك وهم يتعاقبون الركوب على الجمال (ويح نفسي ليته داس على وجهي ولم يدس على التراب)، وركب معه اثنان على جمله حتى وصولهم إلى بدر.. كانا حزينين ويقولان له: "اركب حتى نمشي عنك" ولكن الرسول ﷺ كان يقول لهما: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[3] كان أمير الأمراء يقول هذا.. إنه إنسان بين الناس، يقوم ويجلس معهم ولا يفارقهم.. يجلس معهم ويأكل من الطعام نفسه الذي يأكلونه ويشاركهم في كل شيء ولا يتميز عنهم.

أصبحت كلمة "المساواة" تتردد كثيرًا على ألسنة الناس بعد قيام الثورة الفرنسية، فهل رأى الناس منذ ذلك اليوم مساواة؟ لم يعرف هذه المساواة سوى الإنسان الذي عاش في عهد النبوة وفي عهد الخلفاء الراشدين وذلك بفضل الرسول محمد ﷺ.

لقد فتحت السماء أبوابها له في أحلك أيامه واحتضنته وحفت به الملائكة، وكما قال الشاعر "نظامي"[4]:

لقد أصبحت أنصاف الأهلة   حدوات تحت حوافر جواده

قالت له الجنة: "لا تذهب، ابق هنا" ولكنه رجع إلى وسط الناس. يذكر الولي الكبير

---

[1] أُزُرَنا: أي نساءنا.

[2] مسلم، الجهاد ٨٦؛ المسند للإمام أحمد، ٥٣٨/٢.

[3] المسند للإمام أحمد، ٤١١/١، ٤١٨، ٤٢٢، ٤٢٤.

[4] نظامي كنجوي (١١٤٠-١٢٠٣): من كبار شعراء الفرس، من آثاره المشهورة مخزن الأسرار وخسرو وشيرين وليلى ومجنون.

"عبد القدوس" هذه الحادثة فيقول: "وصل النبي محمد ﷺ إلى مقام لم يصله أحد، وأنا أقسم بالله لو أنني صعدت إلى تلك المقامات لما رجعت منها إلى الدنيا أبدًا"، ويعلق على هذا الكلام ولي آخر فيقول: "هذه هي المسافة التي تفصل بين النبي والولي والتي لايمكن قطعها أبدًا".. كيف يمكن قطع هذه المسافة؟ إنه الرسول محمد ﷺ.

أجل، فمع انه في مثل هذه المنزلة لدى الله ﷺ فهو يرى نفسه إنسانًا بين الناس ويحب أن يكون بينهم. لقد شاهدت الإنسانية المساواة بواسطته، ولو وصلت الإنسانية إليها مرة أخرى فسيكون أيضا بفضله، وهذا الانتظار حقيقة نابعة من طبيعة علم الحقوق نفسه. هكذا كانت بادية العرب تنظر إلى هذا الجيش من جانبه هذا، وكان هذا شرفًا كبيرًا بالنسبة للبادية.

قام الرسول ﷺ بتنظيم الجيش بنفسه وعين له مواضعه ثم حفر بئرًا كبيرة في وسط الموضع حيث ملئت بماء يكفي الجيش حتى انتهاء المعركة، ثم قام بسد جميع الآبار الأخرى،[1] إذن، فسيأتي العدو دون تهيؤ معتمدًا على وجود الآبار هناك، وعندما يرون ما حل بالآبار سيحسون بأن ظهرهم قد انقصم، وهذا ما حصل فعلاً.

وكما كان نظام الجيش جيدًا، كان أسلوب حركته وقتاله جيدًا أيضًا، فالجنود كانوا يعرفون جيدًا أين يستعملون النبال وأين يستعلمون الرماح وأين يستعملون السيوف ومتى تدخل ميمنة الجيش وميسرته المعركة. ومتى تتدخل القوة الموجودة في الخلف.. كل هذه الأمور كانت مؤقتة توقيتًا ممتازًا.

أما المكان الذي أقام فيه الرسول ﷺ خيمته أو عريشه فقد اختير بدقة كبيرة تليق بقائد عظيم مثل الرسول ﷺ. إذ كان هذا الموضع يشرف على ساحة المعركة إشرافًا جيدًا، وكان يشرف منه على الجناحين الأيمن والأيسر وعلى القوة خلفهما. وكان بإمكانه من هذا المكان الاتصال بالجند وإيصال الأوامر إليهم بسرعة للسيطرة التّامّة على مجريات القتال.

كان كل شيء قد تم وستبدأ الحرب بعد قليل وسينتصر المسلمون على أعدائهم الذين يفوقونهم بثلاثة أضعاف ويلحقون بهم هزيمة نكراء بخسائر قليلة تبلغ أربعة عشر شهيدًا فقط، وكما ذكرنا سابقًا فقد أعطى الرسول ﷺ المسلمين شعار المعركة وهو الهتاف بـ "أحد، أحد"، وأحد اسم من أسماء الله الحسنى لا يجوز تسمية أي شخص بهذا الإسم، والأحد هو الواحد في ذاته ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:١)، فالأحد هنا إشارة إلى توحيد الألوهية وإلى توحيد الربوبية كذلك. فمثنى الواحد هو اثنان، ولكن لا يوجد مثنى للأحد

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٧٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٢٦-٣٢٧.

فالأحد رقم فريد بين الأرقام لا يوجد لـه ثـان أو ثالث، أي إن الله واحد أحد لا ثاني لـه.

كان الشعار في ذلك اليوم هو "أحد أحد"، وكلما هتفوا بهذا الشعار كأن صوتًا يأتيهم من وراء الغيب يقول لهم: لبيكم عبادي. فإذا كان هذا هو حكمة اختيار هذا الشعار فالحكمة الثانية هي أن أهل مكة كانوا يجهلون حتى ذلك الحين إطلاق الشعارات. وكان المؤمنون بفضل هتافهم بهذا الشعار يشعرون برابطة أقوى من جانب ومن جانب آخر كانوا يلقون الرعب في قلوب المشركين وهم يسمعون هذا الهتاف المدوي من أناس عليهم ملابس بيضاء كأنها الأكفان. كان المؤمنون يبحثون عن الموت وعن الاستشهاد في سبيل الله.. كان هذا هو غايتهم الوحيدة.

٥. المبارزة الأولى

ومع بقاء التنظيم العام، والاستيراتيجية العامة محفوظة فإن القرارات كانت تصدر تباعًا حول كل تكتيك جديد، وكانت كلها موفقة.

في البداية أخرج رسول الله ﷺ ثلاثة مبارزين، كان كلهم من الأنصار ومن الأفراد المهمين والمشتاقين إلى الشهادة، فلو تصدى لهم عنترة أو هرقل لما تردد أحدهم في مبارزته ومقاتلته. ولكن قريشا أبت بغرور وبكبرياء وقالت: أخرج لنا يا محمد أكفاءنا من قومنا. كان هذا هو الغرور المهلك بعينه، وهو ما كان يتوقعه الرسول ﷺ منهم، ومع أننا لا ندري، فقد يكون هذا هو تكتيكه؛ فكتب السير لا تذكر هذا، ولكن مما لا شك فيه أن الأشخاص البارزين كانوا معيين في ذهنه فقال: «قم يا حمزة، قم يا عبيدة، قم يا علي!» كان هؤلاء الأشخاص الثلاثة يعادل كل منهم جيشًا.. كان اثنان منهما ابني عم له، والثالث عمه، أي إن أول من أرسله ليدق أبواب الموت كان أقرب الناس إليه رحمًا ونسبًا. وخرج ثلاثة مبارزين من بين الطرف الآخر، عُتبة وشيبة والوليد بن عُتبة. كان العدو على أعتاب هزة كبيرة، كان هؤلاء من أقوى رؤساء القبائل.. وعندما سقط الأخوان وابنهما صرعى بالسيف في وسط بدر هبطت الروح المعنوية لدى صفوف العدو. وكان هذا أولى علامات انجراره إلى الهزيمة. أما عبيدة فقد نال من أجل هذه المبارزة جراحا شديدة فأخلي من ساحة المبارزة وذهبوا به إلى ابن عمه رسول الله ﷺ المرشد إلى أبواب الجنة حيث أسلم الروح قريبًا منه.[1]

هبطت الروح المعنوية لدى الأعداء بعد قتل عُتبة وشيبة والوليد، فقد كان هناك أناس

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٧٧/٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٣/٣.

قدموا إلى المعركة بإلحاح من هؤلاء الثلاثة. فكان موت هؤلاء الثلاثة سبب رعب وغيظ وفوضى لدى العدو.

٦. غايات متباينة

بدأ كل واحد ينعق بشيء مختلف، إذ اختل النظام وسادت الفوضى، وهذا جعلهم هدفًا لنبال المسلمين ورماحهم ثم لسيوفهم. كان رسول الله ﷺ قد وجه إليهم ضربة أطارت صوابهم فلم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون، ثم إنهم عندما أتوا إلى بدر لم يأتوا إليه في سبيل مبدأ أو فكر أو مُثل معينة، بل جاءوا يحدوهم الحقد والغضب، بينما جاء الرسول ﷺ إلى بدر في سبيل فكرة سامية وهدف نبيل، كان هدفه هو إعلاء كلمة الله. أجل، إن المبدأ مهم جدًا، لم يكن أبو جهل وشيبة وعُتبة وابن أبي مُعيط وأُمية بن خَلَف يعرفون لماذا يقاتلون، لقد جاءوا بدافع الحقد والغيظ ليقتلوا الناس هناك، وكانوا يعتقدون أنهم بعملهم هذا يعلون من شرف الكعبة ويزيدون من منزلتهم ومكانتهم في أعين الناس، لم يكن لهم أي مكسب بالنسبة للماضي، وما كان بالإمكان أن يكون، ذلك لأنهم أتوا إلى هناك بدافع الحقد والغيظ والغضب.

أما المؤمنون فقد كانوا هناك من أجل تحقيق هدف سامٍ، وهو إعلاء كلمة الله تعالى ونشرها في أرجاء الأرض. كانت القلوب تخفق بهذه المشاعر وترى أن الموت يهون من أجل تحقيق هذه الغاية، وذلك لأنهم كانوا يُستشهدون في سبيل الله، لذا كانوا ذاهبين للقائه، ومن يلق الله تعالى ويصل إليه لا يخسر شيئًا، بل يكسب الشيء الكثير. كان كل مؤمن يقاتل بهذه العقيدة ويستهين بالحياة بهذه العقيدة، بينما كان الطرف المعادي يرى أن الحياة أهم شيء ومعقد جميع آمالهم.

كل همهم أن تطول حياتهم هذه. ولو تحقق انتصارهم في بدر لقام أبو جهل يوفى بنذره وهو أن يشرب الخمر ويرقص الراقصات ويلهو ويطرب،[1] بينما صلى المسلمون هناك ودعوا الله وتضرعوا إليه وبحثوا عن الوسائل والطرق التي تقربهم إلى الله تعالى.

كان هذا هو الفرق بين الجمعين. فأحدهما كان وكأنه يحلق في السماء والاطمئنان يلفه، والآخر قد هوى إلى أخفض قعر في الدنيا وهو يتلوى من الضيق والاضطراب.

٧. فرعون الأمة يصرع

يقول عبد الرحمن بن عوف ﷺ: إني لواقف يوم بدر في الصف فنظرت عن يميني

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٧٠؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٢٤.

وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع أحدٍ منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ قلت: نعم وما حاجتك إليه؟ قال: "أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا" فتعجبت، لذلك فغمزني الآخر فقال لي أيضا مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه فقال: «أيكما قتله؟» قال كل منهما: أنا قتلته قال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا، قال فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: «كلاهما قتله»[1] وهكذا سقط فرعون هذه الأمة قتيلاً. أما الغلامان فهما معاذ بن عمرو بن الجموح والآخر معاذ بن عفراء. وفي رواية هما إبنا عفراء رضي الله عنها.

لقد اجتازوا مرحلة الجاهلية إلى الطرف الآخر، وفي أُحد لقوا ما صبوا إليه إذ لقوا الله تعالى. والحقيقة أنهم عندما أتوا إلى بدر أتوا لتحقيق مثل هذه الغاية السامية. والخلاصة أن رسول الله ﷺ كان يعلن الحرب على الذين ناصبوه العداء طوال دعوته، ومدوا يد الإساءة وخاصموا الحق والحقيقة والعلم والعرفان، والأهم من ذلك أنهم خاصموا الإيمان والإسلام. ولكنه في أثناء نضاله معهم كان يحسب خطواته جيدًا فلا يخطو الا بحساب وبتوازن وبحكمة فلا يقع في أي هفوة أو خطأ، فكأنه جاء إلى بدر خمسين مرة وحارب العدو هناك خمسين مرة، وكأنه طبق خطته واستراتيجيته هناك خمسين مرة، لأنه لم يظهر هناك أي خطأ ولا أي هفوة، وكأنه ذهب إلى هناك في نزهة، وهناك انتصر بعون الله ورعايته وتوفيقه.

كل نصر سيؤدي إلى نصر آخر، أي كان قد دخل إلى دائرة مثمرة (هذا ضد تعبير دائرة مفرغة) هنا يؤدي الخير إلى خير آخر، بينما في الدائرة المفرغة يؤدي الشر إلى شر آخر، والتعقيد يؤدي إلى تعقيد آخر، والأخطاء تسلمك إلى أخطاء أخرى، وهكذا يستمر الأمر... أجل، لقد هُيئت الأسلحة وتمت التعبئة بشكل جيد، لذا فلا بد أن تحصل على نتائج جيدة، وكما قال الرسول ﷺ: «إن الخير لا يأتي إلا بالخير»[2] وكانت معركة بدر خيرًا خالصًا.. خيرًا للقلب وخيرًا للفكر إذ فتح الله أبواب ألف خير للذين حملوا أرواحهم على أكفهم في تلك المعركة فكأنه قال لهم: اسلكوا أي طريق تشاؤن فسيكون النصر حليفكم.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٨٧-٢٨٨؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٥٠-٣٥٣.

[2] البخاري، الجهاد ٣٧؛ الرقاق ٧ ؛ مسلم، الزكاة ١٢١-١٢٣؛ ابن ماجه، الفتن ١٨.

٨. ثم الهزيمة

انقصم ظهر المشركين من هذه الضربة التي تلقوها من الرسول ﷺ، واستمر هذا الرعب عندهم مدة طويلة، ولولا أن بعض المشركين من أنصار أبي جهل وأمثاله قاموا بإثارتهم وتوجيه دعاية مكثفة بينهم لما تجرأ أحد منهم للخروج لقتال المسلمين يوم أُحد، وما كان خروج قريش للقتال يوم أُحد إلا بباعث من الانتقام والحقد، لقد بدأوا يقولون: لابد أن نقاتلهم مرة أخرى مهما يكن الأمر، وحقد وإصرار هند بنت عُتبة مثال جيد على هذا، إذ كانت تقول لابي سفيان: لقد قتل أبي وعمي وأخي وليد وأنت قاعد في البيت كالنساء، وبدلاً من البقاء مع امرأة فإني أفضل الذهاب إلى بيت أمي. كانت النساء يبكين كل يوم ويشققن ثيابهن ويلطمن وجوههن ويثرن الرجال. وهذه الإثارة التي استمرت عامًا كاملاً دفعت المشركين إلى الخروج لمقاتلة المسلمين في أُحد. وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

أجل، لقد أنزل الرسول ﷺ في بدر ضربة قوية على رؤوسهم بحيث أنهم ما عادوا يفكرون في مواجهة المسلمين، ولكن لم يكن هناك شيء يستطيع أن يهدئ الحقد والغيظ في قلوبهم، وكان الرسول ﷺ قد أسدى إليهم بعد معركة بدر جميلاً ومعروفًا ليداوي نفوسهم المجروحة وكرامتهم المهدورة، فمثلا كان بمقدوره أن يأمر بقطع رؤوس جميع الأسرى الذين اقتيدوا إليه والذين أساءوا إلى المسلمين إساءات كبيرة وآذوهم إيذاءً شديدًا، ولكن رسول الله ﷺ فضل أن يمن عليهم وأن يعفو عنهم. وقال: لنعف عن هؤلاء، وأخذ الفدية من بعضهم، وطلب من بعضهم القيام بتعليم عشرة من صبيان أهل المدينة القراءة والكتابة.

٩. أهداف العفو عن الأسرى

أولاً: كان هذا معروفًا أسداه النبي ﷺ لهم. فطلب الفدية عن هؤلاء الأسرى ساقهم إلى قبول الفدية بكل سرور، ثم إن ما أعطوه لم يكن إلا جزءً من أموال المسلمين التي بقيت في مكة والتي اغتصبوها منهم.

ثانياً: كانت نسبة من يقرأون ويكتبون في المدينة حتى ذلك الحين نسبة واطئة، بينما كان أهل المدينة مرشحين لأن يلعبوا دوراً مهماً في تبليغ العلم والدين، لذا كانت حاجتهم إلى تعلم القراءة والكتابة أكثر من غيرهم. ثم إن الفرق الثقافي بين أهل مكة وأهل المدينة كان سينقلب لصالح أهل المدينة بهذه الوسيلة.

ثالثـاً: إن الذين سيبقون في المدينة لتعليم القراءة والكتابة سيجدون فرصة للتعرف بالإسلام عن قرب، وعندما سيعودون إلى مكة سيكون كل واحد منهم داعياً إلى الله

ورسوله في بيته، لأن الرسول ﷺ استطاع بمكرمته هذه وتسامحه معهم أن يفتح قلوبهم.

تأملوا مثلاً ابن هشام وهو أخو أبي جهل فإنه لم يشترك في أي معركة ضد الرسول ﷺ حتى إسلامه، ذلك لأنه رأى من كرم الرسول ﷺ معه وتسامحه ومروءته ما جعله يخجل من أشهار السلاح في وجهه، وكان هذا الأمر عامًا تقريبًا بالنسبة للجميع.

رابعاً: إن أهل هؤلاء الأسرى وأقرباءهم الذين قطعوا الأمل في حياة هؤلاء الأسرى عندما رأوهم والتقوا بهم وهم سالمون لم يتعرض أحد إليهم بأي أذى سرى إليهم شعور العرفان بالجميل، لأنهم كانوا يعرفون جيدًا مدى الأذى الذي ألحقوه سابقًا بالمسلمين، ومع كل هذا فها هو الرسول ﷺ يتصرف مع كبار قريش بهذا اللين وبهذه المروءة.. هذا اللين والمروءة التي لم يكن يظهرها المكي حتى لأولاده. وقد أدت هذه المروءة التي أبداها الرسول ﷺ نحو الأسرى إلى فتح قلوب الكثيرين من أهل مكة وجيرانهم من المتفقين معهم إلى درجة لو أن أبا جهل لم يقتل في المعركة لما بقي حتى في بيته أحد من الكفار غيره، لأن كل شخص حتى في ذلك البيت لان قلبه حتى أبو سفيان -وكان من أشد بني أُمَيّة على الإسلام- بدأ يتصرف بمرونة ولين على الرغم من كونه زوجًا للمرأة التي فقدت أباها وعمها وأخاها. لهذا نراه لم يخرج إلى بدر الآخرة على الرغم من إعطائه قرار الخروج هذا بعد معركة أُحد. فلولا حصول هذه المرونة واللين لكان من المحتمل حدوث شرور كثيرة.

أجل، لقد دخل الرسول ﷺ بمعركة بدر إلى طريق خير، لأن من ملك القوة آنذاك كان يظلم ويفترس الآخرين كالوحش. وعندما تهيأت الفرصة لهند لاكت كبد حمزة وكأنها من القبائل الآكلة للحوم البشر، ولكنها لم تستطع أن تأكلها[1] ولو تيسر لها ذلك في بدر لما ترددت في فعل الشيء نفسه. ولكن المسلمين عندما تيسر لهم النصر في بدر أعطوا أمثلة سامية حول كيفية التصرف الإنساني. وبينما كان الباقون يصبحون هدفًا للنقمة في مثل هذه المواضع كان المسلمون يتألفون القلوب. وكان هذا نتيجة فطنة الرسول ﷺ، ونحن نتناول الجانب العسكري الممتاز للرسول ﷺ كبعد من أبعاد فطنته هذه.

١٠. أسباب النصر

إذا نظرنا إلى انتصار الرسول ﷺ في بدر من ناحية الأسباب فإننا نستطيع أن نقول بأنها كانت مرتبطة بما يأتي:

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٤٦٣/١.

قام الرسول ﷺ بتعبئة عسكرية جيدة، فقد جاء إلى بدر بجيش مرتبط بقائد واحد يتحرك بموجب أوامره وإرشاداته، وكان هذا الجيش يملك روحاً معنوية عالية جداً وإيماناً قوياً وراسخاً. بهذا الإيمان كانوا يشاهدون بساتين الجنة وهم في الارض، حتى أنهم لم يكونوا متأكدين وهم يمشون في قمم تلال بدر أهم يدوسون على تل في بدر أم على تل في الجنة.. بمثل هذا الإيمان ذهبوا إلى بدر. ثم إن الجنود كانوا مشبعين بروح الطاعة للأوامر الصادرة إليهم، فلو أُطيحَ برؤوسهم لما أقدموا على عمل دون أن يتلقوا أمراً بذلك. فالكل كانوا ينتظرون الأوامر من الرسول ﷺ. وكان صدور الأوامر من مركز واحد شيئًا مهمًا في أثناء سياق المعركة، وقد اهتم الرسول ﷺ بهذا الأمر فجعل صلاحية إصدار الأوامر مركزية وعلى أسس ثابتة ومتينة. ثم إنه أنشأ شبكة استخبارات جيدة، فمن موضع خيمته كان يستطيع أن يشرف على المنطقة كلها، وكان ينزل أحيانًا إلى وسط الجند يتفقدهم، وعندما يشاهد أي ضعف أو خلل في أي موضع يذهب إليه ليعالجه. يقول علي بن أبي طالب ﷺ: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو"[1] صحيح أن الرسول ﷺ كان قريبًا من العدو ولكن كان من يتجرأ للاقتراب منه من الأعداء يتهاوى وكأنه اصطدم بسور قوي من اللحم والعظم.

كان الرسول ﷺ يتجول بين جنده ويشجعهم ويرفع روحهم المعنوية ويقول لهم بأن الله تعالى معهم وأنه سيؤيدهم بنصره. بهذه الروح المعنوية العالية وبهذه الطاعة التامة والانقياد الكامل كان الجميع يتصرفون وكأنهم ذاهبون إلى الجنة.

ثم إن جيش المسلمين كان منظمًا بالقياس إلى ظروف وأحوال ذلك اليوم، فقد تمت تعبئته جيدًا. فهناك الجناح الأيمن والجناح الأيسر ومركز الجيش والقوة الاحتياطية. وكل هذه الأمور التي اهتم بها الرسول ﷺ كانت هي خلاصة العلم العسكري آنذاك. وقد وجه الرسول ﷺ جميع هذه الأمور ووضعها واستعملها في أماكنها الصحيحة. فمثلاً موضوع الطاعة، فالجندية هي الطاعة وهو أول ما يتعلمه الجندي المبتدئ في الجيش لأنها مهمة جدًا، فإذا قيل للجندي: ازحف! زحف، وإذا قيل له: قم! قام. وكان الرسول ﷺ قد علم جنوده الطاعة قبل قدومهم إلى بدر، ثم نصب خيمة القيادة فوق تل من تلال بدر حيث يشرف منها على كل شيء، ويصدر منها الأوامر التي سرعان ما يطيعها الجميع. ثم إنه نفث في قلوب جنده إيمانًا لا يتزعزع بحيث أن هذه المعركة كانت معركة بين الذين يستهينون

[1] المسند للإمام أحمد، ٨٦/١.

بالحياة وبين الذين يتشبثون بها ويحبونها. أحدهما يرغب في قطف الورود من بستان الزهور، والثاني يرغب في سقي بستان الورود بدمه، يقول أحدهما:

"يكفي حملي لعبء هذه الحياة، فمتى تفتح أبواب الجنة لأدخلها وأتجول في ربوعها"، أما الآخر فيقول: "ليتني أرجع سالمًا لكي أعب الخمر عبًا وأشاهد رقص الراقصات وأتلذذ بلذائذ هذه الحياة." أجل، كانت المعركة بين فئتين.. فئة تستهين بالحياة، وفئة تعبد الحياة، كما كانت المعركة بين جماعة منظمة وبين مجموعة من الأشخاص غير المنظمين، وكانت نتيجة المعركة معروفة منذ بدايتها، لإنها كانت بين النظام وبين الفوضى. ففي صف المسلمين ما إن تحدث ثغرة في موضع ما حتى يسرع الرسول ﷺ إليه ويقوي ذلك الموضع، وكان المسلمون عندما يرون الرسول ﷺ بينهم تزيد شجاعتهم وتضحيتهم فلا تلبث أن تنغلق تلك الثغرة.

ولا شك أن من صفات وميزات أصحاب الدعوات قيامهم بتطبيق خطط مختلفة تكون ملائمة للظروف المستجدة دومًا. كان الرسول ﷺ يهيئ خططه في فكره بأدق تفاصيلها دون أن ينسى أي تفصيل، ولم يكن يعرف أسلوب الرسول ﷺ وخططه وكيفية تصرفه سوى أقرب قواده إليه. بينما كان العدو يحارب بأسلوب فوضوي بعكس جيش الرسول ﷺ الذي كان يعرف ماذا يفعل بالضبط وأين يوجه نباله وإلى أين يرمي رماحه. أجل، إن الاستيراتيجية مهمة جدًا.

١١. ترك الجبهة ليس من شيمة المؤمن

وشيء آخر مهم وهو عدم قيام أي جندي بأي تصرف شخصي، بل عليه البقاء في موضعه وإن كان ذلك يعني الموت إلى أن يأتيه أمر آخر منه ﷺ حتى وإن كانت الهزيمة مقدرة عليه، فالقرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ (الأنفال:١٥).

أي يجب عدم الفرار وإن بقي في الجيش شخص واحد فقط، وأنا كلما تذكرت هزيمة "فيينا" أحسست بألم حارق في أضلعي وأقول لنفسي ليت جنود "قره مصطفى باشا" ماتوا هناك حتى آخر رجل فيهم ولم ينسحبوا، فمن يدري فلعل الهزيمة.. كانت تنقلب إلى نصر وتسقط التفاحة الحمراء[1] التي لم نستطع قطفها طوال التاريخ. ولكن عندما أصبحت الحياة

---

[1] المقصودة هي مدينة "فينا".

حلوة في أعين الجنود، والموت شيئًا مرعبًا، وتراجع الإيمان والشوق إلى الجنة إلى المرتبة الثانية أو الثالثة عندهم، والأهم من ذلك عندما تكبر الدنيا في عين المؤمن وتكون مهمة عنده، يسلب الله تعالى المهابة من المؤمنين، وعندما يخسر المؤمن مهابته يستطيع الكافر أن يغلبه وأن يسخر منه ويخدعه.[1]

لا يليق بالمؤمن الهروب من ساحة القتال، قد يقطع هناك إربًا إربًا ولكن لا يمكن له ولا يليق به الهروب، والتاريخ مليئ بآلاف الأمثلة على هذا، وكأن جميع هؤلاء تعلموا الشجاعة والرجولة من أسود بدر، ومعركة بدر مهمة جدًا من ناحية أنها أصبحت مثالاً وأنموذجًا للمستقبل.

في معركة اليرموك حارب ٢٠ ألف بطل أمام ٢٠١ ألف من الجيش البيزنطي، كانت هذه معركة مشابهة لبدر، وقد تم النصر بالروح وبالمشاعر نفسها التي كانت سائدة في بدر. تأملوا مثلاً حال بطل واحد من بين آلاف الأبطال، إنه قَبَاث بن أَشْيَم، قطعت رجل هذا البطل في المعركة في وقت الظهر بضربة سيف ولكنه لم يحس بذلك، وعندما تم النصر للمؤمنين في وقت العصر أراد هذا البطل الترجل عن جواده، وعندما مد رجله كالمعتاد لينزل وقع على الأرض، وعندما حاول أن ينهض أدرك ما جرى له.. كانت رجله قد سبقته إلى الجنة... وبعد سنوات عندما أراد حفيده أن يعرف نفسه للخليفة عمر بن عبد العزيز قال له: "أيها الخليفة! إنني حفيد الذي فقد رجله في الظهيرة ولم يحس بفقدها حتى العصر."

كانوا يقاتلون وهم لا يهتمون لا بالدنيا ولا بنعيم الآخرة، بل كانوا -مثلهم مثل الشاعر المتصوف يونس أمره- يقولون وقلوبهم متجهة لله وحده: "أنت ضالتنا... أنت!"

الهرب في أثناء الحرب جريمة كبرى، وقد أعطى الله تعالى هنا مقياسًا محددًا يحدد بموجبه ويقيم به الانسحاب نحو الخلف ويمكن به فقط أن يكون جائزًا، ولا يستطيع أحد أن يفسر الانسحاب والتراجع تفسيرًا ذاتيًا وشخصيًا وحسب هواه، والآية التالية هي التي رسمت إطار هذا الأمر: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال:١٦).

وعندما رجع أبطال معركة مؤتة إلى المدينة لم يستطيعوا مواجهة الرسول ﷺ، لأنهم

---

[1] لعل المؤلف يشير إلى حديث: يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكلة إلى قصعتها فقال قائل: ومن قِلّة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعَنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذِفَنّ الله في قلوبكم الوهَن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهَن؟ قال:حب الدنيا وكراهية الموت. (أبو داود، الملاحم، ٥؛ المسند للإمام أحمد، ٢٧٨/٥). (المترجم)

كانوا خجلين منه، إذ كانوا يعدون أنفسهم وكأنهم هربوا من المعركة لذا، كانوا يرغبون في الاختباء عنه، ولكن الرسول ﷺ طيب خاطرهم واحتضنهم وسلى نفوسهم بتلاوة الآية الكريمة السابقة. وعندما قال له بعض الصحابة: نحن الفرارون، أقبل إليهم وقال: «لا بل أنتم العكّارون[1].»[2]

أجل، إن كان ولا بد من التراجع والانسحاب فيجب أن يتم ذلك بأمر من القائد، وهذا ما تم في معركة مؤتة.

وشيء آخر مهم في هذا الخصوص وهو أن يكون القائد بين جنوده، والتاريخ يشهد بأنه متى ما كان رأس الدولة المسلمة على رأس جيش انتصر مثل هذا الجيش في أغلب الأحوال، ومتى ما قعد السلاطين في القصور -كما حدث في بعض عهود الدولة العثمانية- بدأ التحلل والتسيب والتراجع، وقد قضى السلطان سليمان القانوني مدة حكمه البالغة ٤٦ سنة على ظهر جواده يتنقل من جبهة قتال إلى أخرى، وكان هذا من أهم أسباب احتفاظه بالدولة في القمة بعد معونة الله تعالى له.

لقد حاولنا حتى الآن شرح أن الانتصارات التي تمت في بدر وفي غيرها من المعارك والحروب إنما تمت بالاتكال على الله والثقة به، واتخاذ جميع الأسباب والعوامل الإيجابية ورعايتها. أجل، فبعد قيام الرسول ﷺ بجميع أنواع الأدعية الفعلية[3] فتح كفيه وتضرع إلى ربه تضرعًا حارًا، وعندما اتحدت هذه الأدعية وهب الله تعالى للمؤمنين نصرًا مؤزرًا.

حاولنا أن ننقل لكم -وإن لم يكن بشكل مفصل وعميق- معركة بدر من كتب المغازي والسير.

وقد ظهر أن الرسول ﷺ كان رجلاً عسكريًا رائعًا، إذ استطاع بحفنة من أبطاله المغاوير الوصول إلى الأهداف التي عينها له مولاه وربه دون أن يقع في أي هفوة أو تقصير أو خطأ، وعلى جبين نجاحه وانتصاره نقرأ على الدوام حقيقة أن "محمد رسول الله". لماذا كان منتصرًا؟ لأنه كان رسولاً من عند الله تعالى، كان عسكريًا جيدًا لأن الله تعالى رباه وعلمه. أجل، كان يتلقى تعليمه ودروسه من الله تعالى، لأنه كان مكلفًا بأداء مهمة خاصة، وكانت فطنته الكبيرة من أكبر النعم التي أنعمها الله تعالى عليه، والتي كان يقيّم بها ويفهم بها بكل دقة

---

[1] العكّارون: أي الكرّارون.

[2] أبو داود، الجهاد ١٩٦ الترمذي، الجهاد ١٣٧ المسند للإمام أحمد، ٢/٧٠، ٨٦.

[3] الدعاء الفعلي: هو الأخذ بالأسباب واستخدام القوانين التي وضعها الله تعالى في الكون.

جميع الأوامر الإلهية. وهذه الفطنة والعقل الكبير والمذهل هو العقل الذي يفهم أوامر الله تعالى ومشيئته فهماً كاملاً لا قصور فيه. أجل، إن فخر الإنسانية هو الشخص الوحيد الذي فهم الحقائق الموجودة في كتاب الكون بشكل متسق مع القرآن الذي هو كتاب الله وأوامره.

فكل ما قاله القرآن هو نفس ما يقوله كتاب الكون الذي ظهر بقدرة الله وإرادته وتخطيطه ومشيئته، ولم يكن هناك مثيل للرسول ﷺ في التوفيق بين هذين الكتابين، أو بتعبير أصح فهمُ هذا التوفيق والتناسق بينهما وتطبيقه في الحياة.

ب- معركة أُحد: المرتقى الصعب

والآن لنرجع بعناية الله تعالى إلى أُحد لنتابع ذلك القائد الرائع والإنسان الكبير والنبي الذي لا مثيل له من زاوية معركة أُحد، والفطنة والفراسة التي أبداها هناك.

في أُحد تميز المؤمن عن المنافق والوفي عن الجاحد والشجاع عن اللئيم وعن الجبان، والمرتبطون بالنبي ﷺ ارتباطًا حقيقيًا عن الذين في قلوبهم مرض.. معركة أُحد هذه سيتم ذكرها على الدوام بنوع من الأسى.

في أحد الأيام وبينما النبي ﷺ يعتلي سفح جبل أُحد ألقى إليه نظرة طويلة ثم قال: «أُحد جبل يحبنا ونحبه»[1] وكأن هذا القول دفاع عن جبل أُحد يهب علينا من وراء أربعة عشر قرنًا لمن يحمل في قلبه أي شعور بالأسى نحو جبل أُحد. فرسول الله ﷺ لايريد منا إسناد الشؤم أو عدم الوفاء لجبل أُحد، لذا قال هذا القول ليكون بردًا وسلامًا للقلوب التي يحيط الحزن بها للجرح الذي أصاب كرامة المسلمين في هذه المعركة، وهو يريد منا البحث عن أسباب أخرى لتلك النتيجة. أجل، لم تجرح كرامة المسلمين في العهد النبوي في أي معركة مثلما جرحت في تلك المعركة، هذا صحيح ولكن السبب في هذا لم يكن جبل أُحد، بل إن جبل أُحد حفظ المسلمين وحماهم عندما أحاط بهم الذهول والاضطراب، احتمى المسلمون بجبل أُحد وتخلصوا بذلك من هزيمة تامة، هذا من زاوية الأسباب.

لقد كان السبب الحقيقي للهزة المؤقتة التي أصابت المسلمين يكمن في انسحاب بعض المنافقين من الجيش منذ البداية، وما أدى إليه هذا الانسحاب من أثر سيء في الروح المعنوية للمسلمين، ثم عدم إلتزام بعض الصحابة بالأوامر بالمستوى اللائق بهم، وظهور ميل عندهم إلى جمع الغنائم حتى وإن كان هذا الميل مشروعًا. ومهما يكن فلا شك أن

---

[1] البخاري، الزكاة ٥٤؛ مسلم، فضائل ١١.

هزة أصابت المسلمين يوم أُحد، ولكن ربط هذه الهزة بجبل أُحد لم يكن صحيحًا، لذا عبر الرسول ﷺ عن حبه لجبل أُحد لكي يزيل هذا الوهم من الأذهان.

والآن لنتناول موضوع ماذا حدث وكيف تم المجيء إلى أُحد وما هي الأسباب التي أدت إلى هذه المعركة، وهل كان من الممكن اجتنابها؟ لنبدأ أولاً بتحليل معركة أُحد لكي تبين كيف أن الرسول ﷺ كان قائدًا عسكريًا لا نظير له حتى في هذه المعركة التي بدت في نتيجتها وكأنها كانت معركة خاسرة.

لقد أدت هزيمة معركة بدر إلى إثارة حقد مشركي مكة وغيظهم ولاسيما عند أولئك الذين قُتل أقرباؤهم أو أبناؤهم، فهؤلاء كانوا يثيرون أهل مكة على الدوام ويحرضونهم على الانتقام وعلى أخذ الثأر.

ولم تكن جهود الإثارة منحصرة في مكة فقط، فقد كانت هناك جهود مبذولة في المدينة أيضا في هذا الاتجاه بوساطة كعب بن أشرف، وكان هذا يهوديًا يحاول إلقاء الفتنة بين المؤمنين بأشعاره التي يشبب بها بنساء المسلمين ويفتري عليهن، بل إنه لم يتورع من مد لسانه القذر إلى الرسول ﷺ نفسه، ومع أن المسلمين كانوا يحسون بضيق شديد من هذا الوضع إلا أنهم كانوا دائمًا يجابَهون بصبر الرسول ﷺ وحلمه ونظرته البعيدة.

بدأ المشركون أيضا بترتيب السرايا، فقد تعلموا هذا وبدأوا يحاولون بترتيب هذه السرايا التي كانت تقوم بأعمال النهب والسلب وإضعاف الروح المعنوية لأهالي المدينة. وكانوا أحيانًا ينجحون في هذا واستمر هذا طوال سنة بعد معركة بدر، وبدأ المكيون يضايقون أهل المدينة مضايقه الجراثيم للجسم، لذا كان من الضروري حفظ المدينة -المؤهلة لأن تكون مهدًا للمدنية- من جميع الجراثيم الضارة، وهذا ما فعله الرسول ﷺ. في هذه الفترة قُتل كعب بن الأشرف أعدى أعداء الإسلام، لأنه كان على رأس شبكة خائنة، فكان قتله ضروريًا وقام محمد بن مسلَمة بهذه المهمة.[1]

وبدأ يهود بني قينقاع بإثارة المتاعب، فقد تحرشوا بامرأة مسلمة، وفي حادثة الشعب التي أعقبت هذا التحرش قتل رجال من الطرفين، ولم يكتفوا بهذا بل قالوا للرسول ﷺ وهم مطمئنون إلى قلاعهم الحصينة: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لَتعلمَنّ أناّ نحن الناس. فتوجه إليهم الرسول ﷺ لأنهم برهنوا أنهم أناس لا يمكن الاطمئنان إليهم وأنهم على استعداد دائم لإثارة الشغب

---

[1] انظر: البخاري، المغازي ١٥-١٦؛ مسلم، الجهاد ١١٩؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٥٨/٣.

والمشاكل. وقد ندم اليهود على فعلتهم واضطروا إلى الاستسلام ولكن الرسول ﷺ أخرجهم من المدينة لأنه لم يكن مطمئنًا إليهم.[1] وبخروجهم أصبحت المدينة المنورة أكثر أمانًا.

في هذه الأثناء كانت مكة تغلي، فقد أقسم أبو سفيان أن لا يمس الطيب حتى ينتقم من المسلمين، حتى أنه أتى مرة إلى المنطقة التي يسكنها يهود بني النضير وأشعل النار في بيت أو بيتين من بيوت المسلمين ثم هرب إلى مكة.[2]

كانت شبكة الاستخبارات التي أسسها الرسول ﷺ تمده على الدوام بجميع الأخبار أولاً بأول، ومنها علم أن قريشًا قادمة إليه بقضها وقضيضها، برجالها ونسائها، وكذلك برجال من بعض القبائل الحليفة معها. فجمع الرسول ﷺ كبار مستشاريه واستشارهم في هذا الأمر.

كان من رأي الرسول ﷺ أن يبقى المسلمون في المدينة ليمارسوا حربًا دفاعية، فكما واجهت قريش في بدر استراتيجية لم تألفها، كذلك كانت ستواجه هنا استراتيجية أخرى لم تألفها أيضًا، إذ هيأت قريش نفسها لحرب ميدانية مستفيدة من تجربتها في بدر، لذا فلو بقي المسلمون في المدينة ليمارسوا حربًا دفاعية لما استطاعت قريش فرض حصار طويل على المدينة ولاضطرت إلى الرجوع إلى مكة بعد انتظار يائس حول المدينة. كان رأي الرسول ﷺ باختصار هو أن يبقوا في المدينة وأن يجعلوا الذراري في الآطام[3] فإن دخل عليهم القوم قاتلوهم في الأزقة ورموا من فوق البيوت.[4]

كان الرسول ﷺ يروم ما يأتي من هذه الاستراتيجية:

أ. إن الحرب لم تكن هدفًا من أهداف المسلمين، فهم ممثلون للأمن وللسلام.

ب. ولكن إن رام أحد الوقوف أمام نشر الحق فيجب إزالة هذا المانع ولا يترددون في هذا الخصوص عن تقديم أي تضحية.

ج. عندما يتعرض المسلمون للهجوم فإنهم سيحاربون دفاعًا عن الدين والعرض والشرف، وإذا لزم الأمر فإنهم يقتلون ويُقتلون من أجل هذه الغاية. وهذا من حقوقهم المشروعة.

كان من الضروري إعطاء مثل هذا الانطباع ومثل هذه الصورة عن المسلمين للناس الحيارى حولهم الذين كانوا يراقبون الأحداث الجارية.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٥٠/٣-٥٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٤.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٤٧/٣-٤٨؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤١٥/٣-٤١٦.

[3] الآطام: الحصون المبنية من الحجارة.

[4] السيرة النبوية لابن هشام، ٦٧/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٣/٤.

١. الشورى قبيل أُحد

كان الرسول ﷺ يريد أن يحارب حرب دفاع، ثم رأى رؤيا في منامه، فقال لأصحابه: «إني قد رأيت والله خيرًا، رأيت بقرًا ورأيت في ذباب سيفي ثَلْمًا[1] ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة» وكان تأويله لهذه الرؤيا: «فأما البقر فهي ناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يُقتل» كما أوّل الدرع بالمدينة، لذا رغب البقاء في المدينة. إذن، فقد نبه الله تعالى نبيه وأعطاه إشارة وإيماءة لكي تكون الحرب حربًا دفاعية، وأما الثلم فكان إشارة إلى استشهاد أسد الله حمزة ﷺ.[2]

ثم كان هناك أناس لم يشتركوا في معركة بدر، فكان هؤلاء يدعون من الله أن يرزقهم الشهادة، وقد قبل الله تعالى دعاءهم. فمثلاً: كان أنس بن النضر يقول: "أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبتُ عنه، وإن أراني الله مشهدا مع رسول الله ﷺ لَيَراني الله ما أصنع" ويدعو من الله تحقيق حلمه هنا ويستعجل لقاء الله وهو مضرج بدماء الشهادة، كان أمثال أنس يحملون هذه الرغبة التي لا تقاوم طوال سنة كاملة ويدعون من الله تحقيق أمنياتهم في الشهادة، وما كانت مثل هذه الأدعية أن ترد من قبل الله تعالى، ولم ترد في الحقيقة.[3]

كان عبد الله بن جحش وعمرو بن جموح وسعد بن الربيع ﷺ من هؤلاء الصحابة الذين ينتظرون الشهادة ويسعون إليها ويحلمون بها كل ليلة. ولا ننسى هنا الصحابية سُميراء رضي الله عنها وأبناءها. هؤلاء هم الذين رجحوا كفة الشورى إلى جانبهم في ذلك اليوم.

كان الرسول ﷺ يرغب أن يتبنى المجتمع مبدأ الشورى وأن يترسخ هذا المبدأ فيه وأن يحل كل المسائل به. كان عليه أن يتصرف هكذا لكي يحس كل فرد بأن القضية قضيته فيساندها بكل جهده لأنه اشترك في مناقشتها وأبدى رأيه فيها. صحيح أن رسول الله ﷺ كان مؤيدًا بوحي السماء، ولكنه مع هذا شاور أصحابه لكيلا يقول أحد من المسلمين فيما بعد لو أننا فعلنا كذا لكانت النتيجة كذا.. كان يتشاور مع أصحابه ويأخذ آراءهم ثم يطرح رأيه الشخصي.

ولكن المتحمسين من الشباب من الذين لم يشهدوا بدرًا قالوا: كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير. وقال رجل من الأنصار: متى نقاتلهم يا رسول

---

[1] الثَّلْم: الخلل أو الكسر.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٦٦/٣، ٦٧.

[3] البخاري، الجهاد ١٢؛ مسلم، الإمارة ١٤٨؛ المسند للإمام أحمد، ١٩٤/٣.

الله إذا لم نقاتلهم عند شعبنا؟ وقال حمزة ﷺ: والذي أنـزل عليك الكتاب لَنجادلنهم. وقال نعيم بن مالك: يا نبي الله لا تحرمنا الجنة فو الذي نفسي بيده لأدخلنها.[1]

لم يكن يريد تكرار استراتيجية استعملها سابقًا في المعركة الثانية، فعلى العدو أن يجابه في كل مرة مفاجأة جديدة، غير أن الشباب كانوا مصرين على الرأى الآخر، ودخل الرسول ﷺ ولبس للحرب وتقلد سيفه، وعندما رأى رجال من ذوي الرأى ذلك قالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ.. فلما خرج عليهم قالوا: "يا رسول الله! إن شئت فاقعد." ولكن لقد تم اتخاذ القرار ويجب ألا يُنكص عنه لأنه:

أولاً: كان يعني إجراء ضغط على أفكار الآخرين، وهذا يعني الدخول إلى دائرة مفرغة. ثم إن الرجوع عن قرار متخذ حسب أفكار ومشاعر الأفراد ليس من شيمة أي قائد اعتيادي ويُعد خطأ كبيرًا فكيف برسول الله ﷺ؟ فمن الطبيعي أن يتنزه الرسول ﷺ عن مثل هذا الخطأ.

ثانيًا: لو تم الدخول في حرب دفاعية وحدث شيء غير متوقع، أو ضرر غير منتظر لارتفعت أصوات بعض الذين عارضوا هذه الحرب، كان هذا احتمالاً واردًا على الدوام.

ثالثًا: النجاح والسمعة والغنائم التي تكتسب في أي حرب دفاعية لا يمكن قياسها بما يتم الحصول عليه من الحرب الميدانية، وكان من الممكن استغلال هذا الأمر من قبل غير الراضين. لكل هذه الأسباب وما يشابهها فقد قال الرسول ﷺ: «لا ينبغي لنبي يلبس لأْمَتَهُ فيضعها حتى يحكم الله»[2] ذلك لأن الله تعالى عندما يقول له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران:١٥٩) إنما يأمره بأن يكون شخصا غير متردد، ثابت القرار. أجل، فأي تردد سيقذف في قلوب تابعيه الخوف والقلق والتردد، وكل تحرك جديد سيؤدي إلى تشتت الآراء ويسوق الجمهور إلى أفكار مختلفة، وهذا يؤدي إلى التحلل والتبعثر.

صحيح أن رسول الله ﷺ كان يود البقاء في المدينة، والدخول في حرب دفاعية. ولكن عندما رجحت كفة الحرب الميدانية في أثناء إجرائه الشورى قرر تنفيذ ما استقرَّ عليه نتيجة المشورة، ولم يكن من المناسب الرجوع عن هذا القرار مهما كانت النتائج. فلو كلفه تثبيت أسلوب الشورى سبعين ألفًا وليس سبعين شخصًا لما تردد في سلوك هذا الطريق.

كانت معركة بدر نصرًا خالصًا، وكانت معركة أُحد نصرًا كنصر بدر في الأقل.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٦٧-٦٨؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٤-١٥.

[2] البخاري، الاعتصام ٢٨؛ الدارمي، الرؤيا ١٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣/٣٥١.

٢. نحو أُحد

أصدر الرسول ﷺ أمرًا فوريًا بالتوجه نحو أحد، سيأخذ الجنود مواضعهم في أُحد وبذلك يمنعون الأعداء من الهجوم على المدينة. وسيضعون النساء والأطفال في أماكن آمنة، فإن دخل الأعداء إلى المدينة فسيطوقون من الخلف وستشل حركتهم. صحيح أن القرار صدر آنيا ولكن كانت هناك استراتيجيات بديلة.

عندما وصلوا إلى سفوح جبل أُحد أخذوا مواضع القتال، كان عدد المسلمين يبلغ ٧٠٠ رجلٍ، وكان عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول بالرغم من مشاركته في الخروج للحرب قرر الرجوع برجاله البالغ عددهم ٣٠٠ شخصًا بحجة أن المسلمين لم يأخذوا برأيه،[1] كان عدد المسلمين اللابسين الدروع يبلغ المائة، وكانت الراية مع مصعب بن عمير ﷺ[2] والزبير بن العَوّام ﷺ على رأس الفرسان، وحمزة ﷺ على رأس الراجلين.

وضع الرماة في مكان حساس ومهم، ليمنعوا الأعداء من الالتفاف خلف المسلمين ووضع على رأسهم عبد الله بن جبير ﷺ. وقال له رسول الله ﷺ: «اِنْضَحِ[3] الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتَيَنَّ من قبلك.»[4]

قام الرسول ﷺ بكل ما يجب القيام به. ففي هذه المرة لم يرتب جيشه على شكل صفوف بل سحبهم إلى سفوح أُحد على شكل قوس لكي يحيط بالأعداء ثم يهاجمهم بالرماة ثم يرمي وسط جيش العدو بأسود المسلمين الظامئين إلى الشهادة أمثال ابن جحش ومصعب بن عمير وأبي دجانة وأسد الأسود حمزة بن عبد المطلب ﷺ.

كان شعار المسلمين يوم بدر هو "أحد، أحد!" أما في يوم أُحد فكان "أَمِتْ، أمت!" لقد تمّ تغيير تكتيك المعركة وشعارها، هنا كان المسلمون يرومون المحافظة على أنفسهم في سبيل الله ورسوله أيضا مع محاولة إيقاع أقصى الإضرار بالأعداء.

تهيأوا للمعركة حسب الخطة الموضوعة، وهز رسول الله ﷺ سيفًا بيده قائلاً: «من يأخذه بحقه؟» سرت موجة من الحماسة لدى المسلمين، كان كل واحد منهم يتمنى أن يأخذ السيف، ولكن رسول الله ﷺ الذي كان يعرف كل واحد منهم أفضل من نفسه، كان يفتش

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٦٨/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٦/٤.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٧٠/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٨/٤.

[3] انضح: أي أرم رمياً حسناً.

[4] البخاري، الجهاد ١٦٤؛ أبو داود، الجهاد ١٠٦؛ المسند للإمام أحمد، ٢٩٣/٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٧٠/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٧/٤.

بعينيه عن صاحب هذا السيف، فإذا بأبي دُجانة يسأل: وما حقه يا رسول الله ﷺ؟ فقال الرسول ﷺ: «أن تضرب به العدو حتى ينحني.» فقال أبو دُجانة: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه.

كان أبو دُجانة رجلاً شجاعًا يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء يعلم بها عند الحرب يعتصب بها، فيعلم أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فاعتصب بها، إذن، فمن يستطيع أن يقف أمامه، وفعلاً لم يستطع أحد أن يقف أمامه. ونحن نعلم أن الحوار المذكور أعلاه جرى بين الرسول ﷺ وبين أبي دجانة ﷺ[1] ولكن عندما انتهت معركة أُحد نعلم أن الكثيرين من جند الحق كانوا مثل أبي دُجانة ﷺ.

كان عبد الله بن جحش ﷺ يدعو من الله تعالى أن ييسر له مقابلة عدو يقتله، رحماك يارب! ما هذه الرغبة الأخروية الملتهبة في قلوب هؤلاء الأبطال! أما زئير حمزة ﷺ فكان يدخل الرعب حتى في قلوب الأسود.

كان إرسال فدائي الموت هؤلاء إلى صدر العدو خطة غير متوقعة من قبل قريش، فأبو سفيان الذي كان يتوقع حصول شيء شبيه بما حصل يوم بدر فوجئ بشيء جديد لم يره يوم بدر. وكانت صيحة المسلمين "أمت، أمت" يجعل المشركين يرتجفون ارتجاف من أصابته الحمى، ولأن المشركين لم يكونوا يتوقعون هذا فسرعان ما اندحروا، هذه هي الصفحة الأولى من معركة أُحد.

في هذه الصفحة الأولى كان رسول الله ﷺ قد وزع جيشه بين المدينة وجبل أُحد، أي وزع رجاله على سفوح جبل أُحد جاعلاً هذا الجبل في ظهره، ووزع الرماة في مكان مناسب قائلاً لقائدهم: «اِنْضَحِ الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتَينَّ من قبلك»

وفي رواية: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحو حتي أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم[2] فلا تبرحوا حتي أرسل إليكم.»[3] ثم أرسل أسوده إلى جيش العدو الذي سرعان ما اندحر وتقهقر.

اندحر العدو اندحارًا شنيعًا إلى درجة أنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم في خيم نسائهم،

---

[1] مسلم، فضائل الصحابة ١٢٨؛ المسند للإمام أحمد، ١٢٣/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٧/٤-١٨

[2] أوطأناهم: علوناهم وأهلكناهم وقتلناهم.

[3] البخاري، الجهاد ١٦٤؛ أبو داود، الجهاد ١٠٦؛ المسند للإمام أحمد، ٢٩٣/٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٧٠/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٧/٤.

واستطاع أبو دُجانة أن يصل إلى قلب جيش العدو حيث كانت هند زوجة أبي سفيان هناك على أساس أنه موضع مصان. شاهد أبو دُجانة شخصاً يحمس الناس تحميساً شديدًا، فلما حمل عليه السيف ولول فإذا امرأة، يقول أبو دُجانة: "فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة"[١]

أدى الصحابة الدور المعهد إليهم بنجاح كبير وقاموا بواجبهم على أتم وجه فرضي الله عنهم أجمعين. وشرحت سورة آل عمران ما قام به هؤلاء من نضال وكفاح ورسمت لوحات البطولة فأعطت أمثلة عن الأنبياء السابقين والأبطال الذين أحاطوا بهم، وفي أثناء رسم هذه الصورة تقوم بإيماءات إلى الأبطال الذين أحاطوا برسول الله ﷺ حيث تقول: ﴿وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٤٦-١٤٨).

هذه الآية تتحدث عن الربانيين، ولكن إن نظرنا إلى الموضوع من ناحية تكرار التاريخ لنفسه فإنها تشير إلى الذين حاربوا في أُحد، فهذه الآيات نزلت بمناسبة معركة أُحد.

٣. مراحل أُحد

هناك ثلاث لوحات في أُحد.

أ – اللوحة الأولى

وهي اللوحة التي تعكس نجاح القرارات السريعة التي اتخذها رسول الله ﷺ، صحيح أنه تم إعطاء بعض الشهداء في هذه المرحلة، غير أن أبطال المسلمين أمثال حمزة وأبي دجانة وعبد الله بن جحش ﷺ حصدوا المشركين حصدًا، ونالوا نصرًا واضحًا وهزموا المشركين هزيمة نكراء.

حتى أن نساء المشركين حاولن إيقاف هروب المشركين صارخات فيهم ومتوسلات ألا يهربوا، لأن الهروب لا يليق بهم، ولكن لم تجدِ هذه الصرخات في إيقاف هروب جنود مكة.

تذكر المصادر التاريخية الموثوقة بأن عدد المسلمين في هذه المعركة كان سبعمائة مقاتل بعد انسحاب المنافقين، بينما كانت قوة الأعداء تقرب من ثلاثة آلاف مقاتل، وهذا

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٠٩/٦.

يعني أنهم كانوا أكثر من أربعة أضعاف المسلمين. أي أن كل مسلم كان عليه أن مقاتلة أكثر من أربعة من الأعداء في تلك المعركة. وكانت قريش قد جلبت معها النساء والأطفال، وكان هؤلاء يضربون الدف ويثيرون الجند.

كانت عدة جيش المشركين كاملة، ولكنهم مع كل هذا التهيؤ والاستعداد هُزموا أمام المسلمين كما هزموا يوم بدر. في هذه الأثناء وقع سهو كبير، وهو عدم رعاية الأوامر الصادرة. ونحن نطلق كلمة "زلة" على هذا التصرف، ذلك لأن أصحابها كانوا من المقربين إلى الله تعالى إلى درجة كأنهم يرونه تعالى، كانوا مؤمنين ويعيشون الإسلام بالعمق الأخروي إلى درجة قد لا نستطيع نحن تصورها، كانوا يتعبدون الله تعالى وكأنهم يرونه، ويشاهدون كل شيء بشكل مختلف عما نشاهده نحن.. ولأنهم كانوا بهذا القرب كانوا محاسبين ومؤاخذين حتى على الأفكار التي تخطر على قلوبهم وعلى عقولهم. وكانت هذه الهزة امتحانًا للمقربين. أجل، لقد كان رسول الله ﷺ موفقًا حتى في أُحد وأنا لا أعد معركة أُحد هزيمة مثلما يعدها بعض المؤرخين. وأعد كلمة "هزيمة" كلمة ثقيلة وجارحة، وأفضل أن أقول في حقها: إنها هزة حدثت في مرحلة من مراحل معركة أُحد.

ب - اللوحة الثانية

كانت الهزيمة قد حاقت بالعدو الذي بدأ بالهرب بشكل فوضوي، وكشيء طبيعي تذكر المسلمون معركة بدر، فقد هرب العدو يومذاك أيضا مثل هذا الهرب، لذا فقد ظنوا أن الأمر قد حسم لصالحهم مثل ذلك اليوم، وأن الدور الآن هو دور جمع الغنائم. فالجمال والخيول كانت هناك تنتظرهم بعد أن هرب العدو وترك كل أمواله، ولم يكن هناك في الظاهر أي مانع من جمع هذه الغنائم، لذا فقد اشترك الرماة أيضا في جمع الغنائم، ومع أن عبد الله بن جبير ﷺ ذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ إلا أنهم لم يفهموا المعنى الدقيق للأمر لأنهم لم يفسروا الأمر أو يفهموه على أنه يجب البقاء في أماكنهم حتى نهاية المعركة.. وها هي المعركة قد انتهت وانهزم الأعداء، كان من المحال في نظرهم أن يقوم جيش مهزوم بلم صفوفه والرجوع ثانية إلى القتال. هذه هي اللوحة الثانية لمعركة أُحد.

ج - اللوحة الثالثة

كان ترك الرماة أماكنهم يعني إحداث ثغرة في الجبهة، وما كان هناك احتمال أن يفوت هذا الأمر عن نظر قائد عبقري مثل خالد بن الوليد، لقد سنحت له الفرصة المواتية.

كان المسلمون آنذاك قد أغمدوا سيوفهم، وانشغلوا بجمع الغنائم، كما انسحب قسم

منهم لأخذ قسط من الراحة في خيامهم. انقض خالد مثل الصاعقة وقتل بضعة أنفار من الرماة الذين بقوا في أماكنهم ولم يبرحوها والتف حول المسلمين من الخلف.. أخذ المسلمون على غرة تمامًا.. علمًا بأنهم كانوا قد فقدوا التوتر النفسي الضروري لجو المعركة، وهذا أفاد خالدًا وسهل له عمله، فاستغل هذه الفرصة وحقق هذا الهجوم المباغت.

من المفيد هنا الإشارة إلى نقطة أخرى، وهي أن المسلمين عندما توجهوا إلى أُحد توجهوا وهم يحملون شرخًا، فالرسول ﷺ كان يريد البقاء في المدينة غير أنهم أصروا على الخروج، وكان هذا يشكل شيئًا سلبيًا بالنسبة لهم، ثم إن الرسول ﷺ أمر الرماة بالتزام أماكنهم وعدم تركها ولكنهم تركوها، وهذه كانت زلة أخرى، والقرآن الكريم يتناول هذا الموضوع فيقول عن هذه الزلأت: ﴿.. إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ (آل عمران:١٥٥)، أي قيل لهم في البداية أن يبقوا في المدينة فأصروا على الخروج منها، وقيل للرماة في أثناء الحرب، ابقوا في أماكنكم فلم يبقوا فيها، وتركوها لجمع الغنائم أو لمساعدة الآخرين في جمع الغنائم. فعدم استماعهم إلى النصيحة الأولى أدخل المسلمين إلى دائرة مفرغة من الأخطاء، وأدى إلى الخطأ الثاني أو الزلة الثانية، ولو لم يمنع الله تعالى دوام عمل هذه الدائرة المفرغة لتعاقبت الأخطاء، ولكنه أراهم أن رحمته سبقت غضبه، فنشر رحمته على تلك الجماعة المقربة إليه.

ثم إنهم انشغلوا بجمع الغنائم على وهم أن المعركة قد انتهت، والحقيقة أن هذا العمل قد يعد عملاً اعتياديًا ولا شائبة فيه، ولكنه يعد زلة بالنسبة للأشخاص القريبين من الله تعالى -أي المقربين- حتى أن الله تعالى نبه نبيه وحبيبه على فعله في أخذ الفدية من أسرى بدر،[1] فبكى النبي ﷺ والصديق من هذ التنبيه ورآهما عمر ﷺ على هذه الحال فبكى لبكائهما.[2] لم يكن هؤلاء يميلون إلى الدنيا وما كان لهم أن يميلوا. بل كان عليهم أن ينبذوها.. إن أخذ الغنائم بالنسبة لأمثالنا شيء لا غبار عليه، غير أن قيام المقربين بجمع الغنائم من ذلك الميدان المضرج بدماء الشهداء سيؤدي في المستقبل إلى إحساسهم بندم كبير، ولكن شاء الله تعالى بتأديبه العاجل لهم أن يصونهم من تلك العاقبة.

---

[1] قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُم عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٧-٦٨).

[2] مسلم، الجهاد ٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣١/١-٣٢.

ولكن فتحت هناك ثغرة أخرى. أجل، فكل مصيبة تُنسي المصيبة السابقة، فكأن المصائب بدأت تأتي وهي تتضاعف وتتزايد، فالمصيبة الأخرى التي كانت أعظم من كل المصائب السابقة كانت حصار المشركين لرسول الله ﷺ وانتشار نبأ استشهاده. وقع هذا النبأ كصاعقة أنست جميع المصائب السابقة. ولكن الله سلم إذ التف حول الرسول ﷺ جدار حصين من اللحم والعظم من المسلمين الذين سمعوا صوته قبل وصول الأعداء إليه. فكم من امرأة تحمل في يدها قرب الماء أو ضماد الجرحى خرجت لسقي المسلمين ومداواة جرحاهم أسرعت لنجدة الرسول ﷺ. كانت أم عُمارة رضي الله عنها على رأس هؤلاء النسوة تسقي المسلمين وتضمد الجرحى. كان المنظر الذي رأته يجمد الدم في العروق.. كان الحصن المكون من اللحم والعظم حول الرسول ﷺ يتساقط شيئا فشيئا والأيدي الخائنة تتقدم نحوه خطوة فخطوة. كان واضحًا أن من المستحيل الوصول إلى الرسول ﷺ قبل أن يقطع هذا الحصن من اللحم والعظم أشلاءً وقطعًا.. كان كل سيف حاقد يسل من أجله، وكل سهم حانق يُرمى وكل رمح يُصوب نحوه، ولكن جميعها كان يصطدم بجسد مؤمن من المؤمنين المحيطين به، وجاءت لحظة لم يبق هناك ذراع لم تُبتر أو رأس لم يُقطع وبدأت جماعة من المشركين الحانقين يتقدمون نحوه، فقال الرسول ﷺ: «من لي بهؤلاء؟»

فرمت نسيبة رضي الله عنها ما بيدها وهرعت إليه قائلة: "أنا يا رسول الله!" أخذت مكانها في موقف الدفاع عنه وبدأت تذب عنه بسيفها ذات اليمين وذات الشمال، كانت قد أتت لمداواة الجرحى ولكن عندما اشتد الخطب انقلبت إلى لبؤة كاسرة، وبينما هي تقاتل عن الرسول ﷺ رأت ابنها وقد بترت ذراعه بضربة سيف، أسرعت نحوه وربطت جرحه ثم قالت له: "اذهب فقاتل أمام رسول الله" ثم رجعت إلى مكانها، كانت تقاتل قريبة من الرسول ﷺ حتى أنها تسمع همسه، ثم أصيبت بجرح غائر وعميق في ظهرها، كانت قد أرسلت ابنها للقتال وها هي تقاتل بالقرب من الرسول ﷺ، فقال لها الرسول ﷺ: «من يطيق ما تطيقين؟» فقالت له: "ادع الله أن يجعلني معك يا رسول الله!" فدعا الرسول ﷺ ربه أن يجعلها معه في الجنة،[1] فلما سمعت بدعاء الرسول ﷺ لها قالت بأنها تستطيع أن تقاتل أمامه حتى يوم القيامة.

كانت حياة هذه الصحابية سلسلة متصلة من المفاخر، فقد بايعت النبي ﷺ في العَقَبة ودعته إلى المدينة، وكانت سببًا في إسلام أفراد بيتها جميعًا، وقاتلت أمام النبي ﷺ في أُحد،

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٨٩/٣-٨٧؛ الإصابة لابن حجر، ٤٧٩/٤.

وواجهت الموت في سبيله مواجهة الأبطال.. وعندما نزلت آية الحجاب حزنت لأنها رأت أنها لن تستطيع الاشتراك في الجهاد الفعلي بعد ذلك، وعندما ظهر الأنبياء الكذبة اشتركت في معركة اليمامة وتركت هناك ذراعها وابنها وعادت. أجل، لقد عاشت مراحل صعبة تفوق طاقة أي امرأة.[1]

كان أنس بن النضر -عم أنس بن مالك- يقاتل في أُحد ويصيح بالمسلمين الذين ظنوا أن الرسول ﷺ قد قتل: "فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ"[2] تمت التحشيدات الأولى هنا، حيث رد هجوم الأعداء.. انتهت الهزة، وبدأ الرسول ﷺ يصدر أوامر جديدة إلى أصحابه الذين لم يفهموا سر أوامره الأولى، ويتبع استراتيجية جديدة، وهنا أمر الرسول ﷺ بالبحث عن سعد بن الربيع، فذهب رجل من الأنصار فوجده جريحًا وبه رمق، فسأل عن حاله فقال: "أنا في الأموات، فأَبْلِغْ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف" وبقى الأنصاري بجانبه حتى جاد بروحه، ثم جاء النبي ﷺ فبلغه حديث سعد.[3]

من الطبيعي أن الذين دعوا الله لنيل شرف الشهادة قد أجيبت دعواتهم، فقد دعا أنس بن النضر ودعا عبد الله بن جحش ودعا حمزة بن عبد المطلب، دعا هؤلاء فاستجيبت دعواتهم وطاروا إلى السماء شهداء، أما الذين بقوا ولم يستشهدوا فقد غرقوا في لجة من الدماء.. كانت أُحد تبكي دمًا.. وكان هناك بكاء من نوع آخر.. بكاء القلوب التي ظنت أن رسول الله ﷺ قد قُتل.. فارت القلوب أسى وحزنًا من أثر هذه الشائعة إلى درجة اهتزت منه روحهم المعنوية، وفكر بعضهم في الرجوع إلى المدينة لتهيئة مقاتلين آخرين وجلبهم إلى المعركة، وكان لبعضهم آراء وخطط أخرى فأخذوا يتحركون ذات اليمين وذات الشمال.. وبينما كانوا في أوج الذهول والاضطراب إذا بهم يسمعون صوت كعب بن مالك وهو يجلجل:

"يا معشر المسلمين! أبشروا، هذا رسول الله"[4] كانت هذه الصيحة بمثابة البعث بعد الموت في يوم أُحد إذ اسرع المسلمون إليه، وهنا تم التحشد الثاني، أي حول المكان الذي كان الرسول ﷺ موجودًا فيه.. هنا تكون سور آخر من اللحم والعظم، فبعضهم كانوا يحمونه

---

[1] الإصابة لابن حجر، ٤٧٩/٤.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٨٨/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٩/٤.

[3] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٥/٤-٣٦؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٠/٣-١٠١.

[4] السيرة النبوية لابن هشام، ٨٨/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٩/٤.

بأجسادهم، وبعضهم كان يحاول إخراج حلقتي المغفر من وجنتيه، ويحاول بعضهم تجميع المسلمين هناك، ولكن الجميع كانوا يحاولون صيانة الرسول ﷺ كما يصون المرء عينيه،[١] لم يكن هناك أحد لايفدي سنًا واحدةً للرسول ﷺ بحياته.. التفوا إذن، حوله مرة أخرى، أقسموا بأنهم لن يتركوه أبدًا بعد الآن.. وأمسك الرسول ﷺ والقائد الكبير بزمام الأمور بيده مرة أخرى، وليبدأ بتطبيق استراتيجية أخرى لا تؤثر فيها الأخطاء السابقة التي وقعت، لذا انسحب بهدوء مع المسلمين المحيطين به إلى خلف جبل أُحد ليهيئ هناك خطة تشكيل قوة جديدة، أي بدأ بالتخطيط للمرحلة أو اللوحة الثالثة التي ستنتهي بالنجاح.[٢]

٤. من الهزة إلى النصر

هذه اللوحة الثالثة كانت نصرًا واضحًا.. كانت نصرًا لأن العدو تراجع للوراء وطاردهم المسلمون.. والحقيقة أن أبا سفيان نوى ترتيب هجوم آخر على المسلمين إذ نوى الهجوم على المدينة، ولكن صفوان بن أمية قال له: لا تفعلوا، فإن القوم قد حربوا[٣] وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا، فرجعوا.[٤]

إذن، فبعد ما ظهر أنه خسران للمعركة، فقد حصل الرسول ﷺ على نصر واضح. وبهذا فكأن القدر كان يريد أن يلقن الصحابة الدرس التالي: إن الله تعالى وهب نبيه وحبيبه نصرًا مباشرًا بفضله وكرمه وعنايته، أما سيوفكم فليست سوى أسباب ظاهرية، وإلا فإن الله تعالى هوالذي ينقل رسوله من نصر إلى نصر.

هذه هي الانتصارات التي تحققت في بداية معركة أُحد ثم في نهايتها، بينما كانت هناك هزة عنيفة ولكن مؤقتة في وسطها.. ولكن الله تعالى لم يتخل عن رسوله حتى في أصعب اللحظات ولم يتركه وحيدًا بل أعطاه النصر الذي وعده، والآية الكريمة التالية تتناول هذا الموضوع: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَا تُحِبُّونَ مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمَّاً بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا

[١] البخاري، المغازي ٢٤؛ مسلم، الجهاد ١٠١.
[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٨٨-٨٩؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٩/٤.
[٣] حربوا: غضبوا.
[٤] السيرة النبوية لابن هشام، ١١٠/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٥٨/٤.

أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران:١٥٢-١٥٣)، هناك مقاولة بينكم وبين الله، فالله تعالى يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة:٤٠) ولن يخل الله بهذا العهد، ولكن إن أخللتم به أخل الله أيضًا. ويقول إن الله تعالى حقق وعده في أُحد إذ كنتم تقتلون الكافرين بإذنه وبمشيئته، ولكنكم فشلتم عندما تنازعتم في الأمر وعصيتم، فبدلاً من الصبر قليلاً، فقد استعجلتم جمع الغنائم ولم تنتظروا الأوامر. أجل، فسيد الأنبياء كان في خيمته وينتظر الوقت المناسب لإعطاء هذه الأوامر، ولكنكم استعجلتم ودخل النزاع بينكم، فكل قرار جديد سيؤدي إلى تشتت الآراء وتظهر مختلف الآراء حيث يسلك كل صاحب رأي طريقًا خاصًا به، فتنهار الوحدة والتماسك وعندما أراكم الله ما تحبون ظهر منكم العصيان، بينما لا يليق هذا بكم لأنكم من المقربين وقد يجوز للآخرين، ولكن لا يجوز لكم وأنتم موجودون حول هالة الرسالة النبوية، وتأخذون دروسكم من الرسول ﷺ مباشرة وتحضرون مجالسه وتسمعون إرشاداته، وقد سبق وأن اكتسبتم رضوان الله تعالى وعندما رأيتم شيئًا مما تحبون -كان هذا عرضًا من أعراض الدنيا وغير ذي أهمية- ملتم إليه ولكن الله أخذه من أيديكم وحرمكم منه، ولو أنكم استهدفتم الآخرة لأقبلت إليكم الدنيا أيضًا، ولكنكم ملتم إلى الدنيا بوجه من الوجوه، كان عليكم أن تركزوا جهودكم لطلب الآخرة، أما الدنيا فكانت ستقبل عليكم كنتيجة طبيعية، أي لو أنكم طلبتم الآخرة لأقبلت إليكم راكضة وراءكم، ولكن لا تنسوا أن الله قد عفا وصفح عنكم.

كان الرسول ﷺ قد أحرز ما يمكن أن نعده نصرًا بعد تلك الهزة العنيفة، فقد توجه أبو سفيان وجنده سريعًا إلى مكة بعد أن ألقى النبي ﷺ في قلوبهم الرعب، أما الرسول ﷺ فقد رجع إلى المدينة.

ج- نحو حمراء الأسد

بعد رجوع الرسول ﷺ إلى المدينة، وصلته أخبار من مكة بأن أهل مكة بدأوا يتلاومون فيما بينهم حتى قال أحدهم: لم تصنعوا شيئا، أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم.[1]

كان رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة لتوه عندما جاءته الأنباء بأن أبا سفيان مقبل على المدينة، وذلك قبل أن يجد الجرحى وقتا كافيًا لتضميد جراحهم، وكان من المنتظر وفاة

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٥٧/٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٧/٣.

العديد منهم متأثرين بجراحهم. وكان قسم من الجرحى في وضع لا يستطيعون معه الحركة أو السير، ومع ذلك قاموا بالسير نحو حمراء الأسد.. كانت هذه خطوة تهديدية من قبل الرسول ﷺ ضد مشركي مكة لإخافتهم وشل حركتهم، وأعلن في المدينة: «لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال»[١]

على إثر هذه الدعوة قام الجرحى حتى أصحاب الإصابات البليغة المنتظرين للمداواة والعلاج.. قاموا من الفراش وكأنهم أموات بعثوا من القبور، وتجمعوا في المكان المعين لهم.. أجل، لقد بعثوا عندما سمعوا صوت النبي ﷺ وهو يناديهم وكأنهم يصدقون قول الشاعر البوصيري:

لو ناسبتْ قدرَه آياتُه عِظما أحيا اسمه حين يُدعى دارس الرِّمَم

ولا يذكر التاريخ لنا أن رجلاً واحدًا بقي دون إجابة دعوة الرسول ﷺ، كان من بين هؤلاء من فقد يده أو رجله، فخرج وهو يعرج أو يجر نفسه جرًا بكل عناء. يقول أحد الصحابة من الذين شهدوا معركة أُحد: "شهدت أُحدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحًا، فكان إذا غلب حملته عُقبة ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون."[٢]

وعندما بلغت أخبار هذه المسيرة إلى قريش ارتعبت، ولم يضيع أبو سفيان وقتًا، إذ سرعان ما وجد السلامة في الهرب، لذا فإن الجيش المسلم الذي خرج مما بدا أنه هزيمة وصل إلى حمراء الأسد وهو يطلق صيحات النصر، وبقي هناك ثلاثة أيام هي أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ارتاح هناك وضمد جراحه المادية والمعنوية ثم رجع إلى المدينة.

لم يتضرر أحد في هذه المسيرة، ولكن أبا سفيان مع ادعائه أنه أحرز نصرًا على المسلمين ما إن سمع بأن رسول الله ﷺ متوجه إليه بجيشه حتى ذعر وأسرع بالهرب إلى مكة، وكان هذا سببًا في خيبة الأمل عند جميع أفراد الأعداء.[٣] وأنا أتساءل الآن: أيّ جانب يعد هو الجانب المنتصر في يوم أُحد وأيهما المغلوب؟ هل المنتصر قريش الهاربة أم جيش

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٧/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٥٦/٤ وما بعدها.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ٥٦/٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٧/٣.

[٣] البداية والنهاية لابن كثير، ٥٨/٤-٥٩؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٨/٣.

المسلمين المهاجم؟ ليس هناك قائد عسكري آخر يستطيع قلب الهزيمة إلى مثل هذا الانتصار الواضح، إذ نجد هنا البصمة الواضحة لفطنة رسول الله ﷺ وختمه.

أيها القارئ الكريم! لقد حاولت تقييم استراتيجية الرسول ﷺ في معركة بدر وأُحد، لقد حاولت ذلك وعبرت عنه بلسان شخص غير مختص في هذا الموضوع، لأنني اضطررت إلى ذلك، فإن رأى القارئ في كلامي عيبًا، فإنني أرجو المعذرة منه وأرجو العفو والصفح من الله تعالى.

١. الاستراتيجية المتغيرة على الدوام

والآن سأحاول عرض الموقف في بدر وفي أُحد الذي كانت بدايته ونهايته نصرًا، وكان وسطه هزة، وذلك بشكل موجز.

استعمل الرسول ﷺ تكتيكًا في بدر، وتكتيكًا آخر في أُحد، وآخر في معركة الخندق، وفي كل معركة خاضها كان له فيها تكتيك خاص، وهذا الأمر كان يقلب توقعات الأعداء، ويجعلهم في حيرة من أمرهم، كما أدى هذا إلى تقليل خسائر المسلمين، فمجموع عدد الشهداء المسلمين في جميع المعارك التي خاضها الرسول ﷺ كان مائة ونيفًا فقط. لقد كان زعيمًا لا مثيل له، عاش المسلمون في عهده في عهد سعادة حقيقية لا يمكن أن تتكرر. تصوروا أنه أعلن الحرب على الجميع بدءً من عمه إلى العرب وإلى العجم، وأنه على الرغم من قيامه بكل تلك الحروب، وبإنجاز كل تلك الأعمال المهمة فإنه لم يعط إلا خسارة ضئيلة جدًا.

أجل، لقد استعمل تكتيكًا آخر غير الذي استعمله في بدر، فقد اختار في أُحد فدائيين معينين أعطى لهم مهمات خاصة. وعين موضعًا خاصًا للرماة ليمنع هجوم العدو من الوراء، ونظم بنفسه وبيده الكريمة الصفوف، وأثار فيهم الحماسة وشعور المنافسة، أي تصرف تصرفًا أثار به شعور الغبطة في نفوس الصحابة نحو بعضهم، فمثلاً أعطى أبا دجانة ﷺ سيفًا ليستعمله بحقه، وعندما بدأ أبو دجانة يتبختر بين الصفين بعد أن اعتصب بعصابته الحمراء قال الرسول ﷺ: «إنها لَمِشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن.»[1]

وانطلاقًا من هذا قال بعض الفقهاء: إن من المستحب أن يربي الجنود المقاتلون شواربهم، لكي يكونوا أشد رهبة في قلوب الأعداء، وقالوا: إنه كلما أظهر الجنود عدم

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٧١/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٧/٤-١٨.

اكتراثهم بالموت في جبهة القتال، وكلما تفاخروا بذلك أو تبختروا كلما كان ذلك أفضل.

لم يستعمل الرسول ﷺ هذا التكتيك في بدر، ولكنه استعمله في أُحد، ودفع الصحابة للمنافسة والتسابق. كان الجميع يتمنون أن يعطي الرسول ﷺ لهم ذلك السيف الذي أمسكه بيده، ولكنه أعطى هذا السيف إلى أبي دجانة ﷺ، وهذا جعل الفدائيين الآخرين يستقتلون في الحرب، وأصبح كل منهم مثل أبي دجانة ﷺ.

والشيء الآخر الذي طبقه في أُحد ولم يطبقه في بدر هو وجود النساء في أُحد، وقد ذكرنا البطولة التي أبدتها الصحابية نسيبة رضي الله عنها. ولا نعرف على وجه اليقين عما إذا كانت فاطمة رضي الله عنها قد اشتركت في القتال، ولكننا نعلم من المصادر التاريخية الموثوقة أنها قامت بمسح الدماء عن وجه أبيها، وعندما رأت أن مسح وجهه بالماء يزيد من تدفق الدم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم.[1] إذن، فقد أحضر الرسول ﷺ بعض النساء إلى أحد لمساعدة الجرحى ولرفع الروح المعنوية عندهم.

٢. أسباب الهزة المؤقتة في أُحد

يجب الاعتراف بأن شروخًا حصلت في الفترة بين لوحتي النصر في أُحد، ونستطيع ذكر أسبابها:

السبب الأول: فضّل الرسول ﷺ منذ بداية الأمر البقاء في المدينة وتطبيق خطة دفاعية، ولكن حماسة الصحابة منعتهم من إدراك السر الدقيق في إطاعة هذا الأمر، بينما كان المفروض عليهم الطاعة المطلقة لأوامر الرسول ﷺ. ويمكن ذكر الشيء نفسه بالنسبة للرماة في أثناء المعركة، وهذه المعارضة لأوامره -وإن كانت مؤقتة- كونت هذه الهزة.

السبب الثاني: دخل هؤلاء الناس في تناقض مع عالمهم الداخلي ومع فطرتهم، فالميل إلى الدنيا لم يكن من شيمتهم، وقد أثبتوا هذا عندما تركوا كل ما يملكون في مكة وهاجروا إلى المدينة. ولما كان الانشغال بالغنيمة وبأموال الدنيا في تلك الساعة التي كانوا في أقرب موقع من الآخرة يُعد غفلة بالنسبة للمقربين، فإن الله تعالى أراد أن يعاقب هؤلاء المقربين -بل أقرب المقربين- عقابًا بدنيًا. وكان هذا عقابًا خاصًا لأناس وصلوا إلى مستوى الصحابة. أجل، فما يمكن أن يعد حسنة وثوابًا بالنسبة لأمثالنا يعد ذنبًا بالنسبة إليهم، وذلك على قاعدة: "حسنات الأبرار سيئات المقربين."

---

[1] البخاري، الوضوء ٧٢، الجهاد ٨٠.

السبب الثالث: ويمكن أن نعد وجود عبقرية عسكرية كخالد بن الوليد في الصف المقابل من أهم أسباب تلك الهزة.. فالله تعالى حافظ على صفة الانتصار الدائم لخالد بن الوليد، الذي قدم فيما بعد خدمات جليلة للإسلام، وهذا كان يعني مكافأة عأجلة لحسناته الآجلة، ذلك لأن الشجاعة والإقدام الذي كان ينفثه هذا العنوان أو هذه الصفة -عنوان سيف الله أو صفة الانتصار الدائم- سينقض فيما بعد على رؤوس الروم والفرس انقضاض المطرقة.. فلو هُزم خالد في هذه المعركة، لكان من الممكن ألا يستطيع خدمة الإسلام بتلك الروح العالية.[١]

السبب الرابع: كانت هناك دعوات حارة وملتهبة من قبل الذين لم يستطيعوا الاشتراك في معركة بدر، كانوا يدعون من الله على الدوام أن يمنحهم الشهادة، وقد قبل الله تعالى هذه الأدعية واستجاب لها، ومنحهم هذا الوسام الرفيع. ففي أثناء الهزة التي حدثت في أُحد عندما شاهد أنس بن النضر ﷺ الذين هزتهم شائعة وفاة الرسول ﷺ واضطرابهم قال: "يا قوم، إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد ﷺ لم يُقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ، اللّهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء" ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل، لأنه كان يستعجل لقاء الرسول ﷺ الذي ظن أنه استشهد.[٢]

أجل، لقد استُجيبت أدعية جميع من طلب الشهادة تقريبًا، ثم من طلب الشهادة بحق وحرم منها؟ إذ بعد عصور عديدة دعا السلطان مراد الأول ربه قبيل معركة "كوسفو": "اللّهم اجعل أمة محمد عزيزة الجانب، واجعلني شهيدًا"، واستجاب الله لدعائه، إذ حصل المسلمون على نصر ساحق حيث استشهد السلطان وهو يجول بين القتلى في ساحة المعركة بعد انتهائها بخنجر الصِّربي "ميلوش"[٣] أي تحقق الشق الثاني من دعاء ذلك الإنسان العظيم، فاستشهد وذهب إلى رحمة ربه. فالله تعالى يتقبل هذه الأدعية الصادرة من أعماق القلوب. لذا، استجاب الله تعالى في موقعة أُحد لكل هذه الأدعية المتكررة من قبل الصحابة بالاستشهاد، وظهر من استشهاد كل هذا الجمع منهم وكأنه انكسار لجيش المسلمين.

السبب الخامس: كانت معركة أُحد معركة بين صحابة الحاضر وصحابة المستقبل، أي كانت معركة بين رجال أسلموا وأصبحوا صحابة الرسول ﷺ وبين رجال سيصبحون في

---

[١] اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٤١ (اللمعة السابعة).

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٨٨/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٥/٤، ٣٦؛ البخاري، الجهاد ١٢.

[٣] كان "مِيلوش" أميراً صِربياً وجرح في المعركة جرحا خفيفا، وقال إنه يريد مقابلة السلطان لكي يعلن إسلامه أمامه، وكان يخفي في ملابسه خنجراً أغمده في صدر السلطان عندما اقترب منه. (المترجم)

المستقبل من الصحابة، وسيلعبون أدوارًا مهمة في الفتوحات الإسلامية في المستقبل، من أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة وابن هشام. فلكي يتحول هؤلاء الذين ما كانت فطرتهم وطبيعتهم تتحمل الهزيمة إلى الإسلام دون أن تجرح كرامتهم كان لا بد من وقوع انكسار مؤقت في معركة أُحد.

السبب السادس: كان هناك درس في التوحيد في الهزة التي حدثت في أُحد، فالانتصار في معركة بدر كان من الممكن أن يزيد من حصة الأسباب الظاهرية لدى بعضهم. صحيح أن الإحساس بالفخر وبالعزة أمام الأعداء إحساس بريء، ولكن مثل هذا الإحساس وإن خطر ببالهم لحظة واحدة يعد بالنسبة للمقربين من أمثالهم سيئة كما قلنا هذا سابقًا. فالهزيمة أو النصر مرتبطان بمشيئة الله تعالى، وهو الذي أهدى لهم النصر في بدر، فإذا قام بعضهم بإسناد النصر إلى أنفسهم دون الالتفات إلى قضاء الله ومشيئته عد ذلك شركًا خفيًا. بينما كان هؤلاء بعيدين عن أخف شرك فراسخ عديدة، ومع أن الجميع كانوا مؤمنين بهذا ويتقبلونه على المستوى الفكري، إلا أن الله تعالى أحب أن يصل بالصحابة في هذا الموضوع إلى مستوى حق اليقين، فأحدث هزة عنيفة في صفوف المسلمين وهم في أوج النصر في معركة أُحد، وجعلهم في موقف المغلوبين، ثم أهدى لهم النصر في وقت لم يكونوا يتوقعونه أبدًا، مذكرًا إياهم بأن المشيئة والحكم له وحده: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:٢٦).

لقد ظهرت لهم معاني هذه الآيات بأجلى شكلها أمامهم في أُحد، إذ عاش المسلمون هذه المعاني عمليًا، ورأوا مشيئة الله وإرادته وهي تطبق أمام أعينهم. صحيح أنه قد جرى وحصل لهم بعض الأضرار البسيطة ظاهريًا، إلا أن ما تم اكتسابه في ذلك اليوم من زاوية الإيمان، ومن زاوية نور التوحيد الذي يضم في ثناياه سر الأحدية.. ما تم اكتسابه في هذا الموضوع خفف وأزال تلك الأضرار الظاهرية.

لا ينكر أحد أن للسيف حقه، وللتعبئة الصحيحة حقها، وأنها من الأسباب المؤدية إلى النصر، إلا أن الأساس هو إرادة الله ومشيئته، ذلك لأنه هو وحده القادر على كل شيء. أجل، فكأن الله تعالى كان يريد أن يقول للمؤمنين في أثناء تلك الهزة المؤقتة: لن تستطيعوا الوصول إلى شيء إن لم تأخذوا في حسبانكم قدرة الله تعالى وقوته، فها أنتم ترون أنه من الممكن أن ينقلب النصر إلى هزيمة، إذن، فكما أن قطف النصر محال إن لم

يشأ الله تعالى ذلك، كذلك لا يمكن الخلاص من الهزيمة إلا بمشيئته.

كل مؤمن يحتاج إلى أخذ مثل هذا الدرس العملي في التوحيد، ومن المحتمل أن الصحابة أصبحوا لنا ممثلين لمثل هذا الدرس الكبير. ثم إن مثل هذا العقاب المؤقت الذي أعطى للمؤمنين جزاء مخالفتهم للرسول ﷺ، قد نبه المؤمنين وجعلهم أكثر حذرًا وحساسية عند طرحهم لآرائهم في حضرة الرسول ﷺ، ومثل هذا الأدب الرفيع الذي اكتسبه المؤمنون لم يكن ربحًا وكسبًا بسيطًا أو هينًا: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران:١٤٠).

ولكن الأيام التي داولها الله تعالى كانت في الأغلب في مصلحة المؤمنين، وستكون كذلك في المستقبل، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف:١٢٨) أي أن القرآن الكريم يبشرنا ونحن نعيش هذه الفوضى الشاملة بمستقبل مشرق، وقد حدث هذا في أُحد أيضًا، ولكن النتيجة والعاقبة كانت نصرًا للمؤمنين. أجل، لقد كانت هناك هزة في أُحد، هزة كانت لها حكمها العديدة، ولم تكن هزيمة على الإطلاق، كلا فقد كانت معركة أُحد معركة انتصار وذات جوانب عديدة.

٣. إزالة روح الانكسار

بعد رجوع الرسول ﷺ من هذه المناورة إلى المدينة عقب معركة أُحد، استطاع أن يعيد للمسلمين روحهم المعنوية السابقة، أصبح المسلمون أكثر تجربة من السابق وأكثر حساسية وأكثر قابلية في فهم ما ينطوي عليه كلام الرسول ﷺ من دقة وحكمة.

غير أن الهزة المؤقتة التي تعرض لها المسلمون في المعركة سرعان ما ذاع خبرها حوالي المدينة مما أدى إلى زيادة طمع بعض القبائل العربية وبعض اليهود وتحريك شهيتهم. لذا، فقد أصبح من الضروري استعادة الكرامة التي جُرحت في معركة أُحد، وإظهار مدى قوة المسلمين وبأسهم الحقيقي، ولم يكن هذا العمل يتحمل أي تأخير على الإطلاق.

في السنة الرابعة للهجرة توجه الرسول ﷺ نحو بني النضير الذين تعاونوا مع مشركي مكة، وكانت هذه القبيلة اليهودية قد خرجت عن طور الأدب تجاه الرسول ﷺ، وحاولت اغتياله مرتين، وكانت هذه القبيلة قد اعتمدت على مساعدة منافقي المدينة ومشركي مكة، فأعلنت الحرب ضد الرسول ﷺ، واعتقدت أنها ستكون بمأمن من أيدي المسلمين خلف أسوار قلعتها الحصينة.

ولكنها اضطرت للاستسلام بعد خمسة عشر يومًا فقط من الحصار، ووافقت على الجلاء عن المدينة على أن يأخذوا معهم ما يستطيعون حمله من متاعهم، ومع هذا فقد كانوا سعداء إذ أنهم تخلصوا من الموت، لذا فإن الاحتفال الذي احتفلوا به قبيل تركهم المدينة كان احتفالاً لم ير أهل المدينة مثيلاً له، وإن الإنسان ليستغرب من ذلة هؤلاء الناس. الذين يحتفلون وهم على أعتاب مفارقة موطنهم ومساكنهم، بدلاً من الإحساس بالحزن والأسى.[1]

د- بدر الصغرى

كان أبو سفيان قد قال قبيل رجوعه من أُحد: إن موعدكم بدر العام المقبل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل نعم، هو بيننا وبينك موعد.»[2] لذا، فقد حضر الرسول ﷺ إلى بدر مع كامل جيشه في الوقت المحدد وأقام هناك ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان ولكن لم يبد هناك أي أثر للمشركين فرجع إلى المدينة. وانتقلت هذه الحادثة إلى التاريخ الإسلامي تحت اسم بدر الصغرى أو بدر الآخرة، إذ تحدوا المشركين الذين خافوا وجبنوا عن اللقاء، لذا فقد اكتسب المسلمون نصرًا كنصر بدر وإن كان بمقياس أصغر. وكانت جماعة من بني عبد القيس قد أشاعت بين المسلمين أن أبا سفيان هيأ جيشًا ضخمًا، وأنه توجه إلى بدر يريد بذلك إضعاف الروح المعنوية للمسلمين، ولكن هذا الخبر لم يزد المؤمنين إلا إيمانًا، والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣) ورجع المسلمون من بدر الصغرى وهم في غاية الاطمئنان، لقد بدأ الأمن يستتب في الصحراء وبين القبائل مرة أخرى.

هـ- غزوة ذات الرِّقَاع

استمرت هذه المناورات طوال السنة الرابعة للهجرة. في هذه الأثناء قررت قبيلتا بني ثعلبة وبني مُحارب من غَطَفَان الهجوم على المدينة. وعندما وصلت أخبار هذا القرار إلى الرسول ﷺ خرج مع أربعمائة من المسلمين حتى وصل موضعًا يقال له ذات الرِّقاع، غير أن هاتين القبيلتين عندما علمتا بقدوم المسلمين خنستا واختبأتا في جحورهما، لذا فلم يقع أي قتال.[3] ولكن هذه الغزوة سجلت نصرًا في قائمة المسلمين.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ١٩٠/٣ وما بعدها.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ١٠٠/٣ وما بعدها؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤٣/٤.

[3] السيرة النبوية لابن هشام، ٢١٣/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٩٥/٤-٩٦؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١٩٢/٢.

و- غزوة بني المصطلق من خُزاعة أو المُرَيْسيع[1]

وفي سنة خمس من الهجرة وقعت غزوة المُرَيْسيع، أو غزوة بني المصطلق، والمريسيع اسم لموضع يبعد عن المدينة تسعة فراسخ، حيث انقاد المشركون الساكنون هنا إلى إغراءات مشركي قريش وقرروا الهجوم على المدينة.. لذا، رتب الرسول ﷺ جيشًا وخرج به نحو المُرَيْسيع، وعندما بلغ بني المصطلق نبأ قدوم المسلمين هربوا ولم يبق في الميدان سوى أهالي المريسيع الذين قاتلوا المسلمين، ولكن الرسول ﷺ غلبهم، ولم تحدث خسائر في صفوف المسلمين إلا قيام أحد الأنصار بقتل الصحابي هشام بن صبابة خطأ إذ حسبه من الأعداء، أما الطرف المعادي فقد قتل منهم عشرة رجال. ورجع المسلمون إلى المدينة مع ٦٠٠ أسير و٢٠٠٠ بعير و٥٠٠٠ شاة. وهكذا أضاف الرسول ﷺ نصرًا جديدًا إلى سلسلة انتصاراته.[2]

عند العودة من هذه الغزوة تسلل بعض المنافقين إلى صفوف المسلمين لكي يزرعوا النفاق والشقاق بينهم، ولكي يستفيدوا من الغنائم، حتى حاولوا استغلال حادثة صغيرة وخلافٍ بين حليف لأحد الأنصار وأجير لأحد المهاجرين حول أيهما أحق بسقي بعيره من بئر هناك، ولكنهم لم ينجحوا، فأسفر عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول عن مدى نفاقه عند العودة من هذه الغزوة عندما قال بمناسبة هذه الوقعة: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ، وكان يشير إلى نفسه بأنه الأعز وإلى الرسول ﷺ -حاشاه- بأنه الأذل، وعندما بلغ هذا النبأ ابن هذا المنافق، وهو الصحابي الكبير عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ جاء إلى الرسول ﷺ وقال له:

"يا رسول الله! إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً فمُرْ لي به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمَتْ الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتلَه فلا تدَعُني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبَى يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار" فقال له الرسول ﷺ: «بل نترفق به ونُحسن صحبته ما بقي معنا.» ثم إن ابنه عبد الله رضي الله عنه وقف لأبيه عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول عند مضيق المدينة فقال: فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك. فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له فأرسله حتى دخل المدينة.[3]

---

[1] المريسيع: ماء لبني خزاعة بينه وبين الفرع مسيرة يوم.

[2] كتاب المغازي للواقدي، ٤١٠/١.

[3] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٠٢/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٧٨/٤-١٨٢.

وجرت حادثة الإفك حول أمنا عائشة رضي الله عنها التي كانت عفتها كعفة حوريات الجنة، والتي أكدت الآيات فيما بعد هذه العفة عند العودة من هذه الغزوة.[1]

ز- عامل الليل في الأسفار

كان الرسول ﷺ يختار الليل لجميع أسفاره.. ففي الليل سر آخر، ثم ألا يوصيه القرآن - وإن كان من طرف خفي- بذلك؟ والرسول موسى عليه السلام قاد المؤمنين ليلاً للهروب معه، لأن الله تعالى قال له: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (الدخان:٢٣)، وأصدر الأمر نفسه إلى النبي لوط عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ (هود:٨١)، وعندما أسري بسيد الأنبياء، ثم بدأ بسياحته السماوية التي تجاوز فيها جبريل عليه السلام، كان هذا الإسراء ليلاً: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:١).

وهناك سفر ليلي لكل نبي تقريبًا، فالمنازل تقطع بالليل وتصبح تلك الليالي ليالي الوصول والقرب إلى الله. والله تعالى يقسم بالليل في كثير من آياته، فأعمال البر والخير الوضيئة التي تعمل في ظلام الليل البهيم تجعل الليل أضوأ من النهار وأكثر منه نورًا. يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حقي الأرضرومي:

يا عين ما هذا النوم؟ تعالي واستيقظي في الليالي

وتأملي.. تأملي سير الكواكب في الليالي

فالذي يقطع المسافات يقطعها ليلا.. وفي الليل تبتل سجادته بالدموع عندما يخر للسجود.. هنا يستطيع روحه أن يرتفع ويقطع المسافات.. والذي تعودت جدران بيوته على سماع تأوهاته يستطيع التسلق إلى آفاق تقصر دونها المسافات.. أمثال هؤلاء يقطعون هذه المسافات في الليل.. والذين قطعوا هذه المسافات قطعوها ليلا، أما الذين ناموا في الليالي فقد بقوا في وسط الطريق. فإن كنتم تريدون الخلاص من عذاب البرزخ، فلا تدعوا لياليكم دون تهجد.. لا تدعوها لأن الرسول ﷺ لم يدعها. يقول محمد إقبال: "بقيت عشرين سنة في لُندن، في عالم الضباب، ولا أتذكر أنني تركت صلاة التهجد في أي ليلة من لياليها."

أجل، فمن يستغل الليل -حيث ينقطع كل صوت- سيجدكل كلام يتلفظ به صدى في وجدانه، وسيستطيع قطع المسافات. فكان الرسول ﷺ يقطع المسافات المادية والمعنوية في

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٠٩/٣-٣٢١؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٢/٤-١٨٥.

الليل، لذا كان يسافر ليلاً ويرتاح نهارًا وهكذا يفاجأ الأعداء به، إذ يرونه أمامهم فجأة فيذهلون ﴿فَإِذَا نزلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (الصافات:١٧٧).

وهذه الآية تعرض مقطعًا صغيرًا من هذا المنظر. أجل، كان إذا نزل في ساحة قوم أعداء بجيشه فهذا يعني أن أمر هؤلاء الأعداء يُعد منتهيًا وساء صباحهم. كان الرسول ﷺ يهاجم في السحر..[1] ففي السحر كانت تظهر معتقدات أهالي تلك المنطقة، وذلك عند قيامهم -وعدم قيامهم- برفع الأذان وإقامة الصلاة. فالسحر هو الوقت الذي تهب فيه نسائم التجلي، يقول الشاعر المتصوف إبراهيم حَقِّي:

تهب نسائم التجلي في السحر فيا عينيّ! استيقظا عند السحر

وقت السحر مهم جدًا لدى المؤمن، فهو الوقت الذي تهب فيه على المؤمن نسائم التجلي، وفيه يتهيأ لولوج عالم المعاني لأنه يتهيأ فيه للصلاة.

لذا، كان الرسول ﷺ يختار الفجر على الدوام، فبينما كان العدو ينهض من فراشه متثائبًا، إذا به يرى المؤمن المتوثب نشاطًا أمامه. كانت هذه هي طريقته في أغلب الأحيان، فعندما هتف أمام أسوار خيبر: «الله أكبر! خربت خيبر!»[2] اهتزت هذه الأسوار، ولكن لم يدر أحد كيف وصل هذا الجيش إلى هناك، لأنه ﷺ كان يقوم بغزواته بسرعة البرق، ويجد في سير متصل بحيث أن أسرع الجمال ما كانت تستطيع اللحاق به، وكانت غزوة بني المصطلق من هذه الغزوات السريعة. وعندما ذر النفاق بقرنه عند العودة من هذه الغزوة، رأى بفطنته الكبيرة أن أفضل وسيلة للحيلولة دون انتشار آثار فتنة النفاق هو إصدار الأمر بالسفر المتصل دون توقف. وبفضل هذا السير المتصل لم يجد المنافقون الفرصة لزيادة نار الفتنة،[3] ومع أن عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول كان يخطط في فكره أشياء وأمورًا إلا أنه لم يجد الوقت الضروري لإنضاج أفكاره أو وضعها موضع التنفيذ. فالجميع كانوا في سير سريع وكأنهم يعدون عدوًا، لقد تم الذهاب والإياب بهذه السرعة، فتعب الجميع تعبًا شديدًا، لذا فما أن أعطى لهم الإذن بالراحة حتى وقعوا نيامًا حتى طلوع الشمس في اليوم التالي، ولعله المرة الأولى التي تم فيها أداء صلاة الصبح في الضحى.[4]

استمر هذا حتى السنة الخامسة للهجرة. لذا، علمت القبائل أن أيًا منها لن تستطيع

---

[1] مسلم، الصلاة ٩.
[2] البخاري، الصلاة ١٢، الأذان ٦؛ مسلم، الجهاد ١٢٠؛ الموطأ، الجهاد ٤٨.
[3] البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٠/٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣٠٢/٣-٣٠٥.
[4] البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٠/٤.

الوقوف وحدها أمام الرسول ﷺ، لذا قررت توحيد قوتها والوقوف معًا أمام الرسول ﷺ، وهكذا جمعوا قواتهم وتوجهوا إلى المدينة.

ح- وقعة الخندق أو الأحزاب

في شوال سنة خمس من الهجرة. عندما أجلي بنو النضير عن المدينة ذهبوا إلى خيبر واستقروا هناك، ولكنهم بدأوا هناك بتحريض أهل خيبر ضد الرسول ﷺ وأرسلوا بعض زعمائهم إلى قريش وإلى قبيلة غَطَفَان، وكانت هاتان القبيلتان تسعيان بكل جهدهما للقضاء على المسلمين وتخططان لهذا، لذا كانتا على استعداد للترحيب بأي اقتراح يأتي من أي جهة حول هذا الأمر. ثم التحقت بهما قبيلتا بني سليم وبني أسد وبني مرة وبني فزارة وبني أشجع وبني سعد. أي أصبح الوضع مشابهًا لما جرى في معركة شنق قلعة" التي جلب إليها الإنكليز أقوامًا عديدة من هنود واستراليين وأفارقة.. إلخ

اتفق اليهود والقبائل العربية المشركة للقضاء على الرسول ﷺ وعلى المسلمين. وأخيرًا اتفق هؤلاء الأعداء على السير نحو المدينة بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل. كان الرسول ﷺ قد حصل من قبل عن طريق شبكته الاستخبارية القوية على أنباء تلك الحشود، لذا جمع أصحابه واستشارهم حول خطة الحرب المقبلة، واختار من بين الاقتراحات المتعددة اقتراح سلمان الفارسي إذ أعجبه هذا الاقتراح الذي كان يقضي بحفر خندق حول المدينة ثم خوض معركة دفاعية من خلف هذا الخندق. وهذا التكتيك كان جديدًا لم يشهده أحد حتى ذلك الحين هناك، وكانت قريش وحلفاؤها ينتظرون خوض معركة شبيهة بمعركة بدر أو أُحد، بينما كانت في انتظارهم مفاجأة واستراتيجية لم تخطر على بالهم قط. ووضع الرسول ﷺ حراسًا حول موضع الحفر فمنع بذلك تسرب خبر أعمال الخندق، فهؤلاء الحراس ما كانوا ليسمحوا لأحد في المدينة أو لما حواليها بالتجول هناك، فتم الانتهاء من حفر الخندق في ظل من السر والكتمان، لذا عندما اقترب جيش الكفار من المدينة فوجئوا عندما وجدوا هذا الخندق أمامهم وذهلوا وأسقط في أيديهم.

بدأ الرسول ﷺ مع ثلاثة آلاف من أصحابه بحفر الخندق، واشترك الرسول ﷺ في الحفر، وكانت حصة كل رجل القيام بحفر طول ذراع من الخندق، وتم توزيع العاملين إلى مجاميع، كل مجموعة تضم عشرة منهم، وبدأت المنافسة بين هذه المجاميع. كان عمق الخندق معيرًا بحيث أن الفارس إن سقط في ذلك الخندق لم يستطع الخروج منه مع فرسه، أما عرضه فكان بحيث لا يستطيع أمهر فارس قطعه قفزًا بفرسه.

هذا الخندق مطمور الآن تمامًا، وكم كنا نتمنى لو بقي على حاله لنشاهد ذلك الخندق الذي شارك رسول الله ﷺ في حفره وفي نقل ترابه، ولا ندري مدى الصحة في الآثار الباقية لذلك الخندق، ولكن إن قام أحد المختصين بالعلوم العسكرية بتدقيق هذه الآثار وقال: "أجل، من المحتمل أن يكون الخندق هنا" عند ذلك يجب الاهتمام جديًا بهذا الموضوع.

أجل، شارك الرسول ﷺ بأعمال حفر الخندق ترغيبا للمسلمين وحثهم على طلب الأجر، فدأب فيه ودأبوا، وكان تصرفه هذا عامل تشويق ومنبع إثارة لهم على العمل، وكان يشوقهم أحيانًا على المنافسة والتسابق، ويثني على المهاجرين تارة وعلى الأنصار تارة أخرى.

كان جنوده من الصحابة جائعين، قد ربط كل واحد حجرًا على بطنه، أما الرسول ﷺ فحجرين، ولكن لم يكن للجوع ولا للعطش أن ينال من عزيمتهم ومن همتهم، بل كانوا ينشدون:

نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا

وأجابهم النبي ﷺ:

اللّهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان الرسول ﷺ يشترك أحيانًا معهم في هذا النشيد، وأحيانًا يقول:

اللّهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأَنزلنْ سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلَى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته: أَبَينا أبَينا.[1]

عندما قام الرسول الأكرم ﷺ بتنظيم الصفوف جعل قمة تل سَلْعٍ[2] خلف ظهره، وأرسل النساء والأطفال إلى ملاجئ حصينة.[3] إني لست رجلاً عسكريًا، ولكني أعتقد أن تكتيك الرسول ﷺ صحيح من جميع جوانبه ولاسيما قيامه بإسناد ظهره إلى جبل سَلْعٍ، علما بأنه اتخذ هذه القرارات توًا ودون أي تباطؤ أو تفكير طويل، ومع ذلك كانت كلها قرارات صائبة.

---

[1] البخاري، مناقب الأنصار ٩، المغازي ٢٩؛ مسلم، الجهاد ١٢٣-١٢٥، ١٣٠؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٦/٤-١١٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٢٦/٣-٢٣٠.

[2] سَلْع: الجبل المعروف بسوق المدينة.

[3] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٣١/٣.

عندما اتخذت وسائل وتدابير الدفاع عن المدينة وضع في الحساب احتمال قيام بني قريظة بالهجوم، لذا أودع الدفاع عن تلك الجبهة إلى جماعة من الصحابة على رأسهم سلمة بن أسلم.[١] أجل، لقد أخذ جميع الاحتمالات بنظر الاعتبار ولم يترك أي أمر للصدف.

كان هناك موضع ضيق في الخندق، يستطيع الفارس الماهران كان فرسه أصيلاً أن يقطعه قفزًا.[٢] وقد يبدو هذا في الوهلة الأولى إهمالا، ولكن الأمر ليس كذلك، فقد تبدت هنا أيضا الفطنة المذهلة للرسول ﷺ، إذ أن أشجع فرسان المشركين وأفضلهم سيحاولون وسيجربون قطع الخندق قفزًا من هذا الموضع وسيجدون أنفسهم وسط المسلمين، ولم يحس أحد بهذا في أول الأمر، ولكن بعد مرور بعض الوقت وحدوث بعض التطورات وقع ما توقعه الرسول ﷺ، فقد بدأ أشجع المحاربين تجربة حظوظهم، وهلكوا واحدًا إثر آخر.

ثم إن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ أحد بني عامر بن لُؤَيّ وضِرار بن الخطاب بن مِرداس أحد بني مُحارب بن فهر وعكرمة بن أبي جهل وهُبيرة بن أبي وهب المخزومي تلبسوا للقتال ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا: تهيؤا يا بني كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم؟ ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقعوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: إنها لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم تيمموا مكانا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم.[٣] كان عمرو بن عبد ود أول من عبر الخدق، ومع أنه كان متقدمًا في العمر إلا أنه كان يعد معادل مائة محارب، طلب مبارزًا فخرج إليه علي، فلما رأى أمامه شابًا حدثا استهزأ به، ونزل عن فرسه لأنه لم ير من اللائق بسمعته أن يقاتله وهو على ظهر الفرس، وبعد أن ضرب بسيفه فرسه وعقرها وقف أمام علي، وبدأت المبارزة حيث قام عمرو بالضربة الأولى التي كانت ضربة شديدة، واستقبلها عليّ فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وقابله علي بضربة قوية على كتفه مع تكبيرة أعقبتها تكبيرة المسلمين، ولو لم يمت عمرو من ضربة سيف علي ﷺ لمات من شدة تكبيرة المسلمين.

---

[١] كتاب المغازي للواقدي، ٢/٤٦٠.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٢٣٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٢٠-١٢١؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/١٨١.

[٣] البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٢٠؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٢٣٥؛ كتاب المغازي للواقدي، ٢/٤٧٠-٤٧١.

وهز موت عمرو المشركين، كما أحدث فرحًا غامرًا بين المسلمين ورفع معنوياتهم.[١]

وبعد عمرو جاء ضِرار وعكرمة وهُبيرة ولكنهم لم يصمدوا أمام ضربات علي ﷺ فهربوا،[٢] وأخيرًا أقبل نوفل بن عبد الله المغيرة المخزومي وكان من أشهر المقاتلين والفرسان عند العرب واستطاع عبور الخندق إلى الجهة الأخرى، فاستقبله علي -أو يقال الزبير بن العَوّام- ولكن نوفل سقط في الخندق وهو يحاول الهرب من علي، فبدأ المسلمون يقذفونه بالحجارة، وبدا لنوفل أن الموت بالحجارة لايليق به فصاح: قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب، فنزل إليه علي فقتله.[٣] وكان هذا اليوم أشد أيام الحصار، ولكن عندما مر شهر فقد الحصار قوته ووهنت العزائم، إذ لم يكن من الهين إطعام عشرة آلاف من المقاتلين وتلبية احتياجاتهم.

عندما رأى بنو قريظة أن المشركين لم يستطيعوا اقتحام الخندق، وأن من فعل هذا منهم قُتل قرروا الهجوم على الحصن الذي وضع المسلمون فيه نساءهم، وأرسلوا أحدهم قبل الهجوم ليتجسس لهم، وقد لمحت صفية عمة رسول الله ﷺ هذا اليهودي وهو يتجول حول الحصن، فكمنت له ثم هاجمته فجأة وقتلته وجلبت سلاحه إلى الحصن، وعندما رأى اليهود أن الرجل الذي أرسلوه قتل توهموا وجود قوة عسكرية هناك فتخلوا عن فكرة الهجوم.[٤]

كان أعداء الإسلام قد جاءوا وهم واثقون من أنفسهم كل الثقة، سينهون أمر المسلمين في بضعة أيام ثم يرجعون، ولكنهم أخطأوا في حساباتهم خطأ كبيرًا، وعندما أدركوا ذلك لم يبق أمامهم سوى الرجوع وهم يجرون أذيال الفشل والخيبة.

وجرت الأقدار في أثناء الحصار ضد الكفار، فقد كان الشتاء على الأبواب وما كان سكان مكة يتحملون برد شتاء المدينة، ثم إنهم لم يكونوا قد تهيأوا للشتاء. وبدأت الريح تهب عليهم أيامًا وليالي، ثم انقلبت هذه الريح إلى إعصار قوي بدأ يقوض الخيام ويقلب القدور، وما كان بإمكان المشركين أن يتحملوا أكثر، وهذا ما كان، لذا أصدر أبو سفيان أمره بالرجوع وهو كاره.[٥]

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٢٣٥-٢٣٦؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٢١-١٢٢؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/١٨١-١٨٢.

[٢] كتاب المغازي للواقدي، ٢/٤٧٠-٤٧٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٢٠.

[٣] كتاب المغازي للواقدي، ٢/٤٩٦؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٢٣، ١٣٣.

[٤] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٢٣٩؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٢٤؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/١٨٢.

[٥] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٢٤٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/ ١٢٩، ١٣٢؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/١٨٤.

١. يوم الخندق في القرآن

يتحدث القرآن الكريم عن معركة الخندق تفصيلاً. فإذا أحببتم فإننا نستطيع متابعة تلك المعركة بين سطور الآيات، ثم نشير إلى الدهاء العسكري الذي أبداه الرسول ﷺ في هذه المعركة.

يقول القرآن الكريم حول هذه المعركة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۞ إِذْ جَاؤُوكُم مِن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ۞ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ۞ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً﴾ (الأحزاب:٩-١٥).

وأشار القرآن إلى معنويات المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٢).

وكقاعدة عامة فإننا لن ندخل إلى التفاصيل التاريخية الموجودة في كتب السير، بل نتعرض لبعض هذه التفاصيل بالعرض، وهدفنا الأساسي إبراز ناحية الرسالة لسيدنا محمد ﷺ وإظهارها، إذ كان صاحب فطنة ذات أبعاد متعددة، وأحد هذه الأبعاد هو بعده في الناحية العسكرية. فكما أوضحنا فقد أعطى أنموذجًا رائعًا في القيادة العسكرية في معركتي بدر وأُحد -على الرغم من قصر باعنا في هذا الموضوع، لأنه خارج اختصاصنا- ولنا كلام موجز حول معركة الخندق أيضا لتوضيح كيف كان ﷺ عسكريًا لا مثيل له في هذه المعركة أيضًا، فمعركة الخندق شاهد ومصدق لحكمنا هذا.

لقد تم إحراز نصر مؤزر في معركة الخندق التي حدثت في ظروف صعبة جدًا، وتطورت الظروف التي هيأت النصر فيما بعد حسب ما علمه الله تعالى لرسوله. وقد استوعب الرسول ﷺ بفطنته العظمى هذه الظروف وأحوال المعركة التي علمها الله تعالى له بالوحي أو بالإلهام، ثم تصرف على ضوئها أفضل تصرف، وطبق ما علمه أفضل تطبيق في معركة كانت الظروف فيها صعبة جدًا في النطاق البشري، لذا كان الوصول إلى النصر أمرًا

بالغ الصعوبة بل كان قريبا من الاستحالة، لذا فسنلقي نظرة على التكتيك الذي استخدمه الرسول ﷺ في هذه المعركة التي تعد شاهدة على أن "محمد رسول الله".

٢. ما وراء معركة الخندق

١) كان عدد جنود العدو عشرة آلاف مقاتل، بينما كان جيش المسلمين عبارة عن ثلاثة آلاف مقاتل، أي أن العدو كان ثلاثة أضعاف المسملين، وهذا يعني أن على كل مسلم مقاتلة ثلاثة من المشركين، لذا كان تحويل هذه المعركة من معركة ميدانية وجهًا لوجه إلى معركة دفاعية فطنة وذكاءً كبيرين. وكما قلنا سابقًا فإن رسول الله ﷺ لم يكن يكرر أي تكتيك مع العدو مرتين، وهذا ما رأيناه في الخندق.

٢) لعب الخندق في تلك المعركة دورًا كبيرًا في إيقاف العدو، لأن قريشا وحلفاءها لم يدر بخلدهم أبدًا أنهم سوف يلقون مثل هذه المفاجأة التي أذهلتهم وقلبت حساباتهم.

٣) إن جعل جزء صغير من الخندق ضيقًا بعض الشيء بحيث يستطيع أن يعبره الفرسان الماهرون علامة دهاء وفطنة، لأنه أمكن بهذا اصطياد أمهر وأشجع وأقوى فرسان العدو مما أدى إلى ضعضعة الروح المعنوية لدى العدو، وارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين.

٤) عمل الرسول ﷺ في حفر الخندق بين المسلمين، وكان هذا دعمًا وسندًا معنويًا لهم، وعندما صادفهم حجر قوي لم يستطيعوا كسره قال: «بسم الله» وضرب ضربة، فلمع بريق تحت الضربة فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله»، ثم ضرب ضربة ثانية فلمع بريق من ضربته فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض»، ثم ضرب الثالثة فبرق أيضا بريق تحت الضربة فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة.»[1]

وهذه الكلمات التي قالها حينذاك أكسبتهم معنوية عالية بحيث لو اجتمع عليهم العالم كله -وليس عشرة آلاف فقط- لما ترددوا في قتاله.

٥) إن اختيار علي بن أبي طالب ﷺ لمقاتلة الفرسان الذين عبروا الخندق اختيار موفق يدل على الفطنة ويدل على أنه كان يعرف من يختار وأين يختاره.

٦) وضع المنافقين تحت مراقبة دقيقة بحيث لم يمكنهم من إلحاق أي أذى أو سوء مع

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٣٠/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١١٦/٤؛ تاريخ الأمم والملوك للطبري ١٦٧/٣-١٦٨؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١٧٩/٢.

أنهم كانوا يرغبون في ذلك، وهذا يدل على فطنته في اتخاذ التدابير الضرورية في درء الأضرار ومنعها.

٧) كان الرسول ﷺ يسعى إلى إطالة أمد المعركة ما أمكنه ذلك، ونجح في ذلك، واستفاد من إطالتها فوائد عديدة نستطيع أن نعدد بعضها:

الأولى: كان الوقت مقبلاً على موسم الشتاء، ولم تكن قريش وحلفاؤها قد استعدوا للشتاء، فلو بقوا أكثر لأنهى الشتاء أمرهم، وعندما يفكون الحصار ويذهبون، يذهبون وقد ضعفت قواهم وتداعت.

الثانية: كان العدو مضطرًا إلى العناية بعشرة آلاف من المقاتلين وإطعامهم كل يوم، وكلما زادت المدة وتوالت الأيام دخلوا إلى أزمة مالية أكبر، وعندما اتحد الجوع والظمأ والبرد، أصبح الوضع غير محتمل بالنسبة لهم.

الثالثة: لم يكن من المتوقع أن يستمر الحلف في جبهة العدو طويلاً، هذا الحلف الذي كان حلفًا مصطنعًا قام على أساس واحد، وهو اشتراكهم في عداوة رسول الله ﷺ. وكان مرور كل يوم يُضعف هذا الحلف، بينما كانت جبهة الإسلام تقوى على مر الأيام وتزداد تراصًا ووحدة.

الرابعة: كان هناك زعماء عديدون في جبهة العدو، ولم يكن أي واحد منهم قادرًا على أن يُسمع كلامه للآخرين ولا أن يجعلِ الآخرين يطيعونه، كانوا يشبهون الجيوش الصليبية، كان أبو سفيان -من الناحية النظرية فقط- هو قائد جبهة العدو وجيشه، ولكن هذا كان في الظاهر فقط، وكلما مرت الأيام بدأ الشقاق يدب بين هؤلاء الزعماء والأنداد وتتزايد النزاعات بينهم.

٨) كان نُعيم بن مسعود ﷺ قد أسلم سرًا، وأوصاه الرسول ﷺ أن يخفي إسلامه مدة، حيث كلفه بالقيام بمهمات كبيرة وخطيرة جدًا.

كان نُعَيم شخصًا تحترمه وتثق به قريش واليهود كذلك، وقد أخبره الرسول ﷺ بأن الحرب خدعة وطلب منه أن يخذل الناس عنه، لذا ذهب نعيم إلى بني قريظة وكان نديما لهم في الجاهلية وقال لهم:يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًا وغَطَفَان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغَطَفَان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم ونساؤهم

وأموالهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تناجزوه. قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم ذهب وأتى قريشًا فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقًا أن أبلغكموه نصحًا لكم، فاكتموا عني، قالوا: نفعل. قال:تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغَطَفَان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم، فإن بعثتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم ذهب إلى غَطَفَان وحذرهم التحذير نفسه، فلما طلب اليهود منهم الرهن قالت قريش وغَطَفَان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحقّ. فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقّ. وأصروا على طلب الرهائن وأبت قريش وغَطَفَان ذلك وخذل الله بينهم.[1]

لم يكن قد مضى على إسلام نعيم بن مسعود سوى بضعة أيام، فانظروا إلى فطنة الرسول ﷺ إذ عرف أن نعيمًا سيستطيع القيام بهذه المهمة الكبيرة وأنه أهل لها، وفعلاً قام نعيم بأداء تلك المهمة أفضل أداء.

٩) كانت الرياح والعواصف قد بدأت تضرب العدو ضربات موجعة، فأرسل الرسول ﷺ حُذيفة بن اليمان ﷺ ليعلم أحوال العدو واختاره لأداء هذه المهمة، فقد كان مستودع أسرار الرسول ﷺ وكان معروفًا بدقة تنفيذه للأوامر، وقال الرسول ﷺ عندما أرسله: «يا حُذيفة! اذهبْ فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تُحدِثنّ شيئًا حتى تأتينا.»

وتسلل حُذيفة إلى القوم ودخل بينهم، وسنحت له فرصة كان يستطيع فيها قتل أبي سفيان، إذ كان أبو سفيان قد أدار ظهره له، وقد حدثته نفسه للحظة أن يصيبه بسهم ويقتله،

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٢٤٠-٢٤٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١٢٨-١٣٠؛ كتاب المغازي للواقدي، ٢/٤٨٠-٤٨٧.

ولكنه تذكر توصية الرسول ﷺ له بألا يحدث شيئا حتى يرجع فتخلى عن تلك النية، أما أبو سفيان فكان يهتف على الدوام: الرحيل! الرحيل! كان من الواضح أن قريشًا وحلفاءها كانوا يتهيأون للرجوع وهم يجرون أذيال الفشل.

ويشرح القرآن الكريم حالهم الأليمة هذه فيقول: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب:٢٥).

وعندما بدأ حُذيفة بالرجوع رأى هناك فرسانًا عليهم عمامات بيضاء وملابس بيضاء، كانوا يتجولون بين الكفار فقال أحدهم لحُذيفة: "أخبر صاحبك أن الله قد كفاه" وعندما أخبر حُذيفة الرسول ﷺ بخبرهم قال بأنهم الملائكة.[١]

١٠) احتفظ الرسول ﷺ بالقيادة في يده على الدوام، ولم يترك جبهة القتال طوال أيام الحصار ساعة واحدة.. تصرف كأي فرد منهم، وشارك جيشه في جميع مشاكله وساعات ضيقه، وهذا يشير كيف أن قيادته كانت في الذروة على الدوام.

١١) كان مجموع الشهداء من المسلمين في مثل هذه الحرب الصعبة ستة شهداء فقط.[٢]

١٢) قال الرسول ﷺ في ختام هذه الحرب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا.»[٣] وقد صدقت الأيام قوله هذا.

عندما تذكر معركة الخندق نجد أن هناك حادثتين مهمتين لا يمكن إهمالهما، إحداهما هي وفاة الصحابي الجليل وسيد الأنصار سعد بن معاذ ﷺ[٤] والحادثة الثانية أداء الرسول ﷺ أربع صلوات قضاءً.[٥]

في الحادثة الأولى جرح سعد بن معاذ ﷺ في ذراعه، وبدأ الجرح ينزف دون توقف، واهتم الرسول ﷺ به فنصب له خيمة داخل المسجد، وكان يزوره على الدوام، كما كان الآخرون يزورونه أيضا ويبقون بجانبه، ذلك لأنه لم يفارق الرسول ﷺ منذ أن اهتدى إلى الإسلام، وكان الرسول ﷺ يعده شخصًا مميزًا، لذا عندما تم تعيينه حَكما في موضوع بني قريظة جيءَ به محمولا على مركب لأنه كان جريحا قال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ١٣٢/٤؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٢٤٣/٣-٢٤٢.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٦٤/٣؛ كتاب المغازي للواقدي، ٤٩٦/٢.

[٣] البخاري، المغازي ٢٩؛ المسند للإمام أحمد، ٢٦٢/٤.

[٤] البخاري، المغازي ٣٠؛ مسلم، جهاد، ٦٥-٦٨.

[٥] المسند للإمام أحمد، ٢٧٥/١.

فأنزلوه.» ولم يقصر سعد ﷺ في الإخلاص والوفاء للرسول الكريم ﷺ، عاش مخلصًا وفيًا، ومات مخلصًا وفيًا.. هذا الذي قال للرسول ﷺ يوم بدر:

"...فصِلْ حِبال من شئتَ واقطعْ حبال من شئت وعادِ من شئت وسالِمْ من شئت وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذتَه منا كان أحب إلينا مما تركتَ علينا، وما أمرتَ به من أمر فأمرنا نتبع لأمرك، فوالله لئن سرتَ حتى تبلغ بَرْك الغِمَاد لَنسيرنّ معك."[١]

وفي ساعاته الأخيرة كان يدعو قائلاً: "اللّٰهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه.. اللّٰهم فإني أظن أنك قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم.. فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك.. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة."[٢]

كانت المعركة قد انتهت ورجع رسول الله ﷺ إلى بيته، ولكنه ما أن خطا خطوة إلى داخل البيت حتى ظهر له جبريل الذي سأله: "أوَ قد وضعتَ السلاح يا رسول الله؟" قال الرسول ﷺ: «نعم.» فقال جبريل: "ما وضعتْ الملائكة السلاح بعدُ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة."[٣] على إثر هذا أمر الرسول ﷺ بالمسير إلى بني قريظة، ولكي يعلمهم بمدى أهمية السفر ووجوب الإسراع فيه فقد عزم عليهم ألا يصلوا العصر إلا هناك.[٤]

كان بنو قريظة قد خانوا المسلمين -ولاسيما في أثناء معركة الخندق- وأرادوا طعنهم من الخلف، وأرسلوا من يتجسس لهم حول حصن النساء لكي يقوموا بالهجوم عليه، ولكنهم لم يجدوا الفرصة المواتية لذلك، هذا مع العلم أنهم كانوا قد اتفقوا وتعاهدوا مع رسول الله، نكثوا العهد وأعلنوا الحرب على المسلمين.

ولم يقف ذنبهم عند هذا الحد، بل فتحوا قلاعهم وحصونهم لاستقبال أعداء المسلمين -مثل حُيَيّ بن أخطب- الذين كان من المُبعدين السياسيين من قبل المسلمين، مع أن مثل هذا التصرف كان يُعد انتهاكًا للعهد.

بالرغم من كل هذا فلو اعتذروا للرسول ﷺ عندما أقبل إليهم وطلبوا منه العفو لكان من

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٣٢٢؛ دلائل النبوة للبيهقي، ٣/١٠٧.

[٢] البخاري، المغازي ٣٠؛ الترمذي، السير ٢٩.

[٣] البخاري، الجهاد ١٨، المغازي ٣٠؛ مسلم، الجهاد ٦٥.

[٤] البخاري، المغازي ٣٠؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٢٤٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/١٣٤.

الممكن أن يصفح الرسول ﷺ عنهم، ذلك لأنه كان يميل على الدوام إلى التعايش الجيد معهم، غير أنهم سلكوا سلوكًا معاديًا للمسلمين وللرسول ﷺ، فقد عشعش السوء في سويداء قلوبهم. وعندما أسقط في أيديهم استسلموا، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون سعد بن معاذ ﷺ هو الحكم في قضيتهم. وقبل الرسول ﷺ شرطهم هذا، فقام سعد بن معاذ ﷺ من فراش المرض، وجاء إلى الموضع الذي ينتظرونه فيه وهو راكب على حمار، فقال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» (أو قال خيركم)، فقعد عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «هؤلاء نزلوا على حكمك»، فأصدر حكم التوراة عليهم وهو أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، ولم يكن أمام الطرفين إلا قبول هذا الحكم.[1] وهكذا تطهرت المدينة من فتنة أخرى وأصبحت هي وما حواليها بلدًا آمنًا.

وهكذا حقق الله تعالى رغبة سعد بن معاذ وقبل دعاءه.. وبعد فترة قصيرة نزف جرحه وتوفي إلى رحمة الله تعالى.. كان قد استعجل الخروج إلى الحرب، فلبس درعًا تبين أنه ضيق عليه، لذا بقيت كتفاه عاريتين، وهناك أصيب بسهم سبب وفاته واستشهاده فيما بعد.

ط- الغزوات الأخرى

ألقينا نظرة سريعة حتى الآن على ثلاث غزوات من غزوات الرسول ﷺ البالغة ثماني عشرة غزوة،[2] وحاولنا تدقيق الناحية العسكرية لدى الرسول ﷺ. والآن سنلقي نظرة سريعة وبشكل عناوين رئيسة على غزواته الأخرى لنشاهد ألوانا من فطنته الكبيرة.

عندما دققنا صلح الحُديبية رأينا كيف استطاع الرسول ﷺ بإدارته الممتازة حل جميع المشاكل والمصاعب، كان من المؤكد وقوع حرب في الحُديبية، غير أن الرسول ﷺ استطاع تجنب الدخول في حرب لا يوجد فيها أي توازن بين القوتين، ففي الجبهة المعادية كان هناك أضعاف عدد المسلمين، على رأسهم رجال أمثال خالد بن الوليد وعكرمة، بينما كان عدد الصحابة يقارب ١٤٠٠ شخص غير مسلح[3] قد أحرموا يريدون أداء العمرة، فاستطاع الرسول ﷺ تجنيب أصحابه معركة قاسية وصعبة جدا، واستطاع بفضل من الله وعون منه أن ينهي هذه الأزمة بالنصر.

وقعت حادثة الحُديبية في السنة السادسة للهجرة، أي في وقت كانت مشاعر الشوق

---

[1] البخاري، الإستئذان ٢٦، المغازي ٣٠؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٢٤٩-٢٥١.

[2] تذكر المصادر التاريخية أرقاما مختلفة لغزوات الرسول ﷺ وهنا أعطينا أرجحها.

[3] هناك روايات أخرى تعطي أرقاما مختلفة لعدد الصحابة.

والحنين إلى مكة قد استولت على قلوب المهاجرين.. وحتى أبو بكر ﷺ وهو صاحب الإرادة الحديدية تأثر من فراق مكة تأثرًا كبيرًا وأنشد:

كل امرئ مصبّحٌ في أهله   والموت أدنى من شراك نعله

فمثلا بلال الحبشي -مع أنه لم يكن من مكة بل من الحبشة- عندما أقام بمكة أحبها إلى درجة أنه عندما هاجر إلى المدينة وأصابته الحمى هناك، بدأ يحن إلى مكة ويقول:

ألا ليت شِعري هل أبيتنّ ليلة   بـوادٍ وحولي إذْخِرٌ وجليلُ

وهل أرِدَنْ يومـا ميـاه مجنة   وهل يَبْدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفِيل [1]

واشتكى عامر بن فُهير مولى أبي بكر ﷺ فقال:

إني وجدت الموتَ قبل ذوقه   إن الجَبان حَتْفُه من فوقه[2]

كان الشوق إلى الوطن قد استولى على جميع القلوب.. الشوق إلى مكة أم القرى.. كان قد مر على فراقها ست سنوات لم يستطيعوا فيها الطواف حول الكعبة، بينما كان جدهم إبراهيم ﷺ قد قام بإصلاح الكعبة وتعميرها: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٦).

والكعبة التي تشير إليها هذه الآية كانت أول بناء على الأرض بناها آدم ﷺ، بناها أول نبي وأصلحها خليل الرحمن.. والآن كان الكفار يبعدون عنها أفضل أولاد إبراهيم ﷺ وهو محمد المصطفى ﷺ، وتمر ست سنوات كاملة لا يستطيع فيها هذا النبي الكريم المشتاق إلي زيارتها والطواف حولها.. لم يكن يريد شيئا كثيرًا.. كل ما كان يطلبه هو أن يسمح له ولأتباعه القيام بالطواف حول الكعبة بالكيفية التي وضعها الإسلام.

كانت الكعبة آنذاك مملوءة بالأصنام، كما كانت هناك أصنام عديدة حول الكعبة، كان طواف المشركين حول الكعبة شيئًا يدعو إلى السخرية ويخلو من معنى الطواف، لذا وصف القرآن طوافهم هذا بأنه مُكاء وتصدية،[3] كانوا يصفقون بأيديهم ويصفرون، وكانت النساء يطفن -ولاسيما في الليل- عاريات قد خلعن ملابسهن بحجة أنه لا يجوز الطواف بالملابس التي اقترفن الذنوب فيها.[4] كان طوافًا للرجال والنساء مختلفًا تمامًا مستندًا إلى أسس أخرى لعهد آخر يصعب علينا فهمه وشرحه.

---

[1] إذخر وجليل: نبتتان. مجنة: موضع كان سوقا في الجاهلية. شامة وطفيل: جبلان.

[2] البخاري، مناقب الأنصار ٤٦؛ الموطأ، المدينة ١٤؛ المسند للإمام أحمد، ٦٥/٦، ٨٣، ٢٢٢.

[3] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتهم عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُم تَكفُرُونَ﴾ (الأنفال:٣٥).

[4] مسلم، تفسير ٢٥؛ النسائي، المناسك ١٦١.

كان الرسول ﷺ يود بيان كيف يكون الطواف وكيف تؤدى العمرة، كان هذا هو غايته الأولى، أما الثانية فهي إظهار أن الكعبة ليست ملكًا للمكيين أو القرشيين فقط، وأن للآخرين أيضا حقًا فيها. والحقيقة أن لرسول الله ﷺ الذي سيعيد إلى الكعبة شرفها وشهرتها ومجدها ولجماعته المقدسة حقًا أكبر من الآخرين، والكعبة كانت قد أصبحت منذ مدة طويلة مثل محراب فارق منبره، فكان رسول الله ﷺ يريد أن يقرب المنبر الذي وضعه في المدينة من المحراب، ذلك لأن الكعبة هي محرابنا الأبدي ومحراب النبي ﷺ قبل أي أحد، وقد توجه فترة من الزمن في صلاته إلى المسجد الأقصى لوجود الأصنام في الكعبة، ولكن نظره كان يتقلب في السماء إذ لم يكن يتحمل صرف وجهه عن الكعبة، فأنزل الله تعالى إليه يسري عنه ويبشره: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة:١٤٤).

كانت الفترة التي قضاها متوجهًا في صلاته إلى المسجد الأقصى فترة غربة وهجران بالنسبة إليه.. كانت الكعبة محرابه والمدينة منبره.. لذا، كان من الضروري أن تكون الكعبة في يد المؤمنين، وكان أداء العمرة يعد الخطوة الأولى في هذا السبيل، لذا كان يخطط لأداء عمرة على الأسس الإسلامية وحسب العقيدة الإسلامية وروحها وفكرها. لم يكن الحج قد فرض بعد، لقد فرض الحج في أواخر حياته! لذا، أدى فريضة الحج مرة واحدة، وأطلق القرآن الكريم على ذلك الحج اسم "الحج الأكبر"[1] وعلى العمرة "الحج الأصغر".

وقد انتشر بين جمهور الناس أن الحج الأكبر هو الحج الذي يصادف يوم عرفة فيه يوم الجمعة، ولكن اسم الحج الأكبر يطلق على الحج الذي يؤدى في أثناء موسم الحج، أما الحج الأصغر فيطلق على العمرة.

والغاية الثالثة له ﷺ كانت إظهار جماعته المباركة للقبائل، وأنها عندما تمر لا تقوم بإيذاء أحد في طريقها، ولا تمس أحدا بضرر.. فلا تدخل بستان أحد، ولا تنهب دارًا أو ملكًا لأحد.. سيرى الجميع أن هذا الجيش بعيد عن هذه الأمور، بينما كان من المعتاد آنذاك أن أي جيش بمثل هذه القوة يقوم بأعمال السلب والنهب، بينما كان هذا الجيش جيش السكينة والاطمئنان.. فهم كانوا يمثلون الإسلام في هذا الحج أمام العرب جميعًا، وكان هذا شيئًا مهمًا جدًا وإيصالاً لرسالة الإسلام إليهم، لأن الذين شاهدوهم كانوا يقولون في أنفسهم في الأرجح: "ما هذا؟ نحن لم نر حتى الآن مثل هؤلاء الناس.. إنهم أشبه بالملائكة."

---

[1] قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة:٣).

كانت هذه هي أهداف النبي ﷺ وهو في طريقه إلى مكة، لذا فلم يأخذ الصحابة معهم سوى السيوف في القرب، ولم يحدث أي شيء حتى وصولهم إلى الحُديبية، وهنا جاء من يقول لهم أن قريشًا ستمنعكم بكل ما أُوتيتُ من قوة ومن بأس، بينما لم يكن جيش السلام يريد حربًا ولا قتالاً، لأنهم لم يأتوا للحرب ولا للقتال، لذا اغتم الرسول ﷺ وحزن من هذا الموقف، فقد وعد أصحابه بأنهم سيؤدون العمرة.. وجاء الصحابة معه وهم في شوق لأداء شعائر العمرة مع رسول الله ﷺ وعلى الأسس والقواعد الإسلامية، فما فعلوه سابقًا في جاهليتهم لم يكن حجًا ولا طوافًا، والآن هاهم قد اقتربوا من أداء هذه الشعائر على أساس إسلامي وتحت إرشاد وحي السماء وخلف رسول الله ﷺ.

اضطر الرسول ﷺ إلى التوقف في الحُديبية وأمر أصحابه بالتوقف، أمر بذلك على الرغم من إيمانه بنفسه وبشجاعة أصحابه، كان يعلم أنه لو التجأ إلى الله تعالى وتوكل عليه وقاتلهم فسيغلبهم، غير أنه لم يفعل ذلك وفضل الانتظار، وعندما وصل المنع والعرقلة مرحلة معينة تبايع مع أصحابه.. تبايع على القتال حتى الموت في سبيل الإسلام.. هذه البيعة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سماوات: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (الفتح:١٨-١٩).

علم الله تعالى ما في قلوبهم، فلو قال لهم الرسول ﷺ موتوا، لماتوا، ولو قال لهم: ابقوا، لبقوا، ولو قال لهم قوموا، وطوفوا بالكعبة، لفعلوا ما أمرهم ولو لم يملكوا السلاح الكافي.

وأنزل الله سكينته عليهم.. فقد وعدهم -جزاء شهامتهم هذه- فتحًا قريبًا، وهذا ما قاله لهم في القرآن. شيء واحد لم يتحقق كما كان الرسول ﷺ يتوقع، ولكنه تحقق بعد سنة واحدة، حيث جاءوا وطافوا بالكعبة حسب الشعائر الإسلامية واستلموا الحجر الأسود، أما ما سوي ذلك فقد تحقق جميعه، وشهدت البادية وتأكدت أن هذا الجيش يزرع الأمن والطمأنينة في كل مكان يمر فيه.. فهذا الجيش الذي خرج من المدينة متوجهًا إلى مكة مر بالكثير من القرى وخيام البدو والتقى بالكثير من الناس، وهذا الانطباع الجيد الذي زرعه في القلوب سيثمر، وسيلحق الكثير منهم بالمسلمين بعد سنتين أو ثلاث، وسيتوجهون معهم لفتح مكة. ثم إن قريشا وجميع المشركين الآخرين عرفوا أن الكعبة ليست ملكًا لقريش وحدها، بل إن للجميع حقًا فيها وفي مقدمتهم فخر الإنسانية ﷺ وصحابته.

والحقيقة أن قريشا اضطرت إلى قبول هذه الحقيقة في معاهدة الصلح التي وقعت عليها

كما وقع عليها الرسول ﷺ إذ قالت للرسول ﷺ: "وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القِرَب لا تدخلها بغيرها."[١]

كان هذا اعترافًا بالمسلمين كجماعة لها كيان خاص، بينما كان المفهوم السائد حتى آنذاك أن مكة والكعبة ملك للمشركين ولاسيما لقريش، واقنعوا الجميع بهذا، وكان على الجميع الانقياد إلى الشعائر التي وضعها المشركون، وما كان لأحد أن يضع شعائر خاصة ومختلفة، بينما كان من ضمن شروط معاهدة الحُديبية حرية المسلمين في أداء الحج والطواف حول الكعبة بشعائرهم الخاصة بهم. وهكذا حصل الرسول ﷺ على مثل هذا النصر مع أن عدد أصحابه كانوا لا يتجاوزون ١٤٠٠ صحابيًا أمام جيش أكبر منهم بكثير.. النصر والنجاح في فتح قلوب الآخرين وفرض نفسه على الجميع.

فمثلاً قام عروة بن مسعود وسُهَيل بن عمرو ممثلين عن قريش بالتفاوض مع رسول الله ﷺ ولكن عندما شاهدا مدى ارتباط الصحابة بالرسول ﷺ وحبهم له، وشاهدا تصرف الرسول ﷺ وشخصيته المهيبة وإيمانه القوي العميق بالله تعالى وخشيته ومخافته منه وأحوال النبوة عليه تأثرا من ذلك تأثرًا عميقًا وذاب الجليد المتراكم في قلوبهما وتغيرت زاوية نظرهما وأصبحا مرشحين لقبول الإسلام في مستقبل قريب. وعندما رجعا إلى مكة أزالا الموقف المتعنت والصلب لقريش تجاه المسلمين وخففا جو الكراهية نحوهم، وهكذا فإن جو التسامح الموجود في الإسلام، وجو التعنت والعناد لدى المشركين كان يؤدي إلى تغيير في مواقف البعض، وكانت هناك أمثلة حية على هذا.[٢]

أجل، فالحائرون كانو يلتحقون بصف النبي ﷺ واحدًا إثر آخر. وقد تكون الحُديبية نوعًا من التراجع إلى الخلف في الظاهر، ولكنها كانت في الحقيقة نصرًا له ثمرات عديدة، ثم كان هناك أمر أمنِ جانبِ قريش وأمنِ هجومها وشيء آخر: فقد تكوّن حِلف في هذا الصلح، إذ تحالف بنو بكر مع قريش وتحالف بنو خُزاعة مع المسلمين، وكان من مقتضى الصلح ألا يهاجم أي طرف الطرف الآخر، وهذا أفرح رسول الله ﷺ جدًا.. إذن، فقد كانت هناك عشر سنوات من السلام في البادية يستطيع خلالها إسماع صوت الإسلام وإيصاله إلى قبائل عديدة.

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ١٩٢/٤-١٩٣؛ كتاب المغازي للواقدي، ٥٧١/٢-٦٣٢؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢٠٠/٢-٢٠٦.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٢٥/٣-٣٢٧؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٩/٤-١٩١.

١. خيبر رأس الفتنة

ما إن رجع رسول الله ﷺ من الحُديبية حتى توجه نحو خيبر التي كانت بمثابة دملة ورأس فتنة، فاليهود كانوا يغلون الفتن هنا، فأحيانًا يتفقون مع بني النضير أو مع غَطَفَان أو مع قريش، كانوا على الدوام يحيكون المؤآمرات والفتن ضد المسلمين ويضعون خطط القضاء عليهم، كانوا هم الذين حرضوا قريشًا، فأصابعهم كانت موجودة في معارك أُحد والخندق.

لقد آن وقت تأديب هؤلاء، لذا هيأ الرسول ﷺ غزوة فجائية وسريعة ضدهم، والذين أتوا إلى خيبر هم الصحابة الذين لم يتمكنوا من أداء شعائر العمرة، وكانوا يريدون أن يسدوا بالجهاد هذه الفجوة.

أرسل الرسول ﷺ بعضًا من صحابته إلى غَطَفَان لكونها حليفة لخيبر،[1] وقد حسبت غَطَفَان أنها هي المقصودة بالحرب، لذا فقد انشغلت بمشكلتها، وانقطعت صلتها ومساعدتها لخيبر، غير أن خيبر كانت هي الهدف الأصلي للرسول ﷺ، وبينما كان يهود خيبر في قلق ويتساءلون: متى سيأتون إلينا؟! إذا بالرسول ﷺ يفاجئهم ويسير إليهم ليلاً فأصبحوا والرسول ﷺ والمسلمون قد أحاطوا بخيبر.

كان أهل خيبر في ذلك الصباح ينوون الذهاب إلى حقولهم وبساتينهم مثلما يفعلون كل يوم، لذا حملوا معهم المساحي والمعاول وعدد الزراعة، ولكن ما إن نزلوا من حصونهم حتى تجمدوا في أماكنهم دهشة وذهولاً.. فقد رأوا أمامهم جيشًا مسلمًا على رأسه الرسول ﷺ.. وبعد أن تخلصوا من وقع المفاجاة بدأوا بالهروب والرجوع إلى الحصون.. في أثناء ذلك كان الرسول ﷺ يهتف هتافات ترتج منها الأرض: «الله أكبر! خربت خيبر!»[2] أجل، لقد انتهت خيبر.. لم يكن هناك حل سوى الاستسلام، مع هذا احتاج الأمر إلى حيدر كرار يفتح باب خيبر أمام المسلمين.[3]

وهكذا تم فتح خيبر على يد علي بن أبي طالب ﷺ وكان الرسول ﷺ قد بشر بأنه سيعطي الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وكان هذا الرجل هو عليًا المرتضى كرمَّ الله وجهه.[4] وهكذا استسلمت خيبر للمسلمين في مدة قصيرة وبأقل الخسائر.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/٣٤٤-٣٤٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٢٠٧-٢٠٦.

[2] البخاري، الصلاة ١٢، الأذان، ٦؛ مسلم، الجهاد ١٢٠.

[3] الإصابة لابن حجر، ٢/٥٠٨-٥٠٩.

[4] البخاري، المغازي ٣٨؛ مسلم، فضائل الصحابة ٤؛ الترمذي، مناقب ٢٠.

كانت أمنا صفية بنت حُيَيّ رضي الله عنها من بين أسرى خيبر، وكانت محظوظة إلى درجة أنها أصبحت زوجة الرسول الكريم ﷺ. ولهذه المرأة العظيمة إسهام كبير في الدعوة الإسلامية بين قومها بعد إسلامها،[1] واستعملت نفوذها ومكانتها السابقة في هذا المجال.

٢. مفخرة مؤتة

وهذه الغزوة كانت غزوة مليئة بالبطولة وإن كان الرسول ﷺ غائبًا عنها. أجل، فلن نستطيع إهمال ذكر غزوة مؤتة، وهي الغزوة التي كانت سببًا في وصول اسم الإسلام إلى أسماع العالم. هذه الغزوة التي استشهد فيها أحب الناس إلى الرسول ﷺ ودفنوا هناك، زيد بن حارثة ومن بعده جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة ﷺ جميعًا. استشهد هؤلاء كلهم في مؤتة وطاروا من هناك إلى الجنة. وتعد مؤته غزوة ظهر فيها الدهاء العسكري لخالد بن الوليد ﷺ، وكانت أول معركة له في صف الإسلام أثبت نفسه فيها.[2]

أثناء فترة الصلح أرسل الرسول ﷺ الرسائل إلى الملوك ورؤساء الدول يدعوهم فيها إلى الإسلام، فكانت إجابة بعضهم إيجابية، وبعضهم سلبية، وردّ بعضهم ردًّا قبيحًا تجاوز فيه حدود الأدب واللياقة.[3]

كان رد شُرَحْبِيل أمير بُصْرَى من هذا الصنف الأخير، ومع أن شرحبيل بن عمرو كان عربيًّا إلا أنه تنصر، ولكي يبين مدى تعصبه لدينه أمر بقتل حارث بن عمير ﷺ رسول النبي ﷺ إليه، ولم يكن قتل رسولِ رسول الله ﷺ ذنبًا يغتفر، كما كان أمره خطيرًا بالنسبة لتداعيات هذا العمل لدى رؤساء الدول الآخرين، لذا جهز الرسول ﷺ جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل جعل على رأسه زيد بن حارثة -طليقه ثم ابنه بالتبني ثم حرم الإسلام فيما بعد أمثال هذا التبني- وقال: «زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم»[4]

عندما بلغ جيش المسلمين مؤته استقبلهم هناك جيش قوامه مائتا ألف رجل، إذن، هناك فرق مذهل بين الجيشين.. ثلاثة آلاف شخص أمام مائتي ألف شخص، وعلى الرغم من

---

[1] الإصابة لابن حجر، ٣٤٦/٤-٣٤٧؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣٤٤/٣-٣٤٥.

[2] البخاري، فضائل أصحاب النبي ٢٥، المغازي ٤٤؛ المسند للإمام أحمد، ٤/١، ٨.

[3] البداية والنهاية لابن كثير، ٢٩٨/٤، ٣١١؛ تاريخ الأمم والملوك للطبري، ٢٣٧/٣-٢٥٠.

[4] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٥٦/٦-١٥٧؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١٥/٤، ٢١؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٢٩١/٤.

كل هذا الفرق الهائل قرر المسلمون القتال وهم يقولون "إما أن ننتصر أو ننال الشهادة."

استشهد القادة الثلاثة الأول واحدًا إثر آخر، وانتقلت الراية من يد إلى يد حتى وصلت إلى خالد بن الوليد الذي انكسر في يده في ذلك اليوم تسعة سيوف،[1] وبدأ خالد بن الوليد الذي انتقلت إليه القيادة بعد استشهاد عبد الله بن رواحة يقاتل من جهة ويناور بمهارة يبحث عن طريقة للانسحاب إلى المدينة دون إعطاء المزيد من الخسائر، وكان هذا الانسحاب نجاحًا كبيرًا من ناحية التكتيك الحربي.. صحيح أن التراجع إلى الوراء لم يكن من شيمة الصحابة، وكان الصحابة متألمين من هذا ويحز ذلك في نفوسهم، إلا أن المقاييس القرآنية تذكر بأن هذا كان ضروريًا.

وينقل البخاري هذه الواقعة فيورد عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب -وعيناه تذرفان- حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله فتح الله عليهم.»[2]

وفي رواية قال النبي ﷺ: «مثلوا لي في الجنة في خيمة من درة، كل واحد منهم على سرير، فرأيت زيدًا وابن رواحة، أعناقهما صدودًا، إنهما حين غشيهما الموت كأنهما أعرضا أو كأنهما صدا بوجوههما، وأما جعفر فإنه لم يفعل.»[3] إذن، فحتى الصحابة قد يكون عند بعضهم كراهية الموت، ولكن هذه الكراهية لم تصل عند أي منهم إلى حد محظور، ولا شك أن ما رآه الرسول ﷺ يعود إلى عالم البرزخ وعالم المثال.

أخافت هذه المعركة بني الأصفر مع أن عدد المسلمين كان لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل، واستطاع خالد أن ينسحب بجيش المسلمين دون إعطاء المزيد من الخسائر، وحسب رواية ابن هشام فإن عدد الشهداء في هذه المعركة بلغ اثني عشر شهيدًا.[4] وآكدت معركة مؤتة للناس في تلك النواحي أن المسلمين موجودون، وبدأ الروم يتحدثون عن هذا الدين الجديد.. عن الإسلام، وسواء آمنوا أم لم يؤمنوا فقد بدأ الناس يتحدثون عن الرسول محمد ﷺ.

بعد هذا التهيؤ العام جاء وقت تحقيق الرؤيا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا

---

(1) البخاري، المغازي ٤٤.
(2) البخاري، المغازي ٤٤؛ المسند للإمام أحمد، ١١٣/٣.
(3) مجمع الزوائد للهيثمي، ١٦٠/٦؛ المصنف لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، ٢٦٦/٥.
(4) السيرة النبوية لابن هشام، ٣٠/٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٢٩٥/٤.

لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح:٢٧-٢٨).

٣. نحو فتح مكة

كان الرسول ﷺ يرى الرؤيا الصادقة، ويروى عن أمنا عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح."[١]

هكذا كانت الرؤيا التي كان الرسول الله ﷺ يراها في منامه، وقد رأى في منامه أنه يدخل المسجد الحرام مثلما صورت الآية الكريمة ذلك وصدقته. ومع أن الرؤيا التي كان النبي ﷺ يراها في منامه كانت ممتزجة بالوحي وقريبة منه إلا أن كلمة "الرؤيا" قد تأتي بمعنى "الرؤية"، أي فكما كان الله تعالى يريه أحيانًا الجنة وجهنم واللوح المحفوظ، ويريه بعض الحوادث المستقبلية حتى يوم القيامة.. على غرار هذه فقد أراه دخوله إلى المسجد الحرام آمنًا مطمئنًا وأداءه مراسيم الحج والعمرة، قد تكون هذه رؤيا في المنام وقد تكون رؤية عيانية، وسواء أكانت هذه أم تلك فالنتيجة لا تتغير، فالمهم هو أن الحوادث جرت مثلما رآها بالضبط، وكان المنظر الذي رآه يشير إلى فتح مكة، وكانت الحوادث تدفع المسلمين نحو الفتح.

كنا قد ذكرنا ما تمّ من صلح في الحُديبية بين قريش وحلفائها من القبائل وبين المسلمين وحلفائهم من القبائل، ولكن عندما قامت قبيلة بني بكر الحليفة لقريش بالهجوم على قبيلة بني خُزاعة والفتك بهم فقد تم الإخلال بصلح الحُديبية، ولم تعد بنود هذا الصلح سارية، وقد أدرك أبو سفيان وخامة عاقبة هذا الهجوم، فسارع بالسفر إلى المدينة محاولاً التأكيد على أن الصلح لا يزال ساريًا، ولكن لم يوفق في مسعاه هذا.[٢]

لقد سبق السيف العذل، وبدأ النبي ﷺ يتهيأ للمعركة، وكعادته دائمًا كان يكتم نيته وهدفه، وقد كتم نيته هذه حتى عن أقرب وزرائه ومستشاريه إلى درجة أن أبا بكر ﷺ عندما ذهب مرة ليزور ابنته عائشة رضي الله عنها رأى الرسول ﷺ وهو يتهيأ للسفر، فسأل ابنته عن وجهته فقالت: لا والله ما أدري.[٣]

---

[١] البخاري، بدء الوحي ٣.

[٢] السيرة النبوية لابن هشام، ٣١/٤ وما بعدها.

[٣] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٩/٤.

أجل، كان التهيؤ للفتح سرّيًا إلى هذا الحد حتى عن أبي بكر ﷺ، أي حتى عن أقرب الناس إليه والذي اختاره لكي يكون رفيقه في الهجرة. ومع ذلك كتم عنه هدفه من التهيؤ للسفر، وهذا بُعد آخر من أبعاد فطنته العسكرية، وقد أخذ السلطان محمد الفاتح هذا الدرس من الرسول ﷺ، لذا نراه يقول في أحد الأيام: "لو أن لحيتي عرفت سري لحلقتها." هاكم فاتحًا كبيرًا من أتباع الرسول ﷺ ومن مدرسته في التكتم.

كان الرسول ﷺ عندما يقوم بعمل عسكري يوري بغيره ويتكتم على هدفه الحقيقي ويحاول أن يقدم بعض القرائن التي تشير إلى هدف آخر غير هدفه الحقيقي، وأنا أعتقد أن القواد الحاليين يفعلون الشيء نفسه، فإن كانوا ينوون الهجوم على موضع ماء فإنهم يقومون بعمليات تمويه ويفتعلون ضجة كبيرة في موضع آخر، إذ يخفون نياتهم الحقيقة على الدوام فلا يدري أحد أين سيقومون بتوجيه ضرباتهم، أفي موضع "أ"؟ أم في موضع "ب"؟ أم في موضع "ج"؟ وهذه تكتيكات تطورت منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، ولكن المكتشف الحقيقي لهذا هو الرسول ﷺ، مع أنه لم ير مدرسة ولم يقرأ كتابًا، ولكنه تعلم ما تعلم من ربه فأصبح -وهو الأمي- أعلم العلماء إلى درجة أنك لا تملك إلا وأن تشهد بأن محمدًا رسول الله.

أجل، كان يخفي هدفه عن الأعداء وفي الوقت نفسه يجمع الأخبار عن طريق شبكة الاستخبارات التي أسسها بحيث لم يكن يحدث شيء إلا ويصله خبره. وسواء أكان يتصرف هكذا بأمر من الوحي أم بسبب فطنته الكبيرة فالنتيجة لا تتغير وهي أنه كان يعرف ما يحدث في البادية كما يعرف راحة يده.

إليكم مثالاً: قام أحد الصحابة الذين شهدوا بدرًا بإرسال رسالة إلى مكة -باجتهاد خاطئ منه- بعد أن علم أنهم متوجهون نحوها- مع امرأة يخبرهم فيها بمسير رسول الله ﷺ إليها، وعلم الرسول ﷺ هذا من قبل الوحي فأرسل علي بن أبي طالب والزبير بن العَوّام ﷺ للقبض على المرأة وأخذ الرسالة منها، وهذا ما تم وبسرعة.[1]

واستمر التكتم في هذا الأمر ولم يشعر أحد بقدوم هذا الجيش حتى أصبح على مشارف مكة. وعندما استدعى الرسول ﷺ إليه أبا سفيان عن طريق عمه العباس ﷺ، لم يكن قد بقي أمام أهل مكة أي خيار أو سبيل آخر، فلو حاولوا الهرب بأسرع فرس أو ناقة لما نجوا.. لقد أسقط في أيديهم.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٤١/٤.

ومع ذلك كان الرسول ﷺ يتصرف بحذر، وحذره هذا كان من أجل الفريقين إذ لم يكن يريد أن يتأذى أحد لا من جيشه ولا من أهل مكة، وبسبب حذره هذا استطاع فتح مكة، تلك المدينة العظيمة، ولم يسقط سوى ثلاثة شهداء من جيش المسلمين، بينما كان لا يزال هناك الكثير من أهل مكة من الذين ركبوا عقولهم وقرروا القتال وليكن مايكون.

أتى الرسول ﷺ مع جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، أجل، مع عشرة آلاف مقاتل مع أنه أتى قبل سنتين مع ١٦٠٠ نفر فقط من المسلمين، وأراد الرسول ﷺ إظهار القوة الحقيقية لجيشه هذا فأمر بأن يوقد كل مقاتل نارًا، وذلك في مكان مشرف على مكة ليراها أهل مكة. ولما كان أهل مكة يتصورون أن كل خيمة توقد نارًا. لذا، فعندما رأوا عشرة آلاف نار موقدة قدروا أن الجيش الذي حاصرهم لا بد وإنه يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل، وهذا أدى إلى شل حركتهم شللاً كليًا، وأدركوا أن لا سبيل أمامهم سوى الاستسلام، وهذا هو ما أوصى به أبو سفيان عندما رجع إلى مكة، لأنه عندما رأى هذه النيران التي ملأت البطحاء فقد كل أثر من آثار المقاومة.. كانت هذه الليلة هي اللية الأخيرة للجاهلية إذ لم يبق بين المسلمين وبين ساعة الفتح سوى ليلة واحدة.[1]

كانت استراتيجية الرسول ﷺ -ذات البدائل المختلفة- مستمرة، وقسم الجيش الداخل إلي مكة إلى ستة أقسام حيث دخلوا إلى مكة من ستة أذرع، ولم يجد أي جيش مقاومة سوى الجيش الذي كان على رأسه خالد بن الوليد ﷺ إذ اضطر إلى تشتيت القوة التي جمعها عكرمة بن أبي جهل، أما الجيوش الأخرى فقد دخلت مكة دون قتال.[2]

كان أبو سفيان هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يخلق مشاكل في مكة، ولكن الرسول ﷺ استطاع أن يلين قلبه بجملة واحدة فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» أجل، كان إعطاء هذا القدر والمكانة إلى أبي سفيان كافيًا لربط يديه ومنعه عن القيام بأي عمل طائش، بل أصبح أبو سفيان من أنشط من حث على الاستسلام، ولا شك أنه ما كان باستطاعة جميع أهل مكة اللجوء إلى بيت أبي سفيان، وكان بيت الله "الكعبة" أولى من بيت أبي سفيان بالرعاية، لذا قال رسول الله ﷺ: «ومن دخل الكعبة فهو آمن»، ثم كان هناك قرار مفاجئ، وهو منع الخروج من البيت لأول مرة في التاريخ، وكان هذا ضرورياً من ناحية تحقيق الأمن ومن ناحية تسهيل حركة الجيش، لذا قال الرسول ﷺ: «ومن أغلق

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٤١/٤-٤٥.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٤٩/٤-٥٠.

عليه بابه فهو آمن.»[1] وهكذا تم القضاء على أي احتمال للمقاومة من قبل أهل مكة.

ولو أننا صرفنا أنظارنا عن الغزوات الأخرى للرسول ﷺ وركزناها على فتح مكة فقط والاستراتيجية السياسية والعسكرية التي طبقها، لكان هذا كافيًا لمعرفة درجة عبقريته العسكرية. أجل، إن فتح مكة وحده يكفي لأن يدفع كل منصف إلى أن يقول: "محمد رسول الله."

لقد كان واثقًا من كل خطوة خطاها في كل مرحلة من مراحل تحقيق خطته حتى لكأنه فَتح مكة مرات عديدة، فقد استطاع تطبيق خطته حتى أدق تفاصيلها تطبيقًا دقيقًا، كما عمل كل ما كان يجب عليه عمله.. فالعفو العام الذي أعلنه بُعيد الفتح، والشهامة وسعة الصدر التي أبداها فتحت قلوب أهل مكة فأقبلوا على إعلان إسلامهم، فما أعذب وما أرق هذه المكرمة التي ساقت أهل مكة سوقًا إلى الإسلام! والآن أتى دور قلب هذه القوة الكامنة إلى حركة وإلى عمل.

يا سبحان الله!.. ما أعظم هذا الانقلاب! هؤلاء الناس الذين كانوا بالأمس أعدى أعدائه، أصبحوا اليوم مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل محاربة أعدائه.. فمن ألقى عليه رسول الله ﷺ نظرة انقلب من فحم إلى ماس.. ولكن ما الداعي إلى أي تشبيهات أخرى، لقد شبه هو ﷺ أصحابه بالنجوم.[2] لقد استطاع رسول الله ﷺ في يوم واحد أن يرفع الأرواح المتلطخة لهؤلاء القوم الذين كانوا يتدحرجون في الأوحال إلى السماء ليكونوا نجومًا تشع فيها وليصبحوا قدوة حتى يوم القيامة.

٤. هفوة حُنين

حتى فتح مكة كانت هناك قبائل تتعقب الحوادث لكي تنضم إلى الجهة الغالبة، فلما تم فتح مكة بدأت هذه القبائل بالدخول إلى الإسلام قبيلة قبيلة، ولكن جريان الأمور على هذا النحو لم يعجب قبيلة ثقيف وقبيلة هوازن، ولكي لا تسمحا بالمزيد من هذه التطورات السلبية بالنسبة إليهما فقد أسرعتا إلى تشكيل جيش اشترك فيه كثير من النهاب والسلاب أيضا حتى بلغ مجموع أفراده ٢٠-٣٠ ألفًا.[3]

أرسل الرسول ﷺ عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي رضي الله عنه ليتسقط ويجمع له الأخبار من

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٣٣١-٣٣٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤/٤٧.
[2] كشف الخفاء للعجلوني، ١/١٤٧.
[3] البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٣٦٨-٣٧٢.

وسط هذه القبائل، وقام هذا الصحابي بعمله وبلّغ الرسول ﷺ كل ما جمعه من أخبار ومعلومات وقال: إن قبيلتي ثقيف وهوازن قد جمعتا جيشًا كبيرًا في حُنين.

كانت كلتا القبيلتين معروفتين بالشجاعة وبالمهارة في رمي السهام، لذا كان يجب مقابلتهما بجيش شاب يشكل فيه المسلمون الجدد غالبيته، وهكذا كان، فقد أصدر الرسول ﷺ أوامره بالمسير نحو حُنين دون أي تأخر، لأن الأوضاع كان من الممكن أن تنقلب ضد المسلمين، ذلك لأن جيش العدو إن تيسر له الوقت للتوجه نحو مكة لكان ذلك فرصة أمام بعض من كانوا يتحينون الفرص في مكة لعمل شيء ما ضد المسلمين، وفي الوقت نفسه لو قام المسلمون الجدد في مكة الذين أحسوا أن كرامتهم قد أهينت بالاشتراك في الحرب ضد الأعداء لكان ذلك باعثًا على تثبيت إيمانهم بالإسلام وإحساسهم بوحدة المصير في المستقبل.

تم الذهاب إلى حُنين باثني عشر ألف من المقاتلين، كان من بينهم ألفان ممن لم يكونوا مسلمين عن صدق، أما الباقون فكان معظمهم من الشباب وتنقصهم التجربة والخبرة في القتال، وكان على رأسهم خالد بن الوليد ﷺ. كان العدو قد أخذ موضعه على شكل حدوة الحصان، وبدأت طلائع الجيش الإسلامي بشن الهجوم على القلب من جيش العدو ولكن دون أن ينتبهوا للأمر أو عن قصد.

ثم اضطرت هذه الطلائع إلى التراجع على أثر إمطارها بالنبال والسهام، لأن أكثر الجنود لم تكن لديهم دروع، وكانت السهام شديدة عليهم وتصيب أهدافها، فإن كان الهجوم على وسط حدوة الحصان تم عن علم فإن التراجع والتقهقر كان خدعة حربية، ذلك لأن رماة السهام ما إن رأوا تراجع المسلمين وهربهم حتى انطلقوا وراءهم وهم يطلقون صيحات الفرح وتركوا مواضعهم ولم يشعروا أنهم دخلوا داخل كماشة مما اضطرهم إلى التراجع، ولم تمض سوى ساعات حتى قتل منهم من قتل وفَرَّ الباقون إلى الطائف واحتموا بقلاعها.[1]

ظهرت بوادر هزيمة ظاهرية في بداية معركة حُنين -مثلما حدث ذلك في وسط معركة أُحد- ولكن رسول الله ﷺ استطاع بشجاعته الفطرية التي كانت تلازمه حتى في أحرج المواقف وأصعبها، وبفطنته الكبيرة أن يغير وجهة الحرب ويحولها بفضل الله تعالى من هزيمة مطلقة إلى نصر باهر.

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٧٣/٤ وما بعدها.

عندما أحاط الذهول والذعر بجيش المسلمين وتقهقروا اندفع رسول الله ﷺ إلى الأمام.. كان عمه العباس ﷺ -وفي روايةٍ أبو سفيان بن الحارث- قد أمسك بلجام بغلة الرسول ﷺ ليمنعه عن الاندفاع نحو العدو، بينما كان الرسول ﷺ يصيح بصوته المهيب:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

ثم قال لعمه العباس: «أي عباس! ناد أصحاب السَّمُرَة»، فأجابوه: "لبيك.. لبيك!" وجعلوا يسرعون إليه وسيوفهم مشهرة في أيديهم، وهكذا انتهت فترة الذهول والتراجع القصيرة وثابوا إلى الرسول ﷺ وانتهت المعركة بالنصر المبين.[1]

لا أملك نفسي هنا من الإشارة إلى نقطة، وهي أن رسول الله ﷺ اشترك في ثمانية عشر غزوة وانتصر في جميعها، ولكني أعتقد أن معركتي أُحد وحُنين أفضل معاركه من ناحية إظهار عبقريته العسكرية، ذلك لأن الأمور جرت في المعارك الأخرى مثلما خطط لها تمامًا ووصل إلى النصر فيها بسهولة، أما في هاتين المعركتين فقد ظهرت أمور وطرأت مشاكل غير محسوبة حرفت خططه وغيرتها وأعطت فرصًا كبيرة للعدو، ولكنه استطاع مع هذا، الوصول إلى النصر ولم يكن له أي دخل في تلك المستجدات، لذا كان قيامه بإنقاذ جيشه من الهزيمة والوصول إلى النصر في هاتين المعركتين أفضل وأوضح برهان على العبقرية العسكرية لذلك القائد العظيم.

٥. تبوك

تعد معركة تبوك من المعارك السريعة التي حققها الرسول ﷺ، فقد انتشرت شائعة مفادها أن الإمبراطورية البيزنطية هيأت جيشًا كبيرًا وإن هذا الجيش بدأ بالتوجه نحو المدينة، وبينما أقلقت هذه الشائعات المسلمين فإنها أصبحت مصدر أمل وسرور للقبائل المعادية للمسلمين، الجميع كانوا يتوقعون من الغسانيين شرًا بالمسلمين.

ومع أن الرسول ﷺ كان يستعين بالكتمان في جميع غزواته، إلا أنه أعلن هذه المرة عن هذه الغزوة وأرسل رجالاً إلى القبائل القريبة يطلب منها مساعدته بالرجال وبالسلاح. كانت المدينة وما حواليها تعيش آنذاك ظروفًا صعبة، فالجو كان حارًا جدًا والجفاف سائدًا، كما كان وقت قطاف الثمار، ولكن في هذا السفر وفي هذه الغزوة كم من فقير ذهب إلى الرسول ﷺ يطلب منه أن يوفر له راحلة ليشترك في هذه الغزوة، وعندما لا يستطيع الرسول

---

[1] البخاري، الجهاد ١٥٢؛ مسلم، الجهاد ٧٦-٧٧؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٧٣/٤.

ﷺ ذلك رجع وهو يبكي.. والقرآن الكريم ذكر هذا المشهد المؤثر وخلّده في قوله: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة:٩٢).

في هذه الأثناء لم يكن المنافقون واقفين مكتوفي الأيدي، بل بدأوا بنشاط محموم لتثبيط عزيمة المسلمين وعرقلة سفرهم هذا، واستعانوا بكل حيلة في هذا المجال. أخيرًا توجه الرسول ﷺ بجيش قوامه ثلاثين ألف مقاتل نحو تبوك، وبقي في تبوك عشرين يومًا، ولكن البيزنطيين لم يجدوا في أنفسهم الشجاعة لمواجهة هذا الجيش، لذا لم تقع حرب في تبوك، ولكن قدوم المسلمين حتى موضع تبوك أحدث تأثيرًا كبيرًا على كل من سمع بهذا النبأ، وكان تهديدًا وتحديًا كبيرًا للعدو أثر على معنوياته تأثير أي هزيمة كبيرة في ساحة القتال، وقد قبلت قبائل مسيحية عديدة أداء الجزية للرسول ﷺ وأعلنت انقيادها له، كما أعلنت بعضها إسلامها.[١] لذا، يمكن عد حملة تبوك من ضمن الانتصارات التي حققها الرسول ﷺ.[٢]

لقد حاولنا بتقديم بعض الحوادث إظهار الجانب العسكري للرسول ﷺ، والآن سنقوم بذكر الخصائص العامة التي يجب توفرها في أي قائد عسكري، لكي يتسنى لنا معرفة أفضل بالعبقرية العسكرية له ﷺ وبفطنته الكبيرة في هذا المجال.

---

[١] البخاري، الجهاد ٥٢.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ١٣/٥ وما بعدها.

الفصل الثالث: المؤهلات التي يجب توفرها في أي قائد

بجانب المعلومات والقابليات العسكرية التي يجب توفرها لدي أي قائد عسكري يجب توفر كل صفات الزعامة فيه، لأن القائد العسكري زعيم في الوقت نفسه وسنقوم بتلخيص هذه الصفات:

١. على كل زعيم أن يملك قابلية إعطاء القرارات الصحيحة. يعد إعطاء القرار بمثابة الأسس للأعمال التي يجب إنجازها، ولكن كما يمكن إعطاء قرار غير صائب كذلك من المحتمل أن يكون القرار خاطئا من ناحية التوقيت كذلك، فالقرارات المتأخرة أو المتقدمة عن أوقاتها الصحيحة تعد قرارات خاطئة، لذا فإن القرار الصائب الذي يتخذه أي زعيم يتميز عن أي قرار آخر اعتيادي بأنه قرار صائب متخذ في وقته المناسب تمامًا.

هناك أوقات مهمة يجب فيها اتخاذ قرار سريع، والزعيم يتميز عن الآخرين في مثل هذه الأوقات بقابليته على اتخاذ القرار السريع الذكي والصائب، هذا مع أن القرارات المتخذة على عجل تكون في الغالب قرارات خاطئة لأن العجلة تكون عادة ضد الصواب ويصعب أن يوجدا معًا، والزعيم هو رجل مثل هذه الأوقات الصعبة حيث يستطيع الجمع بين هذين الضدين.

٢. على كل زعيم أن يملك شجاعة فطرية.. من لم يكن شجاعًا لا يمكن أن يكون زعيمًا، فعلى الزعيم أن يكون شجاعًا رابط الجأش قوي القلب، فقد يأتي يوم يبقى فيه وحيدًا وشجاعته الفطرية تنقذه آنذاك من التذلل، في مثل هذه الأوقات التي يضطر فيها الزعيم والقائد إلى تحمل تبعات دعوته وحده عليه أن يتصرف وكأن الآلاف خلفه، وذلك لكي يستطيع الوصول إلى هدفه.

أجل، على القائد والزعيم ألا يخاف من الموت أبدًا. فالذي يخاف من كل شيء ويخشى من كل خطوة ومن كل أمر لا يمكن أن يكون قائدًا ينظم ويدير جماعته.

٣. القائد رجل الإرادة التي لا تلين، فليس من الممكن له الرجوع عن قراره ولا تبديل إيمانه وعقيدته ولا إعطاء أي تنازل عنها، فالأمل صديقه الذي لا يفارقه، أما اليأس فعدوه الكبير الذي لا يقربه حتى في الأحلام، فالعراقيل الموجودة أمامه مهما كانت كبيرة لا تثنيه عن

عزمه ولا تضعف من إرادته، فهو يملك قوة معنوية وروحية يغلب بها اليأس، وإلا فكيف يكون باستطاعته جذب الجماهير خلفه؟ أجل، إن القائد شخص ذو إرادة فولاذية لا تلين.

٤. القائد شخص يدرك مسؤولياته إدراكًا جيدًا، وشعور المسؤولية هذا جزء لا يتجزأ من كيانه، فلو تفرق عنه جميع من حوله واحدًا إثر واحد فهو يبقى مستعدًا لتحمل التبعات الثقيلة لدعوته حتى النهاية وإن أصبح وحيدًا. أجل، هذا هو مقدار شعوره بالمسؤولية، وليس هناك أمر أو عائق يستطيع إضعاف هذا الشعور الذي يتحول عنده إلى قناعة فكرية ثابتة.

٥. على الزعيم أن يكون بعيد النظر يتجاوز زمنه، ويكتشف مسار الحوادث المستقبلية بحدسه وبفكره الثاقب ويراها مثلما رأى الأحداث الماضية ويعطي أحكامه وقراراته على هذا الأساس. ولكن إن كانت الأيام تثبت على الدوام عكس ما أمله وما توقعه وتنقض حدسه فليس في إمكانه إقناع من برأسه مسكة من عقل.

على الزعيم أن يرى المستقبل لكي تكون قراراته نهائية، وإلا اضطر إلى تبديل قراراته على الدوام حسب تقلب الأيام، وهذا سيولد الخلاف الفكري والشقاق بين جماعته، وهذا يؤدي إلى انهدام الجماعة. فالقرارات المتغيرة على الدوام ستؤدي إلى تفتيت الجماعة إلى أفراد كل منهم يحمل فكرًا خاصًا به. إذن، فعلى القائد أن يكون ذا بصيرة نافذة وفراسة حادة.

٦. على القائد أن يكون إنسانًا مستقرًا من الناحية النفسية لا يتأثر ولا يغير وضعه تحت تأثير أي حادثة، فلا يغره أروع النجاحات ولا يغيره أكبر الانتصارات، وعندما يواجهه الفشل يقوم بمحاسبة نفسه.

القائد هو الشخص الذي بَعُد عن وضاعة النفس واستمر في طرز حياته البسطية المتقشفة، يعيش حياته بتناغم موسيقي هادئ، بل إن القائد الجيد هو الذي ينهي حياته بمستوى أعلى من البداية التي بدأها، وهذا لا يتم إلا إذا كان القائد يملك نفسًا متواضعة تمام التواضع لكي لا ينسى أيامه الأولى ولا أصدقاءه السابقين.

٧. القائد شخص يعرف التقييم الجيد للأفراد، ويعرف أكثر من غيره نوعية الأفراد الموجودين تحت قيادته، ويعرف أين يستعمل ومن يستعمل منهم وفي تحقيق أي هدف. والشخص الذي لا يعرف توزيع الأعمال حسب القابليات، ولا يسجل نجاحًا في هذا الأمر لا يستطيع أن يكون ليس فقط قائدًا بل حتى إداريًا جيدًا.

على القائد أن يودع كل عمل إلى أليق الأشخاص لذلك العمل وأكثرهم قابلية في إنجاز ذلك العمل. فالقائد أفضل من يقوم بهذا التقييم ويقوم بتوظيف القابليات والاستفادة منها على الدوام. وهو عادة لا يضطر إلى الرجوع عن قراراته السابقة في هذا المجال لأنه يملك بوصلة حساسة في تقييم القابليات ووزن الرجال، طبعًا عدا استثناءات قليلة لا يمكن لأي إنسان التخلص منها.

٨. القائد هوالشخص الذي يحب رعيته بحيث أن كل فرد منهم يشعر أنه أقرب إلى قلبه من الآخرين، وهو الشخص الذي تقابله رعيته أيضا بالحب.. ثقته بالرعية وثقة رعيته به تامة.

٩. لا يوجد في أي مرحلة من مراحل حياته شيء يمكن إشهاره في وجهه كتهمة، فماضيه معروف كحاضره، وماضيه نقي كحاضره، ولو قام أحد بتدقيق ماضيه -سواء بنية سيئة أو حسنة- لما وجد فيه ما يخجل منه، ولو أصبحت الدنيا بأجمعها خصما له لما استطاعت إلقاء أي ظل من الشك على عفته وسمعته.. طبعًا إن تم الالتزام بالصدق ولم يسلكوا سبل الكذب والافتراء.

١٠. القائد شخص له جوانب عديدة وميزات كثيرة، واستطاع التميز في مجتمعه في كل جانب من هذه الجوانب، ولا يمكن لأحد أن يجد أي عيب في تصرفاته وسلوكه، وكلما دققت جوانبه المختلفة تبين هذا الأمر أكثر فأكثر.

لقد حفل التاريخ الإنساني بالعديد من هؤلاء القادة العظام، ولكن لا يوجد أي قائد جمع في نفسه كل هذه الصفات التي عددناها، أما القادة الذين جمعوا بعض هذه الصفات فقلة أيضًا.

"الإسكندر الكبير"، "هَنيبَعل"، "نابوليون"، "هتلر"، ومن تاريخنا: "محمد الفاتح"، "السلطان سليم الأول"، "السلطان بايزيد" والملقب بالصاعقة، "جلال الدين خرزم شاه"، "صلاح الدين الأيوبي"، "طارق بن زياد"، "الشيخ شامل" الذي حارب الروس مدة أربعين عامًا... لا شك أن هؤلاء كانوا قادة عظامًا، غير أننا إن قمنا بتقييمهم من زاوية الصفات التي سردناها لوجدنا أنه لا يمكن مقارنتهم أبدًا بقائد القادة محمد ﷺ.

أجل، هناك شخص واحد فقط في العالم كله استطاع أن يجمع فيه جميع صفات القيادة الناجحة دون أي نقص وفي أعلى الذرى وهو محمد ﷺ.. ذلك لأنه كان رسول الله، وكان تحت رعاية الله وتأييده وتوفيقه في جميع الإجراءات التي اتخذها طوال حياته.

أ- نظرة سريعة على حياته

كانت جميع قراراته سريعة وصائبة جدًا، فلم ينتج الفشل والخذلان عن أي قرار اتخذه، وقد سبق وأن أعطينا أمثلة مفصلة حول هذا الأمر ولاسيما القرارات الصائبة التي اتخذها في معركتي أُحد وحُنين والتي أنقذت جيشه من هزائم محققة وأوصلته إلى انتصارات مبينة.

كان شخصًا شجاعًا بفطرته، سلك طريقًا طويلاً وصعبًا تحدى به العالم أجمع، واستمر في طريقه هذا دون خوف لا من أي فرد ولا من أي جماعة، بل كان عندما تبدو بوادر الهزيمة في جيشه يسوق فرسه ويهجم بنفسه على الأعداء دون أي خوف ولا وجل حتى أن فارسًا بشجاعة علي بن أبي طالب ﷺ كان يقول: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا."[1]

يورد البخاري عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نَجْد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله تحت سَمُرَةٍ وعلق بها سيفه ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: «إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صلْتًا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله» (ثلاثًا)، ولم يعاقبه وجلس.[2] هذه هي شجاعة رسول الله ﷺ، وهذا هو مبلغ ثقته بالله واعتماده عليه.

وفزع أهل المدينة يومًا عندما سمعوا صوتًا عظيمًا وخرجوا إلى الدروب لاستطلاع الخبر، دعونا نقرأ الحادثة في البخاري عن أنس ﷺ قال: "كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قِبَل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول «لم تُراعوا لم تُراعوا» وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ ما عليه سرج، في عنقه سيف."[3]

كان الرسول ﷺ أول من سمع الصوت فامتطى فرس أبي طلحة وتوجه إلى ناحية مصدر الصوت حتى اطمأن إلى عدم وجود أي خطر ورجع. إذن، فالإسراع وحده نحو مصدر صوت أفزع جميع أهل المدينة يبين مدى الشجاعة الفطرية التي كانت موجودة لديه.

وعندما خشي أبو بكر ﷺ وخاف على حياة الرسول ﷺ وهو في الغار معه بعد أن اقترب

---

[1] المسند للأمام أحمد، ٨٦/١.

[2] البخاري، الجهاد ٧٤، المغازي ٣١؛ مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٧.

[3] البخاري، الأدب ٣٩؛ ابن ماجه، الجهاد ٩.

منهما المشركون قال له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!» فهدأ بذلك روع أبي بكر الصديق ﵁.[1] ثم ألا يعد خروجه من داره والأعداء الذين أعماهم الحقد والغضب يحيطون بها شجاعة كبيرة؟ كان يملك إرادة صلبة لا تهتز ولا يمكن لويها لأنها كانت مرتبطة بمشيئة الله تعالى.

ب- العظمة التي لا يمكن بلوغها

توفي والده قبل أن يولد، أي أصبح يتيمًا وهو في بطن أمه، لذا لم يتعود الاعتماد على الأب وانتظار العون والمساعدة منه وما قد يستتبع هذا الاعتماد من ارتخاء لدى الإنسان، فدعوته كانت موجهة إلى تقوية إرادة الإنسان.

وتوفيت أمه وعمره ست سنوات، بينما تعد الأم أكبر سند للمرء، وليس هناك من يستطيع أخذ مكان الأم في القلب، إذن، فقد سُحب منه هذا السند أيضًا.. كانت الحوادث تهيئه وتربيه، وكانت إرادة فخر الكائنات تقوى بمرور الأيام.

وفي سن الثامنة فقد جده، هذا الجد الذي كان سندًا لمكة ولأهل مكة.. ولكنه أفل هو الآخر.

كان الله تعالى يريد بهذه الحوادث أن يوجهه إلى منبع الثقة ومصدر الأمان.. إلى ذاته تعالى، وأن يسحب من حوله ومن بين يديه كل شيء يمكن أن يلقي ظلاً على هذا الأمر.. أجل، سيعاونه هو، ويسانده هو وسيربيه هو تعالى.. صحيح أنه من المحتمل أن هزة كانت تصيب رسول الله ﷺ كلما فقد سندًا، وذلك حسب طبيعته الإنسانية، غير أنه كان يجب أن يتهيأ تمامًا لحمل عبء الوظيفة الكبرى التي بانتظاره وأن تشحذ إرادته أكثر فأكثر، وذلك لكي لا يفقد من عزيمته شيئًا ولا يتردد أبدًا وإن سحبت الدنيا جميعها يدها منه وبقي معلقًا في الفراغ وحده. ولوحدث له هذا -وهو لم يحدث في الحقيقة- لما تغير شيء بالنسبة إليه ولاستمر في طريقه.. ولو لم يكن هذا أمره فكيف كان يستطيع جمع أصحابه بعد كل ما أصابه وأصابهم، ويأمرهم بتعقب جيش العدو؟ كان صاحب إرادة قوية إلى درجة أنه رغم كل الجروح التي أصابته وأصابت أتباعه، ورغم التعب والإرهاق فقد كان في مقدمة جيشه وهو يتعقب جيش العدو.

لا توجد في حياته لحظة ذعر واحدة، ففي اللحظات التي تفرق عنه أصحابه الذين كان كل واحد منهم أسدًا هصورًا ذات اليمين وذات الشمال ثبت هو في مكانه فلم يتأخر خطوة واحدة.. أجل، لقد كانت إرادته إرادة فولاذية لا تلين.

---

[1] البخاري، فضائل أصحاب النبي ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢/١.

لم يبق هناك أذى لم يصبه في مكة، ولكنه لم يهتز.. توفيت زوجته ثم عمه وكانا من أكبر مسانديه، ولكنه لم يصبه أي يأس ولم يظهر عليه أي تردد أو قلق.

عندما ذهب إلى الطائف رموه بالحجارة فأدموا وجهه وألجأوه إلى حائط، وظهر له ملك وقال له إنه مستعد لأن يحمل جبلاً ويطبقه على أهل الطائف إن أراد ذلك، ومع أن الدم كان يسيل على جسده الطاهر إلا أنه رفض هذا..[1] فما أعجب هذه الإرادة التي لا تتزحزح قيد شعرة عن قرارها.. إذن، يستطيع الإنسان أن يتبع مثل هذا القائد حتى الموت، وأن يفديه بكل شيء، لأنه يعلم جيدا أنه مع مثل هذا القائد لن يقف في منتصف الطريق.. فكيف يمكن السير وراء شخص ضعيف الإرادة يغير رأيه بسرعة ويترك أصدقاءه في وقت الضيق والشدة ويرجع عن قرارات ومبادئ سبق وأن تم التضحية في سبيلها بآلاف الأشخاص، بينما كان المنتظر منه الاشتراك بالتضحية نفسها؟ كيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يكون قائدًا وزعيمًا؟ ثم أليس أمثال هؤلاء من مدعي الزعامة والقيادة هم السبب في خيبة الرجاء التي يحسها إنساننا اليوم؟

كان ﷺ إنسان مسؤولية وبطلاً من أبطال الإرادة الصلبة، فالقرآن الذي أنزل عليه لو أنزل على جبل لتصدع.. لقد كان صاحب إرادة مدهشة. كُلِّف بمهمة التبليغ.. كان عليه أن يُعرِّفَ بالله تعالى كُلَّ إنسان فردًا فردًا.. كانت مهمة صعبة مثل مهمة تفريغ مياه المحيط بقشرة بيضة، ولكن رسول الله ﷺ أخذ هذه المهمة على عاتقه دون تردد.. فتح القلوب وأدرك قابليات كل فرد من الأفراد.

تبليغ دعوة الإسلام كان هدف وجوده، فلم يكن قلقًا لا حول الدنيا ولا حول الآخرة، فلم يُثنِه أي شيء هذا الهدف وهذه المسؤولية، لا رؤيته الجنات ولا وصوله إلى قاب قوسين.. فمن ذلك المكان الذي رصفت النجوم تحت أقدامه كالحصى رجع إلى هذه الدنيا المملوءة بالآلام وبالمشقات وأصبح معنا وبيننا، لأنه كان يشعر بمسؤوليته وبوظيفته بكل ذرة من ذرات وجوده وكيانه.. بلغ شعور المسؤولية عنده درجة قال معها ذات يوم: «والله لَوَدِدتُ أني كنت شجرة تُعضَد[2]»[3] كان هذا هو إدراكه لمسؤولية كونه إنسانًا يحمل عبء مهمة ثقيلة ويئن تحت ثقل هذه المسؤولية.. وحاله يوم المحشر امتداد لمسؤوليته هذه، لذا

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ١٦٨/٣.
[2] تُعضد: أي تُقطَّع.
[3] ابن ماجه، الزهد ١٩؛ الترمذي، الزهد ٩.

سيقع يوم القيامة ساجدا لله تعالى وهو يقول: «أمتي!.. أمتي!..»[١] والحقيقة أنه لم يكن هناك أحد غيره يستطيع حمل مثل هذه المسؤولية، لأنها كانت مسؤولية الإنسانية كلها، أي تمتد من الإنسان الأول حتى الإنسان الأخير.

كان صاحب رؤية وفراسة تتجاوزان أبعاد الزمان والمكان. أهذا فحسب؟.. كانت نظراته تصل إلى عالم الغيب وتبصره، إذ ألم يكن هو الذي شرح لنا وهو في الدنيا عالم الجنة وجهنم والصراط والمحشر بكل تفاصيله؟ كان يرى ويشاهد هذا العالم ثم يصفه لنا[٢] وكما أكدنا من قبل مرارًا فإن الحوادث صدقت كل أقواله التي قالها حول المستقبل ولم تكذبه، فكلما حان الوقت الملائم ظهرت الحادثة التي تنبأ بها، وهناك حوادث تنتظر الظهور.[٣] ولكي تدرك مدى بُعد نظره انظر إلى صلح الحُديبية الذي سبق وأن فصلنا الكلام حوله.

ج- الإنسان الذي لم يتغير

أنهى حياته مثلما بدأها.. أي سار فخر الكائنات على المنوال نفسه وضمن المقاييس نفسها والمبادئ نفسها فلم يتغير ولم يتبدل.. مثلما تصرف في مكة -وليس معه سوى امرأة وصبي وعبد وحر- تصرف في حجة الوداع وهو يخاطب أكثر من مائة ألف، بل إن تواضعه زاد وهو في أوج النصر والفتح المبين.

هو القائد الوحيد الذي لم يتغير ولم يتبدل طوال حياته.. تأملوا كيف لم يغير سلوكه وتصرفه أمام الذين كانوا السبب في الأذى والشدائد التي تعرض لها طوال حياته. وعندما توسعت حلقات أصدقائه وتعددت بتقدم الدعوة والتحاق أناس جدد ذوي قابليات كبيرة، لم ينس أصدقاءه السابقين أبدًا، بقي كما كان سابقًا.

د- التواضع الرائع

كان جالسًا في أحد الأيام يأكل مع أصدقائه، فمرت به امرأة بذيئة اللسان، فلما رأته قالت:"انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد." فقال النبي ﷺ: «وأيُّ عبدٍ أعبد مني؟» قالت: "ويأكل ولا يطعمني." قال: «فكلي.» قالت: "ناولني بيدك!" فناولها

---

[١] البخاري، التوحيد ٣٦؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦.

[٢] مسلم، الفتن ٢٢-٢٥؛ المسند للأمام أحمد، ٤/١.

[٣] انظر إلى مباحث الفتن والملاحم في كتب الحديث.

فقالت: "أطعمني مما في فيك" فأعطاها فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحدًا حتى ماتت.[١]

وعن جرير أن رجلاً أتى النبي ﷺ من بين يديه فاستقبلته رعدة أي ارتجف من مهابة النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «هَوِّنْ عليك، فإني لست بملِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد.»[٢]

وعن ابن عباس أنه كان يحدث أن الله أرسل إلى النبي ﷺ ملكا من الملائكة مع الملك جبريل عليه السلام، فقال الملك: "يا محمد، إن الله يخيّرك بين أن تكون نبيًا عبدًا أو نبيًا ملكًا"، فالتفتَ رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستشير فأومأ إليه أن "تواضع" فقال رسول الله ﷺ: «بل نبيًا عبدًا.»[٣]

في هذه الأثناء كانت الغنائم والهدايا تأتيه من أرجاء الدنيا، ولكنه كان يوزع جميع هذه الغنائم والهدايا على أصحابه ولا يبقي لنفسه شيئًا منها، ولم يتغير سلوكه هذا طوال حياته، وعندما دخل مكة منتصرًا وفاتحًا دخل وذقنه يكاد يلامس ظهر راحلته تواضعًا.[٤]

عندما أقبل عليه سعد بن معاذ رضي الله عنه قال لجلسائه: «قوموا لسيدكم.»[٥] ولكنه كان ينهى أصحابه عن القيام له ويقول: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم.»[٦]

صلى في ليلة المعراج إمامًا لجميع الأنبياء،[٧] غير أن هذا الفضل المهدى إليه لم يغيره وقال: «لا تخيّروني على موسى.»[٨] وقال مرة: «لا أقول إن أحدًا أفضل من يونس بن متّى عليه السلام.»[٩]

ومع أن أستار الغيب رفعت مرات عديدة أمام عينيه إلا أنه عندما دخل على إحدى نسائه وعندها جويريات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر حتى قالت جارية: وفينا نبيّ يعلم ما في غد، قال رسول الله ﷺ لها: «لا تقولي هكذا، وقولي الذي

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢١/٩.
[٢] ابن ماجه، الاطعمة ٣٠؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٠/٩.
[٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٩/٩-٢٠.
[٤] السيرة النبوية لابن هشام، ٤٧/٤-٤٨.
[٥] البخاري، الاستئذان ٢٦؛ الإصابة لابن حجر، ٣٨/٢.
[٦] أبو داود، الأدب ١٥٢؛ المسند للأمام أحمد، ٢٥٣/٥.
[٧] البداية والنهاية لابن كثير، ١٣٦/٣؛ جامع البيان للطبري، ٣/١٥.
[٨] مسلم، الفضائل ١٥٩-١٦٠.
[٩] مسلم، الفضائل ١٦٦-١٦٧.

كنتِ تقولين»،[١] وفي روايــة أخرى: «أمّا هذا، فلا تقولوه، ما يعلم ما في غد إلا الله.»[٢]

أجل، هناك إنسان واحد وقائد واحد لم يغير سلوكه وتصرفه المتناغم طوال حياته، وهو بلا شك محمد رسول الله ﷺ.

هـ- معرفته بالقابليات

لم يكن له نظير ولا مثيل في اكتشاف قابليات أتباعه، فعندما تقررت الهجرة إلى الحبشة اختار جعفر بن أبي طالب ﷺ ليكون أمير المهاجرين، وقد أثبت جعفر ﷺ في حواره مع النجاشي أن اختياره كان اختيارًا صائبًا.[٣]

كان مصعب بن عمير ﷺ أول من أرسله مرشدًا إلى المدينة، وكان ما قام به مصعب ﷺ في المدينة من أعمال، وما قدم من خدمات للدعوة الإسلامية أفضل وأصدق شاهد على حسن اختياره. لقد كانت المدينة في حاجة إلى رجل رقيق ودمث الخلق مثل مصعب، لذا اختاره الرسول لتلك المهمة.[٤]

وفي ليلة الهجرة كان لا بد من وجود أحدهم في فراشه لايهاب المشركين إذ كان من المحتمل ومن الممكن أن تقع عليه الضربات الموجهة إلى الرسول ﷺ، لذا كان لا بد من اختيار بطل مثل علي بن أبي طالب ﷺ للقيام بهذه المهمة.[٥]

ثم من كان يجب أن يرافقه في هجرته ويصاحبه في سفره ويكون معه في الغار؟ أي شخص كان من المفروض أن يراه أهل المدينة معه؟ لقد قرر أن يكون هذا الشخص أبا بكر ﷺ الذي حافظ على موقع الرجل الثاني على الدوام، كان الرسول ﷺ قد عينه في هذا المقام والموقع منذ بداية الأمر، واستمر أبوبكر في هذا الموقع حتى النهاية، ذلك لأن اختياره كان موفقًا منذ البداية.

هذا، مع العلم أننا نجد آثار بصماته في اختيار جميع الخلفاء الراشدين من بعده.. أي كان من المفروض أن يكون أبو بكر ﷺ هو الأول وعمر ﷺ هو الثاني وعثمان ﷺ هو الثالث وعلي كرم الله وجهه هو الرابع، ذلك لأن حدود آجال هؤلاء التي عينتها يد القدركانت تقتضي هذا التسلسل، فالتصرف الإلهي ظاهر في هذا الأمر.

---

[١] البخاري، مغازي، ١٢، النكاح، ٤٨.

[٢] الترمذي، النكاح ٦ ابن ماجه، النكاح ٢١.

[٣] المسند للأمام أحمد، ١/٢٠١-٢٠٢.

[٤] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٧٦.

[٥] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/١٢٦-١٢٧.

كان موفقًا في كل اختيار له بدءً من تسليمه السيف إلى أبي دُجانة ﷺ[1] وانتهاءً بمهمة زرع الشقاق بين قريش وبين اليهود التي أعطاها إلى نُعيم بن مسعود ﷺ[2] كان يتصرف دائمًا بمبدأ إعطاء كل مهمة إلى أهلها.

كان حُذيفة أهلاً لحفظ الأسرار فأْتَمنه على بعض أسراره.[3] وكلف عمه العباس ﷺ بأمور المخابرات في مكة، وقام عمه بهذه المهمة خير قيام.[4]

اختياره للقواد واختياره للرسل الذين أرسلهم إلى الملوك والرؤساء.. اختياره للطلاب لكي يكونوا رجال علم في "الصُفّة".. اختياره لعمال جمع الزكاة، كل هذه الاختيارات كانت صائبة كما أثبتتها الأيام.

أجل، إن من المهم جدًّا لكل قائد أن يعرف تمامًا نوعية الأشخاص الذين يعهد إليهم القيام بمهمات معينة، والتاريخ يذكر الأخطاء الكثيرة والكبيرة التي اقترفها الكثير من الزعماء والقادة في هذا الأمر، فكم من قائد خانه من قربه إليه وجعله من خاصته.

استخدم الرسول ﷺ الأرقم بن أبي الأرقم ﷺ في الأمور المالية، واستمر في خدمته هذه للشؤون المالية في عهد أبي بكر وعمر ﷺ، أما في عهد عثمان ﷺ، الذي كان يخص من ماله الخاص بعض أقربائه بالعطاء، مما أدى إلى انتشار شائعة بأنه يفضل بني أمية على سائر المسلمين، فقد جاء الأرقم بن أبي الأرقم إليه وسلمه مفاتيح الخزينة قائلاً له بأنه لا يستطيع العمل في مثل هذه الظروف وفي ظل هذه الإشاعات.[5]

و- محبوب القلوب

كان قائدًا يحب الناس ويحبه الناس، إلى درجة أن كل فرد كان يحس أنه هو الأقرب إلى قلبه، كما يحس أنه هو الأكثر حبًا له.

كان يحب.. فكم من مرة التفتَ في مسجده قبيل وفاته واستعرض وجوه أصحابه ودمعت عيناه، لأنه كان يعرف جيدا أنه وإن التقى بهم بعد مدة إلا أنه سيفارقهم قريبًا، ولن يراهم مرة أخرى في عالم الشهادة.. لقد آن رحيله إلى الرفيق الأعلى، فأهل السماء كانوا

[1] مسلم، فضائل الصحابة ١٢٨.
[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٤٠/٣.
[3] البخاري، المناقب ٢٠.
[4] الإصابة لابن حجر، ٢٨/١-٢٩.
[5] الإصابة لابن حجر، ٢٨/١-٢٩.

ينتظرونه بشوق، غير أنه لكونه أنموذج الوفاء، ذرف الدموع حزنًا على مفارقة أصحابه الأحبة، ولكن منظر أصحابه وهم يصلون كان يملأ قلبه فرحا وحبورا وتجد البسمة طريقها إلى شفتيه المباركتين.[١]

كان يحب أصحابه ويصونهم ويقول: «لا تَسُبّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذَهَبًا ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»،[٢] ويقول: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»،[٣] وأحاديث أخرى أيضًا تشكل دليلاً على هذا الحب وهذه الصيانة.

ثم إنه كان محبوبًا من قبل الآخرين.. محبوبًا بحب لا يوصف، بحب يسري في شغاف القلوب.. ثم ألم يكن حبه دليلاً على كمال إيمان المؤمن؟[٤] والصحابة الذين وصلوا إلى ذروة الإيمان وصلوا كذلك إلى ذروة حب الرسول ﷺ.

عندما أحضر كفار قريش الصحابي خُبَيْب ﷺ الذي أسروه في ماء الرجيع إلى موضع الإعدام سألوه: "أتشتهي أن يكون محمد مكانك، وتكون أنت آمِنًا في بيتك؟" فلو قال نعم، لربما أطلقوا سراحه ولكنه أجابهم: "لا والله، لا أحب أن يشاك شوكة في قدمه."[٥]

بعد انتهاء معركة أُحد أرسل الرسول ﷺ رجلا ليبحث عن سعد بن الربيع ﷺ، فوجده جريحًا جرحًا بالغًا، فسأله عن حاله فقال: "أنا في الأموات، فأَبْلِغ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته. وأَبْلِغ قومك عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف."[٦]

كانت الصحابية سُميراء تبحث عن رسول الله ﷺ في ميدان المعركة وتسأل: "أين رسول الله؟" وعندما أشاروا إلى مكانه ورأته بأم عينها قالت: "كل مصيبة بعدك جَلَل!"[٧] أي هينة، هذا رغم استشهاد زوجها وابنها وأبيها في تلك المعركة.

وبينما كانت نسيبة الأنصارية رضي الله عنها بيدها السيف تدافع عن الرسول ﷺ أشار

---

[١] البخاري، المغازي ٨٣؛ مسلم، صلاة ٩٨؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/٢٤-٢٥.
[٢] البخاري، فضائل أصحابي النبي ٥؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٢١-٢٢٢.
[٣] كشف الخفاء للعجلوني، ١/١٣٢.
[٤] البخاري، الإيمان ٨؛ مسلم، الإيمان ٦٩.
[٥] البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٧٦.
[٦] البداية والنهاية لابن كثير، ٤/٤٤.
[٧] السيرة النبوية لابن هشام، ٣/١٠٥.

الرسول ﷺ إلى ابنها الجريح وطلب منها مساعدته وتضميد جراحه.. كانت قد نسيت أن لها ابنًا مقاتلاً وأنه جرح.. أسرعت إليه وضمدت جراحه ثم قالت له: "قم يا بني ودافِعْ عن رسول الله."[1]

وتعرض أبو بكر الصديق ﷺ إلى الضرب حتى أغمي عليه، لأنه دافع عن الرسول ﷺ ودعا إليه.. وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله وهم لا يشكون أنه ميت، وجعل أبوه وبنو تيم يكلمون أبا بكر وهو لا يجيب حتى كاد النهار أن يولي، ثم تكلم فكان أول ما قاله أنه سأل عن حبيبه ﷺ: "ما فعل رسول الله؟" فقاموا عنه، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحّتْ عليه وجعل هو يقول: "ما فعل رسول الله ﷺ؟" فقالت: والله مالي علمٌ بصاحبك، وحَلف ألا يأكل شيئًا أو يشرب حتى يسمع عنه.[2]

هذه الأمثلة ومئات غيرها تبين أن الرسول ﷺ كان محبوب قلوب صحابته الذين كانوا مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيله.. كما أصبح محبوب أمته جميعًا. كان محاطًا بهذه الهالة من المحبة الخالصة، لذا لم يكن هناك حرس أو خدم على بابه[3] لأنه كان يثق فيمن حواليه. كان الجميع يحبونه، وكان هو يحب الجميع.

ز- كان ﷺ معصومًا منذ البداية

كان ماضيه نقيًا طاهراً، فلم يقترف شيئا يمكن أن يعد عيبًا أو قصوراً.. كان أبو بكر ﷺ صديق طفولته وصباه، فلو رأى فيه عيبًا أكان يسارع إلى تصديقه أول ما أعلن نبوته؟ ألم تعجب أمنا خديجة رضي الله عنها بأخلاقه، فاختارته مع أن العديدين طلبوا الزواج منها؟ وكما تقول الآية الكريمة: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ (النور:٢٦)، فالزوجة الطاهرة خديجة رضي الله عنها بذلت كل ما في وسعها لتكون الزوجة اللائقة لهذا الشخص الطاهر، وبقيت كذلك طوال حياتها.

كان خلقه الرفيع وخصاله الحميدة معروفة للجميع حتى قبل بعثته ﷺ حتى لقبه أهل مكة بـ"الأمين" فاستقامته ووفاؤه بالعهد كان معروفًا للجميع. كان أبو جهل وأبو لهب يعرفان هذا ويعترفان به، وعداوتهما له واعتراضهما عليه كان سبب آخر، وإلا فإن جميع أعدائه كانوا يعترفون بأنه صادق في كل ما يقوله.

---

[1] الإصابة لابن حجر، ٤١٨/٤.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٤١٨/٤.

[3] البخاري، الجنائز ٣٢؛ مسلم، الجنائز ١٥.

كان الطهر والنقاء والبعد عن كل إثم صفة من صفاته.. كان معصومًا على الدوام، لذا لم يقترف أي خطيئة. وسنرجع إلى صفته هذه فيما بعد بالتفصيل.

يقول "سير وليام موير": "إن محمدًا شخصية ممتازة ومثال للفضيلة.. لم يقترف طوال حياته أمرًا يستنكف عنه أي رجل فاضل.. بينما استطاع هو أن يؤسس وأن يهدم دولاً، وفي أثناء معترك حياته الحافلة حافظ على فضائله وعاش حياة نظيفة نقية."

كان إنسانًا مبرءً من الضعف الإنساني ومنزهًا عنه.. ذا قابليات عديدة واستعدادات عالية، ولم يكن إلا لنبي أن يجمع كل هذه القابليات السامية، ذلك لأن وجود كل هذه القابليات وبهذه المستويات الرفيعة لم تكن ضرورية لأشخاص عدا الأنبياء. فمثلا قابليته في التجارة كانت تؤهله لأن يكون أفضل تاجر، ولكن قابلياته السياسية والعسكرية كانت تبقى معطلة وغير مستعملة، هذا علمًا بأنه إلى جانب كونه تاجرًا جيدًا كان إداريًا ممتازًا وعسكريًا عبقريًا، ولكن من الخطأ حتى حصره في مثل هذه المهن، ذلك لأنه خلق لكي يستوعب الإنسانية بأجمعها ويحتضنها. ومثل هذه الاستعدادات والقابليات لا توهب إلا لنبي أو رسول، وإلا فإن وجود استعداداته الأخرى كانت تعد آنذاك عبثًا والله تعالى منزه عن العبث.

كان ذروة في كل خير وفضيلة.. وكان هذا ضروريًا له لكي يبقى فوق كل قابليات واستعدادات أتباعه ويكون مرشدًا وقدوة لهم. كان أبوبكر ﷺ يأتي بعده من ناحية القابليات، ولكنه كان تابعًا له، بل من أخلص تابعيه والمرتبطين به.

ح- النتيجة

قمنا بشرح القابليات التي يجب توفرها في أي زعيم، ثم نظرنا إلى الرسول ﷺ من هذه الزاوية، وعلمنا أنه الشخص الوحيد الذي توفرت فيه كل هذه الصفات، وليس هناك أي شخص آخر استطاع الاقتراب منه لكي نتخذه مقياسًا في هذا الأمر. ونصل من هذا إلى نتيجة مفادها أن خصال الرسول ﷺ وصفاته كانت في الذروة، فقد خلقه الله هكذا وزوده بصفات الخلق السامي.. أي لم يكن هذا السمو سموًا بالنسبة للآخرين، بل سموًا ذاتيًا.

كان قائدًا عسكريًا كبيرا، حتى أنه من الخطأ التعبيرُ عن صفته وفطنته الكبيرة هذه بكلمة "العبقرية"، وإن قصور اللغة وعدم كفايتها هي التي تقودنا إلى ارتكاب مثل هذه الأخطاء دون تعمد منا فنسند إليه صفة العبقرية العسكرية، لأنه لا يمكن شرح الجانب العسكري للرسول ﷺ بهذه الكلمة، لأن هذا الجانب كان مرتبطاً بالوحي الإلهي وبفطنته كرسول، وهذا هو ما

أردنا التأكيد عليه على الدوام.. أي التأكيد على أن جوانبه هذه أدلة على نبوته، ونحن نقترب من جميع المسائل المتعلقة بسيدنا ﷺ من هذا المنطلق سواء أذكرنا ذلك صراحة أم لا.

كان عسكريًا بصفات مميزة ومستثناة، بحيث أنه كان متفوقًا على العسكريين المحترفين الذين نشأوا في السلك العسكري منذ بداية حياتهم، إذن، فلم يكن الجانب العسكري فيه من نفسه لأنه كان شخصًا أميًا لم ير حربًا من قبل سوى حرب الفِجار التي كانت نزاعًا محدودًا، ولم يشترك في تلك الحرب بشكل فعلي بل قام بنقل السهام إلى أعمامه. ولكنه بدأ الآن يدير معارك لها استراتيجياتها وينتصر في جميعها ويتفوق فيها تفوقًا يعجز عنه كبار القادة العسكريين المحترفين، وهذا من أدلة نبوته، ذلك لأنه:

أولاً: رسم بأمر من الله تعالى خط دعوة واضحة.. كان هدفه واضحًا وبينًا، كان عليه أن ينشر الحق ويزيل جميع العقبات والعوائق أمامه، وصرف كل حياته من أجل تحقيق هذه الغاية، واقترب هو وأتباعه يومًا فيوما من هذه الغاية وحدثت تطورات كبيرة ولكن الهدف بقي هو نفسه ولم يتغير ولم ينحرف عنه، فلم تكن الوصولية شيمة له ولا لأتباعه النجباء الميامين. والذين دققوا تاريخ فترة نبوته التي استمرت ثلاثة وعشرين عامًا يعرفون أنه لم يغير شيئًا مما قاله منذ بداية أمر نبوته بل استمر يقوله حتى نهاية حياته.

لم تكن الحرب غاية من غاياته في أي مرحلة من مراحل حياته، بل كانت الوسيلة الأخيرة التي يطرق بابها، إذ كان يقدم البدائل للطرف الآخر على الدوام، أما البديلان الأولان فكان إما الدخول إلى الإسلام أو إعطاء الجزية،[1] فمن قبل أحد هذين البديلين لا يجوز في الإسلام مقاتلته.

كان النبي ﷺ يذكّر القواد والجنود الذين أرسلهم إلى جهات عديدة بعدم التعرض أبدًا للنساء والأطفال والشيوخ ومن لا يحمل السلاح،[2] وعندما أخطأ خالد بن الوليد وأسامة بن زيد ﷺ وقتلا بعض من توهما أنهم أظهروا الإسلام خوفًا ووسيلة للنجاة بأنفسهم فإن الرسول ﷺ عاتبهما عتابًا مرًا.[3] أجل، لقد عين هدفًا معينًا لم يسر هو وأصحابه فقط نحوه، بل سار نحوه جميع الذين جاءوا بعده بعدة عصور والتزموا بهديه.

ثانيــاً: كان الرسول ﷺ يتحرك وفق شعاره "الهجوم أحسن دفاع". صحيح أنه اضطر

---

[1] الترمذي، السير ٤٨.

[2] البخاري، أحكام، ٣٥؛ الترمذي، السير ٤٨؛ النسائي، القضاة ١٧.

[3] مسلم، الإيمان ١٥٨؛ أبو داود، الجهاد ٩٥.

للدخول في بعض الحروب الدفاعية، ولكنها كانت جميعها حروبًا تهيء الفرصة والأرضية الصالحة للهجوم.

ثالثاً: كانت تصرفاته جميعها على بصيرة، فلم يدع شيئًا للحظ بل كان يحسب لكل خطوة حسابها. والدليل على هذا أنه لم يخط في حياته خطوة نحو الوراء، فمثلاً أراد الصحابة مرة أن يعرفوا عدد جيش العدو، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك إلى أن قبضوا على شخص وأكرهوه على الكلام، غير أن الرجل عندما كان يَصدُق لا يصدّقونه ويبدأون بضربه، وعندما يكذب إرضاءً لهم يدَعونه، فأمر الرسول ﷺ أن يدَعوا الرجل وألاّ يؤذوه، ثم استدعاه إليه وسأله عن عدد الإبل الذي ينحرونه كل يوم للطعام، واستنتج من هذا العدد تعداد جيش العدو، وأخذ أهبته له ووضع استراتيجيته حسب هذه المعلومات،[1] إذن، فلم يكن يخطو خطوة عشوائية، ويدقق أحوال وأوضاع عدده وعدد جيشه لكي يأخذ لكل أمر أهبته، وهذه هي إحدى الخصال الضرورية لكل قائد عسكري.

رابعاً: كان يتبع مبادئ معينة في تحركاته، ولم يدع هذه المبادئ، فقد كان مثلاً يحدِّدُ الوقت الذي يقرره للهجوم على الأعداء، وغزوة خيبر مثال واضح على هذا، فقد أظهر أنه متوجه نحو غَطَفَان ولكنه سار إلى خيبر، وظنت غَطَفَان أنه سائر إليها فتحصنت خلف أسوارها، واعتقدت خيبر أن الأمر لا يهمها وبعيد عنها، لذا لم تتخذ أي احتياط، وبينما كانت تفرك عينيها من أثر النعاس في الصباح الباكر لذلك اليوم قام المسلمون الذين كانوا قد أدوا صلاة الصبح ودخلوا إلى أجواء عالم روحي بمباغتتهم، وكان هذا نتيجة تخطيط رائع للرسول ﷺ الذي كان يحل كل المشاكل وكأنه يشرب فنجانًا من القهوة.[2]

ودخل مكة بالمبدأ نفسه، إذ لم يكن حتى أبو بكر ﷺ يعلم وجهة الرسول ﷺ. وكانت مفاجأة أهل مكة كبيرة، وعندما علموا بالموقف لم يجدوا مجالاً للهرب.[3] فقد التزم في الأمثلة التي أعطيناها سابقًا وفي جميع غزواته الأخرى التي لم نذكرها والتي وردت في كتب السيرة بهذا المبدأ.

خامساً: كان يختار الوقت المناسب للدخول في صدام مع العدو بحيث يكون وقت المعركة ومكانها في صالح المسلمين وفي غير صالح العدو، ففي معركة بدر نزل

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٦٩/٢.

[2] البخاري، الصلاة ١٢؛ مسلم، الجهاد ١٢٠؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣٤٢/٣ وما بعدها.

[3] السيرة النبوية لابن هشام، ٤٢/٤.

المسلمون في موضع يتوفر فيه الماء بينما تم حرمان المشركين من الماء.[١]

سادساً: كان يستعمل عامل الزمن استعمالاً جيدًا، فقد أطال زمن معركة الخندق حتى هجم الشتاء على الأعداء فاضطروا إلى التراجع، كما كان موضع المعركة في صالح المسلمين.[٢] كما أن توقيت معركة حُنين كان توقيتًا رائعًا، فلو حصل هناك أي تأخير لما وجد المسلمون فرصة للهجوم بل لاضطروا إلى الدخول في معركة دفاعية تحت ظروف غير مواتية لهم. ولكن رسول الله ﷺ أعطى أوامره للتوجه إلى الأعداء في الوقت المناسب، فجعل عامل الزمن في صالح المسلمين، كما قام بسحب رماة العدو المتحصنين من أماكنهم إلى وسط المعركة، فقد تظاهرت القوة المتقدمة للمسلمين بالانسحاب فتبعهم الرماة الذين كانوا متحصنين جيدًا وكانوا يمثلون أقوى قوة وسلاح للعدو، ولكنهم عندما تركوا أماكنهم المحصنة وخرجوا إلى قلب المعركة فقدوا هذه الميزة ولم تعد سهامهم تفيد كثيرًا لأنهم دخلوا في معركة مواجهة قريبة حيث يكون العامل المهم فيها للسيف.. وكان توقيت الهجوم توقيتًا موفقًا.

سابعاً: لا شك أن تأمين الأرزاق والمهمات للجيش من أهم الضرورات لجيش محارب، ولم يحدث في جميع غزوات الرسول ﷺ أن قام جيشه بترك القتال والانسحاب منه بسبب نقص في تموين هذه الأرزاق والمهمات. والقرآن الكريم يدعو الناس في مئات من آياته للإنفاق وإلى الجود وهيأهم لهذا، واستطاع الرسول ﷺ تقييم هذا الاستعداد عند المسلمين أفضل تقييم، فالجهاد في الإسلام يكون بالنفس وبالمال.

ط- التلاميذ الذين رباهم الرسول ﷺ

تناولنا حتى الآن بعض سمات التكتيك الحربي للرسول ﷺ وبعض سمات إجراءاته الأخرى، غير أنه كوّن جيشًا لا مثيل له في زمن قصير، هذا الجيش الذي استطاع وفي فترة قصيرة فتح أرجاء المعمورة. لذا، فهو شخص لا مثيل له ولا نظير في مجال تكوين الجيوش، وتهيئة الجنود والمقاتلين، ذلك لأنه هو المنشئ الأول للجيش الإسلامي، وعلى يده المباركة نشأ هذا الجيش المبارك، أي أنه لم يأت على رأس جيش موجود سابقًا كما هي الحال لدى القواد العسكريين الآخرين.

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٢٧١-٢٧٢.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ٤/١١٧.

وأهم ما يسترعي الانتباه أن الجيش الذي أعده الرسول ﷺ كان يتمتع بهذه الصفات المهمة الثلاث:

١. إعداد جيد.

٢. خلق ممتاز وتربية جيدة.

٣. إيمان في الذروة، وشعور وإحساس بالطاعة والولاء.

وعندما قال الرسول ﷺ: «ألا إن القوة الرمي» فإنه كان يشير إلى الصناعة العسكرية حتى يوم القيامة،[1] وهو من أقواله النيرة. وطبق كلامه هذا تطبيقًا فعليًا في عهده فاهتم بالرمي، وهناك أحاديث كثيرة تشوّق على الرمي وعلى إتقانه.[2] ومن بين هذه الأحاديث هناك حديث يجلب النظر وهو قوله لسعد بن أبي وقّاص في أثناء الحرب: «اِرمِ فداك أبي وأمي»[3] ذلك لأن الرسول ﷺ قال للكثيرين "فداك أبي" أو "فداك أمي"، ولكن لم يقل لأحد سوى سعد "فداك أبي وأمي."

كان الرسول ﷺ يهيء جيشه بنفسه، وفي أوقات السلم يشجعهم على أداء الفعاليات الرياضية ويرتب بعض المسابقات بينهم، حتى أنه اشترك في بعضها،[4] كما أن ترتيبه لمسابقات المصارعة بين الفتيان الذين لم يبلغوا بعد سن القتال دليل على مدى اهتمامه بالفعاليات الرياضية.[5] كان الجيش الإسلامي في ذلك العهد قويًا من ناحية التدريب البدني لأفراده ومن ناحية التخطيط الجيد للحرب.. هذا علاوة على الروح المعنوية العالية لجنوده.

كان الجيش الإسلامي يتمتع بأخلاق تغبطه عليها الملائكة، إذ ربى الرسول ﷺ جنودًا أصبحوا مصدر الأمن والأمان لكل مكان وصلوا إليه، فلم يحدث أي حادث اعتداء على عِرض أحد في أي مكان تم فتحه من قبل الصحابة. أجل، كان هذا هو مقدار الوعي الأخلاقي والعفة التي بلغها الجيش الإسلامي. ولا شك أن هذه الأخلاق الحميدة وهذه العفة كانت نابعة من عقيدتهم، ولم يكن هناك أي فرد يسلك سلوكًا مغايرًا لعقيدته، لأن هذا من موجبات الإيمان ونتيجة من نتائجه، والقرآن الكريم يشرح هذا فيقول: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا اٰبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ

---

[1] مسلم، الإمارة ١٦٧؛ أبو داود، الجهاد ٢٣؛ ابن ماجه، الجهاد ١٩.

[2] البخاري، الجهاد ٨٦، المناقب ٤؛ الترمذي، فضائل الجهاد ١١؛ أبو داود، الجهاد ٢٣.

[3] البخاري، الجهاد ٨٠؛ مسلم، فضائل الصحابة ٤١.

[4] البخاري، الصلاة ٤١، الجهاد ٥٧؛ مسلم، الامارة ٩٥؛ النسائي، الخيل ١٦؛ أبو داود، الأدب ٨.

[5] البخاري، الصلاة ٤١، الجهاد ٥٧؛ مسلم، الامارة ٩٥؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٧٠/٣.

إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة:٢٢).

كانوا أصحاب إيمان عميق لا تمنعهم أي عقبة أو صعوبة من بلوغ أهدافهم، فقد وقف أمامهم في أثناء بعض الحروب إخوانهم[١] أو آباؤهم وأعمامهم.[٢] مثل هذه المواقف التي ينشل أمامها الإنسان لم تستطع أن توقف الصحابة ولا أن تقذف في قلوبهم التردد والإحجام، بل قاموا بتنفيذ الأوامر الصادرة إليهم والتوجه إلى الهدف المرسوم لهم. أجل، قام الرسول ﷺ بتشكيل جيش لم يدر حتى ذلك اليوم بخلد العالم مثيل له، فسيوف جنود هذا الجيش كان من الممكن أن تقتل آباءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم، وكان من الممكن أن يؤدي أي تردد في هذا الخصوص إلى شل حركة الجيش كله، بينما لم يتردد جندي واحد في جيش رسول الله لحظة واحدة أبدًا.

تقابل أبو عبيدة بن الجرّاح ﷺ في معركة بدر مع والده، فتنحى وحاد عنه، ولكن والده تعقبه حتى اضطره إلى منازلته وقتله، فلم يكن وقوف والده أمامه في المعركة ليحول بينه وبين المضي في أداء مهمته، فالدعوة هي الدعوة، فمن وقف أمامها يجب إزاحته عن الطريق -هذا إذا استثنينا بعض الحالات التي تتطلب بعض الرحمة واللين- ولم يكن هذا التصرف مقتصرًا على أبي عبيدة ﷺ بل كان الآخرون مثله.[٣]

وهذا عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ شهد معركة أُحد مع المشركين ورأى والده فتجنبه، وبعد أن أسلم قال له: قد رأيتك يوم أُحد فصفحتُ عنك، فقال أبو بكر ﷺ: "لكني لو رأيتك لم أصفح عنك."[٤]

كان الصحابي عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ ﷺ مغتمًا أشد الغم مما فعله أبوه عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول ويعلم أنه استحق عقوبة الموت، غير أنه كان كثير التوقير لوالده، فأتى رسول الله ﷺ وهو يظن أنه أمر بقتل والده فقال له:

"يا رسول الله! إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً فمُرْ لي به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتْ الخزرجُ ما كان بها من رجل أبرَّ بوالده

---

[١] المستدرك للحاكم، ٣/٤٧٥.
[٢] الإصابة لابن حجر، ٢/٢٥٢-٢٥٣.
[٣] الإصابة لابن حجر، ٢/٢٥٢-٢٥٣.
[٤] المستدرك للحاكم، ٣/٤٧٥.

مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار."[١]

كان عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ ﷺ صحابيًا جليلاً، ولكن والده كان رأس المنافقين، ولكن الرسول ﷺ لم يشأ قتل هذا المنافق، بل أمر ابنه أن يبر أباه ويحسن إليه. وقد سبق وأن ذكرنا أن هذا الصحابي قال لأبيه بأنه لن يسمح له بدخول المدينة حتى يقول: "إنني أنا الأذل، ومحمد ﷺ هو الأعز"، ذلك لأن أباه كان قد قال: لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذل، حيث وصف نفسه بأنه هو الأعز والرسول ﷺ هو الأذل. -حاشاه-[٢] وكان ابنه يرغب أن يبرهن أن العكس هو الصحيح.

لقد آمن الصحابة ﷺ بأنه ﴿وَمَا كَانَ لِنَفسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:١٤٥)، لذا كانوا يتجولون في ساحات القتال دون خوف أو وجل، وإلا فكيف يمكن تفسير لا مبالاة أبي دُجانة ﷺ في ساحة القتال؟[٣]

كان علي بن أبي طالب ﷺ كثيرًا ما يمرض، ولكنه كان يطمئن أهله وأصدقاءه القلقين عليه بأنه لن يموت من مرضه هذا، لأنه كان يؤمن إيمانًا عميقًا بأنه لن يموت إلا عندما تتخضب لحيته من دم رأسه مثلما أخبره الرسول ﷺ.[٤]

قطعت أذن عمّار بن ياسر ﷺ في إحدى المعارك وبدأت الدماء تنزف بغزارة، ولكنه كان يطمئن القلقين على حياته بأنه لن يموت من هذا النزيف لأن رسول الله ﷺ قال له: «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية، عمار يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى النار.»[٥] كان متأكدًا من هذا ولم يكن يشك من مصيره هذا.

كان هذا الإيمان هو الذي يقلب جميع حسابات الأعداء ويفشل خططهم. وهذا الإيمان هو الذي يفسر الشجاعة الكبيرة التي تدفع إنسانًا إلى الخوض في مياه المحيط ليجاهد في سبيل الله.[٦]

ولا أدري أيجب ذكر طاعة الصحابة للرسول ﷺ؟.. طاعتهم له من البديهيات فما أن

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٣١٨/٩؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٧٩/٤-١٨١؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣٠٤/٣-٣٠٥.

[٢] البخاري، المناقب ٨؛ مسلم، البر ٦٣، صفات المنافقين ١.

[٣] مسلم، فضائل الصحابة ١٢٨؛ المسند للإمام أحمد، ١٢٣/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٠٩/٦.

[٤] المسند للإمام أحمد، ١/ ١٠٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٥٨/٧-٣٥٩.

[٥] البخاري، الصلاة ٦٣؛ مسلم، فتن، ٧٠؛ الترمذي، المناقب ٣٤؛ كنز العمال للهندي، ٥٣٦/١٣-٥٣٧.

[٦] الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١٠٦/٤.

نتذكر الصحابة ﷺ حتى نتذكر معنى الطاعة الكاملة، ولما كان هذا موضوعًا مستقلاً آخر فلا نخوض فيه هنا. ألممنا فيما سبق بعض الإلمام بالأهمية التي كان الرسول ﷺ يوليها للتدريب العسكري، ولكي يكون الختام مسكًا فسنورد هنا حديثين وآية.

يقول الرسول ﷺ: «علموا أبناءكم السباحة والرمي»،[1] ويقول: «من عَلِمَ الرَّمْيَ ثم تركه فليس منا، (أو) قد عصى»،[2] ويأمرنا ربنا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال:٦٠).

[1] كنز العمال للهندي، ٤٤٣/١٦؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٦٨/٢.

[2] مسلم، الإمارة ١٦٩؛ أبو داود، الجهاد ٢٣.

القسم الخامس

عصمة الأنبياء (عليهم السلام)
وعصمة نبينا ﷺ

- الفصل الأول : العصمة بمعناها العام
- الفصل الثاني : العصمة والأنبياء الآخرون
- الفصل الثالث: عصمة رسولنا ﷺ
- الفصل الرابع : انعكاس العصمة في حياته ﷺ

الفصل الأول: العصمة بمعناها العام

أ- معنى العصمة لغويًا ومصطلحًا

من صفات الأنبياء أنهم معصومون وأطهار من الذنوب. ونحن نطلق على هذا صفة العصمة.

والعصمة لغة: المنع، والحفظ، واصطلاحًا: حفظ الله تعالى أنبياءه من الذنوب كبيرها وصغيرها، أي أن الله تعالى لا يعطي للنبي الذي يرسله فرصة اقتراف الذنب إذ يحفظه من ذلك.

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في مواضع عديدة، فمثلاً قول نوح عليه السلام لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا﴾ (هود:٤٢) فأجابه ابنه: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (هود:٤٣) فكلمة "يعصمني" الواردة في هذه الآية تأتي من فعل "عصم" ومعناه "حفظ"، وأجاب نوح عليه السلام ابنه بجواب جاءت فيه كلمة من نفس الاشتقاق إذ قال: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ (هود:٤٣). وسواء أجاءت كلمة عاصم بنفس معناها أم بمعنى معصوم فالأمر لايختلف كثيرًا، إذ هناك عاصم، وهناك معصوم، والمعنى يدور حول العصمة.

وعندما شرحت "زليخا" عفة يوسف عليه السلام قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف:٣٢)، ومعنى كلمة استعصم هنا امتنع، صان نفسه، لم يقرب.

وكلمة "اعتصموا" الواردة في الآية ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا﴾ (آل عمران:١٠٣) تأتي بمعنى استمسكوا بحبل الله المتين لكي تحفظوا أنفسكم من الوقوع في الانحراف، أي بمعنى الاستمساك بشيء قوي ومنيع. ومعنى المنع والحفظ يرد لكلمة "يعصمك" الواردة في الآية ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧).

ب- كل نبي معصوم

كل الأنبياء معصومون، فلن تجد في حياة أي منهم أي انحراف مقصود، فهم أناس مختارون ومخلوقون بشكل استثنائي.. هم ليسوا أخيارًا فحسب، فهم مصطفون من بين أفضل الأخيار، وهؤلاء لا يقترفون طوال حياتهم أي شيء يلقي ظلاً على اصطفائهم هذا وعلى قدسية المهمة التي بعثوا من أجلها.

فطرة الأنبياء صافية وطاهرة، وأرواحهم علوية وسامية، وإرادتهم صلبة وقوية، وقلوبهم نيرة ووضيئة.. فالتجليات الإلهية تتبلور وتنعكس في قلوبهم بأبعادها الحقيقية، فقلوبهم ونفوسهم مثل مرآة صافية نقية تنعكس عليها الأنوار على حقيقتها، فلا يوجد هناك أي انحراف ولا أي تحول في أي لون.

أجل، هم هكذا.. ومن المنطقي أن يكونوا هكذا، ذلك لأن الأنبياء بعثوا بيننا من أجل القيام بمهمة التبليغ، فغاية وجودهم هي التبليغ فقط، أي أنهم أول المخاطبين بكلام الله تعالى وأوامره، وعليهم أن ينقلوا من ثم هذه الأوامر إلى الناس كما هي، ولو لم يكونوا أصحاب أرواح طاهرة ونفوس قوية لما استطاعوا نقل الرسائل الإلهية كما هي إلى الناس.. ولو كانت فطرتهم غير شفافة وقلوبهم غير طاهرة ونفوسهم غير صافية لانحرفت أشعة الوحي الإلهي عند سقوطها على قلوبهم هذه ولتلونت بلون أحاسيسهم ومشاعرهم -أرادوا ذلك أم لم يريدوا-، وهكذا تكون البلاغات الإلهية قد فقدت هويتها وتغيرت طبيعتها.

الأنبياء يقومون في الوقت نفسه بوظيفة المرآة التي تعكس الأسرار الصادرة من الذات الأقدس إلينا، لذا وجب أن تكون هذه المرايا صافية ونقية لكي لا تكون الحقائق التي تعكسها للقلوب خادعة.

يتعلم الإنسان جميع الأحكام المتعلقة بالإيمان والعقيدة والعمل بوساطة الأنبياء، لذا يجب أن يرى الناس أفضل صورة متجلية للدين عند الأنبياء لكي يتبعوهم ويصلوا إلى سعادة الدنيا والآخرة، فلو اقترف هؤلاء الذين هم قدوة الناس وائمتهم الذنوب فكيف يجوز اتباعهم؟ لأن الاتباع نابع عن بحث الإنسان عن الاستقامة، أما اتباع من يجوز عليه الانحراف فهو ضد هذا الميل الإنساني الباحث عن الاستقامة وعن الطريق القويم.. كلا، لم يقترف أي نبي أي ذنب، بل كانوا قدوة في جميع تصرفاتهم طوال حياتهم، لأن من الصعب التصور أن إنسانًا ليس من أهل الجنة يقوم بالإمساك بأيدي الناس ويقودهم ليكونوا من أصحاب الجنة، بينما أرسل الله الأنبياء والرسل لكي يهدوا الناس ويجعلوهم أهلاً لدخول الجنة.

ولكون الأنبياء معصومين فإن هناك تفوقًا ساحقًا للدين المستند إلى الوحي على جميع النظريات والمذاهب البشرية والوضعية، ولو لم يكن هذا هو الواقع لما حصلنا على هذه النتيجة.

لا شك أن الأنبياء كانت لهم مبادؤهم وأفكارهم الخاصة بهم قبل بعثتهم، وهذا شيء طبيعي ولا يشكل قدحًا في حقهم، وقد يكون هذا هو السبب في أن الرسول ﷺ كان يبحث

عن الحقيقة وعن خلاص للبشرية وهو معتكف في غار حراء قبل بعثته.. أجل، لقد كانت لديه غاية وهدف وهو إنقاذ البشرية من الظلام والشر.. غايته كانت تنتهي عند هذه الحدود.. ولكن صفة إنقاذ البشرية لم تكن عائدة له ولا لأفكاره.. كانت آتية من الله تعالى عن طريق الوحي.. إذن، هنا مفترق الطرق بين أفكارنا ومثلنا وبين الوحي. فأحدهما بشري تمامًا والآخر إلهي تمامًا، لذا كان على النبي أو الرسول الذي يتكفل بنقل النظام الإلهي وتحمل تبعاته أن يكون مختلفًا ومتميزًا عن غيره من أصحاب المبادئ والمثل.

وكما يتميز الأنبياء عن أصحاب المبادئ والمثل الأخرى إذ وهبوا العصمة، كذلك تتميز الأمة التي تتبع النبي عن غيرها من الجماعات الأخرى إذ تكون أقرب منها إلى الخير وإلى العصمة.

لا شك أن كل إنسان يجب أن يكون صاحب مبدأ، والإنسان الذي لا يملك مبدءً في الحياة يعد إنسانًا متسيبًا، لذلك قال بديع الزمان سعيد النورسي: إن تم نسيان أو تناسي المبدأ توجهت الأذهان إلى الأنانية.

إن عصمة الأنبياء وعدم اقترافهم لأي إثم أصبح لديهم فطرة وطبيعة، قد توجد بقع على وجه القمر أو كلف على وجه الشمس، ولكن لا يوجد حتى ظل للإثم في روح النبي.

إن اقترف ولي من الأولياء ذنبًا -لنفرض أنه تلفظ بشيء مخالف للحقيقة دون أن يدري- عاش حياته كلها متألمًا جراء ذلك، ولكن إن جرى على لسان نبي -على فرض المستحيل- شيء من هذا لأحس بتأنيب الضمير حتى يوم القيامة.

لذلك فإن الجمل الثلاث التي حملت معنى "التعريض" وليس الكذب للنبي إبراهيم عليه السلام والتي قالها من أجل المصلحة،[1] بقيت تسبب له الألم حتى يوم الحشر إذ حوّل الذين راجعوه للشفاعة إلى النبي موسى عليه السلام.[2] أجل، إن قلبه وقلوب جميع الأنبياء مقفلة أمام الإثم بهذه الصورة وبهذه الدرجة.

عندما نوينا تناول هذا الموضوع بالتحليل كنا نريد شرح عصمة رسولنا ﷺ، ولكن لكون جميع الأنبياء "أولاد علات"[3] أي أبناء من أب واحد -أجل، فهم مثل أبناء تلقوا التربية نفسها من والدهم- لذا، كان لا بد لنا أن نستعرض عصمة جميع الأنبياء بشكل مختصر،

---

[1] سنتناول فيما بعد هذه الجمل الثلاث بالشرح.

[2] مسلم، الإيمان ٣٢٦.

[3] البخاري، الأنبياء ١٤٨؛ مسلم، الفضائل ١٤٤؛ أبو داود، سنة ١٣.

وسنحاول بشكل خاص في ضوء نور القرآن شرح مدى بطلان وقبح التهم التي كيلت لبعض الأنبياء العظام في الكتب المحرفة، غير أن المحور الأساسي لموضوعنا الرئيسي سيكون كما قلنا سابقًا رسول الله ﷺ وعصمته.

أجل، كل نبي معصوم، أما رسول الله ﷺ فهو في قمة العصمة، ذلك لأن كينونته عُجنت بالتجليات الإلهية، وكان قلبه على الدوام مرآة لتجليات الله ﷻ، لذا فمثله لا يكون إلا في أعلى قمة العصمة.

والأنبياء أشخاص مختارون ومصطفون من قبل الله تعالى لأداء مهمة خاصة جدًا، لذا فقد صانهم على الدوام بسبب وضعهم الخاص هذا. وهذا يعني أنه زينهم بصفة العصمة، فلكي يكونوا أئمة الهدى وقدوة للإنسانية جمعاء ومرشدين للبشرية فعليهم أن يحافظوا على منزلتهم السامية ومواقعهم الطاهرة، وأن يصونوا أنفسهم من أي نجاسة أو تلوث لكي لا ينحرف الذين يتبعونهم، ولا تعدو أعينهم إلى غيرهم، ذلك لأنهم هم الضمان الأكيد والموثوق في قيادة الإنسانية إلى الله وإلى رضا الله، بينما لا يوجد رضا الله في الذنوب وإن كانت صغيرة، فكيف يستطيع إنسان محروم من رضا الله قيادة الآخرين إلى رضاه؟ هذا لا يكون أبدًا.. إذن، فالأنبياء لا يمكن أن يقترفوا إثمًا.

ج- الأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها

الأنبياء -على مذهب الجمهور- معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها، فلم يقترفوا أي ذنب مهما كان صغيرًا.. وبعض الهفوات أو الهَنَات المنسوبة إلى بعض الأنبياء لا تعد ذنوبًا أولاً، وثانيًا وقعت قبل نبوتهم. وفي كلتا الحالتين يبقى النبي معصومًا، وما ندعوه نحن بالهفوة أو الزلة إنما يتعلق بمقامهم، أي أن هذه الهفوات لا تعد أخطاء بالنسبة للأشخاص العاديين، ولكنها تعد هفوات بالنسبة للمقربين إلى الله تعالى.

وكيف لا يكون هؤلاء معصومين، وكيف يستطيعون اقتراف الذنوب بينما نقوم نحن بمقاييس البشرية بالتحقيق الأمني لأي موظف نقوم بتعيينه في موقع وفي وظيفة بسيطة، إذن، فتصور موضوع تعيين شخص وتكليفه بمهمة النبوة.. إذن، يجب هنا أن يمتد التحقيق إلى الجد السابع له.. أيتم كل هذا التحقيق في اختيار شخص لأمر ثانوي من أمور الدنيا ولا يتم إبداء حساسية شديدة في صدد أكبر مهمة.. مهمة تحتضن الدنيا والآخرة؟ ألا يدقق مدى قابلية ذلك الشخص ومدى لياقته لتقلد هذه المهمة الخطيرة؟

لنتأمل كيف أن الملك الذي ينقل الوحي يختار أيضًا من بين الملائكة.. ملك متميز

بالأمانة لكي تُعهد إليه هذه المهمة، فالقرآن الكريم يصف جبريل عليه السلام بأنه ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ (التكوير:٢١) أي تطيعه الملائكة في السماء والملإ الأعلى، وهو أمين في نقل الوحي كذلك، فهل يُطالَب الملك الناقل للوحي بهذه الصفات ولا يُطالب النبي الذي سيمثل هذا الوحي بالصفات نفسها؟

أجل، لا يمكن لله تعالى أن يعهد بتمثيل هذه المهمة المقدسة إلى شخص مخادع أو لص أو سكير أو معتدٍ على الأعراض، فكيف يمكن أن توجد مثل هذه الصفات القبيحة في نبي وهي صفات يشمئز منها حتى الأشخاص العاديون؟ ألا يشك الإنسان في عقول الذين يفترون مثل هذه الإفتراءات على الأنبياء؟ بل يشك في كونهم بشرًا. إن الإنسان الملوث لا يمكن أن يكون ممثلاً للطهارة والنقاوة، ولا يمكن إطلاق اسم نبي على مثل هذا الإنسان، كما لا يمكن إطلاق كلمة الإنسان على من يسند هذه الصفات إلى أي نبي.

أجل، إن العقل يوجب عصمة الأنبياء، كما يوجب قيام أتباع الأنبياء من الذين جعلوا شعارهم في الحياة حمل دعوة الأنبياء أن يجعلوا التطهر والعصمة من الذنوب والآثام مبدءً وغاية لهم، فعند هؤلاء يكون اقتراف أي إثم أو ذنب أكثر ألمًا من دخول جهنم.

العصمة مهمة جدًا، وحياة الأنبياء العظام عليهم السلام شاهدة على هذه العصمة، وإذا استثنينا الهذيان الموجود في بعض الكتب المحرفة فليس هناك من أسند اقتراف الإثم إلى الأنبياء، والقرآن الكريم يتحدث عنهم بما يليق بمكانتهم الرفيعة.

المكانة التي يشغلها جبرائيل وعزرائيل وميكائيل وإسرافيل في السماء يشغلها الأنبياء على الأرض، ولكننا لا نعرف من أنبائهم إلاّ ما سرده القرآن علينا.

وكما قلنا سابقًا فإن بعض العلماء يرون إمكانية اقتراف بعض الأنبياء قبل بعثتهم ونبوتهم بعض الهفوات، ولكن هذه النظرة محصورة لدى عدد قليل من العلماء، وهي نظرة مرجوحة، لذا فهي نظرة مجروحة، بينما يعتقد أكثرية العلماء أن الأنبياء عُصموا منذ طفولتهم، وهناك أدلة عديدة تؤيد هذه النظرة.

د- الأدلة على عصمة الأنبياء

يقول الله تعالى في معرضِ إمتنانه على موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ (طه:٣٩). ويفهم من هذه الآية أن الله تعالى لم يدع تربية موسى عليه السلام في قصر فرعون لا إلى فرعون ولا إلى أمه، بل رباه هو، فكيف لا يكون مثل هذا النبي معصومًا وهو منذ طفولته تحت رعاية الله وعنايته وتربيته؟!

يقول الرسول ﷺ في حديث له: «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان غير مريم وابنها.»[١] فإذا كان الله تعالى حفظ عيسى وأمه عليهما السلام من الشيطان منذ ولادته فكيف لا يكون معصومًا من الذنوب؟

وأراد رسول الله ﷺ مرتين أن يلهو في صباه، فذهب ليحضر حفلة عرس فألقى الله عليه النعاس فنام في المرتين.[٢] إذن، فقد حفظه الله تعالى من رؤية منظر قد يكون حرامًا، إذن، كان مصانا على الدوام مع أنه لم يكن قد بعث بعد نبيًا، ولم يكلف بعد بمهمة الرسالة.

كان صبيًا عندما اشترك في بناء الكعبة، فكان ينقل على ظهره الحجارة، فتركت الحجارة أثرًا على جلد ظهره فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك، فخرّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء فقال: «أرني[٣] إزاري» فشده عليه،[٤] بينما كان هذا الأمر اعتياديًا ولا بأس به، ولكن الله صانه من هذا، ذلك لأنه سيأتي يوم يأمر فيه بستر البدن وستتعلم منه الإنسانية دروس الأدب والحياء، إذن، كان ينشأ وهو بعد صبي تحت عناية الله وتربيته، وكان الله تعالى يعصمه من أهون الذنوب وأصغرها.

وكما تدقق سجلات رؤساء أركان المستقبل في الجيش بكل دقة وعناية لمعرفة ميوله واتجاهاته السياسية وأفكاره الاجتماعية، كذلك يقوم الله تعالى بحفظ أنبيائه وصيانتهم ورعايتهم منذ طفولتهم ويعصمهم من الوقوع في الزلل أو الإثم.. هذا هو رأى الجمهور.

هم صفوة الإنسانية وزبدة فضائلها، يصفهم القرآن الكريم بـ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ (ص:٤٧)، أي إن الأنبياء أشخاص مختارون من بين أفضل الناس وأكثرهم تميزًا.

هـ- العصمة خارج الأنبياء

والجانب الآخر من الموضوع هو: أيمكن أن يوجد معصومون من غير الأنبياء؟ أي أيعصم الله تعالى بعض الأشخاص الممتازين من غير الأنبياء من الذنوب؟ رأي جمهور العلماء في هذا الموضوع هو عدم وجود معصومين من غير الأنبياء، فمن المحتمل أن يقترف الجميع الذنوب كبيرة أم صغيرة، لأن العصمة خاصة بالأنبياء، وهناك حديث نبوي

---

[١] البخاري، الأنبياء ٤٤؛ مسلم، فضائل ١٤٧؛ المسند للإمام أحمد، ٢٨٨/٢.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٥٠/٢-٣٥١.

[٣] أي أعطني.

[٤] البخاري، الحج ٤٢؛ مسلم، الحيض ٧٦؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٥٠/٢.

يؤيد هذا إذ يقول الرسول ﷺ: «كل بني آدم خطّاءٌ، وخير الخطائين التوابون.»[1]

ولكن يجب الانتباه هنا إلى نقطة معينة، وهي أن قولنا بوجود احتمال اقتراف الذنب لكل شخص من غير الأنبياء لا يعني وجوب اقتراف الذنوب فعليا من قبل الجميع، لذا يمكن القول بإمكانية حفظ الله تعالى لبعض الأشخاص الكبار -من غير الأنبياء- من علماء الدين الذين هم أئمة وقدوة للإنسانية، وهذا لا يعني تأييد الفكرة الشيعية حول عصمة الأئمة الاثني عشر. فمثلاً إن سأل أحدهم: أيمكن أن يَقترف الإمام الرباني أحمد السرهندي الذنب؟ نقول له: أجل.يمكن، ذلك لأن الإمام الرباني ليس نبياً، لذا يمكن من الناحية النظرية اقترافه للذنب، ولكن هل اقترف الإمام الرباني ذنبًا في حياته؟ لا يمكن إعطاء الجواب نفسه، لأنه ما من أحد يستطيع إثبات أنه اقترف ذنباً أو إثماً، أي أن احتمال وقوع الذنب لا يعني وجوب تحققه فعليا، فمن المحتمل أن الله تعالى يحفظ عباده المقربين من الوقوع في الآثام.

إن الله تعالى يحفظ الذين يسيرون في طريقه، والقرآن يشير إلى هذا فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩). فكما يتوضح من الآية الكريمة فهناك حفظ وصيانة من الله تعالى للمؤمنين المتقين إذ زودهم بخاصية وبحاسة يميزون بها الخبيث من الطيب فيبتعدون عن مواطن الإثم.

وتقول آية أخرى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:١٢٢).

والذين نذروا حياتهم في سبيل هذا الدين وجعلوه غاية حياتهم وهدفها سيعاملون حسب الدستور الإلهي ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة:٤٠)، ماداموا باقين على العهد سيحفظون من قبله تعالى: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧).

إذن، فالذين يقومون بالخدمة الإيمانية والقرآنية بإخلاص سيكونون مظهرًا لمثل هذا الضمان إن شاء الله ولن يتلوثوا بذنوب كبيرة، بل قد يُحفظون حتى من الذنوب الصغيرة، ولكن هذا الضمان مرتبط بتحقق شرطه وبالتقدير الإلهي، وليس بمقدور أحد أن يعطي ضمانات قاطعة لغير الأنبياء، ولكن إن تحقق هذا الحفظ والصيانة وأصبح حدثًا واقعيًا عند أحدهم عند ذلك نستطيع التحدث عن حفظ الله وصيانته له وعن عصمته ونقول إن الله تعالى

[1] الترمذي، القيامة ٤٩؛ ابن ماجة، زهد ٣٠.

حفظ الشخص الفلاني وعصمه من الوقوع في الإثم، ولكن لا يوجد ضمان في المستقبل لاستمرار العصمة إلا للأنبياء، أما عصمة الأنبياء فتشمل كل مرحلة من مراحل حياتهم.

ثم هناك عصمة مشاهدة بالتجربة والمعايشة حيث يلاحظ صيانة الله تعالى لبعض عباده المقربين وأخذهم تحت رعايته وحفظه. إذا وضعنا الأشخاص العظام جانبًا، ونظرنا إلى أنفسنا لوجدنا في كثير من الأحيان أن شروطًا عديدة تهيأت للوقوع في الإثم، فإذا بظروف تستجد وتنقذنا وتحفظنا من الوقوع فيه وتبعدنا عنه وتدعنا في ذهول وفي حيرة من هذه العناية.

ثم إن قيام الصحابة والذين اتبعوهم في طريقهم بعمل حسنات كبيرة وخدمات عظيمة تجعل لهم سدًّا منيعاً يحول بينهم وبين الوقوع في الإثم في مستقبل أيامهم، فكأن سر الآية ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح:٢) قد تجلى لهم وشملهم أيضاً، وهذا يعني ضمان الله تعالى لهم نتيجة أعمالهم الصالحة الماضية.. مثلاً قد يتوجه شخص إلى مكان يحتمل أن يقترف فيه الإثم، ولكن الله تعالى قد يكسر رجل هذا الشخص ويحول دون وصوله إلى ذلك المكان الآثم. وإذا كان سيرتكب الإثم بعينه أو بيديه يجعله لا يستطيع الرؤية ولا تستطيع يده الحركة أو الإمساك بشيء.. فيفهم من هذا أن الله تعالى يريد صيانة هذا العبد الذي يحبه، والمصائب الدنيوية التي تصيبه لحفظ آخرته لا تعد شيئا مذكورًا.

هناك حديث قدسي يتعلق بهذا الموضوع ورد فيه: «..وما تقرّبَ إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحِبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها.»[1]

وهذا معناه أنني سأريه الخير والجمال على الدوام وأحفظه من الشر والفساد والسوء فأكون عينًا له فلا يرى سوى الخير.. ستقطر في قلبه الحكمة والبصيرة فيكون دائم الذكر لله تعالى، ولا يسمع إلا خيرًا ولا تتوجه إرادته إلا إلى الخير، ومهما كانت هناك من عراقيل أمامه تحول بينه وبين الخير فسأذللها له.. هو قريب مني لا أرضى أن يجرح الإثم قلبه وجوارحه. وينتهي هذا الحديث هكذا: «وإن سألني لأعطينّه ولئنْ استعاذني لأعيذنه»

إذن، فإن الذنوب وإن كانت محتملة -حسبما يقول البعض- في حق الأنبياء والمقربين من عباد الله الصالحين، فإن الله تعالى يصون جميع أنبيائه ومن يشاء من عباده الصالحين من الآثام.

---

[1] البخاري، الرقاق ٣٨؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥٦/٦.

كان في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ شاب صالح يكاد لا يفارق المسجد ويجتهد في العبادات وفي أداء النوافل، وكان عمر ﷺ به معجبا، ولكن أمير المؤمنين بدأ يفتقده حيث لا يراه بين جماعة المصلين.. أليس هذا الأمر حكمة واحدة من حكم صلاة الجماعة في المساجد والتي يعدها بعض أصحاب المذاهب فرضًا وبعضهم سنة مؤكدة؟ الإمام يهتم بجماعته ويتفقد أفرادها، وإذا شعر بغياب أحدهم استفسر عنه ليعلم إن كان في ضيق أو واقع في مشكلة.. فما ظنك إن كان الإمام هو أمير المؤمنين عمر ﷺ وجماعة المصلين هم الصحابة؟ كان عمر ﷺ يعرف جماعته جيدًا مهما زاد عدد أفرادها ويدقق أحوالهم.

وكان لهذا الشاب أب شيخ كبير، فكان إذا صلى العتمة انصرف إلى أبيه، وكان طريقه على باب امرأة فافتتنت به، فكانت تنصب نفسها له على طريقه؛ فمر بها ذات ليلة، فما زالت تغويه حتى تبعها، فلما أتى الباب دخلت، وذهب يدخل فذكر الله ﷻ، وجُلِّي عنه، ومثلت هذه الآية على لسانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١)، فخرّ الفتى مغشيا عليه، فدعت المرأة جارية لها فتعاونتا عليه فحملتاه إلى باب الدار، واحتبس على أبيه، فخرج أبوه يطلبه فإذا به مُلْقىً على الباب مغشيًا عليه، فدعا بعض أهله فحملوه فأدخلوه، فما أفاق حتى ذهب من الليل ما شاء الله ﷻ، فقال له أبوه: يا بني ما لك؟ قال: خير. قال: فإني أسألك. فأخبره بالأمر. قال: أي بني، وأي آية قرأت؟ فقرأ الآية التي كان قرأ، فخرّ مغشيا عليه، فحركوه فإذا هو ميت؛ فغسلوه وأخرجوه ودفنوه ليلا. فلما أصبحوا رفع ذلك إلى عمر ﷺ، فجاء عمر ﷺ إلى أبيه فعزاه به، وقال: ألا آذنتني؟ قال: يا أمير المؤمنين، كان الليل. فقال عمر ﷺ: فاذهبوا بنا إلى قبْره. فأتى عمر ومن معه القبر. فقال عمر: يا فلان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن:٥٦)، فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي ﷻ في الجنة مرتين.[1]

ما يهمنا في هذه الحادثة هو أن هذا الشاب لو اقترف الإثم لبقي الإثم محصورًا به، ذلك لأنه لم يكن يحمل مسؤولية القدوة، ولكن لو اقترف نبي مثل هذا الإثم لكان شيئًا عظيمًا تتزلزل منه الأرض والسماء، لأنهم في موضع القدوة والأسوة، لذا ألا يصونهم الله تعالى وهو الذي يصون حتى بعض عباده الصالحين.

يشرح الرسول ﷺ في حديث له صفات من يجد حلاوة الإيمان فيقول: «ثلاثٌ مَن كنّ فيه وَجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا

---

[1] مختصر "تاريخ دمشق لابن عساكر" لابن منظور، ١٩/١٩٠-١٩١.

يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذَف في النار.»[1] لذا، فإن أي مؤمن اعتيادي ذاق حلاوة الإيمان تكون العودة عنده إلى الكفر أشنع من قذفه في أتون النار، لذا فما بالك بإيمان الأنبياء عليهم السلام؟ ألا يرى أولئك الذين يسندون الذنوب إلى الأنبياء أن إيمان الأنبياء من القوة بحيث تمنعهم من هذا؟ حاشاهم من الوقوع في الإثم.

وإذا إراد أحدهم أن يعرف كيف أن الله تعالى حفظ الكثير من أوليائه -دعك من أنبيائه- وصانهم من الإثم فعليه أن يطالع الكتب التي تتحدث عن حياتهم مثل "حلية الأولياء" ليرى كيف أن الله تعالى حفظ المئات من أوليائه وصانهم من اقتراف الذنوب. فمثلاً وُضع طعام أمام أحد الأولياء، ولكن هذا الطعام كان قد شابه شيء من الحرام، وتناول الولي لقمة منه، ولكنه لم يستطع بلعها مع أنه مضغها لعدة دقائق، فعلم أن الحرام شاب هذه اللقمة فترك أكلها.[2] فإذا كان الله تعالى حفظ وليه من لقمة حرام واحدة فكيف لا يحفظ أنبياءه من الذنوب؟

و- العصمة في الكتب السابقة وفي القرآن الكريم

أجل، إن العصمة شرط لا ينفك عن الأنبياء، وصفة من صفات النبوة، وكل نبي يأتي إلى الدنيا وهو متزين بهذه الصفة، إذن، فمن لم تكن فيه هذه الصفة فلا يكون نبيًا.

قبل إثبات عصمة الأنبياء سنعطي بعض الأمثلة عن التوراة وعن الإنجيل وهي الكتب المحرفة التي أسندت الكثير من التهم إليهم، ثم ننتقل إلى تحليل الموضوع حسب الدستور القرآني، ونعطي الأجوبة اللازمة للمفتري، غير أننا نريد هنا الإشارة إلى أمر أو أمرين.

لكون الكتب السابقة أمثال التوراة والإنجيل والزبور قد تعرضت للتحريف ودخل الكلام البشري بين نصوصها فلا يمكن البحث عن الحقيقة فيها، ولا المحافظة على سلامة الاتجاه الفكري فيها. لذا، فإن إسناد مناظر مؤذية لا تليق حتى بالإنسان العادي إلى الأنبياء ليس إلا نتيجة هذا التحريف، وهو بحد ذاته أحد الأدلة على تعرض هذه الكتب للتحريف، ولو لم يكن هناك إلا هذا الدليل لكفى به إثباتًا لهذا التحريف.

لم يعط الله تعالى ضمانًا لحفظ هذه الكتب، بينما قال في حق القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، أي أشار إلى أن القرآن مرجع إلهي وأنه محفوظ

---

[1] البخاري، الإيمان ٨، الأدب ٤٢؛ الترمذي، الإيمان ١٠.

[2] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٠/٧٤-٧٥؛ طبقات الأولياء لابن الملقن، ١٧٦.

من قبله، لذا فهناك إجماع على أن أحكام القرآن سارية إلى يوم القيامة، ذلك لأنه تحت الحفظ الإلهي، إذن، فهو المرجع الوحيد لمعرفة شؤون الأنبياء، وكل ما ورد في تلك الكتب المحرفة من أمور تخص الأنبياء وتخالف ما جاء في القرآن فلا حكم له، لأن الأحاسيس والمشاعر البشرية دخلتها واختلطت بها، بينما لا يحق لأي إنسان التحدث في موضوع النبوة ولا في موضوع العصمة، فالأنبياء وحدهم لهم الحق في تناول هذه المسائل الغيبية العائدة إلى الماضي، وذلك لاستنادهم إلى الوحي الإلهي. وبما أن رسولنا هو خاتم الأنبياء والمرسلين فلا يحق لأحد بعده التحدث في هذا الأمر، وقد تحدث في كل أمر ذي بال، وكان عيسى عليه السلام قد ترك له حق التحدث هذا عندما قال: [لن أكلّمكم كثيرًا بعد، فإن سيد هذا العالم قادم عليّ] (يوحنا - الباب: ١٤، الآية: ٣١).

ومع أنني لا أحب تصوير الباطل إلا أنني سأتناول -وأنا مضطر- بعض الأمثلة على الافتراءات الموجودة في هذه الكتب المحرفة ثم أعرض أحكام القرآن الخاصة بهذه المواضيع. ولا أملك هنا سوى الالتجاء إلى الأرواح الطاهرة لهؤلاء الأنبياء طالبًا منها الصفح عني لاضطراري إلى ذكر هذه الافتراءات وإلى نقل بعض النصوص الباطلة لكي أدحضها وأثبت عصمتهم وبراءتهم.

ز- الافتراءات الشنيعة في الكتب السابقة حول الأنبياء

وردت في سفر التكوين في التوراة افتراءات شنيعة حول سيدنا لوط عليه السلام وكيف أنه شرب الخمر وثمل ثم زنى بابنتيه وأن نسله دام منهما. تأملوا! إن الله تعالى خسف بأهالي سَدوم وعامورة الأرض، لأنهم لم يستمعوا إلى نبي طاهر مثل النبي لوط عليه السلام بل استهزؤا به وبدعوته إلى الطهر والعفاف فاستحقوا بذلك العقاب الجماعي. ولو لم يكن هناك شاهد آخر على عفة لوط عليه السلام الذي هو ابن أخ النبي إبراهيم عليه السلام غير أنقاض هذه المدن المخسوفة وغير الجدران المتهدمة لبيوتها أما كان شاهدًا كافيًا؟ وهل يمكن أن ننظر إلى كتاب يحوي مثل هذه السطور الشنيعة على أنه كتاب إلهي؟

وفي الباب رقم ٣٨ في سفر التكوين يرد أن يهوذا بن يعقوب عليه السلام -الذي هناك احتمال في كونه نبيًا- زنى بزوجة ابنه، وعن طريق هذا الزنى جاء أسلاف أنبياء بني إسرائيل أمثال داود عليه السلام وسليمان عليه السلام.

لا شك أن هذه الافتراءات القبيحة التي أطلقت على هؤلاء الأنبياء إنما هي أكاذيب شنيعة وقصص مختلقة لا أساس لها من الصحة. والرسول ﷺ يقول إن نسله دام بالنكاح

منذ آدم ﷺ.[١] ويقول في حديث آخر: «الأنبياء أولاد عَلاّت[٢]»[٣] وما دام لا يوجد حادثة زنا في النسب الذهبي للرسول ﷺ فإن هذا الحكم سارٍ على جميع الأنبياء، أليس الرسول ﷺ حفيد إبراهيم ﷺ؟ ويهوذا -الذي سبق ذكره- هو أيضًا من أحفاد إبراهيم ﷺ ولا يمكن حدوث الزنا في البيت النبوي، وفي الفقه الإسلامي يكره أن يكون الإمام الذي يصلي بالناس مولودًا من الزنا إن كان غيره موجودًا،[٤] فكيف يستطيع أن يكون إمامًا للناس جميعًا أي يكون نبيًا.. أهذا ممكن؟

وجاء في الباب ١١ من سفر الملوك أن سليمان ﷺ ارتد في أواخر حياته وبدأ يعبد الأصنام.. كيف يُسند هذا الافتراء إلى نبي اختاره الله وأعطاه سلطنة في الدنيا وفي الآخرة؟ بل كان نبيًا شاكرًا لربه على أنعمه وعابدًا له.. شكرًا وعبادة تليق به كنبي.

يذكر القرآن الكريم أن المسيح ﷺ كان روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ونفحة ربانية[٥] وأن إبراهيم ﷺ كان خليل الله[٦] وأن موسى ﷺ كليم الله[٧] وأنه تعالى خاطب آل داود قائلاً ﴿اِعْمَلُوا آلَ دَاودَ شُكرًا﴾ (سبأ:١٣). هذه هي الأوصاف التي يصف الله تعالى أنبياءه بها.

ويتحدث العهد القديم عن النبي داود ﷺ فيقول إنه طمع في زوجة قائده "أُورِيّا" وتسبب في قتله ليأخذ زوجته.[٨] هذا التصرف الدنيء الذي يستغفر الإنسان العادي الله إن رآه في حلمه أسند إلى نبي كريم قال الله تعالى في حقه ﴿نِعْمَ الْعَبدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾ (ص:٣٠). وكتاب هذا شأنه كيف يكون من عند الله تعالى؟ إن مجرد تصور إمكانية وقوع هذا لا يعني

---

[١] دلائل النبوة للبيهقي، ١/١٧٣-١٧٤-١٧٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٣١٣-٣١٤؛ الخصائص الكبرى للسيوطي، ١/٩٢-٩٣.

[٢] "أولاد علات" هم الإخوة لأب واحد من أمهات مختلفة، والمعنى أن شرائعهم متفقة من حيث الأصول وإن اختلفت من حيث الفروع حسب الزمن وحسب العموم والخصوص.

[٣] البخاري، الأنبياء ٤٨؛ مسلم الفضائل ١٤٤.

[٤] الهداية للمرغناني، ١/٥٦.

[٥] قال تعالى: ﴿يَا أَهلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا في دِينِكُم وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بنُ مَريَمَ رَسُول اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إلى مَريَمَ وَرُوحٌ مِنهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتهوا خَيراً لَكُم إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا في السَّمواتِ وَمَا في الأَرضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ (النساء:١٧١).

[٦] قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسلَمَ وَجهَهُ للهِ وَهُوَ مُحسِنٌ وَاتَّبعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إبراهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء:١٢٥).

[٧] قال تعالى: ﴿ورُسُلاً قد قَصَصْنَاهُم عَلَيكَ مِنْ قَبلُ وَرُسُلاً لَم نَقصُصْهُم عَلَيكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكلِيماً﴾ (النساء:١٦٤).

[٨] انظر: صموئيل الثاني - الباب: ١١.

سوى الجهل التام بالنبوة وبالأنبياء.. النبي داود عليه السلام كان نبيًا كثير العبادة كثير البكاء.. يبكي في مجلسه من يسمعه.. كثير التأوه والأنين.. منيبًا إلى الله تعالى، لم يحول وجهه مطلقًا عن خالقه، وشعاره العبودية،[1] وقد مدح الرسول ﷺ عبادة داود عليه السلام فقال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يومًا ويفطر يومًا.»[2]

كان ملكًا وخزينة الدولة عنده، ولكنه لم يفكر في الاستفادة منها ولو لشراء لقمة واحدة من الطعام، ويؤمن نفقته ونفقة أهله من حرفته اليدوية ومن كسبه الشخصي.. على هذا النبي الكريم الذي يحاسب نفسه على اللقمة الواحدة التي يتناولها، والذي كانت عبوديته لله تعالى أخص سمة من سماته وأكثر صفاته تميزًا.. على هذا النبي الكريم يفتري الكتاب المحرف ذلك الافتراء الشنيع والدنيء الذي لا يسعه الخيال والبعيد عن عالم وجو النبي داود عليه السلام بُعد المشرقين. فهو النبي المنزه الطاهر النقي الذي لا يمكن أن يخطر على خياله ذرة واحدة من هذه الحادثة المفتراة عليه.

وادعاء غريب آخر ورد في العهد القديم لا يستوعبه أي عقل، وهو مصارعة إسرائيل مع الله وتغلبه عليه.. وإسرائيل هنا هو يعقوب عليه السلام، إذن، فالفلسفة المادية سرت في الغرب -الذي ساح دماغه إلى عينيه- إلى درجة لم تعد تستبعد معها قيام الله تعالى وكأنه بشر اعتيادي -حاشاه- بمصارعة نبي من أنبيائه.

والقول الذي قاله حمزة رضي الله عنه للنبي ﷺ قبل إسلامه يشكل جوابًا لهؤلاء إذ قال ما معناه: يا محمد يا ابن أخي، عندما أجوب الصحراء بالليل أدرك أن الله أكبر من أن يوضع بين أربعة جدران.

إذن، فتصوروا كتابًا يدعون أنه كتاب إلهي لا يرقى إلى مستوى الإحساس والشعور الذي أبداه حمزة رضي الله عنه للرسول ﷺ قبل إعلان إسلامه، فكيف يمكن النظر إلى هذا الكتاب على أنه صادر من الله تعالى وهو بهذه السطحية والعقم في نظرته لله ﷻ؟ وهل يستطيع الإنسان إذن، أن يصدق ما تزعمه هذه الكتب في حق الأنبياء؟ كلا، فالتوراة والإنجيل مملوءان بالافتراءات في حق الله تعالى وفي حق عباده من الأنبياء وَمَمْلُوءَانِ بالانحرافات.. أحدهما منبع للافتراءات، والآخر منبع للانحرافات.

---

[1] قال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص:١٧).

[2] البخاري، التهجد ٧، الصوم ٥٩؛ مسلم، الصيام ١٨٢؛ الترمذي، الصوم ٥٧.

يرد القرآن الكريم جميع الافتراءات حول الأنبياء، ذلك لأنه يأمر باتباع الأنبياء اتباعًا مطلقًا، فهم أئمة الهدى والمرشدون الكاملون والأئمة الذين يجب اتباعهم في كل أمر من الأمور. وجميع الأنبياء مرايا تعكس لنا رضا الله تعالى، فلا يمكن أن تجد على هذه المرايا ذرة غبار، واحدة والقرآن الكريم يشير إلى هذا ويعرض لنا جوانبهم الجميلة ويأمر نبينا بذلك أيضاً.

وهناك سوء فهم في بعض ما ورد في القرآن الكريم حول الأنبياء، إذ فُهِم إسناد بعض الأخطاء والذنوب إليهم، ووجد أنصار لهذا الفهم أحيانًا، ويعود سبب وقوعهم في هذا الخطأ إلى تعثرهم بالقوالب الضيقة لبعض الكلمات وإلى ضيق أفقهم. فلو كانوا أكثر دقة وتأملاً لاستطاعوا التغلب على أفكارهم المسبقة واستطاعوا مقاومة بعض الإسرائيليات وفكروا مثل جمهور العلماء وكانوا أكثر احترامًا للأنبياء وأكثر توقيرًا لهم.

الفصل الثاني: العصمة والأنبياء الآخرون

قبل الانتقال إلى الآيات الكريمة المتعلقة بهذا الموضوع نود التنبيه على بعض الأمور بشكل مختصر.

أولاً: إذا اختار أي نبي الشيء الحسن مع وجود الأحسن فهذا يعد زلة بالنسبة إليه، ولكن هذا لا يعد في مقاييسنا خطأ ولا زلة، لأن ما اختاره كان حسنًا، غير أن النبي عليه أن يختار الأحسن، لأنه من المقربين. لنضرب مثالاً يقرب الموضوع إلى الأذهان:

لنفرض أن أحدهم يريد ختم القرآن الكريم، ولكن في كم يوم عليه أن يختمه؟ هنا يظهر أمامه ترجيحان، أحدهما أن يقرأ القرآن على مهل متأملاً معانيه فيختمه في عشرة أيام، والثاني قيامه بختم القرآن في سبعة أيام على أساس أنه دليل على تمسك أكثر وحب أكثر لكلام الله تعالى.

لنفرض أنه اختار الترجيح الأول وختم القرآن في عشرة أيام، ولنفرض أيضًا أن رضا الله تعالى كان يتحقق بشكل أكثر وأفضل في الترجيح الثاني، فهنا يكون نيل رضا الله هو الأحسن، بينما يكون ما قام به هو الحسن، إذن، فلا يوجد هنا ذنب لكي يقال له: لقد أذنبت وأخطأت، كل ما يمكن القول هو أنه اختار الحسن مع وجود الأحسن، وليس من الصحيح هنا إسناد الذنب إليه.

هذا هو الوجه الحقيقي للأمور التي يقوم فيها الأنبياء بالاختيار حسب اجتهادهم الشخصي، لذا لا يمكن إسناد اقتراف الذنب إليهم، وسنعود فيما بعد إلى هذا الموضوع.

ثانياً: يُعد الأنبياء قبل كل شيء أئمة المجتهدين حيث يجتهدون في المواضيع التي لم ينزل فيها الوحي سواء أكانت أحكامًا أم أمورًا شخصية أم أمورًا اجتماعية، وفي معظم الأحوال تتوافق هذه الاجتهادات تمامًا مع المراد الإلهي، وفي أحيان قليلة قد لا تصيب تمامًا هذا الهدف مع أنهم يتحرون الرضا الإلهي على الدوام، وقد يُعد بالنسبة لمستواهم الرفيع خطأ، لأن عليهم أن يصيبوا هدف الرضا الإلهي إصابة دقيقة، ولكن خطأهم في الاجتهاد لا يُعدّ ذنبًا أبدًا ولا يُخلّ بعصمتهم، لذا فلا يُحاسبون عليه. ولو فرضنا العكس - وهو فرض محال- فهذا ليس من شؤوننا.

ثالثاً: إن مثل هذه الأمور البسيطة حدثت قبل نبوتهم، والزلة هنا تأتي بمعنى التزلزل

البسيط، ولا تعني الوقوع والانكفاء على الأرض. والآن لنعط بعض الأمثلة الشاخصة لما عرضناه، ولنحول نظرنا أولاً إلى أب البشرية آدم عليه السلام.

أ- آدم عليه السلام

يشرح القرآن الكريم موقف آدم عليه السلام فيقول: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه:١٢١-١٢٢). واستعملت الآية تعبير "الاجتباء"، والاجتباء: الاختيار والاصطفاء، وهي عملية إنقاذ الشيء من أن يترسب إلى القاع أو من أن يتفرق يمينًا وشمالاً كالفقاعات، أي أن الله تعالى أنقذ آدم من الوقوع في مثل هذا الوضع.

وسنتناول فيما بعد معنى كلمة "عصى" الواردة في الآية، وسنرى أنها لا تشير إلى معنى العصيان. والآن لنتابع موضوع آدم عليه السلام. نستطيع تعلم معنى الطاعة من آدم عليه السلام، فما أن زل حتى توجه إلى ربه الذي حفظه من السقوط: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣).

كان ذلك زلة، ولكن الله تعالى هداه إلى الطريق القويم بعد هذه الزلة والى الهداية، ونعلم من هذا أن هذه الزلة كانت قبل اجتبائه، ففي هذه الفترة كان آدم عليه السلام مثل نبتة انحنت أمام هبوب عاصفة ولكنها اعتدلت مثل سابق عهدها بعد انقضاء العاصفة ولم تقتلع من جذورها. والرسول ﷺ يشبه المؤمن بالزرع ويشبه الكافر بشجرة الأرز التي لها منظر ولكن إن قلعتها الريح العاصفة لم تستطع أن تعتدل مرة أخرى: «مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفِيءُ ورقُهُ من حيث أتتها الريح تُكَفِّئها، فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكُفَّأُ بالبلاء. ومثل الكافر كمثل الأرزة صمّاءُ معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء.»[1]

فإذا أخذنا هذا بنظر الاعتبار علمنا أن زلة آدم عليه السلام كانت قبل نبوته. ثم إن زلة آدم عليه السلام كانت عبارة عن نسيان وعدم تذكر، والله تعالى يخبرنا بذلك فيقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه:١١٥). ويقول في موضع آخر: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٣٥).

ولكن آدم نسي هذا، والنسيان طبيعة بشرية، ويقول الرسول ﷺ وهو يحلل هذا الموضوع: «ونَسِيَ آدم فنَسِيتْ ذريتُه»،[2] وقد شرح الرسول ﷺ -الذي يعرف الطبيعة البشرية

---

[1] البخاري، التوحيد ٣١؛ مسلم، صفات المنافقين ٥٨-٥٩؛ الترمذي، الأدب ٧٩.

[2] الترمذي، تفسيرسورة (٧) ٣.

أفضل معرفة- هذا الموضوع بهذا الشرح الجميل.. الإنسان ينسى، وآدم إنسان إذن، فهو ينسى وقد نسي فعلاً، وفي هذا الحديث يشير الرسول ﷺ إلى تأثير الوراثة على تصرفات الإنسان وسلوكه، وعلى المختصين في هذا المجال الاستفادة من هذه الإشارة. إذن، فقد جاءنا النسيان من أبينا آدم عليه السلام، فالله تعالى وضع هذا في ماهية آدم عليه السلام وفي كروموزوماته، لذا لا نستطيع نحن التخلص من هذا. وعندما يذكر الله تعالى أن آدم نسي فهو يقطع سوء الظن ويبعده، ثم يقول بعده مباشرة: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه:١١٥) أي لم نجده عاقدًا عزمه على فعل تلك الزلة ولم يقصدها قصدًا، بل بدرت منه في ساعة نسيان.

ماذا كانت تلك الفاكهة المحرمة؟ هناك وجهات نظر عديدة في هذا الموضوع لا نستطيع سردها كلها هنا، وإلا قلبنا هذه الصفحة إلى دكان بائع الفواكه، الشعير، الحنطة، الرز، التمر، العنب.. الخ، ولا يغير نوع الفاكهة الموضوع أو يؤثر فيه، فالمهم هو ما حدث من وضع ومن مشكلة بعد أكل هذه الفاكهة. أما قناعتنا في هذا الموضوع فتختلف عما قيل حتى الآن بعض الشيء.

الفاكهة المحرمة هي الغريزة البشرية التي لم يكن بمقدور آدم عليه السلام الوقوف في وجهها. وبفضلها تكاثر النسل البشري، والأمر نفسه كان واردًا بالنسبة لأم البشرية حواء، ونحن نرى - والله أعلم- أن الاقتراب من الشجرة يأتي بمعنى العملية التي يتكاثر بفضلها الجنس البشري.

ومع ذلك فلا نقول إن أصح رأي هو ما نقوله، ولكننا نعتقد أن من المفيد إضافة هذا الرأي وهذا القول إلى جانب الآراء الأخرى في هذا الموضوع، فإن كان صحيحًا فهذا فضل من الله، وإلا فإننا نلوذ برحمته الواسعة.

أحب أن أنبه إلى أمر قبل الانتقال إلى الحكم الديني للنسيان والخطأ إذ يتوجب علينا وصل الحوادث المتفرقة التي يقصها القرآن علينا ثم عرضها بشكل تام.. والأمر نفسه وارد هنا، ففي مرحلة نبه آدم عليه السلام وحوّاء من عدم الاقتراب من الشجرة أو من الفاكهة المحرمة، ولكن كم من الزمن مر على هذه المرحلة؟ لا أحد يعرف هذا، ولكن الظاهر أن هذا الزمن كان طويلاً بحيث ساعد على نسيان آدم لهذا النهي، ثم تم تناول الفاكهة المحرمة بعد هذا النسيان.

والحساب مرفوع عن الخطأ فالرسول ﷺ يقول: «رُفِع عن أمّتِي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه.»[1] وألا يعلمنا القرآن الكريم أن نستغفر الله تعالى إن وقعنا في هذه الأمور؟

---

[1] فيض القدير للمناوي، ٣٤/٤. وانظر في الروايات المختلفة للحديث إلى: البخاري، الحدود ٢٢، الطلاق ١١؛ أبوداود، الحدود، ١٧؛ الترمذي، الحدود، ٤؛ ابن ماجة، الطلاق، ١٥، ١٦.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة:٢٨٦). أليست هذه الآية من الورد الذي نقرؤه كل يوم قبل النوم؟

نسي آدم ﷺ وقطف الفاكهة المحرمة خطأ. فإذا كان هذا الأمر تم جراء الخطأ والنسيان الذي يقول الرسول ﷺ إن الحساب مرفوع عنهما، فكيف إذن، يعد آدم ﷺ آثما أو مذنبًا؟

فإذا كان الإنسان الاعتيادي يجتنب ما هو ظلم وعصيان لدى الله تعالى، فكيف لا يجتنب الأنبياء الظلم والعصيان وهم الأشخاص المصطفون والمختارون من قبله تعالى؟ أرى أن قول العكس غفلة كبيرة، بل إن بعض العلماء كرهوا قراءة هذه الآية بهذا المعنى.. لا شك أنه يستطيع أي إنسان قراءة هذه الآية وشرح معانيها على ألا يكون وسيلة لفهم خاطئ، لأن آدم ﷺ نبي ولا يمكن أبدًا التحدث عن نبي وكأنه شخص عادي. وَأسلوب القرآن حولهم يتأتى من زاوية درجة قربهم من الله تعالى وليس من زاوية تصرفاتهم، وكان القدماء يوضحون هذا بقول "حسنات الأبرار سيئات المقربين."[١]

وحتى في القانون البشري نرى أن موظف الدولة إن اقترف ذنباً تزداد عقوبته، فإن كان مخالف القانون حاكما أو محاميا ممن يعرف القانون تضاعفت عقوبته. فالأنبياء موظفون من قبل الله تعالى، وهم يعرفون أكثر من غيرهم ماذا يعني اقتراف الذنوب، لذا كان من الطبيعي مضاعفة عقوبة من كان بهذا الموقع إن اقترف ذنبًا. ثم ألا يعد اقتراف الذنب في حرم الكعبة شيئًا أكبر وأشنع من اقتراف الذنب نفسه في الأماكن الأخرى؟[٢]

ألا يذكر القرآن الكريم مضاعفة العقوبة لزوجات الرسول ﷺ إن اقترفن الذنب؟[٣]

ذلك لأن الكعبة رمز للقرب من الله تعالى، والناس هناك يُعدون ضيوف الرحمن، وكون أي امرأة زوجة للرسول ﷺ رمز أيضًا للقرب من الله تعالى، لأن بيت الرسول ﷺ هو البيت الذي يتنزل عليه الوحي، ويدخله جبريل ﷺ على الدوام، لذا كان من الطبيعي مضاعفة العقوبة لأي ذنب يقترف في هذا البيت وذلك على قاعدة: "الغُرْم بالغُنْم"، فمع زيادة المغنم يزداد المغرم.

وهذا هو أيضاً وضع الأنبياء عليهم السلام، فقد شرفوا بالقرب من الله تعالى، وملك الوحي معهم في غالب الأحوال، لذا فمن الطبيعي أن يعد أقل زلة عندهم بمثابة ذنب، وأن

---

[١] كشف الخفاء للعجلوني، ٤٣٨/١.

[٢] قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج:٢٥).

[٣] قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ (الأحزاب:٣٠).

تقدم الزلة وكأنها ذنب، لأن طبيعة موقعهم تستوجب هذا، ولأكرر هنا فأقول بأن هذا الذنب وهذه العقوبة أو الجزاء لا يمكن تقييمه من زاوية ذنب أو جزاء إنسان عادي أو ولي من الأولياء، بل هو صورة ذنب من زاوية وضعهم وموقعهم كأنبياء فقط وليس ذنبًا حقيقيًا، لذا لا يجوز إطلاق كلمة الذنب هنا.

ثم لنفرض أن الله تعالى أمر آدم عليه السلام بعدم ملامسة زوجته والصوم عن مقاربتها، ولكن لكون آدم عليه السلام قد تعلم الأسماء كلها فهو يعرف إذن، ما سيحل به بشكل من الأشكال. أجل، كان يعلم أن الدوامة التي دخل فيها ستقلبه مرات ومرات وتوصله -بتأثير من الدافع المركوز فيه- إلى النقطة التي خُطط لها.. فالإرادة الإنسانية التي تقاطعت في لحظة في عالم الأسرار في نقطة معينة مع المشيئة الإلهية أدت إلى هذه النتيجة، فإن لم نقل إنه نسيان -والقرآن الكريم يقول إنه نسيان- فعلى الأقل يجب مواجهته بمرونة.

وما دمنا وصلنا إلى هذه النقطة أرى من المفيد إيراد الحديث النبوي الذي يرويه البخاري ومسلم والترمذي، إذ يقول الرسول ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه أتلومني على عمل عملته كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السموات والأرض. قال: فحج آدم موسى.»[1] وهذا الحديث يبين أن آدم عليه السلام كان على حق في هذا النقاش، وهذا يعني أنه لم يقترف ما يعد إثمًا بفعله ذلك.

عُلّمَ آدم عليه السلام الأسماء كلها -والمسميات كذلك- فعاش حياته مبهورًا في خضم أسرار هذه الأسماء، لذا فمن الغفلة ادعاء إمكانية قيام مثل هذا الشخص باقتراف ذنب عن سابق إرادة وتصميم. واحتمال آخر هو أن النهي عن تلك الفاكهة كان نهيا مؤقتا، وأن آدم عليه السلام كان يعرف هذا، ولكنه اجتهد برأيه ومد يده لتناولها قبل الأوان.. مد يده وأفسد صومه، وهذه العملية التي تعد الآن ثوابًا إن تمت في دائرة الحلال كانت محرمة بشكل مؤقت على آدم عليه السلام، أو أن ذلك النهي كان بالنسبة لقربه من الله تعالى، لذا عُدّ تصرفه هذا زلة.

والمقياس الذي عرضناه في حق آدم عليه السلام سيفيدنا في فهم وضع الأنبياء الآخرين، إذ سنفهم أنهم متصفون بصفة العصمة، فالزلات المسندة إليهم ليست ذنوبًا بالمعنى الذي نفهمه نحن من الذنب.

---

[1] البخاري، تفسير سورة(٢٠) ١، ٣؛ القدر، ١١؛ المسلم، القدر، ١٣-١٥؛ الترمذي، القدر، ٢

ب- نوح عليه السلام

ناجى نوح عليه السلام ربه لينقذ ابنه فتم تنبيهه، وقد يبدو هذا في النظرة الأولى زلة بالنسبة لنبي، لندقق النظر في وضع هذا النبي الكريم الذي يعد الأب الثاني للبشرية لنعرفه عن قرب في ضوء نور القرآن الكريم. يورد القرآن الكريم دعاء نوح عليه السلام وجواب الله تعالى وتنبيهه له: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود:٤٥).

كان الانفعال قد سرى في كيان نوح عليه السلام وهو ينتظر الحادثة التي ستقع على رأس أمته، وكان قلقًا على مصير ابنه كأي إنسان آخر، فهل كان قلقه للمصير الذي سيلقاه ابنه أم لأن ابنه سيموت كافرًا؟ لا شك أن قلقه لم يكن منحصرًا على دنيا ابنه وعلى بدنه وجسمه بل علىحياته الأبدية وحياته الخالدة وهو الذي يعرف جيدًا السعادة الأبدية التي هيأها مولاه، وكذلك عذابه الأليم، ثم أهناك أي والد لا يرتجف شفقة من مثل هذا المصير المرعب لابنه؟

أمام هذا الأنين الصادر من هذا القلب المكلوم جاء الإرشاد الإلهي الذي بين حقيقة الأمر: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود:٤٦).

إنه ليس من أهلك، صحيح أنه من صلبك وأن امرأتك ولدته وتربى في حجركم، ولكن أهلك هو من سار على دربك، ذلك لأنه اقترف عملاً غير صالح ودخل إلى دائرة فاسدة وتمرد عليك ودخل بين الكفار فقادوه إلى الغرق في المياه، وقاده الغرق إلى خسران حياته الأبدية، فلا تطلب مني شيئًا لا تعلمه حق العلم. إني أعيذك أن تكون من الجاهلين، ذلك لأنك أهل للعلم وأهل للمعرفة وللحب، لأنك تعلم مولاك الحق، فلا يليق بك هذا الطلب وأنت من الأنبياء والمقربين إليّ.

هذه هي الزلة الوحيدة لنوح عليه السلام الذي عاش تسعمائة وخمسين سنة إذ دعا من الله أن ينقذ ابنه المشرف على الغرق، فلماذا قام بهذا الدعاء وبهذا التوسل؟

أولاً: لقد بين القرآن الكريم أن الله تعالى أوصاه أن يحمل أهله والمؤمنين في السفينة: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ (هود:٤٠). كان هذا هو الوعد الذي أخذه نوح عليه السلام من ربه، وكان طلبه ودعاؤه مستندًا إلى هذا الوعد، ولكنه لم يكن يعلم صدور الحكم الإلهي ضد ابنه، لذا لم يكن طلبه إلا طلبا لوعد الله تعالى.

بنى نوح سفينة استنادًا إلى الوحي، ودعا الناس إليها بناء على أمر الله تعالى، كان أفراد عائلته بالطبع ضمن هؤلاء المدعوين، دعا أفراد عائلته ولكن ها هو يشاهد ابنه وقد حاصرته الأمواج، فأسقط في يده ولم يجد هناك إلا ملجأ واحدًا يلجأ إليه وهو ربه الذي يبقى المنقذ الوحيد عندما تنسد الأبواب جميعها.. التجأ إليه لإنقاذ ابنه، فلم يبق أمامه سوى باب الدعاء من ربه.

وقد فوجئ عندما أخبره ربه أن ابنه ليس من أهله، كان يحسب أنه من أهله لأنه ابنه، ولكنه عندما نبه رجع حالاً إلى ربه وأناب إليه واستغفره بهذا الدعاء الحار: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود:٤٧). إذن، فعندما التجأ نوح عليه السلام بطلبه إلى ربه لم يكن عالمًا بالأمر، وعندما علم أسرع بالاستغفار، فهل يمكن إطلاق وصف الخطأ على هذا التصرف؟ وأي ضمير يرضى بذلك؟

ثانيًا: ماذا كان طلب نوح عليه السلام؟ لقد طلب نوح من ربه هداية ابنه، وأليس هذا شيئًا طبيعيًا لأي أب؟ أب هو في الوقت نفسه نبي يبذل كل ما في وسعه لهداية الناس جميعًا، لذا ألا يعد تضرع نوح إلى ربه لإنقاذ الحياة الأبدية لابنه تصرفًا طبيعيًا بل تصرفا فاضلاً وهو الشخص الرحيم الذي مد جناحي رحمته ليظلل الناس جميعًا؟

أجل، نحن هنا أمام رحمة نبوية، هذه الرحمة التي تتجاوز خيالنا نحن، ولولا هذه الرحمة الواسعة لما كان بإمكانهم حمل عبء النبوة على أكتافهم. فكروا في أم من الأمهات.. فلكي تقوم هذه الأم بضم وليدها إلى صدرها والقيام بإشباع كل حاجاته ومتطلباته يجب أن تزود برحمة وبشفقة كبيرة، إذن، فما بالك بالرحمة المهداة إلى أي نبي من الأنبياء أو إلى أحد الأنبياء والكبار من أولى العزم وهم الذين فتحوا أذرعهم لاحتضان كل المطالب المشروعة الدنيوية منها والأخروية لبني الإنسان بأجمعهم!

ويقول القرآن الكريم وهو يصور الحالة النفسية لرسولنا ﷺ أمام المنكرين والكفار: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦)، ويشرح رسول الله ﷺ وضعه منا بهذا المثل الذي يضربه إذ يقول: «إنما مَثَلي ومَثَلُ أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدوابّ والفراشُ يقعنَ فيه، فأنا آخذٌ بحُجَزِكمْ[2] وأنتم تَقَحَّمُون فيه.»[3]

---

[1] باخع: مُهلِك.

[2] الحجز: جمع حجزة، وهي معقد الإزار والسراويل.

[3] مسلم، الفضائل ١٧؛ وانظر إلى الروايات الأخرى وبألفاظ مختلفة في: البخاري، الأنبياء ٤٠؛ الترمذي، الأدب ٨٢.

إذن، فهذا هو مبلغ الرحمة النبوية، وكان نوح عليه السلام نبيًا، لذا كان يحمل الشفقة نفسها. ولكنه ما إن سمع التنبيه الإلهي حتى أناب إلى الله تعالى وتخلى عن دعائه واستغفر ربه.

والآن لنر التشابه بين دعائي نوح عليه السلام وآدم عليه السلام.. لقد توجه كلاهما إلى الله عندما علما بخطئهما وتضرعا إليه بدعاء متشابه وبأسلوب متشابه، لأنهما كانا من خميرة متشابهة وخلق متشابه.. درسا في المدرسة نفسها وعلى يد المعلم علام الغيوب نفسه، لذا كان عليهما أن يرجعا عن الخطأ بالشكل نفسه، ومع أن القرآن الكريم استعمل كلمات مختلفة في بيان إنابتهما وأوبتهما إلا أنه استعمل الأسلوب نفسه.

ثالثًا: هناك قاعدة دينية تقول: "نحن نحكم بالظاهر"، ولهذا اشترك رسول الله ﷺ في الصلاة على عبد الله بن أبي مع علمه بنفاقه، كما اشترك في الصلاة على كثير من المنافقين ولم يهتك سترهم،[1] ذلك لأنهم كانوا في الظاهر يؤدون الصلاة ويصومون ويقومون بأداء جميع الشعائر الدينية.

لذا، فهناك احتمال أن موقف ابن نوح عليه السلام كان الموقف نفسه، فربماكان ابنه يتظاهر بالإيمان على الدوام مع كونه منافقًا أو أن نفاقه ظهر على السطح في تلك الأثناء، وكان نوح عليه السلام يحكم عليه حسب ظاهره ويعده من أهله، أما الحكم حسب الظاهر فلا يُعد ذنبًا في أي وقت من الأوقات، لذا وبناء على هذا لا يكون نوح عليه السلام قد اقترف ذنبًا، فقد قام بواجبه.. وتصوروا هذا النبي الكريم الذي عاش تسعمائة وخمسين سنة وبذل كل جهده طوال حياته هذه، وتعرض إلى الهزء والسخرية وأسند إليه الجنون، ولكنه لم يهتز أبدًا ولم تفتر عزيمته أبدًا مع أن الذين آمنوا به كانوا قلة قليلة كما يخبرنا القرآن الكريم: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (هود:٤٠).

ويستطيع من يريد فهم النبي نوح عليه السلام قراءة سورة نوح، عند ذلك سيفهم كيف أن هذا النبي الكريم بعيد عن اقتراف أي ذنب بُعد الثرى عن الثريّا، ندعو من الله تعالى أن يجعلنا من الفائزين بشفاعة نبينا وبشفاعة نوح عليه السلام.. آمين.

ج- إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وخليل الله.. الإنسان الذي لم تطرف عيناه خوفًا من أي شيء.. الإنسان الكبير الذي وجد البرد والسلام داخل النار.. الشخص المجتبى الذي كان ينقل جو الجنة الذي كان يحمله داخل جوانحه إلى كل مكان يذهب إليه حتى وإن كان ذلك جحيمًا،

---

[1] البخاري، تفسير سورة (٩) ١٢، ١٣؛ المسلم، فضائل الصحابة ٢٥؛ الترمذي، تفسير سورة (٩) ١٢، ١٣.

وبينما يفرح كل إنسان عند انتسابه لرسول الله ﷺ كان الرسول ﷺ يفرح لشبهه بإبراهيم عليه السلام إذ يقول إنه عندما عُرض عليه الأنبياء في معراجه: «ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه فإذا أقرب من رأيت به شَبَهاً صاحبكم»[1] يعني نفسه. والآن لندقق حدود عصمته ونفهم ماهية العصمة عنده كذلك.

١. الكوكب والقمر والشمس

لم يعبد إبراهيم عليه السلام في أي مرحلة من مراحل حياته الكواكب ولم يقترب من الشرك. وإن إطلاقه كلمة "ربي" على كل من الكوكب والقمر والشمس لا علاقة له مع الشرك لا من قريب ولا من بعيد.

والآن لنتابع من القرآن الكريم هذا الموضوع: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:٧٦-٧٨).

ولد إبراهيم عليه السلام حنيفًا، لذا لا يتصور أنه قال "ربي" بشكل حقيقي للكوكب والقمر والشمس، ذلك لأن من يتوهم ذلك فكأنه يتناسى عن عمد الآيات التي سبقت هذه الآيات وهي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام:٧٤)، والآية التي تأتي بعد ذلك تقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:٧٥).

إذن، فمثل هذا النبي المنفتح قلبه على مثل هذا العالم الغيبي لا يمكن أن يعد الكواكب -ولو بشكل مؤقت- ربًا له مهما قالت الكتب المملوءة بالأساطير هذا. ثم إن الله تعالى لم يره ملك السموات والأرض فقط، بل أراه الملكوت كذلك، أي العالم الموجود وراء أستار هذا العالم الظاهري، وهو بهذا من الواصلين إلى الإيمان اليقيني.. بل إلى مرتبة حق اليقين التي هي المرحلة الأخيرة للإيمان اليقيني، لذا بعدما شرحت الآيتان السابقتان كيف حصل إبراهيم عليه السلام على الإيمان اليقيني نعلم أن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يوصل إلى قومه بعض الحقائق في هذه الحادثة.. إذن، لنتناول الموضوع من هذه الناحية لنقوم بالتحليل:

في البدء نقول إن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون النجوم مثلما عبد العرب في مرحلة من

---

[1] مسلم، الإيمان ٢٧١؛ الترمذي، المناقب ١٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣٣٤/٣.

مراحل الجاهلية "الشِّعْرَى" التي أصبحت إلهًا يُعبد لكونها نجمة لامعة وأكبر من غيرها حسبما كانت تبدو لهم، وكان أهل بابل القدماء يعبدون النجوم أيضًا، هنا نعلم أن إبراهيم نظر إلى هذا الكوكب الذي كان يبدو -لبعده- صغيرًا وأثار انتباه من حوله إليه، ثم قام بتنبيه صغير ومعقول لهم يطابق الظاهر.. كان ما يقوله صحيحًا لا يخالطه أي كذب، وكان في كل دليل يقدمه لهم يهدم إلهًا لهم في السماء وإلهًا يمثله في الأرض.[1] أجل، كان إبراهيم عليه السلام يهدم بمنطقه أصنامهم واحدًا إثر آخر.. كانت هذه هي مهمته.. هدم الأصنام.

قدّر بعض المفسرين وجود همزة الاستفهام في أول جملة "هذا ربي"[2] أي أن الجملة المقدرة هي سؤال إنكاري: "أهذا ربي؟" والجواب الطبيعي: "كلا.. ليس هو"، هذا أحد التفاسير، غير أن تفسيرنا للموضوع هو: تظاهر إبراهيم عليه السلام أنه مهتم بما يعده قومه آلهة، وذلك كخطة لكي يجرهم إلى المستوى الذي عينه للنقاش معهم، ولم يكن هناك حل آخر أمامه غير هذا، وأعاره قومه آذانهم له على اعتبار أنه يتكلم عن آلهتهم، ولكن عندما انتهت المناظرة بينه وبينهم بالجمل الأخيرة لإبراهيم كانت جبهة الإيمان قد انتصرت على جبهة الكفر والشرك.

لقد تجول إبراهيم عليه السلام مع قومه بين الكوكب والقمر والشمس وأراهم أن الجميع يأفلون.. كلهم يبزغون ويصعدون إلى كبد السماء ثم يأفلون في النهاية، والذي يولد ثم يكبر ثم يأفل ضمن قوانين معينة لا يمكن أن يحكم الكون، فكيف يستطيع من كان حادثًا الهيمنة على حادث مثله؟ كانت الجملة الأولى له لقومه وهي: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ أول تنبيه لهم.. يجب ألا يكون في القلب محل للآفلين وللغاربين، ولا يكون الآفلون أهلاً للسير وراءهم، لأنهم يختفون ويأفلون.. أعطوني حبيبًا لا يأفل.. حبيبًا يكون أقرب إليّ مني.. حبيبًا يعرف جميع خلجات قلبي ورغباته، وعنده القوة والمقدرة على أن يحقق كل هذه الرغبات.

ثم يخطو خطوة أخرى.. يريهم القمر.. ولكنه يأفل أيضًا بعد مدة، فيقول جملة يتعرض لهم بها من طرف خفي ويريهم ضلالتهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام:٧٧).

وفي الخطوة الثالثة ينظر إلى الشمس التي هي كبير الآلهة عندهم.. بدأ من الصغير وهدم إلهين صغيرين عندهم، والآن جاء دور الإله الأكبر، لذا عندما أفلت الشمس وغربت

---

[1] كان قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون النجوم، وكان لكل نجم صنم يمثله في الأرض.

[2] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١١٩/٧؛ روح المعاني للآلوسي، ١٩٩/٧.

خاطب ضمائر القوم الموجودين هناك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ والآن جاء دور الجملة الأخيرة إذ توجه إليهم بهذا الكلام الحار الخارج من أعماق قلبه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٧٩). ولو أن إبراهيم عليه السلام قال هذه الجملة منذ البداية لما استمع إليه أحد.. راعى مستواهم ووضعهم وعقليتهم وتدرج معهم فبدأوا يستمعون إليه، ولو لم يتدرج في كلامه معهم لما وجد أحدًا يستمع إليه ولما استطاع أن يؤثر فيهم.

وهكذا فضّل إبراهيم عليه السلام بفطنته اختيار هذا السبيل لكي يظهر حقيقة "لا إله الا الله" لكل فرد في قومه، وهذا المنطق مطابق تمامًا للمنطق القرآني، وكيف لا وكلاهما استقى من المنبع نفسه وعكسا الحقيقة نفسها.

أود هنا جلب أنظاركم إلى نقطة معينة، فإبراهيم عليه السلام يقول: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونِ﴾ وهذه الجملة جملة إسمية، والجمل الإسمية في اللغة العربية تفيد الاستمرار، وهذا معناه: إنني كنت بريئًا ولا أزال بريئًا مما تشركون. إذن، فلم يتفوه إبراهيم عليه السلام بأي كلام ولم يقم بأي تصرف يستشف منه أي شرك، والتعابير التي استعملها لم تكن إلا خطة محكمة من خططه الحكيمة، لذا فلا يوجد شيء في كلامه يخل بعصمته.

٢. إحياء الموتى

والشيء الثاني الذي يُزعم أنه زلة هو طلبه من ربه إحياء الموتى. والقرآن الكريم يشرح هذه الحادثة فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة:٢٦٠).

كان إبراهيم عليه السلام بطلاً من أبطال الروح وعالم المعاني والإيمان الذي يبحث دائمًا عن المزيد، وظل قلبه مفتوحًا على الدوام للمزيد من معرفة الله، لذا نراه يريد اقتحام آفاق جديدة من المعرفة بمشاهدة كيفية إحياء الله تعالى للموتى.

أكان لدى إبراهيم عليه السلام شك أو شبهة في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى؟ كلا على الإطلاق، فقد تضرع إلى الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، إذ لم يقل لله تعالى: أتستطيع أن تحيي الموتى؟

واستجاب الله تعالى لطلبه فأمره أن يأخذ أربعة طيور ويجعلهن يألفنه ثم يذبحهن ويقطعهن ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا ثم يدعوهن فيأتينه سعيًا: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ (البقرة:٢٦٠).

والحقيقة أن الله تعالى أراه مثالاً واحدًا من أمثلة الإحياء التي تتكرر في كل موسم ربيع آلاف المرات، غير أنه أكرم نبيًا عظيمًا من أنبيائه فقدم له هدية خاصة في هذا المجال لكي يرتشف الإيمان اليقيني وينهل من منهل الإيمان من درجة الاطمئنان.. كان إبراهيم عليه السلام يعب من هذا المنهل العذب ولا ينطفئ ظمأه وعطشه.. فلم يكن طلبه هذا ناتجًا عن شك أو شبهة أو تردد وهذا ظاهرمن سؤاله، إذ لم يقل لله تعالى: "هل تقدر أن تحيي الموتى أم لا تقدر؟" وهذا يشبه قولك لرسام كبير: "دعني انظر إليك وأنت ترسم لوحة" أو لخطاط فنان: "خط أمامي لكي أرى كيف تخط مثل هذه الخطوط الجميلة"، فليس في مثل هذا الطلب أي ناحية تعجيزية، بل هو تعبير عن الافتتان بفنه الجميل واعتراف به، ولهفة على رؤية دقائق فنه وسعادة كبيرة في تأمل كيفية ظهور لوحة رائعة مرحلة فمرحلة.. أجل، فالسؤال كان حول كيفية الإحياء وليس حول إمكانيته أو عدم إمكانيته.

ثانيًا: إنه كما قال سيد قطب رحمه الله:

"إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل.. حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحيانًا من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين!.

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلبًا للبرهان أو تقوية الإيمان.. إنما هو أمر آخر، له مذاق آخر.. إنه الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هذا هو إيمان إبراهيم الخليل الذي يقول لربه ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ويتنفس في جوها ويعيش معها.. وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان."[1]

ثم إن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يشبع إيمانًا بمستواه هو، فالرجل الأمي قد يتصور أنه ما من أفق آخر غير أفقه المحدود، وليس هناك طريق تتجاوز طريقه.. ألم يزعم محيي الدين بن عربي -في شطحاته- أن خاتم الأنبياء يتلقى الدروس من خاتم الأولياء؟ لماذا؟ ذلك لأن رأسه لمس القبة المضروبة على قدره ومقياسه، وعندما دخل من الباب المقدر له دخوله

---

[1] في ظلال القرآن لسيد قطب، ١/٣٠١-٣٠٢.

ضاقت به أطر الباب، بينما كان هذا الباب صغيرًا جدًا بالنسبة للقصر الكبير.. مثل باب غرفة صغيرة فيه.. بينما كان الباب الذي دخل منه إبراهيم الخليل باب سور كبير وباب مدينة كبيرة.. قبته السماء، يستطيع أن يتطلع فيها إلى الشمس والقمر والنجوم.. فأفق المعرفة لأكبر ولي يبقى محدودًا جدًا بالنسبة لأفق المعرفة الذي وهبه الله تعالى لنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام، وإذا كان إبريق من الماء يروينا، فإن البحار ما كانت لتكفي لإرواء ظمئه عليه السلام إلى المعرفة، لذلك كان صاحب هذا القلب الكبير كلما رأى دليلاً وآية من آيات ربه ذرف الدموع حبًا ووجدًا.

سأل شمس الدين التَبرِيزِي جلال الدين الرومي: أيهما أعظم! هل النبي محمد ﷺ الذي يقول «ما عرفناك حق معرفتك يا معروف!»، أم أبو يزيد البسطامي الذي يقول: "سبحاني ما أعظم شأني!" فأجابه جلال الدين الرومي جوابًا مذهلاً إذ قال: "نستطيع أن نعرف من هذين القولين كيف أن سيدنا محمد ﷺ أكبر من البسطامي بما لايقاس، ذلك لأن الرسول ﷺ كان كالبحر المحيط لا يمكن ملؤه، بينما كان البسطامي مثل إبريق ماء امتلأ بسرعة ثم فاض."[1]

كان إبراهيم عليه السلام إنسانًا لا يعرف حدًا للشبع من المعرفة الإلهية.. كان دائم الطلب "هل من مزيد؟".. أعطني يا رب من معرفتك المزيد.. لذا، ففي حديث يرويه البخاري ومسلم يقول الرسول ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم.»[2] أي بما أننا لا نشك في إحياء الموتى، لذا فمن الأولى عدم وجود الشك عند إبراهيم عليه السلام.

٣. التعريضات الثلاثة لإبراهيم عليه السلام

عند البحث عن عصمة النبي إبراهيم عليه السلام يجدر بنا الإشارة إلى ثلاث أكاذيب أو بالأصح إلى ثلاثة تعريضات له، ذلك لأننا نستعرض هنا عصمة الأنبياء بشكل عام، بينما يُعد الكذب ذنبا كبيرًا، لذلك فتفوه الأنبياء بأي كذب يخل بعصمتهم ويخل بالثقة بهم، فالكذب لا يصدر من قلب مؤمن.

يقول رسول الله ﷺ في حديث له: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثا.»[3] ولا تأتي كلمة "يكذب" هنا بمعنى الكذب المعروف بل بمعنى "التعريض". وقد يبدو قولنا هذا تكلفًا من الناحية اللغوية، غير أنه صحيح من ناحية المعنى الذي سنوضحه بعد قليل، ذلك لأنه يجب

---

[1] نفحات الأنس لملّا جامي، ص٥٢١ (ترجمة لامعي جلبي).

[2] البخاري، الأنبياء ١١؛ مسلم الإيمان ٢٣٨.

[3] البخاري، الأنبياء ٨، النكاح ١٢؛ مسلم، فضائل ١٥٤؛ أبو داود، الطلاق ١٦.

الانتباه جيدًا إلى التعبير، إذ لا يمكن إسناد الكذب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام، فلا يأتي الكذب هنا بالمعنى الوارد في قواميس اللغة، نطلق كلمة "التعريض" لأمثال هذه الكلمات.

كان الرسول ﷺ يمزح أحياناً ولا يقول إلا حقاً، فمثلاً كان يمازح أنساً رضي الله عنه فيقول له: «يا ذا الأُذُنين»،[1] طبعًا كان لأنس رضي الله عنه أذنان. وخاطب امرأة فقال لها: «أأنتِ زوجة الرجل الذي في عينه بياض؟» فقالت: يا رسول الله، ليس في عين زوجي بياض. فقال لها الرسول ﷺ: «في كل عين بياض.» وأتته مرة امرأة فقالت: يا رسول الله، ادع لي أن يدخلني الله الجنة، قال: «يا أم فلان! إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فولت العجوز تبكي فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (الواقعة:٣٥-٣٦).»[2]

إن النبي يختار كلماته جيدًا حتي وهو يمزح.. أجل، إن المقام الذي كان يشغله الأنبياء لم يكن يبيح لهم الكذب حتى في المزاح، ذلك لأنهم في موقع القدوة والأسوة للإنسانية جمعاء، فإن كذبوا في المزاح كذب الناس في الجد، لذا فلا يمكن أن يكون أي نبي مثالاً سيئا في أي شيء.

كان النبي إبراهيم عليه السلام منذ ولادته حنيفاً وعدواً للأصنام، وقف أمامها وعمل ضدها وكافح العكوف على الأصنام حتى قبل بعثته، حتى جاء يوم قرر فيه أن يهدم الأصنام جميعها. كان من عادات قومه النظر إلى النجوم لمعرفة ما سيقع من حوادث، لأنهم كانوا يعتقدون آنذاك أن الآلهة موجودة في السماء بين النجوم، وكانوا يعتقدون أن النجوم تتحكم في مصائر الناس، وكان إبراهيم عليه السلام ينظر أيضاً إلى النجوم ولكن من أجل محاولة إقناع قومه والوصول إلى تحقيق غايته، ولم يكن يفكر طبعاً تفكير قومه في هذا الصدد.

نظر إبراهيم عليه السلام نظرة إلى النجوم فقال "إني سقيم"، هذه هي كذبته الأولى أو بالأصح تعريضه الأول، وسنشرح فيما بعد لم قال هذا. وتعريضه الثاني قاله عندما كسر جميع الأصنام ثم علق مطرقته على عنق كبير الأصنام قائلاً لمن سأله من فعل هذا بأصنامهم: "إنه كبيرهم هذا فاسألوه."

أما الثالث فلا يذكره القرآن ويتعلق بزوجته إذ أوصاها بأن تذكر لمن يسأل عنها أنها أخته.[3]

---

[1] الترمذي، المناقب ٤٥؛ أبو داود، الأدب ٨٤.

[2] الشمائل للترمذي ٢٤١.

[3] البخاري، تفسير سورة (١٧) ٥؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦-٣٢٧.

هـذه هـي التعريـضات الثلاثـة لإبـراهيم عليه السلام وسـتتناولها جميعـاً لنـرى الوجـه الحقيقـي لعصمته بعد معرفة ماهية الحوادث.

أ – " إني سقيم "

يشرح القرآن الحادثة الأولى فيقول: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۞ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۞ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (الصافات:٨٣-٩٠). كـان إبـراهيم عليه السلام يقصد مـن "إنـي سقيم" الإشـارة إلـى السـبب الرئيسـي لعدم شـعوره بالراحة، كانت الأصنام مصدر حزنه وسقمه.. شعر بأنه ما لـم يهدم هـذه الأصـنام ويكسـرها فلـن يجـد طعمًـا للراحـة، وعنـدما قـال لمـن حولـه: "إنـي سـقيم" ظنـوه مريـضًا مـن الناحيـة الجسدية فتولـوا عنـه، إذ كـانوا يـصرون علـى اصـطحابه معهـم لمـشاركتهم فـي احتفـالهم الـديني.. مـا إن خرجـوا مـن عنـده حتـى أسـرع ليحطم الأصـنام مبينـا بـذلك السـبب الحقيقي لسقمه غير أنه استعمل في كلامه معهم تعريضًا يفهمون منه شيئا غير مقصوده الحقيقي، ولكنه لم ينحرف في كلامه هذا إلى الكذب أبدًا، كل ما هنالك أن قومه لـم يفهموا قصده الحقيقي، وليس هذا بغريب عن قومه الذين صموا آذانهم عن الاستماع إلى الحق، كان هـذا هو مصدر الخطأ.

كـان مـا استعمله إبـراهيم عليه السلام تعريـضًا، ولكنـه كـان شخـصًا مـستقيمًا إلـى درجـة أن هـذا التعريض الذي استعمله آلمه إلى درجة أنه سيقول يوم القيامة لمن يأتيه يسأله الشفاعة أن يذهبوا إلى موسى لأنه تذكر كذباته، يقول الرسول ﷺ: «..فيأتون إبراهيم فيقولـون: أنـت نبـي الله وخليله من الأرض، اشفَعْ لنا إلى ربك، ويقول: -فذكر كذباته- نفسي نفسي اذهبوا إلى موسى.»[1]

تأملوا كيف أن إبراهيم عليه السلام استعمل تعريضاً مثل "إني سقيم" مرة في حياته وقارنوا بينه وبين أقوال من يرون أنفسهم في خدمة الإسلام -ولا أذكر غيرهم- إن كان ذلك اضطرارًا أم لا لكي يتبين لكـم مدى براءة أقوال النبي إبراهيم عليه السلام.. لقـد سـهل اليـوم التذبـذب بـين الصدق والكذب، لذا يجب الحذر تماماً حتى من تجويز استعمال "التعريض" اليوم، ذلك لزيادة الكذب وفشوه في أيامنا الحالية، ولما كانت هذه هي الحال فيجب الحذر حتى في

---

[1] البخاري، تفسير سورة (١٧) ٥؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦-٣٢٧.

المواضيع الثلاثة التي أجاز النبي ﷺ الكذب فيها،[1] ذلك لأنه كانت هناك هوة واسعة بين الصدق والكذب في العهد النبوي.. كان الصحابة يمثلون الصدق وكان مسيلمة وأتباعه يمثلون الكذب، كانت هذه هي المسافة الموجودة سابقًا، أما الآن فالوضع مختلف.

أجل، إن الذين يمثلون الحق يجب ألا يعطوا للكذب أي مجال سواء في حياتهم الفردية أم في حياتهم الاجتماعية، فهذا هو الشرط الأول للوصول إلى موضع الثقة والأمن، يجب أن نبتعد نحن عن الكذب ويبتعد عنا الكذب، فإذا كنا نبدي كل هذه الحساسية في هذا الموضوع، إذن، فخمنوا الحساسية التي يبديها الأنبياء عليهم السلام في هذا الخصوص وهم الذين تعلمنا الصدق منهم، خاصة إن كان هذا النبي هو النبي إبراهيم عليه السلام جد نبينا محمد ﷺ.

ب - " بل فعله "

والتعريض الثاني هو: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۞ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۞ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ قَالُوا مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء:٥١-٦٣).

يُسأل إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ فيجيبهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ ويسكت هنا، وفي القرآن الكريم علامة وقف هنا، أي يتم الوقوف هنا في التلاوة، والضمير (ـه) يعود إلى نفسه أي إبراهيم، ولكنه استطاع بمهارة حديثه توجيه أنظارهم إلى الصنم الكبير. والحقيقة أنه نطق هنا بجملتين مختلفتين، ولكن عند التلفظ بهما أصبحتا وكأنهما جملة واحدة، لذا فلم يستطيعوا فهم مراده الحقيقي. فالجملة الأولى هي: ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ والثانية هي: ﴿كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ ولكنه عندما ربط الجملتين أصبحتا وكأنهما جملة واحدة: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ وهنا يكمن التعريض، ويكمن هنا أيضا استهزاء خفي من الكفر ومن

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٤٥٤/٦؛ كنز العمال للهندي، ٦٣٢/٣-٦٣٣. فقد ورد في الحديث لا يصلح الكذب إلا في إحدى ثلاث: الرجل يكذب على امرأته ليصلح خلقها، ورجل يكذب ليصلح بين امرأين مسلمين، ورجل كذب في خديعة حرب فإن الحرب خدعة.

عبادة الأصنام عندما قال: ﴿كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ولكن عقولهم كانت مشبعة بفكرة الأصنام إلى درجة لم يفهموا معها سخريته هذه، فبما أنه أشار إلى الصنم وذكر أنه "كبير"، إذن، كان هذا كافيا بالنسبة إليهم ولا يهمهم بعد ذلك قصده ونيته.. ويل لعبادة الأوثان! ويل للتحجر الفكري! ويل للأذهان الضامرة والصدور المنغلقة دون النور الإلهي!

ج – " أختي "

لا توجد في الحادثة الثالثة ذرة من الكذب، بل لا يمكن حتى إطلاق كلمة "التعريض" على كلامه، فهو كلام صحيح وصادق تمام الصدق، إذ أوصى زوجته سارة أن تقول للنمروذ ولرجاله إن سألوها "إنني أخته"، ولو سألوا إبراهيم عليه السلام عنها لقال "إنها أختي"، ذلك لأن إبراهيم عليه السلام لو قال إنها زوجته لامتدت أيديهم بالأذى والسوء إليها، ولوقع هو وزوجته في ضيق شديد، وربما اضطرا إلى ترك تلك البلاد والرحيل عنها، غير أن ما قاله إبراهيم عليه السلام مطابق للحقيقة، ذلك لأن جميع المؤمنين إخوة كما يقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:١٠)، والإيمان هو الرباط الأول الذي يربط الإنسان بالآخرين، وفي غياب وجود هذه العلاقات فإن الذين يولدون من أب واحد وأم واحدة لا يُعدون إخوانًا، واختلاف الزمان والمكان لا يكون حائلاً بين أخوة الإيمان، والمؤمنون والمؤمنات إخوة فيما بينهم دون أي تفرقة بين ذكر وأنثى، أما نقاط التقارب الأخرى فتأتي بعد هذه الأخوة، فإن قام مؤمن بتطليق زوجته انقطعت رابطة الزوجية فيما بينهما، ولكن رابطة الإيمان تبقى موجودة. فالنبي إبراهيم عليه السلام أشار إلى هذه العلاقة وإلى هذه الرابطة وقال عن زوجته إنها أخته، وهذه الكلمة تفيد عين الحقيقة حتى أنها لا تُعد تعريضًا، غير أن الذين في أعينهم غشاوة وفي قلوبهم أكنة لن يفقهوا هذا أبدًا. ما نستفيده نحن من هذا الموضوع:

١) إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب أبدًا.

٢) يجب على الذين يسيرون في طريق الأنبياء وفي أثرهم ألا يكذبوا ولا يقتربوا من الكذب، والمؤمن الحقيقي يحس بآلام الضمير طوال عمره من منظر حرام تعلق بنظره، أو من كذب جرى على لسانه مرة، بل يذرف الدموع أسفًا وندمًا.. وعلى المرشدين -مهما كانت مراتبهم ودرجاتهم- أن يقضوا حياتهم باستقامة ودون انحراف.

٤. استغفاره لأبيه

والآن لنلق نظرة على زلة إبراهيم عليه السلام عندما قام بالاستغفار لأبيه. فلماذا استغفر لأبيه الذي كان على ضلال مبين، ولماذا تضرع لله تعالى أن يغفر له؟ ألم يكن من الأولى لنبي

مثله الاكتفاء بالذين آمنوا برسالته؟ ولماذا أصر في موضوع والده كل هذا وتضرع إلى الله تعالى أن يغفر له؟ أكان هذا خطأ منه؟ وكيف نستطيع أن نعزو الخطأ إلى نبي معصوم؟ وإذا أخطأ هنا فما الضمان أنه لم يخطئ في مواضيع أخرى؟ وكيف نعرف ذلك؟ أنستطيع بعد معرفة ذلك من اتباعهم بقلوب مطمئنة؟

هذا هو أساس الشبه التي أوردها الملاحدة السابقون ويورده اليوم بعض أصحاب الشكوك والشبه من المتظاهرين بالمعاصرة. قال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (الشعراء:٨٦). ويشرح القرآن الكريم السبب الذي دعا إبراهيم إلى هذا الدعاء: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:١١٤).

كما يشرح القرآن كيف وعد إبراهيم أباه فيقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة:٤).

هنا دلالة واضحة جدًا على وجود عداوة أبدية بين الكفر والإيمان، ففي روح الكفر هناك بغضاء نحو الإيمان كطبيعة في الكفر لا يمكنه الفكاك منه، لذا تكمن هنا عداوة الكافر للمسلم واستحالة محبته.

يبين القرآن الكريم ضلال أبي إبراهيم عليه السلام، وهذا الضلال لم يكن ليشكل نقيصة في حق إبراهيم عليه السلام، إذ يمكن القول بوجود أناس لم يصلوا إلى نور التوحيد من بين أجداد رسول الله ﷺ كذلك، ولا يدري أحد ماذا كان موقف عبد المطلب أو هاشم أو لُؤَيّ من عقيدة التوحيد، ولكننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان أنهم عاشوا في عهد "الفترة" وأنهم سيعاملون على هذا الأساس، ومع ذلك فإن احتمال وجود أي قصور فيهم لا يمكن أن يشكل مانعًا من تكليف رسولنا ﷺ بالرسالة الإلهية إلى البشرية.

أولاً: ليكن معلوماً أن كان آزر أبا لإبراهيم عليه السلام وكان إبراهيم عليه السلام يقول إنه على ضلال مبين، فلا يقدح هذا في نبوته، فالله تعالى يخلق أحياناً من آزر أمثال إبراهيم عليه السلام ومن نوح عليه السلام أمثال كنعان.. أجل، فمن أناس مثل الشياطين سوءً قد يأتي أشخاص كالملائكة صفاء ونقاء.. والعكس وارد أيضًا، فالله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فقدرته تسع كل شيء وليس من حد أحد محاسبته.. أجل، لقد خلق من شخص ميت مثل آزر شخصاً حياً مثل إبراهيم عليه السلام -الذي كان ينفخ الحياة في الناس- ويجعله أبا لسلسلتين

ذهبيتين، فابنان من أبنائه من الأنبياء. فبينما وقفت سلسلة ذرية ابنه إسحاق عليه السلام عند النبي عيسى عليه السلام استمرت سلسلة إسماعيل عليه السلام حتى رسولنا الكريم ﷺ.

ثانياً: إن دعاء إبراهيم عليه السلام لأبيه شيء إنساني وفطري تماماً، لذا نرى نبينا وهو يدعو عمه أبا طالب إلى كلمة التوحيد ويتلهف لهدايته، وبعد أن مات عمه قال الرسول ﷺ: «أما والله لأستغفرَنَّ لك مالم أُنْهَ عنك»[1] علمًا بأن عمه عاونه مدة أربعين عامًا وتحمل معه جميع المشاق والصعاب حتى أنه لم يتركه وحيدًا عندما أعلنت قريش مقاطعة المسلمين.. فكما كان من الطبيعي ومن الفطري تلهف الرسول ﷺ على هداية عمه الذي حماه طوال حياته وآزره، كذلك كان من الطبيعي قيام إبراهيم عليه السلام بالاستغفار لأبيه، ذلك لأن والده هو سبب وجوده والذي قام بتنشئته، ثم إن الدين يأمر ألا يقول الابن لوالديه -مهما كانت عقيدتهما- كلمة "أف".[2]

ثالثاً: التبليغ هو غاية وجود الأنبياء، ولكنهم لا يملكون الهداية. مهمتهم تبليغ الحق والحقيقة على الدوام واستعمال كل وسيلة مشروعة في هذا الصدد. لذا، كان إبراهيم عليه السلام يبذل جهده لتليين قلب والده تهيئة له لقبول الهداية، لذا فالمحتمل أن وعده بالاستغفار له كان من أجل هذه الغاية، ذلك لأن الدعاء وسيلة من وسائل الهداية وليس من الصحيح الوقوع في اليأس من هداية أي شخص.

يجب ألا يكون هناك يأس لأنه مع أن الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:٦) صريحة أن بعض الكفار لن يستطيعوا الوصول إلى الهداية فإن نبينا ﷺ كرر محاولاته مع كفار عنيدين أمثال أبي جهل وأبي لهب وابن أبي مُعيط ودعاهم مرة بعد مرة إلى الهداية.. إذن، فالهداية في يد الرحمن وكان إبراهيم عليه السلام يؤمن بهذا، لذا جرب كل وسيلة مع والده حتى وسيلة الدعاء.. أجل، هذا هو سبب دعائه وتضرعه لله تعالى من أجل والده، إذ كان إيمانه بالله تعالى في مرتبة الاطمئنان، لكنه ما إن عرف المشيئة الإلهية حتى تخلى حالاً عن دعائه وفوض الأمر كله لله تعالى.

ثم إن إبراهيم عليه السلام أتى في السبيل الممتد حتى رسولنا ﷺ وكلف بحمل رسالة النبوة. كانت وظيفته هي القيام بتبليغ قومه جميعًا، ولم يكن هناك أي سبب يدعوه لاستثناء أبيه،

---

[1] البخاري، الجنائز ٨١، مناقب الأنصار ٤٠؛ مسلم، الإيمان ٣٩؛ النسائي، الجنائز ١٠٢.

[2] قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعبُدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ (الإسراء:٢٣).

فإذا أضفت إلى هذا الميل الفطري رأيت أن كونه ابنًا ونبيًا في الوقت نفسه كان يدفعه إلى الإصرار على محاولة هداية أبيه، وعندما نقرأ القرآن الكريم نلمس مدى لهفة إبراهيم عليه السلام ورغبته في هداية والده وعدم اهتمامه بالخشونة التي يواجهها من قبله أن يخاطبه على الدوام بقلب متوله: "يا أبت.. يا أبت..":

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۞ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم:٤١-٤٥).

أجل، كان إبراهيم عليه السلام يقدم لأبيه رسالته النورانية مثلما يقدمها للناس أجمعين، وهل هناك ابن لا يود من أعماق قلبه هداية أبيه إلى الحق ولا يسعى إلى ذلك بكل جهده، لاسيما إن كان شخصاً مثل إبراهيم عليه السلام الحليم.. الأواه.. المنيب؟

رابعــــاً: يرى بعض المفسرين أن كلمة "أب" تأتي في اللغة العربية بمعنى "الجَدّ" و"السلف"، لذا يقولون إن هناك احتمالاً بأن الذي خاطبه إبراهيم عليه السلام بـ"يا أبت" ليس أباه، بل هو جده أو عمه أو قريب آخر من أقربائه،[1] وقد أتى جمع كلمة "أب" وهي "آباء" بمعنى "الأجداد" و"الأسلاف"، فمثلاً قول يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ (يوسف:٣٨)، فكلمة "آبائي" تأتي هنا بمعنى "أجدادي"، كما أن تعبير "آبائنا الأولين" يرد كثيرًا في القرآن الكريم. فإذا كان هذا هو الأمر فيجوز أن إبراهيم عليه السلام لم يكن ابن آزر بل حفيده أو ابن أخيه حتى أن هناك رواية بأنه كان ابن تارح[2] وقد يكون ابن شخص آخر. فإذا كانت الاحتمالات واسعة بهذا الشكل، علمنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن بالشخص الذي يستغفر لأبيه بعد أن تبين له ضلاله، والقرآن الكريم ينقل لنا دعاء آخر له: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم:٤١).

فإذا تطلعنا إلى الموضوع من هذه الزوايا نرى بوضوح مدى طهارة ونزاهة ونقاوة إبراهيم عليه السلام ومدى معصوميته وعدم اقترابه من اقتراف أي ذنب ومدى عظمته كنبي.. لقد نطق بالحق على الدوام، وكان بجانب الحق دائما.

---

[1] مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، ١٣/٣٧-٤٠؛ روح المعاني للآلوسي، ١٦/٩٦.

[2] مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، ١٣/٣٧-٤٠؛ تفسير البيضاوي للبيضاوي، ١/٣٠٧-٣٠٨؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٠/١٦٣-١٦٤.

كان إبراهيم عليه السلام إنسان التوحيد، ورمزًا للتسليم المطلق ﷺ، لذا أهديت أليه صفة "الخِلّة"، والآية: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء:١٢٥) تشير إلى هذه الخلة، فلم ينحرف قيد شعرة عن أي أمر من أوامر الله تعالى، فلما قيل له اذبح ابنك، لم يتردد في ذلك لحظة واحدة،[١] وعندما أمر أن يصطحب زوجته وابنه ثم يتركهما وسط صحراء موحشة لم يتردد في تنفيذ هذا الأمر، تركهما في الصحراء وانصرف دون أن يلتفت ويلقي نظرة وراءه،[٢] وفي مرة أخرى امتحن بحياته وبنفسه، إذ ألقي داخل نار جهنمية، ولكنه لم يقلق ولم يضطرب أقل اضطراب. ويروى أن ملكًا أدرك إبراهيم عليه السلام وهو يهوي إلى النار المتأججة فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا. فقال الملك: ادع الله إذن. فقال: عليم بحالي غنيّ عن سؤالي. لذا كان جزاء مثل هذا الاستسلام المطلق أن الله تعالى جعل تلك النار بردًا وسلامًا عليه.[٣]

إذن، فإبراهيم عليه السلام كان نبياً بهذا المستوى، وكانت علاقته بربه هذه العلاقة الرفيعة، لذا فالتفكير باحتمال اقترافه أي ذنب ليس إلا عدم معرفة هذا النبي الكريم على حقيقته وجهل به.

أجل، لقد كان أنموذجًا للرحمة وللشفقة، وانطلاقًا من رحمته الواسعة وشفقته العميقة أراد هداية أبيه، ولكنه عندما عرف الماهية الحقيقية لوالده تبرأ منه، وفي رواية أن الله تعالى سيقلب والده يوم القيامة إلى ذيخ[٤] ملتطخ، وعندما ينظر إبراهيم عليه السلام إلى هذا المنظر يتخلص من علاقته الفطرية بوالده،[٥] والله أعلم.

د- يوسف عليه السلام رمز العفة

التوراة مملوءة بالافتراءات على يوسف عليه السلام، فلم يبق هناك افتراء إلا وألصقوه به، حتى نزلوا به إلى مرتبة إنسان عادي، بينما كان نبيًا طاهر السيرة والصورة، وكان -ككل الأنبياء الآخرين- مزينًا بزينة العصمة.

---

[١] قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۞ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ۞ سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۞ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات:١٠٢-١١١).

[٢] انظر هذه الآية: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم:٣٧)؛ وانظر أيضا: البخاري، الأنبياء ٩.

[٣] انظر هذه الآية: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩)؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٢٠٠/١١-٢٠١؛ الدر المنثور للسيوطي، ٣٢٢/٤.

[٤] ذيخ: هو ذكر الضبع الكثير الشعر. ملتطخ: متلوث بالدم ونحوه.

[٥] البخاري، الأنبياء ٨.

غير أن علينا أن نعترف بكل أسى بأن بعض المفسرين تأثروا بالتوراة أو بمعنى أعم بالإسرائيليات، واقتبسوا منها فأسندوا إليه مالا يصح الإسناد إلى نبي معصوم. أما نحن فستتناول عصمة يوسف عليه السلام -مثلما تناولنا الأنبياء الآخرين- من الآيات القرآنية، وعلى ضوئها سنحاول أن نصل إلى عصمته، وليست محاولتنا هذه سوى إظهار ما هو موجود فعلاً في الآيات بشكل واضح، فأي شخص عادي يستطيع فهم هذا من قراءته لسورة يوسف بشرط أن يدرك معاني الآيات، ويكفي هنا ألا ينظر إلى هذا الموضوع بفكرة مسبقة لديه.

ألقي النبي يوسف عليه السلام في البئر من قبل إخوته، ثم بيع عبدًا حيث اشتراه وزير في مصر واعتنى به ورباه في بيته كابنه، ولكن عندما أصبح شابًا بدأت زوجة الوزير تحمل تجاهه مشاعر خاصة، وأخيرًا غلقت الأبواب في يوم من الأيام -كما يذكر القرآن- وأرادت وصاله.. ارتجف يوسف عليه السلام من هذا الطلب الذي لم يخطر بباله في يوم من الأيام، فأسرع يهرب منها، ولكنها وصلت إليه وقدّت قميصه من الخلف، وما أن انفتح الباب حتى رأيا سيدهما هناك، وهنا امتحن يوسف عليه السلام امتحانًا آخر، إذ لجأت الزوجة إلى الافتراء عليه وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَن أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءً﴾ (يوسف:٢٥).

والآن لننقل ما جاء في هذا الخصوص في القرآن الكريم: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف:٢٣).

أولاً: لا يغتاب القرآن، إذ لا يذكر اسم المرأة، بل يذكر فقط أنها ربة ذلك البيت والمرأة هي التي قامت بغلق الأبواب، وكانت الدعوة -بكل ما تحمل من إغراء وفتنة- صادرة منها، فيأتي الجواب من رمز العفة: "معاذ الله"، فيكون يوسف عليه السلام بذلك رمزًا للعفة أمام جميع الشباب حتى يوم القيامة وقدوة لهم.

والآية صريحة تماماً في بيان الرد القاطع الذي رد به يوسف عليه السلام. فمن كان المقصود عندما قال يوسف عليه السلام ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ إما أنه كان يقصد الله تعالى ويرى في اقتراف الإثم جحودًا لكل النعم التي أسبغها الله تعالى عليه، إذ لا يمكن أن يصل الجاحدون إلى الفلاح أبدًا، وإما أن يكون المقصود هو زوج المرأة تلميحًا إلى قوله لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، فهذا الزوج أحسن كثيرًا إلى يوسف عليه السلام فكيف يمكن له أن يقابل كل هذا الإحسان بالجحود والعقوق؟

هنا توجد نقطة مهمة يجب الالتفات إليها، إذ أن هروب يوسف عليه السلام من الإثم لم يكن بسبب النعم التي أسبغها الله تعالى أو إكرام زوج المرأة مثواه.. فهذه تشكل إحدى أسس

المسألة فقط، وتقريب للموضوع إلى مستوى عقلية تلك المرأة ومستوى فهمها، إذ أن سبب ابتعاده عن الإثم يختبئ تحت الجملة الأولى التي نطق بها وهي "معاذ الله" أي ألتجئ إلى الله.. أي أن سبب تهربه من الإثم يعود إلى خشيته من الله تعالى، وهذه هي التقوى المقبولة.

ثم إن يوسف ﷺ كان على علم بالنتيجة التي سيولدها الإثم.. فالإثم ظلم وتجاوز للحد ودخول إلى دائرة مفرغة وفاسدة، والنتيجة هي الخسران في الدنيا وفي الآخرة.

والآية التي أدت إلى سوء فهم موقف يوسف ﷺ هي الآية التي أتت بعد تلك الآية مباشرة، وهي: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَولاَ أَنْ رَأَى بُرهَانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف:٢٤). وقبل تفسير الآية علينا أن نقف عند معاني بعض الكلمات فيها. الكلمة التي أدت إلى سوء الفهم هي كلمة "همّ".

هذه الكلمة فعل ماض ولها معان عديدة، حيث يُختار المعنى الأنسب بالنسبة لموقف الفاعل، وهنا قاعدة في علم اللغة تقول بوجوب اختيار المعنى الأساسي والحقيقي للكلمة إن لم يكن هناك دليل مناقض لهذا المعنى، ولم يكن هناك تناقض مع الموضوع المنوه عنه، أي يُختار المعنى الأول للكلمة. والمعنى الأول الذي يعطيه علماء اللغة -مع وجود بعض الفروق الإقليمية- لهذه الكلمة هو: قَلِق وحزن، ومصدره الهَمّ، ومعنى قَلِق أو أقلق هو الوقوع في اضطراب قلبي، وفي الغم وفي الحزن الشديد. فإن نسبنا هذا الفعل إلى زليخا لكان معنى "همت" أنها حزنت من جرّاء يوسف ﷺ وقلقت بِصَدِّهِ وداخلها حزن كبير بسببه.

ثم إن يوسف ﷺ قلق وحزن واغتم أيضًا، ذلك لأنه كان بمثابة أسير في ذلك البيت، فلو هرب منه لقبض عليه وأعيد إلى البيت، ثم إن هذه المرأة أصبحت مسلطة عليه، إذن، فكما كان يوسف ﷺ مصدر حزن لها لأنها كانت تشتعل غرامًا به، فإنه كان قلقًا ومغتمًا باسم عفته وعصمته. ولم يزل قلقه حتى رأى برهان ربه وعلم أنه في حفظ الله تعالى ورعايته وأنه لن يسمح لأحد أن يلوثه، لأن الله جعله في حرز حريز بكل البراهين التي أحاطه بها. ولكنه حتى حصول هذا العلم وهذا اليقين عنده فقد قضى أوقاتًا عصيبة.. ويجب إعادة النظر في التفاسير من هذه الزاوية.

ثانيًا: كانت زليخا قد عقدت عزمها ورسمت هدفها.. يجب أن يكون يوسف ﷺ لها.. كانت غايتها هي هذه.. وهناك آية أخرى تشرح وضعها: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ (يوسف:٣٠) أما موقف يوسف ﷺ فهو: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

(يوسف:٢٤)، وكلمة "المُخلَصين" في الآية كلمة مهمة جدًا.. هناك "المخْلِص" و"المُخْلَص".. ويوسف ﷺ من المُخْلَصين.. فكل نبي يكون مُخلَصًا.

المُخْلِص هو صاحب الإخلاص، أي هو الذي يعمل كل شيء في سبيل الله تعالى وفي سبيل نيل رضاه وحده، ولكن يوسف ﷺ كان آنذاك في مرحلة البحث ولا يزال في الطريق، أو بالتعبير الصوفي لا يزال في مرتبة "السير إلى الله"، وعندما يسير إلى الله يدخل في نضال للمحافظة بعمله وبتصرفاته وبسلوكه على استقامة السير وعدم الانحراف عن الوجهة الصحيحة.

أما "المُخلَص" فهو الشخص السامق القامة الذي تخلص نهائيًا من أي قلق وتربع على ذروة الإخلاص، فقد أتم قطع الطريق الذي يسلكه "المخلِص" من زمان، وهو الآن في مرتبة "السير من الله".. مثل هذا الشخص تخلص نهائيًا من الزلل والورطات التي يقع فيها أمثالنا.. ويوسف ﷺ من هذا النوع ومن هذه المرتبة. إذن، فكيف يمكن إسناد تصرف أو سلوك إلى يوسف ﷺ المُخْلَص مع أن هذا التصرف لايليق حتى بالمُخْلِص؟!

جاء في سورة يوسف أن النبي يوسف ﷺ -بطل هذه السورة- من أهل الإحسان في خمسة مواضع، وهذا يعني أن الأرض والسماء.. الصديق والعدو.. الخالق والمخلوق.. الكل يشهد على يقينه وعلى قيامه بمحاسبة نفسه ومراقبتها.

عندما بلغ يوسف ﷺ أشده ورشده أشار الله تعالى إلى صفة الإحسان وعمق شعوره عنده فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٢٢). وفي السجن عندما اكتشف الجميع -الشقي منهم والسعيد- عمق أفق تفكيره وطهره وعلمه اللدني قبلوه مرجعا لهم، فأقبلوا عليه مؤمنين به وبكلامه عارضين عليه مشاكلهم: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٣٦).

خرج بنجاح من كل امتحان دخله. لذا، يمدح الله تعالى رمز الرجولة هذا الذي استطاع التربع على عرش قلوب الأصدقاء والأعداء على السواء، ولم يستطع أي شيء تغيير سلوكه وتصرفه تجاه الدنيا وزينتها: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٥٦). وهكذا يبشره ربه ويقدم له ضمانا إلهيا.

وعندما جاء اليوم الذي استطاع فيه إخوته -الذين كان الحسد قد ملأ قلوبهم حتى آنذاك- التخلص من جو الحسد المحيط بهم قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٧٨).

وأخيرا عندما وصل يوسف ﷺ إلى ذروة النضوج والاطمئنان أشار إلى نعم الله تعالى

عليه وفضله فقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٩٠). أجل، مثل هذا الإنسان الذي حاز على حسن شهادة الجميع لا يمكن -حسب السنن الإليهية- أن يكون معرضا للانحراف، ولا للتذبذب بين الهبوط والسمو ولا للحرمان.

نعم يعده الله تعالى من المحسنين. وبينما نصل نحن إلى العمل عن طريق الإيمان، وعن طريق العمل إلى الإيمان الحقيقي، وفي نهاية الطريق نستطيع الوصول إلى مرتبة الإحسان.. هذه المرتبة التي تعد آخر مرتبة نصل إليها نرى أن هذه المرتبة هي المرتبة الأولى التي يخطو منها الأنبياء، أي هي خطوتهم الأولى في طريق سيرهم.

والإحسان الذي يشرحه الرسول ﷺ: «الإحسان أن تَعْبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»[1] هذه المرتبة التي تعد آخر مرتبة لنا هي المرحلة الأولى للأنبياء، لذا يجب النظر في الأمور من هذه الزاوية وتقييم الأمور على ضوئها، ولكن إن قمنا بقياس الأنبياء مع أنفسنا وقعنا في أخطاء عديدة ولم نصل إلى الحقيقة.

كانت زليخا ويوسف عليه السلام يتتسبان إلى عالمين مختلفين تمام الاختلاف.. أحدهما قد غلب عليه الغرام والهيام، قد شلت إرادته فلا تري عينه شيئا آخر.. إنسان يعيش عالم أحاسيسه ومشاعره.. بينما الإنسان الآخر إنسان يرنو ببصره إلى عالم آخر.. نبي مُحسن مُخلص.. إنسان قد فرد جناحيه ليطير في عالم آخر.

لكلا هذين الإنسانين تم استعمال كلمة "همّ".. ولكن معنى هذه الكلمة يختلف باختلافهما وباختلاف هدف وغاية كل منهما. أجل، ينبغي إعطاء معنى مختلف باختلاف مستواهما من ناحية الروح والثقافة والعلم.

ثم إن الاختلاف الموجود بينهما سيظهر إلى السطح من اللوحة التي ستتبين بعد قليل.. يوسف يسرع نحو العفة والطهارة، وزليخا نحو الشهوة والإثم. كانا يتسابقان.. يوسف يهرب وهي تلاحقه، ولو كان لدى يوسف عليه السلام أي ميل للإثم لما كانت هناك مثل هذه المطاردة.. إذن، كان هدف يوسف عليه السلام وغايته شيئا آخر.. كان متوجهًا نحو غاية سامية.. وعندما أمسكت زليخا بقميصه تريد منعه من الخروج من الغرفة تمزق قميص يوسف عليه السلام من الخلف، ولكنه استطاع فتح الباب والخروج من الغرفة والمرأة في أثره، وهنا وجدا الوزير أمامهما، فلم تجد المرأة التي فوجئت بهذا سوى الدفاع عن نفسها والافتراء بأن يوسف عليه السلام كان يحاول الاعتداء عليها، ولكن زوجها لم يَمِل إلى كلامها لوجود شاهد

[1] البخاري، الإيمان ٣٧؛ مسلم، الإيمان ٥،١؛ الترمذي، الإيمان ٤.

صامت هناك، هذا الشاهد مع صمته كان باستطاعته إفحام أبلغ البلغاء، وهو الثوب الممزق ليوسف عليه السلام.. كان الوضع واضحًا لقريب من أقربائها الموجود هناك، بل واضحًا حتى لطفل صغير.. لقد وضح الأمر، فيوسف عليه السلام بريء لأن قميصه كان مقدودًا من خلف، ولو كانت المحاولة من قبله وقاومت المرأة لكان من المفروض أن يُقَدَّ قميصه من أمام.. كان هذا أحد البراهين التي رآها يوسف عليه السلام من ربه الذي حفظه بهذا القميص المشقوق، ومهد له السبيل للمستقبل المشرق الرائع.

أي كان "همّ" يوسف عليه السلام متجهًا لحبيبه، و"همّ" زليخا متجهاً لحبيبها.. لذا، تورط كثير من المفسرين في خطأ كبير عندما لم يميزوا الفرق الكبير بين "همّ" نبي كريم يعيش تحت رقابة دائمة لله تعالى، وبين "همّ" امرأة أعمت الشهوة عينيها، ووضعوا كليهما في كفة واحدة وكأن تفكير كليهما كان محاطًا بستار كثيف من الشهوة الجسدية، وأنا أرى ضرورة إعادة النظر في جميع التفاسير والشروح والتعليقات غير المستندة إلى الكتاب والسنة، ومثل هذا التصحيح سيُرضي حتى أولئك المفسرين حسني النية الذين كانوا ضحية للإسرائيليات، فمن يدري كم من فيوضات حرموا منها بسبب أخطائهم هذه.

أجل، إننا موقنون بأن الذين يقيمون الأنبياء وكأنهم أشخاص عاديون سيحرمون من جوهم المعنوي ومن أنفاسهم النافثة للحياة.

أما ما قيل بأن يوسف عليه السلام مال إلى دعوة زليخا وهم باقتراف الإثم إلا أنه رأى أباه يعقوب عليه السلام وهو يعض على إصبعه محذرًا يوسف فهو سفسطة وأسطورة وقصة مختلقة ومن قصص الإسرائيليات الموجودة في الكتب المحرفة ويجب طرح مثل هذه القصص المختلقة من كتبنا.

يقول الوليّ الكبير "عبد العزيز الدبّاغ" في شرح آية ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ بأن زليخا همت لتحقيق غايتها، وهمّ يوسف عليه السلام بمنعها، ربما بضرب زليخا ورفع يده عليها،[1] ولهذا الولي كثير من الالتفاتات الرائعة والدرر النفيسة الأخرى.

ثم كيف يمكن تصور شيء آخر لمن قال الرسول ﷺ في حقه: «إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله»[2] جده الكبير هو إبراهيم عليه السلام وجده إسحاق عليه السلام ووالده هو يعقوب عليه السلام.. إذن، فهذا هو يوسف عليه السلام الكريم

---

[1] الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ للسيد أحمد بن المبارك، ص٢٦٢.
[2] البخاري، الأنبياء ١٩، المناقب ١٣؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٩٦، ٣٣١.

بن الكريم بن الكريم بن الكريم. فالرسول ﷺ أشار إلى المرتبة التي يشغلها يوسف عليه السلام وهي مرتبة لا يبلغها حتى خيالنا. وبينما لا يخطر على بالنا -نحن الأشخاص العاديين- مثل هذا الإثم الكبير، كيف يمكن لنبي طاهر وسليل نبوة طاهرة أن ينزل إلى مثل هذا المستوى؟ هذا شيء لا يتصوره العقل ولا المنطق.

وعندما زادت فتن النساء وألاعيبهن تجاه هذا النبي التجأ إلى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف:٣٣)، أي رضي بعفونة السجن وظلمته وحياته القاسية وفضّلها على حياته في ذلك القصر الفخم والأثاث الفاخر. إذن، ألا يكفي قضاؤه ما يقارب التسع سنوات في عذاب السجن ومحنته في سبيل المحافظة على عفته وطهارته دليلاً على عصمته؟ هؤلاء النسوة اللاتي فتن به وقطعن أيديهن أمام حسنه الباهر.. هؤلاء النسوة اللاتي حاولن إحراج موقفه بنشرهن خبر تعلق زليخا به وعشقها له، كما طرقن أبواب حيل أخرى للتقرب إليه.. غير أنهن وجدن كل مرة أمامهن هذا الشاب المؤمن الذي قُدت إرادته من الجرانيت، ولم يستطعن الحصول منه على أي شيء.

التجأ إلى ربه وسأله الحماية، فاستجاب له ربه وحفظه منهن ومن كيدهن داخل جدران السجن الآمن، وأصبح السجن منذ ذلك الوقت يستقبل الدعاة إلى الله وإلى القرآن.. أي أصبح "مدرسة يوسفية".

كان حرصه على عفته شديدًا إلى درجة أنه عندما جاء وقت إطلاق سراحه من السجن رفض الخروج حتى يتثبتوا تمامًا من عفته، وحتى يقوم الدليل القاطع على طهارته، ذلك لأن العيش طاهرًا ونقيًا شيء، وإثبات ذلك الطهر والنقاء شيء آخر، لأن ذلك كان ضروريا لمهمته في المستقبل.. رفض الخروج من السجن حتى قامت زليخا بالاعتراف على الملأ وأقرت كيف كان أنموذجاً للعفة. إذن، فماذا نقول لمن يريد إسناد اقتراف الذنب لهذا النبي الكريم حتى بعد قيام زليخا بالاعتراف بذنبها؟

الفصل الثالث: عصمة رسولنا ﷺ

كل الأنبياء معصومون، أما سيد الأنبياء فهو أسمى حتى من العصمة.. ذلك لأنه كان سلطان الأنبياء وغاية الخلق، وأحب الخلق لله تعالى.. لقد أرسل كل نبي لفترة من الزمن ولمكان معين، بينما أرسل للناس كافة حتى قيام الساعة.. كانت هناك حاجة لقافية شعر الأنبياء، فجعل الله تعالى أحب مخلوقاته قافية هذا الشعر وجعله بلبلاً غريدًا في سماء النبوة.[1]

أجل، لم يشرح أي نبي مثله معنى الوجود شرحًا جامعًا وعامًا وكليًا، لأن ذلك لم يكن من مهمتهم، لأن العلوم لم تكن قد تقدمت في أزمانهم ولم يَغُصْ أحد في الوجود كغوصِهِ.. كان ذلك مقدّرا لعصر الرسول ﷺ وللعصور التي ستأتي فيما بعد، فلم يحدث أي تناقض بين ما قاله وبين العلم الصحيح والاستكشافات العلمية.

كان كل نبي نجمًا مضيئًا، ولكن رسول الله ﷺ كان شمسًا ساطعة اختفت أضواء جميع النجوم أمام ضيائها، وما أجمل ما قاله البوصيري عنه:

فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يُظهرن أنوارها للناس في الظُلَمِ

لذا، فهو أمير المعصومين وملكهم.. فاقت عصمته عصمتهم وعفته عفتهم. لم يجد ألد أعدائه ما يقولونه من طعن حقيقي في حقه، قال عنه خصومه بأنه "مجنون".. ولو قالوا عنه إنه متوله بحب الله.. ذائب في وجده لصدقوا.

قالوا عنه إنه ساحر.. ذلك لأن الإنسان -مهما كان عنيدًا- كان يذوب في حضرته ويحس أن جميع ركائز كفره وأسسه تهتز وتتقوض.. كم من شخص أُخذ بسحر بيانه فبذل في سبيله كل ما يملك، فكان تفسير هذه الظاهرة من قبل الكفار الذين طُمِس على قلوبهم "لا شك أنه ساحر".. كانوا غافلين عن قدرة الإيمان وقوته وعن تجلي الكمال وجاذبية الجمال.

قالوا إنه "كاهن" إذ رأوه وهو يخبر أخبار المستقبل حتى يوم القيامة، إذ لم يكونوا قد سمعوا مثل هذه الأقوال إلا من الكهان، ولكنهم لو دققوا قليلاً لاستطاعوا تمييز كلامه الصادق عن أكاذيب الكهنة.[2]

---

[1] البخاري، التيمم ١؛ مسلم، المساجد ٣.

[2] لتقصي الأوصاف التي أطلقها المشركون على النبي ﷺ انظر إلى السيرة النبوية لابن هشام، ١/٢٨٩-٢٩٠؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٧٨.

لو كان -حاشاه- مجنونًا لما كان على سطح هذه الدنيا عاقل واحد، أما السحر والكهانة وغيرهما من الأمور البعيدة عن الجدية كانت أبعد شيء عنه، ولا تُرى حتى في أحلامه وحتى أحلامه كانت جدية بقدر حياته الحقيقية، إذ أن أخبار الغيب التي كانت تهب عليه من العالم الآخر كانت تشكل بعض جوانب رسالته.[1]

أجل، لقد قالوا كل هذه الأقوال المتعارضة مع العقل ومع المنطق في حقه، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا شيئًا حول عصمته وحول عفته ولم يتجاسروا على ذلك.، ذلك لأن أي كلام من هذا النوع كان يجعل صاحبه في وضع مخجل وفي وضع صعب، الأصدقاء والأعداء كانوا يعرفون هذا جيدًا.

قام الآلاف من الناس والآلاف من الكتب بالحديث عنه.. كان فيهم مثل الفراشات التي تطير نحو النور وتطوف حوله، وفيهم من يشبه الخفافيش التي ترتعب من ضوء النهار، ولكن مع اختلاف هؤلاء في نظراتهم ومبادئهم وأديانهم فقد اتفقوا في شيء واحد، وهو إجماعهم على عفته وعصمته.

ونُعدّ نحن أيضًا -في معنى من المعاني- من الذين يطوفون حول هذا النور، وما كلامنا الدائم عن عفته وعصمته إلا لأداء دَين قول الحق والحقيقة حوله، ولكن علينا أن نعترف للذين يقرأون هذه الأسطر بألا يكتفوا بكلامي عن عفته وعن عصمته ﷺ، بل عليهم الرجوع إلى كتب السلف لكي تكون هذه الكتب والقلوب الصافية لمؤلفيها مرشدة لهم.. هذه القلوب التي رأت دائمًا الحق تعالى عنده، ولا غرابة في هذا، فرسول الحق تعالى لا يُعرف حق المعرفة إلا عند أمثال هذه القلوب.

أ- التنبيهات الواردة في حقه في القرآن

هناك بعض التنبيهات الموجهة مباشرة إلى رسولنا ﷺ في القرآن الكريم. وهذه التنبيهات قد تبدو في الظاهر وكأنها تمس عصمته، فقد يقول بعضهم: أيكون هناك تنبيه دون وجود خطأ؟ ولكننا نقول بإصرار -كما قلنا من قبل- بأن هذه التنبيهات لم تكن نتيجة اقتراف خطأ أو ذنب، بل ربما لقيامه -باجتهاد منه- باختيار الحسن مع وجود الأحسن، فمثله الذي هو رمز الجمال والحسن لا يجوز له إلا اختيار "الأجمل" و"الأحسن"، وليس "الجميل" و"الحسن".

---

[1] البخاري، التعبير ٣-٤٤ مسلم، الرؤيا ٦-٤٩؛ أبو داود، الأدب ٨٨؛ الترمذي، الرؤيا ١.

وهذا يشبه قيامنا بشرب ماء نقي مع وجود ماء نبع أكثر نقاءً وصفاءً. أجل، يجوز تنبيه الأنبياء إن قاموا بشرب ماء زمزم مع وجود ماء الكوثر. وبينما نتعرض نحن لعتاب إن زلت قدمنا ووقعنا في هاوية الجحيم، يتعرض الأنبياء للعتاب وهم يسبحون في السماء إن غيروا مكانهم بعض التغيير. لذا، فلا يجوز أبدًا تناول الأنبياء بمقاييسنا الدنيوية، وإطلاق الأحكام بحقهم من هذه الزاوية. هؤلاء الذين دعوا للقصر وشرفوا بالمثول في حضور السلطان كيف يمكن مساواتهم مع الذين بقوا خارج القصر ولم يستطيعوا حتى الاقتراب من الباب الخارجي لحديقته، وكيف يمكن وزنهم بالميزان نفسه؟ تبسم الموجودين خارج القصر يعد صدقة، ولكن تبسم الماثلين في الحضور السلطاني قد يعد إساءة.. الموازين مختلفة تمامًا.. لذا، يجب تقييم التنبيهات الواردة في القرآن الكريم للنبي ﷺ من هذه الزاوية.

ما هي هذه التنبيهات؟ ولماذا خوطب النبي ﷺ بها؟ لنلقِ نظرة على أمثال هذه المخاطبات للرسول ﷺ والتي تبدو وكانها تنبيه له لنجد المدح الخفي له في طياتها، والثواب في العمل الذي يبدو وكأنه ذنب لكي نوقن أنه لم يكن له مثيل ولا شبيه في العفة وفي العصمة من الذنوب، ويكون هذا دليلاً آخر على نبوته من زاوية العصمة.

ب- ما وراء الأستار في التنبيهات الموجهة للرسول ﷺ

١. أسرى بدر

نزلت الآيات التالية في موضوع أسرى بدر وكأنها تحمل تنبيهًا للرسول ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٧-٦٩).

لا يجوز أن يكون للنبي أسرى، وما كان للأنبياء السابقين، إذن، فما العمل بالنسبة للأسرى؟ ماذا يُفعل بهم؟ يجب ألا يكون للنبي أسرى حتى يقوي وضعه ويثبت رجله في الأرض دون الحاجة إلى معونة من أحد، أي ما كان له إطلاق الأسرى حتى مقابل الفدية، لأن هذا سيسرع من تمكين المؤمنين في الأرض ويقويهم ويعجل وصولهم إلى توازن مع أعدائهم ويجعل منهم قوة. وأنت أيضًا تهدف للوصول إلى هذه الغاية وأصحابك أيضًا. هناك اجتهاد، ولكن كان هناك اجتهاد أفضل وأحسن، أي أنكم اجتهدتم وأخذتم الحسن وغاب عنكم الأحسن الذي يريده الله تعالى منكم.

لولا أنه كُتب في القدر ألا أعاتبكم فيما أخذتم لجاءكم عذاب عظيم، ولكن هذا الكتاب وهذا الحكم موجود منذ الأزل، لذا فلن يأتيكم مثل هذا العذاب.

عندما قام الرسول ﷺ بردّ المشركين على أعقابهم في معركة بدر نزل النصر بردا وسلاما على قلوب المؤمنين. لكأنه أطفأ بذلك حريقًا دام في قلوبهم خمس عشرة سنة، لأنه لم يبق هناك ألم لم يتجرعوه من هؤلاء الكفار، ولم يبق هناك ظلم لم يصبهم منهم، ثم أخرجوهم من ديارهم وبيوتهم وأهليهم في مكة. تحملوا كل هذه الآلام والدموع دون أن يدافعوا عن أنفسهم، فقد كان ذلك ممنوعًا عليهم حتى وقت قريب، ثم صدر لهم الإذن بالدفاع عن أنفسهم لأنهم ظُلموا: ﴿وَاللهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج:٣٩). أجل، أصبح المؤمنون مخولين بالدفاع الفعلي عن أنفسهم ومقابلة القوة بالقوة، فكانت معركة بدر أول معركة كبيرة بين المؤمنين والكفار حيث انتصر فيها المسلمون وأسروا عددًا كبيرًا من الكفار. كانت هذه الحادثة الأولى من نوعها ومسألة لم يكن لها أي حكم إلهي سابق أو أي إيضاح سابق، وهنا قام الرسول ﷺ كعادته دائمًا واستشار أصحابه، فالذي يتقرر في هذه المشورة هو الذي سيعين كيفية التعامل مع الأسرى.

كان الرسول ﷺ يحب إطلاق سراح هؤلاء الأسرى تمشيًا مع خلقه اللين وكذلك مع التوجيه الإلهي السابق له، لأن القرآن الكريم خاطبه ذلك الوقت ووجهه في هذا الاتجاه: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥)، ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل:١٢٥) حتى أصبح العفو والصفح طبعًا من طبائعه وخلقًا من أخلاقه، وأصبح أي تصرف يخالف هذا غير متوقع منه، ذلك لأن القرآن الكريم كان يمدحه ويقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤). لكل فرد نصيب معين من الخلق، أما هو فله الخلق الكلي الشامل لكونه في الذروة من التخلق بخلق الله تعالى، هذا الخلق المتدفق من بين سطور القرآن الكريم وسوره، وكان ﷺ هو الذي يمثل هذا الخلق.[1] ولكي تعرف هذا الخلق الكريم فيكفي أن تتأمل تصرفه وسلوكه تجاه أهل مكة الذين آذوه كل الإيذاء طوال سنوات طويلة، إذ قال لهم قول النبي يوسف عليه السلام: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَومَ﴾ (يوسف:٩٢)، ثم أعلن العفو العام عنهم.[2]

كان خلقه وقناعته تميلان نحو العفو على الدوام، ومع ذلك كان يستشير أصحابه في كل

---

[1] مسلم، صلاة المسافرين ١٣٩؛ أبو داود، التطوع ٢٦.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٥٥/٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٤٤/٤.

شأن، فاستشار أولاً أبا بكر ﷺ فكان جوابه: "يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فيكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا لنا عضداً." ثم توجه رسول الله ﷺ إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» فأجابه عمر ﷺ: "والله ما أرى ما رآى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان -قريب لعمر- فأضرب عنقه، وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم."[1]

توضحت الآراء، الصديق ﷺ يرى إطلاق سراح الأسرى، وعمر الفاروق ﷺ يرى قتلهم، والتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر ﷺ ثم إلى عمر ﷺ قائلاً: «..وإن مَثَلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم ﷺ قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (إبراهيم:٣٦). ومَثَلك كمثل عيسى قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٨).»[2]

وفي مناسبة أخرى كرر رسول الله ﷺ هذا المعنى قائلا: «تَرِدُ عليّ أمتي الحوضَ وأنا أذود الناس عنه[3] كما يذود الرجلُ إبلَ الرجلِ عن إبله.» قالوا: يا نبي الله! أتعرفنا؟ قال: «نعم، لكم سيما،[4] ليست لأحد غيركم، تردون عليّ غرًا محجَّلين من آثار الوضوء، وليُصَدّنّ عني طائفة منكم فلا يصلون فأقول: يا رب هؤلاء أصحابي، فيجيبني مَلَك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك.» وفي رواية: «...فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة:١١٧).»[5]

كان أبو بكر ﷺ أول تلميذ من تلاميذه، وكان أسلوب تفكيره يشبه أسلوب تفكير الرسول ﷺ لذا، كثيراً ما تشابهت قراراتهما. التفت الرسول ﷺ إلى عمر ﷺ وشبهه بنبيين من الأنبياء من ذوي العزم: «وإن مَثَلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ

---

[1] مسلم، الجهاد ٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣١/١-٣٢.

[2] جامع البيان للطبري، ٤٣/١٠؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣١/٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣٨٣/١.

[3] أذود الناس: أمنعهم.

[4] سيما: علامة.

[5] البخاري، تفسير (٥) ١٥.

﴿الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح:٢٦)، ومثلك مثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (يونس:٨٨).[1]

صبر هذان النبيان العظيمان عليهما السلام على الأذى الكبير والدائم من كفار ومشركي قبيلتهما ومن الكفار الآخرين، وعلى عناد قومهما الذي كان يزيد على مر الأيام، فلم يجدا أمامهما سوى التوجه إلى الله تعالى بدعائهما المذكورين، فبقاء هؤلاء الكفار كان شرًا للأحياء وشرًا للأموات، فاستجاب الحق تعالى لدعائهما وتجلى على هؤلاء الكفار باسمه القهار وأهلكهم.

وأخيراً استقر رأي رسول الله ﷺ مع رأي أبي بكر ﷺ منجذباً إليه من طبيعة حلمه وخلقه اللين المتسامح وطمعًا أن يهديهم الله للإسلام في المستقبل فيكونوا له عضدًا. والآن لنستمع إلى بقية الحادثة من عمر بن الخطاب ﷺ:

..فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئتُ فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عَرَضَ عَليّ أصحابُكَ من أخذهم الفِداء، لقد عُرض عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة» - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ (الأنفال:٦٧-٦٩)، فأحل الله الغنيمة لهم.[2]

كان الله تعالى قد أعطاه الإذن والصلاحية والقابليه للاجتهاد، فقام بهذا الاجتهاد وتوصل إلى "الحسن"، ولكن الله تعالى كان يريد لأحب مخلوق لديه أن يصل إلي الأحسن والأجمل، ولهذا السبب قام بتنبيهه وتذكيره، أي لا يوجد هنا ذنب أو إثم، ثم يجب الانتباه إلى الأسلوب المستعمل في الآيات الكريمة تجاه الرسول ﷺ: ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُم عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٨).

وكلمة "لولا" في اللغة العربية تُستعمل عند "امتناع الشيء لوجود غيره"، إذن، يجب الانتباه عند ذلك إلى معنى الآية التي تقول بأن حكمًا صدر منذ الأزل وأنه تبعًا لذلك الحكم ستأخذون الغنيمة وتستفيدون منها.

إذن، فالغنيمة -وضمنها الأسرى- لم تعد حراماً حتى بعد هذا الاجتهاد، ويكون

---

[1] المسند للإمام أحمد، ١/ ٣٨٣.

[2] مسلم، الجهاد ٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ١/٣١-٣٣.

الموضوع كله موضوع امتحان تماماً مثلما حدث في موضوع آدم عليه السلام تُرك الأحسن للحسن، وبعد معركة بدر رجعت الأمور إلى أوضاعها الأعتيادية حيث تذكر آية أخرى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد:٤).

فكأن الرسول ﷺ حدس هذا الحكم الإلهي من ذلك الوقت، ولكن استباق هذا الحكم آنذاك كان "حسنًا" أما انتظار صدور الحكم فكان هو "الأحسن".

ثم إن الرسول ﷺ عندما عدّ أمورًا خمسة أعطيت له ولم يعطهن أحد من قبل ذكر «وأُحِلَّت ليَ الغنائم ولم تحل لأحد قبلي.»[١] فالغنائم التي لم تكن حلالاً حتى معركة بدر، ولم تكن حلالاً للأنبياء السابقين أصبحت حلالاً للمسلمين بعد آية ظاهرها العتاب للرسول ﷺ. وشيء آخر يجب الأنتباه له وهو ان الحكم الذي أحل الغنيمة جاء بعد اجتهاد الرسول ﷺ. هذا الاجتهاد -وكل اجتهاد آخر- الذي إن أصاب فيه المجتهد فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد. وحسب خلقه العام لم يكن أمامه سبيل أخر غير هذا الاجتهاد، لذا فما لبث أن صدر الحكم على إثر اجتهاده هذا.

كون الغنيمة حلالاً ثابت بالنصوص الدينية، وهذا لا ينافي الإخلاص في كون الجهاد في سبيل الله. ذلك لأن الحصول على هذه الغنائم والإمكانات المالية الموجودة لدى الأعداء كان يضعف الأعداء ويقوي المسلمين، ثم هناك ناحية التشويق والترغيب للذين لم يبلغ إخلاصهم المستوى المطلوب مع ملاحظة أنها أصبحت موردًا للعيش لا غنى عنه للذين نذروا كل حياتهم للجهاد على ألا تكون هي الغاية من الجهاد. ولكن لا يكره أحد أيضًا على أخذ الغنيمة، إذ يستطيع كل شخص أن يقول ما قاله عمرو بن العاص: "ما أسلمت من أجل المال."[٢] ولكن يجب ألا يتوقع مثل هذه التضحية من الجميع.

وقبل اختتام هذا الموضوع أود أن أذكر بمسألة الفاكهة المحرمة لآدم عليه السلام، فكما امتحن الله تعالى آدم عليه السلام بالفاكهة التي أحلها له فيما بعد، كذلك أحسب أن الوضع نفسه تكرر في موضوع الغنيمة التي أحلت فيما بعد التي أصبحت وسيلة امتحان بعد معركة بدر، ثم جاءت الأحكام الأساسية في هذا الموضوع. وبما أن الاجتهاد كان متماشيًا مع هذه الأحكام لذا،

---

[١] البخاري، التيمم ١، الصلاة ٥٦؛ مسلم، المساجد ٣.

[٢] المسند للإمام أحمد، ١٩٧/٤.

لم يكن هناك ذنب، وإنما اقتصر الأمر على التنبيه إلى الميل الفطري لدى الإنسان نحو مال الدنيا وتم التحذير من الانغمار في هذا الميل.

والحقيقة أن التحذير الوارد هنا والدرس المراد تلقينه هو للمسلمين جميعاً. أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فهو لم يكن له من قبل ولن يكون له من بعد أي ميل للدنيا، فهذا التحذير موجه للمسلمين في شخص الرسول ﷺ لكي يعتبروا من جهة ولا تُمس كرامتهم من جهة أخرى. وهنا يتبين مدى الحساسية التي تبديها التربية الإلهية عند توجيه خطابها للمستمع.

٢. غزوة تبوك

مع أنه لم تقع معركة في تبوك ورجع المسلمون دون أن يدخلوا في حرب فعلية مع البيزنطيين إلا أنهم تهيأوا لهذه المعركة بشكل جدي وكانت حركة إرهاب للبيزنطيين، لذا دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى الجهاد وطلب منهم التهيؤ الكامل له وخرج للحرب في جو من النفير العام. ولكن بعضهم استأذنوا رسول الله ﷺ وأبدوا له معاذير مختلفة فأذن لهم بعدم الاشتراك في الحرب، وكان هذا هو السبب في نزول آية نرى في ظاهرها عتاباً للرسول ﷺ إذ كانت تقول له: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة:٤٣).

وعندما ينظر الإنسان إلى جملة ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ﴾ يتخيل وكأن هناك ذنباً تم اقترافه، ولكننا نرى أن هذه الجملة أقرب إلى تعبير "يا من هو مظهر لعفو الله."

أولاً إن البدء بمثل هذه العبارة يستهدف استلطاف خاطره، وتأخرت الجملة التي تحتوي التنبيه إلى الأخير. وهكذا تم تلطيف الجو، إذ لو قال له ابتداء "لم أذنت لهم" لتفطر قلبه فَرَقًا. فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه الصلاة والسلام. لذا، يقول علماء اللغة مثل النحاس والمهدوي والمكي والمفسرون أن هذه الآية تحتوي على توجه للرسول ﷺ وليس على تنبيه.[1]

ولعل الله تعالى أراد أن يذكر رسوله بما يأتي:

كل من جاءك يستأذنك أذنت له دون أن تمانع مع أنك تعلم أن بين المستأذنين كثيرًا من المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام وقلوبهم مملوءة بالنفاق والفساد، فلماذا أذنت لمثل هؤلاء؟ كان من المفروض أن يتميز المؤمنون الصادقون الذين برهنوا لك على الدوام على

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٩٨/٨-٩٩؛ الكشاف للزمخشري، ١٩٢/٢.

صدقهم عن هؤلاء المنافقين الكذابين الذين وصفتهم أنت فقلت عنهم أنهم: «إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»،[1] كانت هذه فرصة لكي يظهر لك هؤلاء فردًا فردًا.

وسيأتي يوم يعرفهم الرسول ﷺ، ولكن طبعه اللين وخلقه السمح أخّر هذا الأمر قليلاً.

وكما تبين فالأمر كله أمر تذكير وليس هناك عتاب، بل يمكن حتى حدس وجود ثناء. وهنا أيضًا يتم إرشاد الرسول ﷺ إلى "الأحسن" وإلى "الأجمل" لأن هذا هو ما يليق به.

يقول الزمخشري بأنه مادام هناك حديث عن "عفو" إذن، فلابد من وجود ذنب،[2] ولكن فخر الدين الرازي لا يقبل هذا الكلام أبدًا إذ يقول في تفسيره بأنه قد يكون هذا الأمر واردًا بالنسبة إلينا، ولكن إن ذكرت كلمة العفو بالنسبة إلى الأنبياء فلا تحمل هذه الكلمة إلا معنى التبجيل والثناء.[3] ونحن نرى هذا ونقول بأن هذه الآية تحمل ثناء للرسول ﷺ.

وكما قلنا سابقًا فالرسول ﷺ كان صاحب فطنة كبيرة، يعرف كيف تجري الأمور وكيف تنفذ المهمات والأعمال معرفة جيدة. وكانت الآية تعرض هنا عليه طريقة بديلة في العمل وهي: يجب ألا يؤذن لهؤلاء حتى يتميز المنافقون تمامًا عن المسلمين، فلا يُعطى للمنافقين فرصة بريئة كالإذن يستظلون به فلا يُعرفون حق المعرفة، ذلك لأن المنافقين ما كانوا ليشتركوا مع المسلمين في هذه الحملة حتى وإن لم يأذن لهم الرسول، ولكنهم كانوا يظهرون آنذاك على حقيقتهم وأنهم منافقون، وكان هذا هو مايريده الله تعالى وما يطلبه من رسوله ﷺ مع أنه أخبره بحال المنافقين، إلا أنه كان يريد إظهارهم في هذا الامتحان، وبقيام الرسول ﷺ بإعطاء هذا الأذن -تمشيًا مع خلق العفو الموجود في طبيعته- فقد ضاعت هذه الفرصة.

هذا التصرف كان من آثار الخلق العام للرسول ﷺ، فمثلاً لم يحاول في أي فترة هتك ستر أي شخص، فلم يصحح خطأ أي فرد بذكر اسمه وأخطائه صراحة، بل فعل ذلك على الدوام تلميحًا ودون تعيين، وبذلك حال دون المساس بكرامة أي شخص. كان هذا هو خلق النبي ﷺ كل إنسان يتصرف حسب طبيعته وخلقه، وكان النبي ﷺ يتصرف أيضًا حسب خلقه الرفيع، فأي نبي لا يهتك ستر أحد ولا يهيئ الأساس لهلاك مخاطبه، ولم يفكر النبي ﷺ بإظهار عيب أو عيوب أي شخص وفضح ذلك الشخص أو وضعه في موقف حرج ومُخجل. فمثلاً كان رسول الله ﷺ يعرف جميع المنافقين فردا فردا ويعرف رئيسهم ولكنه

---

[1] البخاري، الإيمان ٢٤؛ مسلم، الإيمان ١٠٧؛ الترمذي، الإيمان ١٤.

[2] الكشاف للزمخشري، ٢/١٩٢.

[3] مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، ١٦/٧٣-٧٤.

لم يفش هذا السر، بل كان يتصرف حيالهم مثلما يتصرف مع أي مؤمن أخر، حتى أن منافقًا جاءه يومًا معلنًا ندمه بعد أن زال النفاق عن قلبه وأخبره بأنه يعرف منافقين كثيرين وأنه مستعد للتصريح بأسمائهم ودعوتهم إليه لكي يتوبوا مثله فلم يقبل الرسول ﷺ ذلك لأنه لا يرغب في هتك ستر أحد.

كان عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول من ألد أعدائه ولكنه كان يتظاهر بالإسلام، وكان الرسول ﷺ يعامله حسب ظاهره ويود لو أنه كان كما يتظاهر، لذا لم يقطع عنه أمله حتى نهاية حياة هذا المنافق الذي لم يقدر له الله تعالى الهداية، بل الموت منافقًا. وعندما مات جاء ابنه إلى الرسول ﷺ طالبًا منه قميصه ليكفن به والده كما طلب منه الصلاة عليه والاستغفار له فلبى الرسول ﷺ جميع هذه الطلبات إذ أعطاه قميصه، وقام بالصلاة عليه،[1] ولم يهتك سر هذا المنافق، ذلك لأن ابنه وبنته كانا من المسلمين الصالحين لذا، تحمل الرسول ﷺ بسببهما كل أعمال هذا المنافق.

ولإعطاء فكرة في هذا الصدد نورد هذا المثل الصغير: أراد أحد الصحابة بيع أمة له ولكنه أراد إبقاء الولاء عنده، بينما يكون الولاء في الإسلام لمن أعتق العبد، ولم يكن من الصحيح ولا من اللائق طلب هذا الشيء، بينما يأمر الدين بعكسه، ويحتمل أن ذلك الصحابي لم يكن يعرف حكم الدين في هذا الموضوع ولم يبلغه شيء حوله، وعندما علم الرسول ﷺ بهذا لم يستدع ذلك الصحابي ولم يعنفه، بل صعد إلى المنبر وأبان عن حكم الدين في هذا الموضوع دون أن يسمي أحدًا إذ قال: «إنما الولاء لمن أعتق.»[2]

ويمكن إيراد أمثلة عديدة جدًا في هذا الخصوص، حيث يظهر لنا أن الرسول ﷺ لم يكن يجابه أي مذنب بذنبه، ولم يتسبب في إحراج أي أحد بسبب ذنوبه أو أخطائه.

وفي موضوع الإذن هذا أيضًا لعب خلقه الكريم هذا دورًا كبيرًا، فلم يشأ أن يهتك سر أي أحد راجعه وأستأذنه، وقبل ظاهرهم وأذن لهم. أجل، كان صدره واسعًا حيث قال الله تعالى عنه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الانشراح:١)، أجل، لقد تجلت فيه سر هذه الآية الكريمة، فعندما كان المنافقون يكذبون في موضوع ما كان النبي ﷺ يقوم بإسدال ستار على هذا الكذب ولايفضحهم بل يريهم كيف يكون خلق النبي.. فما أعظمه من نبي تبارت التوراة والإنجيل والفرقان في مدحه.

---

[1] البخاري، الجنائز ٢٣، اللباس ١٨؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٥؛ المسند للإمام أحمد، ١٨/٢.

[2] البخاري، الكفارات ٩؛ مسلم، العتق ٥.

٣. سورة عبس

قد تبدو سورة عبس وكأنها تحمل عتابًا للرسول ﷺ. لذا، سنقوم -قبل الدخول إلى تحليل هذا الموضوع- بشرح سبب نزول هذه السورة ثم شرح معاني آياتها لإثبات عصمة الرسول ﷺ في هذا الموضوع الذي يريد البعض وضع ظل على عصمته الواضحة وضوح الشمس.

كان الرسول ﷺ جالسًا مع كبار رجال قريش من أمثال عُتبة وأبي جهل يبلغهم رسالة ربه ويدعوهم إلى دينه، وبينما كان مندمجًا في هذا الموضوع، قد ركز عنايته وانتباهه إلى دعوتهم إذا بشخص ضرير هو عبد الله بن أم مكتوم ﷺ يدخل عليهم ويخاطب رسول الله ﷺ قائلاً: "يا رسول الله! أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى"، وكرر ذلك ولم يعلم انشغال الرسول ﷺ بالقوم، فكره الرسول ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه الآية. هذا هو ملخص ما قيل في سبب نزول هذه الآية.

فإذا نظرنا إلى الموضوع من هذه الزاوية قلنا بأن الصحابي لو لم يكن أعمى وكان بصيرًا لما تعرض الرسول ﷺ لأي عتاب، أي كان من المفروض على الرسول ﷺ أن يسامح هذا الشخص لكونه أعمى، لذا فعبوسه وإعراضه عنه استوجب التنبيه. هذا هو الحكم السطحي الذي نصل إليه إن تناولنا الموضوع بهذا الشكل، ولكننا إن تعمقنا في الموضوع رأينا الوجه الآخر له وعلمنا مدى استعجالنا في إصدار الحكم السابق.

أولاً هناك شروط وآداب عند الدخول إلى مجلس أي شخص، ثم إن الدخول إلى مجلس رسول الله ﷺ لا يشبه الدخول إلى أي مجلس آخر، ولا يمكن التصرف فيه كالتصرف في مجلس أيّ شخص آخر، لذا نرى القرآن الكريم يشرح في آيات عديدة للمسلمين آداب حضور مجلس الرسول ﷺ، متى يتم الحضور وكم يمكث فيه[1] وكيف يتحدث معه بصوت خفيض،[2] شرح الله تعالى للمؤمنين كل هذه الأمور.

---

[1] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً﴾ (الأحزاب:٥٣).
قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاء ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور:٥٨).

[2] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ

والأمر وارد بالنسبة للمثول بين يدي الله تعالى، وعدم جواز المرور بين يدي المصلى مثال جيد على هذا، ففي المذهب الحنفي ينبه الشخص المار بين يدي المصلي، ويمنع بالقوة من هذا في المذهب المالكي، فإذا أصر الشخص على ذلك يجوز أن تضربه ضربة على صدره.[1]

ذلك لأن المصلي واقف بين يدي سلطان الكون ومالك الملك يتحدث إليه، علمًا بأن المرور بين شخصين عاديين يتكلمان لا يجوز من ناحية آداب السلوك والمعاشرة فكيف بمن يفعل ذلك مع المصلي؟ لذلك نرى رسول الله ﷺ يقول: «لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيرًا له من أن يمر بين يديه.»[2] إذن، فكما توجد آداب معينة في الحضور بين يدي الله تعالى، توجد كذلك آداب معينة في مجلس رسول الله ﷺ.

ماذا كان رسول الله ﷺ يفعل آنذاك؟ كان يريد نقل إلهام قلبه إلى القلوب المتحجرة الصلدة، وهو الذي وصف القرآن الكريم حرصه على هداية الناس بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦) و﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣).

أجل، كان يحزن ويغتم غما شديدًا عندما يرى إنسانًا غير مؤمن حتى يكاد يهلك غمّا وحزنًا. عندما كان النبي منشغلاً بكل جوارحه في جو الدعوة إلى الله دخل أحدهم وبدأ يتكلم ويخل بالجو الموجود هناك. صحيح أن للقادم عذرًا في هذا، إذ كان أعمى لايرى.. فإذا عبس الرسول ﷺ وأعرض عنه فله عذره الشرعي في ذلك، لذا لا نتفق مع الذين يريدون استعمال هذه الحادثة في الطعن بالرسول ﷺ ونرى ذلك خطأ.

هذا هو الجواب إن كانت الحادثة جرت بهذا الشكل، هذا علمًا بأنه لا يوجد في كتب الأحاديث المعتبرة كالبخاري ومسلم وابن ماجة وأبي داود والترمذي والنسائي ومسند ابن حنبل والمستدرك جريان هذه الحادثة بالشكل الوارد في بعض التفاسير التي تشير إلى بطلين في هذه الحادثة هما الرسول ﷺ وابن أم مكتوم ﷺ وإلى شخصين ثانويين هما أبو جهل وعُتبة، بينما يذكر المفسرون المحققون أسماء مختلفه للشخص الذي أتى إلى

لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات:٢-٣).

[1] كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري، ١/٢٧٢-٢٧٣.

[2] البخاري، الصلاة ١٠١؛ مسلم، الصلاة ٢٦١؛ أبو داود، الصلاة ١٠٨.

الرسول ﷺ حتى أنهم اختلفوا عما إذا كان هذا الشخص أعمى حقيقة أم بالمعنى المجازي. إذن، يجب النظر إلى هذه الحادثة من زاوية أفسح.

ترد هنا أسماء سبعة أشخاص غير اسم ابن أم مكتوم، أي يبلغ عدد الأشخاص الواردة أسماؤهم ثمانية وليس هناك أي دليل يرجح اسم ابن أم مكتوم في هذه الحادثة. وهذا الصحابي الجليل ﷺ استخلفه الرسول ﷺ في المدينة في كثير من غزواته، واستشهد في أغلب الأقوال في معركة القادسية.[1] وكان قريبًا للرسول ﷺ عن طريق أمنا خديجة رضي الله عنها إذ كان ابن خالها، لذا لم يكن هناك أي سبب يدعو إلى استثقال دخوله إلى هذا المجلس، وعلى الرغم من كونه أعمى فقد استخلفه الرسول ﷺ في المدينة أي كان شخصًا يعرف كيف يتصرف التصرف اللائق ويعرف كيف يتكلم، لذا نرى أنه أقل الأسماء الواردة في هذه الحادثة احتمالاً.

ومن يدري فقد يكون الأعمى الذي جاء إلى الرسول ﷺ من سيئي النية، ولما كان الرسول ﷺ يعلم أنه غير مخلص في طلبه فقد عبس وتولى عنه، وهذا تصرف طبيعي، غير أننا لا نصر على قولنا هذا ولا نقطع به، غير أن الحادثة الواردة في حق ابن أم مكتوم ليست أكثر قطعيةً، بل ننظر إلى كلا الاحتمالين نظرة متساوية.

هناك شيء أخر يسترعي الملاحظة، فقد أورد بعض المفسرين أن الضمير في "عبس" و"تولى" يعود إلى الوليد بن المغيرة وورد فعل "عبس" في القرآن مرتين، أحدهما هنا والآخر في سورة المدثر في حق أحد الكفار، وسواء أكان ذلك الكافر الوليد بن المغيرة أم غيره (فالعَقَّاد يقول أنه لا يمكن أن يكون الوليد بن المغيرة هو المقصود في سورة المدثر، ذلك لأن آية تقول عنه أنه "زنيم"، بينما كان والد خالد شخصاً معروفاً وأصيلاً -وإن كان كافراً- وسليل عائلة معروفة) لا نجد في السنة الصحيحة أيّ دليل على كون ذلك الشخص هو الوليد بن المغيرة.

فإذا كان القرآن الكريم استعمل كلمة "عبس" في حق كافر فكيف يستعملها في وصف رسول الله ﷺ وهو الشخص الذي كان دائم التبسم؟

والوضع نفسه نراه في الفعل "تولى"، إذ استعمل القرآن هذا الفعل في حق فرعون فقال ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ (طه:٦٠). صحيح أن هذا الفعل لم يستعمل في حق فرعون فقط ولكنه استعمل بهذا الأسلوب في حق أمثال فرعون.[2]

---

[1] الإصابة لابن حجر، ٢/٥٢٣-٥٢٤.

[2] انظر: البقرة: ٢٠٥؛ طه: ٤٨؛ النجم: ٣٣؛ المعارج: ١٧؛ الغاشية: ٢٣؛ الليل: ١٦؛ العلق: ١٣.

فكيف يمكن أن يستعمل القرآن فعلين من هذا القبيل واحدًا إثر آخر في حق الرسول ﷺ؟ وكيف يرى من المناسب تصويره بهذه الصورة؟

وفي الحقيقة يجب النظر إلى الذين قدموا هذه الملاحظة الأخيرة بأنهم قد يكونون على حق، فهؤلاء يرون أن الفاعل في الفعلين "عبس" و"تولى" ليس هو الرسول ﷺ بل هو الشخص الكافر الذي عمي عن الحقيقة.. جاء وكأنه أعمى لا يبصر شيئًا وعبس في وجه الرسول ﷺ، ثم تولى عنه. فإذا أخذنا عصمة الأنبياء بنظر الاعتبار قلنا: ربما يكون هذا صحيحًا، ولا أذكر في الحقيقة أي رواية تنقض وجهة النظر هذه، وما دام السياق يطابق المعنى فلاأرى سببًا لردها.

إن هدفنا من إيراد هذه الأمور التي أطلقنا صفة "المحتمل" على بعضها، و"الأكيد" على البعض الآخر هو بيان قدسية السنة والإفصاح عن مكانتها التي يحاول البعض النيل منها، وذلك بتناول الآيات التي نزلت في تنبيه النبي ﷺ تناولا سطحيا، والقيام بتصريحات غير لائقة بحق هذا المصدر الإلهي (السنة)، ومحاولة التهوين من قدر النبوة وإضعافها في نظر المؤمنين، وإظهار أنها ضعيفة ولا تستند إلى أساس ويمكن إيجاد بدائل عنها.. وإلا فإن الناس يعرفون جيدا المرتبة العالية للرسول ﷺ لدى الحق ﷻ.

أجل، كان إنسانًا متميزًا لا نظير له، وكان إرتباطه بالله تعالى ارتباطًا وثيقًا في عهد فريد. الله يوحي إليه وهو يقوم بتبليغ هذا الوحي، وحافظ الله تعالى على عصمته على الدوام، لذا كان علينا أيضًا المحافظة عليها قيامًا بحق الوفاء تجاهه، وأداء لحقه علينا، وهذا هو سبب ما نبديه من تلهف وعاطفة في هذا الموضوع، ذلك لأن هناك الكثير من القوى والأشخاص في الداخل وفي الخارج يريدون وضع هذه الشخصية الفريدة العملاقة على منضدة التشريح والنقد وتقييمه مثل سائر الناس العاديين، لذا نرى أن الدفاع عن عصمته وعفته مقدم على دفاعنا عن اعراضنا وشرفنا.

غير أننا ندرك أن قوتنا محدودة، فإمكانياتنا في الصراع مع أعداء الدين والإيمان ومع أذنابهم غير كافية لأنهم يهدمون ونحن نبني، هم يستخدمون وسائل الدعاية العالمية المخيفة، بينما لا نملك نحن سوى هذه الإمكانيات الضئيلة، ولكنهم كما غُلبوا في كل عهد وزمان في المستوى العقلي والعلمي فسيكون هذا هو مصيرهم الآن أيضًا، ذلك لأنهم يحاولون حجب الشمس بالغربال، إننا لا نود الإجابة على كل التفاهات التي يثيرونها، لأننا نعلم صحة ما كان يكرره آباؤنا من قبل:

لو كل كلب عَوَى ألقمتَه حجرًا لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

هنا لا أملك نفسي من التذكير بموضوع مهم هو بمثابة مؤشر يقوم بالإشارة إليه ﷺ: إن الأخبار المتعلقة بالمستقبل والتي أخبرنا بها الرسول ﷺ نراها وكأنها تشرح أحوالنا الحالية، يقول رسول الله ﷺ: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه.»[1]

إن الفلسفة المادية التي لا تعطي أذنا صاغية للحق ولا للحقيقة قامت بالقضاء على إنسان دنيا الكفر والإلحاد هذا قضاء معنويًا ويقتله قتلاً معنويًا وأشاعت الشك والشبهة بين المسلمين، أي سرى المرض إلى المسلمين أيضًا.

هناك فئة لا تعرف العربية ولا تفقه أسرار اللغة ودقائقها تدعي أن مآل القرآن الكريم -أي ترجمته إلى اللغة التركية- يكفينا وأننا لا نحتاج إلى الأحاديث الشريفة والسنة النبوية الكريمة. وليس هذا بالمشكلة الهينة كما تبدو في الوهلة الأولى، بل هو حملة بدأت منذ أيام أبي جهل وعُتبة وشيبة وامتدت إلى المستشرقين أمثال "غولتسهر" متنقبة بنقاب العلم، ودخلت عالم المسرح والأدب من قبل أمثال "فولتير". أجل، إنها حملة تطبخ في الخارج، وما البعض في بلادنا إلا ممثلون ثانويون يقومون بأدوارهم المرسومة لهم إما في سبيل الشهرة أو لقاء منفعة مادية ضئيلة، فتراهم يقولون:

"القرآن يكفينا، نستطيع أن نحل كل شيء بالترجمة، ما الحاجة إلى معرفة اللغة العربية؟ ألا تكفينا ترجمة معاني القرآن إلى التركية لكي نبلغ درجة الاجتهاد؟"

مثل هذه الأقوال وأمثالها ليست إلا فصلاً واحدًا من فصول السيناريو المعد الذي يقف وراءه أخطبوط عالم الكفر، وما هذه الأقوال إلا تجربة وجس نبض غيرة المسلمين عما إذا كان الجو مساعدًا وملائمًا للتمادي في تشكيكياتهم، فإن وجدوه ملائمًا فلن تقف هذه الأقوال عند هذه الحدود.

لذا، فإننا في حاجة ماسة وأكثر من أي وقت مضى إلى إحياء التوقير نحو رسول الله ﷺ.. التوقير الذي كان يحسه الصحابة نحوه، لذا يجب جعل هذا الشعور عندنا جزء لا ينفصم من كياننا، ولا يكون هذا إلا بمعرفتنا الجيدة بعصمة رسول الله ﷺ وبسد الثغرات التي يمكن من خلالها النفاذ الى خدش هذه العصمة.

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢٣٤/٧؛ مسلم، صلاة المنافقين ٣٩؛ المسند للإمام أحمد، ١٧٨/٣.

كان الصحابة يجلسون في مجلسه يستمعون إليه وكأن على رؤوسهم الطير،[1] وفي هذا المجلس لم يكن كبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعلي ﷺ يتكلمون إلا لمامًا، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أنهم في مجلس نبي مؤيد بالوحي الالهي، فالاستماع إليه استماع إلى المتكلم الأزلي، لأن الوحي الإلهي كان ينعكس بكل صفاء ونقاء عن قلب الرسول ﷺ، لذا كان الذين يعرفونه يفضلون السكوت والاستماع إليه، وأي كلام آخر لم يكن يرقى إلى مستوى كلامه.. وعندما نرقى إلى مستوى فهم الصحابة سنستمع إلى كلامه ﷺ الناضح بالخير والجمال، ونفتش فيه عن علاج أمراضنا وعللنا المزمنة منذ عصور.

أيّ إنكار لسنته أو عدم توقير لها إنما هو جسر نحو الكفر، والذي اعتاد على التجول فوق هذا الجسر ستنقطع صلته بسلك رسول الله ﷺ ويخرج خارج دائرة أمته ويلتحق بجبهة أبي جهل وأمثاله.

إن طراز التفكير هذا خطير جدًا، والطريق الوحيد للخلاص من هذا الخطر وإزالته يكون بمعرفة رسول الله ﷺ معرفة جيدة، ولا شك أن من أهم جوانب الرسول ﷺ هو عصمته، فكأن الدين كله قد ارتبط بهذا الجانب، وفتح أي ثغرة في هذا الجانب سيكون وسيلة لتخريبات كثيرة، وهذا هو سبب اهتمامنا الكبير بهذا الموضوع.

٤. اقتراح ثقيف

وآية أخرى تبدو وكأنها تنبيه للرسول ﷺ وهي: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۞ وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ۞ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (الإسراء:٧٣-٧٥).

كانت قبيلة ثقيف تطلب من الرسول ﷺ بعض الامتيازات.[2] إذ سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم اللات ولا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها لأيّ أجل مسمّى. وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يَسْلَموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ.

وقد كانوا سألوه مع ترك اللات أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم،

---

[1] البخاري، الجهاد ٣٧؛ أبو داود، الطب ١؛ النسائي، الجنائز ٨١؛ ابن ماجة، الجنائز ٣٧.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ١٨٤/٤؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣١٢/١-٣١٣؛ الدر المنثور للسيوطي، ٣١٩/٥.

فقال رسول الله ﷺ: «أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه.»

وهذه الآيات توضح موقف أفراد هذه القبيلة والموقف الحازم للرسول ﷺ تجاههم، ونحن نقول بكل ثقة بأنه لا يوجد في هذه الآيات أي شيء يمكن أن يلقي ظلاً على عصمة الرسول ﷺ.

لقد جاءوا إليه وهم يتصورون إنهم يستطيعون إمالة قلبه إليهم فقدموا اقتراحًا صبيانيًا، لأنهم كانوا جهلاء لا يعرفون معنى الوحي ومعنى النبوة، وكانوا يقولون في أنفسهم إنه مادام حريصًا على دخول الناس إلى الإسلام فلن يرد طلبنا في موضوع هذه الامتيازات طمعًا في دخول هذا العدد الكبير منا إلى الإسلام، بل يغض نظره عن بعض الفرائض ويقبلنا طمعًا في هدايتنا.

كان هذا هو ما يطمعون به، أما الرسول ﷺ فلم يخطر ليس على باله فقط، بل حتى في عالم خياله مثل هذا الأمر، فالدين وحدة واحدة فإذا قمت بتجزئته فلا تستطيع أن تطلق كلمة الدين على هذه الأجزاء، والرسول ﷺ كان رجل استقامة، ما قاله في بدء الدعوة كان هو ما قاله في يومه الأخير، والإسلام هو دين الاستقامة، جاء ليرشد الناس إلى الصراط المستقيم، لذا لا يمكن أن نجد فيه التناقضات أو نجد أحكامًا تنقض أحكامًا أخرى، ومثل هذا التفكير لا علاقة له بأي تفكير أو منطق أو علم.

وما كان الرسول ﷺ بالرجل الذي يمكن أن يقترب من قبول مثل هذا الاقتراح، بل إن تلميذه أبا بكر ﷺ لم يقبل في حوادث الرِّدّة اقتراح بعض القبائل بأداء الصلاة على ألا يدفعوا الزكاة بل دخل في حرب معهم.[1] إذن، فلا يوجد في هذه الآيات إسناد أي ذنب للرسول ﷺ، بل هي تشير فقط إلى بعض الجهلاء الذين قدموا بعض الاقتراحات التي لم يكن للرسول ﷺ أي علاقة بها من قريب أو بعيد. أما الرسول ﷺ فقد كان بريئًا ومنزهًا عن مثل هذه الأفكار.

أما الآية الثانية التي تقول: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾، فهي تقول لولا أننا قمنا بتثبيتك حتى جعلناك كالجبل الأشم كان من الممكن أن تحس بميل -ولو ضئيل- إليهم. وهذه الكلمات عرضت في معرض فرض المستحيل، أي يجب النظر

---

[1] البخاري، الاعتصام ١٢؛ مسلم، الإيمان ٣٢؛ أبو داود، الزكاة ١.

إليها على أنها إظهار لسمو الرسول ﷺ وعلو هامته وقامته، أي أننا جعلنا له إيمانًا قويًا راسخًا بحيث لا يميل قيد شعرة هنا أو هناك.

ولو لم يكن الرسول ﷺ شخصًا شرف بالنبوة والرسالة، بل كان صاحب دعوة اعتيادية أو مصلحًا فكريًا أو اجتماعيًا لكان من الممكن أن يخطر على باله مماشاة هؤلاء طمعًا في كسبهم إلى جانبه بعد إبداء بعض المرونة واللين تجاههم ليقوي ارتباطهم بنفسه، ذلك لأن أمثال هذا الضعف مركوز في طبيعة الإنسان، ولكن رسول الله ﷺ كان نبيًا مبرءً من كل أمثال هذا الضعف، ولم يكن يحاول ربط الناس بنفسه بل بالله رب العالمين، ولما كان من العبث الحديث عن ارتباط أي شخص بالدين إن لم يقبل ذلك الدين ككل فلماذا يقوم الرسول ﷺ بإعطاء أي تعويضات لهم، ولماذا يقوم بتغيير أحكام الدين من أجل خاطرهم؟ ثم إنه ليس إلا نبيّ يبلغ أوامر الله تعالى ونواهيه، أي أن صاحب الأمر والنهي هو الله تعالى أولاً وآخرا وليس أحد غيره.

ومن الممكن أن نفهم المعاني التالية من ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾: لولا أننا ثبتناك بالوحي، وجعلنا جميع تصرفاتك تحت مراقبة الوحي لربما قمت -مثل غيرك- باختيار طريق العقل والمنطق عند تبليغك للدين، وعند ذلك كان يمكن أن تفكر كما يأتي: الأفضل أن أقبل هؤلاء كما هم، ثم أقوم بتقوية علاقتهم بالدين شيئًا فشيئًا حتى يكونوا فيما بعد أشخاصًا كاملي الإيمان. أجل، لم يخطر على بالك هذا مطلقًا، غير أن عدم خطور هذا ببالك ليس إلا نتيجة تثبيتنا لك، فلم ندعك لحظة واحدة لنفسك، لذا لم تُظهر أي ميل لهم.

ومعنى آخر: إنك حريص جدًا -حسب طبيعتك- على هدايتهم وتكاد تهلك نفسك لأنهم لا يؤمنون، لذا بما أن صدرك واسع للجميع وترغب أن تفتح صدرك للجميع بمقتضى خلق الرحمة والشفقة عندك، فقد تميل بعض الميل إلى اقتراحهم لكيلا تردهم عن باب الهداية، ولكننا أعطينا لك استقامة ومقياسًا وميزانًا لجميع أحاسيسك ومشاعرك بحيث حفظناك عن كل أنواع الإفراط والتفريط.

فالإفراط في شعور الرحمة عندك كان يمكن أن يجعلك تميل ميلاً خفيفًا إلى اقتراحهم، ولكننا حفظناك من هذا فلم تمل إليهم، لأن شعور الشفقة عندك شعور متوازن، وأنت أفضل من تعرف متى وفي أي مقياس ونحو أي شخص تتم الشفقة والرحمة، لذا فلن تقوم بتقديم رحمتك أمام رحمة الله تعالى لتحمي وتصون باسم هذه الرحمة أشخاصًا ضالين.

هناك قول يسند إلى جلال الدين الرومي: "تعال!. تعال!. مهما كنت تعال." هذا القول

صحيح من ناحية المعنى، وهو ملهم من السلوك الفعلي والعملي للرسول ﷺ الذي كان صاحب قلب كبير لا يستثني أي أحد وأي إنسان بل يدعو الجميع إلى الهداية، ولو فرضنا أن جميع من على الأرض اهتدوا إلا واحدًا أو اثنين لأبدى الرسول ﷺ رغبة كبيرة في هدايتهما ولو تطلب ذلك منه التضحيات. كان ذا قلب واسع كالسماء يظلل الجميع، ولو لم تكن هناك صيانة الله وحفظه له لربما قبل في صفه حتى من اكتفى بشهادة "لا إله إلا الله" فقط وأخذه بين جناحي رحمته، ولكن الله تعالى ألهمه التوازن في مشاعره ورعاه وحفظه من الوقوع في الخطأ.

ولا تعني ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ﴾ إنك ركنت إليهم فعلاً، إذ لايجوز النظر إلى حادثة محتملة وكأنها وقعت فعلاً، فهذا ضعف في التفكير، وعدم معرفة بدرجة سمو منزلة الرسول ﷺ.

ثم إن سياق الآيات يبين أن الرسول ﷺ لم يركن إليهم أبدًا: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٧٦).

٥. خُلقه نحو الفقراء

هناك آية مديح أخرى جاءت بمظهر التنبيه، ونزلت عندما طلب الملأ من قريش من رسول ﷺ طرد العبيد والضعفاء عن مجلسه لأنه لا يجوز لهم أن يجلسوا معه مع هؤلاء المساكين ففي رواية: "مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خَبّاب بن الأَرَتّ وصُهَيب وبلال وعمّار فقالوا: يا محمد! أرَضِيتَ بهؤلاء؟ لو طردتَ هؤلاء لاتبعناك."[١] فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٢). وتوجد آية أخرى في سورة الكهف بالمعنى نفسه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨).

ما إن بدأ رسول الله ﷺ بدعوته حتى آمن به الكثير من الفقراء والعبيد، وكان الفقر والعبودية في ذلك النظام الكافر عيبًا ونقيصة، بينما أتى الرسول ﷺ بدين يرى التمايز والعلو في تقوى الله فقط وخشيته،[٢] فلم يكن الدين هنا يرى للأغنياء أي ميزة على الفقراء.

---

[١] المسند للإمام أحمد، ٤٢٠/١؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢٥٤/٣-٢٥٥.

[٢] قال تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكرَمَكُم عِندَ اللهِ أتقَاكُم إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

قال رسول الله ﷺ: «وإن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي بن أبي طالب وعمّار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد بن الأسود.»[١] كان هؤلاء الأربعة كلهم من الفقراء.. علي كان فقيرًا وعمار كان فقيرًا وكذلك سلمان ومقداد رضي الله عنهم، أي بينما يشتاق الجميع إلى الجنة، كانت الجنة هي التي تشتاق إلى هؤلاء، فكيف كان بمقدور الرسول ﷺ أن يطرد هؤلاء الذي امتلأت قلوبهم بمحبة الله تعالى وبذكره على الدوام، كيف يستطيع الابتعاد عن هؤلاء القريبين إلى نفسه وإلى قلبه؟

لقد قال لأبي ذر الغفاري ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية» وذلك عندما غضب على بلال وعيره بأمه قائلاً له: "يا ابن السوداء!" ثم قال له ناصحًا ومرشدًا: «إخوانكم خَوَلُكُمْ، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل وليُلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبُهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم.»[٢]

كان نبيًا متواضعًا يدخل الجميع إلى مجلسه، وكان هذا من طبيعة دينه وروحه، فجميع المؤمنين، الغني منهم والفقير، والسيد منهم والعبد، الآمر منهم والخادم كانوا يتوجهون إلى المسجد نفسه ويقفون جنبًا إلى جنب في الصلاة ليؤدوا وظيفة العبودية. إذن، فكيف يمكن لنبي هذا الدين أن يطرد بعض المؤمنين لكونهم فقراء؟ أليس هو الذي كان يدعو من الله: «اللّهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة.»[٣] فهل يمكن لمن كان هذا دعاؤه أن يطرد من مجلسه أصدقاءه الفقراء؟ كلا، وألف مرة كلا.. لم يطرد الرسول ﷺ من مجلسه فقيرًا واحدًا ولم يخطر على باله مثل هذا التصرف أبدًا.

ولكنه مع هذا كان نبيًا يرغب في هداية الجميع بنفس الدرجة، ويروى أنه دعا من الله هداية عمر بن الخطاب ﷺ إلى الإسلام، بل هناك رواية أن الرسول ﷺ أدخل أبا جهل واسمه عمرو بن هشام في دعائه فقال: «اللّهم أعِزّ الإسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب.»[٤] أما في دعائه لعمر بن الخطاب ﷺ فقد قال: «اللّهم أيّد الإسلام بعمر بن الخطاب.»[٥]

ربما أطلع الله تعالى نبيه على المستقبل وعلى الفتوحات التي سيحققها عمر ﷺ فدعا

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٩/ ٣٠٧؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٤٢/١.
[٢] البخاري، الإيمان ٢٢؛ مسلم، الأيمان ٤٠.
[٣] الترمذي، الزهد ٣٧؛ ابن ماجة، الزهد ٧.
[٤] الترمذي، المناقب ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ٩٥/٢.
[٥] المسند للإمام أحمد، ٤٥٦/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٦٧/٩.

الرسول ﷺ ليسرع عمر للدخول إلى الإسلام، أو أنه عرف بفراسته قابليته واستعداده فدعا له بهذا الدعاء.

كما كان اهتداء ملأ قريش وكبرائهم إلى الإسلام من أكبر بغية الرسول ﷺ، لذا دعاهم مرات عديدة إلى بيته وهيأ لهم الطعام وحاول تليين قلوبهم، ولكنهم قابلوه بالرد والرفض في كل مرة. من يدري كم من مرة عرض الرسول ﷺ هذه الفرصة الثمينة -فرصة الهداية- على كبراء قريش فلم يعرفوا قيمتها ولم يقدروها حق قدرها.

والآن تسلم من هؤلاء القادة الكبراء عرضًا للاجتماع به، فهل بدت عندهم أي رغبة في الدخول إلى الإسلام؟ صحيح أنه لم يكن متأكدًا من ذلك، ولكن وجود أي احتمال لهذا مهما كان ضئيلاً أعطى الأمل لرسول ﷺ، وكان تحقق هذا الاحتمال يُعد نصرًا كبيرًا للإسلام مثلما كان إسلام عمر ﷺ نصرًا له.

ولكن الذي حدث هو أنهم جاءوا باقتراح مخالف لروح الإسلام، لذا فقد أسف الرسول ﷺ من اقتراحهم هذا، لأن مثل هذا الاقتراح كان قد قُدّم إلى جميع الأنبياء السابقين تقريبًا، لذا كان عليه أن يرده مثلما رده الأنبياء الآخرون، ولكنه لم يكن يملك نفسه من الأسى والحزن، لأن هؤلاء الناس كانوا يرفضون الهداية التي جاءت حتى أبوابهم بسبب غرور كاذب، كان هذا سبب حزن الرسول ﷺ وكانت الآية تقول له إنه لا ذنب له في هذا الأمر.

كان الرسول ﷺ قد عقد عزمه على ألا يطرد الفقراء من مجلسه على أن يستمر في البحث عن طريق أخرى لهداية الآخرين، فهل كان مصيبًا في قراره هذا؟ كانت الآية تقرر هذا وتؤيده في هذا الأمر.

٦. تذكير

أود هنا أن أشير إلى أمر مهم: هناك أوامر عديدة في القرآن الكريم موجهة إلى الرسول ﷺ وإلى المؤمنين كافة، وهذه الأوامر والنواهي بمثابة أحكام، ولا تعني أنهم -أي الرسول ﷺ والمؤمنون الآخرون- كانوا يعملون العكس، فمثلاً عندما يخاطب القرآن النبي ﷺ حول إقامة الصلاة والصوم وأداء الزكاة، مثل هذا الخطاب بمثابة أوامر ولا يعني أن الرسول ﷺ لم يكن يصلي أو يصوم أو يؤدي الزكاة كما لا يعني أنه نزل لتنبيه الرسول ﷺ،[1] لذا،

---

[1] هناك أمثلة كثيرة على مثل هذه الآيات: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر:٦٥)، ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (الشورى:١٥)، ﴿فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (القلم:٨)، ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَر ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ (الضحى:٩-١٠).

فعندما تأتي آية تقول: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ فلا يعني هذا أن الله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: "لماذا طردت الذين يدعون ربهم؟"، فهذا معنى مخالف لعصمة الرسول ﷺ، لأن الرسول ﷺ لم يقم بأي عمل يمكن أن يكون إشارة أو إيماءة إلى أنه قام بما يخالف هذا الأمر، إذن، فهو أمر جاء تصديقًا للقرار الذي اتخذه الرسول ﷺ في هذا الأمر، وإعلانًا لعصمة رسوله وفطنته.

ويتوضح معنى ما قلناه في سورة الكهف بشكل أفضل حيث يقول الله تعالى هناك ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف:٢٨)، ومعنى الصبر عدم تغيير السلوك، فإذا كان هناك أي تغيير مهما كان طفيفًا فيه فلا يمكن هنا التكلم عن الصبر. فمثلاً تتحدث عن صبر إنسان في العبادة، أي تقول إنه لا يغير عادته في الدوام على العبادة، وتتحدث عن صبره أمام المحن وأنت تعني أن تصرفه وسلوكه بقي ثابتًا ولم يتغير أمام المحن، وكذلك الصبر أمام الذنوب والآثام، أي الاستمرار في الحال السابق دون أن تغيره الآثام، إذن، فعندما يقال لرسولنا ﷺ: "اصبر" فمعناه استمر في موقفك السابق وفي قرارك وتصرفك السابق. وهذا يوضح أن الموقف السابق للرسول ﷺ كان موقفًا يُرضي الله تعالى، لأن معنى الصبر ليس في تجديد موقف، بل الاستمرار عليه، إذن، فهنا نجد مدحًا للرسول ﷺ وتبجيلاً له، وكون تصرفه وسلوكه مما يرضي الله تعالى.

كان هذا هو خلق الرسول ﷺ الذي بقي محافظًا عليه طوال حياته وحتى التحاقه بالرفيق الأعلى وهو طاهر من الذنوب والآثام كيوم ولدته أمه.

٧. زواجه بالسيدة زينب رضي الله عنها

استغل أعداء الدين قديمًا وحديثًا حادثة زواج الرسول ﷺ بأمنا زينب رضي الله عنها للافتراء على الرسول ﷺ. ولكن كيدهم ارتد إلى نحورهم وبقيت صورة رسول الله ﷺ صافيةً ونقيةً.

يذكر القرآن الكريم هذه الحادثة كما يأتي: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ (الأحزاب:٣٧).

كان رسول الله ﷺ يحب زيدًا حبًا جمًا، فهو الشخص الوحيد الذي تبناه، وكان زيد ﷺ يقابل هذا الحب بحب مثله أو أكثر وقريبًا منه إلى درجة أن الناس كانوا ينظرون إليه وكأنه

ابنه. كان زيد ﷺ قد ضحى بنفسه وترك أبويه من أجل البقاء قرب الرسول ﷺ، وفتح رسول الله ﷺ أبواب قلبه له.

كان زيد ﷺ عبدًا فأعتقه النبي ﷺ وأعاد له حريته وتبناه، ولكن هذا لم يكن يمسح عن زيد ﷺ -حسب عادات القوم آنذاك- صفة أنه عبد عتيق. كان هذا التفكير والنظر قد نفذ إلى أبعد أبعاد النسيج النفسي لذلك المجتمع، فحتى لو تحرر أي عبد فإنه يبقى مواطنًا من الدرجة الثانية فيه. كان من الضروري هدم هذه النظرة من الأساس وتخليص المجتمع من هذه العلة التي كانت تقلق الرسول ﷺ الذي كان ينتظر حلها. ولكن هذا الحل يجب أن يكون عمليًا ويُتقبل من ناحية المجتمع، لذا توجه الرسول ﷺ إلى هؤلاء العبيد المتحررين توجهًا خاصًا وبطريقة خاصة.

الحرية مهمة جدًا، ولكن الأهم هو الحفاظ عليها والاستفادة منها، فالشخص الذي لا يستطيع حمل الحرية لا يمكن أن يتصرف كإنسان حر وإن أعطيت له الحرية، وهذا ما حدث عندما أعتق العبيد في أمريكا وظهرت هذه الحقيقة المؤلمة، ولم يأت الحل الحقيقي إلا بعد سنين، فهؤلاء العبيد الذين لم يتعودوا العيش بحرية باعوا ما أعطيت لهم من إمكانيات ووسائل العيش وعادوا إلى ساداتهم، لأن الظروف لم تكن بعد مناسبة لأجواء الحرية، فلم يكن الأفراد مستعدين نفسيًا لها، ولم يكن المجتمع كذلك مستعدًا، لذا لم تعط حركة التحرير ثمارها المرجوة بسرعة.

كان الرسول ﷺ يهيء هؤلاء من الناحية النفسية ومن ناحية التفكير والتصرف الحر من جهة ويهيء المجتمع لتقبّل هؤلاء كأفراد فيه من جهة أخرى. كان هؤلاء في السابق يعدون متاعًا من الأمتعة، أما اليوم فقد أصبحوا أعضاء في المجتمع.

كان الرسول ﷺ ينتظر اللحظة المناسبة ليضرب الضربة الأخيرة لهذه النظرة الفاسدة المتغلغلة في المجتمع، لم يكن هذا بالأمر الهين البسيط، بل كان أمرًا بالغ الصعوبة، ولكن كان بمقدور الرسول ﷺ إنجاز هذه المهمة.

وكما كان ﷺ يقوم في الحروب بتقديم أقربائه إلى المهمات الصعبة في جبهة القتال فقد عمل الشيء نفسه هنا إذ قام بتزويج بنت عمته أخت عبد الله بن جحش زينب بنت جحش أي بنتًا من عائلة أصيلة جدًا من زيد ﷺ الذي كان عبدًا عتيقًا.

كان الرسول ﷺ يذهب إلي بيت قريبه هذا، لأنه كان بيت عمته، هذا البيت كان ينتظر منذ سنوات إشارة من الرسول ﷺ، ذلك لأن شرف التزوج منه كان حلم كل امرأة، ولم يكن

في هذا ما يُستغرب. وكما ذكرنا سابقًا فعندما أراد الرسول ﷺ تطليق زوجته سودة رضي الله عنها أتت إليه سودة وتوسلت إليه أن يستبقيها، ووهبت يومها لعائشة رضي الله عنها، فرغبتها الوحيدة كانت البقاء بجانبه والوفاة وهي زوجته، وما كانت لتتراجع عن أي تضحية في هذا الموضوع.[1]

تلهف عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكي يكون قريبًا من هذا البيت الطاهر، لذا طلب يد فاطمة رضي الله عنها ولكن عندما زوجها الرسول ﷺ من علي رضي الله عنه لم يبق أمام عمر رضي الله عنه سوى انتظار أم كلثوم بنت علي رضي الله عنه، وعندما تزوجها عمر رضي الله عنه كانت في سن صغيرة، وهكذا تحققت أمنية عمر رضي الله عنه في القرب من الرسول ﷺ.[2] لذا، كان من الطبيعي أن تطمع عمة الرسول ﷺ في تزويجه من ابنتها، وكانت زينب رضي الله عنها تليق لكي تكون زوجة نبي، وربما كانت ترغب في الزواج منه ﷺ.

ذهب الرسول ﷺ إلى بيت عمته وقال إنه يطلب يد زينب، فطار أهل البيت فرحًا، ولكن ما إن أخبرهم بأنه يطلبها لزيد حتى وجموا، ذلك لأنه لو لم يكن الرسول ﷺ هو الطالب لردوا زيدًا ولم يقبلوا به صهرًا، ولكن لم يكن بمقدورهم رد طلب الرسول ﷺ. وهكذا تأسس بيت للزوجية غير قائم على الرضا، ولكن تم ما أريد تنفيذه من الناحية الاجتماعية.

كانت الزوجة ذات حسب ونسب، ونشأت في هذا الجو، أما زيد رضي الله عنه فهو على رغم عتقه من العبودية من قبل الرسول ﷺ كان لايزال في نظر المجتمع شخصًا عتيقًا، أي عبدًا سابقًا ومن عائلة متواضعة، لذا لم يتم التوافق والانسجام بين الزوجين، ويجوز أن زيدًا رأى بفراسته أنه ليس كفؤًا لهذه المرأة التي كانت تملك روحًا وقلبًا وسلوكًا وإرادة متميزة.. امرأة تليق لأن تكون زوجة نبي.

راجع زيد النبي ﷺ في هذا الأمر مرات عديدة ذاكرًا له أنه يريد الانفصال عن زوجته، وكان النبي ﷺ يقول له كل مرة: "أمسك عليك زوجك واتق الله"، لأن ما كان يهم النبي ﷺ هو قلع هذه الفكرة الجاهلية من المجتمع، لذا تسبب في هذا الزواج، ولكن التوتر وعدم التفاهم كان يزيد في البيت على الدوام، واقتربت الأمور إلى حد الانقطاع والانفصام.

صحيح أن الطلاق بدا في الأفق، إلا أن الرسول ﷺ كان قد برهن عمليًا على إمكانية تزوج عبد عتيق من امرأة ذات حسب ونسب.. كان الرسول ﷺ مرشدًا، وعلى كل مرشد أن

---

[1] البخاري، النكاح ٩٨؛ مسلم، الرضاع ٤٧.

[2] الإصابة لابن حجر، ٤٩٢/٤.

يطبق ما يقوله أولاً على نفسه وعلى أقربائه، وهذا ما فعله في هذا الأمر أيضاً وحسب أوامر الله وتوجيهه، ثم بدا في أفق الوحي أمارات حوادث يصعب على النفس تحملها.

ثم علم عن طريق الوحي أن زينب رضي الله عنها ستكون زوجة له، ولكنه لكونه لم يتلق الإذن بعد لإعلان هذا الأمر أخفاه في نفسه، وكما قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: "لو كان محمد ﷺ كاتمًا شيئًا مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية"،[1] وهي الآية حول زواجه من زينب. أجل، كان هذا هو مبلغ ثقل أمر زواجه من زينب، ولكن من يستطيع رد زواج كتبه الله تعالى في الأزل؟ كان الله تعالى يقول: "زوجناكها"، أي هو زواج تم من قبل الله تعالى، وكان الملأ الأعلى هم شهود هذا الزواج، وكان البدل والثمن الثقيل على النفس لهذا الزواج هو إعلان الله تعالى عن حكم معين، وهو أن المتبنين والأدعياء ليسوا مثل أبنائه الحقيقيين، فإن قام أحدهم مثلاً بتطليق زوجته فالأب المتبني يستطيع الزواج إن شاء منها، بينما كان المتبنى في الجاهلية يُعد وكأنه ابن حقيقي له، فإن مات أو طلق امرأته ما جاز للشخص المتبني التزوج من تلك المرأة. كان من الضروري هدم هذا الحكم الجاهلي، وكان من الضروري أن يحمل الرسول ﷺ على عاتقه هدم هذا الحكم، بينما كان من نصيب زينب رضي الله عنها الاشتراك في هدم أمرين مهمين من أمور الجاهلية في زواجيها الاثنين.

وجاء أمر هذا الزواج في بعض التفاسير وكأن الرسول ﷺ رأى زينبًا رضي الله عنها عندما كانت لا تزال في ذمة زيد ﷺ فأعجبه حسنها وقال: "سبحانك يا مقلب القلوب"، وأن أمنا زينب رضي الله عنها سمعته.. الخ. وهذا يبين أن بعض الإسرائيليات نفذت حتى إلى بعض التفاسير مع الأسف؛ حتى أن مفسرًا -لا أريد ذكر اسمه هنا- قال: "عاد زيد إلى البيت فاطلع" أي علم بالأمر. وأنا أعتقد أن تخيل وقوع هذا الأمر لا يليق إلا بأعداء الدين وليس بعالم مسلم. ونستطيع دحض هذا بسهولة:

أولاً: لم يكن الرسول ﷺ يرى زينب للمرة الأولى، لقد شاهدها منذ صغرها وحتى أصبحت شابه، أي شاهدها مرات عديدة، فلم تكن رؤيته لها مفاجأة كما تصور القصة الكاذبة.

ثانياً: لو كان الرسول ﷺ يحمل أي ميل نحو زينب رضي الله عنها فلماذا يقوم بتزويجها من زيد؟

---

[1] البخاري، التوحيد ٢٢؛ مسلم، الإيمان ٢٨٨.

ثالثاً: كان أهل زينب رضي الله عنها يتلهفون لزواج زينب من الرسول ﷺ، فما المانع من قيام الرسول ﷺ بتحقيق أمنيتهم والزواج منها؟ ولماذا قام إذن، بتزويجها من زيد ﷺ؟

إذن، كان زواج الرسول ﷺ من زينب رضي الله عنها من أجل تنفيذ أمر.. أمر الله تعالى نبيه بذلك فأطاع ونفذ أمره. وكل كلام آخر لا يعد إلا تحريفًا وتضليلاً من قبل أعداء الدين من أمثال "فولتير" في السابق وأمثال "غولتسهر" في التاريخ القريب. فالسيناريوات المختلفة من قبل هؤلاء لا تلائم أبدًا أبطالها.. لا تلائم لا الرسول ﷺ ولا زيدًا ﷺ ولا زينب رضي الله عنها، بل هي بعيدة عنهم بُعد ما بين المشرقين رغم قيام بعض المسلمين بيننا بلعب بعض الأدوار الثانوية في هذه المسرحية المعدة من قبل الأعداء، ندعو من الله أن يهديهم.

كنا قد بدأنا بحثنا بالقول بأن جميع الأنبياء معصومون، أما رسول ﷺ فهو سلطان المعصومين وأعطينا أمثلة على ذلك، علمًا بأن عصمته أبعد بكثير مما شرحنا، ولم نستطع أن نتناولها إلا بحدود قابلياتنا المحدودة. كان ما قلناه حتى الآن يتناول عصمة الرسول ﷺ وعفته وبعده عن الذنوب، والآن سنتناول هذه العصمة من زاوية أخرى، من زاوية زهده وتقواه وخشيته لله تعالى وشعور العبودية والعبادة عنده، لكي نعرض على الأنظار بعض أبعاد ارتباطه بالعالم الآخر وبربه.

الفصل الرابع: انعكاس العصمة في حياته ﷺ

أ- زهد الرسول ﷺ وتقواه

كان رسولنا ﷺ أزهد الزاهدين، ولم يكن هناك شخص أبعد منه عن الشك والشبه، وكل حركاته وسكناته كانت قد وُزِنَتْ وضبطت على هذا الأساس، فالخوف من الله تعالى والخشية منه كان بالغًا عنده أقصاه حتى ليكاد قلبه يقف من هذه الخشية والرهبة.. كان يملك قلبًا حساسًا إلى درجة أن دمعه كان على الدوام جاريًا على خده.. كان كالبحر عندما يهدأ وكالسيل العارم عندما ينفعل.

لذا، يكون من الغفلة وعدم الاحترام والضلال عن الحقيقة التقييم الخاطئ للآيات السابقة وإظهاره أنه كان يمكن أن يميل إلى الدنيا أو يقترب من أي ذنب. والله تعالى حفظه في مكان سامٍ بحيث لا يمكن أن تصل إليه ذرة من الوحل الذي أراد أعداؤه أن يلوثوا ثيابه الطاهرة به، ذلك لأن خشيته من الله وزهده كانا يتناقضان مع أي ميل له نحو أي ذنب. وهنا نريد أن نلم إلمامة حفيفة بالأبعاد العميقة لعالمه هذا:

فالزهد يعني ألاّ تفرح حتى ولو ملكت العالم بأسره، وألا تأسف ولو خسرت الدنيا كلها وأضعتها من بين يديك.. كان في الذروة من مثل هذا الزهد.. فلو أصبحت الدنيا كلها له لما فرح بأمتلاكها قدر فرحه بالعثور على حبة شعير واحدة، ولو ضاعت هذه الدنيا منه في لحظة واحدة لما حزن عليها حزن من فقد حبة شعير واحدة.. كان قد ترك الدنيا قلبيًا.. ولكن هذا لا يعني ترك الدنيا وهجرها من ناحية الكسب والمعاش، ذلك لأنه هو الذي علمنا أفضل طرق الكسب الحلال، لذا لا يمكن تصور قيامه بتحريض الناس على ترك الدنيا وهجرها. هجر الدنيا يجب أن يكون قلبيًا، وأفضل دليل على هذا أن الدولة التي أنشأها الرسول ﷺ أصبحت من أغنى الدول وأقواها في وقت قصير، وكما قال أحد الكتاب فقد انبثقت خمس وعشرون دولة -كل دولة منها بحجم وقوة إمبراطورية- من الدولة الكبيرة التي أسسها الرسول ﷺ. أجل، هذا هو الأساس في الزهد.

لم يتغير رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول الذي خطا فيه إلى عالم النبوة النوراني وحتى اليوم الذي أقبلت عليه الدنيا راكعة بين يديه، بل إنه عندما توفي بعد إقبال الدنيا عليه كان يملك أقل

مما كان يملك عندما أتى إلى الدنيا، ذلك لأنه أنفق كل ما كان يملكه وفرقه على الآخرين.. انظروا إلى ما تركه.. ترك بضع معزات وبعض الغرف الصغيرة التي كانت زوجاته يعشن فيها.. هذه الغرف عادت للأمة بعد وفاتهن حيث ألحقت بالمسجد النبوي، وكما يعلم كل من ذهب إلى هناك أنها كانت غرفًا صغيرة يمكن حشرها في زاوية من المسجد.

١. نومه على الحصير

دخل عمر بن الخطاب ﷺ يومًا على رسول الله ﷺ فوجده مضطجعًا على حصير قد أثر في جنبه، ونظر إلى خزانته فرأى فيها قبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قَرَظًا في ناحية الغرفة وأَدَم[١] معلق فلم يملك عمر نفسه وبكى حتى سالت دموعه على خده، فقال له الرسول ﷺ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقال عمر: "وما لي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك؟" فقال الرسول ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[٢] ويقول رسولنا ﷺ في رواية أخرى: «ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استَظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها.»[٣]

جاء إلى الدنيا بمهمة معينة.. بفكر وإحساس ينفثان الحياة في الناس، وعندما انتهت مهمته غادر الدنيا، فهل يقبل العقل أن مثل هذا الشخص الذي زهد في الدنيا كل هذا الزهد يمكن أن يميل إلى شيء دنيوي؟ أجل، لم يمل إلى الدنيا أبدًا ولم ينحرف قيد شعرة نحوها.

٢. حساسيته نحو الصدقة

جاء في مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ وجد تحت جنبه تمرةً من الليل فأكلها، فلم ينم تلك الليلة، فقال بعض نسائه: يا رسول الله، أرقت البارحة؟ قال: «إني وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتها، وكان عندنا تمر من تمر الصدقة، فخشيت أن تكون منه.»[٤]

كانت الزكاة والصدقة محرمتين عليه، ولكن كان من المحتمل أن تكون هذه التمرة من التمر المهداة إليه، وكان هذا هو الاحتمال الأقوى، لأن أموال الصدقة والزكاة ما كانت

---

[١] قَرَظاً: ورق السَلَم يُدبغ به. أَدَم: هو الجلد الذي لم يتم دبغه بعد.

[٢] البخاري، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ مسلم، الطلاق ٣١.

[٣] الترمذي، الزهد ٤٤؛ ابن ماجة، الزهد ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠١/١.

[٤] المسند للإمام أحمد، ١٩٣/٢.

تبيت في العادة في بيته بل توزع بسرعة. فهل من الممكن لمثل هذا الشخص الذي يتصرف مثل هذا التصرف لأقل شبهة أن يقترب من إثم واضح وبيّن؟ كان يتصرف بحساسية شديدة تجاه أقل شبهة، ولا يقبل أي دنس -مهما كان ضئيلاً- في عالمه الروحي، فهل يمكن تخيل ضعف صاحب مثل هذه الإرادة القوية أمام أي إثم؟ كلا! لم يضعف أمام أي إثم، ولم يسمح لأي إثم أن يتسلل إلى روحه، فبقيت روحه وإرادته على الدوام طاهرتين ونقيتين.. هكذا عاش.. وهكذا التحق برفيقه الأعلى.

٣. شيبتني هود وأخواتها

قال أبو بكر ﷺ يومًا لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله! قد شِبْتَ." قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت.»[١] فقد قيل له في سورة هود ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود:١١٢). هذه الاستقامة عينها الله تعالى لرسوله ﷺ وطلبها منه. وفي سورة المرسلات نرى وصف الجنة وجهنم، ووصف الزمر التي تذهب إلى هنا أو هناك، ووصف المنظر المرعب الذي يطير بالألباب، كما تصف سورة الواقعة هذه الزمر وتضعها أمام الأنظار، كانت هذه الصور المعروضة في هذه الآيات تأخذ بلب الرسول ﷺ وتشيبه.

٤. نظرته إلى الآخرة

كان أحد الصحابة يقرأ القرآن بصوت عال، وعندما وصل إلى آية ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا ۞ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (المزمل:١٢-١٣) مر رسول الله ﷺ أمام بيته وسمعه وهو يقرأ هذه الآيات، فصعق واصفر وجهه وكاد يقع على الأرض مغشيًا عليه.[٢]

ولو كان هناك إنسان لا يجب عليه القلق من هذه الآيات لكان هو رسول الله ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكنه بكل عمل من أعماله وبكل تصرف من تصرفاته كان أسوة حسنة لأمته.

٥. رسولنا في النظر الإلهي

عن عبد الله بن مسعود ﷺ: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن» قال فقلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري»، فقرأت النساء

---

[١] الترمذي، تفسير القرآن (٥٦) ٦.

[٢] كنز العمال للهندي، ٢٠٦/٧.

حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٤١) رفعت رأسي، -أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي- فرأيت دموعَه تسيل.[١]

٦. تفكره

يروي ابن عمر ﷺ عن أمّنا عائشة رضي الله عنها وهي تصف أمر الرسول ﷺ وتبكي:

كل أمره كان عَجَبًا، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبَّد لربي»، قالت فقلت: والله إني لأحِب قربَك، وإني أحب أن تَعبَدَ لربك، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله ذنبك ما تقدم منه وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠)»، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» وفي رواية أخرى: «يا بلال! أفلا أكون عبدًا شكورًا؟.»[٢]

إذن، فرسول الله ﷺ كان يبكي ويذرف دموعًا ساخنة خشية ألا يكون قد وصل إلى ذروة مقام الشكر الذي يجب وصوله إليها، فهل تستطيع أن تتخيل أن إنسانًا مثله يمكن أن يميل إلى الإثم أو يقترفه؟

وكما كان الرسول ﷺ يبدي حساسية شديدة في عدم الاقتراب عما نهى عنه الله تعالى كان يبدي الحساسية نفسها في إطاعة الأوامر الصادرة إليه من ربه، فإذا نظرنا إلى عصمته من هذه الزاوية فقط فلا نحتاج على ما أظن إلى أي دليل آخر.

وفي الحقيقة لم يكن في طاقة أحد أن يعيش حياة كالتي عاشها الرسول ﷺ، ففي عبادته الفردية كان صارمًا ودقيقًا ولا يتهاون مع نفسه أبدًا، فكأن حياته كلها نُظمت وخططت على أساس العبادة، فلم تكن هناك لحظة واحدة عنده دون عبادة، ولا نقصد بالعبادة الصلاة والصيام وغيرها، فكل عمل عمله كان يحمل فقه شعوره بالعبادة وإحساسه بها.

لقد قلنا عنه إنه كان "سلطان الزاهدين" أو "أزهد الزاهدين".. قلنا هذا لأنه قصارى ما نستطيع التعريف به.. فمفردات اللغة كلها قاصرة عن وصفه.

---

[١] البخاري، تفسير سورة (٤) ٩؛ مسلم، صلاة المسافرين ٢٤٧-٢٤٨.

[٢] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٦٤/٢؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٩٧/٤.

٧. سبقه في الخير

يروي أحد الصحابة الرواية التالية: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصرَ، فسلّم ثم قام مسرعا فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم فرأى أنهم عجبوا من سرعته فقال: «ذكرتُ شيئا من تِبْر عندنا، فكرهت أن يحبسني فأمرتُ بقسمته.»[1]

هذا هو زهده وتقواه وعلاقته بالدنيا.. أن يعطي كل شيء ويقسمه على الفقراء دون أن يسمح بأن يبيت المال في بيته. لقد تمثلت له الدنيا مراراً لتجذبه إليها، ولكنه ردها على أعقابها.[2]

٨. بقاؤه جائعًا لأيام

كثيرًا ما كان يقضي أيامًا عديدة دون أن يضع في جوفه لقمة واحدة، علمًا بأنه لم يشبع طوال أيام نبوته من خبز الشعير، وقد تمضي أيام وأسابيع وأشهر دون أن توقد في بيته نار لإعداد حتى حساء بسيط.[3] رآه أبو هريرة ﷺ يومًا وهو يصلي -صلاة نافلة- جالسًا، فسأله بعد انتهاء الصلاة عن سبب صلاته جالسًا أيشتكي شيئًا؟ فكان جوابه شيئًا يمكن أن ينذهل منه الوجود كله.. كان جائعًا منذ أيام ولم تبق لديه قوة ولا طاقة للصلاة واقفًا.. كان الجوع قد هده.

يقول أبو هريرة ﷺ أنه عندما سمع جواب الرسول ﷺ بكي، فبدأ الرسول ﷺ يواسيه وكأنه قد نسي جوعه قائلاً له: «لا تبكِ، فإن شدة القيامة لا تُصيب الجائع إذا احتسب.»[4]

كان زعيمًا، وكان من بين رعيته من يبيت جائعًا، لذا كان على رسول الله ﷺ أن يكيف حياته حسب مستوى حياتهم. كان يعيش في مستوى أفقر أتباعه، عاش هكذا باختياره وبإرادته، ولو شاء لعاش حياة مرفهة، ولم يكن هذا بالشيء الصعب له، فلو لم يقم بتوزيع الهدايا التي كانت تأتيه وأبقاها عنده لكان ذلك كافيًا لعيشه حياة مرفهة وناعمة، ولكنه لم يفكر بهذا مطلقًا.

ولم يكن هذا يعني تركه أو ترك جماعته وأمته الدنيا وانعزاله عنها، فلم يكن الموضوع الدعوة إلى الاكتفاء بلقمة واحدة وبلباس خَلِق، فالإسلام لا يمنع الكسب والغنى، فإن

---

[1] البخاري، الأذان ١١٥٨؛ النسائي، السهو ١٠٤.

[2] انظر: المسند للإمام أحمد، ٢/٢٣١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ١/٣٠-٣١.

[3] البخاري، الرقاق ١٧؛ مسلم، الزهد ٢٩-٣٦؛ الترمذي، الزهد ٣٨.

[4] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٧/١٠٩؛ كنز العمال للهندي، ٧/١٩٩.

اغتنى أيّ شخص أعطى الزكاة التي أمر بها الله تعالى وتصدق، وليس هناك من أحد ضد هذا الكسب الحلال، بل على العكس فالإسلام حث وحرض على الكسب الحلال، ومع ذلك فقد كان من الضروري للرسول ﷺ وأصحابه المقربين إليه أن يضربوا الأمثلة التي ذكرنا قسمًا منها آنفًا لكي تبقى هذه الجماعة التي كانت تتوسع على الدوام وخرجت خارج نطاق المدينة ومكة.. تبقى صافية نقية مثل صفائها في اليوم الأول من بدء الدعوة، لأن هذه الجماعة لم تكن جماعة مرتبطة بالمعدة وبالحاجات الجسدية فقط، بل جماعة قلب وروح وإرادة ووجدان، وكان الرسول ﷺ يحافظ على قوة جماعته هذه بهذه الأسس الديناميكية، فكان يطبق على نفسه أولاً أي تضحية يطالبها من جماعته ليكون قدوة وأسوة لهم.

وها كم مثالا رائعا: بلغ الجوع من رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة مبلغًا كبيرًا حتى لم يستطع معه البقاء في المنزل فخرج، فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: "الجوع يا رسول الله!" قال: «وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا.»

فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التَّيِّهان الأنصاري وكان رجلاً كثير النخل والشاء، ولم يكن له خدم فلم يجدوه، فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء. فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة، وعندما رأى ضيوفه وضع القربة ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ويفديه بأبيه وأمه وقال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني. ثم انطلق فجاء بعذق فيه بُسْرٌ وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه. وأخذ سكينًا فقال له الرسول ﷺ: «إياك والحَلوب» فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذق وشربوا. فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر ﭬ: «والذي نفسي بيده لتُسْألن عن هذا النعيم يوم القيامة.. أَخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم.» ثم قرأ عليهم الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر:٨).[1] فلم يكن ينسى لحظة واحدة مقاييسه الحساسة أبدًا، لذا يستحيل أن يجد أي إنسان أي انحراف عنده أو ميل عن الحق.

يقول عمر بن الخطاب ﷺ -وكان من أقرب الناس إليه-: "لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي، ما يجد دَقَلاً[2] يملأ به بطنه."[3]

---

[1] مسلم، الأشربة ١٤٠؛ الترمذي، الزهد ٣٩.

[2] الدَّقَل: أردأ أنواع التمر.

[3] مسلم، الزهد ٣٦؛ ابن ماجة، الزهد ١٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢٤/١، ٥٠.

وكما قلنا سابقًا لو أراد رسول الله ﷺ لعاش هو وعائلته حياة مرفهة وناعمة، وكان يكفي لهذا القيام بالاحتفاظ بالهدايا الكثيرة التي كانت تأتيه كل يوم، غير أنه كان يوزع ما يأتيه ولا يُبقي في بيته شيئًا منها.[١] وعندما سئل لماذا لا يستفيد من نعم الدنيا قال: «كيف أَنْعَم وصاحب القَرْنِ قد التَقَمَ القَرْنَ واستمع الإذن متى يؤمَر بالنفح، فينفُخ.»[٢]

ب- تواضع رسولنا ﷺ

كان رسول الله ﷺ متواضعًا جدًا، فالتواضع علامة عند العظام على عظمتهم، والغرور علامة الصغر عند الصغار.. كان يكبر بنسبة تواضعه.. أجل، كان شخصًا عظيمًا، لذا كان متواضعًا، فهو القائل: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله.»[٣] وكان يقدم المثال العملي والمثال الحي من حياته، كان الجميع يشاهدون هذا التواضع الجم فيعرفون مدى عظمته وسموه.

لقد خسف الله تعالى الأرض بأصحاب الغرور والكبرياء.. ها هو قارون وها هو ثعلبة وها هو فرعون.. وغيرهم وغيرهم... أما الذين تواضعوا له فقد رفعهم إلى أعلى عليين.. ها هو موسى عليه السلام وها هو عيسى عليه السلام، وها هو إبراهيم عليه السلام وها هو محمد ﷺ.

كان تواضعه عميقًا مذهلا، فهو عبد الله ورسوله يؤدي فروض عبوديته لله تعالى في الليل وفي النهار، ويوصي بالاعتدال حتى في أداء فروض العبادة ويقول: «فسددوا وقاربوا.»[٤] الإفراط أو التفريط -سواء في العبادة أو في غيرها- ليس هو سبيل رسول الله تعالى الذي كان رجل الاعتدال والتوازن والاستقامة، ثم أليس طلبُ الاستقامة هو الدعاء الذي يكرره المؤمن في صلواته الخمس؟ هذا هو طريق وصراط الأنبياء والصديقين والشهداء، فمن أراد أن يرافقهم يوم القيامة ويكون معهم فعليه أن يسير في الدنيا علي آثارهم.

اليُسر هو روح الدين، فمن أراد جعل الدين صعبًا لا يطاق انسحق هو تحت هذا الثقل، بينما الدين المعيش في دائرة الاستقامة سهل ويسير ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: «إن الدين يُسر، ولن يُشادَّ هذا الدينَ أحد إلا غلبه.»[٥]

---

[١] البخاري، بدء الوحي ٥، الصوم، ٧؛ مسلم، الفضائل ٥٠.
[٢] الترمذي، صفة القيامة ٨؛ المسند للإمام أحمد، ١/٣٢٦، ٣/٧.
[٣] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٠/٣٢٥؛ كنز العمال للهندي، ٣/١١٣.
[٤] البخاري، الإيمان ٢٩؛ مسلم، صفات المنافقين، ٧٨.
[٥] البخاري، الإيمان ٢٩؛ النسائي، الإيمان ٢٨.

الدين هو ما عاشه الرسول ﷺ وما أراد أن يُعاش وحسب ما في وسع الإنسان أن يعيشه «قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»، فلو عبد الإنسان ربه ليل نهار، أو كان مثل الأسود بن يزيد النخعي أو مسروق أو طاووس في العبادة فلا ينجو يوم القيامة بعمله وبعبادته لأنها لن تكون كافية.

ما إن سمع الصحابة هذا الحديث الشريف حتى تبادر الرسول ﷺ إلى أذهانهم، لأن وضعه خاص جدًا فقالوا: "ولا أنتَ يا رسول الله؟" فأجاب بكل التواضع الذي يجب أن يتحلى به العبد الرسول أمام الله تعالى: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل.»[1] هكذا كان تواضعه، بهذا العمق وبهذه القوة والإصالة.

والآن لننتقل من صفة التواضع عنده إلى صفة عبادته. يقول في حديث له: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي.»[2] هكذا سيقيم الله تعالى شفاعة نبيه ﷺ يوم القيامة، وألا نعلق نحن آمالنا على هذه الشفاعة؟ نقر بذنوبنا ولكننا نرجو أيضًا عفو الله تعالى وشفاعة رسوله ﷺ لنا.. نحن مذنبون.. ولكننا لم نعبد سواه.. لم نكن عبادًا لأحد سواه، وكما قال جلال الدين الرومي رحمه الله:

من بنده شدم بنده شدم بنده شدم	من بنده بخدمت سرافكنده شدم
هر بندكه آزاد شود شاد شـــود	من شـــاد ازآنم كه ترابنده شدم

أي: أصبحت عبدًا.. أصبحت عبدًا.. أصبحت عبدًا. أحنيت ظهري في خدمتك، يفرح العبيد حينما يُعتقون.. وأنا أفرح لكوني عبدًا لك.

ونؤمن أنه كما سيسعف الله تعالى دعاءنا وتضرعاتنا، فإنه عندما تأزف ساعة شفاعة رسولنا سيسعف طلبنا وسيشفع لنا، لذا فإننا ندق باب شفاعته مرة أخرى قائلين له: "الشفاعة يا رسول الله!" سيشفع رسول الله ﷺ لأصحاب الكبائر من أمته، ونحن أيضًا نرجو شفاعته، ولا أظن أن من بينكم من لا يرجو ذلك، إذن، فعلينا جميعًا أن نطلب منه هذه الشفاعة، ولا يشكن أحد في سماعه لنا، لأننا عندما نقرأ "التحيات" نقول: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته"، فكيف نخاطبه بهذا الخطاب المباشر إن كان لا يسمعنا؟ إذن، فهو يسمعنا، ولهذا طلب الله تعالى منا أن نخاطبه في الصلاة مثل هذا الخطاب المباشر.

---

[1] البخاري، الرقاق ١٨، المرضى ١٩؛ مسلم، صفات المنافقين ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٦.

[2] أبو داود، السنة ٢١؛ الترمذي، القيامة ١١؛ المسند للإمام أحمد، ٢١٣/٣.

وبينما يوسع الرسول ﷺ ساحة شفاعته هذا التوسيع نراه في حديث آخر -وهو الحديث الذي نريد الوقوف عنده- يبدأ أولاً بمخاطبة أقربائه بدءً من أبعدهم حتى أقربهم إليه عندما نزلت آية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤). فيقول لهم: «يا معشر قريش! -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا. يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئًا. يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئًا. ويا فاطمة بنتَ محمدٍ! سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا.»[1]

في ذلك العهد كانت القبائل تفتخر عند ظهور شاعر بينها، لذا فإن هذا الكلام من رسول الله ﷺ يدل على مبلغ تواضعه، فهو لم يكن مجرد شاعر أو محارب، بل خاتم الرسل وسيد الأنام، ومع ذلك كان يقول لقومه وعشيرته بأنه لن يغني عنهم من الله شيئًا، وكان يمنع بذلك قومه وعشيرته من التفاخر على الناس والنظر إلى أنفسهم على أنهم أفضل منهم وأعلى على أساس أن رسول الله ﷺ منهم، بل قام بتنبيههم إلى مسؤولياتهم: بدأ بخطاب أبعد القبائل عنه، ثم تدرج في الخطاب حتى وصل إلى عمته صفية رضي الله عنها قائلاً: «يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئًا.»

كانت صفية رضي الله عنها أخت عمه حمزة رضي الله عنه، وعندما استشهد حمزة في معركة أُحد أرادت أن ترى أخاها، فرغب الرسول ﷺ في منعها لظنه بأنها لن تحتمل رؤيته وهو على تلك الحال، ولكن هذه المرأة الشجاعة أرادت أن تراه.. ترى أخاها الشهيد الواصل روحه إلى الله تعالى، فذهبت ورأت الجسد الطاهر والممزق لأخيها. أجل، كانت امرأة قوية الإرادة، صلبة العزيمة، وكانت والدة الزبير رضي الله عنه الذي قال الرسول ﷺ في حقه أنه حواريه،[2] وجدة عبد الله بن الزبير الذي استشهد وصلب وهو يدافع عن الكعبة ضد الحَجّاج الظالم،[3] وعلاوة على هذا كله كانت عمة رسول الله ﷺ، ومع ذلك خاطبها الرسول ﷺ بذلك الخطاب.

أجل، كان رسول الله ﷺ رجل حزم وتدبير ورجل توازن، فلم يقل -مثلما قال بعض الغافلين- أنه سيمد يده يوم القيامة إلى الجميع، بل لم يقل أنه سيمد يده إلى أقرب الناس

---

[1] البخاري، الوصايا ١١، تفسير سورة (٢٦) ٢؛ مسلم، الإيمان ٣٥١-٣٥٢.

[2] البخاري، الجهاد ٤٠-٤١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٤٨.

[3] الإصابة لابن حجر، ٣٠٩/٢-٣١١؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٢٤٤/٣.

إليه، إلى فاطمة رضي الله عنها فلذة كبده، فقال لها ما قاله لغيرها: «ويا فاطمة بنت محمد! لا أغني عنك من الله شيئًا.»[1]

فاطمة ابنته هذه التي تزوجت مبكرًا من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والتي توفيت وعمرها خمس وعشرون سنة، والتي جاء من نسلها جميع الأولياء والأصفياء.. فاطمة هذه نشأت في بيت كان ينهمر إليه الوحي انهمار المطر الغزير، والتي قال الرسول ﷺ في حقها: «فاطمة بَضْعَة مني»[2] وهي سيدة نساء أهل الجنة.[3] ومع كل هذا فقد خاطبها الرسول ﷺ بالخطاب نفسه «يا فاطمة بنت محمد! لا أغني عنك من الله شيئًا»

إذن، فإنسان مثل هذا لم يقصر في إبداء العبودية والخضوع والأدب تجاه ربه، والمتواضع إلى هذه الدرجة الذي لم يعتمد على عمله ولم يضع كل أمله فيه أزهد الزهاد وأكثر الناس خشية لله تعالى، والذي كان يعرف معنى الآخرة أفضل من كل إنسان آخر، أيمكن أن يكون هناك أي احتمال انحراف أو مقارفة إثم، أو خروج عن خط الاستقامة الذي رسمه له؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

ج- عبودية رسولنا ﷺ

عبادته! عبادته! إن الشخص الذي يتأمل عبادته ﷺ سيظن بأنه لم يفعل في حياته شيئًا سوى العبادة، ولم يقم بأي عمل آخر في حياته، بل انصرف إلى العبادة وحدها، كان هذا مبلغ أبعاد عبادته، وليس هذا بالشيء المستغرب، فقد كان السَّبَّاق دائمًا في كل عمل خير وفي كل عمل جميل، فلم يستطع أحد الاقتراب منه في أي من هذه الأعمال والساحات. كلا، لم يكن في طوق أحد الوصول إليه في أي مجال من مجالات الخير والجمال.

كان خشوعه وعبوديته في صلاته عميقة إلى درجة أنه يكاد لا تكون هناك صلاة لا يذرف فيها الدموع. يقول الصحابة إن الرسول ﷺ عندما كان يصلي يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل، عن مطرف عن أبيه قال: "أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أَزِيز كأزيز المِرْجَل" يعني يبكي.[4]

كان شعوره بمسؤوليته كعبد قد جعل جوفه كالمرجل الذي يغلي. كانت الصلاة شيئًا

---

[1] البخاري، الوصايا ١١، تفسير سورة (٢٦) ٢؛ مسلم، الإيمان ٣٥٠-٣٥١.
[2] البخاري، فضائل أصحاب النبي ١٢، ١٦؛ مسلم، فضائل الصحابة ٩٣-٩٤.
[3] البخاري، فضائل أصحاب النبي ٢٩؛ الترمذي، المناقب ٣٠.
[4] النسائي، السهو ١٨؛ أبو داود، الصلاة ١٥٧؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥/٤-٢٦.

يشتهيها بقوة، فلم تكن هناك لذة تعادل لذة الصلاة لديه، لذا قال مرة: «حُبِّب إليّ من الدنيا: النساء، والطِّيب، وجُعل قُرّة عيني في الصلاة.»[1]

المرأة أكثر العناصر جذبًا لاهتمام الرجل، فقد أودعت هذه الغريزة وهذه الشهوة في نفس آدم عليه السلام عند خلقه، والشهوة هي الأجر المعطى مقابل إدامة النسل، ولولاها لما فكر أحد بإدامة نسله، ذلك لأن النتائج الأخرى لعلاقة الرجل بالمرأة ليست إلا تكاليف شاقة، وحب البنين وحده ليس كافيًا لإدامة النسل، لذا فقد خلق الله تعالى الشهوة لكي يميل الرجل إلى المرأة وتميل المرأة إلى الرجل، وليس في إمكان أحد مغالبة هذا الميل أو الخلاص منه، ولو كان ذلك بالإمكان لاستطاع آدم عليه السلام تجاوزه، لذا فالرسول ﷺ يتحدث هنا عن الشعور الفطري هذا، ويقول «حُبِّب إليّ من الدنيا: النساء.. الخ»، فهو النبي الذي يعرف أنه مصبوغ بصبغة الفطرة، إذ لا رهبانية في دينه، وعندما سمع أن بعض أصحابه قال: أمّا أنا فإني أصلي الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. عندما سمع هذا قال ﷺ: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.»[2]

كان إنسان توازن صحيح، وجاء بمبادئ واضحة وموضوعية، جاء بالشريعة الحنيفية السمحة، بدين يستطيع الجميع تطبيقه، فلم يأت لفئة خاصة، ولا لجماعة قليلة، جاء للجميع وكانت رسالته تحتضن الجميع.

وإذا أتينا إلى الطيب نرى أن النفوس الحساسة تستطيب الروائح العطرة. والأنبياء فقط هم الذين يستطيعون الوصول إلى درجة "النفس الصافية"، ورسولنا ﷺ كان في ذروة هذه الدرجة وهذا المقام، فجسده كان يسابق روحه في ليلة المعراج، فأينما وصل روحه وصل إليه جسده.

وأنا لا أريد الدخول هنا إلى نقاش حول كيفية معراجه ﷺ، ولكني أقول بأن جمهور العلماء يرون أن معراجه كان بالروح والجسد معًا. فجسده كان قد اكتسب نورانية وروحانية إلى درجة وصل بها إلى كل مكان وصل إليه روحه. قد يستطيع غيره أن يعرج بروحه في منامه، ولكن المعراج بالروح والجسد كان من نصيب سيدنا رسول الله ﷺ فقط. فهو بطل تلك الطريق، وسالك ذلك السبيل.

---

[1] النسائي، عِشرة النساء ١؛ المسند للإمام أحمد، ١٢٩/٣، ١٩٩، ٢٨٥.

[2] البخاري، النكاح ١؛ مسلم، النكاح ٥؛ المسند للإمام أحمد، ٢٨٥/٣.

الطيب هو غذاء الملائكة والروحانيين، ولأن رسول الله ﷺ كان له علاقة بذلك العالم الروحاني فقد أحبَّ الطيب الذي كان ينشرح به كثيرًا. لذا، فعندما يذكر أنه حبب إليه النساء والطيب فهو يشرح في جملة واحدة حاجة الروح والجسد معًا، ويشرح بعض صفاته.

غير أن هاتين الناحيتين هما من الحاجات الفطرية ومن مستوجبات الإنسان لأنه إنسان، لذا يشترك الناس الآخرون فيهما معه، أي أن حب النساء والطيب ليس مقتصرًا على الرسول ﷺ لأنهما من مستوجبات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويوجدان في معظم الناس، أما الأمر الثالث فيجب الوقوف عنده قليلاً لأن الرسول ﷺ يقول: «وجُعل قُرّة عيني في الصلاة.»

فكما نفرح إذا أخبرنا بمجيء أحب الناس إلينا ولا تكاد تسعنا الأرض من السعادة، فكذلك كانت مشاعر رسول الله ﷺ -ولكن بأضعاف مضاعفة- وهو يقف للصلاة. فمثلاً لنفرض أنه بقى بعيدًا عن فاطمة رضي الله عنها، فكم يفرح أن أُخبر بوصولها! كان فرحه لسماعه صوت الأذان يثير عنده فرحًا أضعاف هذا الفرح، ويسعد أضعاف هذه السعادة، لأن الصلاة كانت معشوقته وحبيبته وقرة عينيه.

ويروى حديث آخر يقوي هذا الحديث حيث جاء فيه: «إن الله جعل لكل نبي شهوة، وإن شهوتي في قيام الليل»[1] وهذا يعني: أنتم تقومون باتباع اللذائذ الجسدية المختلفة، وهذه اللذائذ تجذبكم إليها فتتبعونها، أما أنا فإنني ما إن أسمع الصوت الواعظ للوجدان وهو يقول لي: قم فقد حان وقت الصلاة حتى أغيب عن نفسي من الوجد فلا أملك إلا الوقوف للصلاة، فتكون أسعد اللحظات عندي في الليل هي اللحظات التي أؤدي فيها الصلاة.

كانت عبودية الرسول ﷺ وقوة ارتباطه بالحق تعالى واعترافه بالوحدانية الإلهية من العمق بحيث لم يستطع كثير من الناس إدراكه، وما الحديث الشريف السابق الذي نقلناه آنفا إلا مثال على ذلك.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللّهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.»[2]

وفي رواية أخرى تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه

---

[1] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٧١/٢؛ كنز العمال للهندي، ٧٨٥/٧.

[2] مسلم، الصلاة ٢٢٢؛ أبو داود، الصلاة ١١٨، الوتر ٥.

ذهب إلى بعض نسائه فتحسست ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن وإنك لفي شأن آخر.[١]

أجل، كان يقبل على الصلاة مثلما يقبل غيره على الشهوة. لنستمع إلى أبي ذر الغفاري ﷺ. قال أبو ذر ﷺ: صلى رسول الله ﷺ فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٨).[٢]

إذن، فقد قرأ وصلى حتى الصباح.. لم يكن يشبع من الصلاة، ولم يكن يعرف حدًا لحاجته إليها. والآن لنستمع إلى ابن مسعود ﷺ.. ابن مسعود هذا كان من كبار الصحابة، له أيادٍ بيضاء على مدينة الكوفة وعلى المذهب الحنفي، إذ تتلمذ عليه الكثير من العلماء أمثال علقمة وإبراهيم النخعي وحمّاد بن أبي سليمان (الذي كان أستاذ أبي حنيفة)، وكان بعض المسلمين يظنون أنه من آل بيت النبي ﷺ لما يرون من كثرة تردده وتردد أمه على النبي ﷺ.[٣] والذي قال فيه النبي ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد -فبدأ به- ومعاذ بن جبل وأُبيّ بن كعب وسالم مولى أبي حُذيفة.»[٤]

وعندما أرسله عمر بن الخطاب ﷺ إلى الكوفة كتب إليهم: "إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي فخذوا منه."[٥] كان نحيف الجسم دقيق الساقين، ولكنه كان بحرًا في العلم.[٦]

يقول ابن مسعود ﷺ في رواية عن ابن وائل ﷺ: صليت مع النبي ﷺ ليلةً، فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوءٍ، قلنا: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبي ﷺ.[٧]

ولكي نعرف لماذا همّ ابن مسعود بالقعود فإننا ننقل وصف صلاة الرسول ﷺ من صحابي آخر هو حُذيفة ﷺ إذ قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها ركعة، فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ، ثم ركعَ فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم» فكان ركوعه نحوًا

---

[١] مسلم، الصلاة ٢٢١؛ النسائي، عِشْرة النساء، ٤.

[٢] مسلم، الإيمان ٣٤٦؛ ابن ماجة، إقامة الصلاة ١٧٩؛ المسند للإمام أحمد، ١٤٩/٥.

[٣] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ١١٠-١١١.

[٤] البخاري، فضائل أصحاب النبي ٢٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ١١٦-١١٧؛ المسند للإمام أحمد، ١٦٣/٢.

[٥] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٧/٣.

[٦] المسند للإمام أحمد، ١١٤/١؛ أسد الغابة، ٣٨٨/٣-٣٨٩؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٢٤-١٢٩.

[٧] البخاري، التهجد ٩؛ مسلم، صلاة المسافرين ٢٠٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣٨٥/١-٣٩٦.

من قيامه، ثم قال «سمع الله لمن حمده» ثم قام طويلاً، قريبًا مما ركع ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجوده قريبًا من قيامه.[1]

ويروي لنا عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (إبراهيم:٣٦) وقال عيسى ﷺ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٨) فرفع يديه وقال: «اللّهم أمتي!.. أمتي!..» وبكى، فقال الله ﷻ: يا جبريل! اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك.[2]

قضى حياته في العبودية لله تعالى، وكانت الصلاة أحب شيء إليه وقرة عينيه، ألم يقل: «يبعث كل عبد على ما مات عليه.»[3] كان الموت مقدرًا عليه كأي إنسان فانٍ، ولكنه عاش حياته وهو يصلي حتى التحق بالرفيق الأعلى.

في أيامه الأخيرة ثقل عليه المرض حتى كان لا يستطيع فتح عينيه إلا بصعوبة وإلا بعد أن يصب على رأسه الماء، ولكنه ما إن يفتح عينيه ويعود إلى صوابه قليلاً حتى يسأل: «أصلّى الناس؟» كان كل فكره في الصلاة.. ويتكرر هذا عدة مرات.. لنقرأ ما جاء في هذا الشأن من كتب الحديث:

عن عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة قال: دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، ثقل النبي ﷺ فقال: «أصلّى الناس؟» قلنا: لا هم ينتظرونك. قال: «ضعوا لي ماء في المخضب» قالت: ففعلنا فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال ﷺ: «أصلّى الناس؟» قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: «ضعوا لي ماء في المخضب.» قالت فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: «أصلّى الناس؟» فقلنا لا هم ينتظرونك يا رسول الله ﷺ، والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة. فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس. فقال أبو بكر وكان رجلاً رقيقًا: يا عمر صلّ بالناس! فقال له عمر: أنت أحق بذلك. فصلى أبو بكر تلك الأيام، ثم إن النبي ﷺ وجد من

---

[1] مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٣؛ أبو داود، الصلاة ١٤٦-١٤٧.

[2] مسلم، الإيمان ٣٤٦؛ المسند للإمام أحمد، ١٤٩/٥.

[3] مسلم، الجنة ٨٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٣١/٣، ٣٣٦.

نفسه خفة فخرج بين رجلين -أحدهما العباس- لصلاة الظهر -وأبو بكر يصلي بالناس- فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ بألا يتأخر قال: «أجلساني إلى جنبه» فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي ﷺ والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ قاعد. في أيام مرضه الأخير صلى الرسول ﷺ صلاتين فقط في المسجد، كانت هذه الصلاة الأولى، أما الصلاة الثانية فصلاها خلف أبي بكر.[١]

إذن، فهذا هو مبلغ اهتمام الرسول ﷺ بالصلاة وبالجماعة، إذ جاء إلى المسجد وهو لا يستطيع السير بل يجر قدمه جرًا مستندا إلى ذراع العباس وعلي.

يرى أحمد بن حنبل أن صلاة الجماعة "فرض عين"[٢] لأن الله تعالى يقول ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة:٤٣). ويعد بعض العلماء الجماعةَ من أركان الصلاة، فالصلاة دون جماعة لا تعد صلاة في رأيهم،[٣] بينما يرى الإمام الشافعي أن صلاة الجماعة فرض كفاية،[٤] وهي سنة مؤكدة حسب المذهب الحنفي،[٥] وبعض العلماء يعدونها واجبًا.[٦]

لا نريد هنا تحليل الموضوع فقهيًا، بل أردنا القيام بتذكير بسيط، لأن موضوعنا الأصلي هو عبودية رسولنا ﷺ ومدى تعلق قلبه بالصلاة وعمق هذه الصلاة عنده. فإذا كانت الصلاة تنهى أي إنسان مبتدإٍ بالصلاة عن الفحشاء، وتبعده عن المنكر فكيف بصلاة الرسول ﷺ؟ ألا تبعده عن كل سوء وكل إثم؟

تصف أمنا عائشة رضي الله عنها صلاة رسول الله ﷺ فتقول فيما تقول: "..يصلي أربعًا فلا تسألْ عن حُسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن."[٧] هكذا كانت تصف حسن وطول صلاة رسول الله ﷺ.

لو لم يكن هناك دليل على وجود الله تعالى سوى الصلاة التي كان الرسول ﷺ يصليها لكانت تلك دليلاً كافياً، فكأن الله تعالى كان يتجلى في صلواته تلك، أيمكن لصاحب مثل هذه الصلوات أن يقترب من أي ذنب أو إثم؟

كانت عبادته كلا كاملاً، فبينما كان يؤدي الصلاة بأفضل وأعمق شكل، لم يكن يهمل

---

[١] البخاري، الأذان ١٥١؛ مسلم، الصلاة ٩٠-٩٧.
[٢] الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري، ٤٠٥/١.
[٣] الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري، ١٦١/٥-١٦٢.
[٤] الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري، ٥٥/١.
[٥] الهداية للمرغناني، ٥٥/١.
[٦] شرح فتح القدير لكمال الدين محمد عبد الواحد، ٣٠٠/١.
[٧] البخاري، التهجد ١٦؛ مسلم، صلاة المسافرين ١٢٥.

العبادات الأخرى كالصوم مثلاً، إذ كان يصوم يومين في الأقل كل أسبوع، وكان صيامه يطول أحيانًا حتى يظنوا أنه لن يفطر، وكان أحيانًا يفطر كالآخرين، غير أن أيام صيامه كانت أكثر من أيام فطره.[1]

كان أحيانًا يصوم صوم الوصال، أي يبقى صائمًا دون إفطار عدة أيام، وكان الصحابة يرون صيامه هذا فيرغبون في تقليده، ولكن سرعان ما يكتشفون مدى صعوبته. وفي إحدى المرات نوى الرسول ﷺ صوم الوصال في الأيام الأخيرة لشهر رمضان ونوى بعض الصحابة ذلك أيضًا، ولكن ما إن استمر الصوم عدة أيام حتى أنهكهم الجوع وخارت قواهم، ولكن حلول العيد -الذي فرحوا به كثيرًا- أنجدهم، ولو استمر الصوم يومًا آخر أو يومين لما بقيت عند أحد منهم طاقة ولا قدرة على الدوام. وعندما رأى الرسول ﷺ هذا منهم ابتسم ونهى عن صوم الوصال رحمة بهم، فقيل له: إنك تواصل؟ فقال: «إني لست مثلكم، إني أُطعَم وأسقى.»[2]

وفي أيام شهر رمضان كان له شأن آخر في العبادة، إذ كان يكثر منها ويقضي يومه فيها.[3] ونادرًا ما كان يهجع فيها. كان الرسول ﷺ يصوم في أشد أيام الحر.. وفي كثير من المعارك كان صائمًا.. وكانت الحرب تشتد أحيانًا إلى درجة كبيرة، حتى أنه لم يبق صائما مع رسول الله ﷺ في إحدى هذه المعارك الضارية سوى عبد الله بن رواحة ﷺ،[4] ذلك لأنه كان يقول إن «الصيام جُنّة»،[5] أي وقاية وستر من الانزلاق إلى الآثام والمعاصي.

د- عالم أدعية الرسول ﷺ

١. الدعاء مخ العبادة

الدعاء هو العبادة،[6] والدعاء هو مخ العبادة،[7] والدعاء هو الرجوع إلى الرب والاتجاه نحوه، ولا يمكن الحديث عن العبودية دون الحديث عن الدعاء، ألا يقول الله تعالى: ﴿قُلْ

---

[1] البخاري، الصوم ٥٣؛ مسلم، الصيام ١٧٨؛ أبو داود، الصوم ٥٦.

[2] البخاري، الصوم ٤٩؛ مسلم، الصيام ٥٩.

[3] البخاري، ليلة القدر ٥؛ مسلم، الاعتكاف ٧.

[4] البخاري، الصوم ٣٥؛ مسلم، الصيام ١٠٨-١٠٩.

[5] البخاري، الصوم ٢، التوحيد، ٣٥؛ مسلم، الصيام ١٦٢-١٦٣.

[6] انظر: الترمذي، تفسير القرآن (٣) ١٦، ٤٠؛ ابن ماجة، الدعاء ١؛ المسند للإمام أحمد، ٢٦٧/٤، ٢٧١، ٢٧٢-٢٧٢.

[7] انظر: الترمذي، الدعاء ١؛ كنز العمال للهندي، ٦٢/٢.

مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَائُكُمْ﴾ (الفرقان:٧٧)، وألا يقول: ﴿أُدْعُونِي أستَجِبْ لَكُمْ﴾ (المؤمن:٦٠).

الدعاء علاقة قوية بين العبد وربه، وبتعبير آخر هو صورة عرض العبد نفسه على الله تعالى، فأي شيء يريده العبد ولا يستطيع الوصول إليه بقوته وبقدرته يلتجئ فيه إلى الله تعالى، والدعاء اسم هذا الالتجاء إلى القادر المطلق.

إن الدعاء الذي حصر في هذه الأيام في الصلوات الخمس أو في نهاية بعض العبادات وقُلّص من أهم حاجات وضرورات هذه الحياة وما بعد هذه الحياة أيضًا. لا يمكن تصور الحياة دون دعاء، الحياة التي نحياها عبارة عن الدعاء من أولها حتى آخرها. الدعاء هو شفرة الرضا الإلهي ومفتاح أبواب الجنة، والدعاء علامة العبودية الصادرة والمرتفعة من العبد نحو ربه، وعلاقة الرحمة الإلهية من الرب إلى العبد،[1] وبعبارة أصح هو بؤرة العلاقة بين العبد وربه. وهو عبادة من جهة، ومعراج علوي يربط عالم الدنيا بعالم ما وراء الدنيا، معراج مقدس يسمو بالإنسان نحو الله تعالى درجة درجة.

الدعاء هو سر رفيف يد الرحمة الإلهية فوق رؤوسنا، وهو مانعة الصواعق من الغضب الإلهي. الدعاء وسيلة عبودية مؤثرة في جلب الرحمة الإلهية ودفع الغضب الإلهي، وكثيرًا ما يبدأ الشعور والدعاء عند النقطة التي تنتهي فيها القدرة لدى الإنسان، مع أن الأفضل وجوده في كل آن ومنذ البداية. والحقيقة أنه لا يمكن تحديد نقطة بداية ولا نقطة نهاية للدعاء، لأنه لا توجد لحظة في حياة الإنسان لا يكون فيها في حاجة إلى الدعاء، لأن الإنسان الذي لا يبعد في أي لحظة عن تجليات ربه ورحمته لا يمكن أن يكون بعيدًا عن الدعاء، ذلك لأن الإنسان يصل إلى باب ربه بالدعاء ويتكلم هناك بالدعاء ويجلب الرحمة كأمطار السماء بالدعاء.

الدعاء من جانبنا هو طلب، فنحن نطلب كل حاجاتنا المادية والمعنوية من ربنا، غير أننا في كثير من الأحيان لا نعرف ماذا نطلب وكيف نطلب، ونتصرف بسوء أدب في موضوع الدعاء تجاه الله تعالى، إذ يرغب الداعي أن تجري الأمور التي يطلبها لا حسب القدر المطلق بل حسب إرادته ورغبته، لذا نرغب أن تتحقق رغباتنا بسرعة وبالشكل الذي نريده، وعندما لا تتحقق أدعيتنا نقع في اليأس ونعتقد بأنها ردت، وبتعبير أوضح فإننا نرغب أن تكون الإرادة الإلهية المطلقة تابعة لإرادتنا الجزئية، وهذا أمر يغاير آداب الدعاء. ومثل هذه

---

[1] انظر: الترمذي، الدعاء ٤١ أبو داود، الصلاة ٢٣؛ الفردوس للديلمي، ٢/٢٢٤.

الأدعية بعيدة من أن تكون رابطة بين الله وعبده. علمًا بأن رعاية شروط وآداب الدعاء وسيلة مهمة من وسائل إجابته، وربما كانت أهمها.

قد يرتفع الدعاء في بعض الأحيان كرغبة وشوق عارم من القلب.. في هذه الحالة لا يقول العبد شيئًا، وربما لا تتحرك شفتاه بالدعاء، ولكنه يعلم أن علام الغيوب مطلع على حاله، لذا يجتهد في البقاء في حال توكل واعتماد عليه، تمامًا كوضع إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار، فعندما انقطعت جميع الإمكانيات وجميع الأسباب جاء الأمر الإلهي: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩)، جاء هذا الأمر الإلهي في لحظة غير متوقعة لينجده وينقذه.

والشكل الثاني من الدعاء هو التعبير عن الأحاسيس القلبية بالكلمات وإيصالها إلى رب العالمين. هنا يعرض العبد حاله ولكنه لا يطلب شيئًا، وأحيانًا يعرض حاله ويعرض طلبه كذلك. وقد أورد القرآن الكريم هذين النوعين من الأدعية على لسان أنبيائه، فالمثال عن النوع الأول دعاء النبي أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٣)، وكذلك دعاء النبي يونس عليه السلام: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧)، والمثال على النوع الثاني هو دعاء زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران:٣٨).

إن اهتمام القرآن الكريم بالدعاء وقيامه بتعليم النبي ﷺ الأدعية التي يدعو بها يبين لنا أهمية هذه المسألة، ولولا هذه الأهمية أكان القرآن الكريم يؤكد في مئات من آياته على مسألة الدعاء بإصرار؟ وعلاوة على هذا نجد العديد من الأحاديث الشريفة التي تؤكد على أهمية الدعاء وتعلم الأمة الإسلامية كيف تدعو وماذا تدعو في مختلف شؤون حياتها، لذا فإن الإنسان يحتاج إلى التعبير عن أحاسيسه وأفكاره ورغباته في شكل أدعية بأفضل إسلوب وبأقل الكلمات الجامعة لمعان كلية وشاملة، والقرآن الكريم هو أفضل مساعد ومعاون للإنسان في هذا الشأن، ثم تأتي الأحاديث الشريفة بعده.

وهذا شيء طبيعي، فالله تعالى الذي يطلب منا أن ندعوه يعلمنا أيضًا كيف ندعوه. ولاشك أن الرسول ﷺ علم أفضل وأجمل هذه الأدعية وأكثرها تأثيرًا وبركة، لأنه أفضل من عرف ربه وأفضل من دق باب رحمة مولاه.

هو إنسان استقامة، علمًا بأن العبودية تعني الاستقامة، فالله تعالى يقول: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (يس:٦١)، وهو يشير إلى الحقيقة أعلاه. والرسول ﷺ كان إنسان توازن

في جميع حركاته وسكناته، فبينما كان يرسل الجيوش هنا وهناك لفتح العالم بأسره كان يحمل في الوقت نفسه مبدأ عدم إيذاء نملة واحدة.. استعان بالأسباب ولكنه لم يهمل الدعاء في أي وقت من الأوقات.

من أراد رؤية حياة انقضت في الدعاء ليل نهار وفي الابتهال وفي المناجاة فليمعن النظر في حياة رسول الله ﷺ.. ليمعن النظر لكي يرى معاني الدعاء وآداب الدعاء وما الذي يكسبه الإنسان منه من الناحية المادية والمعنوية لير ذلك وليعتبر.

قام المئات من المسلمين بجمع الأدعية المروية عن رسول الله ﷺ في كتب، وآخر ما طبع منها هو كتاب "مجموعة الأدعية المأثورة"،[1] وقد روعي في طبع هذا الكتاب جعله كتابًا صغيرًا وعمليًا. والذي يتصفح هذا الكتاب ويقرأ الأدعية المدرجة فيه يعلم أنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى الرسول ﷺ في موضوع الأدعية. فكأنه عاش كل لحظة من لحظات حياته وهو متوجه إلى الله تعالى بالدعاء، ولو قضى إنسان كل حياته لا يعمل شيئًا سوى الدعاء، لما تجاوز عدد أدعيته الأدعية التي رويت عن رسول الله ﷺ.

لقد تداخلت أدعيته مع كل شعبة من شعب حياته الكريمة، وأصبحت جزءً لا يتجزأ منها. لم تخل شفتاه ولا قلبه أبدًا في أي لحظة من الدعاء ومن الورد، فلم يستغن أبدًا عن شرب هذا الشراب الكوثري، كان إنسان عمل ونشاط دائب، ولكنه كان في الوقت نفسه إنسان عبادة ودعاء.

كان الصحابة رجال عبادة، ولكنهم عندما يحاولون السير معه في هذا السبيل لم يكونوا يستطيعون اللحاق به ويتعبون، أما هو فكان يغذ السير دون تعب ولا كلل، ذلك لأن الله خلقه لكي يسير دائمًا في المقدمة، وحتى في المعراج حاول جبريل أن يسير معه ولكنه وصل إلى نقطة وإلى موضع لم يستطع بعده مواصلة السير معه. أجل، كان إنسانًا سبق الملائكة في السير نحو الله تعالى.

كان في قمة منارة الدعاء والأحساس بالدعاء، لأنه كان يرمي ببصره من هذه القمة إلى عظمة ربه وجلاله وجماله بشوق لا يعرف الاكتفاء أو الشبع وهو يقول ويردد: «ما عرفناك حق معرفتك يا معروف!.» والاعتراف بعدم الإحاطة بمعرفة الله تعالى هو المعرفة، لذا قال أبو بكر ﷺ شاكيًا: "العجز عن الإدراك إدراك"، لأنه كان يتجول في أفق "هل من مزيد؟" على الدوام.

---

[1] وهو ضمن آثار المؤلف. (المترجم)

٢. باقة من أدعيته

لا نستطيع هنا تناول جميع أدعيته بالتحليل، لأننا لم نتناول هذا الموضوع إلا من زاوية الإشارة إلى عظمته، لذا سنكتفي بتناول بضعة نماذج من أدعيته.

أ - قبل النوم

النوم أخو الموت،[1] والإنسان المقبل على النوم يجب أن يتذكر هذا ويعرفه، ذلك لأن إغماضة عينيه عن الدنيا قد تكون الإغماضة الأخيرة، لذا يجب ألا يتمدد على فراشه غافلاً، بل مدركًا.

كان الرسول ﷺ عندما يقبل على النوم يقرأ أوائل سورة البقرة ثم الآيات الثلاث الأخيرة منها،[2] وآية الكرسي[3] وسورة يس[4] وسورة السجدة[5] وسورة الملك[6] ثم يقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاث مرات وسورة الكافرون مرة واحدة،[7] ثم ينفخ في يديه ويمسح بهما بدنه حتى نهاية ما تصل إليه يديه.[8] كما كان يقرأ أدعية أخرى لا نذكرها هنا مخافة التطويل، ويستطيع من يرغب الاطلاع عليها مراجعة الكتاب الذي ذكرناه وكتب مجاميع الأدعية الأخرى لمعرفة هذه الأدعية لتنوير حياته بها.

ب - عند دخوله الفراش

كان يقرأ عند دخوله الفراش سبحان الله ٣٣ مرة، الحمد لله ٣٣ مرة، الله أكبر ٣٣ مرة، وفي رواية ٣٤ مرة. ثم يقرأ أدعية كثيرة،[9] منها هذا الدعاء:

«اللّٰهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت»،[10] «اللّٰهم قني عذابك يوم تبعث عبادَك، باسمك أموت وأحيا.»[11]

---

[1] انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ٤١٥/١٠؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٩٠/٧.
[2] الدارمي، فضائل القرآن ١٤.
[3] الترمذي، فضائل القرآن ٢؛ الدارمي، فضائل القرآن ١٤.
[4] مجمع الزوائد للهيثمي، ٩٧/٧؛ المطالب العالية لابن حجر، ٣٦١/٣.
[5] الترمذي، فضائل القرآن، ٨؛ المطالب العالية لابن حجر، ٣٥٨/٣.
[6] الترمذي، فضائل القرآن، ٩، الدعوات ٢٢.
[7] أبو داود، الأدب ٩٨؛ الترمذي، الدعوات ٢١-٢٢.
[8] البخاري، الدعوات ١٢؛ الترمذي، الدعوات ٢١-٢٢؛ أبو داود، الأدب ٩٧-٩٨؛ ابن ماجة، الدعاء ١٥.
[9] البخاري، الدعوات ١١؛ مسلم، الذكر ٨٠.
[10] البخاري، الدعوات ٦-٧؛ مسلم، الذكر ٥٦-٥٧؛ الترمذي، الدعوات ١٦.
[11] مسلم، الذكر ٥٩؛ أبو داود، الأدب ٩٧-٩٨؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠٠/١، ٤١٤.

ثم يضع يده اليمنى تحت رأسه ويثني ركبتيه قليلاً وينام على جنبه الأيمن،[١] ناويًا قيام الليل، فقد عاش على الدوام وهو يحمل عاطفة الشوق والوجد لقيام الليل ليتذوق حلاوة المثول بين يدي خالقه في تلك الساعات من الليل.

جـ – دعاء التهجد

كان يزين قيامه لصلاة التهجد بهذا الدعاء: «اللّٰهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك نور السموات والأرض.»[٢]

قراءة هذا الدعاء في ساعات الليل البهيم تحمل معاني كثيرة، فالسماء تظهر في الليل بكل عظمتها وبهائها، والنجوم تومض بهدوء وبكل جمال، وتنساب المعاني إلى القلب الحي الذاكر، وتدخل الأرضُ في تناغم مع السماء في هذه الساعات ويرتفع الحمد لله تعالى الذي خلق هذه السموات والأرض.

يرى الكثير من العلماء أن أسم "القيوم" هو من الاسم الأعظم، وعندما كان النبي ﷺ يحمد الله تعالى كان يحمده في أحيان كثيرة بهذا الاسم لكي يستفيد من تجلياته ويستشفع به. المُلك والمِلك لله تعالى، لذا فهو الْمَلِكُ وهو المالك.

انظروا إلى صدقه وصدق عهده، ها هو يقوم ويجدد العهد الذي سبق وأن عاهده قبل نومه، أي قبل بضع ساعات فقط، ذلك لأنه كان راجعًا من العوالم التي كان يرتادها في أثناء نومه إلى عالم الشهود، لذا كان عليه أن يجدد عهده. ثم يقوم بتكملة دعائه السابق فيقول:

«ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقائك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق والساعة حق. اللّٰهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت -أو- لا إله غيرك.»[٣]

وعندما يقول "الحق" فإنه حسب قاعدة "مطلق الذكر ينصرف إلى الكمال" يعني بذلك الله تعالى، وبذلك يعلن الرسول ﷺ أن كل ما يأتي من الله (الذي هو الحق) حق.

يعرض استسلامه وتسليم كل أمره لله تعالى قبل نومه، وما إن يقم من النوم حتى يعلن

---

[١] أبو داود، الأدب ٩٧-٩٨؛ ابن ماجة، الدعاء، ١٥؛ المسند للإمام أحمد، ٤٠٠/١، ٤١٤.

[٢] البخاري، التهجد ١؛ التوحيد ٨، ٣٥؛ مسلم، صلاة المسافرين ١٩٩؛ المسند للإمام أحمد، ٣٥٨/١.

[٣] البخاري، التهجد ١؛ التوحيد ٨، ٣٥؛ مسلم، صلاة المسافرين ١٩٩؛ المسند للإمام أحمد، ٣٥٨/١.

ويجدد هذا مرة أخرى، وبذلك يبدأ يومًا آخر من حياته بهذا الاستسلام العميق لله تعالى وتفويض شأنه إليه وينهي دعاءه بذكر هذه الحقيقة "لا حول ولا قوة إلا بالله"، ذلك لأن الإنسان إن لم يستمد القوة من الله تعالى فلن يستطيع تحمل الأعباء الملقاة على عاتقه، فالإيمان والتوكل والاستسلام لله لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، فإن لم يشأ ولم يُعن فمن غيره يستطيع ذلك، لذا فكل إنسان محتاج إلى حول الله وقوته.

وبعد أن يعيش الرسول ﷺ في مثل هذا الجو الروحاني يقف للصلاة في ظلام الليل البهيم لكي يبلل أسدال الليل بدموعه. عندما كان يصلي وحده صلاة نافلة يكثر من الدعاء ويطول في صلاته،[١] وعندما يشرع في الصلاة يقرأ هذا الدعاء قبل سورة الفاتحة ويزيد فيها أحيانًا زيادات أخرى: «اللّهم لا مانعَ لِما أعطيتَ، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدُّ»،[٢] وكان أحيانًا يضيف بعد هذا الدعاء: «اللّهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللّهم نقني من الخطايا كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدنس»،[٣] ثم يقرأ بعد ذلك سبحانك، وبعد كل هذا التسبيح والتقديس ينتقل إلى قراءة سورة الفاتحة.

وفي الواقع هناك أدعية أخرى له كان يقرأها في صلواته هذه، غير أننا نحيل القراء الكرام إلى كتاب "مجموعة الأدعية المأثورة"، ونكتفي هنا بهذا القدر.

د – قيامه صباحًا

عندما يصبح كان يرطب شفتيه بهذا الدعاء: «اللّهم إني أصبحت أُشهِدُكَ وأُشهِد حملةَ عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلاّ أنت وأن محمدًا عبدك ورسولك.»[٤] يُشهد خلقَه.. الأشجار والأوراق وهمهمتها.. والمياه والشلالات والسيول ودمدمتها.. يشهد كل الخلق ويلحق هذه الشهادة بشهادته هو.. وترتفع هذه الشهادات كلها وتتجه نحو الله تعالى.

هذا الدعاء من الرسول ﷺ يبين مدى أفقه الواسع وشعوره وإدراكه العميق وطبيعة علاقته مع الحق تبارك وتعالى، ولو نطق غيره أيضًا بهذه الكلمات لما أدرك العمق الحقيقي لها مثله.

---

[١] البخاري، التهجد ١١٦؛ مسلم، صلاة المسافرين ١٢٥، ٢٠٣-٢٠٤.
[٢] البخاري، الدعوات ١٨؛ مسلم، الصلاة ١٩٤؛ الترمذي، الصلاة ١٠٨.
[٣] البخاري، الأذان ٨٩، الدعوات ٣٩؛ مسلم، المساجد ١٤٧.
[٤] أبو داود، الأدب ١٠١؛ الترمذي، الدعوات ٧٨.

يُشهد الرسول ﷺ الوجود كله، ولاسيما الملائكة المقربين وسكنة السموات المشرفين على الوجود، على توحيده لله تعالى وحمده له. ونفهم من إشهاد الرسول ﷺ للملائكة أنه عندما تريد دق باب العظماء فلا بد أن تبحث عن اليد التي تدق مطرقة الباب، لذا نجد شخصًا ذا فراسة مثل عمر بن الخطاب ﷺ يستسقي بالعباس بن عبد المطلب عام الرمادة في المدينة ويقول: "اللّٰهم هذا عم نبيك ﷺ نتوجه إليك به فاسْقِنا"، فما برحوا حتى سقاهم الله.[1]

كان هذا فراسة من عمر ﷺ، وقد أخذها من دعاء رسول الله ﷺ وإشراكه الملائكة في دعائه وتضرعه، وبالشعور نفسه يتضرع داعية العصر العظيم فيقول:

"إلهي! الذنوب أخرستني، وكثرة المعاصي أخجلتني، وشدة الغفلة أخفتت صوتي، فأدق باب رحمتك، وأنادي في باب مغفرتك بصوت سيدي وسندي الشيخ عبد القادر الكيلاني ونداثه المقبول المأنوس عند البواب بـ "يا من وسعت رحمته كل شيء، ويا من بيده ملكوت كل شيء، ويا من لا يضره شيء ولا ينفعه شيء، ولا يغلبه شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا يؤوده شيء ولا يستعين بشيء."[2]

من بين أدعية الرسول ﷺ في الصباح نجد هذا الدعاء أيضًا: «اللّٰهم فاطر السموات والأرض عالمَ الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أني أشهد أن لا إله الا أنت وحدك لا شريك لك..»[3]

والذي يجلب الانتباه في هذا الدعاء استعماله ﷺ لكلمة الفاطر مع وجود كلمات وأسماء أخرى مثل البارئ والخالق والجاعل، فبكلمة الفاطر كان يرمي إلى المعاني التالية: أنت الذي خلقت السموات والأرض حسب قوانين الفطرة، وأنت الذي أعطيت النظام، وهذا الوجه المشرق النظيف لهذه القوانين.

هـ - دعاؤه في المســـاء

بعد شروق الشمس وفي الساعات الأولى من الصباح كان يقرأ هذا الدعاء وعشرات غيره من الأدعية، وما أن تغيب الشمس ويسود الظلام حتى نراه يقرأ الدعاء الآتي الذي يكون له نورًا وضياء، فأماسي الرسول ﷺ منورة مثل أصباحه، وأدعيته كانت مثل القناديل لا يهمل أبدًا إيقادها: «اللّٰهم إني أمسيت أُشهدك وأُشهِد حملةَ عرشك وملائكتك وجميع

---

[1] البخاري، الاستسقاء ٣، فضائل أصحاب النبي ١١.

[2] حزب أنوار الحقائق النورية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٢٦٦.

[3] الترمذي، الدعوات ٩٤؛ أبو داود، الأدب ١٠١؛ المسند للإمام أحمد، ٤١٢/١.

خلقك أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدًا عبدُك ورسولك.»[١] كان كل ركن من أركان صلاته بمثابة سُلّم نوراني يصعد نحو العرش، وكان الدعاء درجات هذا السلّم.

كان جو تهيئه للصلاة ذا علاقة بالجو النوراني لصلاته، فعندما يدخل الخلاء كان يدعو، وعندما يخرج كان يدعو وعندما يبدأ بالوضوء يدعو، وعند غسله أعضاءه في الوضوء له أدعية أخرى، وبعد أن يتم الوضوء كان يدعو، ثم دعاء آخر بعد انتهاء الأذان، ودعاء آخر عند بدء الصلاة، ودعاء آخر عند ذهابه إلى المسجد، ودعاء عند خروجه منه.

بعد تكبيرة الافتتاح يدعو.. يدعو في ركوعه وقيامه وسجوده.. وبين السجدتين وعند جلوسه للتحيات.. وبعد انتهاء الصلاة بالسلام.. دعاء.. دعاء...

و - في أثناء الصلاة

بعد تكبيرة الافتتاح كان يقرأ الدعاء التالي: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونُسكي ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين. اللّٰهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.»[٢]

وعند ركوعه يدعو أيضًا، من أمثلة دعائه هنا: «اللّٰهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومُخّي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدميّ لله رب العالمين.»[٣]

وعند قيامه من الركوع يدعو: «اللّٰهم لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد.»[٤]

وفي السجود: «اللّٰهم لك سجدتُ وبك آمنت ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين. اللّٰهم اغفر لي ذنبي كله دِقّه وجُلّهُ وأوله وآخره وعلانيته وسره.»[٥]

ماذا يفعل الإنسان خارج الصلاة والعبادة؟ يأكل ويشرب، يقوم ويقعد، يضحك ويبكي،

---

[١] أبو داود، الأدب ١٠١؛ الدارمي، الاستئذان ٥٤.
[٢] مسلم، صلاة المسافرين ٢٠١؛ الترمذي، الدعوات ٣٢.
[٣] مسلم، صلاة المسافرين ٢٠١؛ أبو داود، الصلاة ١١٩؛ الترمذي، الدعوات ٣٢.
[٤] مسلم، الصلاة ٢٠٢-٢٠٣، صلاة المسافرين ٢٠١؛ الترمذي، الدعوات ٣٢.
[٥] مسلم، الصلاة ٢١٦؛ صلاة المسافرين، ٢٠١؛ الترمذي، الدعوات ٣٢؛ أبو داود، الصلاة ١١٩.

يفرح ويحزن، يتزوج ويكون صاحب أولاد وذرية، يلبس لباسًا جديدًا، يسافر أو يرجع من سفر، يجاهد ويقاتل ويرجع من القتال، يستلم خبرًا مفرحًا أو سيئًا من أحدهم، يقابل صديقًا يحبه، يمرض ثم يشفى، ينام ويرى منامًا مفرحًا أو كابوسًا...الخ من مئات الأعمال. كان للرسول الله ﷺ دعاء خاص لكل أمر من هذه الأمور ولكل عمل من هذه الأعمال، يدعو ويؤكد عبوديته لله تعالى في كل عمل من أعماله وفي كل خطوة يخطوها.

ثم هناك حوادث تجري خارج إرادة الإنسان وتكون ذات علاقة غير مباشرة معه، مثلاً حدوث قحط أو مجاعة أو انحباس المطر أو حدوث حريق أو سيل أو إعصار أو انتشار آفة.. هذه الحوادث مع كونها غير مرتبطة مباشرة بالفرد إلا أنها تؤثر فيه سلبيًا بطريق غير مباشر، وكان للرسول ﷺ أدعية يتوجه فيها إلى ربه في مثل هذه الأمور والآفات.

وكما قلنا في بداية الفصل بأننا لم نتناول هذا الموضوع لكي ننقل أدعية الرسول ﷺ، بل كانت غايتنا إظهار كيف أن أحدًا لا يستطيع الوصول إليه حتى في موضوع الأدعية، وأنه كان يقضي كل لحظة من حياته في الدعاء، ولاشك أنه لا يمكن الوصول إلى هذه النتيجة إلا بعد الاطلاع على جميع أدعيته، ولم نقدم هنا إلا نماذج قليلة وبنسبة أقل من واحد في الألف لكي نعطي فكرة سريعة حول الموضوع، أي أن ما قمنا به لا يعدو الإشارة إلى قطرات ماء مترشحة دليلاً على وجود عين فياضة.

أجل، نحن نؤمن ونعتقد بأنه ما من فضيلة إلا وهو السابق فيها سبقًا لا يدانيه فيه أحد، فهو في الذروة دائمًا، وقد حاولنا منذ بداية هذا الكتاب إثبات هذا وإقامة الدليل عليه، فإن قصرنا في شيء فالقصور يرجع إلينا وهو مبرأ من كل تقصير ومنزه عنه، لأنه الرسول المصطفى ﷺ.

ولأنه نوّر كل لحظة من لحظات حياته بالتوجه إلى ربه فلن يجد أحد أي لحظة مظلمة في حياته، فحياته كلها عبارة عن دعاء وعن تضرع وعن توجه لرب العالمين، وبهذه الضراعة والتوسل والدعاء سيقول يوم القيامة: «أمتي!.. أمتي!..»[1]

والحقيقة أن قلبي لا يطاوعني على إنهاء هذا الموضوع المتعلق برسولنا ﷺ، فكأنني - وأنا أتحدث عنه- قد دخلت في صحبته وفي جوه، لذا يصعب علي إنهاء هذا الجو، ولكن ما باليد حيلة، لذا سأنهي الموضوع بإيراد هذه الكلمات النيرة من داعي القرن العشرين والتي أوردها في حق الرسول ﷺ:

---

[1] البخاري، التوحيد ٣٦؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦.

"اعلم أن ذلك البرهان الناطق له شخصية معنوية عظيمة فإن قلت: ماهو؟ وما ماهيته؟ قيل لك: هو الذي لعظمته المعنوية صار سطح الأرض مسجده، ومكة محرابه والمدينة منبره. وهو إمام جميع المؤمنين يأتمون به صافين خلفه، وخطيب جميع البشر يبين لهم دساتير سعاداتهم. ورئيس جميع الأنبياء يزكيهم ويصدقهم بجامعية دينه لأساسات أديانهم. وسيد جميع الأولياء يرشدهم ويربيهم بشمس رسالته. وقطب في مركز دائرة حلقة ذكر تركبت من الأنبياء والأخيار والصديقين والأبرار المتفقين على كلمته الناطقين بها. وشجرة نورانية عروقها الحيوية المتينة هي الأنبياء بأساساتهم السماوية، وأغصانها الخضرة الطرية وثمراتها اللطيفة النيرة هي الأولياء بمعارفهم الإلهامية، فما من دعوى يدعيها إلا ويشهد له جميع الأنبياء مستندين بمعجزاتهم وجميع الأولياء مستندين بكراماتهم. فكان على كل دعوى من دعاويه خواتم جميع الكاملين، إذ بينما تراه يقول: "لا إله إلا الله" وادعى التوحيد فإنا نسمع من الماضي والمستقبل من الصفين النورانيين -أي شموس البشر ونجومه القاعدين في دائرة الذكر- عين تلك الكلمة فيكررونها ويتفقون عليها، مع اختلاف مسالكهم وتباين مشاربهم، فكأنهم يقولون بالإجماع: "صدقت وبالحق نطقت." فأنّى لوهم أن يمد يده لرد دعوى تأيدت بشهادات من لا يحد من الشاهدين الذين تزكيهم معجزاتهم وكراماتهم.

اعلم أن هذا البرهان النوراني الذي دل على التوحيد وأرشد البشر إليه كما أنه يتأيد بقوة ما في جناحيه نبوةً وولاية من الإجماع والتواتر، كذلك تصدقه مئات إشارات الكتب السماوية من بشارات التوراة والإنجيل وزُبر الأولين، وكذلك تُصدقه رموز ألوف الإرهاصات الكثيرة المشهودة، وكذلك تصدقه دلالات معجزاته من أمثال شق القمر ونبعان الماء من الأصابع كالكوثر ومجيء الشجر بدعوته، ونزول المطر في آن دعائه، وشبع الكثير من طعامه القليل، وتكلم الضب والذئب والظبي والجمل والحجر إلى ألف من معجزاته كما بينها الرواة والمحدثون المحققون. وكذلك تصدقه الشريعة الجامعة لسعادات الدارين.

واعلم أنه كما تصدقه هذه الدلائل الآفاقية، كذلك هو كالشمس يدل على ذاته بذاته، فتصدقه الدلائل الأنفسية، إذ اجتماع أعالي جميع الأخلاق الحميدة في ذاته بالإتفاق، وكذا جمعُ شخصيته المعنوية في وظيفته أفاضل جميع السجايا الغالية والخصائل النزيهة، وكذا قوة إيمانه بشهادة سيره، وكمال جديته وكمال متانته، وكذا قوة أمنيته في حركاته بشهادة قوة اطمئنانه تصدقه كالشمس الساطعة في دعوى تمسكه بالحق وسلوكه على الحقيقة.

اعلم أن للمحيط الزماني والمكاني تأثيرًا عظيمًا في محاكمات العقول، فإن شئت فتعال

لنذهب إلى خير القرون وعصر السعادة النبوية لتحظى بزيارته الكريمة ﷺ -ولو بالخيال- وهو على رأس وظيفته يعمل، فافتح عينيك وأنظر! فإن أول ما يتظاهر لنا من هذه المملكة شخص خارق له حسن صورة فائقة، في حسن سيرة رائقة، فها هو آخذ بيده كتابًا معجزًا كريما، وبلسانه خطابًا موجزًا حكيمًا يبلغ خطبة أزلية ويتلوها على جميع بني آدم، بل على جميع الجن والإنس، بل على جميع الموجودات.

فيا للعجب! ما يقول؟ نعم! إنه يقول عن أمر جسيم، ويبحث عن نبأ عظيم، إذ يشرح ويحل اللغز العجيب في سر خِلقة العالم، ويفتح ويكشف الطلسم المغلق في سر حكمة الكائنات، ويوضح ويبحث عن الأسئلة الثلاثة المعضلة التي أشغلت العقول وأوقعتها في الحيرة، إذ هي الأسئلة التي يسأل عنها كل موجود وهي: من أنت؟ ومن أين؟ وإلى أين؟

فإن شئت أن تعرف أن ما يحركه إنما هو قوة قدسية فانظر إلى إجراآته في هذ الجزيرة الواسعة.. ألا ترى هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة المتعصبين لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذ الشخص جميع أخلاقهم السيئة البدائية وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة وجهزهم بأخلاق حسنة عالية فصيّرهم معلمي العالم الإنساني وأساتيذ الأمم المتمدنة. فانظر! ليست سلطته على الظاهر فقط، بل ها هو يفتح القلوب والعقول ويسخر الأرواح والنفوس حتى صار محبوب القلوب ومعلم العقول ومربي النفوس وسلطان الأرواح."[1]

يا سلطان أرواحنا! لقد تربعتَ على عرش قلوبنا.. نقدم إليك أرواحنا فتقبل منا بفضلك.

---

[1] الكلمات لبديع الزمان سعيد النرسي، ص٢٥٥-٢٥٦.

كتَب الأستاذ النورسي هذا البحث باللغة العربية في كتابه "المثنوي العربي النوري" ثم ترجمه إلى التركية وجعله "الكلمة التاسعة عشرة". وعندما قام الأستاذ إحسان قاسم الصالحي بترجمة كتاب "الكلمات" إلى اللغة العربية احتفظ بالنص العربي الأصلي للمؤلف مع ما يستوجب من تقديم وتأخير وحذف وإضافة في ضوء النص التركي. (المترجم)

ملحق

السنة النبوية تقييدها ومكانتها في الشريعة الإسلامية

- الباب الأول : السنة ومهمتها
- الباب الثاني : تدوين السنة
- الباب الثالث : الصحابة الكرام والتابعون العظام

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

علم الحديث هو العلم الذي يعلمنا أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وأحواله. وقد عد كثيرون القسم التقريري من السنة ضمن أفعال الرسول ﷺ، ولن نقف عند هذا لأنه لا يهم موضوعنا كثيرًا.

والمقصود من أقوال الرسول ﷺ هو كلامه خارج الوحي المتلو، أما المقصود من أفعاله ﷺ فهو الأفعال الصادرة منه والتي نحن مكلفون باتباع الجزء الأعظم منها. ومع عدم وجود ضرورة شرعية لاتباع أفعاله المتعلقة بعاداته الشخصية، إلا أن اتباعها بنية خالصة يقلب عاداتنا إلى عبادات ويضفي عليها البركة والثواب.

ومع أن هذا النوع الثاني من الأفعال لا يدخل في علم الفقه، إلا أن علم الحديث وقف عنده واهتم به، فأحوال الرسول ﷺ تدخل في محتوى علم الحديث، ولا تدخل في علم الفقه، فالفقهاء يقولون: إن كانت أحوال الرسول ﷺ من نوع الأفعال الاختيارية فهي داخلة ضمن الأفعال النبوية أصلاً، ولكن إن كانت شمائله الشريفة وميلاده النبوي والزمان الذي بعث فيه والمكان الذي وجد فيه.. الخ مما جاء في كتب السيرة والتي تشكل أساسًا للأحكام الشرعية فهي لا تدخل ضمن مقاصد الفقهاء، ولا تكون من أسس التشريع، بينما يدخل كل ما يخص النبي ﷺ ضمن علم الحديث وضمن اهتمام أهل الحديث.

أما السنة: فهي كل قول أو فعل أو تقرير أضيف إلى الرسول ﷺ، وتعد عند علماء أصول الفقه مرادفة للحديث.

ولا نود الدخول إلى هذا الموضوع الواسع جدًا، بل ندعه لأهل الاختصاص، ونقتصر هنا على نظرة سريعة ومجملة على بعض المسائل المهمة المتعلقة بالسنة. السنة هي المنبع الإلهي الثاني للشريعة والذي احتفظ به المسلمون منذ العصر النبوي وحافظوا عليه بجانب كتاب الله وأقبل عليه كبار العلماء في كل عصر في كل شأن وفي كل مسألة.

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تأمر باتباع النبي ﷺ واتباع سنته إضافة إلى العديد من

الأحاديث الصحيحة التي بينت ضرورة هذا الاتباع، ومدى أهمية السنة في التشريع الإسلامي، ونستطيع أن نقول بأنها اتخذت أساسًا في الدين وفي الحياة الدينية بجانب القرآن الكريم في كل عصر إلا من قبل بعض المنحرفين القلة الذين لم يخل منهم أي عصر، وهي مرتبطة بالقرآن الكريم ارتباطًا قويًا بحيث لا تستطيع فصل القرآن عن السنة ولا فصل السنة عن القرآن.

تقوم السنة بتفسير مبهم القرآن وتفصيل مجمله وتقييد مطلقه وتخصيصِ عامه، وهذا سبب وعلة اقترانها بالقرآن الكريم واستحالة فصلها عنه.

تقوم السنة مثلاً بشرح الصلاة وأركانها وشروطها ودرجة صحتها أو فسادها وسننها وآدابها، وجميع تفاصيل الحج والتمتع والعمرة، والزكاة: نصابها، أنواعها، كيفية أدائها... الخ. كل هذه الأمور وغيرها جاءت مجملة في القرآن فقامت السنة بشرحها وتفصيل أدق أمورها. ومع أن أحكام المواريث جاءت عامة في القرآن، جاءت السنة بشروح لها فذكرت أن الأنبياء لا يورثون وأن القاتل يحرم من الميراث... الخ. من التفاصيل وأحكام التخصيص. كما أن هناك أحكامًا مطلقة كثيرة جاءت السنة فقيدتها، وأحكامًا ومسائل لم ترد أبدًا في القرآن بل جاءت بها السنة، فتحريم لحم الحمر الأهلية ولحم الحيوانات المفترسة وكذلك تحريم زواج ابن الأخ أو ابن الأخت من الخالات والعمات يمكن إيراده كأمثلة على هذا.

لذا، فقد رأت السنة بجانب القرآن منذ العصر الأول حتى اليوم اهتمامًا كبيرًا، وحوفظ عليها وسجلت ودرست وانتقلت مكتوبة من الأسلاف إلى الأخلاف.

كان رسول الله ﷺ يرى إطاعته واتباع سنته جزءً من الدين، ويريد من الشاهد تبليغ الغائب وانتقال سنته إلى الأجيال القادمة، ويوصي أصحابه بالرفق بالذين يأتون من أماكن بعيدة بقصد سماع الأحاديث، ويشجع على فهم أحاديثه جيدًا، لذا نرى أحيانًا يكرر كلامه ليساعدهم على فهم أحاديثه وحفظها.

لذا، نرى أن الصحابة الكرام -وقد عرفوا أنه بعث لتعليمهم وتربيتهم- يهتمون ليس فقط بالاستماع إلى أحاديثه المتعلقة بأسس الدين وقواعده، بل بكل تفصيل دقيق من تفاصيل حركاته وسكناته وحتى أموره الخاصة، ثم يكررون ما سمعوه منه فيما بينهم ويتداولون أحاديثه فيما بينهم حتى تنطبع في ذاكرتهم أو يسجلونها ويكتبونها. وكانوا يعدون كل كلام صادر منه ﷺ أبرك ذكرى وأفضل أمانة، ويجتهدون ألا تضيع حكمة واحدة منه، وقامت هذه الجماعة المباركة بحمل هذه الأمانة المقدسة في جو من الثقة والاطمئنان.

ثم إنهم ما كانوا يضيعون أي بيان أو ملاحظة أو توجيه، لأنهم كانوا يعرفون أنها توجيهات إلهية نورانية لا يمكن التفريط بها، وفيها نبع الحياة وسر الوجود.. القلوب صافية، والرسائل والتوجيهات الآنية نضرة وطرية، والقلوب مشتاقة، والأمور التي تتناولها هذه الأحاديث تتعلق بالسعادة الأزلية الخالدة، وما دامت هذه الأحاديث مفتاحًا للسعادة الأبدية فكيف يمكن التهاون في شأنها أو نسيانها أو خلطها مع غيرها. وهكذا كان، فقلوب هؤلاء النفر من الصحابة الذين أقاموا حياتهم على الصدق، وابتعدوا عن كل نوع من أنواع الكذب والغش لم تكن لترضى عن ضياع ذرة واحدة من الصدق، كما كانت مقفلة على جميع ما يخالف الحقيقة والصدق، وعلى فرض المستحيل فلو تدنى أحدهم إلى درك الكذب لتعالت المئات من أصوات الاستنكار والمعارضة وأخرست هذا الكذب وكانت إنذارًا للآخرين كذلك. وقد حدث ما يشابه هذا فعلاً تجاه بعض المتجرئين في حوادث نادرة.

أجل، لقد تكفل الصحابة الكرام بمهمة فهم السنة وحفظها، وذلك بتطوير طرق المحاكمة العقلية وطرق التحقيق وعرض كل ما يسمعونه على قواعد النقد، ويستنطقون الراوي ويريدون شهودًا على الرواية وبعد أن يمرروا الحديث على المحك يقوموا بكتابته وتسجيله.

ولم يكن عدد الصحابة الذين كانوا يسجلون ما يسمعونه عن النبي ﷺ قليلاً، حيث سجلت الأحاديث -مثلما سجل القرآن الكريم وكتب- ولكن بشكل غير رسمي وفي دفاتر خاصة. أما القول بأن تسجيل الأحاديث وكتابتها بدأ في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ فصحيح ولكنه ناقص، ذلك لأن ما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ كان تدوينًا رسميًا بأمر من الحكومة، ويشبه قيام أبي بكر ﷺ بجمع القرآن الكريم من حفظ حفاظ القرآن وكذلك مما كان مكتوبًا على الجلود وعلى الجريد وغيرها، وضم جميع سور القرآن ضمن دفتي كتاب واحد بشكل رسمي.

وإلا فإن كل ما كان يصدر عن النبي ﷺ كان يكتب ويسجل في عهده، ومن الأمثلة على هذا "الصحيفة الصادقة" لعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ والتي اشتهرت كثيرًا فيما بعد، و"الصحيفة" لهَمّام بن مُنَبِّه ﷺ و"المجموع" لزيد بن علي بن الحسين ﷺ، وقد أصبحت هذه الصحائف مصدرًا مهما عندما بدأ التدوين الرسمي للأحاديث.

وكما اهتم الصحابة بتسجيل الأحاديث وكتابتها، كذلك اهتموا بالحفاظ على أصلها اهتمامًا كبيرًا، فكانت أمنا عائشة رضي الله عنها تدقق هذه الأحاديث كلمة كلمة، وكان ابن عمر ﷺ يهتم بعدم تغيير حرف واحد عند رواية الحديث، أما ابن مسعود وأبو الدرداء رضي

الله عنهما وغيرهما من كبار الصحابة فكانوا يتحفظون جدًا من رواية الأحاديث وتصيبهم القشعريرة خوفًا أن تختلط كلمة من عندهم بكلمات الحديث.

وليس من المبالغة القول بأن التابعين أيضًا أبدوا هذه العناية وهذه الدقة وهذا الاهتمام بالأحاديث، ونستطيع أن نعد من هؤلاء سعيد بن المسيب والشعبي وعلقمة والثوري ﷺ. وفي العهود التالية ظهر علم تحقيق السند والمتن وتدوين علم الرجال بحيث صعب تسلل كلمة دخيلة إلى أصل الحديث، ولا أعتقد وجود أمة دققت المتون الدينية عندها مثلما فعلت الأمة الإسلامية.

المدخل

منذ أربعة عشر قرنًا نشعر أننا وراء سيد الأنام.. نستشعر هذا في أعماق وجداننا وخفقات قلوبنا وحنايا أضلاعنا.. شعور هو من العمق بحيث يخيل إلينا أحيانًا بأننا نحس في صدورنا بأنفاسه التي تحيي الرمم، وأننا لو خطونا خطوة واحدة فسنجده أمامنا.

لقد دخلت الدنيا إلى عهد من التغير والتبدل السريع.. سقطت النظم التي كانت تعادي فطرة الإنسان وتخالفها في مزبلة التاريخ، وبدأت الإنسانية تفيق وترجع إلى الدين من جديد بل تعدو نحوه عدوًا.. الأرثودوكس رجعوا إلى كنائسهم، والبوذيون إلى معابدهم والبراهمة إلى عقائدهم. لذا، كان من الطبيعي أن ترجع أمة محمد ﷺ إلى نبيها بعد أن بقيت سنوات طويلة حائرة هنا وهناك في ديار الغربة والضياع.

فكأن يد القدر الإلهي تناولت الحوادث التي جرت حتى النصف الأول من القرن العشرين ضدنا وأعطت لها وجهة جديدة، ووجهتها نحو رسول الله ﷺ، ففي جميع أنحاء العالم بدأت أمطار الرحمة ونسائم الرحمة تنزل وتهب، وبدأت السنابل الجديدة وأكمام الأزهار الجديدة تنمو وتتفتح من بين مخلفات الجليد والثلج والبرد السابق، ومن بين طيات الظلام أشرقت الأنوار التي طاردت الظلام وحصرته في الزوايا.

الجيوش المحمدية التي كانت تحمل معها النور والضياء إلى مختلف أنحاء العالم، والتي تركت منذ عصرين تقريبًا مهمتها، هذه الجيوش بدأت ترجع إلى معابدها التي سبق وأن تركتها وأهملتها، ترجع بكل فخر وبكل زهو غير مبالية بصرخات أعدائها الذين يحاولون إعاقة مسيرتها بالصياح والضوضاء.

أجل، في هذه الأيام تجري المحاولات لوضع البدائل للأنظمة الوضعية التي سبق وأن جاءت في ظل دعاية مكثفة واحتفالات صاخبة ولاسيما النظام الشيوعي الذي تلاحقه اللعنات الآن، إذ كما حاولوا في وقت من الأوقات إظهار "باسكال" و"برغسون" بديلاً عن موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وذلك تحت اسم الحياة المعنوية، فاليوم يحاولون وضع فكرة استحضار الأرواح وفكرة تناسخ الأرواح بديلاً عن الدين.

لقد كان لدى الإنسانية في جميع أدوارها التاريخية -كما يقول سلطان الشعراء[1]- منبعان: منبع نور، ومنبع وساخة. أجل، لا يختلف الوضع الآن عن أي وضع سابق، فالذين يريدون إحلال نظم عقيدية زائفة محل الدين لا يزالون يبذلون جهودهم في هذا السبيل. ولا يستغرب هذا منهم فهذا هو طبيعة نفوسهم، غير أن الغريب والشيء المستهجن هو قيام البعض عندنا بمحاربة السنة وجعل أنفسهم آلة بيد المستشرقين، إذ قاموا بنشر الشبه حول بعض الصحابة الكرام من أمثال أبي هريرة وأنس وعبد الله بن عمر ﷺ، ومثل هذه المحاولات تحاول المساس برسول الله ﷺ من طرف خفي، ولا يمكن التكهن بالأبعاد التي ستمضي إليها في المستقبل، فإذا امتدت هذه المحاولات إلى الرسول ﷺ، فلماذا لا تمتد أيضًا إلى جبريل ؑ، مثلما هو موجود في أحد المذاهب الباطلة؟

هذا، بينما السنة ضياء حياتنا ونورها، وهي المعالم والمصابيح التي تنير طريقنا التي تقودنا إلى رضا الله تعالى، ولا يستطيع أكبر الأولياء دونها أن يكون ذا فائدة كبيرة في إرشادنا في هذه الطريق الطويلة. ويعبر أحد الأولياء وهو الإمام الرباني عن هذا المعنى فيقول:

"لقد شاهدت في أثناء السَّير[2] بأن السنة النبوية تملك نورًا مختلفًا عن سائر الأنوار. أجل، فأنوار جميع الأولياء المنتشرة في الفضاء كانت تبدو خافتة بجانب نور أقل مسألة من مسائل السنة النبوية السنية"، ذلك لأن جميع الأولياء ليسوا إلا كواكب تحوم حول شمس النبوة الباهرة.. فنسبة أنوار الأولياء بالنسبة إلى النور النبوي هي بنسبة نور هذه الكواكب إلى نور الشمس. وكما قال صاحب "قصيدة البُرْدَة":

فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يُظهِرْنَ أنوارها للناس في الظُّلَم

أما الذين يريدون النيل منه وإخفاء نوره فلن يوفقوا، لأنه ما من أحد استطاع أن يستر الشمس بالغربال.. وستبقى السنة النبوية إلى الأبد هادية للبشرية.

---

[1] المقصود هو الشاعر نجيب فاضل (١٩٠٥-١٩٨٣) الذي كان يحمل لقب "سلطان الشعراء" في تركيا. (المترجم)

[2] المقصود هو السير في المراتب القلبية والصوفية. (المترجم)

الباب الأول

السنة ومهمتها

أ. ما السنة؟

السنة في معناها اللغوي هي الطريقة أو السيرة سواء أكانت حسنة أم سيئة، ففي الحديث الشريف: «من سنّ في الإسلام سُنّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّةً سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء.»[1]

ومعنى السنة عند المحدثين والأصوليين والفقهاء هو كما يلي:

فالسنة حسب المحدثين: هي كل ما انتقل إلينا من رسول الله ﷺ من قول أو فعل -سواء بني عليه عمل أم لا- أو نهي، وهي حسب المذهب الحنفي إما فرض أو واجب أو سنة أو مستحب أو هي من شمائل النبي ﷺ وطراز حياته. فالسنة بهذا المعنى مترادفة مع الحديث أو مرادفة له.

أما معناها حسب الأصوليين فمختلفة قليلاً فهي حسب رأيهم: كل قول أو فعل أو تقرير صادر عن رسول الله ﷺ، أي هي كل قول من رسول الله ﷺ وكل تصرف منه وكل تقرير أي كل ما رآه ولم يمنعه أو وافق عليه بسكوته.

أما السنة عند الفقهاء فهي مقابل البدعة في التشريع، أي ينظرون إليها من ناحية كونها تشكل أساسًا للفرض أو الواجب أو الحرام.

والحديث مصدر من "حدّث" أي أخبر، ثم أطلق على كل قول أو فعل أو تقرير صادر عن رسول الله ﷺ. يقول ابن حجر بأن الحديث في عُرف الشريعة كل شيء منسوب إلى الرسول ﷺ.[2]

---

[1] مسلم، الزكاة ٦٩؛ النسائي، الزكاة ٦٤؛ ابن ماجه، المقدمة، ٢٠٣.

[2] شرح شرح نخبة الفكر لعلي القاري، ص١٥٤.

وقد حدس بعض فحول العلماء من كلمة الحديث ما لم يكن إلهي الصفة أي ليس له صفة القدم والإيجاز، وهذا مهم من ناحية الإشارة إلى بدء نقاط الافتراق بين القرآن الكريم وبين السنة. ويؤيد هذا ماجاء في إحدى الأحاديث الواردة في سنن ابن ماجه حيث يقول الرسول ﷺ: «إنما هما اثنان: الكلام والهَدْيُ، فأحسن الكلام كلام الله وأحسن الهَدْيِ هَدْيُ محمد.»[1]

١) أنواع السنة

نستطيع أن نرجع السنة بعد تعريفها إلى هذه الأنواع:

أ- السنة القولية

أي الأحاديث الكريمة الصادرة عن الرسول ﷺ، فالأحاديث النورانية هذه تكوّن جزءً من السنة، وهي البيانات التي لم ترد في القرآن الكريم ولكن أخذت في كتب الفقه كأسس لكثير من الأحكام. ونستطيع أن نذكر أمثلة على هذا:

١. يقول الرسول ﷺ: «لا وصية لوارث»،[2] أي لا يستطيع من يخلف مالاً لورثته أن يوصي ببعض ماله لوارث دون آخر. يستطيع أن يتبرع بجزء من ماله على ألاّ يزيد عن الثلث للمؤسسات الخيرية ولكنه لا يستطيع تعيين المقادير التي يأخذها كل وارث من الميراث، بل الكتاب والسنة هما اللذان يعينان هذه المقادير.

٢. هناك حديث آخر دخل ضمن أصول الفقه ومبادئه وهو قوله ﷺ: «لا ضَرر ولا ضِرار»،[3] أي لا يجوز الإضرار بأحد ولا مقابلة الإضرار وبالإضرار.

٣. وحديث آخر عن مقدار الزكاة في الزرع: «فيما سقت السماء والعيون العُشر، وما سقي بالنضح نصف العُشر.»[4] وما سقى بالنضح: أي ما سقي بواسطة الحيوانات.

٤. عندما سئل الرسول ﷺ عما إذا كان من الجائز التوضؤ من ماء البحر أجاب بجواب أصبح مصدرًا للمئات من الفتاوى إذ قال: «هو الطُّهور ماؤه الحِلُّ مَيتته.»[5]

---

[1] ابن ماجه، المقدمة، ٧.

[2] الترمذي، الوصايا ٥؛ النسائي، الوصايا ٥؛ ابن ماجه، الوصايا ٦.

[3] ابن ماجه، الأحكام، ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ٣١٣/١.

[4] البخاري، الزكاة ٥٥؛ مسلم، الزكاة ٧؛ الترمذي، الزكاة ١٤.

[5] أبو داود، الطهارة ٤١؛ الترمذي، الطهارة ٥٢؛ النسائي، الطهارة ٤٧؛ ابن ماجه، الطهارة ٣٨.

ب- السنة الفعلية

وهي السنة النابعة عن أفعال رسول الله ﷺ وسلوكه وتصرفاته والتي لم تذكر في القرآن صراحة، فمثلاً ورد في القرآن الكريم أوامر حول أداء الصلاة، وجاء في بعض الآيات أن اركعوا واسجدوا، ومع أنه ورد فيه ذكر بعض الأوقات بشكل عام إلا أنه لم يتم بشكل مفصل ودقيق ذكر الأوقات ولا عدد مرات الصلاة أو عدد الركع ولا كيفية أدائها ولا المفروضة منها أو الواجبة أو النافلة، ولا الأمور التي تبطل الصلاة. كل هذه الأمور بينتها تصرفات النبي ﷺ الذي قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1] فأشار إلى التشريع الخاص للسنة. وهذا وارد أيضًا بالنسبة لمناسك الحج، فكثير من العلماء أخطأوا في هذا الأمر، وحتى من قاموا بتأليف الرسائل والكتب حول مناسك الحج لم يستطيعوا أداءها دون الاستعانة بإرشاد السنة النبوية. وهناك حادثة مروية عن ابن الهُمام في هذا الموضوع. أي أن مناسك الحج المعقدة بعض الشيء -مثلها في ذلك مثل الصلاة- وضحت بالسنة النبوية.

ج- السنة التقريرية

كان رسول الله ﷺ عندما يرى تصرفًا لا يعجبه من بعض أصحابه ينبه هؤلاء الأصحاب دون أن يذكر اسمًا معينًا ولا يهتك سرًا، إذ يصعد المنبر ويقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.»[2] ومع كونه متسامحًا جدًا عندما يتعرض لمعاملة سيئة فلا ينتقم لنفسه بل يصفح، إلا أن الأمر إن تعلق بانتهاك حرمة من حرمات الله فلا يسكت أبدًا، ووصفت والدتنا عائشة رضي الله عنها خلقه هذا فقالت: "ما خُيِّر النبي بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم. فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه. والله ما انتقم لنفسه في شيء يُؤْتَى إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله."[3]

وكان أحيانًا لا يمنع تصرفًا معينًا بل يسكت عنه، أي يعلن إقراره ورضاءه بسكوته، وهذا يشكل القسم التقريري من السنة.

١. مثلاً خرج صحابيان في سفر فلم يجدا ماء فتيمما وصليا، وبعد مدة وجدا الماء ولم ينقض بعد وقت الصلاة فتوضأ أحدهما وأعاد الصلاة ولم يفعل الآخر. ثم جاءا إلى النبي

---

[1] البخاري، الأذان ١٨؛ المسند للإمام أحمد، ٥٣/٥.

[2] البخاري، الصلاة ٧٠؛ مسلم، النكاح، ٥.

[3] البخاري، الحدود ١٠؛ مسلم، فضائل ٧٧، ٧٨؛ أبو داود، الأدب ٤.

ﷺ وسألاه رأيه، فقال للذي لم يعد الصلاة «أصبت السنة» وقال للذي أعاد صلاته «لك الأجر مرتين.»[١]

٢. عندما قرر الرسول ﷺ تأديب قبيلة بني قريظة قال لأصحابه: «لا يصليَنَّ أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصرَ في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرِدْ منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنِّف واحدًا منهم.[٢] وهذا مثال على السنة التقريرية.

٢) السنة في القرآن الكريم

السنة روح حياتنا، والقرآن الكريم يقرر السنة ويؤكدها، لا بل يعدها أساسًا في الإسلام لا يجوز الاستغناء عنه أبدًا، وإليكم بعض الآيات في هذا الشأن:

أ. ترد عدة آيات تشبه إحداها الأخرى مع وجود فوارق قليلة بينها وبالمعنى التالي: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:٢).

والكثرة الغالبة من المفسرين الكرام فسروا الكلمة "الحكمة" بـ"السنة". ذلك لأن القرآن ليس كتابًا تحشر فيه الكلمات كيفما اتفق، أو يُستعمل فيه الإطناب والتطويل دون معنى أو غاية، ولا يمكن أن يكون المقصود من "الحكمة" في الآية الكريمة هو "الكتاب" أو جزء منه، لأنه ما كان يجوز آنذاك عطف "الحكمة" على "الكتاب". والمقصود من "الكتاب" هنا -كما ورد في أماكن أخرى عديدة- هو القرآن الكريم. أما الحكمة فالمقصود منها هو السنة الصادرة من النبي ﷺ التي تفصل مجمل الكتاب أو تفسر مبهمه، أو تخصص عمومه، أو تقيد مطلقه.

ب. وفي آية أخرى يقول الله تعالى بأنه لا يرسل الرسل إلا ليطاعوا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (النساء:٦٤). يرسل الله تعالى الأنبياء لكي يُطاعوا، وليس إطاعة النبي إطاعة لشخصه بل لكونه وسيلة إلى الهدى المادي والمعنوي للفرد وللمجتمع، ولكونه مبلغًا عن الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ (الأنفال:٢٠)، و﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (النساء:٥٩؛ النور:٥٤).

---

[١] أبو داود، الطهارة ١٢٦؛ الدارمي، الطهارة ٦٥.

[٢] البخاري، المغازي ٣٠، الخوف ٥؛ مسلم، الجهاد ٦٩.

وإطاعة الله الواردة في الآيات ليست مثل إطاعة الرسول، فإطاعة الله تكون باتباع أوامره والابتعاد عن نواهيه، واتباع الرسول تكون باتباع سنته أي باتباع أوامره ونواهيه وأفعاله وما صدر عنه من إقرار، وهذا أمر واضح من أوامر القرآن الكريم. ذلك لأنه خارج إطاعة أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه المبلغة بواسطة الرسول ﷺ هناك أوامر ونواهٍ مستقلة موجودة في السنة النبوية، وهناك ترغيب وترهيب ونصائح فيها حيث يقول الرسول ﷺ في هذا الأمر: «ألا إني أُوتيتُ الكتابَ ومثله معه.»[1]

وقد ورد في الآيات السابقة الأمر بالإطاعة مرتين: مرة بإطاعة الله تعالى، ومرة بإطاعة النبي ﷺ ثم أعقب بأمر "ولا تولوا عنه"، وهذا أمر باتباع السنة بل إشارة إلى أن التهوين من أمرها يُعد نوعًا من الارتداد.

ج. وهناك آيات أخرى في القرآن الكريم تتعلق بهذا الموضوع نورد بعضها:

جـ ١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء:٥٩).

إذن، فبينما تأمر هذه الآية الكريمة المؤمنين بإطاعة أُولي الأمر منهم الآتين بعد الرسول ﷺ فكيف يمكن أن يخطر على البال عدم إطاعة فخر الكائنات؟ وكيف يمكن النظر إلى أحاديثه وأقواله وتصرفاته نظرة لامبالاة؟ وكيف يتصور عدم وجود صلاحية الأمر والنهي عنده؟

جـ ٢- ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾ (الأنفال:٤٦).

تعد هذه الآية إطاعة الله ورسوله مصدر النصرة والقوة والوحدة وأساس الدولة. وعندما يتم البعد عن طاعة الرسول ﷺ، أو عند عدم معرفة إمام المسلمين أو عدم طاعته يظهر التيه فلا يدري أحد إلى أين يتجه، إذن، فالسبيل الوحيد لعدم الوقوع في النزاع والاضطراب هو إطاعة الرسول ﷺ والاقتداء به، لذا تقول الآية الكريمة: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء:٥٩).

إذن، فهذه هي الحقيقة.. حقيقة أن الرسول ﷺ وسنته هي التي تستطيع تأمين وحدتنا وقوتنا. لذا، ألا يفكر من يقف ضد السنة إلى أي شيء سيقودنا إنكار السنة وعدم إتباعها؟

جـ ٣- ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (آل عمران:٣١).

محبة الله تعالى تعني محبة الرسول ﷺ، ومحبة الرسول ﷺ تعني محبة الله تعالى. فلا

---

[1] أبو داود، السنة ٥.

يمكن أن تحب الله تعالى دون أن تحب نبيه ودون أن تتبع سنته، وأي ادعاء بحب الله دون حب رسوله ادعاء فارغ وباطل.

جـ ٤- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١). إذن، فالطريقة الوحيدة للعثور على الصراط المستقيم من بين السبل الكثيرة والاتجاهات المتعددة هي اتباع الرسول الذي يمثل الاستقامة واتباع سنته.

جـ ٥- ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء:٦٥).

في رواية أن امرأة يقال لها أُمّ يعقوب -وكانت تقرأ القرآن- أتت عبد الله بن مسعود فقالت له: ما حديث بلغني عنك أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمِّصات والمتفلِّجات للحسن والمغيِّرات خَلْق الله؟ فقال عبد الله: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ؟ وهو في كتاب الله. فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته. فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:٧). ذلك لأن مثل هذا الحديث وارد عن الرسول ﷺ.[1]

٣) السنة في الأحاديث

بينت الأحاديث كذلك أهمية السنة وموقعها المتميز، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله.»[2]

طريق النبوة هو الطريق إلى الله، والسير خلف النبي هو السير في الطريق المنير المؤدي إلى الله. لذا، كان رفض السنة وإبعادها خارج الحياة والتمرد عليها تمردًا على الله تعالى. فالله تعالى يختار إنسانًا ذا روح صافية تعكس كل ما يتلقاه دون أي خطأ أو قصور، ويصطفيه من بين الناس ليرسل رسالته بواسطته إلى الإنسانية جمعاء، ويقوم هذا الرسول الكريم بشرح هذه الرسالة وتفسيرها وتقديمها إلينا، ثم يقوم البعض ممن فقدوا توازنهم بأخذ موقف عدائي ضد هذا الرسول. مثل هذا الموقف يعد عصيانًا لله تعالى وتمردًا عليه يستحق صاحبه دخول جهنم، ففي حديث ورد في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى.» قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى.»[3]

---

[1] البخاري، البيوع ٢٥؛ مسلم، اللباس ١٢٠؛ الترمذي، اللباس ٢٥.

[2] البخاري، الأحكام، ١؛ مسلم، الإمارة ٣٢-٣٣؛ ابن ماجه، المقدمة، ١.

[3] البخاري، الاعتصام ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٣٦١.

وهناك حديث آخر ورد في سنن أبي داود والترمذي: «فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعَضّوا عليها بالنواجذ» وتتمة هذا الحديث تؤكد أيضًا على الأهمية الفائقة للسنة «وإياكم ومحدَثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة.»[1]

وهناك حديث مشتهر على الألسن يقول: «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد.»[2] ونحن نسوق لهؤلاء الذين يفتشون عن طريق آخر غير طريق السنة، نسوق لهم السؤال القرآني: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾!؟

ب. وظيفة السنة

السنة مصدر آخر للتشريع بجانب القرآن الكريم، تقوم -مثل القرآن الكريم- بتحليل بعض الأشياء وتحريم أخرى، وتضع مقاييس الفرض والواجب والسنة والمستحب والمباح والمكروه، كما تقوم بتفصيل مجمل القرآن وتفسير مبهمه وتخصيص عامه وتقييد مطلقه. والآن لنشرح هذه الأمور بعض الشيء.

١. تفسير القرآن

نقرأ كل يوم في صلاتنا سورة الفاتحة ونتضرع إلى الله تعالى بأن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. ومع أن صفة المغضوب عليهم وصفة الضالين صفتان عامتان فهناك حديث شريف يقول: «فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضُلاَّل.»[3] وهكذا يقوم الحديث بتفسير القرآن. فاليهود استحقوا الغضب منذ تاريخهم الماضي المظلم وفي أثناء العهد النبوي، وهم أول من يتبادرون إلى الذهن في هذا الخصوص على قاعدة أن "مطلق الذكر ينصرف نحو الكمال"، لأنه لا يوجد أحد مثلهم يستحقون الغضب، وذلك بقتلهم الأنبياء وبأخلاقهم الخسيسة وعاداتهم السيئة وعبادتهم للمال وكونهم حتى الآن ممثلي المادية في القرن العشرين، لذا فلا يملك الإنسان إلا الموافقة على هذا التفسير النبوي الشريف. ولاشك أن هذا الغضب الإلهي يشمل كل من اتصف بهذه الأخلاق اليهودية.

---

[1] أبو داود، السنة ٥؛ الترمذي، العلم ١٦؛ ابن ماجه، المقدمة، ٦.

[2] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٧٢/١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢٠٠/٨؛ الفردوس للديلمي، ١٩٨/٤.

[3] الترمذي، تفسير القرآن (١) ٢؛ جامع البيان للطبري، ٦١/١، ٦٤.

ومن جانب آخر فإن النصارى الذين ساروا في أول الأمر على الهدى وعلى الصراط المستقيم واستمسكوا بكل شجاعة بدينهم الذي لم يكن سوى الدين الإسلامي الحنيف.. هؤلاء النصارى ضلوا الطريق لأسباب عديدة، أي سقطوا في الضلالة، لذا دخلوا ضمن صفة "الضالين" لذا، قال الرسول ﷺ بحقهم «وإن النصارى ضُلاّل» لأنهم قلبوا التوحيد إلى التثليث وغيروا الكتاب وحرفوه، لذا انطبقت عليهم صفة "الضالين" انطباقًا تامًا. وسواء أكان الرسول ﷺ يقصد بهذا التفسير أقوامًا معينين أم سلوكًا خاصًا، فلو لم يقم بهذا التفسير ما كان باستطاعتنا معرفة هذه الحقيقة المبهمة. وهكذا قام الرسول ﷺ بهذا التفسير بتوجيه الأنظار إلى بعض الأقوام وكذلك إلى بعض الحالات النفسية المنحرفة، وبين من وقع ولماذا وقع وبأي الأعمال استحق الغضب أو استحق الضلالة بيانًا واضحًا.

عندما نزلت آية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:٨٢) قلق الصحابة الذين كانوا يعرفون معنى الظلم وأنه الخروج خارج الحق والحقيقة، فقالوا للرسول ﷺ: وأينا لم يظلم؟ فقال الرسول ﷺ بأن الأمر ليس كما يظنون، وذكرهم بقول لقمان عليه السلام وهو يعظ ابنه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣).[1]

عرفنا من تفسيره ﷺ لهذه الآية أن الظلم المقصود هنا هو الشرك وليس أي ظلم أو تجاوز أو تعدٍ آخر. ولو لم يقم الرسول ﷺ بهذا التفسير لبقينا إلى الأبد تحت غموض وإبهام.

ويُروى عن أمنا عائشة رضي الله عنها وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن "الصلاة الوسطى" الواردة في الآية ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ (البقرة:٢٣٨) هي صلاة العصر إلى درجة أن عائشة رضي الله عنها كانت تقرأ هذه الآية كما يلي: "﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ وصلاة العصر ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾." وقال أبو يونس مولى عائشة رضي الله عنها: أمرتني عائشة رضي الله عنها أن أكتب لها مصحفًا فقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنّي ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ فلما بلغتها أذنتها فأملت عليّ ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوسْطَىٰ﴾ وصلاة العصر ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ وقالت: سمعتها من رسول الله ﷺ.[2]

---

[1] البخاري، تفسير سورة (٦) ٣؛ مسلم، إيمان، ١٢٤.

[2] مسلم، المساجد ٢٠٧؛ الترمذي، تفسير القرآن (٢) ٢٩؛ أبو داود، الصلاة ٥.

٢. قيام السنة بتفسير مجمل القرآن

إلى جانب قيام السنة بتفسير مبهم القرآن قامت بتفصيل مجمله أيضًا.

مثلاً يأمر القرآن الكريم فيقول: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ ولكنه لا يوضح إقامة الصلاة ولا أوقاتها. صحيح أن بعض المفسرين ﷺ إستنبطوا الصلوات الخمس من الآية التالية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤)، إلا أن السنة هي التي حددت أوقات هذه الصلوات التي يذكر الله تعالى بأنها مرتبطة بأوقات معينة: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء:١٠٣). فهناك حديث يبين أن أوقات الصلاة عينها جبريل ﷺ، أي أن مصدرها سماوي وإلهي، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ:

«أمّني جبريل ﷺ عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس وكانت قدر الشِّراك،[١] وصلى بي العصر حين كان ظلُّه مثله، وصلى بي -يعني المغرب- حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء حين غاب الشفق، وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم، فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله، وصلى بي العصر حين كان ظله مثليه وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل، وصلى بي الفجر فأسفر ثم التفت إليّ فقال: يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت ما بين هذين الوقتين.»[٢]

فعَمَدَ رسول الله ﷺ إلى تعليم أمته بأوقات الصلاة فهو المرجع الوحيد لأمور كثيرة متعلقة بالصلاة مثل أقسامها من فرض أو واجب أو مستحب أو مكروه وما يفسدها، وشرح ركوعها وسجودها وقراءة التحيات فيها والخروج منها بالسلام. أجل، فهو المفسر الوحيد للصلاة التي جاء الأمر بها في القرآن الكريم بصيغة مجملة وهي ﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾، إذ قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي.»[٣] ولو عَمَدَ القرآن إلى إعطاء كل تفاصيل الصلاة لزاد حجمه مرتين على الحجم الحالي، لذا ترك إيضاح هذه التفاصيل إلى صاحب الفطنة الكبيرة الذي هو أفضل من فهم عن ربه، وقام فعلاً بنقل هذا الوحي غير المتلو إلينا بالتفصيل المطلوب، وقد أنجز هذا بالفطنة التي تعني تجاوز العقل بالعقل والاستعانة بالإلهام في المواضيع التي يقف فيها العقل.

---

[١] الشِّراك: النعل المعدني الذي يدق في قدم الحصان.

[٢] أبو داود، الصلاة ٢؛ الترمذي، المواقيت ١.

[٣] البخاري، الأذان، ١١٨ المسند للإمام أحمد، ٥٣/٥.

والسنة هي التي شرحت مناسك الحج أيضًا. صحيح أن القرآن تناول موضوع الحج في موضع أو موضعين وقدم بعض الشروح القيمة، ولكن هذه الشروح تناولت جزءً من مناسك الحج، لذا نرى أن السنة هي التي عَمَدَتْ إلى شرح جميع مناسك الحج بالتفصيل، وهذه التفاصيل هي أضعاف ما ورد في القرآن الكريم. وقد أدى الرسول ﷺ الحج مرة واحدة، هذا الحج سمي بـ"حجة الوداع" لأنه ودع فيه أصحابه، وأدى مناسك الحج وهو راكب على بغلته بحيث يراه الجميع. شرح كل شيء بكلامه ثم بأفعاله إلى درجة التصريح بكونه صائمًا أم مفطرًا، وبعد أن أتم هذا قال لهم: «خذوا مناسككم»[1] مشيرًا إلى موقع كلامه وأفعاله في الشريعة. ولا شك أن القرآن الكريم لم يأتِ ناقصًا ولكنه جاء مع مبلغه ومع شارحه ومفسره الرسول ﷺ.

٣. قيام السنة بتخصيص بعض الأحكام

تناول القرآن الكريم الميراث بشكل عام فقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ (النساء:١١). وهذا الحكم عام يشمل الجميع سواء أكانوا أنبياء أم أولياء أم أصفياء أم من المقربين أم من الناس الاعتياديين، غير أن فاطمة رضي الله عنها عندما راجعت أبا بكر ﷺ بعد وفاة والدها لأخذ ميراثه قرأ أبو بكر ﷺ هذا الحديث الذي سمعه عن والدها النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة.»[2]

كما أن حديث «القاتل لا يَرِث»[3] يحرم القاتل من الميراث، فمن يقتل والده يحرم من ميراثه ومن يقتل عمه يحرم من ميراثه وكذلك من يقتل خاله أو أخاه. وهكذا قامت السنة بتقييد الحكم العام الذي جاء به القرآن في موضوع الميراث.

٤. تقييد السنة لبعض الأحكام

تقوم السنة أحيانًا بتقييد بعض الأحكام العامة الواردة في القرآن الكريم، فمثلاً يقول القرآن الكريم: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ﴾ (المائدة:٣٨). هذا أمر مطلق، ولم يتم شرح الشروط والظروف التي يجب توفرها لإجراء هذا العقاب ولا نصاب السرقة ولا مقدار ما يقطع من اليد، وبما أن اليد تمتد من الأطراف حتى

---

[1] مسلم، الحج ٣١٠؛ أبو داود، المناسك ٧٧؛ النسائي، المناسك ٢٢٠؛ المسند للإمام أحمد، ٣٦٦/٣.

[2] البخاري، الاعتصام ٥، الخُمُس ١؛ مسلم، الجهاد ٥١؛ المسند للإمام أحمد، ٤٦٣/٢.

[3] الترمذي، الفرائض ١٧؛ ابن ماجه، الديات ١٤.

المرفق حسب الآية التي تشير إلى الوضوء[1] لذا، حددت السنة المطهرة الجزء الذي يقطع من اليد، أي قامت بتقييد حكم مطلق في القرآن. وعندما أمر النبي ﷺ بقطع يد أحد السراق من الكف فقد قيد ما جاء في القرآن في هذا الخصوص من حكم عام.

ومثال آخر، يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ (النساء:٢٩). وتأتي السنة هنا فتقيد هذه الآية في موضوع معين، إذ ورد حديث شريف عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الثمر حتى يبدو صلاحه.»[2]

وكما قلنا سابقًا فالسنة أساس مستقل في التشريع لكونها تضع أحكامًا غير واردة في القرآن. ومن الأمثلة على ذلك تحريمها لحم الحمر الأهلية ولحوم الضواري وتحريمها الزواج بخالة الزوجة وعمتها.

والسنة التي تعد أساسًا مستقلاً في التشريع بدأت في إجراء عملها ومهمتها منذ بداية الوحي، والتحمت مع القرآن الكريم، وتم النظر إليها من هذا المنظار من قبل جمهور العلماء وجمهور الأمة. ولكنها تعرضت إلى هجوم من قبل المعتزلة الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية مثل النظّام، ومن قبل المستشرقين الحاقدين على الإسلام الذين حاولوا على الدوام تعكير هذا النبع الصافي. وفي القرنين الأخيرين تأثر بعض رجال العلم المسلمين بهؤلاء المستشرقين بسبب مركب النقص عندهم تجاه الغرب، وأصبحوا أداة بيد المستشرقين، وبدأوا باتهام السنة والتهوين من شأنها. غير أن جهود السلف الصالح وما خلفوه من كتب وآثار قيمة استطاعت أن تقف في وجه هذه الحملات، وحافظت على صفاء هذا النبع ونقائه.. نبع السنة النبوية المطهرة.

---

[1] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:٦).

[2] البخاري، البيوع ٨٢؛ مسلم، البيوع ٥١.

الباب الثاني

تدوين السنة

إن السنة التي تعد أحد الأركان الأساسية في الإسلام تدخل ضمن وعد الله تعالى بالحفظ بالآية الكريمة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩). لذا، فقد دونت مثلما دون القرآن الكريم وحفظت عن ظهر قلب ووصلت إلينا دون تغيير، لذا سنتناول هذه الحادثة السعيدة من ناحية الأسباب وتطور مراحلها وخصائصها.

أ. ضرورة تدوين السنة

السنة هي طريقة معيشة رسول الله ﷺ، وأسلوب الحياة الإسلامية وأنموذج لكيفية التخلق بخلق الله ورسوله. فقد جعله الله تعالى أسوة وقدوة للناس ومنارًا للهدى ومعلمًا للحق، وقد قام الرسول ﷺ بهذا بتوجيهاته وأقواله وأفعاله وما أقره من تصرفات أو عمل، أي قام بهذا بسنته.

السنة نافذة مفتوحة على رسول الله ﷺ، وطريق مبارك موصل إلى يمن الإسلام وبركته، فمن أراد الهدى بخلوص قلب وصفاء نية أسرعت السنة النبوية لإجابة طلبه وتحقيق غايته وإرشاده إلى النور.

ب. العوامل المؤثرة في تدوين السنة

أدرك الصحابة أهمية السنة إدراكًا جيدًا، فالقرآن كان يتنزل عليه وكان يقوم بتبليغه إليهم وشرحه وتفسيره والعيش بمقتضى تعاليمه، أي توفرت لديه كل عوامل الفهم والإدراك.

١. حث القرآن على الاهتمام بالسنة

يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر:٧). فاسم الموصول "ما" الموجود في الآية الكريمة يشمل الوحي المتلوّ أي القرآن والوحي غير المتلوّ أي الأحاديث القدسية والأحاديث الشريفة، وحرف

"ف" هنا يوجب الاتباع والإطاعة. وكذلك نرى وجوب الانتهاء والابتعاد عن كل ما نهى عنه الرسول ﷺ، وتستمر الآية فتقول ﴿وَاتَّقُو اللَّهَ﴾ أي أن هذه الطاعة مسألة من مسائل التقوى يجب تنفيذها بكل دقة وحساسية.

وقد فهم الصحابة هذا الأمر جيدًا، وعلموا أنهم لن يحصلوا على تقوى الله إلا باتباع كل حديث وكل تقرير وكل فعل للرسول ﷺ. ولما كانت الآية الكريمة تنتهي بـ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فما كان أي واحد منهم ليجرؤ على أخذ هذا التهديد إلا بمأخذ الجد، لأنهم كانوا أفضل كادر وجماعة سعت إلى رضوان الله تعالى وإلى التقرب إليه.

ويقول القرآن كذلك: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١)، فيعلن بذلك أن التمسك بالسنة النبوية هو الطريقة الوحيدة للوصول إلى ساحل السلامة والأمن، وهو السبيل القويم الوحيد من بين السبل العديدة والطرق الكثيرة المتعرجة. وقد أدرك الصحابة الكرام هذا وأن سبيل النجاة هو في الالتحاق بقافلته ﷺ وركوب سفينته وأنهم إن فعلوا هذا استحقوا شفاعته يوم القيامة حيث يسجد وهو يقول: «أمتي!.. أمتي!..» فيقال له: "يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تُشفَّع."[1]

وهم يعرفون أن الويل هو للشخص الذي لن يعرفه الرسول ﷺ في البرزخ وفي المحشر وعلى الصراط يوم القيامة. لذا، كانوا يتتبعون كل حركة من حركاته وكل سكنة من سكناته ويلاحظونها بدقة، حتى تعابير وجهه ونظرات عينيه أو تبسم شفتيه.. يلاحظونها ويفهمونها ثم ينقلونها، لأنهم سمعوا من فمه المبارك هذا والحديث: «نضَّر الله امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى يُبَلِّغه غيره.» وفي رواية أخرى: «نضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها ثم بلغها عني.»[2]

٢. حث الرسول ﷺ على الاهتمام بالسنة

وكما جاء في الحديث السابق فقد حث الرسول ﷺ المسلمين على فهم مقالته وأحاديثه وعلى وعيها وتبليغها ويدعو الله أن ينضر وجه من يفعل ذلك، ذلك لأن دوام مهمته وبقاء الدين الذي جاء يبلغ به وإنقاذ البشرية مرتبط ومتعلق بهذا.

---

[1] البخاري، تفسير سورة (٢) ١؛ مسلم، الإيمان ٣٢٢.

[2] الترمذي، العلم ٧؛ أبو داود، العلم ١٠؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٨.

وفد وفد من قبيلة عبد القيس بعد فتح مكة إلى الرسول ﷺ وقالوا: "يا رسول الله! إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مُضَر، فمرنا بأمرٍ فضلٍ نُخبر به مَنْ وراءنا وندخل به الجنة"، فأمرهم الرسول ﷺ ببعض الأمور ونهاهم عن بعضها ثم قال لهم: «احفظوه وأخبروا به من وراءكم»[1] أي أمرهم بحفظ حديثه.

وخطبهم خطبة الوداع في حجة الوداع، فلما انتهى قال: «لِيبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ، فإن الشاهد عسى أن يُبلّغ من هو أوعى منه.»[2] ونراه في حديث آخر يحذر من كتم العلم: «من سئل عن علم ثم كتمه أُلجِم يوم القيامة بِلِجام من نار.»[3]

فكما أدرك الصحابة الكرام قيمة السنة وضرورتها أدركوا وجوب نقلها وضرورة تبليغها، فكما كانوا يتشون ويسعدون من حث الرسول ﷺ لهم كانوا يرتجفون عندما يسمعون وعيده وتخويفه، كما كانوا في الوقت نفسه يسمعون تهديد القرآن الكريم لمن يكتم العلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ (البقرة:١٧٤). فمثل هذه الآيات كانت تخوفهم وترعبهم، لذا أقبلوا على الكتاب وعلى السنة يفهمونهما ويقومون بتبليغهما إلى الآخرين.

وكما كان الرسول ﷺ يعلم الصحابة القرآن الكريم كان يعلمهم السنة كذلك. فقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "علمني رسول الله ﷺ التشهد كفِّي بين كفيه كما يعلمني السورة من القرآن."[4] وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "كان رسول الله يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن."[5]

كان رسول الله ﷺ يتحدث ببطء لكي يفهم السامعون كلامه جيدًا، وكان يكرر بعض كلامه ثلاثًا. عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه.[6] وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسردكم.[7]

ولم يكتف بهذا بل شجع أصحابه على الاجتماع وتدارس كتاب الله وشؤون الدين، ففي

---

[1] البخاري، الإيمان ٤٠؛ مسلم، الإيمان ٢٤.
[2] البخاري، العلم ٩؛ مسلم، القسامة ٢٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤١/٥.
[3] الترمذي، العلم ٣؛ أبو داود، العلم ٩؛ ابن ماجه، المقدمة، ٢٤.
[4] مسلم، الصلاة ٦١؛ أبو داود، الصلاة ١٧٨.
[5] البخاري، التهجد ٢٥؛ أبو داود، الوتر ٣١؛ الترمذي، الوتر ١٨.
[6] البخاري، المناقب ٢٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦٠.
[7] البخاري، المناقب ٢٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦٠.

حديث له يقول الرسول ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكَرهم الله فيمن عنده.»[١] وهكذا كان الرسول ﷺ يحث أصحابه على تدارس كتاب الله ومعرفة معانيه وتدارس السنة التي هي تفسير كتاب الله.

٣. شوق الصحابة الكرام

كان شوق الصحابة الكرام لمعرفة معاني القرآن الكريم والسنة النبوية ونقل ما علموه إلى الآخرين كبيرًا، فقد علموا أنهم كانوا على شفا حفرة من النار، وأن الله تعالى أنقذهم منها بإرساله هذا الرسول الكريم إليهم، لذا صرفوا جل اهتمامهم لمعرفة أحاديثه السنية وأفعاله وما أقره وما نهى عنه، ويتذاكرون هذا فيما بينهم.

يقول أنس بن مالك ﷺ: "كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه."[٢] وكان أصحاب الصُفّة بالأخص يقومون بإحياء الليل بالصلاة وقراءة القرآن وتدارسه، حتى أن عدد المتحلقين حول معلم واحد هناك كان يبلغ أحيانًا سبعين شخصًا، وكان الدرس يمتد أحيانًا حتى الصباح.

كانوا يسمعون من الرسول ﷺ حثًا على هذا التدارس، فمثلاً يسمعونه وهو يقول: «من جاء مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلّمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله.»[٣] لذا، فما أن يتعلم أحد الصحابة عنه شيئًا حتى يسارع بتبليغ ذلك إلى غيره في شوق ولهفة لكي يستفيد الآخرون من علمه. ولم يكن هذا مقتصرًا على الرجال فقط، فالنساء كن يشاركن الرجال في هذا الأمر ولا يتأخرن عنهم.

كان النساء يصلين في المسجد خلف صفوف الرجال والصغار، فكن لا يسمعن جيدًا ما يقوله الرسول ﷺ، وأحيانا كان الرجال يملأون المسجد فلا يبقى لهن موضع فيه، فاشتكين إليه وقلن له: "غَلَبَنا عليك الرجال فاجعل لنا يومًا من نفسك."[٤] فوعدهن الرسول ﷺ خيرًا واستجاب لطلبهن ورتب لهن اجتماعًا معه ووعظهن وأجاب عن أسئلتهن.

كانت زوجات الرسول ﷺ معلمات للنساء، فكن ينقلن ما يفهمن من القرآن والسنة إلى

---

[١] مسلم، الذكر ٣٨؛ الترمذي، القراءات، ١٠؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ٣٢/٣.
[٢] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٦١/١؛ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، ٣٦٣/١-٣٦٤.
[٣] ابن ماجه، المقدمة، ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ٣٥٠/٢، ٤١٨.
[٤] البخاري، العلم ٣٦، الجنائز ٦؛ مسلم، البر والصلة ١٥٢؛ المسند للإمام أحمد ٣٤/٣.

الأخريات بحكم عيشهن معه ﷺ. وكان الرسول ﷺ يهتم بتعليم زوجاته لكي ينقلن عنه إلى النساء الأخريات وإلى الأجيال القادمة أيضًا. فكان ما يقوله لهن وما يشاهدنه ينتقل بواسطة أمّنا صفية رضي الله عنها إلى أهالي خيبر، وبواسطة أمّنا ميمونة رضي الله عنها إلى بني عامر بن صعصعة، وبواسطة أمنا أم سلمة رضي الله عنها إلى بني مخزوم، وعن طريق أمنا أم حبيبة رضي الله عنها إلى بني أمية، وعن طريق أمنا جويرية رضي الله عنها إلى بني المصطلق. فهؤلاء الزوجات الطاهرات لم يكن يقصرن في وظيفة الإرشاد والتبليغ عن رسول الله ﷺ إلى قبائلهن وأقاربهن، وكانت هذه القبائل تفتخر بمصاهرتها للرسول ﷺ.

٤. كلمات خلفت بصماتها وحوادث خلدت نفسها

كان رسول الله ﷺ يتحدث أحيانًا في مناسبات حيوية وهامة بكلام لايمكن إلا استقراره في الأذهان حيث لا يمكن نسيانه أبدًا، لأن الحوادث التي قيل فيها مثل هذا الكلام كانت حوادث مهمة لاسبيل إلى نسيانها، وكلما خطرت هذه الحوادث على الأذهان خطر معها ما قاله الرسول ﷺ فيها. لنعط بعض الأمثلة:

أ- عندما مات الصحابي الجليل عثمان بن مظعون ﷺ حزن رسول الله ﷺ عليه وبكى، ولم يكن يبكي عادة خلف ميت، ولكنه بكى خلف حمزة وعثمان بن مظعون ﷺ. روى ابن عباس أن النبي ﷺ دخل على عثمان بن مظعون حين مات فقالت زوجته أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال لها النبي ﷺ: «وما يدريكِ أن الله أكرمه؟» فقالت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «أما عثمان، فقد جاءه والله اليقين، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل به!» قالت: فوالله لا أزكّي أحدًا بعده أبدًا وأحزنني ذلك. فنامت فأُريتُ لعثمان عينًا تجري، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «ذلك عمله»[1] فهذه الحادثة ما كان بإمكان من شاهدها نسيانها أو نسيان ما قيل فيها.

ب- ومثلاً قاتل قُزْمان في معركة أُحد قتالاً شديدًا وأبدى شجاعة فائقة، وعندما مات من جراحه في المعركة ظنوا أنه مات شهيدًا وغبطه الكثيرون، ولكن رسول الله ﷺ أخبرهم أنه من أهل النار، فتعجبوا حتى جاء الخبر بأنه لم يمت في المعركة بل جرح جرحًا شديدًا فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، كما أن بعضهم سمعه وهو يقول بأنه

[1] البخاري، الشهادات ٣٠ ؛ المسند للإمام أحمد، ١/٢٣٧، ٣٣٥.

لم يقاتل في سبيل الله بل قاتل حمية. فأمر رسول الله ﷺ بلالاً قائلاً: «يا بلال! قم فأذِّن؛ لا يدخل الجنة إلا مؤمن. وإن الله لَيؤيِّد هذا الدينَ بالرجل الفاجر.»[1] فكلُّ مَن يتذكر معركة أُحد لابد أن يتذكر هذا الحديث الذي قيل فيها.

ج- يروي عمر بن الخطاب ﷺ الحادثة التالية: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد. حتى مرّوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كلا، إني رأيته في النار، في بُرْدة غَلَّها[2] أو عباءة.» ثم قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب! اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنةَ إلا المؤمنون.»[3]

إذن، فكلما جاء ذكر معركة خيبر وجاء ذكر الشهداء وجاء ذكر الغنائم وجاء ذكر أوصاف من يدخلون الجنة تذكر الصحابة ما قاله الرسول ﷺ في تلك المعركة في هذا الخصوص، إذ لا يمكن نسيان هذه الحادثة ولا نسيان ما قاله الرسول ﷺ فيها.

أجل، لقد كانت الحقائق القدسية التي تذكرها السنة النبوية السنية تلتحم في الأذهان والقلوب مع الحوادث الجارية بشكل لا يمكن للأيام والسنين محوها، إذن، فلم ينس الصحابة هذه الأحاديث، بل نقشوها في أذهانهم وحفظوها في قلوبهم وأرواحهم، وعاشوها في حياتهم ثم قاموا بنقلها تامة ومحفوظة إلى الأجيال القادمة.

د- كان الصحابة الكرام يوقرون النبي ﷺ توقيرًا كبيرًا ويتصرفون أمامه بأدب واحترام كبيرَين، وكلما زادت معرفتهم ومرتبتهم زاد احترامهم وتوقيرهم وأدبهم تجاهه، حتى أنهم كانوا يستحون أحيانًا من سؤاله فينتظرون من يتجرأ على السؤال. وفي أحد الأيام جاء رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال بغلظة وجفاء: أيكم محمد؟ -والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم- فقال الصحابة: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: ابنَ عبد المطلب! فقال له النبي ﷺ: «قد أجبتُك.» فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجدْ عليّ في نفسك. فقال: «سل عما بدا لك» فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «اللّٰهم نعم.» قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «اللّٰهم نعم» قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللّٰهم نعم.» قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه

---

[1] البخاري، القدَر ٥؛ مسلم، الإيمان ١٧٨.

[2] الغُلول: هو الخيانة في الشيء وفي الغنيمة خاصةً.

[3] مسلم، الإيمان ١٨٢؛ الترمذي، السير ٢١؛ الدارمي، السير ٤٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠/١.

الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «اللّٰهم نعم.» فقال الرجل: آمنت بما جئتَ به، وأنا رسولُ مَنْ ورائي من قومي، وأنا ضِمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر.[1]

والآن هل يستطيع ضِمام بن ثعلبة أو قومه أو جميع الصحابة الكرام الذين شهدوا خشونته في بدء الأمر ثم صدق إيمانه في الأخير؟ هل يمكن لأحد أن ينسى هذه الحادثة، أو ما قاله الرسول ﷺ آنذاك؟ كلا.. أبدا، إذ لا يمكن نسيان هذه الحادثة التي حفرت نفسها في العقول والأفهام.

هـ - استدعى الرسول ﷺ مرة أُبيّ بن كعب وقال له: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (البينة:١)» قال: وسمّاني؟ قال: «نعم.» فبكى.[2] بعد هذه الحادثة كان بإمكان ابن أبي أن يقول مفتخرًا: "أنا ابن من قرأ الرسول عليه سورة البينة بأمر من الله تعالى." فهذه حادثة حفرت في ذاكرة أُبيّ بن كعب وأولاده وأحفاده.

٥. دقة الصحابة وجديتهم

كان الصحابة الكرام كأنهم خططوا وبُرمجوا على حفظ القرآن والسنة وعدم إضاعة حرف واحد منهما، وما كانوا يحتملون مثل هذا الضياع. والرسول ﷺ نفسه كان يبدي الاهتمام نفسه، فعند نزول الوحي كان يستعجل في قراءة الآيات واستعادتها مخافة النسيان حتى طمأنه الله تعالى ذاكرًا له ألا يقلق لأنه سيحفظ هذا القرآن وقال له: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة:١٧).

أجل، فكما كان الرسول ﷺ يبدي غاية الحرص والاهتمام والدقة في الحفاظ على الوحي الإلهي الملقى عليه، كان الصحابة الكرام أيضًا يبدون غاية الحرص والاهتمام لكل كلمة أو حرف يخرج من بين شفتي الرسول ﷺ؛ إذ كانوا يعرفون أنهم أمام فرصة لا تتكرر مرة أخرى.. فرسول الله ﷺ كان يشرح لهم ويعلمهم دينهم ويفسر لهم القرآن ويبين لهم أسس السعادة في حياتهم الأبدية، لذا ما كانوا يرغبون ببقاء أي شيء غامض أو مبهم لديهم.

في السنوات الأولى للخلافة الأموية كان المجاهدون المسلمون يقاتلون على أبواب إسطنبول، وعن إحدى المعارك التي جرت هناك ننقل هذه الرواية عن أسلم أبي عمران التُّجيبيّ قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفًا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من

---

[1] البخاري، العلم ٦؛ أبو داود، الصلاة ٢٣؛ ابن ماجه، الإقامة ١٩٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٦٤/١.

[2] البخاري، تفسير سورة (٩٨) ١-٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٢٢.

المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عُقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عُبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب فقال: "يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لماّ أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًا دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ يردّ علينا ما قلنا ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥)، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركِنا الغزو." فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم.[١]

وهكذا نرى الصحابة يتعلمون دينهم عن الرسول ﷺ على الوجه الصحيح ويحفظون ما تعلموه، ثم يعلمونه للآخرين.

٦. الجو الجديد الذي أنشأه القرآن والسنة

كان كل ما جاء به القرآن آنذاك لذلك المجتمع البدائي أمرًا جديدًا وأصيلاً، وكان يبدو كل ما يجيء به القرآن والسنة شيئًا جذابًا لإنسان ذلك العهد. وبدأ عهد من التغيير والتبديل الذي يذهل العقل، فهؤلاء القوم الذين كانوا بدوًا يسكنون الخيام بدأوا يتهيأون ليكونوا معلمي العالم وقادته.. ففي كل يوم كانت تتنزل عليهم مائدة سماوية جديدة، وفي كل يوم كانت تلك الجماعة تستقبل أشياء جديدة وتُخاطَب حول أمور جديدة.. كانوا أذكياء بالفطرة وأصحاب ذاكر ة قوية، فإن سمعوا شيئًا مرة واحدة انطبع في أذهانهم فلا ينسونه. ونحن نجد حتى في هذه الأيام -التي ضعفت فيها الذاكرة لاعتماد الجميع على الكومبيوتر وآلات التسجيل الأخرى- أشخاصًا لهم قوة ذاكرة مدهشة بحيث يستطيعون حفظ القرآن الكريم في شهرين أو ثلاثة أشهر، بينما كان كل بدوي آنذاك له ذاكرة قوية جدًا يحفظون أي شيء يسمعونه.

بعد صلح الحُديبية بدأ الرسول ﷺ بإرسال الرسل إلى رؤساء القبائل وإلى رؤساء الدول، وبجانب هؤلاء الرسل أرسل المعلمين لكي يعلموا الناس أينما ذهبوا ما تعلموه من القرآن والسنة، وقد استفاد هؤلاء من جو الصلح واستغلوه استغلالاً جيدًا وانتشروا بين القبائل حتى أصبحت في كل ناحية من نواحي الجزيرة العربية مدرسة يدرس فيها القرآن

---

[١] الترمذي، تفسير السورة (٢) ١٩؛ أبو داود، الجهاد ٢٢.

والسنة، إلى درجة أنه عند فتح مكة كان عدد من استمع إلى الرسول ﷺ من العرب يزيد على عشرة آلاف شخص. في هذه الحملة التعليمية كان للنساء أيضًا نصيبهن منها بجانب الرجال، ولاسيما نصيب أمهات المؤمنين الطاهرات. وقد بلغ من انتشار هذه الحملة وسرعة تأثيرها أن الرسول ﷺ عندما حج حجة الوداع بعد سنتين استمع إلى خطبة الوداع ما يقرب من مئة ألف من المسلمين.

في هذا الحج نرى التبليغ المكثف للسنة، وإعطاء العديد من الفتاوى، فقد تحدث الرسول ﷺ إلى الناس عن الميراث وعن رفعه لثارات الدم، وتحدث عن حقوق النساء، وعن حرمة الربا وألقى العديد من النصائح التي تفيد أمته في مستقبل حياتها. وطلب من الشاهدين أن يبلغوا كلامه للغائبين.. لقد تم إكمال الدين واستكمال النعمة ورضي الله الإسلام دينًا للمؤمنين. كل هذه الأمور كانت جيدة سوى أمر واحد كان يحز في قلوب الصحابة، وهو علمهم أن الرسالة كملت وأن الرسول ﷺ سيفارقهم بعد إتمام مهمته وأداء رسالته، لذا فبينما كانت أعينهم تفيض دمعًا كانت آذانهم صاغية لما يقوله.[1] ثم ما لبث أن نزلت آخر آية في القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٨١). آية تذكر مدى أهمية الاعتصام بالدين، وتذكّر الصحابة وللمرة الأخيرة بمدى أهمية الوفاء للدين والوفاء للنبي ﷺ الذي صرف ثلاثا وعشرين سنة من حياته في تبليغ هذا الدين. كان الصحابة يدركون هذا.. سمعوا وفهموا ونفذوا ما فهموه وعاشوا حياتهم حسبه ثم نقلوا ما عرفوه وما سمعوه. وهكذا انتقلت السنة إلينا -مثلما انتقل القرآن- ضمن هذه القنوات الطاهرة النقية، وستنتقل إلى الأجيال القادمة حتى يوم القيامة.

ج. الحساسية التي أبداها الصحابة الكرام في اتباع السنة

مثلما اهتم القرآن الكريم برسالة رسولنا ﷺ، اهتم الصحابة بالمحافظة على كل شيء صدر منه، قبلوا ما جاء به وحافظوا عليه ونشروه. فلم يخطر ببالهم أبدًا أن يعارضوا الرسول ﷺ في أي أمر من الأمور، بل تقبلوا كل ما جاء به الرسول ﷺ وتشرَّبت أرواحهم بتعاليمه، فكما أشرب العجل في نفوس بني إسرائيل، أشرب هؤلاء الصحابة حب الحق وحب ممثل هذا الحق على الأرض وهو الرسول ﷺ. لذا، أبدوا حساسية كبيرة في موضوع السنة، كيف

[1] مسلم، الحج ١١٤٧؛ أبو داود، المناسك ٥٦؛ ابن ماجه، المناسك ٨٤؛ المسند لأحمد، ٧٣/٥.

لا والقرآن الكريم يخاطبهم قائلاً: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء:٦٥).

وقد انقضت كل دقيقة بل كل ثانية بل كل عاشرة من حياتهم في مثل هذه الحساسية والتسليم. وما كان بوسع أحد من الذين جاءوا بعدهم من الذين قضوا حياتهم ضمن هذه الحساسية والتسليم إلا إبداء كل الاهتمام بالسنة النبوية. والآن لنعط بعض الأمثلة:

١. سرية أسامة

كانت السرية الأخيرة التي شيعها الرسول ﷺ هي سرية أسامة. ففي الأيام الأخيرة من حياته السنية فكر في إرسال جيش إلى الروم وعين أسامة بن زيد على رأس هذه السرية. كان أسامة قد كبر في حجر رسول الله ﷺ، لأن الرسول ﷺ كان قد تبنى والده زيد بن حارثة بطل معركة مؤتة والشهيد فيها. استدعى أسامة إليه وقال له: «سِرْ إلى موضع مقتل أبيك فأَوطِئْهم الخيلَ، فقد ولَّيْتُك هذا الجيش.»[1]

وكان في هذا الجيش صحابة كبار من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ. ولكن قبل أن يتحرك الجيش مرض الرسول ﷺ ثم ازداد مرضه وثقل، وجاء أسامة ودخل عنده وطأطأ رأسه فقبله رسول الله ﷺ وهو لا يتكلم وجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة. قال أسامة: فعرفت أنه يدعو لي، ثم جاء يوم الاثنين، ولوحظ بعض التحسن في صحة الرسول ﷺ فاستدعى إليه أسامة وقال له:«اُغْدُ على بركة الله.» فودعه أسامة وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذ سمع بأن الرسول ﷺ يحتضر فرجع، وأقبل ومعه عمر وأبو عبيدة إلى بيت الرسول ﷺ فبلغهم وفاته.[2] لقد رحل من بعث أسامة إلى مؤتة ولكنه خلف من بعده من يتابع دعوته ورسالته وميراثه بحق.

وبعد أن بويع لأبي بكر ﷺ بالخلافة اهتم بسرية أسامة مع أن خبر وفاة الرسول ﷺ شاع بين العرب وبدأت حوادث الردة. فمسيلمة الكذاب وأَسْوَد العَنْسِي كانا قد أعلنا نبوتهما في حياة الرسول ﷺ، فما أن بلغهما خبر الوفاة حتى أشعلا الجزيرة العربية بفتنة الارتداد. ومع هذا تقرر إرسال جيش أسامة لكي يواجه الجيش المحتمل إرساله نحو المدينة من قبل البيزنطيين، ذلك لأن الرسول هو الذي جهز هذا الجيش، وهو الذي قال: «أنفذوا بعث

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/١٩٠؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ٢٥٣؛ فتح الباري لابن حجر، ٧/ ٧٥٩.

[2] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/١٩١؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤/٣٠١.

أسامة»، وما كان بإمكان الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر ﷺ أن ينحرف قيد شعرة عن أمر الرسول ﷺ وقال: "والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع حول المدينة."[(١)] ثم استعرض جيش أسامة وأمرهم بالمسير وسار معهم ماشيًا وأسامة راكبًا فقال أسامة: "يا خليفة رسول الله! إما أن تركب وإما أن أنزل" فقال: "والله لستَ بنازل ولستُ براكب."[(٢)] كان هذا هو مبلغ حساسية الصحابة في تنفيذ أوامر الرسول ﷺ.

٢. فاطمة رضي الله عنها وأرض فَدَك

عاشت المدينة المنورة هزة بعد وفاة الرسول ﷺ، فقد كانت الآلام تعتصر قلوب الصحابة ولاسيما قلب أبي بكر ﷺ. في هذه الأثناء قدمت فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر تسأله ميراثها من والدها في فَدَك. فماذا يعمل أبو بكر ﷺ؟ وكيف يجيبها وهو يحبها ولا يرغب أبدًا في إزعاجها؟ كانت ذكرى من الرسول ﷺ وابنته التي كان يحبها ويعدها بضعة من نفسه. ولكن ارتباطه بسنة رسول الله ﷺ كان أقوى من أي رابطة أخرى، لذا قال لها: "واللهِ لا أَدَع أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته."[(٣)] وأبلغها أن الرسول ﷺ قال: «لا نورثُ، ما تركناه صدقة.»[(٤)] فما تركه يجب صرفه في الوجوه التي كان يصرف فيها. إذن، فحتى في أحرج الأوقات لم يكن هناك أي انحراف عن السنة.

٣. الموقف من الذين امتنعوا عن أداء الزكاة

في تلك الأيام نفسها كان هناك من يتكاسل عن الصلاة أو يستثقل أداء الزكاة، وعندما عظمت فتنة الردة رأى عمر ﷺ أن يُسمح بعدم أداء الزكاة فترة من الوقت حتى تقوى شوكة الإسلام بعد تلك الفتنة التي انتشرت في كل مكان، واستند في ذلك إلى حديث عن رسول الله ﷺ حيث يقول: «أُمِرت أن أقاتل الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله.»[(٥)]

ولكن أبا بكر ﷺ لم يقبل هذا وقال قولته المشهورة: "واللهِ لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة

---

(١) البداية و النهاية لابن كثير، ٣٣٥/٦؛ مختصر "تاريخ دمشق لابن عساكر" لابن منظور، ٢٥١/٤.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ٦/ ٣٣٦؛ كنز العمال للهندي، ١٠/ ٥٧٩.
(٣) البخاري، الفرائض ٣؛ مسلم، الجهاد ٥٢؛ المسند للإمام أحمد، ١/ ٤.
(٤) البخاري، الْخُمُس ١، المغازي ١٤؛ مسلم، الجهاد ٥٢؛ المسند للإمام أحمد، ١/ ٤.
(٥) البخاري، الإيمان ١٧؛ مسلم، الإيمان ٣٦.

والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعها."[١] وهكذا أظهر مدى حساسيته ومدى اتباعه للرسول ﷺ.

ولم يكن عمر بن الخطاب ﷺ أقل منه حساسية في هذا الأمر، فعندما كان يذكّر بآية أو بحديث نبوي وهو يخطب أويتكلم أو يعطي تعليماته يقف حالاً ويصبح أذنا صاغية، لذا أُطلق عليه وصف "الوقّاف عند الحق."[٢] وهناك روايات في كتب التاريخ والحديث بأن عمر بن الخطاب اعترف بأنه قد أخطأ وأن امرأة خاصمته قد أصابت قائلا: "اللّهم غَفْرًا، كل الناس أفقه من عمر!"[٣] ومثل هذا الاعتراف زاد من قدر هذا العملاق. وهناك أمثلة متعددة في هذا الموضوع، وكلها تظهر أن هذا الرجل العملاق لم يكن يتأخر أبدا عن الاعتراف بالحق، ولا يعترض أبدا على الحق، بل لا يخطر ذلك على باله.

٤. مدى الحساسية في اتباع السنة

أ- كان عمر ﷺ رجل فراسة ومنطق وكياسة، ورجلاً عبقريًا، فعرض له مرة مسألة دية أصابع اليد فاجتهد فيها برأيه إذ جعل في الخنصر ستًا من الإبل وفي البنصر تسعًا وفي الوسطى عشرًا وفي السبابة اثنتي عشرة وفي الإبهام ثلاث عشرة، ولكن ما أن بلغه حديث رسول الله ﷺ: «دية أصابع اليدين والرجلين سواء عشرة من الإبل لكل أصبع» حتى رجع عن رأيه متبعًا سنة رسوله ﷺ.[٤]

ب- جاء في رواية عن عبد الله بن السعدي أنه قدم على عمر في خلافته فقال له عمر: ألم أُحَدَّثْ أنك تلي من أعمال الناس أعمالاً فإذا أعطيتَ العُمالة كرهتها، فقلت: بلى. فقال عمر: ما تريد إلى ذلك؟ قلت: إن لي أفراساً وأعبدًا وأنا بخير، وأريد أن تكون عُمالتي صدقةً على المسلمين. قال عمر: لا تفعل فإني كنت أردتُ الذي أردتَ وكان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني حتى أعطاني مرة مالاً فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال النبي ﷺ «خذه فتَموّلْهُ وتَصدّقْ به، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تُتبعه نفسك.»[٥]

---

[١] البخاري، الزكاة ١؛ مسلم، اللإيمان ٣٢؛ الترمذي، الإيمان ١؛ المسند للإمام أحمد، ١/ ١٩.

[٢] البخاري، الإعتصام ٢، تفسير سورة (٧) ٥.

[٣] كنز العمال للهندي، ١٦/٥٣٧-٥٣٨.

[٤] الترمذي، الديات ٤؛ أبو داود، الديات ١٨؛ تحفة الأحوذي للمباركفوري، ٤/٦٤٩؛ كنز العمال للهندي، ١٥/١١٨.

[٥] البخاري، الأحكام ١٧؛ مسلم، الزكاة ١١١.

ج- رأى عمر بن الخطاب ﷺ يومًا الصحابي زيد بن خالد الجهني ﷺ وهو يصلي ركعتين بعد صلاة العصر فضربه بالدرة، لأن الصلاة وإن كانت معراج المؤمن إلا أنها تتبع مواقيت معينة، فإن صادفت الصلاة مواقيتها الصحيحة كانت عبادة وإلا أصبحت بدعة. وجمهور الصحابة والعلماء يرون أنه لا توجد صلاة نافلة بعد صلاة العصر، ولكن الصحابي زيد بن خالد ﷺ قال لعمر: "يا أمير المؤمنين! فوالله لا أدعهما أبدا بعد إذ رأيت رسول الله ﷺ يصليهما" فجلس عمر إليه وقال: "يا زيد بن خالد، لولا أني أخشى أن يتخذها الناس سلما إلي الصلاة حتي الليل لم أضرب فيهما."[١]

وتوجد رواية حول هذا الموضوع من أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها: صلى النبي ﷺ بعد العصر ركعتين وقال: «شغلني ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر.»[٢] ويجوز أن زيد بن خالد الجهني ﷺ رأى صلاة رسول الله ﷺ في حالة مثل هذه الحالة، ومهما كان منشأ هذه المسائل الفقهية فالذي يهمنا هنا هو إظهار مدى تمسك الصحابة بالسنة.

عندما طعن عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان متمسكًا بالسنة كل التمسك -وهو يصلي- سُئل وهو على فراش الموت أن يستخلف فقال: "إن أستخلِفْ فقد استخلف من هو خير مني أبو بكر، وإن أَترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله ﷺ."[٣] أي أنه إن استخلف أو لم يستخلف فلن يكون معارضًا للسنة، ولكن عندما يكون الموضوع موضوع اختيار سبيل من بين السبل، فلاشك أن سبيل الرسول ﷺ سيكون هو الأرجح، لذا سلك عمر ﷺ طريقًا وسطًا واضعًا ظروف الأمة ومصلحتها بنظر الاعتبار، فجعل اختيار الخلف من وظيفة ستة من الصحابة الذين توفي الرسول ﷺ وهو عنهم راضٍ والذين كانوا ضمن الأحياء من العشرة المبشرة بالجنة. وجعل ابنه عبد الله بن عمر حَكمًا والقَعْقَاع حارسًا، وأوصاهم بالإسراع في تعيين الخلف لكيلا تبقى الأمة دون رأس.[٤]

د- في أثناء خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وعندما كان يطوف حول الكعبة اقترب عمر ﷺ من الحجر الأسود الذي قبّله الكثير من الأنبياء فقال: "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢/ ٢٢٣؛ فتح الباري لابن حجر، ٢/ ٧٨.

[٢] البخاري، المواقيت ٣٣، السهو ٨؛ مسلم، المسافرين ٢٩٧؛ النسائي، المواقيت ٣٦.

[٣] البخاري، الأحكام ٥١؛ مسلم، الإمارة ١١؛ أبو داود، الإمارة ٨؛ الترمذي، الفتن ٤٨.

[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/ ٣٤٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٧/ ١٥٥.

تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك."[١] إذن، فتقبيله للحجر الأسود لم يكن إلا بسبب اتباعه السنة النبوية.

هـ - كان الصحابة الكرام يعرفون أن السنة النبوية أمانة مقدسة لديهم، وأنهم يتقربون إلى الله تعالى بمقدار قربهم من السنة، وأنهم إن ابتعدوا عن السنة -معاذ الله- فلن يلقوا أي معاملة كريمة في الدار الآخرة.. وهي معاملة الخائن للأمانة.

في رواية لميسرة بن يعقوب أن عليًا ﷺ شرب الماء قائمًا ثم قال: "إن أشربْ قائمًا فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائمًا، وإن أشربْ جالسًا فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب جالسًا."[٢]

إذن، يجب فهم الحدود جيدًا ويجب التصرف في مختلف الأمور والشؤون حسب تصرفه ﷺ، ونقل سنته كما هي إلى الأجيال القادمة. صحيح أن هناك توصيات للرسول ﷺ في الشرب قاعدًا وأن هناك فوائد فيه، إلا أن هذا لا يعني عدم جواز الشرب قائمًا، وليس من الملائم تصعيب الأمور في هذه المسائل.

و- في رواية عن عبد بن خير عن علي ﷺ قال: "لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخُفّ أولى بالمسح من أعلاه وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه."[٣] إذن، نجد هنا استسلامًا مطلقًا للسنة وعدم العمل بالرأي وبالاجتهاد الشخصي عند وجود خبر في السنة. وهذا يشير إلى مبلغ تمسكهم بالسنة.

ز- كان الصحابة كلهم سواء أكان عليًا أم عثمان أم أبا بكر أم عمر ﷺ أو أي صحابي آخر عندما يبلغهم وجود أثر أو حديث عن رسول الله ﷺ يخالف رأيهم أو اجتهادهم الشخصي في أي أمر من الأمور تراجعوا عن آرائهم فورًا واتبعوا السنة.

وكمثال على ذلك نورد اجتهاد عمر ﷺ في القتل الخطأ، إذ كان يرى أن دية المقتول خطأ لا تقع على القاتل بل على ورثته حسب قاعدة "بِحَسَبِ المغْرم المغنَمُ"، ويقال لهؤلاء "العاقلة" وكان عمر ﷺ يرى أن الدية للعاقلة، ولا ترث المرأة من دية زوجها حتى قال له الضحاك بن سفيان: "كتب إليّ رسول الله ﷺ أن أُورِّثَ امرأة أَشْيَم الضبابِيّ من دية زوجها" فرجع عمر عن رأيه.[٤]

ح- كان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ﷺ قريبًا من قلب عمر ﷺ إلى درجة أنه

---

[١] البخاري، الحج ٥٠؛ مسلم، الحج ٢٤٨-٢٥١.

[٢] البخاري، الأشربة ١٦؛ أبو داود، الأشربة ١٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٣٤/١.

[٣] أبو داود، الطهارة ٦٣؛ الدارمي، الوضوء ٤٣؛ السنن الكبرى للبيهقي، ١/ ٢٩٢.

[٤] أبو داود، الفرائض ١٨؛ الترمذي، الفرائض ١٨؛ ابن ماجه، الديات ١٢.

قال وهو على فراش الموت: "لو كان أبو عبيدة حيًا لولّيته."[١] عندما أقبلت الدنيا على المسلمين بعد طول مشقة وحرمان لم يتغير شيء عند أبي عبيدة ﷺ ولم تستطع الدنيا إغراءه، ففي إحدى المرات دخل عمر ﷺ إلى خيمة أبي عبيدة ﷺ عندما كان قائدًا على الجيش الإسلامي فرأى من بساطة خيمته ما جعله يبكي ويقول له: "غيّرَتْنا الدنيا كلنا غيرَك يا أبا عبيدة."[٢]

أجل، كان يحبه جدًا، ولكن عمر ﷺ عندما توجه إلى الشام لزيارة جنده ووصل إلى "سَرْغ" لقيه قائد الجند أبو عبيدة ﷺ مع أصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بأرض الشام فاستشار عمر أصحابه في الذهاب أو عدم الذهاب إلى هناك فاختلفوا، وكان من رأي أبي عبيدة المضي حيث قال لعمر: "أفِرارًا من قدر الله؟" فقال عمر: "لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفِرّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عُدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيتَ الخِصْبَة رعيتَها بقدر الله وإن رعيت الجَدْبَة رعيتها بقدر الله." فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدَموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»، فحمد عمر الله ثم انصرف.[٣]

وهكذا تقطرت السنة النبوية في قلوب هذه الأرواح المرهفة متغذية بحوادث الحياة وتقلباتها وظروفها التي لا يمكن نسيانها، وانتقلت إلى كتب المحققين والمحدثين حتى وصلت إلينا.

د . دِقّتهم في الرواية

لم يكن الصحابة الكرام ولا تابعوهم بإحسان ولا تابعو التابعين من نمط الأشخاص الذين يقبلون ويتبعون كل ما يسمعونه، فمع أن قلوبهم كانت صافية ونقية إلا أنهم كانوا دقيقين لا يقبلون شيئًا إلا بعد التمحيص والتدقيق ولاسيما إن كان الموضوع متعلقًا بالسنة النبوية. لذا، حفظوا السنة بدقة كبيرة وسجلوها في الكتب وحققوا الروايات تحقيقًا دقيقًا ثم نقلوها بالدقة نفسها. وهناك أمثلة عديدة جدًا على هذا ندرج هنا بعضها.

---

[١] المسند للإمام أحمد، ١/ ١٨؛ المستدرك للحاكم، ٣/٢٦٨.

[٢] مختصر "تاريخ دمشق لابن عساكر" لابن منظور، ١١/ ٢٧٢؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ١/ ١٧.

[٣] البخاري، الطب ٣٠؛ مسلم، السلام ٩٨.

١- تحذير النبي ﷺ

قال رسول الله ﷺ: «من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية أخرى «من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار.»[١]

في ذلك العهد الذي كان الفرق بين الصدق والكذب كالفرق بين الرسول ﷺ وبين مسيلمة الكذّاب وكالفرق بين السماء والأرض.. في ذلك العهد الذي كان الصدق أهم سمة له وأهم صفة ما كان بوسع مؤمن ولاسيما إن كان هذا المؤمن صحابيًا أو تابعيًا أن يكذب في أمر عادي، فكيف يجرؤ على الكذب على رسول الله ﷺ نفسه؟ فما كان بمقدور أحدهم أن يلفق شيئًا عن الرسول ﷺ متبعًا في ذلك أهواءه. يقول علي بن أبي طالب ﷺ: "إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثًا فوَالله لأن أخِرّ من السماء أحَبّ إليّ من أن أكذب عليه."[٢]
كما قال رسول الله ﷺ: «من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[٣]

إذن، فأمام كل هذه التحذيرات والتهديدات، هل يمكن للذين أرشدوا العالم إلى الصدق وإلى الحق وإلى النور وكانوا أئمة الهدى والحق أن ينحرفوا ويدخلوا ضمن دائرة هذا التهديد والوعيد؟

٢- حرص الصحابة والتابعين

ولكون هذه المسألة تتطلب كل هذه الحساسية فقد تناولها الصحابة بحرص شديد ودقة متناهية، لذا نرى الكثير من الصحابة يحذرون من رواية الحديث، حتى أن صحابيًا جليلاً مثل ابن مسعود ﷺ الذي كان بعض الصحابة يظنونه من أهل بيت الرسول ﷺ لكثرة تردده وتردد أمه على بيت الرسول ﷺ والذي قال في حقه عمر بن الخطاب ﷺ عندما بعثه إلى الكوفة: "إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي وخذوا منه"،[٤] هذا الصحابي الجليل نرى وصفه وحاله عندما كان يضطر إلى رواية حديث عن رسول الله ﷺ.. عن عمرو بن ميمون قال: ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه، قال: فما سمعته يقول بشيء قط "قال رسول الله"، فلما كان ذات عشية قال: "قال رسول الله" قال: فنكس. قال: فنظرت إليه فهو قائم مُحللةً أزرار قميصه، قد اغْرَوْرقت عيناه، وانتفخت

---

[١] البخاري، العلم ٣٨؛ مسلم، الزهد ٧٢؛ أبو داود، العلم ٤؛ الترمذي، الفتن ٧٠.
[٢] البخاري، استتابة المرتدّين، ٦؛ مسلم، الزكاة ١٥٤؛ أبو داود، السنة ٢٨.
[٣] مسلم، المقدمة، ١؛ الترمذي، العلم ٩؛ ابن ماجه، المقدمة، ٥.
[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٧/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٩١/٩.

أوداجه. قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريباً من ذلك، أو شبيهاً بذلك.[1]

كان الزبير بن العَوّام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته البطلة صفية من المسلمين الأوائل ومن العشرة المبشرة بالجنة، ولكنه كان قليل الرواية عن الرسول ﷺ وقد سأله ابنه عبد الله بن الزبير مرة عن سبب ذلك قائلاً: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان فقال: أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: «من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار»[2]

أما الصحابي أنس بن مالك ﷺ الذي خدم رسول الله ﷺ عشر سنوات فقد قال: "لولا أني أخشى أن أخطئ لحدثتكم بأشياء سمعتها من رسول الله ﷺ."[3]

يقول التابعي الكبير عبد الرحمن بن أبي ليلى ﷺ الذي قابل خمسمائة صحابيًا: "لقد أدركت في هذ المسجد عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم أحدٌ يحدث بحديث إلا ودّ أن أخاه كفاه الفُتيا.[4]

في السنوات الأولى لظهور الإسلام فتح الأرقم بن أبي الأرقم ﷺ بيته للرسول ﷺ، أما ابنه زيد فقد صحب الرسول ﷺ وأدرك خلافة أبي بكر وعمر ﷺ وكان أمين بيت مال المسلمين، ولكنه عندما رأى أن عثمان بن عفان ﷺ بدأ يوزع بعض ماله الذي أودعه في بيت مال المسلمين على بعض أقربائه حمل مفاتيح البيت وسلمها إلى عثمان ﷺ مُعلنًا استقالته من عمله لأن الناس سوف يظنون به الظنون، هذا الصحابي الجليل جفل عندما طلب منه التابعي عبد الرحمن بن أبي ليلى ﷺ أن يحدثه عن رسول الله ﷺ واعتذر. إليكم الرواية: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قلنا لزيد بن الأرقم: حدِّثْنا عن رسول الله ﷺ قال: "كبِرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله ﷺ شديد."[5]

أ. الحرص في الرواية

يجب على الراوي للحديث أن يكون ملمًا باللغة العربية إلمامًا جيدًا لكي لا تتسلل كلمة أجنبية إلى سياق الحديث. ومع أنه يجوز إيراد معنى الحديث إن تعذر إيراد نصه، إلا أن الصحابة الكرام ﷺ كانوا حريصين جدًا على كل كلمة بل على كل حرف عند رواية

---

[1] ابن ماجه، المقدمة، ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤٥٢/١.

[2] البخاري، العلم ٣٨؛ أبو داود، العلم ٤؛ ابن ماجه، المقدمة، ٤.

[3] مسلم، المقدمة، ٤؛ الدارمي، المقدمة، ٢٥.

[4] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٠/٦؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٦٣/٤.

[5] ابن ماجه، المقدمة، ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٧٠/٤.

الحديث. فمثلاً عندما أورد الصحابي عبيد بن عمير ﷺ حديث «مَثَل المنافق كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين» في مجلس ضم الصحابي عبد الله بن عمر ﷺ غضب هذا الصحابي وقال: كلا، لم يقل هكذا. فسأله عمير: وكيف قال إذن؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين.» علمًا بأن الفرق بين الروايتين هو الفرق بين "الرابضة" و"العائرة" فقط.

أما في "المسند" فقد جاءت رواية الحديث عن عبيد الله بن عمير بهذه الصيغة:

«إن مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الربيضين من الغنم، إن أتت هؤلاء نطحتها، وإن أتت هؤلاء نطحتها.» بينما يورِد عبد الله بن عمر ﷺ هذا الحديث مقطع "كشاة بين الغنمين" بدلاً من "كشاة بين الربيضين" لأنه سمعه هكذا عن رسول الله ﷺ.[1]

وانتقل هذا الحرص من الصحابة إلى التابعين وإلى تابع التابعين. فمثلاً نرى العالم المشهور سفيان بن عيينة يروي الحديث التالي: "نهى رسول الله ﷺ عن الدُّبّاء والـمُزَفَّت أن يُنتبَذ فيه." ولكن عندما روى هذا الحديث مرة في مجلسه بصيغة "نهى رسول الله ﷺ عن الدُّبّاء والـمُزَفَّت أن يُنبَذ فيه" قال سفيان: أنا لم أسمع هكذا من الزُهرى.[2] بينما الفرق بين الصيغتين هو فقط بين الفعل الخماسي "ينتبذ" والفعل الثلاثي "ينبذ" وليس بينهما فرق كبير في المعنى. ولكن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين كانوا حريصين جدًا في رواية الحديث عن رسول الله ﷺ كما قاله تمامًا.

لذا، فأمام مثل هذا الحرص والحساسية الشديدة في رواية الحديث أيمكن أن يأخذ أحد مأخذ الجد ما يزعمه البعض من أن الصحابة كانوا ينقلون ما يسمعونه عن الرسول ﷺ بكلماتهم وتعابيرهم، لذا فلا مجال لاتخاذ الأحاديث أساسًا في التشريع؟

عن البراء بن عازب ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتَ مَضْجعَك فتوضأْ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللّٰهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رهبة ورغبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت. فإنْ مِتَّ متّ على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول» فقلتُ: أستذكرهن "ورسولك الذي أرسلت" قال: «لا، ونبيك الذي أرسلت.»[3]

---

[1] مسلم، صفات المنافقين ١٧؛ النسائي، الإيمان وشرائعه ٣١؛ المسند للإمام أحمد، ٦٨/٢؛ المسند للطيالسي، ص٢٤٨.

[2] الكفاية للبغدادي، ص١٧٨.

[3] البخاري، الدعوات ٦؛ مسلم، الذكر ٥٦.

وسواءٌ استطعنا أن نحدس الفرق الذي عناه رسولنا ﷺ من وجوب قول "بنبيك" وليس "برسولك" أم لم نستطع فقد ألزمَنا قراءة الدعاء بهذه الصيغة.

أجل، إن الإنسان عندما يغمض عينيه وينام فإنه يدخل إلى عالم الرؤية والأحلام، أي يدخل إلى عالم فيه جزء من النبوة (هذا الجزء يبلغ ١/٤٦). أي أن النوم والرؤيا له علاقة بالنبوة وليس بالرسالة التي تتطلب الصحو، أي تتطلب صحوة العين والقلب. لذا، فالدقة والحرص والحساسية التي أبداها الرسول ﷺ في هذا الموضوع أبداها الصحابة الكرام عند تلقّيهم للأحاديث وعند نقلهم وروايتهم لها.

ب. التدارس

لم يكتف الصحابة الكرام ﷺ بنقل الأحاديث وروايتها، بل كانوا يتدارسونها فيما بينهم لكي يحيطوا بمعانيها. وكما تدارسوها فقد طلبوا من طلابهم تدارسها أيضًا، فمثلاً نرى الصحابي الجليل أبا سعيد الخدري ﷺ يقول لطلابه: "تذاكروا الحديث، فإن الحديث يهيج الحديث"[1] كما كان الصحابي الجليل ابن عباس ﷺ يقول: "رُدُّوا الحديث واستذكروه فإنه إن لم تذكروه ذهب، ولا يقولن رجل لحديث قد حدثه "قد حدثته مرة"، فإنه من كان سمعه يزداد به علمًا ويسمع من لم يسمع."[2] ذلك لأن الصحابة الكرام كانوا يعرفون مدى أهمية الحديث والسنة، ويعرفون من أحاديث رسول الله ﷺ أن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم،[3] لذا، حرصوا على حفظ الحديث وتدارسه ثم روايته ونقله. هذا هو الجو الذي تم فيه حفظ الحديث ونقله إلينا.

٣- تحقيق الصحابة والتابعين

بجانب تدارس الصحابة للأحاديث فيما بينهم، كانوا أمام أي أمر أو مسألة تثار يبحثون عما إذا كان هناك حديث في هذه المسألة، أي أنهم كانوا يدركون مدى الأهمية التشريعية للسنة وللحديث، ومع كونهم رجال صدق واستقامة إلا أن هذا لم يكن يمنعهم أن يكونوا رجال تحقيق أيضًا فما كانوا يقبلون كل ما سمعوه.

جاءت مرة إلى أبي بكر ﷺ امرأة تسأله عن نصيبها من ميراث حفيدها، فقال لها أبو بكر

---

[1] الدارمي، المقدمة، ٥١.

[2] الدارمي، المقدمة، ٥١.

[3] أبو داود، العلم ١؛ الترمذي، العلم ١٩؛ النسائي، الطهارة ١١٣؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧.

ﷺ: "ما أجد لك في الكتاب من حق، وما سمعت رسول الله ﷺ قضى لك بشيء، وسأسأل الناس" ثم سأل الناس فشهد المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ أعطاها السدس، فقال له أبو بكر ﷺ: ومن سمع ذلك معك؟ قال: محمد بن مسلمة، فأعطاها السدس.[1] كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها التي جاء حديث ضعيف في حقها «خذوا نصف دينكم من هذه الحُميراء»[2] ذكية وفطنة تسأل وتحقق كل شيء، فعن ابن أبي مُلَيكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وإن النبي ﷺ قال: «من حوسب عُذِّب»، قالت عائشة فقلت: أوليس يقول الله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق:٨)؟ فقال: «إنما ذلك العرضُ ولكن من نوقش الحساب يهلك.»[3]

وبصدد قيام الصحابة بتحقيق ما يسمعونه يرد هنا موضوع الأوجه المختلفة التي أنزل فيها القرآن الكريم، وهناك روايات عديدة حول هذا الموضوع نورد هنا ماجاء في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم بن حِزَام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لبّبته بردائه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها فقال لي: «أرسله.» ثم قال له: «اقرأ.» فقرأ قال: «هكذا أنزلت»، ثم قال لي: «اقرأ» فقرأت، فقال: «هكذا أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤا منه ما تيسر.»[4]

وكمثال آخر نورد هذه الرواية عن أبي سعيد الخُدري قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثًا فلم يؤذن لي فرجعت. فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي فرجعت وقال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذَن له فليرجع.» فقال: "والله لتُقيمن عليه بينة" أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أُبيّ بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم. فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك.[5]

---

[1] الترمذي، الفرائض ١٠؛ ابن ماجه، الفرائض ٤؛ الموطأ، الفرائض ٨.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٨/١٠٠؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص١١٦؛ كشف الخفاء للعجلوني، ١/٣٧٤؛ الفوائد المجموعة للشوكاني، ص٣٩٩؛ الفردوس للديلمي، ٢/١٦٥.

[3] البخاري، العلم ٣٥؛ مسلم، الجنة ٧٩.

[4] البخاري، الخصومات ٤؛ مسلم، صلاة المسافرين ٢٧٠؛ أبو داود، الوتر ٢٢؛ النسائي، الافتتاح ٣٧؛ الموطأ، القرآن ٤.

[5] البخاري، الاستئذان ١٣؛ مسلم، الأدب ٣٣، ٣٤، ٣٧؛ أبو داود، الأدب ١٢٨.

أ. الرحلة من أجل التحقيق

كان الصحابة يولون تحقيق الحديث أهمية بالغة إلى درجة أنهم كانوا يسافرون من بلد إلى بلد ويقطعون المسافات الطويلة أيامًا وليالي لتحقيق حديث واحد أو لسماع حديث واحد. إذ يروي عطاء بن أبي رباح -الذي تتلمذ عليه كبار العلماء- أن الصحابي أبا أيوب الأنصاري ﷺ أراد أن يحقق حديثًا سمعه من النبي ﷺ وعلم أن الصحابي الوحيد الباقي على قيد الحياة من الذين سمعوا هذا الحديث هو عُقبة بن عامر وكان مقيمًا في مصر فتوجه إليه، أي سافر من المدينة المنورة إلى مصر من أجل تحقيق حديث واحد يعرفه.

خرج أبو أيوب إلى عُقبة بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ فلما قدم أتى منزل مسلمة بن مخلّد الأنصاري وهو أمير مصر، فأخبر به فعجل فخرج إليه فعانقه وقال: "ما جاء بك يا أبا أيوب؟" قال: "حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغير عقبة فابعث من يدلني على منزله." قال فبعث معه من يدله على منزل عقبة، فأخبر عقبة به فعجل فخرج إليه فعانقه وقال: "ما جاء بك يا أبا أيوب؟" فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن. قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمنًا في الدنيا عن خزية ستره الله يوم القيامة.»[1] فقال له أبو أيوب: "صدقت" ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعًا إلى المدينة، فما أدركته جائزة ابن مخلد إلا بعريش مصر.[2]

وهناك رواية عن جابر بن عبد الله قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ سمعه من النبي ﷺ لم أسمعه منه فسرت شهرًا إليه حتى قدمت الشام، فإذا هو عبد الله بن أُنيس فأرسلتُ إليه أن جابرًا على الباب، فرجع إليّ الرسول فقال: أجابر بن عبد الله؟ قلت: نعم. فخرج إليّ فاعتنقني واعتنقته. قال: قلت: حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ لم أسمعه منه في المظالم، فخشيت أن أموت أو تموت. قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يُحشر الناس -أو العباد- عُراةً غُرْلاً بُهْمًا، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديّان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه

---

[1] البخاري، المغازي ٣؛ مسلم، البر والصلة ٥٨؛ أبو داود، الأدب ٣٨؛ الترمذي، الحدود ٣.

[2] الرحلة في طلب الحديث للبغدادي، ص١١٨؛ جامع بيان العلم لابن عبد البر، ٣٩٢/١؛ الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٠٢.

بمظلمة حتى يقتصه منه، حتى اللطمة.» قال: وكيف، وإنما نأتي عراةً غُزلاً؟ قال: بالحسنات والسيئات.[1]

ب. رحلة التابعين

لم تقتصر الرحلات من أجل تحصيل الحديث على الصحابة الكرام فقط، بل استمرت في العهود التي تلت عهد الصحابة. فسعيد بن المسيّب كان يسافر أيامًا وليالي في طلب حديث واحد،[2] وكان مسروق بن الأجدع يرحل من أجل حرف واحد.[3] وعن كثير بن قيس قال: "كنت جالسًا عند أبي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء! أتيتك من المدينة، مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغني أنك تحدث به عن النبي ﷺ. قال: فما جاء بك تجارةٌ؟ قال: لا. قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا."[4]

انتقل الحرص الذي أبداه الصحابة في رواية الأحاديث إلى التابعين، وكما سنشرح فيما بعد فقد ورث هذا العلم -حسب تعبير الأعمش- أناس كان أحبُّ إليهم أن يخروا من السماء ولا يزيدوا "واوًا" أو "ألفًا" أو "دالاً" على الحديث،[5] إذ كانوا يتحرجون جدًا ويحرصون على ألا يتبادل حرفا "الواو" و"الفاء" مكانهما في الحديث، أي الحفاظ على متن الحديث مثلما صدر عن الرسول ﷺ.

وعلى الرغم من كون الصحابة الكرام بأجمعهم عدولاً لا يتسلل الكذب إلى أي أحد منهم إلا أن أئمة التابعين كانوا يحققون ما سمعوه من حديث ويراجعون الصحابة الآخرين كذلك. فمثلاً نرى أبا العالية -وكان من كبار علماء التابعين- يقول: "كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم."[6]

ففي رواية مسلم عن ابن سيرين أنه قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، ويُنظر إلى أهل البدع

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٤٩٥/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٤٥/١٠-٣٤٦؛ أسد الغابة لابن الأثير، ١٧٨/٣؛ الأدب المفرد للبخاري، ص٣٣٧؛ جامع بيان العلم لابن عبد البر، ٣٨٩/١-٣٩٠.

[2] تذكرة الحفاظ للذهبي، ٥٥/١؛ الرحلة في طلب الحديث للبغدادي، ص١٢٧؛ الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٠٢؛ جامع بيان العلم لابن عبد البر، ٣٩٥/١.

[3] جامع بيان العلم لابن عبد البر، ٣٩٦/١؛ الرحلة في طلب الحديث للبغدادي، ص١٢٧.

[4] الترمذي، العلم ١٩؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧؛ الرحلة في طلب الحديث للبغدادي، ص٧٨.

[5] الكفاية للبغدادي، ص١٧٨.

[6] الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٠٢- ٤٠٣.

فلا يؤخذ حديثهم"،[1] فلم يكونوا في العهود الأولى يسألون عن الإسناد، أي عن الشخص الذي روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، ولكن حينما وقعت الفتنة بعد شهادة عمر بن الخطاب ﷺ -الذي كان بابًا موصدًا أمام الفتنة- ومقتل عثمان بن عفان ﷺ والحوادث التي جرت في عهد علي بن أبي طالب ﷺ بدأ وضع الحديث وإن كان في نطاق ضيق، إذ وُضعت أحاديث ضد عثمان ﷺ، ودفع هذا بعض البسطاء إلى اختراع أحاديث في صالحه وللدفاع عنه وكأنه يحتاج إلى مثل هذا الدفاع. كما تم وضع أحاديث في الثناء وفي مدح علي بن أبي طالب ﷺ -مع أن هذا العملاق لا يحتاج إليها- وذلك مقابل الأحاديث الموضوعة للطعن فيه.

لذا، فما أن ظهرت الأحاديث الموضوعة حتى بدأ الأئمة الكبار بالاستفسار عن "السند" وبتحقيق الأحاديث. فبدأ علماء مثل شعبة والشعبي والثوري رحمهم الله بتحقيق دقيق عند جمع الأحاديث. ونجد حادثة مشابهة في رواية وردت في صحيح مسلم لمجاهد بن جَبْر قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدّث ويقول: "قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ" فجعل ابن عباس لا يأذن[2] لحديثه ولا ينظر إليه. فقال: يا ابن عباس! مالي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: "قال رسول الله ﷺ" ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول[3] لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف.[4]

يروي العالم الأندلسي الكبير ابن عبد البر عن الشعبي الذي كان من كبار أئمة التابعين عن الربيع بن خثيم الحديث الآتي: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات كن له كعتق رقاب أو رقبة»، قال الشعبي: فقلت للربيع بن خثيم: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: عمرو بن ميمون الأودي. فلقيت عمرو بن ميمون فقلت: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: عبد الرحمن بن أبي ليلى، فلقيت ابن أبي ليلى فقلت: من حدثك؟ قال: أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ.[5] وبعد هذا البحث والتدقيق اطمأن الشعبي إلى صحة الرواية.

---

[1] مسلم، المقدمة، ٥.

[2] لا يأذن: أي لا يستمع إليه ولا يصغي.

[3] ركب الناس الصعب والذلول: أي سلك الناس كل مسلك مما يُحمد أو يُذم.

[4] مسلم، المقدمة، ٤.

[5] المحدث الفاصل للرامهرمزي، ص٢٠٨؛ السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٢٢-٢٢٣.

٤- حملة ضد الوضع والوضاعين

في تلك العهود بدأت حملة ضد الكذب وإعلان حرب ضده، إذ بدأ العلماء من أمثال ابن شهاب الزهري وابن سيرين وسفيان الثوري وعامر بن شراحيل الشعبي وإبراهيم بن يزيد النخعي وشعبة وقتادة بن دِعامة وهشام الدستوائي ومسعر بن كُدَام الهلالي بإعلان حملة ضد وضع الحديث وضد الوضاعين وفرز الأحاديث الصحيحة عن الأحاديث الموضوعة.

وعندما كان أبو هلال وشعبة وسعيد بن أبي صَدَقة يروون حديثًا عن قتادة بن دِعامة واختلفوا في صيغة الحديث هل كان كذا أم كذا، راجعوا هشام الدستوائي ليكون حَكمًا. وعندما كان شعبة والثوري يختلفان كانا يراجعان مسعر بن كُدَام الهلالي.[1]

كان هؤلاء العلماء يتعقبون من يرون فيه تعصبًا مذهبيًا، فإذا شكّوا في رواية أحدهم وقفوا أمامه وحاسبوه وسألوه: ممن سمعت هذا الحديث؟

أ. مهمة الحفظ ودوره

في هذه الأثناء كان عباقرة الحفظ يحفظون الأحاديث دون توقف، فقد روى أبو زرعة الرازي أن أحمد بن حنبل رحمه الله كان يحفظ ألف ألف حديث مختلف من ناحية السند والمتن ومختلف من ناحية الصحة من صحيح أو حسن أو ضعيف،[2] واختار في مسنده المشهور أربعين ألف حديث من بين ثلاثمائة ألف حديث، هذا علمًا بأن من بين هذه الأحاديث البالغ عددها أربعين ألفًا بعض الأحاديث المكررة وبعض الزوائد التي أضافها ابنه عبد الله.

أما يحيى بن معين الذي نذر حياته كلها لأحاديث رسول الله ﷺ فقد حفظ حتى الأحاديث الموضوعة، وعندما سأله أحمد بن حنبل مرة عن سبب قيامه بكتابة "الجامع" لمعمر عن أبان عن أنس مع أنه يعلم أنها موضوعة قال له: رحمك الله يا أبا عبد الله، أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر على الوجه فأحفظها كلها وأعلم أنها موضوعة حتى لا يجيء بعده إنسانٌ فيجعل بدل أبان ثابتًا ويرويها عن معمر عن ثابت عن أنس بن مالك فأقول له: "كذبت إنما هي عن معمر عن أبان لا عن ثابت."[3]

---

[1] المحدث الفاصل للرامهرمزي، ص٣٩٥؛ السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٢٩.

[2] تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ٦٤/١.

[3] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للبغدادي، ٢٨٣/٢؛ السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص ٢٢٩ .

فبدءً من الإمام الزهري إلى يحيى بن سعيد القطّان، ومن البخاري ومسلم إلى الدارقطني والحاكم نرى المئات من كبار محققي الأحاديث وحفاظها.

ب. شعور الالتزام بالحق ورعايته

مطاردة الكذب والوضع والوقوف ضد الكذب وإعزاز الحق وعدم السماح بقول غير الحق.. كان هذا شعارهم.. فمثلاً خطب عمر بن الخطاب ﷺ مرة فقال: ألا لا تغالوا في صَداق النساء، وإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ أو سيق إليه جعلتُ فضل ذلك في بيت المال. ثم نزل فعرضت له امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، لَكتاب الله أحق أن يتبع أم قولك؟ قال: كتاب الله، فما ذاك؟ قالت: نَهيتَ الناس آنفا أن يتغالوا في صداق النساء والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ (النساء:٢٠)؟ فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر -مرتين أو ثلاثا-. ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: "إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النساء، فليفعل رجل في ماله ما بدا له."[١]

وعلى هذا المنوال تصرف كبار علماء التابعين، فمثلاً نرى زيد بن أبي أُنيسة يقول: "لا تأخذوا عن أخي"،[٢] قد يكون بسبب عدم دقة أخيه أو توهمه أو تعصبه المذهبي أو لسبب آخر لا نعرفه، وعندما سئل الإمام علي بن المديني -وهو إمام الكثير من المحدثين الكبار من مستوى الإمام البخاري ومسلم وأول من كتب عن الصحابة- عن أبيه قال: "سلوا عنه غيري" فأعادوا المسألة فأطرق ثم رفع رأسه فقال: "هو الدين، إنه ضعيف."[٣]

أما الإمام وكيع بن الجرّاح الذي تربى في مدرسة أبي حنيفة وتتلمذ عليه الإمام الشافعي القائل بأنه لم ينس شيئًا سمعه طوال حياته. وقد ذكره الشافعي في قصيدته:

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بـأن العلم نـور ... ونـور الله لا يهدى لعاصي[٤]

كان والد هذا الإمام الكبير على بيت المال، لذا فعندما كان يروي عنه كان يقرن معه

---

[١] كنز العمال للهندي، ١٦/٥٣٦-٥٣٨.
[٢] مسلم، المقدمة، ٥.
[٣] السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٢٣.
[٤] ديوان الإمام الشافعي للإمام الشافعي، ص٦٩.

آخر،[1] لأنه كان يخشى أن يقوم والده الموظف لدى الدولة بتخفيف بعض العبارات من أجل الدولة.

ج. كتب العلل

كتب هؤلاء الأشخاص العظام كتبًا عديدة في العلل، أي قدموا كتبًا تتناول سند الأحاديث ومتونها بالتحليل الدقيق. وكتبوا عن الضعفاء والمتروكين أي عن الرواة الضعفاء والذين لا يجوز أخذ الأحاديث عنهم بل يجب تركهم وأعلنوا هذا ونشروه، فقد كانوا حساسين جدًا في هذا الموضوع إلى درجة أن أحدهم كان يراقب -كما قلنا- والده لأنه موظف في خزينة الدولة لكيلا يحرف رواية الحديث، ونرى آخر يقول إن والده روى الحديث حتى بلغ عمره كذا سنة، ولكن ما إن كبر حتى ضعفت ذاكرته، لذا قام بمنع الزوار من لقائه.

يقول الإمام عبد الرحمن بن مهدي -وهو من كبار أئمة الحديث-: "سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن أنس عن الرجل يُتهم بالكذب، فقالوا: أنشره، فإنه دين."[2] وعن يحيى بن سعيد قال: "سألت سفيان الثوري وشعبة ومالكًا وابن عُيينة عن الرجل لا يكون ثبتًا في الحديث فيسألني الرجل عنه، قالوا: أخبر عنه أنه ليس بثبت."[3]

وعن أبي بكر بن خلاّد قال: قلت ليحيى بن سعيد: أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءَك عند الله يوم القيامة؟ فقال: لأن يكونوا خصمائي أحبّ إليّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول لي: لِمَ لم تَذُبّ الكذب عن حديثي.[4]

هـ . وضع الحديث

أجل، لقد دونت السنة في ظل مثل هذه الدقة والحساسية، ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول إنه لم يتم وضع أحاديث كاذبة. وضعت أحاديث كاذبة ولكنها ارتطمت بالحراسة المشددة التي وضعها الصحابة والتابعون، ولم تستطع أن تفلت منها، ومن أفلت منها ظهرت للعيان بمرور الزمن ولم تستطع أن تدخل إلى كتب صحاح السنة، وعلاوة على هذا فقد اتبعت الطرق التالية أيضًا في هذا الموضوع:

---

[1] السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٣٣.
[2] السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٣٤.
[3] مسلم المقدمة، ٥.
[4] علوم الحديث لابن الصلاح، ص٣٨٩.

١) فرز الأحاديث الموضوعة

أ- الاعتراف

ففي كثير من الأحيان كان صاحب الأحاديث الموضوعة يعترف في أواخر حياته وقبل وفاته بالأحاديث التي وضعها واختلقها، أو بعد توبته من مذهبه الباطل ورجوعه إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

ب- الكذب تحت المراقبة

كان وضاع الأحاديث تحت مراقبة جيدة، وذلك بالأساليب التي شرحناها سابقًا، فمن كذب مرة واحدة في حياته لم يؤخذ حديثه. ولم يكن يؤخذ الحديث من صاحب الوهم والنسيان وإن كان صادقًا ثقة، فلنأخذ مثالاً يوضح ما نقول:

كان هناك شخص زاهد وصاحب تقوى اسمه ابن أبي لهيعة تردد اسمه كثيرًا في سنن أبي داود، وكان يروي الحديث ولكن ليس من ذاكرته وحفظه بل من كتبه، وعندما ضاعت منه هذه الكتب فقد منزلته في رواية الحديث فجأة، وبدأ العلماء يتحفظون من أخذ الحديث عنه، فالإمام البخاري مثلاً بدأ لا يأخذ منه سوى الأحاديث المؤيدة بالأحاديث الأخرى وسوى الفتاوي.

ج- دلالة الأسلوب

كما نعلم فهناك موضوع الأسلوب في الأدب، فمثلاً من قرأ "موليير" ثلاثين مرة، أو قرأ "شِكِسبير" أو "تولستوي" أو "دانته" أو "نجيب فاضل" أو "نور الدين طُوبْجُو" أو "سَزائِي قَرَه قُوخ" مرات عديدة يستطيع أن يستدل على كتاباتهم من أسلوبهم من ضمن أكوام من الكتب. فهذا موضوع تعوّد على أسلوب معين ومعرفة به، ولا يحتاج هذا إلى قراءة لثلاثين مرة في أكثر الأحيان، بينما كان أئمة الحديث -الذين ذكرنا أسماء بعضهم- قد نذروا حياتهم للحديث وكانوا في الوقت نفسه من كبار علماء اللغة ومن أبطال الذاكرة القوية فعرفوا أسلوب الرسول ﷺ معرفة جيدة لأنهم كانوا يعيشون معه صباح مساء، لذا كان بإمكانهم معرفة أحاديث الرسول ﷺ وفرزها عن غيرها بكل سهولة، فما أن يقرأوا النص مرة أو مرتين حتى يستطيعوا القول بأنه حديث أو أنه ليس بحديث.

د- القرآن والأحاديث المتواترة هي المحك والمقياس

قسمت الأحاديث حسب كثير من علماء الحديث إلى حديث متواتر وحديث آحاد. فإذا كان الحديث مرويًا عن جماعة لا يمكن إتفاقهم على الكذب عُدّ "حديثًا متواترًا." والحديث المتواتر يعد ركنًا من أركان العلم الثلاثة عند أهل السنة، أما الأحاديث خارج المتواترة فتعد "أحاديث آحاد" أي هي الأحاديث التي نُقلت من راوٍ واحدٍ. ومع أن بعض الأحاديث التي كانت أحاديث أحاد في زمن الصحابة إلا أنها اشتهرت في عهد تابعي التابعين فأطلق عليها اسم "الأحاديث المشهورة" إلا أن التصنيف الأساسي هو التصنيف إلى حديث "متواتر" وحديث آحاد. وأحاديث الآحاد هذه تُعرض على القرآن والسنة، فإن تماشت معهما قبلت وإلا عدت من الأحاديث التي فيها نظر وأصبحت موضع نقاش وحساب.

هـ- لقاء وراء الزمان والمكان

مع أن ما سنقوله لم يدرج ضمن أصول الحديث إلا أن هناك أناسًا ربانيين تجاوزوا الزمان والمكان وأخذوا بعض الأحاديث من الرسول ﷺ مباشرة. فمثلاً يقول محيي الدين بن عربي إنه أخذ هذا الحديث الذي لا نستطيع عده حديثًا صحيحًا والذي لا يوجد في أي كتاب من كتب الحديث الصحاح من الرسول ﷺ مباشرة: «كنتُ كنزًا لا أُعرَف، فأحببت أن أُعْرَفَ فخلقتُ خلقًا فَعرّفْتُهُمْ بي فَعَرَفوني.»[1]

ونقل عن الإمام الكبير جلال الدين السيوطي أنه التقى رسول الله ﷺ في اليقظة مرارًا. أما الإمام البخاري فكان عند قيامه بتدوين أي حديث من الأحاديث التي توصل إليها بجهوده وتدقيقه يتوضأ ويصلي ركعتين ويتوجه بقلبه إلى الرسول ﷺ متضرعًا وقائلاً: "هل هذا الحديث منكم يا رسول الله؟" ويتصرف حسبما يتلقاه من إشارات قلبية.[2]

هناك جانب للروح يتجاوز الزمان والمكان.. وما نعرفه عن الزمان والمكان ليس شيئًا قطعيًا، كما أن الأمور المعروفة في هذا الموضوع ليس شيئًا كثيرًا. فـ"أينشتاين" يقول بوجود بُعد رابع غير أبعاد المكان الثلاثة -مع أن هذا لم تتم البرهنة عليه بمعطيات القوانين الفيزيائية حتى الآن- هذا مع العلم أن كثيرًا من أولياء الله وقفوا على هذا الأمر، وكانت أحوالهم التي تتجاوز الزمان والمكان إشارة إلى التجليات الجوانية لنظام الوجود.

---

[1] كشف الخفاء للعجلوني، ١٣٢/٢؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص١٧٩؛ النوافح العطرة للصعيدي، ص٢٦٤

[2] تهذيب التذهيب لابن حجر، ٤٩/٩ ؛ فتح الباري لابن حجر، المقدمة، ص٥١٣.

و- تأليف كتب عن الرواة

كتبت كتب مفصلة حول رواة الأحاديث سواء أكانوا من الصحابة أم من التابعين أم من تابعي التابعين، أين ولدوا؟ إلى أين هاجروا؟ أين أقاموا؟ أين عاشوا؟ أين توفوا؟ أين نشروا علومهم ومع من التقوا؟ وممن أخذوا علومهم؟ تناولت هذه الكتب كل هذه الأمور والتفاصيل.

كان علي بن المديني أول من كتب في هذا الموضوع، إذ سجل في كتابه "كتاب معرفة الصحابة" عن الصحابة الذين هاجروا من مكة أو من المدينة فسجل فيه من ذهب منهم إلى الطائف أو إلى الشام، ومن ذهب إلى الكوفة أو إلى البصرة أو إلى بلاد ما وراء النهر وأين بقوا ومع من التقوا ومن درسوا عليه. ونستطيع أن نعد الكتب التالية من الكتب المشهورة في هذا المجال:

- كتاب "الاستيعاب" لابن عبد البر،
- كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر،
- كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير،
- كتاب "الطبقات" لابن سعد،
- كتاب "التاريخ" لابن عساكر،
- كتاب "التاريخ" للبخاري،
- كتاب "التاريخ الكبير" ليحيى بن معين.

فمن هذه الكتب كتب تناولت تاريخ ثلاثة آلاف من الصحابة، ومنها من تناولت حياة خمسة آلاف أو عشرة آلاف من الصحابة. فعندما نطلع على كتاب "الكاشف" للذهبي نراه يعطي معلومات عن كل شخص يذكره: أسماء الأشخاص الذين أخذ عنهم الأحاديث وأسماء الأشخاص الذين رووا عنه. وهكذا نستطيع تقييم الأحاديث من ناحية السند بعد إحاطتنا علمًا بسلسلة الأحاديث ومن روى الحديث وممن روى هذا الحديث.

ز- تدقيق كتب الحديث وتمحيصها

ومع كل هذا التدقيق والتمحيص والحيطة والحذر تسللت بعض الأحاديث الموضوعة إلى كتب الحديث الصحاح، لذا تم القيام بنخل الأحاديث مرة أخرى وتمييز اللآلئ الحقيقية عن اللآلئ المصنوعة وألفت كتب عديدة في هذا المجال. فقام المقدسي ولأول

مرة بجمع الأحاديث الموضوعة في كتابه "التذكرة الكبرى" وتبعه الآخرون، وكان مقياس المقدسي وغيره مِمَّنْ ألفوا في هذا الموضوع شديدًا بل حتى قاسيًا جدًا إلى درجة أن "ابن الجوزي" حكم على بعض الأحاديث الواردة في مسند الإمام أحمد الذي يحتوي على أكثر من أربعين ألف حديث بالوضع أو بالضعف أو بالترك مع أن الإمام أحمد بن حنبل إمام مذهبه، وبدأ بتقييم الأحاديث الواردة في المسند، وجاء بعده الحافظ ابن حجر العسقلاني فتناول الأحاديث التي حكم عليها ابن الجوزي بالوضع أو الضعف أو الترك، ومحصها من جديد ودققها في كتابه "القول المسدّد في الذبّ عن مسند أحمد"، ونتيجة لهذا التدقيق والفرز استطاع أن يبرهن على صحة أحاديث "المسند" عن طرق أخرى مختلفة عدا ثلاثة عشر حديثًا ذكر أنه لا يستند إلى أساس متين.

وأريد هنا أن أجذب انتباه القراء إلى أن الكثير من المحدثين يتهمون "ابن الجوزي" بالتساهل وعدم الدقة لأنه أسند الضعف أو الوضع إلى كثير من الأحاديث الصحيحة. لذا، قام ابن حجر الملقب بخاتم الحفاظ والإمام جلال الدين السيوطي بتدقيق الأحاديث التي عدها "ابن الجوزي" موضوعة من جديد فقال السيوطي: "لم أر ضمن هذه الأحاديث أي حديث موضوع، بل فيها أحاديث ضعيفة فقط"،[1] وقام السيوطي بتدقيق كتاب "الموضوعات الكبرى" لابن الجوزي والأحاديث التي قال إنها موضوعة، وذلك في كتابه المشهور: "اللآلئ المصنوعة" حيث بيّن فيه أي حديث من تلك الأحاديث موضوعة وأيًا منها متروكة وأيًا منها صحيحة.

وعدا هذا فقد كتب بعض المستدركات، إذ تم فيها جمع الأحاديث التي تعد صحيحة حسب المقاييس والشروط التي وضعها البخاري ومسلم ولكنهما لم يدرجاها في صحيحهما، بل جمعت ضمن كتب أخرى، وأشهرها "المستدرك" للحاكم النيسابوري. وبعده جاء مستدرك الإمام الذهبي الذي قال ابن حجر في حقه أنه صرف حياته في الإعجاب به وأنه كان يكتب أدعية في تقوية الذاكرة ثم يبلعها لكي يهب الله له ذاكرة كذاكرة الذهبي. وقام الذهبي في مستدركه هذا بتدقيق ما جاء في مستدرك الحاكم بكل عناية وحرص وحلله وأوضح كل شيء من جديد.

ثم كتبت بعض الكتب حول الأقوال التي اشتهرت لدى العامة بأنها أحاديث، فكتب السخاوي كتابه المعروف بـ"المقاصد الحسنة"، وكتب العجلوني كتابه "كشف الخفاء" حيث

---

[1] اللآلئ المصنوعة للسيوطي، ٢/١.

تناولا هذه الأقوال وبيّنا أيًا منها حديثًا نبويًا وأيا منها ليس بحديث، فبجانب الأحاديث العديدة التي تحض على العلم إلا أن بعض ما اشتهر لدى العامة من أقوال أمثال: «العلم من المهد إلى اللحد» و«اطلبوا العلم ولو بالصين»،[1] و«خير الناس من ينفع الناس»[2] ليست بأحاديث مثلما أوضحا ذلك.

إذن، فبعد كل هذه الجهود في التدقيق والتمحيص وبعد بذل كل هذه العناية في جمع الحديث وتحليله وفرزه وتدقيقه أيمكن النظر بعين الشك إلى الأحاديث الموجودة في كتب الصحاح، وهل من الإنصاف محاولة التشكيك في النبع وفي المصدر الثاني للدين الإسلامي؟ وكيف يمكن تفسير هذه المحاولات؟

٢) أمثلة من الأحاديث الموضوعة

شرحنا فيما سبق الجهود الكبيرة التي بذلها علماء الحديث العظام في جمع الأحاديث وفرزها فأصبحنا نعرف بفضل هذه الجهود الكبيرة الأحاديث الصحيحة والأحاديث الموضوعة بوضوح تام، لأن السنة التي هي تفسير للقرآن الكريم مشمولة بالوعد الإلهي بالحفظ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩). ولكن هذه السنة تعرضت لهجوم المستشرقين ولهجوم بعض السائرين في ركابهم، لذا فسنقوم باستعراض أمثلة من الأحاديث الموضوعة، ثم باستعراض بعض الأحاديث الصحيحة التي تعرضت لها ألسنة البعض.

هناك رواية وردت على أنها حديث وهي: «أبو حنيفة سراج أمتي.»[3] صحيح أن أبا حنيفة أصبح سراجًا لأمة محمد ﷺ، فقليل من خدم الإسلام خدمته بعد الصحابة، غير أن هذا الكلام لم يصدر من فم سيد المرسلين ﷺ، بل هو قول أملاه التعصب المذهبي.

ومثال آخر: «اتخِذوا الديكَ الأبيض»،[4] الديك الأبيض محبوب من قبل الناس، ولكن نقاد الحديث بينوا أنه حديث موضوع من قبل بعض الرواة الكذابين، وأنه ليس بحديث، وقد يكون واضع هذا الحديث أحد تجار الديوك.

---

[1] كنز العمال للهندي، ١٣٨/١٠؛ فيض القدير للمناوي، ٥٤٢/١؛ كشف الخفاء للعجلوني، ١٣٨/١؛ الفردوس للديلمي، ٧٨/١.

[2] كنز العمال للهندي، ١٢٨/١٦؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٣٩٣/١.

[3] كشف الخفاء للعجلوني، ٣٣/١؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص٤٧.

[4] كشف الخفاء للعجلوني، ٣٦/١.

هناك قول شائع بين الناس وهو: «اتق شر من أحسنت إليه»،[١] وهذا القول علاوة على أنه ليس بحديث فإنه يخالف المنطق، ولو عكسنا هذا القول أي لو قلنا: "أَحسِنْ إلى من اتقيتَ شره" لكان هذا أقرب إلى المنطق، ذلك لأن الإحسان يلين قلب الإنسان.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

وهناك قول أو حكمة مأثورة تقول: "الإنسان عبد الإحسان" أما القول الأول فهو كذب صريح لا يمكن إسناده إلى الرسول ﷺ.

قلت قبل قليل بأن الكلام المذكور والمنسوب إلى الرسول ﷺ لا يتفق مع العقل ومع المنطق. أجل، فالإسلام دين العقل والمنطق، إلا أن كونه عقليًا ومنطقيًا شيء واستناده إلى العقل والمنطق شيء آخر. فالإسلام حقيقة فوق مستوى الإنسان.. حقيقة وضعها الله تعالى وبلغها الرسول ﷺ، ووظيفة الإنسان هي الوصول إلى هذه الحقيقة، وإلا فإن العقول المنفردة لا تستطيع الوصول إلى أفق هذه الحقيقة وحدها أبدًا.

هذه هي الحقيقة.. ومع ذلك نرى جهود بعض المحافل العلمية لجر الموضوع إلى مجرى آخر، فمثلاً يسندون القول التالي إلى الرسول ﷺ (أو ما معناه): عندما تنقلون مني حديثًا فتشاوروا فيما بينكم فإن كان موافقًا للحقيقة فصدقوه واتخذوه أساسًا لدينكم، لا يهم إن كنت أنا قائل ذلك الكلام أم لا، المهم أن يكون الكلام موافقًا للحقيقة.

هذا الكلام ليس بكلام الرسول ﷺ أبدًا، ذلك لأن الله تعالى وحده هو الذي يعلم الحقيقة وحده ويعينها والرسول ﷺ هو الذي ينقل إلينا هذه الحقيقة فقط، والحقيقة لا تتبع المقاييس التي يضعها الأشخاص، ولا يمكن اتخاذ هذه المقاييس معيارًا لأحاديث الرسول ﷺ. على العكس تمامًا فإن على الأشخاص أن يوازنوا تصرفاتهم حسب السنة النبوية، أي حسب أقواله وتصرفاته.

هناك حديث مختلق آخر وهو: «وُلدت في زمن الملك العادل»،[٢] وهو كلام مختلق في مدح الملك الإيراني "أنوشيروان"، فالرسول ﷺ لا يحتاج إلى مدح مضاف إليه بسبب شخص آخر، لأنه هو الذي أعطى الزهو والفخر للزمان والمكان، ولا يعلي مرتبة مثل هذا الرسول الكريم أن ملكاً عادلاً كان يعيش في زمانه.

وهناك قول متداول بين الناس وسمعناه من المنابر كثيرًا على أنه حديث نبوي وهو ليس

---

[١] كشف الخفاء للعجلوني، ١/٤٣؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص٥٠.

[٢] كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٣٤٠؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص٢٥٩.

كذلك مع أنه لا يخالف العقل والمنطق وهو: «النظافة من الإيمان.»[1] ومع كون معنى هذا القول صحيحًا إلا أنه ليس بحديث. قلنا إن معناه صحيح إذ ورد في حديث صحيح: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان.»[2]

وقول خادع آخر: «تختموا بالعقيق.»[3] مثل هذا الكلام لم يصدر عن الرسول ﷺ، ولكن هناك حديث روته أمنا عائشة ﵂ وهو: «تخيموا بالعقيق»، أي اضربوا خيامكم في العقيق. والعقيق اسم وادٍ بين المدينة المنورة ومكة المكرمة. ولما كانت الكتابة في العهود الأولى خالية من التنقيط فقد انقلبت كلمة "تخيموا" إلى "تختموا"، واختلطت عليهم كلمة "العقيق" فظنوها حجر العقيق، ثم أضافوا في نهايته كذباً آخر وهو «فإنه ينفي الفقر.»[4]

وحديث موضوع آخر وهو «النظرة إلى وجه جميل عبادة.» وهو قول مكذوب وضلالة وانحراف.كما أن: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[5] ليس بحديث بل هو حديث موضوع. الغاية من وضعه -كما توهم واضعوه- إظهار اهتمام الإسلام بالعلم. ففي القرآن الكريم وفي السنة النبوية الكثير من الحض على العلم والتشويق له بحيث لا نحتاج إلى مثل هذه الأقوال الشبيهة بسجع الكهان، فالقرآن الكريم يقول مثلاً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨) ويقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:٩) وفي الحديث الصحيح: «إن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم.»[6] فوجود عشرات من الآيات والأحاديث النبوية الصحيحة تغنينا عن أقوال موضوعة.

و . الأحاديث الصحيحة المتهمة بالوضع

بينما لا نرى من يتكلم ضد هذه الأقوال المنتشرة والمحسوبة كأحاديث بل حتى أنها تكون أحيانًا موضوعًا للخطب والمقالات. فإننا نرى من يتهم بالوضع الكثير من الأحاديث الموجودة في صحاح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الأحاديث الستة.

---

[1] الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص٩١.

[2] مسلم، الطهارة ١؛ الترمذي، الدعوات ٨٦.

[3] كنز العمال للهندي، ٦٦٣/٦؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٢٩٩/١-٣٠١؛ كتاب الموضوعات لابن الجوزي، ٥٧/٣.

[4] كنز العمال للهندي، ٦٦٣/٦-٦٦٤؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٢٩٩/١.

[5] كشف الخفاء للعجلوني، ١٣٨/١؛ الفردوس للديلمي، ٧٨/١؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص٢٥٢.

[6] أبو داود، العلم ١؛ الترمذي، العلم ١٩؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧.

١) بشارة التوراة

فمن هذه الأحاديث الحديث التالي الوارد في صحيح البخاري: «في التوراة: [يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحِرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بِفَظٍ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملةَ العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينًا عُميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا.]»[1]

قام بعض المستشرقين ومن يسير خلفهم في العالم الإسلامي بنقد هذا الحديث وزعموا أنه موضوع، والسبب بسيط وهو كون رواة الحديث هم عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس وأنس وأبو هريرة وكذلك وجود كعب الأحبار ضمن الرواة.

أولاً ليس هناك في هذا الحديث شيء يناقض صفات الرسول ﷺ أو أي حادثة تاريخية أو أي وصف قرآني للرسول ﷺ، ثم نستطيع ذكر أن التوراة والإنجيل لا يزالان حافلين ببشارات وإشارات حول رسولنا ﷺ رغم تحريفهما، والقرآن الكريم يقول في حق الذين يؤمنون بالرسول ﷺ من أهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ (الأعراف:١٥٧) ويقول أيضًا في نهاية سورة الفتح: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ (الفتح:٢٩).

إذن، ألا يخبرنا القرآن الكريم بأن التوراة والإنجيل يتحدثان عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه؟ حتى أن العلامة حسين الجِسْر ثبت في نسخ التوراة والإنجيل الموجودة حاليًا ١١٤ إشارة تتعلق برسولنا ﷺ. ولا يسع الإنسان إلا الذهول من كثرة هذه البشارات رغم كل هذا التحريف والتغيير، وسوف يأتي اليوم الذي ستؤيد البحوث صحة إنجيل بَرنابا إن شاء الله حيث نجد فيه اسم رسولنا ﷺ صراحة، أجل، فإن التبشير باسم الرسول الذي سيأتي من بعده كان من أهم وظائف عيسى عليه السلام.

ثم إن معظم من دخل الإسلام كان إما من المشركين أو من النصارى أو من اليهود، وكان كعب الأحبار مسلمًا من أصل يهودي، ويقول عنه مفكر العصر الحديث "إن معلوماته أسلمت أيضًا بعدما أشهر إسلامه."[2]

وكان ينقل بعض الإسرائيليات التي لا تخالف القرآن والسنة في المواضيع التي سكت

---

[1] البخاري، تفسير سورة (٤٨) ٣، البيوع ٥٠؛ الدارمي، المقدمة، ٢.

[2] صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٣٤.

عنها القرآن والسنة. ولم يكن -كما ادعى البعض- عدوًا متعصبًا ضد الإسلام. أما اتهامه بوجود علاقة بينه وبين مقتل عمر بن الخطاب ﷺ فهي تهمة اختلقت بعد عدة عصور. وكان كبار الصحابة من أمثال ابن عباس وأبي هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن عمرو ﷺ يستمعون إليه وهو ينقل إليهم بعض أخبار التوراة، ولكن ما كان يكذب لا هو ولا أحد من هؤلاء الصحابة الكرام. فالكذب ما كان ليقرب حتى من أحلامهم، لذا فالقيام باتهام أحاديث صحيحه بالوضع واتهام رواتها من كبار الصحابة دون أي مبرر وبملاحظات سطحية وارتجالية مع كون الحوادث والوقائع التاريخية واضحة جدًا في هذا الخصوص لا يقصد منه سوى النيل من السنة النبوية التي هي الركن الثاني للإسلام ومحاولة هدمها.

٢) التوسل

والحديث الصحيح الآخر الذي جوبه بالاعتراض هو عن أنس ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ أخذ بيد العباس ﷺ في عام القحط وتوسل به إلى الله تعالى واستمطره قائلاً: "اللّٰهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا" فيُسقَون.[1]

جاء الاعتراض على هذا الحديث في كتاب ابن أبي الدنيا وفي كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ الذي كان تلميذًا من تلاميذ "النظّام" إمام المعتزلة المعروف بإنكاره للكثير من الأحاديث الصحيحة والمعروف أيضاً بنظرته المادية، إذ يقول الجاحظ في كتابه هذا إن في حادثة استسقاء عمر ﷺ اضطرابًا كثيراً إذ ترد مرة بأنه دعا وهو على المنبر، ومرة أنه دعا بعد الصلاة.

أولاً: إن الجاحظ ليس بمحدث، وعلاقته مع الحديث علاقة أي إنسان عادي، أما ابن أبي الدنيا فهو رغم كونه شخصاً تقياً إلا أن كثيراً من المحدثين يتفقون على احتواء كتابه على الكثير من الأكاذيب والأخطاء. إذن، فكيف يمكن إصدار حكم على حديث ما استناداً إلى مثل هؤلاء؟ ولو قال أحدهم إن الحديث الفلاني رواه الإمام الغزالي لضحكوا منه، لأنه مع كونه مفكراً إسلامياً فريداً وكبيراً إلا أنه لم يكن محدثاً، حتى أن زين الدين العراقي -الذي يعد مجددًا في علم الحديث- تناول الأحاديث الواردة في كتاب "إحياء علوم الدين" فأشار إلى الصحيح وإلى الحسن وإلى الضعيف منها، أي قام بنقد وتقييم الأحاديث الواردة فيه.. فلا يسأل من الطبيب علوم الهندسة ولا من الكيمياوي علوم الطب.. إذن،

[1] البخاري، الاستسقاء، ٣، فضائل أصحاب النبي ١١.

فإن الاعتراض على هذا الحديث لا يستند إلى أساس علمي ولا إلى أساس متين.

ثانيًا: إن التوسل ليس شيئًا غريبًا أو مستهجنًا، فالقرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة:٣٥). وكان الصحابة الكرام يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم، وهذا الطلب مبني على الأمر نفسه، أي أمر التوسل. فمثلاً جاء بدوي إلى الرسول ﷺ في أحد الأيام وشكا إليه القحط وطلب منه أن يستسقي لهم فرفع رسول ﷺ يديه ودعا: «اللّهم اسقنا غيثًا» فلم يلبث حتى تجمعت السحب وأرعدت وبدأ المطر ينزل مدرارًا، واستمر المطر أيامًا حتى اشتكى الناس وجاءوا إليه ورجوه الدعاء لتحبس السماء ماءها فدعا فأمسكت السماء ماءها، وشكلت الغيوم تاجًا فوق المدينة وذهب الناس إلى بيوتهم تغمرهم أشعة الشمس حتى أن الرسول ﷺ تبسم أمام هذا المنظر وقال ووجهه مشرق: «أشهد أن الله على كل شيء قدير وأني عبد الله ورسوله.»[1]

وقد ورد في أحاديث صحيحة حادثة انحباس ثلاثة مؤمنين في مغارة وقيام كل واحد منهم بالتوسل لله بأعماله الصالحة للتخلص من ذلك المأزق، فذكر أحدهم بره بوالديه، وذكر الآخر ابتعاده عن غواية ابنة عمه خشية من الله تعالى، وذكر الثالث قيامه بتنمية وتشغيل أجرة شخص خدمه ولم يتيسر له تسليمها له ثم قيامه بإعطاء هذا المال الذي نماه له عند لقائه به.. ذكروا هذا ودعوا الله تعالى أن يخلصهم مما هم فيه من الضيق بحرمة هذه الأعمال الصالحة.[2] كما وجد في عهد الرسول ﷺ من استعان بالوسيلة وأقرهم الرسول ﷺ على ذلك، فمثلاً جاءه أحدهم يشتكي من عمى عينيه فعلمه الرسول ﷺ أن يتوضأ ثم يصلي ركعتين ثم يدعو الله تعالى بالدعاء الآتي: «اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد! إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقضى لي، اللّهم فشَفِّعه فيّ.»[3] وما أن نفذ ذلك الشخص توصية الرسول ﷺ حتى تخلص من العمى وأصبح مبصراً.

فإذا كان القرآن الكريم يوصينا بالبحث عن وسيلة إليه، وإذا كان الرسول ﷺ يوصينا بالتوسل بالقران، وإذا كان يجوّز التوسل به كما يوصي بالتوسل بأعماله الصالحة،[4] إذن، فما الغرابة في التوسل، ولماذا يستهجنون قيام عمر بن الخطاب ﷺ بالتوسل عند استسقائه المطر؟ ليس هذا إلا تمردًا على السنة وتشكيك بها من دون مبرر.

---

[1] البخاري، الاستسقاء ١٤؛ أبو داود، الاستسقاء ٢؛ ابن ماجه، الإقامة ١٥٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٥٣/٤-٢٥٦.

[2] انظر: البخاري، الإجارة ١٢؛ مسلم، الذكر ١٠٠.

[3] ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٨٩؛ الترمذي، الدعوات ١١٨.

[4] انظر: البخاري، الإجارة ١٢؛ مسلم، الذكر ١٠٠.

٣) الإناء الذي ولغ فيه الكلب

هناك حديث آخر رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حنبل رفضه المستشرقون ومن يسير في أثرهم، وذلك لمجرد أن عقولهم لم تستطع استيعابه أو لكون الرواة هم إما أبو هريرة أو عبد الله بن عمر أو أنس ﷺ والحديث هو: «طهور إناء أحدكم إذا وَلَغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أُولاهن بالتراب.»[1] ويرد الحديث في رواية أخرى بصيغة: «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات.»[2]

وتعبير "سبع" الوارد في الحديث قد يقصد منه العدد "سبعة" نفسه أو هو يرمز إلى الكثرة، لذا رأى فقهاء المذهب الحنفي أن غسل الإناء ثلاث مرات يكفي، أي إذا كان غسل الإناء ثلاث مرات يكفي لنظافته تم الاكتفاء بذلك.[3]

يمكن كتابة كتاب في المعاني الشاملة لهذا الحديث الشريف، وهو إشارة من إشارات النبوة، فقد تم في العصر الحديث فقط معرفة وجود أمراض تنتقل من الكلاب إلى الإنسان. وهذه المسألة المهمة في موضوع حفظ الصحة نبهت إلى وجود أمراض مشتركة بين الإنسان والكلب لوجود بعض الجراثيم والفيروسات التي تستطيع العيش في الكلب وفي الإنسان وتسبب لهما المرض، أي أن هذا الحديث يعد معجزة نبوية، وقد ظهرت كتابات لا تعد ولاتحصى في المجلات العلمية حول هذا الخصوص.

٤) حديث الذباب

وشبيه بالحديث السابق ما جاء في حديث صحيح آخر تناوله بالنقد حتى "موريس بوكاي" الذي بدأنا نترجم كتبه بكل تقدير، إذ ادعى أن المسلمين قبلوا هذا الحديث نتيجة ذهول أو جهل، إلا أن النتيجة كانت في صف رواة الحديث من أمثال أبي هريرة وخيبة وخسرانا للمستشرقين وتابعيهم، والحديث هو: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمِسْه كله ثم ليطرحه.»[4] ليس في الإمكان نقد الحديث من ناحية السند، ذلك لأننا نجد أن رواته

---

[1] البخاري، الوضوء ٣٣؛ مسلم، الطهارة ٩١؛ أبو داود، الطهارة ٣٧؛ الترمذي، الطهارة ٦٨؛ النسائي، الطهارة ٥٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٤٥، ٢٥٣

[2] البخاري، الوضوء ٣٣؛ مسلم، الطهارة ٩٠.

[3] الهداية للمرغناني، ١/٢٣.

[4] البخاري، الطب ٥٨، بدء الخلق ١٧؛ أبو داود، الأطعمة ٤٨؛ النسائي، الفرع ١١؛ ابن ماجه، الطب ٣١؛ الدارمي، الأطعمة ١٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٢٩، ٢٤٦.

هم البخاري وأبو داود والنسائي والدارمي وابن حنبل، وأن الصحابة والأمة قبلته ولم يورد علماء الحديث أي اعتراض حوله حتى وصوله إلينا.

كان أئمة المعتزلة أول من اعترضوا عليه لأنه خالف العلم الموجود آنذاك ثم اعترض عليه المستشرقون ورجال العلم في القرن العشرين، هذا علمًا بأن هذا الحديث يشكل وحده معجزة، ذلك لأن الرسول ﷺ يجلب الأنظار قبل كل شيء إلى قيام الذباب بنقل الجراثيم لأن الحديث يستمر هكذا: «فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء.»

فعندما يريد الذباب أن يحط على مكان نراه يستعمل أحد جناحيه باحتياط وهو نادرًا ما يحط على مكان لا يستطيع أن يطير منه كالعسل مثلاً، فدماغه الصغير جدًا مخطط ومبرمج لتسيير أموره الحياتية، ولكن هذا الذباب ينقل معه للإنسان عندما يحط على وجهه أو طعامه أمراضًا عديدة كالتيفود والكوليرا والديزانطري. وهكذا نرى أن العلم متأخر عن رسول الله ﷺ -الذي أعلن أن في أحد جناحي الذباب داء وفي الآخر دواء- عدة عصور. وقد كشف علم الطب الآن هذه الحقيقة التي عبر عنها الرسول بكلمات قليلة. إذن، فإن رد هذا الحديث -الذي قبلته الأمة أربعة عشر قرنًا- لمجرد وجود أبي هريرة ضمن الرواة أو لمجرد عدم استيعاب عقولهم له يعد قرارًا مستعجلاً لا يتلاءم مع العلم ولا مع الحقيقة.

ولا تقتصر صفة حمل الداء في جانب وحمل الدواء في جانب آخر على الذباب فقط، فالأمر وارد أيضًا لدى العقرب ولدى النحل، فعندما يلسع العقرب شخصًا يأخذون العقرب ويسحقونه ويضعونه على موضع اللسع فيكون شفاء، أما النحل فنراها تصنع العسل في جانب والسم في جانب آخر.

٥) شد الرحال إلى المساجد الثلاثة

وحديث صحيح آخر تعرض للنقد على أساس أنه يهدم قواعد السنة ولكونه مرويًا عن الصحابة عن كعب الأحبار، أو لمظنة أنه يقدس المسجد الأقصى باسم اليهودية. والحديث هو: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»[1] ويرد المسجد الأقصى في بعض الروايات قبل المسجد النبوي.

أولاً: لا يوجد مؤمن يشعر بأي غضاضة عند مدح المسجد الأقصى، لأنه المسجد الذي

---

[1] البخاري، الصلاة في مسجد مكة ١؛ مسلم، الحج ٥١١؛ الترمذي، الصلاة ١٢٦؛ النسائي، المساجد ١٠؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٩٦؛ المسند للإمام أحمد، ٢٣٤/٣.

يذكر القرآن الكريم عنه ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء:١)، وهو المكان الذي عرج إليه الرسول ﷺ في ليلة المعراج وأمّ أرواح الأنبياء العظام فيه. فالمسجد الأقصى ليس معبدًا لليهود، بل هو رمز لحكم الإسلام الذي هو دين الله المبين. فالبقعة المباركة التي تضم المسجد الأقصى هي البقعة التي فتحها يوشع بن نون فتى الرسول العظيم موسى ﷺ عندما رأى أن جماعته قد نضجت وتهيأت للأمر، ثم أصبح فتح هذه البقعة المباركة من نصيب عمر بن الخطاب ﷺ ثم للقائد الإسلامي العظيم صلاح الدين الأيوبي وسيكون فتحها الأخير من نصيب الربانيين في المستقبل القريب إن شاء الله. المسجد الأقصى رمز، وفقده هزيمة معنوية، وفتحه من جديد سيكون رمزًا لوجدان الإسلام ذاته.. فإذا كان المسجد الأقصى يملك قيمة ومكانة كبيرة في كتاب الله وقام الرسول ﷺ بالتعبير عن هذه القيمة والمكانة فما الداعي لتكذيب هذا الحديث؟ أما كونه مرجحًا على المسجد النبوي فهذا موضوع يمكن مناقشته، أما العبادة في المسجد الأقصى وفي غيره من الأماكن المماثلة فلا توجد عبادة خاصة لها، وتعيين زمان ومكان العبادات يعود للشارع، ففي رواية عن ابن عباس أن امرأة نذرت أن تصلي في المسجد الأقصى إن شفاها الله من مرضها، وعندما شفيت بدأت تستعد للسفر، وقبيل سفرها زارت أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها وأعلمتها بأمرها فقالت لها ميمونة رضي الله عنها: أجلسي فكلي ما صنعت وصلي في مسجد الرسول ﷺ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا مسجد الكعبة.»[١]

أجل، إن الصلاة يمكن أن تؤدى في كل مكان ما دام الله تعالى لم يخصص زمانًا خاصًا ومكانًا خاصًا للعبادة والطاعة.. فمن نذر أن يضحي هنا أضحية يستطيع أن يذبح أضحيته في مكان آخر، ومن نذر أن يضحي في مكان آخر يستطيع أن يوفي بنذره هنا أيضًا. وعندما تناولت أمنا ميمونة رضي الله عنها الموضوع من هذه الزاوية أرادت أيضًا أن تبرز أهمية وأفضلية الصلاة في المسجد النبوي، ومع ذلك فإن بعض الفقهاء الكرام استثنوا المسجد الحرام من هذه القاعدة العامة لكونه مشتملاً على بعض الخصوصيات مثل إمكانية الصلاة فيه على الدوام وإمكانية الطواف حوله إلى جانب أداء الصلاة، لذا قالوا بأن من نذر أضحية في المسجد الحرام عليه أن يوفي بنذره هناك. ولا تقلل هذه المسألة الفقهية ولا كلام أمنا ميمونة رضي الله عنها من قيمة المسجد الأقصى أو من قيمة أي مسجد آخر ومنزلته.

---

[١] البخاري، الصلاة في مسجد مكة ١؛ مسلم، الحج ٥١٠؛ الترمذي، المواقيت ١٢٦؛ النسائي، المناسك ١٢٤.

٦) الطائفة الملتزمة بالحق

وحديث صحيح آخر تعرض للتكذيب يرينا مستوى المكذبين له، وهو حديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك.»[1]

من الصعب فهم السبب في معارضة هذا الحديث، فالتاريخ الإسلامي لم يشهد على مدى أربعة عشر قرنًا أي عهد انمسح فيه الإسلام من الدنيا ومن القلوب ولم يجد له مناصرين ومعاونين. أجل، فالتاريخ لا يحدثنا عن عهد لم يكن للإسلام جماعة عملت في سبيله.. لندع الماضي ولنتأمل القرن العشرين وهو أكثر القرون تهجمًا على الدين وعلى المتدينين، ومع ذلك لم يستطيعوا إزالة الدين ومسحه من الوجود، إذن، فأين الجانب غير المقنع في هذا الحديث؟ قامت الشيوعية بمطاردة الدين في ديارها وأعلنت عليه حربًا ضروسًا بهدف مسحه من الوجود، ولكن كان هناك على الدوام حتى في تلك البلاد الشيوعية من نذر نفسه للدين، بل إن الإنسانية بعد أن سبحت في مستنقع الكفر كل هذه السنوات تفتش الآن عن مخرج وعن منقذ لها، فلا تجد إلا الدين -والدين الإسلامي على الأخص- لأن الدين الإسلامي شمعة إلهية لا يمكن إطفاؤها بالنفخ.

قدمت تفاسير عديدة لكلمة "الجماعة" الواردة في الحديث، فالبخاري يقول: "إنهم أهل الشام"،[2] ذلك لأن الشام كان في عهده مركز العلم، ومع أن الخلافة كانت قد انتقلت من الشام إلى بغداد إلا أن بلاد الشام حافظت على صفة مركزيتها هذه عدة قرون، فالعلماء الكبار من أمثال الأوزاعي والليث بن سعد ومالك كانوا يرسلون طلابهم إلى الشام ليلتفوا حول الأمراء وينشروا العلم.

ورأى آخرون أن المقصود بـ"الجماعة" هم المحدثون، ورأى آخرون أنهم هم المفسرون. وعلى أي حال فلو تجنبنا حصر معنى "الجماعة" في الحديث في زمان معين أو في مجموعة معينة لكان ذلك أفضل وأقرب إلى معنى الحديث. فهذه الجماعة وجدت على الدوام.. في الشام مرة وفي غيرها مرة.. مرة حول عمر بن عبد العزيز ﷺ ومرة حول الإمام الغزالي ﷺ، وأخرى حول الإمام أحمد السرهندي ﷺ أو حول مولانا خالد البغدادي ﷺ أو حول آخر.. ولكن المهم أنهم وجدوا على الدوام وسيوجدون في المستقبل أيضًا على الدوام.

---

[1] البخاري، الاعتصام ١٠، التوحيد ٢٩؛ مسلم، الإمارة ١٧٠؛ أبو داود، الفتن ٤؛ الترمذي، الفتن ٥١؛ ابن ماجه، المقدمة، ١.

[2] البخاري، التوحيد ٢٩.

٧) غسل اليدين بعد الاستيقاظ

هناك حديث آخر تعرض للرد من قبل من لم يفهموه وهو حديث: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يُدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده، أو أين كانت تطوف يده.»[1]

وقد استهزأ أحمد أمين صاحب كتاب "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام" بهذا الحديث قائلاً: "ألا يعرف الإنسان أين كانت تطوف يده؟" واستهزأ به أيضًا أبو رَيّة والمستشرق "غولتسهر" الذي يُعد أستاذًا لهؤلاء. ولكن أحقًا يعلم الإنسان أين كانت يده تطوف في الليل؟ أنا أرى أن هذا الحديث يتضمن معجزة من ناحية علم حفظ الصحة جاوزت الأزمان وهي تظهر وتبين حقائق مهمة.

قد يكون الإنسان مصابًا بحساسية أو مرض جلدي، وقد يحك في الليل دون أن يشعر بعض أجزاء جسده، وعلم الطب اليوم يقول إن ملايين الجراثيم توجد تحت الأظافر، إذن، أيجوز مثل هذا الإنسان الذي لوث أظافره وتحت أظافره بالجراثيم أن يمد يده عند فطوره صباحًا إلى الطعام أو إلى إناء الماء؟ ألا يعني ذلك أنه يفتح الطريق للجراثيم لتغزو جسمه؟

إذن، فإن رد مثل هذا الحديث الذي قبلته الأمة منذ البداية حتى الآن والذي لا يتناقض مع العلم بل يتماشى ويتلاءم معه، وذلك لمجرد أن بعض المستشرقين -ومن ورائهم بعض المستغربين في العالم الإسلامي- لم يعجبهم رواة هذا الحديث من الصحابة، أو لأن المستوى العلمي في عهد هؤلاء المستشرقين لم يكن كافيًا لفهم هذا الحديث، أيجوز رد هذا الحديث استنادًا إلى هذه الأسباب الواهية؟

٨) لقاء النبي موسى عليه السلام في المعراج

من بين الأحاديث التي حاولوا ردها هو الحديث الوارد حول لقاء رسول الله ﷺ بموسى عليه السلام في المعراج والذي أرشد رسولنا ﷺ إلى تقليل أوقات الصلاة -التي فرضت بادئ الأمر خمسين وقتا- إلى خمس أوقات،[2] مع أن هذا الحديث رواه أوثق الرواة من رجال الكتب الستة وغيرها.

---

[1] البخاري، الوضوء ٢٦؛ مسلم، الطهارة ٨٧-٨٨؛ أبو داود، الطهارة ٥٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢٤١/٢، ٢٥٢، ٢٦٥.

[2] البخاري، الصلاة ١؛ مسلم، الإيمان ٢٦٣؛ النسائي، الصلاة ١؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٩٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٠٨/٩.

أولاً: إن هذا كان لقاء ولم يكن مراجعة، وحتى لو راجع رسولنا ﷺ موسى ﵇ لما كان في الأمر غرابة، فالرسول ﷺ كان في المعراج لأول مرة، أما موسى ﵇ فكان في ذلك العالم منذ زمان كنبي مكرم. ثم إن رسولنا ﷺ كان مثال الأدب سواء تجاه الله تعالى أو تجاه النبي موسى ﵇، وكان يبحث دائمًا عن اليسر في سبيل أمته. وكان لقاؤه مع موسى ﵇ ضمن هذا الإطار. ثم إن كان هذا مراجعة فمراجعته لموسى ﵇ كانت مهمة من زاوية تلطيف الجو مع بني إسرائيل أو مع اليهود من الناحية النفسية والاجتماعية. كما أن الرسول ﷺ جاء مصدقًا لجميع الأنبياء، وكان هذا اللقاء يعبر عن هذا المعنى، وكان قبوله وتصديقه لجميع الأنبياء قبولاً رائعًا حتى أنه لم يأذن بتفضيله على الأنبياء السابقين أو عدم احترامهم.. وعندما غمز أحدهم في حق موسى ﵇ تدخل حالاً وقال: «لا تُخَيِّروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله.»[1] أي قام بحفظ حق موسى ﵇.

ثم إننا لا نعرف جميع أبعاد المكان، لذا لا نعرف في أي بُعد جرت بعض الحوادث، فمثلاً هناك حديث ذكر في الكثير من كتب الأحاديث الصحيحة ككتب أحمد بن حنبل ومسلم وابن ماجه عن تميم الداري -الذي أسلم بعد أن كان نصرانيًا- الذي ذكر خبر "الجسّاسة" والدجال في إحدى الجزر، فهل يمكن إنكار مثل هذا الحديث بدعوى أن الداري كان قبل إسلامه نصرانيًا وأنه جلب هذا من النصرانية؟ وهل يمكن إنكاره بدعوى أن هذا أمر غير ممكن؟ ألا يمكن أن نعد هذا رؤية لأشخاص في حالة التحول؟ ولا نقول إننا يجب أن نعده هكذا، علمًا بأننا لا ندري في أي بعد مكاني شاهد الداري هذه الحادثة.

ثم هناك أحاديث عديدة حول نزول المسيح ﵇[2] -مهما كانت طبيعة هذا النزول- فهل علينا أن ننظر إلى جميع هذه الأحاديث على أساس أنها مختلقة من قبل النصرانيين؟ ألم يكن عيسى ﵇ من أولى العزم من الرسل الذي نؤمن بنبوته والذي بشر بقدوم رسولنا ﷺ؟ إنه نبينا أيضًا مثله في ذلك مثل إبراهيم وداود وسليمان وموسى عليهم السلام. ثم أيمكن قبول التخاطب عن بُعدٍ، وتحت الماء بطريقة "تليباثي" وتحضير الأرواح وتنويم

---

[1] البخاري، الخصومات ١، الأنبياء ٢٥؛ ابن ماجه، الزهد ٣٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٣/٢.

[2] البخاري، البيوع ١٠٢، الأنبياء ٤٩؛ مسلم، الإيمان ٢٤٢-٢٤٧؛ أبو داود، الملاحم ١٤؛ الترمذي، الفتن ٢١، ٥٤؛ ابن ماجه، الفتن ٣٣؛ المسند للإمام أحمد، ٢٤٠/٢، ٣٩٤، ٥٣٨، ٦٧/٤.

الإنسان عن بعد وبوساطة التلفون ولا يمكن قبول الحوادث المذكورة سابقًا، والتي لا نعرف في أي بُعد حدثت، أو لا يمكن قبول حديث "شق الصدر" مثلا الذي ورد في كتب معتبرة مثل كتاب "الشفاء" للعلامة القاضي عياض وفي "الدلائل" لأبي نعيم الأصبهاني وفي "الشمائل" لابن كثير وفي غيره من الكتب وذلك لمجرد عدم إمكان تفسيره بالعقل أو بالعلوم التجريبية؟

أجل، إن الذين يحاولون هدم السنة بإنكار مثل هذه الأحاديث الصحيحة سيذهبون، أما السنة فستبقى إلى الأبد.

ز . العوامل التي أدت إلى كثرة الأحاديث

أشار بعض المستشرقين ومن تبعهم في العالم الإسلامي إلى كثرة الأحاديث وإلى أن بعض الصحابة أكثروا من رواية الأحاديث، وزعموا باستحالة صدور كل هذه الأحاديث عن الرسول ﷺ وذلك وصولاً إلى غاية محددة، وهي إلقاء الشبه والشكوك على الأحاديث الصحيحة وعلى السنة النبوية.

١- أهمية الحديث

من الواضح عدم وجود أي مستند متين لمثل هذا الزعم وأمثاله. ذلك لأن للحديث -كما أوضحنا ذلك- أهمية قصوى في الدين الإسلامي وفي حياة المسلم، وكان الصحابة الكرام ﷺ على وعي كامل بهذا في كل حين، لذا كانوا حريصين على التقاط كل كلمة تخرج من بين شفتي الرسول ﷺ وكل عمل أو حركة من حركاته أكثر من حرص صاحب الجواهر على جواهره، لأنهم كانوا يعلمون أن سر سعادة الدنيا والآخرة موجود ضمنها، لذا كانوا حريصين على تدارس كل كلمة وكل سلوك أو إقرار صادر منه وعلى نقشه في ذاكرتهم ثم جعله دستورًا لحياتهم.

أجل، كانوا يراقبون حركات وسكنات الرسول ﷺ طوال ثلاثة وعشرين عاماً عن قرب ويقلدونه في كل مرحلة وفي كل صفحة من صفحات حياتهم، وكان الرسول ﷺ يشرح لهم ولكل المسلمين الذين سيأتون إلى الدنيا حتى يوم القيامة كل ما يهمهم في حياتهم الدنيوية والأخروية بشكل يستطيعون فهمه واستيعابه. وكان أحيانًا كما يقول أبو زيد عمرو بن أخطب: "صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبرَ فخطبَنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى. ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصرُ ثم نزل فصلى. ثم صعد

المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمُنا أحفظُنا."[١]

كان الصحابة الذين معه يعون كلامه هذا طوال ثلاثة وعشرين عامًا ويعضون عليه بالنواجذ مثلما قال الرسول ﷺ.[٢] كان يصلي أمام أصحابه ثم يقول لهم «صلوا كما رأيتموني أصلي.»[٣] ويحج معهم ويقول لهم: «خذوا مناسككم عني.»[٤] لذا، كان من الطبيعي أن يتابع الصحابة كل كلمة منه وكل حركة بكل حرص ويحفظوها ويجعلوا كلامه هذا دستورًا لحياتهم وينقلوه إلى الأجيال القادمة.

أجل، لقد حفظ الصحابة الأحاديث ومزجوها بحياتهم ونقلوها لأنهم كانوا شديدي الارتباط برسول الله ﷺ، وقد آمنوا أن كل كلمة وكل تصرف منه باب مفتوح إلى الجنة، ونحن أيضًا نؤمن بهذا. كانوا يحبونه من أعماق قلوبهم، وما كانوا يحفظون أحاديثه فقط، بل يحتفظون بكل شعرة منه ويتسابقون في ذلك، إذ كانوا يتبركون بكل شيء منه ويجعلونه أعز ذكرى عندهم وكأنه شيء جاء من الغيب أو من اللانهاية، وأنا شخصيًا لم أنس رغم كل حوادث الدهر كلمات بعض الأشخاص الذين كنت أجلهم سواء أكانت هذه كلمات مديح أو كلمات تنبيه، وسواء أكانت ترغيبًا أم ترهيبًا، وأعتقد أن الأمر وارد بالنسبة لكل مسلم.

٢- الذكريات التي خلفت آثارها

إذا كان كل مؤمن لا يستطيع نسيان أقوال بعض من يجلهم من العلماء الذين يتمنون لو كانوا عبيدًا عند باب الرسول ﷺ ويحتفظ بهذه الأقوال كأعز ذكريات لديهم، فكيف يمكن للصحابة الكرام -وهم من هم من المرتبة العالية من سمو النفس والخلق- أن ينسوا جواهر كلام المصطفى ﷺ الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الجهالة والتوحش إلى العلم وجعلهم مربي العالم ومرشديه؟ هذا محال، فهم لم ينسوا. وإذا كنتم أنتم تتسابقون لرؤية شعرات من لحيته الشريفة وتتزاحمون من أجلها تزاحمًا كبيرًا فكيف يستطيع الصحابة رضوان الله عليهم أن يستهينوا بذكراه وهم على تلك الدرجة من القرب منه؟!

كان أنس ﷺ يضم خف الرسول ﷺ إلى صدره بقوة مخافة أن يأخذه منه أحد، وعندما سمع أمير المؤمنين معاوية في الشام أن هناك شخصًا يحتفظ بجبة الرسول ﷺ بذل وزنها ذهبًا

---

[١] مسلم، الفتن ٢٥؛ المسند للإمام أحمد، ٣٤١/٥.

[٢] الترمذي، العلم ١؛ أبو داود، السنة ٥؛ ابن ماجه، المقدمة، ٦؛ الدارمي، المقدمة، ١٦.

[٣] البخاري، الأذان ١٨؛ المسند للإمام أحمد، ٥٣/٥.

[٤] مسلم، الحج ٣١٠؛ أبو داود، المناسك ٧٧؛ النسائي، المناسك ٢٢٠؛ المسند للإمام أحمد، ٣٦٦/٣.

ليحصل عليها. لقد احتفظوا بقربته سنوات طويلة، أما قوسه ونبله وأشياء أخرى فلا تزال محفوظة في "قصر طوب قابي" وهي مصدر نشوة لقلوبنا وعيوننا، وعندما جلب السلطان سليم الأول هذه الأمانات المقدسة ووضعها في "طوب قابي"، ووضع حولها قراء يتلون القرآن الكريم صباح مساء دون انقطاع، ودامت هذه العادة عصورًا عدة وحتى سنوات قريبة،[1] وكثير من المسنين عندنا يعرفون هذا جيدًا. أما السلطان أحمد سلطان الدولة العثمانية التي امتدت في قارات ثلاث فقد تمنى لو كان في الإمكان أن يضع قالب أثر قدم الرسول ﷺ في الطين فوق رأسه كتاج قائلاً: "كم أتمنى أن أضع أثر قدميه المباركتين فوق رأسي."

فإذا كان الذين أتوا بعده بعدة عصور يبجلون ذكراه كل هذا التبجيل، أيمكن أن يستهين صحابته الكرام بذكراه وهم الذين عاشوا معه؟ كلا، أبدًا. هذا، علمًا بأن الأشياء التي تعد ذكرى منه لا تُعد مساوية في الأهمية للسنة في حياة المؤمن، فإذا كانت مخلفاته المباركة يحافظ عليها كل هذه المحافظة فكيف إذن، بأحاديثه وسنته؟

يروي أحمد بن حنبل في مسنده: كان للعباس ميزاب على طريق عمر بن الخطاب، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة -وقد كان ذُبح للعباس فرخان- فلما وافى الميزاب صب ماء بدم الفرخين فأصاب عمر وفيه دم الفرخين، فأمر عمر بقلعه ثم رجع فطرح ثيابه ولبس ثيابًا غير ثيابه ثم جاء فصلى بالناس، فأتاه العباس فقال: والله إنه للموضع الذي وضعه النبي ﷺ. فقال عمر للعباس: "وأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ." ففعل ذلك العباس رضي الله عنه.[2]

إذن، فكيف تستطيع جماعة هذا دأبها في احترام وتوقير وتبجيل أصغر ذكرى للرسول ﷺ إبداء أي إهمال نحو أحاديثه ﷺ، ذلك لأن الحديث يعني الدين ويعني الحياة ويعنى "الحقيقة الأحمدية" بتعبير المتصوفة، ويعني بالنسبة إلينا الجسر بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

٣- حث النبي وترغيبه في تحصيل العلم

وكما قلنا سابقًا فقد حث النبي ﷺ على طلب العلم وشوق إليه فقال مثلاً: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف

[1] هذه العادة تستمر اليوم والحمد لله. (المترجم)

[2] المسند للإمام أحمد، ١/٢١٠.

الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهماً وورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر.»[١]

أي كان يشوق أتباعه لبلوغ أهداف وآفاق عليا. فإذا كان العلم يطلب الآن -عدا استثناءات قليلة- من أجل بلوغ المراتب أو في سبيل المعيشة، فقد كان يُطلب آنذاك في سبيل رضا الله تعالى. وكانت الحياة العلمية آنذاك نابضة بالحياة إلى درجة أن سفيان بن عُيينة حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين وكتب الحديث وهو ابن سبع سنين وبلغ درجة الاجتهاد والفتوى وهو شاب حدث.[٢] وكما أوضحنا سابقًا فقد كان هناك ترغيب كبير لمذاكرة الأحاديث وشوق كبير لها، فحسب رواية الدارمي كان أبو سعيد الخدري وابن عباس يقولان لطلابهما: "تذاكروا الحديث، فإن الحديث يهيج الحديث"[٣] و"زُدُوا الحديث واستذكروه فإنه إن لم تذكروه ذهب، ولا يقولن رجل لحديث قد حدثه "قد حدثته مرة"، فإنه من كان سمعه يزداد به علمًا ويسمع من لم يسمع."[٤]

ودامت هذه الحيوية العلمية في عصر التابعين ثم في عصر تابع التابعين بل دامت في العصور الخمسة الأولى إلى درجة أن ابن حجر العسقلاني الذي يعد من أواخر الحفاظ والذي عاش قبل خمسة عصور تقريبا يقول إنه قرأ "صحيح مسلم" في بضع جلسات أي أنه استوعب "الجامع الصحيح" لمسلم في بضع جلسات، ذلك لأنهم كانوا يملكون شوقًا كبيراً لعلوم القرآن والسنة آنذاك، وكانوا يقومون بتحصيل هذه العلوم ضمن شعور العبادة ونشوتها، ودام هذا الأمر مدة أربعة أو خمسة عصور حتى أن الإمام النووي انكب على العلم ولم يتزوج مخافة أن تشغله مطاليب المعيشة والأسرة عن تحصيل العلم وتفرغ للعلم وحده.[٥] أما العالم الكبير "السرخسي" فقد ألف كتابه "المبسوط" المؤلف من ثلاثين جزء في قاع بئر[٦] ومن ذاكرته وحفظه حيث أملاه على طلابه، ومن طريف ما يروى في حق هذا

---

[١] أبو داود، العلم ١؛ الترمذي، العلم ١٩؛ النسائي، الطهارة ١١٣؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ٢٤١/٤.

[٢] الطبقات الكبرى للإمام الشعراني، ٤٨/١؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٥٩/٨.

[٣] الدارمي، المقدمة، ٥١.

[٤] الدارمي، المقدمة، ٥١.

[٥] العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج لعبد الفتاح أبو الغدة، ص١٤٦.

[٦] الأعلام للزركلي، ٣١٥/٥.

العلامة أن أحد طلابه قال له يومًا إن الإمام الشافعي كان يحفظ ثلاثمائة صحيفة، عند ذلك قال هذا العالم العملاق: إذن، فقد كان يحفظ زكاة حفظي.[1] ولو قمت بِعَدّ الصفحات التي كتبها هؤلاء العلماء الأعلام من أمثال ابن حجر وابن جرير والسيوطي وفخر الدين الرازي لما استطعت إكمال العد في أسبوع كامل.

وهذه الأسماء التي ذكرناها تعود إلى العهود الأخيرة نوعًا ما. أما إذا رجعنا إلى عهد الصحابة ثم إلى عهد التابعين لرأينا المنظر التالي:

٤- شوق إلى العلم يتجاوز أفق تفكيرنا

كان محمد بن سيرين عتيق الصحابي الكريم أنس بن مالك ﷺ الذي خدم رسولنا ﷺ عشر سنوات ومن كبار أئمة التابعين، وكان له ابن سماه باسم سيده: أنس بن سيرين. يقول أنس بن سيرين إنه عندما وصل إلى الكوفة رأى أن أربعة آلاف من الأشخاص يأخذون دروسًا في الحديث في جوامعها. تصوروا وجود أربعة آلاف طالب من طلاب علم الحديث في مدينة واحدة.[2] أما في الشام فقد كان في حلقة أبي الدرداء ١٥٠٠ طالب علم. ومن ضمن الأربعة آلاف طالب الذي ذكره أنس بن سيرين كان من ضمنهم ٤٠٠ من الفقهاء.[3] فما معنى وجود أربعمائة فقيه؟ إن العالم الإسلامي اليوم الذي يبلغ تعداده مليارًا ونصفًا لا يملك أربعمائة فقيها. والفقيه هو الشخص الذي يستنبط الأوامر الدينية من خلال الكتاب والسنة والإجماع، فأبو حنيفة فقيه وأبو يوسف فقيه والإمام محمد فقيه والإمام الشافعي فقيه والإمام مالك فقيه، أما الإمام أحمد بن حنبل الذي كان يحفظ ألف ألف من الأحاديث[4] فلم تطلق عليه صفة الفقه بسهولة. وعندما قال العالم أبو جعفر الطبري: "إن أحمد بن حنبل ليس بفقيه" قام الحنابلة برجم داره. قد يكون أحمد بن حنبل فقيهًا أو لا يكون، ولكن كلام الطبري هذا يشير إلى مدى صعوبة إطلاق صفة الفقيه على أحدهم. لذا، يجب النظر إلى أمر وجود أربعمائة فقيه في عهد التابعين في جوامع الكوفة ضمن أربعة آلاف شخص يتلقون علم الحديث من هذه الزاوية.

كان الشوق إلى العلم في ذلك العهد قويًا إلى هذه الدرجة، وكانوا يسافرون من مدينة

---

[1] أصول السرخسي للسرخسي، ٥/١.

[2] المحدث الفاصل للرامهرمزي، ص٤٠٨، ٥٦٠؛ السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص١٥٠-١٥١.

[3] السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص١٥١.

[4] وفيات الأعيان لابن خلكان، ٦٤/١.

إلى أخرى من أجل حديث واحد. وكان سفر أئمة الحديث من أجل سماع حديث واحد يشير إلى مدى أهمية الحديث عندهم. وقد أدى هذا الشوق الكبير عندهم وهذا الاهتمام الذي كانوا يشعرون به نحو الحديث بمرور الزمن إلى تمرس كبير في هذا الموضوع، ولم يكن تمرسهم هذا وقفًا على متون الحديث فقط بل كان يشمل السند أيضًا، وهو أمر مهم جدًا من ناحية معرفة مدى صحة الحديث.

ونستطيع هنا أن نتذكر الإمام البخاري كمثال في هذا الموضوع، فعندما جاء إلى بغداد أراد عشرة من دارسي الحديث قياس درجة علمه بالحديث ومعرفة مدى قوة ذاكرته، وذلك أمام جم غفير من الناس، فبدأ كل واحد منهم يقرأ له عشرة من الأحاديث ولكن بعد تغيير وتبديل السند رأسًا على عقب وتغيير مواضع الرواة، أي القيام بوضع اسم راو لحديث مكان راو آخر لحديث آخر، وهكذا خلطوا رواة مائة حديث، فمثلا نعرف أن رواة الحديث المشهور عن النية هم الحُميدي عن سفيان بن عُيينة عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقّاص الليثي عن عمر بن الخطاب ﷺ، ولكنهم عندما رووا هذا الحديث للبخاري وضعوا اسم راو آخر مكان اسم يحيى بن سعيد، ووضعوا اسمًا آخر محل اسم علقمة ووضعوا اسم راوٍ آخر بدل اسم التيمي. وكما قلنا فقد قدموا له مائة حديث بعد تغيير أسماء رواتها. فذكر لهم البخاري أن اسم الراوي في الحديث الأول هو فلان وليس فلان وأن السند الصحيح له هو كذا وكذا حتى أتى على ذكر الأسانيد الصحيحة لجميع الأحاديث البالغة عددها مائة حديث، عند ذلك شهد جميع العلماء والحاضرون على قوة ذاكرته ورسوخ قدمه في علم الحديث،[1] وقد انبهر ابن خُزَيْمة بعلم البخاري في الحديث فقال: "ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري."[2]

كان البخاري عالمًا جليل القدر لم يجعل علمه وسيلة لمتاع الحياة الدنيا، فعندما طلب منه أمير بخارى أن يأتي إلى قصره ليعلم أبناءه الحديث قال له هذا العالم الجليل: "إن العلم لا يذهب إلى الحاكم، فإن أراد الحاكم استحصال العلم له أو لأولاده فعليه أن يأتي هو وأولاده إلى العلم للحصول عليه." وعندما طلب منه الأمير أن يخصص في الأقل يومًا لأبنائه رفض الإمام البخاري هذا الطلب وقال بأنه لايستطيع تمييز أبناء الأمير عن سائر أبناء

[1] هدي الساري لابن حجر، ص٤٨٧.
[2] تذكرة الحفاظ للذهبي، ٢/٥٥٦.

الأمة الإسلامية في دروسه. وكان هذا الجواب سببًا في قضاء أيام حياته الأخيرة في عزلة عن الناس، والوفاة في ديار الغربة.[1]

سافر الإمام البخاري مرة ليأخذ حديثًا من أحدهم، وعندما وصل إليه واقترب منه رآه وهو يحاول الإمساك بحصانه ويشير إلى حضنه، وعندما رأى الإمام البخاري أن حضنه فارغ وليس فيه شعير أو غيره قال إن من يكذب على الحصان ويحاول خداعه قد يكذب على الناس أيضًا، لذا رجع دون أن يأخذ منه الحديث.

هذه الدقة والحساسية التي تمَّ ضمنها جمع الحديث وتدوينه، والذين يهاجمون كتب الأحاديث الصحيحة والسنة ويدعون أن عدد الأحاديث كبير جدًا، إذن، فلابد أن هناك أحاديث مكذوبة دخلت إلى كتب الأحاديث الصحيحة، هؤلاء لا يعرفون مدى العشق العلمي لجامعي الأحاديث، وماذا كانت السنة تعني بالنسبة لهم، ويتناسون الشروط والظروف التي تم فيها جمعها، ولا يعرفون نوعية العلماء الذين جمعوها، والظاهر أنهم يقيسون هذه المسألة بالنسبة لحالتهم النفسية وحالتهم الروحية والمعنوية فيضلون ويضلون.

٥- التلاؤم البيئي

وعامل آخر وهو أن الجو كان ملائمًا جدًا لحفظ الأحاديث في عهد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. فهم أولاً كانوا يعرفون دقائق اللغة العربية.. والقرآن الكريم الذي أُنزل على رسولنا ﷺ كان معجزة لغوية قبل كل شيء، وكانت الفصاحة اللغوية أهم ما يعنى بها العرب آنذاك، والمعلقات السبع ترينا أنهم كانوا أساطين اللغة والشعر، ومع ذلك -أو بسبب ذلك- فقد انبهروا أمام القرآن الكريم وانعقدت ألسنتهم. فمثلاً نرى الشاعرة الخنساء وهي تنشد في الجاهلية أشعار الرثاء لأخيها صخر، وهي أبيات لا تزال تستدر دموعنا، لأنها أشعار نابعة من القلب، ولكنها بعد أن أسلمت ارتبطت بسلطان البيان رسول الله ﷺ إلى درجة أنها عندما استشهد أبناؤها الأربعة واحدًا إثر آخر في معركة القادسية تلوت من الألم -لأنها إنسانة وأم- إلا أنها قالت: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"[2] مظهرةً بذلك مدى ارتباطها بالقرآن وبالإسلام وبالرسول ﷺ.

وكانت الخنساء هذه شاعرة بليغة وعليمة بأسرار اللغة والشعر إلى درجة أنها أشارت إلى ثمانية أخطاء في أربعة أبيات لشاعر الإسلام حَسّان بن ثابت ﷺ الذي دعا له الرسول ﷺ من

---

[1] تهذيب التهذيب لابن حجر، ٩/٥٢؛ هدي الساري لابن حجر، ص٤٩٤.

[2] أسد الغابة لابن الأثير، ٧/٩٠؛ أعلام النساء لعمر رضا كحالة، ١/٣٧٠.

الله أن يؤيده بروح القدس في الذب عن الإسلام بأشعاره.[١] فأثبتت بذلك مدى إحاطتها بدقائق الشعر واللغة. هذه الشاعرة تركت الشعر أمام الأحاديث التي تشع نورًا للرسول ﷺ. ولم يقتصر هذا عليها، بل إن معظمهم كانوا من الفصحاء والشعراء آنذاك، ولكنهم أمام آيات القرآن الكريم وأمام أحاديث الرسول ﷺ تركوا الشعر واقتصروا على الترنم بآيات القرآن وبأحاديث الرسول ﷺ، فأصبحوا هم ومن جاء بعدهم على معرفة بأسلوب النبي ﷺ ويستطيعون تمييز كلامه وحديثه وأسلوبه عن سائر أحاديث الآخرين وأساليبهم.

٦- جودة القريحة وقوة الحفظ

وعامل آخر وهو كون أناس ذلك العهد السعيد عباقرة في قابلية الحفظ عن ظهر قلب. فنحن الآن نعد من يحفظ القرآن في أربعة أشهر عبقريًا. نعد أشخاصًا مثل العالم "ألماليلي حمدي" الذي تعلم اللغة الفرنسية في ستة أشهر من النوادر، بينما كانت قابليات أناس ذلك العهد في هذه الساحة أكبر، فمثلاً نرى أن أبا هريرة -وهو الشخص الذي أصبح هدفًا للمستشرقين الذين يحاولون بالهجوم عليه هدم عمود من أعمدة السنة- لا ينسى شيئاً مما يسمعه مرة واحدة ولا يحتاج لسماعه مرة ثانية.[٢] ونرى أن زيد بن ثابت عندما أمره الرسول ﷺ بتعلم العبرانية[٣] تعلمها في ظرف ١٥-٢٠ يوماً فقط بحيث أصبح يستطيع قراءة الرسائل بالعبرية وترجمتها.

وعبقري آخر هو ابن عباس ﷺ الذي لُقّب بـ"حبر الأمة" وهو لا يزال حيًا، وكذلك أمنا عائشة رضي الله عنها.. هؤلاء الأشخاص كانوا أبطال الحفظ عن ظهر قلب، فما كانوا ينسون شيئًا سمعوه مرة واحدة، وكان عددهم بين الصحابة يبلغ المئات.

ولم يكن التابعون العظام أقل منهم في هذا الخصوص فنجد بينهم مثلاً ابن شهاب الزهري الذي عاش في عهد عمر بن عبد العزيز وقام بتصنيف الأحاديث لأول مرة[٤] والذي أصبح أيضًا هدفًا لهجوم المستشرقين. وكذلك قتادة بن دِعامة الذي قال لأبي حنيفة عندما قابله بأنه لم ينس شيئًا سمعه. ثم هناك "الشعبي" المشهور، وهناك إبراهيم بن يزيد النخعي

---

[١] البخاري، الصلاة ٦٨؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٥١؛ النسائي، المساجد ٢٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٢٢/٥.

[٢] البخاري، العلم ٤٢، البيوع ١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٥٩، ١٦٠.

[٣] الترمذي، الاستئذان ٢٢؛ أبو داود، العلم ٢؛ المسند للإمام أحمد، ١٨٦/٥؛ أسد الغابة لابن أثير، ٢٨٩/٢؛ الإصابة لابن حجر، ٥٦١/١.

[٤] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٦١/٣.

والإمام الشافعي الذي ذكر أيضاً بأنه لم ينس شيئاً سمعه. نعم، كل واحد من هؤلاء كان بطلاً من أبطال الذاكرة.

ح . شروط الرواية بالمعنى

هناك علماء أجازوا رواية معنى الحديث ووضعوا لهذا بعض الشروط:

أ- يجب أن يكون الراوي ملمًا باللغة تمام الإلمام. فمن لم يكن ملما بدقائق اللغة لا يجوز له أن ينقل معاني أحاديث الرسول ﷺ، لأن الراوي يجب أن يكون فاهمًا ومدركًا للمعنى تمام الإدراك.

ب- يجب أن تكون الكلمة المرادفة لما جاء في الحديث مترادفة تمامًا لمعنى الكلمة الأصلية ولا تحمل معنى آخر، وأن تتم مراعاة سياق الحديث كذلك.

ج- يجب ألا يتم الالتجاء إلى رواية الحديث بالمعنى إلا إذا تم نسيان ألفاظ الحديث، لكي لا يضيع هنا لب ومعنى أي حديث صادر عن الرسول ﷺ، وذلك حسب قاعدة: "ما لا يُدرَك كلُّه لا يُترَك كلُّه" فنستفيد من كل جواهر السنة.

١. فروق الألفاظ في الأحاديث

هناك أحاديث مع أنها وردت بالفاظ مختلفة إلا أنها ليست من نوع الأحاديث المروية بالمعنى، و"التحيات" التي نقرأها في الصلوات الخمس كل يوم من هذه الأحاديث. فإضافة إلى صيغة "التحيات" التي يقرأها الأحناف والإمام الأوزاعي وسفيان الثوري وجمهور العلماء والتي رويت عن طريق ابن مسعود ﷺ هناك صيغة أخرى قرأها الشافعي نقلاً عن ابن عباس ﷺ، فهنا ترد كلمة "المباركات" بعد كلمة "التحيات"، وسقط حرف الواو بين الكلمتين، كما وردت في روايات ضعيفة صيغة ثالثة للتحيات قرأها عمر بن الخطاب ﷺ من فوق المنبر، لذا قد يدعي البعض بأن الصحابة لم يكونوا يحفظون جيدًا كل ما يسمعونه من النبي ﷺ، أو أنهم كانوا ينسون بعض الكلمات ثم يضعون بدلاً منها كلمات مناسبة من قبلهم، ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك. لأن الصلاة فرضت قبل الهجرة بثلاث وفي رواية أخرى بخمس سنوات، إذن، فالصحابة القدماء أمثال عمر بن الخطاب أو ابن مسعود ﷺ صليا خلف الرسول ﷺ كل يوم خمس مرات لمدة تزيد على عشر سنوات، ومثل هذا الادعاء يضع هؤلاء العباقرة في قابلية الحفظ -والعياذ بالله- مكان الحمقى، وهو ادعاء لا يقول به حتى المجانين في مستشفى المجانين، لأنه يفترض عدم استطاعة هؤلاء الصحابة

الذين قضوا سنوات طويلة وهم يصلون خلف النبي ﷺ كما قضوا معه ثلاثا وعشرين سنة عدم استطاعتهم حفظ شيء يستطيعه طفل في الخامسة من عمره. فإذا عرفنا أن القرآن عندما جمع في عهد أبي بكر ﷺ تمت مراجعة ذاكرة هؤلاء الصحابة، وتمت المقارنة بين ما هو مكتوب ومسجل وبين ما حفظ في القلوب فكانت النتيجة تطابقهما وعدم وجود أي فروق بينهما، لذا فإن هذا الادعاء فيما يختص برواية الحديث سيلقي ظلال الشك والشبهة حتى على القرآن الكريم.

أما أصل المسألة فهي على ما نعتقد ما يلي: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسّر منه»[1] حسبما ورد في الأحاديث الصحيحة. ولسنا هنا في معرض شرح ومناقشة هذا الموضوع. إلا أننا نقول إن الرحمة لذلك الشعب الأمي استوجبت إنزال القرآن هكذا ليسهل لهم تلاوته.

والأمر نفسه وارد بالنسبة للحديث النبوي الشريف، فرسول الله ﷺ كان يقرأ القرآن المنزل عليه مرة بوجه ومرة بوجه آخر، والشيء نفسه عمله مع دعاء "التحيات" مثلاً، إذ قرأها بوجه لابن مسعود ﷺ ولعمر بن الخطاب ﷺ بوجه آخر، فكما جاز قراءة القرآن على سبعة أوجه، جاز رواية الحديث بأوجه مختلفة، لذا يمكننا القول بأن جميع صيغ التحيات صادرة من الرسول ﷺ نفسه.

٢. جوامع الكلم

هناك جانب آخر لهذه المسألة المهمة وهو أن الرسول ﷺ هو صاحب "جوامع الكلم"، أي أنه كان يعبر بكلمات قليلة عن معان كثيرة وعميقة يمكن أن يؤلف كتاب كامل لشرحها. فضمن قواعد اللغة العربية ونحوها وأصولها، وضمن أساليب البيان والبديع يظهر أمامنا معنى جديد لم نفطن له من قبل، لذا فمن يقرأ هذه الأحاديث النبوية لابد أن يقول: "لا يمكن لأي عبقري أن يقول مثل هذا الكلام دعك من الصحابة الذين نشأوا في بيئة أمية وتعلموا كل ما تعلموه منه ﷺ." فهذه الأحاديث كالجواهر النفيسة تحتفظ بقيمتها ومصداقيتها إلى يوم القيامة، لذا فلا بد أنها أحاديث نبي مؤيد بالوحي الإلهي، لذا لا يمكن الاستخفاف بها مطلقًا، أي نستطيع أن نقول بأن الأحاديث مهما بدا عددها كبيرًا بالنسبة لبعضهم هي كلمات خرجت من بين شفتي الرسول ﷺ المباركتين وننظر إليها على هذا الأساس.

---

[1] البخاري، فضائل القرآن ٥؛ مسلم، كتاب المسافرين ٢٧٠؛ أبو داود، الوتر ٢٢.

ط . كتابة السنة في عهد الرسول ﷺ ثم تدوينها من بعده

إن الرأي القائل بأن بداية تدوين السنة كانت في عهد عمر بن عبد العزيز رأي صحيح ولكنه رأي ناقص، لأنه يهمل أمراً مهماً وهو أن بعض الصحابة كان يكتب السنة في عهد الرسول ﷺ مثلما كان بعضهم يكتب القرآن.

١- نفير القراءة والكتابة الذي بدأ بالقرآن الكريم

كان معظم العرب في عهد الرسول ﷺ يجهلون القراءة والكتابة، ولكن عدد من كان يقرأ ويكتب من أهل مكة لم يكن بالقليل، لأن أهل مكة كانوا على اتصال دائم بالقبائل الموجودة حواليها، وانفتحت أبواب القراءة والكتابة بعد بدء نزول القرآن، ذلك لأن كل مسلم كان في حاجة لقراءة القرآن ليعرف الأحكام والمعاني الواردة فيه كضرورة دينية، أي كان نزول القرآن الكريم إيذانًا ببداية نفير عام للعلم والثقافة. فقد وردت في طبقات ابن سعد أن عدد كتاب الوحي الذين كانوا يتحلقون حول الرسول ﷺ كان يقارب الأربعين.[1] ولم يكن هؤلاء مجرد أشخاص يعرفون القراءة والكتابة، فمعنى كاتب الوحي هو الشخص الذي نذر نفسه لكتابة القرآن، أي بالتعبير الدارج اليوم نستطيع أن نقول إنه مدير قلم الرسول ﷺ وسكرتيره.

كان هناك حث كبير وتشجيع على تعلم القراءة والكتابة في تلك الأيام، حتى أن فدية بعض أسرى بدر كانت قيام كل أسير بتعليم عشرة من الأفراد القراءة والكتابة.[2] كانت هذه حادثة فريدة وحادثة تعد متقدمة جدًا في ذلك العهد. أجل، لقد بدأ الناس في تلك الأيام سباقًا نحو تعلم القراءة والكتابة، ذلك لأنه كان بين يديهم شيء جديد وشيء فريد.. كان هذا ديناً جديداً وكان هذا قرآناً.. كان هؤلاء الناس ظمأى لمعرفته وفهمه من جميع جوانبه ليضيفوا إلى حياتهم معنى جديدًا مشرقًا.. لذا، كان القروي والحضري في انتظار وفي ترقب دائم ليدون ما يتنزل. وكان هذا شيئًا فريدًا ويحدث لأول مرة بالنسبة لكتاب إلهي مقدس سوف يبقى محفوظًا وسليمًا حتى يوم القيامة. فكما تم تدوين القرآن، كذلك تم تدوين سنة الرسول ﷺ الذي فسر القرآن وشرحه، ففصل مجمله وأوضح مبهمه وقيد مطلقه وخصص أحكامه العامة. ذلك لأن السنة كانت المصدر الثاني للتشريع لذا، هيئ حفظها فأصبحت صالحة للتدوين العام وللتدوين الرسمي.

---

[1] السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٩٨.
[2] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٢٢.

٢- الأدلة ضد التدوين

لنلق نظرة على الأحاديث التي ساقها المستشرقون وبعض الكتاب المسلمين ممن تأثروا بهم كأدلة حول كون تدوين الحديث بعد عهد الرسول ﷺ. ينقل أبو سعيد الخدري في "تقييد العلم" الرواية التالية: "استأذنّا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا."[١] لم يجد المتخصصون في علم الحديث قيمة كبيرة لهذه الرواية التي ساقها "غولتسهر" ومقلدوه. ولاشك أن هناك رواية أخرى وردت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أيضًا: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه.»[٢]

وهناك رواية أخرى في كتاب "تقييد العلم" عن الصحابي الجليل صاحب الذاكرة القوية أبي هريرة ﷺ الذي كان يهتم اهتمامًا كبيرًا بالأحاديث وكان يرغب كل الرغبة في تدوينها غير أنه لم يكن في حاجة لذلك لقوة ذاكرته، فقد جاء في هذه الرواية أن الرسول ﷺ جاء إليهم فوجد بعضهم يكتب فسألهم عما يكتبون، فقالوا بأنهم يدونون الأحاديث التي سمعوها منه فقال لهم الرسول ﷺ: «أتدرون ما ضل الأمم من قبلكم إلا بما اكتبوا من الكتب مع كتاب الله.»[٣]

هذه الروايات التي نقلناها واضحة، فهي حفظ جميع الكتب الإلهية سواء أكان هذا الكتاب هو القرآن أم التوراة أم الإنجيل، حفظ هذه الكتب من الاختلاط بأي كلام أو كتابة أخرى. وبينما كان من الواجب عدم كتابة أي شيء سواء أكان ذلك للأنبياء أم للآخرين بجانب هذه الكتب إلا أنه لم يتم رعاية هذا الأمر وكانت النتيجة أن اختلطت كتابات كثيرة بالتوراة، كما ازداد عدد الأناجيل بعد عدة عصور من نزول الإنجيل الواحد وازداد حجمه إلى مجلدات، وهكذا انحرفت كلتا الجماعتين عن الصراط المستقيم وسلكتا طريق الضلالة. وتتجلى هذه الحقيقة بشكل واضح عندما يتم عرض الأحاديث الصحيحة التي تجيز كتابة الأحاديث بل تأمر بها، ويتبين أنها أكثر من الأحاديث التي تمنعها.

يقول أبو هريرة ﷺ وهو الصحابي الذي نقلنا عنه رواية حول النهي عن كتابة الحديث: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب."[٤]

---

[١] الترمذي، العلم ١١؛ تقييد العلم للبغدادي، ص٣٢-٣٣.

[٢] مسلم، الزهد ٧٢؛ المسند للإمام أحمد، ١٢/٣؛ الدارمي، المقدمة، ٤٢.

[٣] تقييد العلم للبغدادي، ص٣٤.

[٤] البخاري، العلم ٣٩؛ الترمذي، العلم ١٢، المناقب ٤٦؛ المسند للإمام أحمد، ٢٤٩/٢.

كان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب كل ما يسمعه عن الرسول ﷺ حتى قيل له: "أنت تكتب كل ما يقوله رسول الله ﷺ، بينما هو بشر يغضب ويرضى."[١] على إثر هذا الكلام ترك عبد الله بن عمرو كتابة الحديث وعرض الموضوع على الرسول ﷺ فأشار الرسول ﷺ إلى فمه المبارك قائلاً: «اكتب! فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق.»[٢]

صحيح أنه كان بشرًا، ولكنه كان نبيًا أيضًا، فرضاه وغضبه كان لله تعالى، لذا كان يقول الحق على الدوام، لأنه لم يكن ينطق عن الهوى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣-٤). لقد التحمت فطرته مع وظيفته فكانت كلتاهما تحملان صفة النبوة.. لقد تم شرح صدره لذا، لم يبق هناك أي احتمال لتدخل طبيعته البشرية في مهام نبوته.. فكل ما قاله كان "دينًا"، لذا قال للصحابي: «اكتب.»

٣- الأدلة على تدوين الأحاديث

عندما نطالع المصادر فيما يتعلق بكتابة الحديث نرى الروايات التالية: كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي ﷺ فيسمع من النبي ﷺ الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه، فقال له الرسول ﷺ: «اِستعِنْ بيمينك» وأومأ بيده للخط.[٣]

وسأل رافع بن خَديج من الرسول ﷺ: يا رسول الله! إنا نسمع منك شيئًا أفنكتبه؟ فأجابه الرسول ﷺ: «اكتبوا ولا حرج.»[٤]

ونقرأ في سنن النسائي والدارمي أن الرسول ﷺ استكتب بعض الأحكام حول القصاص والدية وحول بعض الشرائع وأرسلها إلى عمرو بن حزم في اليمن،[٥] كما كتب كتابًا لوائل بن حُجر لقومه في حضرموت، فيه الخطوط الكبرى للإسلام وبعض أنصبة الزكاة وحد الزنا وتحريم الخمر وكل مسكر حرام.[٦] كما نقرأ في مقدمة الإمام الدارمي قول الرسول ﷺ: «قَيِّدوا العلم بالكتاب.»[٧]

---

[١] كتم رواة الحديث أسماء هؤلاء الأشخاص أدباً ثم لكونها غير ضرورية. (المترجم)

[٢] أبو داود، العلم ٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٦٢/٢؛ الدارمي، المقدمة، ٤٣.

[٣] الترمذي، العلم ١٢.

[٤] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٥١/١؛ كنز العمال للهندي، ٢٣٢/١٠؛ وانظر إلى روايات أخرى في هذا الصدد إلى: المسند للإمام أحمد، ٢١٥/٢.

[٥] النسائي، القسامة ٤٦؛ الدارمي، الديات ١، ٣، ١١، ١٢.

[٦] الإصابة لابن حجر، ٦٢٨/٣؛ السنة قبل التدوين لعجاج الخطيب، ص٣٤٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٨٧/١.

[٧] الدارمي، المقدمة، ٤٣؛ المستدرك للحاكم، ١٠٦/١؛ كنز العمال للهندي، ٢٤٩/١٠.

كما نقرأ رواية عن أبي هريرة ﷺ وردت في كتب الأحاديث الصحيحة أن يمنيا اسمه أبو شاه استمع إلى خطبة للرسول ﷺ بعد فتح مكة فقام فطلب من الرسول ﷺ كتابة الخطبة له فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «اكتبوا لأبي شاه.»[١]

عندما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قبل وفاته بأيام قليلة قال لأصحابه: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده» فقال عمر بن الخطاب ﷺ: إن النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا.

كان هذا اجتهاد صحابي، أما ابن عباس فقد قال: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه.[٢] ودام حزن ابن عباس ﷺ من هذا الأمر طوال حياته، ولكنه لم يحمل ضغنًا لعمر ﷺ، بل بقي على الدوام بجانبه، وعندما يسمع أن عمرَ سيخطب يحضر خطبته آتيًا إليه من البلد الذي هو فيه سواء أكان في مكة أم في البصرة.[٣]

لذا، يمكن القول أنه ما من قلب حمل كرها أو ضغينة على سيدنا عمر ﷺ جراء هذا الأمر، ذلك لأن الرسول ﷺ لم يكرر طلبه، وسواء أكان طلب الرسول ﷺ الكتابة لكي لا تقع أمته في الضلالة يتعلق بالخليفة الذي سيأتي بعده أم يتعلق بأمور أخرى فهذا لا نعرفه، نعرف أن الجميع -عدا شخصًا واحدًا- بايعوا الخليفة الأول، وعندما جاء عمر ﷺ إلى المقام نفسه تردد بعضهم في بيعته في بادئ الأمر ثم لم يبق هناك من لم يبايعه. أما في عهد عثمان وعلي ﷺ فقد ظهر الخلاف، فهل كان ما ينوي الرسول ﷺ قوله في كتابه هو العلم الذي عناه أبو هريرة ﷺ عندما قال: "حفظت عن رسول الله وِعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البُلعوم."[٤] أم كان يريد إفشاء الأسرار التي سبق وأن أودعها إلى الصحابي حُذيفة ﷺ؟ صحيح أن ما كان ينوي الرسول ﷺ كتابته بقي سرًا، إلا أننا نستدل من هذه الحادثة على أن الأحاديث كانت تكتب في عهد النبوة، وأنه كان أحيانًا يأمر بكتابتها.

كان هناك صحابة آخرون غير عبد الله بن عمرو بن العاص يكتبون الحديث، فمثلاً نرى أن عليًا ﷺ يعلق بجانب سيفه صحيفة تحتوي على بعض الأحاديث، فقد سأله أبو جحيفة: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله أو فهمٌ أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة.

---

[١] البجاري، العلم ٣٩، اللقطة، ٧؛ أبو داود، العلم ٣؛ الترمذي، العلم ١٢.

[٢] البخاري، العلم ٣٩؛ مسلم، الوصية ٢٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣٢٥/١.

[٣] عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة لشِبْلي النعماني، ٣٥٣/٢.

[٤] البخاري، العلم ٤٢.

قال: قلت: وما في هذه الصحيفة قال: العَقْل،[١] وفكاك الأسير، ولا يُقتل مسلمٌ بكافر.[٢]

كما كان لدى عمر بن الخطاب ﷺ صحيفة كان يعلقها بجانب سيفه وتحتوي على أحكام زكاة السوائم.[٣] ويذكر ابن سعد في طبقاته أن ابن عباس ﷺ عندما توفي ترك وراءه حمل بعير من الكتب، وكان أكثرها عبارة عما سمعه من الرسول ﷺ ومن الصحابة الكرام.[٤] كما ينقل ابن هشام أن الرسول ﷺ عندما شرف المدينة بمجيئه عقد معاهدة مع اليهود عدها البعض أول دستور قانوني إسلامي وكانت المعاهدة تبدأ هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس...

...وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ.»[٥]

انتقلت الصحيفة التي أرسلها الرسول ﷺ إلى عمرو بن حزم -التي ذكرناها سابقًا- حول الديات والقصاص[٦] إلى حفيد حفيده أبي بكر بن محمد، كما انتقلت حزمة من الكتابة من أبي رافع -عتيق الرسول ﷺ- إلى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث،[٧] وهو من التابعين ومن كبار الفقهاء، وقد عد هذه الحزمة أكبر كنز حصل عليه طوال حياته.

كتبت هذه الأحاديث في زمن الرسول ﷺ على القطع الخشبية وعلى العظام وعلى الجلود تمامًا مثلما دوّن القرآن، ثم انتقلت إلى التابعين ومن ثم إلى تابع التابعين الذين حافظوا عليها ثم نقلوها إلى من جاء من بعدهم، كما نجد أن مجاهد بن جَبْر -وهو من كبار أئمة التابعين- يقول بأنه شاهد كتاب "الصحيفة الصادقة" وهي الصحيفة التي سجل فيها عبد الله بن عمرو بن العاص الأحاديث التي سمعها من الرسول ﷺ. يقول مجاهد بأنه رأى تلك الصحيفة أمام عبد الله بن عمرو بن العاص وأنه مد يده إليها ولكنه لم يسمح له بلمسها،[٨]

---

[١] العَقْل: الدية.

[٢] البخاري، العلم ٣٩؛ الترمذي، الديات ١٦؛ المسند للإمام أحمد، ١/١٠٠.

[٣] الترمذي، الزكاة ٤؛ أبو داود، الزكاة ٥؛ ابن ماجه، الزكاة ٩؛ الكفاية للبغدادي، ص٣٥٣، ٣٥٤.

[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥/٢٩٣.

[٥] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٨-٩، ١٤٧.

[٦] النسائي، القسامة، ٤٦-٤٧؛ الدارمي، الديات ١٢.

[٧] الكفاية للبغدادي، ص٣٣٠.

[٨] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٣٧٣؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٣/٣٥٠.

ذلك لأن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يحافظ على صحيفته ويهتم بها أكثر من اهتمامه بعينيه، وحسب قول ابن الأثير فإن هذه الصحيفة كانت تحتوي على ما يقارب ألف حديث، وسند هذه الأحاديث هو عبد الله بن عمرو وابنه وحفيده أي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وهناك ٥٠٠ حديث عن طريق هذا السند في كتب الأحاديث الصحيحة، وتعد تقريبًا بمنزلة ما يعده الكثير "السلسلة الذهبية" وهي سلسلة السند عن طريق زين العابدين عن الحسين عن علي بن أبي طالب ﷺ.

ي. الخلاصة

أجل، لم يتم تدوين الأحاديث بأمر من عمر بن عبد العزيز بعد مائة عام من وفاة الرسول ﷺ كما يدعي المستشرقون. دونت الأحاديث في عهد النبي ﷺ وحفظت ثم نقلت سواء كتابة أم شفاهًا إلى الأجيال التي جاءت فيما بعد. فقد ترك الصحابي جابر بن عبد الله مصدراً كبيراً سجل فيه أحاديث الرسول ﷺ.[1] وعلاوة على هذا نجد "الصحيفة الصحيحة" لهَمّام بن مُنَبِّه التي انتقلت من ذلك العهد أيضًا والتي تعد من المصادر المهمة للحديث.

لازم "هَمّام بن مُنَبِّه" أبا هريرة على الدوام، وكان يكتب كل حديث ينقله هذا الصحابي الذي كان من عباقرة الحفظ إلى درجة أنه ذكر مرة حديثًا لأستاذه فقال له أبو هريرة ﷺ بأنه لا يتذكر هذا الحديث فقام "هَمّام بن مُنَبِّه" وجلب إليه الصحيفة التي سجل فيها الأحاديث وقرأ منها هذا الحديث[2] فاقتنع أستاذه. وقد قام الأستاذ محمد حميد الله بنشر هذه الصحيفة وأثبت التحليل الكاربوني[3] لهذه الصحيفة أنها تعود إلى ما قبل ثلاثة عشر قرنًا. ثم إنه مما يجلب الانتباه أن هذه الأحاديث موجودة في مسند الإمام أحمد بن حنبل، كما يحتل القسم الأكبر منها أجزاء مهمة في كتب الحديث الصحاح أمثال البخاري ومسلم. وكما يدل هذا على تدوين الأحاديث في عهد الرسول ﷺ فهو دليل على انتقالها بشكل صحيح وتام إلى الصحابة ومنهم إلى التابعين وإلى تابع التابعين ومن ثم إلى كتب الحديث.

أمام هذه الوقائع التاريخية وأمام هذه الأحاديث يرى "أحمد محمد شاكر" -وهو من أكبر علماء الحديث في العصر الحديث - أن الأخبار والأحاديث التي تمنع الكتابة إما أنها

[1] الكفاية للبغدادي، ص٣٥٤؛ تقدمة الجرح لابن أبي حاتم، ص٤٦.

[2] تهذيب التهذيب لابن حجر، ٥٩/١١.

[3] التحليل الكاربوني: هو طريقة علمية يتم بواسطتها قياس أعمار الآثار القديمة. (المترجم)

نُسخت فيما بعد، أو أن النهي يعود إلى نهي كتابة الحديث مع القرآن لكي لا يختلط مع القرآن أي شيء آخر.[1] هذه الحساسية الموجودة لدى الرسول ﷺ كانت موجودة لدى عمر ﷺ أيضًا، ذلك لأنه كان من الضروري حفظ القرآن سليمًا كما أنـزل، وفهمُه جيدًا، وإدراك أهميته ووظيفته حسب مرتبته العالية لأنه كلام الله تعالى، وإلا كان من الممكن أن يختلط الحديث به ويفقد القرآن بذلك خصوصيته الفريدة ويتكرر ما جرى في الأمم السابقة. لذا، فإن الرسول ﷺ كان يشارك عمر ﷺ في الاهتمام والحساسية التي أبداها في هذا الموضوع. ولكن بعد ما توضح كل شيء وبعد أن تبين ما هو القرآن وما هو الحديث فقد تم السماح بتدوين الحديث تدوينًا مستقلاً عن تدوين القرآن.

بعد أن تم تدوين الحديث بهذا الشكل في العهد الأول تم تدوينه بشكل رسمي في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ الذي يطلق عليه اسم "عمر الثاني". فقد كانت هناك صحف حديث مختلفة في أماكن مختلفة، وكانت هذه الأحاديث تنتقل من فم إلى فم، فكما عارض عمر وابن عباس وأبو موسى الأشعري وأبو سعيد الخدري وزيد بن ثابت في العهود الأولى تدوين الحديث وفضلوا حفظها، كذلك نجد في عهد التابعين من يعارض تدوين الحديث مثل الشعبي والنخعي ممن كانت لهم اليد الطولى في الحديث ومن أصحاب الذاكرة القوية والقابلية الكبيرة في الحفظ، ولكن رغم هذا تم تدوين الأحاديث الموجودة في تلك الصحف السابقة، وكذلك الأحاديث التي كانت متداولة شفاهًا وحفظًا تدوينًا رسميًا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز. إذ كما أدى استشهاد عدد كبير من حفاظ القران في معركة اليمامة إلى إثارة شعور عمر بن الخطاب ﷺ بضرورة جمع القرآن، كذلك أدى تمسك عمر بن عبد العزيز ﷺ بالسنة إلى قيامه بتدوينها.

نشأ عمر بن عبد العزيز ﷺ- الذي يعد لدى الكثيرين المجدد الأول الذي استحق بشارة الرسول ﷺ: «إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا، فطوبى للغرباء، الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»[2] قبل ثلاثة عشر قرنًا- في قصر بني أمية، وكان حجة في التفسير وفي نقد الرجال، وحقق في البلاد الإسلامية التي توسعت كثيرًا إصلاحات عديدة في ظرف سنتين ونصف من خلافته حتى أصبحت هذه البلاد وكأنها تدار من قبل الملائكة، وكان قيامه بتدوين السنة إضافة إلى إصلاحاته الأخرى ذروة خدماته الكبيرة، إذ أصدر أمره

---

[1] الباعث الحثيث لأحمد محمد شاكر ص١٣٢-١٣٩.

[2] مسلم، الإيمان ٢٣٢؛ الترمذي، الإيمان ١٣؛ المسند للإمام أحمد، ٧٣/٤.

بهذا الخصوص إلى والي المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم -وهو حفيد الصحابي عمر بن حزم الذي استكتبه الرسول ﷺ صحيفة حول الديات والقصاص- فعهد هذا الوالي إنجاز هذا الأمر إلى أحد شباب التابعين من ذوي الفطنة والذكاء والعلم وهو محمد بن شهاب الزهري[١] الذي شمر عن ساعديه فورًا للقيام بهذه المهمة التي أنجزها بكفاءة واكتسب صفة وعنوان أول "مدون رسمي" للحديث في التاريخ الإسلامي، ومع أن الوالي أبا بكر بن حزم ساهم في هذا العمل أيضًا، إلا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز توفي قبل أن يرسل له الوالي ما تم جمعه وتدوينه من الأحاديث.

ولم تقتصر فعالية تدوين الحديث التي بدأها الخليفة عمر بن عبد العزيز على جهود الإمام الزهري في المدينة فقط، بل ساهم فيها عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيْج في مكة وسعيد بن أبي عروبة في العراق والأوزاعي في الشام ومحمد بن عبد الرحمن في المدينة أيضًا، وزائدة بن قُدامة وسفيان الثوري في الكوفة وحمّاد بن سلمة في البصرة، وعبد الله بن المبارك في خراسان حيث تركوا لأخلافهم ثروة كبيرة في هذا الموضوع.[٢]

وبعد عهد التدوين جاء عهد "التصنيف" الذي يأتي بمعنى التأليف وترتيب الأحاديث حسب مواضيعها، ويعد العهد الذهبي لتاريخ الحديث في الإسلام، حيث نرى هنا أسماء مشهورة كأبي داود الطيالسي، ومسدّد بن مسرهد والحُميدي وأحمد بن حنبل صاحب "المسند"، ونرى من جانب آخر عبد الرزاق بن هَمّام وهو يؤلف "المصنف"، كما قام ابن أبي ذئب والإمام مالك بتأليف "الموطأ"، ويحيى بن سعيد القطّان ويحيى بن سعيد الأنصاري بتأليف كتبهم القيمة في هذا العهد الذهبي.

كان هؤلاء الأئمة الكبار شيوخ كبار المحدثين وأساتذتهم أمثال البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي ويحيى بن معين. وأخيرًا حان وقت تأليف الكتب الستة من قبل مؤلفيها العظام، هذه الكتب التي عدت أوثق كتب الحديث، وقد عاش معظم هؤلاء المؤلفين الكبار في العصر نفسه تقريبًا. فقد كان البخاري صديقًا لمسلم، وتتلمذ الترمذي على البخاري، كما كان النسائي معاصراً لأبي داود. ولم يكن بين هؤلاء العلماء الأجلاء وبين عهد الرسول ﷺ سوى ثلاثة أو أربعة أجيال فقط، ولم يكن من الممكن أن يخطر الكذب حتى على أحلام هؤلاء العلماء الكبار الذين كانوا يشكلون الحلقات الذهبية لهذه السلسلة النورانية.

---

[١] البخاري، العلم ٣٤.

[٢] تاريخ بغداد للبغدادي، ١٤/٨٥؛ تذكرة الحفاظ للذهبي، ١/٢٢٩.

وهكذا تم حفظ السنة التي تعد نصف الدين بأوثق شكل، وبعيدًا عن كل شك وشبهة ومن قبل كبار المحققين الذين كانوا يزنون كل شيء ميزان الشعرة، وقد بدأ هذا الحفظ من عهد الصحابة واستمر إلى عهد التابعين وتابعي التابعين، ثم تدوينها وحفظها عن ظهر قلب والمحافظة عليها ثم تدوينها وتصنيفها ونقلها دون تغيير حرف منها حتى يومنا الحالي.

أجل، لقد عرف الصحابة قيمة السنة وأهميتها كمصدر ديني مهم وكمرشد لا يستغنى عنه وكمفسر مبارك للقرآن، وانتقل هذا الاهتمام إلى التابعين وإلى تابع التابعين حتى وصلت السنة تحت ظل كل هذا الاهتمام والرعاية إلى الأجيال الأخرى وإلى عصرنا الحالي.

الباب الثالث

الصحابة الكرام والتابعون العظام

(أ) الصحابة الكرام

الصحابة هم الذين نقلوا السنة النبوية بل حتى القرآن الكريم. فالأمانة الكبرى التي أرسلها الله المؤمن والمهيمن بوساطة جبريل الأمين إلى أفضل الخلق قاطبة وأكثرهم أمنًا.. إلى الأمين محمد ﷺ.. ثم كان الصحابة هم الذين نقلوا إلينا هذه الأمانة الكبرى كما هي تمامًا. لذا، نرى القرآن الكريم والسنة النبوية يتحدثان عنهم بكل ثناء،[1] بل مدحهم وأثنى عليهم الإنجيل والتوراة كذلك.[2]

عاشوا حياة مستقيمة، لم يكونوا مثال البطولة في بدر ومؤتة واليرموك فقط، بل كانوا في كل صفحة من صفحات حياتهم مثالاً يحتذى، إذ نظموا حياتهم وأوقفوها لحساب الدار الآخرة، وكانت كل خطوة من خطواتهم في سبيل نيل الرضا الإلهي. وعن طريق هؤلاء الذين ضربوا المثل الأعلى في الطهر والاستقامة وصلت إلينا السنة النبوية، لذا كان علينا أن نتطرق إلى الصحابة قليلاً، ثم إلى التابعين العظام الذين تبعوهم بأحسان.

---

[1] انظر هذه الآيات: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا في قُلُوبِهِم فَأَنزلَ السَّكِينَةَ عَلَيهِم وَأَثَابَهُم فَتحاً قَرِيباً﴾ (الفتح:١٨)؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَموَالِهِم وَأَنفُسِهِم في سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعضُهُم أَولِيَاءُ بَعضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَم يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِنْ وَلاَيَتِهِم مِن شَيءٍ حتى يُهَاجِرُوا وَإِنِ استَنصَرُوكُم فِي الدِّينِ فَعَلَيكُمُ النَّصرُ إلاَّ علَى قَومٍ بَينَكُم وَبَينَهُم مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٢)؛ ﴿لِلفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَموَالِهِمْ يَبتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللهِ وَرِضوَاناً وَينصُرونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤا الدَّارَ وَالإيمانَ من قَبلِهِم يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيهِم وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَو كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِر لَنَا وَلإخوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإيمانِ وَلاَ تَجْعَل فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر:٨-١٠)؛ وانظر أيضاً: البخاري، فضائل الصحابة ٥؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢١٤؛ الترمذي، المناقب ٥٦-٥٧.

[2] انظر هذه الآية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُم تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللهِ وَرِضوَاناً سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِم مِن أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّورَاةِ وَمَثَلُهُم فِي الإنجِيلِ كَزَرعٍ أَخرَجَ شَطأَهُ فَآزَرَهُ فَاستَغلَظَ فَاستَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنهُم مَغفِرَةً وَأَجراً عَظِيماً﴾ (الفتح:٢٩).

١- الصحابة وطبقات الصحابة

يُعد الحافظ ابن حجر أفضل من قدم تعريفًا للصحابة ولمن نستطيع إطلاق كلمة الصحابة عليهم. فالصحابي حسب تعريفه هو الشخص المؤمن الذي رأى رسول الله ﷺ ونال صحبته ولو قليلاً واستمع إليه ومات على الإيمان وعلى العهد.[1]

ومع أن هناك من اشترط للصحابي صحبة الرسول ﷺ مدة عام أو عامين، إلا أن جمهور العلماء متفقون على أن من لقي رسول الله ﷺ وتسنى له صحبته ولو قليلاً، واستفاد من ذلك الجو الروحاني ومات على الإيمان وعلى العهد فهو صحابي. أما الكافر فلو رأى الرسول ﷺ، ألف مرة فلا يُعد صحابيًا.

لا شك أن الصحابة ليسوا سواء، فهناك طبقات لهم، إذ لا يمكن أن يوضع في الكفة نفسها من آمن به وصحبه منذ البداية وجاهد معه، ومن آمن به بعد الهجرة ثم من بعد الفتح، وقد تناول القرآن والسنة هذا الموضوع من هذا المنطلق أيضًا. فالقرآن يتكلم عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة:١٠٠). ثم يتكلم عن الذين أنفقوا قبل الفتح وقاتلوا والذين أنفقوا بعده وقاتلوا وأنهما لا يستويان: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ (الحديد:١٠).

ويمكن ملاحظة فرق الدرجات هذا في أقوال الرسول ﷺ. فمثلاً عندما قام خالد بن الوليد بمضايقة عمّار بن ياسر غضب رسول الله ﷺ وقال: «لا تؤذوا أصحابي.»[2] وعندما آذى عمر أبا بكر قطب الرسول ﷺ حاجبيه وقال لعمر: «هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعًا فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدقتَ.»[3]

وأفضل من صنف الصحابة هو الحاكم النيسابوري صاحب كتاب المستدرك، فهو يرى أن الصحابة ينقسمون إلى اثنتي عشرة درجة:

١. قوم تقدم إسلامهم بمكة كالخلفاء الأربعة.

٢. الصحابة الذين أسلموا قبل تشاور أهل مكة في دار الندوة.

---

[1] الإصابة لابن حجر، ٧/١.

[2] المسند للإمام أحمد، ٨٩/٤-٩٠؛ أسد الغابة لابن الأثير، ١٣٢/٤.

[3] البخاري، تفسير سورة (٧) ٣؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٢٣٦/١٠.

٣. مهاجرة الحبشة.
٤. أصحاب العَقَبة الأولى.
٥. أصحاب العَقَبة الثانية وأكثرهم من الأنصار.
٦. أول المهاجرين الذين وصلوا إلى النبي ﷺ بقباء قبل أن يدخل المدينة.
٧. أهل بدر.
٨. الذين هاجروا بين بدر والحُديبية.
٩. أهل بيعة الرضوان في الحُديبية.
١٠. من هاجر بين الحُديبية وفتح مكة كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص.
١١. مسلمة الفتح الذين أسلموا بعد فتح مكة.
١٢. صبيان وأطفال رأوا النبي ﷺ يوم الفتح وفي حجة الوداع وغيرهما.[١]

٢- المنــزلة الرفيعة للصحابة

هناك اتفاق أو إجماع بأن الصحابة أفضل الناس بعد الأنبياء. فالأنبياء هم أصحاب الفضائل الكبرى، وليس في وسع أحد الوصول إلى مرتبتهم. ثم يأتي بعدهم الصحابة، ومع ذلك يمكن القول أن هناك صحابة يصلون في بعض الفضائل إلى مرتبة أنبياء بني إسرائيل وليس في جميع الفضائل. أكرر القول بأن بعض الصحابة قد يصلون في بعض الفضائل -وليس في كلها- إلى مرتبة بعض الأنبياء. وقد يقترب بعض الأولياء والأصفياء أمثال الشيخ الكيلاني والإمام الرباني ومحمد بهاء الدين النقشبندي في بعض الفضائل من بعض الصحابة على قاعدة "رجحان المرجوح على الراجح"، ولكن علماء الجمهور العظام أمثال أبي حنيفة والإمام الشافعي من الذين تنورت عقولهم وقلوبهم وأصبح كلامهم حجة في الدين يرون أن الفضيلة المطلقة تعود بعد الأنبياء إلى الصحابة الكرام[٢] يقول الإمام الرباني السرهندي "فإنما حصل للأصحاب في أول صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام بطريق اندراج النهاية في البداية قلما يحصل لكُمَّل الأولياء في النهاية، ولهذا كان الوحشي قاتل حمزة ﷺ أفضل من أويس القرني الذي هو خير التابعين لنيله صحبة النبي ﷺ مرة واحدة. سئل عبد الله بن المبارك: أيهما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال:

---

[١] معرفة علوم الحديث للحاكم، ص٢٢-٢٤؛ الباعث الحثيث لأحمد محمد شاكر، ص١٣٧.
[٢] شرح كتاب الفقه الأكبر لعلي القاري، ص٢٠٦؛ شرح العقيدة الطحاوية لابن العز، ٦٨٩/٣؛ علوم الحديث لابن الصلاح، ص٢٩٤؛ الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٦.

والله لَلغبار الذي دخل أنف فرس معاوية مع رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبد العزيز كذا مرة. فينبغي أن يتأمل في أنه إذا كان بداية جماعة بحيث اندرجت فيها نهاية غيرهم ماذا تكون نهايتهم، وكيف يسعها إدراك الآخرين؟"[1]

٣- العوامل التي علت بمنــزلة الصحابة

ما سبب المنزلة السامية للصحابة الكرام؟

أ. العلاقة بالرسالة

السبب الأول يعود إلى وجود علاقة بين الصحابة وبين نبوة رسول الله ﷺ ورسالته. وبوفاة الرسول ﷺ انسد باب النبوة، لذا لم يبق هناك سوى علاقة الولاية بين الرسول ﷺ والأولياء الذين جاءوا من بعده. وبدرجة سمو النبوة على الولاية سمت مرتبة الصحابة على مرتبة الأولياء.

ب. موضوع الانصباغ

والثاني هو موضوع الانصباغ. فوجود شخص في حضور شخص عظيم بضعة دقائق قد يفيده أكثر من قراءة مؤلفات ذلك الشخص العظيم لعدة ساعات. فالحضور في المجلس شخصيًا والاستفادة من الصحبة بشكل مباشر وقريب لاسيما إن كان هذا مجلس الرسول ﷺ.. مثل هذه الصحبة لا تغني عنها أي قراءة في كتاب ما، لأن الإنسان المحظوظ بتلك الصحبة يسمع الرسول ﷺ ويرى حركات يده ونظرات عينيه ويحس بالجو الروحي المشع في مجلسه. ولن يستطيع أحد أن يصل إلى هذا الجو من قراءة الكتاب. صحيح أن كل شخص يستطيع أن يقرأ حول صلاة الرسول ﷺ وكيف كان يقف للصلاة وكيف كان يركع ويسجد، ولكن لا يوجد كتاب يستطيع أن ينقل الجو الحقيقي لصلاة رسول الله ﷺ وزفرات صدره في أثنائها والخشوع الذي كان يأخذ بالباب مشاهديه. لن يستطيع أي كتاب أن ينقل هذا الجو أبدًا، لذا فالذي لا يفهم معنى الانصباغ في جو هذه الصحبة لن يستطيع فهم الصحابة ولن يستطيع إدراك عظمتهم. فلبلوغ مرتبة الصحابة يجب تجاوز المكان والرجوع في الزمن ١٤٠٠ سنة إلى الوراء والحضور في مجلس رسول الله ﷺ قائلاً له: فديتك يا رسول الله بأبي وأمي.

---

[1] المكتوبات للإمام الرباني الفاروق السرهندي، ٧٠/١ (المكتوب رقم ٥٨).

ج. ديمومة اتباع الحق

والثالث أن حياتهم خلت من الكذب حتى في المزاح. ويصعب فهم هذا في يومنا الذي يختلط بعض الكذب بكلام أصدق الناس. كانوا آنذاك حديثي العهد بالإسلام.. أسلموا فانتقلوا من الكذب إلى الصدق، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن الظلام إلى النور، ولكي يصلوا إلى الجمال الذي وُعدوا به فقد ضحوا بأموالهم وأنفسهم عن طيب خاطر، وما كانوا على استعداد أن يفرطوا بهذه المنزلة التي حصلوا عليها بسعر غالٍ جدًا. وهؤلاء الذين تحلقوا حول مقام الصدق لرسول الله ﷺ كانوا بعيدين عن مقام الكذب الذي كان مقام مسليمة الكذاب، وما كانوا يرضون لأنفسهم أبدًا السقوط إلى تلك الهوة السحيقة.

أجل، لقد قطع الصحابة علاقتهم بدنيا الكذب وابتعدوا عنها وعن جميع المظاهر اللاأخلاقيه بسرعة على عزم أكيد بألا يرجعوا إليها مرة أخرى مهما كان الثمن.

وأظن أنه يصعب في أيامنا الحالية -التي راج فيها الكذب وسرى إلى السياسة واختلطت الأخلاق السيئة بالأخلاق الحميدة- فهم هذا على الوجه الصحيح والإحساس به، لذا فمن الصعب فهم الصحابة وفهم عظمتهم الفهم الصحيح، وهذا قد يؤدي إلى خطأ كبير وهو خطأ حسبان الصحابة رجالاً مثلنا، أي عدم التميز بين النجوم المتلألئة في السماء وضوء اليراع في الأرض.

د. الحيوية التي أوجدها الوحي

والعامل الرابع هو نزول موائد الوحي في عهد النبوة أمام الصحابة تترى، ففي كل يوم كانت هناك رسائل جديدة من مالك السموات والأرض ومن مليكهما، وكان الصحابة يتطهرون كل يوم بهذه الرسائل ويغتسلون بها. ففي يوم يشرع الأذان وفي يوم آخر تشرع إقامة الصلاة، وفي يوم آخر يشرع النكاح ويحدد بأربع نساء ويعلق بشرط، وفي يوم آخر يحرم الخمر وتلقى الأقداح على الأرض. هذه بعض الرسائل السماوية، فقد كانت هناك إشارات مبهمة أو صريحة يرونها في هذه الرسائل تتعلق بهم فمثلاً عندما يذكر الوحي: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (الفتح:٢٩) ثم يذكر ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ كانت العيون تتجه إلى أبي بكر، وعندما ينزل الوحي ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ تتجه العيون إلى عمر بن الخطاب، وعندما يذكر الوحي ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ تتجه الأنظار إلى عثمان بن عفان، وعند ذكر ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب:٢٣) خطرت على القلوب بطولة أنس بن النضر واتجه

نظر أنس بن مالك إلى قبر عمه أنس بن النضر. ويستدعي الرسول ﷺ أُبيّ بن كعب ليقول له إن الله تعالى أمره أن يقرأ عليه سورة البينة التي تبدأ بالآية: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (البينة:١) فسأله أُبيّ بن كعب مذهولاً: وهل ذكر أسمي يا رسول الله؟ فقال له الرسول ﷺ: «نعم.»[١] وعندما تنزل الآية ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ (الأحزاب:٣٧) كان يرد اسم زيد في الوحي وهو من أوائل المسلمين.

أجل، كان الله تعالى يذكرهم، وكانوا يذكرون الله تعالى.. كانوا على اتصال دائم بالله تعالى اتصالاً يليق بجلاله وعظمته بوساطة الرسول ﷺ الذي لو رأينا ظله في أحلامنا طرنا من السعادة أيامًا. هكذا انسابت أيام حياتهم وفي ظل مثل هذه العلاقة والفهم والوعي والإدراك والبصيرة، وكان هذا هو مستوى الذين نقلوا إلينا السنة، فقد كان من المحال أن يمر الكذب على خاطر أحد منهم. وقد توثق القرآن والسنة وتم إرساؤهما على أساس متين وقوي من قبل مثل هؤلاء الصحابة بحيث استحال إجراء أي تغيير أو تبديل فيهما.

هـ. أخوتهم في المحن والشدائد

أسلم الصحابة ووقفوا بجانب الدعوة الإسلامية في أيامها الصعبة والحالكة. صحيح أن الوقوف اليوم أيضًا بجانب الإسلام يعد صعبًا إلا أن تلك الأيام كانت أصعب وأحلك، وكان الإسلام آنذاك وحيدًا وغريبًا، ولكن الصحابة الكرام وقفوا بجانب دين الله وبجانب رسوله في تلك الأيام الحالكات، وينقل ابن عربي في كتابه "محاضرة الأبرار" كلام أبي بكر ﷺ إلى أبي عبيدة بن الجرّاح ﷺ لينقله إلى علي بن أبي طالب ﷺ الذي كان يصور حالهم في تلك الأيام إذ يقول معناه: "يا علي! عندما كنتَ أنت صغيرًا لا تعقل بعدُ لم نكن نحن نجرؤ على الخروج إلا بعد أن نأخذ الموت بنظر اعتبارنا عدة مرات، وكنا عندما نخرج نتوقع على الدوام سيفًا يمرق فوق رؤوسنا، وما كان أحد ليجرأ على قول لا إله إلا الله إلا وقد أخذ في حسبانه أن خنجرًا حادًا سيخترق جسده."[٢]

هذه هي الدرجة العالية التي بلغها هؤلاء الصحابة في الإسلام، لذا انفتحت أعين قلوبهم لعالم الحقائق في هبة واحدة. فعن أنس قال: إن رسول الله ﷺ دخل المسجد والحارث بن مالك نائم فحركه برجله، قال: «ارفع رأسك»، فرفع رأسه فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول

---

[١] البخاري، تفسير سورة (٩٨) ١-٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٢١-١٢٢؛ الترمذي، المناقب ٣٢٠؛ المسند للإمام أحمد، ١٣٠/٣، ١٣٧، ١٨٥.

[٢] محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربي، ١٧٩/٢.

الله! فقال النبي ﷺ: «كيف أصبحت يا حارث بن مالك؟» قال: أصبحت يا رسول الله مؤمنًا حقًا. قال: «إن لكل حقٍ حقيقة، فما حقيقة ما تقول؟» قال: عزفت عن الدنيا، وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني أنظر إلى عرش ربي فكأني أنظر إلى أهل الجنة فيها يتزاورون وإلى أهل النار يتعاوون. فقال له النبي ﷺ: «أنت امرؤ نوّر الله قلبَهُ، عرفتَ فالزم.»[١]

كان هذا هو مقدار قربهم من الله تعالى، لذا أصبح الله تعالى -كما ورد في حديث قدسي- بصرهم الذي يبصرون به وسمعهم الذي يسمعون به وألسنتهم التي ينطقون بها، وأيديهم التي يبطشون بها.[٢]

٤- الصحابة في القرآن

يقول الإمام ابن حزم مثل كثير من الأئمة والمجتهدين إن جميع الصحابة من أهل الجنة.[٣] ووجود العشرة المبشرين بالجنة بينهم وهم على قيد الحياة يدل على حيازتهم على نسبة وعلى حصة معينة من الجنة، وهناك أدلة عديدة تؤيد هذا الرأي في القرآن وفي السنة. ففي القرآن مثلاً نجد هذه الآيات في أواخر سورة الفتح ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾، فأكبر حقيقة بعد الإيمان بالله هي حقيقة أن محمدًا ﷺ هو الرسول الذي أرسله للناس كافة. ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:٢٩).

فما هو هذا الأجر العظيم الذي وعدهم الله تعالى؟ لا يصرح القرآن بماهية هذا الأجر لأنه يريد أن يكون لهم مفاجأة في فردوس فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.[٤]

عن أنس ﷺ: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! قد عرفتَ منزلة حارثة مني، فإن يكُ في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن

---

[١] كنز العمال للهندي، ١٣/ ٣٥٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١/٥٧.

[٢] البخاري، الرقاق ٣٨.

[٣] الإصابة لابن حجر، ١/١٠؛ الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، ٣/١١٩.

[٤] انظر: البخاري، التوحيد ٣٥؛ مسلم، الإيمان ٣١٢؛ الترمذي، الجنة ١٥؛ ابن ماجه، الزهد ٣٩؛ الدارمي، الرقائق ٩٨، ١٠٥؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٣١٣، ٣٧٠.

الأخرى ترى ما أصنع. فقال: «ويحكِ أَوَ هبلتِ؟ أَوَ جنةٌ واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه لفي جنة الفردوس.»[١]

كان هذا صحابيًا شابًا من عامة الصحابة آمن فيما بعد، فإذا كان يحوز الفردوس -وهو أرفع درجات الجنة- فما بالك بكبار الصحابة الذين نقلوا إلينا السنة النبوية والحقيقة الأحمدية، وما بالك بمن يسند إليهم الكذب أو يراهم من أهل النار! ترى إلام يقود هذا الرأي؟

يقول القرآن الكريم أيضًا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة:١٠٠). وسيقول الله تعالى لكل نفس منهم: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٢٧-٣٠). أجل، إن الله تعالى راضٍ عنهم ولو لم يرض عنهم البعض، وهم وإن استكثروا عليهم الجنة إلا أن الله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١٠٠).

ترك المهاجرون ديارهم وبيوتهم وأوطانهم وهاجروا.. وقبل ذلك تركوا رغباتهم النفسية وهجروها.. هاجروا من المعصية إلى الطاعة، ومن رغبات النفس إلى صفاء الروح ومن مكة إلى المدينة. أما الأنصار فهم الأبرار الذين فتحوا لهم قلوبهم وصدورهم وبيوتهم، ولكي ندرك مدى احتضانهم لإخوانهم المهاجرين يكفي قراءة هذه الحادثة:

آخى رسول الله ﷺ بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، فأخذ سعد أخاه عبد الرحمن إلى بيته وكانت له امرأتان فعرض عليه أن يناصفه أهلَهُ ومالَه فقال: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلَّني على السوق. فأتى السوقَ فربح شيئًا من أَقِطٍ وشيئًا من سَمْنٍ.[٢] أجل، كان هذا هو نوع احتضانهم لإخوانهم ونمط أخوّتهم.

ومثال آخر نراه في قصة الصحابي أبي هريرة ﷺ الذي جاء من دَوْس وأسلم ولازم الرسول ﷺ يستمع إليه لكي ينقل لنا السنة فيما بعد، كان يصوم نهاره ويقوم ليله،[٣] وكان جائعًا أكثر أوقاته، وقد يبلغ به الجوع درجة كبيرة، فيبدأ يتلوى من الألم ومن ينظر إليه يحسبه مجنونًا، إذ يقول ﷺ: "لقد رأيتني أُصرَع بين منبر رسول الله ﷺ وبين حجرة عائشة

---

[١] البخاري، الرقاق ٥١؛ الترمذي، تفسير سورة (٢٣) ٣.

[٢] البخاري، النكاح ٧، البيوع ١، ٤٩؛ الترمذي، البر ٢٢.

[٣] البداية والنهاية لابن كثير، ١١٨/٨-١٢٠؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٦٠٩/٢.

فيقول الناس: إنه لَمجنون، وما بي جنون، وما بي إلا الجوع."[1] ولم يكن أبو هريرة وحده يقاسي الفقر والجوع، بل كان هناك آخرون، ففي رواية عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسلَ إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يُضيّف هذه الليلة يرحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله، لا تدّخريه شيئًا. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصِّبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالَي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلتْ ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله ﷻ - أو- ضحك من فلان وفلانة فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر:٩).»[2]

أجل، لقد أحرزوا مستوى ساميًا لا يخطر على خيال إنسان هذا العصر. كانت قلوبهم نقية طاهرة، ونفوسهم خالية من العوج، لذا أعلن الله تعالى عن رضاه عنهم وهم لا يزالون على قيد الحياة. فقد كانوا مؤمنين بحق، والله يحب المؤمنين ويرضى عنهم لذا، قال عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:١٨).

لم يتراجع الصحابة الكرام عن عهدهم لرسول الله ﷺ ولا عن بيعتهم التي بايعوه ولا عن عهدهم مع الله تعالى، بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبرهنوا على صدقهم هذا في كل حادثة وأمر، والقرآن الكريم يمدحهم ويخلد صدقهم هذا فيقول: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٣).

أجل، لقد عاهدوا على أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله وفي سبيل الحصول على جنته وعلى رضوانه، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فاستشهد قسم منهم في المعارك ولم يتراجعوا ولم يهربوا في القتال. فها هو حمزة يستشهد في معركة أُحد ويرقى إلى مرتبة سيد الشهداء. وها هو أنس بن النضر يستشهد في أحد أيضًا ويلقى ربه. وها هو عبد الله بن جحش ومصعب بن عمير وعشرات غيرهم استشهدوا في بدر وفي أُحد. استشهد هؤلاء وبقي وراءهم آخرون ينتظرون دورهم في الشهادة ويبحثون عنها، منهم أبو عقيل.. انتظر

---

[1] صفة الصفوة للجوزي، ١/٢٩٢-٢٩٣؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ١/٣٧٨.

[2] البخاري، تفسير سورة (٥٩) ٦؛ مسلم، الأشربة ١٧٢-١٧٤.

الشهادة في أُحد ثم انتظرها في فتح مكة، ثم انتظرها في معركة مؤتة، وأخيرًا لقيها في معركة اليمامة.

لم يغيروا عهودهم التي قطعوها على أنفسهم مع الله تعالى، ولم يتغيروا.. كانوا في اليوم الأخير من حياتهم مثل أول يوم عهدهم.. لم تغيرهم الدنيا ولم تفتنهم، ولم تلههم الشهوات، بل بقوا رجالاً صناديد حتى تمزقت أستار الظلام عن قافلة النور.

٥- الصحابة في الأحاديث الشريفة

لقد خلد القرآن الكريم ذكرى الصحابة -الذين كانوا القنوات الطاهرة التي نقلت إلينا السنة- بثنائه عليهم. والآن لنطلع على الأحاديث الشريفة في حق الصحابة الكرام وكيف أثنت عليهم:

أ. جاء في رواية وردت في صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما من كتب الأحاديث الصحيحة عن أبي سعيد الخدري ﷺ -وهو من شباب الصحابة الذين وقفوا أنفسهم لحفظ الحديث مثل أبي هريرة ﷺ- جاء في هذه الرواية: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا، ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه.»[1]

ذلك لأنهم دافعوا عن الإسلام في أحلك وفي أصعب أيامه، لذا فأي قدح في حقهم لا يليق بأي مسلم، لذا فلا نستطيع نحن صرف أي كلام غير مناسب في حق الصحابة مثلما فعل منتسبو بعض المذاهب الباطلة بالأمس أو مثلما يفعل الآن بعض المستشرقين الذين أصبحت عداوة الإسلام دينهم، وبعض مقلديهم من المسلمين المساكين الذين أذهلهم التقدم المادي للغرب فأصبح هؤلاء المستشرقون قبلتهم ومحرابهم.

ب. يروي الترمذي عن عبد الله بن مغفَّل ﷺ: «اللهَ اللهَ في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي. لا تتخذوهم غَرَضًا بعدي، فمن أحبهم فَبحبي أحَبَّهُمْ ومن أبْغَضَهم فببغضي أبْغضَهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه.»[2]

ج. وعن الإمام مسلم أيضًا:

«النجومُ أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجومُ أتى السماءَ ما تُوعَدُ. وأنا أمنةٌ لأصحابي فإذا ذهبتُ

---

[1] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٥؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٢١؛ الترمذي، المناقب ٥٨.

[2] الترمذي، المناقب ٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ٥/٥٧.

أتى أصحابي ما يوعَدون، وأصحابي أَمَنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمّتي ما يُوعدون.»[1]

فكما تنثر النجوم عند قيام الساعة انتشار حبّات المسبحة، كذلك يعد الرسول ﷺ رأس المسبحة بالنسبة لأصحابه، وأصحابه رأس المسبحة بالنسبة لأمته، لذا كان الرسول ﷺ ضروريًا لانتظام صحابته، وصحابته يشكلون ضرورة لنظام أمته بأوليائها وأصفيائها وأبرارها.

د. يقول الرسول ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم وأصحاب الكتب الصحاح للحديث: «خير الناس قَرْني ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم ثم يتخلف من بعدهم خلف تسبق شهادة أحدهم يمينهُ، ويمينُهُ شهادته.»[2] ثم جاء عصر الكذب، عصر خلف الوعد حيث تسبق الشهادة اليمينَ ويسبقُ اليمين الشهادة.

أما عصر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين فقد كان عصرًا بعيدًا عن الكذب ومبرأ منه، وبعد عصر تابعي التابعين ظهر الكذب فظهرت فرق المعتزلة والمرجئة والمشبّهة ثم انتشر الكذب، واليوم ساد الكذب بين المستشرقين الذين أسندوا الكذب إلى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وتابعهم في هذا بعض المنذهلين بالغرب من المسلمين.

هـ. يقول ابن مسعود ﷺ -الذي قال في حقه عمر بن الخطاب لأهل الكوفة بأنه آثرهم على نفسه عندما أرسل لهم هذا الصحابي[3]-: "إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه."[4] اختار له أصحابًا أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجرّاح وغيرهم.

و. كما ينقل أبو نعيم في كتابه الحلية عن عبد الله بن عمر: "من كان مُستنًّا فليستَنّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرّها قلوبًا، أعمقها علمًا وأقلها تكلّفًا، قومٌ اختارهم الله لصحبةِ نبيه ﷺ ونقلِ دينه، فتشبهو بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهُدى المستقيم والله رب الكعبة."[5]

ز. ويروي صاحب الحلية أيضًا عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: "أنتم أكثر صيامًا وأكثر

---

[1] مسلم، فضائل الصحابة ٢٠٧؛ المسند للإمام أحمد، ٣٩٩/٤.

[2] البخاري، فضائل أصحاب النبي ١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢١٢.

[3] أسد الغابة لابن الأثير، ٣٨٨/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٩١/٩.

[4] المسند للإمام أحمد، ٣٧٩/١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٧٥/١.

[5] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٠٥/١.

صلاةً وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيرًا منكم." قالوا: لِمَ يا أبا عبد الرحمن؟ قال: "هم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة."[1]

٦- المكثرون من الصحابة

أكثر من تعرض لهجوم المستشرقين وهجوم تابعيهم ومقلديهم هم الصحابة المكثرون من رواية الحديث وعلى رأسهم أبو هريرة ﷺ.

لقد انتقل الدين إلينا بوساطة الصحابة الكرام، لذا فأي تعرض لهم يعد تعرضًا لديننا. ولكون الأمانة في عهدتنا الآن لذا، يتحتم علينا حفظ هذه الأمانة أي حفظ ديننا من أي هجوم أو تعرض. لقد أدى الصحابة الكرام مهمتهم على أتم وجه، وانقضت حياتهم في عهد كان بعيدًا عن كل طعن وتشهير. والحقيقة أنهم لا يحتاجون إلى من يدافع عنهم، ولكننا نريد البرهنة على تهافت هذا العذر، لأن الهدف من الهجوم على هؤلاء الصحابة هو النيل من ديننا في الأساس.

لقد انقضت العصور الأولى للتاريخ الإسلامي في نقاء وطهر، ولكن ما إن دخلت التيارات الفلسفية والتفكير الأجنبي بين المسلمين حتى ظهرت المذاهب الباطلة أمثال الجبرية والمرجئة والمعتزلة والمشبهة، وسلك أصحاب هذه المذاهب طريق اختراع الأحاديث لتأييد أهوائهم ومسالكهم، وكذلك الهجوم على الصحابة الذين رووا أحاديث رأوها مخالفة لمشاربهم الباطلة. لذا، نرى بعض أئمة المعتزلة كالنظّام وبعض أئمة الشيعة كأبي إسحاق وهم يهاجمون بعض أعمدة رواة الحديث من كبار الصحابة أمثال أبي هريرة ﷺ الذين قضوا حياتهم -كأي صحابي آخر- في شرف واستقامة وأصبحوا من مفاخرنا. لذا، فلأهمية هذا الموضوع فسنتناول بتعريف قصير لهؤلاء الصحابة بادئين بأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وابن مسعود ﷺ جميعاً.

أ. أبو هريرة ﷺ

هو من قبيلة دَوْس اليمنية، أسلم في بداية السنة السابعة للهجرة وهاجر إلى المدينة ونال شرف البقاء بجانب رسول الله ﷺ أربع سنوات. فعندما أسلم طُفيل بن عمرو رئيس قبيلة دوس رجع إلى قبيلته وكأنه شعلة من نور فأسلم على يديه الكثير من أفراد

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١/١٣٦.

قبيلته، وكان أبو هريرة منهم حيث هاجر إلى المدينة بعد إسلامه.[١]

عندما وصل أبو هريرة ﷺ إلى المدينة كان رسول الله ﷺ على أبواب خيبر، فأسرع أبو هريرة والتحق بجيش الرسول ﷺ في خيبر. سأله الرسول ﷺ عن اسمه فقال: عبد الشمس. فأخبره الرسول ﷺ بأن الإنسان لا يكون عبدًا للشمس ولا للقمر بل يكون عبدًا لله، لذا سماه عبد الرحمن. ولكنه عُرف على الأكثر باسم أبي هريرة، ذلك لأن الرسول ﷺ رآه مرة وفي حجره قطة صغيرة فقال له: «يا أبا هريرة!» حيث عرف بهذا الاسم فيما بعد. وكان يفضل أن يدعوه الناس أبا هرّ لأنه كان فقيرًا معدمًا لايملك شيئًا، كما أن الرسول ﷺ دعاه مرة وهو في إحدى لحظاته السعيدة بأبي هرّ. وتفضيله أن يخاطبه الناس باسمه هذا دليل على مدى ارتباطه برسول الله ﷺ وحبه له.[٢]

أسلم أبو هريرة ولكن كانت لديه مشكلة يعدها مشكلة كبيرة، وهي أن أمه لم تكن قد أسلمت بعد، كان يحس بدَيْن كبير نحو والدته التي ربته وهو يتيم، فكان يتمنى اهتدائها للإسلام ويحاول ذلك لكي يوفيها جزءً من دينها عليه، لذا جاء إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يدعو الله لكي يهديها إلى الإسلام وإلى نطق شهادة لا إله إلا الله.

ففي رواية عنه: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره. فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي. قلت يا رسول الله! إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اهدِ أم أبي هريرةَ» فخرجتُ مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ. فلما جئتُ فَصِرتُ إلى الباب فإذا هو مجافٌ (أي مغلق) فسمعتْ أمي خَشْفَ (أي صوت) قدميّ فقالت: مكانَك! يا أبا هريرة! وسمعت خضخضة الماء. قال: فاغتسلتْ ولبست درعها وعَجِلَتْ عن خمارها ففتحتِ البابَ. ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه. قال: فرجعْتُ إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح. قال قلت: يا رسول الله! أبشر قد استجابَ الله دعوتَكَ وهدى أم أبي هريرة. فحمدالله وأثنى عليه خيرًا. قال: قلت: يا رسول الله! ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم حَبِبْ عُبَيْدَكَ هذا -يعني أبا هريرة- وأمّهُ إلى عبادك

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/ ٣٢٨؛ الإصابة لابن حجر، ٤/٢٠٢-٢١٠؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ١/٣٤٥-٣٤٦.

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٢٠٢-٢١٠.

المؤمنين وَحَبِّبْ إليهم المؤمنين.»[١] أجل، إن المؤمنين يحبون أبا هريرة، أما من لا يحبه فندع حكم ذلك للقارئ.

لازم أبو هريرة ﷺ النبي ﷺ ليلاً ونهاراً. كان من دهاة الحفظ عن ظهر قلب. في الليل كان ينام ثلثه ويتعبد الله في ثلثه ويصرف الثلث الأخير في تذكر الأحاديث التي سمعها ويكررها في قلبه. وأصبح في الوقت نفسه عالماً وفقيهاً وحافظاً للحديث، دعا مرة في المسجد فقال: اللّٰهم إني أسألك علماً لا يُنسى. فسمعه الرسول ﷺ وقال: «آمين.»[٢]

ولا شك أن لدعاء الرسول ﷺ له بالحفظ كان له أثر في قوة حفظه، وفي أحد الأيام قال أبو هريرة قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ﷺ إني أسمع منك حديثًا كثيرًا أنساه. قال: «ابسط رداءك» فبسطته، فغرف بيديه ثم قال: «ضُمَّه.» فضممته فما نسيت شيئًا بعده.[٣]

وعندما قيل له إنه يكثر من رواية الأحاديث قال: "إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون."[٤]

كانت هذه هي الحقيقة.. لازم رسول الله ﷺ ولم يفارقه. كان يبقى جائعاً لعدة أيام، وكان يصوم صوم الوصال، أي أنه عندما لايجد شيئاً يفطر عليه يجدد صيامه، وهكذا كان يواصل صومه لثلاثة أو أربعة أيام.[٥] كان يتلوى أحياناً من الجوع ويتقلب على الأرض من الألم فيحسبه الناظر أن به صرعاً،[٦] وكان أحيانًا يقول لمن يراه أو يمر به استقرأتُك[٧] ويأتي هذا بمعنى: هل تقرأ لي القرآن؟ لم يكن أحد -في أكثر الأحيان- يفهم له سوى جعفر الطيار، لذا كان بعضهم يقرأ له بعض الآيات ثم ينصرف عنه، بينما فهم جعفر الطيار مرامه من هذا السؤال فأخذه إلى بيته وأطعمه.[٨]

وكما كان جعفر ﷺ يُطعم أبا هريرة، كان الرسول ﷺ يطعمه أيضًا كلما تيسر له ذلك. لم ينس أبو هريرة ﷺ شيئًا سمعه من الرسول ﷺ، نقل كل ما سمعه منه إلينا ليخلد أقواله إلى

[١] مسلم، فضائل الصحابة ١٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣٢٠/٢؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٢٨/٤
[٢] المستدرك للحاكم، ٥٠٨/٣.
[٣] البخاري، العلم ٤٢؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦٠؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٢٩/٤-٣٣٠.
[٤] البخاري، العلم ٤٢؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٥٩؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٣٠/٤.
[٥] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٧٨/١؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١١٨/٨.
[٦] البخاري، الاعتصام ١٦؛ الترمذي، الزهد ٣٩.
[٧] استقرأتك: أي أطلب "قِراك" أي أن تستضيفني عندك.
[٨] البخاري، الأطعمة ٣٢؛ فضائل أصحاب النبي ١٠.

يوم القيامة، وكان أبو هريرة يقول: لولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثا ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:١٥٩-١٦٠).[١]

لولا هذا لما روى أي رواية عن الرسول ﷺ ويكفي لهذا الصحابي النقي الصحيفة والخفيف الدم والذي كان صاحب مزاح أيضا مكوثه أربع سنوات مع شخص عظيم مثل رسول الله ﷺ الذي كان يحب أصحاب السلوك العالي وعدم استغراب أحد قربه هذا منه ﷺ.. يكفيه هذا للدلالة على مدى علوه على ما اعتقد، ولا يدرك معنى هذا إلا الشخص الذي جرّب أن يكون قريبًا من شخص عظيم.

لم يكن للصحابة الكرام موقف سلبي من أبي هريرة كما يدعي البعض. فعندما روى عنه أبو أيوب الأنصاري ﷺ -الذي كان من أوائل من بايع رسول الله ﷺ في العَقَبة والذي نال شرف استضافته في بيته والضيف العزيز لمدينة إسطنبول-[٢] قال أبو الشعثاء: قدمت المدينة فإذا أبو أيوب يحدث عن أبي هريرة ﷺ فقلت: تحدث عن أبي هريرة وأنت صاحب منزلة عند رسول الله ﷺ؟ فقال: لأن أحدث عن أبي هريرة أحب إلي من أن أحدث عن النبي ﷺ.[٣]

لم يكن أبو أيوب الأنصاري وحده هو الذي روى الحديث عنه، بل روى عنه أيضًا عبد الله بن عمر وحبر الأمة عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة الأجلاء الذين يعدون أعمدة الحديث. كما روى عنه من التابعين العظام العديد من الأئمة الذين لهم اليد الطولى في الحديث أمثال الحسن البصري وزيد بن أسلم، وصهره سعيد بن المسيب، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن يسار، وسليمان بن يسار، والشعبي، وهَمّام بن مُنَبِّه، ومحمد بن المنكدر المعروف بالبكاء، وغيرهم، من مئات الأعلام.[٤]

١) عمر بن الخطاب وأبو هريرة رضي الله عنهما

كان عمر بن الخطاب يحبه جدًا، لذا عينه واليًا على البحرين ثم عزله وأرسل غيره مكانه،

---

[١] البخاري، العلم ٤٢؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦٠.

[٢] ذلك لأن ضريح هذا الصحابي الجليل موجود في إسطنبول. (المترجم)

[٣] المستدرك للحاكم، ٥١٢/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١١٧/٨.

[٤] الإصابة لابن حجر، ٢٠٥/٤؛ تهذيب التهذيب لابن حجر، ٢٨٩/١٢-٢٩٠.

وقد يكون سبب العزل اشتغال أبي هريرة بالتجارة وكسبه رأسمالاً بقدر رأسمال شخص فقير في أيامنا الحالية، غير أن الولاة والإداريين والخلفاء آنذاك لم يكونوا يملكون شيئًا.. فكثير من الولاة كانوا يذهبون إلى الولايات التي تم تعيينهم فيها وهم لا يملكون سوى قربة مملوءة بالماء ويرجعون أيضًا كما ذهبوا. ومن شذ عن هذه القاعدة كان كثيرًا ما يعزل. ولم يجمع أبو هريرة رأسماله الصغير هذا عن طريق الرشوة أو عن طريق سوء استغلال سلطته، وعندما تبين لعمر بن الخطاب ﷺ هذا الأمر ثم دعاه ليستعمله فأبى فقال: لقد طلب العمل من كان خيرا منك، قال: إنه يوسف نبي الله بن نبي الله وأنا أبو هريرة بن أميمة، وأخشى ثلاثا: أن أقول بغير علم أو أقضي بغير حكم ويضرب ظهري ويشتم عرضي و ينزع مالي.[١]

ولم يعزل عمر بن الخطاب أبا هريرة وحده، بل قام أيضًا بعزل سعد بن أبي وقّاص وهو من بين العشرة المبشرة بالجنة وعمير بن سعد الذي كان من متقدمي الصحابة من وظائفهم. حتى أن أهل الكوفة عندما شكوا سعد بن أبي وقّاص إلى عمر قالوا إنه لا يحسن يصلي، فاستدعاه عمر وحقق معه، وقد حزن سعد بن أبي وقّاص وقال: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أَخْرِم عنها. أصلي صلاة العشاء فأركد في الأولَيَيْنِ وأخِفّ في الأخْرَيينِ.[٢] ثم قال مستعرضًا تاريخ إسلامه: إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، والله إن كنا لَنغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحُبْلة،[٣] وهذا السَمُر حتى إن أحدنا لَيضع كما تضع الشاة ما له خِلْطٌ، ثم أصبحت بنو أسد تُعزّرُني[٤] على الدين، لقد خبتُ إذًا وضل عملي.[٥]

أجل، قال سعد بن أبي وقّاص هذا ورفض العودة مرة ثانية إلى الكوفة،[٦] لذا، فلم يكن أبو هريرة ﷺ هو الشخص الوحيد الذي تم عزله والذي لم يرغب في الرجوع إلى إمارته مرة أخرى.

٢) علي وأبو هريرة رضي الله عنهما

لم يكن لا علي ولا عثمان ﷺ ضد أبي هريرة ﷺ كما ادعى البعض. صحيح أن أبا

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٣٥/٤-٣٣٦؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٣٢١/٦؛ الإصابة لابن حجر، ٢١٠/٤.
[٢] البخاري، الأذان ٩٥؛ مسلم، الصلاة ١٥٨-١٦٠، الزهد ١٢.
[٣] الحُبْلة: ثمر السمر يشبه اللوبياء. (المترجم)
[٤] أي توبخني.
[٥] البخاري، فضائل الصحابة ١٥، الرقاق ١٧؛ مسلم، الزهد ١٢؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٣٦٦/٢.
[٦] نقلاً عن رجال حول الرسول لخالد محمد خالد ص١٢٨.

هريرة عندما يحدث عن رسول الله ﷺ بقوله: "قال خليلي، وسمعت خليلي" اعترض عليه علي بن أبي طالب قائلاً له: متى كان خليلك؟[١]

بدا هذا الاعتراض من علي ﷺ بكل ما في قلبه من صفاء وإخلاص، لأنه لم يجده ملائمًا مع أنه لا يستغرب من أي شخص أن يصف شخصًا حبيبًا إلى قلبه بأنه كان "خليله." ولكن شخصًا مثل علي ﷺ الذي نشأ في حجر النبوة والذي كان أسبق السابقين إلى الإسلام يستطيع قول هذا لأبي هريرة ﷺ، فبين الأنداد والأمثال يمكن جريان مثل هذا الحديث أو العتاب، ولكن لا يحق لأحد أدنى منهم أن يتفوه بمثل هذا الكلام في حقهم. ثم إن عليًا ﷺ لم يقل هذا الكلام بقصد الطعن في أبي هريرة ﷺ، لذا فتفسير مثل هذا الكلام كطعن فيه يعني عدم معرفة ما هو الطعن وما هو ليس بطعن.

٣) الأمويون وأبو هريرة ﷺ

لم يكن أبو هريرة ﷺ معارضًا لعلي ﷺ ومداهنا وحليفًا لبني أمية كما ادعى البعض، فعندما ظهرت الفتن ذكر أبو هريرة ﷺ الحديث التالي ونشره في جميع أنحاء البلاد: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن تشرَّف لها تستشرِفْه، فمن وَجد فيها ملجأ أو مَعاذا فلْيَعُذْ به»[٢]

كان هذا اجتهاده.. لعله كان من الواجب عليه الانضمام إلى صف علي ﷺ لإخماد الفتنة، ولعل حديث رسول الله ﷺ لم يكن يعني تلك الفتنة، ولكنه استخرج هذا المعنى من هذا الحديث. كذا لم يشترك في الحوادث التي جرت في عهد علي ﷺ وفضل الجلوس في بيته، ولو لم يملك صلابة في الإيمان وخشية من الله تعالى ما تصرف هكذا، ولو كان من أنصار الأمويين ومن المعجبين بمعاوية لما كان هناك أي سبب يحول بينه وبين الاشتراك بجيش الأمويين. والذين ادعوا العكس أمثال "غولتسهر (Goldziher)" وأحمد أمين وأبي ريّة وعلي عبد الرازق من الذين حاولوا قلب الحقائق كانوا يعتمدون كمصدر على كتاب "العقد الفريد" الذي هو كتاب أدبي وليس كتابًا في الحديث. لذا، فالواجب أولاً أن يتعلم هؤلاء كيف يراجعون المصادر عند قيامهم ببحوثهم.، والغريب أن هؤلاء ادعوا أن ابن كثير ذكر في كتابه البداية والنهاية أن أبا هريرة التزم جانب معاوية ﷺ ضد علي ﷺ، بينما يذكر ابن كثير عكس هذا تمامًا في كتابه هذا، فلم يكن أبو هريرة كما يقول ابن كثير من أنصار

---

[١] تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، ص٤٣، ٤٤.

[٢] البخاري، الفتن ٩؛ مسلم، الفتن ١٠.

الأمويين بل كان على العكس تمامًا مشكلة كبيرة بالنسبة إليهم.[١] إذ وقف أمام مروان والد عبد الملك وروى له حديث رسول الله ﷺ: «هلكة أمتي على يدي غِلْمةٍ سفهاء من قريش.» فقال مروان: لعنة الله عليهم غِلْمةً. فقال أبو هريرة: لو شئتُ أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلتُ. ويقول الراوي -وهو عمرو بن يحيى-: فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا بالشام فإذا رآهم غلمانًا أحداثًا قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم.[٢] وكان يسير في الدروب وهو يدعو الله: "اللّٰهم لا تدركني سنة ستين" أي يدعو الله أن لا يريه حكم الغلمان.[٣] واشتهر دعاؤه هذا بين الناس حتى أن الكثيرين ممن رأوا أبا هريرة بدأوا يدعون بدعائه هذا. وقد استجاب الله لدعاء أبي هريرة فتوفاه سنة ٥٩ للهجرة وفي سنة ستين للهجرة انتقل الحكم إلى غلام من الغلمان إذ تولى يزيد الحكم.

٤) عائشة وأبو هريرة رضي الله عنهما

أما ادعاء البعض بقيام أمنا عائشة رضي الله عنها بنقد أبي هريرة ومعارضته فادعاء يشبه الاستشهاد المبتور بالآيات مثل ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ﴾ (النساء:٤٣) أو ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (الماعون:٤). فأمنا عائشة رضي الله عنها كانت تصلي في غرفتها فسمعت أبا هريرة ﷺ في المسجد الملاصق لغرفتها وهو يروي الأحاديث عن الرسول ﷺ وبعدما أنهت صلاتها ذهبت لترى أبا هريرة، ولكنها لم تره لأنه كان قد انصرف، فقالت لعروة بن الزبير: ألا يعجبك أبو هريرة! جاء فجلس إلى جنب حُجرتي يحدث عن النبي ﷺ يُسمعني ذلك وكنت أسبّح[٤] فقام قبل أن أقضي سُبحتي ولو أدركته لَردَدتُ عليه أن رسول الله ﷺ لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسردكم.[٥]

والظاهر أنها كانت تريد الإشارة إلى وجوب الاقتصاد في رواية الأحاديث وعدم سردها الواحد تلو الآخر لكي يبقى أثر كل حديث من هذه الأحاديث المباركة في ذاكرة المستمعين ويُنقش فيها.

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ١١٦/٨.
[٢] البخاري، الفتن ٣؛ مسلم، الفتن ٧٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٨٨/٢.
[٣] البداية والنهاية لابن كثير، ١٢٢/٨.
[٤] أسبّح: أي أصلي نافلة.
[٥] البخاري، المناقب ٢٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦٠.

٥) أبو حنيفة وأبو هريرة

يقال أن أبا حنيفة قال بأنه لا يعد كلام ثلاثة من الصحابة حجة منهم أبو هريرة.

لا يمكن صدور مثل هذا الكلام عن مثل هذا الإمام الكبير، إذ لا يليق ذلك به أبدًا. ولو صدر منه مثل هذا الكلام لما قال العلامة الكمال بن الهُمام صاحب "الفتح القدير" الذي يعد من كبار أئمة المذهب الحنفي: إن أبا هريرة من كبار الفقهاء. أجل، إن عالمًا كبيرًا مثل ابن الهُمام لم يكن ليقول مثل هذا الكلام في حق أبي هريرة لو أن إمام مذهبه قال عنه أنه لا يقبل كلامه حجة. ثم لا يقول لنا أحد أين قال أبو حنيفة مثل هذا الكلام.

روى أبو هريرة أكثر من خمسة آلاف حديث، ولو جمعت هذه الأحاديث في كتاب لكان حجمه أكبر من حجم القرآن بمرة ونصف، وكما نعلم هناك العديد من الناس ممن حفظوا القرآن الكريم في ستة أشهر، لذا فاتهام صحابي ذكي ذي ذاكرة قوية مثل أبي هريرة ﷺ بأنه لم يكن باستطاعته حفظ كل هذه الأحاديث في ظرف أربع سنوات قضاها ملازمًا للرسول ﷺ إنما هو اتهام لصحابي كبير وذكي بالحمق. ثم إن الأحاديث التي رواها لم تكن جميعها مما سمعها عن الرسول ﷺ، بل روى الكثير من الأحاديث التي سمعها عن أبي بكر وعمر وفضل وأُبيّ بن كعب وعائشة ﷺ أجمعين.

ثم إن أبا هريرة امتحن حتى في عهده فقد أمر مروان كاتبه أن يسجل سرًا مئات من الأحاديث التي كان يرويها أبو هريرة ﷺ، وبعد مرور سنة كاملة طلب مروان من أبي هريرة أن يحدثه بتلك الأحاديث، فبدأ أبو هريرة بعد قراءة البسملة بسرد تلك الأحاديث فوجدها متطابقة مع الأحاديث التي سبق وأن استكتبها كلمةً كلمةً وحرفًا حرفًا.[1] لذا، فكما خجل متهمو أبي هريرة بالأمس فسيكون الخجل نصيب متهميه اليوم وغدًا أيضًا.

ب. حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ

ولد قبل الهجرة بأربع أو خمس سنوات، وعندما التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى كان عمره يتراوح بين ١٤- ١٥ سنة، وهذا يعني أنه في سنواته الأربعة أو الخمسة الأخيرة كان في عمر يستطيع فيه فهم ما يسمعه عن رسول الله ﷺ، وقد فهم واستوعب الشيء الكثير في هذه السنوات، فقد دعا له الرسول ﷺ قائلاً: «اللّهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل»،[2] وقد

---

[1] المستدرك للحاكم، ٣/٥٠٩-٥١٠.

[2] البخاري، الوضوء ١٠؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٣٨؛ المسند للإمام أحمد، ١/٢٦٦.

بلغ في العلم وهو في تلك السن مبلغًا لقّب معه بحبر الأمة وبحر وترجمان القرآن.[١]

كان مليحًا جميل الوجه بليغًا يسحر قلوب سامعيه، ذا قامة طويلة تقرب من مترين -مثل والده- حلو الشمائل يمثل السلالة الهاشمية أصدق تمثيل،[٢] وكان ذا ذاكرة قوية بحيث أنه استطاع أن يحفظ ثمانين بيتًا من شعر عمر بن أبي ربيعة الذي كان مطلعه:

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرٌ غداة غدٍ أم رائح فمُهَجِّرٌ

حفظ ثمانين بيتًا من هذا الشعر من سماعه له مرة واحدة فقط.[٣] وإلى جانب التفسير والفقه والحديث كان ضليعًا في الأدب والشعر ولاسيما الشعر الجاهلي، ويورد ابن جرير الطبري في تفسيره في تفسير كل آية تقريبًا بيتًا من الشعر الجاهلي أورده ابن عباس.

كان محط الأنظار في عهد أبي بكر الصديق ﷺ، أما في عهد عمر بن الخطاب ﷺ فقد أختير على الرغم من صغر سنه إلى "مجلس الشورى" الذي كان يتكون من كبار شيوخ الصحابة. وعندما استغرب بعض شيوخ الصحابة اشتراكه مع صغر سنه -مع أن لهم أبناء مثله- قرأ عمر بن الخطاب ﷺ سورة النصر في مجلس الشورى وسأل الحاضرين عن معناها، فقالوا إن معناها أنه إذا جاء نصر الله والفتح وأقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فعلينا أن نسبح بحمد الله ونشكره. ولكن عمر بن الخطاب ﷺ لم يعجبه هذا فسأل ابن عباس عن معنى الآية فقال: "هو أجل رسول الله أعلمه له، قال ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر:٣) وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر:٣)." فقال عمر ﷺ: "ما أعلم منها إلا ما تقول."[٤]

اشتهر ابن عباس بفراسته وكياسته وفطنته، وهو من نفس الشجرة المباركة التي جاء منها الرسول ﷺ، وكان يفخر بهذا وله الحق في ذلك فكان يقول: "لقد نشأنا في بيت النبوة." وكان صاحب كمالات، وعندما كان يدخل إلى مجلس يقوم الجالسون احترامًا وتوقيرًا له فكان ينزعج من هذا كثيرًا، فكان يقول للأنصار جملة أصبحت مثالاً لقاعدة في النحو وهي "بالإيواء والنصر إلا جلستم" أي أعزم عليكم بما قمتم من إيواء ونصر للنبي ﷺ وللمهاجرين أن تجلسوا.

وعلى الرغم من ذلك كان ابن عباس يمسك بركاب جواد زيد بن ثابت ﷺ عندما

---

[١] انظر: المستدرك للحاكم، ٥٣٧/٣؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٢٩١/٣.

[٢] سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٣٣/٣، ٣٣٦، ٣٥١؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٢/٨-٣٣٣.

[٣] شرح الكامل للمرصفي، ١٦٥/٧-١٦٦.

[٤] البخاري، تفسير سورة (١١٠) ٣؛ الترمذي، تفسير سورة (١١٠) ١.

يمتطي جواده فينزعج زيد بن ثابت ﷺ ويقول: لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ، فيقول ابن عباس ﷺ: "هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا." فيسرع زيد بن ثابت ويقبّل يد ابن عباس قائلاً: "وهكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا."[١]

هناك نافذة في الحياة الاجتماعية يتراءى منها كل شيء، ويشاهد من خلالها الشيء الكثير، فالشخص العظيم يكون متواضعًا، يحاول أن يخفي عظمته، أما الشخص القزم فيحاول أن يتطاول ويبدو عظيمًا فيتكبر، فالتواضع علامة عند العظام على عظمتهم، والغرور علامة الصغر عند الصغار، وكان ابن عباس عظيمًا ومتواضعًا بدرجة عظمته.

كان له طلاب في كل ساحة من ساحات العلم. وقد ذكر بعض كبار أئمة التابعين أمثال سعيد بن جبير ومجاهد بن جَبْر وعكرمة بأنهم مدينون بعلمهم إليه. ويبلغ عدد الأحاديث التي رواها هذا الصحابي الذي نشأ بالقرب من الرسول ﷺ 1600 حديثًا. لذا، ألا يُعد إثارة الشبهات حول الأحاديث التي رواها والزعم بأنها أحاديث مختلقة أخذها من كعب الأحبار.. ألا يُعد هذا الزعم تهوينًا من الدعاء الذي دعا الرسول ﷺ له وإهانة للأمة ولأئمة التابعين الذين لقبوه بحبر الأمة والبحر وترجمان القرآن؟

كان ابن عباس يكره أن يقوم له الناس، ولكن عندما دفن قام الكثيرون له من عالم الغيب، إذ يذكر سعيد بن جبير بأنه عندما دُفن تُليت هذه الآية على شفير القبر ولم يَدْرِ أحد من تلاها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٢٧-٣٠).[٢]

ج. عبد الله بن عمر ﷺ

يزعم المستشرقون خطأ أن عبد الله بن عمر كان التلميذ الآخر لكعب الأحبار، فقد كان لعمر بن الخطاب ﷺ تسعة أبناء هم: عبد الرحمن وعبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الأصغر وعبد الله وزيد الأكبر وزيد الأصغر وعبيد الله وعاصم وعياض. ولكن أطلق اسم "ابن عمر" لعبد الله فقط لأنه كان أكثر جدارة بهذا الاسم من باقي إخوته. لذا، فعندما يذكر ابن عمر لا يخطر على البال ولا يُقصد إلا عبد الله.

صحيح أنه ليس من حدّنا أن نقوم نحن بإجراء تفاضل بين الصحابة الكرام، غير أننا

---

[١] الإصابة لابن حجر، ٣٣٢/٢.

[٢] المستدرك للحاكم، ٥٤٣/٣-٥٤٤؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٨٥/٩.

نستطيع أن نقول إن عبد الله بن عمر ربما فاق والده في بعض جوانب عبادته وتقواه وطاعته والتزامه الشديد بالسنة واتباعه لها. كان شخصًا فريدًا في اتباعه العميق للسنة إلى درجة يصعب إدراكها، إذ يروي أنس بن سيرين قال: كنت مع ابن عمر بعرفات فلما كان حين راح رحت معه حتى أتى الإمامَ فصلى معه الأولى والعصر، ثم وقف معه وأنا وأصحاب النيل حتى أفاض الإمام فأفضنا معه حتى انتهينا إلى المضيق دون المأْزِمَيْن فأناخ وأنخنا ونحن نحسب أنه يريد أن يصلي، فقال غلامه الذي يمسك راحلته: إنه ليس يريد الصلاة، ولكنه ذكر أن النبي ﷺ لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته، فهو يحب أن يقضي حاجته.[١]

كان رسول الله ﷺ يشرب الماء على ثلاث دفعات،[٢] لذا، لم يشاهد أحد ابن عمر وهو يشرب الماء إلا على ثلاث دفعات. هكذا كانت درجة ارتباطه بالسنة النبوية، وهكذا كانت حساسيته في هذا الموضوع، بل ربما اعتبره البعض حتى في ذلك العهد مبالغًا في هذا الأمر، لذا فهل من الممكن أن يقوم مثل هذا الشخص برواية أي حديث للرسول ﷺ خلاف الحقيقة؟ أيمكن هذا؟

ولد في السنوات الأولى لظهور الإسلام وشاهد التعذيب الذي تعرض له والده إذ يقول: لما أسلم أبي عمر قال: أي قريش أنقلُ للحديث؟ فقيل له: جَميل بن معمر الجُمحي. قال: فغدا عليه. قال عبد الله بن عمر ﷺ فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه فقال له: أعلمتَ يا جميل أني قد أسلمتُ ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتّبعه عمر واتبعتُ أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش -وهم في أنديتهم حول الكعبة- ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ. ويقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطَلِح (أي أعيا) فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم. فبينما هم على ذلك إذ أقبل العاص بن وائل السهمي وأنقذ عمر من أيديهم.[٣]

عندما هاجر النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة كان في سن الحادية عشرة تقريبًا. وفي معركة بدر عرض مع أقرانه على رسول الله ﷺ فأخذ يتطاول ويقف على أطراف أصابعه

---

[١] المسند للإمام أحمد، ١٣١/٢.

[٢] البخاري، الأشربة ٢٦؛ مسلم، الأشربة، ١٢٢، ١٢٣.

[٣] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٧٣/١-٣٧٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٢/٣-١٠٣.

لكي يبدو كبيراً، غير أن الرسول ﷺ لم يقبل اشتراكه في القتال لصغر سنه، لأن الرسول ﷺ كان يسأل عن العمر ولا يكتفي بالنظر إلى الطول. وعرض نفسه أيضًا في معركة أُحد ولم يُقبل كذلك، فرجع هو وأقرانه وعيونهم تفيض من الدمع وقلوبهم مملوءة بالحزن، وعندما وصل إلى الخامسة عشرة عُدّ راشدًا وسمح له الرسول ﷺ بالاشتراك في معركة الخندق.[١]

ينقل ابن خَلِّكان في كتابه وفيات الأعيان هذه الحادثة عن الإمام الشعبي:

لقد رأيت عجبًا، كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان، فقال القوم بعدما فرغوا من صلاتهم: ليقم رجل رجل منكم فليأخذ الركن اليماني وليسأل الله حاجته فإنه يعطى من ساعته، قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولود ولد في الهجرة، فقام وأخذ بالركن اليماني، ثم قال: اللّٰهم إنك عظيم تُرجى لكل عظيم، أسألك بحرمة عرشك وحرمة وجهك وحرمة نبيك عليه الصلاة والسلام، أن لا تميتني حتى توليني الحجاز ويسلّم عليّ بالخلافة. وجاء حتى جلس، فقال: قم يا مصعب. فقام حتى أخذ الركن اليماني فقال: اللّٰهم إنك رب كل شيء وإليك يصير كل شيء أسألك بقدرتك على كل شيء أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سكينة بنت الحسين وجاء حتى جلس، فقال: قم يا عبد الملك. فقام وأخذ بالركن اليماني وقال: اللّٰهم رب السموات السبع ورب الأرض ذات القفر، أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك، وبحق الطائفين حول بيتك أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني شرق الأرض وغربها ولا ينازعني أحد إلا أتيت برأسه، ثم جاء حتى جلس فقال: قم يا عبد الله بن عمر، فقام حتى أخذ بالركن اليماني، ثم قال: اللّٰهم إنك رحمن رحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك، أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة.

قال الشعبي: فما ذهبت عيناي من الدنيا حتى رأيت لكل رجل ما سأل، وبُشِّرَ عبد الله بن عمر بالجنة ورؤيت له.[٢]

لم يكن ابن عمر معارضًا لآل البيت في أي وقت من الأوقات وبأي حال من الأحوال، ولم يلتزم جانب الأمويين، بل كان الحَجّاج على الأخص يخشى منه ويوجس منه خيفة.

---

[١] البخاري، المغازي ٦؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٤٣/٤.

[٢] وفيات الأعيان لابن خلكان، ٣٠/٣.

وفي إحدى المرات أطال الحَجّاج خطبته (لعله كان يريد تبرير وتسويغ إجراآته الظالمة) حتى كادت تفوت صلاة الظهر، فقام ابن عمر من مكانه وقال: أيها الرجل الصلاةَ فاقعد، إن الشمس لا تنتظرك (كررها ثلاثا). فقال للجماعة في الرابعة: أرأيتم إن نهضتُ أتنهضون؟ قالوا: نعم. فنهض فقال: الصلاةَ، فإني لا أرى لك فيها حاجة. فنزل الحجاج فصلى ثم دعا به فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إنما نجيء للصلاة فإذا حضرت الصلاة فصلِّ بالصلاة لوقتها ثم بَقْبِقْ بعد ذلك ما شئت من بقبقة.[1]

فاغتاظ منه الحَجّاج ولكنه أسرّ غيظه. وفي موسم من مواسم الحج وبينما هذا الصحابي الجليل محرم في الحرم الشريف قام أحد رجال الحجاج بطعنه في رجله برمح مسموم، وأدى جرح هذا الرمح المسموم إلى استشهاد هذا الرجل العظيم.[2]

د. عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

وعبد الله بن مسعود أحد الصحابة الذين رووا أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وهو من السابقين الأولين. كان غلاما يافعا يرعى غنما لعُقبة بن أبي مُعيط،[3] وعندما تعرف على سيد الخلق وراعيها لازمه ولم يفارقه. وكان كثير من الناس يحسبونه من آل بيت النبي ﷺ وذلك لكثرة تردده على بيت النبي ﷺ.[4] وكان يلقب بـ"صاحب النَعْلَيْن والوِساد والمِطْهرة" لأنه كان في الأسفار ينقل نعلي رسول الله ﷺ ووساده وقربة مائه.[5] كان رسول الله ﷺ يدعوه بـ"ابن أم عبد" وكان يقول: «من أحب أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزلَ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد.»[6]

ويروي أنه قال له رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ.» فقلت: آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «فإني أُحب أن أسمعه من غيري.» فقرأت سورة النساء حتى بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٤١). قال: «أمسِكْ» فإذا عيناه تَذرِفان.[7]

كان ابن مسعود نحيفًا ضامر البنية، وفي يوم أمره رسول الله ﷺ أن يصعد شجرة فيأتيه

---

[1] أسد الغابة لابن الأثير، ٣٤٤/٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٩/٤.
[2] أسد الغابة لابن الأثير، ٣٤٤/٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٨٧/٤.
[3] أسد الغابة لابن الأثير، ٣٨٥/٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٠/٣.
[4] البخاري، المناقب ٢٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ١١٠؛ الترمذي، المناقب ٣٧.
[5] البخاري، فضائل الصحابة ٢٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٣/٣.
[6] ابن ماجه، المقدمة، ١١؛ المسند للإمام أحمد، ٧/١؛ المستدرك للحاكم، ٣١٨/٣.
[7] البخاري، تفسير سورة (٤) ٩؛ مسلم، صلاة المسافرين ٢٤٧؛ الترمذي، تفسيرسورة (٤) ١١.

بشيء منها فنظر أصحابه إلى حموشة ساقيه فضحكوا منها. فقال النبي ﷺ: «مم تضحكون؟» قالوا: يا نبي الله من رقة ساقيه. فقال: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد.»[١] وعندما أرسله عمر بن الخطاب ﷺ إلى الكوفة معلمًا ومحاسبًا كتب إليهم: "إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي فخذوا منه."[٢]

بقي ابن مسعود ﷺ في الكوفة في عهد عمر بن الخطاب ﷺ. وفي الجو العلمي الذي أشاعه في الكوفة نشأ علماء أجلاء أمثال علقمة بن قيس -الذي قال أبو حنيفة في حقه: إنه ليس بدون ابن عمر في الفقه-[٣] والأسود بن يزيد النخعي وإبراهيم بن يزيد النخعي وغيرهم من كبار علماء وأئمة التابعين. وقد استقى علقمة أكثر علمه من ابن مسعود، وقد سأله أحدهم مرة: من أين استقيت هذا؟ فقال: عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود، فقال السائل: بخ بخ!!

بقي ابن مسعود في الكوفة بعضًا من عهد عثمان ﷺ، ثم استدعي إلى المدينة للتحقيق معه حول شكاية كيدية. كان قد تقدم في العمر، لذا فضل البقاء في المدينة ولم يرجع إلى الكوفة. وفي أحد الأيام جاءه رجل مسرعًا وقال له: لقد رأيت رسول الله ﷺ في منامي وكنتَ أنت جالسًا بجانبه فالتفتَ إليك، وقال بأنك قد قاسيت بعده كثيرًا، وقد آن لك أن تأتيه. فقلتَ: أجل، يا رسول الله! لن أفارق المدينة بعد الآن.

بعد مضي عدة أيام مرض ابن مسعود ﷺ الذي كان من أوائل المسلمين والذي كان من أبرز طلاب مدرسة رسول الله ﷺ فجاءه عثمان بن عفان ﷺ -الذي لازم رسول الله ﷺ وصلى معه إلى القبلتين وشهد معه معظم المشاهد- عائدا وقال له:

- ما تشتكي؟
- ذنوبي.
- فما تشتهي؟
- رحمة ربي.
- ألا آمر لك بطبيب؟
- الطبيب أمرضني.

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/١٥٥.
[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/١٥٧.
[٣] عقود الجواهر المنيفة للزبيدي، ١/١٠٢.

- ألا آمر لك بعطائك؟ -وكان قد تركه سنتين-
- لا حاجة لي فيه
- يكون لبناتك من بعدك.
- أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أَمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا».[1] وتوفي ابن مسعود ﷺ.

وقد روى ابن مسعود ﷺ ٨٠٠ حديثًا بعد ملازمة لرسول الله ﷺ دامت ثلاثًا وعشرين سنة.. والآن ما رأيكم فيمن يطعن في مثل هذا الصحابي الجليل؟

بعد أن أعطينا بعض المعلومات عن هؤلاء الصحابة الأربعة الكبار، سنعطي معلومات مختصرة جدًا عن عائشة الصديقة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك ﷺ باعتبارهم من الصحابة الذين رووا أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ لكي ننتقل بعد ذلك إلى التابعين العظام.

هـ. عائشة الصديقة رضي الله عنها

فتحت عينيها في بيت النبوة، إذ دخلت بيت النبي ﷺ بعد الهجرة بقليل وقضت مع رسول الله ﷺ عشرة أعوام. وقد تعلمت أمنا عائشة رضي الله عنها التي كانت مثال الذكاء والفطنة عن رسول الله ﷺ كل ما يتعلق من أمور تخص عالم النساء وأمورهن، ونقلت إليهن ما تعلمته دون أي تقصير. وعالم النساء مدين إلى الزوجات الطاهرات لرسول الله ﷺ بالشيء الكثير ولاسيما لأمنا عائشة رضي الله عنها التي جاء في حقها حديث ضعيف من ناحية السند وهو حديث: «خذوا شطر دينكم عن هذه الحُميراء.»[2]

ولا يوجد هناك أي مانع ولا أي استبعاد أو استغراب لقيامها برواية أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ لأنها كانت امرأة ذكية فطنة، ولها قابلية الاجتهاد. وكانت تميل إلى تحقيق كل شيء وتستقصى وتستفسر عنه. ولكون كثير من المحققين العظام كتبوا كل شيء عنها فإني أحيل القراء إليهم.

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٣/٧.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٠/٨؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص١١٦؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٣٧٤/١؛ الفوائد المجموعة للشوكاني، ص٣٩٩؛ الفردوس للديلمي، ١٦٥/٢.

و. أبو سعيد الخدري (سعد بن مالك) ﷺ

عد في زمانه أعلم العلماء ومرجع العلم في المدينة.. كان والد هذا الصحابي الفقير من أوائل الأنصار.. وبعد أن استشهد والده في معركة أُحد بقي وحده ولازم رسول الله ﷺ.[1] كان يقضي أيامه -مثله في ذلك مثل أبي هريرة ﷺ- في الصفة ويتابع الوحي النازل ويتدارسه ويعيش في فيض النبوة الأحمدية. عاش كأي صحابي آخر في رشد واستقامة ورأينا فيه هو مثل رأينا في أي صحابي جليل.

ز. جابر بن عبد الله ﷺ

هو ابن الصحابي الكبير عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري الذي شهد بيعة العَقَبة الثانية ثم كان من الشهداء الكرام لمعركة أُحد والذي واجهه الله كفاحًا -أي دون وجود حجاب بينهما- بعد استشهاده.[2] بعد بيعة العَقَبة الثانية لم يسمح له والده بالاشتراك في معركة بدر وأُحد لأن الرسول ﷺ أذن له حين ذَكر أن أباه أمره بالمقام في المدينة على إخوته[3] غير أنه بدأ بملازمة الرسول ﷺ في الحضر والسفر بعد معركة أُحد وكان من المقربين إليه،[4] لذا، فحفظه وروايته لكثير من الأحاديث النبوية شيء طبيعي وليس هناك ما يُستغرب في هذا الموضوع.

لذا، نرى الناس يتحلقون حوله عندما ذهب إلى الشام ومصر لكي يسمعوا منه أحاديث رسول الله ﷺ، كما كانت له حلقة دراسة في المسجد النبوي في المدينة. وظهر من بين طلابه علماء كبار أمثال عمرو بن دينار ومجاهد وعطاء بن أبي رباح.[5]

ح. أنس بن مالك ﷺ

خدم رسول الله ﷺ عشر سنوات كاملة.[6] ولأنه استطاع حفظ القرآن الكريم بأكمله في ستة أشهر، لذا كان باستطاعته حفظ ما يقارب عشرين ضعفًا من القرآن طوال هذه السنوات، غير أننا نرى أن مجموع الأحاديث الموجودة لدينا والتي حواها "كنز العمال"

---

[1] أسد الغابة لابن الأثير، ٣٦٥/٢؛ الإصابة لابن حجر، ٣٥/٢.

[2] الترمذي، تفسير سورة (٣) ١٨؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٣، الجهاد ١٦.

[3] البداية والنهاية لابن كثير، ٦٥/٣.

[4] أسد الغابة لابن الأثير ٣٠٧/١.

[5] الإصابة لابن حجر، ٢١٣/١.

[6] البخاري، الأدب ٣٩؛ مسلم، الفضائل ٥١؛ الإصابة لابن حجر، ٧١/١؛ أسد الغابة لابن الأثير، ١٥٢/١.

هو ٤٦٦٢٤ حديثًا فقط، علمًا بأن ذكر الأسانيد هو الذي يزيد من حجم كتب الأحاديث.

الخلاصة:لم تكن غايتنا هنا تناول حياة هؤلاء الصحابة بالشرح أو التغني بفضائلهم، بل الإشارة إلى فساد عقلية من حاول الافتراء عليهم وكيل التهم جزافًا لهم. وجهدنا هنا كان جهد المقل، وعلى أي حال فإن نية المؤمن خير من عمله.. وقد أردنا بعلمنا المتواضع هذا أن ننال شفاعتهم، ورحمة الله وسعت كل شيء.

ب) التابعون العظام

مثلما ذكر القرآن الكريم الصحابة، ذكر التابعين أيضًا. فمثلاً نقرأ الآية الآتية: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١٠٠).

تتناول هذه الآية الصحابة والتابعين، وتقول عنهم إن الله رضي عنهم وأنهم رضوا عنه. والرضا عن الله يأتي بمعنى أنه سواء أجاء من الله ضر أو نفع لهم فهم يتقبلون كل شيء عن الله تعالى برضاء كامل وتقبل تام. أي أن سلوكهم وتصرفاتهم لا تتبدل إن أعطاهم الله ملك الدنيا أو سحب هذا الملك منهم. لا يغترون إن ربحوا الدنيا وكسبوها ولايركبهم الهم والغم إن أصابتهم الخسارة والبلايا، بل يبقون على خط الاستقامة على الدوام ويستقبلون جميع المصائب وكأنها عطايا وألطاف. فالله تعالى يرضى عن أمثال هؤلاء الذين يرضون بكل ما يأتيهم من الله. لذا، يمكن القول بأن مؤشر رضا الله أو عدم رضاه عن شخص ما هو مدى رضا ذلك الشخص عن الله، فبدرجة رضا الشخص عن الله وحبه له يكون رضا الله عنه وحبه له بل يكون أكثر رضا وأكبر حبًا. لذا، حاول التابعون الكرام التشبه بالصحابة الكرام الذين انصبغوا بالصبغة المحمدية، ومحاولة اللحاق بهم في عمق علاقتهم بالله تعالى وفي عمق خشوعهم في الصلاة حيث ترتعد أبدانهم وتصفر وجوههم عندما يقفون للصلاة.

يقول الرسول ﷺ: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى من رآني.»[1] والآية السابقة تذكر أن التابعين تبعوا الصحابة الكرام بإحسان. فما معنى الإحسان؟ وما معنى الاتباع بإحسان؟

من معاني الإحسان أن تعتبر الآخرين مثلك، فتشاركهم وجدانيًا في أفراحهم وفي

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٧١/٣، ٢٤٨/٥، ٢٥٧؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٠/١٠؛ المطالب العالية لابن حجر، ١٥٦/٤؛ المستدرك للحاكم، ٨٦/٤.

آلامهم، وأن تحمل في قلبك النية الصافية والنية الحسنة، وألا تحمل في قلبك أي غل أو حقد على مؤمن، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر:١٠).

والمعنى الآخر للإحسان هو: «أن تَعْبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنّه يراك.»[1] أي أن تقوم بوظيفة عبوديتك لله وكأنك تراه، ثم يسري شعور في كيانك بأنك إن لم تكن تراه فإنه يراك ويراقب أعمالك. وإشارة القرآن الكريم إلى أن التابعين اتبعوا الصحابة بإحسان لها دلالات ومعانٍ كثيرة، ذلك لأن الفضيلة المطلقة مع كونها تعود إلى الصحابة الكرام إلا أن بعض التابعين قد يصلون في بعض الفضائل الخاصة إلى مرتبة الصحابة بل حتى قد يفوقونهم في بعض الفضائل كما قلنا وليس في كلها، وذلك على قاعدة "رجحان المرجوح على الأرجح"، وذلك لإن الله تعالى هز الناس في عهد التابعين بفتن كبيرة هزًا عنيفًا، وانتشرت نار هذه الفتن داخل كل دار تقريبًا. وقام اليهود آنذاك -كما هو ديدنهم في كل عهد- بوضع المؤامرات وتأجيج نار الفتنة، ولم يملك أصحاب القلوب النظيفة والضمائر الطاهرة أمام هذه الفتن إلا الالتجاء إلى الله تعالى وترديد قوله: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة:٤). حتى ظهر من بين هؤلاء التابعين العظام من كان يصلي في اليوم ألف ركعة ومن كان يختم القرآن في أربعة أيام، بل من يختم القرآن في ركعتين في الليل، ومن لم تفته صلاة الجماعة في حياته كلها وقضى حياته في العبادة.

ثم إن الجهاد بالسيف قلّ في عهد التابعين وأغمدت السيوف في أغمادها، وبدأ عهد "الجهاد الأكبر" وهو جهاد النفس الأمّارة للانتقال منها إلى مرتبة النفس اللوّامة ومنها إلى النفس الراضية ثم إلى النفس المَرضيّة ومنها إلى النفس المطمئنة ثم إلى النفس الصافية لكي ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (البينة:٨).

كان هذا هو ساحة كفاح التابعين وجهادهم إلى درجة أن مسروقًا عندما حج لم ينم إلا ساجدًا على وجهه حتى رجع.[2] وعندما مرض قيل له: لو أنك قصرت عن بعض ما تصنع من العبادة، قال: "والله لو أتاني آتٍ فأخبرني أن الله لا يعذبني لاجتهدت في العبادة."[3] قال

---

[1] البخاري، تفسير سورة (٣١) ٢؛ مسلم، الإيمان ٥-٧؛ أبو داود، السنة ١٦.

[2] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٩٥/٢؛ صفة الصفوة لابن الجوزي ١٤/٢.

[3] صفة الصفوة لابن الجوزي، ١٤/٢.

هذا لأن سيده الرسول ﷺ قال الشيء نفسه لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة! أفلا أكون عبدًا شكورًا؟.»[١]

كان الصحابة الكرام يطلبون من السلطان المعنوي لليَمَن "أُوَيس القَرَنِي" -الذي يُعد أكبر التابعين وأعظمهم- الدعاء لهم. ذلك لأن الرسول ﷺ قال مرة في مجلس حضره عمر بن الخطاب ﷺ أيضًا: «إن خير التابعين رجل يقال له أُوَيس. وله والدة، وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم.»[٢]

وقد تغلغل هذا الحديث في نفس عمر ﷺ إلى درجة أنه كان إذا أتى عليه أمداد[٣] أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس. فقال: أنت أُويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مُرادٍ ثم من قَرَن؟ قال: نعم. قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُوَيس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قَرَن. كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعلْ.» فاستغْفِرْ لي. فاستغفَرَ له. فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غَبْراء الناس[٤] أحب إليّ. إذن، فصحابي كبير مثل عمر ﷺ -الذي كان من المستحيل الوصول إلى كعبه في بعض الفضائل لأنه صحابي، والصحابة يأتون بعد الأنبياء- يطلب من أويس القرني الدعاء له. وكان يوصي من يذهب إلى اليمن أو إلى الحج أن يبحثوا عن أويس ويطلبوا منه الدعاء لهم. وقد انزعج أويس من شهرته هذه، لذا نراه سرعان ما يُفقد أثره ويختفي عن الأنظار بعد أن أفشى لعمر ﷺ السر الذي بينه وبين الله.[٥] اختفى عن الأنظار لأن "الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل."

هؤلاء التابعون العظام البعيدون كل البعد عن كل كذب، والمخلصون أشد الأخلاص، والذين بلغوا في الأمانة والاستقامة مرتبة عالية لا تدانى أمثال أويس القرني ومسروق وابن سيرين ومحمد بن المنكدر.. هؤلاء هم الذين نقلوا السنة إلينا.

كان محمد بن المنكدر -الذي راجعه كل إمام من أئمة الحديث- من الأواهين المنيبين،

---

[١] البخاري، تفسير سورة (٤٨) ٢؛ مسلم، صفات المنافقين ٧٩-٨١.

[٢] مسلم، فضائل الصحابة ٢٢٣-٢٢٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣٨/١، ٣٩.

[٣] الأمداد: هم الجماعة الغزاة الذين يمدون جيوش الإسلام في الغزو.

[٤] أي ضعافهم وأخلاطهم الذين لا يؤبه بهم.

[٥] مسلم، فضائل الصحابة ٢٢٥.

وكان يعرف في عصره وفي العصور التالية من بعده بلقب البَكّاء لكثرة بكائه من مخافة الله ومهابته، وكان الناس يعجبون لبكائه.. لماذا يبكي هذا الرجل الذي لم يشاهد أنه اقترف أي ذنب في حياته؟

ولكن كانت عنده في الحقيقة أمور كثيرة تستوجب البكاء: مخافة الله ومهابته، عجز العبد وفقره وضآلته أمام عظمة خالقه، وجود يوم يحاسب فيه الإنسان على ما قدمت يداه، حقيقة وجود الحشر حيث تتطاير فيه الصحف، واضطرار الإنسان للسير على الصراط فوق ألسنة نار جهنم. أجل، كان يبكي من هذا.. كان وكأنه داود عليه السلام الثاني يُسمع الإنسانية أنينه وبكاءه.

عندما حضرته الوفاة جزع جزعًا كبيرًا فسألوه عن سبب جزعه فقال: "أخشى آية من كتاب الله ﷻ قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر:٤٧) وإني أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب."[1]

كان سعيد بن جبير من تلاميذ ابن عباس.. وقد وقف مع عبد الرحمن الكندي ضد ظلم الأمويين واستشهد على يد الحَجّاج بن يوسف الثقفي الظالم. لم ينحن أبدًا أمام الباطل، لأنه كان شخصًا ربانيًا لا يهمه سوى الدار الآخرة، لذا وقف بكل جرأة في وجه الحكام الأمويين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر دون خوف أو وجل. كان راهبًا في الليل فارسًا في النهار، درس القرآن الكريم وتعلم المقاصد الإلهية من ابن عباس رضي الله عنه حبر الأمة الذي نقل إليه فهم المرشد الأكمل رسول الله ﷺ لمعاني القرآن الكريم.

وعندما أمر الحَجّاج بن يوسف بإحضاره قام سعيد بن جبير مع رجال الحجاج حتى انتهوا إلى صومعة راهب في غاب. فقال لهم راهب الصومعة: يا معشر الفرسان اصعدوا الدير، فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير، فعَجِّلوا الدخول قبل المساء. ففعلوا ذلك وأبى سعيد أن يدخل الدير. فقالوا: ما نراك إلا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكن لا أدخل منزل مشرك أبدا. قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. فقال سعيد: لا ضير إن معي ربي فيصرفها عني ويجعلها حرسا حولي يحرسونني من كل سوء إن شاء الله.

فدخلوا وتركوه في الخارج فإذا بلبوة قد أقبلت، فلما دنت من سعيد تحاكت به وتمسحت به ثم ربضت قريبا منه، وأقبل الأسد فصنع مثل ذلك، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله محمد ﷺ ففسرر له سعيد ذلك كله، فأسلم الراهب وحسن إسلامه، وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه، ويقبّلون يديه ورجليه،

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٤٦/٣.

ويأخذون التراب الذي وطئه بالليل ليصلوا عليه، فقالوا: يا سعيد، قد حلفنا الحجاج بالطلاق والعتاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نشخصك إليه، فمرنا بما شئت. قالوا: امضوا لأمركم فإني لائذ بخالقي ولا راد لقضائه.

فقالوا بجماعتهم: يا خير أهل الأرض، ليتنا لم نعرفك ولم نسرح إليك، الويل لنا ويلا طويلا، كيف ابتلينا بك؟ اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر الأكبر، فإنه القاضي الأكبر العدل الذي لا يجور. فلما فرغوا من البكاء والمجاوبة والكلام فيما بينهم قال كفيله: أسألك بالله يا سعيد لما زودتنا من دعائك وكلامك، فإنا لن نلقى مثلك أبدا ولا نرى أنا نلتقي إلى يوم القيامة. ففعل ذلك سعيد بن جبير.

فجاءوا به إلى الحجاج فقال له: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير. قال: أنت الشقي بن كُسَير؟ قال: بل كانت أمي أعلم باسمي منك. قال: شقيتَ وأمُّك. قال: الغيب يعلمه غيرك. قال: لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها. فقال: فما قولك في محمد؟ قال: نبي الرحمة إمام الهدى عليه الصلاة والسلام. قال: فما قولك في عليّ في الجنة هو أو في النار؟ قال: لو دخلتُها فرأيت أهلها عرفت من فيها. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي. قال: فأيهم أرضا للخالق؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم. قال: أبَيْتَ أن تصدقني. قال: إني لم أحب أن أكذبك. قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين، والطين تأكله النار. قال: فما بالنا نضحك؟ قال: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحَجّاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يدي سعيد بن جبير. فقال له سعيد: إن كنت جمعت هذه لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا.

ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى سعيد بن جبير. فقال: ما يبكيك؟ هو اللهو. قال سعيد: بل هو الحزن، أما النفخ فذكرني يوما عظيما يوم ينفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت في غير حق، وأما الأوتار فإنها معاء الشاء يبعث بها معك يوم القيامة. فقال الحجاج: ويلك يا سعيد. فقال سعيد: الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار. فقال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة تريد أن أقتلك؟ فقال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة. قال: أفتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر. قال: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما خرج من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده، فقال ما أضحكك؟ قال: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عنك. فأمر بالنطع فبسط، فقال: اقتلوه فقال سعيد: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٧٩). قال: شدوا به لغير القبلة. قال سعيد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة:١١٥). قال: كبوه لوجهه. قال سعيد: "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى." قال الحجاج: اذبحوه. قال سعيد: أما إني أشهد وأحاج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، فذبح على النطع رحمه الله.[١]

عن طريق مثل هؤلاء الأبطال الفدائيين الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل قضية واحدة من قضايا السنة النبوية انتقلت إلينا السنة صافية طاهرة لا يخالطها كدر.

ويمكن عد مئات آخرين من أمثال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر وأويس القرني ومسروق في هذا المجال، ولكن لما كان تناول تاريخ حياة كل عظيم من هؤلاء العظماء خارج موضوع كتابنا هذا، فإننا سنكتفي هنا بإيراد معلومات موجزة جدًا عن حياة بعض الأئمة من التابعين العظام الذين اشتهروا في ساحة الحديث.

١. سعيد بن المسيب

عندما يذكر الحديث والتفسير والفقه في عهد التابعين فإن أول اسم يتبادر إلى الأذهان هو اسم سعيد بن المسيب. ولد سنة خمس عشرة للهجرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، عرف كبار الصحابة من أمثال عثمان وعلي وسعد بن أبي وقّاص وابن عباس وابن عمر وأبي ذر وأبي الدرداء وزيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم رضي الله عنهم.

كان رجل فكر وتأمل، وإمامًا ربانيًا ذا قابلية كبيرة على الحفظ، إذ لم يكن ينسى شيئًا سمعه،[٢] دائم الابتسام، ولكن لم يضحك طوال حياته سوى بضع مرات فقط، عاش في خشية من مهابة الله وقضى عمره وكأنه واقف أمام ربه وخالقه. اشتهر بإيمانه وتقواه واستقامته وبعلمه ولاسيما بعلمه الواسع بالسنة واعترف له بذلك الجميع.

وكما أسس الحسن البصري مدرسته في البصرة في عهد الصحابة، كذلك ظهر سعيد بن

---

[١] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢٩١/٤-٢٩٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١١٦/٩-١١٧.

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٢١/٥.

المسيب في المدينة ووصل إلى مرتبة الإفتاء قبل سن العشرين من عمره،[1] وكان الصحابة ينظرون إليه بإعجاب وإكبار حتى قال عنه عبد الله بن عمر: "لو رأى رسول الله هذا لَسَرّه."[2] كان هذا هو مبلغ تقدير الصحابة له.

لم تفته صلاة الجماعة وفي الصف الأول مرة واحدة طوال خمسين سنة من عمره. إذ يقول: "ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة."[3]

هكذا كانت حساسيته وحرصه في العبادة، وكان له الحرص نفسه في اتباع السنة. فقد ورث -كغيره من التابعين- عن رسول الله ﷺ حرصه الشديد على الصلاة وعلى السنة وعلى صلاة الجماعة، ولم يبد أي كسل في هذه الأمور طوال حياته، فقد مرض مرة مرضًا شديدًا في المدينة فأوصاه الأطباء أن يذهب إلى وادي العقيق ويبقى هناك شهرًا كاملاً ليستعيد صحته فقال: فكيف أصنع بالعتمة والصبح؟[4] أي فكيف أستطيع آنذاك أن ألتحق بصلاة العشاء والصبح. وربما كان بإمكانه أداء هذه الصلوات جماعة في وادي العقيق، ولكن ذلك كان يعني حرمانه من الصلاة في الروضة الطاهرة وجفاء لساكنيها الأطهار ولساكني جنة البقيع.[5]

كان هشام بن إسماعيل والي المدينة في عهد الخليفة الوليد، فطلب منه مبايعة الخليفة الأموي فرفض ذلك، فضربه هشام ستين سوطًا وسجنه. وقد نصحه الكثير من أئمة التابعين الكبار أمثال مسروق وطاووس وطلبوا منه أن يبايعه بلسانه فقط، فأبى وقال كيف أصنع والناس ينظرون إلينا ويقلدوننا.[6]

تزوج بنتَ أبي هريرة ﷺ لكي يكون أكثر قرباً من منبع الحديث وأكثر فهماً له. وقد خطب الخليفةُ الأموي عبد الملك بن مروان بنته لابنه هشام، أي أن حاكماً قوياً يحكم دولة سعتها أكثر من سعة تركيا الحالية بـ٢٠-٣١ ضعفًا كان يريد خطبة ابنته إلى ولده الذي سيحكم هذه الدولة المترامية الأطراف. ولكنه رد هذا الطلب ولم يقبله على الرغم من جميع الضغوط. وعندما زادت الضغوط عليه أخذ بنته ذات ليلة وذهب إلى أحد طلابه

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٢٢/٤-٢٢٤؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٢١/٥.
[2] وفيات الأعيان لابن خلكان، ٣٧٥/٢؛ السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٤٨٥.
[3] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٦٣/٢.
[4] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٣٢/٥؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٦٢/٢.
[5] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٧٢/٢.
[6] طبقات الكبرى لابن سعد، ١٢٦/٥.

الفقراء وهـو ابـن أبي وداعة -وكان ينـام في المسـجد- وطلب منـه أن يتزوجها.[1]

كان هذا الإمام الكبير بعمله هذا أسوة لإمام كبير جاء بعده بعدة قرون وهو بهاء الدين النقشبندي الذي ما أن بلغت ابنته حتى أخذ بيدها وجاء بها صباحًا إلى تكيته ووجد أن الطالب الوحيد الذي أحيا ليلته هو علاء الدين العَطّار فزوجه منها.

وقد روى عن سعيد بن المسيب أئمة كبار أمثال عطاء بن أبي رباح وقتادة ومحمد الباقر -وهو من أحفاد علي ﷺ- ويحيى بن سعيد الأنصاري والزهري. وكان الإمام الشافعي يعد أحاديثه المرسلة -أي الأحاديث التي لم يذكر اسم الصحابي الذي أخذ منه- حجة،[2] أي كأنه عدّه من الصحابة. هذه هي درجة الثقة والاطمئنان الذي كان يتمتع بها سعيد بن المسيب.

إذن، فقد انتقلت إلينا أفعال الرسول ﷺ وأقواله المباركة عن طريق هذه القنوات الطاهرة، وصلت إلينا السنة المباركة عن طريق أمثال هؤلاء الناس الأمناء الذين كانوا على استعداد للتضحية بأرواحهم في سبيل حديث واحد.. هذه السنة المباركة ستنتقل من جيل إلى آخر حتى يوم القيامة إن شاء الله.

٢. علقمة بن قيس النخعي

عندما تذكر البصرة يرد إلى الذهن الحسن البصري، وعندما تذكر مكة يرد إلى الذهن اسم عطاء بن أبي رباح، وعند ذكر اليمن اسم طاووس بن كيسان، وعند ذكر المدينة اسم سعيد بن المسيب، وعند ذكر الكوفة يرد إلى الذهن اسم علقمة بن قيس النخعي. فهؤلاء هم الأئمة العظام للتابعين الذين كانوا خير خلف للصحابة الكرام.

وعلقمة ﷺ يعد من كبار أئمة الحديث إذ روى الحديث عن مئات من الصحابة الكرام وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون. وعاش قريبًا من ابن مسعود ﷺ، كما تلقى العلم عن علي بن أبي طالب ﷺ.

كان تواضعه متناسبًا مع درجة عظمته وسبقه لمعاصريه. وقُدِّر له أن يؤسس مدرسة الكوفة التي كان أبو حنيفة أحد خريجيها، لذا روى عنه جميع أئمة التابعين الذين ظهروا في الكوفة وعلى رأسهم عمرو بن شرحبيل الذي التقى بالعديد من الصحابة الكرام، وكان يقول

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٣٨/٥؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٣٤/٤.

[2] انظر: المراسيل لأبي داود ص، ٣٠؛ علوم الحديث لابن الصلاح، ص٥٣-٥٤.

لمن حوله أحيانًا: "انطلقوا بنا إلى أشبه الناس هَدْيًا وسَمْتًا بعبد الله بن مسعود."[(١)] أجل، لقد كان علقمة أشبه الناس سلوكًا بعبد الله بن مسعود الذي كان يشبه بالنبي ﷺ في هديه ودَلّه وسَمْته.[(٢)]

كان ابن مسعود رجلاً نحيفًا، ولكنه كان في صلاته وسجوده أشبه الناس برسول الله ﷺ، وكان علقمة أشبه الناس بابن مسعود، إذ كما كان الرسول ﷺ يقول: «استقرؤوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود -فبدأ به- وسالم مولى أبي حُذيفة وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل»[(٣)] كذلك كان عبد الله بن مسعود يستقرأ علقمة القرآن ويقول له: اقرأ فداك أبي وأمي.[(٤)]

وكان الإمام الكبير أبو حنيفة الذي ذاع صيت تقواه وزهده معجبًا بعلقمة، ويقول عنه بأنه قد سبق بعض الصحابة في الفقه وفي علم الحديث. وهذا ليس رأينا بل هو رأي إمام كبير مثل الإمام أبي حنيفة الذي يصعب بلوغ كعبه. ولقد شتمه أحدهم مرة شتمًا قبيحًا، فالعهد آنذاك كان عهد فتنة وابتلاء فاستمع إليه علقمة بهدوء ولم يزد في الجواب عليه إلا قراءة الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب:٥٨). قيل له مرة: أمؤمن أنت يا أبا شبل؟ قال: أرجو.[(٥)]

وقف أمام جميع أنواع الباطل في عهده، ولم يمالئ حكام الأمويين الظالمين، بل حافظ على كرامة الحديث، بل صرف حياته على تنشِئة طلابه في الكوفة من أمثال الأسود بن يزيد النخعي وإبراهيم النخعي وحمّاد بن أبي سليمان شيخ الإمام أبي حنيفة واستاذه، وعشرات غيرهم. فكما تلقى الحديث عن مئات من الصحابة كذلك روى عنه الحديث المئات من التابعين. لذا، فهو يعد منشئ مدرسة الكوفة التي خرجت أئمة وعلماء عظماء أمثال النخعي والثوري وأبي حنيفة.

٣. عروة بن الزبير بن العَوّام

كان والده الزبير بن العَوّام ابن صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ التي كان النبي ﷺ يفتخر بها.[(٦)] وكان من كبار صحابة رسول الله ﷺ ومن العشرة المبشرين بالجنة. أما

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٨٦/٦؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٩٨/٢.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٨٦/٦.
(٣) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ١١٨.
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٩٠/٦؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٩٩/٢.
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٨٦/٦؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٠٠/٢.
(٦) البخاري، فضائل أصحاب النبي ١٣.

والدته فهي أسماء أخت السيدة عائشة رضي الله عنها وابنة أبي بكر ﷺ، فكان عروة سليل مثل هذه العائلة الكريمة، فكما كانت أمه تقضي معظم وقتها مع أختها عائشة رضي الله عنها كذلك نشأ عروة في حجر خالته وتعلم منها معنى كل آية ومعنى كل حديث يستفسر منها عنه حتى أصبح مستودع علم. كما استفاد من علم سعيد بن المسيب الذي كان يكبره بسبع أو ثماني سنوات.

ويعد عروة بن الزبير أحد الفقهاء السبعة في عهده. وكل الأحاديث التي روتها أمنا عائشة رضي الله عنها جاءت إلينا عن طريقه، كما روى الحديث عن كثير من الصحابة الكرام أمثال علي بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس وأبي أيوب الأنصاري ﷺ أجمعين. كما أخذ عنه مئات من التابعين أمثال قتادة بن دِعامة وابن شهاب الزهري ويحيى بن سعيد الأنصاري وزيد بن أسلم.

كان عروة -مثله في ذلك مثل غيره من كبار الأئمة- تقيًا ورعًا وزاهدًا من مشاهير الزهاد. كان ربانيًا بكل ما في هذه الكلمة من معنى. وعندما تقدم به العمر أصيبت أحدى ساقيه بداء الأكَلَة فلم يجد الأطباء أمامهم سبيلاً سوى التوصية بقطعها، فتردد عروة، ولكن العلة انتشرت فلم يجد بدًا من الرضا بقطعها، وعندما بدأوا بقطع رجله بالمنشار لم يتأوه أبدًا بل أكتفى بترديد ما قاله موسى ﷺ في سفره للقاء الخضر ﷺ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (الكهف:٦٢). ثم دعا بقدمه التي قطعت فقلّبها في يده ثمّ قال: "أما والذي حملني عليكِ إنَّه لَيعلمُ أنِّي ما مَشيتُ بكِ إلى حَرَامٍ أو معصيةٍ."[١]

ودخل ابن له الإسطبل يومًا فرفسته دابة فقتلته، فلما سمع عروة بالنبأ قال: "اللّهم إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت ثلاثة، فلك الحمد. وكان لي بنون أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد، وايم الله لئن أخذت فقد أبقيت ولئن أبليت طالما عافيت."[٢] كان عروة حلقة ذهبية من تلك السلسلة الذهبية التي ﷺ وأرضاهم.

٤. محمد بن مسلم بن شهاب الزهري

كان ابن شهاب الزهري الذي يرجع إليه ربع السنة قرشيًا وكان من أصغر التابعين سنًا. خاصم والده مسلم الأمويين ووقف في وجه الحَجّاج، لذا كرهه الأمويون. لذا، فلم يكن

---

[١] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٧٨/٢.

[٢] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٧٩/٢.

ابن شهاب الزهري من أنصار الأمويين كما ادعى البعض، بل كان شخصًا يرتاب فيه الأمويون ويتوجسون منه خيفة.

حفظ الزهري القرآن الكريم قبل أن يبلغ السابعة من عمره.. أتدرون في كم يوم حفظه؟ لقد حفظه في ثمانية أيام فقط! وفي سن ١٧-١٨ من عمره بلغ مرتبة الاجتهاد والفتوى. وكان مفرط الذكاء حتى أنه قال: "ما استودعت قلبي شيئًا قط فنسيته."[1] لم ينس شيئًا مما تعلمه، ذلك لأن عهده كان عهد تعليم بكل ظروفه وشروطه. إذ حضر في البداية حلقة تدريس سعيد بن المسيب مدة ثمانية أعوام. كما أخذ دروسًا من عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة الذي كان أحد ثلاثة ممن ربوا عمر بن عبد العزيز كما كان يُعد أحد الفقهاء السبعة المشهورين آنذاك. وقال عن نفسه: "مكثت خمسًا وأربعين سنة أختلف من الحجاز إلى الشام ومن الشام إلى الحجاز، فما كنت أسمع حديثًا أستطرفه."[2]

كان في استطاعته طبعًا في ظرف هذه السنوات الطويلة (٤٥ سنة) أن يحفظ من الأحاديث ومن العلم ما يزيد على حجم القرآن الكريم بعشر مرات، وليس ما روى من الأحاديث التي بلغ حجمها حجم قرآن ونصف فقط، علمًا بأن الزهري كان قد وهب نفسه للحديث.

وقد وصمه البعض بمداهنة الأمويين، وليس هذا صحيحًا إذ لم يعرف المداهنة، ولم يعرف أبوه مسلم بن عبيد الله المداهنة أيضًا لأنه كان امرءً أسلم أمره إلى الله تمامًا، ووقف بجانب عبد الله بن الزبير مجاهدًا الأمويين. وعندما التقى الخليفة عبد الملك بن مروان مع الزهري لأول مرة أشار إلى موقف والده وعاتبه.

صحيح أنه بقي فترة في قصور الأمويين إذ قام بتربية أولاد هشام وتعليمهم، ولم يكن هذا خطأً بل كان خطوة مهمة في سبيل إرشاد هؤلاء الأبناء -الذين سيمسكون بزمام الدولة في المستقبل- إلى الصراط المستقيم وإلى السنة النبوية، وكان هذا من أهم الخدمات التي قدمها الإمام الزهري فأصبح أسوة وقدوة لمن يأتي بعده.

كان الأمويون يشنعون على علي بن أبي طالب ﷺ حتى أنهم أوّلوا الآية التي نزلت لتبرئة أمنا عائشة رضي الله عنها من حديث الإفك وهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:١١).

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٦٤/٣؛ تذكرة الحفاظ للذهبي، ١٠٩/١.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٣٧٥/٩.

أوّلوا هذه الآية فقالوا إن المقصود من "الذي تولى كبره" هو علي بن أبي طالب ﷺ، ولكن الزهري عارض هذا التفسير ولم يرض عن هذا البهتان في حق عليّ ﷺ. لنقرأ الحادثة بلسان الزهري: كنت عند الوليد بن عبد الملك فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُم لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: نزلت في علي بن أبي طالب. قال الزهري: أصلح الله الأمير، ليس كذا أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها، قال: وكيف أخبرك؟ قال: أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول المنافق.[1] وعندما رأى أن الأمير قد احتد في كلامه وبدأ ينظر إليه شزرًا قال: "لا أبا لك فوالله لو ناداني منادٍ من السماء أن الله قد أحل الكذب ما كذبت."[2] أجل، إن الشخص المقصود في الآية الكريمة هو عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول المنافق وليس علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

أجل، لم يكن الزهري مداهنا للأمويين على الإطلاق، بل يعد الشخص الذي أدخل حب آل البيت إلى قصر الأمويين. والأمر واضح تمامًا، فكما كان أحد علماء الشيعة وهو أبو جعفر الأسكافي أول من اتهم أبا هريرة بالكذب، كذلك كان اليعقوبي -وهو أحد مؤرخي الشيعة- أول من اتّهم الزهري بوضع الحديث. إذ زعم أن عبد الملك بن مروان أراد أن يمنع المسلمين من الطواف حول الكعبة فقام بتعمير المسجد الأقصى في القُدس ورجا من الزهري أن يختلق له حديثًا في هذا الموضوع، فقام الزهري باختلاق الحديث التالي الذي ورد في كتب الحديث الصحاح أمثال صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند بن حنبل: «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي هذا.»[3]

أليس هذا الادعاء مدعاة للسخرية بشكل واضح؟ إذ لا يوجد لا في تاريخ اليهود ولا في تاريخ النصارى أن المسجد الأقصى كان يطاف حوله مثل المسجد الحرام، ولا يوجد أي نص حول هذا. ثم إن المسجد الأقصى كان مقدسًا لدى المسلمين منذ البداية، وقد صرح القرآن الكريم بأن المسجد الأقصى وما حوله مبارك، لذا فلم يكن عبد الملك هو الشخص الوحيد الذي قام بتعميره، بل نرى النبي داود ﷺ والنبي سليمان ﷺ وعمر بن الخطاب ﷺ ونور الدين الزنكي وصلاح الدين الأيوبي من بين الذين قاموا بتعميره وتجديده. ثم إن الإمام الزهري لم يقابل الخليفة عبد الملك عندما رأى الحديث ولم يلتق به، لأن والده كان

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٦٩/٣؛ مختصر "تاريخ دمشق لابن عساكر" لابن منظور، ٢٤٠/٢٣.

[2] مختصر "تاريخ دمشق لابن عساكر" لابن منظور ٢٤٠/٢٣.

[3] البخاري، الصوم ٦٧؛ مسلم، الحج ٥١١.

يحارب عبد الملك بجانب عبد الله بن الزبير، لذا لم يكن من المعقول ولا من المنتظر أن يفارق الزهري أباه ويلتحق بعبد الملك. ثم إن هذه الفرية لم ترد إلا في كتاب اليعقوبي، وهذا أمر مهم يجلب الانتباه، إذ لم يكن من الممكن أن تبقى هذه الحادثة سرًّا في عهد التابعين، أي في عهد كان هناك آلاف من الرجال مستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل أصغر مسألة من مسائل السنة النبوية.

هناك أمر آخر في هذا الموضوع وهو أن عبد الملك لم يكن إنسانًا ساذجًا إلى حد تقديم مثل هذا الاقتراح الغريب. فقبل خلافته كان عالمًا من علماء الحديث في مكة المكرمة، ولا يخطر بباله اقتراف أي حرام، وكان يعرف أئمة الحديث من التابعين، ولكنه لم يستطع المحافظة على حساسيته هذه بعد تنصيبه خليفة. أما الإمام الزهري فقد كان لا يزال طفلاً في حجر والدته في تلك الفترة.

وقد تلقف المستشرق "غولتسهر" فرية اليعقوبي هذه واستغلها واستعملها مع الأسف، وسرت هذه التهمة إلى بعض الكتاب المسلمين ممن انذهلوا أمام الغرب وانبهروا به أمثال أحمد أمين وعلي حسن عبد القادر وأبي ريّة، وقد فضل المستشرقون أمثال جولد تسهير وغيره نبذ الكتب التي تعد المنابع والمصادر الرئيسة للحديث ولعلم الحديث وتوجهوا إلى كتب أدبية ماجنة أمثال "العِقد الفريد" و"الأغاني" مع أن أسماء هذه الكتب تغني عن كل تعليق. وكانت غايتهم من تلويث سمعة أبي هريرة وابن شهاب الزهري وغيرهما من أعمدة الحديث وحاملي لوائه هدم السنة وبالتالي هدم ركن مهم في الإسلام، لذا نعد من تابع هؤلاء المستشرقين قديمًا ومن يتابعهم حاليًا في هذا الموضوع أشخاصًا يخدمون هذه الغاية سواء عن علم وتصميم أو عن جهل وانخداع.

كان الزهري إمامًا كبيرًا من أئمة الحديث، وقد أجمع علماء الحديث العظام الذين جاءوا من بعده على هذا من أمثال ابن المديني وابن حِبّان وابن أبي حاتم والحافظ الذهبي وابن حجر. وبعد وفاة هذا الإمام الكبير وجد علماء المعتزلة أمثال النظّام -الذين خلطوا عقيدتهم في التوحيد ببعض الفلسفات المادية- الساحة فارغة أمامهم فجالوا فيها وصالوا. وعندما قام جولدتسهير وأمثاله من المستشرقين بالاستناد إلى أفكار النظّام وكتب تلميذه الجاحظ مثل "كتاب الحيوان" فقد أثبتوا أنهم لا يدركون طريقة البحث العلمي الجاد والرزين.

أخذ الإمام الزهري الحديث عن عشرات من الصحابة، وأخذ عنه الحديث المئات من

أعلام التابعين وتابعي التابعين، وقام بطلب من الخليفة عمر بن عبد العزيز بأول تدوين رسمي للحديث، فنال هذا الشرف الكبير قبل ارتحاله إلى الدار الآخرة.

وأنا أفضل أن أختم الموضوع هنا، وإلا فقد كان في استطاعتنا التحدث عن كثير من عظماء التابعين من أمثال القاسم بن محمد بن شقيق أمنا عائشة رضي الله عنها والذي يعد أحد الفقهاء السبعة ورأس السلسلة النقشبندية، وعن نافع شيخ الإمام مالك الذي ولد من مرجانة جارية بن عمر الذي عندما سمع آية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران:٩٢)، قال: فذكرت ما أعطاني الله ﷻ فلم أجد شيئًا أحب إلي من مرجانة جارية لي رومية إذ أعتقها وزوجها.[1] والتحدث عن طاووس بن كيسان الذي صلى صلاة الصبح أربعين عامًا بوضوء صلاة العشاء،[2] وعن الأسود بن يزيد النخعي وعن الإمام أبي حنيفة الذي يروى أنه قابل بعض الصحابة[3] وعن غيرهم.. كان بإمكاننا تناول هؤلاء بالبحث لولا أننا رأينا أن ما ذكرناه يكفي من ناحية الموضوع الذي تناولناه.

---

[1] مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٢٦/٦.

[2] أي أنه بقي أربعين سنة يتعبد في الليل بدءاً من صلاة العشاء حتى صلاة الفجر. (المترجم) وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٢/٥.

[3] سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٩١/٦؛ وفيات الأعيان لابن خلكان، ٤٠٦/٥.

الختام

القرآن الكريم والسنة النبوية ركنان أساسيان من أركان الإسلام، ولا يمكن تصور الإسلام من دون السنة ومن دون الحديث، فالسنة التي هي عبارة عن أحاديث وأفعال وما أقره الرسول ﷺ حفظت ونقشت في القلوب وفي الأذهان منذ عهد الرسول ﷺ ثم حفظت بالتدوين والكتابة. وقام الصحابة الكرام بتنظيم حياتهم وفق هدي السنة ثم نقلوها كما هي دون زيادة أو نقصان إلى التابعين العظام الذين عاشوا عهد فتنة كبيرة لذا، أسسوا حياتهم على الزهد والتقوى، واعتصم الأئمة التابعون العظام -الذين بلغ عددهم الآلاف- بركني الإسلام الهامين وهما القرآن والسنة، حيث نقلوهما إلى الأجيال التي جاءت من بعدهم نقية طاهرة. وكان أهل هذه القرون الثلاثة، أي قرن الصحابة ثم التابعين ثم تابعي التابعين خير القرون حسبما أخبرنا النبي ﷺ.[1]

يروي جابر بن عبد الله ﷺ عن الرسول ﷺ: «فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهُدى هُدَى[2] محمدٍ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة.»[3] والآن إليكم بعض الإشارات النورانية في هذا الموضوع: قال الرسول ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلاّ من أبى.» قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى.»[4] ويقول أيضًا: «إنما مَثَلي ومَثَلُ أمتي كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الدوابّ والفراشُ يقعنَ فيه، فأنا آخذُ بحُجَزِكم وأنتم تَقَحَّمُون فيه.»[5]

ويقول أيضًا: «لا ألفينّ أحَدَكم مُتَكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه.»[6] ونجد في رواية أبي داود التكملة التالية: «ألا إني أُوتيتُ الكتابَ ومثله معه.» أي لقد أعطيت السنة كذلك.

---

[1] البخاري، فضائل أصحاب النبي ١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢١٠-٢١٢.

[2] وضُبط بفتح الهاء وسكون الدال والمعنى "أحسن الطرق". أما الْهُدى فمعناه الإرشاد والدلالة.

[3] مسلم، الجمعة ٤٣؛ النسائي، العيدين ٢٢؛ ابن ماجه، المقدمة، ٧؛ أبو داود، السنة ٥.

[4] البخاري، الاعتصام ٢؛ مسلم، الإمارة ٣٢.

[5] البخاري، الرقاق ٢٦؛ مسلم، الفضائل ١٧، ١٨.

[6] أبو داود، السنة ٥؛ ابن ماجه، المقدمة، ٢؛ الترمذي، العلم ١٠.

ويقول أيضًا: «فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدَثات الأمور، فإن كلّ مُحْدثةٍ بدعةٌ وكُلّ بدعةٍ ضلالةٌ.»[1]

وفي رواية وردت في موطأ الإمام مالك -الذي يدخله البعض ضمن الكتب الستة للأحاديث الصحيحة بدلاً من سنن ابن ماجه- عن الرسول ﷺ أنه قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما مَسَكتم بهما: كتاب الله وسُنّة نبيه.»[2]

هذه هي السنة عند الله تعالى وعند رسوله الكريم ﷺ.

فإذا كانت هذه هي الحقيقة، وإذا كانت السنة النبوية تقوم منذ أربعة عشر قرنًا بهداية المسلمين وإنارة الطريق أمامهم والقيام بوظيفة الجسر الموصل إلى رضا الله تعالى، وإذا كانت قد انتقلت منذ عهد الرسول ﷺ -مثل القرآن الكريم- شفاهًا وتدوينًا من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا فإننا نسأل الذين يحاولون اتهامها وتلويثها من أتباع المستشرقين من الذين لم يملكوا العلم الصحيح والعلم الكافي.. نسألهم بلسان القرآن الكريم: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (التكوير:٢٦). أجل، فأين تذهبون؟

تم كتاب "النور الخالد"
والحمد لله أولاً وآخرًا.

---

[1] الترمذي، العلم ١٦؛ ابن ماجه، المقدمة، ٦؛ أبو داود، السنة ٥.
[2] الموطأ، القدر ٣.

المصادر

القرآن الكريم

«أسد الغابة» (١-٧) لابن الأثير مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، كتاب الشعب، قاهرة ١٩٧٠ م.

«أصول السرخسي» (١-٢) لأبي بطر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٣ م.

«أعلام النساء» (١-٥) لعمر رضا الكحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت.

«الأدب المفرد» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخـــاري، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٩٨٩ م.

«الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» لعلي القاري، المكتبة الإسلامي، بيروت ١٩٧١ م.

«الأعلام قاموس تراجم» (١-٨) لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦ م.

«الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ» أحمد بن المبارك، دار الفكر.

«الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (١-١٨) [تأليف: أبو حاتم محمد بن حبان البُستي -بترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلباني الفارسي- تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرنؤط]، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨ م.

«الإصابة» (١-٤) لابن حجر العسقلاني، دار صادر، بيروت ١٣٢٨ هـ.

«الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» لأحمد محمد شـــاكر، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٨ هـ.

«البداية والنهاية» (١-١٤) لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨ م.

«تأويل مختلف الحديث» لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥ م.

«تاريخ الأمم والملوك» (١-١٣) للطبري، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧ م.

«تاريخ بغداد أو مدينة السلام» (١-١٩) لأبي بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغـــدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

«**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**» (١-١٠) لعبد الرحمن بن عبد الرحيم **المباركفوري**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠ م.

«**تذكرة الأولياء**» (باللغة التركية) ل**فريد الدين العطار** [مترجم: سليمان أولوداغ]، نشريات أردم، إستانبول ١٩٩١ م.

«**الترغيب والترهيب**» (١-٥) **للمنذري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٨ م.

«**تفسير القرآن العظيم**» (١-٨) لأبي الفداء إسماعيل **بن كثير**، دار قهرمان للنشر والتوزيع، إستانبول ١٩٨٤ م.

«**تفسير النسفي**» (١-٤) أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود **النسفي**، دار قهرمان للنشر والتوزيع، إستانبول ١٩٨٤ م.

«**تهذيب التهذيب**» (١-١٤) لأحمد بن علي **بن حجر العسقلاني**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٤م.

«**جامع البيان في تفسير القرآن**» (١-٣٠) لأبي جعفر محمد بن جرير **الطبري**، شركة مكتبة، بيروت ١٩٦٨ م.

«**جامع كرامات الأولياء**» (١-٢) ليوسف بن إسماعيل **للنبهاني**، شركة مكتبة، مصر ١٩٨٤ م.

«**الجامع لأحكام القرآن**» (١-٢٠) **للقرطبي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨ م.

«**حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين**» ليوسف بن إسماعيل **النبهاني**، دار الفكر، بيروت.

«**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**» (١-١٠) لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الإصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧ م.

«**حياة الصحابة**» (١-٤) محمد يوسف **الكاندهلوي**، دار القلم، بيروت ١٩٨٣ م.

«**الخصائص الكبرى**» (١-٣) **للسيوطي**، دار الكتب الحديثة، مصر ١٩٦٧ م.

«**الدر المنثور**» (١-٨) لجلال الدين **السيوطي**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٣ م.

«**الدولة الأموية**» لمحمد **الخضاري**، دار القلم، بيروت ١٩٨٦ م.

«**الرحلة في طلب الحديث**» لأبي بكر أحمد بن ثابت **الخطيب البغدادي**، تحقيق وتعليق: نور الدين عتر، دار المتب العلمية، بيروت ١٩٧٥ م.

«**الرسول**» (١-٢) ل**سعيد حوى**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧١ م.

«**دلائل النبوة**» (١-٧) لأبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م.

«**رجال حول الرسول**» لخالد محمد خالد، دار الفكر، دمشق ١٩٩٤ م.

«**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والمثاني**» (١-٣٠) لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود **الآلوسي**، دار إحياء التراثي العربي، بيروت ١٩٨٥ م.
«**زاد المعاد في هدي خير العباد**» (١-٥) **لابن قيم الجوزية**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٠ م.
«**سنن ابن ماجه**» (١-٢) **لابن ماجه**، دار إحياء كتب العربية، مصر ١٩٥٢ م.
«**سنن أبو داود**» (١-٤) **لأبي داود** سليمان بن أشعث السجستاني، المكتبة الإسلامية، إستانبول.
«**سنن الترمذي**» (١-٥) لأبي عيسى محمد بن عيسى **الترمذي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
«**سنن الدارمي**» (١-٢) لعبد الله بن عبد الرحمن **الدارمي**، دار كتاب العربي، بيروت ١٩٨٧م.
«**السنن الكبرى**» (١-١٠) لأبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي**، مطبعة دائرة المعارف، حيدر آباد ١٣٥٥ هـ.
«**سنن النسائي**» (١-٨) **للنسائي**، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٢ م.
«**السنة قبل التدوين**» **لمحمد عجاج الخطيب**، دار الفكر، دمشق ١٩٨١ م.
«**سير أعلام النبلاء**» (١-٢٥) لمحمد بن عبد الله بن عثمان **الذهبي**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢ م.
«**السيرة النبوية**» (١-٤) **لابن هشام**، دار القلم، بيروت.
«**شرح فتح القدير للعاجز الفقير**» (١-٩) لكمال الدين **محمد بن عبد الواحد**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
«**شرح معاني الآثار**» (١-٤) لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك ابن سلمة الأزدي الحجري **الطحاوي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧ م.
«**الشفاء بتعريف حقوق المصطفى**» (١-٢) لأبي الفضل **القاضي عياض**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨ م.
«**الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**» لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٩٩٢ م.
«**الصحيح**» (١-٤) **لابن خزيمة** [تحقيق، تعليق وتخريج: مصطفى الأعظمي]، المكتبة الإسلامي، بيروت ١٣١٢هـ/١٩٩٢م.
«**صحيح البخاري**» (١-٨) لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل **البخاري**، المكتبة الإسلامية، إستانبول ١٩٧٩ م.

«صحيح مسلم» (١-٥) لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، المكتبة الإسلامي، إستانبول.

«صفة الصفوة» (١-٢) لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، دار بن خلدون، قاهرة ١٩٩٤م.

«صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم» لبديع الزمان سعيد النرسي، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٥ م.

«الطبقات الكبرى» (١-٨) لابن سعد، دار صادر، بيروت ١٩٦٠ م.

«علوم الحديث» لابن الصلاح [تحقيق وشرح: نور الدين عتر]، دار الفكر، دمشق ١٩٨٦ م.

«عمدة القاري شرح صحيح البخاري» (١-٢٠) لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، شركة مكتبة، مصر ١٩٧٢ م.

«فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١-١٣) لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٩ م.

«الفتح الكبير في ضم زيادة إلى الجامع الصغير» (١-٣) لجلال الدين السيوطي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٣٢ م.

«في ظلال القرآن» (١-٦) لمحمد سيد قطب، دار الشروق، بيروت ١٩٨٦ م.

«فيض القدير شرح جامع الصغير» (١-٦) لمحمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي، دار المعرفة، بيروت ١٣٥٧ هـ.

«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» لمحمد بن علي الشوكاني، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٢ هـ.

«الكامل في التاريخ» (١-١٢) لابن الأثير مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، دار صادر، بيروت ١٩٦٧ م.

«كتاب التاريخ الكبير» (١-١١) لأبي عبد الله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري، دار الفكر، بيروت ١٩٨٦ م.

«كتاب الفقه على المذاهب الأربعة» (١-٥) لعبد الرحمن الجزيري، دار الدعوة، إستانبول ١٩٨٧ م.

«كتاب المغازي» (١-٣) لمحمد بن عمر بن واقد السهمي الواقدي، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٤ م.

«كتاب فضائل الصحابة» (١-٢) للإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣ م.

«**الكشاف**» (١-٤) لأبي القاسم جار محمود بن عمر **الزمخشري** الخوارزمي، شركة مكتبة، مصر ١٩٧٢ م.
«**كشف الخفاء ومزيل الإلباس**» (١-٢) لإسماعيل بن محمد **العجلوني**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م.
«**الكفاية في علم الرواية**» لأبي بكر أحمد بن ثابت **الخطيب البغدادي**، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨ م.
«**الكلمات**» لبديع الزمان **سعيد النرسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٢ م.
«**كنز العمال**» (١-١٨) لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي **الهندي**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦ م.
«**اللمعات**» لبديع الزمان **سعيد النرسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٣ م.
«**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**» (١-١٠) لنور الدين علي بن أبي بكر **الهيثمي**، دار كتاب العربي، بيروت ١٩٦٧ م.
«**مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**» (١-٢٩) لمحمد بن مكرم المعروف بابن منظور، دارالفكر، دمشق ١٩٨٤ م.
«**مختصر تفسير بن كثير**» (١-٣) لمحمد علي **الصابوني**، دار القرآن العظيم، بيروت ١٩٨١ م.
«**المستدرك**» (١-٥) لأبي عبد الله **الحاكم** النيسابوري، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٦ م.
«**المسند الفردوس**» (١-٥) لأبي شجعة شراويه بن شهردار **الديلمي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦ م.
«**المسند**» (١-٨) للإمام **أحمد بن حنبل**، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣ م.
«**المسند**» لأبي داود **الطيالسي**، دار المعرفة، حيدر آباد ١٣٣١ هـ.
«**المصنف في الأحاديث والآثار**» (١-٨) لعبد الله بن محمد **بن أبي شيبة**، [تحقيق: سعيد محمد اللحام]، دار الفكر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٩م.
«**المطالب العالية**» (١-٤) **لابن حجر** العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.
«**معرفة علوم الحديث**» للحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م..
«**مفاتيح الغيب**» (١-٣٢) لفخر الدين **الرازي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
«**المكتوبات**» (١-٢) **للإمام الرباني** أحمد الفاروقي السرهندي، نشريات الفضيلة، إستانبول.

«**المكتوبات**» لبديع الزمان **سعيد النرسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٢ م.
«**منهل الواردين شرح رياض الصالحين**» (١-٢) لصبحي صالح، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٠ م.
«**ميزان الإعتدال**» (١-٤) لمحمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي**، دار إحياء التراثي العربي، بيروت ١٩٦٣ م.
«**الموطأ**» (١-٢) **للإمام مالك** بن أنس، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥ م.
«**نفحات الأنس**» **لعبد الرحمن ملا جامع** [مترجم وشارح: لامعي جلبي]، نشريات المعرفة، إستانبول ١٩٩٥ م.
«**الهداية**» (١-٤) **للمرغناني**، دار قهرمان للنشر والتوزيع، إستانبول ١٩٨٦ م.
«**هدي الساري**» لأحمد بن علي **بن حجر العسقلاني**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٩ م.
«**وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان**» (١-٨) لمحمد بن أبي بكر **بن خلكان**، دار صادر، بيروت ١٩٧٧ م.

فهرس

تمهيد: النبي المرسل رحمة للعالمين

القسم الأول

الأنبياء والرسل

القسم الثاني

النبي ﷺ مربيــــاً

القسم الثالث

لا مثيل لرسول الله ﷺ في حلّ المعضلات

القسم الرابع

الجانب العسكري للرسول ﷺ

القسم الخامس

عصمة الأنبياء (عليهم السلام) وعصمة نبينا ﷺ

ملحق: السنة النبوية تقييدها ومكانتها في الشريعة الإسلامية

الكتب المترجَمةإلى العربية من موسوعة فضيلة الشيخ فتح الله كولن

١- النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية

٢- القدر في ضوء الكتاب والسنة

٣- أسئلة العصر المحيّرة

٤- روح الجهاد وحقيقته في الإسلام

٥- طرق الإرشاد في الفكر والحياة

٦- أضواء قرآنية في سماء الوجدان

٧- الموازين أو أضواء على الطريق

٨- تراليم روح وأشجان قلب

٩- ونحن نقيم صرح الروح

١٠- حقيقة الخلق ونظرية التطور

١١- التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح


منتدى إقراء الثقافي